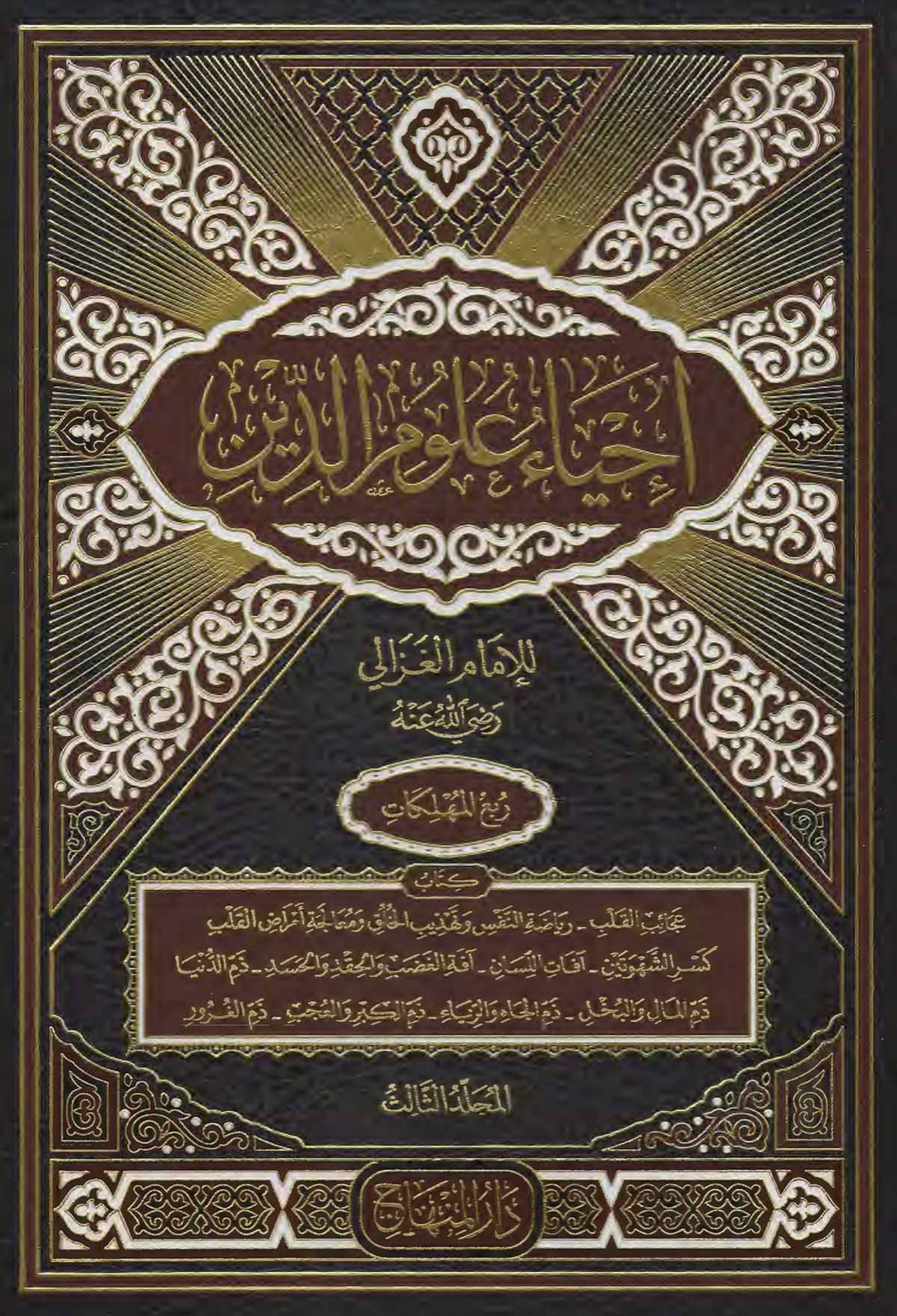

إحياء علوم الدين
للإمام الغزالي
رضي الله عنه
ربع المهلكات
كتاب
عجائب القلب - رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب
كسر الشهوتين - آفات اللسان - آفة الغضب والحقد والحسد - ذم الدنيا
ذم المال والبخل - ذم الجاه والرياء - ذم الكبر والعجب - ذم الغرور
المجلد الثالث
دار المنهاج

الإصدار الثاني - الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
جميع الحقوق محفوظة للناشر



المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع الملك فهد - جانب البنك الفرنسي
هاتف رئيسي 00966 12 6326666
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 62 - 018 - 3

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

ربع المهلكات

كتاب

عجائب القلب ـ رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

كسر الشهوتين ـ آفات اللسان ـ آفة الغضب والحقد والحسد ـ ذم الدنيا

ذم المال والبخل ـ ذم الجاه والرياء ـ ذم الكبر والعجب ـ ذم الغرور

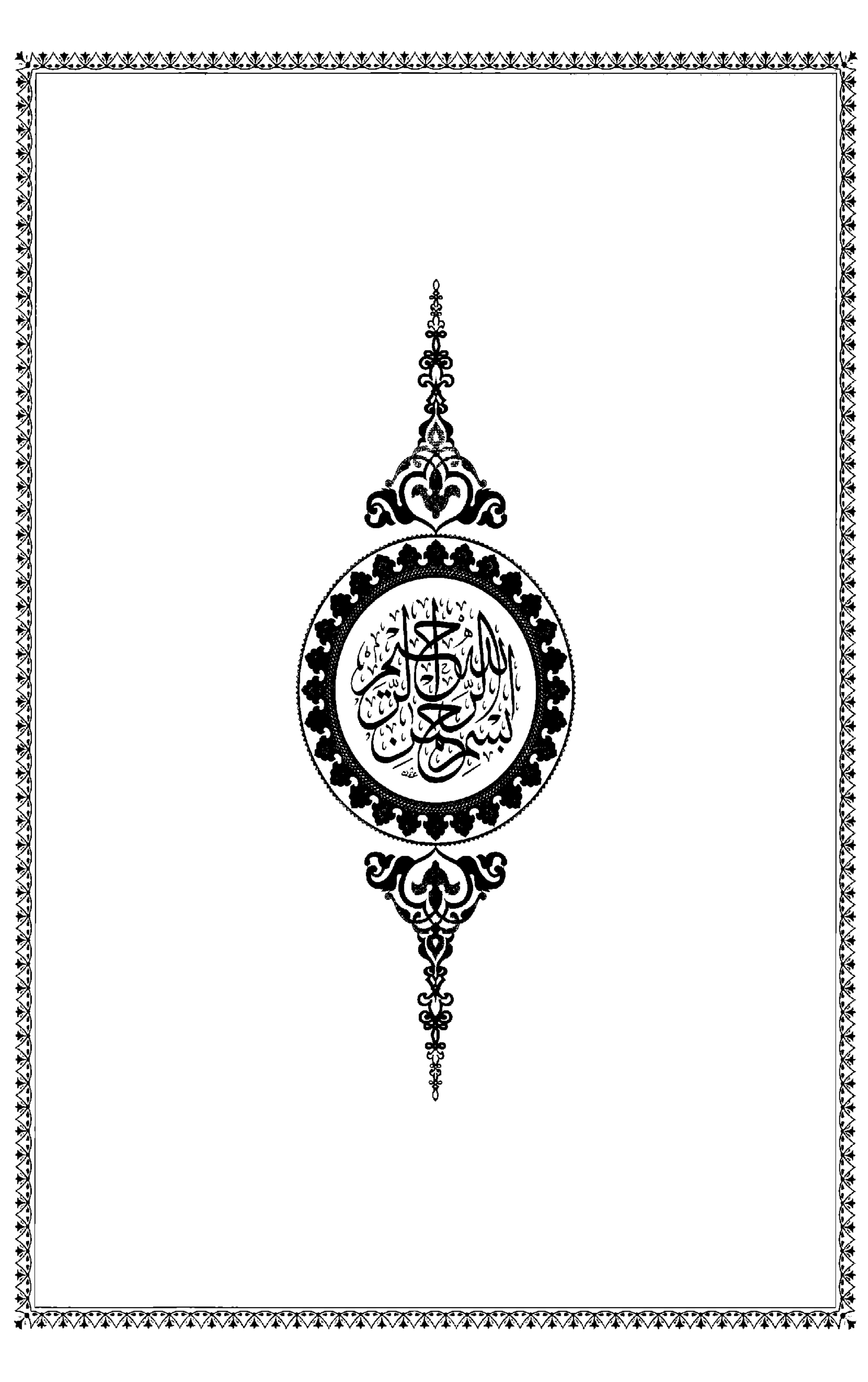
تشرف بخدمته والعناية به

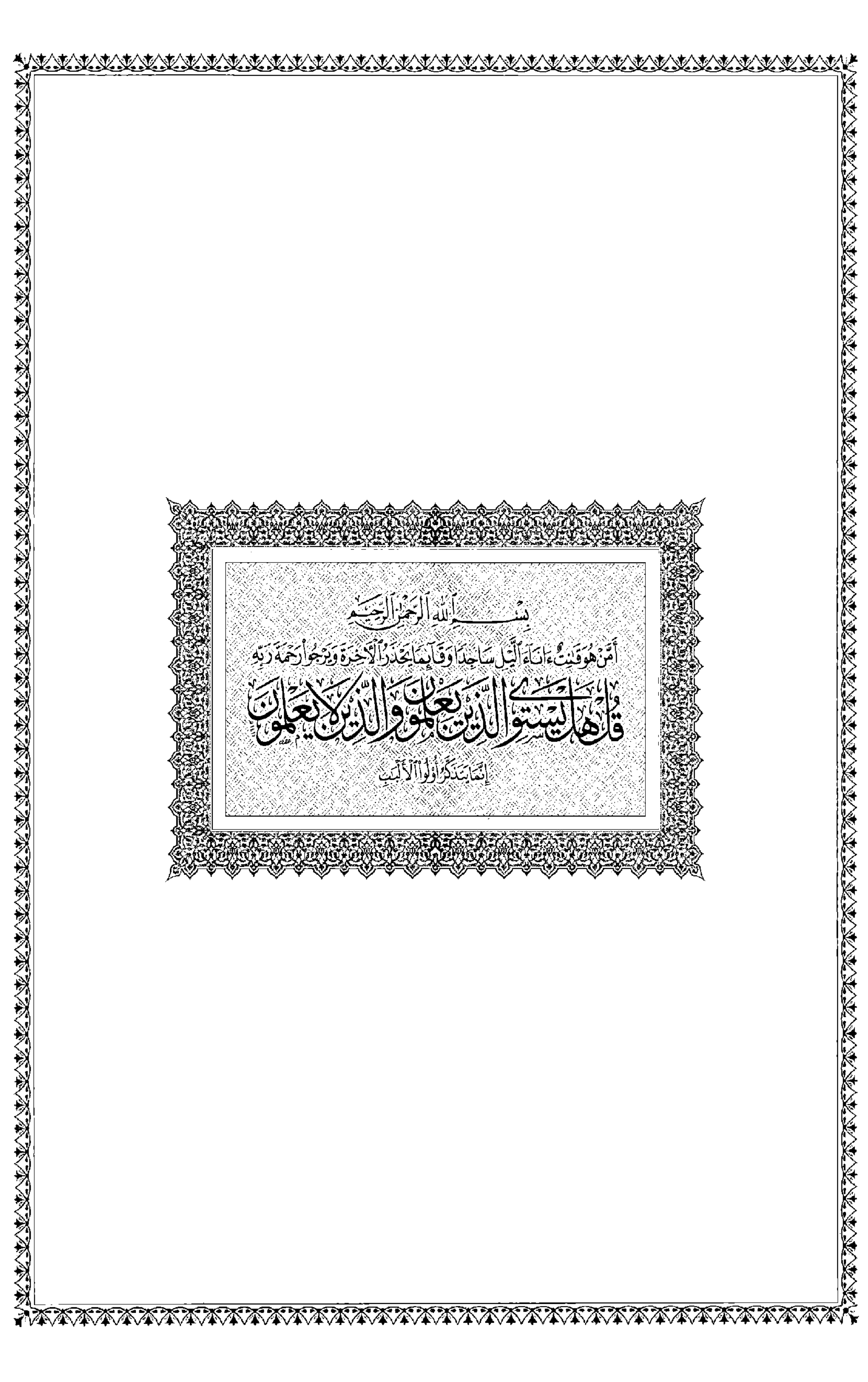
تحقيقاً وضبطاً وتوثيقاً ومراجعة

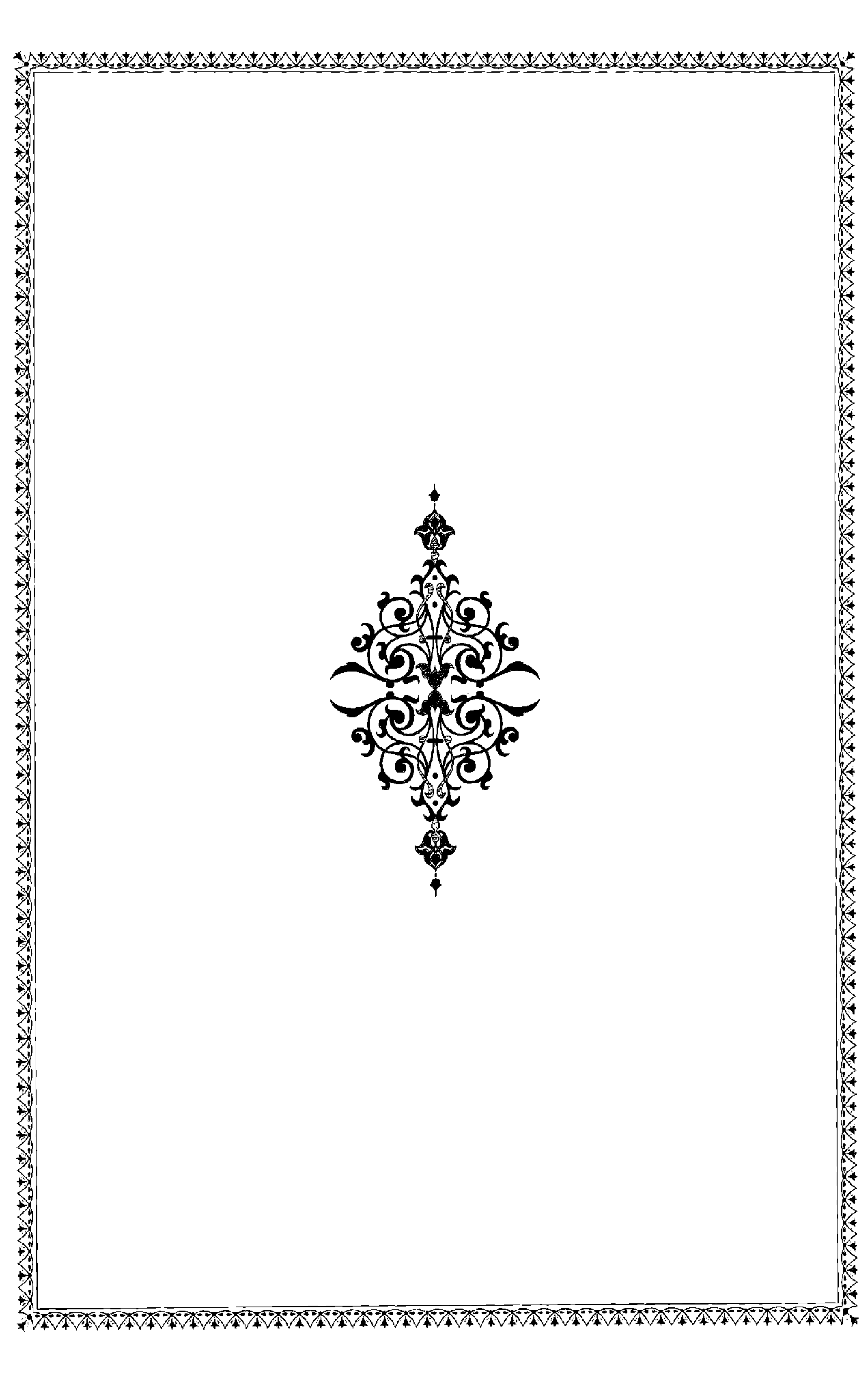
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي



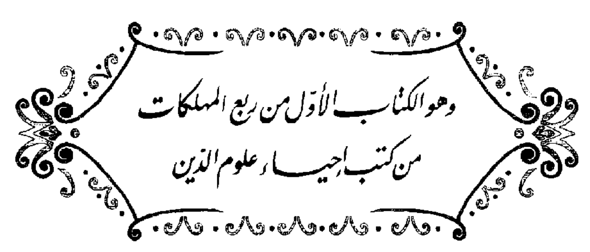
دار المنهاج

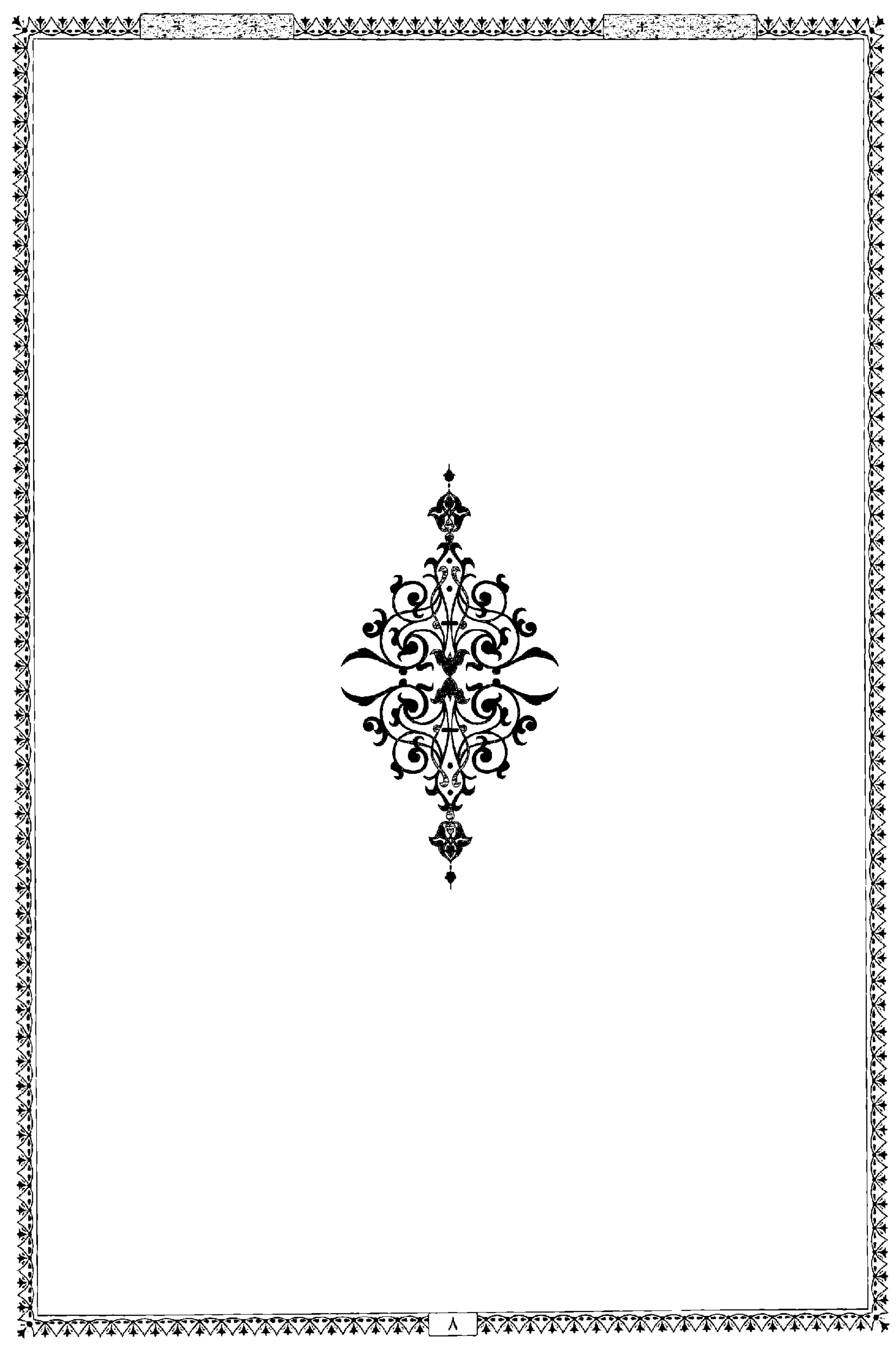

بسم الله الرحمن الرحيم


بسم الله الرحمن الرحيم
أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه
قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون
إنما يتذكر أولوا الألباب



كتاب
عجائب القلب





كتاب عجائب القلب [1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي تتحيَّرُ دونَ إدراكِ جلالِهِ القلوبُ والخواطرُ [2] ، وتدهَشُ في مبادي إشراقِ أنوارِهِ الأحداقُ والنواظرُ ، المطَّلعِ على خفيَّاتِ السرائرِ ، العالمِ بمكنوناتِ الضمائرِ ، المستغني في تدبيرِ ملكِهِ عنِ المشاورِ والموازرِ ، مقلِّبِ القلوبِ ، وغفَّارِ الذنوبِ ، وستَّارِ العيوبِ ، ومفرّجِ الكروبِ .

والصلاةُ على محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وجامعِ شملِ الدينِ ، وقاطعِ دابرِ الملحدينَ ، وعلى آلِهِ الطيِّبينَ الطاهرينَ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فشرفُ الإنسانِ وفضيلتُهُ التي فاقَ بها جملةً مِنْ أصنافِ الخلقِ باستعدادِهِ لمعرفةِ اللهِ سبحانَهُ ، التي هيَ في الدنيا جمالُهُ وكمالُهُ وفخرُهُ ، وفي الآخرةِ عُدَّتُهُ وذُخرُهُ .

وإنَّما استعدَّ للمعرفةِ بقلبِهِ ، لا بجارحةٍ مِنْ جوارحِهِ ، فالقلبُ هوَ العالِمُ باللهِ ، وهوَ المتقرِّبُ إلى اللهِ ، وهوَ العاملُ للهِ ، وهوَ الساعي إلى اللهِ ، وهوَ المكاشَفُ بما عندَ اللهِ ولديهِ ، وإنَّما الجوارحُ أتباعٌ وخدمٌ وآلاتٌ يستخدمُها القلبُ ، ويستعملُها استعمالَ المالكِ للعبيدِ ، واستخدامَ الراعي للرعيَّةِ ، والصانعِ للآلةِ .

فالقلبُ هوَ المقبولُ عندَ اللهِ إذا سلمَ مِنْ غيرِ اللهِ ، وهوَ المحجوبُ عنِ اللهِ إذا صارَ مستغرقاً بغيرِ اللهِ ، وهوَ المطالَبُ وهوَ المخاطَبُ ، وهوَ المعاتَبُ والمعاقَبُ ، وهوَ الذي يسعدُ بالقربِ مِنَ اللهِ فيفلحُ إذا زكَّاهُ ، وهوَ الذي يخيبُ ويشقى إذا دنَّسَهُ ودسَّاهُ ، وهوَ المطيعُ بالحقيقةِ للهِ تعالى ، وإنَّما الذي ينتشرُ على الجوارحِ مِنَ العباداتِ أنوارُهُ ، وهوَ العاصي المتمرِّدُ على اللهِ تعالى ، وإنَّما الساري إلى الأعضاءِ مِنَ الفواحشِ آثارُهُ .

وبإظلامِهِ واستنارتِهِ تظهَرُ محاسنُ الظاهرِ ومساويهِ ؛ إذْ كلُّ إناءٍ ينضحُ بما فيهِ .

وهوَ الذي إذا عرفَهُ الإنسانُ . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ .

وهوَ الذي إذا جهلَهُ الإنسانُ . . فقدْ جهلَ نفسَهُ ، وإذا جهلَ نفسَهُ . . فقدْ جهلَ ربَّهُ ، ومَنْ جهلَ قلبَهُ . . فهوَ بغيرِهِ أجهلُ .

وأكثرُ الخلْقِ جاهلونَ بقلوبِهِمْ وأنفسِهِمْ ، وقدْ حيلَ بينَهُمْ وبينَ أنفسِهِمْ ، وإنَّ اللهَ يحولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ ، **وحيلولتُهُ** :

---

(١) فإن قال قائل : كيف يكون الحديث عن القلب وعجائبه في ربع المهلكات ؟ . . فالإجابة ستأتي للمصنف رحمه الله تعالى ، وفيه بيان أن هـٰذا الكتاب والذي يليه ليس من لباب الحديث عن المهلكات أو المنجيات ، وإنما هما كالتوطئة والتمهيد .

(٢) والمعنى : لا تطيق القلوب والخواطر الواردة عليها الإحاطة ؛ لعظم قدره وفخامة شأنه ، فتقف دونها وقوف المتحيِّر الذي لا يهتدي للصواب ؛ لإشكال الأمر عليه . « إتحاف » (١٩٩/٧) .

بأنْ يمنَعَه عنْ مشاهدتِهِ وقربِهِ ، ومراقبتِهِ ومعرفةِ صفاتِهِ ، وكيفيةِ تقلُّبِهِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ، وأنَّهُ كيفَ يهوي مرَّةً إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، وينخفضُ إلىٰ أفقِ الشياطينِ ، وكيفَ يرتفعُ أخرىٰ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، ويرتقي إلىٰ عالمِ الملائكةِ المقرَّبينَ (١)

ومَنْ لمْ يعرفْ قلبَهُ ليراقبَهُ ويراعيَهُ ، ويترصدَ ما يلوحُ مِنْ خزائنِ الملكوتِ عليهِ وفيهِ . . فهوَ ممَّنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فمعرفةُ القلبِ وحقيقةِ أوصافِهِ أصلُ الدينِ ، وأساسُ طريقِ السالكينَ .

وإذْ قدْ فرغنا مِنَ الشطرِ الأوَّلِ مِنْ هـٰذا الكتابِ مِنَ النظرِ فيما يجري على الجوارحِ مِنَ العباداتِ والعاداتِ ؛ **وهوَ العلمُ الظاهرُ** ، ووعدْنا أنْ نشرحَ في الشطرِ الثاني ما يجري على القلوبِ مِنَ الصفاتِ المهلكاتِ والمنجياتِ ؛ **وهوَ العلمُ الباطنُ** . . فلا بدَّ أنْ نقدِّمَ عليهِ كتابينِ :

كتابٌ في شرحِ عجائبِ صفاتِ القلبِ وأخلاقِهِ .

وكتابٌ في كيفيَّةِ رياضةِ القلبِ وتهذيبِ أخلاقِهِ .

ثمَّ نندفعُ بعدَ ذٰلكَ في تفصيلِ المهلكاتِ والمنجياتِ .

فلنذكرِ الآنَ مِنْ شرحِ عجائبِ القلبِ بطريقِ ضربِ الأمثالِ ما يقرِّبُ مِنَ الأفهامِ ؛ فإنَّ التصريحَ بعجائبِهِ وأسرارِهِ الداخلةِ في جملةِ عالمِ الملكوتِ ممَّا يكلُّ عنْ دركِهِ أكثرُ الأفهامِ .

* * *

(١) وانخفاضه وارتفاعه إنما هو بالاتصاف بما لكل من الدرجتين من الأوصاف الذميمة والحميدة ، فإذا استولىٰ عليه الشهوة والغضب . . التحق بأفق الشياطين ، وإن ملكهما حتىٰ صفا . . التحق بأفق الملائكة المقربين . « إتحاف » (٢٠١/٧) ، ولكل من الدرجتين منازلات وأحوال ، وللسامية منهما مشاهدات ومكاشفات .

بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامي

اعلمْ : أنَّ هٰذهِ الأسماءَ الأربعةَ تُستعملُ في هٰذهِ الأبوابِ ، ويقلُّ في فحولِ العلماءِ مَنْ يحيطُ بهٰذهِ الأسامي ، واختلافِ معانيها وحدودِها ومسمَّياتِها ، وأكثرُ الأغاليطِ منشؤُها الجهلُ بمعنىٰ هٰذهِ الأسامي ، وباشتراكِها بينَ مسمَّياتٍ مختلفةٍ ، ونحنُ نشرحُ مِنْ معاني هٰذهِ الأسامي ما يتعلَّق بغرضِنا .

❀ ❀ ❀

اللفظُ الأوَّلُ : لفظُ القلبِ .

وهوَ يُطلقُ لمعنيينِ :

أحدُهُما : اللحمُ الصنوبريُّ الشكلِ ، المودعُ في الجانبِ الأيسرِ مِنَ الصدرِ ، وهوَ لحمٌ مخصوصٌ ، وفي باطنِهِ تجويفٌ ، وفي ذٰلكَ التجويفِ دمٌ أسودُ ، وهو منبعُ الروحِ ومعدِنُهُ ، ولسنا نقصدُ الآنَ شرحَ شكلِهِ وكيفيتِهِ ؛ إذْ لا تتعلَّقُ بِهِ الأغراضُ الدينيةُ ، وإنَّما يتعلَّقُ بذٰلكَ غرضُ الأطباءِ .

وهٰذا القلبُ موجودٌ للبهائمِ ، بلْ هوَ موجودٌ للميِّتِ .

ونحنُ إذا أطلقْنا لفظَ القلبِ في هٰذا الكتابِ . . لمْ نعنِ بِهِ ذٰلكَ ؛ فإنَّهُ قطعةُ لحمٍ لا قدْرَ لهُ ، وهوَ مِنْ عالمِ المُلْكِ والشهادةِ ؛ إذْ تدركُهُ البهائمُ بحاسَّةِ البصرِ فضلاً عنِ الآدميينَ .

والمعنى الثاني : هوَ لطيفةٌ ربَّانيَّةٌ روحانيَّةٌ ، لها بهٰذا القلبِ الجسمانيِّ تعلُّقٌ ، وتلكَ اللطيفةُ هيَ حقيقةُ الإنسانِ ، وهوَ المدْرِكُ العالِمُ العارفُ مِنَ الإنسانِ ، وهوَ المخاطبُ والمعاقبُ ، والمعاتبُ والمطالبُ ، ولهُ علاقةٌ معَ القلبِ الجسمانيِّ ، وقدْ تحيَّرَتْ عقولُ أكثرِ الخلقِ في إدراكِ وجهِ علاقتِهِ ؛ فإنَّ تعلقَهُ بِهِ يضاهي تعلُّقَ الأعراضِ بالأجسامِ ، والأوصافِ بالموصوفاتِ ، أوْ تعلُّقَ المستعملِ للآلةِ بالآلةِ ، أوْ تعلُّقَ المتمكِّنِ بالمكانِ .

وشرحُ ذٰلكَ ممَّا نتوقاهُ لمعنيينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ متعلِّقٌ بعلومِ المكاشفةِ ، وليسَ غرضُنا في هٰذا الكتابِ إلا علومَ المعاملةِ .

والثاني : أنَّ تحقيقَهُ يستدعي إفشاءَ سرِّ الروحِ ، وذٰلكَ ممّا لمْ يتكلَّمْ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فليسَ لغيرِهِ أنْ يتكلَّمَ فيهِ (١)

والمقصودُ : أنَّا إذا أطلقْنا لفظَ القلبِ في هٰذا الكتابِ . . أردْنا بهِ هٰذهِ اللطيفةَ ، **وغرضُنا** : ذكرُ أوصافِها وأحوالِها ، لا ذكرُ حقيقتِها في ذاتِها ، وعلمُ المعاملةِ يفتقرُ إلىٰ معرفةِ صفاتِها وأحوالِها ، ولا يفتقرُ إلىٰ ذكرِ حقيقتِها .

❀ ❀ ❀

---

(١) تقدم الأثر الوارد في ذٰلك ، وفي امتناعه صلى الله عليه وسلم عن الكلام في الروح انظر « عوارف المعارف » (٢/٧٧١) ، ومن جملة كلام الإمام السهروردي فيه : (وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالىٰ ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة . . فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه ؟!) .

اللفظُ الثاني : الروحُ .

وهوَ أيضاً يُطلقُ فيما يتعلَّقُ بجنسِ غرضِنا لمعنيينِ :

أحدُهُما : جسمٌ لطيفٌ ، منبعُهُ تجويفُ القلبِ الجسمانيّ ، وينتشرُ بواسطةِ العروقِ الضوارِبِ إلىٰ سائرِ أجزاءِ البدنِ ، وجريانُهُ في البدنِ وفيضانُ أنوارِ الحياةِ والحسّ والبصرِ والسمعِ والشمّ منهُ علىٰ أعضائِهِ . . يضاهي فيضانَ النورِ مِنَ السراجِ الذي يُدارُ في زوايا البيتِ ؛ فإنَّهُ لا ينتهي إلىٰ جزءٍ مِنَ البيتِ إلا ويستنيرُ بهِ .

فالحياةُ مثالُها النورُ الحاصلُ في الحيطانِ ، والروحُ مثالُهُ السراجُ ، وسريانُ الروحِ وحركتُهُ في الباطنِ مثالُهُ حركةُ السراجِ في جوانبِ البيتِ بتحريكِ محرّكِهِ .

والأطباءُ إذا أطلقوا لفظَ الروحِ . . أرادوا بهِ هٰذا المعنىٰ ، وهوَ بخارٌ لطيفٌ أنضجَتْهُ حرارةُ القلبِ ، وليسَ شرحُهُ مِنْ غرضِنا ؛ إذِ المتعلّقُ بهِ غرضُ الأطباءِ الذينَ يعالجونَ الأبدانَ ، فأمَّا غرضُ أطباءِ الدينِ المعالجينَ للقلبِ حتَّىٰ ينساقَ إلىٰ جوارِ ربِّ العالمينَ . . فليسَ يتعلَّقُ بشرحِ هٰذا الروحِ أصلاً .

المعنى الثاني : هوَ اللطيفةُ العالمةُ المدركةُ مِنَ الإنسانِ ، وهوَ الذي شرحناهُ في أحدِ معنيي القلبِ ، وهوَ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، وهوَ أمرٌ عجيبٌ ربَّانيٌّ ، تعجزُ أكثرُ العقولِ والأفهامِ عنْ دركِ كُنْهِ حقيقتِهِ .

❀ ❀ ❀

اللفظُ الثالثُ : النفسُ .

وهوَ أيضاً مشتركٌ بينَ معانٍ ، ويتعلَّقُ بغرضِنا منهُ معنيانِ :

أحدُهُما : أنَّهُ يُرادُ بهِ المعنى الجامعُ لقوَّةِ الغضبِ والشهوةِ في الإنسانِ ، علىٰ ما سيأتي شرحُهُ ، وهٰذا الاستعمالُ هوَ الغالبُ علىٰ أهلِ التصوُّفِ ؛ لأنَّهُمْ يريدونَ بالنفسِ الأصلَ الجامعَ للصفاتِ المذمومةِ مِنَ الإنسانِ ، فيقولونَ : (لا بدَّ مِنْ مجاهدةِ النفسِ وكسرِها) ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أعدىٰ عدوٍّ لكَ نفسُكَ التي بينَ جنبيكَ »[1]

المعنى الثاني : هوَ اللطيفةُ التي ذكرناها ، التي هيَ الإنسانُ بالحقيقةِ ، وهيَ نفسُ الإنسانِ وذاتُهُ ، ولٰكنَّها تُوصفُ بأوصافٍ مختلفةٍ بحسبِ اختلافِ أحوالِها ، فإذا سكنَتْ تحتَ الأمرِ ، وزايلَها الاضطرابُ بسببِ معارضةِ الشهواتِ . . سُمّيتِ النفسَ المطمئنةَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ في مثلِها : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، والنفسُ بالمعنى الأوَّلِ لا يُتصوَّرُ رجوعُها إلى اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّها مبعدةٌ عنِ اللهِ ، وهيَ مِنْ حزبِ الشيطانِ .

وإذا لمْ يتمَّ سكونُها ، ولٰكنَّها صارَتْ مدافعةً للنفسِ الشهوانيةِ ومعترضةً عليها . . سُمّيتِ النفسَ اللوَّامةَ ؛ لأنَّها تلومُ صاحبَها عندَ تقصيرِهِ في عبادةِ مولاهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ .

وإنْ تركتِ الاعتراضَ ، وأذعَنتْ وأطاعَتْ لمقتضى الشهواتِ ودواعي الشيطانِ . . سُمّيتِ النفسَ الأمَّارةَ بالسوءِ ،

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٢) عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً ، والبيهقي في « الزهد » (٣٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٠٦/٧) تعقيباً علىٰ طريق البيهقي : (ووجدت بخط الحافظ ابن حجر ما نصه : وللحديث طرق أخرىٰ غير هٰذه من حديث أنس وغيره) .

قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ يوسفَ عليهِ السَّلامُ أوِ امرأةِ العزيزِ : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، وقدْ يجوزُ أنْ يُقالَ : المرادُ بالأمَّارةِ بالسوءِ : هيَ النفسُ بالمعنى الأوَّلِ .

فإذاً ؛ النفسُ بالمعنى الأوَّلِ مذمومةٌ غايةَ الذمِّ ، وبالمعنى الثاني : محمودةٌ ؛ لأنَّها نفسُ الإنسانِ ؛ أيْ : ذاتُهُ وحقيقتُهُ العالمةُ باللهِ تعالىٰ وسائرِ المعلوماتِ .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الرابعُ : العقلُ .

وهوَ أيضاً مشتركٌ لمعانٍ مختلفةٍ ذكرناها في كتابِ العلمِ ، والمتعلِّقُ بغرضِنا مِنْ جملتِها معنيانِ :

أحدُهُما : أنَّهُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ العلمُ بحقائقِ الأمورِ ، فيكونُ عبارةً عنْ صفةِ العلمِ الذي محلُّهُ القلبُ .

والثاني : أنَّهُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ المدرِكُ للعلومِ ، فيكونُ هوَ القلبَ ؛ أعني تلكَ اللطيفةَ .

ونحنُ نعلمُ أنَّ كلَّ عالمٍ فلَهُ في نفسِهِ وجودٌ هوَ أصلٌ قائمٌ بنفسِهِ ، والعلمُ صفةٌ حالَّةٌ فيهِ ، والصفةُ غيرُ الموصوفِ ، والعقلُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ صفةُ العالمِ ، وقدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ محلُّ الإدراكِ ؛ أعني المدرِكَ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ ما خلقَ اللهُ العقلُ »[1] ؛ فإنَّ العلمَ عرضٌ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ أوَّلَ مخلوقٍ ، بلْ لا بدَّ أنْ يكونَ المحلُّ مخلوقاً قبلَهُ أوْ معَهُ ، ولأنَّهُ لا يمكنُ الخطابُ معَهُ ، وفي الخبرِ : « أنَّهُ قالَ لهُ تعالىٰ : أقبلْ . . فأقبلَ ، ثمَّ قالَ لهُ : أدبرْ . . فأدبرَ . . . » الحديثَ[2]

فإذاً ؛ قدِ انكشفَ لكَ أنَّ معانيَ هٰذهِ الأسامي موجودةٌ ، وهيَ القلبُ الجسمانيُّ ، والروحُ الجسمانيُّ ، والنفسُ الشهوانيَّةُ ، والعلومُ[3]

❁ ❁ ❁

فهٰذهِ أربعةُ معانٍ يُطلقُ عليها الألفاظُ الأربعةُ ، ومعنىً خامسٌ ؛ وهيَ اللطيفةُ العالمةُ المدرِكةُ مِنَ الإنسانِ ، والألفاظُ الأربعةُ بجملتِها تتواردُ عليها ، فالمعاني خمسةٌ ، والألفاظُ أربعةٌ ، وكلُّ لفظٍ أُطلقَ لمعنيينِ ، وأكثرُ العلماءِ قدِ التبسَ عليهِمُ اختلافُ هٰذهِ الألفاظِ وتواردُها ، فتراهُمْ يتكلَّمونَ في الخواطرِ ، ويقولونَ : هٰذا خاطرُ العقلِ ، وهٰذا خاطرُ الروحِ ، وهٰذا خاطرُ القلبِ ، وهٰذا خاطرُ النفسِ ، وليسَ يدري الناظرُ اختلافَ معاني هٰذهِ الأسماءِ ، فلأجلِ كشفِ الغطاءِ عنْ ذٰلكَ . . قدَّمْنا شرحَ هٰذهِ الأسامي .

وحيثُ وردَ في القرآنِ والسنَّةِ لفظُ القلبِ . . فالمرادُ بهِ المعنى الذي يفقَهُ مِنَ الإنسانِ ويعرفُ حقيقةَ الأشياءِ ، وقدْ يُكنىٰ عنهُ بالقلبِ الذي في الصدرِ ؛ لأنَّ بينَ تلكَ اللطيفةِ وبينَ جسمِ القلبِ علاقةً خاصةً ؛ فإنَّها وإنْ كانتْ متعلِّقةً بسائرِ البدنِ ومستعملةً لهُ ، ولٰكنَّها تتعلَّقُ بهِ بواسطةِ القلبِ ، فتعلُّقُها الأوَّلُ بالقلبِ ، وكأنَّهُ محلُّها ومملكتُها ، وعالَمُها ومطيَّتُها .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/٢٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٣١٨) .
(٢) هو قطعة من حديث : « أول ما خلق الله العقل » المتقدم قبله .
(٣) في (ب ، ج ، ل) : (والعقل العلمي) بدل (والعلوم) .

ولذلكَ شبَّهَ سهلٌ التستريُّ القلبَ بالعرشِ ، والصدْرَ بالكرسيِّ ، فقالَ : (القلبُ هوَ العرشُ ، والصدرُ هوَ الكرسيُّ)(١) ، ولا تظنُّ بهِ أنَّهُ يرىٰ أنَّهُ عرشُ اللهِ وكرسيُّهُ ؛ فإنَّ ذلكَ محالٌ ، بلْ أرادَ بهِ أنَّهُ مملكتُهُ ، والمجرى الأوَّلُ لتدبيرِهِ وتصرُّفِهِ ، فهما بالنسبةِ إليهِ كالعرشِ والكرسيِّ بالنسبةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا يستقيمُ هٰذا التشبيهُ أيضاً إلا مِنْ بعضِ الوجوهِ ، وشرحُ ذلكَ أيضاً لا يليقُ بغرضِنا ، فلنتجاوزْهُ .

* * *

(١) قوت القلوب (١/٢٣١) .

بيان جنود القلب

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فللهِ سبحانَهُ في القلوبِ والأرواحِ وغيرِها مِنَ العوالمِ جنودٌ مجنَّدةٌ ، لا يعرفُ حقيقتَها وتفصيلَ عددِهاإلا هوَ ، ونحنُ الآنَ نشيرُ إلىٰ بعضِ جنودِ القلبِ ، فهوَ الذي يتعلَّقُ بغرضِنا .

ولهُ جندانِ :

جندٌ يُرىٰ بالأبصارِ .

وجندٌ لا يُرىٰ إلا بالبصائرِ .

وهوَ في حكمِ المَلِكِ ، والجنودُ في حكْمِ الخدمِ والأعوانِ ، فهـٰذا معنى الجندِ .

فأمَّا جندُهُ المشاهدُ بالعينِ : فهوَ اليدُ والرِّجْلُ ، والعينُ والأذنُ واللسانُ ، وسائرُ الأعضاءِ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ فإنَّ جميعَها خادمةٌ للقلبِ ، ومسخَّرةٌ لهُ ، فهوَ المتصرِّفُ فيها ، والمردِّدُ لها .

وقدْ خُلقَتْ مجبولةً علىٰ طاعةِ القلبِ ، لا تستطيعُ لهُ خلافاً ، ولا عليهِ تمرُّداً ، فإذا أمرَ العينَ بالانفتاحِ . . انفتحَتْ ، وإذا أمرَ الرجْلَ بالحركةِ . . تحرَّكَتْ ، وإذا أمرَ اللسانَ بالكلامِ وجزمَ الحكْمَ بهِ . . تكلَّمَ ، وكذا سائرُ الأعضاءِ .

وتسخُّرُ الأعضاءِ والحواسِّ للقلبِ يشبهُ مِنْ وجهٍ تسخُّرَ الملائكةِ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُمْ مجبولونَ على الطاعةِ ، لا يستطيعونَ لهُ خلافاً ، بلْ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ، ويفعلونَ ما يُؤمرونَ ، وإنَّما يفترقانِ في شيءٍ ؛ وهوَ أنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ عالمةٌ بطاعتِها وامتثالِها ، والأجفانُ تطيعُ القلبَ في الانفتاحِ والانطباقِ علىٰ سبيلِ التسخيرِ ولا خبرَ لها مِنْ نفسِها ومِنْ طاعتِها للقلبِ .

وإنَّما افتقرَ القلبُ إلىٰ هـٰذهِ الجنودِ مِنْ حيثُ افتقارُهُ إلى المرْكَبِ والزادِ لسفرِهِ الذي لأجلِهِ خُلِقَ ، وهوَ السفرُ إلى اللهِ سبحانَهُ ، وقطعُ المنازلِ إلىٰ لقائِهِ ، فلأجلِهِ خُلقَتِ القلوبُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وإنَّما مركبُهُ البَدَنُ ، وزادُهُ العلْمُ ، وإنَّما الأسبابُ التي توصلُهُ إلى الزادِ وتمكِّنُهُ مِنَ التزوُّدِ منهُ . . هوَ العملُ الصالحُ ، وليسَ يمكنُ أن يصلَ العبدُ إلى اللهِ سبحانَهُ ما لمْ يسكنِ البدَنَ ، ولمْ يجاوزِ الدنيا ، فإنَّ المنزلَ الأدنىٰ لا بدَّ مِنْ قطعِهِ للوصولِ إلى المنزلِ الأقصىٰ ؛ والدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وهِيَ منزلٌ مِنْ منازلِ الهدىٰ ، وإنَّما سُمِّيَتْ دنيا لأنَّها أدنى المنزلتينِ ، فاضطرَّ إلىٰ أنْ يتزوَّدَ مِنْ هـٰذا العالَمِ ، والبَدَنُ مركبُهُ الذي يصلُ بهِ إلىٰ هـٰذا العالمِ ، فافتقرَ إلىٰ تعهُّدِ البدَنِ وحفظِهِ ، وإنَّما يحفظُ البدَنَ بأنْ يجلبَ إليهِ ما يوافقُهُ مِنَ الغذاءِ وغيرِهِ ، وأنْ يدفعَ عنهُ ما ينافيهِ ويهلكُهُ مِنْ أسبابِ الهلاكِ ، فافتقرَ لأجلِ جلْبِ الغذاءِ إلىٰ جندينِ :

باطنٌ ؛ وهو الشهوةُ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ اليدُ والأعضاءُ الجالبةُ للغذاءِ .

فخُلِقَ في القلبِ مِنَ الشهواتِ ما احتاجَ إليهِ ، وخُلقَتِ الأعضاءُ التي هيَ آلاتُ الشهواتِ ، فافتقرَ لأجلِ دفْعِ المهلكاتِ إلىٰ جندينِ :

باطنٌ ؛ وهوَ الغضبُ الذي بهِ يدفعُ المهلكاتِ ، وينتقمُ مِنَ الأعداءِ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ اليدُ والرِّجْلُ الذي بهما يعملُ بمقتضى الغضبِ .

وكمَّلَ ذٰلكَ بأمورٍ خارجةٍ عنِ البدنِ ؛ كالأسلحةِ وغيرِها .

ثمَّ المحتاجُ إلى الغذاءِ إذا لمْ يعرفِ الغذاءَ . . لمْ تنفعْهُ شهوةُ الغذاءِ وآلتُهُ ، فافتقرَ للمعرفةِ إلىٰ جنديْنِ :

باطنٌ ؛ وهوَ إدراكُ البصرِ والذوقِ والشمِّ والسمعِ واللمسِ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ العينُ والأذنُ والأنفُ وغيرُها .

وتفصيلُ وجهِ الحاجةِ إليها ، ووجهِ الحكمةِ فيها يطولُ ، ولا تحويهِ مجلداتٌ كثيرةٌ ، وقدْ أشرنا إلىٰ طرفٍ يسيرٍ منها في كتابِ الشكرِ ، فليُقتنعْ بهِ .

فجملةُ جنودِ القلبِ تحصرُها ثلاثةُ أصنافٍ :

ـ صنفٌ باعثٌ ومستحثٌّ ؛ إمَّا إلىٰ جلبِ النافعِ الموافقِ كالشهوةِ ، وإمَّا إلىٰ دفعِ الضارِّ المنافي كالغضبِ ، وقدْ يُعبَّرُ عنْ هٰذا الباعثِ بالإرادةِ .

ـ والثاني : هوَ المحرِّكُ للأعضاءِ إلىٰ تحصيلِ هٰذهِ المقاصدِ ، ويعبَّرُ عنْ هٰذا الثاني بالقدرةِ ، وهيَ جنودٌ مبثوثةٌ في سائرِ الأعضاءِ ، لا سيَّما العضلاتُ منها والأوتارُ .

ـ والثالثُ : هوَ المدركُ المتعرِّفُ للأشياءِ كالجواسيسِ ، وهيَ قوَّةُ البصرِ والسمعِ والشمِّ والذوقِ واللمسِ ، وهيَ مبثوثةٌ في أعضاءٍ معيَّنةٍ ، ويُعبَّرُ عنْ هٰذا بالعلمِ والإدراكِ ، ومعَ كلِّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الجنودِ الباطنةِ جنودٌ ظاهرةٌ ، وهيَ الأعضاءُ المركَّبةُ مِنَ الشحْمِ واللحمِ والعصبِ والدمِ والعظمِ ، التي أُعدَّتْ آلاتٍ لهٰذهِ الجنودِ ، فإنَّ قوَّةَ البطْشِ إنَّما هيَ بالأصابعِ ، وقوَّةَ البصرِ إنَّما هيَ بالعينِ ، وكذا سائرُ القوىٰ .

ولسنا نتكلَّمُ في الجنودِ الظاهرةِ ؛ أعني : الأعضاءَ ؛ فإنَّها مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وإنَّما نتكلَّمُ الآنَ فيما أُيِّدَ بهِ مِنْ جنودٍ لمْ تروها .

وهٰذا الصنفُ الثالثُ ـ وهوَ المدركُ مِنْ هٰذهِ الجملةِ ـ ينقسمُ :

إلىٰ ما قدْ أُسكنَ المنازلَ الظاهرةَ ؛ وهيَ الحواسُّ الخمسُ ؛ أعني : السمعَ والبصرَ والشمَّ والذوقَ واللمسَ .

وإلىٰ ما أُسكنَ منازلَ باطنةً ؛ وهيَ تجاويفُ الدماغِ ، وهيَ أيضاً خمسةٌ ؛ فإنَّ الإنسانَ بعدَ رؤيةِ الشيءِ يغمضُ عينيهِ ، فيدركُ صورتَهُ في نفسِهِ ، وهوَ الخيالُ ، ثمَّ تبقىٰ تلكَ الصورةُ معَهُ بسببِ شيءٍ يحفظُهُ ، وهوَ الجندُ الحافظُ ، ثمَّ يتفكَّرُ فيما حفظَهُ ، فيُركِّبُ بعضَ ذٰلكَ إلىٰ بعضٍ ، ثمَّ يتذكَّرُ ما قدْ نسيَهُ ، ويعودُ إليهِ ، ثمَّ يجمعُ جملةَ معاني المحسوساتِ في خيالِهِ بالحسِّ المشتركِ بينَ المحسوساتِ ، ففي الباطنِ حسٌّ مشتركٌ ، وتخيُّلٌ وتفكُّرٌ ، وتذكُّرٌ وحفْظٌ ، ولولا خلْقُ اللهِ قوَّةَ الحفظِ والفكرِ ، والذكْرِ والتخيُّلِ . . لكانَ الدماغُ يخلو عنهُ كما تخلو اليدُ والرجْلُ عنهُ ، فتلكَ القوىٰ أيضاً جنودٌ باطنةٌ ، وأماكنُها أيضاً باطنةٌ .

فهٰذهِ هيَ أقسامُ جنودِ القلبِ ، وشرحُ ذٰلكَ بحيثُ يدركُهُ فهمُ الضعفاءِ بضربِ الأمثلةِ يطولُ ، و **مقصودُ مثلِ هٰذا الكتابِ أنْ ينتفعَ بهِ الأقوياءُ والفحولُ مِنَ العلماءِ ، ولٰكنَّا نجتهدُ في تفهيمِ الضعفاءِ بضرْبِ الأمثلةِ ؛ ليقربَ ذٰلكَ مِنْ أفهامِهِمْ .**

❁ ❁ ❁

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلمْ : أنَّ جنديِ الغضبِ والشهوةِ قدْ ينقادانِ للقلبِ انقياداً تاماً ، فيعينُهُ ذٰلكَ علىٰ طريقِهِ الذي يسلكُهُ ، وتحسنُ مرافقتُهُما في السفرِ الذي هوَ بصددِهِ ، وقدْ يستعصيانِ عليهِ استعصاءَ بغيٍ وتمرُّدٍ حتَّىٰ يملكاهُ ويستعبداهُ ، وفيهِ هلاكُهُ وانقطاعُهُ عنْ سفرِهِ الذي بهِ وصولُهُ إلىٰ سعادةِ الأبدِ .

وللقلبِ جندٌ آخرُ ؛ وهوَ العلمُ والحكمةُ والتفكُّرُ كما سيأتي شرحُهُ ، وحقُّهُ أنْ يستعينَ بهٰذا الجندِ ؛ فإنَّهُ حزبُ اللهِ تعالىٰ على الجنديْنِ الآخرينِ ، فإنَّهُما قدْ يلتحقانِ بحزبِ الشيطانِ ، فإنْ تركَ الاستعانةَ وسلَّطَ علىٰ نفسِهِ جندَ الغضبِ والشهوةِ . . هلكَ يقيناً ، وخسرَ خسراناً مبيناً ، وذٰلكَ حالُ أكثرِ الخلقِ ، فإنَّ عقولَهُمْ صارَتْ مسخَّرةً لشهواتِهِمْ في استنباطِ الحيلِ لقضاءِ الشهوةِ ، وكانَ ينبغي أنْ تكونَ الشهوةُ مسخَّرةً لعقولِهِمْ فيما يفتقرُ العقلُ إليهِ .

ونحنُ نقرِّبُ ذٰلكَ إلىٰ فهمِكَ بثلاثةِ أمثلةٍ :

المثالُ الأوَّلُ :

أنْ نقولَ : مَثَلُ نفسِ الإنسانِ في بدنِهِ ـ أعني بالنفسِ : اللطيفةَ المذكورةَ ـ كمَثَلِ مَلِكٍ في مدينتِهِ ومملكتِهِ ، فإنَّ البدَنَ مملكةُ النفسِ وعالَمُها ومستقرُّها ومدينتُها ، وجوارحُهُ وقواهُ بمنزلةِ الصنَّاعِ والعَمَلَةِ ، والقوَّةُ العقليَّةُ المفكِّرةُ لهُ كالمشيرِ الناصحِ والوزيرِ العاقلِ ، والشهوةُ لهُ كالعبدِ السوءِ يجلبُ الطعامَ والميرةَ إلى المدينةِ ، والغضبُ والحميَّةُ لهُ كصاحبِ الشرطةِ ، والعبدُ الجالبُ للميرةِ كذَّابٌ مكَّارٌ ، خدَّاعٌ خبيثٌ ، يتمثَّلُ بصورةِ الناصحِ ، وتحتَ نصحِهِ الشرُّ الهائلُ والسمُّ القاتلُ ، وديدنُهُ وعادتُهُ منازعةُ الوزيرِ الناصحِ في آرائِهِ وتدبيراتِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لا يخلو مِنْ منازعتِهِ ومعارضتِهِ ساعةً .

فكما أنَّ الواليَ في مملكتِهِ إذا كانَ مستغنياً في تدبيراتِهِ بوزيرِهِ ، ومستشيراً لهُ ومعرضاً عنْ إشارةِ هٰذا العبدِ الخبيثِ ، مستدلاً بإشارتِهِ فِي أنَّ الصوابَ في نقيضِ رأيِهِ ، وأدَّبَ صاحبَ شرطتِهِ وأسلمَهُ لوزيرِهِ ، وجعلَهُ مؤتمراً لهُ ، ومسلطاً مِنْ جهتِهِ علىٰ هٰذا العبدِ الخبيثِ وأتباعِهِ وأنصارِهِ ، حتَّىٰ يكونَ العبدُ مسوساً لا سائساً ، ومأموراً مدبَّراً لا أميراً مدبِّراً . . استقامَ أمرُ بلدِهِ ، وانتظمَ العدْلُ بسببِهِ . . فكذٰلكَ النفسُ ، متى استعانَتْ بالعقلِ ، وأدبَتِ الحميَّةَ الغضبيَّةَ ، وسلطَتْها على الشهوةِ ، واستعانَتْ بإحداهُما على الأخرىٰ ؛ تارةً بأنْ تقلِّلَ مرتبةَ الغضبِ وغلوائِهِ بمخالفةِ الشهوةِ واستدراجِها ، وتارةً بقمعِ الشهوةِ وقهرِها بتسليطِ الغضبِ والحميَّةِ عليها وتقبيحِ مقتضياتِها . . اعتدلَتْ قواها ، وحسنَتْ أخلاقُها .

ومَنْ عدلَ عنْ هٰذهِ الطريقةِ . . كانَ كمَنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

وقالَ عزَّ وجلَّ فيمَنْ نهى النفسَ عنِ الهوىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

وستأتي كيفيةُ مجاهدةِ هٰذهِ الجنودِ وتسليطِ بعضِها علىٰ بعضٍ في كتابِ رياضةِ النفسِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

المثالُ الثاني :

اعلمْ : أنَّ البدنَ كالمدينةِ ، والعقلُ ـ أعني : المدركَ مِنَ الإنسانِ ـ كَمَلِكٍ مدبّرٍ لها ، وقواهُ المدركةُ مِنَ الحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ كجنودِهِ وأعوانِهِ ، وأعضاؤُهُ كرعيَّتِهِ ، والنفسُ الأمَّارةُ بالسوءِ التي هيَ الشهوةُ والغضبُ كعدوٍّ ينازعُهُ في مملكتِهِ ويسعىٰ في إهلاكِ رعيَّتِهِ ، فصارَ بدنُهُ كرباطٍ وثغرٍ ، ونفسُهُ كقيِّمٍ فيهِ مرابطٍ .

فإنْ هوَ جاهدَ عدوَّهُ وهزمَهُ ، وقهرَهُ علىٰ ما يحبُّ . . حُمِدَ أثرُهُ إذا عادَ إلى الحضرةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ .

وإنْ ضيَّعَ ثغرَهُ ، وأهملَ رعيَّتَهُ . . ذُمَّ أثرُهُ ، وانتُقمَ منهُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فيُقالُ لهُ يومَ القيامةِ : (يا راعيَ السوءِ ؛ أكلتَ اللحمَ ، وشربتَ اللبنَ ، ولمْ تُؤوِ الضالَّةَ ، ولمْ تجبرِ الكسيرَ ، اليومَ أنتقمُ منكَ) ، كما وردَ في الخبرِ[1] ، وإلىٰ هٰذهِ المجاهدةِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رجعْنا مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ »[2]

❁ ❁ ❁

المثالُ الثالثُ :

مَثَلُ العقلِ مَثَلُ فارسٍ متصيِّدٍ ، وشهوتُهُ كفرسِهِ ، وغضبُهُ ككلبِهِ ، فمتىٰ كانَ الفارسُ حاذقاً ، وفرسُهُ مروضاً ، وكلبُهُ مؤدَّباً معلماً . . كانَ جديراً بالنجاحِ .

ومتىٰ كانَ هوَ في نفسِهِ أخرقَ ، وكانَ الفرسُ جموحاً ، والكلبُ عقوراً . . فلا فرسُهُ ينبعثُ تحتَهُ منقاداً ، ولا كلبُهُ يسترسلُ بإشارتِهِ مطيعاً ، فهوَ خليقٌ بأنْ يعطبَ فضلاً عنْ أنْ ينالَ ما طلبَ .

وإنَّما خرْقُ الفارسِ مثلُ جهلِ الإنسانِ وقلَّةِ حكمتِهِ وكلالِ بصيرتِهِ ، وجماحُ الفرسِ مثلُ غلبةِ الشهوةِ ، خصوصاً شهوةَ البطنِ والفرجِ ، وعقْرُ الكلبِ مثالُ غلبةِ الغضبِ واستيلائِهِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٩٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٧/٦) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٩٨/١٣) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١١٨) .

بيان خاصّيّة قلب الإنسان

اعلمْ : أنَّ جملةَ ما ذكرناهُ قدْ أنعمَ اللهُ بهِ علىٰ سائرِ الحيواناتِ سوى الآدميِّ ؛ إذْ للحيواناتِ الشهوةُ والغضبُ والحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ أيضاً ، حتَّىٰ إنَّ الشاةَ ترى الذئبَ بعينِها ، فتعلمُ عداوتَهُ بقلبِها ، فتهربُ منهُ ، فذٰلكَ هوَ الإدراكُ الباطنُ .

فلنذكرْ ما يختصُّ بهِ قلبُ الإنسانِ ولأجلِهِ عَظُمَ شرفُهُ ، واستأهلَ القربَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ راجعٌ إلىٰ علمٍ وإرادةٍ .

❁ ❁ ❁

أمَّا العلمُ : فهوَ العلمُ بالأمورِ الدنيويةِ والأخرويةِ ، والحقائقِ العقليةِ ، فإنَّ هٰذهِ أمورٌ وراءَ المحسوساتِ ، ولا يشاركُهُ فيها الحيواناتُ ، بلِ العلومُ الكليَّةُ الضروريَّةُ مِنْ خواصِّ العقلِ ؛ إذْ يحكمُ الإنسانُ بأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ في مكانينِ في حالةٍ واحدةٍ ، وهٰذا حكمٌ منهُ علىٰ كلِّ شخصٍ ، ومعلومٌ أنَّهُ لمْ يدرِكْ بالحسِّ إلا بعضَ الأشخاصِ ، فحكمُهُ علىٰ جميعِ الأشخاصِ زائدٌ علىٰ ما أدركَهُ الحسُّ .

وإذا فهمتَ هٰذا في العلمِ الظاهرِ الضروريِّ . . فهوَ في سائرِ النظرياتِ أظهرُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الإرادةُ : فإنَّهُ إذا أدركَ بالعقلِ عاقبةَ الأمرِ ، وطريقَ الصلاحِ فيهِ . . انبعثَ مِنْ ذاتِهِ شوقٌ إلىٰ جهةِ المصلحةِ ، وإلىٰ تعاطي أسبابِها والإرادةِ لها ، وذٰلكَ غيرُ إرادةِ الشهوةِ وإرادةِ الحيواناتِ ، بلْ يكونُ علىٰ ضدِّ الشهوةِ ؛ فإنَّ الشهوةَ تنفرُ عنِ الفصْدِ والحجامةِ ، والعاقلُ يريدُها ويطلبُها ، ويبذلُ المالَ فيها ، والشهوةُ تميلُ إلىٰ لذائذِ الأطعمةِ في حينِ المرضِ ، والعاقلُ يجدُ في نفسِهِ زاجراً عنها ، وليسَ ذٰلكَ زاجرَ الشهوةِ .

ولوْ خلقَ اللهُ العقلَ المعرِّفَ بعواقبِ الأمورِ ولمْ يخلقْ هٰذا الباعثَ المحرِّكَ للأعضاءِ علىٰ مقتضىٰ حكمِ العقلِ . . لكانَ حكْمُ العقلِ ضائعاً على التحقيقِ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ قلبُ الإنسانِ اختُصَّ بعلمٍ وإرادةٍ ينفكُّ عنها سائرُ الحيوانِ ، بلْ ينفكُّ عنها الصبيُّ في أوَّلِ الفطرةِ ، وإنَّما يحدثُ ذٰلكَ فيهِ عندَ البلوغِ ، وأمَّا الشهوةُ والغضبُ والحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ . . فإنَّها موجودةٌ في حقِّ الصبيِّ ، ثمَّ للصبيِّ في حصولِ هٰذهِ العلومِ فيهِ درجتانِ :

إحداهُما : أنْ يشتملَ قلبُهُ علىٰ سائرِ العلومِ الضروريَّةِ الأوَّليَّةِ ؛ كالعلمِ باستحالةِ المستحيلاتِ ، وجوازِ الجائزاتِ الظاهرةِ ، فتكونُ العلومُ النظريَّةُ فيهِ غيرَ حاصلةٍ ، إلا أنَّها صارَتْ ممكنةً قريبةَ الإمكانِ والحصولِ ، ويكونُ حالُهُ بالإضافةِ إلى العلومِ كحالِ الكاتبِ الذي لا يعرفُ مِنَ الكتابةِ إلا الدوَاةَ والقلمَ والحروفَ المفردةَ دونَ المركبةِ ، فإنَّهُ قدْ قاربَ الكتابةَ ولمْ يبلغْها بعدُ .

الثانيةُ : أنْ تحصلَ لهُ العلومُ المكتسبةُ بالتجاربِ والفكرِ ، فتكونَ كالمخزونةِ عندَهُ ، فإذا شاءَ . . رجعَ إليها ،

وحالُهُ حالُ الحاذقِ بالكتابةِ ؛ إذْ يُقالُ لهُ : (كاتبٌ) وإنْ لمْ يكنْ مباشراً للكتابةِ بقدرتِهِ عليها ، وهٰذهِ هيَ غايةُ درجةِ الإنسانيةِ .

ولٰكنْ في هٰذهِ الدرجةِ مراتبُ لا تُحصىٰ ، يتفاوتُ الخلقُ فيها بكثرةِ المعلوماتِ وقلتِها ، وبشرفِ المعلوماتِ وخسَّتِها ، وبطريقِ تحصيلِها ؛ إذْ تحصلُ لبعضِ القلوبِ بإلهامٍ إلٰهيٍّ علىٰ سبيلِ المبادأةِ والمكاشفةِ ، ولبعضِها بتعلُّمٍ واكتسابٍ ، ثمَّ قدْ يكونُ سريعَ الحصولِ وقدْ يكونُ بطيءَ الحصولِ ، وفي هٰذا المقامِ تتباينُ منازلُ العلماءِ والحكماءِ ، والأنبياءِ والأولياءِ ، فدرجاتُ الترقِّي فيهِ غيرُ محصورةٍ ؛ إذْ معلوماتُ اللهِ سبحانَهُ لا نهايةَ لها ، وأقصى الرتبِ رتبةُ النبيِّ الذي تنكشفُ لهُ كلُّ الحقائقِ أوْ أكثرُها مِنْ غيرِ اكتسابٍ وتكلُّفٍ ، بلْ بكشفٍ إلٰهيٍّ في أسرعِ وقتٍ .

وبهٰذهِ السعادةِ يقربُ العبدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ قرْباً بالمعنىٰ والحقيقةِ والصِّفةِ[1] ، لا بالمكانِ والمسافةِ ، ومراقي هٰذهِ الدرجاتِ هيَ منازلُ السائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا حصرَ لتلكَ المنازلِ ، وإنَّما يعرفُ كلُّ سالكٍ منزلَهُ الذي بلغَهُ في سلوكِهِ ، فيعرفُهُ ويعرفُ ما خلفَهُ مِنَ المنازلِ ، فأمَّا ما بينَ يديهِ . . فلا يحيطُ بحقيقتِهِ علماً ، لٰكنْ قدْ يصدِّقُ بهِ إيماناً بالغيبِ ، كما أنَّا نؤمنُ بالنبوَّةِ والنبيِّ ونصدِّقُ بوجودِهِ ، ولٰكنْ لا يعرفُ حقيقةَ النبوَّةِ إلا النبيُّ ، وكما لا يعرفُ الجنينُ حالَ الطفلِ ، ولا الطفلُ حالَ المميِّزِ وما يُفتحُ لهُ منَ العلومِ الضروريةِ ، ولا المميِّزُ حالَ العاقلِ وما اكتسبَهُ مِنَ العلومِ النظريَّةِ . . فكذٰلكَ لا يعرفُ العاقلُ ما انفتحَ علىٰ أولياءِ اللهِ وأنبيائِهِ من مزايا لطفِهِ ورحمتِهِ ، ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ .

وهٰذهِ الرحمةُ مبذولةٌ بحكمِ الجودِ والكرمِ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالىٰ ، غيرُ مضنونٍ بها علىٰ أحدٍ ، ولٰكنْ إنَّما تظهرُ في القلوبِ المتعرِّضَةِ لنفحاتِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لربِّكُمْ في أيَّامِ دهرِكُمْ نفحاتٍ ، ألا فتعرَّضوا لها »[2] ، والتعرُّضُ لها بتطهيرِ القلبِ وتزكيتِهِ مِنَ الخبثِ والكدورةِ الحاصلةِ مِنَ الأخلاقِ المذمومةِ كما سيأتي بيانُهُ .

وإلىٰ هٰذا الجودِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينزلُ اللهُ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماءِ الدنيا فيقولُ : هلْ مِنْ داعٍ فأستجيبَ لهُ . . . » الحديثَ[3]

وبقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حكايةً عنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ : (لقدْ طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائي ، وأنا إلىٰ لقائِهِمْ أشدُّ شوقاً)[4]

وبقولِهِ تعالىٰ : « مَنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً . . تقرَّبْتُ إليهِ ذراعاً »[5]

كلُّ ذٰلكَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ أنوارَ العلومِ لمْ تحتجبْ عنِ القلوبِ لبخلٍ ومنعٍ مِنْ جهةِ المنعمِ ، تعالىٰ عنِ البخلِ والمنعِ

---

(١) وهو ما عقد له المصنف في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٢٩) فصلاً في التخلق بأخلاق الله تعالىٰ والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٣٣/١٩) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٣٣٩/٥) بنحوه .

(٣) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٣/١٠) من كلام سهل بن عبد الله يحكيه حديثاً قدسياً ، والمقدسي في « الترغيب في الدعاء » (ص ٥٣) من كلام أحمد بن مخلد الخراساني مثله ، وقد ذكره الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

علوّاً كبيراً ، ولٰكنْ حُجبَتْ لخبْثٍ وكدورةٍ وشغْلٍ مِنْ جهةِ القلوبِ ؛ فإنَّ القلوبَ كالأواني ، فما دامَتْ ممتلئةً بالماءِ لا يدخلُها الهواءُ ، فالقلوبُ المشغولةُ بغيرِ اللهِ لا تدخلُها المعرفةُ بجلالِ اللهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »(1)

ومِنْ هٰذهِ الجملةِ يتبيَّنُ أنَّ خاصِّيَّةَ الإنسانِ العلمُ والحكمةُ ، وأشرفُ أنواعِ العلمِ هوَ العلمُ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، فبِهِ كمالُ الإنسانِ ، وفي كمالِهِ سعادتُهُ وصلاحُهُ لجوارِ حضرةِ الكمالِ والجلالِ ، فالبدنُ مركبٌ للنفسِ ، والنفسُ محلٌّ للعلمِ ، والعلمُ هوَ مقصودُ الإنسانِ وخاصيَّتُهُ التي لأجلِهِ خُلِقَ .

وكما أنَّ الفرسَ يشاركُ الحمارَ في قوَّةِ الحملِ ، ويختصُّ عنهُ بخاصيَّةِ الكرِّ والفرِّ وحسنِ الهيئةِ ؛ فيكونُ الفرسُ مخلوقاً لأجلِ تلكَ الخاصيَّةِ ، فإنْ تعطَّلَتْ منهُ . . نزلَ إلىٰ حضيضِ رتبةِ الحمارِ ؛ فكذٰلكَ الإنسانُ يشاركُ الفرسَ والحمارَ في أمورٍ ، ويفارقُهُما في أمورٍ هيَ خاصِّيَّتُهُ ، وتلكَ الخاصيَّةُ مِنْ صفاتِ الملائكةِ المقرَّبينَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والإنسانُ علىٰ رتبةٍ بينَ البهائمِ والملائكةِ ؛ فإنَّ الإنسانَ مِنْ حيثُ يتغذَّىٰ وينسلُ . . فنباتٌ ، ومِنْ حيثُ يحسُّ ويتحرَّكُ بالاختيارِ . . فحيوانٌ ، ومِنْ حيثُ صورتُهُ وقامتُهُ . . فكالصورةِ المنقوشةِ على الحائطِ ، وإنَّما خاصِّيَّتُهُ معرفةُ حقائقِ الأشياءِ .

فَمنِ استعملَ جميعَ أعضائِهِ وقواهُ علىٰ وجهِ الاستعانةِ بها على العلمِ والعملِ . . فقدْ تشبَّهَ بالملائكةِ ، فحقيقٌ بأنْ يلتحقَ بهمْ ، وجديرٌ بأنْ يُسمَّىٰ مَلَكاً وربَّانياً ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنْ صواحباتِ يوسفَ : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ومَنْ صرفَ همَّتَهُ إلى اتباعِ اللذَّاتِ البدنيةِ ، يأكلُ كما تأكلُ الأنعامُ . . فقدِ انحطَّ إلىٰ حضيضِ أفقِ البهائمِ ، فيصيرُ إمَّا غُمْراً كثورٍ(2) ، وإمَّا شرهاً كخنزيرٍ ، وإمَّا ضريّاً ككلبٍ أوْ سنَّورٍ ، أوْ حقوداً كجملٍ ، أوْ متكبراً كنمرٍ ، أوْ ذا روغانٍ كثعلبٍ ، أوْ يجمعُ ذٰلكَ كلَّهُ كشيطانٍ مَريدٍ .

وما مِنْ عضوٍ مِنَ الأعضاءِ ولا حاسَّةٍ مِنَ الحواسّ إلا ويمكنُ الاستعانةُ بهِ علىٰ طريقِ الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، كما سيأتي بيانُ طرفٍ منهُ في كتابِ الشكرِ ، فَمنِ استعملَهُ فيهِ . . فقدْ فازَ ، ومَنْ عدلَ عنهُ . . فقدْ خسرَ وخابَ .

وجملةُ السعادةِ في ذٰلكَ : أنْ يجعلَ لقاءَ اللهِ تعالىٰ مقصدَهُ ، والدارَ الآخرةَ مستقرَّهُ ، والدنيا منزلَهُ ، والبدنَ مركبَهُ ، والأعضاءَ خدمَهُ ، فيستقرَّ هوَ ـ أعني : المدركَ مِنَ الإنسانِ ـ في القلبِ الذي هوَ وسَطُ مملكتِهِ كالملكِ ، ويُجري القوَّةَ الخياليَّةَ المودعةَ في مقدَّمِ الدماغِ مُجرىٰ صاحبِ بريدِهِ ؛ إذْ تجتمعُ أخبارُ المحسوساتِ عندَهُ ، ويُجري القوَّةَ الحافظةَ التي مسكنُها مؤخَّرَ الدماغِ مُجرىٰ خازنِهِ ، ويُجري اللسانَ مُجرىٰ ترجمانِهِ ، ويُجري الأعضاءَ المتحرِّكةَ مُجرىٰ كتابِهِ ، ويُجري الحواسَّ الخمسَ مُجرىٰ جواسيسِهِ ، فيوكِلُ كلَّ واحدٍ منها بأخبارِ صُقْعٍ مِنَ الأصقاعِ ، فيوكلُ العينَ بعالمِ الألوانِ ، والسمعَ بعالمِ الأصواتِ ، والشمَّ بعالمِ الأرائحِ ، وكذٰلكَ سائرُها ؛ فإنَّها أصحابُ أخبارٍ يلتقطونَها مِنْ هٰذهِ العوالمِ ، ويؤدُّونَها إلى القوَّةِ الخياليَّةِ التي هيَ كصاحبِ البريدِ ، ويسلِّمُها صاحبُ البريدِ إلى الخازنِ ، وهيَ القوَّةُ

---

(1) هو عند أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً ، ومنه : « فلما نزلت إلى السماء الدنيا . . نظرت أسفل مني ، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هٰذا يا جبريل ؟ قال : هٰذه الشياطين يحومون علىٰ أعين بني آدم ألا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذٰلك . . لرأَوُا العجائب » .

(2) **الغُمر** : الجاهل .

الحافظةُ ، ويعرضُها الخازنُ على المَلِكِ ، فيقتبسُ الملكُ منها ما يحتاجُ إليهِ في تدبيرِ مملكتِهِ ، وإتمامِ سفرِهِ الذي هوَ بصددِهِ ، وقمعِ عدوِّهِ الذي هوَ مبتلىً بهِ ، ودفعِ قواطعِ الطريقِ عليهِ .

فإذا فعلَ ذٰلكَ . . كان مَوفَّقاً سعيداً ، شاكراً نعمةَ اللهِ تعالىٰ .

وإذا عطَّلَ هٰذهِ الجملةَ ، أوِ استعملَها لٰكنْ في مراعاةِ أعدائِهِ ؛ وهيَ الشهوةُ والغضبُ وسائرُ الحظوظِ العاجلةِ ، أوْ في عمارةِ طريقِهِ دونَ منزلِهِ ؛ إذِ الدنيا طريقُهُ التي عليها عبورُهُ ، ووطنُهُ ومستقرُّهُ الآخرةُ . . كانَ مخذولاً شقياً ، كافراً بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، مضيّعاً لجنودِ اللهِ تعالىٰ ، ناصراً لأعداءِ اللهِ ، مخذِّلاً لحزبِ اللهِ ، فيستحقُّ المقتَ والإبعادَ في المنقلبِ والمعادِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ .

وإلى المثالِ الذي ضربناهُ أشارَ كعبُ الأحبارِ حيثُ قالَ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقلتُ : الإنسانُ عيناهُ هادٍ ، وأذناهُ قمعٌ ، ولسانُهُ ترجمانٌ ، ويداهُ جناحانِ ، ورجلاهُ بريدٌ ، والقلبُ منهُ مَلِكٌ ، فإذا طابَ الملكُ . . طابَتْ جنودُهُ ، فقالَتْ : هٰكذا سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ [١]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في تمثيلِ القلوبِ : (إنَّ للهِ تعالىٰ في أرضِهِ آنيةً وهيَ القلوبُ ، فأحبُّها إليهِ تعالىٰ أرقُّها وأصفاها وأصلبُها) [٢] ، ثمَّ فسَّرَ ذٰلكَ فقالَ : (أصلبُها في الدينِ ، وأصفاها في اليقينِ ، وأرقُّها على الإخوانِ) [٣] ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، قالَ أبيُّ بنُ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : معناهُ : مثلُ نورِ المؤمنِ وقلبِهِ [٤] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ مثلُ قلبِ المنافقِ [٥]

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ : هوَ قلبُ المؤمنِ [٦]

وقالَ سهلٌ : (مثلُ القلبِ والصدرِ مثلُ العرشِ والكرسيِّ) [٧]

فهٰذهِ أمثلةُ القلبِ .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٧٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٧/٦) .
(٢) قوت القلوب (١١٧/١) ، وورواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٨٤٠) عن أبي عنبة الخولاني مرفوعاً .
(٣) قوت القلوب (١١٧/١) .
(٤) رواه عنه الطبري في « تفسيره » (١٧٣/١٨/١٠) ، و« قوت القلوب » (١١٨/١) .
(٥) روى الطبري في « تفسيره » (١٩٢/١٨/١٠) عن أبي رضي الله عنه : (ضرب الله مثلاً للكافر فقال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ . . . ﴾ الآية ، قال : فهو يتقلب في خمس من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة ؛ إلى النار) ، و« قوت القلوب » (١١٨/١) .
(٦) قوت القلوب (١١٨/١) .
(٧) قوت القلوب (١١٨/١) .

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلمْ : أنَّ الإنسانَ قدِ اصطحبَ في تركيبِهِ وخلقتِهِ أربعَ شوائبَ ، فلذٰلكَ اجتمعَتْ عليهِ أربعةُ أنواعٍ مِنَ الأوصافِ ، وهيَ الصفاتُ السبعيَّةُ ، والبهيميَّةُ ، والشيطانيَّةُ ، والربَّانيَّةُ .

فهوَ مِنْ حيثُ سُلِّطَ عليهِ الغضبُ يتعاطىٰ أفعالَ السباعِ ؛ مِنَ العداوةِ والبغضاءِ ، والتهجُّمِ على الناسِ بالضربِ والشتمِ .

ومِنْ حيثُ سُلِّطَتْ عليهِ الشهوةُ يتعاطىٰ أفعالَ البهائمِ ؛ مِنَ الشرهِ والحرصِ والشبقِ وغيرِهِ .

ومِنْ حيثُ إنَّهُ في نفسِهِ أمرٌ ربَّانيٌّ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ فإنَّهُ يدَّعي لنفسِهِ الربوبيَّةَ ، ويحبُّ الاستيلاءَ والاستعلاءَ ، والتخصُّصَ والاستبدادَ بالأمورِ كلِّها ، والتفرُّدَ بالرئاسةِ ، والانسلالَ عنْ ربقةِ العبوديَّةِ والتواضعِ ، ويشتهي الاطلاعَ على العلومِ كلِّها ، بلْ يدَّعي لنفسِهِ العلمَ والمعرفةَ والإحاطةَ بحقائقِ الأمورِ ، ويفرحُ إذا نُسِبَ إلى العلمِ ويحزنُ إذا نُسبَ إلى الجهلِ ، والإحاطةُ بجميعِ الحقائقِ ، والاستيلاءُ بالقهرِ علىٰ جميعِ الخَلائقِ . . مِنْ أوصافِ الربوبيَّةِ ، وفي الإنسانِ حرصٌ علىٰ ذٰلكَ .

ومِنْ حيثُ يختصُّ عَنِ البهائمِ بالتمييزِ ، معَ مشاركتِهِ لها في الغضبِ والشهوةِ حصلَتْ فيهِ شيطانيَّةٌ ، فصارَ شريراً ، يستعملُ التمييزَ في استنباطِ وجوهِ الشرِّ ، ويتوصَّلُ إلى الأغراضِ بالمكرِ والحيلةِ والخداعِ ، ويظهرُ الشرَّ في معرضِ الخيرِ ، وهٰذهِ أخلاقُ الشياطينِ .

وكلُّ إنسانٍ فيهِ شَوْبٌ مِنْ هٰذهِ الأصولِ الأربعةِ ؛ أعني : الربانيَّةَ ، والشيطانيَّةَ ، والسبعيَّةَ ، والبهيميَّةَ ، وكلُّ ذٰلكَ مجموعٌ في القلبِ ، فكأنَّ المجموعَ في إهابِ الإنسانِ : خنزيرٌ ، وكلبٌ ، وشيطانٌ ، وحكيمٌ .

فالخنزيرُ هوَ الشهوةُ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنِ الخنزيرُ مذموماً للونِهِ وشكلِهِ وصورتِهِ ، بلْ لجشعِهِ وكَلَبِهِ وحرْصِهِ .

والكلبُ هوَ الغضبُ ؛ فإنَّ السبعَ الضاريَ والكلبَ العقورَ ليسا كلباً وسبعاً باعتبارِ الصورةِ واللونِ والشكلِ ، بلْ روحُ معنى السبعيَّةِ الضراوةُ والعدوانُ والعَقْرُ ، وفي باطنِ الإنسانِ ضراوةُ السبعِ وغضبُهُ ، وحرْصُ الخنزيرِ وشبقُهُ ، فالخنزيرُ يدعو بالشرهِ إلى الفحشاءِ والمنكرِ ، والسبعُ يدعو بالغضبِ إلى الظلمِ والإيذاءِ .

والشيطانُ لا يزالُ يهيِّجُ شهوةَ الخنزيرِ وغيظَ السبعِ ، ويغري أحدَهُما بالآخرِ ، ويحسِّنُ لهما ما هما مجبولانِ عليهِ .

والحكيمُ الذي هوَ مثالُ العقلِ مأمورٌ بأنْ يدفعَ كيدَ الشيطانِ ومكرَهُ ؛ بأنْ يكشفَ عنْ تلبيسِهِ ببصيرتِهِ النافذةِ ، ونورِهِ المشرقِ الواضحِ ، وأنْ يكسرَ شرهَ هٰذا الخنزيرِ بتسليطِ الكلبِ عليهِ ، إذْ بالغضبِ يكسرُ سورةَ الشهوةِ ، ويدفعُ ضراوةَ الكلبِ بتسليطِ الخنزيرِ عليهِ ، ويجعلُ الكلَّ مقهوراً تحتَ سياستِهِ .

فإنْ فعلَ ذٰلكَ وقدرَ عليهِ . . اعتدلَ الأمرُ ، وظهرَ العدلُ في مملكةِ البدنِ ، وجرى الكلُّ على الصراطِ المستقيمِ .

وإنْ عجزَ عنْ قهرِهِمْ . . قهروهُ واستخدموهُ ، فلا يزالُ في استنباطِ الحيلِ وتدقيقِ الفكرِ ليشبعَ الخنزيرَ ، ويرضيَ الكلبَ ، فيكونَ دائماً في عبادةِ كلبٍ وخنزيرٍ ، وهٰذا حالُ أكثرِ الناسِ مهما كانَ أكثرُ همَّتِهِمُ البطنَ والفرجَ ومنافسةَ الأعداءِ .

والعجبُ منهُ أنَّهُ ينكرُ على عبدةِ الأصنامِ عبادتَهُمْ للحجارةِ ، ولوْ كُشِفَ الغطاءُ عنهُ ، وكُوشفَ بحقيقةِ حالِهِ ، ومثّلَ لهُ حقيقةُ حالِهِ كما يمثُلُ للمكاشفينَ ؛ إمَّا في النومِ ، أوْ في اليقظةِ . . لرأىٰ نفسَهُ ماثلاً بينَ يدي خنزيرٍ ، ساجداً لهُ مرَّةً ، وراكعاً أخرىٰ ، ومنتظراً لإشارتِهِ وأمرِهِ ، ومهما هاجَ الخنزيرُ لطلبِ شيءٍ مِنْ شهواتِهِ . . انبعثَ على الفورِ في خدمتِهِ وإحضارِ شهوتِهِ ، أوْ رأىٰ نفسَهُ ماثلاً بينَ يدي كلبٍ عقورٍ ، عابداً لهُ ، مطيعاً سامعاً لما يقتضيهِ ويلتمسُهُ ، مدققاً للفكرِ في حيلِ الوصولِ إلىٰ طاعتِهِ ، وهوَ بذلكَ ساعٍ في مسرَّةِ شيطانِهِ ؛ فإنَّهُ الذي يهيِّجُ الخنزيرَ ويثيرُ الكلبَ ، ويبعثُهُما على استخدامِهِ ، فهوَ مِنْ هـٰذا الوجهِ يعبدُ الشيطانَ بعبادتِهِما [1]

فليراقبْ كلُّ عبدٍ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وسكوتَهُ ونطقَهُ ، وقيامَهُ وقعودَهُ ، ولينظرْ بعينِ البصيرةِ ؛ فإنَّهُ لا يرىٰ ـ إنْ أنصفَ ـ نفسَهُ إلا ساعياً طولَ النهارِ في عبادةِ هـٰؤلاءِ ، وهـٰذا غايةُ الظلمِ ؛ إذ جعلَ المالكَ مملوكاً ، والربَّ مربوباً ، والسيِّدَ عبْداً ، والقاهرَ مقهوراً ؛ إذِ العقلُ هوَ المستحقُّ للسيادةِ والقهرِ والاستيلاءِ ، وقدْ سخَّرَهُ لخدمةِ هـٰؤلاءِ الثلاثةِ ، فلا جرمَ ينتشرُ إلىٰ قلبِهِ مِنْ طاعةِ هـٰؤلاءِ الثلاثةِ صفاتٌ تتراكمُ عليهِ ، حتَّىٰ يصيرَ طابعاً وريْناً مهلكاً للقلبِ ومميتاً لهُ .

أمَّا طاعةُ خنزيرِ الشهوةِ . . فيصدرُ منها صفةُ الوقاحةِ ، والخبْثِ ، والتبذيرِ والتقتيرِ ، والرياءِ ، والهتكةِ ، والمجانةِ ، والعبثِ ، والحرصِ والجشعِ ، والملقِ والحسدِ ، والحقدِ ، والشماتةِ ، وغيرِها .

وأمَّا طاعةُ كلبِ الغضبِ . . فتنتشرُ منها إلى القلبِ صفةُ التهوُّرِ ، والنذالةِ [2] ، والبذْخِ والصلفِ والاستشاطةِ ، والتكبُّرِ والعجْبِ ، والاستهزاءِ والاستخفافِ وتحقيرِ الخلقِ ، وإرادةِ الشرِّ وشهوةِ الظلمِ ، وغيرِها .

وأمَّا طاعةُ الشيطانِ بطاعةِ الشهوةِ والغضبِ . . فيحصلُ منها صفةُ المكرِ والخداعِ ، والحيلةِ والدهاءِ ، والجَرْبَزَةِ [3] ، والتلبيسِ ، والتضريبِ ، والغشِّ ، والخِبِّ ، والخنا ، وأمثالِها .

ولوْ عكسَ الأمرَ ، وقهرَ الجميعَ تحتَ سياسةِ الصفةِ الربَّانيَّةِ . . لاستقرَّ في القلبِ مِنَ الصفاتِ الربانيَّةِ العلمُ والحكمةُ واليقينُ ، والإحاطةُ بحقائقِ الأشياءِ ، ومعرفةُ الأمورِ علىٰ ما هيَ عليهِ ، والاستيلاءُ على الكلِّ بقوَّةِ العلمِ والبصيرةِ ، واستحقاقُ التقدُّمِ على الخلْقِ بكمالِ العلمِ وجلالِهِ ، ولاستغنىٰ عنْ عبادةِ الشهوةِ والغضبِ .

فينتشرُ إليهِ مِنْ ضبطِ خنزيرِ الشهوةِ وردِّهِ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ صفاتٌ شريفةٌ ؛ مثلُ العفَّةِ ، والقناعةِ ، والهدوءِ ، والزهدِ ، والورعِ ، والتقوىٰ ، والانبساطِ ، وحسنِ الهيئةِ ، والحياءِ ، والظَّرْفِ ، والمساعدةِ ، وأمثالِها .

ويحصلُ فيهِ مِنْ ضبطِ قوَّةِ الغضبِ وقهرِها ، وردِّها إلىٰ حدِّ الواجبِ صفةُ الشجاعةِ ، والكرمِ ، والنجدةِ ، وضبطِ النفسِ ، والصبرِ ، والحلمِ ، والاحتمالِ ، والعفوِ ، والثباتِ ، والنبْلِ ، والشهامةِ ، والوقارِ ، وغيرِها .

والقلبُ في حكمِ مرآةٍ قدِ اكتنفَتْهُ هـٰذهِ الأمورُ المؤثِّرةُ فيهِ ، وهـٰذهِ الآثارُ على التوالي واصلةٌ إلى القلبِ .

❁ ❁ ❁

(١) فكيف ينكر من هو مثل هـٰذا علىٰ عبدة الأصنام مع إقرارهم بأنهم إنما يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفىٰ ، وعابد الخنزير والكلب أسوأ حالاً منهم لفواتهم تلك النية ؟! « إتحاف » (٢٢٧/٧) .

(٢) في (ب) : (البذاءة) بدل (النذالة) ، وعند الحافظ الزبيدي : (البذالة) . « إتحاف » (٢٢٨/٧) .

(٣) الجربزة : لفظة فارسية ، معناها المكر والاحتيال ، وتأتي بمعنى الجرأة كذلك .

أمَّا الآثارُ المحمودةُ التي ذكرناها . . فإنَّها تزيدُ مرآةَ القلبِ جلاءً وإشراقاً ، ونوراً وضياءً ، حتَّىٰ يتلألأَ فيهِ جليَّةُ الحقِّ ، وينكشفَ فيهِ حقيقةُ الأمرِ المطلوبِ في الدينِ .

وإلىٰ مثلِ هـٰذا القلبِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . جعلَ لهُ واعظاً مِنْ قلبِهِ »(١) .

وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ مِنْ قلبِهِ واعظٌ . . كانَ عليهِ مِنَ اللهِ حافظٌ »(٢)

وهـٰذا القلبُ هوَ الذي يستقرُّ فيهِ الذكرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(٣)

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ المذمومةُ . . فإنَّها مثلُ دخانٍ مظلمٍ يتصاعدُ إلىٰ مرآةِ القلبِ ، ولا يزالُ يتراكَمُ عليهِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ إلىٰ أنْ يسودَّ ويظلمَ ، ويصيرَ بالكليَّةِ محجوباً عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ الطبْعُ ، وهوَ الرينُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، فربطَ عدمَ السماعِ بالطبعِ بالذنوبِ كما ربطَ السماعَ بالتقوىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾

ومهما تراكمَتِ الذنوبُ . . طُبِعَ على القلبِ ، وعندَ ذٰلك يَعمى القلبُ عنْ إدراكِ الحقِّ وصلاحِ الدينِ ، ويستهينُ بأمرِ الآخرةِ ، ويستعظمُ أمرَ الدنيا ، ويصيرُ مقصورَ الهمِّ عليها .

وإذا قرعَ سمعَهُ أمرُ الآخرةِ وما فيها مِنَ الأخطارِ . . دخلَ مِنْ أذنٍ وخرجَ مِنْ أخرىٰ ، ولمْ يستقرَّ في القلبِ ، ولمْ يحرِّكْهُ إلى التوبةِ والتداركِ ، أولـٰئكَ الذينَ يئسوا مِنَ الآخرةِ كما يئسَ الكفَّارُ مِنْ أصحابِ القبورِ ، وهـٰذا هوَ معنى اسودادِ القلبِ بالذنوبِ كما نطقَ بهِ القرآنُ والسنةُ .

قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (إذا أذنبَ العبدُ ذنباً . . نُكِتَ في قلبِهِ نكتةٌ سوداءُ ، فإنْ هوَ نزعَ وتابَ . . صُقِلَ ، وإنْ عادَ . . زيدَ فيها حتَّىٰ يعلوَ قلبَهُ ، فهوَ الرانُ)(٤)

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ أجردُ ، فيهِ سراجٌ يزهرُ ، وقلبُ الكافرِ أسودُ منكوسٌ »(٥) ، فطاعةُ اللهِ تعالىٰ بمخالفةِ الشهواتِ مصقلةٌ للقلبِ ، ومعاصيهِ مسوِّداتٌ لهُ ، فمَنْ أقبلَ على المعاصي . . اسودَّ قلبُهُ ،

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أم سلمة ، وإسناده جيد) « إتحاف » (٢٢٨/٧) ، وزاد الحافظ الزبيدي : (رواه ابن لال في « مكارم الأخلاق » ، ومن طريقه أورده الديلمي ، ولفظه : « جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه » ، ولفظ « القوت » [١١٥/١] : وفي الخبر : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . جعل له زاجراً من نفسه وواعظاً من قلبه » ، قلت : وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » [٢٦٤/٢] من قول ابن سيرين بزيادة : « يأمره وينهاه ») .

(٢) كذا في « قوت القلوب » (١١٥/١) غير أنه قال : (وفي الخبر . . .) وذكره ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥٥/٦) عن أبي الجلد قال : (قرأت في الحكمة : من كان له من نفسه واعظ . . كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه . . زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية) .

(٣) ولولا أن الذكر استقر فيه . . ما اطمأن إليه . « إتحاف » (٢٢٨/٧) .

(٤) كذا رواه عنه أبو طالب في « القوت » (١١٣/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨٩/٤) ، ورواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً الترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٩٣٠) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (١٧/٣) ، والطبراني في « الصغير » (١٠٩/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٨٥/٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، وتمامه في الحديث بعده .

ومَنْ أتبعَ السيئةَ الحسنةَ ، ومحا أثرَها . . لمْ يظلمْ قلبُهُ ، ولـٰكنْ ينقصُ نورُهُ ؛ كالمرآةِ التي يُتنفَّسُ فيها ثمَّ تُمسحُ ، ويُتنفَّسُ ثمَّ تُمسحُ ؛ فإنَّها لا تخلو عنْ كدورةٍ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القلوبُ أربعةٌ : قلبٌ أجردُ فيهِ سراجٌ يزهرُ ، فذٰلكَ قلبُ المؤمنِ ، وقلبٌ أسودُ منكوسٌ ، فذٰلكَ قلبُ الكافرِ ، وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ علىٰ غلافِهِ ، فذٰلكَ قلبُ المنافقِ ، وقلبٌ مصفحٌ فيهِ إيمانٌ ونفاقٌ ، فمثلُ الإيمانِ فيهِ كمثلِ البقلةِ يمدُّها الماءُ الطَّيِّبُ ، ومثلُ النِّفاقِ فيهِ كمثلِ القرحةِ يمدُّها القيحُ والصديدُ ، فأيُّ المادَّتينِ غلبَتْ عليهِ . . حُكِمَ لهُ بها » ، وفي روايةٍ : « ذهبَتْ بهِ »[1]

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ ، فأخبرَ أنَّ جلاءَ القلبِ وإبصارَهُ يحصلُ بالذكرِ ، وأنَّهُ لا يتمكنُ منهُ إلا الذينَ اتقوا ، فالتقوىٰ بابُ الذكرِ ، والذكرُ بابُ الكشفِ ، والكشفُ بابُ الفوزِ الأكبرِ ، وهوَ الفوزُ بلقاءِ اللهِ تعالىٰ .

* * *

(١) هو تمام الحديث قبله ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٦/١) .

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلمْ : أنَّ محلَّ العلمِ هوَ القلبُ ؛ أعني : اللطيفةَ المدبِّرةَ لجميعِ الجوارحِ ، المطاعةَ المخدومةَ مِنْ بينِ سائرِ الأعضاءِ ، وهيَ بالإضافةِ إلىٰ حقائقِ المعلوماتِ كالمرآةِ بالإضافةِ إلىٰ صورِ المتلوِّناتِ ، فكما أنَّ للمتلوِّنِ صورةً ، ومثالُ تلكَ الصورةِ ينطبعُ في المرآةِ ويحصلُ بها . . فكذٰلكَ لكلِّ معلومٍ حقيقةٌ ، ولتلكَ الحقيقةِ صورةٌ تنطبعُ في مرآةِ القلبِ وتتضحُ فيها ، وكما أنَّ المرآةَ غيرٌ ، وصورُ الأشخاصِ غيرٌ ، وحصولُ مثالِها في المرآةِ غيرٌ ، فهيَ ثلاثةُ أمورٍ . . فكذٰلكَ ها هنا ثلاثةُ أمورٍ : القلبُ ، وحقائقُ الأشياءِ ، وحصولُ نفسِ الحقائقِ في القلبِ وحضورُها فيهِ .

فالعالمُ عبارةٌ عنِ القلبِ الذي فيهِ يحلُّ مثالُ حقائقِ الأشياءِ ، والمعلومُ عبارةٌ عنْ حقائقِ الأشياءِ ، والعلمُ عبارةٌ عنْ حصولِ المثالِ في المرآةِ .

وكما أنَّ القبضَ مثلاً يستدعي قابضاً كاليدِ ، ومقبوضاً كالسيفِ ، ووصولاً بينَ اليدِ والسيفِ بحصولِ السيفِ في اليدِ ويُسمَّىٰ قبضاً . . فكذٰلكَ وصولُ مثالِ المعلومِ إلى القلبِ يُسمَّىٰ علماً ، وقدْ كانَتِ الحقيقةُ موجودةً ، والقلبُ موجوداً ، ولمْ يكنِ العلمُ حاصلاً ؛ لأنَّ العلمَ عبارةٌ عنْ وصولِ الحقيقةِ إلى القلبِ ، كما أنَّ السيفَ موجودٌ ، واليدَ موجودةٌ ، ولمْ يكنِ اسمُ القبضِ والأخذِ حاصلاً ؛ لعدمِ وقوعِ السيفِ في اليدِ .

نعم ؛ القبضُ عبارةٌ عنْ حصولِ السيفِ بعينِهِ في اليدِ ، والمعلومُ بعينِهِ لا يحصلُ في القلبِ ، فمَنْ علمَ النارَ . . لمْ تحصلْ عينُ النارِ في قلبِهِ ، ولٰكنَّ الحاصلَ حدُّها وحقيقتُها المطابقةُ لصورتِها ، فتمثيلُهُ بالمرآةِ أولىٰ ؛ لأنَّ عينَ الإنسانِ لا تحصلُ في المرآةِ ، وإنَّما يحصلُ مثالٌ مطابقٌ لهُ ، فكذٰلكَ حصولُ مثالٍ مطابقٍ لحقيقةِ المعلومِ في القلبِ يُسمَّىٰ علماً .

❀ ❀ ❀

وكما أنَّ المرآةَ لا تنكشفُ فيها الصورُ لخمسةِ أمورٍ :

أحدُها : نقصانُ صورتِها ؛ كجوهرِ الحديدِ قبلَ أنْ يُدوَّرَ ويُشكَّلَ ويُصقلَ .

والثاني : لخبثِهِ وصدئِهِ وكدورتِهِ وإنْ كانَ تامَّ الشكلِ .

والثالثُ : لكونِهِ معدولاً بهِ عنْ جهةِ الصورةِ إلىٰ غيرِها ؛ كما إذا كانَتِ الصورةُ وراءَ المرآةِ .

والرابعُ : لحجابٍ مرسلٍ بينَ المرآةِ والصورةِ .

والخامسُ : للجهلِ بالجهةِ التي فيها الصورةُ المطلوبةُ ، حتَّىٰ يتعذَّرَ بسببِهِ أنْ يحاذيَ بها شطرَ الصورةِ وجهتَها .

فكذٰلكَ القلبُ مرآةٌ مستعدةٌ لأنْ ينجليَ فيها حقيقةُ الحقِّ في الأمورِ كلِّها .

وإنَّما خلَتِ القلوبُ عنِ العلومِ التي خلَتْ عنها لهٰذهِ الأسبابِ الخمسةِ :

أولُها : نقصانٌ في ذاتِ القلبِ :

كقلبِ الصبيِّ ؛ فإنَّهُ لا تتجلَّىٰ لهُ المعلوماتُ لنقصانِهِ .

والثاني : لكدورةِ المعاصي والخبَثِ الذي يتراكمُ علىٰ وجهِ القلبِ مِنْ كثرةِ الشهواتِ :

فإنَّ ذٰلكَ يمنعُ صفاءَ القلبِ وجلاءَهُ ، فيمنعُ ظهورَ الحقِّ فيهِ ؛ لظلمتِهِ وتراكمِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لمْ يعدْ إليهِ أبداً »(١) ؛ أيْ : حصلَ في قلبِهِ كدورةٌ لا يزولُ أثرُها أبداً ؛ إذْ غايتُهُ أنْ يتبعَهُ بحسنةٍ تمحوها ، فلوْ جاءَ بالحسنةِ ولمْ تتقدَّمِ السيئةُ . . لازدادَ ـ لا محالةَ ـ إشراقُ القلبِ ، فلمَّا تقدمَتِ السيئةُ . . سقطَتْ فائدةُ الحسنةِ ، لٰكنْ عادَ القلبُ بها إلىٰ ما كانَ قبلَ السيئةِ ، ولمْ يزددْ بها نوراً ، فهٰذا خسرانٌ مبينٌ ، ونقصانٌ لا حيلةَ لهُ ، فليسَتِ المرآةُ التي تتدنَّسُ ثمَّ تُمسحُ بالمصقلةِ كالتي تُمسحُ بالمصقلةِ لزيادةِ جلائِها مِنْ غيرِ دنسٍ سابقٍ .

فالإقبالُ علىٰ طاعةِ اللهِ والإعراضُ عنْ مقتضى الشهواتِ هوَ الذي يجلو القلبَ ويصفيهِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علمَ . . ورَّثَهُ اللهُ علمَ ما لمْ يعلمْ »(٢)

الثالثُ : أنْ يكونَ معدولاً بِهِ عنْ جهةِ الحقيقةِ المطلوبةِ :

فإنَّ قلبَ المطيعِ الصالحِ وإنْ كانَ صافياً فإنَّهُ ليسَ يتضحُ فيهِ جليَّةُ الحقِّ ؛ لأنَّهُ ليسَ يطلبُ الحقَّ ، وليسَ محاذياً بمرآتِهِ شطرَ المطلوبِ ، بلْ ربَّما يكونُ مستوعبَ الهمِّ بتفصيلِ الطاعاتِ البدنيَّةِ ، أوْ بتهيئةِ أسبابِ المعيشةِ ، ولا يصرفُ فكرَهُ إلى التأمُّلِ في حضرةِ الربوبيَّةِ ، والحقائقِ الخفيَّةِ الإلٰهيةِ ، فلا ينكشفُ لهُ إلا ما هوَ متفكرٌ فيهِ مِنْ دقائقِ آفاتِ الأعمالِ وخفايا عيوبِ النفسِ إنْ كانَ متفكِّراً فيها ، أوْ مصالحِ المعيشةِ إنْ كان متفكِّراً فيها .

وإذا كانَ تقييدُ الهمِّ بالأعمالِ وتفصيلِ الطاعاتِ مانعاً عنِ انكشافِ جليَّةِ الحقِّ . . فما ظنُّكَ فيمَنْ صرفَ الهمَّ إلىٰ شهواتِ الدنيا ولذَّاتِها وعلائقِها ؟! فكيفَ لا يُمنعُ عنِ الكشفِ الحقيقيِّ ؟!

الرابعُ : الحجابُ :

فإنَّ المطيعَ القاهرَ لشهواتِهِ ، المتجرِّدَ الفكرِ في حقيقةٍ مِنَ الحقائقِ قدْ لا ينكشفُ لهُ ذٰلكَ ؛ لكونِهِ محجوباً عنهُ باعتقادٍ سبقَ إليهِ منذُ الصبا علىٰ سبيلِ التقليدِ والقبولِ بحسنِ الظنِّ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يحولُ بينَهُ وبينَ حقيقةِ الحقِّ ، ويمنعُ مِنْ أنْ ينكشفَ في قلبِهِ خلافُ ما تلقَّفَهُ مِنْ ظاهرِ التقليدِ .

وهٰذا أيضاً حجابٌ عظيمٌ ، بِهِ حُجِبَ أكثرُ المتكلِّمينَ والمتعصِّبينَ للمذاهبِ ، بلْ أكثرُ الصالحينَ المتفكِّرينَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ؛ لأنَّهُمْ محجوبونَ باعتقاداتٍ تقليديَّةٍ جمدَتْ في نفوسِهِمْ ، ورسخَتْ في قلوبِهِمْ ، وصارَتْ حجاباً بينَهُمْ وبينَ درْكِ الحقائقِ .

الخامسُ : الجهلُ بالجهةِ التي يقعُ منها العثورُ على المطلوبِ :

فإنَّ طالبَ العلمِ ليسَ يمكنُهُ أنْ يحصِّلَ العلمَ بالمجهولِ إلا بالتذكُّرِ للعلومِ التي تناسبُ مطلوبَهُ ، حتىٰ إذا تذكَّرَها ورتَّبَها في نفسِهِ ترتيباً مخصوصاً يعرفُهُ العلماءُ بطرقِ الاعتبارِ . . فعندَ ذٰلكَ يكونُ قدْ عثرَ علىٰ جهةِ المطلوبِ ، فتنجلي

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٧/٢٣١) ، وسيأتي للمصنف غير مرة .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٤) .

حقيقةُ المطلوبِ لقلبِهِ ، فإنَّ العلومَ المطلوبةَ التي ليسَتْ فطريةً[1] لا تُقتنصُ إلا بشبكةِ العلومِ الحاصلةِ ، بلْ كلُّ علمٍ لا يحصلُ إلا عنْ علمينِ سابقينِ يأتلفانِ ويزدوجانِ على وجهٍ مخصوصٍ ، فيحصلُ مِن ازدواجِهما علمٌ ثالثٌ على مثالِ ما يحصلُ النِّتاجُ مِن ازدواجِ الذكرِ والأنثىٰ ، ثمَّ كما أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يستنتجَ رمكةً لمْ يمكنْهُ ذٰلكَ مِنْ حمارٍ وبعيرٍ وإنسانٍ[2] ، بلْ مِنْ أصلٍ مخصوصٍ مِنَ الخيلِ الذكرِ والأنثىٰ ، وذٰلكَ إذا وقعَ بينهما ازدواجٌ مخصوصٌ . . فكذٰلكَ كلُّ علمٍ فلَهُ أصلانِ مخصوصانِ ، وبينَهُما طريقٌ في الازدواجِ يحصلُ مِن ازدواجِهما العلمُ المستفادُ المطلوبُ .

فالجهلُ بتلكَ الأصولِ وبكيفيةِ الازدواجِ هوَ المانعُ مِنَ العلمِ ، ومثالُهُ : ما ذكرناهُ مِنَ الجهلِ بالجهةِ التي الصورةُ فيها ، بلْ مثالُهُ : أنْ يريدَ الإنسانُ أنْ يرىٰ قفاهُ مثلاً في المرآةِ ، فإنَّهُ إنْ رفعَ المرآةَ بإزاءِ وجهِهِ . . لمْ يكنْ قدْ حاذىٰ بها شطرَ القفا ، فلا يظهرُ فيها القفا ، وإنْ رفعَها وراءَ القفا وحاذاهُ . . كانَ قدْ عدلَ بالمرآةِ عنْ عينِهِ ، فلا يرى المرآةَ ولا صورةَ القفا فيها ، فيحتاجُ إلىٰ مرآةٍ أخرىٰ ينصبُها وراءَ القفا ، وهٰذهِ في مقابلتِها بحيثُ يبصرُها ، ويرعىٰ مناسبةً بينَ وضعِ المرآتينِ حتَّىٰ تنطبعَ صورةُ القفا في المرآةِ المحاذيةِ للقفا ، ثمَّ تنطبعَ صورةُ هٰذهِ المرآةِ في المرآةِ الأخرى التي في مقابلةِ العينِ ، ثمَّ تدركَ العينُ صورةَ القفا ؛ فكذٰلكَ في اقتناصِ العلومِ طرقٌ عجيبةٌ ، فيها ازوراراتٌ وتحريفاتٌ أعجبُ ممَّا ذكرناهُ في المرآةِ ، يعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يهتدي إلىٰ كيفيَّةِ الحيلةِ في تلكَ الازوراراتِ .

❁ ❁ ❁

فهٰذهِ هيَ الأسبابُ المانعةُ للقلوبِ مِنْ معرفةِ حقائقِ الأمورِ ، وإلا . . فكلُّ قلبٍ فهوَ بالفطرةِ صالحٌ لمعرفةِ الحقائقِ ؛ لأنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ شريفٌ ، فَارقَ سائرَ الجواهرِ بهٰذهِ الخاصيَّةِ والشرفِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ إشارةً إلىٰ أنَّ لهُ خاصيَّةً تميَّزَ بها عنِ السماواتِ والأرضِ والجبالِ ، بها صارَ مطيقاً لحملِ أمانةِ اللهِ تعالىٰ ، وتلكَ الأمانةُ هيَ المعرفةُ والتوحيدُ .

وقلبُ كلِّ آدميّ مستعدٌّ لحملِ الأمانةِ ومطيقٌ لها في الأصلِ ، ولٰكنْ يثبِّطُهُ عنِ النهوضِ بأعبائِها والوصولِ إلىٰ تحقيقِها الأسبابُ التي ذكرناها ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ ، فأبواهُ يهوِّدانِهِ وينصِّرانِهِ ويمجِّسانِهِ »[3]

وقولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »[4] إشارةٌ إلىٰ بعضِ هٰذهِ الأسبابِ التي هيَ الحجابُ بينَ القلبِ وبينَ الملكوتِ .

وإليهِ الإشارةُ بما رُويَ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قيلَ لرسولِ اللهِ : يا رسولَ اللهِ ؛ أينَ اللهُ ؛ في الأرضِ أوْ في السماءِ ؟ قالَ : « في قلوبِ عبادِهِ المؤمنينَ »[5]

---

(١) في (أ) : (أولية) بدل (فطرية) .

(٢) الرَّمَكَة : الأنثىٰ من البراذين .

(٣) رواه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، واللام في قوله : (الفطرة) للعهد ، والمعهود : فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ أي : الخلقة التي خلق الناس عليها من الاستعداد لقبول الدين والتهيؤ للتمييز بين الخطأ والصواب . « إتحاف » (٢٣٣/٧) ، وفي رواية عند مسلم لهٰذا الحديث تؤكد ما بيَّنه المصنف هنا أن المراد بالفطرة : الاستعداد لحمل الأمانة ، لا وجود معارف سابقة ، وهي : « كل إنسان تلده أمه على الفطرة ، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، فإن كانا مسلمين . . فمسلم . . » الرواية .

(٤) هو عند أحمد في « المسند » (٣٥٣/٢) ضمن قصة الإسراء .

(٥) قوت القلوب (١١٨/١) .

وفي الخبرِ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : لمْ يسعْني أرضي ولا سمائي ، ووسعَني قلبُ عبديَ المؤمنِ اللينِ الوادعِ »[1]

وفي الخبرِ : أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ خيرُ الناسِ ؟ فقالَ : « كلُّ مؤمنٍ مخمومِ القلبِ » ، فقيلَ : وما مخمومُ القلبِ ؟ فقالَ : « هوَ التقيُّ النقيُّ ، الذي لا غشَّ فيهِ ولا بغيَ ، ولا غدرَ ولا غلَّ ولا حسدَ »[2]

ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (رأىٰ قلبي ربّي) ، إذْ كانَ قدْ رفعَ الحجابَ بالتقوىٰ .

❁ ❁ ❁

ومَنِ ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ ربِّهِ . . تجلَّىٰ صورةُ المُلْكِ والملكوتِ في قلبِهِ ، فيرىٰ جنَّةً عرضُ بعضِها السماواتُ والأرضُ ، أمَّا جملتُها . . فأكثرُ سَعةً مِنَ السماواتِ والأرضِ ؛ لأنَّ السماواتِ والأرضَ عبارةٌ عنْ عالمِ المُلْكِ والشهادةِ ، وهوَ وإنْ كانَ واسعَ الأطرافِ ، متباعدَ الأكنافِ . . فهوَ متناهٍ على الجملةِ ، وأمَّا عالمُ الملكوتِ ، وهوَ الأسرارُ الغائبةُ عنْ مشاهدةِ الأبصارِ ، المخصوصةُ بإدراكِ البصائرِ . . فلا نهايةَ لهُ[3]

نعم ؛ الذي يلوحُ للقلبِ منهُ مقدارٌ متناهٍ ، ولٰكنَّهُ في نفسِهِ وبالإضافةِ إلىٰ علمِ اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لهُ .

وجملةُ عالمِ المُلْكِ والملكوتِ إذا أُخذَتْ دفعةً واحدةً تُسمَّى الحضرةَ الربوبيَّةَ ؛ لأنَّ الحضرةَ الربوبيَّةَ محيطةٌ بكلِّ الموجوداتِ ؛ إذْ ليسَ في الوجودِ شيءٌ سوى اللهِ تعالىٰ وأفعالِهِ ، ومملكتُهُ وعبيدُهُ مِنْ أفعالِهِ ، فما يتجلَّىٰ مِنْ ذٰلكَ للقلبِ هوَ الجنَّةُ بعينِها عندَ قومٍ ، وهوَ سببُ استحقاقِ الجنَّةِ عندَ أهلِ الحقِّ ، ويكونُ سعةُ ملكِهِ في الجنَّةِ بحسبِ سعةِ معرفتِهِ ، وبمقدارِ ما تجلَّىٰ لهُ مِنَ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وإنَّما مرادُ الطاعاتِ وأعمالِ الجوارحِ كلِّها تصفيةُ القلبِ وتزكيتُهُ وجلاؤُهُ ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، ومرادُ تزكيتِهِ حصولُ أنوارِ الإيمانِ فيهِ ؛ أعني : إشراقَ نورِ المعرفةِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

نعمْ ؛ هٰذا التجلي وهٰذا الإيمانُ لهُ ثلاثُ مراتبَ :

المرتبةُ الأولىٰ : إيمانُ العوامِّ : وهوَ إيمانُ التقليدِ المحضِ .

والثانيةُ : إيمانُ المتكلمينَ : وهوَ ممزوجٌ بنوعِ استدلالٍ ، ودرجتُهُ قريبةٌ من درجةِ إيمانِ العوامِّ .

---

(١) قوت القلوب (١١٨/١) ، وقد أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٦) من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه ، ورواه أحمد في « الزهد » (٤٢٣) عن وهب بن منبه ، قال : إن الله عز وجل فتح السماوات لحزقيل حتىٰ نظر إلى العرش أو كما قال ، فقال حزقيل : سبحانك ما أعظمك يا رب !! فقال الله : إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملني ، وضقنَ من أن تسعني ، ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين . وفي « الرسالة القشيرية » (ص ٣٨٥) : (وفي بعض الكتب : أن موسىٰ عليه السلام قال : يا رب ؛ أين تسكن ؟ فأوحى الله تعالىٰ إليه : في قلب عبدي المؤمن . ومعناه : سكون الذكر في القلب ؛ فإن الحق سبحانه وتعالىٰ منزه عن كل سكون وحلول ، وإنما هو إثبات ذكر وتحصيل) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٣٤/٧) : (ويشهد لصحة معناه حديث أبي عنبة الخولاني المار ذكره قريباً عن الطبراني ، وهٰذا القدر يكفي للصوفي ، ولا يعترض عليه إذا عزاه إلىٰ حضرة الرسالة ، والإنصاف من أوصاف المؤمنين) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢١٦) بنحوه ، وأصل الخمّ في المعنى : الكنْس والتنقية .

(٣) لسعته ، وعالم الشهادة بالنسبة إلىٰ عالم الملكوت كالقشرة بالنسبة إلى اللب ، وكالصورة والقالب بالنسبة للروح ، وكالظلمة بالنسبة إلى النور ، وكالسفل بالنسبة إلى العلو ، ولذٰلك يسمىٰ عالم الملكوت العالمَ العلوي ، والعالم الروحاني ، والعالم النوراني ، وفي مقابلته العالم السفلي والجسماني والظلماني . « إتحاف » (٢٣٥/٧) ، وأصله من كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » .

والثالثةُ : **إيمانُ العارفينَ** : وهوَ المشاهدةُ بنورِ اليقينِ [١]

❁ ❁ ❁

ونبيِّنُ لكَ هاذهِ المراتبَ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ تصديقَكَ بكونِ زيدٍ مثلاً في الدارِ لهُ ثلاثُ درجاتٍ :

الأولىٰ : أنْ يخبرَكَ بهِ مَنْ جرَّبتَهُ بالصدْقِ ، ولمْ تعرفْهُ بالكذبِ ، ولا اتهمتَهُ في القولِ ، فإنَّ قلبَكَ يسكنُ إليهِ ، ويطمئنُّ بخبرِهِ بمجرَّدِ السماعِ ، وهاذا هوَ الإيمانُ بمجرَّدِ التقليدِ ، وهوَ مثلُ إيمانِ العوامِّ ؛ فإنَّهُمْ لمَّا بلغوا سنَّ التمييزِ . . سمعوا مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ وجودَ اللهِ تعالىٰ ، وعلمِهِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ وسائرِ صفاتِهِ ، وبعثةِ الرسلِ وصدقِهِمْ وما جاؤوا بهِ ، وكما سمعوا بهِ . . قبلوهُ ، وثبتوا عليهِ ، واطمأنوا إليهِ ، ولمْ يخطرْ ببالِهِمْ خلافُ ما قالوهُ لهُمْ ؛ لحسنِ ظنِّهِمْ بآبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ ومعلِّميهِمْ .

وهاذا الإيمانُ سببُ النجاةِ في الآخرةِ ، وأهلُهُ مِنْ أوائلِ رتبِ أصحابِ اليمينِ ، وليسوا مِنَ المقرَّبينَ ؛ لأنَّهُ ليسَ فيهِ كشفٌ وبصيرةٌ وانشراحُ صدرٍ بنورِ اليقينِ ؛ إذِ الخطأُ ممكنٌ فيما سُمعَ مِنَ الآحادِ ـ بلْ مِنَ الأعدادِ ـ فيما يتعلَّقُ بالاعتقاداتِ ، فقلوبُ اليهودِ والنصارىٰ أيضاً مطمئنةٌ بما يسمعونَهُ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ إلا أنَّهُمْ اعتقدوا ما اعتقدوهُ خطأً لأنَّهُمْ أُلقيَ إليهِمُ الخطأُ ، والمسلمونَ اعتقدوا الحقَّ ، لا لاطلاعِهِمْ عليهِ ، ولاكنْ أُلقيَ إليهِمْ كلمةُ الحقِّ [٢]

❁ ❁ ❁

الرتبةُ الثانيةُ : أنْ تسمعَ كلامَ زيدٍ وصوتَهُ مِنْ داخلِ الدارِ ، ولاكنْ مِنْ وراءِ جدارٍ ، فتستدلَّ بهِ علىٰ كونِهِ في الدارِ ، فيكونَ إيمانُكَ وتصديقُكَ ويقينُكَ بكونِهِ في الدارِ أقوىٰ مِنْ تصديقِكَ بمجرَّدِ السماعِ ؛ فإنَّكَ إذا قيل لكَ : (إنَّهُ في الدارِ) ثمَّ سمعتَ صوتَهُ . . ازددتَ بهِ يقيناً ؛ لأنَّ الصوتَ يدلُّ على الشكلِ والصورةِ عندَ مَنْ يسمعُ الصوتَ في حالِ مشاهدةِ الصورةِ ، فيحكمُ قلبُهُ بأنَّ هاذا صوتُ ذٰلكَ الشخصِ .

وهاذا إيمانٌ ممزوجٌ بدليلٍ ، والخطأُ أيضاً ممكنٌ أنْ يتطرَّقَ إليهِ ؛ إذِ الصوتُ قدْ يشبهُ الصوتَ ، وقدْ يمكنُ التكلُّفُ بطريقِ المحاكاةِ ، إلا أنَّ ذٰلكَ قدْ لا يخطرُ ببالِ السامعِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يجعلُ للتهمةِ موضعاً ، ولا يقدرُ في هاذا التلبيسِ والمحاكاةِ غرضاً .

❁ ❁ ❁

الرتبةُ الثالثةُ : أنْ تدخلَ الدارَ فتنظرَ إليهِ بعينِكَ وتشاهدَهُ ، وهاذهِ هيَ المعرفةُ الحقيقيَّةُ ، والمشاهدةُ اليقينيَّةُ ، وهيَ تشبهُ معرفةَ المقرَّبينَ والصدِّيقينَ ؛ لأنَّهُمْ يؤمنونَ عنْ مشاهدةٍ ، فينطوي في إيمانِهِمْ إيمانُ العوامِّ والمتكلمينَ ، ويتميَّزونَ بمزيَّةٍ بيِّنَةٍ يستحيلُ معها إمكانُ الخطأ .

---

(١) ينظر في بيانها كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » مجملاً ، وقد روىٰ أحمد في « المسند » (٢١٥/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « ليس الخبر كالمعاينة » .

(٢) ولقائل أن يقول : فما بال مقلِّد غير المسلمين يرى المصنف أنه من أهل النار ومقلد المسلمين أنه من أهل الجنة وكل منهما مشترك في التقليد ليس إلا ؟ فلهاذا جواب حكميٌّ يطول ، وعلىٰ طريقة أهل الكلام يمكن القول : بِمَ كُلِّفَ العبد : أبالبحث عن الإيمان أو بالإيمان ؟ ومعلوم أن التكليف متجه للإيمان ، فمن أصاب الإيمان بغير بحث ودليل . . فهو من أهله ، ومن لم يصبه . . كُلِّف بالبحث عنه ، فإن تراخىٰ عن ذٰلك . . لم يكن من أهله ، والإمام الغزالي هنا وفي غيره من كتبه يميل إلى القول بإيمان المقلد الجازم بتقليده ، وهو رأي عامة أهل السنة والجماعة .

نعمْ ؛ وهمْ أيضاً يتفاوتونَ بمقاديرِ العلومِ ، وبدرجاتِ الكشفِ .

أما درجاتُ الكشفِ : فمثالُهُ : أنْ يبصرَ زيداً في الدارِ عنْ قربٍ ، وفي صحنِ الدارِ في وقتِ إشراقِ الشمسِ ، فيكملُ لهُ إدراكُهُ ، والآخرُ يدركُهُ في بيتٍ أوْ مِنْ بعدٍ ، أو في وقتِ عشيةٍ ، فيتمثلُ لهُ في صورتِهِ ما يستيقنُ معَهُ أنَّهُ هوَ ، ولـٰكنْ لا تتمثلُ في نفسِهِ الدقائقُ والخفايا مِنْ صورتِهِ ، ومثلُ هـٰذا متصوَّرٌ في تفاوتِ المشاهدةِ للأمورِ الإلـٰهيةِ .

وأمَّا مقاديرُ العلومِ : فهو بأنْ يرىٰ في الدارِ زيداً وعمراً وبكراً وغيرَ ذٰلك ، وآخرُ لا يرىٰ إلا زيداً ، فمعرفةُ ذٰلكَ تزيدُ بكثرةِ المعلوماتِ لا محالةَ .

فهـٰذهِ حالُ القلبِ بالإضافةِ إلى العلومِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالصوابِ .

* * *

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقليّة والدّينيّة والدّنيويّة والأخرويّة

اعلمْ : أنَّ القلبَ بغريزتِهِ مستعدٌّ لقبولِ حقائقِ المعلوماتِ كما سبقَ ، ولـٰكنَّ العلومَ التي تحلُّ فيهِ تنقسمُ إلىٰ عقليَّةٍ ، وإلىٰ شرعيَّةٍ .

والعقليَّةُ تنقسمُ إلىٰ ضروريَّةٍ ، ومكتسبةٍ .

والمكتسبة إلىٰ دنيويَّةٍ ، وأخرويَّةٍ

❁ ❁ ❁

أمَّا العقليَّةُ : فنعني بها : ما تقضي بها غريزةُ العقلِ ، ولا تُوجدُ بالتقليدِ والسماعِ .

وهيَ تنقسمُ :

إلىٰ ضروريةٍ لا يدري مِنْ أينَ حصلَتْ ، وكيفَ حصلَتْ ؛ كعلمِ الإنسانِ بأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يكونُ في مكانينِ ، والشيءَ الواحدَ لا يكونُ حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً معاً ؛ فإنَّ هـٰذهِ علومٌ يجدُ الإنسانُ نفسَهُ منذُ الصبا مفطوراً عليها ، ولا يدري متىٰ حصلَ لهُ هـٰذا العلمُ ، ولا مِنْ أينَ حصلَ لهُ ؛ أعني أنَّهُ لا يدري لها سبباً قريباً ، وإلا . . فليسَ يخفىٰ عليهِ أنَّ اللهَ هوَ الذي خلقَهُ وهداهُ .

وإلىٰ علومٍ مكتسبةٍ ، وهيَ المستفادةُ بالتعلُّمِ والاستدلالِ .

وكلا القسمينِ قدْ يُسمَّىٰ عقلاً ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ[1] : [من الهزج]

رَأَيْتُ الْعَقْلَ عَقْلَيْنِ ... فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ
وَلا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إذا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لا تَنْفَعُ الشَّمْسُ ... وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ

والأوَّلُ : هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ : « ما خلقَ اللهُ خلقاً أكرمَ عليهِ مِنَ العقلِ »[2]

والثاني : هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « إذا تقرَّبَ الناسُ إلى اللهِ تعالىٰ بأنواعِ البرِّ . . فتقرَّبْ أنتَ بعقلِكَ »[3] ؛ إذْ لا يمكنُ التقرُّبُ بالغريزةِ الفطريَّةِ ولا بالعلومِ الضروريَّةِ ، بلْ بالمكتسبةِ ، ولـٰكنْ مثلُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ هوَ الذي يقدرُ على التقرُّبِ باستعمالِ العقلِ في اقتناصِ العلومِ التي بها يُنالُ القرْبُ مِنْ ربِّ العالمينَ .

والقلبُ جارٍ مَجرى العينِ ، وغريزةُ العقلِ فيهِ جاريةٌ مجرىٰ قوَّةِ البصرِ في العينِ ، وقوَّةُ الإبصارِ لطيفةٌ تُفقدُ في العمىٰ ، وتُوجدُ في البصرِ وإنْ كانَ قدْ غمَّضَ العينَ أوْ جَنَّ عليهِ الليلُ ، والعلمُ الحاصلُ منهُ في القلبِ جارٍ مَجرىٰ

---

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٦١) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٨٣/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٨/٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨/١) مرفوعاً : « يا علي ؛ إذا تقرب الناس إلىٰ خالقهم في أبواب البر . . فتقرب إليه بأنواع العقل ، تسبقهم بالدرجات والزلفىٰ عند الناس في الدنيا ، وعند الله في الآخرة » .

قوّةِ إدراكِ البصرِ في العينِ ، ورؤيتُهُ لأعيانِ الأشياءِ ، وتأخُّرُ العلومِ عنْ عينِ العقلِ في مدّةِ الصبا إلىٰ أوانِ التمييزِ أوِ البلوغِ . . يضاهي تأخُّرَ الرؤيةِ عنِ البصرِ إلىٰ أوانِ إشراقِ الشمسِ وفيضانِ نورِها على المبصراتِ ، والقلمُ الذي بهِ سطرَ اللهُ العلومَ علىٰ صفحاتِ القلوبِ يجري مجرىٰ قرْصِ الشمسِ ، وإنَّما لمْ يحصلِ العلمُ في قلبِ الصبيِّ قبلَ التمييزِ لأنَّ لوحَ قلبِهِ لمْ يتهيَّأْ بعدُ لقبولِ نقشِ القلمِ ، والقلمُ عبارةٌ عنْ خلقٍ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، جعلَهُ سبباً لحصولِ نقْشِ العلومِ في قلوبِ البشرِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وقلمُ اللهِ تعالىٰ لا يشبهُ قلمَ خلقِهِ ، كما أنَّ وصفَهُ سبحانَهُ لا يشبهُ وصفَ خلقِهِ ، فليسَ قلمُهُ مِنْ قصبٍ ولا خشبٍ ، كما أنَّهُ سبحانَهُ ليسَتْ ذاتُهُ مِنْ جوهرٍ ولا عرضٍ ، فالموازنةُ بينَ البصيرةِ الباطنةِ والبصرِ الظاهرِ صحيحةٌ مِنْ هـٰذهِ الوجوهِ ، إلا أنَّهُ لا مناسبةَ بينَهُما في الشرفِ ؛ فإنَّ البصيرةَ الباطنةَ هيَ عينُ النفسِ التي هيَ اللطيفةُ المدركةُ ، وهيَ كالفارسِ ، والبدنُ كالفرسِ ، وعمى الفارسِ أضرُّ على الفارسِ مِنْ عمى الفرسِ ، بلْ لا نسبةَ لأحدِ الضررينِ إلى الآخرِ .

ولموازنةِ البصيرةِ الباطنةِ للبصرِ الظاهرِ سمَّاهُ اللهُ تعالىٰ باسمِهِ ، فقالَ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ ، سمَّىٰ إدراكَ الفؤادِ رؤيةً .

وكذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وما أرادَ بهِ الرؤيةَ الظاهرةَ ، فإنَّ ذٰلكَ غيرُ مخصوصٍ بإبراهيمَ عليهِ السلامُ حتَّىٰ يُذكرَ في معرضِ الامتنانِ .

ولذٰلكَ سمَّىٰ ضدَّ إدراكِهِ عمىً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

فهـٰذا بيانُ العلمِ العقليِّ .

❀ ❀ ❀

أمَّا العلومُ الدينيَّةُ : فهيَ المأخوذةُ بطريقِ التقليدِ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ وسلامُهُ ، وذٰلكَ يحصلُ بالتعلُّمِ لكتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وفهْمِ معانيهِما بعدَ السماعِ ، وبهِ كمالُ صفةِ القلبِ ، وبهِ سلامتُهُ عنِ الأدواءِ والأمراضِ ، فالعلومُ العقليَّةُ غيرُ كافيةٍ في سلامةِ القلبِ وإنْ كانَ محتاجاً إليها ، كما أنَّ العقلَ غيرُ كافٍ في استدامةِ أسبابِ صحةِ البدنِ ، بلْ يحتاجُ إلىٰ معرفةِ خواصِّ الأدويةِ والعقاقيرِ بطريقِ التعلُّمِ مِنَ الأطباءِ ، إذْ مجرَّدُ العقلِ لا يهدي إليهِ ، ولـٰكنْ لا يمكنُ فهمُهُ بعدَ سماعِهِ إلا بالعقلِ ، فلا غنىً بالعقلِ عنِ السمعِ ، ولا بالسمعِ عنِ العقلِ ، فالداعي إلىٰ محضِ التقليدِ معَ عزلِ العقلِ بالكليَّةِ جاهلٌ ، والمكتفي بمجرَّدِ العقلِ عنْ أنوارِ القرآنِ والسنَّةِ مغرورٌ ، فإيَّاكَ أنْ تكونَ مِنْ أحدِ الفريقينِ ، وكُنْ جامعاً بينَ الأصلينِ ؛ فإنَّ العلومَ العقليَّةَ كالأغذيةِ ، والعلومَ الشرعيَّةَ كالأدويةِ ، والشخصُ المريضُ يتضرَّرُ بالغذاءِ مهما فاتَهُ الدواءُ ، فكذٰلكَ أمراضُ القلوبِ لا يمكنُ علاجُها إلا بالأدويةِ المستفادةِ مِنَ الشريعةِ ، وهيَ وظائفُ العباداتِ والأعمالُ التي ركَّبَها الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ لإصلاحِ القلوبِ ، فمَنْ لا يداوي قلبَه المريضَ بمعالجاتِ العباداتِ الشرعيَّةِ ، واكتفىٰ بالعلومِ العقليَّةِ . . استضرَّ بها كما يستضرُّ المريضُ بالغذاءِ .

وظنُّ مَنْ يظنُّ أنَّ العلومَ العقليَّةَ مناقضةٌ للعلومِ الشرعيَّةِ ، وأنَّ الجمعَ بينَهُما غيرُ ممكنٍ . . هوَ ظنٌّ صادرٌ عنْ عمىً

في عينِ البصيرةِ ، نعوذُ باللهِ منهُ ، بلْ هٰذا القائلُ ربَّما يناقضُ عندَهُ بعضُ العلومِ الشرعيَّةِ لبعضٍ ، فيعجزُ عنِ الجمعِ بينَهُما ، فيظنُّ أنَّهُ تناقضٌ في الدينِ ، فيتحيَّرُ بهِ ، وينسلُّ مِنَ الدينِ انسلالَ الشعرةِ مِنَ العجينِ .

وإنَّما ذٰلكَ عجزٌ في نفسِهِ خيَّلَ إليهِ تناقضاً في الدينِ ، وهيهاتَ !! وإنَّما مثالُهُ مثالُ الأعمى الذي دخلَ دارَ قومٍ ، فتعثَّرَ فيها بأواني الدارِ ، فقالَ لهُمْ : ما بالُ هٰذهِ الأواني تركَتْ على الطريقِ ؟ لِمَ لا تُردُّ إلىٰ مواضعِها ؟ فقالوا لهُ : تلكَ الأواني في مواضعِها ، وإنَّما أنتَ لستَ تهتدي إلى الطريقِ لعماكَ ، فالعجبُ منكَ أنَّكَ لا تحيلُ عثرتَكَ علىٰ عماكَ ، وإنَّما تحيلُها علىٰ تقصيرِ غيرِكَ !!

فهٰذهِ نسبةُ العلومِ الدينيَّةِ إلى العلومِ العقليَّةِ .

❁ ❁ ❁

والعلومُ العقليَّةُ تنقسمُ إلىٰ دنيويَّةٍ وأخرويَّةٍ :

فالدنيويَّةُ : كعلمِ الطبِّ ، والحسابِ ، والهندسةِ ، والنجومِ ، وسائرِ الحرفِ والصناعاتِ .

والأخرويَّةُ : كعلمِ أحوالِ القلبِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، والعلمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، كما فصلناهُ في كتابِ العلمِ .

وهما علمانِ متنافيانِ ؛ أعني أنَّ مَنْ صرفَ عنايتَهُ إلىٰ أحدِهِما حتَّىٰ تعمقَ فيهِ . . قصرَتْ بصيرتُهُ عنِ الآخرِ على الأكثرِ ، ولذٰلكَ ضربَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ للدنيا والآخرةِ ثلاثةَ أمثلةٍ فقالَ : (هما ككفَّتي الميزانِ ، وكالمشرقِ والمغربِ ، وكالضرَّتينِ ، إذا أرضيتَ إحداهُما . . أسخطتَ الأخرىٰ)[1]

ولذٰلكَ ترى الأكياسَ في أمورِ الدنيا وفي علمِ الطبِّ والحسابِ والهندسةِ والفلسفةِ جهالاً في أمورِ الآخرةِ ، والأكياسَ في دقائقِ علومِ الآخرةِ جهالاً في أكثرِ علومِ الدنيا ؛ لأنَّ قوَّةَ العقلِ لا تفي بالأمرينِ جميعاً في الغالبِ ، فيكونُ أحدُهُما مانعاً مِنَ الكمالِ في الثاني .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ »[2] أي : البلْهُ في أمورِ الدنيا .

وقالَ الحسنُ في بعضِ مواعظِهِ : (لقدْ أدركتُ أقواماً لوْ رأيتموهُمْ . . لقلتُمْ : مجانينُ ، ولوْ رأوكُمْ . . لقالوا : شياطينُ)[3]

فمهما سمعتَ أمراً غريباً مِنْ أمورِ الدينِ جحدَهُ أهلُ الكياسةِ في سائرِ العلومِ . . فلا ينفِّرنَّكَ جحودُهُمْ عنْ قبولِهِ ؛ إذْ مِنَ المحالِ أنْ يظفرَ سالكُ طريقِ المشرقِ بما يُوجدُ في المغربِ ، فكذٰلكَ يجري أمرُ الدنيا والآخرةِ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

---

(١) الذريعة (ص ١٣٦) .

(٢) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٤٣١/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٣/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه (١٣٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٣) قوت القلوب (١٧١/١) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٥/١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

فالجمعُ بينَ كمالِ الاستبصارِ في مصالحِ الدنيا والدينِ لا يكادُ يتيسَّرُ إلا لمَنْ رسَّخَهُ اللهُ لتدبيرِ عبادِهِ في معاشِهِمْ ومعادِهِمْ[1] ، وهمُ الأنبياءُ المؤيَّدونَ بروحِ القدسِ ، المستمدُّونَ مِنَ القوَّةِ الإلـٰهيَّةِ التي تتسعُ لجميعِ الأمورِ ولا تضيقُ عنها .

فأمَّا قلوبُ سائرِ الخلقِ . . فإنَّها إذا اشتغلَتْ بأمرٍ . . انصرفَتْ عنِ الآخرِ ، وقصرَتْ عنِ الاستكمالِ فيهِ .

* * *

(١) في (د ، ك ، ل) : (رشحه) بدل (رسخه) .

بيان الفرق بين الإلهام والتعلّم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار

اعلمْ : أنَّ العلومَ التي ليسَتْ ضروريَّةً ـ وإنَّما تحصلُ في القلبِ في بعضِ الأحوالِ ـ . تختلفُ الحالُ في حصولِها ، فتارةً تهجمُ على القلبِ كأنَّهُ أُلقيَ فيهِ مِنْ حيثُ لا يدري ، وتارةً تُكتسبُ بطريقِ الاستدلالِ والتعلُّمِ ، فالذي يحصلُ لا بطريقِ الاكتسابِ وحيلةِ الدليلِ يُسمَّىٰ **إلهاماً** ، والذي يحصلُ بالاستدلالِ يُسمَّى **اعتباراً واستبصاراً** .

ثمَّ الواقعُ في القلبِ بغيرِ حيلةٍ وتعلُّمٍ واجتهادٍ مِنَ العبدِ ينقسمُ إلىٰ ما لا يدري العبدُ أنَّهُ كيفَ حصلَ لهُ ومِنْ أينَ حصلَ ، وإلىٰ ما يطلعُ معَهُ على السببِ الذي منهُ استُفيدَ ذٰلكَ العلمُ ، وهوَ مشاهدةُ المَلَكِ الملْقِي في القلبِ ، والأوَّلُ يُسمَّىٰ **إلهاماً ونفثاً في الرُّوعِ** ، والثاني يُسمَّىٰ وحياً ، وتختصُّ بهِ الأنبياءُ ، والأوَّلُ يختصُّ بهِ الأولياءُ والأصفياءُ ، والذي قبلَهُ ـ وهوَ المكتسبُ بطريقِ الاستدلالِ ـ يختصُّ بهِ العلماءُ .

وحقيقةُ القولِ فيهِ : أنَّ القلبَ مستعدٌّ لأنْ تنجليَ فيهِ حقيقةُ الحقِّ في الأشياءِ كلِّها ، وإنَّما حيلَ بينَهُ وبينَها بالأسبابِ الخمسةِ التي سبقَ ذكرُها ، فهيَ كالحجابِ المسدلِ الحائلِ بينَ مرآةِ القلبِ وبينَ اللوحِ المحفوظِ الذي هوَ منقوشٌ بجميعِ ما قضى اللهُ بهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وتجلِّي حقائقِ العلومِ مِنْ مرآةِ اللوحِ في مرآةِ القلبِ يضاهي انطباعَ صورةٍ مِنْ مرآةٍ في مرآةٍ تقابلُها ، والحجابُ بينَ المرآتينِ تارةً يُزالُ باليدِ ، وأخرىٰ يزولُ بهبوبِ ريحٍ تحرِّكُهُ ، وكذٰلكَ قدْ تهبُّ رياحُ الألطافِ ، فتنكشفُ الحجبُ عنْ أعينِ القلوبِ ، فينجلي فيها بعضُ ما هوَ مسطورٌ في اللوحِ المحفوظِ .

ويكونُ ذٰلكَ تارةً عندَ المنامِ ، فيعلمُ بهِ ما يكونُ في المستقبلِ ، وتمامُ ارتفاعِ الحجابِ بالموتِ ، فبهِ ينكشفُ الغطاءُ ، وينكشفُ أيضاً في اليقظةِ ، حتَّىٰ يرتفعَ الحجابُ بلطفٍ خفيٍّ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فيلمعُ في القلوبِ مِنْ وراءِ سترِ الغيبِ شيءٌ مِنْ غرائبِ العلمِ ، تارةً كالبرقِ الخاطفِ ، وأخرىٰ على التوالي إلىٰ حدٍّ ما ، ودوامُهُ في غايةِ الندورِ ، فلمْ يفارقِ الإلهامُ الاكتسابَ في نفسِ العلمِ ، ولا في محلِّهِ ، ولا في سببِهِ ، ولٰكنْ يفارقُهُ في جهةِ زوالِ الحجابِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ليسَ باختيارِ العبدِ ، ولمْ يفارقِ الوحيُ الإلهامَ في شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ، بلْ في مشاهدةِ المَلَكِ المفيدِ للعلمِ ؛ فإنَّ العلومَ إنَّما تحصلُ في قلوبنا بواسطةِ الملائكةِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ .

❊ ❊ ❊

فإذا عرفتَ هٰذا . . فاعلمْ أنَّ ميلَ أهلِ التصوُّفِ إلى العلومِ الإلهاميَّةِ دونَ التعليميَّةِ ، فلذٰلكَ لمْ يحرصوا علىٰ دراسةِ العلمِ وتحصيلِ ما صنَّفَهُ المصنِّفونَ ، والبحثِ عنِ الأقاويلِ والأدلَّةِ المذكورةِ ، بلْ قالوا : الطريقُ تقديمُ المجاهدةِ ومحوُ الصفاتِ المذمومةِ ، وقطعُ العلائقِ كلِّها ، والإقبالُ بكنْهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، ومهما حصلَ ذٰلكَ . . كانَ اللهُ هوَ المتولِّيَ لقلبِ عبدِهِ ، والمتكفِّلَ بتنويرِهِ بأنوارِ العلمِ ، وإذا تولَّى اللهُ أمرَ القلبِ . . فاضَتْ عليهِ الرحمةُ ، وأشرقَ النورُ في القلبِ ، وانشرحَ الصدرُ ، وانكشفَ لهُ سرُّ الملكوتِ ، وانقشعَ عنْ وجهِ القلبِ حجابُ العزَّةِ[1] بلطفِ الرحمةِ ، وتلألأَتْ فيهِ حقائقُ الأمورِ الإلٰهيَّةِ .

---

(١) في (ل) : (الغرَّة) .

وليسَ على العبدِ إلا الاستعدادُ بالتصفيةِ المجرَّدةِ ، وإحضارُ الهمَّةِ معَ الإرادةِ الصادقةِ ، والتعطُّشُ التامُّ ، والترصُّدُ بدوامِ الانتظارِ لما يفتحُهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ الرحمةِ ، فالأنبياءُ والأولياءُ انكشفَتْ لهُمُ الأمورُ وفاضَ علىٰ صدورِهِمُ النورُ لا بالتعلُّمِ والدراسةِ والكتابةِ للكتبِ ، بلْ بالزهدِ في الدنيا والتبرّي مِنْ علائقِها ، وتفريغِ القلبِ مِنْ شواغلِها ، والإقبالِ بكنهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ كانَ للهِ . . كانَ اللهُ لهُ .

وزعموا أنَّ الطريقَ في ذٰلكَ أوَّلاً بقطعِ علائقِ الدنيا بالكليَّةِ ، وتفريغِ القلبِ منها ، وبقطعِ الهمَّةِ عنِ الأهلِ والمالِ والولدِ والوطنِ ، وعنِ العلمِ والولايةِ والجاهِ ، بلْ يصيرُ قلبُهُ إلىٰ حالةٍ يستوي فيها وجودُ كلِّ شيءٍ وعدمُهُ ، ثمَّ يخلو بنفسِهِ في زاويةٍ معَ الاقتصارِ على الفرائضِ والرواتبِ ، ويجلسُ فارغَ القلبِ ، مجموعَ الهمّ ، ولا يفرّقُ فكرَهُ بقراءةِ قرآنٍ ، ولا بالتأمُّلِ في تفسيرِهِ ، ولا بكتْبِ حديثٍ ولا غيرِهِ [1] ، بلْ يجتهدُ ألا يخطرَ ببالِهِ شيءٌ سوىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يزالُ بعدَ جلوسِهِ في الخلوةِ قائلاً بلسانِهِ : (الله ، الله ، الله) على الدوامِ ، معَ حضورِ القلبِ ، حتىٰ ينتهيَ إلىٰ حالةٍ يتركُ تحريكَ اللسانِ ويرىٰ كأنَّ الكلمةَ جاريةٌ علىٰ لسانِهِ ، ثمَّ يصبرُ عليهِ إلىٰ أنْ ينمحيَ أثرُهُ عنِ اللسانِ ، ويصادفَ قلبَهُ مواظباً على الذكرِ ، ثمَّ يواظبُ عليهِ إلىٰ أنْ ينمحيَ عنِ القلبِ صورةُ اللفظِ وحروفُهُ وهيئةُ الكلمةِ ، ويبقىٰ معنى الكلمةِ مجرَّداً في قلبِهِ ، حاضراً فيهِ ، كأنَّهُ لازمٌ لهُ لا يفارقُهُ ، ولهُ اختيارٌ إلىٰ أنْ ينتهيَ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، واختيارٌ في استدامةِ هـٰذهِ الحالةِ بدفعِ الوسواسِ ، وليسَ لهُ اختيارٌ في استجلابِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، بلْ هوَ بما فعلَهُ صارَ متعرّضاً لنفحاتِ رحمةِ اللهِ ، فلا يبقىٰ إلا الانتظارُ لما يفتحُ اللهُ مِنَ الرحمةِ كما فتحَها على الأنبياءِ والأولياءِ بهـٰذهِ الطريقِ ، وعندَ ذٰلكَ إذا صدقَتْ إرادتُهُ ، وصفَتْ همَّتُهُ ، وحسُنَتْ مواظبتُهُ ، فلمْ تجاذبْهُ شهواتُهُ ، ولمْ يشغلْهُ حديثُ النفسِ بعلائقِ الدنيا . . تلمعُ لوامعُ الحقّ في قلبِهِ ، ويكونُ في ابتدائِهِ كالبرقِ الخاطفِ لا يثبتُ ثمَّ يعودُ ، وقدْ يتأخَّرُ ، وإنْ عادَ . . فقدْ يثبتُ ، وقدْ يكونُ مختطفاً ، وإنْ ثبتَ . . قدْ يطولُ ثباتُهُ ، وقدْ لا يطولُ ، وقدْ يتظاهرُ أمثالُهُ على التلاحقِ ، وقدْ يقتصرُ علىٰ فنٍّ واحدٍ ، ومنازلُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ فيهِ لا تُحصرُ ، كما لا يُحصىٰ تفاوتُ خلقِهِمْ وأخلاقِهِمْ .

وقدْ رجعَ هـٰذا الطريقُ إلىٰ تطهيرٍ محضٍ مِنْ جانبِكَ ، وتصفيةٍ وجلاءٍ ، ثمَّ استعدادٍ وانتظارٍ فقطْ [2]

وأمَّا النظَّارُ وذوو الاعتبارِ . . فلم ينكروا وجودَ هـٰذا الطريقِ وإمكانَهُ ، وإفضاءَهُ إلى المقصدِ على الندورِ ، فإنَّهُ أكثرُ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ ، ولـٰكنِ استوعروا هـٰذا الطريقَ ، واستبطؤوا ثمرتَهُ ، واستبعدوا استجماعَ شروطِهِ ، وزعموا أنَّ محوَ العلائقِ إلىٰ ذٰلكَ الحدِّ كالمتعذِّرِ ، وإنْ حصلَ في حالٍ . . فثباتُهُ أبعدُ منهُ ؛ إذْ أدنىٰ وسواسٍ وخاطرٍ يشوّشُ القلبَ [3]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ أشدُّ تقلُّباً مِنَ القِدْرِ إذا استجمعَتْ غلْياً » [4]

---

(١) كالاشتغال بالأذكار والأوراد . « إتحاف » (٢٤٧/٧) .

(٢) ذكر الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٤٧/٧) بأن هـٰذا هو طريق شيخ المصنف الإمام أبي علي الفارمذي الطوسي رحمه الله تعالىٰ .

(٣) وهم قالوا : إن نفي الخواطر الثلاثة لازم للمريد ؛ أعني النفسية والشيطانية والملكية ، وإنه لا بد من إثبات الخاطر الحقاني ، ومعرفة الخواطر وتمييزها عسر ، ولا تتم معرفة ذٰلك وتمييزها إلا لمن تحلَّىٰ بالتقوىٰ والزهد وأكل الحلال الطيب دائماً ، وأنَّىٰ يتيسر ذٰلك لكل أحد في كل وقت ، وإنه يلزم المريد دائماً مراقبة خواطره ، ولا يترك خاطر الغير يمر بباله ، وكل ذٰلك صعب المنال قريب المحال . « إتحاف » (٢٤٩/٧) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٤/٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٢/٢٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٥/١) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، ولفظه : « لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً » .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ منْ أصابعِ الرحمـٰنِ »[1]

وفي أثناءِ هـٰذهِ المجاهدةِ قدْ يفسدُ المزاجُ ، ويختلطُ العقلُ ، ويمرضُ البدنُ ، وإذا لمْ تتقدَّمْ رياضةُ النفسِ وتهذيبُها بحقائقِ العلومِ . . تشبَّثَتْ بالقلبِ خيالاتٌ فاسدةٌ تطمئنُّ النفسُ إليها مدَّةً طويلةً إلىٰ أن يزولَ وينقضيَ العمرُ قبلَ النجاحِ فيهِ .

فكمْ مِنْ صوفيٍّ سلكَ هـٰذا الطريقَ ثمَّ بقيَ في خيالٍ واحدٍ عشرينَ سنةً ، ولوْ كانَ قدْ أتقنَ العلمَ مِنْ قبلُ . . لانفتحَ لهُ وجهُ التباسِ ذٰلكَ الخيالِ في الحالِ ، فالاشتغالُ بطريقِ التعلُّمِ أوثقُ وأقربُ إلى الغرضِ[2]

وزعموا أنَّ ذٰلكَ يضاهي ما لوْ تركَ الإنسانُ تعلُّمَ الفقهِ ، وزعمَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يتعلَّمْ ذٰلكَ ، ولـٰكنْ صارَ فقيهاً بالوحيِ والإلهامِ مِنْ غيرِ تكرارٍ وتعليقٍ ، ويقولُ : (أنا أيضاً ربَّما أنتهي بالرياضةِ والمواظبةِ إليهِ) ، ومَنْ ظنَّ ذٰلكَ . . فقدْ ظلمَ نفسَهُ ، وضيَّعَ عمرَهُ ، بلْ هوَ كمَنْ يتركُ طريقَ الكسبِ والحراثةِ رجاءَ العثورِ علىٰ كنزٍ مِنَ الكنوزِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ممكنٌ ، ولـٰكنَّهُ بعيدٌ جداً ، فكذٰلكَ هـٰذا .

وقالوا : لا بدَّ أوَّلاً مِنْ تحصيلِ ما حصَّلَهُ العلماءُ ، وفهمِ ما قالوهُ ، ثمَّ لا بأسَ بعدَ ذٰلكَ بالانتظارِ لما لمْ ينكشف لسائرِ العلماءِ ، فعساهُ ينكشفُ بالمجاهدةِ بعدَ ذٰلكَ .

* * *

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، ولفظه عنده : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمـٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ، مصرّف القلوب ؛ صرف قلوبنا علىٰ طاعتك » .

(٢) وقد أجاب الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٤٩/٧) عن هـٰذا الزعم فقال : (وقد يجاب عن ذٰلك بأن تلك الخيالات الفاسدة التي تتشبث بالقلب إنما منشؤها تلك العلوم التي تعلمها وظن في نفسه أنها معارف موصلة ، وفي الحقيقة هي القواطع عن الطريق ، وهي التي لا تفي الأعمار في تحصيلها ، وأما السالك الذي بصدد تصفية قلبه من الكدورات الوهمية ، فهو علىٰ هدي من ربه إن اعتل بدنه أو فسد مزاجه ، فحصل له بذٰلك تفرقة خاطر ، فهو معذور عند الله ، وإن مات . . فقد وقع أجره على الله ، وحقيق أن يقال : هو عاشق ، إن مات ليلة وصاله لا يلام) .

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلمْ : أنَّ عجائبَ القلبِ خارجةٌ عنْ مدركاتِ الحواسِّ ؛ لأنَّ القلبَ أيضاً خارجٌ عنْ إدراكِ الحسِّ ، وما ليسَ مدركاً بالحواسِّ تضعفُ الأفهامُ عن دركِهِ إلا بمثالٍ محسوسٍ ، ونحنُ نقرِّبُ ذٰلكَ إلى الأفهامِ الضعيفةِ بمثالينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ لوْ فرضْنا حوضاً محفوراً في الأرضِ ، احتملَ أنْ يُساقَ إليهِ الماءُ مِنْ فوقِهِ بأنهارٍ تُفتحُ فيهِ ، ويُحتملُ أنْ يُحفرَ أسفلَ الحوضِ ويُرفعَ منهُ الترابُ إلىٰ أنْ يقربَ مِنْ مستقرِّ الماءِ الصافي ، فينفجرَ الماءُ مِنْ أسفلِ الحوضِ ، ويكونُ ذٰلكَ الماءُ أصفىٰ وأدومَ ، وقدْ يكونُ أغزرَ وأكثرَ . . فكذٰلكَ القلبُ مثلُ الحوضِ ، والعلمُ مثلُ الماءِ ، والحواسُّ الخمسُ مثلُ الأنهارِ ، وقدْ يمكنُ أنْ تُساقَ العلومُ إلى القلبِ بواسطةِ أنهارِ الحواسِّ ، والاعتبارِ بالمشاهداتِ حتَّىٰ يمتلئَ علماً ، ويمكنُ أنْ تُسدَّ عنهُ هٰذهِ الأنهارُ بالخلوةِ والعزلةِ وغضِّ البصرِ ، ويعمدَ إلىٰ عمْقِ القلبِ بتطهيرِهِ ، ورفعِ طبقاتِ الحجُبِ عنهُ ، حتَّىٰ تتفجَّرَ ينابيعُ العلمِ مِنْ داخلِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتفجرُ العلمُ مِنْ ذاتِ القلبِ وهوَ خالٍ عنهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا مِنْ عجائبِ أسرارِ القلبِ ، ولا يُسمحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ ، بلِ القدْرُ الذي يمكنُ ذكرُهُ أنَّ حقائقَ الأشياءِ مسطورةٌ في اللوحِ المحفوظِ ، بلْ في قلوبِ الملائكةِ المقرَّبينَ ، فكما أنَّ المهندسَ يسطرُ صورةَ أبنيةِ الدارِ في بياضٍ ، ثمَّ يخرجُها إلى الوجودِ علىٰ وَفْقِ تلكَ النسخةِ . . فكذٰلكَ فاطرُ السماواتِ والأرضِ كتبَ نسخةَ العالمِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ في اللوحِ المحفوظِ ، ثمَّ أخرجَهُ إلى الوجودِ علىٰ وَفْقِ تلكَ النسخةِ ، والعالمُ الذي خرجَ إلى الوجودِ بصورتِهِ تتأدَّىٰ منهُ صورةٌ أخرىٰ إلى الحسِّ والخيالِ ، فإنَّ مَنْ ينظرُ إلى السماءِ والأرضِ ثمَّ يغضُّ بصرَهُ . . يرىٰ صورةَ السماءِ والأرضِ في خيالِهِ ، حتَّىٰ كأنَّهُ ينظرُ إليها ، ولوِ انعدمَتِ السماءُ والأرضُ وبقيَ هوَ في نفسِهِ . . لوجدَ صورةَ السماءِ والأرضِ في نفسِهِ كأنَّهُ يشاهدُهُما وينظرُ إليهما ، ثمَّ يتأدَّىٰ مِنْ خيالِهِ أثرٌ إلى القلبِ ، فيحصلُ فيهِ حقائقُ الأشياءِ التي دخلَتْ في الحسِّ والخيالِ .

والحاصلُ في القلبِ موافقٌ للعالمِ الحاصلِ في الخيالِ ، والحاصلُ في الخيالِ موافقٌ للعالمِ الموجودِ في نفسِهِ خارجاً مِنْ خيالِ الإنسانِ وقلبِهِ ، والعالمُ الموجودُ موافقٌ للنسخةِ الموجودةِ في اللوحِ المحفوظِ ، فكأنَّ للعالمِ أربعَ درجاتٍ في الوجودِ ؛ وجودٌ في اللوحِ المحفوظِ ، وهوَ سابقٌ علىٰ وجودِهِ الجسمانيِّ ، ويتبعُهُ وجودُهُ الحقيقيُّ ، ويتبعُ وجودَهُ الحقيقيَّ وجودُهُ الخياليُّ ؛ أعني : وجودَ صورتِهِ في الخيالِ ، ويتبعُ وجودَهُ الخياليَّ وجودُهُ العقليُّ ؛ أعني : وجودَ صورتِهِ في القلبِ .

وبعضُ هٰذهِ الوجوداتِ روحانيَّةٌ وبعضُها جسمانيَّةٌ[1] ، والروحانيَّةُ بعضُها أشدُّ روحانيَّةً مِنَ بعضٍ ، وهٰذا لطفٌ مِنَ الحكمةِ الإلٰهيةِ ؛ إذْ جعلَ حدقتَكَ علىٰ صغرِ حجمِها بحيثُ تنطبعُ فيها صورةُ العالمِ والسماواتِ والأرضِ على اتساعِ

---

(١) فالوجود الأول والثاني : جسمانيان ، والثالث والرابع : روحانيان . « إتحاف » (٧/٢٥١) .

أكنافِها ، ثمَّ يسري مِنْ وجودِها في الحسِّ وجودٌ إلى الخيالِ ، ثمَّ منهُ وجودٌ في القلبِ ؛ فإنَّكَ أبداً لا تدركُ إلا ما هوَ واصلٌ إليكَ ، فلوْ لمْ يجعلْ للعالمِ كلِّهِ مثالاً في ذاتِكَ . . لما كانَ لكَ خبرٌ ممَّا يباينُ ذاتَكَ .

فسبحانَ مَنْ دبَّرَ هٰذهِ العجائبَ في القلوبِ والأبصارِ ، ثمَّ أعمىٰ عنْ دَرْكِها القلوبَ والأبصارَ ، حتَّىٰ صارَتْ قلوبُ أكثرِ الخلقِ جاهلةً بأنفسِها وبعجائبِها .

❀ ❀ ❀

ولنرجعْ إلى الغرضِ المقصودِ ، فنقولُ :

القلبُ قدْ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ فيهِ حقيقةُ العالمِ وصورتُهُ ؛ تارةً مِنَ الحواسِّ ، وتارةً مِنَ اللوحِ المحفوظِ ، كما أنَّ العينَ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ فيها صورةُ الشمسِ ؛ تارةً مِنَ النظرِ إليها ، وتارةً مِنَ النظرِ إلى الماءِ الذي يقابلُ الشمسَ ويحكي صورتَها .

فمهما ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ اللوحِ المحفوظِ . . رأى الأشياءَ فيهِ ، وتفجَّرَ إليهِ العلمُ منهُ ، فاستغنىٰ عنِ الاقتباسِ مِنْ مداخلِ الحواسِّ ، فيكونُ ذٰلكَ كتفجُّرِ الماءِ مِنْ عمقِ الأرضِ .

ومهما أقبلَ على الخيالاتِ الحاصلةِ مِنَ المحسوساتِ . . كانَ ذٰلكَ حجاباً لهُ عنْ مطالعةِ اللوحِ المحفوظِ ، كما أنَّ الماءَ إذا اجتمعَ مِنَ الأنهارِ في الحوضِ منعَ ذٰلكَ مِنَ التفجُّرِ مِنَ الأرضِ ، وكما أنَّ مَنْ نظرَ إلى الماءِ الذي يحكي صورةَ الشمسِ لا يكونُ ناظراً إلىٰ نفسِ الشمسِ .

فإذاً ؛ للقلبِ بابانِ :

بابٌ مفتوحٌ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، وهوَ اللوحُ المحفوظُ وعالمُ الملائكةِ .

وبابٌ مفتوحٌ إلى الحواسِّ الخمسِ المتمسِّكةِ بعالمِ الشهادةِ والمُلْكِ ، وعالمُ الشهادةِ والملكِ أيضاً يحاكي عالمَ الملكوتِ نوعاً مِنَ المحاكاةِ .

فأمَّا انفتاحُ بابِ القلبِ إلى الاقتباسِ مِنَ الحواسِّ . . فلا يخفىٰ عليكَ .

وأمَّا انفتاحُ بابِهِ الداخلانيِّ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، ومطالعةُ اللوحِ المحفوظِ . . فتعلمُهُ علماً يقيناً بالتأمُّلِ في عجائبِ الرؤيا ، واطلاعِ القلبِ في النومِ علىٰ ما سيكونُ في المستقبلِ ، أوْ كانَ في الماضِي ، مِنْ غيرِ اقتباسٍ مِنْ جهةِ الحواسِّ .

وإنَّما ينفتحُ ذٰلكَ البابُ لمَنِ أفردَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَ المُفْرِدونَ » ، قيلَ : ومَنْ هم المُفْرِدونَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « المستهتَرونَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وضعَ الذّكرُ عنهُمْ أوزارَهُمْ ، فوردُوا القيامةَ خفافاً » ، ثمَّ قالَ في وصفِهِمْ إخباراً عنِ اللهِ تعالىٰ : « ثمَّ أقبلُ بوجهي عليهِمْ ، أتُرىٰ مَنْ واجهتُهُ بوجهي يعلمُ أحدٌ أيَّ شيءٍ أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟ » ثمَّ قالَ تعالىٰ : « أوَّلُ ما أعطيهِمْ أنْ أقذفَ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ ، فيخبرونَ عنِّي كما أخبرُ عنهُمْ »[1] ، ومدخلُ هٰذهِ الأخبارِ هوَ البابُ الباطنُ .

---

(1) قوت القلوب (١١٩/١) ، وأصله عند مسلم (٤٨٣٤) وفيه : « سبق المفردون » ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله . قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ، وعند الترمذي (٣٥٢٠) وفيه : « المستهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً » .

فإذاً ؛ الفرقُ بينَ علومِ الأولياءِ والأنبياءِ وبينَ علومِ العلماءِ والحكماءِ هٰذا ، وهوَ أنَّ علومَهُم تأتي مِنْ داخلِ القلبِ ، مِنَ البابِ المنفتحِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، وعلمُ الحكمةِ يأتي مِنْ أبوابِ الحواسِّ المفتوحةِ إلىٰ عالمِ المُلْكِ ، وعجائبُ عالمِ القلبِ وتردُّدُهُ بينَ عالمي الشهادةِ والغيبِ لا يمكنُ أنْ يُستقصىٰ في علمِ المعاملةِ ، فهٰذا مثالٌ يعرِّفُكَ الفرقَ بينَ مدخلِ العلمينِ .

❁ ❁ ❁

المثالُ الثاني : يعرِّفُكَ الفرقَ بينَ العملينِ ؛ أعني : عملَ العلماءِ وعملَ الأولياءِ ، فإنَّ العلماءَ يعملونَ في اكتسابِ نفسِ العلومِ واجتلابِها إلى القلوبِ ، وأولياءُ الصوفيَّةِ يعملونَ في جِلاءِ القلوبِ وتطهيرِها وتصفيتِها وتصقيلِها فقطْ .

فقدْ حُكِيَ أنَّ أهلَ الصينِ وأهلَ الرومِ تباهَوا بينَ يدي بعضِ الملوكِ بحسْنِ صناعةِ النقْشِ والصورِ ، فاستقرَّ رأيُ الملكِ علىٰ أنْ يُسلِّمَ إليهِمْ صُفَّةٌ لينقشَ أهلُ الصينِ منها جانباً ، وأهلُ الرومِ جانباً ، ويُرخىٰ بينهما حجابٌ يمنعُ اطلاعَ كلِّ فريقٍ على الآخرِ ، ففُعِلَ ذٰلكَ ، فجمعَ أهلُ الرومِ مِنَ الأصباغِ الغريبةِ ما لا ينحصرُ ، ودخلَ أهلُ الصينِ مِنْ غيرِ صبغٍ ، وأقبلوا يَجلونَ جانبَهُمْ ويصقلونَهُ ، فلمَّا فرغَ أهلُ الرومِ . . ادَّعىٰ أهلُ الصينِ أنَّهُمْ قدْ فرغوا أيضاً ، فعجبَ الملكُ مِنْ قولِهِمْ وأنَّهُمْ كيفَ فرغوا مِنَ النقشِ مِنْ غيرِ صبغٍ ، فقيلَ لهُمْ : وكيفَ فرغتُمْ مِنْ غيرِ صبغٍ ؟! فقالوا : ما عليكُمْ ، ارفعوا الحجابَ ، فرفعوا ، فإذا بجانبِهِمْ يتلألأُ منهُ عجائبُ الصنائعِ الروميَّةِ معَ زيادةِ إشراقٍ وبريقٍ ؛ إذْ كانَ قدْ صارَ كالمرآةِ المجلوَّةِ لكثرةِ التصقيلِ ، فازدادَ حسْنُ جانبِهِمْ بمزيدِ التصقيلِ .

فكذٰلكَ عنايةُ الأولياءِ بتطهيرِ القلبِ وجِلائِهِ ، وتزكيتِهِ وصفائِهِ ، حتَّىٰ يتلألأَ فيهِ جليَّةُ الحقِّ بنهايةِ الإشراقِ ؛ كفعلِ أهلِ الصينِ ، وعنايةُ الحكماءِ والعلماءِ باكتسابِ ونقشِ العلومِ ، وتحصيلِ نقشِها في القلبِ ، كفعلِ أهلِ الرومِ .

وكيفما كانَ الأمرُ . . فقلبُ المؤمنِ لا يموتُ ، وعلمُهُ عندَ الموتِ لا ينمحي ، وصفاؤُهُ لا يتكدَّرُ ، وإليهِ أشارَ الحسنُ رحمةُ اللهِ عليهِ بقولِهِ : (الترابُ لا يأكلُ محلَّ الإيمانِ)[1] ، بلْ يكونُ وسيلةً وقربةً إلى اللهِ تعالىٰ .

وأما ما حصَّلَهُ مِنْ نقشِ العلمِ ، أوْ ما حصَّلَهُ مِنَ الصفاءِ والاستعدادِ لقبولِ نقشِ العلمِ . . فلا غنىٰ بهِ عنهُ ، ولا سعادةَ لأحدٍ إلا بالعلمِ والمعرفةِ ، وبعضُ السعاداتِ أشرفُ مِنْ بعضٍ ، كما أنَّهُ لا غنىٰ إلا بالمالِ ، فصاحبُ الدرهمِ غنيٌّ ، وصاحبُ الخزائنِ المترعةِ غنيٌّ ، وتفاوتُ درجاتِ السعداءِ بحسبِ تفاوتِ المعرفةِ والإيمانِ ، كما تتفاوتُ درجاتُ الأغنياءِ بحسَبِ قلَّةِ المالِ وكثرتِهِ ، فالمعارفُ أنوارٌ ، ولا يسعى المؤمنونَ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ إلا بأنوارِهِمْ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم ﴾ .

وقدْ رُويَ في الخبرِ : أنَّ بعضَهُمْ يُعطىٰ نوراً مثلَ الجبلِ ، وبعضَهُمْ أصغرَ ، حتىٰ يكونَ آخرُهُمْ رجلاً يُعطىٰ نوراً علىٰ إبهامِ قدميهِ ، فيضيءُ مرَّةً وينطفئُ أخرىٰ ، فإذا أضاءَ . . قدَّمَ قدمَهُ فمشىٰ ، وإذا طَفِئَ . . قامَ ، ومرورُهُمْ على الصِّراطِ علىٰ قدْرِ نورِهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ يمرُّ كطرفِ العينِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كالبرقِ ، ومنهُمْ مَن يمرُّ كالسحابِ ،

---

(١) كما نقله صاحب « القوت » ، ومعلوم أن محل الإيمان والتقوى القلب ، كما ورد في الخبر : « ألا إن التقوىٰ ها هنا » وأشار إلى القلب . « إتحاف » (٢٥٥/٧) ، وهٰذا المعنىٰ أشار إليه المصنف في « كيمياء السعادة » (ص ١٣٠) بمزيد تفصيل .

ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كانقضاضِ الكواكبِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كشدِّ الفرسِ ، والذي أُعطيَ نوراً علىٰ إبهامِ قدميهِ يحبو علىٰ وجههِ ويديهِ ورجليهِ ، يجرُّ يداً ويعلِّقُ أخرىٰ ، ويجرُّ رجلاً ويعلِّق أخرىٰ ، ويصيبُ جوانبَهُ النارُ ، فلا يزالُ كذٰلكَ حتَّىٰ يخلصَ » الحديثَ[1]

فبهٰذا يظهرُ تفاوتُ الناسِ في الإيمانِ ، ولوْ وُزنَ إيمانُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بإيمانِ العالمينَ سوى النبِّيينَ والمرسلينَ . . لرجحَ ، وهٰذا أيضاً يضاهي قولَ القائلِ : (لوْ وُزنَ نورُ الشمسِ بنورِ السُّرُجِ كلِّها . . لرجحَ) ، فإيمانُ آحادِ العوامِّ نورُهُ مثلُ نورِ السراجِ ، وبعضُهُمْ نورُهُ كنورِ الشمعِ ، وإيمانُ الصديقينَ نورُهُ كنورِ القمرِ والنجومِ ، وإيمانُ الأنبياءِ كنورِ الشمسِ .

وكما ينكشفُ في نورِ الشمسِ صورةُ الآفاقِ معَ اتساعِ أقطارِها ولا ينكشفُ في نورِ السراجِ إلا زاويةٌ ضيّقةٌ مِنَ البيتِ . . فكذٰلكَ تفاوتُ انشراحِ الصدورِ بالمعارفِ ، وانكشافُ سعةِ الملكوتِ لقلوبِ العارفينَ ، ولذٰلكَ جاءَ في الخبرِ : أنَّهُ يُقالُ يومَ القيامةِ : « أخرجوا مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالٌ مِنَ الإيمانِ ، ونصفُ مثقالٍ ، وربعُ مثقالٍ ، وشعيرةٌ ، وذرَّةٌ »[2] ، كلُّ ذٰلكَ تنبيهٌ علىٰ تفاوتِ درجاتِ الإيمانِ ، وأنَّ هٰذهِ المقاديرَ مِنَ الإيمانِ لا تمنعُ دخولَ النارِ ، وفي مفهومِهِ أنَّ مَنْ إيمانُهُ يزيدُ علىٰ مثقالٍ . . فإنَّهُ لا يدخلُ النارَ ؛ إذْ لوْ دخلَ . . لأمرَ بإخراجِهِ أوَّلاً ، وأنَّ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ لا يستحقُّ الخلودَ في النارِ وإنْ دخلَها .

وكذٰلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ شيءٌ خيراً مِنْ ألفِ مثلِهِ إلّا الإنسانُ المؤمنُ »[3] ، إشارةٌ إلىٰ تفضيلِ قلبِ العارفِ باللهِ تعالى الموقنِ ، فإنَّهُ خيرٌ مِنْ ألفِ قلبٍ مِنْ عوامِّ الخلقِ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تفضيلاً للمؤمنينَ على المسلمينَ ، والمرادُ بهِ المؤمنُ العارفُ دونَ المقلِّدِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ فأرادَ ها هنا بالذينَ آمنوا : الذينَ صدَّقوا مِنْ غيرِ علمٍ ، وميَّزَهُمْ عنِ الذينَ أُوتوا العلمَ .

ويدلُّ ذٰلكَ علىٰ أنَّ اسمَ المؤمنِ يقعُ على المقلِّدِ وإنْ لمْ يكنْ تصديقُهُ عنْ بصيرةٍ وكشفٍ ، وفسَّرَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، فقالَ : (يرفعُ اللهُ العالمَ فوقَ المؤمنِ بسبعِ مئةِ درجةٍ ، بينَ كلِّ درجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ)[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ ، وعلِّيونَ لذوي الألبابِ »[5]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٣٥٧/٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٨٩/٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٧٤١٠) ، ومسلم (١٩٣) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٣٨/٦) من حديث سلمان رضي الله عنه ، والقضاعي في « الشهاب » (١٢١٦) ، والطبراني في « الصغير » (١٤٧/١) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) قوت القلوب (١١٧/١) ، ورواه مرفوعاً أبو يعلىٰ في « المسند » (٨٥٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٩) بنحوه .

(٥) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٤٣١/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٣/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) دون زيادة : (وعليون لذوي الألباب) ، وهي عند صاحب « القوت » (١١٧/١) ، وقد روىٰ نحو هٰذه الزيادة الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (١١٧/٢٦ ـ ١١٨) عن أحمد بن أبي الحواري رحمه الله تعالىٰ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي »[1] ، وفي روايةٍ : « كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ علىٰ سائرِ الكواكبِ »[2]

فبهٰذهِ الشواهدِ يتضحُ تفاوتُ درجاتِ أهلِ الجنةِ بحسَبِ تفاوتِ قلوبِهِمْ ومعارفِهِمْ ، ولهٰذا كانَ يومُ القيامةِ يومَ التغابنِ ؛ إذِ المحرومُ مِنْ رحمةِ اللهِ عظيمُ الغبْنِ والخسرانِ ، والمحرومُ يرىٰ فوقَ درجتِهِ درجاتٍ عظيمةً ، فيكونُ نظرُهُ إليها كنظرِ الغنيِّ الذي يملكُ عشرةَ دراهمَ إلى الغنيِّ الذي يملكُ الأرضَ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، وكلٌّ واحدٍ منهما غنيٌّ ، ولٰكنْ ما أعظمَ الفرقَ بينَهُما ، وما أعظمَ الغبنَ علىٰ مَنْ بُخِسَ حظَّهُ مِنْ ذٰلكَ ، وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً .

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ، ولا من الطريق المعتاد

اعلمْ : أنَّ مَنِ انكشفَ لهُ شيءٌ ولوِ الشيءَ اليسيرَ بطريقِ الإلهامِ والوقوعِ في القلبِ مِنْ حيثُ لا يدري . . فقدْ صارَ عارفاً بصحَّةِ الطريقِ ، ومَنْ لمْ يدركْ ذٰلكَ مِنْ نفسِهِ قطُّ . . فينبغي أنْ يؤمنَ بهِ ؛ فإنَّ درجةَ المعرفةِ فيهِ عزيزةٌ جداً ، ويشهدُ لذٰلكَ شواهدُ الشرعِ والتجاربُ والحكاياتُ .

❁ ❁ ❁

أمَّا الشواهدُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، فكلُّ حكمةٍ تظهرُ مِنَ القلبِ بالمواظبةِ على العبادةِ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ . . فهوَ بطريقِ الكشفِ والإلهامِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علِمَ . . ورَّثَهُ اللهُ علمَ ما لمْ يعلمْ ، ووفَّقَهُ فيما يعملُ حتَّىٰ يستوجبَ الجنَّةَ ، ومَنْ لمْ يعملْ بما يعلمُ . . تاهَ فيما يعلمُ ، ولمْ يوفَّقْ فيما يعملُ حتَّىٰ يستوجبَ النارَ »[1]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ : مِنَ الإشكالاتِ والشُّبهِ ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ : يعلِّمْهُ علماً مِنْ غيرِ تعلُّمٍ ، ويفطِّنْهُ مِنْ غيرِ تجربةٍ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ، قيلَ : نوراً يفرقُ بهِ بينَ الحقِّ والباطلِ ، ويخرجُ بهِ مِنَ الشبهاتِ ، ولذٰلكَ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ في دعائِهِ مِنْ سؤالِ النورِ ، فقالَ : « اللَّهمَّ ؛ أعطني نوراً ، وزدْني نوراً ، واجعلْ لي في قلبي نوراً ، وفي قبري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً » حتَّىٰ قالَ : « في شعري ، وبشري ، ولحمي ، ودمي ، وعظامي »[2]

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ما هٰذا الشرحُ ؟ فقالَ : « هوَ التَّوسعةُ ، إنَّ النورَ إذا قُذِفَ بهِ في القلبِ . . اتَّسعَ لهُ الصدرُ وانشرحَ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : « اللَّهمَّ ؛ فقِّهْهُ في الدينِ ، وعلِّمْهُ التأويلَ »[4]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما عندَنا شيءٌ أسرَّهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلينا إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ تعالىٰ عبداً فهماً في كتابِهِ)[5] ، وليسَ هٰذا بالتعلُّمِ .

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ : إنَّهُ الفهمُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ[6]

---

(١) كذا هو بتمامه في « القوت » (١/١١٩) ، وقد تقدم صدره ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٧/٢٥٨) : (هٰذا نص « القوت » ، فهو من قول بعض التابعين ، وسياق المصنف يقتضي أنه بقية الحديث السابق ، ولذا قال العراقي : « صدر الحديث تقدم في العلم ، وهٰذه الزيادة لم أرها » ، والذي يظهر لي أنه سقط كلام من النساخ) .

(٢) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

(٤) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/٢٦٦) .

(٥) رواه النسائي (٨/٢٣) بنحوه .

(٦) قوت القلوب (١/١١٨) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، خصَّ ما انكشفَ باسمِ الفهمِ[1]

وكانَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (المؤمنُ ينظرُ بنورِ اللهِ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ ، واللهِ ؛ إنَّهُ للحقُّ يقذفُهُ اللهُ في قلوبِهِمْ ، ويجريهِ علىٰ ألسنتِهِمْ)[2]

وقالَ بعضُ السلفِ : (ظنُّ المؤمنِ كهانةٌ)[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا فِراسةَ المؤمنِ ؛ فإنَّهُ ينظرُ بنورِ اللهِ تعالىٰ »[4] ، وإليهِ يشيرُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

وروى الحسنُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « العلمُ علمانِ ، فعلمٌ باطنٌ في القلبِ فذٰلكَ هوَ العلمُ النّافعُ »[5]

وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عنِ العلمِ الباطنِ ما هوَ ؟ فقالَ : (هوَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ يقذفُهُ في قلوبِ أحبابِهِ ، لمْ يُطلعْ عليهِ ملكاً ولا بشراً)[6]

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ أمَّتي محدَّثينَ ومكلَّمينَ ، وإنَّ عمرَ منهُمْ »[7]

وقرأَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (وما أرسلنا مِنْ قبلِكَ مِنْ رسولٍ ولا نبيٍّ ولا محدَّثٍ) يعني : الصدِّيقينَ ، والمحدَّثُ هوَ الملهَمُ ، والملهَمُ هوَ الذي انكشفَ لهُ في باطنِ قلبِهِ مِنْ جهةِ الداخلِ[8] ، لا مِنْ جهةِ المحسوساتِ الخارجةِ .

والقرآنُ مصرّحٌ بأنَّ التقوىٰ مفتاحُ الهدايةِ والكشفِ ، وذٰلكَ علمٌ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ خصَّصَها بهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وكانَ أبو يزيدَ وغيرُهُ يقولُ : (ليسَ العالمُ الذي يحفظُ مِنْ كتابٍ ، فإذا نسيَ ما حفظَهُ . . صارَ جاهلاً ، إنَّما العالمُ الذي يأخذُ علمَهُ مِنْ ربِّهِ أيَّ وقتٍ شاءَ ، بلا حفظٍ ولا درسٍ)[9]

وهٰذا هوَ العالمُ الربَّانيُّ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، معَ أنَّ كلَّ علمٍ مِنْ لدنْهُ عزَّ وجلَّ ، ولٰكنَّ بعضَها بوسائطِ تعليمِ الخلقِ ، فلا يُسمَّىٰ ذٰلكَ علماً لدنّياً ، بلِ اللدنّيُّ الذي ينفتحُ في سرِّ القلبِ مِنْ غيرِ سببٍ مألوفٍ مِنْ خارجٍ .

---

(١) قوت القلوب (١١٨/١) .
(٢) قوت القلوب (١١٨/١) .
(٣) قوت القلوب (١١٨/١) ، وقال : (أي : كأنه سحر في نفاذه وصحة وقوعه) .
(٤) رواه الترمذي (٣١٢٧) .
(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٠٢) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٥٠) .
(٦) قوت القلوب (١٢٠/١) .
(٧) رواه البخاري (٣٤٦٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) ، واللفظ هنا عند صاحب « القوت » (١٢١/١) .
(٨) الذي هو قلب القلب ، وفيه باب إلى الملكوت الأعلى . « إتحاف » (٢٥٩/٧) .
(٩) قوت القلوب (١٢١/١) .

فهٰذهِ شواهدُ النقلِ ، ولوْ جُمِعَ كلُّ ما وردَ فيهِ مِنَ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ . . لخرجَ عنِ الحصرِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا مشاهدةُ ذٰلكَ بالتجارِبِ : فذٰلكَ أيضاً خارجٌ عنِ الحصرِ ، وظهرَ ذٰلكَ على الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بعدَهُمْ .

قالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها عندَ موتِهِ : (إنَّما هما أخواكِ وأختاكِ) ، وكانَتْ زوجتُهُ حاملاً ، فولدَتْ بنتاً ، فكانَ قدْ عرفَ قبلَ الولادةِ أنَّها بنتٌ [١]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في أثناءِ خطبتِهِ : (يا ساريةُ ؛ الجبلَ الجبلَ) إذ انكشفَ لهُ أنَّ العدوَّ قدْ أشرفَ عليهِ ، فحذَّرَهُ بمعرفتِهِ ذٰلكَ [٢] ، ثمَّ بلوغُ صوتِهِ إليهِ مِنْ جملةِ الكراماتِ العظيمةِ .

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : دخلتُ على عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ وكنتُ قدْ لقيتُ امرأةً في طريقي ، فنظرتُ إليها شزراً ، وتأمَّلْتُ محاسنَها ، فقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ لما دخلتُ : يدخلُ عليَّ أحدُكُمْ وآثارُ الزنا ظاهرةٌ على عينيهِ ؟! أما علمتَ أنَّ زنا العينينِ النظرُ ؟! لتتوبنَّ أوْ لأعزِّرنَّكَ ، فقلتُ : أوحيٌ بعدَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! فقالَ : لا ، ولٰكنْ تبصرةٌ وبرهانٌ وفراسةٌ صادقةٌ [٣]

وعنْ أبي سعيدٍ الخرَّازِ قالَ : دخلتُ المسجدَ الحرامَ ، فرأيتُ فقيراً عليهِ خرقتانِ ، فقلتُ في نفسي : هٰذا وأشباهُهُ كَلٌّ على الناسِ ، فناداني وقالَ : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ ﴾ ، فاستغفرتُ اللهَ في سرِّي ، فناداني وقالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ ، ثمَّ غابَ عنِّي فلمْ أرَهُ [٤]

وقالَ زكريا بنُ دِلُّويهِ : دخلَ أبو العباسِ بنُ مسروقٍ على أبي الفضلِ الهاشميِّ وهوَ عليلٌ ، وكانَ ذا عيالٍ ، ولمْ يُعرفْ لهُ سببٌ يعيشُ بهِ ، قالَ : فلما قمتُ . . قلتُ في نفسي : مِنْ أينَ يأكلُ هٰذا الرجلُ ؟ قالَ : فصاحَ بي : يا أبا العباسِ ؛ رُدَّ هٰذهِ الهمَّةَ الدنيَّةَ ؛ فإنَّ للهِ تعالى ألطافاً خفيَّةً [٥]

وقالَ أحمدُ النقيبُ : دخلتُ على الشبليِّ ، فقالَ مفتوناً : يا أحمدُ ؛ فقلتُ : ما الخبرُ ؟ قالَ : كنتُ جالساً ، فجرى بخاطري : إنَّكَ بخيلٌ [٦] ، فقلتُ : ما أنا ببخيلٍ ، فقاومَني خاطري وقالَ : بلى ، أنتَ بخيلٌ ، فقلتُ : ما فُتحَ اليومَ عليَّ بشيءٍ إلا دفعتُهُ إلى أوَّلِ فقيرٍ يلقاني ، قالَ : فما استتمَّ الخاطرُ حتَّى دخلَ عليَّ صاحبٌ لمؤنسٍ الخادمِ ومعَهُ خمسونَ ديناراً ، فقالَ : اجعلْها في مصالحِكَ ، قالَ : فقمتُ فأخذتُها وخرجتُ ، وإذا بفقيرٍ مكفوفٍ بينَ يدي مزيِّنٍ يحلقُ رأسَهُ ،

---

(١) روى مالك في « الموطأ » (٧٥٢/٢) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن أبا بكر الصديق كان نحلَها جادَّ ـ أي : مجدود بمعنى مقطوع ـ عشرين وسقاً من ماله بالغابة ، فلما حضرته الوفاة . . قال : والله يا بنيَّة ؛ ما من الناس أحد أحب إلي غنىً بعدي منك ، ولا أعز علي فقراً بعدي منك ، وإني كنت نحلتك جادَّ عشرين وسقاً ، فلو كنت جددتيه واحتزتيه . . كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث ، وإنما هما أخواك وأختاك ، فاقتسموه على كتاب الله ، قالت عائشة : فقلت : يا أبتِ ؛ والله لو كان كذا وكذا . . لتركته ، إنما هي أسماء ، فمن الأخرى ؟ فقال أبو بكر : ذو بطن بنت خارجة ، أُراها جارية . فكانت كما قال رضي الله تعالى عنه ، وولدت له أم كلثوم .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٨) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (ص ٤٣٠) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٦٠/٧) : (وقد أفرد لطرقه القطب الحلبي الحافظ جزءاً) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٤٠٥) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٤٠٥) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٤/١٠) .

(٦) عنى الشبلي نفسه ، لا مخاطبه .

فتقدمتُ إليهِ وناولتُهُ الدنانيرَ ، فقالَ : أعطِها المزيّنَ ، فقلتُ : إنَّها دنانيرُ !! ، فقالَ : أوَليسَ قدْ قلنا لكَ : إنَّكَ بخيلٌ ؟! قالَ : فناولتُها المزيّنَ ، فقالَ المزيّنُ : قدْ عقدْنا لما جلسَ هٰذا الفقيرُ بينَ أيدينا ألا نأخذَ عليهِ أجراً ، قالَ : فرميتُ بها في دجلةَ ، وقلتُ : ما أعزَّكِ أحدٌ إلا أذلَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ (١)

وقالَ حمزةُ بنُ عبدِ اللهِ العلويُّ : دخلتُ علىٰ أبي الخيرِ التِّيناتيِّ ، واعتقدتُ في نفسي أنْ أسلِّمَ عليهِ ولا آكلَ في دارِهِ طعاماً ، فلمَّا خرجتُ مِنْ عندِهِ . . إذا بهِ قدْ لحقَني وقدْ حملَ طبقاً فيهِ طعامٌ وقالَ : يا فتىٰ ، كُلْ ؛ فقدْ خرجتَ الساعةَ من اعتقادِكَ . وكانَ أبو الخيرِ التيناتيُّ هٰذا مشهوراً بالكراماتِ (٢)

وقالَ إبراهيمُ الرَّقِّيُّ : قصدتُهُ مسلِّماً عليهِ ، فحضرتُ صلاةَ المغربِ ، فلمْ يكدْ يقرأُ فاتحةَ الكتابِ مستوياً ، فقلتُ في نفسي : ضاعَتْ سفرتي ، فلمَّا سلَّمَ . . خرجتُ إلى الطهارةِ ، فقصدَني سبعٌ ، فعدتُ إلىٰ أبي الخيرِ وقلتُ : قصدني سبعٌ ، فخرجَ وصاحَ بهِ وقالَ : ألَمْ أقلْ لكَ : لا تتعرَّضْ لضيفاني ؟! فتنحَّى الأسدُ ، فتطهَّرتُ ، فلمَّا رجعتُ . . قالَ لي : اشتغلتُمْ بتقويمِ الظواهرِ فخفتمُ الأسدَ ، واشتغلنا بتقويمِ البواطنِ فخافَنا الأسدُ (٣)

وما حُكِيَ عنْ تفرُّسِ المشايخِ وإخبارِهِمْ عنِ اعتقاداتِ الناسِ وضمائرِهِمْ يخرجُ عنِ الحصرِ .

بلْ ما حُكِيَ عنهُمْ منْ مشاهدةِ الخضرِ عليهِ السلامُ ، والسؤالِ منهُ ، ومِنْ سماعِ صوتِ الهاتفِ ، ومِنْ فنونِ الكراماتِ . . خارجٌ عنِ الحصرِ ، والحكايةُ لا تنفعُ الجاحدَ ما لمْ يشاهدْ ذٰلكَ مِنْ نفسِهِ ، ومَنْ أنكرَ الأصلَ . . أنكرَ التفصيلَ .

❁ ❁ ❁

والدليلُ القاطعُ الذي لا يقدرُ أحدٌ علىٰ جحدِهِ أمرانِ :

أحدُهُما : عجائبُ الرؤيا الصادقةِ : فإنَّهُ ينكشفُ بها الغيبُ ، وإذا جازَ ذٰلكَ في النومِ . . فلا يستحيلُ أيضاً في اليقظةِ ، فلمْ يفارقِ النومُ اليقظةَ إلا في ركودِ الحواسِّ وعدمِ اشتغالِها بالمحسوساتِ ، فكمْ مِنْ مستيقظٍ غائصٍ لا يسمعُ ولا يبصرُ لاشتغالِهِ بنفسِهِ .

الثاني : إخبارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الغيبِ وأمورٍ في المستقبلِ : كما اشتملَ علىٰ ذٰلكَ القرآنُ ، وإذا جازَ ذٰلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . جازَ لغيرِهِ ؛ إذِ النبيُّ عبارةٌ عنْ شخصٍ كُوشِفَ بحقائقِ الأمورِ ، وشُغِلَ بإصلاحِ الخلقِ ، فلا يستحيلُ أنْ يكونَ في الوجودِ شخصٌ مكاشَفٌ بالحقائقِ ، ولا يشتغلُ بإصلاحِ الخلقِ ، وهٰذا لا يسمَّىٰ نبيّاً ، بلْ يسمَّىٰ وليّاً ، فمَنْ آمنَ بالأنبياءِ ، وصدَّقَ بالرؤيا الصحيحةِ . . لزمَهُ ـ لا محالةَ ـ أنْ يقرَّ بأنَّ القلبَ لهُ بابانِ ؛ بابٌ إلىٰ خارجٍ ؛ وهوَ الحواسُّ ، وبابٌ إلى الملكوتِ مِنْ داخلِ القلبِ ؛ وهوَ بابُ الإلهامِ والنفثِ في الرُّوعِ والوحيِ ، فإذا أقرَّ بهما جميعاً . . لمْ يمكنْهُ أن يحصرَ العلومَ في التعلمِ ومباشرةِ الأسبابِ المألوفةِ ، بلْ يجوِّزُ أنْ تكونَ المجاهدةُ سبيلاً إليهِ .

فهٰذا ما ينبِّهُ علىٰ حقيقةِ ما ذكرناهُ مِنْ عجيبِ تردُّدِ القلبِ بينَ عالمِ الشهادةِ وعالمِ الملكوتِ .

وأمَّا السببُ في انكشافِ الأمورِ في المنامِ بالمثالِ المحوجِ إلى التعبيرِ ، وكذٰلكَ تمثُّلُ الملائكةِ للأنبياءِ والأولياءِ

---

(١) نقلها من بعد المصنف اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ١٠٩) ، وابن الملقن في « طبقات الأولياء » (ص ٢٠٨) ، وعن حكم إتلاف المال أورد الإمام أبو النصر الطوسي في « اللمع » (ص ٤٨٣) ، واليافعي في « الإرشاد » أجوبة عن ذلك .

(٢) رواه أبو النصر السراج في « اللمع » (ص ٣٩٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٥٧٣) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٥٧٣) .

بصورٍ مختلفةٍ . . فذٰلكَ أيضاً مِنْ أسرارِ عجائبِ القلبِ ، ولا يليقُ ذٰلكَ إلا بعلمِ المكاشفةِ ، فلنقتصرْ علىٰ ما ذكرناهُ ، فإنَّهُ كافٍ للاستحثاثِ على المجاهدةِ وطلبِ الكَشْفِ منها .

وقدْ قالَ بعضُ المكاشفينَ : ظهرَ لي المَلَكُ ، فسألَني أنْ أمليَ عليهِ شيئاً مِنْ ذكري الخفيّ عنْ مشاهدتي مِنَ التوحيدِ ، وقالَ : ما نكتبُ لكَ عملاً ، ونحنُ نحبُّ أنْ نصعدَ لكَ بعملٍ تتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقلتُ : ألستُما تكتبانِ الفرائضَ ؟ قالا : بلىٰ ، قلتُ : فيكفيكُما ذٰلكَ (١)

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الكرامَ الكاتبينَ لا يطلعونَ علىٰ أسرارِ القلبِ ، وإنما يطلعونَ على الأعمالِ الظاهرةِ (٢)

وقالَ بعضُ العارفينَ : سألتُ بعضَ الأبدالِ عنْ مسألةٍ مِنْ مشاهدةِ اليقينِ ، فالتفتَ إلىٰ شمالِهِ فقالَ : ما تقولُ رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ التفتَ إلىٰ يمينِهِ فقالَ : ما تقولُ رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ أطرقَ إلىٰ صدرِهِ وقالَ : ما تقولُ رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ أجابَ بأغربِ جوابٍ سمعتُهُ ، فسألتُهُ عنِ التفاتِهِ ، فقالَ : لمْ يكنْ عندي في المسألةِ علمٌ عتيدٌ (٣) ، فسألتُ صاحبَ الشمالِ ، فقالَ : لا أدري ، فسألتُ صاحبَ اليمينَ وهوَ أعلمُ منهُ ، فقالَ : لا أدري ، فنظرتُ إلىٰ قلبي وسألتُهُ ، فحدَّثَني بما أجبتُكَ ، فإذا هوَ أعلمُ منهما (٤)

وكأنَّ هٰذا هوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ في أمَّتي محدَّثينَ ، وإنَّ عمرَ منهُمْ » (٥)

وفي الأثرِ : (أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : أيُّما عبدٍ اطلعتُ علىٰ قلبِهِ ، فرأيتُ الغالبَ عليهِ التمسُّكَ بذكري . . تولَّيتُ سياستَهُ ، وكنتُ جليسَهُ ، ومحادثَهُ وأنيسَهُ) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : (القلبُ بمنزلةِ القبَّةِ المضروبةِ ، حولَها أبوابٌ مغلقةٌ ، فأيُّ بابٍ فُتِحَ لهُ عَملٌ فيهِ فقدْ ظهرَ انفتاحُ بابٍ مِنْ أبوابِ القلبِ إلىٰ جهةِ الملكوتِ والملأ الأعلىٰ) .

وينفتحُ ذٰلكَ البابُ بالمجاهدةِ والورعِ ، والإعراضِ عنْ شهواتِ الدنيا ، ولذٰلكَ كتبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ أمراءِ الأجنادِ : (احفظوا ما تسمعونَ مِنَ المطيعينَ ؛ فإنَّهُمْ تنجلي لهُمْ أمورٌ صادقةٌ) (٦)

وقالَ بعضُ العلماءِ : (يدُ اللهِ علىٰ أفواهِ الحكماءِ ، لا ينطقونَ إلا بما هيَّأَ اللهُ لهُمْ مِنَ الحقِّ) (٧)

وقالَ آخرُ : (لوْ شئتُ . . لقلتُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يُطلِعُ الخاشعينَ علىٰ بعضِ سرِّهِ) (٨)

* * *

---

(١) هٰكذا نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٧/٢٦٣) .

(٢) وقال بعض العارفين : بل يطلعون علىٰ بعض أعمال القلب بقرائن خارجة ، فإن المؤمن إذا ذكر الله في قلبه . . فاحت منه رائحة طيبة إلىٰ فمه ، فيشمونها الملائكة ، فيدركون بها إذا ذكر الله تعالىٰ ، فيكتبون ذٰلك في صحيفة حسناته . « إتحاف » (٧/٢٦٣) .

(٣) أي : جواب حاضر

(٤) قوت القلوب (١/١٢٠) .

(٥) رواه البخاري (٣٤٦٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) ، واللفظ عند صاحب « القوت » (١/١٢١) .

(٦) قوت القلوب (١/١١٨) ، ونسب روايته السيوطي في « الدر المنثور » (٨/٣٢) لسعيد بن منصور في « سننه » .

(٧) قوت القلوب (١/١١٨) .

(٨) قوت القلوب (١/١١٨) .

بيان تسلّط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلمْ : أنَّ القلبَ كما ذكرناهُ في مثالِ قبةٍ مضروبةٍ لها أبوابٌ ، تنصبُّ إليهِ الأحوالُ مِنْ كلِّ بابٍ .

ومثالُهُ أيضاً مثالُ هدفٍ تنصبُّ إليهِ السهامُ مِنَ الجوانبِ .

أوْ هوَ مثالُ مرآةٍ منصوبةٍ تجتازُ عليها أصنافُ الصورِ المختلفةِ ، فتتراءىٰ فيها صورةٌ بعدَ صورةٍ ، ولا تخلو عنها .

أوْ مثالُ حوضٍ تنصَبُّ فيهِ مياهٌ مختلفةٌ مِنْ أنهارٍ مفتوحةٍ إليهِ ، وإنَّما مداخلُ هـٰذهِ الآثارِ المتجدّدةِ في القلبِ في كلِّ حالٍ إمَّا مِنَ الظاهرِ فالحواسُّ الخمسُ ، وإمَّا مِنَ الباطنِ فالخيالُ والشهوةُ والغضبُ والأخلاقُ المركَّبةُ في مزاجِ الإنسانِ ؛ فإنَّهُ إذا أدركَ بالحواسِّ شيئاً . . حصلَ منهُ أثرٌ في القلبِ ، وكذٰلكَ إذا هاجَتِ الشهوةُ مثلاً بسببِ كثرةِ الأكلِ ، أوْ بسببِ قوَّةٍ في المزاجِ . . حصلَ منها في القلبِ أثرٌ ، وإنْ كفَّ عنِ الإحساسِ . . فالخيالاتُ الحاصلةُ في النفسِ تبقىٰ ، وينتقلُ الخيالُ مِنْ شيءٍ إلىٰ شيءٍ ، وبحسبِ انتقالِ الخيالِ ينتقلُ القلبُ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ آخر .

والمقصودُ : أنَّ القلبَ في التغيُّرِ والتأثُّرِ دائماً إنما هوَ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ .

❀ ❀ ❀

وأخصُّ الآثارِ الحاصلةِ في القلبِ هيَ الخواطرُ ، وأعني بالخواطرِ : ما يعرضُ فيهِ مِنَ الأفكارِ والأذكارِ ، وأعني بهِ : إدراكاتِهِ علوماً إمَّا علىٰ سبيلِ التجدُّدِ ، وإمَّا علىٰ سبيلِ التذكُّرِ ؛ فإنَّها تُسمَّىٰ خواطرَ مِنْ حيثُ إنَّها تخطرُ بعدَ أنْ كانَ القلبُ غافلاً عنها .

والخواطرُ هيَ المحرّكاتُ للإراداتِ ؛ فإنَّ النيَّةَ والعزمَ والإرادةَ إنَّما تكونُ بعدَ خُطورِ المنويّ بالبالِ لا محالةَ ، فمبدأُ الأفعالِ الخواطرُ ، ثمَّ الخاطرُ يحرّكُ الرغبةَ ، والرغبةُ تحرّكُ العزمَ ، والعزمُ يحركُ النيَّةَ ، والنيَّةُ تحرّكُ الأعضاءَ .

والخواطرُ المحرّكةُ للرغبةِ تنقسمُ :

إلىٰ ما يدعو إلى الشرّ ؛ أعني : إلىٰ ما يضرُّ في العاقبةِ .

وإلىٰ ما يدعو إلى الخيرِ ؛ أعني : إلىٰ ما ينفعُ في الدارِ الآخرةِ .

فهما خاطرانِ مختلفانِ ، فافتقرا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطرُ المحمودُ يُسمَّىٰ **إلهاماً** ، والخاطرُ المذمومُ ـ أعني : الداعيَ إلى الشرّ ـ يسمَّىٰ **وَسواساً** .

ثمَّ إنَّكَ تعلمُ أنَّ هـٰذهِ الخواطرَ حادثةٌ ، ثمَّ كلُّ حادثٍ فلا بدَّ لهُ مِنْ محدثٍ ، ومهما اختلفتِ الحوادثُ . . دلَّ ذٰلكَ على اختلافِ الأسبابِ .

هـٰذا ما عُرِفَ مِنْ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ في ترتيبِ المسبَّباتِ على الأسبابِ ، فمهما استنارَتْ حيطانُ البيتِ بنورِ النارِ ، وأظلمَ سقفهُ واسودَّ بالدخانِ . . علمتَ أنَّ سببَ السوادِ غيرُ سببِ الاستنارةِ ، وكذٰلكَ لأنوارِ القلبِ وظلمتِهِ سببانِ مختلفانِ ، فسببُ الخاطرِ الداعي إلى الخيرِ يُسمَّىٰ **مَلَكاً** ، وسببُ الخاطرِ الداعي إلى الشرّ يُسمَّىٰ **شيطاناً** ، واللطفُ الذي بهِ يتهيَّأُ القلبُ لقبولِ إلهامِ الخيرِ يُسمَّىٰ **توفيقاً** ، والذي بهِ يتهيَّأُ لقبولِ وسواسِ الشيطانِ يُسمَّىٰ **إغواءً وخِذلاناً** ؛ فإنَّ المعانيَ المختلفةَ تفتقرُ إلىٰ أسامٍ مختلفةٍ .

والملكُ : عبارةٌ عنْ خلْقٍ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، شأنُهُ إفاضةُ الخيرِ ، وإفادةُ العلمِ ، وكشفُ الحقِّ ، والوعدُ بالخيرِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، وقدْ خلقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وسخَّرَهُ لذٰلكَ .

والشيطانُ : عبارةٌ عنْ خلْقٍ شأنُهُ ضدُّ ذٰلكَ ، وهوَ الوعدُ بالشرِّ ، والأمرُ بالفحشاءِ ، والتخويفُ عندَ الهمِّ بالخيرِ بالفقرِ .

فالوسوسةُ في مقابلةِ الإلهامِ ، والشيطانُ في مقابلةِ الملكِ ، والتوفيقُ في مقابلةِ الخِذلانِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ، فإنَّ الموجوداتِ كلَّها متقابلةٌ مزدوجةٌ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ فردٌ لا مقابلَ لهُ ، بلْ هوَ الواحدُ الحقُّ ، الخالقُ للأزواجِ كلِّها .

فالقلبُ متجاذبٌ بينَ الشيطانِ والملكِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « في القلبِ لَمَّتانِ : لَمَّةٌ مِنَ الملكِ ؛ إيعادٌ بالخيرِ ، وتصديقٌ بالحقِّ ، فمَنْ وجدَ ذٰلكَ . . فليعلمْ أنَّهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فليحمدِ اللهَ ، ولَمَّةٌ مِنَ العدوِّ ؛ إيعادٌ بالشرِّ ، وتكذيبٌ بالحقِّ ، ونهيٌ عنِ الخيرِ ، فمَنْ وجدَ ذٰلكَ . . فليستعذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ » ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ . . . ﴾ الآيةَ[1]

وقالَ الحسنُ : (إنَّما هما همَّانِ يجولانِ في القلبِ ، همٌّ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهمٌّ مِنَ العدوِّ ، فرحمَ اللهُ عبداً وقفَ عندَ همِّهِ ، فما كانَ مِنَ اللهِ تعالىٰ . . أمضاهُ ، وما كانَ مِنْ عدوِّهِ . . جاهدَهُ)[2]

ولتجاذبِ القلبِ بينَ هٰذينِ المسلَّطينِ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ »[3] ، واللهُ يتعالىٰ عنْ أنْ يكونَ لهُ إصبعٌ مركَّبةٌ مِنْ لحمٍ وعظمٍ ودمٍ وعصبٍ ، منقسمةٌ بالأناملِ ، ولٰكنْ روحُ الإصبعِ سرعةُ التقليبِ ، والقدرةُ على التحريكِ والتغييرِ ، فإنَّكَ لا تريدُ إصبعَكَ لشخصِهِ ، بلْ لفعلِهِ في التقليبِ والترديدِ ، كما أنَّكَ تتعاطى الأفعالَ بأصابعِكَ ، واللهُ تعالىٰ إنما يفعلُ ما يفعلُهُ باستسخارِ المَلَكِ والشيطانِ ، وهما مسخَّرانِ بقدرتِهِ في تقليبِ القلوبِ ، كما أنَّ أصابعَكَ مسخَّرةٌ لكَ في تقليبِ الأجسامِ مثلاً .

والقلبُ بأصلِ الفطرةِ صالحٌ لقبولِ آثارِ المَلَكِ ولقبولِ آثارِ الشيطانِ صلاحاً متساوياً ، ليسَ يترجَّحُ أحدُهُما على الآخرِ ، وإنَّما يترجَّحُ أحدُ الجانبينِ باتباعِ الهوىٰ ، والإكبابِ على الشهواتِ ، أوِ الإعراضِ عنها ومخالفتِها .

فإنِ اتبعَ الإنسانُ مقتضى الشهوةِ والغضبِ . . ظهرَ تسلُّطُ الشيطانِ بواسطةِ الهوىٰ ، وصارَ القلبُ عُشَّ الشيطانِ ومعدنَهُ ؛ لأنَّ الهوىٰ هوَ مرعى الشيطانِ ومرتعُهُ ، وإنْ جاهدَ الشهواتِ ، ولمْ يسلِّطْها علىٰ نفسِهِ ، وتشبَّهَ بأخلاقِ الملائكةِ عليهِمُ السلامُ . . صارَ قلبُهُ مستقرَّ الملائكةِ ومهبطَهُمْ .

ولمَّا كانَ لا يخلو قلبٌ عنْ شهوةٍ وغضبٍ ، وحرصٍ وطمعٍ وطولِ أملٍ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ صفاتِ البشريَّةِ المتشعِّبةِ عنِ الهوىٰ . . لا جرمَ لمْ يخلُ قلبٌ عنْ أنْ يكونَ للشيطانِ فيهِ جولانٌ بالوسوسةِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منكُمْ مِنْ أحدٍ إلا ولهُ شيطانٌ » ، قالوا : وأنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وأنا ، إلا أنَّ اللهَ أعانَني عليهِ فأسلمُ ، فلا يأمرُ إلا بخيرٍ »[4]

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٩٨٥) .
(٢) قوت القلوب (١١٣/١) .
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤) بنحوه .
(٤) رواه مسلم (٢٨١٤) .

وإنَّما كانَ هٰذا لأنَّ الشيطانَ لا يتصرَّفُ إلا بواسطةِ الشهوةِ ، فمَنْ أعانَهُ اللهُ علىٰ شهوتِهِ حتَّىٰ صارَتْ لا تنبسطُ إلا حيثُ ينبغي وإلى الحدِّ الذي ينبغي . . فشهوتُهُ لا تدعو إلى الشرِّ ، فالشيطانُ المتدرِّعُ بها لا يأمرُ إلا بالخيرِ .

ومهما غلبَ على القلبِ ذكرُ الدنيا بمقتضياتِ الهوىٰ . . وجدَ الشيطانُ مجالاً فوسوسَ ، ومهما انصرفَ القلبُ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ . . ارتحلَ الشيطانُ وضاقَ مجالُهُ ، وأقبلَ المَلَكُ وألهمَ .

❁ ❁ ❁

والتطاردُ بينَ جندي الملائكةِ والشياطينِ في معركةِ القلبِ دائمٌ إلىٰ أنْ ينفتحَ القلبُ لأحدهِما ، فيستوطنُ ويستمكنُ ، ويكونُ اجتيازُ الثاني اختلاساً .

وأكثرُ القلوبِ قدْ فتحتْها جنودُ الشيطانِ وتملَّكتْها ، فامتلأَتْ بالوساوسِ الداعيةِ إلىٰ إيثارِ العاجلةِ واطِّراحِ الآخرةِ ، ومبدأُ استيلائِها اتباعُ الشهواتِ والهوىٰ ، ولا يمكنُ فتحُها بعدَ ذٰلكَ إلا بتخليةِ القلبِ عنْ قوتِ الشيطانِ ، وهوَ الهوىٰ والشهواتُ ، وعمارتِهِ بذكرِ اللهِ تعالى الذي هوَ مطرحُ أثرِ الملائكةِ .

قالَ جريرُ بنُ عبيدةَ العدويُّ : شكوتُ إلى العلاءِ بنِ زيادٍ ما أجدُ في صدري مِنَ الوسوسةِ ، فقالَ : إنَّما مثلُ ذٰلكَ مثلُ البيتِ الذي يمرُّ بهِ اللصوصُ ، فإنْ كانَ فيهِ شيءٌ . . عالجوهُ ، وإلا . . مضوا وتركوهُ[1] .

يعني : أنَّ القلبَ الخاليَ عنِ الهوىٰ لا يدخلُهُ الشيطانُ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ ، فكلُّ مَنِ اتبعَ الهوىٰ فهوَ عبدُ الهوىٰ لا عبدُ اللهِ ، ولذٰلكَ سلَّطَ اللهُ عليهِ الشيطانَ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ إشارةً إلىٰ أنَّ مَنِ الهوىٰ إلـٰهُهُ ومعبودُهُ . . فهوَ عبدُ الهوىٰ لا عبدُ اللهِ .

وقالَ عثمانُ بنُ أبي العاصِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ حالَ الشيطانُ بيني وبينَ صلاتي وقراءتي ، فقالَ : « ذٰلكَ شيطانٌ يُقالُ لهُ : خِنْزَبٌ ، فإذا أحسسْتَهُ . . فتعوَّذْ باللهِ منهُ واتفلْ عنْ يسارِكَ ثلاثاً » ، قالَ : ففعلتُ ذٰلكَ ، فأذهبَهُ اللهُ عنِّي[2] .

وفي الخبرِ : « إنَّ للوضوءِ شيطاناً يقالُ لهُ : الولهانُ ، فاستعيذوا باللهِ منهُ »[3] .

ولا يمحو وسوسةَ الشيطانِ مِنَ القلبِ إلا ذكرُ ما سوىٰ ما يوسوسُ بهِ ؛ لأنَّهُ إذا حضرَ في القلبِ ذكرُ شيءٍ . . انعدمَ منهُ ما كانَ فيهِ مِنْ قبلُ ، ولـٰكنْ كلُّ شيءٍ سوى اللهِ تعالىٰ وسوىٰ ما يتعلَّقُ بهِ فيجوزُ أيضاً أنْ يكونَ مجالاً للشيطانِ ، فذكرُ اللهِ هوَ الذي يُؤمنُ جانبُهُ ، ويُعلمُ أنَّهُ ليسَ للشيطانِ فيهِ مجالٌ ، فلا يعالجُ الشيءُ إلا بضدِّهِ ، وضدُّ جميعِ وساوسِ الشيطانِ ذكرُ اللهِ بالاستعاذةِ ، والتبرِّي عنِ الحولِ والقوَّةِ ، وهوَ معنىٰ قولِكَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ) .

وذٰلكَ لا يقدرُ عليهِ إلا المتقونَ ، الذينَ الغالبُ عليهِمْ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما الشيطانُ يطوفُ عليهِمْ في أوقاتِ الفلتاتِ علىٰ سبيلِ الخلسةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٤٥) .

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٣) .

(٣) رواه الترمذي (٥٧) ، وابن ماجه (٤٢١) .

وقالَ مجاهدٌ في معنىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ قالَ : (هوَ منبسطٌ على القلبِ ، فإذا ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ وانقبضَ ، وإذا غفلَ . . انبسطَ علىٰ قلبِهِ)(١)

فالتطاردُ بينَ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ووسوسةِ الشيطانِ كالتطاردِ بينَ النورِ والظلامِ ، وبينَ الليلِ والنهارِ(٢) ، ولتضادِّهِما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ واضعٌ خطمَهُ علىٰ قلبِ ابنِ آدمَ ، فإنْ هوَ ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ ، وإنْ نسيَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ . . التقمَ قلبَهُ »(٣)

وقالَ ابنُ وضَّاحٍ في حديثٍ ذكرَهُ : (إذا بلغَ الرجلُ أربعينَ سنةً ولمْ يتبْ . . مسحَ الشيطانُ وجهَهُ بيدِهِ وقالَ : بأبي وجهُ مَنْ لا يفلحُ)(٤)

وكما أنَّ الشهواتِ ممتزجةٌ بلحْمِ ابنِ آدمَ ودمِهِ . . فسلطنةُ الشيطانِ أيضاً ساريةٌ في لحمِهِ ودمِهِ ، ومحيطةٌ بالقلبِ مِنْ جوانبِهِ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ يجري مِن ابنِ آدمَ مجرى الدمِ ، فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ »(٥)

وذٰلكَ لأنَّ الجوعَ يكسرُ الشهوةَ ، ومَجرى الشيطانِ الشهواتُ ، ولأجلِ اكتنافِ الشهواتِ للقلبِ مِنْ جوانبِهِ قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ إبليسَ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بأطرقِهِ ، فقعدَ لهُ بطريقِ الإسلامِ فقالَ : أتسلمُ وتذرُ دينَكَ ودينَ آبائِكَ ؟! فعصاهُ وأسلمَ ، ثمَّ قعدَ لهُ بطريقِ الهجرةِ فقالَ : أتهاجرُ فتدعُ أرضَكَ وسماءَكَ ؟! فعصاهُ وهاجرَ ، ثمَّ قعدَ له بطريقِ الجهادِ فقالَ : أتجاهدُ وهوَ جَهْدُ النفسِ والمالِ فتقاتلُ فتقتلُ فتنكحُ نساؤُكَ ويقسمُ مالُكَ ؟! فعصاهُ وجاهدَ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فمَنْ فعلَ ذٰلكَ فماتَ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يدخلَهُ الجنَّةَ »(٦)

فذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معنى الوسوسةِ ، وهيَ هٰذهِ الخواطرُ التي تخطرُ للمجاهدِ أنَّهُ يُقتلُ وتُنكحُ نساؤُهُ ، وغيرُ ذٰلكَ ممَّا يصرفُهُ عنِ الجهادِ ، وهٰذهِ الخواطرُ معلومةٌ ، فإذاً ؛ الوسواسُ معلومٌ بالمشاهدةِ ، وكلُّ خاطرٍ

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/٣٠/٤٥٥) ، والسياق في « القوت » (١/١١٣) .

(٢) فإذا جاء الليل . . ذهب النهار ، وبالعكس ، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره ، وآخر بضده ، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله ، وآخر ضده . « إتحاف » (٧/٢٦٩) .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٠١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/١٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٨٦) .

(٤) كذا حكاه من حديث ابن وضاح ابنُ عبد ربه في « العقد الفريد » (٣/١٨٥) ، وأنشد للبحتري :

فإذا رأىٰ إبليسُ غرَّةَ وجهِهِ　　حيَّا وقالَ : فديتُ مَنْ لا يفلحُ

(٥) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) دون زيادة : « فضيقوا مجاريه بالجوع » ، قال الحافظ الزبيدي : (وأنا أظن أن هٰذه الزيادة وقعت تفسيراً للحديث من بعض رواته ، فألحقها به من روىٰ عنه) . « إتحاف » (٤/١٩٤) ، ومعنى الزيادة صحيح كما لا يخفىٰ ؛ إذ الشبع مسلك ومدخل من مداخل الشيطان ، روىٰ أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٢٨) عن ثابت البناني قال : (بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأىٰ عليه معاليق من كل شيء ، فقال له : ما هٰذه المعاليق التي أراها عليك ؟ قال : هٰذه الشهوات التي أصيب بها بني آدم ، فقال له يحيىٰ عليه السلام : هل لي فيها شيء ؟ قال : لا ، قال : فهل تصيب مني شيئاً ؟ قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة والذكر ، قال : هل غير ذا ؟ قال : لا ، قال : لا جرم !! والله لا أشبع أبداً) ، وأول خطيئة وسوس بها الشيطان لبني آدم لقمة .

(٦) رواه النسائي (٦/٢١) من حديث سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه مرفوعاً .

فلهُ سببٌ ، ويفتقرُ إلى اسمٍ يعرِّفُهُ ، فاسمُ سببِهِ الشيطانُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنهُ آدميٌّ ، وإنَّما يختلفونَ بعصيانِهِ ومتابعتِهِ ، ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ أحدٍ إلا ولهُ شيطانٌ »(١)

فقدِ اتضحَ بهذا النوعِ مِنَ الاستبصارِ معنى الوسوسةِ والإلهامِ ، والمَلَكِ والشيطانِ ، والتوفيقِ والخذلانِ .

❁ ❁ ❁

فبعدَ هذا ؛ نظرُ مَنْ ينظرُ في ذاتِ الشيطانِ ، وأنَّهُ جسمٌ لطيفٌ أوْ ليسَ بجسمٍ ، وإنْ كانَ جسماً فكيفَ يدخلُ بدنَ الإنسانِ ما هوَ جسمٌ . . فهذا الآنَ غيرُ محتاجٍ إليهِ في علمِ المعاملةِ ، بلْ مثالُ هذا الباحثِ عنْ هذا كمثالِ مَنْ دخلَتْ في ثيابِهِ حيَّةٌ وهوَ محتاجٌ إلى إزالتِها ودفعِ ضررِها ، فاشتغلَ بالبحثِ عنْ لونِها وشكلِها ، وطولِها وعرضِها ، وذلكَ عينُ الجهلِ .

فمصادمةُ الخواطرِ الباعثةِ على الشرِّ قدْ عُلمَتْ ، ودلَّ ذلكَ على أنَّهُ عنْ سببٍ لا محالةَ ، وعُلمَ أنَّ الداعيَ إلى الشرِّ المحذورِ في المستقبلِ عدوٌّ ، فقدْ عُرفَ العدوُّ لا محالةَ ، فينبغي أنْ يُشتغلَ بمجاهدتِهِ ، وقد عرَّفَ اللهُ سبحانَهُ عداوتَهُ في مواضعَ كثيرةٍ مِنْ كتابِهِ ؛ ليُؤمنَ بهِ ويُحترزَ عنهُ ، فقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

وقالَ تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

فينبغي للعبدِ أنْ يشتغلَ بدفعِ العدوِّ عنْ نفسِهِ ، لا بالسؤالِ عنْ أصلِهِ ونسبِهِ ومسكنِهِ .

نعمْ ؛ ينبغي أنْ يسألَ عنْ سلاحِهِ ليدفعَهُ عنْ نفسِهِ ، وسلاحُ الشيطانِ الهوى والشهواتُ ، وذلكَ كافٍ للعالمينَ(٢) ، فأمَّا معرفةُ ذاتِهِ وصفاتِهِ وحقيقتِهِ ـ نعوذُ باللهِ منهُ ـ وحقيقةِ الملائكةِ . . فذلكَ ميدانُ العارفينَ المتغلغلينَ في علومِ المكاشفاتِ ، فلا يحتاجُ في علمِ المعاملةِ إلى معرفتِهِ .

نعمْ ؛ ينبغي أنْ يعلمَ أنَّ الخواطرَ تنقسمُ إلى ما يُعلمُ قطعاً أنَّهُ داعٍ إلى الشرِّ ، فلا يخفى كونُهُ وسوسةً ، وإلى ما يُعلمُ أنَّه داعٍ إلى الخيرِ ، فلا يشكُّ في كونِهِ إلهاماً ، وإلى ما يتردَّدُ فيهِ ، فلا يدري أنَّهُ مِنْ لَمةِ المَلَكِ ، أوْ مِنْ لَمةِ الشيطانِ ؟ فإنَّ مِنْ مكايدِ الشيطانِ أنْ يعرضَ الشرَّ في معرضِ الخيرِ ، والتمييزُ في ذلكَ غامضٌ ، وأكثرُ العبَّادِ بهِ يهلكونَ ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يقدرُ على دعائِهِمْ إلى الشرِّ الصريحِ ، فيصوِّرُ الشرَّ بصورةِ الخيرِ ؛ كما يقولُ للعالمِ بطريقِ الوعظِ : أما تنظرُ إلى الخلْقِ وهُمْ موتى مِنَ الجهلِ ، هلكى مِنَ الغفلةِ ، قدْ أشرفوا على النارِ ؟! أمالكَ رحمةٌ على عبادِ اللهِ تنقذُهُمْ مِنَ المعاطبِ بنصحِكَ ووعظِكَ وقدْ أنعمَ اللهُ عليكَ بقلبٍ بصيرٍ ، ولسانٍ ذلقٍ ، ولهجةٍ مقبولةٍ ؟! فكيفَ تكفرُ نعمةَ اللهِ تعالى ، وتتعرَّضُ لسخطِهِ ، وتسكتُ عنْ إشاعةِ العلمِ ، ودعوةِ الخلقِ إلى الصراطِ المستقيمِ ؟!

ولا يزالُ يقرِّرُ ذلكَ في نفسِهِ ، ويستجرُّهُ بلطيفِ الحيلِ ، إلى أنْ يشتغلَ بوعْظِ الناسِ ، ثمَّ يدعوهُ بعدَ ذلكَ إلى أنْ يتزيَّنَ لهُمْ ويتصنَّعَ بتحسينِ اللفظِ وإظهارِ الخيرِ ، ويقولُ لهُ : إنْ لمْ تفعلْ ذلكَ . . سقطَ وقعُ كلامِكَ مِنْ قلوبِهِمْ ، ولمْ يهتدوا إلى الحقِّ ، ولا يزالُ يقرِّرُ ذلكَ عندَهُ ، وهوَ في أثنائِهِ يؤكِّدُ فيهِ شوائبَ الرياءِ ، وقبولَ الخلقِ ، ولذَّةَ الجاهِ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٤) .

(٢) في غير (ج ، د) : (العاملين) .

والتعزُّزَ بكثرةِ الأتباعِ والعلمِ ، والنظرَ إلى الخلقِ بعينِ الاحتقارِ ، فيستدرجُ المسكينَ بالنصحِ إلى الهلاكِ ، فيتكلَّمُ وهوَ يظنُّ أنَّ قصدَهُ الخيرُ ، وإنَّما قصدُهُ الجاهُ والقبولُ ، فيهلكُ بسببِ ذٰلكَ ، وهوَ يظنُّ أنَّهُ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وهوَ مِنَ الذينَ قالَ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »(١) ، و« إنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ »(٢)

ولذٰلكَ رُوِيَ أنَّ إبليسَ لعنَهُ اللهُ تمثَّلَ لعيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ فقالَ لهُ : قُلْ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، فقالَ : (كلمةُ حقٍّ ولا أقولُها بقولِكَ) ؛ لأنَّ لهُ تحتَ الخيرِ أيضاً تلبيساتٍ ، وتلبيساتُ الشيطانِ مِنْ هٰذا الجنسِ لا تتناهىٰ ، وبها يهلكُ العلماءُ ، والعبَّادُ والزهَّادُ ، والفقراءُ والأغنياءُ ، وأصنافُ الخلْقِ ممَّنْ يكرهونَ ظاهرَ الشرِّ ولا يرضونَ لأنفسِهِمُ الخوضَ في المعاصي المكشوفةِ .

❁ ❁ ❁

وسنذكرُ جملةً مِنَ مكايدِ الشيطانِ في كتابِ الغرورِ في آخرِ هٰذا الربعِ ، ولعلَّنا إنْ أمهلَ الزمانُ . . صنَّفنا فيهِ كتاباً على الخصوصِ ، نسمِّيهِ : « تلبيسَ إبليسَ »(٣) ؛ فإنَّهُ قدِ انتشرَ الآنَ تلبيسُهُ في البلادِ والعبادِ ، لا سيَّما في المذاهبِ والاعتقاداتِ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ مِنَ الخيراتِ إلا رسمُها ، كلُّ ذٰلكَ إذعاناً لتلبيساتِ الشيطانِ ومكايدِهِ .

فحقٌّ على العبدِ أنْ يقفَ عندَ كلِّ همٍّ يخطرُ لهُ ؛ ليعلمَ أنَّهُ مِنْ لمَّةِ المَلَكِ أوْ لمَّةِ الشيطانِ ، وأنْ يمعنَ النظرَ فيهِ بعينِ البصيرةِ ، لا بهوىً مِنَ الطبعِ ، ولا يُطلعُ عليهِ إلا بنورِ التقوىٰ والبصيرةِ وغزارةِ العلمِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ ﴾ أيْ : رجعوا إلىٰ نورِ العلمِ ، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أيْ : ينكشف لهُمُ الإشكالُ ، فأمَّا مَنْ لمْ يَرُضْ نفسَهُ بالتقوىٰ . . فيميلُ طبعُهُ إلى الإذعانِ لتلبيسِهِ بمتابعةِ الهوىٰ ، فيكثرُ فيهِ غلطُهُ ، ويتعجَّلُ بهِ هلاكَهُ وهوَ لا يشعرُ ، وفي مثلِهِمْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، قيلَ : هيَ أعمالٌ ظنُّوها حسناتٍ ، فإذا هيَ سيِّئاتٌ(٤)

❁ ❁ ❁

وأغمضُ أنواعِ علومِ المعاملةِ الوقوفُ علىٰ خدعِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، وذٰلكَ فرضُ عينٍ علىٰ كلِّ عبدٍ ، وقدْ أهملَهُ الخلْقُ ، واشتغلوا بعلومٍ تستجرُّ إليهِمُ الوسواسَ ، وتسلِّطُ عليهِمُ الشيطانَ ، وتنسيهِمْ عداوتَهُ وطريقَ الاحترازِ عنهُ .

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٣٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .

(٣) وهل صنف الإمام هٰذا الكتاب ؟ فقد ذكره ابن السبكي في « طبقات الشافعية » (٢٢٧/٦) سرداً ، وكذا الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤١/١) وغالب نقله عن ابن السبكي ، ولم يذكرا أنهما وقفا عليه أو حققا القول في نسبته له ، وفي كتاب « منهاج العابدين » (ص ٨٧) المنسوب للمصنف : (وقد صنَّفنا كتاباً سميناه « تلبيس إبليس ») ، وهٰذا نص في كونه رحمه الله تعالىٰ صنَّف هٰذا الكتاب ، ولٰكن « منهاج العابدين » كتاب نسب إلىٰ غير المصنف ، ونقل الزبيدي في « الإتحاف » (٤٣/١) عن بعض العارفين أنه للشيخ علي بن خليل السبتي ، وإنما عزي للإمام الغزالي لما فيه من المحاكاة لأسلوبه ولكثير من كلامه واستشهاداته وطريقته في التصنيف ، ومع هٰذا لا يمكن الجزم بنفي أو إثبات . ولولا أن المصنف هنا ذكر كتاب الغرور الذي هو قطعة من « إحياء علوم الدين » . . لاتجه القول بأن « التلبيس » هو كتاب الغرور نفسه ، هٰذا وقد صنف ابن الجوزي مقتنصاً هٰذا العنوان كتاباً بهٰذا الاسم ردَّ فيه على المصنف وكتابه « الإحياء » .

(٤) روىٰ ذٰلك الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٦٢/١٣) عن الفضيل بن عياض .

ولا ينجي مِنْ كثرةِ الوسواسِ إلا سدُّ أبوابِ الخواطرِ ، وأبوابُها مِنْ خارجِ الحواسُّ الخمسُ ، وأبوابُها مِنْ داخلِ الشهواتُ وعلائقُ الدنيا ، والخلوةُ في بيتٍ مظلمٍ تسدُّ بابَ الحواسِّ ، والتجرُّدُ عنِ الأهلِ والمالِ يقلِّلُ مداخلَ الوسواسِ مِنَ الباطنِ ، ويبقىٰ معَ ذٰلكَ مداخلُ باطنةٌ من التخيُّلاتِ الجاريةِ في القلبِ ، وذٰلكَ لا يُدفعُ إلا بشغْلِ القلبِ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ إنَّهُ لا يزالُ يجاذبُ القلبَ وينازعُهُ ، ويلهيهِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فلا بدَّ مِنْ مجاهدتِهِ ، وهٰذهِ مجاهدةٌ لا آخرَ لها إلا الموتُ ؛ إذْ لا يتخلَّصُ أحدٌ مِنَ الشيطانِ ما دامَ حيّاً[1]

نعمْ ؛ قدْ يقوىٰ بحيثُ لا ينقادُ لهُ ، ويدفعُ عنْ نفسِهِ شرَّهُ بالجهادِ ، ولٰكنْ لا يستغني قطُّ عنِ الجهادِ والمدافعةِ ما دامَ الدمُ يجري في بدنِهِ ، فإنَّهُ ما دامَ حيّاً . . فأبوابُ الشيطانِ مفتوحةٌ إلىٰ قلبِهِ لا تنغلقُ ، وهيَ الشهوةُ ، والغضبُ ، والحسدُ ، والطمعُ ، والشَّرَهُ وغيرُها كما سيأتي شرحُها ، ومهما كانَ البابُ مفتوحاً والعدوُّ غيرَ غافلٍ . . لمْ يُدفعْ إلا بالحراسةِ والمجاهدةِ .

قالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ أينامُ الشيطانُ ؟ فتبسَّمَ وقالَ : لوْ نامَ . . لوجدنا عنهُ راحةً[2]

فإذاً ؛ لا خلاصَ للمؤمنِ منهُ .

نعمْ ؛ لهُ سبيلٌ إلىٰ دفعِهِ وتضعيفِ قوَّتِهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المؤمنَ يُنْضي شيطانَهُ كما يُنْضي أحدُكُمْ بعيرَهُ في السفرِ »[3]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (شيطانُ المؤمنِ مهزولٌ)[4]

وقالَ قيسُ بنُ الحجَّاجِ : قالَ لي شيطاني : دخلتُ فيكَ وأنا مثلُ الجزورِ ، وأنا الآنَ مثلُ العصفورِ ، قلتُ : ولِمَ ذاكَ ؟ قالَ : تذيبُني بذكرِ اللهِ تعالىٰ[5]

فأهلُ التقوىٰ لا يتعذَّرُ عليهِمْ سدُّ أبوابِ الشيطانِ ، وحفظُها بالحراسةِ ؛ أعني : الأبوابَ الظاهرةَ ، والطرقَ الجليَّةَ التي تفضي إلى المعاصي الظاهرةِ ، وإنَّما يتعثَّرونَ في طرقِهِ الغامضةِ ، فإنَّهُمْ لا يهتدونَ إليها فيحرسونَها ؛ كما أشرنا إليهِ في غرورِ العلماءِ والوعَّاظِ .

والمشكلُ أنَّ الأبوابَ المفتوحةَ إلى القلبِ للشيطانِ كثيرةٌ ، وبابُ الملائكةِ بابٌ واحدٌ ، وقدِ التبسَ ذٰلكَ البابُ الواحدُ بهٰذهِ الأبوابِ الكثيرةِ ، فالعبدُ فيها مثالُ المسافرِ الذي يبقىٰ في باديةٍ كثيرةِ الطرقِ ، غامضةِ المسالكِ ، في ليلةٍ مظلمةٍ ، فلا يكادُ يعلمُ الطريقَ إلا بعينٍ بصيرةٍ وطلوعِ شمسٍ مشرقةٍ ، والعينُ البصيرةُ ها هنا هي القلبُ المصفَّىٰ بالتقوىٰ ، والشمسُ المشرقةُ هي العلمُ الغزيرُ المستفادُ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبهما يهتدي إلىٰ غوامضِ طرقِهِ ، وإلا . . فطرقُهُ كثيرةٌ وغامضةٌ[6]

---

(١) رویٰ أحمد في « المسند » (٧٦/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « قال إبليس : أي ربِّ ؛ لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، قال : فقال الربُّ عز وجل : لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٤٠) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣٨٠/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، و ينضي : يهزل ويضعف .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٥٦/٩) بنحوه .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٦/٤٩) .

(٦) والمراد بالعلم هنا هو علم المعرفة المخصوص به المقربون . « إتحاف » (٢٧٣/٧) .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : خطَّ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً خطّاً فقالَ : « هـٰذا سبيلُ اللهِ » ، ثمَّ خطَّ خطوطاً عنْ يمينِ الخطِّ وعنْ شمالِهِ فقالَ : « هـٰذهِ سبلٌ ، علىٰ كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليهِ » ، ثمَّ تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ يعني : تلكَ الخطوطَ ، فبيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثرةَ طرقِهِ[1]

وقدْ ذكرنا مثالاً للطريقِ الغامضِ مِنْ طرقِهِ ، وهوَ الذي يخدعُ بهِ العلماءَ والعبَّادَ المالكينَ لشهواتِهِمْ ، الكافِّينَ عنِ المعاصي الظاهرةِ ، فلنذكرْ مثالاً لطريقِهِ الواضحِ الذي لا يخفىٰ إلا أنْ يُضطرَّ الآدميُّ إلىٰ سلوكِهِ ، وذٰلكَ كما رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « كانَ راهبٌ في بني إسرائيلَ ، فعمدَ الشيطانُ إلىٰ جاريةٍ فخنقَها ، وألقىٰ في قلوبِ أهلِها أنَّ دواءَها عندَ الراهبِ ، فأتوا بها إليهِ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها ، فلم يزالوا بهِ حتَّىٰ قبلَها ، فلمَّا كانَتْ عندَهُ ليعالجَها . . أتاهُ الشيطانُ ، فزيَّنَ لهُ مقاربتَها ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ واقعَها ، فحملَتْ منهُ ، فوسوسَ إليهِ وقالَ : الآنَ تفتضحُ ، يأتيكَ أهلُها ، فاقتلْها ، فإنْ سألوكَ . . فقلْ : ماتَتْ ، فقتلَها ودفنَها ، فأتى الشيطانُ أهلَها ، فوسوسَ إليهِمْ وألقىٰ في قلوبِهِمْ أنَّهُ أحبلَها ثمَّ قتلَها ودفنَها ، فأتاهُ أهلُها ، فسألوه عنها ، فقالَ : ماتَتْ ، فأخذوهُ ليقتلوهُ بها ، فأتاهُ الشيطانُ فقالَ : أنا الذي أخذتُها ، وأنا الذي ألقيتُ في قلوبِ أهلِها ، فأطعْني . . تنجُ وأخلِّصْكَ منهُمْ ، قالَ : بماذا ؟ قال : اسجدْ لي سجدتينِ ، فسجدَ لهُ سجدتينِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : إنِّي بريءٌ منكَ ، فهوَ الذي قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ ﴾[2]

فانظرِ الآنَ إلىٰ حيلِهِ واضطرارِهِ الراهبَ إلىٰ هـٰذهِ الكبائرِ ، وكلُّ ذٰلكَ لطاعتِهِ لهُ في قبولِ الجاريةِ للمعالجةِ وهوَ أمرٌ هيِّنٌ ، وربما يظنُّ صاحبُهُ أنَّهُ خيرٌ وحسنةٌ ، فيحسنُ ذٰلكَ في قلبِهِ بخفيِّ الهوىٰ ، فيقدمُ عليهِ كالراغبِ في الخيرِ ، فيخرجُ الأمرُ بعدَ ذٰلكَ عنِ اختيارِهِ ، ويجرُّهُ البعضُ إلى البعضِ ، بحيثُ لا يجدُ محيصاً ، فنعوذُ باللهِ مِنْ تضييعِ أوائلِ الأمورِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ »[3]

* * *

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١١٠٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » ، والطبري في « تفسيره » (٦٢/٢٨/١٤ ـ ٦٤) عن علي وعبد الله بن مسعود وابن عباس وطاووس ، والحاكم في « المستدرك » (٤٨٤/٢) عن علي رضي الله عنهم ، وأورد رواية مفصلة طويلة القرطبيُّ في « تفسيره » (٣٧/١٨) .

(٣) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (١٥٩٩) .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلمْ : أنَّ مثالَ القلبِ مثالُ حصنٍ ، والشيطانُ عدوٌّ يريدُ أنْ يدخلَ الحصنَ ويملكَهُ ويستوليَ عليهِ ، ولا يُقدرُ علىٰ حفظِ الحصنِ مِنَ العدوِّ إلا بحراسةِ أبوابِ الحصنِ ومداخلِهِ ومواضعِ ثُلَمِهِ ، ولا يقدرُ علىٰ حراسةِ أبوابِهِ مَنْ لا يعرفُ أبوابَهُ .

وحمايةُ القلبِ مِنْ وسواسِ الشيطانِ واجبةٌ ، وهوَ فرضُ عينٍ علىٰ كلِّ عبدٍ مكلَّفٍ ، وما لا يُتوصَّلُ إلى الواجبِ إلا بِهِ . . فهوَ أيضاً واجبٌ ، ولا يُتوصَّلُ إلىٰ دفعِ الشيطانِ إلا بمعرفةِ مداخلِهِ ، فصارَتْ معرفةُ مداخلِهِ واجبةً .

ومداخلُ الشيطانِ وأبوابُهُ صفاتُ العبدِ ، وهيَ كثيرةٌ ، ولـٰكنَّا نشيرُ إلى الأبوابِ العظيمةِ الجاريةِ مَجرى الدروبِ التي لا تضيقُ عنْ كثرةِ جنودِ الشيطانِ .

❁ ❁ ❁

فمِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الغضبُ والشهوةُ :

فإنَّ الغضبَ هوَ غولُ العقلِ ، فإذا ضعفَ جندُ العقلِ . . هجمَ جندُ الشيطانِ ، ومهما غضبَ الإنسانُ . . لعبَ الشيطانُ بِهِ كما يلعبُ الصبيُّ بالكرةِ .

فقدْ رُوِيَ أنَّ إبليسَ لقيَ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ لهُ : يا موسىٰ ؛ أنتَ الذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ ، وكلَّمَك تكليماً ، وأنا خلقٌ مِنْ خلْقِ اللهِ أذنبتُ ، وأنا أريدُ أنْ أتوبَ ، فاشفعْ لي إلىٰ ربِّي أنْ يتوبَ عليَّ ، فقالَ لهُ موسىٰ : نعمْ ، فلمَّا صعدَ موسى الجبلَ وكلَّمَ ربَّه عزَّ وجلَّ وأرادَ النزولَ . . قالَ لهُ ربُّهُ : أدِّ الأمانةَ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ إبليسُ يريدُ أنْ تتوبَ عليهِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ : يا موسىٰ ؛ قدْ قضيتُ حاجتَكَ ، مرْهُ أنْ يسجدَ لقبرِ آدمَ حتَّىٰ يُتابَ عليهِ ، فلقيَ موسىٰ إبليسَ ، فقالَ لهُ : قدْ قضيتُ حاجتكَ ، أُمرتَ أنْ تسجدَ لقبرِ آدمَ حتَّىٰ يُتابَ عليكَ ، فغضبَ واستكبرَ ، وقالَ : لمْ أسجدْ لهُ حيّاً ، أأسجدُ لهُ ميتاً ؟! ثمَّ قالَ : يا موسىٰ ؛ إنَّ لكَ عليَّ حقّاً بما شفعتَ لي إلىٰ ربِّكَ ، فاذكرْني عندَ ثلاثٍ لا أهلكُكَ فيهنَّ : اذكرْني حينَ تغضبُ ؛ فإنَّ روحي في قلبِكَ ، وعيني في عينِكَ ، وأجري منكَ مَجرى الدمِ ، واذكرْني حينَ تلقى الزحفَ ؛ فإني آتي ابنَ آدمَ حينَ يلقى الزحفَ ، فأذكِّرُهُ زوجتَهُ وولدَهُ وأهلَهُ حتَّىٰ يولِّيَ ، وإيَّاكَ أنْ تجلسَ إلى امرأةٍ ليسَتْ بذاتِ محرمٍ ؛ فإنِّي رسولُها إليكَ ورسولُكَ إليها ، فلا أزالُ حتىٰ أفتنَكَ بها وأفتنَها بكَ (١)

فقدْ أشارَ في هـٰذا إلى الشهوةِ والغضبِ والحرْصِ ؛ فإنَّ الفرارَ مِنَ الزحفِ حرصٌ على الدنيا ، وامتناعُهُ مِنَ السجودِ لآدمَ ميتاً هوَ الحسدُ ، وهوَ مِنْ أعظمِ مداخلِهِ .

وقدْ ذُكرَ أنَّ بعضَ الأولياءِ قالَ لإبليسَ : أرني كيفَ تغلبُ ابنَ آدمَ ، فقالَ : آخذُهُ عندَ الغضبِ وعندَ الهوىٰ (٢)

وحُكِيَ أنَّ إبليسَ ظهرَ لراهبٍ ، فقالَ لهُ الراهبُ : أيُّ أخلاقِ بني آدمَ أعونُ لكَ ؟ قالَ : الحدَّةُ ، فإنَّ العبدَ إذا كانَ حديداً . . قلَّبناهُ كما يقلِّبُ الصبيانُ الكرةَ (٣)

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٤٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٧/٦١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بنحوه .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٧١) عن يزيد بن قسيط يحكيه عن بعض الأنبياء .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٣٨) .

وقيلَ : إنَّ الشيطانَ يقولُ : كيفَ يغلبُني ابنُ آدمَ وإذا رضيَ . . جئتُ حتَّىٰ أكونَ في قلبِهِ ، وإذا غضبَ . . طرتُ حتَّىٰ أكونَ في رأسِهِ ؟![1]

❀ ❀ ❀

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الحسدُ والحرْصُ :

فمهما كانَ العبدُ حريصاً علىٰ شيءٍ . . أعماهُ حرْصُهُ وأصمَّهُ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّكَ الشيءَ يعمي ويصمُّ »[2] ، ونورُ البصيرةِ هوَ الذي يُعرِّفُ مداخلَ الشيطانِ ، فإذا غطَّاهُ الحسدُ والحرصُ . . لمْ يبصرْ ، فحينئذٍ يجدُ الشيطانُ فرصةً ، فيحسِّنُ عندَ الحريصِ كلَّ ما يوصلُهُ إلىٰ شهوتِهِ ، وإنْ كانَ منكراً وفاحشاً .

فقدْ رُوِيَ أنَّ نوحاً عليهِ السلامُ لمَّا ركبَ السفينةَ . . حملَ فيها مِنْ كلِّ زوجينِ اثنينِ كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ ، فرأىٰ في السفينةِ شيخاً لمْ يعرفْهُ ، فقالَ لهُ نوحٌ : ما أدخلَكَ ؟ فقالَ : دخلتُ لأصيبَ قلوبَ أصحابِكَ ، فتكونَ قلوبُهُمْ معي وأبدانُهُمْ معكَ ، فقالَ لهُ نوحٌ : اخرجْ منها يا عدوَّ اللهِ ؛ فإنَّكَ رجيمٌ ، فقالَ لهُ إبليسُ : خمسٌ أهلكُ بهنَّ الناسَ ، وسأحدِّثُكَ منهنَّ بثلاثٍ ، ولا أحدِّثُكَ باثنتينِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نوحٍ أنَّهُ لا حاجةَ بكَ إلى الثلاثِ فليحدثْكَ بالاثنتينِ ، فقالَ لهُ نوحٌ : ما الاثنتانِ ؟ فقالَ : هما اللتانِ لا تكذباني ، هما اللتانِ لا تخلفاني ، بهما أهلكُ الناسَ ؛ الحرصُ والحسدُ ، فبالحسدِ لُعنتُ ، وجُعلتُ شيطاناً رجيماً ، وأمَّا الحرصُ . . فإنَّهُ أُبيحَ لآدمَ الجنَّةُ كلُّها إلا الشجرةَ ، فأصبتُ حاجتي منهُ بالحرْصِ[3]

❀ ❀ ❀

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الشبعُ مِنَ الطعامِ وإنْ كانَ حلالاً صافياً :

فإنَّ الشبعَ يقوِّي الشهواتِ ، والشهواتُ أسلحةُ الشيطانِ .

فقدْ رُوِيَ أنَّ إبليسَ ظهرَ ليحيى بنِ زكريا عليهما السلامُ ، فرأىٰ عليهِ معاليقَ مِنْ كلِّ شيءٍ ، فقالَ لهُ : يا إبليسُ ؛ ما هٰذهِ المعاليقُ ؟ قالَ : هٰذهِ الشهواتُ التي أصيبُ بها ابنَ آدمَ ، فقالَ : فهلْ لي فيها مِنْ شيءٍ ؟ قالَ : ربَّما شبعتَ فثقلناكَ عنِ الصلاةِ وعنِ الذكرِ ، قالَ : فهلْ غيرُ ذٰلكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : للهِ عليَّ ألا أملأَ بطني مِنْ طعامٍ أبداً ، فقالَ لهُ إبليسُ : وللهِ عليَّ ألا أنصحَ مسلماً أبداً[4]

ويقالُ : في كثرةِ الأكلِ ستُّ خصالٍ مذمومةٍ :

أولُها : أنْ يذهبَ خوفُ اللهِ منْ قلبِهِ .

والثاني : أنْ يذهبَ رحمةُ الخلقِ منْ قلبِهِ ؛ لأنَّهُ يظنُّ أنَّهمْ كلُّهُمْ شِباعٌ .

والثالثُ : أنَّهُ يثقلُ عنِ الطاعةِ .

والرابعُ : أنَّهُ إذا سمعَ كلامَ الحكمةِ . . لا يجدُ لهُ رقَّةً .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٧/٤) .
(٢) رواه أبو داوود (٥١٣٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٤٤) ، وهو من حديث ابن عمر المتقدم قريباً .
(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٢٩/٢) عن ثابت البناني .

والخامسُ : أنَّهُ إذا تكلَّمَ بالموعظةِ والحكمةِ . . لا يقعُ في قلوبِ الناسِ .

والسادسُ : أنْ يهيجَ فيهِ الأمراضُ .

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ : حبُّ التزيُّنِ بالأثاثِ والثيابِ والدارِ :

فإنَّ الشيطانَ إذا رأىٰ ذٰلكَ غالباً علىٰ قلبِ إنسانٍ . . باضَ فيهِ وفرَّخَ ، فلا يزالُ يدعوهُ إلىٰ عمارةِ الدارِ ، وتزيينِ سقوفِها وحيطانِها ، وتوسيعِ أبنيتِها ، ويدعوهُ إلى التزيُّنِ بالثيابِ والدوابِّ ، ويستسخرُهُ فيها طولَ عمرِهِ ، وإذا أوقعَهُ في ذٰلكَ . . فقدِ استغنىٰ أنْ يعودَ إليهِ ثانيةً ؛ فإنَّ بعضَ ذٰلكَ يجرُّهُ إلى البعضِ ، فلا يزالُ يؤدِّيهِ شيءٌ إلىٰ شيءٍ ، إلىٰ أنْ يُساقَ إليهِ أجلُهُ ، فيموتَ وهوَ في سبيلِ الشيطانِ واتباعِ الهوىٰ ، ويُخشىٰ مِنْ ذٰلكَ سوءُ العاقبةِ بالكفرِ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الطمعُ في الناسِ :

فإذا غلبَ الطمعُ على القلبِ . . لمْ يزلِ الشيطانُ يحبِّبُ إليهِ التصنُّعَ والتزيُّنَ لمَنْ طمعَ فيهِ بأنواعِ الرياءِ والتلبيسِ ، حتَّىٰ يصيرَ المطموعُ فيهِ كأنَّهُ معبودُهُ ، فلا يزالُ يتفكَّرُ في حيلةِ التودُّدِ والتحبُّبِ إليهِ ، ويدخلُ كلَّ مدخلٍ للوصولِ إلىٰ ذٰلكَ .

وأقلُّ أحوالِهِ الثناءُ عليهِ بما ليسَ فيهِ ، والمداهنةُ لهُ بتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فقدْ روىٰ صفوانُ بنُ سليمٍ : أنَّ إبليسَ تمثَّلَ لعبدِ اللهِ بنِ حنظلةَ ، فقالَ لهُ : يا بنَ حنظلةَ ؛ احفظْ عنِّي شيئاً أعلِّمُكَهُ فقالَ : لا حاجةَ لي بهِ ، قالَ : انظرْ فإنْ كانَ خيراً . . أخذْتَ ، وإنْ كانَ شرّاً . . رددتَ ، يا بنَ حنظلةَ ؛ لا تسألْ أحداً غيرَ اللهِ سؤالَ رغبةٍ ، وانظرْ كيفَ تكونُ إذا غضبتَ ، فإنِّي أملكُكَ إذا غضبتَ[1]

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : العجلةُ وتركُ التثبُّتِ في الأمورِ :

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العجلةُ مِنَ الشيطانِ ، والتأنِّي مِنَ اللهِ تعالىٰ »[2]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ .

وقالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ .

وهٰذا لأنَّ الأعمالَ ينبغي أنْ تكونَ بعدَ التبصرةِ والمعرفةِ ، والتبصرةُ تحتاجُ إلىٰ تأمُّلٍ وتمهُّلٍ ، والعجلةُ تمنعُ مِنْ ذٰلكَ ، وعندَ الاستعجالِ يروِّجُ الشيطانُ شرَّهُ على الإنسانِ مِنْ حيثُ لا يدري .

فقدْ رُوِيَ أنَّهُ لمَّا وُلِدَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ . . أتتِ الشياطينُ إبليسَ ، فقالوا : أصبحتِ الأصنامُ قدْ نُكستْ رؤوسُها ، فقالَ : هٰذا حادثٌ قدْ حدثَ ، مكانَكُمْ ، فطارَ حتَّىٰ أتىٰ خافقَيِ الأرضِ ، فلمْ يجدْ شيئاً ، ثمَّ وجدَ عيسىٰ عليهِ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٧/٢٧) .

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٢) ولفظه : « الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان » .

السلامُ قدْ وُلِدَ ، وإذا الملائكةُ حافِّينَ بهِ ، فرجعَ إليهِمْ فقالَ : إنَّ نبيّاً قدْ وُلِدَ البارحةَ ، ما حملتْ أنثىٰ قطُّ ولا وضعَتْ إلا وأنا بحضرتِها إلا هـٰذا ، فأيِسُوا مِنْ أنْ تُعبدَ الأصنامُ بعدَ هـٰذهِ الليلةِ ، ولـٰكنِ ائتوا بني آدمَ مِنْ قبلِ العجلةِ والخفَّةِ[1] .

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الدراهمُ والدنانيرُ وسائرُ أصنافِ الأموالِ مِنَ العروضِ والدوابِّ والعقارِ :

فإنَّ كلَّ ما يزيدُ علىٰ قدْرِ القوتِ والحاجةِ فهوَ مستقرُّ الشيطانِ ؛ فإنَّ مَنْ معَهُ قوتُهُ فهوَ فارغُ القلبِ ، فلوْ وجدَ مئةَ دينارٍ مثلاً علىٰ طريقٍ . . انبعثَ مِنْ قلبِهِ عشرُ شهواتٍ ، تحتاجُ كلُّ شهوةٍ منها إلىٰ مئةِ دينارٍ أخرىٰ ، فلا يكفيهِ ما وجدَهُ ، بلْ يحتاجُ إلىٰ تسع مئةٍ أخرىٰ ، وقدْ كانَ قبلَ وجودِ المئةِ مستغنياً ، فالآنَ لمَّا وجدَ مئةً . . ظنَّ أنَّهُ صارَ بها غنيّاً ، وقدْ صارَ محتاجاً إلىٰ تسعِ مئةٍ ليشتريَ داراً يعمرُها ، وليشتريَ جاريةً ، وليشتريَ أثاثَ البيتِ ، ويشتريَ الثيابَ الفاخرةَ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ يستدعي شيئاً آخرَ يليقُ بهِ ، وذٰلكَ لا آخرَ لهُ ، فيقعُ في هاويةٍ آخرُها عمْقُ جهنَّمَ ، فلا آخرَ لها سواهُ .

قالَ ثابتٌ البنانيُّ : لمَّا بُعِثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ إبليسُ لشياطينِهِ : لقدْ حدثَ أمرٌ ، فانظروا ما هوَ ، فانطلقوا حتىٰ أعيَوا ثم جاؤوا وقالوا : ما ندري ، قالَ : أنا آتيكُمْ بالخبرِ ، فذهبَ ثمَّ جاءَ وقالَ : قدْ بعثَ اللهُ محمداً ، قالَ : فجعلَ يرسلُ شياطينَهُ إلىٰ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فينصرفونَ خائبينَ ، ويقولونَ : ما صحبنا قوماً قطُّ مثلَ هـٰؤلاءِ ، نصيبُ منهُمْ ، ثمَّ يقومونَ إلىٰ صلاتِهِمْ فيُمحىٰ ذٰلكَ ، فقالَ لهُمْ إبليسُ : رويداً بهِمْ ، عسى اللهُ أنْ يفتحَ لهمُ الدنيا ، فهناكَ تصيبونَ حاجتَكم منهُمْ[2]

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ توسَّدَ يوماً حجراً ، فمرَّ بِهِ إبليسُ ، فقالَ : يا عيسىٰ ؛ رغبتَ في الدنيا ؟ فأخذَهُ عيسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرمىٰ بهِ مِنْ تحتِ رأسِهِ ، وقالَ : هـٰذا لكَ معَ الدنيا[3]

وعلى الحقيقةِ : مَنْ يملكُ حجراً يتوسَّدُ بهِ عندَ النومِ . . فقدْ مَلَكَ مِنَ الدنيا ما يمكنُ أنْ يكونَ عدَّةً للشيطانِ عليهِ ؛ فإنَّ القائمَ بالليلِ مثلاً للصلاةِ مهما كانَ بالقربِ منهُ حجرٌ يمكنُ أنْ يتوسَّدَهُ . . فلا يزالُ يدعوهُ إلى النومِ وإلىٰ أنْ يتوسَّدَهُ ، ولوْ لمْ يكنْ ذٰلكَ . . لكانَ لا يخطرُ ببالِهِ ذٰلكَ ، ولا تتحرَّكُ رغبتُهُ في النومِ ، هـٰذا في حجرٍ ، فكيفَ بمَنْ يملكُ المخادَّ الوثيرة ، والفرشَ الوطيئةَ ، والمنتزهاتِ الطيِّبةَ ، فمتىٰ ينشطُ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ ؟!

❁ ❁ ❁

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : البخلُ وخوفُ الفقرِ :

فإنَّ ذٰلكَ هوَ الذي يمنعُ مِنَ الإنفاقِ والتصدُّقِ ، ويدعو إلى الادخارِ والكنْزِ والعذابِ الأليمِ ، الذي هوَ الموعودُ للمكاثرينَ كما نطقَ بهِ القرآنُ العزيزُ[4]

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥٦/٤٧) عن وهب بن منبه ، وقد روى البخاري (٣٢٨٦) ، ومسلم (٢٣٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه » ، ثم قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٣٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٦/٤٧) .

(٤) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قالَ خيثمةُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ : (إنَّ الشيطانَ يقولُ : ما غلبَني عليهِ ابنُ آدمَ فلنْ يغلبَني على ثلاثٍ : أنْ آمرَهُ أنْ يأخذَ المالَ مِنْ غيرِ حقِّهِ ، وينفقَهُ في غيرِ حقِّهِ ، ويمنعَهُ مِنْ حقِّهِ)[1]

وقالَ سفيانُ : (ليسَ للشيطانِ سلاحٌ مثلَ خوفِ الفقرِ ، فإذا قبلَ ذٰلكَ منهُ . . أخذَ في الباطلِ ، ومنعَ مِنَ الحقِّ ، وتكلَّمَ بالهوىٰ ، وظنَّ بربِّهِ ظنَّ السوءِ) .

ومِنْ آفاتِ البخلِ : الحرصُ علىٰ ملازمةِ الأسواقِ لجمعِ المالِ ، والأسواقُ هيَ معشَّشُ الشياطينِ .

وروىٰ أبو أمامةَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ إبليسَ لمَّا نزلَ إلى الأرضِ . . قالَ : يا ربِّ ؛ أنزلتَني إلى الأرضِ ، وجعلتَني رجيماً ، فاجعلْ لي بيتاً ، قالَ : الحمَّامُ ، قالَ : اجعلْ لي مجلساً ، قالَ : الأسواقُ ومجامعُ الطرقِ ، قالَ : اجعلْ لي طعاماً ، قالَ : طعامُكَ ما لمْ يذكرِ اسمُ اللهِ عليهِ ، قالَ : اجعلْ لي شراباً ، قالَ : كلُّ مسكرٍ ، قالَ : اجعلْ لي مؤذِّناً ، قالَ : المزاميرُ ، قالَ : اجعلْ لي قرآناً ، قالَ : الشعرُ ، قالَ : اجعلْ لي كتاباً ، قالَ : الوشمُ ، قالَ : اجعلْ لي حديثاً ، قالَ : الكذبُ ، قالَ : اجعلْ لي مصايدَ ، قالَ : النساءُ »[2]

❋ ❋ ❋

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : التعصُّبُ للمذاهبِ والأهواءِ ، والحقدُ على الخصومِ ، والنظرُ إليهِمْ بعينِ الازدراءِ والاستحقارِ :

وذٰلكَ ممَّا يُهلكُ العبادَ والفسَّاقَ جميعاً ، فإنَّ الطعنَ في الناسِ والاشتغالَ بذكرِ نقصِهِمْ صفةٌ مجبولةٌ في الطبعِ مِنَ الصفاتِ السبعيَّةِ ، فإذا خيَّلَ إليهِ الشيطانُ أنَّ ذٰلكَ هوَ الحقُّ ، وكانَ موافقاً لطبعِهِ . . غلبَتْ حلاوتُهُ علىٰ قلبِهِ ، فاشتغلَ بهِ بكلِّ همَّتِهِ ، وهوَ بذٰلكَ فرحانُ مسرورٌ ، يظنُّ أنَّهُ يسعىٰ في الدينِ ، وهوَ ساعٍ في اتباعِ الشياطينِ ، فترى الواحدَ منهُمْ يتعصَّبُ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ آكلُ الحرامَ ، ومطلقُ اللسانِ بالفضولِ والكذبِ ، ومتعاطٍ لأنواعِ الفسادِ ، ولوْ رآهُ أبو بكرٍ . . لكانَ هوَ أوَّلَ عدوٍّ لهُ ؛ إذْ مُوالي أبي بكرٍ مَنْ أخذَ سبيلَهُ ، وسارَ بسيرتِهِ ، وحفظَ ما بينَ لحييهِ[3] ، وكانَ مِنْ سيرتِهِ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يضعَ حصاةً في فمِهِ ليكفَّ لسانَهُ عنِ الكلامِ فيما لا يعنيهِ[4] ، فأنَّى لهٰذا الفضوليِّ أنْ يدعيَ ولاءَهُ وحبَّهُ ولا يسيرَ بسيرتِهِ ؟!

وترىٰ فضوليّاً آخرَ يتعصَّبُ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانَ مِنْ زهدِ عليٍّ وسيرتِهِ أنَّهُ لبسَ في خلافتِهِ ثوباً اشتراهُ بثلاثةِ دراهمَ ، وقطعَ رأسَ الكمَّينِ إلى الرسغِ[5] ، فترى الفاسقَ لابساً لثيابِ الحريرِ ، ومتجمِّلاً بأموالٍ اكتسبَها مِنْ حرامٍ وهوَ يتعاطىٰ حبَّ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ويدعيهِ ، وهوَ أوَّلُ خصمائِهِ يومَ القيامةِ .

وليتَ شعري ؛ مَنْ أخذَ ولداً عزيزاً لإنسانٍ هوَ قرَّةُ عينِهِ وحياةُ قلبِهِ ، فأخذَ يضربُهُ ويمزِّقُهُ ، وينتفُ شعرَهُ ويقطعُهُ بالمقراضِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ يدَّعي حبَّ أبيهِ وولاءَهُ ، فكيفَ تكونُ حالُهُ عندَهُ ؟!

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦١٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٧/٤) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠٧/٨) .

(٣) في غير (أ) : (ما أحبه) بدل (ما بين لحييه) ، وجرى الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٨٠/٧) على المثبت .

(٤) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٠٣١) : أن عمر دخل علىٰ أبي بكر وهو آخذ بلسانه هٰكذا يقول : ها إن ذا أوردني الموارد .

(٥) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨٣/١) عن أبي سعيد الأزدي قال : رأيت علياً أتى السوق ، وقال : من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم ؟ فقال رجل : عندي ، فجاء به ، فأعجبه ، قال : لعله خير من ذٰلك ؟ قال : لا ، ذاك ثمنه ، قال : فرأيت علياً يقرض رباط الدراهم من ثوبه ، فأعطاه ، فلبسه ، فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه ، فأمر به فقطع ما فضل عن أطراف أصابعه .

ومعلومٌ أنَّ الدينَ والشرعَ كان أحبَّ إلىٰ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وسائرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم مِنَ الأهلِ والولدِ ، بلْ مِنْ أنفسِهِمْ ، والمقتحمونَ لمعاصي الشرعِ همُ الذينَ يمزّقونَ الشرعَ ، ويقطّعونَهُ بمقاريضِ الشهواتِ ، ويتودّدونَ بهِ إلىٰ عدوِّ اللهِ إبليسَ وعدوِّ أوليائِهِ ، فترىٰ كيفَ يكونُ حالُهمْ يومَ القيامةِ عندَ الصحابةِ وعندَ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ؟! بلْ لوْ كشفَ الغطاءُ ، وعرفَ هـٰؤلاءِ ما تحبُّهُ الصحابةُ في أمَّةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لاستحيَوا مِنْ أنْ يجروا على اللسانِ ذكرَهُمْ معَ قبحِ أفعالِهِمْ .

ثمَّ إنَّ الشيطانَ يخيّلُ إليهِمْ أنَّ مَنْ ماتَ محبّاً لأبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما . . فالنارُ لا تحومُ حولَهُ ، ويخيّلُ إلى الآخرِ أنَّهُ إذا ماتَ محبّاً لعليٍّ . . لمْ يكنْ عليهِ خوفٌ ، وهـٰذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ لفاطمةَ رضيَ اللهُ عنها وهيَ بَضعةٌ منهُ : « اعملي ؛ فإنّي لا أغني عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً »[1]

وهـٰذا مثالٌ أوردناهُ مِنْ جملةِ الأهواءِ .

وهـٰكذا حكمُ المتعصّبينَ للشافعيِّ وأبي حنيفةَ ومالكٍ وأحمدَ وغيرِهِمْ مِنَ الأئمَّةِ ، فكلُّ مَنِ ادعىٰ مذهبَ إمامٍ ، وهوَ ليسَ يسيرُ بسيرتِهِ . . فذٰلكَ الإمامُ هوَ خصمُهُ يومَ القيامةِ إذْ يقولُ لهُ : كانَ مذهبي العملَ دونَ الحديثِ باللسانِ ، وكانَ الحديثُ باللسانِ لأجلِ العملِ لا لأجلِ الهذيانِ ، فما بالُكَ خالفتَني في العملِ والسيرةِ التي هيَ مذهبي ومسلكي الذي سلكتُهُ وذهبتُ فيهِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ ادعيتَ مذهبي كاذباً ؟!

وهـٰذا مدخلٌ عظيمٌ مِنْ مداخلِ الشيطانِ ، قدْ أهلكَ بهِ أكثرَ العالمِ ، وقدْ سُلِّمَتِ المدارسُ لأقوامٍ قلَّ مِنَ اللهِ خوفُهُمْ[2] ، وضعفَتْ في الدينِ بصيرتُهُمْ ، وقويَتْ في الدنيا رغبتُهُمْ ، واشتدَّ على الاستتباعِ حرصُهمْ ، ولمْ يتمكّنوا مِنَ الاستتباعِ وإقامةِ الجاهِ إلا بالتعصُّبِ ، فحسَّنوا ذٰلكَ في صدورِهِمْ ، ولمْ ينبّهوهُمْ علىٰ مكايدِ الشيطانِ فيهِ ، بلْ نابوا عنِ الشيطانِ في تنفيذِ مكيدتِهِ ، فاستمرَّ الناسُ عليهِ ، ونسوا مهمَّاتِ دينِهِمْ ، فقدْ هلكوا وأهلكوا ، فاللهُ تعالىٰ يتوبُ علينا وعليهِمْ .

قالَ الحسنُ : (بلغَنا أنَّ إبليسَ قالَ : سوَّلتُ لأمَّةِ محمدٍ المعاصيَ ، فقطعوا ظهري بالاستغفارِ ، فسوَّلتُ لهُمْ ذنوباً لا يستغفرونَ اللهَ تعالىٰ منها ، وهيَ الأهواءُ)[3] ، وقدْ صدقَ الملعونُ ؛ فإنَّهُمْ لا يعلمونَ أنَّ ذٰلكَ مِنَ الأسبابِ التي تجرُّ إلى المعاصي ، فكيفَ يستغفرونَ منها ؟!

❁ ❁ ❁

ومِنْ عظيمِ حيلِ الشيطانِ : أنْ يشغلَ الإنسانَ عنْ نفسِهِ بالاختلافاتِ الواقعةِ بينَ الناسِ في المذاهبِ والخصوماتِ :

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (جلسَ قومٌ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ ، فأتاهُمُ الشيطانُ ليقيمَهُمْ عنْ مجلسِهِمْ ويفرّقَ بينَهُمْ ، فلم يستطعْ ، فأتىٰ رفقةً أخرىٰ يتحدَّثونَ بحديثِ الدنيا ، فأفسدَ بينَهُمْ ، فقاموا يقتتلونَ وليسَ إيَّاهُمْ يريدُ ، فقامَ الذينَ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ فاشتغلوا بهِمْ يفصلونَ بينَهُمْ ، فتفرَّقوا عنْ مجلسِهِمْ ، وذٰلكَ مرادُ الشيطانِ منهُمْ) .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٦) ولفظ : (اعملي) عند البزار في « مسنده » (٢٩١٩) .
(٢) في غير (أ) : (المنابر) بدل (المدارس) .
(٣) رواه هناد في « الزهد » (٩٢٨) .

ومِنْ أبوابِهِ : حمْلُ العوامِ الذينَ لمْ يمارسوا العلمَ ولم يتبحَّروا فيهِ على التفكُّرِ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وفي أمورٍ لا يبلغُها حدُّ عقولِهِمْ :

حتَّىٰ يشكِّكَهُمْ في أصلِ الدينِ ، أوْ يخيّلَ إليهِمْ في اللهِ تعالىٰ خيالاتٍ يتعالى اللهُ عنها ، يصيرُ بها كافراً أوْ مبتدعاً ، وهوَ بهِ فرحٌ مسرورٌ مبتهجٌ بما وقعَ في صدرِهِ ، يظنُّ أن ذٰلكَ هوَ المعرفةُ والبصيرةُ ، وأنَّهُ انكشفَ لهُ ذٰلكَ بذكائِهِ وزيادةِ عقلِهِ .

فأشدُّ الناسِ حماقةً أقواهمُ اعتقاداً في عقلِ نفسِهِ ، وأثبتُ الناسِ عقلاً أشدُّهُمُ اتهاماً لنفسِهِ ، وأكثرُهُمْ سؤالاً مِنَ العلماءِ .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ يأتي أحدَكُمْ فيقولُ : مَنْ خلقَكَ ؟ فيقولُ : اللهُ تباركَ وتعالىٰ ، فيقولُ : فمَنْ خلقَ اللهَ ؟ فإذا وجدَ أحدُكُمْ ذٰلكَ . . فليقلْ : آمنتُ باللهِ ورسلِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يذهبُ عنهُ »(١)

فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يأمرْ بالبحثِ في علاجِ هٰذا الوسواسِ ؛ فإنَّ هٰذا وسواسٌ يجدُهُ عوامُّ الناسِ دونَ العلماءِ ، وإنَّما حقُّ العوامِّ أنْ يؤمنوا ويسلِّموا ويشتغلوا بعبادتِهِمْ ومعايشِهِمْ ، ويتركوا العلمَ للعلماءِ ، فالعامِّيُّ لوْ زنىٰ وسرق . . كانَ خيراً لهُ مِنْ أنْ يتكلَّمَ في العلمِ ؛ فإنَّهُ مَنْ تكلَّمَ في اللهِ وفي دينِهِ مِنْ غيرِ إتقانِ العلمِ . . وقعَ في الكفرِ مِنْ حيثُ لا يدري ؛ كمَنْ يركبُ لجَّةَ البحرِ وهوَ لا يعرفُ السباحةَ .

ومكايدُ الشيطانِ فيما يتعلَّقُ بالعقائدِ والمذاهبِ لا حصرَ لها ، وإنَّما أردنا بما أوردناهُ المثالَ .

❀ ❀ ❀

ومِنْ أبوابِهِ : سوءُ الظنِّ بالمسلمينَ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ، فمَنْ يحكمْ بشرٍّ علىٰ غيرِهِ بالظنِّ . . بعثَهُ الشيطانُ علىٰ أنْ يطوِّلَ فيهِ اللسانَ بالغيبةِ فيهلِكَ ، أوْ يقصِّرَ في القيامِ بحقوقِهِ ، أوْ يتوانىٰ في إكرامِهِ ، أو ينظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ ويرىٰ نفسَهُ خيراً منهُ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنَ المهلكاتِ .

ولأجلِ ذٰلكَ منعَ الشرعُ مِنَ التعرُّضِ للتهمِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا مواضعَ التُّهمِ »(٢)

حتَّى احترزَ هوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ ذٰلكَ .

رُويَ عنْ عليِّ بنِ الحسينِ : أنَّ صفيةَ بنتَ حييٍّ أخبرَتْهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ معتكفاً في المسجدِ ، قالَتْ : فأتيتُهُ فتحدثتُ عندَهُ ، فلمَّا أمسيتُ . . انصرفتُ ، فقامَ يمشي معي ، فمرَّ بهِ رجلانِ مِنَ الأنصارِ ، فسلَّما ثمَّ انصرفَا ، فناداهما وقالَ : « إنها صفيَّةُ بنتُ حييٍّ » ، فقالا : يا رسولَ اللهِ ؛ ما نظنُّ بكَ إلا خيراً ، فقالَ :

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٧/٦) ، وابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٢٨) ، وهو عند البخاري (٣٢٧٦) ، ومسلم (١٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٢٨٣/٧) ، وروى ابن عدي في « الكامل » (١٥٢/٧) عن عمر رضي الله عنه أنه وضع للناس حِكماً ، منها : (ومن عرَّض نفسه للتهم . . فلا يلومن من أساء به الظن) ، وروى الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٧٧) عنه أيضاً : (من أقام نفسه مقام التهمة . فلا يلومن من أساء به الظن) .

« إنَّ الشيطانَ يجري مِن ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ ، وإنّي خشيتُ أنْ يدخِلَ عليكُما »[1]

فانظرْ كيفَ أشفقَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ دينِهما فحرسَهُما ، وكيفَ أشفقَ علىٰ أمَّتِهِ فعلَّمَهُمْ طريقَ الاحترازِ مِنَ التهمةِ ؛ حتَّىٰ لا يتساهلَ العالمُ الورعُ المعروفُ بالدينِ في أحوالِهِ فيقولَ : مثلي لا يُظَنُّ بهِ إلا الخيرُ إعجاباً منهُ بنفسِهِ ؛ فإنَّ أورعَ الناسِ وأتقاهم وأعلمَهُمْ لا ينظرُ الناسُ كلُّهُمْ إليهِ بعينٍ واحدةٍ ، بلْ بعينِ الرضا بعضُهُمْ ، وبعينِ السخطِ بعضُهُمْ ؛ ولذٰلكَ قالَ الشاعرُ[2] : [من الطويل]

وَعَـيْـنُ الـرِّضـا عَـنْ كُـلِّ عَـيْـبٍ كَـلِـيـلَـةٌ ... وَلَـٰكِنَّ عَيْـنَ الـسُّـخْـطِ تُـبْـدِي الْـمَـساوِيا

فيجبُ الاحترازُ عنْ عينِ السوءِ ، وعنْ تهمةِ الأشرارِ ؛ فإنَّ الأشرارَ لا يظنُّونَ بالناسِ كلِّهِمْ إلا الشرَّ ، فمهما رأيتَ إنساناً يسيءُ الظنَّ بالناسِ طالباً للعيوبِ . . فاعلمْ أنَّهُ خبيثٌ في الباطنِ ، وأنَّ ذٰلكَ خبثُهُ يترشَّحُ منهُ ، وإنَّما يرىٰ غيرَهُ مِنْ حيثُ هوَ ، فإنَّ المؤمنَ يطلبُ المعاذيرَ ، والمنافقَ يطلبُ العيوبَ ، والمؤمنُ سليمُ الصدرِ في حقِّ كافَّةِ الخلقِ .

فهٰذهِ بعضُ مداخلِ الشيطانِ إلى القلبِ ، ولوْ أردتُ استقصاءَ جميعِها . . لمْ أقدرْ عليهِ ، وفي هٰذا القدْرِ ما ينبِّهُ علىٰ غيرِهِ ، فليسَ في الآدميِّ صفةٌ مذمومةٌ إلا وهيَ سلاحُ الشيطانِ ، ومدخلٌ مِنْ مداخلِهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما العلاجُ في دفعِ الشيطانِ ؟ وهلْ يكفي في ذٰلكَ ذكْرُ اللهِ تعالىٰ ، وقولُ الإنسانِ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ علاجَ القلبِ في ذٰلكَ سدُّ هٰذهِ المداخلِ بتطهيرِ القلبِ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ المذمومةِ ، وذٰلكَ ممَّا يطولُ ذكرُهُ ، وغرضُنا في هٰذا الربعِ مِنَ الكتابِ بيانُ علاجِ الصفاتِ المهلكاتِ ، وتحتاجُ كلُّ صفةٍ إلىٰ كتابٍ مفردٍ علىٰ ما سيأتي شرحُهُ .

نعمْ ؛ إذا قُطعتْ مِنَ القلبِ أصولُ هٰذهِ الصفاتِ . . كانَ للشيطانِ بالقلبِ اجتيازاتٌ وخطراتٌ ، ولمْ يكنْ لهُ استقرارٌ ، ويمنعُهُ مِنَ الاجتيازِ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ حقيقةَ الذكرِ لا تتمكَّنُ مِنَ القلبِ إلا بعدَ عمارةِ القلبِ بالتقوىٰ ، وتطهيرِهِ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، وإلا . . فيكونُ الذكرُ حديثَ نفسٍ ، لا سلطانَ لهُ على القلبِ ، فلا يدفعُ سلطانَ الشيطانِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ ، خصَّصَ بذٰلكَ المتقيَ .

فمثلُ الشيطانِ كمثلِ كلبٍ جائعٍ يقربُ منكَ ، فإن لمْ يكنْ بينَ يديكَ لحمٌ أو خبزٌ . . فإنَّه ينزجرُ بأنْ تقولَ له : اخسأْ ، فمجردُ الصوتِ يدفعُهُ ، فإنْ كانَ بينَ يديكَ لحمٌ وهوَ جائعٌ ، فإنَّهُ يهجمُ على اللحمِ ولا يندفعُ بمجردِّ الكلامِ ، فالقلبُ الخالي عنْ قوتِ الشيطانِ ينزجرُ عنهُ بمجرَّدِ الذكرِ ، فأمَّا الشهوةُ إذا غلبَتْ على القلبِ . . دفعَتْ حقيقةَ الذكرِ إلىٰ حواشي القلبِ ، ولمْ يتمكَّنْ مِنْ سويدائِهِ ، فيستقرُّ الشيطانُ في سويداءِ القلبِ .

وأمَّا قلوبُ المتقينَ الخاليةُ مِنَ الهوىٰ والصفاتِ المذمومةِ . . فإنَّهُ يطرقُها الشيطانُ لا للشهواتِ ، بلْ لخلوِّها بالغفلةِ عنِ الذكرِ ، فإذا عادَ إلى الذكرِ . . خنسَ الشيطانُ ، ودليلُ ذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ، وسائرُ الأخبارِ والآياتِ الواردةِ في الذكرِ .

---

(١) رواه مسلم (٢١٧٥) .

(٢) البيت لعبد الله بن معاوية في « ديوانه » (ص ٩٠) ، وفي نسبته إليه خلاف ، انظر « ديوانه » (ص ٩٠ ـ ٩١) .

وفي حديثِ عاصمِ بنِ كليبٍ ، عنْ أبيهِ ، عنْ أبي هريرةَ قالَ : (ما قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قيامَكُمْ هٰذا قطُّ ، وإنْ كانَ ليقومُ حتَّىٰ تزلعَ قدماهُ ، وما واصلَ وصالَكُمْ هٰذا قطُّ ، غيرَ أنَّهُ قدْ أخَّرَ الفطرَ إلى السحرِ)[1]

وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يواصلُ إلى السحرِ)[2]

فإنْ كانَ يلتفتُ قلبُ الصائمِ بعدَ المغربِ إلى الطعامِ ، وكانَ يشغلُهُ ذٰلكَ عنْ حضورِ القلبِ في التهجُّدِ . . فالأولىٰ أنْ يقسمَ طعامَهُ نصفينِ ، فإنْ كانَ رغيفينِ مثلاً . . أكلَ رغيفاً عندَ الفطرِ ، ورغيفاً عندَ السحرِ ؛ لتسكنَ نفسُهُ ، ويخفَّ عندَ التهجُّدِ بدنُهُ ، ولا يشغلَهُ جوعُهُ بالنهارِ لأجلِ تسحُّرِهِ ، فيستعينُ بالرغيفِ الأوَّلِ على التهجُّدِ ، وبالثاني على الصومِ .

ومَنْ كانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً . . فلا بأسَ أنْ يأكلَ يومَ فطرِهِ وقتَ الظهرِ ، ويومَ صومِهِ وقتَ السحرِ .

فهٰذهِ هيَ الطرقُ في مواقيتِ الأكلِ وتقاربِهِ وتباعدِهِ .



الوظيفةُ الثالثةُ : في نوعِ الطعامِ وتركِ الإدامِ :

وأعلى الطعامِ مخُّ البرِّ ، فإنْ نُخلَ . . فهوَ غايةُ الترفُّهِ ، وأوسطُهُ شعيرٌ منخولٌ ، وأدناهُ شعيرٌ لمْ يُنخلْ ، وأعلى الأُدْمِ اللحمُ والحلاوةُ ، وأدناهُ الملحُ والخلُّ ، وأوسطُهُ المزوَّراتُ بالأدهانِ مِنْ غيرِ لحمٍ .

وعادةُ سالكي طريقِ الآخرةِ الامتناعُ مِنَ الإدامِ على الدوامِ ، بلِ الامتناعُ عنِ الشهواتِ ؛ فإنَّ كلَّ لذيذٍ يشتهيهِ الإنسانُ وأكلَهُ . . اقتضىٰ ذٰلكَ بطراً في نفسِهِ ، وقسوةً في قلبِهِ ، وأُنْساً لهُ بلذَّاتِ الدنيا ، حتَّىٰ يألفَها ويكرهَ الموتَ ولقاءَ اللهِ تعالىٰ ، وتصيرَ الدنيا جنَّةً في حقِّهِ ، ويكونَ الموتُ سجناً لهُ ، وإذا منعَ نفسَهُ عنْ شهواتِها ، وضيَّقَ عليها ، وحرمَها لذَّاتِها . . صارَتِ الدنيا سجناً عليهِ ، ومضيقاً لهُ ، فاشتهَتْ نفسُهُ الإفلاتَ منها ، فيكونُ الموتُ إطلاقَها ، وإليهِ الإشارةُ بقولِ يحيى بنِ معاذٍ حيثُ قالَ : (معاشرَ الصادقينَ ؛ جوِّعوا أنفسَكُمْ لوليمةِ الفردوسِ ؛ فإنَّ شهوةَ الطعامِ علىٰ قدْرِ تجويعِ النفسِ)[3]

فكلُّ ما ذكرناهُ مِنْ آفاتِ الشبعِ فإنَّهُ يجري في أكلِ الشهواتِ ، وتناولِ اللذَّاتِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِهِ ، فلذٰلكَ يعظمُ الثوابُ في تركِ الشهواتِ مِنَ المباحاتِ ، ويعظمُ الخطرُ في تناولِها ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ يأكلونَ مخَّ الحنطةِ »[4] ، وهٰذا ليسَ بتحريمٍ ، بلْ هوَ مباحٌ علىٰ معنىٰ أنَّ مَنْ أكلَهُ مرَّةً أوْ مرَّتينِ . . لمْ يعصِ ، ومَنْ داومَ عليهِ أيضاً . . فلا يعصي بتناولِهِ ، ولٰكنْ تتربَّىٰ نفسُهُ بالنعيمِ ، فتأنسُ بالدنيا ، وتألفُ اللذاتِ ، وتسعىٰ في طلبِها ، فيجرُّها ذٰلكَ إلى المعاصي ، فهمْ شرارُ الأمَّةِ ؛ لأنَّ مخَّ الحنطةِ يقودُهُمْ إلى اقتحامِ أمورٍ ، تلكَ الأمورُ معاصٍ .

---

(١) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٣٨٤) ، **وتزلع** : تتورم وتتشقق .

(٢) كذا في « القوت » (١٦٦/٢) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٩١/١) من حديث علي رضي الله عنه ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٠٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « لا تواصلوا ، فأيكم إذا أراد أن يواصل . . فليواصل حتى السحر » .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٤١٢/٧) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، ومَنْ ساعدَ الشيطانَ بعملِهِ . . فهوَ مُواليهِ وإنْ ذكرَ اللهَ بلسانِهِ .

❁ ❁ ❁

وإنْ كنتَ تقولُ : (الحديثُ قدْ وردَ مطلقاً بأنَّ الذكرَ يطردُ الشيطانَ) ، ولم تفهمْ أنَّ أكثرَ عموماتِ الشرعِ مخصوصةٌ بشروطٍ نقلَها علماءُ الدينِ . . فانظرْ إلىٰ نفسِكَ ، فليسَ الخبرُ كالعيانِ ، وتأمَّلْ أنَّ منتهىٰ ذكرِكَ وعبادتِكَ الصلاةُ ، فراقبْ قلبَكَ إذا كنتَ في صلواتِكَ : كيفَ يجاذبُهُ الشيطانُ إلى الأسواقِ ، وحسابِ المعاملينَ ، وجوابِ المعاندينَ ، وكيفَ يمرُّ بكَ في أوديةِ الدنيا ومهالكِها ، حتَّىٰ إنَّكَ لا تذكرُ ما قدْ نسيتَهُ مِنْ فضولِ الدنيا إلا في صلاتِكَ ، ولا يزدحمُ الشيطانُ علىٰ قلبِكَ إلا إذا صلَّيتَ ، فالصلاةُ محكُّ القلوبِ ، فيها يظهرُ محاسنُها ومساويها ، والصلاةُ لا تُقبلُ مِنَ القلوبِ المشحونةِ بشهواتِ الدنيا ، فلا جرمَ لا ينطردُ عنكَ الشيطانُ ، بلْ ربَّما يزيدُ عليكَ الوسواسَ ، كما أنَّ الدواءَ قبلَ الاحتماءِ ربَّما يزيدُ عليكَ الضررَ .

فإنْ أردتَ الخلاصَ مِنَ الشيطانِ . . فقدِّمِ الاحتماءَ بالتقوىٰ ، ثمَّ أردفْهُ بدواءِ الذكرِ . . يفرُّ الشيطانُ منكَ كما فرَّ مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ[1] .

ولذٰلكَ قالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (اتقِ اللهَ ، ولا تسبَّ الشيطانَ في العلانيةِ وأنتَ صديقُهُ في السرِّ)[2] أيْ : أنتَ مطيعٌ لهُ .

وقالَ بعضُهُمْ : (يا عجباً لمَنْ يعصي المحسنَ بعدَ معرفتِهِ بإحسانِهِ ، ويطيعُ اللعينَ بعدَ معرفتِهِ بطغيانِهِ) .

وكما أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فأنتَ تدعو ولا يستجيبُ لكَ . . فكذٰلكَ تذكرُ اللهَ ولا يهربُ الشيطانُ منكَ ؛ لفقدِ شروطِ الذكرِ والدعاءِ .

قيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : ما بالُنا ندعو فلا يُستجابُ لنا وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ؟ قالَ : لأنَّ قلوبَكُمْ ميتةٌ ، قيلَ : وما الذي أماتَها ؟ قالَ : ثمانُ خصالٍ : عرفتُمُ اللهَ ولمْ تقوموا بحقِّهِ ، وقرأتُمُ القرآنَ ولمْ تعملوا بحدودِهِ ، وقلتُمْ : (نحبُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) ولمْ تعملوا بسنَّتِهِ ، وقلتُمْ : (نخشى الموتَ) ولمْ تستعدُّوا لهُ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فواطأتموهُ على المعاصي ، وقلتُمْ : (نخافُ النارَ) وأرهقتُمْ أبدانَكُمْ فيها ، وقلتُمْ : (نحب الجنَّةَ) ولم تعملوا لها ، وإذا قمتُمْ مِنْ فرشِكُمْ رميتُمْ عيوبَكُمْ وراءَ ظهورِكُمْ ، وافترشتُمْ عيوبَ الناسِ أمامَكُمْ ، فأسخطتُمْ ربَّكُمْ ، فكيفَ يستجيبُ لكُمْ ؟![3]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالداعي إلى المعاصي المختلفةِ شيطانٌ واحدٌ أوْ شياطينُ مختلفونَ ؟

---

(١) وهٰذا حال من انتهىٰ به سلوكه ، وأشرقت عليه أنوار التوفيق ، فلبس لأمة الصدق ، وتحلىٰ بأسلحة العزل ، ودخل في حومة الحرب بين باعث الدين وداعي الهوىٰ ، فكانت الغلبة لداعي الدين ، وفرت جيوش الشياطين ، ولذا قال أبو حازم : ما الشيطان حتىٰ يهاب ؟! فوالله ؛ لقد أطيع فما نفع ، وعُصي فما ضرَّ ، وقال بعضهم : لولا أن الحق سبحانه أمرنا بالاستعاذة منه . . ما استعذت منه ؛ لحقارته ، وهٰذا شأن المتقين . « إتحاف » (٢٨٧/٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٤/٨) عن وهيب بن الورد .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥/٨) ، وزاد ثنتين : (أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، ودفنتم أمواتكم ولم تعتبروا بهم) .

منهُ صاعاً ونصفاً ، وصاعُ الحنطةِ أربعةُ أمدادٍ ، فيكونُ كلُّ يومٍ قريباً مِنْ نصفِ مدٍّ ، وهوَ ما ذكرنا أنَّهُ قدْرُ ثلثِ البطنِ ، واحتيجَ في التمرِ إلىٰ زيادةٍ لسقوطِ النوىٰ منهُ .

وقدْ كانَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : طعامي في كلِّ جمعةٍ صاعٌ مِنْ شعيرٍ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واللهِ ؛ لا أزيدُ عليهِ شيئاً حتَّىٰ ألقاهُ ؛ فإنِّي سمعتُهُ يقولُ : « أقربُكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ وأحبُّكُمْ إليَّ مَنْ ماتَ علىٰ ما هوَ عليهِ اليومَ »[١]

وكانَ يقولُ في إنكارِهِ علىٰ بعضِ الصحابةِ : (قد غيَّرْتُمْ ، يُنخلُ لكُمُ الشعيرُ ولمْ يكنْ يُنخلُ ، وخبزْتُمُ المرقَّقَ ، وجمعتُمْ بينَ إدامينِ ، واختلفَ عليكُمْ بألوانِ الطعامِ ، وغدا أحدُكُمْ في ثوبٍ وراحَ في آخرَ ، ولمْ تكونوا هـٰكذا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[٢]

وقدْ كانَ قوتُ أهلِ الصُّفَّةِ مُدّاً مِنْ تمرٍ بينَ اثنينِ في كلِّ يومٍ[٣] ، والمدُّ رطلٌ وثلثٌ ، ويسقطُ منهُ النوىٰ .

وكانَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (المؤمنُ مثلُ العنيزةِ ، يكفيهِ الكفُّ مِنَ الحشفِ ، والقبضةُ مِنَ السويقِ ، والجرعةُ مِنَ الماءِ ، والمنافقُ مثلُ السبعِ الضاري ، بلعاً بلعاً ، وسرطاً سرطاً ، لا يطوي بطنَهُ لجارِهِ ، ولا يؤثرُ أخاهُ بفضْلِهِ ، وجِّهوا هـٰذهِ الفضولَ أمامَكُمْ)[٤]

وقالَ سهلٌ : (لوْ كانَتِ الدنيا دماً عبيطاً . . لكانَ قوتُ المؤمنِ منها حلالاً ؛ لأنَّ أكلَ المؤمنِ عندَ الضرورةِ بقدْرِ القوامِ فقطْ)[٥]

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ الثانيةُ : في وقتِ الأكلِ ومقدارِ تأخيرِهِ :

وفيه أيضاً أربعُ درجاتٍ :

الدرجة العليا : أنْ يطويَ ثلاثةَ أيامٍ فما فوقَها ، وفي المريدينَ مَنْ ردَّ الرياضةَ إلى الطيِّ ، لا إلى المقدارِ ، حتَّى انتهىٰ بعضُهُمْ إلىٰ ثلاثينَ يوماً ، وأربعينَ يوماً ، وانتهىٰ إليهِ جماعةٌ مِنَ العلماءِ يكثرُ عددُهُمْ ، منهُمْ محمدُ بنُ عمرٍو القرنيُّ[٦] ، وعبدُ الرحمـٰنِ بنُ إبراهيمَ دُحَيمٌ ، وإبراهيمُ التيميُّ ، وحجَّاجُ بنُ فرافصةَ ، وحفصٌ العابدُ المصِّيصيُّ ، والمسلمُ بنُ سعيدٍ ، وزهيرٌ ، وسليمانُ الخوَّاصُ ، وسهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ ، وإبراهيمُ بنُ أحمدَ الخوَّاصُ[٧]

وقدْ كانَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ يطوي ستةَ أيامٍ ، وكانَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ يطوي سبعةَ أيامٍ ، وكانَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/١٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٦١) ، وكلام أبي ذر رضي الله عنه صدر الخبر رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٦٢) ، وهو كما ساقه المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٢/١٦٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٦٧) .
(٣) كما روىٰ ذٰلك الحاكم في « المستدرك » (٣/١٥) .
(٤) قوت القلوب (٢/١٦٧) .
(٥) قوت القلوب (٢/١٦٧) ، **والدم العبيط** : الخالص الطري ، ومعلوم أن المضطر يحل له أكل الميتة ، والمؤمن في أكله عند أبي عبد الله التستري مضطر علىٰ كل حال .
(٦) في (أ) : (العرني) ، وفي (ب) : (المغربي) .
(٧) قوت القلوب (٢/١٦٥) .

أُولَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ ﴾ ، وصنفٌ أجسامُهُمْ أجسامُ بني آدمَ وأرواحُهُمْ أرواحُ الشياطينِ ، وصنفٌ في ظلِّ اللهِ تعالىٰ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ »[1]

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ : بلغَنا أنَّ إبليسَ تمثَّلَ ليحيى بنِ زكريا عليهما السلامُ ، وقالَ : إنِّي أريدُ أنْ أنصحَكَ ، قالَ : لا حاجةَ بي إلىٰ نصحِكَ ، ولٰكنْ أخبرْني عنْ بني آدمَ ، قالَ : همْ عندَنا ثلاثةُ أصنافٍ ؛ أمَّا صنفٌ منهُمْ . . فهُمْ أشدُّ الأصنافِ علينا نقبلُ علىٰ أحدِهِمْ حتَّىٰ نفتنَهُ ونتمكَّنَ منهُ ، فيفزعَ إلى الاستغفارِ والتوبةِ ، فيفسدُ علينا كلَّ شيءٍ أدركنا منهُ ، ثمَّ نعودُ إليهِ ، فيعودُ ، فلا نحنُ نيئسُ منهُ ، ولا نحنُ ندركُ منهُ حاجتَنا ، فنحنُ منهُ في عناءٍ ، وأمَّا الصنفُ الآخرُ . . فهُمْ في أيدينا بمنزلةِ الكرةِ في أيدي صبيانِكُمْ ، نتلقفُهُمْ كيفَ شئنا ، قدْ كفونا أنفسَهُمْ ، وأمَّا الصنفُ الثالثُ . . فهُمْ مثلُكَ معصومونَ ، لا نقدرُ منهُمْ علىٰ شيءٍ[2]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتمثَّلُ الشيطانُ لبعضِ الناسِ دونَ البعضِ ؟ وإذا رأىٰ صورتَهُ . . فهلْ هيَ صورتُهُ الحقيقيَّةُ أوْ هوَ مثالٌ تمثَّلَ لهُ بهِ ؟ فإنْ كانَ علىٰ صورتِهِ الحقيقيَّةِ . . فكيفَ يُرىٰ بصورٍ مختلفةٍ ؟ وكيفَ يُرىٰ في وقتٍ واحدٍ في مكانينِ وعلىٰ صورتينِ ، حتَّىٰ يراهُ شخصانِ بصورتينِ مختلفتينِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المَلَكَ والشيطانَ لهما صورتانِ هيَ حقيقةُ صورتِهما ، ولا تُدركُ حقيقةُ صورتِهما بالمشاهدةِ إلا بأنوارِ النبوَّةِ ، فما رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جبريلَ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ في صورتِهِ إلا مرَّتينِ ، وذٰلكَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَهُ أنْ يريَهُ نفسَهُ علىٰ صورتِهِ ، فواعدَهُ بالبقيعِ ، وظهرَ لهُ بحراءَ ، فسدَّ الأفقَ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، ورآهُ مرَّةً أخرىٰ علىٰ صورتِهِ ليلةَ المعراجِ عندَ سدرةِ المنتهىٰ[3] ، وإنَّما كانَ يراهُ في صورةِ الآدميِّ غالباً ، فكانَ يراهُ في صورةِ دِحْيَةَ الكلبيِّ ، وكانَ رجلاً حسنَ الوجهِ[4]

والأكثرُ أنَّهُ يُكاشفُ أهلُ المكاشفةِ منْ أربابِ القلوبِ بمثالِ صورتِهِ ، فيتمثَّلُ الشيطانُ لهُ في اليقظةِ ، فيراهُ بعينِهِ ، ويسمعُ كلامَهُ بأذنِهِ ، فيقومُ ذٰلكَ مقامَ حقيقةِ صورتِهِ ، كما ينكشفُ في المنامِ لأكثرِ الصالحينَ .

وإنَّما المكاشَفُ في اليقظةِ هو الذي انتهىٰ إلىٰ رتبةٍ لا يمنعُهُ اشتغالُ الحواسِّ بالدنيا عَنِ المكاشفةِ التي تكونُ في المنامِ ، فيرىٰ في اليقظةِ ما يراهُ غيرُهُ في المنامِ ؛ كما رُوِيَ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ أنَّ رجلاً سألَ ربَّهُ عزَّوجلَّ أنْ يريَهُ موضعَ الشيطانِ مِنْ قلبِ ابنِ آدمَ ، فرأىٰ في النومِ جسدَ رجلٍ شبهَ البلَّورِ ، يُرىٰ داخلُهُ مِنْ خارجِهِ ، ورأى الشيطانَ في صورةِ ضفدعٍ قاعدٍ علىٰ منكبِهِ الأيسرِ ، بينَ منكبِهِ وأذنِهِ ، لهُ خرطومٌ طويلٌ دقيقٌ ، قدْ أدخلَهُ مِنْ منكبِهِ الأيسرِ إلىٰ قلبِهِ ، يوسوسُ إليهِ ، فإذا ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ[5]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (١) مقتصراً على الجن ، ورواه بتمامه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠٨١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٨/٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٥/٦٤) .

(٣) رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل مرتين علىٰ حقيقته لا في صورة بشر متمثل له عند البخاري (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) ولفظه عن عائشة رضي الله عنها : (ولٰكنه رأىٰ جبريل عليه السلام في صورته مرتين) ، وعند الترمذي (٣٢٧٨) : (ولٰكنه رأىٰ جبريل ، لم يره في صورته إلا مرتين ؛ مرة عند سدرة المنتهىٰ ، ومرَّة في جياد له ست مئة جناح قد سد الأفق) .

(٤) أما إتيانه عليه السلام في صورة الرجل . . فعند البخاري (٣٢٣٥) ، ومسلم (١٧٧) ، وأما إتيانه علىٰ صورة دحية رضي الله عنه . . فعند البخاري (٣٦٣٤) ، ومسلم (٢٤٥١) .

(٥) قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٥٦٣/٦) : (وقد ورد في خبر مقطوع أن رجلاً سأل ربَّه أن يريه موضع الشيطان ، فرأى الشيطان ←

بيان طريق الرّياضة في كسر شهوة البطن

اعلمْ : أنَّ على المريدِ في بطنِهِ ومأكولِهِ أربعَ وظائفَ :

الأولىٰ : ألا يأكلَ إلا حلالاً :

فالعبادةُ معَ أكلِ الحرامِ كالبناءِ علىٰ أمواجِ البحرِ ، وقدْ ذكرنا ما تجبُ مراعاتُهُ مِنْ درجاتِ الورعِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

وتبقىٰ ثلاثُ وظائفَ خاصَّةٍ بالأكلِ ؛ وهوَ تقديرُ قدْرِ الطعامِ في القلَّةِ والكثرةِ ، وتقديرُ وقتِهِ في الإبطاءِ والسرعةِ ، وتعيينُ الجنسِ المأكولِ في تناولِ المشتهياتِ وتركِها .

❁ ❁ ❁

أمَّا الوظيفةُ الأولىٰ في تقليلِ الطعامِ :

فسبيلُ الرياضةِ فيهِ التدريجُ ، فمَنِ اعتادَ الأكلَ الكثيرَ وانتقلَ دفعةً واحدةً إلى القليلِ . . لمْ يحتملْهُ مزاجُهُ ، وضعفَ ، وعظمَتْ مشقَّتُهُ ، فينبغي أنْ يتدرَّجَ إليهِ قليلاً قليلاً ، وذٰلكَ بأنْ ينقصَ قليلاً قليلاً مِنْ طعامِهِ المعتادِ .

فإنْ كانَ يأكلُ رغيفينِ مثلاً وأرادَ أنْ يردَّ نفسهُ إلىٰ رغيفٍ واحدٍ . . فينقصُ كلَّ يومٍ ربعَ سبعِ رغيفٍ ، وهوَ أنْ ينقصَ جزءاً مِنْ ثمانيةٍ وعشرينَ جزءاً ، أوْ جزءاً مِنْ ثلاثينَ جزءاً ، فيرجعُ إلىٰ رغيفٍ في شهرٍ ، ولا يستضرُّ بهِ ، ولا يظهرُ أثرُهُ ، فإنْ شاءَ . . فعلَ ذٰلكَ بالوزنِ ، وإنْ شاءَ . . بالمشاهدةِ ، فيتركُ كلَّ يومٍ مقدارَ لقمةٍ ، وينقصُهُ عمَّا أكلَهُ بالأمسِ .

ثمَّ هٰذا فيهِ أربعُ درجاتٍ :

أقصاها : أنْ يردَّ نفسَهُ إلىٰ قدْرِ القوامِ الذي لا يبقىٰ دونَهُ ، وهوَ عادةُ الصديقينَ ، وهوَ اختيارُ سهْلٍ التستريّ رحمةُ اللهِ عليهِ ؛ إذْ قالَ : إنَّ اللهَ استعبدَ الخلقَ بثلاثٍ : بالحياةِ ، والعقلِ ، والقوَّةِ ، فإنْ خافَ العبدُ على اثنتينِ منها وهيَ الحياةُ والعقلُ . . أكلَ ، وأفطرَ إنْ كانَ صائماً ، وتكلَّفَ الطلبَ إنْ كانَ فقيراً ، وإنْ لمْ يخفْ عليهما بلْ على القوَّةِ . . قالَ : فينبغي ألا يباليَ ولوْ ضعفَ حتَّىٰ صلَّىٰ قاعداً ، ورأىٰ أنَّ صلاتَهُ قاعداً معَ ضعْفِ الجوعِ أفضلُ مِنْ صلاتِهِ قائماً معَ قوةِ الأكلِ (١)

وسئلَ سهلٌ عنْ بدايتِهِ وما كانَ يقتاتُ بهِ ؟ فقالَ : كانَ قُوتي في كلِّ سنةٍ ثلاثةَ دراهمَ ، كنتُ آخذُ بدرهمٍ دِبْساً ، وبدرهمٍ سمناً ، وبدرهمٍ دقيقَ الأرزِّ ، وأخلطُ الجميعَ وأسوّي منهُ بنادقَ ، ثلاثَ مئةٍ وستينَ أُكْرَةً (٢) ، آخذُ في كلِّ ليلةٍ أُكْرَةً أفطرُ عليها ، فقيلَ لهُ : فالساعةَ كيفَ تأكلُ ؟ قالَ : آكلُ بغيرِ حدٍّ ولا توقيتٍ (٣)

---

(١) فعلم من هٰذا أن المحافظة على العقل مقدمة علىٰ محافظة القوة ، فإن لم يصلح عقل المريد بالخبز البحت . . فلا بأس أن يأتدم ببعض الأدهان ، وقد كان سهل رحمه الله تعالىٰ يقول للمتقللين من أهل عبادان ـ كما في « القوت » (٢/١٧٢) ـ : احفظوا عقولكم ، وتعاهدوا بالأدهان والدسم ؛ فإنه ما كان ولي لله ناقص العقل . « إتحاف » (٧/٤٠٤) .

(٢) **الأُكْرَة** : لغة في الكرة ؛ أي : يجعل من هٰذا الخليط كالكرات ، يأخذ كل فطور واحدة .

(٣) قوت القلوب (٢/١٧١) .

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمّها وخواطرها وقصودها وما يُعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلمْ : أنَّ هٰذا أمرٌ غامضٌ ، وقدْ وردَتْ فيهِ آياتٌ وأخبارٌ متعارضةٌ يلتبسُ طريقُ الجمعِ بينَها إلا علىٰ سماسرةِ العلماءِ بالشرعِ ، فقدْ رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « عُفِيَ عنْ أمتي ما حدَّثَتْ بهِ نفوسُها ما لمْ تتكلَّمْ بهِ أوْ تعملْ بهِ »(١)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للحفظةِ : إذا همَّ عبدي بسيئةٍ . . فلا تكتبوها عليهِ ، فإنْ عملَها . . فاكتبوها سيئةً ، وإذا همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . فاكتبوها حسنةً ، فإنْ عملَها . . فاكتبوها عشراً » ، وقدْ خرَّجَهُ مسلمٌ والبخاريُّ في « الصحيحينِ »(٢) ، **وهوَ دليلٌ على العفوِ عنْ عملِ القلبِ وهمِّهِ بالسيئةِ .**

وفي لفظٍ آخرَ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةٌ ، ومَنْ همَّ بحسنةٍ فعملَها . . كُتبَتْ لهُ إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ ، ومَنْ همَّ بسيئةٍ فلمْ يعملْها . . لم تُكتبْ عليهِ ، وإنْ عملَها . . كُتبَتْ »(٣)

وفي لفظٍ آخرَ : « وإذا تحدَّثَ بأنْ يعملَ سيئةً . . فأنا أغفرُها لهُ ما لمْ يعملْها »(٤) ، وكلُّ ذٰلكَ يدلُّ على العفوِ .

فأمَّا ما يدلُّ على المؤاخذةِ : فقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ ، فدلَّ علىٰ أنَّ عملَ الفؤادِ كعملِ السمعِ والبصرِ ، فلا يُعفىٰ عنهُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾

والحقُّ عندَنا في هٰذهِ المسألةِ لا يُوقفُ عليهِ ما لمْ تقعِ الإحاطةُ بتفصيلِ أعمالِ القلوبِ ، مِنْ مبدأ ظهورِها إلىٰ أنْ يظهرَ العملُ على الجوارحِ ، فنقولُ :

أوَّلُ ما يردُ على القلبِ : الخاطرُ : كما لوْ خطرَ لهُ مثلاً صورةُ امرأةٍ ، وأنَّها وراءَ ظهرِهِ في الطريقِ ، لوِ التفتَ إليها . . لرآها .

والثاني : هيجانُ الرغبةِ إلى النظرِ : وهوَ حركةُ الشهوةِ التي في الطبعِ ، وهٰذا يتولَّدُ مِنَ الخاطرِ الأوَّلِ ، ونسمِّيهِ : ميلَ الطبعِ ، ونُسمِّي الأوَّلَ : حديثَ النفسِ .

والثالثُ : حكمُ القلبِ بأنَّ هٰذا ينبغي أنْ يفعلَ : أيْ : ينبغي أنْ ينظرَ إليها ؛ فإنَّ الطبعَ إذا مالَ . . لمْ تنبعثِ الهمَّةُ

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) ، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بنحوه .

(٢) البخاري (٧٥٠١) ، ومسلم (١٢٨) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٩٣/٧) : (وإنما قدم مسلماً في الذكر نظراً إلىٰ أن سياق اللفظ له ، وإلا . . فالبخاري مقدم في الذكر لتقدمه في الفضل وفي الزمان ، وربما من يجهل ما ذكرناه اعترض على المصنف في تقديمه مسلماً علىٰ صاحبه ، ونسبه لمخالفة الاصطلاح) .

(٣) البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) هي عند مسلم (١٢٩) .

الفائدةُ التاسعةُ : خفَّةُ المؤونةِ :

فإنَّ مَنْ تعوَّدَ قلَّةَ الأكلِ كفاهُ مِنَ المالِ قدْرٌ يسيرٌ ، والذي تعوَّدَ الشبعَ صارَ بطنُهُ غريماً ملازماً لهُ ، آخذاً بمُخَنَّقِهِ في كلِّ يومٍ ، فيقولُ : ماذا تأكلُ اليومَ ؟ فيحتاجُ إلىٰ أنْ يدخلَ المداخلَ ، فيكتسبَ مِنَ الحرامِ فيعصيَ ، أوْ مِنَ الحلالِ فيذلَّ ويتعبَ ، وربَّما يحتاجُ إلىٰ أنْ يمدَّ عينَ الطمعِ إلى الناسِ ، وهوَ غايةُ الذلِّ والقماءةِ ، والمؤمنُ خفيفُ المؤونةِ .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنِّي لأقضي عامَّةَ حوائجي بالتركِ ، فيكونُ ذٰلكَ أروحَ لقلبي)[1]

وقالَ آخرُ : (إذا أردتُ أنْ أستقرضَ مِنْ غيري لشهوةٍ أوْ زيادةٍ . . استقرضتُ مِنْ نفسي ، فتركتُ الشهوةَ ، فهيَ خيرُ غريمٍ لي)[2]

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمةُ اللهِ يسألُ أصحابَهُ عنْ سعرِ المأكولاتِ ، فيُقالُ : إنَّها غاليةٌ ، فيقولُ : أرخصوهُ بالتركِ[3]

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (الأكولُ مذمومٌ في ثلاثةِ أحوالٍ : إنْ كانَ مِنْ أهلِ العبادةِ . . فيكسلُ ، وإنْ كانَ مكتسباً . . فلا يسلمُ مِنَ الآفاتِ ، وإنْ كانَ ممَّنْ يدخلُ عليهِ شيءٌ[4] . . فلا ينصفُ اللهَ تعالىٰ مِنْ نفسِهِ) .

وبالجملةِ : سببُ هلاكِ الناسِ حرصُهُمْ على الدنيا ، وسببُ حرصِهِمْ على الدنيا البطنُ والفرجُ ، وسببُ شهوةِ الفرجِ شهوةُ البطنِ ، وفي تقليلِ الأكلِ ما يحسمُ هٰذهِ الأبوابَ كلَّها ، وهيَ أبوابُ النارِ ، وفي حسمِها فتحُ أبوابِ الجنةِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أديموا قرْعَ بابِ الجنةِ بالجوعِ »[5]

فمَنْ قنعَ برغيفٍ في كلِّ يومٍ . . قنعَ في سائرِ الشهواتِ أيضاً ، وصارَ حرّاً ، واستغنىٰ عنِ الناسِ ، واستراحَ مِنَ التعبِ ، وتخلَّىٰ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتجارةِ الآخرةِ ، فيكونُ مِنَ الذينَ لا تلهيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ ، وإنَّما لا تلهيهِمْ لاستغنائِهِمْ عنها بالقناعةِ ، فأمَّا المحتاجُ . . فتلهيهِ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ العاشرةُ : أنْ يتمكَّنَ مِنَ الإيثارِ والتصدُّقِ بما فضَلَ مِنَ الأطعمةِ على اليتامىٰ والمساكينِ :

فيكونَ يومَ القيامةِ في ظلِّ صدقتِهِ كما وردَ بِهِ الخبرُ[6] ، فما يأكلُهُ كانَ خزانتُهُ الكنيفَ ، وما يتصدَّقُ بِهِ كانَ خزانتُهُ فضْلَ اللهِ ، فليسَ للعبدِ مِنْ مالِهِ إلا ما تصدَّقَ فأبقىٰ ، أوْ أكلَ فأفنىٰ ، أوْ لبسَ فأبلىٰ[7] ، **فالتصدُّقُ بفضلاتِ الطعامِ أولىٰ مِنَ التخمةِ والشبعِ**

وكانَ الحسنُ رحمةُ اللهِ عليهِ إذا تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . . قالَ : (عرضَها على السماواتِ السبعِ الطباقِ الطرائقِ اللاتي زينَها بالنجومِ ،

---

(١) قوت القلوب (١٧٣/٢) ، **والمعنىٰ** : فإذا تركتها . . فكأني قضيتها . « إتحاف » (٤٠١/٧) .
(٢) قوت القلوب (١٧٣/٢) .
(٣) قوت القلوب (١٧٣/٢) .
(٤) أي : من الفيض من غير كسب .
(٥) قوت القلوب (١٧١/٢) .
(٦) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤١٦/١) .
(٧) كما روىٰ ذٰلك مسلم (٢٩٥٩) .

علىٰ تمامِ الغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، والامتناعُ بالمجاهدةِ علىٰ خلافِ الطبعِ يحتاجُ إلىٰ قوّةٍ عظيمةٍ ، فجدُّهُ في مخالفةِ الطبعِ ـ وهوَ العملُ للهِ تعالىٰ ـ أشدُّ مِنْ جدِّهِ في موافقةِ الشيطانِ بموافقةِ الطبعِ ، فكُتِبَ لهُ حسنةٌ ؛ لأنَّهُ رجحَ جهدُهُ في الامتناعِ وهمُّه بهِ علىٰ همِّهِ بالفعلِ ، وإنْ تعوَّقَ الفعلُ بعائقٍ ، أوْ تركَهُ لعذرٍ ، لا خوفاً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كتبَتْ عليهِ سيئةٌ ؛ فإنَّ همَّهُ فعلٌ مِنَ القلبِ اختياريٌّ .

والدليلُ علىٰ هٰذا التفصيلِ : ما وردَ في « الصحيح » مفصَّلاً في لفظِ الحديثِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَتِ الملائكةُ عليهِمُ السلامُ : ربِّ ؛ ذاكَ عبدُكَ يريدُ أنْ يعملَ سيئةً ـ وهوَ أبصرُ بهِ ـ فقالَ : ارقبوهُ ؛ فإنْ هوَ عملَها . . فاكتبوها لهُ بمثلِها ، وإنْ تركَها . . فاكتبوها لهُ حسنةً ، إنَّما تركَها مِنْ جرَّائي »[1] ، وحيثُ قالَ : (لمْ يعملْها) أرادَ بهِ : تركَها للهِ ، فأمَّا إذا عزمَ علىٰ فاحشةٍ ، فتعذَّرَتْ عليهِ بسببٍ أوْ بغفلةٍ . . فكيفَ تُكتبُ لهُ حسنةً ؟!

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنما يُحشرُ الناسُ علىٰ نيّاتِهِمْ »[2] ، ونحنُ نعلمُ أنَّ مَنْ عزمَ ليلاً علىٰ أنْ يصبحَ ليقتلَ مسلماً ، أو يزنيَ بامرأةٍ ، فماتَ تلكَ الليلةَ . . ماتَ مصرّاً ، ويُحشرُ علىٰ نيّتِهِ ، وقدْ همَّ بسيئةٍ ولمْ يعملْها .

والدليلُ القاطعُ فيهِ : ما رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا التقى المسلمانِ بسيفيهِما . . فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قالَ : « لأنَّهُ أرادَ قتلَ صاحبِهِ »[3]

وهٰذا نصٌّ في أنَّهُ صارَ بمجرَّدِ الإرادةِ مِنْ أهلِ النارِ ، معَ أنَّهُ قُتِل مظلوماً ، فكيفَ يُظنُّ أنَّ اللهَ لا يؤاخذُ بالنيَّةِ والهمِّ ؟! بلْ كلُّ همٍّ دخلَ تحتَ اختيارِ العبدِ فهوَ مأخوذٌ بهِ ، إلا أنْ يكفِّرَهُ بحسنةٍ ، ونقضُ العزمِ بالندمِ حسنةٌ ، فلذٰلكَ كُتِبَتْ لهُ حسنةً ، فأمَّا فوتُ المرادِ بعائقٍ . . فليسَ بحسنةٍ .

وأمَّا الخواطرُ وحديثُ النفسِ وهيجانُ الرغبةِ . . فكلُّ ذٰلكَ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فالمؤاخذةُ بهِ تكليفُ ما لا يطاقُ ، ولذٰلكَ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ . . جاءَ ناسٌ مِنَ الصحابةِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالوا : كُلِّفنا ما لا نطيقُ ، إنَّ أحدَنا ليحدِّثُ نفسَهُ بما لا يحبُّ أنْ يثبتَ في قلبِهِ ، ثمَّ يُحاسبُ بذٰلكَ ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لعلَّكُمْ تقولونَ كما قالتِ اليهودُ : سمعنا وعصينا ؟! قولوا : سمعنا وأطعنا » ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزلَ اللهُ الفرجَ بعدَ سنةٍ بقولِهِ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[4]

فظهرَ بهِ أنَّ كلَّ ما لا يدخلُ تحتَ الوسعِ مِنْ أعمالِ القلبِ فهوَ الذي لا يُؤاخذُ بهِ .

❁ ❁ ❁

فهٰذا هوَ كشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا الالتباسِ ، وكلُّ مَنْ يظنُّ أنَّ كلَّ ما يجري على القلبِ يُسمَّىٰ حديثَ النفسِ ، ولمْ يفرِّقْ بينَ هٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ . . فلا بدَّ وأنْ يغلطَ .

وكيفَ لا يُؤاخذُ بأعمالِ القلبِ والكبرُ والعجبُ والرياءُ والنفاقُ والحسدُ وجملةُ الخبائثِ مِنْ أعمالِ القلبِ ؟! بلِ السمعُ والبصرُ والفؤادُ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسؤولاً ؛ أيْ : ما يدخلُ تحتَ الاختيارِ ؟!

---

(١) رواه مسلم (١٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومن جرَّائي : من أجلي .
(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٩ ، ٤٢٣٠) من حديث أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما .
(٣) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه .
(٤) رواه مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي كثرةِ النومِ ضياعُ العمرِ ، وفوتُ التهجُّدِ ، وبلادةُ الطبعِ ، وقساوةُ القلبِ ، والعمرُ أنفسُ الجواهرِ ، وهوَ رأسُ مالِ العبدِ ، فيهِ يتَّجرُ ، والنومُ موتٌ ، فتكثيرُهُ ينقصُ العمرَ .

ثمَّ فضيلةُ التهجُّدِ لا تخفىٰ ، وفي النومِ فواتُها ، ومهما غلبَ النومُ ؛ فإنْ تهجَّدَ . . لمْ يجدْ حلاوةَ العبادةِ ، ثمَّ المتعزبُ إذا نامَ على الشبعِ . . احتلمَ ، ويمنعُهُ ذٰلكَ أيضاً مِنَ التهجُّدِ ، ويحوجُهُ إلى الغسلِ ؛ إمَّا بالماءِ البارِدِ فيتأذَّىٰ بهِ ، أوْ يحتاجُ إلى الحمَّامِ وربمَّا لا يقدرُ عليهِ بالليلِ ، فيفوتُهُ الوترُ إنْ كانَ قدْ أخَّرَهُ إلى التهجُّدِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ مؤنةِ الحمَّامِ ، وربما تقعُ عينُهُ علىٰ عورةٍ في دخول الحمامِ ؛ فإنَّ فيهِ أخطاراً ذكرناها في كتابِ الطهارةِ ، وكلُّ ذٰلكَ أثرُ الشبعِ .

وقدْ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الاحتلامُ عقوبةٌ)[1] ، وإنَّما قالَ ذٰلكَ لأنَّهُ يمنعُ مِنْ عباداتٍ كثيرةٍ ؛ لتعذُّرِ الغسلِ في كلِّ حالٍ ، فالنومُ منبعُ الآفاتِ ، والشبعُ مجلبةٌ لهُ ، والجوعُ مقطعةٌ لهُ .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ السابعةُ : تيسيرُ المواظبةِ على العبادةِ :

فإنَّ الأكلَ يمنعُ مِنْ كثرةِ العباداتِ ؛ لأنَّهُ يحتاجُ إلىٰ زمانٍ يشتغلُ فيهِ بالأكلِ ، وربَّما احتاجَ إلىٰ زمانٍ في شراءِ الطعامِ وطبخِهِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ غسلِ اليدِ والخلالِ[2] ، ثمَّ يكثرُ تردادُهُ إلىٰ بيتِ الماءِ لكثرةِ شربِهِ ، والأوقاتُ المصروفةُ إلىٰ هٰذا لوْ صرفَها إلى الذكرِ والمناجاةِ وسائرِ العباداتِ . . لكثرَ ربحُهُ .

قالَ السريُّ : رأيتُ معَ عليٍّ الجرجانيِّ سَويقاً يستفُّ منهُ ، فقلتُ : ما دعاكَ إلىٰ هٰذا ؟ فقالَ : إنِّي حسبتُ ما بينَ المضْغِ إلى الاستفافِ سبعينَ تسبيحةً ، فما مضغتُ الخبزَ منذُ أربعينَ سنةً[3]

فانظرْ كيفَ أشفقَ علىٰ وقتِهِ فلم يضيعْهُ في المضْغِ ، وكلُّ نَفَسٍ مِنَ العمرِ جوهرةٌ نفيسةٌ لا قيمةَ لها ، فينبغي أنْ يستوفيَ منهُ خزانةً باقيةً في الآخرةِ لا آخرَ لها ، وذٰلكَ بصرفِهِ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ .

ومِنْ جملةِ ما يتعذَّرُ بكثرةِ الأكلِ : الدوامُ على الطهارةِ وملازمةِ المسجدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلى الخروجِ لكثرةِ شربِ الماءِ وإراقتِهِ .

ومِنْ جملةِ ما يتعذَّر عليهِ : الصومُ ؛ فإنَّهُ يتيسَّرُ لمَنْ تعوَّدَ الجوعَ ، فالصومُ ، ودوامُ الاعتكافِ ، ودوامُ الطهارة ، وصرفُ أوقاتِ شغلِهِ بالأكلِ وأسبابِهِ إلى العبادةِ . . أرباحٌ كثيرةٌ ، وإنَّما يستحقرُها الغافلونَ الذينَ لمْ يعرفوا قدْرَ الدينِ ، لٰكنْ رضوا بالحياةِ الدنيا واطمأنوا بها ، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

وقدْ أشارَ أبو سليمانَ الدارانيُّ إلىٰ ستِّ آفاتٍ في الشبعِ فقالَ : (مَنْ شبعَ . . دخلَ عليهِ ستُّ آفاتٍ : فقْدُ حلاوةِ المناجاةِ ، وتعذُّرُ حفْظِ الحكمةِ ، وحرمانُ الشفقةِ على الخلقِ ؛ لأنَّهُ إذا شبعَ . . ظنَّ أنَّ الخلقَ كلَّهُمْ شباعٌ ، وثقلُ العبادةِ ، وزيادةُ الشهواتِ ، وأنَّ سائرَ المؤمنينَ يدورونَ حولَ المساجدِ والشباعُ يدورونَ حولَ المزابلِ)[4]

❁ ❁ ❁

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٦٦) .
(٢) في أسنانه ؛ ليخرج فضول الطعام منها . « إتحاف » (٧/٣٩٨) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٠) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦١) .

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر .. أم لا ؟

اعلمْ : أنَّ العلماءَ المراقبينَ للقلوبِ ، الناظرينَ في صفاتِها وعجائبِها .. اختلفوا في هٰذهِ المسألةِ علىٰ خمسِ فرقٍ :

فقالتْ فرقةٌ : الوسوسةُ تنقطعُ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « فإذا ذكرَ اللهَ .. خنسَ » (١) ، والخنسُ هوَ السكوتُ ، فكأنَّهُ يسكتُ .

وقالتْ فرقةٌ : لا ينعدمُ أصلُهُ ، ولٰكنْ يجري في القلبِ ولا يكونُ لهُ أثرٌ ؛ لأنَّ القلبَ إذا صارَ مستوعباً بالذكرِ .. كانَ محجوباً عنِ التأثُّرِ بالوسوسةِ ؛ كالمشغولِ بهمِّهِ ؛ فإنَّهُ قدْ يكلَّمُ ولا يفهمُ وإنْ كانَ الصوتُ يمرُّ علىٰ سمعِهِ .

وقالتْ فرقةٌ : لا تسقطُ الوسوسةُ ولا أثرُها أيضاً ، ولٰكنْ تسقطُ غلبتُها للقلبِ ، فكأنَّهُ يوسوسُ مِنْ بعدٍ وعلىٰ ضعفٍ .

وقالتْ فرقةٌ : ينعدمُ عندَ الذكرِ في لحظةٍ ، وينعدمُ الذكرُ في لحظةٍ بها ، ويتعاقبانِ في أزمنةٍ متقاربةٍ ، يُظَنُّ لتقاربِها أنَّها متساوقةٌ ، وهيَ كالكرةِ التي عليها نقطٌ متفرِّقةٌ ؛ فإنَّكَ إذا أدرتَها بسرعةٍ .. رأيتَ النقطَ دوائرَ ؛ لسرعةِ تواصلِها بالحركةِ .

واستدلَّ هٰؤلاءِ بأنَّ الخنسَ قدْ وردَ ، ونحنُ نشاهدُ الوسوسةَ معَ الذكرِ ، ولا وجهَ لهُ إلا هٰذا .

وقالتْ فرقةٌ : الوسوسةُ والذكرُ يتساوقانِ في القلب على الدوامِ تساوقاً لا ينقطعُ ، وكما أنَّ الإنسانَ قدْ يرىٰ بعينيهِ شيئينِ في حالةٍ واحدةٍ ، فكذٰلكَ القلبُ قدْ يكونُ مَجرىً لشيئينِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ إلَّا ولهُ أربعةُ أعْينٍ : عينانِ في رأسِهِ يبصرُ بهما أمرَ دنياهُ ، وعينانِ في قلبِهِ يبصرُ بهما أمرَ دينِهِ » (٢) . وإلىٰ هٰذا ذهبَ المحاسبيُّ (٣)

❀ ❀ ❀

والصحيحُ عندَنا : أنَّ كلَّ هٰذهِ المذاهبِ صحيحةٌ ، ولٰكنْ كلُّها قاصرةٌ عنِ الإحاطةِ بأصنافِ الوسواسِ ، وإنَّما نظرَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلىٰ صنفٍ واحدٍ مِنَ الوسواسِ ، فأخبرَ عنهُ .

والوسواسُ أصنافٌ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ مِنْ جهةِ التلبيسِ بالحقِّ :

فإنَّ الشيطانَ قدْ يلبِّسُ بالحقِّ ، فيقولُ للإنسانِ : (لا تتركِ التنعُّمَ باللَّذاتِ ؛ فإنَّ العمرَ طويلٌ ، والصبرَ عنِ الشهواتِ طولَ العمرِ ألمُهُ عظيمٌ) ، فعندَ هٰذا إذا ذكرَ العبدُ عظيمَ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وعظيمَ ثوابِهِ وعقابِهِ ، وقالَ لنفسِهِ : (الصبرُ عنِ الشهواتِ شديدٌ ، ولٰكنَّ الصبرَ على النارِ أشدُّ منهُ ، ولا بدَّ مِنْ أحدِهِما) ، فإذا ذكرَ العبدُ وعدَ اللهِ تعالىٰ ووعيدَهُ ، وجدَّدَ إيمانَهُ ويقينَهُ .. خنسَ الشيطانُ وهربَ ؛ إذْ لا يستطيعُ أنْ يقولَ لهُ : (النارُ أيسرُ مِنَ الصبرِ على المعاصي) ، ولا

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٠١) ، وابن عدي في « الكامل » (١٨٦/٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦/٦) .
(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٠٤٠) بنحوه .
(٣) ذكر نحو هٰذا بتفصيل في « الرعاية » (ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥) .

الفائدةُ الثالثةُ : الانكسارُ والذلُّ ، وزوالُ البطَرِ والفرحِ والأشَرِ الذي هوَ مبدأُ الطغيانِ والغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ :

فلا تنكسرُ النفسُ ولا تذلُّ بشيءٍ كما تذلُّ بالجوعِ ، فعندَهُ تسكنُ لربِّها ، وتخشعُ لهُ ، وتقفُ علىٰ عجزِها وذلِّها ؛ إذْ ضعفَتْ مُنَّتُها وضاقَتْ حيلتُها بلقمةِ طعامٍ فاتَتْها[1] ، وأظلمَتْ عليها الدنيا لشربةِ ماءٍ تأخَّرَتْ عنها ، وما لمْ يشاهدِ الإنسانُ ذلَّ نفسِهِ وعجزَهُ . . لا يرىٰ عزَّةَ مولاهُ ولا قهرَهُ ، وإنَّما سعادتُهُ في أنْ يكونَ دائماً مشاهداً نفسَهُ بعينِ الذلِّ والعجزِ ، ومولاهُ بعينِ العزِّ والقدرةِ والقهْرِ .

فليكنْ دائماً جائعاً ، مضطراً إلىٰ مولاهُ ، مشاهداً للاضطرارِ بالذوقِ .

ولأجلِ ذٰلكَ لمَّا عُرضَتِ الدنيا وخزائنُها على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : « لا ، بلْ أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، فإذا جعتُ . . صبرتُ وتضرَّعتُ ، وإذا شبعتُ . . شكرتُ » ، أوْ كما قالَ[2]

فالبطنُ والفرْجُ بابٌ مِنْ أبوابِ النارِ ، وأصلُهُ الشبعُ ، والذلُّ والانكسارُ بابٌ مِنْ أبوابِ الجنةِ ، وأصلُهُ الجوعُ ، ومَنْ أغلقَ باباً مِنْ أبوابِ النارِ . . فقدْ فتحَ باباً مِنْ أبوابِ الجنةِ بالضرورةِ ؛ لأنَّهُما متقابلانِ ؛ كالمشرقِ والمغربِ ، فالقربُ مِنْ أحدِهِما بُعْدٌ مِنَ الآخرِ .

❀ ❀ ❀

الفائدةُ الرابعةُ : ألا ينسىٰ بلاءَ اللهِ وعذابَهُ ، ولا ينسىٰ أهلَ البلاءِ :

فإنَّ الشبعانَ ينسى الجائعَ ، وينسى الجوعَ ، والعبدُ الفطِنُ لا يشاهدُ بلاءً مِنْ غيرِهِ إلا ويتذكَّرُ بلاءَ الآخرةِ ، فيذكرُ مِنْ عطشِهِ عطشَ الخلْقِ في عرصاتِ القيامةِ ، ومِنْ جوعِهِ جوعَ أهلِ النارِ ، حتَّىٰ إنَّهُمْ ليجوعونَ فيُطعمونَ الزقُّومَ والضريعَ ، ويُسقونَ الغسَّاقَ والمُهْلَ .

فلا ينبغي أنْ يغيبَ عنِ العبدِ عذابُ الآخرةِ وآلامُها ، فإنَّهُ الذي يهيِّجُ الخوفَ ، فمَنْ لمْ يكنْ في ذلَّةٍ ولا قلةٍ ولا علَّةٍ ولا بلاءٍ . . نسيَ عذابَ الآخرةِ ، ولمْ يتمثَّلْ في نفسِهِ ، ولمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ .

فينبغي أنْ يكونَ العبدُ في مقاساةِ بلاءٍ أوْ مشاهدةِ بلاءٍ ، وأولىٰ ما يقاسيهِ مِنَ البلاءِ الجوعُ ؛ فإنَّ فيهِ فوائدَ جمَّةً سوىٰ تذكُّرِ عذابِ الآخرةِ ، وهٰذا أحدُ الأسبابِ الذي اقتضى اختصاصَ البلاءِ بالأنبياءِ والأولياءِ والأمثلِ فالأمثلِ .

ولذٰلكَ قيلَ ليوسفَ عليهِ السلامُ : لِمَ تجوعُ وفي يديكَ خزائنُ الأرضِ ؟ فقالَ : أخافُ أنْ أشبعَ فأنسى الجائعَ[3]

فذكْرُ الجائعينَ والمحتاجينَ إحدىٰ فوائدِ الجوعِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يدعو إلى الرحمةِ والإطعامِ ، والشفقةِ علىٰ خلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والشبعانُ في غفلةٍ عنْ ألمِ الجائعِ .

❀ ❀ ❀

الفائدةُ الخامسةُ ـ وهيَ مِنْ أكبرِ الفوائدِ ـ : كسرُ شهواتِ المعاصي كلِّها ، والاستيلاءُ على النفسِ الأمَّارةِ بالسوءِ :

---

(١) المُنَّةُ : القوَّة .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٧) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٣/٦) عن الحسن ، وهو عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨) عن وهب بن منبه .

وبالجملةِ : فالخلاصُ مِنَ الشيطانِ في لحظةٍ أوْ ساعةٍ غيرُ بعيدٍ ، ولـٰكنَّ الخلاصَ منه عمراً طويلاً بعيدٌ جدّاً ، وهوُ محالٌ في الوجودِ ، ولوْ تخلَّصَ أحدٌ مِنْ وساوسِ الشيطانِ بالخواطرِ وتهييجِ الرغبةِ . . لتخلَّصَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ نظرَ إلىٰ علمِ ثوبِهِ في الصلاةِ ، فلمَّا سلَّمَ . . رمىٰ بذٰلكَ الثوبِ وقالَ : « شغلَني عنِ الصلاةِ » وقالَ : « اذهبُوا بهِ إلىٰ أبي جهمٍ ، وأْتوني بأنبجانيّتِهِ »[1] ، وكانَ في يدِهِ خاتمٌ مِنْ ذهبٍ ، فنظرَ إليهِ وهوَ على المنبرِ ، ثمَّ رمىٰ بهِ وقالَ : « نظرةٌ إليهِ ونظرةٌ إليكُمْ »[2] ، وكانَ ذٰلكَ لوسوسةِ الشيطانِ بتحريكِ لذَّةِ النظرِ إلىٰ خاتمِ الذهبِ وعلمِ الثوبِ ، وكانَ ذٰلكَ قبلَ تحريمِ الذهبِ ، فلذٰلكَ لبسَهُ ثمَّ رمىٰ بهِ .

فلا تنقطعُ وسوسةُ عروضِ الدنيا ونقدِها إلا بالرمي والمفارقةِ ، فما دامَ يملكُ شيئاً وراءَ حاجتِهِ ولوْ ديناراً واحداً . . لا يدعُهُ الشيطانُ في صلاتِهِ مِنَ الوسوسةِ في الفكرِ في دينارِهِ ، وأنَّهُ كيفَ يحفظُهُ ، وفيماذا ينفقُهُ ، وكيفَ يخفيهِ حتَّىٰ لا يعلمَ بهِ أحدٌ ، أوْ كيفَ يُظهرُهُ حتَّىٰ يتباهىٰ بهِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الوساوسِ .

فمَنْ أنشبَ مخالبَهُ في الدنيا ، وطمعَ في أنْ يتخلَّصَ مِنَ الشيطانِ . . كانَ كمَنِ انغمسَ في العسلِ ، وظنَّ أنَّ الذبابَ لا يقعُ عليهِ ، فهو محالٌ ؛ فالدنيا بابٌ عظيمٌ لوساوسِ الشيطانِ ، وليسَ لهُ بابٌ واحدٌ ، بلْ أبوابٌ كثيرةٌ .

قالَ حكيمٌ مِنَ الحكماءِ : (الشيطانُ يأتي ابنَ آدمَ مِنْ قبلِ المعاصي ، فإنِ امتنعَ . . أتاهُ مِنْ وجهِ النصيحةِ ، حتىٰ يلقيَهُ في بدعةٍ ، فإنْ أبىٰ . . أمرَهُ بالتحرُّجِ والشدَّةِ ، حتَّىٰ يحرّمَ ما ليسَ بحرامٍ ، فإنْ أبىٰ . . شكَّكَهُ في وضوئِهِ وصلاتِهِ ، حتَّىٰ يخرجَهُ عنِ العلمِ ، فإنْ أبىٰ . . خفَّفَ عليهِ أعمالَ البرّ ، حتَّىٰ يراهُ الناسُ صابراً عفيفاً ، فتميلُ قلوبُهُمْ إليهِ ، فيُعجبُ بنفسِهِ ، وبهِ يهلكُهُ ، وعندَ ذٰلكَ يشتدُّ لجاجُهُ ؛ فإنَّها آخرُ درجةٍ ، ويعلمُ أنَّهُ لوْ جاوزَها . . أفلتَ منهُ إلى الجنةِ) .

* * *

(١) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/٦٢) بنحوه ، **والأنبجانية** : ضرب من نسيج الصوف الغليظ له .
(٢) رواه النسائي (١٩٤/٨) .

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاهدُوا أنفسَكُمْ بالجوعِ والعطشِ ؛ فإنَّ الأجرَ في ذٰلكَ »(١)

ولعلَّكَ تقولُ : هٰذا الفضلُ العظيمُ للجوعِ مِنْ أينَ هوَ ؟ وما سببُهُ وليسَ فيهِ إلا إيلامُ المعدةِ ومقاساةُ الأذىٰ ؟ فإنْ كانَ كذٰلكَ . . فينبغي أنْ يعظمَ الأجرُ في كلِّ ما يتأذَّىٰ بهِ الإنسانُ ؛ مِنْ ضربِهِ لنفسِهِ ، وقطعِهِ للحمِهِ ، وتناولِهِ الأشياءَ المكروهةَ ، وما يجري مجراهُ .

فاعلمْ : أنَّ هٰذا يضاهي قولَ مَنْ شربَ دواءً فانتفعَ بهِ فظنَّ أنَّ منفعتَهُ لمرارةِ الدواءِ وكراهيتِهِ ، فأخذَ يتناولُ كلَّ ما هوَ مكروهٌ مِنَ المذاقِ ، وهوَ غلطٌ ، بلْ نفعُهُ في خاصِّيَّةٍ مِنَ الدواءِ ، وليسَ لكونِهِ مرّاً ، وإنَّما يقفُ علىٰ تلكَ الخاصِّيَّةِ الأطباءُ ، فكذٰلكَ لا يقفُ علىٰ علَّةِ نفعِ الجوعِ إلا سماسرةُ العلماءِ .

ومَنْ جوَّعَ نفسَهُ مصدِّقاً لما جاءَ في الشرعِ مِنْ مدحِ الجوعِ . . انتفعَ بهِ وإنْ لمْ يعرفْ علَّةَ المنفعةِ ؛ كما أنَّ مَنْ شربَ الدواءَ . . انتفعَ وإنْ لمْ يعلمْ وجهَ كونِهِ نافعاً ، ولٰكنَّا نشرحُ لكَ ذٰلكَ إنْ أردتَ أنْ ترتقيَ مِنْ درجةِ الإيمانِ إلىٰ درجةِ العلمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ .

❁ ❁ ❁

فنقولُ : في الجوعِ عشرُ فوائدَ :

الفائدةُ الأولىٰ : صفاءُ القلبِ ، وإيقادُ القريحةِ ، وإنفاذُ البصيرةِ :

فإنَّ الشبعَ يورثُ البلادةَ ، ويعمي القلبَ ، ويكثرُ البخارَ في الدماغِ شبهَ السكْرِ ، حتَّىٰ يحتوي علىٰ معادنِ الفكرِ ، فيثقلُ القلبُ بسببِهِ عنِ الجريانِ في الأفكارِ ، وعنْ سرعةِ الإدراكِ ، بلِ الصبيُّ إذا أكثرَ الأكلَ . . بطلَ حفظُهُ ، وفسدَ ذهنُهُ ، وصارَ بطيءَ الفهمِ والإدراكِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (عليكَ بالجوعِ ؛ فإنَّهُ مذلَّةٌ للنفسِ ، ورقَّةٌ للقلبِ ، وهوَ يورثُ العلمَ السماويَّ)(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحيوا قلوبَكُمْ بقلَّةِ الضحكِ وقلَّةِ الشبعِ ، وطهِّروها بالجوعِ ؛ تصفو وترقُّ »(٣)

ويُقالُ : (مثلُ الجوعِ مثلُ الرعدِ ، والقناعةُ كالسحابِ ، والحكمةُ كالمطرِ)(٤)

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أجاعَ بطنَهُ . . عظمَتْ فكرتُهُ ، وفطنَ قلبُهُ »(٥)

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٣٨٦/٧) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٥) عن مكحول : (أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٠) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) دون قوله : (وقلة الشبع) ، أما بشأن الضحك . . فقد روى الترمذي (٢٣٠٥) ، وابن ماجه (٤١٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تكثروا الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

ومداخلِ الملكوتِ ، فينصرفُ العقلُ إلى التفكُّرِ فيما خطرَ لهُ ؛ ليعرفَ دقائقَ الخيرِ فيهِ ، ويطَّلعَ علىٰ أسرارِ فوائدِهِ ، فينكشفَ لهُ بنورِ البصيرةِ وجهُهُ ، فيحكمَ بأنَّهُ لا بدَّ مِنْ فعلِهِ ، فيستحثُّهُ عليهِ ، ويدعوَهُ إلى العملِ بهِ .

وينظرُ المَلَكُ إلى القلبِ فيجدُهُ طيّباً في جوهرِهِ ، طاهراً بتقواهُ ، مستنيراً بضياءِ العقلِ ، معموراً بأنوارِ المعرفةِ ، فيراهُ صالحاً لأنْ يكونَ مستقراً لهُ ومهبطاً ، فعندَ ذٰلكَ يمدُّهُ بجنودٍ لا تُرىٰ ، ويهديهِ إلىٰ خيراتٍ أخرىٰ ، حتَّىٰ ينجرَّ الخيرُ إلى الخيرِ ، وكذٰلكَ على الدوامِ ، ولا يتناهىٰ إمدادُهُ بالترغيبِ في الخيرِ ، وتيسيرِ الأمرِ عليهِ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

وفي مثلِ هـٰذا القلبِ يشرقُ نورُ المصباحِ مِنْ مشكاةِ الربوبيَّةِ ، حتَّىٰ لا يخفىٰ فيهِ الشركُ الخفيُّ الذي هوَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ[1] .

فلا يخفىٰ علىٰ هـٰذا النورِ خافيةٌ ، ولا يُروَّجُ عليهِ شيءٌ مِنْ مكايدِ الشيطانِ ، بلْ يقفُ الشيطانُ ويُوحي زخرفَ القولِ غروراً ، فلا يُلتفتُ إليهِ[2] .

وهـٰذا القلبُ بعدَ طهارتِهِ مِنَ المهلكاتِ يصيرُ على القرْبِ معموراً بالمنجياتِ التي سنذكرُها ؛ مِنَ الصبرِ ، والشكرِ ، والخوفِ ، والرجاءِ ، والفقرِ ، والزهدِ ، والمحبةِ ، والرضا ، والشوقِ ، والتوكُّلِ ، والتفكُّرِ ، والمحاسبةِ ، وغيرِ ذٰلكَ .

وهوَ القلبُ الذي أقبلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ بوجهِهِ[3] ، وهوَ القلبُ المطمئنُّ ، المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، وبقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .

❁ ❁ ❁

القلبُ الثاني : القلبُ المخذولُ المشحونُ بالهوى ، المدنَّسُ بالأخلاقِ المذمومةِ والخبائثِ ، المفتوحُ فيهِ أبوابُ الشياطينِ ، المسدودُ عنهُ أبوابُ الملائكةِ .

ومبدأُ الشرِّ فيهِ : أنْ ينقدحَ فيهِ خاطرٌ مِنَ الهوىٰ ، ويهجِسَ فيهِ ، فينظرُ القلبُ إلىٰ حاكمِ العقلِ ليستفتيَ فيهِ ويستكشفَ وجهَ الصوابِ ، فيكونُ العقلُ قدْ ألفَ خدمةَ الهوىٰ وأنسَ بهِ ، واستمرَّ على استنباطِ الحيلِ لهُ وعلىٰ مساعدةِ الهوىٰ ، فتستولي النفسُ وتساعدُ عليهِ ، فينشرحُ الصدرُ بالهوىٰ ، وتنبسطُ فيهِ ظلماتُهُ ؛ لانخناسِ جنْدِ العقلِ عنْ مدافعتِهِ ، فيقوىٰ سلطانُ الشيطانِ ؛ لاتِّساعِ مكانِهِ بسببِ انتشارِ الهوىٰ ، فيُقبلُ عليهِ بالتزيينِ والغرورِ والأمانيِّ ، ويُوحي

بالتقوىٰ ، فهو آخر المراتب جعله أولاً ، أو يكون المراد بعمارته بالتقوى : الاتقاء من الشرك المضاد للتوحيد ، ثم التزكية بالرياضة : هو أعمال الجوارح ، ثم التطهير عن الخبائث : هو انشراحه بنور اليقين حسبما قسم له . « إتحاف » (٣٠٣/٧) .

(١) كما روىٰ ذٰلك مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها الحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣٩٩) ، وروىٰ نحوه البخاري في « الأدب المفرد » (٧١٦) ، وهـٰذا هو وصف قلوب الصديقين .

(٢) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٥٥٤/٢) : (الشياطين يتعرضون للأنبياء عليهم السلام ، ولـٰكن لا سلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الجماعة) ، إلىٰ أن قال : (إذا أراد الله بعبده خيراً . . أمدَّه بنور التحقيق ، وأيده بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ، فلا يظلُّه غمام الريب ، وينجلي عنه غطاء الغفلة ، فلا تأثير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار ، وهـٰذا معنىٰ قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾) .

(٣) فسلبه عن أن يكون فيه مستكن لغيره . « إتحاف » (٣٠٤/٧) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (جوعُ الراغبينَ منبهةٌ ، وجوعُ التائبينَ تجرِبةٌ ، وجوعُ المجتهدينَ كرامةٌ ، وجوعُ الصابرينَ سياسةٌ ، وجوعُ الزاهدينَ حكمةٌ)[1]

وفي التوراةِ : (اتقِ اللهَ ، وإذا شبعتَ . . فاذكرِ الجياعَ) .

وقالَ أبو سليمانَ : (لأنْ أتركَ لقمةً مِنْ عشائي أحبُّ إليَّ مِنْ قيامِ ليلةٍ إلى الصبحِ)[2]

وقالَ أيضاً : (الجوعُ عندَ اللهِ في خزائنِهِ ، لا يعطيهِ إلا لمَنْ أحبَّهُ)[3]

وكانَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ يطوي نيفاً وعشرينَ يوماً لا يأكلُ ، وكانَ يكفيهِ لطعامِهِ في السنةِ درهمٌ ، وكانَ يعظِّمُ الجوعَ ويبالغُ فيهِ ، حتَّىٰ قالَ : (لا يوافي القيامةَ عملُ برٍّ أفضلُ مِنْ تركِ فضولِ الطعامِ ، والاقتداءِ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أكلِهِ)[4]

وقالَ : (لمْ يرَ الأكياسُ شيئاً أنفعَ مِنَ الجوعِ للدنيا والدينِ) .

وقالَ : (لا أعلمُ شيئاً أضرَّ علىٰ طلابِ الآخرةِ مِنَ الأكلِ) .

وقالَ : (وُضعَتِ الحكمةُ والعلمُ في الجوعِ ، ووُضعَتِ المعصيةُ والجهلُ في الشبعِ)[5]

وقالَ : (ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ مِنْ مخالفةِ الهوىٰ في تركِ الحلالِ ، وقد جاءَ في الحديثِ : « ثلثٌ للطعامِ » ، فمَنْ زادَ عليهِ . . فإنَّما يأكلُ مِنْ حسناتِهِ) .

وسُئِلَ عنِ الزيادةِ ، فقالَ : (لا يجدُ الزيادةَ حتَّىٰ يكونَ التركُ أحبَّ إليهِ مِنَ الأكلِ ، ويكونَ إذا جاعَ ليلةً . . سألَ اللهَ أنْ يجعلَها ليلتينِ ، فإذا كانَ ذٰلكَ . . وجدَ الزيادةَ) .

وقالَ : (ما صارَ الأبدالُ أبدالاً إلا بإخماصِ البطونِ ، والصمتِ والسهرِ والخلوةِ)[6]

وقالَ : (رأسُ كلِّ برٍّ مُنزلٍ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ الجوعُ ، ورأسُ كلِّ فجورٍ بينَهُما الشبعُ)[7]

وقالَ : (مَنْ جوَّعَ نفسَهُ . . انقطعَتْ عنهُ الوساوسُ)[8]

وقالَ : (إقبالُ اللهِ عزَّ وجلَّ على العبدِ بالجوعِ والسقمِ والبلاءِ إلا مَنْ شاءَ اللهُ)[9] .

وقالَ : (اعلموا أنَّ هٰذا زمانٌ لا ينالُ أحدٌ فيهِ النجاةَ إلا بذبحِ نفسِهِ وقتلِها بالجوعِ والصبرِ والجهدِ)[10]

---

(١) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٢٦٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥٩) عنه بنحوه .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٩/٣٤) .
(٣) هو عند الطوسي في « اللمع » (ص ٢٦٩) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٨/٩) .
(٤) هو ضمن خبر أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٥) .
(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٥٩) .
(٦) قوت القلوب (٩٥/١) .
(٧) روىٰ بعضه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٩٣) عن يوسف بن أسباط ، وبعضه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) عن سهل رحمه الله تعالىٰ .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٧) بلفظ : (من جوع نفسه . . لم يقربه الشيطان بإذن الله عز وجل) .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .
(١٠) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠١/١٠) .

أما ترى العالِمَ الفلانيَّ ليسَ يحترزُ مِنْ مثلِ ذٰلكَ ولوْ كانَ ذٰلكَ شرّاً . . لامتنعَ منهُ ؟

فتميلُ النفسُ إلى الشيطانِ ، وتنقلبُ إليهِ ، فيحملُ المَلَكُ حملةً على الشيطانِ ويقولُ : هلْ هلكَ إلا مَنِ اتبعَ لذَّةَ الحالِ ونسيَ العاقبةَ ؟ أفتقنعُ بلذَّةٍ يسيرةٍ وتتركُ لذَّةَ الجنةِ ونعيمَها أبدَ الآبادِ ؟

أمْ تستثقلُ ألمَ الصبرِ عنْ شهوتِكَ ولا تستثقلُ ألمَ النارِ ؟

أتغترُّ بغفلةِ الناسِ عنْ أنفسِهِمْ واتباعِهِمْ هواهُمْ ومساعدتِهِمُ الشيطانَ معَ أنَّ عذابَ النارِ لا يخفِّفُهُ عنكَ معصيةُ غيرِكَ ؟

أرأيتَ لوْ كنتَ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرِّ ووقفَ الناسُ كلُّهُمْ في الشمسِ ، وكانَ لكَ بيتٌ باردٌ . . أكنتَ تساعدُ الناسَ أوْ تطلبُ لنفسِكَ الخلاصَ ؟ فكيفَ تخالفُ الناسَ خوفاً مِنْ حرِّ الشمسِ ولا تخالفُهُمْ خوفاً مِنْ حرِّ النارِ ؟!

فعندَ ذاكَ تمتثِلُ النفسُ إلىٰ قولِ المَلَكِ ، فلا يزالُ يتردَّدُ بينَ الجندينِ ، متجاذَباً بينَ الحزبينِ . . إلىٰ أنْ يغلبَ على القلبِ ما هوَ أولىٰ بهِ .

فإنْ كانَتِ الصفاتُ التي في القلبِ الغالبُ عليها الصفاتُ الشيطانيَّةُ التي ذكرناها . . غلبَ الشيطانُ ، ومالَ القلبُ إلىٰ جنسِهِ مِنْ أحزابِ الشيطانِ ، معرضاً عنْ حزبِ اللهِ تعالىٰ وأوليائِهِ ، ومساعداً لحزبِ الشيطانِ وأعدائِهِ ، وجرىٰ علىٰ جوارحِهِ بسابقِ القدرِ ما هوَ سببُ بعدِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وإنْ كانَ الأغلبُ على القلبِ الصفاتِ الملكيَّةَ . . لمْ يصغِ القلبُ إلىٰ إغواءِ الشيطانِ وتحريضِهِ إيَّاهُ على العاجلةِ ، وتهوينِهِ أمرَ الآخرةِ ، بلْ مالَ إلىٰ حزبِ اللهِ تعالىٰ ، وظهرَتِ الطاعةُ بموجَبِ ما سبقَ مِنَ القضاءِ علىٰ جوارحِهِ .

فقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ ؛ أيْ : بينَ تجاذبِ هٰذينِ الجندينِ ، وهوَ الغالبُ ؛ أعني : التقلُّبَ والانتقالَ مِنْ حزبٍ إلىٰ حزبٍ ، أمَّا الثباتُ على الدوامِ معَ حزبِ الملائكةِ ، أوْ معَ حزبِ الشيطانِ . . فنادرٌ مِنَ الجانبينِ .

وهٰذهِ الطاعاتُ والمعاصي تظهرُ مِنْ خزائنِ الغيبِ إلىٰ عالمِ الشهادةِ بواسطةِ خزانةِ القلبِ ؛ فإنَّهُ مِنْ خزائنِ الملكوتِ ، وهيَ أيضاً إذا ظهرَتْ . . كانَتْ علاماتٍ تعرِّفُ أربابَ القلوبِ سابقَ القضاءِ ، فمَنْ خُلِقَ للجنَّةِ . . يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ الطاعاتِ ، ومَنْ خُلِقَ للنارِ يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ المعاصي ، وسُلِّطَ عليهِ أقرانُ السوءِ ، وأُلقيَ في قلبِهِ حِكَمُ الشيطانِ ؛ فإنَّهُ بأنواعِ الحكمِ يغرُّ الحمقىٰ بقولِهِ : (إنَّ اللهَ رحيمٌ ، فلا تبالِ ، وإنَّ الناسَ كلَّهُمْ ما يخافونَ اللهَ ، فلا تخالفْهُمْ ، وإنَّ العمرَ طويلٌ ، فاصبرْ حتَّىٰ تتوبَ غداً) ، يعدُهُمْ ويمنِّيهِمْ ، وما يعدُهُمُ الشيطانُ إلا غروراً ، يعدُهُمُ التوبةَ ، ويمنِّيهِمُ المغفرةَ ، فيهلكُهُمْ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بهٰذهِ الحيلِ وما يُجرىٰ مَجراها ، فيوسِّعُ قلبَهُ لقبولِ الغرورِ ، ويضيِّقُهُ عنْ قبولِ الحقِّ .

وكلُّ ذٰلكَ بقضاءٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وقدرٍ ، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾

فهوَ الهادي والمضلُّ ، يفعلُ ما يشاءُ ، ويحكمُ ما يريدُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، خلقَ الجنَّةَ ، وخلقَ لها أهلاً ، فاستعملَهُمْ بالطاعةِ ، وخلقَ النارَ ، وخلقَ لها أهلاً ، فاستعملَهُمْ بالمعاصي .

ولأجلِهِ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ يبغضُ القارئَ السمينَ مِنَ الشبعِ)[١]

وفي خبرٍ مرسلٍ : « إنَّ الشيطانَ ليجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدَّمِ ، فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ والعطشِ »[٢]

وفي الخبرِ : (إنَّ الأكلَ على الشبعِ يورثُ البرصَ)[٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يأكلُ في مِعىً واحدٍ ، والمنافقُ يأكلُ في سبعةِ أمعاءٍ »[٤] ، أيْ : يأكلُ سبعةَ أضعافِ ما يأكلُ المؤمنُ ، أوْ تكونُ شهوتُهُ سبعةَ أضعافِ شهوتِهِ ، وذكرُ المعاءِ كنايةٌ عنِ الشهوةِ ؛ لأنَّ الشهوةَ هيَ التي تقبلُ الطعامَ وتأخذُهُ كما يأخذُهُ المِعَىٰ ، وليسَ المعنىٰ زيادةَ عددِ مِعَى المنافقِ علىٰ مِعَى المؤمنِ .

وروى الحسنُ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « أديموا قرْعَ بابِ الجنَّةِ . . يُفتحْ لكُمْ » ، قلتُ : وكيفَ نديمُ قرْعَ بابِ الجنةِ ؟ قالَ : « بالجوعِ والظمأ »[٥]

ورُوِيَ أنَّ أبا جُحَيْفَةَ تجشَّأَ في مجلسِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ : « أقصرْ مِنْ جُشائِكَ ؛ فإنَّ أطولَ الناسِ جوعاً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ شبعاً في الدنيا »[٦]

وكانَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تقولُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يمتلئْ قطُّ شبعاً ، وربَّما بكيتُ رحمةً لهُ ممَّا أرىٰ بهِ مِنَ الجوعِ ، فأمسحُ بطنَهُ بيدي ، وأقولُ : نفسي لكَ الفداءُ ، لوْ تبلَّغْتَ مِن الدنيا بقدْرِ ما يقوتُكَ ويمنعُكَ مِنَ الجوعِ ؟ فيقولُ : « يا عائشةُ ؛ إخواني مِنْ أولي العزْمِ مِنَ الرسلِ قدْ صبروا علىٰ ما هوَ أشدُّ مِنْ هـٰذا ، فمضوا علىٰ حالِهِمْ ، فقدموا علىٰ ربِّهِمْ ، فأكرمَ مآبَهُمْ ، وأجزلَ ثوابَهُمْ ، فأجدُني أستحيي إنْ ترفَّهْتُ في معيشتي أنْ يقصُرَ بي غداً دونَهُمْ ، فالصبرُ أياماً يسيرةً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ينقصَ حظِّي غداً في الآخرةِ ، وما مِنْ شيءٍ أحبَّ إليَّ مِنَ اللحوقِ بأصحابي وإخواني » ، قالَتْ عائشةُ : فواللهِ ؛ ما استكملَ بعدَ ذٰلكَ جمعةً حتَّىٰ قبضَهُ اللهُ إليهِ[٧]

وعنْ أنسٍ قالَ : جاءَتْ فاطمةُ رضوانُ اللهِ عليها بكسرةِ خبزٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « ما هـٰذهِ الكسرةُ ؟ » قالَتْ : قرصٌ خبزتُهُ ، ولمْ تطبْ نفسي حتَّىٰ أتيتُكَ منهُ بهـٰذهِ الكسرةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنَّهُ أوَّلُ طعامٍ دخلَ فمَ أبيكِ منذُ ثلاثةِ أيامٍ »[٨]

---

(١) قوت القلوب (١٦٨/٢) .

(٢) قوت القلوب (١٦٨/٢) ، وهو من مرسلات الحسن كما هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٣) والشطر الأول منه رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) مرفوعاً .

(٣) قوت القلوب (١٦٨/٢) ، وكل من المصنف وأبي طالب رحمهما الله تعالىٰ لم يرفعه .

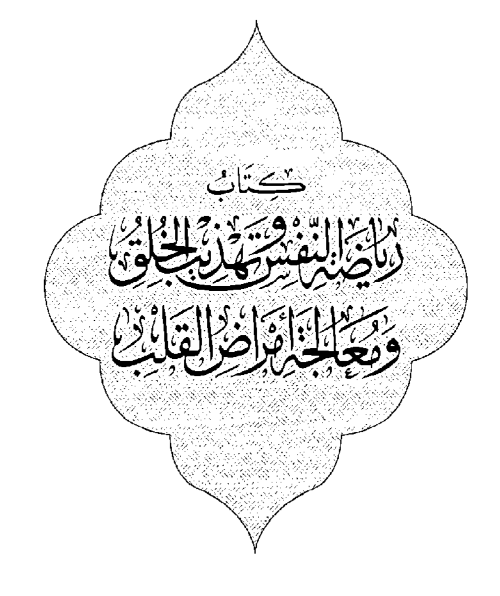
(٤) رواه البخاري (٥٣٩٣) ، ومسلم (٢٠٦٠) .

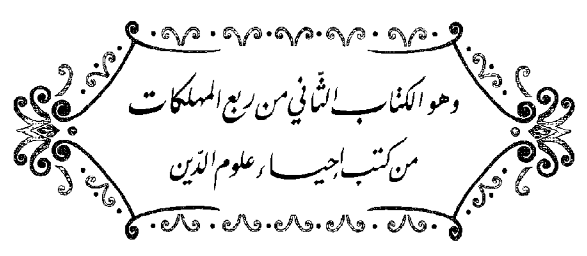
(٥) قوت القلوب (١٧١/٢) .

(٦) رواه الترمذي (٢٤٧٨) ، وابن ماجه (٢٣٥٠) عن ابن عمر يذكر رجلاً ، ورواه عن أبي جحيفة الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٥٤) .

(٧) كذا أورده القاضي عياض في « الشفا » (ص ١٨٧) بنحوه ، وقد روى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٥٨٣) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٨٠٦) عنها قالت : ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، قال : « يا عائشة ؛ إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ؛ إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر علىٰ مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ، ولا قوة إلا بالله » .

(٨) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٣٤٤/١) ، وأحمد في « المسند » (٢١٣/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٤٥) .


كتاب
رياضة النفس وتهذيب الخلق
ومعالجة أمراض القلب


وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاهدوا أنفسَكُمْ بالجوعِ والعطشِ ؛ فإنَّ الأجرَ في ذٰلكَ كأجرِ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ ، وإنَّهُ ليسَ مِنْ عملٍ أحبَّ إلى اللهِ مِنْ جوعٍ وعطشٍ »(١)

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ ملكوتَ السماءِ مَنْ ملأَ بطنَهُ »(٢)

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الناسِ أفضلُ ؟ قالَ : « مَنْ قلَّ مطعمُهُ وضحكُهُ ، ورضيَ بما يستُرُ بهِ عورتَهُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيِّدُ الأعمالِ الجوعُ ، وذلُّ النَّفسِ لباسُ الصوفِ »(٤)

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البسوا وكلوا واشربوا في أنصافِ البطونِ ؛ فإنَّهُ جزءٌ مِنَ النبوَّةِ »(٥)

وقالَ الحسنُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الفكرُ نصفُ العبادةِ ، وقلَّةُ الطعامِ هيَ العبادةُ »(٦)

وقالَ الحسنُ أيضاً : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُكُمْ عندَ اللهِ منزلةً يومَ القيامةِ أطولُكُمْ جوعاً وتفكُّراً في اللهِ سبحانَهُ ، وأبغضُكُمْ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ كلُّ نؤُومٍ أكولٍ شروبٍ »(٧)

وفي الخبرِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يجوعُ مِنْ غيرِ عوزٍ ؛ أيْ : مختاراً لذٰلكَ(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يباهي الملائكةَ بمَنْ قلَّ مطعمُهُ ومشربُهُ في الدنيا ، يقولُ اللهُ تعالى : انظروا إلىٰ عبدي ، ابتليتُهُ بالطعامِ والشرابِ في الدنيا ، فصبرَ وتركَهُما ، اشهدوا يا ملائكتي ؛ ما مِنْ أكلةٍ يدعُها إلا أبدلتُهُ بها درجاتٍ في الجنةِ »(٩)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تميتوا القلوبَ بكثرةِ الطعامِ والشَّرابِ ؛ فإنَّ القلبَ كالزرعِ يموتُ إذا كثرَ عليهِ الماءُ »(١٠)

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٣٨٦/٧) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٥) عن مكحول قال : (أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (٢٣٥٠) عن الحسن مرسلاً ، وأورده عن ابن عباس مرفوعاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

(٣) كذا أورده عقب الحديث السابق الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

(٤) أورده عن مكحول مرسلاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وفيه : « . . . وذل النفس ، ولباس الصوف » .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو عند صاحب « القوت » (١٦٧/٢) من حديث الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٧) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٨) ولفظ الخبر عند أبي طالب في « القوت » (٩٧/١) : (وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجوعون من غير إعواز ؛ أي : مختارين) ، وهو معنىٰ قولها رضي الله عنها كما رواه عنها البيهقي في « الشعب » (٥٢٥٢) : (لو شئنا أن نشبع . . شبعنا ، ولٰكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يوثر علىٰ نفسه) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٠/١) عن ابن سيرين : أن رجلاً قال لابن عمر : أجعل لك جوارش ؟ قال : وأي شيءٍ الجوارش ؟ قال : شيء إذا كظَّك الطعام فأصبت منه . . سهل عليك ، قال : فقال ابن عمر : ما شبعت من الطعام منذ أربعة أشهر ، وما ذاك ألا أكون له واجداً ، ولٰكني عهدت قوماً يشبعون مرة ، ويجوعون أخرىٰ .

(٩) رواه ابن عدي في « الكامل » . « إتحاف » (٣٨٧/٧) .

(١٠) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٣٨٧/٧) .

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي صرَّفَ الأمورَ بتدبيرِهِ ، وعدَّلَ تركيبَ الخلقِ فأحسنَ في تصويرِهِ ، وزيَّنَ صورةَ الإنسانِ بحسْنِ تقويمِهِ وتقديرِهِ ، وحرسَهُ مِنَ الزيادةِ والنقصانِ في شكْلِهِ ومقاديرِهِ ، وفوَّضَ تحسينَ الأخلاقِ إلى اجتهادِ العبدِ وتشميرِهِ ، واستحثَّهُ علىٰ تهذيبِها بتخويفِهِ وتحذيرِهِ ، وسهَّلَ علىٰ خواصِّ عبادِهِ تهذيبَ الأخلاقِ بتوفيقِهِ وتيسيرِهِ ، وامتنَّ عليهِمْ بتسهيلِ صعبِهِ وعسيرِهِ .

والصلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ عبدِ اللهِ ونبيِّهِ وحبيبِهِ وصفيِّهِ وبشيرِهِ ونذيرِهِ ، الذي كانَ يلوحُ نورُ النبوَّةِ مِنْ بينِ أساريرِهِ ، وتُستشفُّ حقيقةُ الحقِّ مِنْ مخايلِهِ وتباشيرِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ طهَّروا وجْهَ الإسلامِ منْ ظلمةِ الكفرِ ودياجيرِهِ ، وحسموا مادَّةَ الباطلِ فلمْ يتدنَّسوا بقليلِهِ ولا بكثيرِهِ .

أما بعد :

فالخُلُقُ الحسنُ صفةُ سيِّدِ المرسلينَ ، وأفضلُ أعمالِ الصِّدِّيقينَ ، وهوَ على التحقيقِ شطْرُ الدينِ[1] ، وثمرةُ مجاهدةِ المتقينَ ، ورياضةُ المتعبدينَ .

والأخلاقُ السيئةُ هيَ السمومُ القاتلةُ والمهلكاتُ الدامغةُ ، والمخازي الفاضحةُ ، والرذائلُ الواضحةُ ، والخبائثُ المبعدةُ عنْ جوارِ ربِّ العالمينَ ، المنخرطةُ بصاحبِها في سلْكِ الشياطينِ ، وهيَ الأبوابُ المفتوحةُ إلىٰ نارِ اللهِ الموقدةِ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ ، كما أنَّ الأخلاقَ الجميلةَ هيَ الأبوابُ المفتوحةُ مِنَ القلبِ إلىٰ نعيمِ الجنانِ وجوارِ الرحمٰنِ .

والأخلاقُ الخبيثةُ أمراضُ القلوبِ ، وأسقامُ النفوسِ ، إلا أنَّهُ مرضٌ يفوِّتُ حياةَ الأبدِ ، وأينَ منهُ المرضُ الذي لا يفوِّتُ إلا حياةَ الجسدِ ؟!

ومهما اشتدَّتْ عنايةُ الأطباءِ بضبطِ قوانينِ العلاجِ لأمراضِ الأبدانِ وليسَ في مرضِها إلا فوتُ الحياةِ الفانيةِ . . فالعنايةُ بضبطِ قوانينِ العلاجِ لأمراضِ القلوبِ وفي مرضِها فوتُ حياةٍ باقيةٍ أولىٰ ، وهٰذا النوعُ مِنَ الطبِّ واجبٌ تعلُّمُهُ علىٰ كلِّ ذي لبٍّ[2] ؛ إذْ لا يخلو قلبٌ مِنَ القلوبِ عنْ أسقامٍ لوْ أُهملَتْ . . تراكمَتْ ، وترادفَتِ العللُ وتظاهرَتْ ، فيحتاجُ العبدُ إلىٰ تأنُّقٍ في معرفةِ عللِها وأسبابِها ، ثمَّ إلىٰ تشميرٍ في معالجتِها وإصلاحِها ، فمعالجتُها هوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ وإهمالُها هوَ المرادُ بقولِهِ : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ .

ونحنُ نشيرُ في هٰذا الكتابِ إلىٰ جملٍ مِنْ أمراضِ القلوبِ ، وكيفيةِ القولِ في معالجتِها على الجملةِ ، مِنْ غيرِ

(١) وقد روى العقيلي في « الضعفاء » (٣٦٦/٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٧١٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « حسن الخلق نصف الدين » .

(٢) وهٰذا هو طب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أرسلهم الله تعالىٰ لتعليم الأمم كيف يجعلون القلب في كور المجاهدة ، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة ، وكيف يوردونه طريق الصفاء . « إتحاف » (٣١٧/٧) .

كتاب كسر الشهوتين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المنفردِ بالجلالِ في كبريائِهِ وتعاليهِ ، المستحقِّ للتحميدِ والتقديسِ والتسبيحِ والتنزيهِ ، القائمِ بالعدْلِ فيما يبرمُهُ ويقضيهِ ، المتطوِّلِ بالفضْلِ فيما ينعمُ بهِ ويسديهِ ، المتكفِّلِ بحفْظِ عبدِهِ في جميعِ مواردِهِ ومجاريهِ ، المنعمِ عليهِ بما يزيدُ علىٰ مهمَّاتِ مقاصدِهِ بلْ بما يفي بأمانيهِ ، فهوَ الذي يرشدُهُ ويهديهِ ، وهوَ الذي يميتُهُ ويحييهِ ، وإذا مرضَ . . فهوَ يشفيهِ ، وإذا ضعُفَ . . فهوَ يقوّيهِ ، وهوَ الذي يوفِّقُهُ للطاعةِ ويرتضيهِ ، وهوَ الذي يطعمُهُ ويسقيهِ ، ويحفظُهُ مِنَ الهلاكِ ويحميهِ ، ويحرسُهُ بالطعامِ والشرابِ عمَّا يهلكُهُ ويرديهِ ، ويمكِّنُهُ مِنَ القناعةِ بقليلِ القوتِ ويقوّيهِ ، حتَّىٰ تضيّقَ بهِ مجاريَ الشيطانِ الذي يناويهِ[1] ، ويكسرُ بهِ سطوةَ النفسِ التي تعاديهِ ، فيدفعُ شرَّها ثمَّ يعبدُ ربَّهُ ويتَّقيهِ ، هٰذا بعدَ أنْ يوسِّعَ عليهِ ما يلتذُّ بهِ ويشتهيهِ ، ويكثِّرَ عليهِ ما يهيِّجُ بواعثَهُ ويؤكِّدُ دواعيهِ[2] ، كلُّ ذٰلكَ يمتحنُهُ بهِ ويبتليهِ ، فينظرُ كيفَ يؤثرُهُ علىٰ ما يهواهُ وينتحيهِ ، وكيفَ يحفظُ أوامرَهُ وينتهي عنْ نواهيهِ ، ويواظبُ علىٰ طاعتِهِ وينزجرُ عنْ معاصيهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ عبدِهِ النبيهِ ، ورسولِهِ الوجيهِ ، صلاةً تزلفُهُ وتحظيهِ ، وترفعُ منزلتَهُ وتعليهِ ، وعلى الأبرارِ مِنْ عترتِهِ وأقربيهِ ، والأخيارِ مِنْ صحابتِهِ وتابعيهِ .

أما بعد :

فأعظمُ المهلكاتِ لابنِ آدمَ شهوةُ البطنِ ، فبها أُخرجَ آدمُ وحواءُ مِنْ دارِ القرارِ إلىٰ دارِ الذلِّ والافتقارِ ؛ إذْ نُهيا عنِ الشجرةِ ، فغلبَتْهُما شهواتُهما ، حتَّىٰ أكلا منها فبدَتْ لهما سوءَاتُهما .

والبطنُ على التحقيقِ ينبوعُ الشهواتِ ، ومنبتُ الأدواءِ والآفاتِ ؛ إذْ تتبعُها شهوةُ الفرجِ وشدَّةُ الشبقِ إلى المنكوحاتِ ، ثمَّ يتبعُ شهوةَ الطعامِ والنكاحِ شدَّةُ الرغبةِ في المالِ والجاهِ اللذينِ هما الوسيلةُ إلى التوسُّعِ في المطعوماتِ والمنكوحاتِ ، ثمَّ يتبعُ استكثارَ المالِ والجاهِ أنواعُ الرعوناتِ ، وضروبُ المنافساتِ والمحاسداتِ ، ثمَّ يتولَّدُ بينَهُما آفةُ الرياءِ ، وغائلةُ التفاخرِ والتكاثرِ والكبرياءِ ، ثمَّ يتداعىٰ ذٰلكَ إلى الحسدِ والحقدِ ، والعداوةِ والبغضاءِ ، ثمَّ يفضي ذٰلكَ بصاحبِهِ إلى اقتحامِ البغيِ والمنكرِ والفحشاءِ ، وكلُّ ذٰلكَ ثمرةُ إهمالِ المعدةِ ، وما يتولَّدُ منها مِنْ بطرِ الشبعِ والامتلاءِ .

ولوْ ذلَّلَ العبدُ نفسَهُ بالجوعِ ، وضيَّقَ بهِ مجاريَ الشيطانِ . . لأذعنَتْ لطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ تسلكْ سبيلَ البطرِ والطغيانِ ، ولمْ ينجرَّ بهِ ذٰلكَ إلى الانهماكِ في الدنيا ، وإيثارِ العاجلةِ على العقبىٰ ، ولمْ يتكالبْ كلَّ هٰذا التكالبِ على الدنيا .

---

(١) أي : حتىٰ تضيق القناعة بقليل القوت مجاري الشيطان .

(٢) مراعاة للسجعة ، وهي لغة أيضاً ، والأصل : (دواعيَهُ) .

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيّهِ وحبيبهِ مثنياً عليهِ ومظهراً نعمتَهُ لديهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خلقُهُ القرآنَ)[1]

وسألَ رجلٌ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ حسنِ الخلقِ فتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ أنْ تصلَ مَنْ قطعَكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمَكَ ، وتعفوَ عمَّنْ ظلمَكَ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أثقلُ ما يُوضعُ في الميزانِ يومَ القيامةِ تقوى اللهِ وحسنُ الخلقِ »[4]

وجاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ بينِ يديهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ قالَ : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ قبلِ يمينِهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ قال : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ قبلِ شمالِهِ ، فقالَ يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ فقالَ : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ ورائِهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ فالتفتَ إليهِ وقال : « أمَا تفقَهُ ؟! هوَ ألا تغضبَ »[5]

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الشؤمُ ؟ قالَ : « سوءُ الخلُقِ »[6]

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، فقالَ : « اتقِ اللهَ حيثُ كنتَ » ، قالَ : زدْني ، قالَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها » ، قالَ : زدْني ، قالَ : « خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ »[7]

وسُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « حسنُ الخلقِ »[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حسَّنَ اللهُ خَلْقَ عبدٍ وخُلُقَهُ فيطعمَهُ النارَ »[9]

وقالَ الفضيلُ : قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ وهيَ سيئةُ الخلقِ ، تؤذي جيرانَها بلسانِها ، قالَ : « لا خيرَ فيها ، هيَ مِنْ أهلِ النارِ »[10]

---

(١) هو جزء من حديث طويل رواه مسلم (٧٤٦) ، وأبو داوود (١٣٤٢) ، وأحمد في « المسند » (٦/٩١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/٢٣١٠) من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، ورواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) عن أُمَيّ الصيرفي .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٦١٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩٢) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٥) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٥٢٥) ، والخرائطي أخصر منه في « مساوئ الأخلاق » (٣٥٤) عن أبي العلاء بن الشخير مرسلاً .

(٦) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، وعند أحمد في « المسند » (٦/٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الشؤم سوء الخلق » .

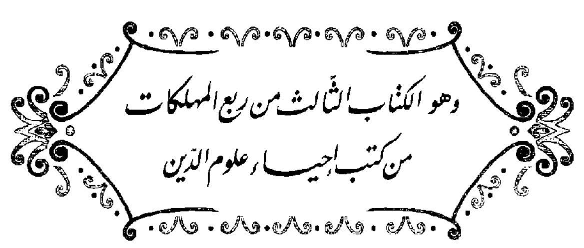
(٧) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/١٤٥) ، والمستوصي هو معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقريب منه عند الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه دون ذكر الاستيصاء .

(٨) رواه الطبراني في « الكبير » (١/١٨٠) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه .

(٩) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٧٧٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/٨٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٨) .

(١٠) رواه أحمد في « المسند » (٢/٤٤٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٩) .

كتاب كسر الشهوتين


وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كرمُ المرْءِ دينُهُ ، ومروءتُهُ عقلُهُ ، وحَسَبُهُ خلقُهُ »(١)

وعنْ أسامةَ بنِ شريكٍ قالَ : شهدتُ الأعاريبَ يسألونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : ما خيرُ ما أُعطيَ العبدُ ؟ قالَ : « خلُقٌ حسنٌ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّكُمْ إليَّ وأقربَكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ أحاسنُكُمْ أخلاقاً »(٣)

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ لمْ تكنْ فيهِ أوْ واحدةٌ منهُنَّ فلا تعتدُّنَّ بشيءٍ مِنْ عملِهِ : تقوىً تحجزُهُ عَنْ معاصي اللهِ ، أوْ حِلمٌ يكُفُّ بهِ السّفيهَ ، أوْ خلقٌ يعيشُ بهِ في الناسِ »(٤) .

وكانَ مِنْ دعائِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في افتتاحِ الصلاةِ : « اللهمَّ ؛ اهدني لأحسنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنتَ »(٥)

وقالَ أنسٌ : « بينما نحنُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً إذْ قالَ : « إنَّ حسنَ الخلقِ ليذيبُ الخطيئةَ كما تذيبُ الشمسُ الجليدَ »(٦)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ سعادةِ المرءِ حسنُ الخلُقِ »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليُمْنُ حسْنُ الخلُقِ »(٨)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لأبي ذرٍّ : « يا أبا ذرٍّ ؛ لا عقلَ كالتدبيرِ ، ولا حسَبَ كحسنِ الخلقِ »(٩)

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَتْ أمُّ حبيبةَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرأيتَ المرأةَ منَّا يكونُ لها زوجانِ في الدنيا ، فتموتُ ويموتانِ ، ويدخلونَ الجنَّةَ ، لأيِّهما هيَ ؟ قالَ : « لأحسنِهما خُلُقاً كانَ عندَها في الدنيا ، يا أمَّ حبيبةَ ؛ ذهبَ حسْنُ الخلقِ بخيري الدنيا والآخرةِ »(١٠)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المسلمَ المسدَّدَ ليدركُ درجةَ الصائمِ القائمِ بحسْنِ خلقِهِ وكرمِ ضريبتِهِ »(١١) ، وفي روايةٍ : « درجةَ الظمآنِ في الهواجرِ »(١٢)

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣٦٥/٢) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٨٣) ، والحاكم في « المستدرك » (١٢٣/١) ، وفي (ب) : (كرم المؤمن دينه . . .) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٣٦) ضمن خبر ، وكما أورده المصنف رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٤) .

(٣) رواه الترمذي (٢٠١٨) ضمن خبر ، وكما أورده المصنف رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٧/٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٥) رواه مسلم (٧٧١) .

(٦) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤١) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٧) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٩) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٨) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٩) رواه ابن ماجه (٤٢١٨) .

(١٠) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (١٢١٣) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢٢/٢٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧١/٥) .

(١١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٣ ، ٦٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، والضريبة : الطبيعة .

(١٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وإذا انكشفَ للمريدِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ . . فأعظمُ القواطعِ عليهِ أنْ يتكلَّمَ بهِ وعظاً ونصحاً ، ويتصدَّىٰ للتذكيرِ ، فتجدُ النفسُ فيهِ لذَّةً ليسَ وراءَها لذةٌ ، فتدعوهُ تلكَ اللذَّةُ إلىٰ أنْ يتفكَّرَ في كيفيَّةِ إيرادِ تلكَ المعاني ، وتحسينِ الألفاظِ المعبِّرةِ عنها ، وترتيبِ ذكرِها ، وتزيينِها بالحكاياتِ وشواهدِ القرآنِ والأخبارِ ، وتحسينِ صيغةِ الكلامِ ؛ لتميلَ إليهِ القلوبُ والأسماعُ .

والشيطانُ ربَّما يخيِّلُ إليه أنَّ هٰذا إحياءٌ منكَ لقلوبِ الموتى الغافلينَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما أنتَ واسطةٌ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ وبينَ الخلقِ ، تدعو عبادَهُ إليهِ ، وما لكَ فيهِ نصيبٌ ، ولا لنفسِكَ فيهِ لذَّةٌ .

ويتَّضحُ كيدُ الشيطانِ بأنْ يظهرَ في أقرانِهِ مَنْ يكونُ أحسنَ كلاماً منهُ ، وأجزلَ لفظاً ، وأقدرَ على استجلابِ قلوبِ العوامِّ ؛ فإنَّهُ يتحرَّكُ في باطنِهِ عقربُ الحسدِ ـ لا محالةَ ـ إنْ كانَ محرِّكُهُ لذَّةَ القبولِ ، وإنْ كانَ محرِّكُهُ هوَ الحقَّ حرصاً علىٰ دعوةِ عبادِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ صراطِهِ المستقيمِ . . فيعظمُ به فرحُهُ ، ويقولُ : (الحمدُ للهِ الذي عضدني وأيَّدَني بمَنْ وازرَني علىٰ إصلاحِ عبادِهِ) ؛ كالذي وجبَ عليهِ مثلاً أنْ يحملَ ميِّتاً ليدفنَهُ إذْ وجدَهُ ضائعاً ، وتعيَّنَ عليهِ ذٰلكَ شرعاً ، فجاءَ مَنْ أعانَهُ عليهِ ، فإنَّهُ يفرحُ بهِ ، ولا يحسدُ معينَهُ ، والغافلونَ موتى القلوبِ ، والوعَّاظُ هُمُ المنبِّهونَ والمحيونَ لهُمْ ، ففي كثرتِهِمْ استرواحٌ وتناصرٌ ، فينبغي أنْ يعظمَ الفرحُ بذٰلكَ ، وهٰذا عزيزُ الوجودِ جدّاً ، فينبغي أنْ يكونَ المريدُ علىٰ حذرٍ منهُ ؛ فإنَّهُ أعظمُ حبائلِ الشيطانِ في قطعِ الطريقِ علىٰ مَنِ انفتحَتْ لهُ أوائلُ الطريقِ ، فإنَّ إيثارَ الحياةِ الدنيا طبعٌ غالبٌ على الإنسانِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الشرَّ قديمٌ في الطباعِ ، وأنَّ ذٰلكَ مذكورٌ في الكتبِ السالفةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

فهٰذا منهاجُ رياضةِ المريدِ وتربيتِهِ في التدريجِ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا تفصيلُ الرياضةِ في كلِّ صفةٍ . . فسيأتي ؛ فإنَّ أغلبَ الصفاتِ على الإنسانِ بطنُهُ وفرجُهُ ولسانُهُ ؛ أعني بهِ الشهواتِ المتعلقةَ بها ، ثمَّ الغضبُ الذي هوَ كالجندِ لحمايةِ الشهواتِ ، ثمَّ مهما أحبَّ الإنسانُ شهوةَ البطنِ والفرجِ وأنسَ بهما . . أحبَّ الدنيا ، ولمْ يتمكَّنْ منها إلا بالمالِ والجاهِ ، وإذا طلبَ المالَ والجاهَ . . حدثَ فيهِ الكبْرُ والعجبُ والرئاسةُ ، وإذا ظهرَ ذٰلكَ . . لمْ تسمحْ نفسُهُ بتركِ الدنيا رأساً ، وتمسَّكَ مِنَ الدينِ بما فيهِ الرئاسةُ ، وغلبَ عليه الغرورُ .

❁ ❁ ❁

فلهٰذا وجبَ علينا بعدَ تقديمِ هٰذينِ الكتابينِ أنْ نستكملَ ربعَ المهلكاتِ بثمانيةِ كتبٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

كتابٌ في كسرِ شهوةِ البطنِ والفرجِ .

وكتابٌ في كسرِ شَرَهِ الكلامِ .

وكتابٌ في كسرِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ .

---

(١) أي : يختارونها على الآخرة ، فلا يفعلون ما يسعدهم في الآخرة ، ولو علموا علماً يقيناً فناءها وبقاء الآخرة . . لما آثروها . « إتحاف » (٣٧٨/٧) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (في سعةِ الأخلاقِ كنوزُ الأرزاقِ)[1]

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (مثلُ السيّئِ الخلقِ كمثلِ الفخَّارةِ المكسورةِ ، لا تُرقعُ ، ولا تعادُ طيناً) .

وقالَ الفضيلُ : (لأنْ يصحبَني فاجرٌ حسنُ الخلقِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يصحبَني عابدٌ سيّئُ الخلقِ)[2]

وصحبَ ابنَ المباركِ رجلٌ سيّئُ الخلقِ في سفرٍ ، فكانَ يحتملُ منهُ ويداريهِ ، فلمَّا فارقَهُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : بكيتُهُ رحمةً لهُ ، فارقتُهُ وخلقُهُ معَهُ لمْ يفارقْهُ .

وقالَ الجنيدُ : (أربعٌ ترفعُ العبدَ إلىٰ أعلى الدرجاتِ وإنْ قلَّ عملُهُ وعلمُهُ ؛ الحلمُ ، والتواضعُ ، والسخاءُ ، وحسْنُ الخلقِ ، وهوَ كمالُ الإيمانِ)[3]

وقالَ الكتانيُّ : (التصوُّفُ خلقٌ ، فمَنْ زادَ عليكَ في الخلقِ . . زادَ عليكَ في التصوُّفِ)[4]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (خالطوا الناسَ بالأخلاقِ ، وزايلوهُمْ بالأعمالِ)[5]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (سوءُ الخلقِ سيئةٌ لا تنفعُ معها كثرةُ الحسناتِ ، وحسْنُ الخلقِ حسنةٌ لا تضرُّ معَها كثرةُ السيئاتِ)[6]

وسُئلَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : ما الكرمُ ؟ فقالَ : هوَ ما بيَّنَ اللهُ في كتابِهِ العزيزِ : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ ، قيلَ : فما الحسبُ ؟ قالَ : أحسنُكُمْ خُلُقاً أفضلُكُمْ حسباً[7]

وقيلَ : (لكلِّ بنيانٍ أساسٌ ، وأساسُ الإسلامِ حسْنُ الخلقِ)[8]

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (ما ارتفعَ مَنِ ارتفعَ إلا بالخُلقِ الحسنِ ، ولمْ ينلْ أحدٌ كمالَهُ إلا المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقربُ الخلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ السالكونَ آثارَهُ بحسْنِ الخلُقِ)[9]

* * *

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٥) من غير نسبة .

(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٦٤) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤٠) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤١٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٢١) .

(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤١) .

(٧) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٩٩) .

(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٤٠) من كلام عكرمة رحمه الله تعالىٰ .

(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤١) .

غالبةً عليهِ ، قدْ فرغَ عنْ كلِّ ما سواهُ ؛ لأنَّ القلبَ إذا شُغِلَ بشيءٍ . . خلا عنْ غيرِهِ أيِّ شيءٍ كانَ ، فإذا اشتغلَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ وهوَ المقصودُ . . خلا ـ لا محالةَ ـ عنْ غيرِهِ .

وعندَ ذٰلكَ يلزمُهُ أنْ يراقبَ وساوسَ القلبِ ، والخواطرَ التي تتعلَّقُ بالدنيا ، وما يتذكَّرُ فيهِ ممَّا قدْ مضىٰ مِنْ أحوالِهِ وأحوالِ غيرِهِ ؛ فإنَّهُ مهما اشتغلَ بشيءٍ منهُ ولوْ في لحظةٍ . . خلا قلبُهُ عنِ الذكرِ في تلكَ اللحظةِ ، وكانَ ذٰلكَ نقصاناً ، فليجتهدْ في دفعِ ذٰلكَ .

ومهما دفعَ الوساوسَ كلَّها وردَّ النفسَ إلىٰ هٰذهِ الكلمةِ . . جاءتهُ الوساوسُ مِنْ هٰذهِ الكلمةِ ، وأنَّها ما هيَ ؟ وما معنىٰ قولِنا : (الله) ؟ ولأيِّ معنىً كانَ إلٰهاً وكانَ معبوداً ؟ ويعتريهِ عندَ ذٰلكَ خواطرُ تفتحُ عليهِ بابَ الفكرِ ، وربَّما يردُ عليهِ مِنْ وساوسِ الشيطانِ ما هوَ كفرٌ أوْ بدعةٌ ، ومهما كانَ كارهاً لذٰلكَ ، ومتشمِّراً لإماطتِهِ عنِ القلبِ . . لمْ يضرُّهُ ذٰلكَ .

والخواطرُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما يُعلمُ قطعاً أنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهٌ عنهُ ، ولٰكنَّ الشيطانَ يلقي ذٰلكَ في قلبِهِ ، ويجريهِ علىٰ خاطرِهِ ، فشرطُهُ ألا يباليَ بهِ ، ويفزعَ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويبتهلَ إليهِ ليدفعَهُ عنهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

وإلىٰ ما يُشَكُّ فيهِ ، فينبغي أنْ يعرضَ ذٰلكَ علىٰ شيخِهِ ، بلْ كلُّ ما يجدُ في قلبِهِ مِنَ الأحوالِ مِنْ فترةٍ ، أوْ نشاطٍ ، أوِ التفاتٍ إلىٰ عُلْقَةٍ ، أوْ صدْقٍ في إرادةٍ . . فينبغي أنْ يظهرَ ذٰلكَ لشيخِهِ ، وأنْ يسترَهُ عنْ غيرِهِ ، فلا يطلعَ عليهِ أحداً .

ثمَّ إنَّ شيخَهُ ينظرُ في حالِهِ ، ويتأمَّلُ في ذكائِهِ وكياستِهِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ لوْ تركَهُ وأمرَهُ بالفكْرِ تنبَّهَ مِنْ نفسِهِ لحقيقةِ الحقِّ . . فينبغي أنْ يحيلَهُ على الفكرِ ، ويأمرَهُ بملازمتِهِ ، حتَّىٰ يقذفَ في قلبِهِ مِنَ النورِ ما يكشفُ لهُ حقيقتَهُ .

وإنْ علمَ أنَّ ذٰلكَ ممَّا لا يقوىٰ عليهِ مثلُهُ . . ردَّهُ إلى الاعتقادِ القاطعِ بما يحتملُهُ قلبُهُ مِنْ وعظٍ وذكرٍ ودليلٍ قريبٍ مِنْ فهمِهِ (١)

وينبغي أنْ يتأنَّقَ الشيخُ ويتلطَّفَ بهِ ، فإنَّ هٰذهِ مهالكُ الطريقِ ومواضعُ أخطارِها ، فكمْ مِنْ مريدٍ اشتغلَ بالرياضةِ فغلبَ عليهِ خيالٌ فاسدٌ لمْ يقوَ علىٰ كشفِهِ ، فانقطعَ عليهِ طريقُهُ ، فاشتغلَ بالبطالةِ ، وسلكَ طريقَ الإباحةِ ، وذٰلكَ هوَ الهلاكُ العظيمُ .

ومَنْ تجرَّدَ للذكرِ ، ودفعَ العلائقَ الشاغلةَ عنْ قلبِهِ . . لمْ يخلُ عنْ أمثالِ هٰذهِ الأفكارِ ، فإنَّهُ قدْ ركبَ سفينةَ الخطرِ ، فإنْ سلمَ . . كانَ مِنْ ملوكِ الدينِ ، وإنْ أخطأَ . . كانَ مِنَ الهالكينَ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بدينِ العجائزِ » (٢) ، وهوَ تلقي أصلِ الإيمانِ وظاهرِ الاعتقادِ

---

(١) وعبارة الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٢٣) : (فالواجب علىٰ شيخه إن رأىٰ فيه كياسة أن يحيله على الحجج العقلية ، فإن بالعلم يتخلص ـ لا محالة ـ المتعرف مما يعتريه من الوساوس ، وإن تفرس شيخه فيه القوة والثبات في الطريقة . . أمره بالصبر واستدامة الذكر ، حتىٰ تسطع في قلبه أنوار القبول ، وتطلع في سره شموس الوصول ، وعن قريب يكون ذٰلك ، ولٰكن لا يكون هٰذا إلا لأفراد المريدين) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (قال ابن طاهر في كتاب « التذكرة » : هٰذا اللفظ تداوله العامة ، ولم أقف له علىٰ أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة ، حتىٰ رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمٰن بن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا كان في آخر

أيضاً [1] ، وكشفُ الغطاءِ عنِ الحقيقةِ أولىٰ مِنْ نقلِ الأقاويلِ المختلفةِ .

❀ ❀ ❀

فنقولُ : الخلْقُ والخلُقُ عبارتانِ مستعملتانِ معاً ، يقالُ : (فلانٌ حسنُ الخلْقِ والخلُقِ) ؛ أيْ : حسنُ الظاهرِ والباطنِ ، فيُرادُ بالخلْقِ الصورةُ الظاهرةُ ، ويُرادُ بالخُلُقِ الصورةُ الباطنةُ ، وذٰلكَ لأنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِنْ جسدٍ مدرَكٍ بالبصرِ ، ومِنْ روحٍ ونفسٍ مدرَكةٍ بالبصيرةِ ، ولكلِّ واحدٍ منهُما هيئةٌ وصورةٌ ؛ إمَّا قبيحةٌ ، وإمَّا جميلةٌ .

والنفسُ المدركَةُ بالبصيرةِ أعظمُ قدراً مِنَ الجسدِ المدرَكِ بالبصرِ ، ولذٰلكَ عظَّمَ اللهُ تعالىٰ أمرَهُ بإضافتِهِ إليهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ، فنبَّهَ علىٰ أنَّ الجسدَ منسوبٌ إلى الطينِ ، والروحَ إلىٰ ربِّ العالمينَ ، والمرادُ بالروحِ والنفسِ في هٰذا المقامِ واحدٌ .

فالخُلُقُ : عبارةٌ عنْ هيئةٍ في النفسِ راسخةٍ ، عنها تصدُرُ الأفعالُ بسهولةٍ ويسرٍ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ فكرٍ ورويَّةٍ .

فإنْ كانَتِ الهيئةُ بحيثُ تصدرُ عنها الأفعالُ الجميلةُ المحمودةُ عقلاً وشرعاً . . سُمِّيَتْ تلكَ الهيئةُ خُلُقاً حسناً .

وإنْ كانَ الصادرُ عنها الأفعالَ القبيحةَ . . سُمِّيَتِ الهيئةُ التي هيَ المصدرُ خُلُقاً سيئاً .

وإنَّما قلنا : (إنَّها هيئةٌ راسخةٌ) لأنَّ مَنْ يصدرُ منهُ بذْلُ المالِ على الندورِ لحاجةٍ عارضةٍ . . لا يُقالُ : (خلقُهُ السخاءُ) ما لمْ يثبتْ ذٰلكَ في نفسِهِ ثبوتَ رسوخٍ .

وإنَّما اشترطنا أنْ تصدرَ منهُ الأفعالُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ رويَّةٍ ؛ لأنَّ مَنْ تكلَّفَ بذْلَ المالِ أوِ السكوتَ عندَ الغضبِ بجهْدٍ ورويَّةٍ . . لا يُقالُ : (خلقُهُ السخاءُ والحِلْمُ) .

فها هنا أربعةُ أمورٍ :

أحدُها : فعلُ الجميلِ والقبيحِ .

والثاني : القدرةُ عليهما .

والثالثُ : المعرفةُ بهما .

والرابعُ : هيئةٌ للنفسِ بها تميلُ إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، ويتيسَّرُ عليها أحدُ الأمرينِ ، إمَّا الحسنُ وإمَّا القبيحُ .

وليسَ الخُلُقُ عبارةً عنِ الفعلِ : فربَّ شخصٍ خلقُهُ السخاءُ ولا يبذِلُ ، إمَّا لفقدِ المالِ أوْ لمانعٍ ، وربَّما يكونُ خلقُهُ البخلَ وهوَ يبذِلُ إمَّا لباعثٍ أوْ لرياءٍ .

وليسَ هوَ عبارةً عنِ القوَّةِ : لأنَّ نسبةَ القوَّةِ إلى الإمساكِ والإعطاءِ بلْ إلى الضدينِ واحدٌ ، وكلُّ إنسانٍ خُلِقَ بالفطرةِ قادراً على الإعطاءِ والإمساكِ ، وذٰلكَ لا يوجبُ خُلُقَ البخلِ ولا خُلُقَ السخاءِ .

وليسَ عبارةً عنِ المعرفةِ : فإنَّ المعرفةَ تتعلَّقُ بالجميلِ والقبيحِ جميعاً علىٰ وجهٍ واحدٍ .

---

(١) والعذر لهم في ذٰلك : أن الأخلاق لها ثمرات كثيرة ، ومكارمها غير محصورة ، وإحاطتها في جملة واحدة متعسرة ، ولها مراتب عليا وسفلىٰ ، وبينهما أوساط ، وكل قد أشار إلىٰ مرتبة من مراتبها بحسب الاقتضاء . « إتحاف » (٣٢٦/٧) .

المكاشفةِ ، كما أنَّ قسوتَهُ سببُ الحجابِ ، ومهما نقصَ دمُ القلبِ . . ضاقَ مسلكُ العدوّ ؛ فإنَّ مجاريَهُ العروقُ الممتلئةُ بالشهواتِ .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ جوّعوا بطونَكُمْ ، لعلَّ قلوبَكُمْ ترىٰ ربَّكُمْ)(١) .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : (ما صارَ الأبدالُ أبدالاً إلا بأربعِ خصالٍ : بإخماصِ البطونِ ، والسهرِ ، والصمتِ ، والاعتزالِ عنِ الناسِ)(٢) .

ففائدةُ الجوعِ في تنويرِ القلبِ أمرٌ ظاهرٌ ، تشهدُ لهُ التجربةُ ، وسيأتي بيانُ وجهِ التدريجِ فيهِ في كتابِ كسرِ الشهوتينِ .

وأمَّا السهرُ : فإنَّهُ يجلو القلبَ ، ويصفيهِ وينوّرُهُ ، فينضافُ ذٰلكَ إلى الصفاءِ الذي حصلَ منَ الجوعِ ، فيصيرُ القلبُ كالكوكبِ الدرّيِّ ، والمرآةِ المجلوَّةِ ، فيلوحُ فيهِ جمالُ الحقِّ ، ويشاهدُ فيهِ رفيعَ الدرجاتِ في الآخرةِ ، وحقارةَ الدنيا وآفاتِها ، فتتمُّ بذٰلكَ رغبتُهُ عنِ الدنيا وإقبالُهُ على الآخرةِ .

والسهرُ أيضاً نتيجةُ الجوعِ ؛ فإنَّ السهرَ معَ الشبعِ غيرُ ممكنٍ ، والنومُ يقسّي القلبَ ويميتُهُ ، إلا إذا كانَ بقدْرِ الضرورةِ ، فيكونُ سببَ المكاشفةِ لأسرارِ الغيبِ ، فقدْ قيلَ في صفةِ الأبدالِ : (إنَّ أكلَهُمْ فاقةٌ ، ونومَهُمْ غلبةٌ ، وكلامَهُمْ ضرورةٌ)(٣) .

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ : (أجمعَ رأيُ سبعينَ صدّيقاً علىٰ أنْ كثرةَ النومِ مِنْ كثرةِ شربِ الماءِ)(٤) .

وأمَّا الصمتُ : فإنَّهُ تسهّلُهُ العزلةُ ، ولٰكنِ المعتزلُ لا يخلو عنْ مشاهدةِ مَنْ يقومُ لهُ بطعامِهِ وشرابِهِ وتدبيرِ أمرِهِ ، فينبغي ألا يتكلَّمَ إلا بقدْرِ الضرورةِ ؛ فإنَّ الكلامَ يشغلُ القلبَ ، وشَرَهُ القلوبِ إلى الكلامِ عظيمٌ ؛ فإنَّهُ يستروحُ إليهِ ، ويستثقلُ التجرُّدَ للذكْرِ والفكرِ ، فيستريحُ إليهِ ، فالصمتُ يلقحُ العقلَ ، ويجلبُ الورعَ ، ويعلّمُ التقوىٰ .

وأمَّا الخلوةُ : ففائدتُها دفعُ الشواغلِ ، وضبطُ السمعِ والبصرِ ؛ فإنَّهُما دهليزُ القلبِ ، والقلبُ في حكْمِ حوضٍ تنصبُّ إليهِ مياهٌ كريهةٌ كدرةٌ قذرةٌ مِنْ أنهارِ الحواسِّ ، ومقصودُ الرياضةِ تفريغُ الحوضِ مِنْ تلكَ المياهِ ، ومِنَ الطينِ الحاصلِ منها ؛ لينفجرَ أصلُ الحوضِ ، فيخرجُ منهُ الماءُ النظيفُ الطاهرُ .

وكيفَ يصحُّ لهُ أنْ ينزحَ الماءَ مِنَ الحوضِ والأنهارُ مفتوحةٌ إليهِ ، فيتجدَّدُ في كلِّ حالٍ أكثرَ ممَّا ينقصُ ؟!

فلا بدَّ مِنْ ضبطِ الحواسِّ إلا عنْ قدْرِ الضرورةِ ، وليسَ يتمُّ ذٰلكَ إلا بالخلوةِ في بيتٍ مظلمٍ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ مكانٌ مظلمٌ . . فليلفَّ رأسَهُ في جيبِهِ ، أوْ يتدثَّرْ بكساءٍ أوْ إزارٍ ، ففي مثلِ هٰذهِ الحالةِ يسمعُ نداءَ الحقِّ ، ويشاهدُ جلالَ الحضرةِ الربوبيةِ ، أما ترىٰ أنَّ نداءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلغَهُ وهوَ علىٰ مثلِ هٰذهِ الصفةِ ، فقيلَ لهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾(٥) .

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (٩٥/١) ، وكذٰلك (٦٧/٢) وزاد : (وقد رواه عبد الرحمـٰن بن يحيى الأسود عن طاووس رفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٢) قوت القلوب (٩٥/١) .

(٣) قوت القلوب (١٥٤/١) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٣٢٩) عن أبي إسحاق الموصلي .

(٥) رواه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦٠) ، وقوله : (بلغه وهو علىٰ هٰذه الصفة) يؤكد هٰذا النداءُ بالحال ؛ إذ ناداه بالمدثر والمزمل وهو ملابس لذٰلك ؛ ليستشعر الملاطفة منه سبحانه .

فإذاً ؛ أمهاتُ الأخلاقِ وأصولُها أربعةٌ : الحكمةُ ، والشجاعةُ ، والعفَّةُ ، والعدْلُ .

ونعني **بالحكمةِ** : حالةً للنفسِ بها يُدرَكُ الصوابُ مِنَ الخطأ في جميعِ الأفعالِ الاختياريةِ .

ونعني **بالعدْلِ** : حالةً للنفسِ وقوَّةً بها تسوسُ الغضبَ والشهوةَ ، وتحملُهُما علىٰ مقتضى الحكمةِ ، وتضبطُهُما في الاسترسالِ والانقباضِ علىٰ حسَبِ مقتضاها .

ونعني **بالشجاعةِ** : كونَ قوَّةِ الغضبِ منقادةً للعقلِ في إقدامِها وإحجامِها .

ونعني **بالعفَّةِ** : تأدُّبَ قوَّةِ الشهوةِ بتأديبِ العقلِ والشرعِ .

فمِنِ اعتدالِ هٰذهِ الأصولِ الأربعةِ تصدرُ الأخلاقُ الجميلةُ كلُّها .

إذْ مِن اعتدالِ قوَّةِ العقلِ يصدُرُ حسنُ التدبيرِ ، وجودةُ الذهنِ ، وثقابةُ الرأيِ ، وإصابةُ الظنِّ ، والتفطُّنُ لدقائقِ الأعمالِ وخفايا آفاتِ النفوسِ ، ومِنْ إفراطِها تصدرُ الجربزةُ ، والمكرُ ، والخداعُ ، والدهاءُ ، ومِنْ تفريطِها يصدرُ البلهُ ، والغمارةُ ، والحمْقُ ، والجنونُ ، وأعني بالغمارةِ : قلَّةَ التجربةِ في الأمورِ معَ سلامةِ التخيُّلِ ، فقدْ يكونُ الإنسانُ غُمْراً في شيءٍ دونَ شيءٍ .

والفرقُ بينَ الحمقِ والجنونِ : أنَّ الأحمقَ مقصودُهُ صحيحٌ ، ولٰكنْ سلوكُهُ للطريقِ فاسدٌ ، فلا تكونُ له رويَّةٌ صحيحةٌ في سلوكِ الطريقِ الموصلِ إلى الغرضِ ، وأمَّا المجنونُ . . فإنَّهُ يختارُ ما لا ينبغي أنْ يختارَ ، فيكونُ أصلُ اختيارِهِ وإيثارِهِ فاسداً .

وأمَّا خلُقُ الشجاعةِ . . فيصدرُ منهُ الكرمُ ، والنجدةُ ، والشهامةُ ، وكِبْرُ النفسِ (1) ، والاحتمالُ ، والحلمُ ، والثباتُ ، وكظمُ الغيظِ ، والوقارُ ، والتؤدةُ ، وأمثالُها ، وهيَ أخلاقٌ محمودةٌ .

وأمَّا إفراطُها وهوَ التهوُّرُ . . فيصدرُ منهُ الصلفُ ، والبذْخُ ، والاستشاطةُ ، والتكبُّرُ ، والعجْبُ .

وأمَّا تفريطُها . . فيصدرُ منهُ المهانةُ ، والذلَّةُ ، والجزعُ ، والخساسةُ ، وصغرُ النفسِ ، والانقباضُ عنْ تناولِ الحقِّ الواجبِ .

وأمَّا خلقُ العفَّةِ . . فيصدرُ منهُ السخاءُ ، والحياءُ ، والصبرُ ، والمسامحةُ ، والقناعةُ ، والورعُ ، والطلاقةُ ، والمساعدةُ ، والظَّرْفُ ، وقلَّةُ الطمعِ .

وأمَّا ميلُها إلى الإفراطِ أوِ التفريطِ . . فيصدرُ منهُ الحرْصُ ، والشَّرَهُ ، والوقاحةُ ، والخبْثُ ، والتبذيرُ ، والتقتيرُ ، والرياءُ ، والهتكةُ ، والمجانةُ ، والعبثُ ، والملَقُ ، والحسَدُ ، والشماتةُ ، والتذلُّلُ للأغنياءِ ، واستحقارُ الفقراءِ ، وغيرُ ذٰلكَ .

فأمَّهاتُ محاسنِ الأخلاقِ هٰذهِ الفضائلُ الأربعةُ ، وهيَ الحكمةُ ، والشجاعةُ ، والعفةُ ، والعدْلُ ، والباقي فروعُها .

ولمْ يبلغْ كمالَ الاعتدالِ في هٰذهِ الأربعِ إلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والناسُ بعدَهُ متفاوتونَ في القرْبِ والبعدِ منهُ ، فكلُّ مَنْ قربَ منهُ في هٰذهِ الأخلاقِ فهوَ قريبٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ قربِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(1) أي : كبر همتها ، والكبير الهمة هو الذي لا يرضىٰ بالهمم الحيوانية قدر وسعه . « إتحاف » (٧/٣٣٠) .

بيان شروط الإرادة ومقدّمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرّياضة

اعلمْ : أنَّ مَنْ شاهدَ الآخرةَ بقلبِهِ مشاهدةَ يقينٍ . . أصبحَ بالضرورةِ مريداً حرْثَ الآخرةِ ، مشتاقاً إليها ، سالكاً سُبُلَها ، مستهيناً بنعيمِ الدنيا ولذّاتِها ؛ فإنَّ مَنْ كانَتْ معَهُ خرزةٌ فرأىٰ جوهرةً نفيسةً . . لمْ تبقَ لهُ رغبةٌ في الخرزةِ ، وقويَتْ إرادتُهُ في بيعِها بالجوهرةِ .

ومَنْ ليسَ مريداً حرْثَ الآخرةِ ، ولا طالباً للقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ لعدمِ إيمانِهِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، ولستُ أعني بالإيمانِ حديثَ النفسِ وحركةَ اللسانِ بكلمتي الشهادةِ مِنْ غيرِ صدْقٍ وإخلاصٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يضاهي قولَ مَنْ صدَّقَ بأنَّ الجوهرةَ خيرٌ مِنَ الخرزةِ إلا أنَّهُ لا يدري مِنَ الجوهرةِ إلا لفظَها ، وأمَّا حقيقتُها . . فلا ، ومثلُ هٰذا المصدِّقِ إذا ألفَ الخرزةَ قدْ لا يتركُها ، ولا يعظُمُ اشتياقُهُ إلى الجوهرةِ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ المانعُ مِنَ الوصولِ عدمُ السلوكِ ، والمانعُ مِنَ السلوكِ عدمُ الإرادةِ ، والمانعُ مِنَ الإرادةِ عدمُ الإيمانِ ، وسببُ عدمِ الإيمانِ عدمُ الهداةِ والمذكِّرينَ ، والعلماءِ باللهِ تعالى الهادينَ إلىٰ طريقِهِ ، والمنبِّهينَ علىٰ حقارةِ الدنيا وانقراضِها ، وعظَمِ أمرِ الآخرةِ ودوامِها ، فالخلقُ غافلونَ قدِ انهمكوا في شهواتِهِمْ ، وغاصوا في رقدتِهِمْ ، وليسَ في علماءِ الدينِ مَنْ ينبِّهُهُمْ ، فإنْ تنبَّهَ منهُمْ متنبِّهٌ . . عجزَ عنْ سلوكِ الطريقِ لجهلِهِ ، فإنْ طلبَ الطريقَ مِنَ العلماءِ . . وجدَهُمْ مائلينَ إلى الهوىٰ ، عادلينَ عنْ نهجِ الطريقِ ، فصارَ ضعفُ الإرادةِ والجهلُ بالطريقِ ونطقُ العلماءِ بالهوىٰ سبباً لخلوِّ طريقِ اللهِ تعالىٰ عنِ السالكينَ فيهِ .

ومهما كانَ المطلوبُ محجوباً ، والدليلُ مفقوداً ، والهوىٰ غالباً ، والطالبُ غافلاً . . امتنعَ الوصولُ ، وتعطَّلَتِ الطرقُ لا محالةَ .

فإنْ تنبَّهَ متنبِّهٌ مِنْ نفسِهِ ، أوْ مِنْ تنبيهِ غيرِهِ ، وانبعثَ لهُ إرادةٌ في حرْثِ الآخرةِ وتجارتِها . . فينبغي أنْ يعلمَ أنَّ لهُ شروطاً لا بدَّ مِنْ تقديمِها في بدايةِ الإرادةِ ، ولهُ معتصَمٌ لا بدَّ مِنَ التمسُّكِ بهِ ، ولهُ حصْنٌ لا بدَّ مِنَ التحصُّنِ بهِ ؛ ليأمنَ مِنَ الأعداءِ القطَّاعِ لطريقِهِ ، ولهُ وظائفُ لا بدَّ مِنْ ملازمتِها في وقتِ سلوكِ الطريقِ .

أمَّا الشروطُ التي لا بدَّ مِنْ تقديمِها في الإرادةِ : فهيَ رفعُ السدِّ والحجابِ الذي بينَهُ وبينَ الحقِّ ، فإنَّ حرمانَ الخلقِ عنِ الحقِّ سببُهُ تراكمُ **الحجُبِ** ، ووقوعُ السدِّ على الطريقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

والسدُّ بينَ المريدِ وبينَ الحقِّ أربعةٌ : المالُ ، والجاهُ ، والتقليدُ ، والمعصيةُ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **المالِ** بخروجِهِ عنْ ملكِهِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ لهُ إلا قدْرُ الضرورةِ ، فما دامَ يبقىٰ لهُ درهمٌ يلتفتُ إليهِ قلبُهُ . . فهوَ مقيَّدٌ بهِ ، محجوبٌ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **الجاهِ** بالبعدِ عنْ موضعِ الجاهِ ، وبالتواضعِ وإيثارِ الخمولِ ، والهربِ مِنْ أسبابِ الذكرِ ، وتعاطي أعمالٍ تنفِّرُ قلوبَ الخلقِ عنهُ .

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلمْ : أنَّ بعضَ مَنْ غلبَتِ البطالةُ عليهِ . . استثقلَ المجاهدةَ والرياضةَ ، والاشتغالَ بتزكيةِ النفسِ وتهذيبِ الأخلاقِ ، فلمْ تسمحْ نفسُهُ بأنْ يكونَ ذٰلكَ ؛ لقصورِهِ ونقصِهِ وخبْثِ دُخْلَتِهِ ، فزعمَ أنَّ الأخلاقَ لا يُتصوَّرُ تغييرُها ، وأنَّ الطباعَ لا تتغيَّرُ ، واستدلَّ فيهِ بأمرينِ :

أحدُهُما : أنَّ الخلُقَ هوَ صورةُ الباطنِ ، كما أنَّ الخَلْقَ هوَ صورةُ الظاهرِ ، فالخلقةُ الظاهرةُ لا يُقدَرُ علىٰ تغييرِها ، فالطويلُ لا يقدرُ أنْ يجعلَ نفسَهُ قصيراً ، ولا القصيرُ يقدرُ أنْ يجعلَ نفسَهُ طويلاً ، ولا القبيحُ يقدرُ علىٰ تحسينِ صورتِهِ ؛ فكذٰلكَ القبحُ الباطنُ يجري هـٰذا المجرىٰ .

والثاني : أنَّهُمْ قالوا : حسنُ الخلقِ إنَّما يحصلُ بقمعِ الشهوةِ والغضبِ ، وقدْ جرَّبنا ذٰلكَ بطولِ المجاهدةِ ، وعرفنا أنَّ ذٰلكَ مِن مقتضى المزاجِ والطبعِ ، وأنَّهُ قطُّ لا ينقطعُ عنِ الآدميِّ ، فاشتغالُهُ بِهِ تضييعُ زمانٍ بغيرِ فائدةٍ ؛ فإنَّ المطلوبَ هوَ قطعُ التفاتِ القلبِ إلى الحظوظِ العاجلةِ ، وذٰلكَ محالٌ وجودُهُ .

❁ ❁ ❁

فنقولُ : لوْ كانَتِ الأخلاقُ لا تقبلُ التغييرَ . . لبطلَتِ الوصايا والمواعظُ والتأديباتُ ، ولما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حسِّنوا أخلاقَكُمْ » !![(١)]

وكيفَ يُنكرُ هـٰذا في حقِّ الآدميِّ وتغييرُ خلُقِ البهيمةِ ممكنٌ ؛ إذْ يُنقلُ البازي مِنَ الاستيحاشِ إلى الأُنْسِ ، والكلبُ مِنْ شرَهِ الأكلِ مِنَ الصيدِ إلى التأدُّبِ والإمساكِ والتخليةِ ، والفرسُ مِنَ الجماحِ إلى السلاسةِ والانقيادِ ، وكلُّ ذٰلكَ تغييرٌ للأخلاقِ ؟!

والقولُ الكاشفُ للغطاءِ عنْ ذٰلكَ أنْ نقولَ : الموجوداتُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا مدخلَ لاختيارِ الآدميِّ في أصلِهِ وتفصيلِهِ ؛ كالسماءِ والكواكبِ ، بلْ أعضاءِ البدنِ داخلاً وخارجاً ، وسائرِ أجزاءِ الحيواناتِ ، وبالجملةِ : كلُّ ما هوَ حاصلٌ كاملٌ وقعَ الفراغُ مِنْ وجودِهِ وكمالِهِ .

وإلىٰ ما وُجِدَ وجوداً ناقصاً وجُعلَ فيهِ قوَّةٌ لقبولِ الكمالِ بعدَ أنْ وُجِدَ شرطُهُ ، وشرطُهُ قدْ يرتبطُ باختيارِ العبدِ ؛ فإنَّ النواةَ ليسَتْ بتفاحٍ ولا نخلٍ ، إلا أنَّها خُلقَتْ خلقةً يمكنُ أنْ تصيرَ نخلةً إنِ انضافَتِ التربيةُ إليها ، ولا تصيرُ تفاحاً أصلاً ، ولا بالتربيةِ .

فإذا صارَتِ النواةُ متأثرةً بالاختيارِ حتَّىٰ تقبلَ بعضَ الأحوالِ دونَ بعضٍ . . فكذٰلكَ الغضبُ والشهوةُ ، لوْ أردنا قمعَهما وقهرَهما بالكليَّةِ حتَّىٰ لا يبقىٰ لهما أثرٌ . . لمْ نقدرْ عليهِ أصلاً ، ولوْ أردنا سلاستَهما وقودَهُما بالرياضةِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر ابن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث معاذ : « يا معاذ ؛ حسن خلقك للناس » ، منقطع ورجاله ثقات) . « إتحاف » (٧/٣٣٢) ، ولا يخفى أن مراد المصنف مجمل الأخبار الآمرة بتحسين الخلق . وروى الطبراني في « الأوسط » (٦٥٠٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/٤٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أوحى الله إلىٰ إبراهيم : يا خليلي ؛ حسِّنْ خلقك ولو مع الكفار . . تدخلْ مدخل الأبرار ، فإن كلمتي سبقت لمن حسَّنَ خلقه أن أظلّه تحت عرشي . . . » الحديث .

وينبغي أنْ يُعوَّدَ ألا يبصق في مجلسِهِ ، ولا يتمخَّطَ ولا يتثاءبَ بحضرةِ غيرِهِ ، ولا يستدبرَ غيرَهُ ، ولا يضعَ رِجْلاً علىٰ رِجْلٍ ، ولا يضعَ[1] كفَّهُ تحتَ ذَقَنِهِ ، ولا يعمدَ رأسَهُ بساعدِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ دليلُ الكسلِ .

ويُعلَّمُ كيفيةَ الجلوسِ ، ويُمنعُ كثرةَ الكلامِ ، ويُبيَّنُ لهُ أنَّ ذٰلكَ يدلُّ على الوقاحةِ ، وأنَّهُ عادةُ أبناءِ اللئامِ .

ويُمنعُ الأيمانَ رأساً ، صادقاً كانَ أوْ كاذباً ؛ حتَّىٰ لا يعتادَ ذٰلكَ في الصغرِ .

ويُمنعُ أنْ يبتدئَ الكلامَ ، ويُعوَّدُ ألا يتكلَّمَ إلا جواباً وبقْدرِ السؤالِ ، وأنْ يحسنَ الاستماعَ مهما تكلَّمَ غيرُهُ ممَّنْ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً ، وأنْ يقومَ لِمَنْ فوقَهُ ، ويوسعَ لهُ المكانَ ، ويجلسَ بينَ يديهِ .

ويُمنعُ مِنْ لغوِ الكلامِ وفحشِهِ ، ومِنَ اللعنِ والسبِّ ، ومِنْ مخالطةِ مَنْ يجري علىٰ لسانِهِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يسري لا محالةَ مِنَ القرناءِ السوءِ ، وأصلُ تأديبِ الصبيانِ الحفظُ مِنْ قرناءِ السوءِ .

وينبغي إذا ضربَهُ المعلِّمُ ألا يُكثرَ الصراخَ والشغبَ ، ولا يستشفعَ بأحدٍ ، بلْ يصبرُ ، ويذكرُ لهُ أنَّ ذٰلكَ دأبُ الشجعانِ والرجالِ ، وأنَّ كثرةَ الصراخِ دأبُ المماليكِ والنسوانِ .

وينبغي أنْ يؤذنَ لهُ بعدَ الفراغِ منَ المكتبِ أنْ يلعبَ لعباً جميلاً ، يستريحُ إليهِ مِنْ تعبِ المكتبِ ، بحيثُ لا يتعبُ في اللعبِ ؛ فإنَّ منعَ الصبيِّ مِنَ اللعبِ وإرهاقَهُ إلى التعلُّمِ دائماً يميتُ قلبَهُ ، ويبطلُ ذكاءَهُ ، وينغِّصُ عليهِ العيشَ ، حتَّىٰ يطلبَ الحيلةَ في الخلاصِ منهُ رأساً .

وينبغي أنْ يُعلَّمَ طاعةَ والديهِ ومعلِّمِهِ ومؤدِّبِهِ ، وكلِّ مَنْ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً ؛ مِنْ قريبٍ وأجنبيٍّ ، وأنْ ينظرَ إليهِمْ بعينِ الجلالةِ والتعظيمِ ، وأنْ يتركَ اللعبَ بينَ أيديهِمْ .

ومهما بلغَ سنَّ التمييزِ . . فينبغي ألا يُسامحَ في تركِ الطهارةِ والصلاةِ ، ويُؤمرُ بالصومِ في بعضِ أيَّامِ رمضانَ ، ويُجنَّبُ لبْسَ الديباجِ والحريرِ والذهبِ ، ويُعلَّمُ كلَّ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ حدودِ الشرعِ ويُخوَّفُ مِنَ السرقةِ وأكلِ الحرامِ ، ومِنَ الكذبِ والخيانةِ والفحْشِ ، وكلِّ ما يغلبُ على الصبيانِ .

فإذا وقعَ نشوءُهُ كذٰلكَ في الصبا ؛ فمهما قاربَ البلوغَ . . أمكنَ أنْ يعرفَ أسرارَ هٰذهِ الأمورِ ، فيُذكرُ لهُ أنَّ الأطعمةَ أدويةٌ ، وإنَّما المقصودُ منها أنْ يقوى الإنسانُ بها علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ الدنيا كلَّها لا أصلَ لها ؛ إذْ لا بقاءَ لها ، وأنَّ الموتَ يقطعُ نعيمَها ، وأنَّها دارُ ممرٍّ لا دارُ مقرٍّ ، وأنَّ الآخرةَ دارُ مقرٍّ لا دارُ ممرٍّ ، وأنَّ الموتَ منتظَرٌ في كلِّ ساعةٍ ، وأنَّ الكيِّسَ العاقلَ مَنْ تزوَّدَ مِنَ الدنيا للآخرةِ ، حتَّىٰ تعظمَ عندَ اللهِ درجتُهُ ، وتتسعَ في الجنانِ نعمتُهُ .

فإذا كانَ النشوءُ صالحاً . . كانَ هٰذا الكلامُ عندَ البلوغِ واقعاً مؤثِّراً ناجعاً ، يثبتُ في قلبِهِ كما يثبتُ النقْشُ في الحجرِ .

وإنْ وقعَ النشوءُ بخلافِ ذٰلكَ ؛ حتَّىٰ ألفَ الصبيُّ اللعبَ والفحْشَ والوقاحةَ وشرهَ الطعامِ واللباسِ والتزيُّنَ والتفاخرَ . . نبا قلبُهُ عنْ قبولِ الحقِّ نبوةَ الحائطِ عنِ الطينِ اليابسِ .

فأوائلُ الأمورِ هيَ التي ينبغي أنْ تُراعىٰ ؛ فإنَّ الصبيَّ بجوهرِهِ خُلِقَ قابلاً للخيرِ والشرِّ جميعاً ، وإنَّما أبواهُ يميلانِ

---

(١) في النسخ : (ولا يضرب) ، والمثبت من (ق) .

إمساكِ المالِ ، وليسَ المطلوبُ إماطةَ ذٰلكَ بالكليَّةِ ، بلِ المطلوبُ ردُّها إلى الاعتدالِ الذي هوَ وسطٌ بينَ الإفراطِ والتفريطِ .

فالمطلوبُ في صفةِ الغضبِ حسنُ الحميَّةِ ، وذٰلكَ بأنْ يخلوَ عنِ التهوُّرِ وعنِ الجبنِ جميعاً .

وبالجملةِ : أنْ يكونَ في نفسِهِ قوياً ، ومعَ قوَّتِهِ منقاداً للعقلِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وصفَهُمْ بالشدَّةِ ، وإنَّما تصدرُ الشدَّةُ عنِ الغضبِ ، ولوْ بطلَ الغضبُ . . لبطلَ الجهادُ ، وكيفَ يُقصدُ قلعُ الشهوةِ والغضبِ بالكليَّةِ والأنبياءُ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ لمْ ينفكُّوا عنْ ذٰلكَ ؟! إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا بشرٌ أغضبُ كما يغضبُ البشرُ »[1]

وكانَ إذا تُكلِّمَ بينَ يديهِ بما يكرهُهُ . . يغضبُ حتَّىٰ تحمرَّ وجنتاهُ ، ولـٰكنْ لا يقولُ إلا حقّاً ، فكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لا يخرجُهُ غضبُهُ عنِ الحقِّ[2]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، ولمْ يقلْ : (والفاقدينَ الغيظَ) .

فردُّ الغضبِ والشهوةِ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ ، بحيثُ لا يقهرُ واحدٌ منهما العقلَ ولا يغلبُهُ ، بلْ يكونُ العقلُ هوَ الضابطَ لهما والغالبَ عليهما . . ممكنٌ ، وهوَ المرادُ بتغييرِ الخلُقِ ؛ فإنَّهُ ربَّما تستولي الشهوةُ على الإنسانِ بحيثُ لا يقوىٰ عقلُهُ علىٰ دفعِها عنِ الانبساطِ إلى الفواحشِ ، وبالرياضةِ تعودُ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ ، فدلَّ أنَّ ذٰلكَ ممكنٌ ، والتجربةُ والمشاهدةُ تدلُّ علىٰ ذٰلكَ دلالةً لا شكَّ فيها .

والذي يدلُّ علىٰ أنَّ المطلوبَ هوَ الوسطُ في الأخلاقِ دونَ الطرفينِ أنَّ السخاءَ خلقٌ محمودٌ شرعاً ، وهوَ وسطٌ بينَ طرفي التبذيرِ والتقتيرِ ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ فقالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ .

وكذٰلكَ المطلوبُ في شهوةِ الطعامِ الاعتدالُ دونَ الشَّرَهِ والخمودِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

وقالَ في الغضبِ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »[3]

وهـٰذا لهُ سرٌّ وتحقيقٌ ، وهوَ أنَّ السعادةَ منوطةٌ بسلامةِ القلبِ عنْ عوارضِ هـٰذا العالمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، والبخلُ مِنْ عوارضِ الدنيا ، والتبذيرُ أيضاً مِنْ عوارضِ الدنيا ، وشرطُ القلبِ أنْ يكونَ سليماً منهما ؛ أيْ : لا يكونَ ملتفتاً إلى المالِ ، ولا يكونَ حريصاً علىٰ إمساكِهِ ولا علىٰ إنفاقِهِ ، فإنَّ الحريصَ على الإنفاقِ مصروفُ القلبِ إلى الإنفاقِ ، كما أنَّ الحريصَ على الإمساكِ مصروفُ القلبِ إلى الإمساكِ ، فكانَ كمالُ القلبِ أنْ يصفوَ عنِ الوصفينِ جميعاً ، وإذا لمْ يكنْ ذٰلكَ في الدنيا . . طلبنا ما هوَ الأشبهُ بعدمِ الوصفينِ وأبعدُ عنِ الطرفينِ ، وهوَ الوسطُ ، فإنَّ الفاترَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠١) .

(٢) فقد روى البخاري (٢٣٦٠) ، ومسلم (٢٣٥٧) في قصة تخاصم رجل مع الزبير رضي الله عنه في شراج الحرَّة ؛ إذ قال الرجل الأنصاري : أنْ كان ابن عمَّتك ؟ فتلوَّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقدم نحو هـٰذا .

(٣) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٧٠/٦) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

بيان الطريق في رياضة الصّبيان في أوّل النّشوء ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلمْ : أنَّ الطريقَ في رياضةِ الصبيانِ مِنْ أهمِّ الأمورِ وآكدِها ، وأنَّ الصبيَّ أمانةٌ عندَ والديهِ ، وقلبَهُ الطاهرَ جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ ، خاليةٌ عنْ كلِّ نقشٍ وصورةٍ ، وهوَ قابلٌ لكلِّ نقشٍ ، ومائلٌ إلىٰ كلِّ ما يُمالُ بهِ إليهِ .

فإنْ عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ . . نشأَ عليهِ ، وسعدَ في الدنيا والآخرةِ ، وشاركَهُ في ثوابِهِ أبواهُ وكلُّ معلِّمٍ لهُ ومؤدِّبٍ .

وإنْ عُوِّدَ الشرَّ وأُهملَ إهمالَ البهائمِ . . شَقِيَ وهلكَ ، وكانَ الوزرُ في رقبةِ القيّمِ عليهِ والوالي لهُ .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ .

ومهما كانَ الأبُ يصونُهُ عنْ نارِ الدنيا . . فبأنْ يصونَهُ عنْ نارِ الآخرةِ أولىٰ ، وصيانتُهُ بأنْ يؤدِّبَهُ ويهذِّبَهُ ، ويعلِّمَهُ محاسنَ الأخلاقِ ، ويحفظَهُ مِنَ القرناءِ السوءِ ، ولا يعوِّدَهُ التنعُّمَ ، ولا يحبِّبَ إليهِ الزينةَ وأسبابَ الرفاهيةِ ، فيضيِّعَ عمرَهُ في طلبِها إذا كبرَ ، فيهلكَ هلاكَ الأبدِ ، بلْ ينبغي أنْ يراقبَهُ مِنْ أوَّلِ أمرِهِ ، فلا يستعملُ في حضانتِهِ وإرضاعِهِ إلا امرأةً صالحةً متديّنةً تأكلُ الحلالَ ؛ فإنَّ اللبنَ الحاصلَ مِنَ الحرامِ لا بركةَ فيهِ ، فإذا وقعَ عليهِ نشوءُ الصبيِّ . . انعجنَتْ طينتُهُ مِنَ الخبثِ ، فيميلُ طبعُهُ إلىٰ ما يناسبُ الخبائثَ .

ومهما رأىٰ فيهِ مخايلَ التمييزِ . . فينبغي أنْ يحسنَ مراقبتَهُ ، وأوَّلُ ذلكَ ظهورُ أوائلِ الحياءِ ؛ فإنَّهُ إذا كانَ يحتشمُ ويستحي ، ويتركُ بعضَ الأفعالِ . . فليسَ ذلكَ إلا لإشراقِ نورِ العقلِ عليهِ ، حتَّىٰ يرىٰ بعضَ الأشياءِ قبيحاً ومخالفاً للبعضِ ، فصارَ يستحي مِنْ شيءٍ دونَ شيءٍ ، وهٰذهِ هديَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وبشارةٌ تدلُّ على اعتدالِ الأخلاقِ وصفاءِ القلبِ ، وهوَ مبشِّرٌ بكمالِ العقلِ عندَ البلوغِ ، فالصبيُّ المستحي لا ينبغي أنْ يُهملَ ، بلْ يُستعانُ علىٰ تأديبِهِ بحيائِهِ وتمييزِهِ .

وأوَّلُ ما يغلبُ عليهِ مِنَ الصفاتِ شرهُ الطعامِ ، فينبغي أنْ يؤدَّبَ فيهِ ، مثلُ ألا يأخذَ الطعامَ إلا بيمينِهِ ، وأنْ يقولَ عليهِ : (باسمِ اللهِ) عندَ أخذِهِ ، وأنْ يأكلَ ممَّا يليهِ ، وألا يبادرَ إلى الطعامِ قبلَ غيرِهِ ، وألا يحدقَ إلى الطعامِ ولا إلىٰ مَنْ يأكلُ ، وألا يسرعَ في الأكلِ ، وأنْ يجيدَ المضغَ ، وألا يواليَ بينَ اللقمِ ، ولا يلطِّخَ يدَهُ ولا ثوبَهُ ، وأنْ يعوَّدَ الخبزَ القَفارَ في بعضِ الأوقاتِ[1] ، حتىٰ لا يصيرَ بحيثُ يرى الأُدْمَ حتماً .

ويقبِّحُ عندَهُ كثرةَ الأكلِ ؛ بأنْ يشبِّهَ كلَّ مَنْ يكثرُ الأكلَ بالبهائمِ ، وبأنْ يذمَّ بينَ يديهِ الصبيَّ الذي يكثرُ الأكلَ ، ويمدحَ عندَهُ الصبيَّ المتأدِّبَ القليلَ الأكلِ ، وأنْ يحبِّبَ إليهِ الإيثارَ بالطعامِ ، وقلَّةَ المبالاةِ بهِ ، والقناعةَ بالطعامِ الخشنِ أيَّ طعامٍ كانَ .

وأنْ يحبِّبَ إليهِ مِنَ الثيابِ البيضَ دونَ الملوَّنِ والإبريسمِ ، ويقرِّرَ عندَهُ أنَّ ذلكَ شأنُ النساءِ والمخنَّثينَ ، وأنَّ الرجالَ يستنكفونَ منهُ ، ويكرِّرُ ذلكَ عليهِ ، ومهما رأىٰ علىٰ صبيٍّ ثوباً مِنْ إبريسمٍ أوْ ملوَّنٍ . . فينبغي أنْ يستنكرَهُ ويذمَّهُ .

ويُحفظُ الصبيُّ عنِ الصبيانِ الذينَ عُوِّدوا التنعُّمَ والرفاهيةَ ، ولبسَ الثيابِ الفاخرةِ ، وعنْ مخالطةِ كلِّ مَنْ يسمعُهُ

---

(١) الخبز القفار : هو الذي لا أُدْم فيه ولا دسم ، وعند الحافظ الزبيدي (٣٦٤/٧) : اليابس وحده .

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قدْ عرفتَ أنَّ حسْنَ الخلقِ يرجعُ إلى اعتدالِ قوَّةِ العقلِ ، وكمالِ الحكمةِ ، وإلى اعتدالِ قوَّةِ الغضبِ والشهوةِ ، وكونِها مطيعةً للعقلِ والشرعِ أيضاً .

وهٰذا الاعتدالُ يحصلُ علىٰ وجهينِ :

أحدُهُما : بجودٍ إلٰهيٍّ وكمالٍ فطريٍّ : بحيثُ يُخلقُ الإنسانُ ويُولدُ كاملَ العقلِ ، حسنَ الخلقِ ، قد كُفِيَ سلطانَ الشهوةِ والغضبِ ، بلْ خُلقَتا معتدلتينِ منقادتينِ للعقلِ والشرعِ ، فيصيرُ عالماً بغيرِ تعلُّمٍ ، ومؤدَّباً بغيرِ تأدُّبٍ ؛ كعيسى ابنِ مريمَ ، ويحيى بنِ زكريَّا عليهِما السلامُ ، وكذا سائرُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ في الطبعِ والفطرةِ ما قدْ يُنالُ بالاكتسابِ ، فربَّ صبيٍّ خُلِقَ صادقَ اللهجةِ ، سخيّاً جريئاً ، وربَّما يُخلقُ بخلافِهِ ، فيحصلُ ذٰلكَ فيهِ بالاعتيادِ ومخالطةِ المتخلِّقينَ بهٰذهِ الأخلاقِ ، وربَّما يحصلُ بالتعلُّمِ .

والوجهُ الثاني لاكتسابِ هٰذهِ الأخلاقِ : المجاهدةُ والرياضةُ : وأعني بها : حملَ النفسِ على الأعمالِ التي يقتضيها الخلُقُ المطلوبُ .

فمَنْ أرادَ مثلاً أنْ يحصِّلَ لنفسِهِ خلُقَ الجودِ . . فطريقُهُ أنْ يتكلَّفَ تعاطيَ فعلِ الجوادِ ، وهوَ بذلُ المالِ ، فلا يزالُ يطالبُ نفسَهُ ويواظبُ عليهِ تكلُّفاً ، مجاهداً نفسَهُ فيهِ حتَّىٰ يصيرَ ذٰلكَ طبعاً لهُ ، ويتيسَّرَ عليهِ ، فيصيرَ بهِ جواداً .

وكذا مَنْ أرادَ أنْ يحصِّلَ لنفسِهِ خلُقَ التواضعِ وقدْ غلبَ عليهِ الكِبْرُ . . فطريقُهُ أنْ يواظبَ علىٰ أفعالِ المتواضعينَ مدَّةً مديدةً ، وهوَ فيها مجاهدٌ نفسَهُ ومتكلِّفٌ إلىٰ أن يصيرَ ذٰلكَ لهُ خلقاً وطبعاً ، فيتيسَّرَ عليهِ .

وجميعُ الأخلاقِ المحمودةِ شرعاً تحصلُ بهٰذا الطريقِ .

وغايتُهُ : أنْ يصيرَ الفعلُ الصادرُ منهُ لذيذاً ، فالسخيُّ هوَ الذي يستلذُّ بذلَ المالِ دونَ الذي يبذلُهُ عنْ كراهةٍ ، والمتواضعُ هوَ الذي يستلذُّ التواضعَ ، ولنْ ترسخَ الأخلاقُ الدينيَّةُ في النفسِ ما لمْ تتعوَّدِ النفسُ جميعَ العاداتِ الحسنةِ ، وما لمْ تتركْ جميعَ العاداتِ السيئةِ ، وما لمْ تواظبْ عليها مواظبةَ مَنْ يشتاقُ إلى الأفعالِ الجميلةِ ويتنعَّمُ بها ، ويكرهُ الأفعالَ القبيحةَ ويتألَّمُ بها ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجُعلَتْ قرَّةُ عيني في الصلاةِ »[1]

ومهما كانَتِ العباداتُ وتركُ المحظوراتِ معَ كراهةٍ واستثقالٍ . . فهوَ لنقصانٍ ، ولا يُنالُ كمالُ السعادةِ بهِ .

نعم ؛ المواظبةُ عليها بالمجاهدةِ خيرٌ ، ولٰكنْ بالإضافةِ إلىٰ تركِها ، لا بالإضافةِ إلىٰ فعلِها عنْ طوعٍ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعبُدِ اللهَ بالرضا ، فإنْ لمْ تستطعْ . . ففي الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »[2]

ثمَّ لا يكفي في نيلِ السعادةِ الموعودةِ علىٰ حسْنِ الخلقِ استلذاذُ الطاعةِ واستكراهُ المعصيةِ في زمانٍ دونَ زمانٍ ، بلْ

(١) رواه النسائي (٦١/٧) ، وأحمد في « المسند » (١٢٨/٣) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٢٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الوصية المشهورة ، ولفظه : « فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين . . فافعل ، وإن لم تستطع . . فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً . . . » الحديث .

ورُوِيَ أنَّ أبا عبدِ اللهِ الخيَّاطَ كانَ يجلسُ على دكَّانِهِ ، وكانَ لهُ حَرِيفٌ مجوسيٌّ يستعملُهُ في الخياطةِ[1] ، فكانَ إذا خاطَ لهُ شيئاً . . حملَ إليهِ دراهمَ زائفةً ، فكانَ أبو عبدِ اللهِ يأخذُها منهُ ولا يخبرُهُ بذٰلكَ ولا يردُّها عليهِ ، فاتفقَ يوماً أنَّ أبا عبدِ اللهِ قامَ لبعضِ حاجتِهِ ، فأتى المجوسيُّ فلمْ يجدْهُ ، فدفعَ إلى تلميذِهِ الأجرةَ ، واسترجعَ ما قدْ خاطَهُ ، ودفعَ إليهِ درهماً زائفاً ، فلما نظرَ إليهِ التلميذُ . . عرفَ أنَّهُ زائفٌ ، فردَّهُ عليهِ ، فلما عادَ أبو عبدِ اللهِ . . أخبرَهُ بذٰلكَ ، فقالَ : بئسَ ما عملتَ ، هٰذا المجوسيُّ يعاملُني بهٰذهِ المعاملةِ منذُ سنةٍ وأنا أصبرُ عليهِ ، فآخذُ الدراهمَ منهُ وألقيها في البئرِ لئلا يغرَّ بها مسلماً[2]

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (علامةُ حسْنِ الخلُقِ عشرةُ أشياءَ : قلَّةُ الخلافِ ، وحسْنُ الإنصافِ ، وتركُ طلبِ العثراتِ ، وتحسينُ ما يبدو مِنَ السيئاتِ ، والتماسُ المعذرةِ ، واحتمالُ الأذى ، والرجوعُ بالملامةِ على النفسِ ، والتفرُّدُ بمعرفةِ عيوبِ نفسِهِ دونَ عيوبِ غيرِهِ ، وطلاقةُ الوجهِ للصغيرِ والكبيرِ ، ولطفُ الكلامِ لمَنْ دونَهُ ولمَنْ فوقَهُ)[3]

وسُئِلَ سهلٌ عنْ حسْنِ الخلقِ فقالَ : (أدناهُ احتمالُ الأذى ، وتركُ المكافأةِ ، والرحمةُ للظالمِ ، والاستغفارُ لهُ ، والشفقةُ عليهِ)[4]

وقيلَ للأحنفِ بنِ قيسٍ : ممَّنْ تعلمتَ الحِلْمَ ؟ فقالَ : مِنْ قيسِ بنِ عاصمٍ ، قيلَ : وما بلغَ مِنْ حلمِهِ ؟ قالَ : بينما هوَ جالسٌ في دارِهِ . . إذْ أتتْهُ جاريةٌ لهُ بسفُّودٍ عليهِ شواءٌ[5] ، فسقطَ مِنْ يدِها ، فوقعَ على ابنٍ لهُ صغيرٍ ، فماتَ ، فدهشَتِ الجاريةُ ، فقالَ لها : لا روعَ عليكِ ، أنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالى[6]

وقيلَ : كانَ أويسٌ القرنيُّ إذا رآهُ الصبيانُ . . يرمونَهُ بالحجارةِ ، فكانَ يقولُ لهُمْ : يا إخوتاهُ ؛ إنْ كانَ ولا بدَّ . . فارموني بالصغارِ كي لا تُدموا ساقي فتمنعوني مِنَ الصلاةِ[7]

وشتمَ رجلٌ الأحنفَ بنَ قيسٍ وهوَ لا يجيبُهُ ، وكانَ يتبعُهُ ، فلمَّا قرُبَ مِنَ الحيّ . . وقفَ وقالَ : إنْ كانَ قدْ بقيَ في نفسِكَ شيءٌ فقلْهُ ؛ كي لا يسمعَكَ بعضُ سفهاءِ الحيّ فيؤذوكَ[8]

ورُوِيَ أنَّ علياً كرَّمَ اللهُ وجهَهُ دعا غلاماً لهُ فلمْ يجبْهُ ، فدعاهُ ثانياً وثالثاً فلمْ يجبْهُ ، فقامَ إليهِ ، فرآهُ مضطجعاً ، فقالَ : أما تسمعُ يا غلامُ ؟! قالَ : بلى ، قالَ : فما حملَكَ على تركِ جوابي ؟ قالَ : أمنتُ عقوبتَكَ فتكاسلتُ ، فقالَ : امضِ ، فأنتَ حرٌّ لوجهِ اللهِ تعالى[9]

وقالَتِ امرأةٌ لمالكِ بنِ دينارٍ رحمهُ اللهُ : يا مرائي ، فقالَ : يا هٰذهِ ؛ وجدتِ اسمي الذي أضلَّهُ أهلُ البصرةِ[10]

---

(١) الحريف : المُعامل .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٥) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .
(٥) سفُّود : كتنُّور ويضم ، حديدة ذات شعب معقفة ، يشوى بها .
(٦) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١١) .
(٧) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .
(٨) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .
(٩) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .
(١٠) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٣) .

بلْ ميلُ النفسِ إلىٰ هـٰذهِ الأمورِ الشنيعةِ خارجٌ عنِ الطبعِ ، يضاهي الميلَ إلىٰ أكلِ الطينِ ، فقدْ يغلبُ علىٰ بعضِ الناسِ ذٰلكَ بالعادةِ ، فأمَّا ميلُهُ إلى الحكمةِ ، وحبِّ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفتِهِ ، وعبادتِهِ . . فهوَ كالميلِ إلى الطعامِ والشرابِ ؛ فإنهُ مقتضىٰ طبعِ القلبِ ؛ فإنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ .

وميلُهُ إلىٰ مقتضياتِ الشهوةِ غريبٌ مِنْ ذاتِهِ ، وعارضٌ علىٰ طبعِهِ ، وإنَّما غذاءُ القلبِ الحكمةُ والمعرفةُ وحبُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولـٰكنِ انصرفَ عنْ مقتضىٰ طبعِهِ لمرضٍ قدْ حلَّ بهِ ؛ كما قدْ يحلُّ المرضُ بالمعدةِ ، فلا تشتهي الطعامَ والشرابَ وهما سببانِ لحياتِها ، فكلُّ قلبٍ مالَ إلىٰ حبِّ شيءٍ سوىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ فلا ينفكُّ عنْ مرضٍ بقدْرِ ميلِهِ إلا إذا أحبَّ ذٰلكَ الشيءَ لكونِهِ معيناً لهُ علىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ دينِهِ ، فعندَ ذٰلكَ لا يدلُّ ذٰلكَ على المرضِ .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ قدْ عرفتَ بهـٰذا قطعاً أنَّ هـٰذهِ الأخلاقَ الجميلةَ يمكنُ اكتسابُها بالرياضةِ ، وهيَ تكلُّفُ الأفعالِ الصادرةِ عنها ابتداءً ؛ لتصيرَ طبعاً انتهاءً ، وهـٰذا مِنْ عجيبِ العلاقةِ بينَ القلبِ والجوارحِ ؛ أعني : النفسَ والبدنَ ، فإنَّ كلَّ صفةٍ تظهرُ في القلبِ يفيضُ أثرُها على الجوارحِ حتَّىٰ لا تتحرَّكَ إلا علىٰ وَفْقِها لا محالةَ ، وكلُّ فعلٍ يجري على الجوارحِ فإنَّهُ قدْ يرتفعُ منهُ أثرٌ إلى القلبِ ، والأمرُ فيهِ دورٌ ، ويُعرفُ ذٰلكَ بمثالٍ ؛ وهوَ أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ الحذقُ في الكتابةِ لهُ صفةً نفسيةً حتَّىٰ يصيرَ كاتباً بالطبعِ . . فلا طريقَ لهُ إلا أنْ يتعاطىٰ بجارحةِ اليدِ ما يتعاطاهُ الكاتبُ الحاذقُ ، ويواظبَ عليهِ مدَّةً طويلةً ، وهوَ حكايةُ الخطِّ الحسنِ ، فإنَّ فعلَ الكاتبِ هوَ الخطُّ الحسنُ ، فيتشبَّهُ بالكاتبِ تكلُّفاً ، ثمَّ لا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ يصيرَ صفةً راسخةً في نفسِهِ ، فيصدرَ منهُ في الآخرِ الخطُّ الحسنُ طبعاً كما كانَ يصدرُ منهُ في الابتداءِ تكلُّفاً ، فكانَ الخطُّ الحسنُ هوَ الذي جعلَ خطَّهُ حسناً ، ولـٰكنَّ الأوَّلَ متكلَّفٌ ، إلا أنَّهُ ارتفعَ منهُ أثرٌ إلى القلبِ ، ثمَّ انخفضَ مِنَ القلبِ إلى الجارحةِ ، فصارَ يكتبُ الخطَّ الحسنَ بالطبعِ .

وكذٰلكَ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ فقيهَ النفسِ . . فلا طريقَ لهُ إلا أنْ يتعاطىٰ أفعالَ الفقهاءِ ، وهوَ التكرارُ للفقهِ ، حتَّىٰ تنعطفَ منهُ علىٰ قلبِهِ صفةُ الفقهِ ، فيصيرَ فقيهَ النفسِ .

وكذٰلكَ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ سخيّاً عفيفاً حليماً متواضعاً . . فيلزمُهُ أنْ يتعاطىٰ أفعالَ هـٰؤلاءِ تكلُّفاً حتَّىٰ يصيرَ لهُ ذٰلكَ بالعادةِ طبعاً ، فلا علاجَ لهُ إلا ذٰلكَ .

وكما أنَّ طالبَ فقهِ النفسِ لا ييئسُ مِنْ نيلِ هـٰذهِ الرتبةِ بتعطيلِ ليلةٍ ولا ينالُها بتكرارِ ليلةٍ . . فكذٰلكَ طالبُ تزكيةِ النفسِ وتكميلِها وتحليتِها بالأخلاقِ الحسنةِ لا ينالُها بعبادةِ يومٍ ولا يحرمُ عنها بعصيانِ يومٍ ، وهوَ معنىٰ قولِنا : (إنَّ الكبيرةَ الواحدةَ لا توجبُ الشقاوةَ المؤبَّدةَ) ، ولـٰكنَّ العُطلةَ في يومٍ واحدٍ تدعو إلىٰ مثلِها ، ثمَّ تتداعىٰ قليلاً قليلاً حتَّىٰ تأنسَ النفسُ بالكسلِ ، وتهجرَ التحصيلَ رأساً ، فيفوتَها فضيلةُ الفقهِ ، وكذٰلكَ صغائرُ المعاصي يجرُّ بعضُها إلىٰ بعضٍ حتَّىٰ تفوِّتَ أصلَ السعادةِ ، بهدمِ أصلِ الإيمانِ عندَ الخاتمةِ .

وكما أنَّ تكرارَ ليلةٍ لا يُحَسُّ تأثيرُهُ في تفقيهِ النفسِ ، بلْ يظهرُ فقهُ النفسِ شيئاً فشيئاً على التدريجِ مثلَ نموِّ البدنِ وارتفاعِ القامةِ . . فكذٰلكَ الطاعةُ الواحدةُ لا يُحسُّ تأثيرُها في تزكيةِ النفسِ وتطهيرِها في الحالِ ، ولـٰكنْ لا ينبغي أنْ يُستهانَ بقليلِ الطاعةِ ؛ فإنَّ الجملةَ الكثيرةَ منها مؤثرةٌ ، وإنَّما اجتمعَتِ الجملةُ مِنَ الآحادِ ، فلكلِّ واحدٍ منها تأثيرٌ ، فما مِنْ طاعةٍ إلا ولها أثرٌ وإنْ خفيَ ، فلهُ ثوابٌ لا محالةَ ؛ لأنَّ الثوابَ بإزاءِ الأثرِ ، وكذٰلكَ المعصيةُ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يحلُّ لمؤمنٍ أنْ يشيرَ إلىٰ أخيهِ بنظرةٍ تؤذيهِ »[1]

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يروّعَ مسلماً »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما يتجالسُ المتجالسانِ بأمانةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا يحلُّ لأحدِهِما أنْ يفشيَ علىٰ أخيهِ ما يكرهُهُ »[3]

وجمعَ بعضُهُمْ علاماتِ حسْنِ الخلقِ فقالَ : (هوَ أنْ يكونَ كثيرَ الحياءِ ، قليلَ الأذىٰ ، كثيرَ الصلاحِ ، صدوقَ اللسانِ ، قليلَ الكلامِ ، كثيرَ العملِ ، قليلَ الزللِ ، قليلَ الفضولِ ، برّاً ، وصولاً ، وَقوراً ، صبوراً ، شكوراً ، رضيّاً ، حليماً ، رفيقاً ، عفيفاً ، شفيقاً ، لا لعّاناً ، ولا سبّاباً ، ولا نمّاماً ، ولامغتاباً ، ولا عجولاً ، ولا حقوداً ، ولا بخيلاً ، ولا حسوداً ، هشّاشاً بشّاشاً ، يحبُّ في اللهِ ويبغضُ في اللهِ ، ويرضىٰ في اللهِ ويغضبُ في اللهِ ، فهٰذا هوَ حسنُ الخلقِ)[4]

وسُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ علامةِ المؤمنِ والمنافقِ فقالَ : « إنَّ المؤمنَ همَّتُهُ في الصلاةِ والصيامِ والعبادةِ ، والمنافقَ همَّتُهُ في الطعامِ والشرابِ كالبهيمةِ »[5]

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (المؤمنُ مشغولٌ بالفكرِ والعبرِ ، والمنافقُ مشغولٌ بالحرصِ والأملِ ، والمؤمنُ آيسٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمنافقُ راجٍ كلَّ أحدٍ إلا منَ اللهِ ، والمؤمنُ آمنٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمنافقُ خائفٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمؤمنُ يقدّمُ مالَهُ دونَ دينِهِ ، والمنافقُ يقدّمُ دينَهُ دونَ مالِهِ ، والمؤمنُ يحسِنُ ويبكي ، والمنافقُ يسيءُ ويضحكُ ، والمؤمنُ يحبُّ الخلوةَ والوحدةَ ، والمنافقُ يحبُّ الخُلطةَ والملأَ ، والمؤمنُ يزرعُ ويخشى الفسادَ ، والمنافقُ يقلعُ ويرجو الحصادَ ، والمؤمنُ يأمرُ وينهىٰ للسياسةِ فيصلحُ ، والمنافقُ يأمرُ وينهىٰ للرئاسةِ فيفسدُ)[6]

وأولىٰ ما يُمتحنُ بهِ حسْنُ الخلقِ الصبرُ على الأذىٰ ، واحتمالُ الجفاءِ ، ومَنْ شكا مِنْ سوءِ خلقِ غيرِهِ . . دلَّ ذٰلكَ علىٰ سوءِ خلقِهِ ؛ لأنَّ حسنَ الخلقِ احتمالُ الأذىٰ ، فقدْ رُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يوماً يمشي ومعَهُ أنسٌ ، فأدركَهُ أعرابيٌّ ، فجذبَهُ جذباً شديداً وكانَ عليهِ بردٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ ، قالَ أنسٌ : حتَّىٰ نظرتُ إلىٰ عنقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ أثَّرَتْ فيهِ حاشيةُ البرْدِ مِنْ شدَّةِ جذبِهِ ، فقالَ : يا محمدُ ؛ هبْ لي مِنْ مالِ اللهِ الذي عندَكَ ، فالتفتَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وضحكَ ، ثمَّ أمرَ بإعطائِهِ[7]

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٩) عن حمزة بن عبدة مرسلاً ، وزاد الحافظ العراقي : (وفي « البر والصلة » له من زيادات الحسين المروزي : حمزة بن عبد الله بن أبي سمي ، وهو الصواب) . « إتحاف » (٢٥٥/٦) ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٥٠٤/٥) : (عن حمزة بن عبيد مرسلاً ، هو ابن عبد الله بن عمر ، قال الذهبي : ثقة إمام) .

(٢) رواه أبو داوود (٥٠٠٤) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٦٧٧) عن أبي بكر بن حزم مرسلاً .

(٤) روىٰ هٰذا ضمن وصف طويل للمؤمن ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٩/١٧) عن ذي النون المصري .

(٥) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٣٥٩/٧) ، وقال : (ويشهد له قوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾) .

(٦) روىٰ بعض ذٰلك متفرقاً أبو نعيم في « الحلية » (٦٨/٨ ـ ٧١) عن حاتم الأصم وشقيق البلخي .

(٧) رواه البخاري (٣١٤٩) ، ومسلم (١٠٥٧) .

بيان تفصيل الطّريق إلى تهذيب الأخلاق

قدْ عرفتَ مِنْ قبلُ أنَّ الاعتدالَ في الأخلاقِ هوَ صحَّةٌ في النفسِ ، والميلَ عنِ الاعتدالِ سقمٌ ومرضٌ فيها ، كما أنَّ الاعتدالَ في مزاجِ البدنِ هوَ صحةٌ لهُ ، والميلَ عنِ الاعتدالِ مرضٌ فيهِ ، فلنتخذِ البدنَ مثالاً ، فنقولُ :

مثالُ النفسِ في علاجِها بمحوِ الرذائلِ والأخلاقِ الرديئةِ عنها ، وجلبِ الفضائلِ والأخلاقِ الجميلةِ إليها . . مثالُ البدنِ في علاجِهِ بمحوِ العللِ عنهُ ، وكسبِ الصحَّةِ لهُ وجلبِها إليهِ ، وكما أنَّ الغالبَ على أصلِ المزاجِ الاعتدالُ ، وإنَّما تعتري العلَّةُ المضرَّةُ بعوارضِ الأغذيةِ والأهويةِ والأحوالِ . . فكذٰلكَ كلُّ مولودٍ يُولدُ معتدلاً صحيحاً على الفطرةِ ، وإنَّما أبواهُ يهودانِهِ أوْ ينصِّرانِهِ أوْ يمجِّسانِهِ ؛ أيْ : بالاعتيادِ والتعليمِ تُكتسبُ الرذائلُ ، وكما أنَّ البدنَ في الابتداءِ لا يُخلقُ كاملاً ، وإنَّما يكملُ ويقوى بالنشوءِ والتربيةِ بالغذاءِ . . فكذٰلكَ النفسُ تُخلقُ ناقصةً قابلةً للكمالِ ، وإنَّما تكملُ بالتزكيةِ وتهذيبِ الأخلاقِ والتغذيةِ بالعلمِ .

وكما أنَّ البدنَ إنْ كانَ صحيحاً فشأنُ الطبيبِ تمهيدُ القانونِ الحافظِ للصحةِ ، وإنْ كانَ مريضاً فشأنُهُ جلبُ الصحَّةِ إليهِ . . فكذٰلكَ النفسُ منكَ ؛ إنْ كانَتْ زكيَّةً طاهرةً مهذَّبةً . . فينبغي أنْ تسعى لحفظِها وحفظِ صفتِها ، وجلبِ مزيدِ قوَّةٍ إليها ، واكتسابِ زيادةِ صفائِها ، وإنْ كانَتْ عديمةَ الكمالِ والصفاءِ . . فينبغي أن تسْعى لجلبِ ذٰلكَ إليها .

وكما أنَّ العلَّةَ المغيِّرةَ لاعتدالِ البدنِ الموجبةَ للمرضِ لا تُعالجُ إلا بضدِّها ؛ فإنْ كانَتْ مِنْ حرارةٍ فبالبرودةِ ، وإنْ كانتْ مِنْ برودةٍ فبالحرارةِ . . فكذٰلكَ الرذيلةُ التي هيَ مرضُ القلبِ علاجُها بضدِّها ، فيُعالجُ مرضُ الجهلِ بالتعلُّمِ ، ومرضُ البخلِ بالتسخِّي ، ومرضُ الكبْرِ بالتواضعِ ، ومرضُ الشَّرَهِ بالكفِّ عنِ المشتهى تكلُّفاً .

وكما أنَّهُ لا بدَّ مِنِ احتمالِ مرارةِ الدواءِ ، وشدَّةِ الصبرِ عنِ المشتهياتِ لعلاجِ الأبدانِ المريضةِ . . فكذٰلكَ لا بدَّ مِنِ احتمالِ مرارةِ المجاهدةِ والصبرِ لمداواةِ مرضِ القلبِ ، بلْ هٰذا أولى ، فإنَّ مرضَ البدنِ يخلصُ منهُ بالموتِ ، ومرضُ القلبِ والعياذُ باللهِ مرضٌ يدومُ بعدَ الموتِ أبدَ الآبادِ .

وكما أنَّ كلَّ مبرِّدٍ لا يصلحُ لعلَّةٍ سببُها الحرارةُ إلا إذا كانَ على حدٍّ مخصوصٍ ، ويختلفُ ذٰلكَ بالشدَّةِ والضعفِ ، والدوامِ وعدمِهِ ، وبالكثرةِ والقلَّةِ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ معيارٍ يُعرفُ بِهِ مقدارُ النافعِ منهُ ؛ فإنَّهُ إنْ لمْ يُحفظْ معيارُهُ زادَ الفسادُ . . فكذٰلكَ النقائضُ التي تُعالجُ بها الأخلاقُ لا بدَّ لها مِنْ معيارٍ .

وكما أنَّ معيارَ الدواءِ مأخوذٌ مِنْ عيارِ العلَّةِ ، حتَّى إنَّ الطبيبَ لا يعالجُ ما لمْ يعرفْ أنَّ العلَّةَ مِنْ حرارةٍ أوْ برودةٍ ؛ فإنْ كانَتْ مِنْ حرارةٍ . . فيعرفُ درجتَها أهيَ ضعيفةٌ أمْ قويَّةٌ ، فإذا عرفَ ذٰلكَ . . التفتَ إلى أحوالِ البدنِ وأحوالِ الزمانِ وصناعةِ المريضِ وسنِّهِ وسائرِ أحوالِهِ ، ثمَّ يعالجُ بحسَبِها . . فكذٰلكَ الشيخُ المتبوعُ الذي يطبُّ نفوسَ المريدينَ ، ويعالجُ قلوبَ المسترشدينَ ، ينبغي ألا يهجمَ عليهِمْ بالرياضةِ والتكاليفِ في فنٍّ مخصوصٍ وفي طريقٍ مخصوصٍ ما لمْ يعرفْ أخلاقَهُمْ وأمراضَهُمْ .

وكما أنَّ الطبيبَ لوْ عالجَ جميعَ المرضى بعلاجٍ واحدٍ قتلَ أكثرَهُمْ . . فكذٰلكَ الشيخُ لوْ أشارَ على المريدينَ بنمطٍ

الشهرِ بالإضافةِ إلىٰ عمرِ الدنيا ، فلا بدَّ مِنَ الصبرِ والمجاهدةِ ، فعندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ[1] ، وتذهبُ عنهُمْ عماياتُ الكرىٰ ، كما قالهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ .

وطريقُ المجاهدةِ والرياضةِ لكلِّ إنسانٍ تختلفُ بحسَبِ اختلافِ أحوالِهِ ، **والأصلُ فيهِ** : أنْ يتركَ كلُّ واحدٍ ما بهِ فرحُهُ مِنْ أسبابِ الدنيا ، فالذي يفرحُ بالمالِ ، أوْ بالجاهِ ، أوْ بالقبولِ في الوعظِ ، أوْ بالعزِّ في القضاءِ والولايةِ ، أوْ بكثرةِ الأتباعِ في التدريسِ والإفادةِ . . فينبغي أنْ يتركَ أوَّلاً ما بهِ فرحُهُ ، فإنَّهُ إنْ مُنِعَ عنْ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ، وقيلَ لهُ : (ثوابُكَ في الآخرةِ لا ينقصُ بالمنعِ) ، فكرهَ ذٰلكَ وتألَّمَ بهِ . . فهوَ ممَّنْ فرحَ بالحياةِ الدنيا واطمأنَّ بها ، وذٰلكَ مهلكٌ في حقِّهِ .

ثمَّ إذا تركَ أسبابَ الفرحِ . . فليعتزلِ الناسَ ، ولينفردْ بنفسِهِ ، وليراقبْ قلبَهُ ؛ حتَّىٰ لا يشتغلَ إلا بذكرِ اللهِ تعالىٰ والفكرِ فيهِ ، وليترصَّدْ لما يبدو في نفسِهِ مِنْ شهوةٍ ووسواسٍ ؛ حتَّىٰ يقمعَ مادَّتَهُ مهما ظهرَ ، فإنَّ لكلِّ وسوسةٍ سبباً ، ولا تزولُ إلا بقطْعِ ذٰلكَ السببِ والعلاقةِ ، وليلازمْ ذٰلكَ بقيَّةَ العمرِ ، فليسَ للجهادِ آخرٌ إلا الموتَ .

❋ ❋ ❋

---

(١) وهو سير الليل ، فمن أسهر ليله . . سار إلىٰ مقصوده ، فإذا أصبح ورأىٰ نفسه قد قطع مفاوز لم يكن يمكن قطعها في النهار . . يحمد نفسه علىٰ حسن اجتهاده لنيله مقصوده ، بخلاف من آثر الكسل واختار الراحة والنوم ، يندم إذا أصبح عليه النهار ، وهٰذا مثل مشهور . « إتحاف » (٣٥٦/٧) .

وبعضُهُمْ كانَ يستشعرُ في نفسِهِ الجبنَ وضعفَ القلبِ ، فأرادَ أنْ يحصلَ لنفسِهِ خلُقَ الشجاعةِ ، فكانَ يركبُ البحرَ في الشتاءِ عندَ اضطرابِ الأمواجِ .

وعبَّادُ الهندِ يعالجونَ الكسلَ عنِ العبادةِ بالقيامِ طَوالَ الليلِ على نصبةٍ واحدةٍ .

وبعضُ الشيوخِ في ابتداءِ إرادتِهِ كانَ يكسلُ عنِ القيامِ ، فألزمَ نفسَهُ القيامَ على رأسِهِ طولَ الليلِ لتسمحَ بالقيامِ على الرجْلِ عنْ طوعٍ .

وعالجَ بعضُهُمْ حبَّ المالِ بأنْ باعَ جميعَ مالِهِ ورمىٰ بهِ في البحرِ ؛ إذْ خافَ مِنْ تفرقتِهِ على الناسِ رعونةَ الرياءِ بالبذلِ .

فهٰذهِ الأمثلةُ تعرِّفُكَ طريقَ معالجةِ القلوبِ ، وليسَ غرضُنا ذكرَ دواءِ كلِّ مرضٍ ، فإنَّ ذٰلكَ سيأتي في بقيَّةِ الكتبِ ، وإنَّما غرضُنا الآنَ التنبيهُ على أنَّ الطريقَ الكليَّ فيهِ سلوكُ مسلكِ المضادَّةِ لكلِّ ما تهواهُ النفسُ وتميلُ إليهِ ، وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ ذٰلكَ كلَّهُ في كتابِهِ العزيزِ في كلمةٍ واحدةٍ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

والأصلُ المهمُّ في المجاهدةِ : الوفاءُ بالعزمِ ، فإذا عزَم على تركِ شهوةٍ . . تيسَّرَتْ أسبابُها ، ويكونُ ذٰلكَ ابتلاءً مِنَ اللهِ تعالىٰ واختباراً ، فينبغي أن يصبرَ ويستمرَّ ، فإنَّهُ إنْ عوَّدَ نفسَهُ نكْثَ العزْمِ . . ألفَتْ ذٰلكَ ، ففسدَتْ ، وإذا اتفقَ منهُ نقضُ عزمٍ . . فينبغي أنْ يلزمَ نفسَهُ عقوبةً عليهِ كما ذكرناهُ في معاقبةِ النفسِ في كتابِ المحاسبةِ والمراقبةِ ، وإذا لمْ يخوِّفِ النفسَ بعقوبةٍ . . غلبَتْهُ ، وحسَّنَتْ عندَهُ تناولَ الشهوةِ ، فتفسدُ بها الرياضةُ بالكليَّةِ .

* * *

والثالثُ : رجلٌ اشتغلَ بالدنيا والدينِ ، ولـٰكنَّ الغالبَ علىٰ قلبِهِ هوَ الدينُ ، فهـٰذا لا بدَّ لهُ مِنْ ورودِ النارِ ، إلا أنَّهُ ينجو منها سريعاً ، بقدْرِ غلبةِ ذكْرِ اللهِ علىٰ قلبِهِ .

والرابعُ : رجلٌ اشتغلَ بهما جميعاً ، لـٰكنَّ الدنيا أغلبُ علىٰ قلبِهِ ، فهـٰذا يطولُ مُقامُهُ في النارِ ، لـٰكنْ يخرجُ منها لا محالةَ ؛ لقوَّةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ في قلبِهِ ، وتمكُّنِهِ مِنْ صميمِ فؤادِهِ ، وإنْ كانَ ذكرُ الدنيا أغلبَ علىٰ قلبِهِ ، اللهمَّ ؛ إنا نعوذُ بكَ مِنْ خزيِكَ ؛ فإنكَ أنتَ المعاذُ .

❁ ❁ ❁

وربَّما يقولُ القائلُ : إنَّ التنعُّمَ بالمباحِ مباحٌ ، فكيفَ يكونُ التنعُّم سببَ البعدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

وهـٰذا خيالٌ ضعيفٌ ، بلْ حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وسببُ إحباطِ كلِّ حسنةٍ ، والمباحُ الخارجُ عنْ قدْرِ الحاجةِ أيضاً مِنَ الدنيا ، وهو سببُ البعدِ ، وسيأتي ذٰلكَ في كتابِ ذمِّ الدنيا .

وقدْ قالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ : كنتُ مرةً في جبلِ اللُّكامِ ، فرأيتُ رُمَّاناً ، فاشتهيتُهُ ، فأخذتُ منهُ واحدةً ، فشققتُها ، فوجدتُها حامضةً ، فمضيتُ وتركتُها ، فرأيتُ رجلاً مطروحاً وقدِ اجتمعَتْ عليهِ الزنابيرُ ، فقلتُ : السلامُ عليكَ ، فقالَ : وعليكَ السلامُ يا إبراهيمُ ، فقلتُ : كيفَ عرفتني ؟! قالَ : مَنْ عرفَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . لمْ يخفَ عليهِ شيءٌ ، فقلتُ : أرىٰ لكَ حالاً معَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلوْ سألتَهُ أنْ يحميَكَ مِنْ هـٰذِهِ الزنابيرِ !! فقالَ : وأرىٰ لكَ حالاً معَ اللهِ تعالىٰ ، فلوْ سألتَهُ أنْ يحميَكَ مِنْ شهوةِ الرمَّانِ ، فإنَّ لدغَ الرمَّانِ يجدُ الإنسانُ ألمَهُ في الآخرةِ ، ولدغَ الزنابيرِ يجدُ ألمَهُ في الدنيا ، فتركتُهُ ومضيتُ (١) .

وقالَ السريُّ : (منذُ أربعينَ سنةً تطالبُني نفسي أنْ أغمسَ جزرةً في دبسٍ فما أطعمتُها) (٢)

فإذاً ؛ لا يمكنُ إصلاحُ القلبِ لسلوكِ طريقِ الآخرةِ ما لمْ يمنعْ نفسَه مِنَ التنعُّمِ بالمباحِ ؛ فإنَّ النفسَ إذا لمْ تُمنعْ بعضَ المباحاتِ . . طمعَتْ في المحظوراتِ .

❁ ❁ ❁

فمَنْ أرادَ حفظَ لسانِهِ عنِ الغيبةِ والفضولِ . . فحقُّهُ أنْ يلزمَ السكوتَ إلا عنْ ذكرِ اللهِ ، وإلا عَنِ المهمَّاتِ في الدينِ ؛ حتَّىٰ تموتَ منه شهوةُ الكلامِ ، فلا يتكلَّمُ إلا بحقٍّ ، فيكونُ سكوتُهُ عبادةً ، وكلامُهُ عبادةً .

ومهما اعتادَتِ العينُ رميَ البصرِ إلىٰ كلِّ شيءٍ جميلٍ . . لمْ تتحفَّظْ عنِ النظرِ إلىٰ ما لا يحلُّ ، وكذٰلكَ سائرُ الشهواتِ ؛ لأنَّ الذي يُشتهىٰ بهِ الحلالُ هوَ بعينِهِ الذي يُشتهىٰ بهِ الحرامُ ، فالشهوةُ واحدةٌ ، وقدْ وجبَ على العبدِ منعُها مِنَ الحرامِ ، فإنْ لمْ يعوِّدْها الاقتصارَ علىٰ قدْرِ الضرورةِ مِنَ الشهواتِ . . غلبَتْهُ الشهوةُ .

فهـٰذِهِ إحدىٰ آفاتِ المباحاتِ ، ووراءَها آفةٌ عظيمةٌ أعظمُ مِنْ هـٰذِهِ ، وهوَ أنَّ النفسَ تفرحُ بالتنعُّمِ في الدنيا وتركنُ إليها ، وتطمئنُّ بها أشراً وبطراً حتَّىٰ تصيرَ ثملةً ، كالسكرانِ الذي لا يفيقُ مِنْ سكرِهِ ، وذٰلكَ الفرحُ بالدنيا سمٌّ قاتلٌ يسري في العروقِ ، فيخرجُ مِنَ القلبِ الخوفَ والحزنَ ، وذكرَ الموتِ وأهوالَ يومِ القيامةِ ، وهـٰذا هوَ موتُ القلبِ .

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٧٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٦/١٠) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤١٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٧٧) ، وفي (ج) : (أطعتها) .

لمستحقِّهِ . . فاعلمْ أنَّ الغالبَ عليكَ خلقُ البخلِ ، فزدْ في المواظبةِ على البذلِ ، فإنْ صارَ البذلُ على غيرِ المستحقِّ ألذَّ عندَكَ وأخفَّ عليكَ مِنَ الإمساكِ بالحقِّ . . فقدْ غلبَ عليكَ التبذيرُ ، فارجعْ إلى المواظبةِ على الإمساكِ ، فلا تزالُ تراقبُ نفسَكَ وتستدلُّ علىٰ خلقِكَ بتيسيرِ الأفعالِ وتعسيرِها حتَّىٰ تنقطعَ علاقةُ قلبِكَ عنِ الالتفاتِ إلى المالِ ، فلا تميلُ إلىٰ بذلِهِ ولا إلىٰ إمساكِهِ ، بلْ يصيرُ عندَكَ كالماءِ ، فلا تطلبُ فيهِ إلا إمساكَهُ لحاجةِ محتاجٍ أوْ بذلَهُ لحاجةِ محتاجٍ ، ولا يترجَّحُ عندَكَ البذلُ على الإمساكِ .

فكلُّ قلبٍ صارَ كذٰلكَ فقدْ أتى اللهَ سليماً عنْ هٰذا المقامِ خاصَّةً ، ويجبُ أنْ يكونَ سليماً عنْ سائرِ الأخلاقِ ، حتَّىٰ لا يكونَ لهُ علاقةٌ بشيءٍ ممَّا يتعلَّقُ بالدنيا ، حتَّىٰ ترتحلَ النفسُ عنِ الدنيا منقطعةَ العلائقِ عنها ، غيرَ ملتفتةٍ إليها ، ولا متشوِّفةٍ إلىٰ أسبابِها ، فعندَ ذٰلكَ ترجعُ إلىٰ ربِّها رجوعَ النفسِ المطمئنةِ راضيةً مرضيةً ، داخلةً في زمرةِ عبادِ اللهِ المقرَّبينَ ، مِنَ النبيِّينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، وحسنَ أولـٰئكَ رفيقاً .

ولمَّا كانَ الوسطُ الحقيقيُّ بينَ الطرفينِ في غايةِ الغموضِ ، بلْ هوَ أدقُّ مِنَ الشعرِ وأحدُّ مِنَ السيفِ ؛ فلا جرمَ مَنِ استوىٰ علىٰ هٰذا الصراطِ المستقيمِ في الدنيا . . جازَ علىٰ مثلِ هٰذا الصراطِ في الآخرةِ ، وقلَّما ينفكُّ العبدُ عنْ ميلٍ عنِ الصراطِ المستقيمِ ـ أعني الوسطَ ـ حتَّىٰ لا يميلَ إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، فيكونُ قلبُهُ متعلِّقاً بالجانبِ الذي مالَ إليهِ ، ولذٰلكَ لا ينفكُّ عنْ عذابٍ ما واجتيازٍ على النارِ ، وإنْ كانَ مثلَ البرقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ أي : الذينَ كانَ قربُهُمْ إلى الصراطِ المستقيمِ أكثرَ مِنْ بعدِهِمْ عنهُ .

ولأجلِ عسْرِ الاستقامةِ وجبَ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يدعوَ اللهَ تعالىٰ في كلِّ يومٍ سبعَ عشرةَ مرَّةً في قولِهِ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إذ وجبَتْ قراءةُ الفاتحةِ في كلِّ ركعةٍ .

فقدْ رُويَ أنَّ بعضَهم رأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقالَ : قدْ قلتَ يا رسولَ اللهِ : « شيَّبَتْني هودٌ » فلِمَ قلتَ ذٰلكَ ؟ قالَ : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ (١)

فالاستقامةُ علىٰ سواءِ السبيلِ في غايةِ الغموضِ ، ولـٰكنْ ينبغي أنْ يجتهدَ الإنسانُ في القربِ مِنَ الاستقامةِ إنْ لمْ يقدرْ علىٰ حقيقتِها ، فكلُّ مَنْ أرادَ النجاةَ فلا نجاةَ لهُ إلا بالعملِ الصالحِ ، ولا تصدرُ الأعمالُ الصالحةُ إلا عنِ الأخلاقِ الحسنةِ ، فليتفقدْ كلُّ عبدٍ صفاتِهِ وأخلاقَهُ وليعدِّدْها ، وليشتغلْ بعلاجٍ واحدٍ واحدٍ منها على الترتيبِ ، فنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يجعلَنا مِنَ المتقينَ .

* * *

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٢١٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٣٥٧) ، وأما حديث : « شيبتني هود » . . فقد تقدم .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ مِنْ نفسي ، مرَّةً لي ، ومرَّةً عليَّ)(١)

وكانَ أبو العباسِ الموصليُّ يقولُ لنفسِهِ : (يا نفسُ ؛ لا في الدنيا معَ أبناءِ الملوكِ تتنعَّمينَ ، ولا في طلبِ الآخرةِ معَ العبَّادِ تجتهدينَ ، كأنِّي بكِ بينَ الجنةِ والنارِ تُحبسينَ ، يا نفسُ ؛ ألا تستحينَ ؟!) .

وقالَ الحسنُ : (ما الدابَّةُ الجموحُ بأحوجَ إلى اللجامِ الشديدِ مِنْ نفسِكَ) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ : (جاهدْ نفسَكَ بأسيافِ الرياضةِ ، والرياضةُ علىٰ أربعةِ أوجهٍ : القوتُ مِنَ الطعامِ ، والغمضُ مِنَ المنامِ ، والحاجةُ مِنَ الكلامِ ، وحملُ الأذىٰ مِنْ جميعِ الأنامِ ، فيتولَّدُ مِنْ قلَّةِ الطعامِ موتُ الشهواتِ ، ومِنْ قلَّةِ المنامِ صفوُ الإراداتِ ، ومِنْ قلَّةِ الكلامِ السلامةُ مِنَ الآفاتِ ، ومِنِ احتمالِ الأذى البلوغُ إلى الغاياتِ ، وليسَ على العبدِ شيءٌ أشدَّ مِنَ الحِلْمِ عندَ الجفا ، والصبرِ على الأذىٰ ، وإذا تحرَّكَتْ مِنَ النفسِ إرادةُ الشهواتِ والآثامِ ، وهاجَتْ منها حلاوةُ فضولِ الكلامِ . . جرِّدْتَ عليها سيوفَ قلَّةِ الطعامِ مِنْ غمدِ التهجُّدِ وقلَّةِ المنامِ ، وضربتَها بأيدي الخمولِ وقلَّةِ الكلامِ ، حتَّىٰ تنقطعَ عنِ الظلمِ والانتقامِ ، فتأمنَ بوائقَها في سائرِ الأيامِ ، وتصفِّيَها مِنْ ظلمةِ شهواتِها ، فتنجوَ مِنْ غوائلِ آفاتِها ، فتصيرَ عندَ ذٰلكَ روحانيَّةً لطيفةً ، ونوريَّةً خفيفةً ، فتجولَ في ميدانِ الخيراتِ ، وتسيرَ في مسالكِ الطاعاتِ ؛ كالفرسِ الفارهِ في الميدانِ ، وكالمَلِكِ المتنزِّهِ في البستانِ) .

وقالَ أيضاً : (أعداءُ الإنسانِ ثلاثةٌ : دنياهُ ، وشيطانُهُ ، ونفسُهُ ، فاحترسْ مِنَ الدنيا بالزهدِ فيها ، ومِنَ الشيطانِ بمخالفتِهِ ، ومِنَ النفسِ بتركِ الشهواتِ) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنِ استولَتْ عليهِ النفسُ . . صارَ أسيراً في جبِّ شهواتِها ، محصوراً في سجنِ هواها ، مقهوراً مغلولاً ، زمامُهُ في يدِها تجرُّهُ حيثُ شاءَتْ ، فتمنعُ قلبَهُ الفوائدَ)(٢)

وقالَ جعفرُ بنُ حميدٍ : (أجمعَتِ العلماءُ والحكماءُ علىٰ أنَّ النعيمَ لا يُدركُ إلا بتركِ النعيمِ) .

وقالَ أبو يحيى الورَّاقُ : (مَنْ أرضى الجوارحَ بالشهواتِ . . فقدْ غرسَ في قلبِهِ شجرَ الندامات)(٣)

وقالَ وُهيبُ بنُ الوردِ : (ما زادَ على الخبزِ فهوَ شهوةٌ)(٤)

وقالَ أيضاً : (مَنْ أحبَّ شهواتِ الدنيا . . فليتهيَّأْ للذلِّ)(٥)

ويُروىٰ أنَّ امرأةَ العزيزِ قالَتْ ليوسفَ عليهِ السلامُ بعدَ أنْ ملكَ خزائنَ الأرضِ وقعدَتْ لهُ علىٰ رابيةِ الطريقِ في يومِ موكبِهِ وكانَ يركبُ في زهاءِ اثني عشرَ ألفاً مِنْ عظماءِ مملكتِهِ : سبحانَ مَنْ جعلَ الملوكَ عبيداً بالمعصيةِ ، وجعلَ العبيدَ ملوكاً بطاعتِهِمْ لهُ ، يا يوسفُ ؛ إنَّ الحرصَ والشهوةَ صيَّرا الملوكَ عبيداً وذٰلكَ جزاءُ المفسدينَ ، وإنَّ الصبرَ والتقوىٰ صيَّرا العبيدَ ملوكاً ، فقالَ يوسفُ : كما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(٦)

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٥) .

(٢) روى القشيري في « رسالته » (ص ٩٦) نحوه عن أبي محمد الجريري .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٥٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٩٢) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٤٨) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٧١) .

(٦) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١١٧٢٤) مختصراً .

فقدْ كانَتْ شهوةُ ذوي الدينِ أنْ يتنبهوا لعيوبِهِمْ بتنبيهِ غيرِهِمْ ، وقدْ آلَ الأمرُ في أمثالِنا إلىٰ أنَّ أبغضَ الخلْقِ إلينا مَنْ ينصحُنا ويعرِّفُنا عيوبَنا ، ويكادُ هٰذا يكونُ مفصحاً عنْ ضعفِ الإيمانِ ؛ فإنَّ الأخلاقَ السيئةَ حيَّاتٌ وعقاربُ لداغةٌ ، فلو نبَّهَنا منبِّهٌ علىٰ أنَّ تحتَ ثوبِنا عقرباً . . لتقلَّدنا منهُ منَّةً ، وفرحنا بهِ ، واشتغلنا بإزالةِ العقربِ وإبعادِها وقتلِها ، وإنَّما نكايتُها على البدنِ ، ويدومُ ألمُها يوماً فما دونَهُ ، ونكايةُ الأخلاقِ الرديئةِ علىٰ صميمِ القلبِ ، ويُخشىٰ أنْ تدومَ بعدَ الموتِ أبداً ، أوْ آلافاً مِنَ السنينَ ، ثمَّ لا نفرحُ بمَنْ ينبهُنا عليها ، ولا نشتغلُ بإزالتِها ، بلْ نشتغلُ بمقابلةِ الناصحِ بمثلِ مقالتِهِ ، فنقولُ لهُ : (وأنتَ أيضاً تصنعُ كيتَ وكيتَ) ، وتشغلُنا العداوةُ معَهُ عنِ الانتفاعِ بنصحِهِ ، ويشبهُ أنْ يكونَ ذٰلكَ مِنْ قساوةِ القلبِ التي أثمرَتْها كثرةُ الذنوبِ ، وأصلُ ذٰلكَ ضعفُ الإيمانِ ، فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يعرِّفَنا رشدَنا ، ويبصِّرَنا بعيوبِ أنفسِنا ، ويشغلَنا بمداواتِها ، ويوفقَنا للقيامِ بشكرِ مَنْ يطلعُنا علىٰ مساوئِنا بمنِّهِ وفضلِهِ .

❀ ❀ ❀

الطريقُ الثالثُ : أنْ يستفيدَ معرفةَ عيوبِ نفسِهِ مِنْ ألسنةِ أعدائِهِ ؛ فإنَّ عينَ السخطِ تبدي المساوئَ ، ولعلَّ انتفاعَ الإنسانِ بعدوٍّ مشاحنٍ يذكِّرُهُ عيوبَهُ أكثرُ مِنِ انتفاعِهِ بصديقٍ مداهنٍ يثني عليهِ ويمدحُهُ ، ويخفي عنهُ عيوبَهُ ، إلا أنَّ الطبعَ مجبولٌ علىٰ تكذيبِ العدوِّ ، وحملِ ما يقولُهُ على الحسدِ ، ولٰكنَّ البصيرَ لا يخلو عنِ الانتفاعِ بقولِ أعدائِهِ ؛ فإنَّ مساوئَهُ لا بدَّ وأنْ تنتشرَ علىٰ ألسنتِهم .

❀ ❀ ❀

الطريقُ الرابعُ : أنْ يخالطَ الناسَ ، فكلُّ ما رآهُ مذموماً فيما بينَ الخلقِ فليطالبْ نفسَهُ بهِ وينسبْها إليهِ ؛ فإنَّ المؤمنَ مرآةُ المؤمنِ ، فيرىٰ مِنْ عيوبِ غيرِهِ عيوبَ نفسِهِ ، ويعلمُ أنَّ الطباعَ متقاربةٌ في اتباعِ الهوىٰ ، فما يتصفُ بهِ واحدٌ مِنَ الأقرانِ لا ينفكُّ القرنُ الآخرُ عنْ أصلِهِ ، أوْ عنْ أعظمَ منهُ ، أوْ عنْ شيءٍ منهُ ، فليتفقَّدْ نفسَهُ ويطهرْها منْ كلِّ ما يذمُّهُ مِنْ غيرِهِ ، وناهيكَ بهٰذا تأديباً ، فلوْ تركَ الناسُ كلُّهُمْ ما يكرهونَهُ مِنْ غيرِهِمْ . . لاستغنوا عنِ المؤدِّبِ .

قيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : مَنْ أدَّبَكَ ؟ قالَ : ما أدَّبَني أحدٌ ، رأيتُ جهلَ الجاهلِ شيناً فاجتنبتُهُ [1]

وهٰذا كلُّهُ حِيَلُ مَنْ فقدَ شيخاً عارفاً زكياً ، بصيراً بعيوبِ النفسِ ، مشفقاً ناصحاً في الدينِ ، فارغاً مِن تهذيبِ نفسِهِ ، مشتغلاً بتهذيبِ عبادِ اللهِ تعالىٰ ، ناصحاً لهُمْ ، فمَنْ وجدَ ذٰلكَ . . فقدْ وجدَ الطبيبَ ، فليلازمْهُ ، فهوَ الذي يخلِّصُهُ مِنْ مرضِهِ ، وينجيهِ مِنَ الهلاكِ الذي هوَ بصددِهِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) كذا أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٤٤٢) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٥٠) ولٰكن عن بعض الحكماء .

فقدْ كانَتْ شهوةُ ذوي الدينِ أنْ يتنبهوا لعيوبِهِمْ بتنبيهِ غيرِهِمْ ، وقدْ آلَ الأمرُ في أمثالِنا إلىٰ أنَّ أبغضَ الخلْقِ إلينا مَنْ ينصحُنا ويعرِّفُنا عيوبَنا ، ويكادُ هٰذا يكونُ مفصحاً عنْ ضعفِ الإيمانِ ؛ فإنَّ الأخلاقَ السيئةَ حيَّاتٌ وعقاربُ لداغةٌ ، فلو نبَّهَنا منبِّهٌ علىٰ أنَّ تحتَ ثوبِنا عقرباً . . لتقلَّدنا منهُ منَّةً ، وفرحنا بهِ ، واشتغلنا بإزالةِ العقربِ وإبعادِها وقتلِها ، وإنَّما نكايتُها على البدنِ ، ويدومُ ألمُها يوماً فما دونَهُ ، ونكايةُ الأخلاقِ الرديئةِ علىٰ صميمِ القلبِ ، ويُخشىٰ أنْ تدومَ بعدَ الموتِ أبداً ، أوْ آلافاً مِنَ السنينَ ، ثمَّ لا نفرحُ بمَنْ ينبهُنا عليها ، ولا نشتغلُ بإزالتِها ، بلْ نشتغلُ بمقابلةِ الناصحِ بمثلِ مقالتِهِ ، فنقولُ لهُ : (وأنتَ أيضاً تصنعُ كيتَ وكيتَ) ، وتشغلُنا العداوةُ معَهُ عنِ الانتفاعِ بنصحِهِ ، ويشبهُ أنْ يكونَ ذٰلكَ مِنْ قساوةِ القلبِ التي أثمرَتْها كثرةُ الذنوبِ ، وأصلُ ذٰلكَ ضعفُ الإيمانِ ، فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يعرِّفَنا رشدَنا ، ويبصِّرَنا بعيوبِ أنفسِنا ، ويشغلَنا بمداواتِها ، ويوفقَنا للقيامِ بشكرِ مَنْ يطلعُنا علىٰ مساوئِنا بمنِّهِ وفضلِهِ .

❋ ❋ ❋

الطريقُ الثالثُ : أنْ يستفيدَ معرفةَ عيوبِ نفسِهِ مِنْ ألسنةِ أعدائِهِ ؛ فإنَّ عينَ السخطِ تبدي المساوئَ ، ولعلَ انتفاعَ الإنسانِ بعدوٍّ مشاحنٍ يذكِّرُهُ عيوبَهُ أكثرُ مِنِ انتفاعِهِ بصديقٍ مداهنٍ يثني عليهِ ويمدحُهُ ، ويخفي عنهُ عيوبَهُ ، إلا أنَّ الطبعَ مجبولٌ علىٰ تكذيبِ العدوِّ ، وحملِ ما يقولُهُ على الحسدِ ، ولٰكنَّ البصيرَ لا يخلو عنِ الانتفاعِ بقولِ أعدائِهِ ؛ فإنَّ مساوئَهُ لا بدَّ وأنْ تنتشرَ علىٰ ألسنتِهم .

❋ ❋ ❋

الطريقُ الرابعُ : أنْ يخالطَ الناسَ ، فكلُّ ما رآهُ مذموماً فيما بينَ الخلقِ فليطالبْ نفسَهُ بهِ وينسبْها إليهِ ؛ فإنَّ المؤمنَ مرآةُ المؤمنِ ، فيرىٰ مِنْ عيوبِ غيرِهِ عيوبَ نفسِهِ ، ويعلمُ أنَّ الطباعَ متقاربةٌ في اتباعِ الهوىٰ ، فما يتصفُ بهِ واحدٌ مِنَ الأقرانِ لا ينفكُّ القرنُ الآخرُ عنْ أصلِهِ ، أوْ عنْ أعظمَ منهُ ، أوْ عنْ شيءٍ منهُ ، فليتفقَّدْ نفسَهُ ويطهرْها منْ كلِّ ما يذمُّهُ مِنْ غيرِهِ ، وناهيكَ بهٰذا تأديباً ، فلوْ تركَ الناسُ كلُّهُمْ ما يكرهونَهُ مِنْ غيرِهِمْ . . لاستغنوا عنِ المؤدِّبِ .

قيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : مَنْ أدَّبَكَ ؟ قالَ : ما أدَّبَني أحدٌ ، رأيتُ جهلَ الجاهلِ شيناً فاجتنبتُهُ[(١)]

وهٰذا كلُّهُ حِيَلُ مَنْ فقدَ شيخاً عارفاً زكياً ، بصيراً بعيوبِ النفسِ ، مشفقاً ناصحاً في الدينِ ، فارغاً مِن تهذيبِ نفسِهِ ، مشتغلاً بتهذيبِ عبادِ اللهِ تعالىٰ ، ناصحاً لهُمْ ، فمَنْ وجدَ ذٰلكَ . . فقدْ وجدَ الطبيبَ ، فليلازمْهُ ، فهوَ الذي يخلِّصُهُ مِنْ مرضِهِ ، وينجيهِ مِنَ الهلاكِ الذي هوَ بصددِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كذا أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٤٤٢) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٥٠) ولٰكن عن بعض الحكماء .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ مِنْ نفسي ، مرَّةً لي ، ومرَّةً عليَّ)[١]

وكانَ أبو العباسِ الموصليُّ يقولُ لنفسِهِ : (يا نفسُ ؛ لا في الدنيا معَ أبناءِ الملوكِ تتنعَّمينَ ، ولا في طلبِ الآخرةِ معَ العبَّادِ تجتهدينَ ، كأنِّي بكِ بينَ الجنةِ والنارِ تُحبسينَ ، يا نفسُ ؛ ألا تستحينَ ؟!) .

وقالَ الحسنُ : (ما الدابَّةُ الجموحُ بأحوجَ إلى اللجامِ الشديدِ مِنْ نفسِكَ) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ : (جاهدْ نفسَكَ بأسيافِ الرياضةِ ، والرياضةُ على أربعةِ أوجهٍ : القوتُ مِنَ الطعامِ ، والغمضُ مِنَ المنامِ ، والحاجةُ مِنَ الكلامِ ، وحملُ الأذىٰ مِنْ جميعِ الأنامِ ، فيتولَّدُ مِنْ قلَّةِ الطعامِ موتُ الشهواتِ ، ومِنْ قلَّةِ المنامِ صفوُ الإراداتِ ، ومِنْ قلَّةِ الكلامِ السلامةُ مِنَ الآفاتِ ، ومِنِ احتمالِ الأذى البلوغُ إلى الغاياتِ ، وليسَ على العبدِ شيءٌ أشدَّ مِنَ الحِلْمِ عندَ الجفا ، والصبرِ على الأذىٰ ، وإذا تحرَّكَتْ مِنَ النفسِ إرادةُ الشهواتِ والآثامِ ، وهاجَتْ منها حلاوةُ فضولِ الكلامِ . . جرَّدْتَ عليها سيوفَ قلَّةِ الطعامِ مِنْ غمدِ التهجُّدِ وقلَّةِ المنامِ ، وضربتَها بأيدي الخمولِ وقلَّةِ الكلامِ ، حتَّىٰ تنقطعَ عنِ الظلمِ والانتقامِ ، فتأمنَ بوائقَها في سائرِ الأيامِ ، وتصفِّيَها مِنْ ظلمةِ شهواتِها ، فتنجوَ مِنْ غوائلِ آفاتِها ، فتصيرَ عندَ ذٰلكَ روحانيَّةً لطيفةً ، ونوريَّةً خفيفةً ، فتجولَ في ميدانِ الخيراتِ ، وتسيرَ في مسالكِ الطاعاتِ ؛ كالفرسِ الفارهِ في الميدانِ ، وكالمَلِكِ المتنزِّهِ في البستانِ) .

وقالَ أيضاً : (أعداءُ الإنسانِ ثلاثةٌ : دنياهُ ، وشيطانُهُ ، ونفسُهُ ، فاحترسْ مِنَ الدنيا بالزهدِ فيها ، ومِنَ الشيطانِ بمخالفتِهِ ، ومِنَ النفسِ بتركِ الشهواتِ) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنِ استولَتْ عليهِ النفسُ . . صارَ أسيراً في جبِّ شهواتِها ، محصوراً في سجنِ هواها ، مقهوراً مغلولاً ، زمامُهُ في يدِها تجرُّهُ حيثُ شاءَتْ ، فتمنعُ قلبَهُ الفوائدَ)[٢]

وقالَ جعفرُ بنُ حميدٍ : (أجمعَتِ العلماءُ والحكماءُ علىٰ أنَّ النعيمَ لا يُدركُ إلا بتركِ النعيمِ) .

وقالَ أبو يحيى الورَّاقُ : (مَنْ أرضى الجوارحَ بالشهواتِ . . فقدْ غرسَ في قلبِهِ شجرَ النداماتِ)[٣]

وقالَ وُهيبُ بنُ الوردِ : (ما زادَ على الخبزِ فهوَ شهوةٌ)[٤]

وقالَ أيضاً : (مَنْ أحبَّ شهواتِ الدنيا . . فليتهيَّأْ للذلِّ)[٥]

ويُروىٰ أنَّ امرأةَ العزيزِ قالَتْ ليوسفَ عليهِ السلامُ بعدَ أنْ ملكَ خزائنَ الأرضِ وقعدَتْ لهُ علىٰ رابيةِ الطريقِ في يومِ موكبِهِ وكانَ يركبُ في زهاءِ اثني عشرَ ألفاً مِنْ عظماءِ مملكتِهِ : سبحانَ مَنْ جعلَ الملوكَ عبيداً بالمعصيةِ ، وجعلَ العبيدَ ملوكاً بطاعتِهِمْ لهُ ، يا يوسفُ ؛ إنَّ الحرصَ والشهوةَ صيَّرا الملوكَ عبيداً وذٰلكَ جزاءُ المفسدينَ ، وإنَّ الصبرَ والتقوىٰ صيَّرا العبيدَ ملوكاً ، فقالَ يوسفُ : كما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٦]

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٧) .
(٢) روى القشيري في « رسالته » (ص ٩٦) نحوه عن أبي محمد الجريري .
(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٥٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٩٢) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٨/٨) .
(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٧١) .
(٦) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١١٧٢٤) مختصراً .

لمستحقِهِ . . فاعلمْ أنَّ الغالبَ عليكَ خلقُ البخلِ ، فزدْ في المواظبةِ على البذلِ ، فإنْ صارَ البذلُ على غيرِ المستحقِّ ألذَّ عندَكَ وأخفَّ عليكَ مِنَ الإمساكِ بالحقِّ . . فقدْ غلبَ عليكَ التبذيرُ ، فارجعْ إلى المواظبةِ على الإمساكِ ، فلا تزالُ تراقبُ نفسَكَ وتستدلُّ علىٰ خلقِكَ بتيسيرِ الأفعالِ وتعسيرِها حتَّىٰ تنقطعَ علاقةُ قلبِكَ عنِ الالتفاتِ إلى المالِ ، فلا تميلُ إلىٰ بذلِهِ ولا إلىٰ إمساكِهِ ، بلْ يصيرُ عندَكَ كالماءِ ، فلا تطلبُ فيهِ إلا إمساكَهُ لحاجةِ محتاجٍ أوْ بذلَهُ لحاجةِ محتاجٍ ، ولا يترجَّحُ عندَكَ البذلُ على الإمساكِ .

فكلُّ قلبٍ صارَ كذٰلكَ فقدْ أتى اللهَ سليماً عنْ هٰذا المقامِ خاصَّةً ، ويجبُ أنْ يكونَ سليماً عنْ سائرِ الأخلاقِ ، حتَّىٰ لا يكونَ لهُ علاقةٌ بشيءٍ ممَّا يتعلَّقُ بالدنيا ، حتَّىٰ ترتحلَ النفسُ عنِ الدنيا منقطعةَ العلائقِ عنها ، غيرَ ملتفتةٍ إليها ، ولا متشوِّفةٍ إلىٰ أسبابِها ، فعندَ ذٰلكَ ترجعُ إلىٰ ربِّها رجوعَ النفسِ المطمئنةِ راضيةً مرضيةً ، داخلةً في زمرةِ عبادِ اللهِ المقرَّبينَ ، مِنَ النبيِّينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، وحسنَ أولٰئكَ رفيقاً .

ولمَّا كانَ الوسطُ الحقيقيُّ بينَ الطرفينِ في غايةِ الغموضِ ، بلْ هوَ أدقُّ مِنَ الشعرِ وأحدُّ مِنَ السيفِ ؛ فلا جرمَ مَنِ استوىٰ علىٰ هٰذا الصراطِ المستقيمِ في الدنيا . . جازَ علىٰ مثلِ هٰذا الصراطِ في الآخرةِ ، وقلَّما ينفكُّ العبدُ عنْ ميلٍ عنِ الصراطِ المستقيمِ ـ أعني الوسطَ ـ حتَّىٰ لا يميلَ إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، فيكونُ قلبُهُ متعلِّقاً بالجانبِ الذي مالَ إليهِ ، ولذٰلكَ لا ينفكُّ عنْ عذابٍ ما واجتيازٍ على النارِ ، وإنْ كانَ مثلَ البرقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ أي : الذينَ كانَ قربُهُمْ إلى الصراطِ المستقيمِ أكثرَ مِنْ بعدِهِمْ عنهُ .

ولأجلِ عسْرِ الاستقامةِ وجبَ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يدعوَ اللهَ تعالىٰ في كلِّ يومٍ سبعَ عشرةَ مرَّةً في قولِهِ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إذ وجبَتْ قراءةُ الفاتحةِ في كلِّ ركعةٍ .

فقدْ رُويَ أنَّ بعضَهم رأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقالَ : قدْ قلتَ يا رسولَ اللهِ : « شيَّبَتْني هودٌ » فلِمَ قلتَ ذٰلكَ ؟ قالَ : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ (١)

فالاستقامةُ علىٰ سواءِ السبيلِ في غايةِ الغموضِ ، ولٰكنْ ينبغي أنْ يجتهدَ الإنسانُ في القربِ مِنَ الاستقامةِ إنْ لمْ يقدرْ علىٰ حقيقتِها ، فكلُّ مَنْ أرادَ النجاةَ فلا نجاةَ لهُ إلا بالعملِ الصالحِ ، ولا تصدرُ الأعمالُ الصالحةُ إلا عنِ الأخلاقِ الحسنةِ ، فليتفقدْ كلُّ عبدٍ صفاتِهِ وأخلاقَهُ وليعدِّدْها ، وليشتغلْ بعلاجٍ واحدٍ واحدٍ منها على الترتيبِ ، فنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يجعلَنا مِنَ المتقينَ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٢١٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٣٥٧) ، وأما حديث : « شيبتني هود » . . فقد تقدم .

والثالثُ : رجلٌ اشتغلَ بالدنيا والدينِ ، ولٰكنَّ الغالبَ علىٰ قلبِهِ هوَ الدينُ ، فهٰذا لا بدَّ لهُ مِنْ ورودِ النارِ ، إلا أنَّهُ ينجو منها سريعاً ، بقدْرِ غلبةِ ذكْرِ اللهِ علىٰ قلبِهِ .

والرابعُ : رجلٌ اشتغلَ بهما جميعاً ، لٰكنَّ الدنيا أغلبُ علىٰ قلبِهِ ، فهٰذا يطولُ مُقامُهُ في النارِ ، لٰكنْ يخرجُ منها لا محالةَ ؛ لقوَّةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ في قلبِهِ ، وتمكُّنِهِ مِنْ صميمِ فؤادِهِ ، وإنْ كانَ ذكرُ الدنيا أغلبَ علىٰ قلبِهِ ، اللهمَّ ؛ إنا نعوذُ بكَ مِنْ خزيِكَ ؛ فإنكَ أنتَ المعاذُ .

❀ ❀ ❀

وربَّما يقولُ القائلُ : إنَّ التنعُّمَ بالمباحِ مباحٌ ، فكيفَ يكونُ التنعُّم سببَ البعدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

وهٰذا خيالٌ ضعيفٌ ، بلْ حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وسببُ إحباطِ كلِّ حسنةٍ ، والمباحُ الخارجُ عنْ قدْرِ الحاجةِ أيضاً مِنَ الدنيا ، وهو سببُ البعدِ ، وسيأتي ذٰلكَ في كتابِ ذمِّ الدنيا .

وقدْ قالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ : كنتُ مرةً في جبلِ اللُّكامِ ، فرأيتُ رُمَّاناً ، فاشتهيتُهُ ، فأخذتُ منهُ واحدةً ، فشققتُها ، فوجدتُها حامضةً ، فمضيتُ وتركتُها ، فرأيتُ رجلاً مطروحاً وقدِ اجتمعَتْ عليهِ الزنابيرُ ، فقلتُ : السلامُ عليكَ ، فقالَ : وعليكَ السلامُ يا إبراهيمُ ، فقلتُ : كيفَ عرفتني ؟! قالَ : مَنْ عرفَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . لمْ يخفَ عليهِ شيءٌ ، فقلتُ : أرىٰ لكَ حالاً معَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلوْ سألتَهُ أنْ يحميَكَ مِنْ هٰذِهِ الزنابيرِ !! فقالَ : وأرىٰ لكَ حالاً معَ اللهِ تعالىٰ ، فلوْ سألتَهُ أنْ يحميَكَ مِنْ شهوةِ الرمَّانِ ، فإنَّ لدغَ الرمَّانِ يجدُ الإنسانُ ألمَهُ في الآخرةِ ، ولدغَ الزنابيرِ يجدُ ألمَهُ في الدنيا ، فتركتُهُ ومضيتُ (١) .

وقالَ السريُّ : (منذُ أربعينَ سنةً تطالبُني نفسي أنْ أغمسَ جزرةً في دبسٍ فما أطعمتُها) (٢) .

فإذاً ؛ لا يمكنُ إصلاحُ القلبِ لسلوكِ طريقِ الآخرةِ ما لمْ يمنعْ نفسَه مِنَ التنعُّمِ بالمباحِ ؛ فإنَّ النفسَ إذا لمْ تُمنعْ بعضَ المباحاتِ . . طمعَتْ في المحظوراتِ .

❀ ❀ ❀

فمَنْ أرادَ حفظَ لسانِهِ عنِ الغيبةِ والفضولِ . . فحقُّهُ أنْ يلزمَ السكوتَ إلا عنْ ذكرِ اللهِ ، وإلا عَنِ المهمَّاتِ في الدينِ ؛ حتَّىٰ تموتَ منه شهوةُ الكلامِ ، فلا يتكلَّمُ إلا بحقٍّ ، فيكونُ سكوتُهُ عبادةً ، وكلامُهُ عبادةً .

ومهما اعتادَتِ العينُ رميَ البصرِ إلىٰ كلِّ شيءٍ جميلٍ . . لمْ تتحفَّظْ عنِ النظرِ إلىٰ ما لا يحلُّ ، وكذٰلكَ سائرُ الشهواتِ ؛ لأنَّ الذي يُشتهىٰ بهِ الحلالُ هوَ بعينِهِ الذي يُشتهىٰ بهِ الحرامُ ، فالشهوةُ واحدةٌ ، وقدْ وجبَ على العبدِ منعُها مِنَ الحرامِ ، فإنْ لمْ يعوِّدْها الاقتصارَ علىٰ قدْرِ الضرورةِ مِنَ الشهواتِ . . غلبَتْهُ الشهوةُ .

فهٰذِهِ إحدىٰ آفاتِ المباحاتِ ، ووراءَها آفةٌ عظيمةٌ أعظمُ مِنْ هٰذهِ ، وهوَ أنَّ النفسَ تفرحُ بالتنعُّمِ في الدنيا وتركنُ إليها ، وتطمئنُّ بها أشراً وبطراً حتَّىٰ تصيرَ ثملةً ، كالسكرانِ الذي لا يفيقُ مِنْ سكرِهِ ، وذٰلكَ الفرحُ بالدنيا سمٌّ قاتلٌ يسري في العروقِ ، فيخرجُ مِنَ القلبِ الخوفَ والحزنَ ، وذكرَ الموتِ وأهوالَ يومِ القيامةِ ، وهٰذا هوَ موتُ القلبِ .

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٧٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٦/١٠) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤١٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٧٧) ، وفي (ج) : (أطعتها) .

وبعضُهُمْ كانَ يستشعرُ في نفسِهِ الجبنَ وضعفَ القلبِ ، فأرادَ أنْ يحصلَ لنفسِهِ خلُقَ الشجاعةِ ، فكانَ يركبُ البحرَ في الشتاءِ عندَ اضطرابِ الأمواجِ .

وعبَّادُ الهندِ يعالجونَ الكسلَ عنِ العبادةِ بالقيامِ طَوالَ الليلِ علىٰ نصبةٍ واحدةٍ .

وبعضُ الشيوخِ في ابتداءِ إرادتِهِ كانَ يكسلُ عنِ القيامِ ، فألزمَ نفسَهُ القيامَ علىٰ رأسِهِ طولَ الليلِ لتسمحَ بالقيامِ على الرجْلِ عنْ طوعٍ .

وعالجَ بعضُهُمْ حبَّ المالِ بأنْ باعَ جميعَ مالِهِ ورمىٰ بهِ في البحرِ ؛ إذْ خافَ مِنْ تفرقتِهِ على الناسِ رعونةَ الرياءِ بالبذلِ .

فهٰذهِ الأمثلةُ تعرِّفُكَ طريقَ معالجةِ القلوبِ ، وليسَ غرضُنا ذكرَ دواءِ كلِّ مرضٍ ، فإنَّ ذٰلكَ سيأتي في بقيَّةِ الكتبِ ، وإنَّما غرضُنا الآنَ التنبيهُ علىٰ أنَّ الطريقَ الكليَّ فيهِ سلوكُ مسلكِ المضادَّةِ لكلِّ ما تهواهُ النفسُ وتميلُ إليهِ ، وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ ذٰلكَ كلَّهُ في كتابِهِ العزيزِ في كلمةٍ واحدةٍ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

والأصلُ المهمُّ في المجاهدةِ : الوفاءُ بالعزمِ ، فإذا عزَمَ علىٰ تركِ شهوةٍ . . تيسَّرَتْ أسبابُها ، ويكونُ ذٰلكَ ابتلاءً مِنَ اللهِ تعالىٰ واختباراً ، فينبغي أن يصبرَ ويستمرَّ ، فإنَّهُ إنْ عوَّدَ نفسَهُ نكْثَ العزْمِ . . ألفَتْ ذٰلكَ ، ففسدَتْ ، وإذا اتفقَ منهُ نقضُ عزمٍ . . فينبغي أنْ يلزمَ نفسَهُ عقوبةً عليهِ كما ذكرناهُ في معاقبةِ النفسِ في كتابِ المحاسبةِ والمراقبةِ ، وإذا لمْ يخوِّفِ النفسَ بعقوبةٍ . . غلبَتْهُ ، وحسَّنَتْ عندَهُ تناولَ الشهوةِ ، فتفسدُ بها الرياضةُ بالكليَّةِ .

❋ ❋ ❋

الشهرِ بالإضافةِ إلىٰ عمرِ الدنيا ، فلا بدَّ مِنَ الصبرِ والمجاهدةِ ، فعندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ[1] ، وتذهبُ عنهُمْ عماياتُ الكرىٰ ، كما قالهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ .

وطريقُ المجاهدةِ والرياضةِ لكلِّ إنسانٍ تختلفُ بحسَبِ اختلافِ أحوالِهِ ، **والأصلُ فيهِ** : أنْ يتركَ كلُّ واحدٍ ما بهِ فرحُهُ مِنْ أسبابِ الدنيا ، فالذي يفرحُ بالمالِ ، أوْ بالجاهِ ، أوْ بالقبولِ في الوعظِ ، أوْ بالعزِّ في القضاءِ والولايةِ ، أوْ بكثرةِ الأتباعِ في التدريسِ والإفادةِ . . فينبغي أنْ يتركَ أوَّلاً ما بهِ فرحُهُ ، فإنَّهُ إنْ مُنِعَ عنْ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ، وقيلَ لهُ : (ثوابُكَ في الآخرةِ لا ينقصُ بالمنعِ) ، فكرهَ ذٰلكَ وتألَّمَ بهِ . . فهوَ ممَّنْ فرحَ بالحياةِ الدنيا واطمأنَّ بها ، وذٰلكَ مهلكٌ في حقِّهِ .

ثمَّ إذا تركَ أسبابَ الفرحِ . . فليعتزلِ الناسَ ، ولينفردْ بنفسِهِ ، وليراقبْ قلبَهُ ؛ حتَّىٰ لا يشتغلَ إلا بذكرِ اللهِ تعالىٰ والفكرِ فيهِ ، وليترصَّدْ لما يبدو في نفسِهِ مِنْ شهوةٍ ووسواسٍ ؛ حتَّىٰ يقمعَ مادَّتَهُ مهما ظهرَ ، فإنَّ لكلِّ وسوسةٍ سبباً ، ولا تزولُ إلا بقطْعِ ذٰلكَ السببِ والعلاقةِ ، وليلازمْ ذٰلكَ بقيَّةَ العمرِ ، فليسَ للجهادِ آخرٌ إلا الموتَ .

* * *

(١) وهو سير الليل ، فمن أسهر ليله . . سار إلىٰ مقصوده ، فإذا أصبح ورأىٰ نفسه قد قطع مفاوز لم يكن يمكن قطعها في النهار . . يحمد نفسه علىٰ حسن اجتهاده لنيله مقصوده ، بخلاف من آثر الكسل واختار الراحة والنوم ، يندم إذا أصبح عليه النهار ، وهٰذا مثل مشهور . « إتحاف » (٣٥٦/٧) .

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قدْ عرفتَ مِنْ قبلُ أنَّ الاعتدالَ في الأخلاقِ هوَ صحَّةٌ في النفسِ ، والميلَ عنِ الاعتدالِ سقمٌ ومرضٌ فيها ، كما أنَّ الاعتدالَ في مزاجِ البدنِ هوَ صحةٌ لهُ ، والميلَ عنِ الاعتدالِ مرضٌ فيهِ ، فلنتخذِ البدنَ مثالاً ، فنقولُ :

مثالُ النفسِ في علاجِها بمحوِ الرذائلِ والأخلاقِ الرديئةِ عنها ، وجلبِ الفضائلِ والأخلاقِ الجميلةِ إليها . . مثالُ البدنِ في علاجِهِ بمحوِ العللِ عنهُ ، وكسبِ الصحَّةِ لهُ وجلبِها إليهِ ، وكما أنَّ الغالبَ علىٰ أصلِ المزاجِ الاعتدالُ ، وإنَّما تعتري العلَّةُ المضرَّةُ بعوارضِ الأغذيةِ والأهويةِ والأحوالِ . . فكذٰلكَ كلُّ مولودٍ يُولدُ معتدلاً صحيحاً على الفطرةِ ، وإنَّما أبواهُ يهودانِهِ أوْ ينصِّرانِهِ أوْ يمجِّسانِهِ ؛ أيْ : بالاعتيادِ والتعليمِ تُكتسبُ الرذائلُ ، وكما أنَّ البدنَ في الابتداءِ لا يُخلقُ كاملاً ، وإنَّما يكملُ ويقوىٰ بالنشوءِ والتربيةِ بالغذاءِ . . فكذٰلكَ النفسُ تُخلقُ ناقصةً قابلةً للكمالِ ، وإنَّما تكملُ بالتزكيةِ وتهذيبِ الأخلاقِ والتغذيةِ بالعلمِ .

وكما أنَّ البدنَ إنْ كانَ صحيحاً فشأنُ الطبيبِ تمهيدُ القانونِ الحافظِ للصحةِ ، وإنْ كانَ مريضاً فشأنُهُ جلبُ الصحَّةِ إليهِ . . فكذٰلكَ النفسُ منكَ ؛ إنْ كانَتْ زكيَّةً طاهرةً مهذَّبةً . . فينبغي أنْ تسعىٰ لحفظِها وحفظِ صفتِها ، وجلبِ مزيدِ قوَّةٍ إليها ، واكتسابِ زيادةِ صفائِها ، وإنْ كانَتْ عديمةَ الكمالِ والصفاءِ . . فينبغي أن تسْعىٰ لجلبِ ذٰلكَ إليها .

وكما أنَّ العلَّةَ المغيِّرةَ لاعتدالِ البدنِ الموجبةَ للمرضِ لا تُعالجُ إلا بضدِّها ؛ فإنْ كانَتْ مِنْ حرارةٍ فبالبرودةِ ، وإنْ كانتْ مِنْ برودةٍ فبالحرارةِ . . فكذٰلكَ الرذيلةُ التي هيَ مرضُ القلبِ علاجُها بضدِّها ، فيُعالجُ مرضُ الجهلِ بالتعلُّمِ ، ومرضُ البخلِ بالتسخِّي ، ومرضُ الكبْرِ بالتواضعِ ، ومرضُ الشَّرَهِ بالكفِّ عنِ المشتهىٰ تكلُّفاً .

وكما أنَّهُ لا بدَّ مِنِ احتمالِ مرارةِ الدواءِ ، وشدَّةِ الصبرِ عنِ المشتهياتِ لعلاجِ الأبدانِ المريضةِ . . فكذٰلكَ لا بدَّ مِنِ احتمالِ مرارةِ المجاهدةِ والصبرِ لمداواةِ مرضِ القلبِ ، بلْ هـٰذا أولىٰ ، فإنَّ مرضَ البدنِ يخلصُ منهُ بالموتِ ، ومرضُ القلبِ والعياذُ باللهِ مرضٌ يدومُ بعدَ الموتِ أبدَ الآبادِ .

وكما أنَّ كلَّ مبرِّدٍ لا يصلحُ لعلَّةٍ سببُها الحرارةُ إلا إذا كانَ علىٰ حدٍّ مخصوصٍ ، ويختلفُ ذٰلكَ بالشدَّةِ والضعفِ ، والدوامِ وعدمِهِ ، وبالكثرةِ والقلَّةِ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ معيارٍ يُعرفُ بهِ مقدارُ النافعِ منهُ ؛ فإنَّهُ إنْ لمْ يُحفظْ معيارُهُ زادَ الفسادُ . . فكذٰلكَ النقائضُ التي تُعالجُ بها الأخلاقُ لا بدَّ لها مِنْ معيارٍ .

وكما أنَّ معيارَ الدواءِ مأخوذٌ مِنْ عيارِ العلَّةِ ، حتَّىٰ إنَّ الطبيبَ لا يعالجُ ما لمْ يعرفْ أنَّ العلَّةَ مِنْ حرارةٍ أوْ برودةٍ ؛ فإنْ كانَتْ مِنْ حرارةٍ . . فيعرفُ درجتَها أهيَ ضعيفةٌ أمْ قويَّةٌ ، فإذا عرفَ ذٰلكَ . . التفتَ إلىٰ أحوالِ البدنِ وأحوالِ الزمانِ وصناعةِ المريضِ وسنِّهِ وسائرِ أحوالِهِ ، ثمَّ يعالجُ بحسَبِها . . فكذٰلكَ الشيخُ المتبوعُ الذي يطبُّ نفوسَ المريدينَ ، ويعالجُ قلوبَ المسترشدينَ ، ينبغي ألا يهجمَ عليهِمْ بالرياضةِ والتكاليفِ في فنٍّ مخصوصٍ وفي طريقٍ مخصوصٍ ما لمْ يعرفْ أخلاقَهُمْ وأمراضَهُمْ .

وكما أنَّ الطبيبَ لوْ عالجَ جميعَ المرضىٰ بعلاجٍ واحدٍ قتلَ أكثرَهُمْ . . فكذٰلكَ الشيخُ لوْ أشارَ على المريدينَ بنمطٍ

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يحلُّ لمؤمنٍ أنْ يشيرَ إلىٰ أخيهِ بنظرةٍ تؤذيهِ »(١)

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يروِّعَ مسلماً »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما يتجالسُ المتجالسانِ بأمانةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا يحلُّ لأحدِهما أنْ يفشيَ علىٰ أخيهِ ما يكرهُهُ »(٣)

وجمعَ بعضُهُمْ علاماتِ حسْنِ الخلقِ فقالَ : (هوَ أنْ يكونَ كثيرَ الحياءِ ، قليلَ الأذىٰ ، كثيرَ الصلاحِ ، صدوقَ اللسانِ ، قليلَ الكلامِ ، كثيرَ العملِ ، قليلَ الزللِ ، قليلَ الفضولِ ، برّاً ، وصولاً ، وَقوراً ، صبوراً ، شكوراً ، رضيّاً ، حليماً ، رفيقاً ، عفيفاً ، شفيقاً ، لا لعَّاناً ، ولا سبَّاباً ، ولا نمَّاماً ، ولامغتاباً ، ولا عجولاً ، ولا حقوداً ، ولا بخيلاً ، ولا حسوداً ، هشَّاشاً بشَّاشاً ، يحبُّ في اللهِ ويبغضُ في اللهِ ، ويرضىٰ في اللهِ ويغضبُ في اللهِ ، فهٰذا هوَ حسنُ الخلقِ)(٤)

وسُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ علامةِ المؤمنِ والمنافقِ فقالَ : « إنَّ المؤمنَ همَّتُهُ في الصلاةِ والصيامِ والعبادةِ ، والمنافقَ همَّتُهُ في الطعامِ والشرابِ كالبهيمةِ »(٥)

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (المؤمنُ مشغولٌ بالفكرِ والعبرِ ، والمنافقُ مشغولٌ بالحرصِ والأملِ ، والمؤمنُ آيسٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمنافقُ راجٍ كلَّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمؤمنُ آمنٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمنافقُ خائفٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمؤمنُ يقدِّمُ مالَهُ دونَ دينِهِ ، والمنافقُ يقدِّمُ دينَهُ دونَ مالِهِ ، والمؤمنُ يحسِنُ ويبكي ، والمنافقُ يسيءُ ويضحكُ ، والمؤمنُ يحبُّ الخلوةَ والوحدةَ ، والمنافقُ يحبُّ الخُلطةَ والملأَ ، والمؤمنُ يزرعُ ويخشى الفسادَ ، والمنافقُ يقلعُ ويرجو الحصادَ ، والمؤمنُ يأمرُ وينهىٰ للسياسةِ فيصلحُ ، والمنافقُ يأمرُ وينهىٰ للرئاسةِ فيفسدُ)(٦)

وأولىٰ ما يُمتحنُ بهِ حسْنُ الخلقِ الصبرُ على الأذىٰ ، واحتمالُ الجفاءِ ، ومَنْ شكا مِنْ سوءِ خلقِ غيرِهِ . . دلَّ ذٰلكَ علىٰ سوءِ خلقِهِ ؛ لأنَّ حسنَ الخلقِ احتمالُ الأذىٰ ، فقدْ رُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يوماً يمشي ومعَهُ أنسٌ ، فأدركَهُ أعرابيٌّ ، فجذبَهُ جذباً شديداً وكانَ عليهِ بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ ، قالَ أنسٌ : حتَّىٰ نظرتُ إلىٰ عنقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ أثَّرَتْ فيهِ حاشيةُ البرْدِ مِنْ شدَّةِ جذبِهِ ، فقالَ : يا محمدُ ؛ هبْ لي مِنْ مالِ اللهِ الذي عندَكَ ، فالتفتَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وضحكَ ، ثمَّ أمرَ بإعطائِهِ(٧)

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٩) عن حمزة بن عبدة مرسلاً ، وزاد الحافظ العراقي : (وفي « البر والصلة » له من زيادات الحسين المروزي : حمزة بن عبد الله بن أبي سمي ، وهو الصواب) . « إتحاف » (٦/٢٥٥) ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٥/٥٠٤) : (عن حمزة بن عبيد مرسلاً ، هو ابن عبد الله بن عمر ، قال الذهبي : ثقة إمام) .

(٢) رواه أبو داوود (٥٠٠٤) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٦٧٧) عن أبي بكر بن حزم مرسلاً .

(٤) روىٰ هٰذا ضمن وصف طويل للمؤمن ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/٤١٩) عن ذي النون المصري .

(٥) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/٣٥٩) ، وقال : (ويشهد له قوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾) .

(٦) روىٰ بعض ذٰلك متفرقاً أبو نعيم في « الحلية » (٨/٦٨ ـ ٧١) عن حاتم الأصم وشقيق البلخي .

(٧) رواه البخاري (٣١٤٩) ، ومسلم (١٠٥٧) .

بلْ ميلُ النفسِ إلىٰ هـٰذهِ الأمورِ الشنيعةِ خارجٌ عنِ الطبعِ ، يضاهي الميلَ إلىٰ أكلِ الطينِ ، فقدْ يغلبُ علىٰ بعضِ الناسِ ذٰلكَ بالعادةِ ، فأمَّا ميلُهُ إلى الحكمةِ ، وحبِّ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفتِهِ ، وعبادتِهِ . . فهوَ كالميلِ إلى الطعامِ والشرابِ ؛ فإنهُ مقتضىٰ طبعِ القلبِ ؛ فإنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ .

وميلُهُ إلىٰ مقتضياتِ الشهوةِ غريبٌ مِنْ ذاتِهِ ، وعارضٌ علىٰ طبعِهِ ، وإنَّما غذاءُ القلبِ الحكمةُ والمعرفةُ وحبُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولـٰكنِ انصرفَ عنْ مقتضىٰ طبعِهِ لمرضٍ قدْ حلَّ بهِ ؛ كما قدْ يحلُّ المرضُ بالمعدةِ ، فلا تشتهي الطعامَ والشرابَ وهما سببانِ لحياتِها ، فكلُّ قلبٍ مالَ إلىٰ حبِّ شيءٍ سوىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ فلا ينفكُّ عنْ مرضٍ بقدْرِ ميلِهِ إلا إذا أحبَّ ذٰلكَ الشيءَ لكونِهِ معيناً لهُ علىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ دينِهِ ، فعندَ ذٰلكَ لا يدلُّ ذٰلكَ على المرضِ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ قدْ عرفتَ بهـٰذا قطعاً أنَّ هـٰذهِ الأخلاقَ الجميلةَ يمكنُ اكتسابُها بالرياضةِ ، وهيَ تكلُّفُ الأفعالِ الصادرةِ عنها ابتداءً ؛ لتصيرَ طبعاً انتهاءً ، وهـٰذا مِنْ عجيبِ العلاقةِ بينَ القلبِ والجوارحِ ؛ أعني : النفسَ والبدنَ ، فإنَّ كلَّ صفةٍ تظهرُ في القلبِ يفيضُ أثرُها على الجوارحِ حتَّىٰ لا تتحرَّكَ إلا علىٰ وَفْقِها لا محالةَ ، وكلُّ فعلٍ يجري على الجوارحِ فإنَّهُ قدْ يرتفعُ منهُ أثرٌ إلى القلبِ ، والأمرُ فيهِ دورٌ ، ويُعرفُ ذٰلكَ بمثالٍ ؛ وهوَ أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ الحذقُ في الكتابةِ لهُ صفةً نفسيةً حتَّىٰ يصيرَ كاتباً بالطبعِ . . فلا طريقَ لهُ إلا أنْ يتعاطىٰ بجارحةِ اليدِ ما يتعاطاهُ الكاتبُ الحاذقُ ، ويواظبَ عليهِ مدَّةً طويلةً ، وهوَ حكايةُ الخطِّ الحسنِ ، فإنَّ فعلَ الكاتبِ هوَ الخطُّ الحسنُ ، فيتشبَّهُ بالكاتبِ تكلُّفاً ، ثمَّ لا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ يصيرَ صفةً راسخةً في نفسِهِ ، فيصدرَ منهُ في الآخرِ الخطُّ الحسنُ طبعاً كما كانَ يصدرُ منهُ في الابتداءِ تكلُّفاً ، فكانَ الخطُّ الحسنُ هوَ الذي جعلَ خطَّهُ حسناً ، ولـٰكنَّ الأوَّلَ متكلَّفٌ ، إلا أنَّهُ ارتفعَ منهُ أثرٌ إلى القلبِ ، ثمَّ انخفضَ مِنَ القلبِ إلى الجارحةِ ، فصارَ يكتبُ الخطَّ الحسنَ بالطبعِ .

وكذٰلكَ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ فقيهَ النفسِ . . فلا طريقَ لهُ إلا أنْ يتعاطىٰ أفعالَ الفقهاءِ ، وهوَ التكرارُ للفقهِ ، حتَّىٰ تنعطفَ منهُ علىٰ قلبِهِ صفةُ الفقهِ ، فيصيرَ فقيهَ النفسِ .

وكذٰلكَ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ سخيّاً عفيفاً حليماً متواضعاً . . فيلزمُهُ أنْ يتعاطىٰ أفعالَ هـٰؤلاءِ تكلُّفاً حتَّىٰ يصيرَ لهُ ذٰلكَ بالعادةِ طبعاً ، فلا علاجَ لهُ إلا ذٰلكَ .

وكما أنَّ طالبَ فقهِ النفسِ لا ييئسُ مِنْ نيلِ هـٰذهِ الرتبةِ بتعطيلِ ليلةٍ ولا ينالُها بتكرارِ ليلةٍ . . فكذٰلكَ طالبُ تزكيةِ النفسِ وتكميلِها وتحليتِها بالأخلاقِ الحسنةِ لا ينالُها بعبادةِ يومٍ ولا يحرمُ عنها بعصيانِ يومٍ ، وهوَ معنىٰ قولِنا : (إنَّ الكبيرةَ الواحدةَ لا توجبُ الشقاوةَ المؤبَّدةَ) ، ولـٰكنَّ العُطلةَ في يومٍ واحدٍ تدعو إلىٰ مثلِها ، ثمَّ تتداعىٰ قليلاً قليلاً حتَّىٰ تأنسَ النفسُ بالكسلِ ، وتهجرَ التحصيلَ رأساً ، فيفوتَها فضيلةُ الفقهِ ، وكذٰلكَ صغائرُ المعاصي يجرُّ بعضُها إلىٰ بعضٍ حتَّىٰ تفوّتَ أصلَ السعادةِ ، بهدمِ أصلِ الإيمانِ عندَ الخاتمةِ .

وكما أنَّ تكرارَ ليلةٍ لا يُحَسُّ تأثيرُهُ في تفقيهِ النفسِ ، بلْ يظهرُ فقهُ النفسِ شيئاً فشيئاً على التدريجِ مثلَ نموِّ البدنِ وارتفاعِ القامةِ . . فكذٰلكَ الطاعةُ الواحدةُ لا يُحسُّ تأثيرُها في تزكيةِ النفسِ وتطهيرِها في الحالِ ، ولـٰكنْ لا ينبغي أنْ يُستهانَ بقليلِ الطاعةِ ؛ فإنَّ الجملةَ الكثيرةَ منها مؤثرةٌ ، وإنَّما اجتمعَتِ الجملةُ مِنَ الآحادِ ، فلكلِّ واحدٍ منها تأثيرٌ ، فما مِنْ طاعةٍ إلا ولها أثرٌ وإنْ خفيَ ، فلهُ ثوابٌ لا محالةَ ؛ لأنَّ الثوابَ بإزاءِ الأثرِ ، وكذٰلكَ المعصيةُ .

ورُويَ أنَّ أبا عبدِ اللهِ الخيَّاطَ كانَ يجلسُ علىٰ دكَّانِهِ ، وكانَ لهُ حَريفٌ مجوسيٌّ يستعملُهُ في الخياطةِ [1] ، فكانَ إذا خاطَ لهُ شيئاً . . حملَ إليهِ دراهمَ زائفةً ، فكانَ أبو عبدِ اللهِ يأخذُها منهُ ولا يخبرُهُ بذٰلكَ ولا يردُّها عليهِ ، فاتفقَ يوماً أنَّ أبا عبدِ اللهِ قامَ لبعضِ حاجتِهِ ، فأتى المجوسيُّ فلمْ يجدْهُ ، فدفعَ إلىٰ تلميذِهِ الأجرةَ ، واسترجعَ ما قدْ خاطَهُ ، ودفعَ إليهِ درهماً زائفاً ، فلما نظرَ إليهِ التلميذُ . . عرفَ أنَّهُ زائفٌ ، فردَّهُ عليهِ ، فلما عادَ أبو عبدِ اللهِ . . أخبرَهُ بذٰلكَ ، فقالَ : بئسَ ما عملتَ ، هٰذا المجوسيُّ يعاملُني بهٰذهِ المعاملةِ منذُ سنةٍ وأنا أصبرُ عليهِ ، فآخذُ الدراهمَ منهُ وألقيها في البئرِ لئلا يغرَّ بها مسلماً [2]

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (علامةُ حسْنِ الخلُقِ عشرةُ أشياءَ : قلَّةُ الخلافِ ، وحسْنُ الإنصافِ ، وتركُ طلبِ العثراتِ ، وتحسينُ ما يبدو مِنَ السيئاتِ ، والتماسُ المعذرةِ ، واحتمالُ الأذىٰ ، والرجوعُ بالملامةِ على النفسِ ، والتفرُّدُ بمعرفةِ عيوبِ نفسِهِ دونَ عيوبِ غيرِهِ ، وطلاقةُ الوجهِ للصغيرِ والكبيرِ ، ولطفُ الكلامِ لمَنْ دونَهُ ولمَنْ فوقَهُ) [3]

وسُئِلَ سهلٌ عنْ حسْنِ الخلقِ فقالَ : (أدناهُ احتمالُ الأذىٰ ، وتركُ المكافأةِ ، والرحمةُ للظالمِ ، والاستغفارُ لهُ ، والشفقةُ عليهِ) [4]

وقيلَ للأحنفِ بنِ قيسٍ : ممَّنْ تعلمتَ الحِلْمَ ؟ فقالَ : مِنْ قيسِ بنِ عاصمٍ ، قيلَ : وما بلغَ مِنْ حلمِهِ ؟ قالَ : بينما هوَ جالسٌ في دارِهِ . . إذْ أتتْهُ جاريةٌ لهُ بسفُّودٍ عليهِ شواءٌ [5] ، فسقطَ مِنْ يدِها ، فوقعَ على ابنٍ لهُ صغيرٍ ، فماتَ ، فدهشَتِ الجاريةُ ، فقالَ لها : لا روعَ عليكِ ، أنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ [6]

وقيلَ : كانَ أويسٌ القرنيُّ إذا رآهُ الصبيانُ . . يرمونَهُ بالحجارةِ ، فكانَ يقولُ لهُمْ : يا إخوتاهُ ؛ إنْ كانَ ولا بدَّ . . فارموني بالصغارِ كي لا تُدموا ساقي فتمنعوني مِنَ الصلاةِ [7]

وشتمَ رجلٌ الأحنفَ بنَ قيسٍ وهوَ لا يجيبُهُ ، وكانَ يتبعُهُ ، فلمَّا قَرُبَ مِنَ الحيِّ . . وقفَ وقالَ : إنْ كانَ قدْ بقيَ في نفسِكَ شيءٌ فقلْهُ ؛ كي لا يسمعَكَ بعضُ سفهاءِ الحيِّ فيؤذوكَ [8]

ورُويَ أنَّ علياً كرَّمَ اللهُ وجهَهُ دعا غلاماً لهُ فلمْ يجبْهُ ، فدعاهُ ثانياً وثالثاً فلمْ يجبْهُ ، فقامَ إليهِ ، فرآهُ مضطجعاً ، فقالَ : أما تسمعُ يا غلامُ ؟! قالَ : بلىٰ ، قالَ : فما حملَكَ علىٰ تركِ جوابي ؟ قالَ : أمنتُ عقوبتَكَ فتكاسلتُ ، فقالَ : امضِ ، فأنتَ حرٌّ لوجهِ اللهِ تعالىٰ [9]

وقالَتِ امرأةٌ لمالكِ بنِ دينارٍ رحمهُ اللهُ : يا مرائي ، فقالَ : يا هٰذهِ ؛ وجدتِ اسمي الذي أضلَّهُ أهلُ البصرةِ [10]

---

(١) **الحريف** : المُعامل .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٥) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .

(٥) **سفُّود** : كتنُّور ويضم ، حديدة ذات شعب معقفة ، يشوىٰ بها .

(٦) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١١) .

(٧) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .

(٨) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .

(٩) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٢) .

(١٠) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤١٣) .

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قدْ عرفتَ أنَّ حسْنَ الخلقِ يرجعُ إلى اعتدالِ قوَّةِ العقلِ ، وكمالِ الحكمةِ ، وإلى اعتدالِ قوَّةِ الغضبِ والشهوةِ ، وكونِها مطيعةً للعقلِ والشرعِ أيضاً .

وهٰذا الاعتدالُ يحصلُ علىٰ وجهينِ :

أحدُهُما : بجودٍ إلٰهيٍّ وكمالٍ فطريٍّ : بحيثُ يُخلقُ الإنسانُ ويُولدُ كاملَ العقلِ ، حسنَ الخلقِ ، قد كُفِيَ سلطانَ الشهوةِ والغضبِ ، بلْ خُلقَتا معتدلتينِ منقادتينِ للعقلِ والشرعِ ، فيصيرُ عالماً بغيرِ تعلُّمٍ ، ومؤدَّباً بغيرِ تأدُّبٍ ؛ كعيسى ابنِ مريمَ ، ويحيى بنِ زكريَّا عليهما السلامُ ، وكذا سائرُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ في الطبعِ والفطرةِ ما قدْ يُنالُ بالاكتسابِ ، فربَّ صبيٍّ خُلِقَ صادقَ اللهجةِ ، سخيّاً جريئاً ، وربَّما يُخلقُ بخلافِهِ ، فيحصلُ ذٰلكَ فيهِ بالاعتيادِ ومخالطةِ المتخلّقينَ بهٰذهِ الأخلاقِ ، وربَّما يحصلُ بالتعلُّمِ .

والوجهُ الثاني لاكتسابِ هٰذهِ الأخلاقِ : المجاهدةُ والرياضةُ : وأعني بها : حملَ النفسِ على الأعمالِ التي يقتضيها الخُلُقُ المطلوبُ .

فمَنْ أرادَ مثلاً أنْ يحصِّلَ لنفسِهِ خلُقَ الجودِ . . فطريقُهُ أنْ يتكلَّفَ تعاطيَ فعلِ الجوادِ ، وهوَ بذلُ المالِ ، فلا يزالُ يطالبُ نفسَهُ ويواظبُ عليهِ تكلُّفاً ، مجاهداً نفسَهُ فيهِ حتَّىٰ يصيرَ ذٰلكَ طبعاً لهُ ، ويتيسَّرَ عليهِ ، فيصيرَ بهِ جواداً .

وكذا مَنْ أرادَ أنْ يحصِّلَ لنفسِهِ خلُقَ التواضعِ وقدْ غلبَ عليهِ الكبْرُ . . فطريقُهُ أنْ يواظبَ علىٰ أفعالِ المتواضعينَ مدَّةً مديدةً ، وهوَ فيها مجاهدٌ نفسَهُ ومتكلِّفٌ إلىٰ أن يصيرَ ذٰلكَ لهُ خلقاً وطبعاً ، فيتيسَّرَ عليهِ .

وجميعُ الأخلاقِ المحمودةِ شرعاً تحصلُ بهٰذا الطريقِ .

وغايتُهُ : أنْ يصيرَ الفعلُ الصادرُ منهُ لذيذاً ، فالسخيُّ هوَ الذي يستلذُّ بذلَ المالِ دونَ الذي يبذلُهُ عنْ كراهةٍ ، والمتواضعُ هوَ الذي يستلذُّ التواضعَ ، ولنْ ترسخَ الأخلاقُ الدينيَّةُ في النفسِ ما لمْ تتعوَّدِ النفسُ جميعَ العاداتِ الحسنةِ ، وما لمْ تتركْ جميعَ العاداتِ السيئةِ ، وما لمْ تواظبْ عليها مواظبةَ مَنْ يشتاقُ إلى الأفعالِ الجميلةِ ويتنعَّمُ بها ، ويكرهُ الأفعالَ القبيحةَ ويتألَّمُ بها ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجُعلَتْ قرَّةُ عيني في الصلاةِ »[1]

ومهما كانَتِ العباداتُ وتركُ المحظوراتِ معَ كراهةٍ واستثقالٍ . . فهوَ لنقصانٍ ، ولا يُنالُ كمالُ السعادةِ بهِ .

نعم ؛ المواظبةُ عليها بالمجاهدةِ خيرٌ ، ولٰكنْ بالإضافةِ إلىٰ تركِها ، لا بالإضافةِ إلىٰ فعلِها عنْ طوعٍ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعبُدِ اللهَ بالرضا ، فإنْ لمْ تستطعْ . . ففي الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »[2]

ثمَّ لا يكفي في نيلِ السعادةِ الموعودةِ علىٰ حسْنِ الخلقِ استلذاذُ الطاعةِ واستكراهُ المعصيةِ في زمانٍ دونَ زمانٍ ، بلْ

---

(١) رواه النسائي (٦١/٧) ، وأحمد في « المسند » (١٢٨/٣) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٢٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الوصية المشهورة ، ولفظه : « فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين . . فافعل ، وإن لم تستطع . . فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً . . . » الحديث .

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلمْ : أنَّ الطريقَ في رياضةِ الصبيانِ مِنْ أهمِّ الأمورِ وآكدِها ، وأنَّ الصبيَّ أمانةٌ عندَ والديهِ ، وقلبَهُ الطاهرَ جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ ، خاليةٌ عنْ كلِّ نقشٍ وصورةٍ ، وهوَ قابلٌ لكلِّ نقشٍ ، ومائلٌ إلىٰ كلِّ ما يُمالُ بهِ إليهِ .

فإنْ عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ . . نشأَ عليهِ ، وسعدَ في الدنيا والآخرةِ ، وشاركَهُ في ثوابِهِ أبواهُ وكلُّ معلِّمٍ لهُ ومؤدِّبٍ .

وإنْ عُوِّدَ الشرَّ وأُهملَ إهمالَ البهائمِ . . شَقِيَ وهلكَ ، وكانَ الوزرُ في رقبةِ القيِّمِ عليهِ والوالي لهُ .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ .

ومهما كانَ الأبُ يصونُهُ عنْ نارِ الدنيا . . فبأنْ يصونَهُ عنْ نارِ الآخرةِ أولىٰ ، وصيانتُهُ بأنْ يؤدِّبَهُ ويهذِّبَهُ ، ويعلِّمَهُ محاسنَ الأخلاقِ ، ويحفظَهُ مِنَ القرناءِ السوءِ ، ولا يعوِّدَهُ التنعُّمَ ، ولا يحبِّبَ إليهِ الزينةَ وأسبابَ الرفاهيةِ ، فيضيِّعَ عمرَهُ في طلبِها إذا كبرَ ، فيهلكَ هلاكَ الأبدِ ، بلْ ينبغي أنْ يراقبَهُ مِنْ أوَّلِ أمرِهِ ، فلا يستعملُ في حضانتِهِ وإرضاعِهِ إلا امرأةً صالحةً متديِّنةً تأكلُ الحلالَ ؛ فإنَّ اللبنَ الحاصلَ مِنَ الحرامِ لا بركةَ فيهِ ، فإذا وقعَ عليهِ نشوءُ الصبيِّ . . انعجنَتْ طينتُهُ مِنَ الخبثِ ، فيميلُ طبعُهُ إلىٰ ما يناسبُ الخبائثَ .

ومهما رأىٰ فيهِ مخايلَ التمييزِ . . فينبغي أنْ يحسنَ مراقبتَهُ ، وأوَّلُ ذٰلكَ ظهورُ أوائلِ الحياءِ ؛ فإنَّهُ إذا كانَ يحتشمُ ويستحي ، ويتركُ بعضَ الأفعالِ . . فليسَ ذٰلكَ إلا لإشراقِ نورِ العقلِ عليهِ ، حتَّىٰ يرىٰ بعضَ الأشياءِ قبيحاً ومخالفاً للبعضِ ، فصارَ يستحي مِنْ شيءٍ دونَ شيءٍ ، وهٰذهِ هديَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وبشارةٌ تدلُّ على اعتدالِ الأخلاقِ وصفاءِ القلبِ ، وهوَ مبشِّرٌ بكمالِ العقلِ عندَ البلوغِ ، فالصبيُّ المستحي لا ينبغي أنْ يُهملَ ، بلْ يُستعانُ علىٰ تأديبِهِ بحيائِهِ وتمييزِهِ .

وأوَّلُ ما يغلبُ عليهِ مِنَ الصفاتِ شرهُ الطعامِ ، فينبغي أنْ يؤدَّبَ فيهِ ، مثلُ ألا يأخذَ الطعامَ إلا بيمينِهِ ، وأنْ يقولَ عليهِ : (باسمِ اللهِ) عندَ أخذِهِ ، وأنْ يأكلَ ممَّا يليهِ ، وألا يبادرَ إلى الطعامِ قبلَ غيرِهِ ، وألا يحدقَ إلى الطعامِ ولا إلىٰ مَنْ يأكلُ ، وألا يسرعَ في الأكلِ ، وأنْ يجيدَ المضغَ ، وألا يواليَ بينَ اللقمِ ، ولا يلطِّخَ يدَهُ ولا ثوبَهُ ، وأنْ يعوَّدَ الخبزَ القَفارَ في بعضِ الأوقاتِ(١) ، حتىٰ لا يصيرَ بحيثُ يرى الأُدْمَ حتماً .

ويقبِّحُ عندَهُ كثرةَ الأكلِ ؛ بأنْ يشبِّهَ كلَّ مَنْ يكثرُ الأكلَ بالبهائمِ ، وبأنْ يذمَّ بينَ يديهِ الصبيَّ الذي يكثرُ الأكلَ ، ويمدحَ عندَهُ الصبيَّ المتأدِّبَ القليلَ الأكلِ ، وأنْ يحبِّبَ إليهِ الإيثارَ بالطعامِ ، وقلَّةَ المبالاةِ بهِ ، والقناعةَ بالطعامِ الخشنِ أيَّ طعامٍ كانَ .

وأنْ يحبِّبَ إليهِ مِنَ الثيابِ البيضَ دونَ الملوَّنِ والإبريسمِ ، ويقرِّرَ عندَهُ أنَّ ذٰلكَ شأنُ النساءِ والمخنَّثينَ ، وأنَّ الرجالَ يستنكفونَ منهُ ، ويكرِّرُ ذٰلكَ عليهِ ، ومهما رأىٰ علىٰ صبيٍّ ثوباً مِنْ إبريسمٍ أوْ ملوَّنٍ . . فينبغي أنْ يستنكرَهُ ويذمَّهُ .

ويُحفظُ الصبيُّ عنِ الصبيانِ الذينَ عُوِّدوا التنعُّمَ والرفاهيةَ ، ولبسَ الثيابِ الفاخرةِ ، وعنْ مخالطةِ كلِّ مَنْ يسمعُهُ

---

(١) **الخبز القفار** : هو الذي لا أُدْم فيه ولا دسم ، وعند الحافظ الزبيدي (٧/٣٦٤) : اليابس وحده .

إمساكِ المالِ ، وليسَ المطلوبُ إماطةَ ذلكَ بالكليَّةِ ، بلِ المطلوبُ ردُّها إلى الاعتدالِ الذي هوَ وسطٌ بينَ الإفراطِ والتفريطِ .

فالمطلوبُ في صفةِ الغضبِ حسنُ الحميَّةِ ، وذلكَ بأنْ يخلوَ عنِ التهوُّرِ وعنِ الجبنِ جميعاً .

وبالجملةِ : أنْ يكونَ في نفسِهِ قويّاً ، ومعَ قوَّتِهِ منقاداً للعقلِ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وصفَهُمْ بالشدَّةِ ، وإنَّما تصدرُ الشدَّةُ عنِ الغضبِ ، ولوْ بطلَ الغضبُ . . لبطلَ الجهادُ ، وكيفَ يُقصدُ قلعُ الشهوةِ والغضبِ بالكليَّةِ والأنبياءُ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ لمْ ينفكُّوا عنْ ذلكَ ؟! إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا بشرٌ أغضبُ كما يغضبُ البشرُ »(١)

وكانَ إذا تُكلِّمَ بينَ يديهِ بما يكرهُهُ . . يغضبُ حتَّىٰ تحمرَّ وجنتاهُ ، ولكنْ لا يقولُ إلا حقّاً ، فكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لا يخرجُهُ غضبُهُ عنِ الحقِّ(٢)

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، ولمْ يقلْ : (والفاقدينَ الغيظَ) .

فردُّ الغضبِ والشهوةِ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ ، بحيثُ لا يقهرُ واحدٌ منهما العقلَ ولا يغلبُهُ ، بلْ يكونُ العقلُ هوَ الضابطَ لهما والغالبَ عليهما . . ممكنٌ ، وهوَ المرادُ بتغييرِ الخلُقِ ؛ فإنَّهُ ربَّما تستولي الشهوةُ على الإنسانِ بحيثُ لا يقوىٰ عقلُهُ علىٰ دفعِها عنِ الانبساطِ إلى الفواحشِ ، وبالرياضةِ تعودُ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ ، فدلَّ أنَّ ذلكَ ممكنٌ ، والتجربةُ والمشاهدةُ تدلُّ علىٰ ذلكَ دلالةً لا شكَّ فيها .

والذي يدلُّ علىٰ أنَّ المطلوبَ هوَ الوسطُ في الأخلاقِ دونَ الطرفينِ أنَّ السخاءَ خلقٌ محمودٌ شرعاً ، وهوَ وسطٌ بينَ طرفيِ التبذيرِ والتقتيرِ ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ فقالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ .

وكذلكَ المطلوبُ في شهوةِ الطعامِ الاعتدالُ دونَ الشَّرَهِ والخمودِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

وقالَ في الغضبِ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »(٣)

وهٰذا لهُ سرٌّ وتحقيقٌ ، وهوَ أنَّ السعادةَ منوطةٌ بسلامةِ القلبِ عنْ عوارضِ هٰذا العالمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، والبخلُ مِنْ عوارضِ الدنيا ، والتبذيرُ أيضاً مِنْ عوارضِ الدنيا ، وشرطُ القلبِ أنْ يكونَ سليماً منهما ؛ أيْ : لا يكونَ ملتفتاً إلى المالِ ، ولا يكونَ حريصاً علىٰ إمساكِهِ ولا علىٰ إنفاقِهِ ، فإنَّ الحريصَ على الإنفاقِ مصروفُ القلبِ إلى الإنفاقِ ، كما أنَّ الحريصَ على الإمساكِ مصروفُ القلبِ إلى الإمساكِ ، فكانَ كمالُ القلبِ أنْ يصفوَ عنِ الوصفينِ جميعاً ، وإذا لمْ يكنْ ذلكَ في الدنيا . . طلبنا ما هوَ الأشبهُ بعدمِ الوصفينِ وأبعدُ عنِ الطرفينِ ، وهوَ الوسطُ ، فإنَّ الفاترَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠١) .

(٢) فقد روى البخاري (٢٣٦٠) ، ومسلم (٢٣٥٧) في قصة تخاصم رجل مع الزبير رضي الله عنه في شراج الحرَّة ؛ إذ قال الرجل الأنصاري : أنْ كان ابن عمَّتك ؟ فتلوَّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقدم نحو هٰذا .

(٣) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٧٠/٦) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

وينبغي أنْ يُعوَّدَ ألا يبصقَ في مجلسِهِ ، ولا يتمخَّطَ ولا يتثاءبَ بحضرةِ غيرِهِ ، ولا يستدبرَ غيرَهُ ، ولا يضعَ رِجْلاً علىٰ رِجْلٍ ، ولا يضعَ[1] كفَّهُ تحتَ ذَقَنِهِ ، ولا يعمدَ رأسَهُ بساعدِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ دليلُ الكسلِ .

ويُعلَّمُ كيفيةَ الجلوسِ ، ويُمنعُ كثرةَ الكلامِ ، ويُبيَّنُ لهُ أنَّ ذٰلكَ يدلُّ على الوقاحةِ ، وأنَّهُ عادةُ أبناءِ اللئامِ .

ويُمنعُ الأيمانَ رأساً ، صادقاً كانَ أوْ كاذباً ؛ حتَّىٰ لا يعتادَ ذٰلكَ في الصغرِ .

ويُمنعُ أنْ يبتدئَ الكلامَ ، ويُعوَّدُ ألا يتكلَّمَ إلا جواباً وبقَدْرِ السؤالِ ، وأنْ يحسنَ الاستماعَ مهما تكلَّمَ غيرُهُ ممَّنْ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً ، وأنْ يقومَ لِمَنْ فوقَهُ ، ويوسعَ لهُ المكانَ ، ويجلسَ بينَ يديهِ .

ويُمنعُ مِنْ لغوِ الكلامِ وفحشِهِ ، ومِنَ اللعنِ والسبِّ ، ومِنْ مخالطةِ مَنْ يجري علىٰ لسانِهِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يسري لا محالةَ مِنَ القرناءِ السوءِ ، وأصلُ تأديبِ الصبيانِ الحفظُ مِنْ قرناءِ السوءِ .

وينبغي إذا ضربَهُ المعلِّمُ ألا يُكثرَ الصراخَ والشغبَ ، ولا يستشفعَ بأحدٍ ، بلْ يصبرُ ، ويذكرُ لهُ أنَّ ذٰلكَ دأبُ الشجعانِ والرجالِ ، وأنَّ كثرةَ الصراخِ دأبُ المماليكِ والنسوانِ .

وينبغي أنْ يؤذنَ لهُ بعدَ الفراغِ منَ المكتبِ أنْ يلعبَ لعباً جميلاً ، يستريحُ إليهِ مِنْ تعبِ المكتبِ ، بحيثُ لا يتعبُ في اللعبِ ؛ فإنَّ منعَ الصبيّ مِنَ اللعبِ وإرهاقَهُ إلى التعلُّمِ دائماً يميتُ قلبَهُ ، ويبطلُ ذكاءَهُ ، وينغِّصُ عليهِ العيشَ ، حتَّىٰ يطلبَ الحيلةَ في الخلاصِ منهُ رأساً .

وينبغي أنْ يُعلَّمَ طاعةَ والديهِ ومعلِّمِهِ ومؤدِّبِهِ ، وكلِّ مَنْ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً ؛ مِنْ قريبٍ وأجنبيّ ، وأنْ ينظرَ إليهِمْ بعينِ الجلالةِ والتعظيمِ ، وأنْ يتركَ اللعبَ بينَ أيديهِمْ .

ومهما بلغَ سنَّ التمييزِ . . فينبغي ألا يُسامحَ في تركِ الطهارةِ والصلاةِ ، ويُؤمرُ بالصومِ في بعضِ أيَّامِ رمضانَ ، ويُجنَّبُ لبْسَ الديباجِ والحريرِ والذهبِ ، ويُعلَّمُ كلَّ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ حدودِ الشرعِ ويُخوَّفُ مِنَ السرقةِ وأكلِ الحرامِ ، ومِنَ الكذبِ والخيانةِ والفحْشِ ، وكلِّ ما يغلبُ على الصبيانِ .

فإذا وقعَ نشوءُهُ كذٰلكَ في الصبا ؛ فمهما قاربَ البلوغَ . . أمكنَ أنْ يعرفَ أسرارَ هٰذهِ الأمورِ ، فيُذكرُ لهُ أنَّ الأطعمةَ أدويةٌ ، وإنَّما المقصودُ منها أنْ يقوى الإنسانُ بها علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ الدنيا كلَّها لا أصلَ لها ؛ إذْ لا بقاءَ لها ، وأنَّ الموتَ يقطعُ نعيمَها ، وأنَّها دارُ ممرٍّ لا دارُ مقرٍّ ، وأنَّ الآخرةَ دارُ مقرٍّ لا دارُ ممرٍّ ، وأنَّ الموتَ منتظَرٌ في كلِّ ساعةٍ ، وأنَّ الكيِّسَ العاقلَ مَنْ تزوَّدَ مِنَ الدنيا للآخرةِ ، حتَّىٰ تعظمَ عندَ اللهِ درجتُهُ ، وتتسعَ في الجنانِ نعمتُهُ .

فإذا كانَ النشوءُ صالحاً . . كانَ هٰذا الكلامُ عندَ البلوغِ واقعاً مؤثِّراً ناجعاً ، يثبتُ في قلبِهِ كما يثبتُ النقْشُ في الحجرِ .

وإنْ وقعَ النشوءُ بخلافِ ذٰلكَ ؛ حتَّىٰ ألفَ الصبيُّ اللعبَ والفحْشَ والوقاحةَ وشرهَ الطعامِ واللباسِ والتزيُّنَ والتفاخرَ . . نبا قلبُهُ عنْ قبولِ الحقِّ نبوةَ الحائطِ عنِ الطينِ اليابسِ .

فأوائلُ الأمورِ هيَ التي ينبغي أنْ تُراعىٰ ؛ فإنَّ الصبيَّ بجوهرِهِ خُلِقَ قابلاً للخيرِ والشرِّ جميعاً ، وإنَّما أبواهُ يميلانِ

---

(١) في النسخ : (ولا يضرب) ، والمثبت من (ق) .

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلمْ : أنَّ بعضَ مَنْ غلبَتِ البطالةُ عليهِ . . استثقلَ المجاهدةَ والرياضةَ ، والاشتغالَ بتزكيةِ النفسِ وتهذيبِ الأخلاقِ ، فلمْ تسمحْ نفسُهُ بأنْ يكونَ ذٰلكَ ؛ لقصورِهِ ونقصِهِ وخبْثِ دِخْلَتِهِ ، فزعمَ أنَّ الأخلاقَ لا يُتصوَّرُ تغييرُها ، وأنَّ الطباعَ لا تتغيَّرُ ، واستدلَّ فيهِ بأمرينِ :

أحدُهُما : أنَّ الخلُقَ هوَ صورةُ الباطنِ ، كما أنَّ الخَلْقَ هوَ صورةُ الظاهرِ ، فالخلقةُ الظاهرةُ لا يُقدَرُ علىٰ تغييرِها ، فالطويلُ لا يقدرُ أنْ يجعلَ نفسَهُ قصيراً ، ولا القصيرُ يقدرُ أنْ يجعلَ نفسَهُ طويلاً ، ولا القبيحُ يقدرُ علىٰ تحسينِ صورتِهِ ؛ فكذٰلكَ القبحُ الباطنُ يجري هٰذا المجرىٰ .

والثاني : أنَّهُمْ قالوا : حسنُ الخلقِ إنَّما يحصلُ بقمعِ الشهوةِ والغضبِ ، وقدْ جرَّبنا ذٰلكَ بطولِ المجاهدةِ ، وعرفنا أنَّ ذٰلكَ مِن مقتضى المزاجِ والطبعِ ، وأنَّهُ قطُّ لا ينقطعُ عنِ الآدميِّ ، فاشتغالُهُ بِهِ تضييعُ زمانٍ بغيرِ فائدةٍ ؛ فإنَّ المطلوبَ هوَ قطعُ التفاتِ القلبِ إلى الحظوظِ العاجلةِ ، وذٰلكَ محالٌ وجودُهُ .

❀ ❀ ❀

فنقولُ : لوْ كانَتِ الأخلاقُ لا تقبلُ التغييرَ . . لبطلَتِ الوصايا والمواعظُ والتأديباتُ ، ولما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حسِّنوا أخلاقَكُمْ » !![1]

وكيفَ يُنكرُ هٰذا في حقِّ الآدميِّ وتغييرُ خلُقِ البهيمةِ ممكنٌ ؛ إذْ يُنقلُ البازي مِنَ الاستيحاشِ إلى الأُنْسِ ، والكلبُ مِنْ شرَهِ الأكلِ مِنَ الصيدِ إلى التأدُّبِ والإمساكِ والتخليةِ ، والفرسُ مِنَ الجماحِ إلى السلاسةِ والانقيادِ ، وكلُّ ذٰلكَ تغييرٌ للأخلاقِ ؟!

والقولُ الكاشفُ للغطاءِ عنْ ذٰلكَ أنْ نقولَ : الموجوداتُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا مدخلَ لاختيارِ الآدميِّ في أصلِهِ وتفصيلِهِ ؛ كالسماءِ والكواكبِ ، بلْ أعضاءِ البدنِ داخلاً وخارجاً ، وسائرِ أجزاءِ الحيواناتِ ، وبالجملةِ : كلُّ ما هوَ حاصلٌ كاملٌ وقعَ الفراغُ مِنْ وجودِهِ وكمالِهِ .

وإلىٰ ما وُجِدَ وجوداً ناقصاً وجُعلَ فيهِ قوَّةٌ لقبولِ الكمالِ بعدَ أنْ وُجِدَ شرطُهُ ، وشرطُهُ قدْ يرتبطُ باختيارِ العبدِ ؛ فإنَّ النواةَ ليسَتْ بتفاحٍ ولا نخلٍ ، إلا أنَّها خُلقَتْ خلقةً يمكنُ أنْ تصيرَ نخلةً إنِ انضافَتِ التربيةُ إليها ، ولا تصيرُ تفاحاً أصلاً ، ولا بالتربيةِ .

فإذا صارَتِ النواةُ متأثرةً بالاختيارِ حتَّىٰ تقبلَ بعضَ الأحوالِ دونَ بعضٍ . . فكذٰلكَ الغضبُ والشهوةُ ، لوْ أردنا قمعَهما وقهرَهما بالكليَّةِ حتَّىٰ لا يبقىٰ لهما أثرٌ . . لمْ نقدرْ عليهِ أصلاً ، ولوْ أردنا سلاستَهما وقودَهُما بالرياضةِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر ابن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث معاذ : « يا معاذ ؛ حسن خلقك للناس » ، منقطع ورجاله ثقات) . « إتحاف » (٣٣٢/٧) ، ولا يخفىٰ أن مراد المصنف مجمل الأخبار الآمرة بتحسين الخلق . وروى الطبراني في « الأوسط » (٦٥٠٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٤٤٠/٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أوحى الله إلىٰ إبراهيم : يا خليلي ؛ حسِّنْ خلقك ولو مع الكفار . . تدخلْ مدخل الأبرار ، فإن كلمتي سبقت لمن حسَّنَ خلقه أن أظلَّه تحت عرشي . . . » الحديث .

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة

اعلمْ : أنَّ مَنْ شاهدَ الآخرةَ بقلبِهِ مشاهدةَ يقينٍ . . أصبحَ بالضرورةِ مريداً حرْثَ الآخرةِ ، مشتاقاً إليها ، سالكاً سُبُلَها ، مستهيناً بنعيمِ الدنيا ولذَّاتِها ؛ فإنَّ مَنْ كانَتْ معَهُ خرزةٌ فرأىٰ جوهرةً نفيسةً . . لمْ تبقَ لهُ رغبةٌ في الخرزةِ ، وقويَتْ إرادتُهُ في بيعِها بالجوهرةِ .

ومَنْ ليسَ مريداً حرْثَ الآخرةِ ، ولا طالباً للقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ لعدمِ إيمانِهِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، ولستُ أعني بالإيمانِ حديثَ النفسِ وحركةَ اللسانِ بكلمتي الشهادةِ مِنْ غيرِ صدْقٍ وإخلاصٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يضاهي قولَ مَنْ صدَّقَ بأنَّ الجوهرةَ خيرٌ مِنَ الخرزةِ إلا أنَّهُ لا يدري مِنَ الجوهرةِ إلا لفظَها ، وأمَّا حقيقتُها . . فلا ، ومثلُ هٰذا المصدِّقِ إذا ألفَ الخرزةَ قدْ لا يتركُها ، ولا يعظُمُ اشتياقُهُ إلى الجوهرةِ .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ المانعُ مِنَ الوصولِ عدمُ السلوكِ ، والمانعُ مِنَ السلوكِ عدمُ الإرادةِ ، والمانعُ مِنَ الإرادةِ عدمُ الإيمانِ ، وسببُ عدمِ الإيمانِ عدمُ الهداةِ والمذكِّرينَ ، والعلماءِ باللهِ تعالى الهادينَ إلىٰ طريقِهِ ، والمنبِّهينَ علىٰ حقارةِ الدنيا وانقراضِها ، وعظَمِ أمرِ الآخرةِ ودوامِها ، فالخلقُ غافلونَ قدِ انهمكوا في شهواتِهِمْ ، وغاصوا في رقدتِهِمْ ، وليسَ في علماءِ الدينِ مَنْ ينبِّهُهُمْ ، فإنْ تنبَّهَ منهُمْ متنبِّهٌ . . عجزَ عنْ سلوكِ الطريقِ لجهلِهِ ، فإنْ طلبَ الطريقَ مِنَ العلماءِ . . وجدَهُمْ مائلينَ إلى الهوىٰ ، عادلينَ عنْ نهجِ الطريقِ ، فصارَ ضعفُ الإرادةِ والجهلُ بالطريقِ ونطقُ العلماءِ بالهوىٰ سبباً لخلوِّ طريقِ اللهِ تعالىٰ عنِ السالكينَ فيهِ .

ومهما كانَ المطلوبُ محجوباً ، والدليلُ مفقوداً ، والهوىٰ غالباً ، والطالبُ غافلاً . . امتنعَ الوصولُ ، وتعطَّلَتِ الطرقُ لا محالةَ .

فإنْ تنبَّهَ متنبِّهٌ مِنْ نفسِهِ ، أوْ مِنْ تنبيهِ غيرِهِ ، وانبعثَ لهُ إرادةٌ في حرْثِ الآخرةِ وتجارتِها . . فينبغي أنْ يعلمَ أنَّ لهُ شروطاً لا بدَّ مِنْ تقديمِها في بدايةِ الإرادةِ ، ولهُ معتصَمٌ لا بدَّ مِنَ التمسُّكِ بهِ ، ولهُ حصْنٌ لا بدَّ مِنَ التحصُّنِ بهِ ؛ ليأمنَ مِنَ الأعداءِ القطَّاعِ لطريقِهِ ، ولهُ وظائفُ لا بدَّ مِنْ ملازمتِها في وقتِ سلوكِ الطريقِ .

أمَّا الشروطُ التي لا بدَّ مِنْ تقديمِها في الإرادةِ : فهيَ رفعُ السدِّ والحجابِ الذي بينَهُ وبينَ الحقِّ ، فإنَّ حرمانَ الخلقِ عنِ الحقِّ سببُهُ تراكمُ الحجُبِ ، ووقوعُ السدِّ على الطريقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

والسدُّ بينَ المريدِ وبينَ الحقِّ أربعةٌ : المالُ ، والجاهُ ، والتقليدُ ، والمعصيةُ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **المالِ** بخروجِهِ عنْ ملكِهِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ لهُ إلا قدْرُ الضرورةِ ، فما دامَ يبقىٰ لهُ درهمٌ يلتفتُ إليهِ قلبُهُ . . فهوَ مقيَّدٌ بهِ ، محجوبٌ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **الجاهِ** بالبعدِ عنْ موضعِ الجاهِ ، وبالتواضعِ وإيثارِ الخمولِ ، والهربِ مِنْ أسبابِ الذكرِ ، وتعاطي أعمالٍ تنفِّرُ قلوبَ الخلقِ عنهُ .

فإذاً ؛ أمهاتُ الأخلاقِ وأصولُها أربعةٌ : الحكمةُ ، والشجاعةُ ، والعفَّةُ ، والعدْلُ .

ونعني بالحكمةِ : حالةً للنفسِ بها يُدرَكُ الصوابُ مِنَ الخطأ في جميعِ الأفعالِ الاختياريةِ .

ونعني بالعدْلِ : حالةً للنفسِ وقوَّةً بها تسوسُ الغضبَ والشهوةَ ، وتحملُهُما علىٰ مقتضى الحكمةِ ، وتضبطُهُما في الاسترسالِ والانقباضِ علىٰ حسَبِ مقتضاها .

ونعني بالشجاعةِ : كونَ قوّةِ الغضبِ منقادةً للعقلِ في إقدامِها وإحجامِها .

ونعني بالعفَّةِ : تأدُّبَ قوَّةِ الشهوةِ بتأديبِ العقلِ والشرعِ .

فمِن اعتدالِ هـٰذهِ الأصولِ الأربعةِ تصدرُ الأخلاقُ الجميلةُ كلُّها .

إذْ مِن اعتدالِ قوَّةِ العقلِ يصدُرُ حسنُ التدبيرِ ، وجودةُ الذهنِ ، وثقابةُ الرأيِ ، وإصابةُ الظنِّ ، والتفطُّنُ لدقائقِ الأعمالِ وخفايا آفاتِ النفوسِ ، ومِنْ إفراطِها تصدرُ الجربزةُ ، والمكرُ ، والخداعُ ، والدهاءُ ، ومِنْ تفريطِها يصدرُ البلهُ ، والغمارةُ ، والحمْقُ ، والجنونُ ، وأعني بالغمارةِ : قلَّةَ التجربةِ في الأمورِ معَ سلامةِ التخيُّلِ ، فقدْ يكونُ الإنسانُ غُمْراً في شيءٍ دونَ شيءٍ .

والفرقُ بينَ الحمقِ والجنونِ : أنَّ الأحمقَ مقصودُهُ صحيحٌ ، ولـٰكنْ سلوكُهُ للطريقِ فاسدٌ ، فلا تكونُ له رويَّةٌ صحيحةٌ في سلوكِ الطريقِ الموصلِ إلى الغرضِ ، وأمَّا المجنونُ . . فإنَّهُ يختارُ ما لا ينبغي أنْ يختارَ ، فيكونُ أصلُ اختيارِهِ وإيثارِهِ فاسداً .

وأمَّا خلُقُ الشجاعةِ . . فيصدرُ منهُ الكرمُ ، والنجدةُ ، والشهامةُ ، وكِبْرُ النفسِ (١) ، والاحتمالُ ، والحلمُ ، والثباتُ ، وكظمُ الغيظِ ، والوقارُ ، والتؤدةُ ، وأمثالُها ، وهيَ أخلاقٌ محمودةٌ .

وأمَّا إفراطُها وهوَ التهوُّرُ . . فيصدرُ منهُ الصلفُ ، والبذْخُ ، والاستشاطةُ ، والتكبُّرُ ، والعجْبُ .

وأمَّا تفريطُها . . فيصدرُ منهُ المهانةُ ، والذلَّةُ ، والجزعُ ، والخساسةُ ، وصغرُ النفسِ ، والانقباضُ عنْ تناولِ الحقِّ الواجبِ .

وأمَّا خلقُ العفَّةِ . . فيصدرُ منهُ السخاءُ ، والحياءُ ، والصبرُ ، والمسامحةُ ، والقناعةُ ، والورعُ ، والطلاقةُ ، والمساعدةُ ، والظَّرْفُ ، وقلَّةُ الطمعِ .

وأمَّا ميلُها إلى الإفراطِ أوِ التفريطِ . . فيصدرُ منهُ الحرْصُ ، والشَّرَهُ ، والوقاحةُ ، والخبْثُ ، والتبذيرُ ، والتقتيرُ ، والرياءُ ، والهتكةُ ، والمجانةُ ، والعبثُ ، والملَقُ ، والحسَدُ ، والشماتةُ ، والتذلُّلُ للأغنياءِ ، واستحقارُ الفقراءِ ، وغيرُ ذٰلكَ .

فأمَّهاتُ محاسنِ الأخلاقِ هـٰذهِ الفضائلُ الأربعةُ ، وهيَ الحكمةُ ، والشجاعةُ ، والعفةُ ، والعدْلُ ، والباقي فروعُها .

ولمْ يبلغْ كمالَ الاعتدالِ في هـٰذهِ الأربعِ إلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والناسُ بعدَهُ متفاوتونَ في القرْبِ والبعدِ منهُ ، فكلُّ مَنْ قربَ منهُ في هـٰذهِ الأخلاقِ فهوَ قريبٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ قربِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) أي : كبر همتها ، والكبير الهمة هو الذي لا يرضىٰ بالهمم الحيوانية قدر وسعه . « إتحاف » (٧/٣٣٠) .

المكاشفةِ ، كما أنَّ قسوتَهُ سببُ الحجابِ ، ومهما نقصَ دمُ القلبِ . . ضاقَ مسلكُ العدوّ ؛ فإنَّ مجاريَهُ العروقُ الممتلئةُ بالشهواتِ .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ جوِّعوا بطونَكُمْ ، لعلَّ قلوبَكُمْ ترىٰ ربَّكُمْ)(١)

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : (ما صارَ الأبدالُ أبدالاً إلا بأربعِ خصالٍ : بإخماصِ البطونِ ، والسهرِ ، والصمتِ ، والاعتزالِ عنِ الناسِ)(٢)

ففائدةُ الجوعِ في تنويرِ القلبِ أمرٌ ظاهرٌ ، تشهدُ لهُ التجربةُ ، وسيأتي بيانُ وجهِ التدريجِ فيهِ في كتابِ كسرِ الشهوتينِ .

وأمَّا السهرُ : فإنَّهُ يجلو القلبَ ، ويصفيهِ وينوِّرُهُ ، فينضافُ ذٰلكَ إلى الصفاءِ الذي حصلَ منَ الجوعِ ، فيصيرُ القلبُ كالكوكبِ الدرّيِّ ، والمرآةِ المجلوَّةِ ، فيلوحُ فيهِ جمالُ الحقِّ ، ويشاهدُ فيهِ رفيعَ الدرجاتِ في الآخرةِ ، وحقارةَ الدنيا وآفاتِها ، فتتمُّ بذٰلكَ رغبتُهُ عنِ الدنيا وإقبالُهُ على الآخرةِ .

والسهرُ أيضاً نتيجةُ الجوعِ ؛ فإنَّ السهرَ معَ الشبعِ غيرُ ممكنٍ ، والنومُ يقسِّي القلبَ ويميتُهُ ، إلا إذا كانَ بقدْرِ الضرورةِ ، فيكونُ سببَ المكاشفةِ لأسرارِ الغيبِ ، فقدْ قيلَ في صفةِ الأبدالِ : (إنَّ أكلَهُمْ فاقةٌ ، ونومَهُمْ غلبةٌ ، وكلامَهُمْ ضرورةٌ)(٣)

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ : (أجمعَ رأيُ سبعينَ صدِّيقاً علىٰ أنْ كثرةَ النومِ مِنْ كثرةِ شرْبِ الماءِ)(٤)

وأمَّا الصمتُ : فإنَّهُ تسهِّلُهُ العزلةُ ، ولٰكنِ المعتزلُ لا يخلو عنْ مشاهدةِ مَنْ يقومُ لهُ بطعامِهِ وشرابِهِ وتدبيرِ أمرِهِ ، فينبغي ألا يتكلَّمَ إلا بقدْرِ الضرورةِ ؛ فإنَّ الكلامَ يشغلُ القلبَ ، وشَرَهُ القلوبِ إلى الكلامِ عظيمٌ ؛ فإنَّهُ يستروحُ إليهِ ، ويستثقلُ التجرُّدَ للذكْرِ والفكرِ ، فيستريحُ إليهِ ، فالصمتُ يلقحُ العقلَ ، ويجلبُ الورعَ ، ويعلِّمُ التقوىٰ .

وأمَّا الخلوةُ : ففائدتُها دفعُ الشواغلِ ، وضبطُ السمعِ والبصرِ ؛ فإنَّهُما دهليزُ القلبِ ، والقلبُ في حكْمِ حوضٍ تنصبُّ إليهِ مياهٌ كريهةٌ كدرةٌ قذرةٌ مِنْ أنهارِ الحواسِّ ، ومقصودُ الرياضةِ تفريغُ الحوضِ مِنْ تلكَ المياهِ ، ومِنَ الطينِ الحاصلِ منها ؛ لينفجرَ أصلُ الحوضِ ، فيخرجُ منهُ الماءُ النظيفُ الطاهرُ .

وكيفَ يصحُّ لهُ أنْ ينزحَ الماءَ مِنَ الحوضِ والأنهارُ مفتوحةٌ إليهِ ، فيتجدَّدُ في كلِّ حالٍ أكثرَ ممَّا ينقصُ ؟!

فلا بدَّ مِنْ ضبطِ الحواسِّ إلا عنْ قدْرِ الضرورةِ ، وليسَ يتمُّ ذٰلكَ إلا بالخلوةِ في بيتٍ مظلمٍ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ مكانٌ مظلمٌ . . فليلفَّ رأسَهُ في جيبِهِ ، أوْ يتدثَّرْ بكساءٍ أوْ إزارٍ ، ففي مثلِ هٰذهِ الحالةِ يسمعُ نداءَ الحقِّ ، ويشاهدُ جلالَ الحضرةِ الربوبيةِ ، أما ترىٰ أنَّ نداءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلغَهُ وهوَ علىٰ مثلِ هٰذهِ الصفةِ ، فقيلَ لهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾(٥)

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (٩٥/١) ، وكذٰلك (٦٧/٢) وزاد : (وقد رواه عبد الرحمٰن بن يحيى الأسود عن طاووس رفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٢) قوت القلوب (٩٥/١) .

(٣) قوت القلوب (١٥٤/١) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٣٢٩) عن أبي إسحاق الموصلي .

(٥) رواه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦٠) ، وقوله : (بلغه وهو علىٰ هٰذه الصفة) يؤكد هٰذا النداءُ بالحال ؛ إذ ناداه بالمدثر والمزمل وهو ملابس لذٰلك ؛ ليستشعر الملاطفة منه سبحانه .

أيضاً[1] ، وكشفُ الغطاءِ عنِ الحقيقةِ أولىٰ مِنْ نقلِ الأقاويلِ المختلفةِ .

❁ ❁ ❁

فنقولُ : الخلْقُ والخلُقُ عبارتانِ مستعملتانِ معاً ، يقالُ : (فلانٌ حسنُ الخلْقِ والخلُقِ) ؛ أيْ : حسنُ الظاهرِ والباطنِ ، فيُرادُ بالخلْقِ الصورةُ الظاهرةُ ، ويُرادُ بالخُلُقِ الصورةُ الباطنةُ ، وذٰلكَ لأنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِنْ جسدٍ مدرَكٍ بالبصرِ ، ومِنْ روحٍ ونفسٍ مدرَكةٍ بالبصيرةِ ، ولكلِّ واحدٍ منهُما هيئةٌ وصورةٌ ؛ إمَّا قبيحةٌ ، وإمَّا جميلةٌ .

والنفسُ المدرَكةُ بالبصيرةِ أعظمُ قدراً مِنَ الجسدِ المدرَكِ بالبصرِ ، ولذٰلكَ عظَّمَ اللهُ تعالىٰ أمرَهُ بإضافتِهِ إليهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ، فنبَّهَ علىٰ أنَّ الجسدَ منسوبٌ إلى الطينِ ، والروحَ إلىٰ ربِّ العالمينَ ، والمرادُ بالروحِ والنفسِ في هٰذا المقامِ واحدٌ .

فالخلُقُ : عبارةٌ عنْ هيئةٍ في النفسِ راسخةٍ ، عنها تصدُرُ الأفعالُ بسهولةٍ ويسرٍ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ فكرٍ ورويَّةٍ .

فإنْ كانَتِ الهيئةُ بحيثُ تصدرُ عنها الأفعالُ الجميلةُ المحمودةُ عقلاً وشرعاً . . سُمِّيَتْ تلكَ الهيئةُ خُلُقاً حسناً .

وإنْ كانَ الصادرُ عنها الأفعالَ القبيحةَ . . سُمِّيَتِ الهيئةُ التي هيَ المصدرُ خُلُقاً سيئاً .

وإنَّما قلنا : (إنَّها هيئةٌ راسخةٌ) لأنَّ مَنْ يصدرُ منهُ بذْلُ المالِ على الندورِ لحاجةٍ عارضةٍ . . لا يُقالُ : (خلقُهُ السخاءُ) ما لمْ يثبتْ ذٰلكَ في نفسِهِ ثبوتَ رسوخٍ .

وإنَّما اشترطنا أنْ تصدرَ منهُ الأفعالُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ رويَّةٍ ؛ لأنَّ مَنْ تكلَّفَ بذْلَ المالِ أوِ السكوتَ عندَ الغضبِ بجهْدٍ ورويَّةٍ . . لا يُقالُ : (خلقُهُ السخاءُ والحِلْمُ) .

فها هنا أربعةُ أمورٍ :

أحدُها : فعلُ الجميلِ والقبيحِ .

والثاني : القدرةُ عليهما .

والثالثُ : المعرفةُ بهما .

والرابعُ : هيئةٌ للنفسِ بها تميلُ إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، ويتيسَّرُ عليها أحدُ الأمرينِ ، إمَّا الحسنُ وإمَّا القبيحُ .

وليسَ الخُلُقُ عبارةً عنِ الفعلِ : فربَّ شخصٍ خلقُهُ السخاءُ ولا يبذُلُ ، إمَّا لفقدِ المالِ أوْ لمانعٍ ، وربَّما يكونُ خلقُهُ البخلَ وهوَ يبذلُ إمَّا لباعثٍ أوْ لرياءٍ .

وليسَ هوَ عبارةً عنِ القوَّةِ : لأنَّ نسبةَ القوَّةِ إلى الإمساكِ والإعطاءِ بلْ إلى الضدينِ واحدٌ ، وكلُّ إنسانٍ خُلِقَ بالفطرةِ قادراً على الإعطاءِ والإمساكِ ، وذٰلكَ لا يوجبُ خُلُقَ البخلِ ولا خُلُقَ السخاءِ .

وليسَ عبارةً عنِ المعرفةِ : فإنَّ المعرفةَ تتعلَّقُ بالجميلِ والقبيحِ جميعاً علىٰ وجهٍ واحدٍ .

---

(١) والعذر لهم في ذٰلك : أن الأخلاق لها ثمرات كثيرة ، ومكارمها غير محصورة ، وإحاطتها في جملة واحدة متعسرة ، ولها مراتب عليا وسفلىٰ ، وبينهما أوساط ، وكل قد أشار إلىٰ مرتبة من مراتبها بحسب الاقتضاء . « إتحاف » (٣٢٦/٧) .

غالبةً عليهِ ، قدْ فرغَ عنْ كلِّ ما سواهُ ؛ لأنَّ القلبَ إذا شُغِلَ بشيءٍ . . خلا عنْ غيرِهِ أيَّ شيءٍ كانَ ، فإذا اشتغلَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ وهوَ المقصودُ . . خلا ـ لا محالةَ ـ عنْ غيرِهِ .

وعندَ ذٰلكَ يلزمُهُ أنْ يراقبَ وساوسَ القلبِ ، والخواطرَ التي تتعلَّقُ بالدنيا ، وما يتذكَّرُ فيهِ ممَّا قدْ مضىٰ مِنْ أحوالِهِ وأحوالِ غيرِهِ ؛ فإنَّهُ مهما اشتغلَ بشيءٍ منهُ ولوْ في لحظةٍ . . خلا قلبُهُ عنِ الذكرِ في تلكَ اللحظةِ ، وكانَ ذٰلكَ نقصاناً ، فليجتهدْ في دفعِ ذٰلكَ .

ومهما دفعَ الوساوسَ كلَّها وردَّ النفسَ إلىٰ هٰذهِ الكلمةِ . . جاءتهُ الوساوسُ مِنْ هٰذهِ الكلمةِ ، وأنَّها ما هيَ ؟ وما معنىٰ قولِنا : (الله) ؟ ولأيِّ معنىً كانَ إلٰهاً وكانَ معبوداً ؟ ويعتريهِ عندَ ذٰلكَ خواطرُ تفتحُ عليهِ بابَ الفكرِ ، وربَّما يردُ عليهِ مِنْ وساوسِ الشيطانِ ما هوَ كفرٌ أوْ بدعةٌ ، ومهما كانَ كارهاً لذٰلكَ ، ومتشمِّراً لإماطتِهِ عنِ القلبِ . . لمْ يضرُّهُ ذٰلكَ .

والخواطرُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما يُعلمُ قطعاً أنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهٌ عنهُ ، ولٰكنَّ الشيطانَ يلقي ذٰلكَ في قلبِهِ ، ويجريهِ علىٰ خاطرِهِ ، فشرطُهُ ألا يباليَ بهِ ، ويفزعَ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويبتهلَ إليهِ ليدفعَهُ عنهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

وإلىٰ ما يُشَكُّ فيهِ ، فينبغي أنْ يعرضَ ذٰلكَ علىٰ شيخِهِ ، بلْ كلُّ ما يجدُ في قلبِهِ مِنَ الأحوالِ مِنْ فترةٍ ، أوْ نشاطٍ ، أوِ التفاتٍ إلىٰ عُلْقَةٍ ، أوْ صدْقٍ في إرادةٍ . . فينبغي أنْ يظهرَ ذٰلكَ لشيخِهِ ، وأنْ يسترَهُ عنْ غيرِهِ ، فلا يطلعَ عليهِ أحداً .

ثمَّ إنَّ شيخَهُ ينظرُ في حالِهِ ، ويتأمَّلُ في ذكائِهِ وكياستِهِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ لوْ تركَهُ وأمرَهُ بالفكْرِ تنبَّهَ مِنْ نفسِهِ لحقيقةِ الحقِّ . . فينبغي أنْ يحيلَهُ على الفكرِ ، ويأمرَهُ بملازمتِهِ ، حتَّىٰ يقذفَ في قلبِهِ مِنَ النورِ ما يكشفُ لهُ حقيقتَهُ .

وإنْ علمَ أنَّ ذٰلكَ ممَّا لا يقوىٰ عليهِ مثلُهُ . . ردَّهُ إلى الاعتقادِ القاطعِ بما يحتملُهُ قلبُهُ مِنْ وعظٍ وذكرٍ ودليلٍ قريبٍ مِنْ فهمِهِ[1] .

وينبغي أنْ يتأنَّقَ الشيخُ ويتلطَّفَ بهِ ، فإنَّ هٰذهِ مهالكُ الطريقِ ومواضعُ أخطارِها ، فكمْ مِنْ مريدٍ اشتغلَ بالرياضةِ فغلبَ عليهِ خيالٌ فاسدٌ لمْ يقوَ علىٰ كشفِهِ ، فانقطعَ عليهِ طريقُهُ ، فاشتغلَ بالبطالةِ ، وسلكَ طريقَ الإباحةِ ، وذٰلكَ هوَ الهلاكُ العظيمُ .

ومَنْ تجرَّدَ للذكرِ ، ودفعَ العلائقَ الشاغلةَ عنْ قلبِهِ . . لمْ يخلُ عنْ أمثالِ هٰذهِ الأفكارِ ، فإنَّهُ قدْ ركبَ سفينةَ الخطرِ ، فإنْ سلمَ . . كانَ مِنْ ملوكِ الدينِ ، وإنْ أخطأَ . . كانَ مِنَ الهالكينَ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بدينِ العجائزِ »[2] ، وهوَ تلقي أصلِ الإيمانِ وظاهرِ الاعتقادِ

---

(١) وعبارة الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٢٣) : (فالواجب علىٰ شيخه إن رأىٰ فيه كياسة أن يحيله على الحجج العقلية ، فإن بالعلم يتخلص ـ لا محالة ـ المتعرف مما يعتريه من الوساوس ، وإن تفرس شيخه فيه القوة والثبات في الطريقة . . أمره بالصبر واستدامة الذكر ، حتىٰ تسطع في قلبه أنوار القبول ، وتطلع في سره شموس الوصول ، وعن قريب يكون ذٰلك ، ولٰكن لا يكون هٰذا إلا لأفراد المريدين) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (قال ابن طاهر في كتاب « التذكرة » : هٰذا اللفظ تداوله العامة ، ولم أقف له علىٰ أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة ، حتىٰ رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمٰن بن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا كان في آخر

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (في سعةِ الأخلاقِ كنوزُ الأرزاقِ)[1]

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (مثلُ السيّئِ الخلقِ كمثلِ الفخّارةِ المكسورةِ ، لا تُرقعُ ، ولا تعادُ طيناً) .

وقالَ الفضيلُ : (لأنْ يصحبَني فاجرٌ حسنُ الخلقِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يصحبَني عابدٌ سيّئُ الخلقِ)[2]

وصحبَ ابنَ المباركِ رجلٌ سيّئُ الخلقِ في سفرٍ ، فكانَ يحتملُ منهُ ويداريهِ ، فلمّا فارقَهُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : بكيتُهُ رحمةً لهُ ، فارقتُهُ وخلقُهُ معَهُ لمْ يفارقْهُ .

وقالَ الجنيدُ : (أربعٌ ترفعُ العبدَ إلىٰ أعلى الدرجاتِ وإنْ قلَّ عملُهُ وعلمُهُ ؛ الحلمُ ، والتواضعُ ، والسخاءُ ، وحسْنُ الخلقِ ، وهوَ كمالُ الإيمانِ)[3]

وقالَ الكتانيُّ : (التصوُّفُ خلقٌ ، فمَنْ زادَ عليكَ في الخلقِ . . زادَ عليكَ في التصوُّفِ)[4]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (خالطوا الناسَ بالأخلاقِ ، وزايلوهُمْ بالأعمالِ)[5]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (سوءُ الخلقِ سيئةٌ لا تنفعُ معها كثرةُ الحسناتِ ، وحسْنُ الخلقِ حسنةٌ لا تضرُّ معَها كثرةُ السيئاتِ)[6]

وسُئلَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : ما الكرمُ ؟ فقالَ : هوَ ما بيَّنَ اللهُ في كتابِهِ العزيزِ : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ ، قيلَ : فما الحسبُ ؟ قالَ : أحسنُكُمْ خُلُقاً أفضلُكُمْ حسباً[7]

وقيلَ : (لكلِّ بنيانٍ أساسٌ ، وأساسُ الإسلامِ حسْنُ الخلقِ)[8]

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (ما ارتفعَ مَنِ ارتفعَ إلا بالخُلقِ الحسنِ ، ولمْ ينلْ أحدٌ كمالَهُ إلا المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقربُ الخلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ السالكونَ آثارَهُ بحسْنِ الخلُقِ)[9]

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٥) من غير نسبة .
(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٦٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤٠)
(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤١٠) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٢١)
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤١) .
(٧) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٩٩) .
(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٤٠) من كلام عكرمة رحمه الله تعالىٰ .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤١)

وإذا انكشفَ للمريدِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ . . فأعظمُ القواطعِ عليهِ أنْ يتكلَّمَ بهِ وعظاً ونصحاً ، ويتصدَّىٰ للتذكيرِ ، فتجدُ النفسُ فيهِ لذَّةً ليسَ وراءَها لذةٌ ، فتدعوهُ تلكَ اللذَّةُ إلىٰ أنْ يتفكَّرَ في كيفيَّةِ إيرادِ تلكَ المعاني ، وتحسينِ الألفاظِ المعبِّرةِ عنها ، وترتيبِ ذكرِها ، وتزيينِها بالحكاياتِ وشواهدِ القرآنِ والأخبارِ ، وتحسينِ صيغةِ الكلامِ ؛ لتميلَ إليهِ القلوبُ والأسماعُ .

والشيطانُ ربَّما يخيِّلُ إليه أنَّ هٰذا إحياءٌ منكَ لقلوبِ الموتى الغافلينَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما أنتَ واسطةٌ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ وبينَ الخلقِ ، تدعو عبادَهُ إليهِ ، وما لكَ فيهِ نصيبٌ ، ولا لنفسِكَ فيهِ لذَّةٌ .

ويتَّضحُ كيدُ الشيطانِ بأنْ يظهرَ في أقرانِهِ مَنْ يكونُ أحسنَ كلاماً منهُ ، وأجزلَ لفظاً ، وأقدرَ على استجلابِ قلوبِ العوامِّ ؛ فإنَّهُ يتحرَّكُ في باطنِهِ عقربُ الحسدِ ـ لا محالةَ ـ إنْ كانَ محرِّكُهُ لذَّةَ القبولِ ، وإنْ كانَ محرِّكُهُ هوَ الحقَّ حرصاً علىٰ دعوةِ عبادِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ صراطِهِ المستقيمِ . . فيعظمُ به فرحُهُ ، ويقولُ : (الحمدُ للهِ الذي عضدني وأيَّدَني بمَنْ وازرَني علىٰ إصلاحِ عبادِهِ) ؛ كالذي وجبَ عليهِ مثلاً أنْ يحملَ ميِّتاً ليدفنَهُ إذْ وجدَهُ ضائعاً ، وتعيَّنَ عليهِ ذٰلكَ شرعاً ، فجاءَ مَنْ أعانَهُ عليهِ ، فإنَّهُ يفرحُ بهِ ، ولا يحسدُ معينَهُ ، والغافلونَ موتى القلوبِ ، والوعَّاظُ هُمُ المنبِّهونَ والمحيونَ لهُمْ ، ففي كثرتِهِمُ استرواحٌ وتناصرٌ ، فينبغي أنْ يعظمَ الفرحُ بذٰلكَ ، وهٰذا عزيزُ الوجودِ جدّاً ، فينبغي أنْ يكونَ المريدُ علىٰ حذرٍ منهُ ؛ فإنَّهُ أعظمُ حبائلِ الشيطانِ في قطعِ الطريقِ علىٰ مَنِ انفتحَتْ لهُ أوائلُ الطريقِ ، فإنَّ إيثارَ الحياةِ الدنيا طبعٌ غالبٌ على الإنسانِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [1] ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الشرَّ قديمٌ في الطباعِ ، وأنَّ ذٰلكَ مذكورٌ في الكتبِ السالفةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

فهٰذا منهاجُ رياضةِ المريدِ وتربيتِهِ في التدريجِ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا تفصيلُ الرياضةِ في كلِّ صفةٍ . . فسيأتي ؛ فإنَّ أغلبَ الصفاتِ على الإنسانِ بطنُهُ وفرجُهُ ولسانُهُ ؛ أعني بهِ الشهواتِ المتعلقةَ بها ، ثمَّ الغضبُ الذي هوَ كالجندِ لحمايةِ الشهواتِ ، ثمَّ مهما أحبَّ الإنسانُ شهوةَ البطنِ والفرجِ وأنسَ بهما . . أحبَّ الدنيا ، ولمْ يتمكَّنْ منها إلا بالمالِ والجاهِ ، وإذا طلبَ المالَ والجاهَ . . حدثَ فيهِ الكِبْرُ والعجبُ والرئاسةُ ، وإذا ظهرَ ذٰلكَ . . لمْ تسمحْ نفسُهُ بتركِ الدنيا رأساً ، وتمسَّكَ مِنَ الدينِ بما فيهِ الرئاسةُ ، وغلبَ عليه الغرورُ .

❁ ❁ ❁

فلهٰذا وجبَ علينا بعدَ تقديمِ هٰذينِ الكتابينِ أنْ نستكملَ ربعَ المهلكاتِ بثمانيةِ كتبٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

كتابٌ في كسرِ شهوةِ البطنِ والفرجِ .

وكتابٌ في كسْرِ شَرَهِ الكلامِ .

وكتابٌ في كسرِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ .

---

(١) أي : يختارونها على الآخرة ، فلا يفعلون ما يسعدهم في الآخرة ، ولو علموا علماً يقيناً فناءها وبقاء الآخرة . . لما آثروها . « إتحاف » (٣٧٨/٧) .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كرمُ المرْءِ دينُهُ ، ومروءتُهُ عقلُهُ ، وحَسَبُهُ خلقُهُ »(١)

وعنْ أسامةَ بنِ شريكٍ قالَ : شهدتُ الأعاريبَ يسألونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : ما خيرُ ما أُعطيَ العبدُ ؟ قالَ : « خلُقٌ حسنٌ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّكُمْ إليَّ وأقربَكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ أحاسنُكُمْ أخلاقاً »(٣)

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ لمْ تكنْ فيهِ أوْ واحدةٌ منهُنَّ فلا تعتدُّنَّ بشيءٍ مِنْ عملِهِ : تقوىً تحجزُهُ عَنْ معاصي اللهِ ، أوْ حِلمٌ يكُفُّ بهِ السّفيهَ ، أوْ خلقٌ يعيشُ بهِ في الناسِ »(٤) .

وكانَ مِنْ دعائِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في افتتاحِ الصلاةِ : « اللهمَّ ؛ اهدني لأحسنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنتَ »(٥)

وقالَ أنسٌ : « بينما نحنُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً إذْ قالَ : « إنَّ حسنَ الخلقِ ليذيبُ الخطيئةَ كما تذيبُ الشمسُ الجليدَ »(٦)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ سعادةِ المرءِ حسنُ الخلُقِ »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليُمْنُ حسْنُ الخلُقِ »(٨)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لأبي ذرٍّ : « يا أبا ذرٍّ ؛ لا عقلَ كالتدبيرِ ، ولا حسَبَ كحسنِ الخلقِ »(٩)

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَتْ أمُّ حبيبةَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرأيتَ المرأةَ منَّا يكونُ لها زوجانِ في الدنيا ، فتموتُ ويموتانِ ، ويدخلونَ الجنَّةَ ، لأيِّهما هيَ ؟ قالَ : « لأحسنِهما خُلُقاً كانَ عندَها في الدنيا ، يا أمَّ حبيبةَ ؛ ذهبَ حسْنُ الخلقِ بخيري الدنيا والآخرةِ »(١٠)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المسلمَ المسدَّدَ ليدركُ درجةَ الصائمِ القائمِ بحسْنِ خلقِهِ وكرمِ ضريبتِهِ »(١١) ، وفي روايةٍ : « درجةَ الظمآنِ في الهواجرِ »(١٢)

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣٦٥/٢) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٨٣) ، والحاكم في « المستدرك » (١٢٣/١) ، وفي (ب) : (كرم المؤمن دينه . . .) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٣٦) ضمن خبر ، وكما أورده المصنف رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٤) .

(٣) رواه الترمذي (٢٠١٨) ضمن خبر ، وكما أورده المصنف رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٧/٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٥) رواه مسلم (٧٧١) .

(٦) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤١) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٧) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٩) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٨) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

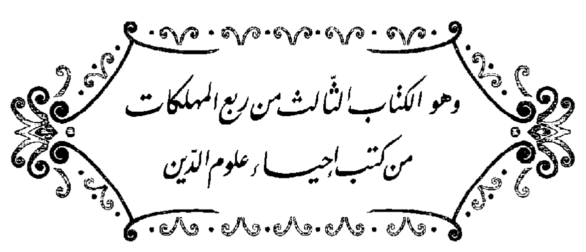
(٩) رواه ابن ماجه (٤٢١٨) .

(١٠) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (١٢١٣) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢٢/٢٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧١/٥) .

(١١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٣ ، ٦٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، **والضريبة** : الطبيعة .

(١٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كتاب
كسر الشهوتين



بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ وحبيبِهِ مثنياً عليهِ ومظهراً نعمتَهُ لديهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خلقُهُ القرآنَ)(١)

وسألَ رجلٌ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ حسنِ الخلقِ فتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ أنْ تصلَ مَنْ قطعَكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمَكَ ، وتعفوَ عمَّنْ ظلمَكَ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أثقلُ ما يُوضعُ في الميزانِ يومَ القيامةِ تقوى اللهِ وحسنُ الخلقِ »(٤)

وجاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ بينِ يديهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ قالَ : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ قبلِ يمينِهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ قال : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ قبلِ شمالِهِ ، فقالَ يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ فقالَ : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ ورائِهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ فالتفتَ إليهِ وقال : « أمَا تفقَهُ ؟! هوَ ألا تغضبَ »(٥)

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الشؤمُ ؟ قالَ : « سوءُ الخلُقِ »(٦)

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، فقالَ : « اتقِ اللهَ حيثُ كنتَ » ، قالَ : زدْني ، قالَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها » ، قالَ : زدْني ، قالَ : « خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ »(٧)

وسُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « حسنُ الخلقِ »(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حسَّنَ اللهُ خَلْقَ عبدٍ وخُلُقَهُ فيطعمَهُ النارَ »(٩)

وقالَ الفضيلُ : قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ وهيَ سيئةُ الخلقِ ، تؤذي جيرانَها بلسانِها ، قالَ : « لا خيرَ فيها ، هيَ مِنْ أهلِ النارِ »(١٠)

---

(١) هو جزء من حديث طويل رواه مسلم (٧٤٦) ، وأبو داوود (١٣٤٢) ، وأحمد في « المسند » (٩١/٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٣١٠/٤) من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، ورواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) عن أُمَيّ الصيرفي .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣٨١/٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٦١٣/٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٩٢/١٠) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٥) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٥٢٥) ، والخرائطي أخصر منه في « مساوئ الأخلاق » (٣٥٤) عن أبي العلاء بن الشخير مرسلاً .

(٦) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، وعند أحمد في « المسند » (٨٥/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الشؤم سوء الخلق » .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٦/٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٤٥/٢٠) ، والمستوصي هو معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقريب منه عند الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه دون ذكر الاستيصاء .

(٨) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨٠/١) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه .

(٩) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٧٧٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٨٢/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٨) .

(١٠) رواه أحمد في « المسند » (٤٤٠/٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٩) .

كتاب كسر الشهوتين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ المنفردِ بالجلالِ في كبريائِهِ وتعاليهِ ، المستحقِّ للتحميدِ والتقديسِ والتسبيحِ والتنزيهِ ، القائمِ بالعدْلِ فيما يبرمُهُ ويقضيهِ ، المتطوِّلِ بالفضْلِ فيما ينعمُ بهِ ويسديهِ ، المتكفِّلِ بحفْظِ عبدِهِ في جميعِ مواردِهِ ومجاريهِ ، المنعمِ عليهِ بما يزيدُ علىٰ مهمَّاتِ مقاصدِهِ بلْ بما يفي بأمانيهِ ، فهوَ الذي يرشدُهُ ويهديهِ ، وهوَ الذي يميتُهُ ويحييهِ ، وإذا مرضَ . . فهوَ يشفيهِ ، وإذا ضعُفَ . . فهوَ يقوِّيهِ ، وهوَ الذي يوفِّقُهُ للطاعةِ ويرتضيهِ ، وهوَ الذي يطعمُهُ ويسقيهِ ، ويحفظُهُ مِنَ الهلاكِ ويحميهِ ، ويحرسُهُ بالطعامِ والشرابِ عمَّا يهلكُهُ ويرديهِ ، ويمكِّنُهُ مِنَ القناعةِ بقليلِ القوتِ ويقوِّيهِ ، حتَّىٰ تضيِّقَ بهِ مجاريَ الشيطانِ الذي يناويهِ[1] ، ويكسرُ بهِ سطوةَ النفسِ التي تعاديهِ ، فيدفعُ شرَّها ثمَّ يعبدُ ربَّهُ ويتَّقيهِ ، هٰذا بعدَ أنْ يوسِّعَ عليهِ ما يلتذُّ بهِ ويشتهيهِ ، ويكثِّرَ عليهِ ما يهيِّجُ بواعثَهُ ويؤكِّدُ دواعيهِ[2] ، كلُّ ذٰلكَ يمتحنُهُ بهِ ويبتليهِ ، فينظرُ كيفَ يؤثرُهُ علىٰ ما يهواهُ وينتحيهِ ، وكيفَ يحفظُ أوامرَهُ وينتهي عنْ نواهيهِ ، ويواظبُ علىٰ طاعتِهِ وينزجرُ عنْ معاصيهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ عبدِهِ النبيهِ ، ورسولِهِ الوجيهِ ، صلاةً تزلفُهُ وتحظيهِ ، وترفعُ منزلتَهُ وتعليهِ ، وعلى الأبرارِ مِنْ عترتِهِ وأقربيهِ ، والأخيارِ مِنْ صحابتِهِ وتابعيهِ .

أما بعد :

فأعظمُ المهلكاتِ لابنِ آدمَ شهوةُ البطنِ ، فبها أُخرجَ آدمُ وحواءُ مِنْ دارِ القرارِ إلىٰ دارِ الذلِّ والافتقارِ ؛ إذْ نُهيا عنِ الشجرةِ ، فغلبَتْهُما شهواتُهما ، حتَّىٰ أكلا منها فبدَتْ لهما سوءَاتُهما .

والبطنُ على التحقيقِ ينبوعُ الشهواتِ ، ومنبتُ الأدواءِ والآفاتِ ؛ إذْ تتبعُها شهوةُ الفرجِ وشدَّةُ الشبقِ إلى المنكوحاتِ ، ثمَّ يتبعُ شهوةَ الطعامِ والنكاحِ شدَّةُ الرغبةِ في المالِ والجاهِ اللذينِ هما الوسيلةُ إلى التوسُّعِ في المطعوماتِ والمنكوحاتِ ، ثمَّ يتبعُ استكثارَ المالِ والجاهِ أنواعُ الرعوناتِ ، وضروبُ المنافساتِ والمحاسداتِ ، ثمَّ يتولَّدُ بينَهُما آفةُ الرياءِ ، وغائلةُ التفاخرِ والتكاثرِ والكبرياءِ ، ثمَّ يتداعىٰ ذٰلكَ إلى الحسدِ والحقدِ ، والعداوةِ والبغضاءِ ، ثمَّ يفضي ذٰلكَ بصاحبِهِ إلى اقتحامِ البغيِ والمنكرِ والفحشاءِ ، وكلُّ ذٰلكَ ثمرةُ إهمالِ المعدةِ ، وما يتولَّدُ منها مِنْ بطرِ الشبعِ والامتلاءِ .

ولوْ ذلَّلَ العبدُ نفسَهُ بالجوعِ ، وضيَّقَ بهِ مجاريَ الشيطانِ . . لأذعنَتْ لطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ تسلكْ سبيلَ البطرِ والطغيانِ ، ولمْ ينجرَّ بهِ ذٰلكَ إلى الانهماكِ في الدنيا ، وإيثارِ العاجلةِ على العقبىٰ ، ولمْ يتكالبْ كلَّ هٰذا التكالبِ على الدنيا .

---

(١) أي : حتىٰ تضيق القناعة بقليل القوت مجاري الشيطان .

(٢) مراعاة للسجعة ، وهي لغة أيضاً ، والأصل : (دواعيَهُ)

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي صرَّفَ الأمورَ بتدبيرِهِ ، وعدَّلَ تركيبَ الخلقِ فأحسنَ في تصويرِهِ ، وزيَّنَ صورةَ الإنسانِ بحسْنِ تقويمِهِ وتقديرِهِ ، وحرسَهُ مِنَ الزيادةِ والنقصانِ في شكْلِهِ ومقاديرِهِ ، وفوَّضَ تحسينَ الأخلاقِ إلى اجتهادِ العبدِ وتشميرِهِ ، واستحثَّهُ علىٰ تهذيبِها بتخويفِهِ وتحذيرِهِ ، وسهَّلَ علىٰ خواصِّ عبادِهِ تهذيبَ الأخلاقِ بتوفيقِهِ وتيسيرِهِ ، وامتنَّ عليهِمْ بتسهيلِ صعبِهِ وعسيرِهِ .

والصلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ عبدِ اللهِ ونبيِّهِ وحبيبِهِ وصفيِّهِ وبشيرِهِ ونذيرِهِ ، الذي كانَ يلوحُ نورُ النبوَّةِ مِنْ بينِ أساريرِهِ ، وتُستشفُّ حقيقةُ الحقِّ مِنْ مخايلِهِ وتباشيرِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ طهَّروا وجْهَ الإسلامِ منْ ظلمةِ الكفرِ ودياجيرِهِ ، وحسموا مادَّةَ الباطلِ فلمْ يتدنَّسوا بقليلِهِ ولا بكثيرِهِ .

أما بعد :

فالخُلُقُ الحسنُ صفةُ سيِّدِ المرسلينَ ، وأفضلُ أعمالِ الصِّدِّيقينَ ، وهوَ على التحقيقِ شطْرُ الدينِ [(١)] ، وثمرةُ مجاهدةِ المتقينَ ، ورياضةُ المتعبدينَ .

والأخلاقُ السيئةُ هيَ السمومُ القاتلةُ والمهلكاتُ الدامغةُ ، والمخازي الفاضحةُ ، والرذائلُ الواضحةُ ، والخبائثُ المبعدةُ عنْ جوارِ ربِّ العالمينَ ، المنخرطةُ بصاحبِها في سلْكِ الشياطينِ ، وهيَ الأبوابُ المفتوحةُ إلىٰ نارِ اللهِ الموقدةِ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ ، كما أنَّ الأخلاقَ الجميلةَ هيَ الأبوابُ المفتوحةُ مِنَ القلبِ إلىٰ نعيمِ الجنانِ وجوارِ الرحمٰنِ .

والأخلاقُ الخبيثةُ أمراضُ القلوبِ ، وأسقامُ النفوسِ ، إلا أنَّهُ مرضٌ يفوِّتُ حياةَ الأبدِ ، وأينَ منهُ المرضُ الذي لا يفوِّتُ إلا حياةَ الجسدِ ؟!

ومهما اشتدَّتْ عنايةُ الأطباءِ بضبطِ قوانينِ العلاجِ لأمراضِ الأبدانِ وليسَ في مرضِها إلا فوتُ الحياةِ الفانيةِ . . فالعنايةُ بضبطِ قوانينِ العلاجِ لأمراضِ القلوبِ وفي مرضِها فوتُ حياةٍ باقيةٍ أولىٰ ، وهٰذا النوعُ مِنَ الطبِّ واجبٌ تعلُّمُهُ علىٰ كلِّ ذي لبٍّ [(٢)] ؛ إذْ لا يخلو قلبٌ مِنَ القلوبِ عنْ أسقامٍ لوْ أُهملَتْ . . تراكمَتْ ، وترادفَتِ العللُ وتظاهرَتْ ، فيحتاجُ العبدُ إلىٰ تأنُّقٍ في معرفةِ عللِها وأسبابِها ، ثمَّ إلىٰ تشميرٍ في معالجتِها وإصلاحِها ، فمعالجتُها هوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ وإهمالُها هوَ المرادُ بقولِهِ : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ .

ونحنُ نشيرُ في هٰذا الكتابِ إلىٰ جملٍ مِنْ أمراضِ القلوبِ ، وكيفيةِ القولِ في معالجتِها على الجملةِ ، مِنْ غيرِ

---

(١) وقد روى العقيلي في « الضعفاء » (٣٦٦/٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٧١٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « حسن الخلق نصف الدين » .

(٢) وهٰذا هو طب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أرسلهم الله تعالىٰ لتعليم الأمم كيف يجعلون القلب في كور المجاهدة ، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة ، وكيف يوردونه طريق الصفاء . « إتحاف » (٣١٧/٧) .

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاهدوا أنفسَكُمْ بالجوعِ والعطشِ ؛ فإنَّ الأجرَ في ذٰلكَ كأجرِ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ ، وإنَّهُ ليسَ مِنْ عملٍ أحبَّ إلى اللهِ مِنْ جوعٍ وعطشٍ »(١)

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ ملكوتَ السماءِ مَنْ ملأَ بطنَهُ »(٢)

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الناسِ أفضلُ ؟ قالَ : « مَنْ قلَّ مطعمُهُ وضحكُهُ ، ورضيَ بما يستُرُ بهِ عورتَهُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيِّدُ الأعمالِ الجوعُ ، وذلُّ النَّفسِ لباسُ الصوفِ »(٤)

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البسوا وكلوا واشربوا في أنصافِ البطونِ ؛ فإنَّهُ جزءٌ مِنَ النبوَّةِ »(٥)

وقالَ الحسنُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الفكرُ نصفُ العبادةِ ، وقلَّةُ الطعامِ هيَ العبادةُ »(٦)

وقالَ الحسنُ أيضاً : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُكُمْ عندَ اللهِ منزلةً يومَ القيامةِ أطولُكُمْ جوعاً وتفكُّراً في اللهِ سبحانَهُ ، وأبغضُكُمْ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ كلُّ نؤُومٍ أكولٍ شروبٍ »(٧)

وفي الخبرِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يجوعُ مِنْ غيرِ عوزٍ ؛ أيْ : مختاراً لذٰلكَ(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يباهي الملائكةَ بمَنْ قلَّ مطعمُهُ ومشربُهُ في الدنيا ، يقولُ اللهُ تعالى : انظروا إلىٰ عبدي ، ابتليتُهُ بالطعامِ والشرابِ في الدنيا ، فصبرَ وتركَهُما ، اشهدوا يا ملائكتي ؛ ما مِنْ أكلةٍ يدعُها إلا أبدلتُهُ بها درجاتٍ في الجنةِ »(٩)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تميتوا القلوبَ بكثرةِ الطعامِ والشَّرابِ ؛ فإنَّ القلبَ كالزرعِ يموتُ إذا كثُرَ عليهِ الماءُ »(١٠)

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٣٨٦/٧) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٥) عن مكحول قال : (أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (٢٣٥٠) عن الحسن مرسلاً ، وأورده عن ابن عباس مرفوعاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

(٣) كذا أورده عقب الحديث السابق الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

(٤) أورده عن مكحول مرسلاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وفيه : « . . . وذل النفس ، ولباس الصوف » .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو عند صاحب « القوت » (١٦٧/٢) من حديث الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

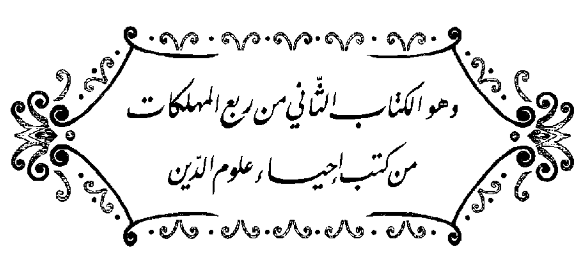
(٧) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٨) ولفظ الخبر عند أبي طالب في « القوت » (٩٧/١) : (وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجوعون من غير إعواز ؛ أي : مختارين) ، وهو معنىٰ قولها رضي الله عنها كما رواه عنها البيهقي في « الشعب » (٥٢٥٢) : (لو شئنا أن نشبع . . شبعنا ، ولٰكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يوثر علىٰ نفسه) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٠/١) عن ابن سيرين : أن رجلاً قال لابن عمر : أجعل لك جوارش ؟ قال : وأي شيء الجوارش ؟ قال : شيء إذا كظَّك الطعام فأصبت منه . . سهل عليك ، قال : فقال ابن عمر : ما شبعت من الطعام منذ أربعة أشهر ، وما ذاك ألا أكون له واجداً ، ولٰكني عهدت قوماً يشبعون مرة ، ويجوعون أخرىٰ .

(٩) رواه ابن عدي في « الكامل » . « إتحاف » (٣٨٧/٧) .

(١٠) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٣٨٧/٧)

كتاب
رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب



ولأجلِهِ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ يبغضُ القارئَ السمينَ مِنَ الشبعِ)(١)

وفي خبرٍ مرسلٍ : « إنَّ الشيطانَ ليجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدّمِ ، فضيّقوا مجاريَهُ بالجوعِ والعطشِ »(٢)

وفي الخبرِ : (إنَّ الأكلَ على الشبعِ يورثُ البرصَ)(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يأكلُ في مِعىً واحدٍ ، والمنافقُ يأكلُ في سبعةِ أمعاءٍ »(٤) ، أيْ : يأكلُ سبعةَ أضعافِ ما يأكلُ المؤمنُ ، أوْ تكونُ شهوتُهُ سبعةَ أضعافِ شهوتِهِ ، وذكرُ المعاءِ كنايةٌ عنِ الشهوةِ ؛ لأنَّ الشهوةَ هيَ التي تقبلُ الطعامَ وتأخذُهُ كما يأخذُهُ المِعَىٰ ، وليسَ المعنىٰ زيادةَ عددِ مِعَى المنافقِ علىٰ مِعَى المؤمنِ .

وروى الحسنُ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « أديموا قرْعَ بابِ الجنَّةِ . . يُفتحْ لكُمْ » ، قلتُ : وكيفَ نديمُ قرْعَ بابِ الجنةِ ؟ قالَ : « بالجوعِ والظمأ »(٥)

ورُوِيَ أنَّ أبا جُحَيْفَةَ تجشَّأَ في مجلسِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ : « أقصرْ مِنْ جُشائِكَ ؛ فإنَّ أطولَ الناسِ جوعاً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ شبعاً في الدنيا »(٦)

وكانَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تقولُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يمتلئْ قطُّ شبعاً ، وربَّما بكيتُ رحمةً لهُ ممَّا أرىٰ بهِ مِنَ الجوعِ ، فأمسحُ بطنَهُ بيدي ، وأقولُ : نفسي لكَ الفداءُ ، لوْ تبلَّغْتَ مِنَ الدنيا بقدْرِ ما يقوتُكَ ويمنعُكَ مِنَ الجوعِ ؟ فيقولُ : « يا عائشةُ ؛ إخواني مِنْ أولي العزْمِ مِنَ الرسلِ قدْ صبروا علىٰ ما هوَ أشدُّ مِنْ هٰذا ، فمضوا علىٰ حالِهِمْ ، فقدموا علىٰ ربِّهِمْ ، فأكرمَ مآبَهُمْ ، وأجزلَ ثوابَهُمْ ، فأجدُني أستحيي إنْ ترفَّهْتُ في معيشتي أنْ يقصُرَ بِي غداً دونَهُمْ ، فالصبرُ أياماً يسيرةً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ينقصَ حظِّي غداً في الآخرةِ ، وما مِنْ شيءٍ أحبَّ إليَّ مِنَ اللحوقِ بأصحابي وإخواني » ، قالَتْ عائشةُ : فواللهِ ؛ ما استكملَ بعدَ ذٰلكَ جمعةً حتَّىٰ قبضَهُ اللهُ إليهِ(٧)

وعنْ أنسٍ قالَ : جاءَتْ فاطمةُ رضوانُ اللهِ عليها بكسرةِ خبزٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « ما هٰذهِ الكسرةُ ؟ » قالَتْ : قرصٌ خبزتُهُ ، ولمْ تطبْ نفسي حتَّىٰ أتيتُكَ منهُ بهٰذهِ الكسرةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنَّهُ أوَّلُ طعامٍ دخلَ فَمَ أبيكِ منذُ ثلاثةِ أيامٍ »(٨) .

---

(١) قوت القلوب (١٦٨/٢) .

(٢) قوت القلوب (١٦٨/٢) ، وهو من مرسلات الحسن كما هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٣) والشطر الأول منه رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) مرفوعاً .

(٣) قوت القلوب (١٦٨/٢) ، وكل من المصنف وأبي طالب رحمهما الله تعالىٰ لم يرفعه .

(٤) رواه البخاري (٥٣٩٣) ، ومسلم (٢٠٦٠) .

(٥) قوت القلوب (١٧١/٢) .

(٦) رواه الترمذي (٢٤٧٨) ، وابن ماجه (٢٣٥٠) عن ابن عمر يذكر رجلاً ، ورواه عن أبي جحيفة الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٥٤) .

(٧) كذا أورده القاضي عياض في « الشفا » (ص ١٨٧) بنحوه ، وقد روى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٥٨٣) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٨٠٦) عنها قالت : ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، قال : « يا عائشة ؛ إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ؛ إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر علىٰ مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ، ولا قوة إلا بالله » .

(٨) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٣٤٤/١) ، وأحمد في « المسند » (٢١٣/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٤٥) .

أما ترى العالِمَ الفلانيَّ ليسَ يحترزُ مِنْ مثلِ ذٰلكَ ولوْ كانَ ذٰلكَ شرّاً . . لامتنعَ منهُ ؟

فتميلُ النفسُ إلى الشيطانِ ، وتنقلبُ إليهِ ، فيحملُ المَلَكُ حملةً على الشيطانِ ويقولُ : هلْ هلكَ إلا مَنِ اتبعَ لذَّةَ الحالِ ونسيَ العاقبةَ ؟ أفتقنعُ بلذَّةٍ يسيرةٍ وتتركُ لذَّةَ الجنةِ ونعيمَها أبدَ الآبادِ ؟

أمْ تستثقلُ ألَمَ الصبرِ عنْ شهوتِكَ ولا تستثقلُ ألَمَ النارِ ؟

أتغترُّ بغفلةِ الناسِ عنْ أنفسِهِمْ واتباعِهِمْ هواهُمْ ومساعدتِهِمُ الشيطانَ معَ أنَّ عذابَ النارِ لا يخفِّفُهُ عنكَ معصيةُ غيرِكَ ؟

أرأيتَ لوْ كنتَ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرّ ووقفَ الناسُ كلُّهُمْ في الشمسِ ، وكانَ لكَ بيتٌ باردٌ . . أكنتَ تساعدُ الناسَ أوْ تطلبُ لنفسِكَ الخلاصَ ؟ فكيفَ تخالفُ الناسَ خوفاً مِنْ حرّ الشمسِ ولا تخالفُهُمْ خوفاً مِنْ حرّ النارِ ؟!

فعندَ ذاكَ تمتثِلُ النفسُ إلىٰ قولِ المَلَكِ ، فلا يزالُ يتردَّدُ بينَ الجندينِ ، متجاذَباً بينَ الحزبينِ . . إلىٰ أنْ يغلبَ على القلبِ ما هوَ أولىٰ بهِ .

فإنْ كانَتِ الصفاتُ التي في القلبِ الغالبُ عليها الصفاتُ الشيطانيَّةُ التي ذكرناها . . غلبَ الشيطانُ ، ومالَ القلبُ إلىٰ جنسِهِ مِنْ أحزابِ الشيطانِ ، معرِضاً عنْ حزبِ اللهِ تعالىٰ وأوليائِهِ ، ومساعداً لحزبِ الشيطانِ وأعدائِهِ ، وجرىٰ علىٰ جوارحِهِ بسابقِ القدرِ ما هوَ سببُ بعدِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وإنْ كانَ الأغلبُ على القلبِ الصفاتِ الملكيَّةَ . . لمْ يصغِ القلبُ إلىٰ إغواءِ الشيطانِ وتحريضِهِ إيَّاهُ على العاجلةِ ، وتهوينِهِ أمرَ الآخرةِ ، بلْ مالَ إلىٰ حزبِ اللهِ تعالىٰ ، وظهرَتِ الطاعةُ بموجَبِ ما سبقَ مِنَ القضاءِ علىٰ جوارحِهِ .

فقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ ؛ أيْ : بينَ تجاذبِ هٰذينِ الجندينِ ، وهوَ الغالبُ ؛ أعني : التقلُّبَ والانتقالَ مِنْ حزبٍ إلىٰ حزبٍ ، أمَّا الثباتُ على الدوامِ معَ حزبِ الملائكةِ ، أوْ معَ حزبِ الشيطانِ . . فنادرٌ مِنَ الجانبينِ .

وهٰذهِ الطاعاتُ والمعاصي تظهرُ مِنْ خزائنِ الغيبِ إلىٰ عالمِ الشهادةِ بواسطةِ خزانةِ القلبِ ؛ فإنَّهُ مِنْ خزائنِ الملكوتِ ، وهيَ أيضاً إذا ظهرَتْ . . كانَتْ علاماتٍ تعرِّفُ أربابَ القلوبِ سابقَ القضاءِ ، فمَنْ خُلِقَ للجنَّةِ . . يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ الطاعاتِ ، ومَنْ خُلِقَ للنارِ يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ المعاصي ، وسُلِّطَ عليهِ أقرانُ السوءِ ، وأُلقيَ في قلبِهِ حِكَمُ الشيطانِ ؛ فإنَّهُ بأنواعِ الحكمِ يغرُّ الحمقىٰ بقولِهِ : (إنَّ اللهَ رحيمٌ ، فلا تبالِ ، وإنَّ الناسَ كلَّهُمْ ما يخافونَ اللهَ ، فلا تخالفْهُمْ ، وإنَّ العمرَ طويلٌ ، فاصبرْ حتَّىٰ تتوبَ غداً) ، يعدُهُمْ ويمنِّيهِمْ ، وما يعدُهُمُ الشيطانُ إلا غروراً ، يعدُهُمُ التوبةَ ، ويمنِّيهِمُ المغفرةَ ، فيهلكُهُمْ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بهٰذهِ الحيلِ وما يُجرىٰ مَجراها ، فيوسِّعُ قلبَهُ لقبولِ الغرورِ ، ويضيِّقُهُ عنْ قبولِ الحقّ .

وكلُّ ذٰلكَ بقضاءٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وقدرٍ ، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ .

فهوَ الهادي والمضلُّ ، يفعلُ ما يشاءُ ، ويحكمُ ما يريدُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، خلقَ الجنَّةَ ، وخلقَ لها أهلاً ، فاستعملَهُمْ بالطاعةِ ، وخلقَ النارَ ، وخلقَ لها أهلاً ، فاستعملَهُمْ بالمعاصي .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (جوعُ الراغبينَ منبهةٌ ، وجوعُ التائبينَ تجربةٌ ، وجوعُ المجتهدينَ كرامةٌ ، وجوعُ الصابرينَ سياسةٌ ، وجوعُ الزاهدينَ حكمةٌ)(١)

وفي التوراةِ : (اتقِ اللهَ ، وإذا شبعتَ . . فاذكرِ الجياعَ) .

وقالَ أبو سليمانَ : (لأنْ أتركَ لقمةً مِنْ عشائي أحبُّ إليَّ مِنْ قيامِ ليلةٍ إلى الصبحِ)(٢)

وقالَ أيضاً : (الجوعُ عندَ اللهِ في خزائنِهِ ، لا يعطيهِ إلا لمَنْ أحبَّهُ)(٣)

وكانَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ يطوي نيفاً وعشرينَ يوماً لا يأكلُ ، وكانَ يكفيهِ لطعامِهِ في السنةِ درهمٌ ، وكانَ يعظِّمُ الجوعَ ويبالغُ فيهِ ، حتَّىٰ قالَ : (لا يوافي القيامةَ عملُ برٍّ أفضلُ مِنْ تركِ فضولِ الطعامِ ، والاقتداءِ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أكلِهِ)(٤)

وقالَ : (لمْ يرَ الأكياسُ شيئاً أنفعَ مِنَ الجوعِ للدنيا والدينِ) .

وقالَ : (لا أعلمُ شيئاً أضرَّ علىٰ طلابِ الآخرةِ مِنَ الأكلِ) .

وقالَ : (وُضعَتِ الحكمةُ والعلمُ في الجوعِ ، ووُضعَتِ المعصيةُ والجهلُ في الشبعِ)(٥)

وقالَ : (ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ مِنْ مخالفةِ الهوىٰ في تركِ الحلالِ ، وقد جاءَ في الحديثِ : « ثلثٌ للطعامِ » ، فمَنْ زادَ عليهِ . . فإنَّما يأكلُ مِنْ حسناتِهِ) .

وسُئِلَ عنِ الزيادةِ ، فقالَ : (لا يجدُ الزيادةَ حتَّىٰ يكونَ التركُ أحبَّ إليهِ مِنَ الأكلِ ، ويكونَ إذا جاعَ ليلةً . . سألَ اللهَ أنْ يجعلَها ليلتينِ ، فإذا كانَ ذٰلكَ . . وجدَ الزيادةَ) .

وقالَ : (ما صارَ الأبدالُ أبدالاً إلا بإخماصِ البطونِ ، والصمتِ والسهرِ والخلوةِ)(٦)

وقالَ : (رأسُ كلِّ برٍّ مُنزلٍ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ الجوعُ ، ورأسُ كلِّ فجورٍ بينَهُما الشبعُ)(٧)

وقالَ : (مَنْ جوَّعَ نفسَهُ . . انقطعَتْ عنهُ الوساوسُ)(٨)

وقالَ : (إقبالُ اللهِ عزَّ وجلَّ على العبدِ بالجوعِ والسقمِ والبلاءِ إلا مَنْ شاءَ اللهُ)(٩)

وقالَ : (اعلموا أنَّ هٰذا زمانٌ لا ينالُ أحدٌ فيهِ النجاةَ إلا بذبحِ نفسِهِ وقتلِها بالجوعِ والصبرِ والجهدِ)(١٠)

---

(١) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٢٦٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥٩) عنه بنحوه .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٩/٣٤) .
(٣) هو عند الطوسي في « اللمع » (ص ٢٦٩) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٨/٩) .
(٤) هو ضمن خبر أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٥) .
(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٥٩) .
(٦) قوت القلوب (٩٥/١) .
(٧) روىٰ بعضه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٩٣) عن يوسف بن أسباط ، وبعضه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) عن سهل رحمه الله تعالىٰ .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٧) بلفظ : (من جوع نفسه . . لم يقربه الشيطان بإذن الله عز وجل) .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .
(١٠) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠١/١٠) .

ومداخلِ الملكوتِ ، فينصرفُ العقلُ إلى التفكُّرِ فيما خطرَ لهُ ؛ ليعرفَ دقائقَ الخيرِ فيهِ ، ويطَّلعَ على أسرارِ فوائدِهِ ، فينكشفَ لهُ بنورِ البصيرةِ وجهُهُ ، فيحكمَ بأنَّهُ لا بدَّ مِنْ فعلِهِ ، فيستحثُّهُ عليهِ ، ويدعوَهُ إلى العملِ بهِ .

وينظرُ المَلَكُ إلى القلبِ فيجدُهُ طيِّباً في جوهرِهِ ، طاهراً بتقواهُ ، مستنيراً بضياءِ العقلِ ، معموراً بأنوارِ المعرفةِ ، فيراهُ صالحاً لأنْ يكونَ مستقراً لهُ ومهبطاً ، فعندَ ذٰلكَ يمدُّهُ بجنودٍ لا تُرىٰ ، ويهديهِ إلىٰ خيراتٍ أخرىٰ ، حتَّىٰ ينجرَّ الخيرُ إلى الخيرِ ، وكذٰلكَ على الدوامِ ، ولا يتناهىٰ إمدادُهُ بالترغيبِ في الخيرِ ، وتيسيرِ الأمرِ عليهِ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

وفي مثلِ هٰذا القلبِ يشرقُ نورُ المصباحِ مِنْ مشكاةِ الربوبيَّةِ ، حتَّىٰ لا يخفىٰ فيهِ الشرْكُ الخفيُّ الذي هوَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ[1] .

فلا يخفىٰ علىٰ هٰذا النورِ خافيةٌ ، ولا يُروَّجُ عليهِ شيءٌ مِنْ مكايدِ الشيطانِ ، بلْ يقفُ الشيطانُ ويُوحي زخرفَ القولِ غروراً ، فلا يُلتفتُ إليهِ[2] .

وهٰذا القلبُ بعدَ طهارتِهِ مِنَ المهلكاتِ يصيرُ على القرْبِ معموراً بالمنجياتِ التي سنذكرُها ؛ مِنَ الصبرِ ، والشكرِ ، والخوفِ ، والرجاءِ ، والفقرِ ، والزهدِ ، والمحبةِ ، والرضا ، والشوقِ ، والتوكُّلِ ، والتفكُّرِ ، والمحاسبةِ ، وغيرِ ذٰلكَ .

وهوَ القلبُ الذي أقبلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ بوجهِهِ[3] ، وهوَ القلبُ المطمئنُّ ، المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، وبقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .

❁ ❁ ❁

القلبُ الثاني : القلبُ المخذولُ المشحونُ بالهوى ، المدنَّسُ بالأخلاقِ المذمومةِ والخبائثِ ، المفتوحُ فيهِ أبوابُ الشياطينِ ، المسدودُ عنهُ أبوابُ الملائكةِ .

ومبدأُ الشرِّ فيهِ : أنْ ينقدحَ فيهِ خاطرٌ مِنَ الهوىٰ ، ويهجِسَ فيهِ ، فينظرُ القلبُ إلىٰ حاكمِ العقلِ ليستفتيَ فيهِ ويستكشفَ وجهَ الصوابِ ، فيكونُ العقلُ قدْ ألفَ خدمةَ الهوىٰ وأنسَ بهِ ، واستمرَّ على استنباطِ الحيلِ لهُ وعلىٰ مساعدةِ الهوىٰ ، فتستولي النفسُ وتساعدُ عليهِ ، فينشرحُ الصدرُ بالهوىٰ ، وتنبسطُ فيهِ ظلماتُهُ ؛ لانخناسِ جنْدِ العقلِ عنْ مدافعتِهِ ، فيقوىٰ سلطانُ الشيطانِ ؛ لاتِّساعِ مكانِهِ بسببِ انتشارِ الهوىٰ ، فيُقبلُ عليهِ بالتزيينِ والغرورِ والأمانيِّ ، ويُوحي

بالتقوىٰ ، فهو آخر المراتب جعله أولاً ، أو يكون المراد بعمارته بالتقوى : الاتقاء من الشرك المضاد للتوحيد ، ثم التزكية بالرياضة : هو أعمال الجوارح ، ثم التطهير عن الخبائث : هو انشراحه بنور اليقين حسبما قسم له . « إتحاف » (٧/٣٠٣) .

(١) كما روىٰ ذٰلك مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها الحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣٩٩) ، وروىٰ نحوه البخاري في « الأدب المفرد » (٧١٦) ، وهٰذا هو وصف قلوب الصديقين .

(٢) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/٥٥٤) : (الشياطين يتعرضون للأنبياء عليهم السلام ، ولٰكن لا سلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الجماعة) ، إلىٰ أن قال : (إذا أراد الله بعبده خيراً . . أمدَّه بنور التحقيق ، وأيده بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ، فلا يظلُّه غمام الريب ، وينجلي عنه غطاء الغفلة ، فلا تأثير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار ، وهٰذا معنىٰ قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾) .

(٣) فسلبه عن أن يكون فيه مستكن لغيره « إتحاف » (٧/٣٠٤) .

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاهدُوا أنفسَكُمْ بالجوعِ والعطشِ ؛ فإنَّ الأجرَ في ذٰلكَ »(١)

ولعلَّكَ تقولُ : هٰذا الفضلُ العظيمُ للجوعِ مِنْ أينَ هوَ ؟ وما سببُهُ وليسَ فيهِ إلا إيلامُ المعدةِ ومقاساةُ الأذىٰ ؟ فإنْ كانَ كذٰلكَ . . فينبغي أنْ يعظمَ الأجرُ في كلِّ ما يتأذَّىٰ بهِ الإنسانُ ؛ مِنْ ضربِهِ لنفسِهِ ، وقطعِهِ للحمِهِ ، وتناولِهِ الأشياءَ المكروهةَ ، وما يجري مجراهُ .

فاعلمْ : أنَّ هٰذا يضاهي قولَ مَنْ شربَ دواءً فانتفعَ بهِ فظنَّ أنَّ منفعتَهُ لمرارةِ الدواءِ وكراهيتِهِ ، فأخذَ يتناولُ كلَّ ما هوَ مكروهٌ مِنَ المذاقِ ، وهوَ غلطٌ ، بلْ نفعُهُ في خاصِّيَّةٍ مِنَ الدواءِ ، وليسَ لكونِهِ مرّاً ، وإنَّما يقفُ علىٰ تلكَ الخاصِّيَّةِ الأطباءُ ، فكذٰلكَ لا يقفُ علىٰ علَّةِ نفعِ الجوعِ إلا سماسرةُ العلماءِ .

ومَنْ جوَّعَ نفسَهُ مصدِّقاً لما جاءَ في الشرعِ مِنْ مدحِ الجوعِ . . انتفعَ بهِ وإنْ لمْ يعرفْ علَّةَ المنفعةِ ؛ كما أنَّ مَنْ شربَ الدواءَ . . انتفعَ وإنْ لمْ يعلمْ وجهَ كونِهِ نافعاً ، ولٰكنَّا نشرحُ لكَ ذٰلكَ إنْ أردتَ أنْ ترتقيَ مِنْ درجةِ الإيمانِ إلىٰ درجةِ العلمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾



فنقولُ : في الجوعِ عشرُ فوائدَ :

الفائدةُ الأولىٰ : صفاءُ القلبِ ، وإيقادُ القريحةِ ، وإنفاذُ البصيرةِ :

فإنَّ الشبعَ يورثُ البلادةَ ، ويعمي القلبَ ، ويكثِرُ البخارَ في الدماغِ شبهَ السكْرِ ، حتَّىٰ يحتوي علىٰ معادنِ الفكرِ ، فيثقلُ القلبُ بسببِهِ عنِ الجريانِ في الأفكارِ ، وعنْ سرعةِ الإدراكِ ، بلِ الصبيُّ إذا أكثرَ الأكلَ . . بطلَ حفظُهُ ، وفسدَ ذهنُهُ ، وصارَ بطيءَ الفهمِ والإدراكِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (عليكَ بالجوعِ ؛ فإنَّهُ مذلَّةٌ للنفسِ ، ورقَّةٌ للقلبِ ، وهوَ يورثُ العلمَ السماويَّ)(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحيوا قلوبَكُمْ بقلَّةِ الضحكِ وقلَّةِ الشبعِ ، وطهِّروها بالجوعِ ؛ تصفو وترقُّ »(٣)

ويُقالُ : (مثلُ الجوعِ مثلُ الرعدِ ، والقناعةُ كالسحابِ ، والحكمةُ كالمطرِ)(٤)

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أجاعَ بطنَهُ . . عظمَتْ فكرتُهُ ، وفطنَ قلبُهُ »(٥)

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٣٨٦/٧) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٥) عن مكحول : (أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٠)

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) دون قوله : (وقلة الشبع) ، أما بشأن الضحك . . فقد روى الترمذي (٢٣٠٥) ، وابن ماجه (٤١٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تكثروا الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

وبالجملةِ : فالخلاصُ مِنَ الشيطانِ في لحظةٍ أَوْ ساعةٍ غيرُ بعيدٍ ، ولٰكنَّ الخلاصَ منه عمراً طويلاً بعيدٌ جدّاً ، وهوَ محالٌ في الوجودِ ، ولوْ تخلَّصَ أحدٌ مِنْ وساوسِ الشيطانِ بالخواطرِ وتهييجِ الرغبةِ . . لتخلَّصَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقدْ رُوِيَ أَنَّهُ نظرَ إلىٰ علمِ ثوبِهِ في الصلاةِ ، فلمَّا سلَّمَ . . رمىٰ بذٰلكَ الثوبِ وقالَ : « شغلَني عنِ الصلاةِ » وقالَ : « اذهبُوا بِهِ إلىٰ أبي جهمٍ ، وأْتوني بأنبجانيّتِهِ »[1] ، وكانَ في يدِهِ خاتمٌ مِنْ ذهبٍ ، فنظرَ إليهِ وهوَ على المنبرِ ، ثمَّ رمىٰ بِهِ وقالَ : « نظرةٌ إليهِ ونظرةٌ إليكُمْ »[2] ، وكانَ ذٰلكَ لوسوسةِ الشيطانِ بتحريكِ لذَّةِ النظرِ إلىٰ خاتمِ الذهبِ وعلمِ الثوبِ ، وكانَ ذٰلكَ قبلَ تحريمِ الذهبِ ، فلذٰلكَ لبسَهُ ثمَّ رمىٰ بِهِ .

فلا تنقطعُ وسوسةُ عروضِ الدنيا ونقدِها إلا بالرميِ والمفارقةِ ، فما دامَ يملكُ شيئاً وراءَ حاجتِهِ ولوْ ديناراً واحداً . . لا يدعُهُ الشيطانُ في صلاتِهِ مِنَ الوسوسةِ في الفكرِ في دينارِهِ ، وأنَّهُ كيفَ يحفظُهُ ، وفيماذا ينفقُهُ ، وكيفَ يخفيهِ حتَّىٰ لا يعلمَ بِهِ أحدٌ ، أَوْ كيفَ يُظهِرُهُ حتَّىٰ يتباهىٰ بِهِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الوساوسِ .

فمَنْ أنشبَ مخالبَهُ في الدنيا ، وطمعَ في أنْ يتخلَّصَ مِنَ الشيطانِ . . كانَ كمَنِ انغمسَ في العسلِ ، وظنَّ أنَّ الذبابَ لا يقعُ عليهِ ، فهو محالٌ ؛ فالدنيا بابٌ عظيمٌ لوساوسِ الشيطانِ ، وليسَ لهُ بابٌ واحدٌ ، بلْ أبوابٌ كثيرةٌ .

قالَ حكيمٌ مِنَ الحكماءِ : (الشيطانُ يأتي ابنَ آدمَ مِنْ قبلِ المعاصي ، فإنِ امتنعَ . . أتاهُ مِنْ وجهِ النصيحةِ ، حتىٰ يلقيَهُ في بدعةٍ ، فإنْ أبىٰ . . أمرَهُ بالتحرُّجِ والشدَّةِ ، حتَّىٰ يحرّمَ ما ليسَ بحرامٍ ، فإنْ أبىٰ . . شكَّكَهُ في وضوئِهِ وصلاتِهِ ، حتَّىٰ يخرجَهُ عنِ العلمِ ، فإنْ أبىٰ . . خفَّفَ عليهِ أعمالَ البرّ ، حتَّىٰ يراهُ الناسُ صابراً عفيفاً ، فتميلُ قلوبُهُمْ إليهِ ، فيُعجبُ بنفسِهِ ، وبِهِ يهلكُهُ ، وعندَ ذٰلكَ يشتدُّ لجاجُهُ ؛ فإنَّها آخرُ درجةٍ ، ويعلمُ أنَّهُ لوْ جاوزَها . . أفلتَ منهُ إلى الجنةِ) .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٦٢/٥٥٦) بنحوه ، والأنبجانية : ضرب من نسيج الصوف الغليظ له .

(٢) رواه النسائي (٨/١٩٤) .

الفائدةُ الثالثةُ : الانكسارُ والذلُّ ، وزوالُ البطَرِ والفرحِ والأشَرِ الذي هوَ مبدأُ الطغيانِ والغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ :

فلا تنكسرُ النفسُ ولا تذلُّ بشيءٍ كما تذلُّ بالجوعِ ، فعندَهُ تسكنُ لربِّها ، وتخشعُ لهُ ، وتقفُ علىٰ عجزِها وذلِّها ؛ إذْ ضعفَتْ مُنَّتُها وضاقَتْ حيلتُها بلقمةِ طعامٍ فاتَتْها[1] ، وأظلمَتْ عليها الدنيا لشربةِ ماءٍ تأخَّرَتْ عنها ، وما لمْ يشاهدِ الإنسانُ ذلَّ نفسِهِ وعجزَهُ . . لا يرىٰ عزَّةَ مولاهُ ولا قهرَهُ ، وإنَّما سعادتُهُ في أنْ يكونَ دائماً مشاهداً نفسَهُ بعينِ الذلِّ والعجزِ ، ومولاهُ بعينِ العزِّ والقدرةِ والقهْرِ .

فليكنْ دائماً جائعاً ، مضطراً إلىٰ مولاهُ ، مشاهداً للاضطرارِ بالذوقِ .

ولأجلِ ذٰلكَ لمَّا عُرِضَتِ الدنيا وخزائنُها على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : « لا ، بلْ أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، فإذا جعتُ . . صبرتُ وتضرَّعتُ ، وإذا شبعتُ . . شكرتُ » ، أوْ كما قالَ[2]

فالبطنُ والفرَحُ بابٌ مِنْ أبوابِ النارِ ، وأصلُهُ الشبعُ ، والذلُّ والانكسارُ بابٌ مِنْ أبوابِ الجنةِ ، وأصلُهُ الجوعُ ، ومَنْ أغلقَ باباً مِنْ أبوابِ النارِ . . فقدْ فتحَ باباً مِنْ أبوابِ الجنةِ بالضرورةِ ؛ لأنَّهُما متقابلانِ ؛ كالمشرقِ والمغربِ ، فالقربُ مِنْ أحدِهِما بُعْدٌ مِنَ الآخرِ .

❀ ❀ ❀

الفائدةُ الرابعةُ : ألا ينسىٰ بلاءَ اللهِ وعذابَهُ ، ولا ينسىٰ أهلَ البلاءِ :

فإنَّ الشبعانَ ينسى الجائعَ ، وينسى الجوعَ ، والعبدُ الفطِنُ لا يشاهدُ بلاءً مِنْ غيرِهِ إلا ويتذكَّرُ بلاءَ الآخرةِ ، فيذكرُ مِنْ عطشِهِ عطشَ الخلْقِ في عرصاتِ القيامةِ ، ومِنْ جوعِهِ جوعَ أهلِ النارِ ، حتَّىٰ إنَّهُمْ ليجوعونَ فيُطعمونَ الزقُّومَ والضريعَ ، ويُسقونَ الغسَّاقَ والمُهْلَ .

فلا ينبغي أنْ يغيبَ عنِ العبدِ عذابُ الآخرةِ وآلامُها ، فإنَّهُ الذي يهيِّجُ الخوفَ ، فمَنْ لمْ يكنْ في ذلَّةٍ ولا قلةٍ ولا علَّةٍ ولا بلاءٍ . . نسيَ عذابَ الآخرةِ ، ولمْ يتمثَّلْ في نفسِهِ ، ولمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ .

فينبغي أنْ يكونَ العبدُ في مقاساةِ بلاءٍ أوْ مشاهدةِ بلاءٍ ، وأولىٰ ما يقاسيهِ مِنَ البلاءِ الجوعُ ؛ فإنَّ فيهِ فوائدَ جمَّةً سوىٰ تذكُّرِ عذابِ الآخرةِ ، وهٰذا أحدُ الأسبابِ الذي اقتضى اختصاصَ البلاءِ بالأنبياءِ والأولياءِ والأمثلِ فالأمثلِ .

ولـذٰلكَ قيلَ ليوسفَ عليهِ السلامُ : لِمَ تجوعُ وفي يديكَ خزائنُ الأرضِ ؟ فقالَ : أخافُ أنْ أشبعَ فأنسى الجائعَ[3]

فذكْرُ الجائعينَ والمحتاجينَ إحدىٰ فوائدِ الجوعِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يدعو إلى الرحمةِ والإطعامِ ، والشفقةِ علىٰ خلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والشبعانُ في غفلةٍ عنْ ألمِ الجائعِ .

❀ ❀ ❀

الفائدةُ الخامسةُ ـ وهيَ مِنْ أكبرِ الفوائدِ ـ : كسرُ شهواتِ المعاصي كلِّها ، والاستيلاءُ على النفسِ الأمَّارةِ بالسوءِ :

---

(١) المُنَّةُ : القوَّة .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٧) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٧٣) عن الحسن ، وهو عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨) عن وهب بن منبه .

بيان أنّ الوسواس هل يتصوّر أن ينقطع بالكلّيّة عند الذكر أم لا ؟

اعلمْ : أنَّ العلماءَ المراقبينَ للقلوبِ ، الناظرينَ في صفاتِها وعجائبِها . . اختلفوا في هٰذهِ المسألةِ علىٰ خمسِ فرقٍ :

فقالتْ فرقةٌ : الوسوسةُ تنقطعُ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « فإذا ذكرَ اللهَ . . خنسَ »[1] ، والخنسُ هوَ السكوتُ ، فكأنَّهُ يسكتُ .

وقالتْ فرقةٌ : لا ينعدمُ أصلُهُ ، ولٰكنْ يجري في القلبِ ولا يكونُ لهُ أثرٌ ؛ لأنَّ القلبَ إذا صارَ مستوعباً بالذكرِ . . كانَ محجوباً عنِ التأثُّرِ بالوسوسةِ ؛ كالمشغولِ بهمِّهِ ؛ فإنَّهُ قدْ يكلَّمُ ولا يفهمُ وإنْ كانَ الصوتُ يمرُّ علىٰ سمعِهِ .

وقالتْ فرقةٌ : لا تسقطُ الوسوسةُ ولا أثرُها أيضاً ، ولٰكنْ تسقطُ غلبتُها للقلبِ ، فكأنَّهُ يوسوسُ مِنْ بعدٍ وعلىٰ ضعفٍ .

وقالتْ فرقةٌ : ينعدمُ عندَ الذكرِ في لحظةٍ ، وينعدمُ الذكرُ في لحظةٍ بها ، ويتعاقبانِ في أزمنةٍ متقاربةٍ ، يُظَنُّ لتقاربِها أنَّها متساوقةٌ ، وهيَ كالكرةِ التي عليها نقطٌ متفرِّقةٌ ؛ فإنَّكَ إذا أدرتَها بسرعةٍ . . رأيتَ النقطَ دوائرَ ؛ لسرعةِ تواصلِها بالحركةِ .

واستدلَّ هٰؤلاءِ بأنَّ الخنسَ قدْ وردَ ، ونحنُ نشاهدُ الوسوسةَ معَ الذكرِ ، ولا وجهَ لهُ إلا هٰذا .

وقالتْ فرقةٌ : الوسوسةُ والذكرُ يتساوقانِ في القلب على الدوامِ تساوقاً لا ينقطعُ ، وكما أنَّ الإنسانَ قدْ يرىٰ بعينيهِ شيئينِ في حالةٍ واحدةٍ ، فكذٰلكَ القلبُ قدْ يكونُ مَجرىً لشيئينِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ إلَّا ولهُ أربعةُ أعْينٍ : عينانِ في رأسهِ يبصرُ بهما أمرَ دنياهُ ، وعينانِ في قلبِهِ يبصرُ بهما أمرَ دينِهِ »[2] . وإلىٰ هٰذا ذهبَ المحاسبيُّ[3] .

❁ ❁ ❁

والصحيحُ عندَنا : أنَّ كلَّ هٰذهِ المذاهبِ صحيحةٌ ، ولٰكنْ كلُّها قاصرةٌ عنِ الإحاطةِ بأصنافِ الوسواسِ ، وإنَّما نظرَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلىٰ صنفٍ واحدٍ مِنَ الوسواسِ ، فأخبرَ عنهُ .

والوسواسُ أصنافٌ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ مِنْ جهةِ التلبيسِ بالحقّ :

فإنَّ الشيطانَ قدْ يلبِّسُ بالحقِّ ، فيقولُ للإنسانِ : (لا تتركِ التنعُّمَ باللَّذاتِ ؛ فإنَّ العمرَ طويلٌ ، والصبرَ عنِ الشهواتِ طولَ العمرِ ألمُهُ عظيمٌ) ، فعندَ هٰذا إذا ذكرَ العبدُ عظيمَ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وعظيمَ ثوابِهِ وعقابِهِ ، وقالَ لنفسِهِ : (الصبرُ عنِ الشهواتِ شديدٌ ، ولٰكنَّ الصبرَ على النارِ أشدُّ منهُ ، ولا بدَّ مِنْ أحدِهِما) ، فإذا ذكرَ العبدُ وعدَ اللهِ تعالىٰ ووعيدَهُ ، وجدَّدَ إيمانَهُ ويقينَهُ . . خنسَ الشيطانُ وهربَ ؛ إذْ لا يستطيعُ أنْ يقولَ لهُ : (النارُ أيسرُ مِنَ الصبرِ على المعاصي) ، ولا

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٠١) ، وابن عدي في « الكامل » (١٨٦/٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦/٦) .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٠٤٠) بنحوه .

(٣) ذكر نحو هٰذا بتفصيل في « الرعاية » (ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥) .

وفي كثرةِ النومِ ضياعُ العمرِ ، وفوتُ التهجُّدِ ، وبلادةُ الطبعِ ، وقساوةُ القلبِ ، والعمرُ أنفسُ الجواهرِ ، وهوَ رأسُ مالِ العبدِ ، فيهِ يتَّجرُ ، والنومُ موتٌ ، فتكثيرُهُ ينقصُ العمرَ .

ثمَّ فضيلةُ التهجُّدِ لا تخفىٰ ، وفي النومِ فواتُها ، ومهما غلبَ النومُ ؛ فإنْ تهجَّدَ . . لمْ يجدْ حلاوةَ العبادةِ ، ثمَّ المتعزبُ إذا نامَ على الشبعِ . . احتلمَ ، ويمنعُهُ ذٰلكَ أيضاً مِنَ التهجُّدِ ، ويحوجُهُ إلى الغسلِ ؛ إمَّا بالماءِ الباردِ فيتأذَّىٰ بهِ ، أوْ يحتاجُ إلى الحمَّامِ وربمَّا لا يقدرُ عليهِ بالليلِ ، فيفوتُهُ الوترُ إنْ كانَ قدْ أخَّرَهُ إلى التهجُّدِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ مؤنةِ الحمَّامِ ، وربما تقعُ عينُهُ علىٰ عورةٍ في دخول الحمامِ ؛ فإنَّ فيهِ أخطاراً ذكرناها في كتابِ الطهارةِ ، وكلُّ ذٰلكَ أثرُ الشبعِ .

وقدْ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الاحتلامُ عقوبةٌ)[١] ، وإنَّما قالَ ذٰلكَ لأنَّهُ يمنعُ مِنْ عباداتٍ كثيرةٍ ؛ لتعذُّرِ الغسلِ في كلِّ حالٍ ، فالنومُ منبعُ الآفاتِ ، والشبعُ مجلبةٌ لهُ ، والجوعُ مقطعةٌ لهُ .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ السابعةُ : تيسيرُ المواظبةِ على العبادةِ :

فإنَّ الأكلَ يمنعُ مِنْ كثرةِ العباداتِ ؛ لأنَّهُ يحتاجُ إلىٰ زمانٍ يشتغلُ فيهِ بالأكلِ ، وربَّما احتاجَ إلىٰ زمانٍ في شراءِ الطعامِ وطبخِهِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ غسلِ اليدِ والخلالِ[٢] ، ثمَّ يكثرُ تردادُهُ إلىٰ بيتِ الماءِ لكثرةِ شربِهِ ، والأوقاتُ المصروفةُ إلىٰ هٰذا لوْ صرفَها إلى الذكرِ والمناجاةِ وسائرِ العباداتِ . . لكثرَ ربحُهُ .

قالَ السريُّ : رأيتُ معَ عليٍّ الجرجانيِّ سَويقاً يستفُّ منهُ ، فقلتُ : ما دعاكَ إلىٰ هٰذا ؟ فقالَ : إنِّي حسبتُ ما بينَ المضْغِ إلى الاستفافِ سبعينَ تسبيحةً ، فما مضغتُ الخبزَ منذُ أربعينَ سنةً[٣]

فانظرْ كيفَ أشفقَ علىٰ وقتِهِ فلم يضيعْهُ في المضْغِ ، وكلُّ نَفَسٍ مِنَ العمرِ جوهرةٌ نفيسةٌ لا قيمةَ لها ، فينبغي أنْ يستوفيَ منهُ خزانةً باقيةً في الآخرةِ لا آخرَ لها ، وذٰلكَ بصرفِهِ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ .

ومِنْ جملةِ ما يتعذَّرُ بكثرةِ الأكلِ : الدوامُ على الطهارةِ وملازمةِ المسجدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلى الخروجِ لكثرةِ شربِ الماءِ وإراقتِهِ .

ومِنْ جملةِ ما يتعذَّر عليهِ : الصومُ ؛ فإنَّهُ يتيسَّرُ لمَنْ تعوَّدَ الجوعَ ، فالصومُ ، ودوامُ الاعتكافِ ، ودوامُ الطهارة ، وصرفُ أوقاتِ شغلِهِ بالأكلِ وأسبابِهِ إلى العبادةِ . . أرباحٌ كثيرةٌ ، وإنَّما يستحقرُها الغافلونَ الذينَ لمْ يعرفوا قدْرَ الدينِ ، لٰكنْ رضوا بالحياةِ الدنيا واطمأنوا بها ، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

وقدْ أشارَ أبو سليمانَ الدارانيُّ إلىٰ ستِّ آفاتٍ في الشبعِ فقالَ : (مَنْ شبعَ . . دخلَ عليهِ ستُّ آفاتٍ : فقْدُ حلاوةِ المناجاةِ ، وتعذُّرُ حفْظِ الحكمةِ ، وحرمانُ الشفقةِ على الخلقِ ؛ لأنَّهُ إذا شبعَ . . ظنَّ أنَّ الخلقَ كلَّهُمْ شباعٌ ، وثقلُ العبادةِ ، وزيادةُ الشهواتِ ، وأنَّ سائرَ المؤمنينَ يدورونَ حولَ المساجدِ والشباعُ يدورونَ حولَ المزابلِ)[٤]

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٦٦) .
(٢) في أسنانه ؛ ليخرج فضول الطعام منها . « إتحاف » (٧/٣٩٨) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٠) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦١) .

علىٰ تمامِ الغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، والامتناعُ بالمجاهدةِ علىٰ خلافِ الطبعِ يحتاجُ إلىٰ قوَّةٍ عظيمةٍ ، فجدُّهُ في مخالفةِ الطبعِ ـ وهوَ العملُ للهِ تعالىٰ ـ أشدُّ مِنْ جدِّهِ في موافقةِ الشيطانِ بموافقةِ الطبعِ ، فكُتِبَ لهُ حسنةٌ ؛ لأنَّهُ رجحَ جهدُهُ في الامتناعِ وهمُّه بهِ علىٰ همِّهِ بالفعلِ ، وإنْ تعوَّقَ الفعلُ بعائقٍ ، أوْ تركَهُ لعذرٍ ، لا خوفاً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كتبَتْ عليهِ سيئةٌ ؛ فإنَّ همَّهُ فعلٌ مِنَ القلبِ اختياريٌّ .

والدليلُ علىٰ هٰذا التفصيلِ : ما وردَ في « الصحيح » مفصَّلاً في لفظِ الحديثِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَتِ الملائكةُ عليهِمُ السلامُ : ربِّ ؛ ذاكَ عبدُكَ يريدُ أنْ يعملَ سيئةً ـ وهوَ أبصرُ بهِ ـ فقالَ : ارقبوهُ ؛ فإنْ هوَ عملَها . . فاكتبوها لهُ بمثلِها ، وإنْ تركَها . . فاكتبوها لهُ حسنةً ، إنَّما تركَها مِنْ جرَّائي »[1] ، وحيثُ قالَ : (لمْ يعملْها) أرادَ بهِ : تركَها للهِ ، فأمَّا إذا عزمَ علىٰ فاحشةٍ ، فتعذَّرَتْ عليهِ بسببٍ أوْ بغفلةٍ . . فكيفَ تُكتبُ لهُ حسنةٌ ؟!

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنما يُحشرُ الناسُ علىٰ نيَّاتِهِمْ »[2] ، ونحنُ نعلمُ أنَّ مَنْ عزمَ ليلاً علىٰ أنْ يصبحَ ليقتلَ مسلماً ، أو يزنيَ بامرأةٍ ، فماتَ تلكَ الليلةَ . . ماتَ مصرّاً ، ويُحشرُ علىٰ نيَّتِهِ ، وقدْ همَّ بسيئةٍ ولمْ يعملْها .

والدليلُ القاطعُ فيهِ : ما رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا التقى المسلمانِ بسيفيهِما . . فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قالَ : « لأنَّهُ أرادَ قتلَ صاحبِهِ »[3]

وهٰذا نصٌّ في أنَّهُ صارَ بمجرَّدِ الإرادةِ مِنْ أهلِ النارِ ، معَ أنَّهُ قُتِلَ مظلوماً ، فكيفَ يُظنُّ أنَّ اللهَ لا يؤاخذُ بالنيَّةِ والهمِّ ؟! بلْ كلُّ همٍّ دخلَ تحتَ اختيارِ العبدِ فهوَ مأخوذٌ بهِ ، إلا أنْ يكفِّرَهُ بحسنةٍ ، ونقضُ العزمِ بالندمِ حسنةٌ ، فلذٰلكَ كُتبَتْ لهُ حسنةً ، فأمَّا فوتُ المرادِ بعائقٍ . . فليسَ بحسنةٍ .

وأمَّا الخواطرُ وحديثُ النفسِ وهيجانُ الرغبةِ . . فكلُّ ذٰلكَ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فالمؤاخذةُ بهِ تكليفُ ما لا يطاقُ ، ولذٰلكَ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ . . جاءَ ناسٌ مِنَ الصحابةِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالوا : كُلِّفنا ما لا نطيقُ ، إنَّ أحدَنا ليحدِّثُ نفسَهُ بما لا يحبُّ أنْ يثبتَ في قلبِهِ ، ثمَّ يُحاسبُ بذٰلكَ ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لعلَّكُمْ تقولونَ كما قالتِ اليهودُ : سمعنا وعصينا ؟! قولوا : سمعنا وأطعنا » ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزلَ اللهُ الفرجَ بعدَ سنةٍ بقولِهِ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[4]

فظهرَ بهِ أنَّ كلَّ ما لا يدخلُ تحتَ الوسعِ مِنْ أعمالِ القلبِ فهوَ الذي لا يُؤاخذُ بهِ .

❁ ❁ ❁

فهٰذا هوَ كشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا الالتباسِ ، وكلُّ مَنْ يظنُّ أنَّ كلَّ ما يجري على القلبِ يُسمَّىٰ حديثَ النفسِ ، ولمْ يفرِّقْ بينَ هٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ . . فلا بدَّ وأنْ يغلطَ .

وكيفَ لا يُؤاخذُ بأعمالِ القلبِ والكبرُ والعجبُ والرياءُ والنفاقُ والحسدُ وجملةُ الخبائثِ مِنْ أعمالِ القلبِ ؟! بلِ السمعُ والبصرُ والفؤادُ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسؤولاً ؛ أيْ : ما يدخلُ تحتَ الاختيارِ ؟!

---

(١) رواه مسلم (١٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومن جرَّائي : من أجلي .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٩ ، ٤٢٣٠) من حديث أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما .

(٣) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه .

(٤) رواه مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الفائدةُ التاسعةُ : خفَّةُ المؤونةِ :

فإنَّ مَنْ تعوَّدَ قلَّةَ الأكلِ كفاهُ مِنَ المالِ قدْرٌ يسيرٌ ، والذي تعوَّدَ الشبعَ صارَ بطنُهُ غريماً ملازماً لهُ ، آخذاً بمُخَنَّقِهِ في كلِّ يومٍ ، فيقولُ : ماذا تأكلُ اليومَ ؟ فيحتاجُ إلىٰ أنْ يدخلَ المداخلَ ، فيكتسبَ مِنَ الحرامِ فيعصيَ ، أوْ مِنَ الحلالِ فيذلَّ ويتعبَ ، وربَّما يحتاجُ إلىٰ أنْ يمدَّ عينَ الطمعِ إلى الناسِ ، وهوَ غايةُ الذلِّ والقماءةِ ، والمؤمنُ خفيفُ المؤونةِ .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنِّي لأقضي عامَّةَ حوائجي بالتركِ ، فيكونُ ذٰلكَ أروحَ لقلبي)[1]

وقالَ آخرُ : (إذا أردتُ أنْ أستقرضَ مِنْ غيري لشهوةٍ أوْ زيادةٍ . . استقرضتُ مِنْ نفسي ، فتركتُ الشهوةَ ، فهيَ خيرُ غريمٍ لي)[2]

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ يسألُ أصحابَهُ عنْ سعرِ المأكولاتِ ، فيُقالُ : إنَّها غاليةٌ ، فيقولُ : أرخصوهُ بالتركِ[3]

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (الأكولُ مذمومٌ في ثلاثةِ أحوالٍ : إنْ كانَ مِنْ أهلِ العبادةِ . . فيكسلُ ، وإنْ كانَ مكتسباً . . فلا يسلمُ مِنَ الآفاتِ ، وإنْ كانَ ممَّنْ يدخلُ عليهِ شيءٌ[4] . . فلا ينصفُ اللهَ تعالىٰ مِنْ نفسِهِ) .

وبالجملةِ : سببُ هلاكِ الناسِ حرصُهُمْ على الدنيا ، وسببُ حرصِهِمْ على الدنيا البطنُ والفرجُ ، وسببُ شهوةِ الفرجِ شهوةُ البطنِ ، وفي تقليلِ الأكلِ ما يحسمُ هٰذهِ الأبوابَ كلَّها ، وهيَ أبوابُ النارِ ، وفي حسمِها فتحُ أبوابِ الجنةِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أديموا قرْعَ بابِ الجنةِ بالجوعِ »[5]

فمَنْ قنعَ برغيفٍ في كلِّ يومٍ . . قنعَ في سائرِ الشهواتِ أيضاً ، وصارَ حرّاً ، واستغنىٰ عنِ الناسِ ، واستراحَ مِنَ التعبِ ، وتخلَّىٰ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتجارةِ الآخرةِ ، فيكونُ مِنَ الذينَ لا تلهيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ ، وإنَّما لا تلهيهِمْ لاستغنائِهِمْ عنها بالقناعةِ ، فأمَّا المحتاجُ . . فتلهيهِ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ العاشرةُ : أنْ يتمكَّنَ مِنَ الإيثارِ والتصدُّقِ بما فضَلَ مِنَ الأطعمةِ على اليتامىٰ والمساكينِ :

فيكونَ يومَ القيامةِ في ظلِّ صدقتِهِ كما وردَ بهِ الخبرُ[6] ، فما يأكلُهُ كانَ خزانتُهُ الكنيفَ ، وما يتصدَّقُ بهِ كانَ خزانتُهُ فضْلَ اللهِ ، فليسَ للعبدِ مِنْ مالِهِ إلا ما تصدَّقَ فأبقىٰ ، أوْ أكلَ فأفنىٰ ، أوْ لبسَ فأبلىٰ[7] ، **فالتصدُّقُ بفضلاتِ الطعامِ أولىٰ مِنَ التخمةِ والشبعِ .**

وكانَ الحسنُ رحمةُ اللهِ عليهِ إذا تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . . قالَ : (عرضَها على السماواتِ السبعِ الطباقِ الطرائقِ اللاتي زينَها بالنجومِ ،

---

(١) قوت القلوب (١٧٣/٢) ، والمعنىٰ : فإذا تركتها . . فكأني قضيتها . « إتحاف » (٤٠١/٧) .

(٢) قوت القلوب (١٧٣/٢) .

(٣) قوت القلوب (١٧٣/٢) .

(٤) أي : من الفيض من غير كسب .

(٥) قوت القلوب (١٧١/٢) .

(٦) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤١٦/١) .

(٧) كما روىٰ ذلك مسلم (٢٩٥٩) .

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمّها وخواطرها وقصودها وما يُعفىٰ عنه ولا يؤاخذ به

اعلمْ : أنَّ هٰذا أمرٌ غامضٌ ، وقدْ وردَتْ فيهِ آياتٌ وأخبارٌ متعارضةٌ يلتبسُ طريقُ الجمعِ بينَها إلا علىٰ سماسرةِ العلماءِ بالشرعِ ، فقدْ رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « عُفِيَ عنْ أمتي ما حدَّثَتْ بهِ نفوسُها ما لمْ تتكلَّمْ بهِ أوْ تعملْ بهِ »(١)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للحفظةِ : إذا همَّ عبدي بسيئةٍ . . فلا تكتبوها عليهِ ، فإنْ عملَها . . فاكتبوها سيئةً ، وإذا همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . فاكتبوها حسنةً ، فإنْ عملَها . . فاكتبوها عشراً » ، وقدْ خرَّجَهُ مسلمٌ والبخاريُّ في « الصحيحينِ »(٢) ، **وهوَ دليلٌ على العفوِ عنْ عملِ القلبِ وهمِّهِ بالسيئةِ** .

وفي لفظٍ آخرَ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةٌ ، ومَنْ همَّ بحسنةٍ فعملَها . . كُتبَتْ لهُ إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ ، ومَنْ همَّ بسيئةٍ فلمْ يعملْها . . لم تُكتبْ عليهِ ، وإنْ عملَها . . كُتبَتْ »(٣)

وفي لفظٍ آخرَ : « وإذا تحدَّثَ بأنْ يعملَ سيئةً . . فأنا أغفرُها لهُ ما لمْ يعملْها »(٤) ، وكلُّ ذٰلكَ يدلُّ على العفوِ .

فأمَّا ما يدلُّ على المؤاخذةِ : فقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ ، فدلَّ علىٰ أنَّ عملَ الفؤادِ كعملِ السمعِ والبصرِ ، فلا يُعفىٰ عنهُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ .

والحقُّ عندَنا في هٰذهِ المسألةِ لا يُوقفُ عليهِ ما لمْ تقعِ الإحاطةُ بتفصيلِ أعمالِ القلوبِ ، مِنْ مبدأ ظهورِها إلىٰ أنْ يظهرَ العملُ على الجوارحِ ، فنقولُ :

أوَّلُ ما يردُ على القلبِ : الخاطرُ : كما لوْ خطرَ لهُ مثلاً صورةُ امرأةٍ ، وأنَّها وراءَ ظهرِهِ في الطريقِ ، لوِ التفتَ إليها . . لرآها .

والثاني : هيجانُ الرغبةِ إلى النظرِ : وهوَ حركةُ الشهوةِ التي في الطبعِ ، وهٰذا يتولَّدُ مِنَ الخاطرِ الأوَّلِ ، ونسمِّيهِ : ميلَ الطبعِ ، ونُسمِّي الأوَّلَ : حديثَ النفسِ .

والثالثُ : حكمُ القلبِ بأنَّ هٰذا ينبغي أنْ يفعلَ : أيْ : ينبغي أنْ ينظرَ إليها ؛ فإنَّ الطبعَ إذا مالَ . . لمْ تنبعثِ الهمَّةُ

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) ، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بنحوه .

(٢) البخاري (٧٥٠١) ، ومسلم (١٢٨) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٩٣/٧) : (وإنما قدم مسلماً في الذكر نظراً إلىٰ أن سياق اللفظ له ، وإلا . . فالبخاري مقدم في الذكر لتقدمه في الفضل وفي الزمان ، وربما من يجهل ما ذكرناه اعترض على المصنف في تقديمه مسلماً علىٰ صاحبه ، ونسبه لمخالفة الاصطلاح) .

(٣) البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) هي عند مسلم (١٢٩) .

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

اعلمْ : أنَّ على المريدِ في بطنِهِ ومأكولِهِ أربعَ وظائفَ :

الأولىٰ : ألا يأكلَ إلا حلالاً :

فالعبادةُ معَ أكلِ الحرامِ كالبناءِ علىٰ أمواجِ البحرِ ، وقدْ ذكرنا ما تجبُ مراعاتُهُ مِنْ درجاتِ الورعِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

وتبقىٰ ثلاثُ وظائفَ خاصَّةٍ بالأكلِ ؛ وهوَ تقديرُ قدْرِ الطعامِ في القلَّةِ والكثرةِ ، وتقديرُ وقتِهِ في الإبطاءِ والسرعةِ ، وتعيينُ الجنسِ المأكولِ في تناولِ المشتهياتِ وتركِها .

❁ ❁ ❁

أمَّا الوظيفةُ الأولىٰ في تقليلِ الطعامِ :

فسبيلُ الرياضةِ فيهِ التدريجُ ، فمَنِ اعتادَ الأكلَ الكثيرَ وانتقلَ دفعةً واحدةً إلى القليلِ . . لمْ يحتملْهُ مزاجُهُ ، وضعفَ ، وعظمَتْ مشقَّتُهُ ، فينبغي أنْ يتدرَّجَ إليهِ قليلاً قليلاً ، وذٰلكَ بأنْ ينقصَ قليلاً قليلاً مِن طعامِهِ المعتادِ .

فإنْ كانَ يأكلُ رغيفينِ مثلاً وأرادَ أنْ يردَّ نفسهُ إلىٰ رغيفٍ واحدٍ . . فينقصُ كلَّ يومٍ ربعَ سبعِ رغيفٍ ، وهوَ أنْ ينقصَ جزءاً مِنْ ثمانيةٍ وعشرينَ جزءاً ، أوْ جزءاً مِنْ ثلاثينَ جزءاً ، فيرجعُ إلىٰ رغيفٍ في شهرٍ ، ولا يستضرُّ بهِ ، ولا يظهرُ أثرُهُ ، فإنْ شاءَ . . فعلَ ذٰلكَ بالوزنِ ، وإنْ شاءَ . . بالمشاهدةِ ، فيتركُ كلَّ يومٍ مقدارَ لقمةٍ ، وينقصُهُ عمَّا أكلَهُ بالأمسِ .

ثمَّ هٰذا فيهِ أربعُ درجاتٍ :

أقصاها : أنْ يردَّ نفسَهُ إلىٰ قدْرِ القوامِ الذي لا يبقىٰ دونَهُ ، وهوَ عادةُ الصديقينَ ، وهوَ اختيارُ سهْلٍ التستريِّ رحمةُ اللهِ عليهِ ؛ إذْ قالَ : إنَّ اللهَ استعبدَ الخلقَ بثلاثٍ : بالحياةِ ، والعقلِ ، والقوَّةِ ، فإنْ خافَ العبدُ على اثنتينِ منها وهيَ الحياةُ والعقلُ . . أكلَ ، وأفطرَ إنْ كانَ صائماً ، وتكلَّفَ الطلبَ إنْ كانَ فقيراً ، وإنْ لمْ يخفْ عليهما بلْ على القوَّةِ . . قالَ : فينبغي ألا يباليَ ولوْ ضعفَ حتَّىٰ صلَّىٰ قاعداً ، ورأىٰ أنَّ صلاتَهُ قاعداً معَ ضعْفِ الجوعِ أفضلُ مِنْ صلاتِهِ قائماً معَ قوةِ الأكلِ [١]

وسئلَ سهلٌ عنْ بدايتِهِ وما كانَ يقتاتُ بهِ ؟ فقالَ : كانَ قُوتي في كلِّ سنةٍ ثلاثةَ دراهمَ ، كنتُ آخذُ بدرهمٍ دِبْساً ، وبدرهمٍ سمناً ، وبدرهمٍ دقيقَ الأرزِّ ، وأخلطُ الجميعَ وأسوِّي منهُ بنادقَ ، ثلاثَ مئةٍ وستينَ أُكْرَةً [٢] ، آخذُ في كلِّ ليلةٍ أُكْرَةً أفطرُ عليها ، فقيلَ لهُ : فالساعةَ كيفَ تأكلُ ؟ قالَ : آكلُ بغيرِ حدٍّ ولا توقيتٍ [٣]

---

(١) فعلم من هٰذا أن المحافظة على العقل مقدمة علىٰ محافظة القوة ، فإن لم يصلح عقل المريد بالخبز البحت . . فلا بأس أن يأتدم ببعض الأدهان ، وقد كان سهل رحمه الله تعالىٰ يقول للمتقللين من أهل عبادان ـ كما في « القوت » (٢/١٧٢) ـ : احفظوا عقولكم ، وتعاهدوا بالأدهان والدسم ؛ فإنه ما كان ولي لله ناقص العقل . « إتحاف » (٧/٤٠٤) .

(٢) **الأُكْرَة** : لغة في الكرة ؛ أي : يجعل من هٰذا الخليط كالكرات ، يأخذ كل فطور واحدة .

(٣) قوت القلوب (٢/١٧١) .

أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ ، وصنفٌ أجسامُهُمْ أجسامُ بني آدمَ وأرواحُهُمْ أرواحُ الشياطينِ ، وصنفٌ في ظلِّ اللهِ تعالىٰ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ »[١]

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ : بلغَنا أنَّ إبليسَ تمثَّلَ ليحيى بنِ زكريا عليهما السلامُ ، وقالَ : إنِّي أريدُ أنْ أنصحَكَ ، قالَ : لا حاجةَ بي إلىٰ نصحِكَ ، ولـٰكنْ أخبِرْني عنْ بني آدمَ ، قالَ : همْ عندَنا ثلاثةُ أصنافٍ ؛ أمَّا صنفٌ منهُمْ . . فهُمْ أشدُّ الأصنافِ علينا نقبلُ علىٰ أحدِهِمْ حتَّىٰ نفتنَهُ ونتمكَّنَ منهُ ، فيفزعَ إلى الاستغفارِ والتوبةِ ، فيفسدُ علينا كلَّ شيءٍ أدركنا منهُ ، ثمَّ نعودُ إليهِ ، فيعودُ ، فلا نحنُ نيئسُ منهُ ، ولا نحنُ ندركُ منهُ حاجتَنا ، فنحنُ منهُ في عناءٍ ، وأمَّا الصنفُ الآخرُ . . فهُمْ في أيدينا بمنزلةِ الكرةِ في أيدي صبيانِكُمْ ، نتلقفُهُمْ كيفَ شئنا ، قدْ كفونا أنفسَهُمْ ، وأمَّا الصنفُ الثالثُ . . فهُمْ مثلُكَ معصومونَ ، لا نقدرُ منهُمْ علىٰ شيءٍ[٢]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتمثَّلُ الشيطانُ لبعضِ الناسِ دونَ البعضِ ؟ وإذا رأىٰ صورتَهُ . . فهلْ هيَ صورتُهُ الحقيقيَّةُ أوْ هوَ مثالٌ تمثَّلَ لهُ بهِ ؟ فإنْ كانَ علىٰ صورتِهِ الحقيقيّةِ . . فكيفَ يُرىٰ بصورٍ مختلفةٍ ؟ وكيفَ يُرىٰ في وقتٍ واحدٍ في مكانينِ وعلىٰ صورتينِ ، حتَّىٰ يراهُ شخصانِ بصورتينِ مختلفتينِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المَلَكَ والشيطانَ لهما صورتانِ هيَ حقيقةُ صورتِهما ، ولا تُدركُ حقيقةُ صورتِهِما بالمشاهدةِ إلا بأنوارِ النبوَّةِ ، فما رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جبريلَ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ في صورتِهِ إلا مرَّتينِ ، وذٰلكَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَهُ أنْ يريَهُ نفسَهُ علىٰ صورتِهِ ، فواعدَهُ بالبقيعِ ، وظهرَ لهُ بحراءَ ، فسدَّ الأفقَ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، ورآهُ مرَّةً أخرىٰ علىٰ صورتِهِ ليلةَ المعراجِ عندَ سدرةِ المنتهىٰ[٣] ، وإنَّما كانَ يراهُ في صورةِ الآدميِّ غالباً ، فكانَ يراهُ في صورةِ دِحْيَةَ الكلبيِّ ، وكانَ رجلاً حسنَ الوجهِ[٤]

والأكثرُ أنَّهُ يُكاشفُ أهلُ المكاشفةِ منْ أربابِ القلوبِ بمثالِ صورتِهِ ، فيتمثَّلُ الشيطانُ لهُ في اليقظةِ ، فيراهُ بعينِهِ ، ويسمعُ كلامَهُ بأذنِهِ ، فيقومُ ذٰلكَ مقامَ حقيقةِ صورتِهِ ، كما ينكشفُ في المنامِ لأكثرِ الصالحينَ .

وإنَّما المكاشَفُ في اليقظةِ هو الذي انتهىٰ إلىٰ رتبةٍ لا يمنعُهُ اشتغالُ الحواسِّ بالدنيا عَنِ المكاشفةِ التي تكونُ في المنامِ ، فيرىٰ في اليقظةِ ما يراهُ غيرُهُ في المنامِ ؛ كما رُوِيَ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ أنَّ رجلاً سألَ ربَّهُ عزَّوجلَّ أنْ يريَهُ موضعَ الشيطانِ مِنْ قلبِ ابنِ آدمَ ، فرأىٰ في النومِ جسدَ رجلٍ شبهَ البلَّورِ ، يُرىٰ داخلُهُ مِنْ خارجِهِ ، ورأى الشيطانَ في صورةِ ضفدعٍ قاعدٍ علىٰ منكبِهِ الأيسرِ ، بينَ منكبِهِ وأذنِهِ ، لهُ خرطومٌ طويلٌ دقيقٌ ، قدْ أدخلَهُ مِنْ منكبِهِ الأيسرِ إلىٰ قلبِهِ ، يوسوسُ إليهِ ، فإذا ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ[٥]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (١) مقتصراً على الجن ، ورواه بتمامه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠٨١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٨/٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٥/٦٤) .

(٣) رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل مرتين علىٰ حقيقته لا في صورة بشر متمثل له عند البخاري (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) ولفظه عن عائشة رضي الله عنها : (ولـٰكنه رأىٰ جبريل عليه السلام في صورته مرتين) ، وعند الترمذي (٣٢٧٨) : (ولـٰكنه رأىٰ جبريل ، لم يره في صورته إلا مرتين ؛ مرة عند سدرة المنتهىٰ ، ومرّة في جياد له ست مئة جناح قد سد الأفق) .

(٤) أما إتيانه عليه السلام في صورة الرجل . . فعند البخاري (٣٢٣٥) ، ومسلم (١٧٧) ، وأما إتيانه علىٰ صورة دحية رضي الله عنه . . فعند البخاري (٣٦٣٤) ، ومسلم (٢٤٥١) .

(٥) قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٥٦٣/٦) : (وقد ورد في خبر مقطوع أن رجلاً سأل ربّه أن يريه موضع الشيطان ، فرأى الشيطان

منهُ صاعاً ونصفاً ، وصاعُ الحنطةِ أربعةُ أمدادٍ ، فيكونُ كلُّ يومٍ قريباً مِنْ نصفِ مدٍّ ، وهوَ ما ذكرنا أنَّهُ قدْرُ ثلثِ البطنِ ، واحتيجَ في التمرِ إلىٰ زيادةٍ لسقوطِ النوىٰ منهُ .

وقدْ كانَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : طعامي في كلِّ جمعةٍ صاعٌ مِنْ شعيرٍ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واللهِ ؛ لا أزيدُ عليهِ شيئاً حتَّىٰ ألقاهُ ؛ فإنِّي سمعتُهُ يقولُ : « أقربُكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ وأحبُّكُمْ إليَّ مَنْ ماتَ علىٰ ما هوَ عليهِ اليومَ »[1]

وكانَ يقولُ في إنكارِهِ علىٰ بعضِ الصحابةِ : (قد غيَّرْتُمْ ، يُنخلُ لكُمُ الشعيرُ ولمْ يكنْ يُنخلُ ، وخبزتُمُ المرقَّقَ ، وجمعتُمْ بينَ إدامينِ ، واختلفَ عليكُمْ بألوانِ الطعامِ ، وغدا أحدُكُمْ في ثوبٍ وراحَ في آخرَ ، ولمْ تكونوا هٰكذا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[2]

وقدْ كانَ قوتُ أهلِ الصُّفَّةِ مُدّاً مِنْ تمرٍ بينَ اثنينِ في كلِّ يومٍ[3] ، والمدُّ رطلٌ وثلثٌ ، ويسقطُ منهُ النوىٰ .

وكانَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (المؤمنُ مثلُ العنيزةِ ، يكفيهِ الكفُّ مِنَ الحشفِ ، والقبضةُ مِنَ السويقِ ، والجرعةُ مِنَ الماءِ ، والمنافقُ مثلُ السبعِ الضاري ، بلعاً بلعاً ، وسرطاً سرطاً ، لا يطوي بطنَهُ لجارِهِ ، ولا يؤثرُ أخاهُ بفضْلِهِ ، وجِّهوا هٰذهِ الفضولَ أمامَكُمْ)[4]

وقالَ سهلٌ : (لوْ كانَتِ الدنيا دماً عبيطاً . . لكانَ قوتُ المؤمنِ منها حلالاً ؛ لأنَّ أكلَ المؤمنِ عندَ الضرورةِ بقدْرِ القوامِ فقطْ)[5]

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثانيةُ : في وقتِ الأكلِ ومقدارِ تأخيرِهِ :

وفيه أيضاً أربعُ درجاتٍ :

الدرجة العليا : أنْ يطويَ ثلاثةَ أيامٍ فما فوقَها ، وفي المريدينَ مَنْ ردَّ الرياضةَ إلى الطيِّ ، لا إلى المقدارِ ، حتَّى انتهىٰ بعضُهُمْ إلىٰ ثلاثينَ يوماً ، وأربعينَ يوماً ، وانتهىٰ إليهِ جماعةٌ مِنَ العلماءِ يكثرُ عددُهُمْ ، منهُمْ محمدُ بنُ عمرٍو القرنيُّ[6] ، وعبدُ الرحمٰنِ بنُ إبراهيمَ دُحَيمٌ ، وإبراهيمُ التيميُّ ، وحجَّاجُ بنُ فرافصةَ ، وحفصٌ العابدُ المصِّيصيُّ ، والمسلمُ بنُ سعيدٍ ، وزهيرٌ ، وسليمانُ الخوَّاصُ ، وسهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ ، وإبراهيمُ بنُ أحمدَ الخوَّاصُ[7]

وقدْ كانَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ يطوي ستةَ أيامٍ ، وكانَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ يطوي سبعةَ أيامٍ ، وكانَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٦٥/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦١/١) ، وكلام أبي ذر رضي الله عنه صدر الخبر رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٢/١) ، وهو كما ساقه المصنف هنا عند صاحب « القوت » (١٦٧/٢) .
(٢) قوت القلوب (١٦٧/٢) .
(٣) كما روىٰ ذٰلك الحاكم في « المستدرك » (١٥/٣) .
(٤) قوت القلوب (١٦٧/٢) .
(٥) قوت القلوب (١٦٧/٢) ، **والدم العبيط** : الخالص الطري ، ومعلوم أن المضطر يحل له أكل الميتة ، والمؤمن في أكله عند أبي عبد الله التستري مضطر علىٰ كل حال .
(٦) في (أ) : (العرني) ، وفي (ب) : (المغربي) .
(٧) قوت القلوب (١٦٥/٢) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، ومَنْ ساعدَ الشيطانَ بعملِهِ . . فهوَ مُواليهِ وإنْ ذكرَ اللهَ بلسانِهِ .

❁ ❁ ❁

وإنْ كنتَ تقولُ : (الحديثُ قدْ وردَ مطلقاً بأنَّ الذكرَ يطردُ الشيطانَ) ، ولم تفهمْ أنَّ أكثرَ عموماتِ الشرعِ مخصوصةٌ بشروطٍ نقلَها علماءُ الدينِ . . **فانظرْ إلىٰ نفسِكَ** ، فليسَ الخبرُ كالعيانِ ، وتأمَّلْ أنَّ منتهىٰ ذكرِكَ وعبادتِكَ الصلاةُ ، فراقبْ قلبَكَ إذا كنتَ في صلواتِكَ : كيفَ يجاذبُهُ الشيطانُ إلى الأسواقِ ، وحسابِ المعاملينَ ، وجوابِ المعاندينَ ، وكيفَ يمرُّ بكَ في أوديةِ الدنيا ومهالكِها ، حتَّىٰ إنَّكَ لا تذكرُ ما قدْ نسيتَهُ مِنْ فضولِ الدنيا إلا في صلاتِكَ ، ولا يزدحمُ الشيطانُ علىٰ قلبِكَ إلا إذا صلَّيتَ ، فالصلاةُ محكُّ القلوبِ ، فيها يظهرُ محاسنُها ومساويها ، والصلاةُ لا تُقبلُ مِنَ القلوبِ المشحونةِ بشهواتِ الدنيا ، فلا جرمَ لا ينطردُ عنكَ الشيطانُ ، بلْ ربمَّا يزيدُ عليكَ الوسواسَ ، كما أنَّ الدواءَ قبلَ الاحتماءِ ربَّما يزيدُ عليكَ الضررَ .

فإنْ أردتَ الخلاصَ مِنَ الشيطانِ . . فقدِّمِ الاحتماءَ بالتقوىٰ ، ثمَّ أردفْهُ بدواءِ الذكرِ . . يفرُّ الشيطانُ منكَ كما فرَّ مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ [١]

ولذلكَ قالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (اتقِ اللهَ ، ولا تسبَّ الشيطانَ في العلانيةِ وأنتَ صديقُهُ في السرِّ) [٢] أيْ : أنتَ مطيعٌ لهُ .

وقالَ بعضُهُمْ : (يا عجباً لمَنْ يعصي المحسنَ بعدَ معرفتِهِ بإحسانِهِ ، ويطيعُ اللعينَ بعدَ معرفتِهِ بطغيانِهِ) .

وكما أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فأنتَ تدعو ولا يستجيبُ لكَ . . فكذٰلكَ تذكرُ اللهَ ولا يهربُ الشيطانُ منكَ ؛ لفقدِ شروطِ الذكرِ والدعاءِ .

قيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : ما بالُنا ندعو فلا يُستجابُ لنا وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ؟ قالَ : لأنَّ قلوبَكُمْ ميتةٌ ، قيلَ : وما الذي أماتَها ؟ قالَ : ثمانُ خصالٍ : عرفتُمُ اللهَ ولمْ تقوموا بحقِّهِ ، وقرأتُمُ القرآنَ ولمْ تعملوا بحدودِهِ ، وقلتُمْ : (نحبُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) ولمْ تعملوا بسنَّتِهِ ، وقلتُمْ : (نخشى الموتَ) ولمْ تستعدُّوا لهُ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فواطأتموهُ على المعاصي ، وقلتُمْ : (نخافُ النارَ) وأرهقتُمْ أبدانَكُمْ فيها ، وقلتُمْ : (نحب الجنَّةَ) ولم تعملوا لها ، وإذا قمتُمْ مِنْ فرشِكُمْ رميتُمْ عيوبَكُمْ وراءَ ظهورِكُمْ ، وافترشتُمْ عيوبَ الناسِ أمامَكُمْ ، فأسخطتُمْ ربَّكُمْ ، فكيفَ يستجيبُ لكُمْ ؟! [٣]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالداعي إلى المعاصي المختلفةِ شيطانٌ واحدٌ أوْ شياطينُ مختلفونَ ؟

---

(١) وهـٰذا حال من انتهىٰ به سلوكه ، وأشرقت عليه أنوار التوفيق ، فلبس لأمة الصدق ، وتحلىٰ بأسلحة العزل ، ودخل في حومة الحرب بين باعث الدين وداعي الهوىٰ ، فكانت الغلبة لداعي الدين ، وفرت جيوش الشياطين ، ولذا قال أبو حازم : ما الشيطان حتىٰ يهاب ؟! فوالله ؛ لقد أطيع فما نفع ، وعُصي فما ضرَّ ، وقال بعضهم : لولا أن الحق سبحانه أمرنا بالاستعاذة منه . . ما استعذت منه ؛ لحقارته ، وهـٰذا شأن المتقين . « إتحاف » (٢٨٧/٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٤/٨) عن وهيب بن الورد .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥/٨) ، وزاد ثنتين : (أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، ودفنتم أمواتكم ولم تعتبروا بهم) .

وفي حديثِ عاصمِ بنِ كليبٍ ، عنْ أبيهِ ، عنْ أبي هريرةَ قالَ : (ما قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قيامَكُمْ هٰذا قطُّ ، وإنْ كانَ ليقومُ حتَّىٰ تزلعَ قدماهُ ، وما واصلَ وصالَكُمْ هٰذا قطُّ ، غيرَ أنَّهُ قدْ أخَّرَ الفطرَ إلى السحرِ)[1]

وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يواصلُ إلى السحرِ)[2]

فإنْ كانَ يلتفتُ قلبُ الصائمِ بعدَ المغربِ إلى الطعامِ ، وكانَ يشغلُهُ ذٰلكَ عنْ حضورِ القلبِ في التهجُّدِ . . فالأولىٰ أنْ يقسمَ طعامَهُ نصفينِ ، فإنْ كانَ رغيفينِ مثلاً . . أكلَ رغيفاً عندَ الفطرِ ، ورغيفاً عندَ السحرِ ؛ لتسكنَ نفسُهُ ، ويخفَّ عندَ التهجُّدِ بدنُهُ ، ولا يشغلَهُ جوعُهُ بالنهارِ لأجلِ تسحُّرِهِ ، فيستعينُ بالرغيفِ الأوَّلِ على التهجُّدِ ، وبالثاني على الصومِ .

ومَنْ كانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً . . فلا بأسَ أنْ يأكلَ يومَ فطرِهِ وقتَ الظهرِ ، ويومَ صومِهِ وقتَ السحرِ .

فهٰذهِ هيَ الطرقُ في مواقيتِ الأكلِ وتقاربِهِ وتباعدِهِ .

❋ ❋ ❋

الوظيفةُ الثالثةُ : في نوعِ الطعامِ وتركِ الإدامِ :

وأعلى الطعامِ مخُّ البرِّ ، فإنْ نُخلَ . . فهوَ غايةُ الترفُّهِ ، وأوسطُهُ شعيرٌ منخولٌ ، وأدناهُ شعيرٌ لمْ يُنخلْ ، وأعلى الأُدْمِ اللحمُ والحلاوةُ ، وأدناهُ الملحُ والخلُّ ، وأوسطُهُ المزوَّراتُ بالأدهانِ مِنْ غيرِ لحمٍ .

وعادةُ سالكي طريقِ الآخرةِ الامتناعُ مِنَ الإدامِ على الدوامِ ، بلِ الامتناعُ عنِ الشهواتِ ؛ فإنَّ كلَّ لذيذٍ يشتهيهِ الإنسانُ وأكلَهُ . . اقتضىٰ ذٰلكَ بطراً في نفسِهِ ، وقسوةً في قلبِهِ ، وأُنْساً لهُ بلذَّاتِ الدنيا ، حتَّىٰ يألفَها ويكرهَ الموتَ ولقاءَ اللهِ تعالىٰ ، وتصيرَ الدنيا جنَّةً في حقِّهِ ، ويكونَ الموتُ سجناً لهُ ، وإذا منعَ نفسَهُ عنْ شهواتِها ، وضيَّقَ عليها ، وحرمَها لذَّاتِها . . صارَتِ الدنيا سجناً عليهِ ، ومضيقاً لهُ ، فاشتهَتْ نفسُهُ الإفلاتَ منها ، فيكونُ الموتُ إطلاقَها ، وإليهِ الإشارةُ بقولِ يحيى بنِ معاذٍ حيثُ قالَ : (معاشرَ الصادقينَ ؛ جوِّعوا أنفسَكُمْ لوليمةِ الفردوسِ ؛ فإنَّ شهوةَ الطعامِ علىٰ قدْرِ تجويعِ النفسِ)[3]

فكلُّ ما ذكرناهُ مِنْ آفاتِ الشبعِ فإنَّهُ يجري في أكلِ الشهواتِ ، وتناولِ اللذَّاتِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِهِ ، فلذٰلكَ يعظمُ الثوابُ في تركِ الشهواتِ مِنَ المباحاتِ ، ويعظمُ الخطرُ في تناولِها ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ يأكلونَ مخَّ الحنطةِ »[4] ، وهٰذا ليسَ بتحريمٍ ، بلْ هوَ مباحٌ علىٰ معنىٰ أنَّ مَنْ أكلَهُ مرَّةً أوْ مرَّتينِ . . لمْ يعصِ ، ومَنْ داومَ عليهِ أيضاً . . فلا يعصي بتناولِهِ ، ولٰكنْ تتربَّىٰ نفسُهُ بالنعيمِ ، فتأنسُ بالدنيا ، وتألفُ اللذاتِ ، وتسعىٰ في طلبِها ، فيجرُّها ذٰلكَ إلى المعاصي ، فهمْ شرارُ الأمَّةِ ؛ لأنَّ مخَّ الحنطةِ يقودُهُمْ إلى اقتحامِ أمورٍ ، تلكَ الأمورُ معاصٍ .

---

(١) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٣٨٤) ، وتزلع : تتورم وتتشقق .

(٢) كذا في « القوت » (١٦٦/٢) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٩١/١) من حديث علي رضي الله عنه ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٠٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « لا تواصلوا ، فأيكم إذا أراد أن يواصل . . فليواصل حتى السحر » .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٤١٢/٧) .

« إنَّ الشيطانَ يجري مِنِ ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ ، وإنّي خشيتُ أنْ يدخِلَ عليكُما »[1]

فانظرْ كيفَ أشفقَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ دينِهِما فحرسَهُما ، وكيفَ أشفقَ علىٰ أمَّتِهِ فعلَّمَهُمْ طريقَ الاحترازِ مِنَ التهمةِ ؛ حتَّىٰ لا يتساهلَ العالمُ الورعُ المعروفُ بالدينِ في أحوالِهِ فيقولَ : مثلي لا يُظَنُّ بهِ إلا الخيرُ إعجاباً منهُ بنفسِهِ ؛ فإنَّ أورعَ الناسِ وأتقاهم وأعلمَهُمْ لا ينظرُ الناسُ كلُّهُمْ إليهِ بعينٍ واحدةٍ ، بلْ بعينِ الرضا بعضُهُمْ ، وبعينِ السخطِ بعضُهُمْ ؛ ولذٰلكَ قالَ الشاعرُ[2] : [من الطويل]

وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَٰكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَساوِيا

فيجبُ الاحترازُ عنْ عينِ السوءِ ، وعنْ تهمةِ الأشرارِ ؛ فإنَّ الأشرارَ لا يظنُّونَ بالناسِ كلِّهِمْ إلا الشرَّ ، فمهما رأيتَ إنساناً يسيءُ الظنَّ بالناسِ طالباً للعيوبِ . . فاعلمْ أنَّهُ خبيثٌ في الباطنِ ، وأنَّ ذٰلكَ خبثُهُ يترشَّحُ منهُ ، وإنَّما يرىٰ غيرَهُ مِنْ حيثُ هوَ ، فإنَّ المؤمنَ يطلبُ المعاذيرَ ، والمنافقَ يطلبُ العيوبَ ، والمؤمنُ سليمُ الصدرِ في حقِّ كافَّةِ الخلقِ .

فهٰذهِ بعضُ مداخلِ الشيطانِ إلى القلبِ ، ولوْ أردتُ استقصاءَ جميعِها . . لمْ أقدرْ عليهِ ، وفي هٰذا القدْرِ ما ينبِّهُ علىٰ غيرِهِ ، فليسَ في الآدميِّ صفةٌ مذمومةٌ إلا وهيَ سلاحُ الشيطانِ ، ومدخلٌ مِنْ مداخلِهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما العلاجُ في دفعِ الشيطانِ ؟ وهلْ يكفي في ذٰلكَ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ، وقولُ الإنسانِ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ علاجَ القلبِ في ذٰلكَ سدُّ هٰذهِ المداخلِ بتطهيرِ القلبِ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ المذمومةِ ، وذٰلكَ ممَّا يطولُ ذكرُهُ ، وغرضُنا في هٰذا الربعِ مِنَ الكتابِ بيانُ علاجِ الصفاتِ المهلكاتِ ، وتحتاجُ كلُّ صفةٍ إلىٰ كتابٍ مفردٍ علىٰ ما سيأتي شرحُهُ .

نعمْ ؛ إذا قُطعتْ مِنَ القلبِ أصولُ هٰذهِ الصفاتِ . . كانَ للشيطانِ بالقلبِ اجتيازاتٌ وخطراتٌ ، ولمْ يكنْ لهُ استقرارٌ ، ويمنعُهُ مِنَ الاجتيازِ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ حقيقةَ الذكرِ لا تتمكَّنُ مِنَ القلبِ إلا بعدَ عمارةِ القلبِ بالتقوىٰ ، وتطهيرِهِ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، وإلا . . فيكونُ الذكرُ حديثَ نفسٍ ، لا سلطانَ لهُ على القلبِ ، فلا يدفعُ سلطانَ الشيطانِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ ، خصَّصَ بذٰلكَ المتقيَ .

فمثلُ الشيطانِ كمثلِ كلبٍ جائعٍ يقربُ منكَ ، فإن لمْ يكنْ بينَ يديكَ لحمٌ أو خبزٌ . . فإنَّه ينزجرُ بأنْ تقولَ له : اخسأْ ، فمجردُ الصوتِ يدفعُهُ ، فإنْ كانَ بينَ يديكَ لحمٌ وهوَ جائعٌ ، فإنَّهُ يهجمُ على اللحمِ ولا يندفعُ بمجرَّدِ الكلامِ ، فالقلبُ الخالي عنْ قوتِ الشيطانِ ينزجرُ عنهُ بمجرَّدِ الذكرِ ، فأمَّا الشهوةُ إذا غلبَتْ على القلبِ . . دفعَتْ حقيقةَ الذكرِ إلىٰ حواشي القلبِ ، ولمْ يتمكَّنْ مِنْ سويدائِهِ ، فيستقرُّ الشيطانُ في سويداءِ القلبِ .

وأمَّا قلوبُ المتقينَ الخاليةُ مِنَ الهوىٰ والصفاتِ المذمومةِ . . فإنَّهُ يطرقُها الشيطانُ لا للشهواتِ ، بلْ لخلوِّها بالغفلةِ عنِ الذكرِ ، فإذا عادَ إلى الذكرِ . . خنسَ الشيطانُ ، ودليلُ ذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ، وسائرُ الأخبارِ والآياتِ الواردةِ في الذكرِ .

---

(١) رواه مسلم (٢١٧٥) .

(٢) البيت لعبد الله بن معاوية في « ديوانه » (ص ٩٠) ، وفي نسبته إليه خلاف ، انظر « ديوانه » (ص ٩٠ ـ ٩١) .

ورُوِيَ أنَّ عتبةَ الغلامَ كانَ يعجنُ دقيقَهُ ويجفّفُهُ في الشمسِ ، ثمَّ يأكلُهُ ويقولُ : (كسرةٌ وملحٌ حتَّىٰ يتهيَّأَ في الدارِ الآخرةِ الشواءُ والطعامُ الطيِّبُ)[١]

وكانَ يأخذُ الكوزَ ، فيغرفُ بهِ مِنْ حبٍّ كانَ في الشمسِ نهارَهُ ، فتقولُ مولاةٌ لهُ : يا عتبةُ ؛ لوْ أعطيتَني دقيقَكَ فخبزتُهُ لكَ وبرَّدْتُ لكَ الماءَ ؟! فيقولُ لها : يا أمَّ فلانٍ ؛ قدْ سددتُ عني كَلَبَ الجوعِ[٢]

وعنْ شقيقِ بنِ إبراهيمَ قالَ : لقيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ بمكَّةَ في سوقِ الليلِ عندَ مولدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ جالسٌ بناحيةٍ مِنَ الطريقِ يبكي ، فأتيتُ إليهِ وجلستُ عندَهُ ، فقلتُ : أيشٍ هـٰذا البكاءُ يا أبا إسحاقَ ؟ فقالَ : خيرٌ ، فعاودتُهُ مرتينِ وثلاثاً ، فلمَّا أكثرتُ عليه . . قالَ : يا شقيقُ ؛ أتسترُ عليَّ ؟ فقلتُ : يا أخي ؛ قلْ ما شئتَ ، فقالَ لي : اشتهَتْ نفسي منذُ ثلاثينَ سنةً سِكْباجاً[٣] ، فمنعتُها جهدي ، فلمَّا كانَ البارحةَ . . كنتُ جالساً وقدْ غلبَني النعاسُ ، إذا أنا بفتىً شابٍّ بيدِهِ قدحٌ أخضرُ يعلو منهُ بخارٌ ورائحةُ سِكْباجٍ ، قالَ : فجمعتُ نهمتي عنهُ ، فقرَّبَهُ وقالَ : يا إبراهيمُ ؛ كُلْ ، فقلتُ : ما آكلُ شيئاً قدْ تركتُهُ للهِ تعالىٰ ، فقالَ لي : لئِنْ أطعمَكَ اللهُ . . تأكلُ ؟ فما كانَ لي جوابٌ إلا أنِّي بكيتُ ، فقالَ لي : كُلْ رحمَكَ اللهُ ، فقلتُ : قدْ أُمرنا ألا نطرحَ في وعائِنا إلا مِنْ حيثُ نعلمُ ، فقالَ لي : كُلْ عافاكَ اللهُ ، فإنَّما أعطيتُ ، فقيلَ لي : يا خضرُ ؛ اذهبْ بهـٰذا وأطعمْ نفسَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ ، فقدْ رحمَها اللهُ مِنْ طولِ صبْرِها علىٰ ما يحملُها مِنْ منعِها ، اعلمْ يا إبراهيمُ أنِّي سمعتُ الملائكةَ يقولونَ : مَنْ أعطيَ فلمْ يأخذْ . . طلبَ فلمْ يُعطَ ، فقلتُ : إنْ كانَ كذٰلكَ . . فهـأنا بينَ يديكَ لأجلِ العقدِ معَ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ التفتُّ فإذا أنا بفتىً آخرَ ناولَهُ شيئاً وقالَ : يا خضرُ ؛ لقِّمْهُ أنتَ ، فلمْ يزلْ يلقِّمُني حتَّىٰ شبعتُ ، فانتبهتُ وحلاوتُهُ في فمي .

قالَ شقيقٌ : فقلتُ : أرني كفَّكَ ، فأخذتُ بكفيَّ كفَّهُ فقبَّلتُها ، وقلتُ : يا مَنْ يطعمُ الجياعَ الشهواتِ إذا صحَّحوا المنعَ ، يا مَنْ يقدحُ في الضميرِ اليقينَ ، يا مَنْ سقىٰ قلوبَهُمْ مِنْ محبَّتِهِ ؛ أترىٰ لشقيقٍ عندَكَ حالاً ؟ ثمَّ رفعتُ يدَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ إلى السماءِ وقلتُ : بقدْرِ هـٰذا الكفِّ عندَكَ ، وبقدْرِ صاحبِهِ ، وبالجودِ الذي وُجدَ منكَ . . جُدْ علىٰ عبدِكَ الفقيرِ إلىٰ فضلِكَ وإحسانِكَ ورحمتِكَ وإنْ لمْ يستحقَّ ذٰلكَ ، قالَ : فقامَ إبراهيمُ ومشىٰ حتَّىٰ دخلنا المسجدَ الحرامَ[٤] .

ورُوِيَ عَنْ مالكِ بنِ دينارٍ : أنَّهُ بقيَ أربعينَ سنةً يشتهي لبناً ، فلمْ يأكلْهُ[٥]

وأُهديَ إليهِ يوماً رطبٌ ، فقالَ لأصحابِهِ : كلوا ، فما ذقتُهُ منذُ أربعينَ سنةً[٦]

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : اشتهىٰ أبو سليمانَ الدارانيُّ رغيفاً حارّاً بملحٍ ، فجئتُ بهِ إليهِ ، فعضَّ منهُ عضَّةً ، ثمَّ طرحَهُ وأقبلَ يبكي ، وقالَ : عَجِلتُ إلىٰ شهوتي بعدَ إطالةِ جهدي ، واشقوتي ، قدْ عزمتُ على التوبةِ ، فأقلني ، قالَ أحمدُ : فما رأيتُهُ أكلَ الملحَ حتَّىٰ لقِيَ اللهَ تعالىٰ[٧]

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢٩) .

(٢) هو ضمن الخبر السابق .

(٣) **السكباج** : معرب ، وهو طعام مؤلف من لحم يطبخ بخل .

(٤) رواه ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/٣٢٧) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٦٦) .

(٦) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٧/٤١٤) .

(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/١٣٠) .

وقالَ مالكُ بنُ ضيغمٍ : مررتُ على سوقِ البصرةِ ، فنظرتُ إلى البقْلِ ، فقالَتْ لي نفسي : لوْ أطعمتَني الليلةَ مِنْ هٰذا ، فأقسمتُ ألا أطعمَها إيَّاهُ أربعينَ ليلةً .

ومكثَ مالكُ بنُ دينارٍ بالبصرةِ خمسينَ سنةً ما أكلَ رطبةً لأهلِ البصرةِ ولا بُسرةً قطُّ ، وقالَ : (يا أهلَ البصرةِ ؛ عشتُ فيكُمْ خمسينَ سنةً ، فما أكلتُ لكُمْ رطبةً ولا بُسرةً ، فما زادَ فيكُمْ ما نقصَ منِّي ، ولا نقص منِّي ما زادَ فيكُمْ) ، وقالَ : (طلقتُ الدنيا منذُ خمسينَ سنةً ، اشتهَتْ نفسي لبناً منذُ أربعينَ سنةً ، فواللهِ ؛ لا أطعمُها حتىٰ ألحقَ باللهِ تعالىٰ)[1] .

وقالَ حمَّادُ بنُ أبي حنيفةَ : أتيتُ داوودَ الطائيَّ والبابُ مغلقٌ عليهِ ، فسمعتُهُ يقولُ : اشتهيتِ جزراً فأطعمتُكِ جزراً ، ثمَّ اشتهيتِ تمراً . . فآليتُ ألا تأكليهِ أبداً ، فسلَّمْتُ ودخلتُ ، فإذا هوَ وحدَهُ[2]

ومرَّ أبو حازمٍ يوماً في السوقِ ، فرأى الفاكهةَ ، فاشتهاها ، فقالَ لابنِهِ : اشترِ لنا مِنْ هٰذهِ الفاكهةِ المقطوعةِ الممنوعةِ ، لعلَّنا نذهبُ إلى الفاكهةِ التي لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ ، فلمَّا اشتراها وأتىٰ بها إليهِ . . قالَ لنفسِهِ : قدْ خدعتِيني حتَّىٰ نظرتُ واشتهيتُ ، وغلبتِيني حتَّى اشتريتُ ، واللهِ ؛ لا ذقتيهِ ، فبعثَ بها إلىٰ يتامىٰ مِنَ الفقراءِ .

وعنْ موسى الأشجِّ أنَّهُ قالَ : (نفسي تشتهي ملحاً جريشاً منذُ عشرينَ سنةً) .

وعنْ أحمدَ بنِ خليفةَ قالَ : (نفسي تشتهي منذُ عشرينَ سنةً ، ما تطلبُ منِّي إلا الماءَ حتَّىٰ تَرْوَىٰ ، فما أرويتُها) .

ورُوِيَ أنَّ عتبةَ الغلامَ اشتهىٰ لحماً سبعَ سنينَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ذٰلكَ . . قالَ : قدِ استحييتُ مِنْ نفسي أنْ أدافعَها منذُ سبعِ سنينَ سنةً بعدَ سنةٍ ، فاشترىٰ قطعةَ لحمٍ علىٰ خبزٍ وشواها ، وتركَها على الرغيفِ ، فلقيَ صبيّاً ، فقالَ لهُ : ألستَ أنتَ ابنَ فلانٍ وقدْ ماتَ أبوكَ ؟ قالَ : بلىٰ ، فناولَهُ إيَّاهُ ، قالوا : وأقبلَ يبكي يقرأ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ، ثمَّ لمْ يذقْهُ بعدَ ذٰلكَ[3]

ومكثَ يشتهي تمراً سنينَ ، فلمَّا كانَ ذاتَ يومٍ . . اشترىٰ تمراً بقيراطٍ ورفعَهُ إلى الليلِ ليفطرَ عليهِ ، قالَ : فهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ حتَّىٰ أظلمَتِ الدنيا ، ففزعَ الناسُ ، فأقبلَ عتبةُ علىٰ نفسِهِ يقولُ : هٰذا لجراءتي عليكَ وشرائي التمرَ بالقيراطِ ، ثمَّ قالَ لنفسِهِ : ما أظنُّ أُخِذَ الناسُ إلا بذنبِكِ ، عليَّ ألا تذوقيهِ[4]

واشترىٰ داوودُ الطائيُّ بنصفِ فَلْسٍ بقْلاً ، وبفلسٍ خلاً ، وأقبلَ ليلتَهُ كلَّها يقولُ لنفسِهِ : ويلكَ يا داوودُ ؛ ما أطولَ حسابَكَ يومَ القيامةِ !! ثمَّ لمْ يأكلْ بعدَهُ إلا قَفاراً[5]

وقالَ عتبةُ الغلامُ يوماً لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : إنَّ فلاناً يصفُ مِنْ نفسِهِ منزلةً ما أعرفُها مِنْ نفسي ، فقالَ : لأنَّكَ تأكلُ معَ خبزِكَ تمراً ، وهو لا يزيدُ على الخبزِ شيئاً ، قالَ : فإنْ أنا تركتُ أكلَ التمرِ . . عرفتُ تلكَ المنزلةَ ؟ قالَ : نعمْ ، وغيرَها ، فأخذَ يبكي ، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ : أبكى اللهُ عينَكَ ، أعلى التمرِ تبكي ؟! فقالَ عبدُ الواحدِ : دعْهُ ؛ فإنَّ نفسَهُ قدْ عرفَتْ صدقَ عزمِهِ في التركِ ، وهوَ إذا تركَ شيئاً . . لم يعاودْهُ أبداً[6]

---

(١) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٥/٥٦ ـ ٤٠٦) ، وذكر (ثلاثين) بدل (خمسين) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٠/٧) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٠/٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٨/٦ ـ ٢٢٩) .
(٥) أي : خبزاً يابساً وحده .
(٦) قوت القلوب (١٧٤/٢) .

وقالَ جعفرُ بنُ نصيرٍ : أمرَني الجنيدُ أنْ أشتريَ لهُ التينَ الوزيريَّ ، فاشتريتُهُ ، فلما أفطرَ . . أخذَ واحدةً فوضعَها في فمِهِ ، ثمَّ ألقاها وجعلَ يبكي ، ثمَّ قالَ : احملْهُ ، فقلتُ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : هتفَ في قلبي هاتفٌ : أما تستحي ؟! تركتَهُ مِنْ أجلي ثمَّ تعودُ إليهِ ؟![1]

وقالَ صالحٌ المرّيُّ : قلتُ لعطاءٍ السلميّ : إنّي متكلّفٌ لكَ شيئاً ، فلا تردَّ عليَّ كرامتي ، فقالَ : افعلْ ما تريدُ ، قالَ : فبعثتُ إليهِ معَ ابني شربةً مِنْ سويقٍ قدْ لتتُّهُ بسمْنٍ وعسلٍ ، وقلتُ : لا تبرحْ حتَّىٰ يشربَها ، فشربَها ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . جعلتُ لهُ نحوَها ، فردَّها ولمْ يشربْها ، فأتيتُهُ ولمتُهُ علىٰ ذٰلكَ ، وقلتُ : سبحانَ اللهِ !! رددتَ عليَّ كرامتي ، فلمَّا رأىٰ وجدي لذٰلكَ . . قالَ : لا يسوءُكَ هٰذا ، إنّي قدْ شربتُها أوَّلَ مَرَّةٍ ، وقدْ راودتُ نفسي في المرَّةِ الثانيةِ علىٰ شربِها فلمْ أقدرْ علىٰ ذٰلكَ ، كلَّما أردتُ ذٰلكَ . . ذكرتُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴾ ، قالَ صالحٌ : فبكيتُ وقلتُ في نفسي : أنا في وادٍ وأنتَ في وادٍ آخرَ[2]

وقالَ السريُّ السقطيُّ : (نفسي منذُ ثلاثينَ سنةً تطالبُني أنْ أغمسَ جزرةً في دِبسٍ فما أطعمتُها)[3]

وقالَ أبو بكرٍ الجلاءُ : أعرفُ إنساناً تقولُ لهُ نفسُهُ : أنا أصبرُ لكَ علىٰ طيِّ عشرةِ أيامٍ وأطعمْني بعدَ ذٰلكَ شهوةً أشتهيها ، فيقولُ لها : لا أريدُ أن تطوي عشرةَ أيامٍ ، ولٰكنِ اتركي هٰذهِ الشهوةَ .

ورُوِيَ أنَّ عابداً دعا بعضَ إخوانِهِ ، فقرَّبَ إليهِ رُغفاناً ، فجعلَ أخوهُ يقلِّبُ الأرغفةَ ليختارَ أجودَها ، فقالَ لهُ العابدُ : مَهْ ، أيَّ شيءٍ تصنعُ ؟ أما علمتَ أنَّ في الرغيفِ الذي رغبتَ عنهُ كذا وكذا حكمةً ، وعملَ فيهِ كذا وكذا صانعاً ، حتَّىٰ استدارَ مِنَ السحابِ الذي يحملُ الماءَ ، والماءِ الذي يسقي الأرضَ ، والرياحِ ، والأرضِ ، والبهائمِ ، وبني آدمَ ، حتَّىٰ صارَ إليكَ ، ثمَّ أنتَ بعدَ هٰذا تقلبُهُ ولا ترضىٰ بهِ !![4]

وفي الخبرِ : لا يستديرُ الرغيفُ ويُوضعُ بينَ يديكَ حتَّىٰ يعملَ فيهِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ صانعاً ، أوَّلُهُم ميكائيلُ عليهِ السلامُ الذي يكيلُ الماءَ مِنْ خزائنِ الرحمةِ ، ثمَّ الملائكةُ التي تزجي السحابَ ، والشمسُ والقمرُ ، والأفلاكُ ، وملائكةُ الهواءِ ، ودوابُّ الأرضِ ، وآخرُ ذٰلكَ الخبَّازُ ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا ﴾[5]

وقالَ بعضُهُمْ : أتيتُ قاسماً الجوعيَّ ، فسألتُهُ عنِ الزهدِ أيُّ شيءٍ هوَ ؟ فقالَ : أيَّ شيءٍ سمعتَ فيهِ ؟ فعددتُ أقوالاً ، فسكتَ ، فقلتُ : وأيَّ شيءٍ تقولُ أنتَ ؟ فقالَ : اعلمْ أنَّ البطنَ دنيا العبدِ ، فبقدْرِ ما يملكُ مِنْ بطنِهِ يملكُ مِنَ الزهدِ ، وبقدْرِ ما يملكُهُ بطنُهُ . . تملكُهُ الدنيا[6]

وكانَ بشرُ بنُ الحارثِ قدِ اعتلَّ مرةً ، فسألَ عبدَ الرحمٰنِ المتطبِّبَ عنْ شيءٍ يوافقُهُ مِنَ المأكولاتِ ، فقالَ : تسألُني ،

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٧٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٩/٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٦/١٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٧) .
(٤) قوت القلوب (١٦٨/٢) .
(٥) كذا في « القوت » (١٦٩/٢) ، وقول المصنف : (**وفي الخبر**) المقصود : وفي الأخبار الإسرائيليات ، وهو زيادة على الخبر السابق الذي رواه وهب بن منبه كما هو مبيَّن في « القوت » ، وقد تقدم مرفوعاً ما رواه الحاكم في « المستدرك » (١٢٢/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤٨١) : « أكرموا الخبز » ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٢٤٦/٥) زيادة : « فإن الله سخر له بركات السماوات والأرض » من حديث عبد الله بن أم حرام ، وهو معنى هٰذا الكلام .
(٦) قوت القلوب (١٧٢/٢) .

فإذا وصفتُ لكَ . . لمْ تقبلْ منّي !! قالَ بشرٌ : فصِفْ لي حتَّىٰ أسمعَ ، قالَ : تشربُ سَكَنْجبيناً ، وتمصُّ سفرجلاً ، وتأكلُ بعدَ ذٰلكَ إسفيذباجاً ، فقالَ لهُ بشرٌ : هلْ تعلمُ شيئاً أقلَّ مِنَ السكنجبينِ ثمناً يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أنا أعرفُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : الهندبا بالخلِّ ، ثمَّ قالَ : أتعرفُ شيئاً أقلَّ ثمناً مِنَ السفرجلِ يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قال : أنا أعرفُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : الخرنوبُ الشاميُّ ، قالَ : فتعرفُ شيئاً أقلَّ ثمناً مِنَ الإسفيذباجِ يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أنا أعرفُ ، ماءُ الحمصِ بسمْنِ البقرِ في معناهُ ، فقالَ لهُ عبدُ الرحمٰنِ : أنتَ أعلمُ منِّي بالطبِّ ، فلِمَ تسألُني ؟[1]

❁ ❁ ❁

فقدْ عرفتَ بهٰذا أنَّ هٰؤلاءِ كيفَ امتنعوا منْ أكلِ الشهواتِ ، ومِنَ الشبعِ مِنَ الأقواتِ ، وكانَ امتناعُهُمْ للفوائدِ التي ذكرناها ، وفي بعضِ الأوقاتِ لأنَّهُمْ كانوا لا يصفو لهُمُ الحلالُ ، فلمْ يرخِّصوا لأنفسِهِمْ إلا في قدْرِ الضرورةِ ، والشهواتُ ليسَتْ مِنَ الضروراتِ ، حتَّىٰ قالَ أبو سليمانَ : (الملحُ شهوةٌ)[2] ؛ لأنَّهُ زيادةٌ على الخبزِ ، وما زادَ على الخبزِ شهوةٌ ، وهٰذا هوَ النهايةُ .

فمَنْ لمْ يقدرْ علىٰ ذٰلكَ . . فينبغي ألا يغفُلَ عنْ نفسِهِ ، ولا ينهمكَ في الشهواتِ ، فكفىٰ بالمرءِ إسرافاً أنْ يأكلَ كلَّ ما يشتهيهِ ، ويفعلَ كلَّ ما يهواهُ ، فينبغي ألا يواظبَ علىٰ أكلِ اللحمِ ، وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ تركَ اللحمَ أربعينَ يوماً . . ساءَ خلقُهُ ، ومَنْ داومَ عليهِ أربعينَ يوماً . . قسا قلبُهُ)[3]

وقيلَ : (إنَّ للمداومةِ على اللحمِ ضراوةً كضراوةِ الخمرِ)[4]

ومهما كانَ جائعاً ، وتاقَتْ نفسُهُ إلى الجماعِ . . فلا ينبغي أنْ يأكلَ ويجامعَ ، فيعطيَ نفسَهُ شهوتينِ ، فتقوىٰ عليهِ ، وربما طلبتِ النفسُ الأكلَ لتنبسطَ في الجماعِ .

ويُستحبُّ ألا ينامَ على الشبعِ ، فيجمعَ بينَ غفلتينِ ، فيعتادَ الفتورَ ، ويقسوَ قلبُهُ لذٰلكَ ، ولٰكنْ ليصلِّ ، أوْ ليجلسْ فيذكرَ اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ أقربُ إلى الشكرِ .

وفي الحديثِ : « أذيبوا طعامَكُمْ بالصلاةِ والذكرِ ، ولا تناموا عليهِ فتقسوَ قلوبُكُمْ »[5]

وأقلُّ ذٰلكَ أنْ يصلِّيَ أربعَ ركعاتٍ ، أوْ يسبِّحَ مئةَ تسبيحةٍ ، أوْ يقرأَ جزءاً مِنَ القرآنِ عَقيبَ كلِّ أكلةٍ[6]

وقدْ كانَ سفيانُ الثوريُّ إذا شبعَ ليلةً . . أحياها ، وإذا شبعَ في يومٍ . . واصلَهُ بالصلاةِ والذكرِ ، وكانَ يقولُ : (أشبعِ الزنجيَّ وكُدَّهُ) ، ومرَّةً يقولُ : (أشبعِ الحمارَ وكُدَّهُ)[7]

---

(1) قوت القلوب (٢/١٧٢) ، **والسكنجبين** : المعمول بالخل والعسل ، **والإسفيذباج** : أصله بالفارسية : اسپيدبا ، وهو نوع من الحساء ، وهو الشورباج ، ويعرف بالمسلوقة كذلك .

(2) روى القول ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/٢٥٦) .

(3) كذا في « القوت » (٢/١٧٢) ، وبنحوه رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥٠٩) ، ورواه عن حفص بن عمرو ابنُ أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٩٠) .

(4) رواه مالك في « الموطأ » (٢/٩٣٥) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(5) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٩٤٩) ، وابن عدي في « الكامل » (١/٤٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(6) قوت القلوب (٢/١٧٢) ، فإن وجد نشاطاً . . أطال في صلاته ؛ إما بإطالة القراءة في الركعات ، أو زاد علىٰ عدد الركعات ، فإن لحركة الأعضاء قياماً وقعوداً سراً بليغاً في إذابة الطعام . « إتحاف » (٧/٤١٩) .

(7) قوت القلوب (٢/١٧٢) ، وهو عند أبي نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٩) .

ومهما اشتهىٰ شيئاً مِنَ الطعامِ وطيباتِ الفواكهِ . . فينبغي أنْ يتركَ الخبزَ ويأكلَها بدلاً منهُ ؛ لتكونَ قوتاً ، ولا تكونَ تفكُّهاً ؛ لئلا يجمعَ للنفسِ بينَ عادةٍ وشهوةٍ .

نظرَ سهلٌ إلى ابنِ سالمٍ وفي يدهِ خبزٌ وتمرٌ ، فقالَ لهُ : (ابتدئْ بالتمرِ ، فإنْ قامَتْ كفايتُكَ بهِ ، وإلا . . أخذتَ مِنَ الخبزِ بعدَهُ بقدْرِ حاجتِكَ)(١)

ومهما وجدَ طعاماً لطيفاً وغليظاً . . فليقدِّمِ اللطيفَ ؛ فإنَّهُ لا يشتهي الغليظَ بعدَهُ ، ولوْ قدَّمَ الغليظَ . . لأكلَ اللطيفَ أيضاً للطافتِهِ .

وكانَ بعضُهُمْ يقولُ لأصحابِهِ : (لا تأكلوا الشهواتِ ، فإنْ أكلتموها . . فلا تطلبوها ، فإنْ طلبتموها . . فلا تحبُّوها)(٢)

وطلبُ بعضِ أنواعِ الخبزِ شهوةٌ ؛ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رحمةُ اللهِ عليهما : (ما تأتينا مِنَ العراقِ فاكهةٌ أحبُّ إلينا مِنَ الخبزِ)(٣) ، فرأىٰ ذٰلكَ الخبزَ فاكهةً .

وعلى الجملةِ : لا سبيلَ إلىٰ إهمالِ النفسِ في الشهواتِ في المباحاتِ واتباعِها بكلِّ حالٍ ، فبقدْرِ ما يستوفي العبدُ مِنْ شهوتِهِ يخشىٰ أنْ يُقالَ لهُ يومَ القيامةِ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ ، وبقدْرِ ما يجاهدُ نفسَهُ ويتركُ شهوتَهُ يتمتَّعُ في الدارِ الآخرةِ بشهواتِهِ .

قالَ بعضُ أهلِ البصرةِ : نازعَتْني نفسي خبزَ أرزٍّ وسمكاً ، فمنعتُها ، فقويَتْ مطالبتُها ، واشتدَّتْ مجاهدتي لها عشرينَ سنةً ، فلمَّا ماتَ . . قالَ بعضُهُمْ : رأيتُهُ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ماذا فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : لا أحسنُ أنْ أصفَ ما تلقَّاني بهِ ربّي مِنَ النعيمِ والكرامةِ ، وكانَ أوَّلُ شيءٍ استقبلَني بهِ خبزَ أرزٍّ وسمكاً ، وقالَ : كُلْ شهوتَكَ اليومَ هنيئاً بغيرِ حسابٍ(٤)

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ ، وكانوا قدْ أسلفوا تركَ الشهواتِ ، ولهٰذا قالَ أبو سليمانَ : (تركُ شهوةٍ من شهواتِ النفسِ أنفعُ للقلبِ مِنْ صيامِ سنةٍ وقيامِها)(٥) ، وفَّقَنا اللهُ لما يرضيهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧٢) ، وابن سالم هو شيخ أبي طالب المكي .
(٢) قوت القلوب (٢/١٧٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/١٧٤) .
(٤) قوت القلوب (٢/١٧٣) .
(٥) قوت القلوب (٢/١٧٣) .

بيان اختلاف حكم الجوع ، وفضيلته ، واختلاف أحوال الناس فيه

اعلمْ : أنَّ المطلوبَ الأقصىٰ في جميعِ الأمورِ والأخلاقِ الوسطُ ؛ إذْ خيرُ الأمورِ أوساطُها ، وكلا طرفي قصْدِ الأمورِ ذميمٌ .

وما أوردناهُ في فضائلِ الجوعِ ربَّما يومئُ إلىٰ أنَّ الإفراطَ فيهِ مطلوبٌ ، وهيهاتَ ، ولٰكنْ مِنْ أسرارِ حكمةِ الشريعةِ : أنَّ كلَّ ما يطلبُ الطبعُ فيهِ الطرفَ الأقصىٰ وكانَ فيهِ فسادٌ . . جاءَ الشرعُ بالمبالغةِ في المنْعِ منهُ علىٰ وجهٍ يُومئُ عندَ الجاهلِ إلىٰ أنَّ المطلوبَ مضادَّةُ ما يقتضيهِ الطبعُ بغايةِ الإمكانِ ، والعالمُ يدركُ أنَّ المقصودَ الوسطُ ؛ لأنَّ الطبعَ إذا طلبَ غايةَ الشبعِ . . فالشرعُ ينبغي أنْ يمدحَ غايةَ الجوعِ ؛ حتَّىٰ يكونَ الطبعُ باعثاً والشرعُ مانعاً ، فيتقاومانِ ، ويحصلُ الاعتدالُ ، فإنَّ مَنْ يقدرُ علىٰ قمْعِ الطبعِ بالكليَّةِ بعيدٌ ، فيُعلمُ أنَّهُ لا ينتهي إلى الغايةِ .

فإنْ أسرفَ مسرفٌ في مضادَّةِ الطبْعِ . . كانَ في الشرعِ أيضاً ما يدلُّ علىٰ إساءتِهِ ، كما أنَّ الشرعَ بالغَ في الثناءِ علىٰ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ثمَّ لمَّا علمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حالِ بعضِهِمْ أنَّهُ يصومُ الدهرَ كلَّهُ ويقومُ الليلَ كلَّهُ . . نهىٰ عنهُ[1]

فإذا عرفتَ هٰذا . . فاعلمْ أنَّ الأفضلَ بالإضافةِ إلى الطبعِ المعتدلِ أنْ يأكلَ بحيثُ لا يحسُّ بثقلِ المعدةِ ، ولا يحسُّ بألمِ الجوعِ ، بلْ ينسىٰ بطنَهُ ، ولا يؤثِّرُ فيهِ الجوعُ أصلاً ، فإنَّ مقصودَ الأكلِ بقاءُ الحياةِ وقوَّةُ العبادةِ ، وثقلُ المعدةِ يمنعُ مِنَ العبادةِ ، وألمُ الجوعِ أيضاً يشغلُ القلبَ ويمنعُ منها .

فالمقصودُ : أنْ يأكلَ أكلاً لا يبقىٰ للمأكولِ فيهِ أثرٌ ؛ ليكونَ متشبِّهاً بالملائكةِ ، فإنَّهُمْ مقدَّسونَ عنْ ثقلِ الطعامِ وألمِ الجوعِ ، وغايةُ الإنسانِ الاقتداءُ بهِمْ ، وإذْ لمْ يكنْ للإنسانِ خلاصٌ مِنَ الشبعِ والجوعِ . . فأبعدُ الأحوالِ عنِ الطرفينِ الوسطُ ، وهوَ الاعتدالُ .

ومثالُ طلبِ الآدميِّ البعدَ عنْ هٰذهِ الأطرافِ المتقابلةِ بالرجوعِ إلى الوسطِ مثالُ نملةٍ أُلقيَتْ في وسطِ حلقةٍ محمَّاةٍ على النارِ ، مطروحةٍ على الأرضِ ، فإنَّ النملةَ تهربُ مِنْ حرارةِ الحلقةِ وهيَ محيطةٌ بها لا تقدرُ على الخروجِ منها ، فلا تزالُ تهربُ حتَّىٰ تستقرَّ على المركزِ الذي هوَ الوسطُ ، فلوْ ماتَتْ . . ماتَتْ على الوسطِ ؛ لأنَّ الوسطَ هوَ أبعدُ المواضعِ عنِ الحرارةِ التي في الحلقةِ المحيطةِ ؛ فكذٰلكَ الشهواتُ محيطةٌ بالإنسانِ إحاطةَ تلكَ الحلقةِ بالنملةِ ، والملائكةُ خارجونَ عنْ تلكَ الحلقةِ ، ولا مطمعَ للإنسانِ في الخروجِ ، وهوَ يريدُ أنْ يتشبَّهَ بالملائكةِ في الخلاصِ ، فأشبهُ أحوالِهِ بهمُ البعدُ ، وأبعدُ المواضعِ عنِ الأطرافِ الوسطُ ، فصارَ الوسطُ مطلوباً في جميعِ هٰذهِ الأحوالِ[2] المتقابلةِ ، وعنهُ عُبِّرَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »[3]

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) ، والنسائي (٢١٠/٤) .

(٢) في غير (ج) : (الأخلاق) بدل (الأحوال) .

(٣) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٧٠/٦) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

ومهما لَمْ يحسَّ الإنسانُ بجوعٍ ولا شبعٍ . . تيسَّرَتْ لهُ العبادةُ والفكْرُ ، وخفَّ في نفسِهِ وقويَ على العملِ معَ خفَّتِهِ ، ولـٰكنَّ هـٰذا بعدَ اعتدالِ الطبعِ .

أمَّا في بدايةِ الأمرِ ، إذا كانَتِ النفسُ جموحاً ، متشوِّقةً إلى الشهواتِ ، مائلةً إلى الإفراطِ . . فالاعتدالُ لا ينفعُها ، بلْ لا بدَّ من المبالغةِ في إيلامِها بالجوعِ ، كما يُبالغُ في إيلامِ الدابَّةِ التي ليسَتْ مروضةً بالجوعِ والضربِ وغيرِهِ إلىٰ أنْ تعتدلَ ، فإذا ارتاضَتْ واستوتْ ، ورجعَتْ إلى الاعتدالِ . . تركَ تعذيبَها وإيلامَها .

ولأجلِ هـٰذا السرِّ يأمرُ الشيخُ مريدَهُ بما لا يتعاطاهُ هوَ في نفسِهِ ، فيأمرُهُ بالجوعِ وهوَ لا يجوعُ ، ويمنعُهُ الفواكهَ والشهواتِ وقدْ لا يمتنعُ هوَ منها ؛ لأنَّهُ قدْ فرغَ مِنْ تأديبِ نفسِهِ ، فاستغنىٰ عنِ التعذيبِ .

ولـمَّا كانَ أغلبُ أحوالِ النفسِ الشرهَ والشهوةَ والجماحَ والامتناعَ عنِ العبادةِ . . كانَ الأصلحُ لها الجوعَ الذي تحسُّ بألمِهِ في أكثرِ الأحوالِ ؛ لتنكسرَ نفسُهُ ، والمقصودُ : أنْ تنكسرَ حتَّىٰ تعتدلَ ، فتُردَّ بعدَ ذٰلكَ في الغذاءِ أيضاً إلى الاعتدالِ .

وإنَّما يمتنعُ مِنْ ملازمةِ الجوعِ مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ إمَّا صدِّيقٌ ، وإمَّا مغرورٌ أحمقُ .

أمَّا الصدِّيقُ : فلاستقامةِ نفسِهِ على الصراطِ المستقيمِ ، واستغنائِهِ عنْ أنْ يُساقَ بسياطِ الجوعِ إلى الحقِّ .

وأمَّا المغرورُ : فلظنِّهِ بنفسِهِ أنَّهُ الصدِّيقُ المستغني عنْ تأديبِ نفسِهِ ، الظانُّ بها خيراً .

وهـٰذا غرورٌ عظيمٌ ، وهوَ الأغلبُ ؛ فإنَّ النفسَ قلمَّا تتأدَّبُ تأدُّباً كاملاً ، وكثيراً ما تغترُّ فتنظرُ إلى الصدِّيقِ ومسامحتِهِ نفسَهُ في ذٰلكَ ، فيسامحُ نفسَهُ ، كالمريضِ ينظرُ إلىٰ مَنْ قدْ صحَّ مِنْ مرضِهِ ، فيتناولُ ما يتناولُهُ ، ويظنُّ بنفسِهِ الصحَّةَ فيهلكُ .

والذي يدلُّ علىٰ أنَّ تقديرَ الطعامِ بمقدارٍ يسيرٍ في وقتٍ مخصوصٍ ونوعٍ مخصوصٍ ليسَ مقصوداً في نفسِهِ ، وإنَّما هوَ مجاهدةُ نفسٍ متنائيةٍ عنِ الحقِّ ، غيرِ بالغةٍ رتبةَ الكمالِ . . أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يكنْ لهُ تقديرٌ وتوقيتٌ لطعامِهِ ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصومُ حتَّىٰ نقولَ : لا يفطرُ ، ويفطرُ حتَّىٰ نقولَ : لا يصومُ)(١)

وكانَ يدخلُ علىٰ أهلِهِ فيقولُ : « هلْ عندَكُمْ مِنْ شيءٍ ؟ فإنْ قالوا : نعمْ . . أكلَ ، وإنْ قالوا : لا . . قالَ : « إنِّي إذاً صائمٌ »(٢)

وكانَ يُقدَّمُ إليهِ الشيءُ فيقولُ : « أما إنِّي قدْ كنتُ أردتُ الصومَ » ، ثمَّ يأكلُ(٣) ، وخرجَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً وقالَ : « إنِّي صائمٌ » ، فقالَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قدْ أُهديَ إلينا حَيْسٌ(٤) ، فقالَ : « كنتُ أردتُ الصومَ ، ولـٰكنْ قرِّبيهِ »(٥) .

ولذٰلكَ حُكِيَ أنَّ سهلاً قيلَ لهُ : كيفَ كنتَ في بدايتِكَ ؟ فأخبرَ بضروبٍ مِنَ الرياضاتِ ؛ منها أنَّهُ كانَ يقتاتُ ورقَ

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٩) ، ومسلم (١١٥٦) .

(٢) رواه مسلم (١١٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) هو ضمن الخبر قبله الذي رواه مسلم (١١٥٤) ، ولفظه عنده : « قد كنت أصبحت صائماً » ، كما سيبينه في الخبر بعده .

(٤) **الحيس** : هو تمر ينزع نواه ويدق مع أقط ، ويعجنان بالسمن ، ثم يدلك باليد حتىٰ يبقىٰ كالثريد .

(٥) هو ضمن الخبر قبله كذٰلك ، ولفظ المصنف في تجزيئه الخبر تبع لصاحب « القوت » (٢/١٧٦) .

النَّبْقِ مدَّةً ، ومنها أنَّهُ أكلَ دقاقَ التبْنِ [١] مدَّةَ ثلاثِ سنينَ ، ثمَّ ذكرَ أنَّهُ اقتاتَ بثلاثةِ دراهمَ في ثلاثِ سنينَ ، فقيلَ لهُ : فكيفَ أنتَ في وقتِكَ هاذا ؟ فقالَ : آكلُ بلا حدٍّ ولا توقيتٍ [٢]

وليسَ المرادُ بقولِهِ : (بلا حدٍّ ولا توقيتٍ) أنِّي آكلُ كثيراً ، بلْ : لا أقدِّرُ بمقدارٍ واحدٍ ما آكلُهُ .

وقدْ كانَ معروفُ الكرخيُّ يُهدىٰ إليهِ طيباتُ الطعامِ ، فيأكلُ ، فقيلَ لهُ : إنَّ أخاكَ بشراً لا يأكلُ مثلَ هاذا ، فقالَ : إنَّ أخي بشراً قبضَهُ الورعُ ، وأنا بسطَتْني المعرفةُ ، ثمَّ قالَ : إنَّما أنا ضيفٌ في دارِ مولايَ ، فإذا أطعمَني . . أكلتُ ، وإذا جوَّعَني . . صبرتُ ، ما لي وللاعتراضِ والتمييزِ ؟! [٣]

ودفعَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ إلىٰ بعضِ إخوانِهِ دراهمَ وقالَ : خذْ لنا بهاذهِ الدراهمِ زُبْداً وعسلاً وخبزاً حوارياً ، فقالَ : يا أبا إسحاقَ ؛ بهاذا كلِّهِ ؟! قالَ : ويحَكَ ، إذا وجدْنا . . أكلْنا أكلَ الرجالِ ، وإذا عدمْنا . . صبرْنا صبرَ الرجالِ [٤]

وأصلحَ ذاتَ يومٍ طعاماً فأكثرَ ، ودعا نفراً يسيراً ، فيهمُ الأوزاعيُّ والثوريُّ ، فقالَ لهُ الثوريُّ : يا أبا إسحاقَ ؛ أما تخافُ أنْ يكونَ هاذا إسرافاً ؟ فقالَ : ليسَ في الطعامِ إسرافٌ ، إنَّما الإسرافُ في اللباسِ والأثاثِ [٥]

فالذي أخذَ العلمَ مِنَ السماعِ والنقْلِ تقليداً يرىٰ هاذا مِنْ إبراهيمَ بنِ أدهمَ ، ويسمعُ عنْ مالكِ بنِ دينارٍ أنَّهُ قالَ : (ما دخلَ الملحُ بيتي منذُ عشرينَ سنةً) ، وعنْ سريٍّ السقطيِّ أنَّهُ منذُ أربعينَ سنةً يشتهي أنْ يغمسَ جزرةً في دِبْسٍ فما فعلَ [٦] . . فيراهُ متناقضاً ، فيتحيَّرُ ، أوْ يقطعُ بأنَّ أحدَهُما مخطئٌ .

والبصيرُ بأسرارِ العلمِ يعلمُ أنَّ كلَّ ذالكَ حقٌّ ، ولاكنْ بالإضافةِ إلى اختلافِ الأحوالِ .

ثمَّ هاذهِ الأحوالُ المختلفةُ يسمعُها فطِنٌ محتاطٌ ، أوْ غبيٌّ مغرورٌ :

فيقولُ المحتاطُ : (ما أنا مِنْ جملةِ العارفينَ حتَّىٰ أسامحَ نفسي ، فليسَ نفسي أطوعَ مِنْ نفْسِ سريٍّ السقطيِّ ومالكِ بنِ دينارٍ ، وهاؤلاءِ مِنَ الممتنعينَ عنِ الشهواتِ) ، فيقتدي بهِمْ .

والمغرورُ يقولُ : (وما نفسي بأعصىٰ عليَّ مِنْ نفسِ معروفٍ الكرخيِّ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ ، فأقتدي بهما ، وأرفعُ التقديرَ في مأكولي ، فأنا أيضاً ضيفٌ في دارِ مولايَ ، فما لي وللاعتراضِ) ، ثمَّ إنَّهُ لوْ قصَّرَ أحدٌ في حقِّهِ وتوقيرِهِ ، أو في مالِهِ وجاهِهِ بطرفةِ عينٍ واحدةٍ . . قامَتِ القيامةُ عليهِ ، واشتغلَ بالاعتراضِ !!

وهاذا مجالٌ رحْبٌ للشيطانِ معَ الحمقىٰ ، بلْ رفعُ التقديرِ في الطعامِ والصيامِ وأكلِ الشهواتِ لا يسلمُ إلا لمَنْ ينظرُ مِنْ مشكاةِ الولايةِ أوِ النبوَّةِ ، فيكونُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ علامةٌ في استرسالِهِ وانقباضِهِ ، ولا يكونُ ذالكَ إلا بعدَ خروجِ النفسِ عنْ طاعةِ الهوىٰ والعادةِ بالكلِّيَّةِ ، حتَّىٰ يكونَ أكلُهُ إذا أكلَ علىٰ نيَّةٍ كما يكونُ إمساكُهُ علىٰ نيَّةٍ ، فيكونُ عاملاً للهِ في أكلِهِ وإفطارِهِ .

---

(١) في (ب) : (دقاق شجرة التين) ، وفي (ك ، ق) : (دقاق التين) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٧٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/١٧٧) .
(٤) قوت القلوب (٢/١٧٧) .
(٥) قوت القلوب (٢/١٧٧) ، وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧١٣٧) عن الحسن قوله : (ليس في الطعام إسراف) .
(٦) تقدم قريباً .

فينبغي أنْ يتعلَّمَ الحزمَ مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ فإنَّهُ كانَ يرىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحبُّ العسلَ ويأكلُهُ ، ثمَّ لمْ يقسْ نفسَهُ عليهِ ، بلْ لمَّا عرضَتْ عليهِ شربةٌ باردةٌ ممزوجةٌ بعسلٍ . . جعلَ يديرُ الإناءَ في يدِهِ ويقولُ : (أشربُها وتذهبُ حلاوتُها وتبقىٰ تبعتُها ؟! اعزلوا عنِّي حسابَها) ، وتركَها[١]

وهٰذهِ الأسرارُ لا يجوزُ لشيخٍ أنْ يكاشفَ بها مريدَهُ ، بلْ يقتصرُ علىٰ مدْحِ الجوعِ فقطْ ، ولا يدعوهُ إلى الاعتدالِ ، فإنَّهُ يقصرُ ـ لا محالةَ ـ عمَّا يدعوهُ إليهِ ، فينبغي أنْ يدعوَهُ إلىٰ غايةِ الجوعِ ، حتَّىٰ يتيسَّرَ لهُ الاعتدالُ ، ولا يذكرَ لهُ أنَّ العارفَ الكاملَ يستغني عنِ الرياضةِ ؛ فإنَّ الشيطانَ يجدُ متعلَّقاً مِنْ قلبِهِ ، فيلقي إليهِ كلَّ ساعةٍ : إنَّكَ عارفٌ كاملٌ ، وما الذي فاتَكَ مِنَ المعرفةِ والكمالِ ؟

بلْ كانَ مِنْ عادةِ إبراهيمَ الخوَّاصِ أنْ يخوضَ معَ المريدِ في كلِّ رياضةٍ كانَ يأمرُهُ بها ؛ كي لا يخطرَ ببالِهِ أنَّ الشيخَ لِمَ يأمرُهُ بما لمْ يفعلْهُ ، فينفرَهُ ذٰلكَ في رياضتِهِ .

والقويُّ إذا اشتغلَ بالرياضةِ وإصلاحِ الغيرِ . . لزمَهُ النزولُ إلىٰ حدِّ الضعفاءِ تشبُّهاً بهِمْ ، وتلطُّفاً في سياقتِهِمْ إلى السعادةِ ، وهٰذا ابتلاءٌ عظيمٌ للأنبياءِ والأولياءِ .

وإذا كانَ حدُّ الاعتدالِ خفيّاً في حقِّ كلِّ شخصٍ . . فالحزمُ والاحتياطُ ينبغي ألا يتركَ في كلِّ حالٍ .

ولذٰلكَ أدَّبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ولدَهُ عبدَ اللهِ ؛ إذْ دخلَ عليهِ فوجدَهُ يأكُل لحماً مأدوماً بسمنٍ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ وقالَ : (لا أمَّ لكَ ، كُلْ يوماً خبزاً ولحماً ، ويوماً خبزاً ولبناً ، ويوماً خبزاً وسمناً ، ويوماً خبزاً وزيتاً ، ويوماً خبزاً وملحاً ، ويوماً خبزاً قَفاراً) .

وهٰذا هوَ الاعتدالُ ، فأمَّا المواظبةُ على اللحمِ والشهواتِ . . فإفراطٌ وإسرافٌ ، ومهاجرةُ اللحمِ بالكلِّيَّةِ إقتارٌ ، وهٰذا قَوامٌ بينَ ذٰلكَ .

* * *

(١) تقدم قريباً .

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات أو قلل الطعام

اعلمْ : أنَّهُ يدخلُ علىٰ تاركِ الشهواتِ آفتانِ عظيمتانِ ، هما أعظمُ مِنْ أكلِ الشهواتِ :

إحداهُما : ألا تقدرَ النفسُ علىٰ تركِ بعضِ الشهواتِ فيشتهيَها ، ولـٰكن لا يريدُ أنْ يُعرفَ بأنَّهُ يشتهيها ، فيخفي الشهوةَ ، ويأكلُ في الخلوةِ ما لا يأكلُهُ معَ الجماعةِ ، وهـٰذا هوَ الشرْكُ الخفيُّ .

سُئِلَ بعضُ العلماءِ عنْ بعضِ الزهادِ ، فسكتَ عنهُ ، فقيلَ لهُ : هلْ تعلمُ بِهِ بأساً ، قالَ : يأكلُ في الخلوةِ ما لا يأكلُ في الجماعةِ[1]

وهـٰذِهِ آفةٌ عظيمةٌ ، بلْ حقُّ العبدِ إذا ابتليَ بالشهواتِ وحبِّها أنْ يظهرَها ؛ فإنَّ هـٰذا صدقُ الحالِ ، وهوَ يدلُّ علىٰ فواتِ المجاهداتِ بالأعمالِ ؛ فإنَّ إخفاءَ النقصِ وإظهارَ ضدِّهِ من الكمالِ هوَ نقصانانِ متضاعفانِ ، والكذبَ معَ الإخفاءِ كذبانِ ، فيكونُ مستحقّاً لمقتينِ ، ولا يُرضىٰ منهُ إلا بتوبتينِ صادقتينِ ، ولـٰذلكَ شدَّدَ اللهُ أمرَ المنافقينَ[2] ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ لأنَّ الكافرَ كفرَ وأظهرَ ، وهـٰذا كفرَ وسترَ ، فكانَ سترُهُ لكفرِهِ كفراً آخرَ ؛ لأنَّهُ استخفَّ بنظرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إلىٰ قلبِهِ ، وعظَّمَ نظرَ المخلوقينَ ، فمحا الكفرَ عنْ ظاهرِهِ[3]

والعارفونَ يُبتلَوْنَ بالشهواتِ بلْ بالمعاصي ، ولا يُبتلوْنَ بالرياءِ والغشِّ والإخفاءِ ، بلْ كمالُ العارفِ أنْ يتركَ الشهواتِ للهِ تعالىٰ ، ويظهرَ مِنْ نفسِهِ الشهوةَ ؛ إسقاطاً لمنزلتِهِ مِنْ قلوبِ الخلقِ .

وكانَ بعضُهُمْ يشتري الشهواتِ ويعلِّقُها في البيتِ وهوَ فيها مِنَ الزاهدينَ ، وإنَّما يقصدُ بهِ تلبيسَ حالِهِ ؛ ليصرفَ عنْ نفسِهِ قلوبَ الغافلينَ ، حتَّىٰ لا يتشوَّشَ حالُهُ[4]

فنهايةُ الزهدِ الزهدُ في الزهدِ بإظهارِ ضدِّهِ ، وهـٰذا عملُ الصدِّيقينَ ، فإنَّهُ جمْعٌ بينَ صدقينِ ، كما أنَّ الأوَّلَ جمعٌ بينَ كذبينِ ، وهـٰذا قدْ حملَ على النفسِ ثقلينِ ، وجرَّعَها كأسَ الصبرِ مرَّتينِ ؛ مرَّةً بشربِهِ ، ومرَّةً برميِهِ ، فلا جرمَ أولـٰئكَ يُؤتونَ أجرَهُمْ مرَّتينِ بما صبروا .

وهـٰذا يضاهي طريقَ مَنْ يُعطىٰ جهراً فيأخذُ ، ويردُّ سرّاً ؛ ليكسرَ نفسَهُ بالذلِّ جهراً ، وبالفقرِ سرّاً ؛ فمَنْ فاتَهُ هـٰذا . . فلا ينبغي أنْ يفوتَهُ إظهارُ شهوتِهِ ونقصانِهِ والصدقُ فيهِ ، ولا ينبغي أنْ يغرَّهُ قولُ الشيطانِ : (إنَّكَ إذا أظهرتَ . . اقتدىٰ بكَ غيرُكَ ، فاسترْهُ إصلاحاً لغيرِكَ) ؛ فإنَّهُ لوْ قصدَ إصلاحَ غيرِهِ . . لكانَ إصلاحُ نفسِهِ أهمَّ عليهِ مِنْ غيرِهِ ، فهـٰذا إنَّما

---

(١) قوت القلوب (١٧٥/٢) .

(٢) فغضب عليهم ، ومقتهم مقتين ، ثم لم يرض منهم إلا بتوبتين ، واشترط عليهم شرطين . « إتحاف » (٤٢٦/٧) ، وقد جاء البيان الإلـٰهي بتعذيب المنافقين مرتين إذ قال سبحانه : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

(٣) فزاد الله في هوانه ، وشدد في توبته بما وكده في شرطه ، فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ ، وهـٰذا مما لا يمتحن به عالم بالله تعالىٰ ولا غافل عن الله تعالىٰ ولله الحمد . « إتحاف » (٤٢٦/٧) .

(٤) قوت القلوب (١٧٥/٢) .

يقصدُ الرياءَ المجرَّدَ ، ويروِّجُهُ عليهِ الشيطانُ في معرضِ إصلاحِ غيرِهِ ، فلذٰلكَ يثقلُ عليهِ ظهورُ ذٰلكَ منهُ وإنْ علمَ أنَّ مَنِ اطلعَ عليهِ ليسَ يقتدي بهِ في الفعلِ ، أو لا ينزجرُ باعتقادِهِ أنَّهُ تاركٌ للشهواتِ .

❁ ❁ ❁

الآفةُ الثانيةُ : أنْ يقدرَ علىٰ تركِ الشهواتِ ، لٰكنَّهُ يفرحُ أنْ يُعرفَ بهِ ، فيشتهرَ بالتعفُّفِ عنِ الشهواتِ ، فقدْ خالفَ شهوةً ضعيفةً ، وهيَ شهوةُ الأكلِ ، وأطاعَ شهوةً هيَ شرٌّ منها ، وهيَ شهوةُ الجاهِ ، وتلكَ هيَ الشهوةُ الخفيَّةُ ، فمهما أحسَّ بذٰلكَ مِنْ نفسِهِ . . فكسْرُ هٰذهِ الشهوةِ آكدُ مِنْ كسْرِ شهوةِ الطعامِ ، فليأكلْ ؛ فهوَ أولىٰ لهُ .

قالَ أبو سليمانَ : (إذا قُدمَتْ إليكَ شهوةٌ وقدْ كنتَ تاركاً لها . . فأصبْ منها شيئاً يسيراً ، ولا تعطِ نفسَكَ مُناها ، فتكونَ قدْ أسقطتَ عنْ نفسِكَ الشهوةَ ، وتكونَ قدْ نغَّصتَ عليها إذْ لمْ تعطِها شهوتَها)[1]

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ : (إذا قُدِّمَتْ إليَّ شهوةٌ . . نظرتُ إلىٰ نفسي ، فإنْ هيَ أظهرَتْ شهوتَها . . أطعمتُها منها ، وكانَ ذٰلكَ أفضلَ مِنْ منعِها ، وإنْ أخفتْ شهوتَها ، وأظهرَتِ العزوفَ عنها . . عاقبتُها بالتركِ ، ولمْ أنلْها منها شيئاً) .

وهٰذا طريقٌ في عقوبةِ النفسِ علىٰ هٰذهِ الشهوةِ الخفيَّةِ .

وبالجملةِ : مَنْ تركَ شهوةَ الطعامِ ووقعَ في شهوةِ الرياءِ . . كانَ كمَنْ هربَ مِنْ عقربٍ وفزعَ إلىٰ حيَّةٍ ؛ لأنَّ شهوةَ الرياءِ أضرُّ كثيراً مِنْ شهوةِ الطعامِ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ .

❋ ❋ ❋

(١) قوت القلوب (٢/١٧٦) .

القول في شهوة الفرج

اعلمْ : أنَّ شهوةَ الوقاعِ سُلِّطَتْ على الإنسانِ لفائدتينِ :

إحداهُما : أنْ يدركَ لذَّتَهُ ، فيقيسَ بِهِ لذَّاتِ الآخرةِ ، فإنَّ لذَّةَ الوقاعِ لوْ دامَتْ . . لكانَتْ أقوىٰ لذَّاتِ الأجسادِ ، كما أنَّ النارَ وآلامَها أعظمُ آلامِ الجسدِ ، والترغيبُ والترهيبُ يسوقُ الناسَ إلىٰ سعادتِهِمْ ، وليسَ ذٰلكَ إلَّا بألمٍ محسوسٍ ولذَّةٍ مدركَةٍ ؛ فإنَّ ما لا يدركُ بالذوقِ لا يعظمُ إليهِ الشوقُ .

الفائدةُ الثانيةُ : بقاءُ النسلِ ، ودوامُ الوجودِ .

فهٰذهِ فائدتُها ، ولٰكنْ فيها مِنَ الآفاتِ ما يهلكُ الدينَ والدنيا إنْ لمْ تُضبطْ ولمْ تُقهرْ ولمْ تُردَّ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ .

وقدْ قيلَ في تأويلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ ، معناهُ : الغلمةُ[(١)]

وعنِ ابنِ عباسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ هوَ قيامُ الذَّكَرِ ، وقدْ أسندَهُ بعضُ الرواةِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إلَّا أنَّهُ قالَ في تفسيرِهِ : الذَّكَرُ إذا دخلَ[(٢)]

وقدْ قيلَ : (إذا قامَ ذكرُ الرجلِ . . ذهبَ ثلثا عقلِهِ)[(٣)]

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دعائِهِ : « أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ سمعي وبصري وقلبي ومَنِيّي »[(٤)]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « النساءُ حبائلُ الشيطانِ »[(٥)]

ولولا هٰذهِ الشهوةُ . . لما كانَ للنساءِ سلطنةٌ على الرجالِ .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ كانَ جالساً في بعضِ مجالسِهِ ، إذْ أقبلَ إليهِ إبليسُ وعليهِ برنسٌ يتلوَّنُ فيهِ ألواناً ، فلمَّا دنا منهُ . . خلعَ البرنسَ فوضعَهُ ، ثمَّ أتاهُ ، فقالَ : السلامُ عليكَ يا موسىٰ ، فقالَ لهُ موسىٰ : مَنْ أنتَ ، فقالَ : أنا إبليسُ ، فقال : لا حيَّاكَ اللهُ ، ما جاءَ بكَ ؟ قالَ : جئتُ لأسلِّمَ عليكَ لمنزلتِكَ مِنَ اللهِ ومكانتِكَ منهُ ، قالَ : فما الذي رأيتُ عليكَ ؟ قالَ : برنسٌ أختطفُ بهِ قلوبَ بني آدمَ ، قالَ : فما الذي إذا صنعَهُ الإنسانُ . . استحوذتَ عليهِ ؟ قال : إذا أعجبَتْهُ نفسُهُ ، واستكثرَ عملَهُ ، ونسيَ ذنوبَهُ ، وأحذِّرُكَ ثلاثاً : لا تخلُ بامرأةٍ لا تحلُّ لكَ ؛ فإنَّهُ ما خلا رجلٌ بامرأةٍ لا تحلُّ لهُ إلا كنتُ صاحبَهُ دونَ أصحابي حتَّىٰ أفتنَهُ بها وأفتنَها بهِ ، ولا تعاهدِ اللهَ عهداً إلا وفَّيتَ بهِ ، ولا تخرجَنَّ صدقةً إلا أمضيتَها ، فإنَّهُ ما أخرجَ رجلٌ صدقةً فلمْ يمضِها إلا كنتُ صاحبَهُ دونَ أصحابي حتَّىٰ أحولَ بينَهُ وبينَ الوفاءِ بها ، ثمَّ ولَّىٰ وهوَ يقولُ : يا ويلتاهُ ، علمَ موسىٰ ما يحذِّرُ بهِ بني آدمَ[(٦)]

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢٠٣) عن مكحول ، وابن عدي في « الكامل » (٣١١/٣) عن مجاهد .
(٢) تقدم الكلام عن هٰذا الخبر وشاهده .
(٣) رواه ابن المقرئ في « معجمه » (٨٠٥) عن تمام بن نجيح .
(٤) رواه أبو داوود (١٥٥١) ، والترمذي (٣٤٩٢) .
(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٥٥) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٢٤٢/٥) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١٨٥/٣) من حديث خالد بن زيد الجهني رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خطبة طويلة .
(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٣١٧١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٥/٦١) عن عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم .

وعنْ سعيدِ بنِ المسيَّبِ قالَ : (ما بعثَ اللهُ نبيّاً فيما خلا إلا لمْ ييئسْ إبليسُ أنْ يهلكَهُ بالنساءِ ، ولا شيءَ أخوفُ عندي منهنَّ ، وما بالمدينةِ بيتٌ أدخلُهُ إلا بيتي وبيتُ ابنتي ، أغتسلُ فيهِ يومَ الجمعةِ ، ثمَّ أروحُ)[1]

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّ الشيطانَ يقولُ للمرأةِ : أنتِ نصفُ جندي ، وأنتِ سهمي الذي أرمي بهِ فلا أخطئُ ، وأنتِ موضعُ سرِّي ، وأنتِ رسولي في حاجتي)[2]

فنصفُ جندِهِ الشهوةُ ، ونصفُ جندِهِ الغضبُ ، وأعظمُ الشهواتِ شهوةُ النساءِ .

❀ ❀ ❀

وهٰذهِ الشهوةُ أيضاً لها إفراطٌ وتفريطٌ واعتدالٌ :

فالإفراطُ : ما يقهرُ العقلَ حتَّىٰ يصرفَ هِمَّةَ الرجالِ إلى الاستمتاعِ بالنساءِ والجواري ، فيُحرمَ عنْ سلوكِ طريقِ الآخرةِ ، أوْ يقهرُ الدينَ حتَّى يجرَّ إلى اقتحامِ الفواحشِ ، وقدْ ينتهي إفراطُها بطائفةٍ إلىٰ أمرينِ شنيعينِ :

أحدُهُما : أنْ يتناولوا ما يقوّي شهواتِهِمْ على الاستكثارِ مِنَ الوقاعِ ؛ كما قدْ يتناولُ بعضُ الناسِ أدويةً تقوّي المعدةَ لتعظمَ شهوةُ الطعامِ .

وما مثالُ ذٰلكَ إلا كمَنِ ابتليَ بسباعٍ ضاريةٍ وبهائمَ عاديةٍ فتنامُ عنهُ في بعضِ الأوقاتِ ، فيحتالُ لإثارتِها وتهييجِها ، ثمَّ يشتغلُ بإصلاحِها وعلاجِها ؛ فإنَّ شهوةَ الطعامِ والوقاعِ على التحقيقِ آلامٌ يريدُ الإنسانُ الخلاصَ منها ، فيدركُ لذَّةً بسببِ الخلاصِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فقدْ رُوِيَ في غريبِ الحديثِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « شكوتُ إلىٰ جبريلَ ضعفَ الوقاعِ ، فأمرَني بأكْلِ الهريسةِ »[3]

فاعلمْ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ تحتَهُ تسعُ نسوةٍ ، ووجبَ عليهِ تحصينُهُنَّ بالإمتاعِ ، وحرمَ علىٰ غيرِهِ نكاحُهُنَّ وإنْ طلَّقَهُنَّ ، فكانَ طلبُهُ القوَّةَ لهٰذا ، لا للتنعُّمِ .

والأمرُ الثاني : أنَّهُ قدْ تنتهي هٰذهِ الشهوةُ ببعضِ الضلَّالِ إلى العشقِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ بما وُضِعَ لهُ الوقاعُ ، وهوَ مجاوزةٌ في البهيميَّةِ لحدِّ البهائمِ ؛ لأنَّ العاشقَ ليسَ يقنعُ بإراقةِ شهوةِ الوقاعِ ـ وهيَ أقبحُ الشهواتِ ، وأجدرُها بأنْ يُستحيا منهُ ـ حتَّى اعتقدَ أنَّ الشهوةَ لا تنقضي إلا مِنْ محلٍّ واحدٍ ، والبهيمةُ تقضي الشهوةَ أينَ اتفقَ ، فتكتفي بهِ ، وهٰذا لا يكتفي إلا بشخصٍ واحدٍ معيَّنٍ ، حتَّىٰ يزدادَ بهِ ذلّاً إلىٰ ذلٍّ ، وعبوديةً إلىٰ عبوديةٍ ، وحتَّىٰ يستسخرَ العقلَ لخدمةِ الشهوةِ ، وقدْ خُلِقَ ليكونَ مطاعاً ، لا ليكونَ خادماً للشهوةِ ومحتالاً لأجلِها .

---

(١) روى الشطر الأول من القول بدرُ الدين الشبلي في « آكام المرجان » (٤٢٦) .

(٢) رواه بدر الدين الشبلي في « آكام المرجان » (٤٢٣) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٢) ، وابن عدي في « الكامل » (١٤٤/٦) ، وتمام في « فوائده » (٩٨٨) ، وقد قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١٧٥/١) : (ألف الحافظ ابن ناصر الدين فيه جزءاً سماه : « رفع الدسيسة عن أخبار الهريسة ») ، وانظر « الإتحاف » (٣٠٩/٥) ، ولم يسلم المصنف ثبوت هٰذا الخبر فضلاً عن أن يكون حجة ؛ إذ قال هناك : (هٰذا إن صح . . لا محمل له إلا الاستعداد للاستراحة . . .) ، ولكن المصنف علىٰ عادته يجيب عن مثل هٰذه التحريجات تنزُّلاً .

وما العشقُ إلا منبعُ إفراطِ الشهوةِ ، وهوَ مرضُ قلبٍ فارغٍ لا همَّ لهُ ، وإنَّما يجبُ الاحترازُ مِنْ أوائلِهِ بتركِ معاودةِ النظرِ والفكْرِ ، وإلا فإذا استحكمَ . . عسرَ دفعُهُ .

وكذٰلكَ عشقُ الجاهِ والمالِ والعقارِ والأولادِ ، حتَّىٰ حبُّ اللعبِ بالطيورِ والنردِ والشطرنجِ ، فإنَّ هٰذهِ الأمورَ قدْ تستولي علىٰ طائفةٍ بحيثُ تنغِّصُ عليهِمُ الدينَ والدنيا ، ولا يصبرونَ عنها ألبتةَ [1]

ومثالُ مَنْ يكسرُ سَوْرَةَ العشقِ في أوَّلِ انبعاثِهِ مثالُ مَنْ يصرفُ عِنانَ الدابَّةِ عندَ توجُّهِها إلىٰ بابٍ لتدخلَهُ ، وما أهونَ منعَها بصرْفِ عِنانِها ، ومثالُ مَنْ يعالجُها بعدَ استحكامِها مثالُ مَنْ يتركُ الدابَّةَ حتَّىٰ تدخلَ وتجاوزَ البابَ ، ثمَّ يأخذُ بذنبِها ويجرُّها إلىٰ ورائِها ، وما أعظمَ التفاوتَ بينَ الأمرينِ في اليسرِ والعسرِ .

فليكنِ الاحتياطُ في بداياتِ الأمورِ ، فأمَّا في أواخرِها . . فلا تقبلُ العلاجَ إلا بجهدٍ جهيدٍ ، يكادُ يؤدِّي إلىٰ نزعِ الروحِ .

فإذاً ؛ إفراطُ الشهوةِ أنْ يغلبَ العقلَ إلىٰ هٰذا الحدِّ ، وهوَ مذمومٌ جدّاً .

وتفريطُها : بالعنَّةِ ، أوْ بالضعفِ عنْ إمتاعِ المنكوحةِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ .

وإنَّما المحمودُ أنْ تكونَ معتدلةً ، ومطيعةً للعقلِ والشرعِ في انقباضِها وانبساطِها ، ومهما أفرطَتْ . . فكسْرُها بالجوعِ وبالنكاحِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « معاشرَ الشبابِ ؛ عليكُمْ بالباءةِ ، فمَنْ لمْ يستطعْ . . فعليهِ بالصومِ ؛ فإنَّهُ لهُ وجاءٌ » [2]

* * *

(١) أما نقص الدين عليهم . . فمن جهات متعددة ، وأما نقصان الدنيا ؛ فإنه إن كان محترفاً . . يشتغل بها عن حرفته ، ويضيع عياله ، وإن كان ذا مال . . فإنه يضيعه فيما يتعلق بتلك الأشياء ، وهلم جرّاً إلىٰ أن ينفد ، وأما عدم صبرهم عنها . . فذٰلك مشاهد كادت أن تحول بينهم وبين أكلهم . « إتحاف » (٧/٤٣١) .

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٥) ، ومسلم (١٤٠٠) .

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

اعلمْ : أنَّ المريدَ في ابتداءِ أمرِهِ ينبغي ألا يشغلَ قلبَهُ ونفسَهُ بالتزويجِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ شغلٌ شاغلٌ يمنعُهُ عنِ السلوكِ ، ويستجرُّهُ إلى الأنْسِ بالزوجةِ ، ومَنْ أنسَ بغيرِ اللهِ تعالىٰ . . شُغِلَ عنِ اللهِ .

ولا يغرَّنَّهُ كثرةُ نكاحِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ كانَ لا يشغلُ قلبَهُ جميعُ ما في الدنيا عنِ اللهِ تعالىٰ ، فلا تُقاسُ الملائكةُ بالحدَّادينَ .

ولذٰلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ تزوَّجَ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[١]

وقالَ : (ما رأيتُ مريداً تزوَّجَ فثبتَ علىٰ ما كانَ عليهِ) .

وقيلَ لهُ مرَّةً : ما أحوجَكَ إلى امرأةٍ تأنسُ بها ، فقالَ : لا آنسَني اللهُ بها ؛ أيْ : إنَّ الأنسَ بها يمنعُ الأنسَ باللهِ تعالىٰ .

وقالَ أيضاً : (كلُّ ما شغلَكَ عنِ اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ فهوَ عليكَ مشؤومٌ)[٢]

وكيفَ يُقاسُ غيرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهِ وقدْ كانَ استغراقُهُ بحبِّ اللهِ تعالىٰ بحيثُ كانَ يخافُ احتراقَهُ فيهِ إلىٰ حدٍّ كانَ يخشىٰ منهُ في بعضِ الأحوالِ أنْ يسريَ ذٰلكَ إلىٰ قالبِهِ فيهدمَهُ ؛ فلذٰلكَ كانَ يضربُ بيدِهِ علىٰ فخذِ عائشةَ أحياناً ويقولُ : « كلِّميني يا عائشةُ »[٣] ؛ لتشغلَهُ بكلامِها عنْ عظيمِ ما هوَ فيهِ ، لقصورِ طاقةِ قالبِهِ عنهُ ، فقدْ كانَ طبعُهُ الأنسَ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وكانَ أنسُهُ بالخلْقِ عارضاً رفقاً ببدنِهِ .

ثمَّ إنَّهُ كانَ لا يطيقُ الصبرَ معَ الخلقِ إذا جالسَهُمْ ، فإذا ضاقَ صدرُهُ . . قالَ : « أرحْنا بها يا بلالُ »[٤] ؛ حتَّىٰ يعودَ إلىٰ ما هوَ قرَّةُ عينِهِ[٥]

فالضعيفُ إذا لاحظَ أحوالَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في مثلِ هٰذهِ الأمورِ . . فهوَ مغرورٌ ؛ لأنَّ الأفهامَ تقصرُ عنِ الوقوفِ علىٰ أسرارِ أفعالِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فشرطُ المريدِ العُزْبَةُ في الابتداءِ ، إلىٰ أنْ يقوىٰ في المعرفةِ ، هٰذا إذا لمْ تغلبْهُ الشهوةُ .

فإنْ غلبتْهُ الشهوةُ . . فليكسرْها بالجوعِ الطويلِ ، والصومِ الدائمِ ، فإنْ لمْ تنقمعِ الشهوةُ بذٰلكَ ، وكانَ بحيثُ لا يقدرُ علىٰ حفظِ العينِ مثلاً وإنْ قدرَ علىٰ حفظِ الفرجِ . . فالنكاحُ لهُ أولىٰ ؛ لتسكنَ الشهوةُ ، وإلا فمهما لمْ يحفظْ عينَهُ . . لمْ يحفظْ فكرَهُ ، ويتفرَّقُ عليهِ همُّهُ ، وربما وقعَ في بليَّةٍ لا يطيقُها ، وزنا العينِ مِنْ كبارِ الصغائرِ ، وهوَ يؤدِّي على القرْبِ إلى الكبيرةِ الفاحشةِ ، وهيَ زنا الفرجِ ، ومَنْ لمْ يقدرْ علىٰ غضِّ بصرِهِ . . لمْ يقدرْ علىٰ حفظِ دينِهِ .

---

(١) قوت القلوب (١٣٥/١) ، وإنما قال ذٰلك لأن هٰذه الأمور مما توجب الركون إلى الدنيا لا محالة . « إتحاف » (٤٣٢/٧) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦٢/٣٣) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٤٣٣/٧) ، وعند البخاري (١١٦١) ، ومسلم (٧٤٣) من حديث عائشة رضي الله عنها : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلىٰ ؛ فإن كنت مستيقظة . . حدَّثني ، وإلا . . اضطجع حتىٰ يؤذن بالصلاة) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٩٨٥) .

(٥) فقد روى النسائي (٦١/٧) : « حبب إلي من الدنيا النساء والطيب ، وجعل قرة عيني في الصلاة » .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إِيَّاكُمْ والنظرةَ ؛ فإنَّها تزرعُ في القلبِ شهوةً ، وكفىٰ بها فتنةً)[1]

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : (إنَّما جاءَتِ الفتنةُ لداوودَ عليهِ السلامُ مِنْ قبلِ النظرةِ)[2]

ولذٰلكَ قالَ لابنِهِ سليمانَ عليهما السلامُ : (يا بنيَّ ؛ امشِ خلفَ الأسدِ والأسودِ[3] ، ولا تمشِ خلفَ المرأةِ)[4]

وقيلَ ليحيىٰ عليهِ السلامُ : ما بدْءُ الزنا ؟ قالَ : النظرُ والتمنِّي[5]

وقالَ الفضيلُ : يقولُ إبليسُ : هيَ قوسي القديمةُ ، وسهمي الذي لا أخطئُ بهِ ؛ يعني : النظرةَ[6]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ ، فمَنْ تركَها خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ .. أعطاهُ اللهُ تعالىٰ إيماناً يجدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ »[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ مِنَ النِّساءِ »[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا فتنةَ الدنيا وفتنةَ النساءِ ، فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانَتْ مِنْ قِبَلِ النساءِ »[9] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لكلِّ ابنِ آدمَ حظٌّ مِنَ الزنا ؛ فالعينانِ تزنيانِ وزناهُما النظرُ ، واليدانِ تزنيانِ وزناهُما البطشُ ، والرجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ ، والفمُ يزني وزناهُ القُبَلُ ، والقلبُ يهُمُّ أوْ يتمنَّىٰ ، ويصدِّقُ ذٰلكَ الفرجُ أوْ يكذِّبُهُ »[10]

وقالَتْ أُمُّ سلمةَ : استأذنَ ابنُ أمِّ مكتومٍ الأعمىٰ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا وميمونةُ جالستانِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « احتجبا » ، فقلنا : أوَليسَ بأعمىٰ لا يبصرُنا ؟ فقالَ : « وأنتما لا تبصرانِهِ ؟! »[11]

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يجوزُ للنساءِ مجالسةُ العميانِ كما جرَتْ بِهِ العادةُ في المآتمِ والولائمِ ، فيحرمُ على الأعمى الخلوةُ بالنساءِ ، ويحرمُ على المرأةِ مجالسةُ الأعمىٰ وتحديقُ النظرِ إليهِ لغيرِ حاجةٍ ، وإنَّما جُوِّزَ للنساءِ محادثةُ الرجالِ والنظرُ إليهِمْ لأجلِ عمومِ الحاجةِ .

وإنْ قدرَ علىٰ حفظِ عينِهِ عنِ النساءِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ حفظِها عنِ الصبيانِ .. فالنكاحُ أولىٰ بهِ ، فإنَّ الشرَّ في الصبيانِ أكثرُ ، فإنَّهُ لوْ مالَ قلبُهُ إلى امرأةٍ .. أمكنَهُ الوصولُ إلى استباحتِها بالنكاحِ ، والنظرُ إلىٰ وجهِ الصبيِّ بالشهوةِ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦٢/٤٧) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٣) .
(٣) أي : من الحيات .
(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٩) عن سليمان بن داوود علىٰ نبينا وعليهما الصلاة والسلام .
(٥) الخبر عن الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٧٧) .
(٦) كما هو مبين في الحديث الآتي .
(٧) رواه الطبراني في « الكبير » (١٧٣/١٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٣١٣/٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠١/٦) .
(٨) رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠) .
(٩) رواه مسلم (٢٧٤٢) .
(١٠) رواه البخاري (٦٢٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨٩/٧) واللفظ له .
(١١) رواه أبو داوود (٤١١٢) ، والترمذي (٢٧٧٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٩٨) .

حرامٌ ، بلْ كلُّ مَنْ يتأثَّرُ قلبُهُ بجمالِ صورةِ الأمردِ بحيثُ يدركُ التفرقةَ بينَهُ وبينَ الملتحي . . لمْ يحلَّ لهُ النظرُ إليهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : كلُّ ذي حسٍّ يدركُ التفرقةَ بينَ الجميلِ والقبيحِ لا محالةَ ، ولمْ تزلْ وجوهُ الصبيانِ مكشوفةً ؟

فأقولُ : لستُ أعني تفرقةَ العينِ فقطْ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ إدراكُهُ التفرقةَ كإدراكِهِ التفرقةَ بينَ شجرةٍ خضراءَ وأخرىٰ يابسةٍ ، وبينَ ماءٍ صافٍ وماءٍ كدرٍ ، وبينَ شجرةٍ عليها أزهارُها وأنوارُها وشجرةٍ تساقطَتْ أوراقُها ، فإنَّهُ يميلُ إلىٰ إحداهُما بعينِهِ وطبعِهِ ، ولٰكنْ ميلاً خالياً عنِ الشهوةِ ، ولأجلِ ذٰلكَ لا يشتهي ملامسةَ الأزهارِ والأنوارِ وتقبيلَها ، ولا تقبيلَ الماءِ الصافي ، وكذٰلكَ الشيبةُ الحسنةُ قدْ تميلُ العينُ إليها ، وتدركُ التفرقةَ بينَها وبينَ الوجهِ القبيحِ ، ولٰكنَّها تفرقةٌ لا شهوةَ فيها ، ويُعرَفُ ذٰلكَ بميلِ النفسِ إلى القرْبِ والملامسةِ ، فمهما وجدَ ذٰلكَ الميلَ في قلبِهِ ، وأدركَ تفرقةً بينَ الوجهِ الجميلِ ، وبينَ النباتِ الحسنِ ، والأثوابِ المنقَّشةِ ، والسقوفِ المذهبةِ . . فنظرُهُ نظرُ شهوةٍ ، فهوَ حرامٌ ، وهٰذا ممَّا يتهاونُ بهِ الناسُ ، ويجرُّهُمْ ذٰلكَ إلى المعاطبِ وهمْ لا يشعرونَ .

وقالَ بعضُ التابعينَ : (ما أنا بأخوفَ مِنَ السبعِ الضاري على الشابِّ الناسكِ مِنْ غلامٍ أمردَ يجلسُ إليهِ)[1]

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (لوْ أنَّ رجلاً عبثَ بغلامٍ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ رجْلِهِ يريدُ الشهوةَ . . لكانَ لواطاً)[2]

وعنْ بعضِ السلفِ قالَ : (سيكونُ في هٰذهِ الأمَّةِ ثلاثةُ أصنافٍ لوطيونَ : صنفٌ ينظرونَ ، وصنفٌ يصافحونَ ، وصنفٌ يعملونَ)[3]

فإذاً ؛ آفةُ النظرِ إلى الأحداثِ عظيمةٌ ، فمهما عجزَ المريدُ عنْ غضِّ بصرِهِ ، وضبطِ فكرِهِ . . فالصوابُ لهُ أنْ يكسرَ شهوتَهُ بالنكاحِ ، فربَّ نفْسٍ لا يسكنُ توقانُها بالجوعِ .

❁ ❁ ❁

وقالَ بعضُهُمْ : غلبَتْ عليَّ شهوتي في بدْءِ إرادتي بما لمْ أطقْ ، فأكثرتُ الضجيجَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فرأيتُ شخصاً في المنامِ ، فقالَ : ما لكَ ، فشكوتُ إليهِ ، فقالَ : تقدَّمْ إليَّ ، فتقدمتُ إليهِ ، فوضعَ يدَهُ علىٰ صدري ، فوجدتُ بردَها في فؤادي وجميعِ جسدي ، فأصبحتُ وقدْ زالَ ما بي ، فبقيتُ معافىً سنةً ، ثمَّ عاودَني ذٰلكَ ، فأكثرتُ الاستغاثةَ ، فجاءَني شخصٌ في المنامِ فقالَ لي : أتحبُّ أنْ يذهبَ ما تجدُ وأضربَ عنقَكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، فقالَ : مُدَّ رقبتَكَ ، فمددتُها ، فجرَّدَ سيفاً مِنْ نورٍ ، فضربَ بهِ عنقي ، فأصبحتُ وقدْ زالَ ما بي ، فبقيتُ معافىً سنةً ، ثمَّ عاودَني ذٰلكَ أوْ أشدُّ منهُ ، فرأيتُ كأنَّ شخصاً يخاطبُني فيما بينَ جنبي وصدري ويقولُ : ويحَكَ ، كمْ تسألُ اللهَ تعالىٰ رفْعَ ما لا يحبُّ رفعَهُ !! قالَ : فتزوجتُ ، فانقطعَ ذٰلكَ عنِّي ووُلِدَ لي[4]

ومهما احتاجَ المريدُ إلى النكاحِ . . فلا ينبغي أنْ يتركَ شرطَ الإرادةِ في ابتداءِ النكاحِ ودوامِهِ ؛ أمَّا في ابتدائِهِ . .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٠١٣) ، كذا عن بعض التابعين .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٣٧) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٤٤٠) .
(٣) رواه ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (٣٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠١٩) .
(٤) قوت القلوب (٢/١٧٠) .

فبالنيَّةِ الحسنةِ ، وفي دوامِهِ . . بحسنِ الخلقِ ، وسدادِ السيرةِ ، والقيامِ بالحقوقِ الواجبةِ ، كما فصَّلْنا جميعَ ذٰلكَ في كتابِ آدابِ النكاحِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِهِ .

وأمارةُ صدْقِ إرادتِهِ أنْ ينكحَ فقيرةً متديّنةً ، ولا يطلبَ الغنيَّةَ .

قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ تزوَّجَ غنيَّةً . . كانَ لهُ منها خمسُ خصالٍ : مغالاةُ الصداقِ ، وتسويفُ الزفافِ ، وفوتُ الخدمةِ ، وكثرةُ النفقةِ ، وإذا أرادَ طلاقَها . . لمْ يقدرْ ؛ خوفاً مِنْ ذهابِ مالِها ، والفقيرةُ بخلافِ ذٰلكِ)(١)

وقالَ بعضُهُمْ : (ينبغي أنْ تكونَ المرأةُ دونَ الرجلِ بأربعٍ ، وإلا . . استحقرَتْهُ : بالسنِّ ، والطولِ ، والمالِ ، والحسبِ ، وأنْ تكونَ فوقَهُ بأربعٍ : بالجمالِ ، والأدبِ ، والخُلُقِ ، والورعِ)(٢)

وعلامةُ صدْقِ الإرادةِ في دوامِ النكاحِ الخُلُقُ .

تزوَّجَ بعضُ المريدينَ بامرأةٍ ، فلمْ يزلْ يخدمُها حتَّى استحيتِ المرأةُ ، وشكَتْ ذٰلكَ إلىٰ أبيها ، وقالَتْ : قدْ تحيَّرتُ في هٰذا الرجلِ ، أنا في منزلِهِ منذُ سنينَ ما ذهبتُ إلى الخلاءِ قطُّ إلا وحملَ الماءَ قبلي إليهِ !!(٣)

وتزوَّجَ بعضُهُمُ امرأةً ذاتَ جمالٍ ، فلمَّا قربَ زفافُها . . أصابَها الجُدَريُّ ، فاشتدَّ حزْنُ أهلِها لذٰلكَ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يستقبحَها ، فأراهُمُ الرجلُ أنَّ بهِ رمداً ، ثمَّ أراهُمْ أنَّ بصرَهُ قدْ ذهبَ ، حتَّىٰ زُفَّتْ إليهِ المرأةُ ، فزالَ عنهُمُ الحزنُ ، فبقيَتْ عندَهُ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تُوفيَتْ ، ففتحَ عينيهِ حينَ ذٰلكَ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : تعمدتُهُ لأجلِ أهلِها حتَّىٰ لا يحزنوا ، فقيلَ لهُ : قدْ سبقتَ إخوانَكَ بهٰذا الخلقِ(٤)

وتزوَّجَ بعضُ الصوفيَّةِ امرأةً سيِّئةَ الخلقِ ، فكانَ يصبرُ عليها ، فقيلَ لهُ : لِمَ لا تطلقُها ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يتزوَّجَها مَنْ لا يصبرُ علىٰ خلقِها فيتأذَّىٰ بها(٥)

فإنْ نكحَ المريدُ . . فهٰكذا ينبغي أنْ يكونَ ، وإنْ قدرَ على التركِ . . فهوَ لهُ أولىٰ إذا لمْ يمكنْهُ الجمعُ بينَ فضْلِ النكاحِ وسلوكِ الطريقِ ، وعلمَ أنَّ ذٰلكَ يشغلُهُ عنْ حالِهِ .

كما رُوِيَ أنَّ محمدَ بنَ سليمانَ الهاشميَّ كانَ يملكُ مِنْ غلةِ الدنيا ثمانينَ ألفَ درهمٍ في كلِّ يومٍ ، فكتبَ إلىٰ أهلِ البصرةِ وعلمائِها في امرأةٍ يتزوَّجُها ، فأجمعوا كلُّهُمْ علىٰ رابعةَ العدويَّةِ رحمَها اللهُ تعالىٰ ، فكتبَ إليها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أمَّا بعدُ : فإنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ ملَّكَني مِنْ غلَّةِ الدنيا في كلِّ يومٍ ثمانينَ ألفَ درهمٍ ، وليسَ تمضي الليالي والأيامُ حتَّىٰ أتمَّها مئةَ ألفٍ ، وأنا أصيِّرُ لكِ مثلَها ومثلَها ، فأجيبيني .

فكتبَتْ إليهِ :

---

(١) القول لمعاذ بن يعقوب النسفي ، كما أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٨) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٥) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .

بسم الله الرحمن الرحيم

أمَّا بعدُ : فإنَّ الزهدَ في الدنيا راحةُ القلبِ والبدنِ ، والرغبةَ فيها تورثُ الهمَّ والحزَنَ ، فإذا أتاكَ كتابي هـٰذا . . فهيِّئ زادَكَ ، وقدِّمْ لمعادِكَ ، وكُنْ وصيَّ نفسِكَ ، ولا تجعلِ الرجالَ أوصياءَكَ ، فيقتسموا تراثَكَ ، وصمِ الدهرَ ، واجعلْ فطرَكَ الموتَ ، وأمَّا أنا . . فلوْ أنَّ اللهَ تعالىٰ خوَّلَني أمثالَ الذي خوَّلَكَ وأضعافَهُ . . ما سرَّني أنْ أشتغلَ عنِ اللهِ طرفةَ عينٍ[1]

وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ كلَّ ما شغلَ عنِ اللهِ تعالىٰ فهوَ نقصانٌ .

فلينظرِ المريدُ إلىٰ حالِهِ وقلبِهِ ، فإنْ وجدَهُ في العزوبةِ . . فهوَ الأقربُ ، وإنْ عجزَ عنْ ذٰلكَ . . فالنكاحُ أولىٰ بهِ .

ودواءُ هـٰذهِ العلَّةِ ثلاثٌ : الجوعُ ، وغضُّ البصرِ ، والاشتغالُ بشغلٍ يستوفي القلبَ ، فإنْ لمْ تنفعْ هـٰذهِ الثلاثةُ . . فالنكاحُ هوَ الذي يستأصلُ مادَّتَها فقطْ ، ولهـٰذا كانَ السلفُ يبادرونَ إلى النكاحِ وإلىٰ تزويجِ البناتِ .

قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (ما أيسَ الشيطانُ مِنْ أحدٍ إلا وأتاهُ مِنْ قبلِ النساءِ)[2]

وقالَ سعيدٌ وهوَ ابنُ أربعٍ وثمانينَ سنةً[3] ، وقدْ ذهبَتْ إحدىٰ عينيهِ وهوَ يعشو بالأخرىٰ : (ما شيءٌ أخوفَ عندي مِنَ النساءِ)[4]

وعنْ ابنِ أبي وداعةَ قالَ : كنتُ أجالسُ سعيدَ بنَ المسيَّبِ ، ففقدَني أياماً ، فلمَّا جئتُهُ . . قالَ : أينَ كنتَ ؟ قلتُ : تُوفيَتْ أهلي ، فاشتغلتُ بها ، فقالَ : هلَّا أخبرتَنا فشهدناها ، قالَ : ثمَّ أردتُ أنْ أقومَ ، فقالَ : هلِ استحدثتَ امرأةً ؟ فقلتُ : يرحمُكَ اللهُ تعالىٰ ، ومَنْ يزوِّجُني وما أملكُ إلا درهمينِ أوْ ثلاثةً ؟! فقالَ : أنا ، فقلتُ : وتفعلُ ؟! قالَ : نعمْ ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وزوَّجَني علىٰ درهمينِ أوْ قالَ : ثلاثةٍ .

قالَ : فقمتُ وما أدري ما أصنعُ مِنَ الفرحِ ، فصرتُ إلىٰ منزلي ، وجعلتُ أفكِّرُ ممَّنْ آخذُ ، وممنْ أستدينُ ، فصلَّيتُ المغربَ ، وانصرفتُ إلىٰ منزلي ، فأسرجْتُ وكنتُ وحدي صائماً ، فقدمتُ عشائي لأفطرَ ، وكانَ خبزاً وزيتاً ، وإذا بابي يُقرعُ ، فقلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالَ : سعيدٌ ، قالَ : فأفكرتُ في كلِّ إنسانٍ اسمُهُ سعيدٌ إلا سعيدَ بنَ المسيَّبِ ، وذٰلكَ أنَّهُ لمْ يُرَ أربعينَ سنةً إلا بينَ دارِهِ والمسجدِ ، فقمتُ فخرجتُ إليهِ ، فإذا به سعيدُ بنُ المسيَّبِ ، فظننتُ أنَّهُ قدْ بدا لهُ ، فقلتُ : يا أبا محمدٍ ؛ لوْ أرسلتَ إليَّ . . لأتيتُكَ ، فقالَ : لا ، أنتَ أحقُّ أنْ تُؤتىٰ ، قلتُ : فما تأمرُ ؟ قالَ : إنَّكَ كنتَ رجلاً عزباً ، فتزوجتَ ، فكرهتُ أنْ أبيتَكَ الليلةَ وحدَكَ ، وهـٰذهِ امرأتُكَ ، فإذا هيَ قائمةٌ خلفَهُ في طولِهِ ، ثمَّ أخذَ بيدِها ، فدفعَها في البابِ وردَّهُ ، فسقطَتِ المرأةُ مِنَ الحياءِ ، فاستوثقتُ مِنَ البابِ ، ثمَّ تقدمتُ إلى القصعةِ التي فيها الزيتُ والخبزُ ، فوضعتُها في ظلِّ السراجِ لكيلا تراهُ ، ثمَّ صعدتُ السطحَ ، فرميتُ الجيرانَ ، فجاؤوني ، وقالوا : ما شأنُكَ ؟ قلتُ : ويحَكم !! زوَّجَني سعيدُ بنُ المسيَّبِ بنتَهُ اليومَ ، وقدْ جاءَ بها الليلةَ علىٰ غفلةٍ ، فقالوا : سعيدٌ زوَّجَكَ ؟! قلتُ : نعمْ ، وهاهيَ في الدارِ ، فنزلوا إليها ، وبلغَ ذٰلكَ أمِّي ، فجاءَتْ وقالَتْ : وجهي مِنْ وجهِكَ حرامٌ إنْ مسستَها قبلَ أنْ أصلحَها

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٤١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٦/٢) .

(٣) وثمَّ خلاف في سنة وفاته ، وكأن الراجح أنه عاش أربعاً وسبعين سنة .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٦/٢) .

إلىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ، قالَ : فأقمتُ ثلاثاً ، ثمَّ دخلتُ بها ، فإذا هي مِنْ أجملِ النساءِ ، وأحفظِ الناسِ لكتابِ اللهِ تعالىٰ ، وأعلمِهِمْ بسنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأعرفِهِمْ بحقِّ الزوجِ .

قالَ : فمكثتُ شهراً لا يأتيني سعيدٌ ولا آتيهِ ، فلمَّا كانَ قُرْبَ الشهرِ . . أتيتُهُ وهوَ في حلقتِهِ ، فسلَّمْتُ عليهِ ، فردَّ عليَّ السلامَ ولمْ يكلِّمْني حتَّىٰ تفرَّقَ الناسُ مِنَ المجلسِ ، فقالَ : ما حالُ ذٰلكَ الإنسانِ ؟ قلتُ : خيراً يا أبا محمدٍ ، علىٰ ما يحبُّ الصديقُ ويكرهُ العدوُّ ، قالَ : إنْ رابَكَ شيءٌ . . فالعصا ، فانصرفتُ إلىٰ منزلي ، فوجَّهَ إليَّ بعشرينَ ألفَ درهمٍ .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ سليمانَ : وكانَتْ بنتُ سعيدِ بنِ المسيَّبِ خطبَها عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لابنهِ الوليدِ حينَ ولَّاهُ العهدَ ، فأبىٰ سعيدٌ أنْ يزوِّجَهُ ، فلمْ يزلْ عبدُ الملكِ يحتالُ علىٰ سعيدٍ حتَّىٰ ضربَهُ مئةَ سوطٍ في يومٍ باردٍ ، وصبَّ عليهِ جرَّةَ ماءٍ ، وألبسَهُ جبَّةَ صوفٍ (١)

فاستعجالُ سعيدٍ في الزفافِ تلكَ الليلةَ يعرِّفُكَ غائلةَ الشهوةِ ، ووجوبَ المبادرةِ إلىٰ تطفئةِ نارِها بالنكاحِ ، رضيَ اللهُ عنهُ ورحمهُ .

* * *

(١) الخبر بطوله رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٧/٢) ، وابن أبي وداعة هو كثير بن المطلب بن أبي وداعة السهمي القرشي .

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلمْ : أنَّ هـٰذهِ الشهوةَ هيَ أغلبُ الشهواتِ على الإنسانِ ، وأعصاها عندَ الهيجانِ على العقلِ ، إلا أنَّ مقتضاها قبيحٌ يُستحيا منهُ ، ويُخشىٰ مِنِ اقتحامِهِ .

وامتناعُ أكثرِ الناسِ عنْ مقتضاها إمَّا لعجزٍ ، أوْ لخوفٍ ، أوْ لحياءٍ ، أوِ لمحافظةٍ علىٰ حشمةٍ ، وليسَ في شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ثوابٌ ؛ فإنَّهُ إيثارُ حظٍّ مِنْ حظوظِ النفسِ علىٰ حظٍّ آخرَ .

نعمْ ؛ مِنَ العصمةِ ألا يقدرَ[١] ، ففي هـٰذهِ العوائقِ فائدةٌ ، وهيَ دفعُ الإثمِ ، فإنَّ مَنْ تركَ الزنا . . اندفعَ عنهُ إثمُهُ بأيِّ سببٍ كانَ تركُهُ ، وإنَّما الفضلُ والثوابُ الجزيلُ في تركِهِ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ معَ القدرةِ وارتفاعِ الموانعِ وتيسُّرِ الأسبابِ ، لا سيما عندَ صدْقِ الشهوةِ ، وهـٰذهِ درجةُ الصدِّيقينَ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عشقَ فعفَّ فكتمَ فماتَ . . فهوَ شهيدٌ »[٢]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » ، وعدَّ منهُمْ : « رجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ حسبٍ وجمالٍ إلىٰ نفسِها ، فقالَ : إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ »[٣]

وقصَّةُ يوسفَ عليهِ السلامُ وامتناعُهُ مِنْ زليخا معَ القدرةِ ومعَ رغبتِها معروفةٌ ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ بذٰلكَ في كتابِهِ العزيزِ ، وهوَ إمامٌ لكلِّ مَنْ وُفِّقَ لمجاهدةِ الشيطانِ في هـٰذهِ الشهوةِ العظيمةِ .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ يسارٍ كانَ مِنْ أحسنِ الناسِ وجهاً ، فدخلَتْ عليهِ امرأةٌ ، فسألَتْهُ نفسَهُ ، فامتنعَ عليها ، وخرجَ هارباً مِنْ منزلِهِ وتركَها فيهِ ، قالَ سليمانُ : فرأيتُ تلكَ الليلةَ في المنامِ يوسفَ عليهِ السلامُ وكأنِّي أقولُ لهُ : أنتَ يوسفُ ؟ قالَ : نعمْ ، أنا يوسفُ الذي هممتُ ، وأنتَ سليمانُ الذي لمْ تهمَّ[٤]

أشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ .

وعنهُ أيضاً ما هوَ أعجبُ مِنْ هـٰذا ، وذٰلكَ أنَّهُ خرجَ مِنَ المدينةِ حاجّاً ومعَهُ رفيقٌ لهُ ، حتَّىٰ نزلا بالأبواءِ ، فقامَ رفيقُهُ وأخذَ السفرةَ ، وانطلقَ إلى السوقِ ليبتاعَ شيئاً ، وجلسَ سليمانُ في الخيمةِ ، وكانَ مِنْ أجملِ الناسِ وجهاً وأورعِ الناسِ ، فبصرَتْ بهِ أعرابيَّةٌ مِنْ قلَّةِ الجبلِ ، فلمَّا رأتْ جمالَهُ وحسنَهُ . . انحدرَتْ إليهِ حتىٰ وقفَتْ بينَ يديهِ وعليها البرقعُ والقفازانِ ، فأسفرَتْ عنْ وجهٍ لها كأنَّهُ فلقةُ قمرٍ ، وقالَتْ : أهنئْني ، فظنَّ أنَّها تريدُ طعاماً فقامَ إلىٰ فضلِ السفرةِ ليعطيَها ، فقالَتْ : لستُ أريدُ هـٰذا ، إنَّما أريدُ ما يكونُ مِنَ الرجلِ إلىٰ أهلِهِ ، فقالَ : جهَّزَكِ إليَّ إبليسُ ، ثمَّ وضعَ رأسَهُ

---

(١) والمشهور على الألسنة : ومن العصمة ألا تجد ، والمراد بالعصمة هنا : الحفظ ؛ أي : فإذا أراد الله حفظ عبده . . لم يجعله قادراً على الإتيان بشيء من المخالفات . « إتحاف » (٤٣٩/٧) .

(٢) رواه الأصفهاني في « الزهرة » (١١٧/١) ، والخرائطي في « اعتلال القلوب » (١٠٦) ، والسراج القاري في « مصارع العشاق » (١٤/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٧٥/١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً كذٰلك بنحوه ، ووسع القول فيه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤٣٩/٧) .

(٣) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩١/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٠٩) .

بينَ ركبتيهِ وأخذَ في النحيبِ ، فلمْ يزلْ يبكي ، فلمَّا رأتْ منهُ ذٰلكَ . . سدلَتِ البرقعَ علىٰ وجهِها ، وانصرفَتْ راجعةً حتَّىٰ بلغَتْ أهلَها .

وجاءَ رفيقُهُ ، فرآهُ وقدِ انتفخَتْ عيناهُ مِنَ البكاءِ وانقطعَ حلقُهُ ، فقالَ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : خيرٌ ، ذكرتُ صبيتي ، قالَ : لا واللهِ ، إلا أنَّ لكَ قصَّةً ، إنَّما عهدُكَ بصبيتِكَ منذُ ثلاثٍ أوْ نحوِها ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ أخبرَهُ خبرَ الأعرابيَّةِ ، فوضعَ رفيقُهُ السفرةَ وجعلَ يبكي بكاءً شديداً ، فقالَ لهُ سليمانُ : وأنتَ ما يبكيكَ ؟ قالَ : أنا أحقُّ بالبكاءِ منكَ ، لأنِّي أخشىٰ أنْ لوْ كنتُ مكانَكَ . . لما صبرتُ عنها ، فلمْ يزالا يبكيانِ .

فلمَّا انتهىٰ سليمانُ إلىٰ مكَّةَ ، وطافَ وسعىٰ . . أتى الحجرَ ، فاحتبىٰ بثوبِهِ ، فنعسَ فإذا رجلٌ وسيمٌ جميلٌ طوالٌ لهُ شارةٌ حسنةٌ ، ورائحةٌ طيبةٌ ، فقالَ لهُ سليمانُ : مَنْ أنتَ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : أنا يوسفُ ، قالَ : يوسفُ الصدِّيقُ ؟! قالَ : نعمْ ، قالَ : إنَّ في شأنِكَ وشأنِ امرأةِ العزيزِ لعجباً ، فقالَ لهُ يوسفُ : شأنُكَ وشأنُ صاحبةِ الأبواءِ أعجبُ [(١)]

ورُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « انطلقَ ثلاثةُ نفرٍ ممَّنْ كانَ قبلَكُمْ ، حتَّىٰ آواهُمُ المبيتُ إلىٰ غارٍ ، فدخلوهُ ، فانحدرَتْ صخرةٌ مِنَ الجبلِ ، فسدَّتْ عليهِمُ الغارَ ، فقالوا : إنَّهُ لا ينجيكُمْ مِنْ هٰذهِ الصخرةِ إلا أنْ تدعوا اللهَ تعالىٰ بصالحِ أعمالِكُمْ ، فقالَ رجلٌ منهُمْ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّهُ كانَ لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ ، وكنتُ لا أغبِقُ قبلَهُما أهلاً ولا مالاً [(٢)] ، فنأىٰ بي طلبُ الشجرِ يوماً ، فلمْ أُرِحْ عليهِما حتَّىٰ ناما ، فحلبتُ لهما غَبُوقَهُما ، فوجدتُهما نائمينِ ، فكرهتُ أنْ أغبِقَ قبلَهُما أهلاً أوْ مالاً ، فلبثتُ والقدحُ في يدي أنتظرُ استيقاظَهُما حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، والصبيةُ يتضاغَونَ حولَ قدمي ، فاستيقظا ، فشربا غَبُوقَهُما ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذٰلكَ ابتغاءَ وجهِكَ . . ففرِّجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ مِنْ هٰذهِ الصخرةِ ، فانفرجَتْ شيئاً لا يستطيعونَ الخروجَ منهُ .

وقالَ الآخرُ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّهُ كانَتْ لي ابنةُ عمٍّ مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، فراودتُها عنْ نفسِها ، فامتنعَتْ منِّي ، حتَّىٰ ألمَّتْ بها سنةٌ مِنَ السنينَ ، فجاءَتْني ، فأعطيتُها مئةً وعشرينَ ديناراً علىٰ أنْ تخلِّيَ بيني وبينَ نفسِها ، ففعلَتْ ، حتَّىٰ إذا قدرتُ عليها . . قالَتْ : اتقِ اللهَ ولا تفضَّ الخاتمَ إلا بحقِّهِ ، فتحرَّجتُ مِنَ الوقوعِ عليها ، فانصرفتُ عنها وهيَ مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، وتركتُ الذَّهبَ الذي أعطيتُها ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذٰلكَ ابتغاءَ وجهِكَ . . ففرِّجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ ، فانفرجَتِ الصخرةُ عنهُمْ ، غيرَ أنَّهُمْ لا يستطيعونَ الخروجَ منها .

وقالَ الثَّالثُ : اللهمَّ ؛ إنِّي استأجرتُ أجراءَ ، وأعطيتُهُمْ أجرَهُمْ غيرَ رجلٍ واحدٍ ، فإنَّهُ تركَ الأجرَ الذي لهُ وذهبَ ، فثمَّرتُ أجرَهُ حتَّىٰ كثُرَتْ منهُ الأموالُ ، فجاءَني بعدَ حينٍ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ أعطني أجري ، فقلتُ : كلُّ ما ترىٰ مِنْ أجرِكَ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيقِ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ، لا تستهزئْ بي ، فقلتُ : لا أستهزئُ بكَ ، فخذْهُ ، فاستاقَهُ وأخذَهُ كلَّهُ ولمْ يتركْ منهُ شيئاً ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذٰلكَ ابتغاءَ وجهِكَ فافْرجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ ، فانفرجَتِ الصخرةُ ، فخرجوا يمشونَ » [(٣)]

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩١/٢) .

(٢) أي : لا أقدم في الغبوق عليهما أحداً من الأهل ولا من المال ، والمراد بالأهل : زوجته وصبيته ، والمراد بالمال : الناطق . « إتحاف » (٤٤٢/٧) ، والغبوق : ما يشرب عشاءً .

(٣) رواه البخاري (٢٢٧٢) واللفظ له ، ومسلم (٢٧٤٣) .

فهٰذا فضْلُ مَنْ تمكَّنَ مِنْ قضاءِ هٰذهِ الشهوةِ فعفَّ ، ويقربُ منهُ مَنْ تمكَّنَ مِنْ قضاءِ شهوةِ العينِ ؛ فإنَّ النظرَ مبدأُ الزنا ، فحفْظُه مهمٌّ ، وهوَ عسيرٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ قدْ يُستهانُ بهِ ، ولا يعظمُ الخوفُ فيهِ ، والآفاتُ كلُّها تنشأُ منهُ .

والنظرةُ الأولىٰ إذا لمْ تُقصدْ . . لا يُؤاخذُ بها ، والمعاودةُ يُؤاخذُ بها ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكَ الأولىٰ ، وعليكَ الثانيةُ »[1] أي : النظرةُ .

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (لا تتبعْ بصرَكَ رداءَ المرأةِ ؛ فإنَّ النظرَ يزرعُ في القلبِ شهوةً)[2]

وقلَّما يخلو الإنسانُ في تردداتِهِ عنْ وقوعِ البصرِ على النساءِ والصبيانِ ، فمهما تخايلَ إليهِ الحسنُ . . تقاضى الطبعُ المعاودةَ ، وعندَهُ ينبغي أنْ يقرِّرَ في نفسِهِ أنَّ هٰذهِ المعاودةَ عينُ الجهلِ ؛ لأنَّهُ إنْ حقَّقَ النظرَ فاستحسنَ . . ثارَتِ الشهوةُ ، وعجزَ عنِ الوصولِ ، فلا يحصلُ لهُ إلا التحسُّرُ ، وإنِ استقبحَ . . لمْ يلتذَّ ، ويأثمُ ؛ لأنَّهُ قصدَ الالتذاذَ ، فقدْ فعلَ ما آلمَهُ ، فلا يخلو في كلتا حالتيهِ عنْ معصيةٍ وعنْ تألُّمٍ وتحسُّرٍ .

ومهما حفظَ العينَ بهٰذا الطريقِ . . اندفعَ عنْ قلبِهِ كثيرٌ مِنَ الآفاتِ ، وإنْ أخطأَتْ عينُهُ وحفظَ الفرجَ معَ التمكُّنِ . . فذٰلكَ يستدعي غايةَ القوَّةِ ونهايةَ التوفيقِ[3]

رُوِيَ عنْ بكرِ بنِ عبدِ اللهِ المزنيِّ أنَّ قصَّاباً أُولعَ بجاريةٍ لبعضِ جيرانِهِ ، فأرسلَها أهلُها في حاجةٍ لهُمْ إلىٰ قريةٍ أخرىٰ ، فتبعَها ، وراودَها عنْ نفسِها ، فقالَتْ لهُ : لا تفعلْ ، لأنا أشدُّ حبّاً لكَ منكَ لي ، ولٰكنِّي أخافُ اللهَ .

قالَ : فأنتِ تخافينَهُ وأنا لا أخافُهُ !! فرجعَ تائباً ، فأصابَهُ العطشُ حتَّىٰ كادَ ينقطعُ عنقُهُ ، فإذا هوَ برسولٍ لبعضِ أنبياءِ بني إسرائيلَ ، فسألَهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ قالَ : العطشُ ، قالَ : تعالَ حتَّىٰ ندعوَ حتَّىٰ تظلَّنا سحابةٌ حتَّىٰ ندخلَ القريةَ ، قالَ : ما لي مِنْ عملٍ فأدعوَ ، قالَ : فأنا أدعو وأمِّنْ أنتَ علىٰ دعائي ، فدعا الرسولُ ، وأمَّنَ هوَ ، فأظلَّتْهُما سحابةٌ حتَّى انتهيا إلى القريةِ ، فأخذَ القصَّابُ إلىٰ مكانِهِ ، فمالَتِ السحابةُ معَهُ ، فقالَ لهُ الرسولُ : زعمتَ أنْ ليسَ لكَ عملٌ ، وأنا الذي دعوتُ وأنتَ الذي أمَّنتَ ، فأظلَّتنا سحابةٌ ، ثمَّ تبعَتْكَ ، لتخبرْني بأمرِكَ ، فأخبرَهُ ، فقالَ الرسولُ : إنَّ التائبَ عندَ اللهِ تعالىٰ بمكانٍ ليسَ أحدٌ مِنَ الناسِ بمكانِهِ[4]

وعنْ أحمدَ بنِ سعيدٍ العابدِ ، عنْ أبيهِ قالَ : كانَ عندنا بالكوفةِ شابٌّ متعبِّدٌ ، لازمَ المسجدَ الجامعَ ، لا يكادُ يفارقُهُ ، وكانَ حسنَ الوجهِ ، حسنَ القامةِ ، حسنَ السمتِ ، فنظرَتْ إليهِ امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وعقْلٍ ، فشُغفَتْ بهِ ، وطالَ ذٰلكَ عليها ، فلمَّا كانَ ذاتَ يومٍ . . وقفَتْ لهُ علىٰ طريقِهِ وهوَ يريدُ المسجدَ ، فقالَتْ لهُ : يا فتى ؛ اسمعْ منِّي كلماتٍ أكلِّمُكَ بها ثمَّ اعملْ ما شئتَ ، فمضىٰ ولمْ يكلِّمْها .

ثمَّ وقفَتْ لهُ بعدَ ذٰلكَ علىٰ طريقِهِ وهوَ يريدُ منزلَهُ ، فقالَتْ لهُ : يا فتى ؛ اسمعْ منِّي كلماتٍ أكلِّمُكَ بها ،

---

(١) رواه أبو داوود (٢١٤٩) ، والترمذي (٢٧٧٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٤٤) .
(٣) في (أ) : (فإن حفظ عينه وفرجه مع التمكن . . .) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٣٠) .

فأطرقَ مليّاً وقالَ لها : هـٰذا موقفُ تهمةٍ ، وأنا أكرهُ أنْ أكونَ للتهمةِ موضعاً .

فقالَتْ لهُ : واللهِ ؛ ما وقفتُ موقفي هـٰذا جهالةً منّي بأمرِكَ ، ولـٰكنْ معاذَ اللهِ أنْ يتشوَّفَ العبادُ إلىٰ مثلِ هـٰذا منّي ، والذي حملَني علىٰ أنْ لقيتُكَ في مثلِ هـٰذا الأمرِ بنفسي لمعرفتي أنَّ القليلَ مِنْ هـٰذا عندَ الناسِ كثيرٌ ، وأنتمْ معاشرَ العبَّادِ في مثالِ القواريرِ ، أدنىٰ شيءٍ يعيبُها ، وجملةُ ما أكلِّمُكَ بهِ أنَّ جوارحي كلَّها مشغولةٌ بكَ ، فاللهَ اللهَ في أمري وأمرِكَ .

قالَ : فمضى الشابُّ إلىٰ منزلِهِ ، وأرادَ أنْ يصلِّيَ ، فلمْ يعقلْ كيفَ يصلِّي ، فأخذَ قرطاساً وكتبَ كتاباً ، ثمَّ خرجَ مِنْ منزلِهِ ، فإذا بالمرأةِ واقفةٌ في وضعِها ، فألقى الكتابَ إليها ورجعَ إلىٰ منزلِهِ .

وكانَ فيهِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اعلمي أيَّتُها المرأةُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا عصاهُ العبدُ . . حلمَ ، فإذا عادَ إلى المعصيةِ مرَّةً أخرىٰ . . سترَهُ ، فإذا لبسَ لها ملابسَها . . غضبَ اللهُ تعالىٰ لنفسِهِ غضبةً تضيقُ منها السماواتُ والأرضُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ .

فمَنْ ذا يطيقُ غضبَهُ ؟!

فإنْ كانَ ما ذكرتِ باطلاً . . فإنّي أذكّرُكِ يوماً تكونُ السماءُ فيهِ كالمُهْلِ ، وتصيرُ الجبالُ كالعهْنِ ، وتجثو الأممُ لصولةِ الجبَّارِ العظيمِ ، وإنّي واللهِ قدْ ضعفتُ عنْ إصلاحِ نفسي ، فكيفَ بإصلاحِ غيري .

وإنْ كانَ ما ذكرتِ حقّاً . . فإنّي أدلُّكِ علىٰ طبيبٍ يداوي الكلومَ الممرضةَ ، والأوجاعَ المُرْمِضةَ ، ذٰلكَ اللهُ ربُّ العالمينَ ، فاقصديهِ علىٰ صدْقِ المسألةِ ؛ فإنّي مشغولٌ عنكِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ .

فأينَ المهربُ مِنْ هـٰذهِ الآيةِ ؟!

ثمَّ جاءَتْ بعدَ ذٰلكَ بأيامٍ ، فوقفَتْ لهُ علىٰ طريقِهِ ، فلمَّا رآها مِنْ بعيدٍ . . أرادَ الرجوعَ إلىٰ منزلِهِ لئلا يراها ، فقالَتْ : يا فتىٰ ؛ لا ترجعْ ، فلا كانَ الملتقىٰ بعدَ هـٰذا اليومِ أبداً إلا غداً بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بكَتْ بكاءً شديداً ، وقالَتْ : أسألُ اللهَ تعالى الذي بيدِهِ مفاتيحُ قلبِكَ أنْ يسهِّلَ ما قدْ عَسُرَ مِنْ أمرِكَ .

ثمَّ إنَّها تبعَتْهُ ، فقالَتِ : امننْ عليَّ بموعظةٍ أحملُها عنكَ ، وأوصني بوصيَّةٍ أعملُ عليها .

فقالَ لها : أوصيكِ بحفْظِ نفسِكِ مِنْ نفسِكِ ، وأذكِّرُكِ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ .

قالَ : فأطرقَتْ وبكَتْ بكاءً شديداً أشدَّ مِنْ بكائِها الأوَّلِ ، ثمَّ إنها أفاقَتْ ولزمَتْ بيتَها ، وأخذَتْ في العبادةِ ، فلمْ تزلْ علىٰ ذٰلكَ حتَّىٰ ماتَتْ كمداً

فكانَ الفتىٰ يذكرُها بعدَ موتِها ثمَّ يبكي فيُقالُ لهُ : ممَّ بكاؤُكَ وأنتَ قدْ آيسْتَها مِنْ نفسِكَ ؟

فيقولُ : إنِّي قدْ ذبحتُ طمعَها في أوَّلِ أمرِها ، وجعلتُ قطيْعَتَها ذخيرةً لي عندَ اللهِ تعالىٰ ، فأنا أستحيي مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ أستردَّ ذخيرةً ادخرتُها عندَهُ(١)

❁ ❁ ❁

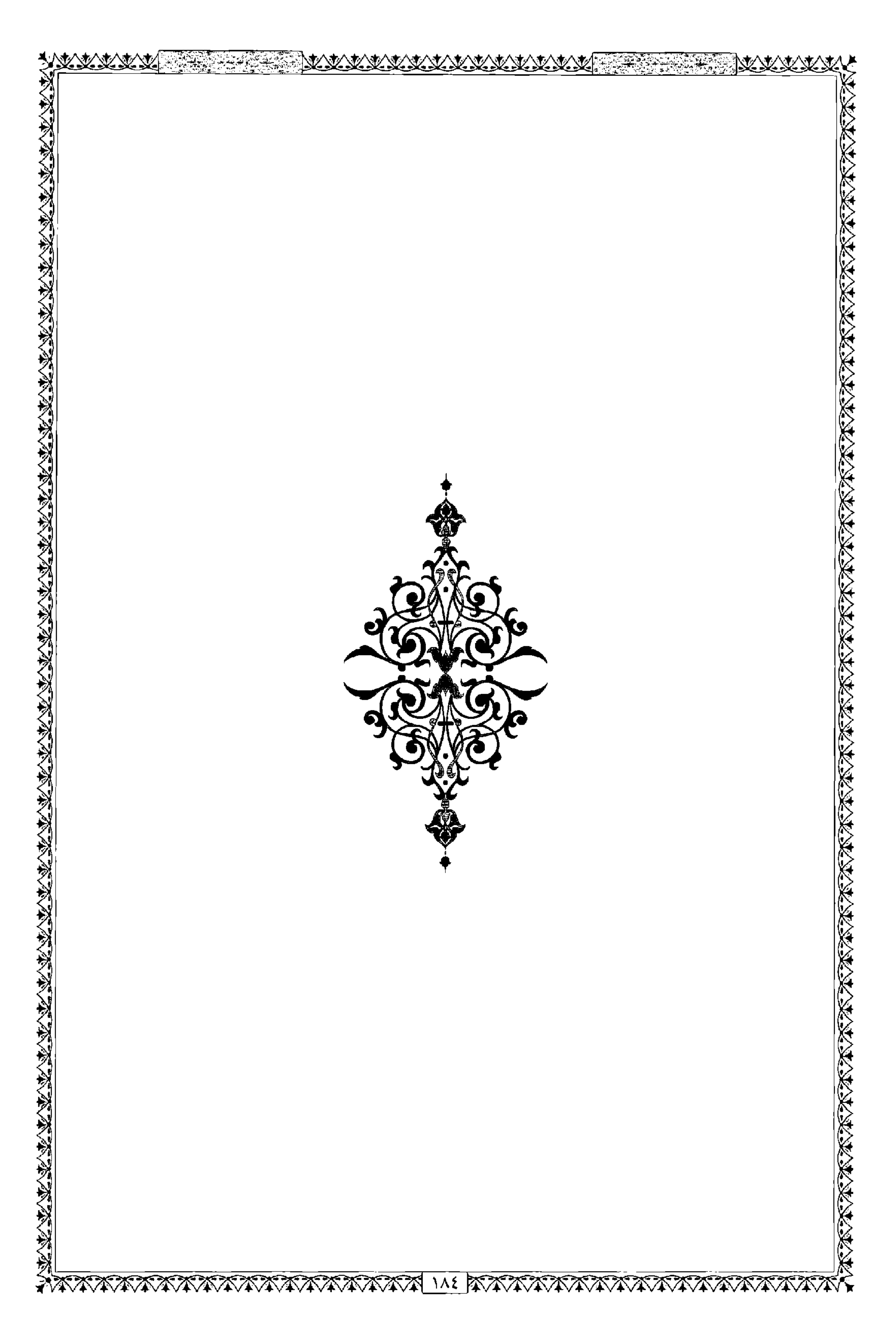
تمّ كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

ولله الحمد والمنّة ، وصلواته على أشرف خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليمًا

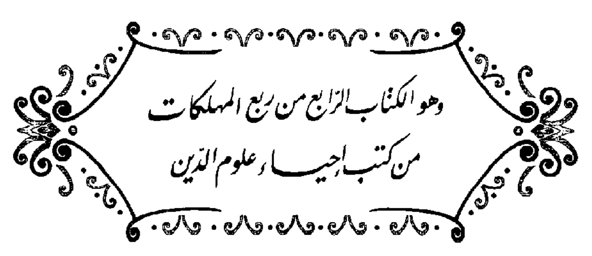
يتلوه كتاب آفات اللّسان

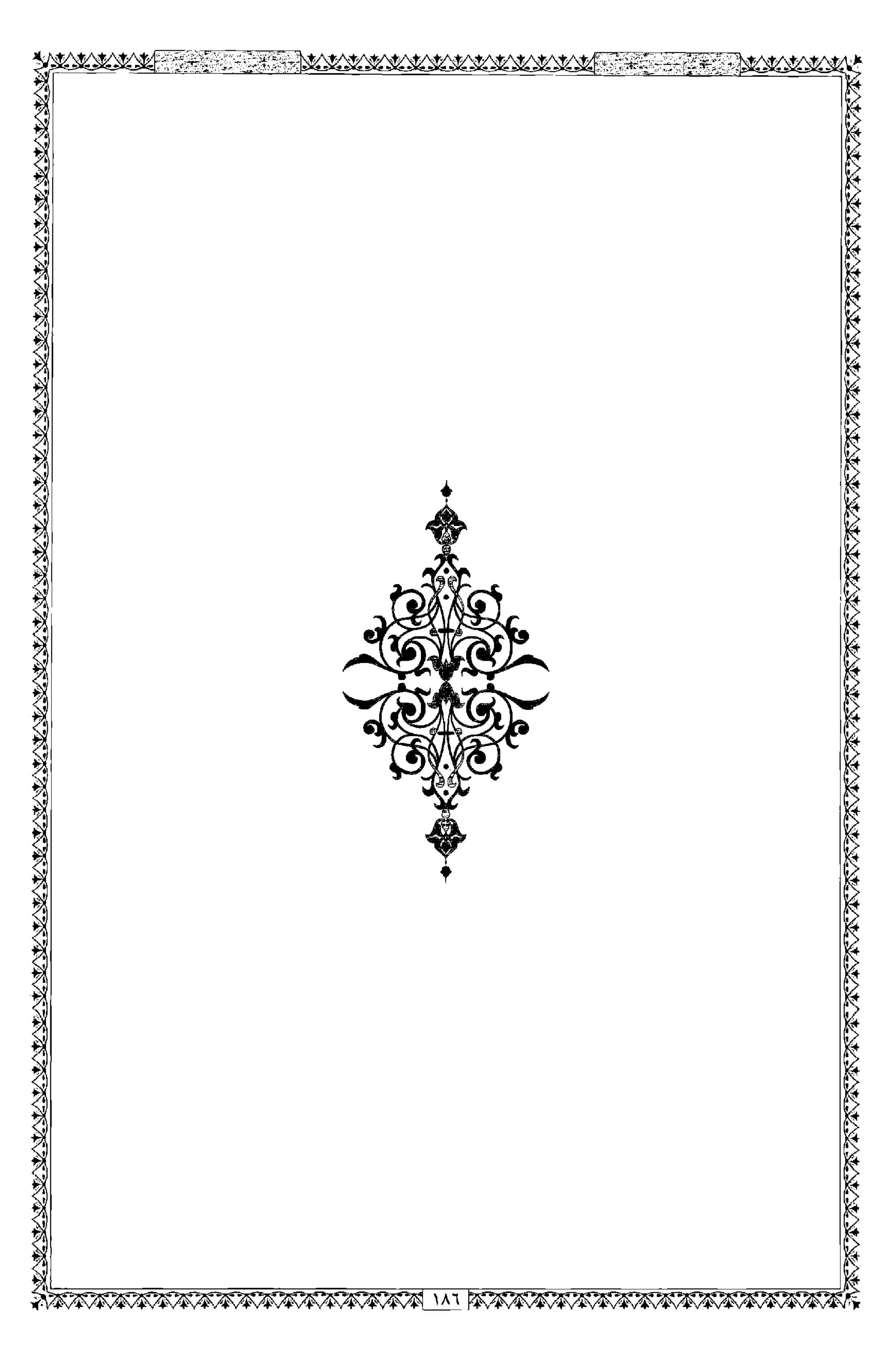
(١) رواها السراج القاري في « مصارع العشاق » (١/٤٩) .



كتاب

آفات اللسان





كتاب آفات اللّسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أحسنَ خلقَ الإنسانِ وعدَّلَهُ ، وألهمَهُ نورَ الإيمانِ فزيَّنَهُ بهِ وجمَّلَهُ ، وعلَّمَهُ البيانَ فقدَّمَهُ بهِ وفضَّلَهُ ، وأفاضَ علىٰ قلبِهِ خزائنَ العلومِ فأكملَهُ ، ثمَّ أرسلَ عليهِ سِتراً مِنْ رحمتِهِ وأسبلَهُ ، ثمَّ أمدَّهُ بلسانٍ يترجمُ بهِ عمَّا حواهُ القلبُ وعقلَهُ ، ويكشفُ عنهُ سترَهُ الذي أرسلَهُ ، فأطلقَ بالحمدِ مِقْوَلَهُ[1] ، وأفصحَ بالشكرِ عمَّا أولاهُ وخوَّلَهُ ؛ مِنْ علمٍ حصَّلَهُ ، ونطقٍ سهَّلَهُ .

وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي أكرمَهُ وبجَّلَهُ ، ونبيُّهُ الذي أرسلَهُ بكتابٍ أنزلَهُ ، وآيٍ فصَّلَهُ ، ودينٍ سبَّلَهُ ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ومَنْ قبلَهُ ، ما كبَّرَ اللهَ عبدٌ وهلَّلَهُ .

أما بعد :

فإنَّ اللسانَ مِن نعمِ اللهِ العظيمةِ ، ولطائفِ صنعِهِ الغريبةِ ، فإنَّهُ صغيرٌ جِرْمُهُ ، عظيمٌ طاعتُهُ وجُرْمُهُ ؛ إذْ لا يتبيَّنُ الكفرُ والإيمانُ إلا بشهادةِ اللسانِ ، وهما غايةُ الطاعةِ والعصيانِ ، ثمَّ إنَّهُ ما مِنْ موجودٍ أوْ معدومٍ ، خالقٍ أوْ مخلوقٍ ، متخيَّلٍ أوْ معلومٍ ، مظنونٍ أوْ موهومٍ . . إلا واللسانُ يتناولُهُ ويتعرَّضُ لهُ بإثباتٍ أوْ نفيٍ ؛ فإنَّ كلَّ ما يتناولُهُ العلمُ يعربُ عنهُ اللسانُ إمَّا بحقٍّ أوْ باطلٍ ، ولا شيءَ إلا والعلمُ متناولٌ لهُ ، وهـٰذهِ خاصيَّةٌ لا تُوجدُ في سائرِ الأعضاءِ ، فإنَّ العينَ لا تصلُ إلىٰ غيرِ الألوانِ والصُّورِ ، والأذنَ لا تصِلُ إلىٰ غيرِ الأصواتِ ، واليدَ لا تصِلُ إلىٰ غيرِ الأجسامِ ، وكذا سائرُ الأعضاءِ .

واللسانُ رَحْبُ الميدانِ ، ليسَ لهُ مردٌّ ، ولا لمجالِهِ منتهىً وحدٌّ ، لهُ في الخيرِ مجالٌ رحْبٌ ، ولهُ في الشرِّ ذيلٌ سَحْبٌ ، فمَنْ أطلقَ عَذَبَةَ اللسانِ[2] ، وأهملَهُ مُرخَى العِنانِ . . سلكَ بهِ الشيطانُ في كلِّ ميدانٍ ، وساقَهُ إلىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ ، إلىٰ أن يضطرَّهُ إلى البوارِ ، ولا يكبُّ الناسَ في النارِ علىٰ مناخرِهِمْ إلا حصائدُ ألسنتِهِمْ ، ولا ينجو مِنْ شرِّ اللسانِ إلا مَنْ قيدَهُ بلجامِ الشَّرعِ ، فلا يطلقُهُ إلا فيما ينفعُهُ في الدنيا والآخرةِ ، ويكفُّهُ عنْ كلِّ ما يُخشىٰ غائلتُهُ في عاجلِهِ وآجلِهِ .

وعلمُ ما يُحمدُ فيهِ إطلاقُ اللسانِ أوْ يُذمُّ غامضٌ عزيزٌ ، والعملُ بمقتضاهُ علىٰ مَنْ عرفَهُ ثقيلٌ عسيرٌ ، وأعصى الأعضاءِ على الإنسانِ اللسانُ ؛ فإنَّهُ لا تعبَ في إطلاقِهِ ، ولا مؤنةَ في تحريكِهِ ، وقدْ تساهلَ الخلقُ في الاحترازِ عَنْ آفاتِهِ وغوائلِهِ ، والحذرِ مِنْ مصايدِهِ وحبائلِهِ ، وأنهُ أعظمُ آلةٍ للشيطانِ في استغواءِ الإنسانِ .

ونحنُ بتوفيقِ اللهِ وحُسْنِ تيسيرِهِ نفصِّلُ مجامعَ آفاتِ اللسانِ ، ونذكرُها واحدةً واحدةً ، بحدودِها وأسبابِها وغوائلِها ،

(١) المِقْول بالكسر : اسم للسان باعتبار أنه آلة للقول ، وإطلاقه : تمكينُهُ من النطق به ، وأراد بالحمد : اللغويَّ ، وهو الوصف بفضيلة علىٰ فضيلة علىٰ جهة التعظيم ، وهو باللسان فقط . « إتحاف » (٤٤٧/٧) .

(٢) عذبة اللسان : طرفه الدقيق .

ونعرِّفُ طريقَ الاحترازِ عنها ، ونوردُ ما وردَ مِنْ الأخبارِ والآثارِ في ذمِّها ، فنذكرُ أوّلاً فضلَ الصَّمتِ ، ونردفُهُ بذكرِ آفةِ الكلامِ فيما لا يعنيكَ ، ثمَّ آفةِ فضولِ الكلامِ ، ثمَّ آفةِ الخوضِ في الباطلِ ، ثمَّ آفةِ المراءِ والجدالِ ، ثمَّ آفةِ الخصومةِ ، ثمَّ آفةِ التقعُّرِ في الكلامِ ؛ بالتشدُّقِ ، وتكلُّفِ السَّجْعِ والفصاحةِ والتصنُّعِ فيهِ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا جرَتْ بهِ عادةُ المتفاصحينَ المدَّعينَ للخطابةِ ، ثمَّ آفةِ الفُحْشِ والسَّبِّ وبذاءةِ اللسانِ ، ثمَّ آفةِ اللَّعنِ ؛ إمَّا لحيوانٍ ، أوْ جمادٍ ، أوْ إنسانٍ ، ثمَّ آفةِ الغناءِ وَالشِّعرِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ السماعِ ما يحرمُ مِنَ الغناءِ وما يحلُّ فلا نعيدُهُ ، ثمَّ آفةِ المِزاحِ ، ثمَّ آفةِ السُّخريةِ والاستهزاءِ ، ثمَّ آفةِ إفشاءِ السِّرِّ ، ثمَّ آفةِ الوعدِ الكاذبِ ، ثمَّ آفةِ الكذبِ في القولِ واليمينِ ، ثمَّ آفةِ الغيبةِ ، ثمَّ آفةِ النميمةِ ، ثمَّ آفةِ ذي اللسانينِ الذي يتردَّدُ بينَ المتعاديينِ فيكلِّمُ كلَّ واحدٍ بكلامٍ يوافقُهُ ، ثمَّ آفةِ المدحِ ، ثمَّ آفةِ الغفلةِ عن دقائقِ الخطأِ في فحوى الكلامِ ، ولا سيما فيما يتعلَّقُ باللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِهِ ، ويرتبطُ بأمورِ الدينِ ، ثمَّ آفةِ سؤالِ العوامِّ عنْ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وعنْ كلامِهِ ، وعنِ الحروفِ : أهيَ قديمةٌ أوْ محدثةٌ ، وهيَ آخرُ الآفاتِ ، وما يتعلقُ بذٰلكَ ، وجملتُها عشرونَ آفةً ، ونسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

بيان عظم خطر اللسان ، وفضيلة الصمت

اعلمْ : أنَّ خطرَ اللسانِ عظيمٌ ، ولا نجاةَ مِنْ خطرِهِ إلا بالصمتِ ؛ فلذٰلكَ مدحَ الشرعُ الصمتَ وحثَّ عليهِ .

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صمتَ . . نجا »(١)

وقالَ : « الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُهُ »(٢) أيْ : هوَ حكمةٌ وحزمٌ .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ سفيانَ عنْ أبيهِ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أخبرْني عنِ الإسلامِ بأمرٍ لا أسألُ عنهُ أحداً بعدَكَ ، قالَ : « قلْ : آمنتُ باللهِ ، ثمَّ استقمْ » ، قالَ : قلتُ : فما أتقي ؟ فأومأَ بيدِهِ إلىٰ لسانِهِ(٣)

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما النجاةُ ؟ قالَ : « أمسكْ عليكَ لسانَكَ ، وليسعْكَ بيتُكَ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ »(٤)

وقالَ سهلُ بنُ سعدٍ الساعديُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يتكفَّلْ لي ما بينَ لَحيَيْهِ ورجليهِ . . أتكفَّلْ لهُ بالجنَّةِ »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ وُقِيَ شرَّ قَبْقَبِهِ وذَبْذَبِهِ ولَقْلَقِهِ . . فقدْ وُقيَ الشَّرَّ كلَّهُ »(٦) ، والقَبْقَبُ : البطنُ ، والذَّبذَبُ : الفرجُ ، واللَّقْلَقُ : اللسانُ(٧) ، فهٰذهِ الشهواتُ الثلاثُ بها يهلِكُ أكثرُ الخلقِ ؛ ولذٰلكَ اشتغلنا بذكرِ آفاتِ اللسانِ لما فرغنا مِنْ ذكرِ آفةِ الشهوتينِ البطنِ والفرجِ .

وقدْ سُئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ أكثرِ ما يدخلُ الناسَ الجنةَ ، فقالَ : « تقوى اللهِ وحسنُ الخُلُقِ » ، وسُئلَ عنْ أكثرِ ما يدخلُ النارَ ، فقالَ : « الأجوفانِ ؛ الفمُ والفرجُ »(٨)

ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالفمِ آفاتِ اللسانِ ؛ لأنَّهُ محلُّهُ ، ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ البطنَ ؛ لأنهُ منفذُهُ ، فقدْ قالَ معاذُ بنُ جبلٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أنؤاخذُ بما نقولُ ؟ فقالَ : « ثكلَتْكَ أمُّكَ يا بنَ جبلٍ !! وهلْ يكبُّ النَّاسَ في النَّارِ علىٰ مناخرِهمْ إلا حصائدُ ألسنتِهمْ ؟! »(٩)

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/١٦٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٧٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٤١) عن أنس من قول لقمان الحكيم عليه السلام .

(٣) رواه الترمذي (٢٤١٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٤٢٥) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) ، وهو عند مسلم (٣٨) دون ذكر اللسان .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٦) .

(٥) رواه البخاري (٦٤٧٤ ، ٦٨٠٧) ، والترمذي (٢٤٠٨) واللفظ له .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٠٢٦) بلفظه هنا ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٩٧٨) وفيه : « . . فقد وجب له الجنة » .

(٧) وعند البيهقي في تمام الخبر : (أما لقلقه . . فاللسان ، وقبقبه . . فالفم ، وذبذبه . . فالفرج) ، وبنحو ما ساقه المصنف عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٥١) والخبر عنده عن أبي رجاء العطاردي .

(٨) رواه الترمذي (٢٠٠٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٦) .

(٩) رواه الترمذي (٢٦١٦) ، وابن ماجه (٣٩٧٣) ، ولفظه عند ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦) .

وقالَ عبدُ اللهِ الثقفيُّ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ حدِّثْني بأمرٍ أعتصمُ بهِ ، فقالَ : « قلْ : ربِّيَ اللهُ ، ثمَّ استقمْ » ، قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ ؟ فأخذَ بلسانِهِ ثمَّ قالَ : « هٰذا »(١)

ورُوِيَ أنَّ معاذاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فأخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لسانَهُ ، ثمَّ وضعَ عليهِ إصبعيهِ(٢)

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستقيمُ إيمانُ العبدِ حتَّىٰ يستقيمَ قلبُهُ ، ولا يستقيمُ قلبُهُ حتَّىٰ يستقيمَ لسانُهُ ، ولا يدخُلُ الجنةَ رجلٌ لا يأْمَنُ جارُهُ بوائقَهُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يَسْلَمَ . . فليلزمِ الصَّمتَ »(٤)

وعنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ مرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنه قالَ : « إذا أصبحَ ابنُ آدمَ . . أصبحَتِ الأعضاءُ كلُّها تكفِّرُ اللِّسانَ تقولُ : اتَّقِ اللهَ فينا ؛ فإنَّكَ إنِ استقمتَ . . استقمنا ، وإنِ اعوججتَ . . اعوججنا »(٥)

ورويَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ اطلعَ علىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهما وهوَ يمدُّ لسانَهُ ، فقالَ : ما تصنعُ يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؟ قال : إنَّ هٰذا أوردَني المواردَ ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ليسَ شيءٌ مِنَ الجسدِ إلا يشكو إلى اللهِ اللسانَ علىٰ حدَّتِهِ »(٦)

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنهُ كانَ على الصَّفا يلبِّي ويقولُ : يا لسانُ ؛ قلْ خيراً . . تغنمْ ، أوْ أنصتْ . . تسلمْ ، مِنْ قبلِ أنْ تندمَ ، فقيلَ لهُ : يا أبا عبدِ الرحمٰنِ ؛ هٰذا شيءٌ تقولُهُ أوْ شيءٌ سمعتَهُ ؟ فقالَ : لا ، بلْ سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ أكثرَ خطايا ابنِ آدمَ في لسانِهِ »(٧)

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ لسانَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ ، ومَنْ ملكَ غضبَهُ . . وقاهُ اللهُ عذابَهُ ، ومَنِ اعتذرَ إلى اللهِ . . قَبِلَ اللهُ عذرَهُ »(٨)

ورُوِيَ أنَّ معاذَ بنَ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، قالَ : « اعبدِ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، واعددْ نفسَكَ في الموتَىٰ ، وإنْ شئتَ . . أنبأْتُكَ بما هوَ أملكُ لكَ مِنْ هٰذا كلِّهِ » ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ لسانِهِ(٩)

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه النسائي ، قال ابن عساكر : وهو خطأ ، والصواب : سفيان بن عبد الله الثقفي كما رواه الترمذي وصححه وابن ماجه ، وقد تقدم قبل هٰذا بخمسة أحاديث) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨) ، والطبراني في « الكبير » (٦٤/٢٠) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٩٨/٣) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١) ، والطبراني في « الأوسط » (١٩٥٥) .

(٥) رواه الترمذي (٢٤٠٧) عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، وليس في النسخ إثبات أبي سعيد في الرواية . قال الطيبي في « شرحه علىٰ مشكاة المصابيح » (١٣٢/٩) : (قوله : « تكفر » ؛ أي : تذل وتخضع ، والتكفير : هو أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريباً من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه . . . ، فإن قلت : كيف التوفيق بين هٰذا الحديث وبين قوله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » ؟ قلت : اللسان ترجمان القلب وخليفته في ظاهر البدن ، فإذا أسند إليه الأمر . . يكون علىٰ سبيل المجاز في الحكم ؛ كما في قولك : شفى الطبيب المريض) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣) ، وفي « الورع » (٩١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٥) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٩٧/١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٨٤) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢) .

وعنْ صفوانَ بنِ سُليم قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أخبرُكمْ بأيسرِ العبادةِ وأهونِها على البدنِ ؟ الصَّمتُ وحسنُ الخُلُقِ »(١)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فليقلْ خيراً أوْ ليسكتْ »(٢)

وقالَ الحسنُ : ذُكرَ لنا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « رحمَ اللهُ عبداً تكلَّمَ فغنمَ ، أوْ سكتَ فسلمَ »(٣)

وقالَ سفيانُ : قالوا لعيسىٰ عليهِ السلامُ : دلَّنا علىٰ عملٍ ندخلُ بهِ الجنةَ ، قالَ : لا تنطقوا أبداً ، قالوا : لا نستطيعُ ذٰلكَ ، فقالَ : فلا تنطقوا إلا بخيرٍ(٤)

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ : (إنْ كانَ الكلامُ مِنْ فضَّةٍ . . فالصمتُ مِنْ ذهبٍ)(٥)

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ قالَ : جاءَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « أطعمِ الجائعَ ، واسقِ الظمآنَ ، وأْمُرْ بالمعروفِ ، وانهَ عنِ المنكرِ ، فإنْ لمْ تطقْ . . فكفَّ لسانَكَ إلا مِنْ خيرٍ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اخزُنْ لسانَكَ إلا مِنْ خيرٍ ، فإنَّكَ بذٰلكَ تغلبُ الشَّيطانَ »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عندَ لسانِ كلِّ قائلٍ ، فليتَّقِ اللهَ امرؤٌ علِمَ ما يقولُ »(٨)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا رأيتُمُ المؤمنَ صَمُوتاً وقوراً . . فادنوا منهُ ؛ فإنَّهُ يلقَّنُ الحكمةَ »(٩)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ ثلاثةٌ : غانمٌ وسالمٌ وشاجبٌ ؛ فالغانمُ الذي يذكرُ اللهَ تعالىٰ ، والسالمُ السَّاكتُ ، والشّاجبُ الذي يخوضُ في الباطلِ »(١٠)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ لسانَ المؤمنِ مِنْ وراءِ قلبِهِ ، فإذا أرادَ أنْ يتكلَّمَ بشيءٍ . . تدبَّرَهُ بقلبِهِ ثمَّ أمضاهُ بلسانِهِ ، وإنَّ لسانَ المنافقِ أمامَ قلبِهِ ، فإذا همَّ بشيءٍ أمضاهُ بلسانِهِ ولمْ يتدبَّرْهُ بقلبِهِ »(١١)

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧) عن صفوان بن سليم مرسلاً ، ونحوه رواه مرفوعاً من حديث أبي ذر رضي الله عنه أبو الشيخ في « طبقات المحدثين » (١٠٦٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) ، وكذا ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠) .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (١١٠٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧) عن الأوزاعي عنه عليه السلام .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧) .

(٧) رواه ابن الضريس في « فضائل القرآن » (٦٨) ضمن خبر ، وكذا الطبراني في « الصغير » (٦٦/٢) .

(٨) رواه ابن وهب في « جامعه » (٣٣٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٠/٨) .

(٩) رواه ابن ماجه (٤١٠١) ولفظه : « إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق . . فاقتربوا منه ؛ فإنه يلقَّى الحكمة » .

(١٠) رواه أحمد في « المسند » (٧٥/٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٠٦٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، ولكن دون تفسير الكلمات الثلاث ، ورواه هناد في « الزهد » (١٢٣١) بنحو ما ساقه المصنف عن الحسن مرسلاً ، وهو عند البيهقي في « الشعب » (١٠٣٢٣) من قول أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه كذٰلك ، ووقع في غير (ك) نسبة الحديث لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

(١١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٢٥) ولٰكن عن الحسن يقول : (كانوا يقولون : لسان الحكيم . . .) بنحوه .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (العبادةُ عشرةُ أجزاءٍ ، تسعةٌ منها في الصمتِ ، وجزءٌ في الفرارِ منَ الناسِ)[١]

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كثُرَ كلامُهُ . . كثُرَ سَقَطُهُ ، ومَنْ كثُرَ سَقَطُهُ . . كثُرَتْ ذنوبُهُ ، ومَنْ كثُرَتْ ذنوبُهُ . . كانَتِ النارُ أولىٰ بهِ »[٢]

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

كانَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ يضعُ حصاةً في فيهِ يمنعُ بها نفسَهُ مِنَ الكلامِ ، وكانَ أبداً يشيرُ إلىٰ لسانِهِ ويقولُ : (هٰذا أوردَني المواردَ) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (واللهِ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ ؛ ما شيءٌ أحوجَ إلىٰ طولِ سجنٍ مِنْ لسانٍ)[٣]

وقالَ طاووسٌ : (لساني سَبُعٌ ، إنْ أَرسلتُهُ . . أكلَني)[٤]

وقالَ وهْبُ بنُ منبِّهٍ : في حكمةِ آلِ داوودَ : (حقٌّ على العاقلِ أنْ يكونَ عارفاً بزمانِهِ ، حافظاً للسانِهِ ، مقبلاً علىٰ شأنِهِ)[٥]

وقالَ الحسنُ : (ما عَقَلَ دينَهُ مَنْ لمْ يحفظْ لسانَهُ)[٦]

وقالَ الأوزاعيُّ : كتبَ إلينا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ : (أما بعدُ : فإنَّهُ مَنْ أكثرَ ذكرَ الموتِ . . رضيَ مِنَ الدنيا باليسيرِ ، ومَنْ عدَّ كلامَهُ مِنْ عملِهِ . . قلَّ كلامُهُ فيما لا ينفعُهُ)[٧]

وقالَ بعضُهم : (الصمتُ يجمعُ للرجلِ خصلتينِ : السلامةُ في دينِهِ ، والفهمُ عنْ صاحبِهِ)[٨]

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ لمالكِ بنِ دينارٍ : (يا أبا يحيىٰ ؛ حفظُ اللسانِ أشدُّ على الناسِ مِنْ حفظِ الدنانيرِ والدراهمِ)[٩]

وقالَ يونسُ بنُ عُبيدٍ : (ما مِنَ الناسِ أحدٌ يكونُ لسانُهُ منهُ علىٰ بالٍ إلا رأيتَ صلاحَ ذٰلكَ في سائرِ عملِهِ)[١٠]

---

(١) كذا رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٢/٨) عن وهيب بن الورد عن حكيم من الحكماء ، كما رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٤٤٢/٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (١٢٧) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٣٧) ، وابن عدي في « الكامل » (١٦/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٤/٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٠٣٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩) عن سفيان عن بعض الماضين ، وقد رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٢/١٢) عن حذيفة رضي الله عنه .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٥) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٥) عن محمد بن عبد الوهاب الكوفي .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٧) .

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠) .

وقالَ الحسنُ : كانوا يتكلمونَ عندَ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ والأحنفُ بنُ قيسٍ ساكتٌ ، فقالوا : ما لكَ لا تتكلمُ يا أبا بحرٍ ؟! قالَ : أخشى اللهَ إنْ كذبْتُ ، وأخشاكُمْ إنْ صدقْتُ [1]

وقالَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ : (اجتمعَ أربعةُ ملوكٍ ؛ ملكُ الهندِ ، وملكُ الصينِ ، وكسرىٰ ، وقيصرُ ، فقالَ أحدُهم : أنا أندمُ علىٰ ما قلتُ ولا أندمُ علىٰ ما لمْ أقلْ ، وقالَ الآخرُ : إنّي إذا تكلمتُ بكلمةٍ . . ملكَتْني ولمْ أملكْها ، وإذا لمْ أتكلمْ بها . . ملكْتُها ولم تملكْني ، وقالَ الثالثُ : عجبتُ للمتكلمِ !! إن رجعَتْ عليهِ كلمتُهُ . . ضرَّتْهُ ، وإنْ لمْ ترجعْ . . لمْ تنفعْهُ ، وقالَ الرابعُ : أنا علىٰ ردِّ ما لمْ أقلْ أقدَرُ منّي علىٰ ردِّ ما قلتُ) [2]

وقيلَ : إنَّ المنصورَ بنَ المعتمرِ لمْ يتكلَّمْ بكلمةٍ بعدَ عشاءِ الآخرةِ أربعينَ سنةً [3]

وقيلَ : ما تكلمَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ بكلامِ الدُّنيا عشرينَ سنةً ، وكانَ إذا أصبحَ . . وضعَ دواةً وقرطاساً نقياً وقلماً ، فكلُّ ما تكلَّمَ بهِ كتبَهُ ، ثمَّ يحاسبُ نفسَهُ عندَ المساءِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهٰذا الفضلُ الكبيرُ للصمتِ ما سببُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ سببَهُ كثرةُ آفاتِ اللسانِ ؛ مِنَ الخطأِ ، والكذبِ ، والنميمةِ ، والغيبةِ ، والرياءِ ، والنفاقِ ، والفُحْشِ ، والمِراءِ ، وتزكيةِ النفسِ ، والخصومةِ ، والفضولِ ، والخوضِ في الباطلِ ، والتحريفِ ، والزيادةِ والنقصانِ ، وإيذاءِ الخلقِ ، وهتْكِ العوراتِ .

فهٰذهِ آفاتٌ كثيرةٌ ، وهيَ سبَّاقةٌ إلى اللسانِ ، لا تثقلُ عليهِ ، ولها حلاوةٌ في القلبِ ، وعليها بواعثُ مِنَ الطبعِ ومِنَ الشيطانِ ، فالخائضُ فيها قلَّما يقدِرُ علىٰ أنْ يزمَّ لسانَهُ ، فيطلقُهُ بما يحبُّ ، ويمسكُهُ ويكفُّهُ عمَّا لا يحبُّ ، فإنَّ ذٰلكَ مِنْ غوامضِ العلمِ كما سيأتي تفصيلُهُ ، ففي الخوضِ خطرٌ ، وفي الصمتِ سلامةٌ ، فلذٰلكَ عظُمَ فضلُهُ .

هٰذا معَ ما فيهِ مِنْ جمعِ الهمِّ ، ودوامِ الوقارِ ، والفراغِ للفكرِ والعبادةِ والذكرِ ، والسلامةِ مِنْ تَبِعاتِ القولِ في الدنيا ومِنْ حسابِهِ في الآخرةِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

❁ ❁ ❁

ويدلُّكَ علىٰ فضلِ لزومِ الصَّمتِ أمرٌ ؛ وهوَ أنَّ الكلامَ أربعةُ أقسامٍ : قسمٌ هوَ ضررٌ محضٌ ، وقسمٌ هوَ نفعٌ محضٌ ، وقسمٌ فيهِ ضررٌ ومنفعةٌ ، وقسمٌ ليسَ فيهِ ضررٌ ولا منفعةٌ .

أمَّا الذي هوَ ضررٌ محضٌ : فلا بدَّ مِنَ السكوتِ عنهُ ، وكذٰلكَ ما فيهِ ضررٌ ومنفعةٌ لا تفي بالضررِ ، وأمَّا ما لا منفعةَ فيهِ ولا ضررَ . . فهوَ فضولٌ ، والاشتغالُ بهِ تضييعُ زمانٍ ، وهوَ عينُ الخسرانِ .

فلا يبقىٰ إلا القسمُ الرابعُ ، فقدْ سقطَ ثلاثةُ أرباعِ الكلامِ ، وبقيَ الربعُ ، وهٰذا الربعُ فيهِ خطرٌ ؛ إذْ يمتزجُ بهِ ما فيهِ إثمٌ مِنْ دقائقِ الرياءِ والتصنُّعِ والغيبةِ وتزكيةِ النفسِ ، وفضولِ الكلامِ امتزاجاً يخفىٰ مدركُهُ ، فيكونُ الإنسانُ بهِ مخاطراً .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٥) .

(٣) رواه الجرجاني في « تاريخ جرجان » (ص ٥٠١) وفيه : (ثلاثين) بدل (أربعين) .

ومَنْ عرفَ دقائقَ آفاتِ اللسانِ علىٰ ما سنذكرُهُ . . علمَ قطعاً أنَّ ما ذكرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هوَ فصلُ الخطابِ ؛ حيثُ قالَ : « مَنْ صمتَ . . نجا »[(١)] ، فلقدْ أُوتيَ ـ واللهِ ـ جواهرَ الحِكَمِ قطعاً وجوامعَ الكَلِمِ[(٢)] ، ولا يعرفُ ما تحتَ آحادِ كلماتِهِ مِنْ بحارِ المعاني إلا خواصُّ العلماءِ ، وفيما سنذكرُهُ مِنَ الآفاتِ وعسْرِ الاحترازِ عنها ما يعرِّفُكَ حقيقةَ ذٰلكَ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

ونحنُ الآنَ نعدُّ آفاتِ اللسانِ ، ونبتدئُ بأخفِّها ، ونترقَّىٰ إلى الأغلظِ قليلاً قليلاً ، ونؤخِّرُ الكلامَ في الغيبةِ والنميمةِ والكَذِبِ ؛ فإنَّ النظرَ فيها أطولُ ، وهيَ عشرونَ آفةً :

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

(٢) روى البخاري (٧٠١٣) ، ومسلم (٥٢٣/٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي » .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعنيك

اعلمْ : أنَّ أحسنَ أحوالِكَ أنْ تحفظَ ألفاظَكَ عَنْ جميعِ الآفاتِ التي ذكرْناها ؛ مِنَ الغيبةِ ، والنميمةِ ، والكذبِ ، والمراءِ ، والنفاقِ وغيرِهِ ، وتتكلمَ بما هوَ مباحٌ لا ضررَ عليكَ فيه ولا على مسلمٍ أصلاً ، إلا أنَّكَ تتكلمُ بما أنتَ مستغنٍ عنهُ ، ولا حاجةَ بكَ إليهِ ، فإنَّك مضيّعٌ بهِ زمانَكَ ، ومحاسَبٌ على عملِ لسانِكَ ، ومستبدِلٌ الذي هوَ أدنى بالذي هوَ خيرٌ ؛ لأنَّكَ لوْ صرفتَ زمانَ الكلامِ إلى الفكرِ . . ربما كانَ ينفتحُ لكَ مِنْ نفحاتِ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ عندَ الفكرِ ما يعظمُ جدواهُ ، ولوْ هللتَ اللهَ سبحانَهُ وتعالى وسبحتَهُ وذكرتَهُ . . لكانَ خيراً لكَ .

فكمْ مِنْ كلمةٍ يُبنى بها قصرٌ في الجنةِ ، ومَنْ قدرَ على أنْ يأخذَ كنزاً مِنَ الكنوزِ فأخذَ بدلَهُ مَدَرَةً لا ينتفعُ بها . . كانَ خاسراً خسراناً مبيناً .

وهـٰذا مثالُ مَنْ تركَ ذكرَ اللهِ تعالى واشتغلَ بمباحٍ لا يعنيه ؛ فإنَّهُ وإنْ لمْ يأثمْ فقدْ خسِرَ حيثُ فاتَهُ الرِّبحُ العظيمُ بذكرِ اللهِ تعالى ، فإنَّ المؤمنَ لا يكونُ صمتُهُ إلا فكراً ، ونظرُهُ إلا عِبرةً ، ونطقُهُ إلا ذِكراً ، هـٰكذا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (١)

بلْ رأسُ مالِ العبدِ أوقاتُهُ ، ومهما صرفَها إلى ما لا يعنيهِ ولمْ يدخرْ بها ثواباً في الآخرةِ . . فقدْ ضيَّعَ رأسَ مالِهِ ، ولهـٰذا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيه » (٢)

بلْ وردَ ما هوَ أشدُّ مِنْ هـٰذا ، قالَ أنسٌ : استُشهدَ غلامٌ منَّا يومَ أحدٍ ، فوُجِدَ على بطنِهِ صخرةٌ مربوطةٌ مِنَ الجوعِ ، فمسحَتْ أمُّهُ الترابَ عنْ وجهِهِ وقالَتْ : هنيئاً لكَ الجنةُ يا بنيَّ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما يدريكِ ؟ لعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ فيما لا يعنيهِ ، ويمنعُ ما لا يضرُّهُ » (٣)

وفي حديثٍ آخرَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقدَ كعباً ، فسألَ عنهُ ، فقالوا : مريضٌ ، فخرجَ يمشي حتَّى أتاهُ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . قالَ : « أبشرْ يا كعبُ » ، فقالَتْ أمُّهُ : هنيئاً لكَ الجنةُ يا كعبُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هـٰذهِ المتَألِّيةُ على اللهِ ؟ » ، قالَ : هيَ أمِّي يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « وما يدريكِ يا أمَّ كعبٍ ؟ لعلَّ كعباً قالَ ما لا يعنيهِ ، أوْ منعَ ما لا يغنيهِ » (٤) ، ومعناهُ : أنَّهُ إنَّما تتهيَّأُ الجنةُ لمَنْ لا يُحاسَبُ ، ومَنْ تكلَّمَ فيما لا يعنيهِ ، حُوسبَ عليهِ وإنْ كانَ كلامُهُ مباحاً ، فلا تتهيَّأُ الجنةُ لهُ معَ المناقشةِ في الحسابِ ؛ فإنَّهُ نوعٌ مِنَ العذابِ .

وعنْ محمدِ بنِ كعبٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ مَنْ يدخلُ مِنْ هـٰذا البابِ رجلٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ » ، فدخلَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ ، فقامَ إليهِ ناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرُوهُ بذٰلكَ ، وقالُوا :

---

(١) إذ روى القضاعي في « مسند الشهاب » (١١٥٩) عن ابن عائشة ، عن أبيه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته : « إن ربي أمرني أن يكون نطقي ذكراً ، وصمتي فكراً ، ونظري عبرة » .

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٩٠٣/٢) مرسلاً عن زين العابدين علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠١٧) ، وهو عند الترمذي (٢٣١٦) مختصراً .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٠) .

أخبِرْنا بأوثقِ عملِكَ في نفسِكَ ترجو بهِ ، فقالَ : إنِّي لضعيفٌ ، وإنَّ أوثقَ ما أرجو بهِ اللهَ سلامةُ الصدرِ ، وتركُ ما لا يعنيني[1]

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أعلِّمُكَ بعملٍ خفيفٍ على البدنِ ، ثقيلٍ في الميزانِ ؟ » قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « هوَ الصَّمتُ ، وحسنُ الخُلُقِ ، وتركُ ما لا يعنيكَ »[2]

وقالَ مجاهدٌ : سمعتُ ابنَ عباسٍ يقولُ : (خمسٌ لهنَّ أحسنُ مِنَ الدُّهْمِ الموقَفَةِ : لا تتكلمْ فيما لا يعنيكَ ؛ فإنَّهُ فضْلٌ ، ولا آمنُ عليكَ الوزْرَ ، ولا تتكلمْ فيما يعنيكَ حتَّىٰ تجدَ لهُ موضعاً ؛ فإنَّهُ ربَّ متكلمٍ في أمرٍ يعنيهِ قدْ وضعَهُ في غيرِ موضعِهِ فعَنِتَ ، ولا تمارِ حليماً ولا سفيهاً ؛ فإنَّ الحليمَ يقليكَ ، وإنَّ السفيهَ يؤذيكَ ، واذكرْ أخاكَ إذا تغيَّبَ عنكَ بما تحبُّ أنْ يذكرَكَ بهِ ، وأعفِهِ ممَّا تحبُّ أنْ يعفيَكَ منهُ ، وعاملْ أخاكَ بما تحبُّ أنْ يعاملَكَ بهِ ، واعملْ عملَ رجلٍ يرىٰ أنَّهُ مجازىً بالإحسانِ مأخوذٌ بالاجترام)[3]

وقيلَ للقمانَ الحكيمِ : ما حكمتُكَ ؟ قالَ : لا أسأَلُ عمَّا كُفيتُ ، ولا أتكلَّفُ ما لا يعنيني[4]

وقالَ مُوَرِّقٌ العجليُّ : أمرٌ أنا في طلبِهِ منذُ عشرينَ سنةً لم أقدرْ عليهِ ، ولستُ بتاركٍ طلبَهُ ، قالوا : وما هوَ ؟ قالَ : الصمتُ عمَّا لا يعنيني[5]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تتعرَّضْ لما لا يعنيكَ ، واعتزلْ عدوَّكَ ، واحذرْ صديقَكَ مِنَ القومِ إلا الأمينَ ، ولا أمينَ إلا مَنْ خشيَ اللهَ تعالىٰ ، ولا تصحبِ الفاجرَ فتتعلَّمَ مِنْ فجورِهِ ، ولا تطلعْهُ علىٰ سرِّكَ ، واستشرْ في أمرِكَ الذينَ يخشونَ اللهَ تعالىٰ)[6]

وحدُّ ما لا يعنيكَ[7] : أنْ تتكلمَ بكلِّ ما لوْ سكتَّ عنهُ . . لمْ تأثمْ ، ولمْ تتضرَّرْ في حالٍ ولا مآلٍ .

مثالُهُ : أنْ تجلِسَ معَ قومٍ فتذكرَ لهمْ أسفارَكَ ، وما رأيتَ فيها مِنْ جبالٍ وأنهارٍ ، وما وقعَ لكَ مِنَ الوقائعِ ، وما استحسنتَهُ مِنَ الأطعمةِ والثيابِ ، وما تعجبتَ منهُ مِنْ مشايخِ البلادِ ووقائعِهِمْ ، فهٰذهِ أمورٌ لوْ سكتَّ عنها . . لمْ تأثمْ ولمْ تتضرَّرْ ، وإذا بالغتَ في الاجتهادِ حتَّىٰ لمْ يمتزجْ بحكايتِكَ زيادةٌ ولا نقصانٌ ، ولا تزكيةُ نفسٍ مِنْ حيثُ التفاخرُ بمشاهدةِ الأحوالِ العظيمةِ ، ولا اغتيابٌ لشخصٍ ، ولا مذمةٌ لشيءٍ ممَّا خلقَهُ اللهُ تعالىٰ . . فأنتَ معَ ذٰلكَ كلِّهِ مضيِّعٌ زمانَكَ ، وأنَّىٰ تسلمُ مِنَ الآفاتِ التي ذكرْناها ؟!

ومِنْ جملتِهِ : أنْ تسألَ غيرَكَ عمَّا لا يعنيكَ ، فأنتَ بالسؤالِ مضيِّعٌ وقتَكَ ، وقدْ ألجأتَ صاحبَكَ أيضاً بالجوابِ إلى التضييعِ ، هٰذا إذا كانَ الشيءُ ممَّا لا يتطرَّقُ إلى السؤالِ عنهُ آفةٌ ، وأكثرُ الأسئلةِ فيها آفاتٌ ، فإنَّكَ تسألُ غيرَكَ مثلاً عنْ عبادتِهِ ، فتقولُ : هلْ أنتَ صائمٌ ؟ فإنْ قالَ : نعمْ . . كانَ مُظهراً لعبادتِهِ ، فيدخُلُ عليهِ الرياءُ ، وإنْ لمْ يدخُلْ . .

---

(١) كذا رواه مرسلاً ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٢) عن وهيب بن الورد بلاغاً ، وتقدم نحوه قريباً عن صفوان بن سليم .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٤) ، والدهم الموقفة : الخيل السوداء المعدَّة للركوب .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٣٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٥) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٢٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٨) .

(٦) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٠٤١) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٠) .

(٧) أي : لا تتعلق به عنايتك ، ولا يكون من مقصدك ومطلوبك ؛ لأن العناية شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه ؛ إذا اهتم به وطلبه . « إتحاف » (٧/٤٦٢) .

سقطَتْ عبادتُهُ مِنْ ديوانِ السرّ ، وعبادةُ السرّ تفضلُ عبادةَ الجهرِ بدرجاتٍ ، وإنْ قالَ : لا . . كانَ كاذباً ، وإنْ سكتَ . . كانَ مستحقراً لكَ وتأذيتَ بهِ ، وإنِ احتالَ لمدافعةِ الجوابِ . . افتقرَ إلىٰ جهدٍ وتعبٍ فيهِ ، فقدْ عرَّضتَهُ بالسؤالِ إمَّا للرياءِ ، أوْ للكذبِ ، أوْ للاستحقارِ ، أوْ للتعبِ في حيلةِ الدفعِ .

وكذٰلكَ سؤالُكَ عنْ سائرِ عباداتِهِ .

وكذٰلكَ سؤالُكَ عنِ المعاصي ، وعنْ كلِّ ما يخفيهِ ويستحيي منهُ ، وسؤالُكَ عمَّا تحدَّثَ بهِ غيرُكَ ، فتقولُ لهَ : ماذا تقولُ ؟ وفيمَ أنتمْ ؟

وكذٰلكَ ترىٰ إنساناً في الطريقِ ، فتقولُ : مِنْ أينَ ؟ فربَّما يمنعُهُ مانعٌ مِنْ ذكرِهِ ، فإنْ ذكرَهُ . . تأذَّىٰ بهِ واستحيا ، وإنْ لمْ يصدُقْ . . وقعَ في الكذبِ وكنتَ أنتَ السببَ فيهِ .

وكذٰلكَ تسألُ عنْ مسألةٍ لا حاجةَ بكَ إليها ، والمسؤولُ ربما لا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يقولَ : لا أدري ، فيجيبُ عنْ غيرِ بصيرةٍ .

ولستُ أعني بالتكلُّمِ بما لا يعني هٰذهِ الأجناسَ ، فإنَّ هٰذا يتطرَّقُ إليهِ إثمٌ أوْ ضررٌ ، وإنَّما مثالُ ما لا يعني : ما رُوِيَ أنَّ لقمانَ الحكيمَ دخلَ علىٰ داوودَ عليهِ السلامُ وهوَ يسردُ الدرعَ [1] ، ولمْ يكنْ رآها قبلَ ذٰلكَ اليومِ ، فجعلَ يتعجَّبُ ممَّا يرىٰ ، فأرادَ أنْ يسألَهُ ، فمنعَتْهُ حكمتُهُ ، فأمسكَ نفسَهُ ولمْ يسألْهُ ، فلمَّا فرغَ . . قامَ داوودُ ولبسَهُ ثمَّ قالَ : نعمَ الدرْعُ للحربِ ، فقالَ لقمانُ : الصَّمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُهُ ، أردتُ أنْ أسألَكَ ، فكفيتَني ، وقيلَ : إنَّهُ كانَ يتردَّدُ إليهِ سنةً وهوَ يريدُ أنْ يعلمَ ذٰلك ، فلمْ يسألْ حتىٰ حصلَ عليهِ مِنْ غيرِ سؤالٍ [2]

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأسئلةِ إذا لمْ يكنْ فيهِ ضررٌ ، وهتْكُ سترٍ ، وتوريطٌ في رياءٍ وكذبٍ . . فهوَ ممَّا لا يعني ، وتركُهُ مِنْ حُسْنِ الإسلامِ ، فهٰذا حدُّهُ [3]

وأمَّا سببُهُ الباعثُ عليهِ : فالحرصُ علىٰ معرفةِ ما لا حاجةَ بهِ إليهِ ، أوِ المباسطةُ بالكلامِ علىٰ سبيلِ التودُّدِ ، أوْ تزجيةُ الوقتِ بحكاياتِ أحوالٍ لا فائدةَ فيها ؟

وعلاجُ ذٰلكَ كلِّهِ : أنْ يعلمَ أنَّ الموتَ بينَ يديهِ ، وأنَّهُ مسؤولٌ عنْ كلِّ كلمةٍ ، وأنَّ أنفاسَهُ رأسُ مالِهِ ، وأنَّ لسانَهُ شبكةٌ يقدِرُ علىٰ أنْ يقتنصَ بها الحورَ العينَ ، فإهمالُهُ ذٰلكَ وتضييعُهُ خسرانٌ مبينٌ ، هٰذا علاجُهُ من حيثُ العلمُ .

وأمَّا مِنْ حيثُ العملُ . . فالعزلةُ ، أوْ أنْ يضعَ حصاةً في فيهِ [4] ، وأنْ يلزمَ نفسَهُ السكوتَ عَنْ بعضِ ما يعنيهِ ليتعوَّدَ اللسانُ تركَ ما لا يعنيهِ ، وضبطُ اللسانِ في هٰذا علىٰ غيرِ المعتزلِ شديدٌ جداً .

❋ ❋ ❋

---

(١) سرد الدرع : نسجه وصناعته .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٦٧١) ، وتقدم بعضه مرفوعاً .

(٣) فمَنْ عبدَ اللهَ على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه ، وعلى استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه . . فقد حسن إسلامه ، ولزمه من ذٰلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ، ويشتغل بما يعنيه فيه ؛ فإنه يتولد من هٰذين المقامين الاستحياء من الله تعالىٰ . « إتحاف » (٧/٤٦٤) .

(٤) وقد روى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٣٨) عن أرطاة بن المنذر قال : (تعلم رجل الصمت أربعين سنة بحصاة يضعها في فيه ، لا ينزعها إلا عند طعام أو شراب أو نوم) .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهوَ أيضاً مذمومٌ ، وهٰذا يتناولُ الخوضَ فيما لا يعني ، والزيادةَ فيما يعني علىٰ قدْرِ الحاجةِ ، فإنَّ مَنْ يعنيهِ أمرٌ . . يمكنُهُ أنْ يذكرَهُ بكلامٍ مختصرٍ ، ويمكنُهُ أنْ يجنحَهُ ويكررَهُ(١)

ومهما تأدَّىٰ مقصودُهُ بكلمةٍ واحدةٍ فذكرَ كلمتينِ . . فالثانيةُ فضولٌ ؛ أيْ : فضلٌ عنِ الحاجةِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ لما سبقَ ، وإنْ لمْ يكنْ فيهِ إثمٌ ولا ضررٌ .

قالَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ : (إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ كانوا يكرهُونَ فضولَ الكلامِ ، وكانوا يعدُّونَ فضولَ الكلامِ ما عدا كتابَ اللهِ تعالىٰ ، أوْ سنةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أوْ أمراً بمعروفٍ ، أوْ نهياً عنْ منكرٍ ، أوْ تنطقَ بحاجتِكَ في معيشتِكَ التي لا بدَّ لكَ منها ، أتنكرونَ أنَّ عليكمْ حافظينَ ، كراماً كاتبينَ ، عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قعيدٌ ، ما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ ؟! أما يستحي أحدُكمْ إذا نُشرَتْ صحيفتُهُ التي أملاها صدرَ نهارِهِ كانَ أكثرُ ما فيها ليسَ مِنْ أمرِ دينِهِ ولا دنياهُ ؟!)(٢)

وعنْ بعضِ الصحابةِ قالَ : (إنَّ الرجلَ ليكلمُني بالكلامِ لجَوابُهُ أشهىٰ إليَّ مِنَ الماءِ الباردِ إلى الظمآنِ ، فأتركُ جوابَهُ ؛ خيفةَ أنْ يكونَ فضلاً)(٣)

وقالَ مُطرِّفٌ : (ليعظمَ جلالُ اللهِ في قلوبِكمْ ؛ فلا تذكروهُ عندَ مثلِ قولِ أحدِكمْ للكلبِ وللحمارِ : اللهمَّ ؛ أخزِهِ ، وما أشبهَ ذٰلكَ)(٤)

واعلمْ أنَّ فضولَ الكلامِ لا ينحصرُ ، بلِ المهمُّ محصورٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ أمسكَ الفضلَ مِنْ لسانِهِ ، وأنفقَ الفضلَ مِنْ مالِهِ »(٦)

فانظرْ كيفَ قلبَ الناسُ الأمرَ في ذٰلكَ ، فأمسكوا فضلَ المالِ ، وأطلقوا فضلَ اللسانِ .

وعنْ مُطرِّفِ بنِ عبدِ اللهِ ، عنْ أبيهِ قالَ : قدمتُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في رهْطٍ مِنْ بني عامرٍ ، فقالوا : أنتَ والدُنا ، وأنتَ سيِّدُنا ، وأنتَ أفضلُنا علينا فضلاً ، وأنتَ أطولُنا علينا طولاً ، وأنتَ الجفنةُ الغراءُ ، وأنتَ وأنتَ ، فقالَ : « قولوا بقولِكمْ ولا يستهوينَّكُمُ الشيطانُ »(٧) ، إشارةً إلىٰ أنَّ اللسانَ إذا أُطلِقَ بالثناءِ ولوْ بالصدقِ . . فيُخشىٰ أنْ يستهويَهُ الشيطانُ إلى الزيادةِ المستغنىٰ عنها .

---

(١) يجنحه : يطوله فيجعل له جناحاً . « إتحاف » (٤٦٤/٧) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦١٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٤/٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٢٨) عن سعد بن مسعود عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٤) .

(٥) كما روىٰ معنىٰ هٰذا عن سفيان ابنُ أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤) .

(٦) رواه ابن أبي عاصم في « الزهد » (١٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٧١/٥) من حديث ركب المصري وهو مختلف في صحبته ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٣٨٤/١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٣) ، وهو بنحوه رواه أبو داوود (٤٨٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٠٠٤) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (أنذرُكمْ فضولَ الكلامِ ، بحسبِ امرئٍ ما بلغَ بهِ حاجتَهُ)[1]

وعنْ مجاهدٍ قالَ : (إنَّ الكلامَ ليُكتبُ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ ليسكتُ ابنَهُ فيقولُ : أبتاعُ لكَ كذا وكذا ، فيُكتبُ كذبيةً)[2]

وقالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ بُسطَتْ لكَ صحيفةٌ ، ووُكِّلَ بها ملَكانِ كريمانِ يكتبانِ عملَكَ ، فأمْلِ ما شئتَ ، وأكثرْ أوْ أقلِلْ)[3]

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهما السلامُ بعثَ بعضَ عفاريتِهِ ، وبعثَ نفراً ينظرونَ ما يقولُ ويخبرونَهُ ، فأخبروهُ أنَّهُ مرَّ على السُّوقِ ، فرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ، ثمَّ نظرَ إلى الناسِ وهزَّ رأسَهُ ، فسألَهُ سليمانُ عنْ ذٰلكَ ، فقالَ : عجبْتُ مِنَ الملائكةِ علىٰ رؤوسِ الناسِ ما أسرعَ ما يكتبونَ !! ومِنَ الذينَ أسفلَ منهُمْ ما أسرعَ ما يُمْلونَ !![4]

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (المؤمنُ إذا أرادَ أنْ يتكلمَ . . نظرَ ؛ فإنْ كانَ لهُ . . تكلَّمَ ، وإلَّا . . أمسكَ ، والفاجرُ إنَّما لسانُهُ رَسَلاً رَسَلاً)[5]

وقالَ الحسنُ : (مَنْ كثرَ كلامُهُ . . كثرَ كذبُهُ ، ومَنْ كثرَ مالُهُ . . كثرَتْ ذنوبُهُ ، ومَنْ ساءَ خلُقُهُ . . عذَّبَ نفسَهُ)[6]

وقالَ عمرُو بنُ دينارٍ : تكلَّمَ رجلٌ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأكثرَ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ دونَ لسانِكَ مِنْ بابٍ ؟ » ، فقالَ : شفتايَ وأسناني ، قالَ : « أما كانَ لكَ في ذٰلك ما يردُّ كلامَكَ ؟ » ، وفي روايةٍ أنَّهُ قالَ ذٰلكَ في رجلٍ أثنىٰ عليهِ فاستحفزَ في الكلامِ ، ثمَّ قال : « ما أُوتي رجلٌ شرّاً مِنْ فضْلٍ في لسانٍ »[7]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : (إنَّهُ ليمنعُني مِنْ كثيرٍ مِنَ الكلامِ مخافةُ المباهاةِ)[8]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا كانَ المرءُ في مجلسٍ فأعجبَهُ الحديثُ . . فليسكتْ ، وإنْ كانَ ساكتاً فأعجبَهُ السكوتُ . . فليتحدَّثْ)[9]

وقالَ يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ : (مِنْ فتنةِ العالمِ أنْ يكونَ الكلامُ أحبَّ إليهِ مِنَ الاستماعِ وإنْ وجدَ مَنْ يكفيهِ ، فإنَّ في الاستماعِ سلامةً ، وفي الكلامِ تزيُّنٌ وزيادةٌ ونقصانٌ)[10]

وقالَ ابنُ عمرَ : (إنَّ أحقَّ ما طهَّرَ الرجلُ لسانُهُ)[11]

---

(١) رواه ابن وهب في « جامعه » (٤٦٢) ، والطبراني في « الكبير » (٩/٩٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٥٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٦) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٨) ، قاله وقد ذكر عنده الحسن ، ورسلاً رسلاً : متتابعاً

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٠) .

(٧) رواهما ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٣ ، ٩٤) مرسلاً وبلاغاً ، واستحفز : بالغ وأطال .

(٨) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٦) .

(٩) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٧) .

(١٠) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٨) .

(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٩) .

ورأىٰ أبو الدرداءِ امرأةً سليطةً ، فقالَ : (لوْ كانَتْ هـٰذهِ خرساءَ . . كانَ خيراً لها) (١)

وقالَ إبراهيمُ : (يَهلِكُ الناسُ في خَلَّتينِ : فضولُ المالِ ، وفضولُ الكلامِ) (٢)

فهـٰذهِ مذمَّةُ فضولِ الكلامِ وكثرتِهِ ، وسببُهُ الباعثُ عليهِ ، **وعلاجُهُ** : ما سبقَ في الكلامِ فيما لا يعني .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٣) .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهوَ الكلامُ في المعاصي ؛ كحكايةِ أحوالِ النساءِ[1] ، ومجالسِ الخمرِ ، ومقاماتِ الفسَّاقِ ، وتنعُّمِ الأغنياءِ ، وتجبُّرِ الملوكِ ، ومراسمِهِمُ المذمومةِ ، وأحوالِهِمُ المكروهةِ ، فإنَّ كلَّ ذٰلكَ ممَّا لا يحلُّ الخوضُ فيهِ ، فهٰذا حرامٌ .

وأمَّا الكلامُ فيما لا يعني ، أوْ أكثرَ ممَّا يعني . . فهوَ تركُ الأولىٰ ، ولا تحريمَ فيهِ .

نعمْ ؛ مَنْ يكثرُ الكلامَ فيما لا يعني لا يُؤمنُ عليهِ الخوضُ في الباطلِ ، وأكثرُ الناسِ يتجالسونَ للتفرُّجِ بالحديثِ ، ولا يعدو كلامُهُمُ التفكُّهَ بأعراضِ الناسِ ، أوِ الخوضَ في الباطلِ .

وأنواعُ الباطلِ لا يمكنُ أنْ تُحصىٰ ؛ لكثرتِها وتفنُّنِها ، فلذٰلكَ لا مخلصَ منها إلا بالاقتصارِ علىٰ ما يعني مِنْ مهماتِ الدينِ والدنيا ، وفي هٰذا الجنسِ تقعُ كلماتٌ يهلَكُ بها صاحبُها وهوَ مستحقرٌ لها ، فقدْ قالَ بلالُ بنُ الحارثِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ رُضوانِ اللهِ ما يظنُّ أنْ تبلغَ ما بلغَتْ ، يكتبُ اللهُ لهُ بها رُضوانَهُ إلىٰ يومِ يلقاهُ ، وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ ما يَظنُّ أنْ تبلغَ بهِ ما بلغَتْ ، يكتبُ اللهُ عليهِ بها سَخَطَهُ إلىٰ يومِ القيامَةِ »[2]

قالَ : فكانَ علقمةُ يقولُ : (كمْ مِنْ كلامٍ قدْ منعَنيهِ حديثُ بلالِ بنِ الحارثِ)[3]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحِكُ بها جلساءَهُ يهوي بها أبعدَ مِنَ الثُّريَّا »[4]

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنمَ ، وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يلقي لها بالاً يرفعُهُ اللهُ بها في الجنَّةِ)[5]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعظمُ النَّاسِ خطايا يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ خوضاً في الباطلِ »[6] ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ .

وقالَ سلمانُ : (أكثرُ الناسِ ذنوباً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ كلاماً في معصيةِ اللهِ)[7]

وقالَ ابنُ سيرينَ : (كانَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ يمرُّ بمجلسٍ لهمْ فيقولُ : توضَّؤوا ؛ فإنَّ بعضَ ما تقولونَ شرٌّ مِنَ الحدثِ)[8]

---

(١) مما يتعلق بهن ؛ كأن يقول : قالت لي كذا ، وقلت لها كذا ، وفعلتْ كذا ، وما أشبه ذٰلك . « إتحاف » (٤٦٧/٧) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٩) ، وابن ماجه (٣٩٦٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا هٰكذا متابعاً للحديث السابق في « الصمت وآداب اللسان » (٧٠) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

(٥) رواه مالك في « الموطأ » (٩٨٥/٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٢) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٤) .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٠٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٥) .

(٨) رواه ابن وهب في « جامعه » (٤٦٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٥) .

فهٰذا هوَ الخوضُ في الباطلِ ، وهوَ وراءَ ما سيأتي مِنَ الغيبةِ والنميمةِ والفُحْشِ وغيرِهِ ، بلْ هوَ الخوضُ في ذكرِ محظوراتٍ سبقَ وجودُها ، أوْ تُدبِّرَ للتوصُّلِ إليها مِنْ غيرِ حاجةٍ دينيَّةٍ إلىٰ ذكرِها[1] ، ويدخلُ فيهِ أيضاً الخوضُ في حكايةِ البدعِ والمذاهبِ الفاسدةِ ، وحكايةِ ما جرىٰ مِنْ قتالِ الصحابةِ علىٰ وجهٍ يوهمُ الطَّعنَ في بعضِهِمْ ، وكلُّ ذٰلكَ باطلٌ ، والخوضُ فيهِ خوضٌ في الباطلِ ، نسألُ اللهَ حسنَ العونِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) في (ب ، ج) : (دعته) بدل (دينية) .

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تمارِ أخاكَ ولا تمازحْهُ ولا تعِدْهُ موعداً فتُخْلفَهُ »[١]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ذَرُوا المراءَ ؛ فإنَّهُ لا تُفهمُ حكمتُهُ ، ولا تُؤمنُ فتنتُهُ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تَركَ المِراءَ ، وهوَ محقٌّ . . بُنِيَ لهُ بيتٌ في أعلى الجنَّةِ ، ومَنْ تَركَ المراءَ وهوَ مُبْطِلٌ . . بُنِيَ له بيتٌ في رَبَضِ الجنَّةِ »[٣]

وعنْ أمِّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ ما عهِدَ إليَّ ربِّي ونهاني عنهُ بعدَ عبادةِ الأوثانِ وشربِ الخمرِ ملاحاةُ الرِّجالِ »[٤]

وقالَ أيضاً : « ما ضلَّ قومٌ بعدَ أنْ هداهُمُ اللهُ إلَّا أُوتُوا الجدَلَ »[٥]

وقالَ أيضاً : « لا يستكمِلُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يدعَ المراءَ وإنْ كانَ محقاً »[٦]

وقالَ أيضاً : « ستٌّ مَنْ كُنَّ فيهِ . . بلغَ حقيقةَ الإيمانِ : الصومُ في الصَّيفِ ، وضرْبُ أعداءِ اللهِ بالسَّيفِ ، وتعجيلُ الصلاةِ في يومِ الدَّجْنِ ، والصَّبرُ على المصيباتِ ، وإسباغُ الوضوءِ على المكارهِ ، وتركُ المراءِ وهوَ صادقٌ »[٧]

وقالَ الزبيرُ لابنِهِ : (لا تجادلِ الناسَ بالقرآنِ ؛ فإنَّكَ لا تستطيعُهُمْ ، ولـٰكنْ عليكَ بالسُّنَّةِ)[٨]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : (مَنْ جعلَ دينَهُ غُرْضةً للخصوماتِ . . أكثرَ التنقُّلَ)[٩]

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ : (إياكُمْ والمراءَ ؛ فإنَّهُ ساعةُ جهلِ العالِمِ ، وعندَها يبتغي الشيطانُ زلَّتَهُ)[١٠]

وقيلَ : ما ضلَّ قومٌ بعدَ إذْ هداهُمُ اللهُ إلا بالجدالِ .

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليه : (ليسَ هـٰذا الجدالُ مِنَ الدينِ في شيءٍ)[١١]

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٥٢/٨) ، وليس فيه قوله : (لا تفهم حكمته) ، وقد روى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (المراء لا تعقل حكمته ، ولا تؤمن فتنته) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٣) ، وابن ماجه (٥١) ، **وربض الشيء** : نواحيه ، أو أدناه وأسفله .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٤) ، والطبراني في « الكبير » (٨٣/٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٨٢) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٤٥٤١) عن عروة بن رويم مرسلاً ، **والملاحاة** : الملامة مع الاستقصاء والمباغضة .

(٥) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٥) بنحوه .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٩) .

(٧) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٤٤٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٨٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، **ويوم الدجن** : يوم الغيم المطبق ، ويطلق الدجن على المطر الكثير .

(٨) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٦١٠) .

(٩) رواه الدارمي في « سننه » (٣١٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦١) .

(١٠) رواه الدارمي في « سننه » (٤١٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٥) .

(١١) رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٢٣٨) بنحوه ، وأورده ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٧٠) .

وقالَ أيضاً : (المراءُ يقسّي القلوبَ ، ويورثُ الضغائنَ)[1]

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تجادِلِ العلماءَ فيمقتوكَ)[2]

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (إذا رأيتَ الرجلَ لَجوجاً ممارياً معجباً برأيِهِ . . فقدْ تمَّتْ خسارتُهُ)[3]

وقالَ سفيانُ : (لوْ خالفتُ أخي في رمانةٍ ، فقالَ : حلوةٌ ، وقلْتُ : حامضةٌ . . لسعىٰ بي إلى السلطانِ)[4]

وقالَ أيضاً : (صافِ مَنْ شئْتَ ، ثمَّ أغضبْهُ بالمِراءِ ، فليرمينَّكَ بداهيةٍ تمنعُكَ العيشَ) .

وقالَ ابنُ أبي ليلىٰ : (لا أماري صاحبي ؛ فإمَّا أنْ أكذبَهُ ، وإمَّا أنْ أغضبَهُ)[5]

وقالَ أبو الدرداءِ : (كفىٰ بكَ إثماً ألَّا تزالَ ممارياً)[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تكفيرُ كلِّ لحاءٍ ركعتانِ »[7]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تتعلمِ العلمَ لثلاثٍ ، ولا تتركْهُ لثلاثٍ ؛ لا تتعلمْ لتُماريَ بِهِ ، ولا لتباهيَ بِهِ ، ولا لترائيَ بِهِ ، ولا تتركْهُ حياءً مِنْ طلبِهِ ، ولا زهادةً فيهِ ، ولا رضاً بالجهلِ منهُ)[8]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ كثُرَ كذبُهُ . . ذهبَ جمالُهُ ، ومَنْ لاحى الرِّجالَ . . سقطَتْ مروءتُهُ ، ومَنْ كَثُرَ همُّهُ . . سقمَ جسمُهُ ، ومَنْ ساءَ خلُقُهُ . . عذَّبَ نفسَهُ)[9]

وقيلَ لميمونِ بنِ مهرانَ : ما لكَ لا يفارقُكَ أخٌ لكَ عنْ قلىً ؟! قالَ : لأنِّي لا أشاريهِ ولا أماريهِ[10]

وما وردَ في ذمِّ المراءِ والجدالِ كثيرٌ .

وحدُّ المراءِ : هوَ كلُّ اعتراضٍ علىٰ كلامِ الغيرِ ، بإظهارِ خللٍ فيهِ ؛ إمَّا في اللفظِ ، وإمَّا في المعنىٰ ، وإمَّا في قصدِ المتكلمِ .

وتركُ المراءِ : بتركِ الإنكارِ والاعتراضِ ، فكلُّ كلامٍ سمعتَهُ ؛ فإنْ كانَ حقّاً . . فصدِّقْ بهِ ، وإنْ كان باطلاً أوْ كذباً ولمْ يكنْ متعلقاً بأمورِ الدينِ . . فاسكتْ عنهُ .

❁ ❁ ❁

والطعنُ في كلامِ الغيرِ تارةً يكونُ في لفظِهِ : بإظهارِ خللٍ فيهِ مِنْ جهةِ النحوِ ، أوْ مِنْ جهةِ اللغةِ ، أوْ مِنْ جهةِ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٥/٦١) .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩١) عن الربيع الخولاني عنه ضمن خبر تقدم بعضه .
(٣) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٨/٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٢٢) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٤) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٠) .
(٧) رواه الطبراني في « الكبير » (١٤٩/٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦٩/٥٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً ، وأوقفه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٧٣١) علىٰ أبي هريرة رضي الله عنه .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣١) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٣) عن عبد العزيز بن حصين بلاغاً عنه عليه السلام .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤٦) ، والمشاراة : المخاصمة .

العربيَّةِ ، أوْ مِنْ جهةِ النظمِ والترتيبِ بسوءِ تقديمٍ وتأخيرٍ ، وذٰلكَ تارةً يكونُ مِنْ قصورِ المعرفةِ ، وتارةً يكونُ بطغيانِ اللسانِ ، وكيفما كانَ . . فلا وجهَ لإظهارِ خللِهِ .

وأمَّا في المعنىٰ . . فبأنْ يقولَ : ليسَ كما تقولُ ، وقدْ أخطأتَ فيهِ مِنْ وجهِ كذا وكذا .

وأمَّا في قصدِهِ . . فمثلُ أنْ يقولَ : هـٰذا الكلامُ حقٌّ ، ولـٰكنْ ليسَ قصدُكَ منهُ الحقَّ ، وإنَّما أنتَ فيهِ صاحبُ غرضٍ ، وما يجري مَجراهُ ، وهـٰذا الجنسُ إنْ جرىٰ في مسألةٍ علميَّةٍ . . فربَّما خُصَّ باسمِ الجدلِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ ، بلِ الواجبُ السكوتُ ، أوِ السؤالُ في مَعْرِضِ الاستفادةِ ، لا علىٰ وجهِ العنادِ والنكادةِ ، أوِ التلطفُ في التعريفِ لا في مَعْرِضِ الطعنِ .

وأمَّا المجادلةُ : فعبارةٌ عنْ قصدِ إفحامِ الغيرِ ، وتعجيزِهِ وتنقيصِهِ بالقدحِ في كلامِهِ ، ونسبتِهِ إلى القصورِ والجهلِ فيهِ .

وآيةُ ذٰلكَ : أن يكونَ تنبيهُهُ للحقِّ منْ جهةٍ أخرىٰ مكروهاً عندَ المجادِلِ ، بلْ يحبُّ أنْ يكونَ هوَ المظهرَ لهُ خطأَهُ ؛ ليبيِّنَ بهِ فضلَ نفسِهِ ونقصَ صاحبِهِ ، ولا نجاةَ مِنْ هـٰذا إلا بالسكوتِ عنْ كلِّ ما لا يأثمُ بهِ لوْ سكتَ عنهُ .

وأمَّا الباعثُ علىٰ هـٰذا : فهوَ الترفُّعُ بإظهارِ العلمِ والفضْلِ ، والتهجُّمُ على الغيرِ بإظهارِ نقصِهِ ، وهما شهوتانِ باطنتانِ للنفسِ قويَّتانِ .

أمَّا إظهارُ الفضلِ . . فهوَ منْ قبيلِ تزكيةِ النفسِ ، وهيَ مِنْ مقتضىٰ ما في العبدِ مِنْ طغيانِ دعوى العلوِّ والكبرياءِ ، وهيَ مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ .

وأمَّا تنقيصُ الآخرِ . . فهوَ مِنْ مقتضىٰ طبعِ السبعيَّةِ ؛ فإنَّهُ يقتضي أنْ يمزِّقَ غيرَهُ ، ويقصِمَهُ ويصدِمَهُ ويؤذيَهُ .

وهاتانِ صفتانِ مذمومتانِ مهلكتانِ ، وإنَّما قُوَّتُهما المراءُ والجدالُ ، فالمواظبُ على المراءِ والجدالِ مقوٍّ لهـٰذهِ الصفاتِ المهلكةِ ، وهـٰذا مجاوزٌ حدَّ الكراهةِ ، بلْ هوَ معصيةٌ مهما حصَلَ فيهِ إيذاءُ الغيرِ .

ولا تنفكُّ المماراةُ عنِ الإيذاءِ وتهييجِ الغضبِ ، وحملِ المعترِضِ عليهِ علىٰ أنْ يعودَ فينصرَ كلامَهُ بما يمكنُهُ مِنْ حقٍّ أوْ باطلٍ ، ويقدحَ في قائلِهِ بكلِّ ما يُتصوَّرُ لهُ ، فيثورُ الشجارُ بينَ المتمارِيينِ كما يثورُ الهِراشُ بينَ الكلبينِ ، يقصدُ كلُّ واحدٍ منهما أنْ يعضَّ صاحبَهُ بما هوَ أعظمُ نكايةً ، وأقوىٰ في إفحامِهِ وإثخانِهِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا علاجُهُ : فهوَ بأنْ يكسِرَ الكبرَ الباعثَ لهُ علىٰ إظهارِ فضلِهِ ، والسبعيَّةَ الباعثةَ لهُ علىٰ تنقيصِ غيرِهِ ، كما سيأتي ذٰلكَ في كتابِ ذمِّ الكبرِ والعُجْبِ ، وكتابِ ذمِّ الغضبِ ؛ فإنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ بإماطةِ سببِها ، وسببُ المراءِ والجدالِ ما ذكرناهُ ، ثمَّ المواظبةُ عليهِ تجعلُهُ عادةً وطبعاً ، حتَّىٰ يتمكَّنَ مِنَ النفسِ ، ويعسرَ الصبرُ عنهُ .

رُوِيَ أنَّ أبا حنيفةَ رحمةُ اللهِ عليهِ قالَ لداوودَ الطائيِّ : لمَ آثرْتَ الانزواءَ ؟ قالَ : لأجاهدَ نفسي بتركِ الجدالِ ، فقالَ : احضرِ المجالسَ واسمعْ ما يُقالُ ولا تتكلَّمْ ، قال : ففعلتُ ذٰلكَ ، فما رأيتُ مجاهدةً أشدَّ عليَّ منها(١) .

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٤١/٧) عن أحمد بن أبي الحواري قال : حدثني بعض أصحابنا قال : إنما كان سبب [زهد] داوود الطائي أنه كان يجالس أبا حنيفة ، فقال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان ؛ أما الأداة . . فقد أحكمناها ، فقال داوود : فأي شيء بقي ؟ قال : بقي العمل به ،

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ مَنْ سمعَ الخطأَ منْ غيرِهِ وهوَ قادرٌ علىٰ كشفِهِ . . تعسَّرَ عليهِ الصبرُ عندَ ذٰلكَ جداً ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ المراءَ وهوَ محقٌّ . . بنى اللهُ لهُ بيتاً في أعلى الجنَّةِ » ؛ لشدَّةِ ذٰلكَ على النَّفسِ .

وأكثرُ ما يغلبُ ذٰلكَ في المذاهبِ والعقائدِ ؛ فإنَّ المراءَ طبعٌ ، فإذا ظنَّ أنَّ لهُ عليهِ ثواباً . . اشتدَّ عليهِ حرصُهُ ، وتعاونَ الطبعُ والشرعُ عليهِ ، وذٰلكَ خطأٌ محضٌ ، بلْ ينبغي للإنسانِ أن يكفَّ لسانَهُ عنْ أهلِ القبلةِ ، وإذا رأىٰ مبتدعاً . . تلطَّفَ في نصحِهِ في خلوةٍ ، لا بطريقِ الجدالِ ؛ فإنَّ الجدالَ يخيِّلُ إليهِ أنَّها حيلةٌ منهُ في التلبيسِ ، وأنَّ ذٰلكَ صنعةٌ يقدرُ المجادلونَ منْ أهلِ مذهبِهِ علىٰ أمثالِهَا لوْ أرادوا ، فتستمرُّ البدعةُ في قلبِهِ بالجدلِ وتتأكدُ .

فإذا عرفَ أنَّ النصحَ لا ينفعُ . . اشتغلَ بنفسِهِ وتركَهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ مَنْ كفَّ لسانَهُ عنْ أهلِ القبلةِ إلَّا بأحسنِ ما يقدرُ عليهِ » ، قالَ هشامُ بنُ عروةَ : كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يردِّدُ قولَه هٰذا سبعَ مراتٍ [1]

وكلُّ مَنِ اعتادَ المجادلةَ مدَّةً ، وأثنى الناسُ عليهِ ، ووجدَ لنفسِهِ بسببِهِ عزّاً وقبولاً . . قويَتْ فيهِ هٰذهِ المهلكاتُ ، فلا يستطيعُ عنها نزوعاً إذا اجتمعَ عليهِ سلطانُ الكبرِ والغضبِ ، والرياءِ ، وحبِّ الجاهِ ، والتعزُّزِ بالفضلِ ، وآحادُ هٰذهِ الصفاتِ يشقُّ مجاهدتُها ، فكيفَ بمجموعِها ؟!

* * *

قال : فنازعتني نفسي إلى العزلة والوحدة ، فقلت لها : حتىٰ تجلسي معهم فلا تجيبي في مسألة ، قال : فكان يجالسهم سنة قبل أن يعتزل ، قال : فكانت المسألة تجيء وأنا أشد شهوة للجواب فيها من العطشان إلى الماء ، فلا أجيب فيها ، قال : فاعتزلهم بعد .

(١) كذا رواه مرسلاً عن هشام بن عروة مع حكاية قوله ابنُ أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٧) .

الآفة الخامسة : الخصومة

وهيَ أيضاً مذمومةٌ ، وهيَ وراءَ المراءِ والجدالِ .

فالمراءُ : طعنٌ في كلامِ الغيرِ ، بإظهارِ خللٍ فيهِ مِنْ غيرِ أنْ يرتبطَ بهِ غرضٌ سوىٰ تحقيرِ الغيرِ ، وإظهارِ مزيَّةِ الكياسةِ .

والجدالُ : عبارةٌ عنْ أمرٍ يتعلَّقُ بإظهارِ المذاهبِ وتقريرِها .

والخصومةُ : لجاجٌ في الكلامِ ؛ ليُستوفىٰ بهِ مالٌ أوْ حقٌّ مقصودٌ ، وذلكَ تارةً يكونُ ابتداءً ، وتارةً يكونُ اعتراضاً ، والمراءُ لا يكونُ إلا بالاعتراضِ علىٰ كلامٍ سبقَ .

فقدْ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخصِمُ »[1]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جادلَ في خصومةٍ بغيرِ علمٍ . . لمْ يزلْ في سخطِ اللهِ حتَّىٰ ينزعَ »[2]

وقالَ بعضُهمْ : (إيَّاكُمْ والخصومةَ ؛ فإنَّها تمحقُ الدِّينَ)[3]

ويُقالُ : (ما خاصمَ قطُّ وَرِعٌ في الدينِ)[4]

وقالَ ابنُ قتيبةَ : مرَّ بي بشيرُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ أبي بكرةَ فقالَ : ما يجلسُكَ ؟ قلتُ : خصومةٌ بيني وبينَ ابنِ عمٍّ لي ، فقالَ : إنَّ لأبيكَ عندي يداً ، وإنِّي أريدُ أنْ أجزيَكَ بها ، وإنِّي ـ واللهِ ـ ما رأيتُ شيئاً أذهبَ للدينِ ، ولا أنقصَ للمروءةِ ، ولا أضيعَ للَّذةِ ، ولا أشغلَ للقلبِ . . مِنَ الخصومةِ ، قالَ : فقمتُ لأرجعَ ، فقالَ لي خصمي : ما لكَ ؟ قلتُ : لا أخاصمُكَ : قالَ : إنَّكَ عرفتَ أنَّهُ حقِّي ؟ قلتُ : لا ، ولكنِّي أُكرمُ نفسي عنْ هٰذا ، قالَ : فإنِّي لا أطلبُ منهُ شيئاً ، هوَ لكَ[5]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فإذا كانَ للإنسانِ حقٌّ . . فلا بدَّ لهُ مِنَ الخصومةِ في طلبِهِ أوْ في حفظِهِ مهما ظلمَهُ ظالمٌ ، فكيفَ يكونُ حكمُهُ ؟ وكيفَ تُذَمُّ خصومتُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا الذمَّ يتناولُ الذي يخاصمُ بالباطلِ ، والذي يخاصمُ بغيرِ علمٍ ؛ مثلُ وكيلِ القاضي ، فإنَّهُ قبلَ أنْ يتعرَّفَ أنَّ الحقَّ في أيِّ جانبٍ هوَ يتوكَّلُ في الخصومةِ مِنْ أيِّ جانبٍ يكونُ ، فيخاصمُ بغيرِ علمٍ .

ويتناولُ الذي يطلبُ حقَّهُ ، ولٰكنَّهُ لا يقتصرُ علىٰ قدْرِ الحاجةِ ، بلْ يُظهِرُ اللَّدَدَ في الخصومةِ علىٰ قصدِ التَّسلُّطِ ، أوْ علىٰ قصدِ الإيذاءِ .

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧) ، ومسلم (٢٦٦٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٤) عن جعفر بن محمد .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٥) عن عبد الكريم بن أمية .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٨) .

ويتناولُ الذي يمزجُ بالخصومةِ كلماتٍ مؤذيةً ليسَ يحتاجُ إليها في نصرةِ الحجَّةِ وإظهارِ الحقّ .

ويتناولُ الذي يحملُهُ على الخصومةِ محضُ العنادِ لقهرِ الخصمِ وكسرِهِ ، معَ أنَّهُ قدْ يستحقِرُ ذلكَ القدْرَ مِنَ المالِ ، وفي الناسِ مَنْ يصرّحُ بِهِ ويقولُ : إنَّما قصدي عنادُهُ وكسرُ عرضِهِ ، وإنّي إنْ أخذتُ منهُ هٰذا المالَ . . ربَّما رميتُ بِهِ في بئرٍ ولا أبالي ، فهٰذا مقصودُهُ اللَّدَدُ والخصومةُ واللَّجاجُ ، وهوَ مذمومٌ جداً .

أمّا المظلومُ الذي ينصرُ حجَّتَهُ بطريقِ الشرعِ مِنْ غيرِ لَدَدٍ وإسرافٍ وزيادةِ لَجاجٍ على قدرِ الحاجةِ ، ومِنْ غيرِ قصدِ عنادٍ وإيذاءٍ . . ففعْلُهُ ليسَ بحرامٍ ، ولٰكنِ الأولىٰ تركُهُ ما وجدَ إليهِ سبيلاً ؛ فإنَّ ضبطَ اللسانِ في الخصومةِ علىٰ حدِّ الاعتدالِ متعذّرٌ ، والخصومةُ توغِرُ الصدرَ ، وتهيِّجُ الغضبَ ، وإذا هاجَ الغضبُ . . نُسِيَ المتنازَعُ فيهِ ، وبقيَ الحقدُ بينَ المتخاصمَينِ ، حتَّىٰ يفرحُ كلُّ واحدٍ بمساءةِ صاحبِهِ ، ويحزنُ بمسرَّتِهِ ، ويطلقُ اللّسانَ في عرضِهِ ، فمَنْ بدأَ بالخصومةِ . . فقدْ تعرَّضَ لهٰذهِ المحذوراتِ ، وأقلُّ ما فيهِ تشويشُ خاطرِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ في صلاتِهِ يشتغلُ بمحاجَّةِ خصمِهِ ، فلا يبقى الأمرُ علىٰ حدِّ الواجبِ .

فالخصومةُ مبدأُ كلِّ شرٍّ ، وكذا الجدالُ والمراءُ ، فينبغي ألَّا يُفتحَ بابُهُ إلَّا لضرورةٍ ، وعندَ الضرورةِ ينبغي أنْ يُحفظَ اللّسانُ والقلبُ عَنْ تبعاتِ الخصومةِ ، وذٰلكَ متعذّرٌ جداً .

فمنِ اقتصرَ على الواجبِ في خصومتِهِ . . سلمَ مِنَ الإثمِ ، ولا تُذمُّ خصومتُهُ ، إلا أنَّهُ إنْ كانَ مستغنياً عنِ الخصومةِ فيما خاصمَ فيهِ لأنَّ معَهُ ما يكفيهِ . . فيكونُ تاركاً للأولىٰ ، ولا يكونُ آثماً .

نعمْ ؛ أقلُّ ما يفوتُهُ في الخصومَةِ والمراءِ والجدلِ طيبُ الكلامِ ، وما وردَ فيهِ مِنَ الثوابِ ؛ إذْ أقلُّ درجاتِ طيبِ الكلامِ إظهارُ الموافقةِ ، ولا خشونةَ في الكلامِ أعظمُ مِنَ الطَّعنِ والاعتراضِ ، الذي حاصلُهُ إمَّا تجهيلٌ ، وإمَّا تكذيبٌ ؛ فإنَّ مَنْ جادلَ غيرَهُ أوْ ماراهُ أوْ خاصمَهُ . . فقدْ جهَّلَهُ أوْ كذَّبَهُ ، فيفوتُ بهِ طيبُ الكلامِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يمكّنُكُمْ مِنَ الجنَّةِ طيبُ الكلامِ وإطعامُ الطَّعامِ »[1]

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (مَنْ سلَّمَ عليكَ مِنْ خلقِ اللهِ . . فارددْ عليهِ وإنْ كانَ مجوسيّاً ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ﴾)[2]

وقالَ ابنُ عباسٍ أيضاً : (لوْ قالَ لي فرعونُ خيراً . . لرددتُ عليهِ)[3]

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ غُرفاً ، يُرىٰ ظاهرُها مِنْ باطنِها ، وباطنُها مِنْ ظاهرِها ، أعدَّها اللهُ تعالىٰ لمَنْ أطعمَ الطعامَ وألانَ الكلامَ »[4]

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٥٤٧) من حديث جابر رضي الله عنه ، وهو عند ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٤) عن محمد بن المنكدر .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١١) .
(٤) رواه الترمذي (١٩٨٤) .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ بهِ خنزيرٌ ، فقالَ : مُرَّ بسلامٍ ، فقيلَ : يا روحَ اللهِ ؛ أتقولُ هـٰذا لخنزيرٍ ؟! فقالَ : أكرهُ أنْ أعوِّدَ لساني الشرَّ [1]

وقالَ نبيُّنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الكلمةُ الطَّيِّبةُ صدقةٌ » [2]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ يكنْ . . فبكلمةٍ طيبةٍ » [3]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (البرُّ شيءٌ هيِّنٌ ؛ وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنٌ) [4]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الكلامُ الليِّنُ يغسلُ الضغائنَ المستكنَّةَ في الجوارحِ) [5]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (كلُّ كلامٍ لا يسخطُ ربَّكَ إلا أنَّكَ ترضي بهِ جليسَكَ . . فلا تكنْ بهِ عليهِ بخيلاً ؛ فلعلَّهُ يعوِّضُكَ منهُ ثوابَ المحسنينَ) [6]

فهـٰذا كلُّهُ في فضْلِ الكلامِ الطيِّبِ ، وتضادُّهُ الخصومةُ والمراءُ واللَّجاجُ والجدالُ ؛ فإنَّهُ الكلامُ المستكرهُ الموحشُ المؤذي للقلبِ ، المنغِّصُ للعيشِ ، المهيِّجُ للغضبِ ، الموغِرُ للصدرِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٨) عن أنس رضي الله عنه عنه عليه السلام .
(٢) قطعة من حديث رواه مسلم (١٠٠٩) .
(٣) رواه البخاري (٦٠٢٣) ، ومسلم (٦٨/١٠١٦) .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٧٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٠٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٢) ، وفيه : (الجوانح) بدل (الجوارح) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٣) .

الآفة السادسة : التقعر في الكلام

بالتشدُّقِ ، وتكلُّفِ السجْعِ والفصاحةِ ، والتصنُّعِ فيهِ بالتشبيباتِ والمقدِّماتِ ، وما جرَتْ بهِ عادةُ المتفاصحينَ المدَّعينَ للخطابةِ .

فكلُّ ذٰلكَ مِنَ التَّصنُّعِ المذمومِ ، ومِنَ التكلُّفِ الممقوتِ ، الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا وأتقياءُ أمَّتي برآءُ مِنَ التَّكلُّفِ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أبغضَكُمْ إليَّ ، وأبعدَكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ المتفيهِقونَ المتشدِّقونَ في الكلامِ »(٢)

وقالَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ غُذُوا بالنَّعيمِ ، يأكلونَ ألوانَ الطعامِ ، ويلبسونَ ألوانَ الثيابِ ، ويتشدَّقونَ في الكلامِ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا هلكَ المتنطِّعونَ » ثلاثَ مراتٍ(٤) ، والتَّنطُّعُ : هوَ التعمُّقُ والاستقصاءُ .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ شقاشِقَ الكلامِ مِنْ شقاشِقِ الشيطانِ)(٥)

وجاءَ عمرُ بنُ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ إلىٰ أبيهِ سعدٍ يسألُهُ حاجةً ، فتكلَّمَ بينَ يدي حاجتِهِ بكلامٍ ، فقالَ لهُ سعدٌ : ما كنتَ مِنْ حاجتِكَ أبعدَ منكَ اليومَ ، إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يأتي على النَّاسِ زمانٌ يتخلَّلونَ الكلامَ بألسنتِهِمْ كما تتخلَّلُ البقرُ الكلأَ بألسنتِها »(٦)

وكأنَّهُ أنكرَ عليهِ ما قدَّمَ على الكلامِ مِنَ التشبيبِ والمقدِّمةِ المصنوعةِ المتكلَّفةِ .

وهٰذا أيضاً مِنْ آفاتِ اللسانِ ، ويدخلُ فيهِ كلُّ سجْعٍ متكلَّفٍ ، وكذٰلكَ التفاصحُ الخارجُ عنْ حدِّ العادةِ ، وكذٰلكَ تكلُّفُ السجْعِ في المحاوراتِ ؛ إذْ قضىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بغرَّةٍ في الجنينِ ، فقالَ بعضُ قومِ الجاني : كيفَ ندي مَنْ لا شربَ ولا أكلَ ، ولا صاحَ ولا استهلَّ ، ومثلُ ذٰلكَ يطلُّ ؟! فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسجْعاً كسجْعِ الأعرابِ ؟! »(٧) ، وأنكرَ ذٰلكَ ؛ لأنَّ أثرَ التكلُّفِ والتصنُّعِ بيِّنٌ عليهِ ، بلْ ينبغي أنْ يقتصرَ في كلِّ شيءٍ علىٰ مقصودِهِ ، ومقصودُ الكلامِ التفهيمُ للغرضِ ، وما وراءَ ذٰلك تصنُّعٌ مذمومٌ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٢٢٩) ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٢٨) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه مرفوعاً : « إني بريءٌ من التكلف وصالحو أمتي » .

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر رضي الله عنه ، وتمامه : قالوا : يا رسول الله ؛ قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » ، قال الترمذي : (**والثرثار** : هو الكثير الكلام ، **والمتشدق** : الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/٣١٨) .

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٢) .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (١/١٧٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤٩) واللفظ له ، ورواه مختصراً أبو داوود (٥٠٠٥) ، والترمذي (٢٨٥٣) .

(٧) رواه مسلم (١٦٨٢) .

ولا يدخلُ في هٰذا تحسينُ ألفاظِ الخطابةِ ، والتذكيرُ مِنْ غيرِ إفراطٍ وإغرابٍ ؛ فإنَّ المقصودَ منها تحريكُ القلوبِ وتشويقُها ، وقبضُها وبسطُها ، فلرشاقَةِ اللفظِ تأثيرٌ فيهِ ، فهوَ لائقٌ بهِ .

فأمّا المحاوراتُ التي تجري في قضاءِ الحاجاتِ . . فلا يليقُ بها السجْعُ والتشدُّقُ ؛ فالاشتغالُ بهِ مِنَ التكلُّفِ المذمومِ ، ولا باعثَ عليهِ إلا الرياءُ وإظهارُ الفصاحةِ ، والتميُّزُ بالبراعةِ ، وكلُّ ذٰلكَ مذمومٌ يكرهُهُ الشَّرعُ ويزجرُ عنهُ .

❋ ❋ ❋

الآفة السابعة : الفحش والسبّ وبذاءة اللسان

وهوَ مذمومٌ منهيٌّ عنهُ ، ومصدرُهُ : الخبثُ واللؤمُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والفحشَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يحبُّ الفحشَ ولا التَّفَحُّشَ »(١)

ونهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ أنْ تُسبَّ قتلىٰ بدرٍ مِنَ المشركينَ ، فقالَ : « لَا تسبُّوا هـٰؤلاءِ ؛ فإنَّهُ لا يخلُصُ إليهِمْ شيءٌ ممَّا تقولونَ ، وتؤذونَ الأحياءَ ، ألا إنَّ البَذاءَ لؤمٌ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ، ولا الفاحشِ ولا البذيءِ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجنَّةُ حرامٌ علىٰ كلِّ فاحشٍ أنْ يدخلَها »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعةٌ يؤذونَ أهلَ النَّارِ في النارِ علىٰ ما بهِمْ مِنَ الأذىٰ ، يسعونَ بينَ الحميمِ والجحيمِ يدْعونَ بالويلِ والثُّبورِ ، رجلٌ يسيلُ فوهُ قيحاً ودماً ، فيُقالُ لهُ : ما بالُ الأبعدِ قدْ آذانا علىٰ ما بنا مِنَ الأذىٰ ؟ فيقولُ : إنَّ الأبعدَ كانَ ينظرُ إلىٰ كلِّ كلمةٍ قَذِعةٍ خبيثةٍ فيستلذُّها كما يستلِذُّ الرَّفثَ »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ : « يا عائشةُ ؛ لوْ كانَ الفحْشُ رجلاً .. لكانَ رجلَ سَوْءٍ »(٦)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البَذاءُ والبيانُ شعبتانِ مِنْ شُعبِ النِّفاقِ »(٧)

ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالبيانِ كشفَ ما لا يجوزُ كشفُهُ ، ويُحتملُ أيضاً : المبالغةَ في الإيضاحِ حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ حدِّ التكلُّفِ ، ويُحتملُ أيضاً : البيانَ في أمورِ الدينِ ، وفي صفاتِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ إلقاءَ ذٰلكَ مجملاً إلىٰ أسماعِ العوامِّ أولىٰ مِنَ المبالغةِ في بيانِهِ ؛ إذْ قدْ يثورُ مِنْ غايةِ البيانِ فيهِ شكوكٌ ووساوسُ ، فإذا أُجملَتْ .. بادرَتِ القلوبُ إلى القبولِ ولمْ تضطربْ ، ولـٰكنْ ذكرُهُ مقروناً بالبَذاءِ يشبهُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ المجاهرةَ بما يستحيي الإنسانُ مِنْ بيانِهِ ، فإنَّ الأولىٰ في مثلِهِ الإغماضُ والتغافلُ ، دونَ الكشفِ والبيانِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا يحبُّ الفاحشَ المتفَحِّشَ الصَّيَّاحَ في الأسواقِ »(٨)

وقالَ جابرُ بنُ سَمُرةَ : كنتُ جالساً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأبي أمامي(٩) ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الفُحشَ والتفحُّشَ ليسا مِنَ الإسلامِ في شيءٍ ، وإنَّ أحسنَ الناسِ إسلاماً أحاسنُهُمْ أخلاقاً »(١٠)

---

(١) كذا رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٩) ، وهو ضمن حديث طويل رواه أحمد في « المسند » (١٥٩/٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥١٧٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٣) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٦٨) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٧٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٨/١) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٦) من حديث شفي بن ماتع ، وهو مختلف في صحبته .

(٦) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٤٩٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٣١) .

(٧) رواه الترمذي (٢٠٢٧) .

(٨) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣١٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٠) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٩) هو سيدنا سَمُرة بن جُنادة رضي الله عنه .

(١٠) رواه أحمد في « المسند » (٨٩/٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٢) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ ميسرةَ : (يُقالُ : الفاحشُ المتفحّشُ يومَ القيامةِ في صورةِ كلبٍ ، أوْ في جوفِ كلبٍ)[١]

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : (ألا أخبرُكُمْ بأدْوَأ الداءِ ؟ اللسانُ البذيءُ ، والخلقُ الدنيءُ)[٢]

فهٰذهِ مذمَّةُ الفُحْشِ .

فأمّا حدُّهُ وحقيقتُهُ : فهوَ التعبيرُ عنِ الأمورِ المستقبحةِ[٣] بالعباراتِ الصريحةِ .

ويجري أكثرُ ذٰلكَ في ألفاظِ الوِقاعِ وما يتعلَّقُ بهِ ، فإنَّ لأهلِ الفسادِ عباراتٍ صريحةً فاحشةً يستعملونَها فيهِ ، وأهلُ الصَّلاحِ يتحاشَوْنَ عنِ التعرُّضِ لها ، بلْ يكنونَ عنها ، ويدلُّونَ عليها بالرُّموزِ وبذكرِ ما يقاربُها ويتعلَّقُ بها .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ حييٌّ كريمٌ ، يعفُّ ويكني ، كنىٰ باللمسِ عنِ الجماعِ)[٤]

فالمسيسُ واللمسُ ، والدخولُ ، والصحبةُ . . كناياتٌ عَنِ الوقاعِ ، وليسَتْ بفاحشةٍ ، وهناكَ عباراتٌ فاحشةٌ يُستقبحُ ذكرُها ، ويستعملُ أكثرُها في الشتمِ والتعييرِ ، وهٰذهِ العباراتُ متفاوتةٌ في الفُحْشِ ، وبعضُها أفحشُ مِنْ بعضٍ ، وربَّما اختلفَ ذٰلكَ بعادةِ البلادِ ، وأوائلُها مكروهةٌ ، وأواخرُها محظورةٌ ، وبينَهُما درجاتٌ يُتردَّدُ فيها .

وليسَ يختصُّ هٰذا بالوِقاعِ ، بلِ الكنايةُ بقضاءِ الحاجةِ عنِ البولِ والغائطِ أولىٰ مِنْ لفظِ التغوُّطِ والخِراءَةِ وغيرِها ؛ فإنَّ هٰذا أيضاً ممَّا يُخفىٰ ، وكلُّ ما يُخفىٰ ويُستحيا منهُ . . فلا ينبغي أن تُذكرَ ألفاظُهُ الصريحةُ ؛ فإنَّهُ فحشٌ .

وكذٰلكَ يُستحسنُ في العادةِ الكنايةُ عنِ النساءِ ، فلا يُقالُ : قالَتْ زوجُكَ كذا ، بلْ يُقالُ : قِيلَ في الحُجْرةِ ، أوْ قِيلَ مِنْ وراءِ السترِ ، أوْ قالَتْ أمُّ الأولادِ كذا ، والتلطفُ في هٰذهِ الألفاظِ محمودٌ ، والتصريحُ فيها يفضي إلى الفحْشِ .

وكذٰلكَ مَنْ بهِ عيوبٌ يستحيي منها ، فلا ينبغي أنْ يُعبَّرَ عنها بصريحِ لفظِها ؛ كالبَرَصِ والقَرَعِ والبواسيرِ ، بلْ يُقالُ : العارضُ الذي يشكوهُ ، وما يجري مَجراهُ ، فالتصريحُ بذٰلكَ داخلٌ في الفحْشِ ، وجميعُ ذٰلكَ مِنْ آفاتِ اللِّسانِ .

قالَ العلاءُ بنُ هارونَ : كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يتحفَّظُ في منطقِهِ ، فخرجَ خُرَاجٌ في إبطِهِ ، فقلنا : نسألُهُ ماذا يقولُ ؟ فقلنا : أينَ خرجَ ؟ فقالَ : في باطنِ اليدِ[٥]

والباعثُ على الفُحْشِ : إمَّا قصدُ الإيذاءِ ، وإمَّا الاعتيادُ الحاصلُ مِنْ مخالطةِ الفُسَّاقِ وأهلِ الخبثِ واللؤمِ ، ومِنْ عادتِهِمُ السَّبُّ .

وقالَ أعرابيٌّ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : « عليكَ بتقوى اللهِ ، وإنِ امرُؤٌ عيَّرَكَ بشيءٍ يعلمُهُ فيكَ . . فلا تعيّرْهُ بشيءٍ تعلَمُهُ فيهِ ، يكنْ وَبالُهُ عليهِ وأجرُهُ لكَ ، ولا تسبَّنَّ شيئاً » ، قالَ : فما سببتُ شيئاً بعدَهُ[٦]

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤١) .
(٣) شرعاً وعقلاً وطبعاً ، بحيث يكرهه الطبع ، كما ينكره العقل ، ويستخبثه الشرع . « إتحاف » (٤٨١/٧) .
(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥٠٦) ، والطبري في « تفسيره » (١٣٧/٥/٤) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٩٠)
(٦) رواه أحمد في « المسند » (٦٣/٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٨٢) عن جابر بن سليم ـ وقيل : سليم بن جابر ـ رضي الله عنه .

وقالَ عياضُ بنُ حمارٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ مِنْ قومي يسبُّني وهوَ دوني ، هلْ عليَّ مِنْ بأسٍ أنْ أنتصرَ منهُ ، فقالَ : « المتسابَّانِ شيطانانِ يتكاذبانِ ويتهاتَرانِ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ ما قالا فعلى البادئِ منهُما حتَّىٰ يعتديَ المظلومُ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبابُ المؤمنِ فسُوقٌ ، وقتالُهُ كفْرٌ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ملعونٌ مَنْ سبَّ والدَيهِ »(٤) ، وفي روايةٍ : « مِنْ أكبرِ الكبائرِ أنْ يسبَّ الرَّجلُ والديهِ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ يسبُّ الرجلُ والديهِ ؟ قالَ : « يسبُّ أبا الرَّجلِ ، فيسبُّ الآخرُ أباهُ »(٥)

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٠٨٠) ، وروى اللفظ المرفوع أحمد في « المسند » (٤/١٦٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٢٨) بنحوه .

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٧) ، وفيه : « ما لم يعتدِ المظلوم » .

(٣) رواه البخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/٢١٧) .

(٥) رواه البخاري (٥٩٧٣) ، ومسلم (٩٠) ، دون قوله : (الآخر) .

الآفة الثامنة : اللعن

إمَّا لحيوانٍ ، أوْ لجمادٍ ، أوْ لإنسانٍ ، وذٰلكَ مذمومٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بلعَّانٍ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تَلاعَنُوا بلعنةِ اللهِ ولا بغضبهِ ولا بجهنَّمَ »(٢)

وقالَ حذيفةُ : (ما تلاعنَ قومٌ قطُّ إلَّا حقَّ عليهمُ القولُ)(٣)

وقالَ عِمرانُ بنُ الحصينِ : بينَما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ أسفارهِ ؛ إذا امرأةٌ مِنَ الأنصارِ علىٰ ناقةٍ لها ، فضجِرَتْ منها ، فلعنَتْها ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خذُوا ما عليها وأعْرُوها ، فإنَّها ملعونةٌ » ، قالَ : فكأنِّي أنظرُ إلىٰ تلكَ الناقةِ تمشي في الناسِ لا يعرِضُ لها أحدٌ(٤)

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما لعنَ الأرضَ أحدٌ إلا قالَتْ : لعنَ اللهُ أعصانا للهِ)(٥)

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يلعنُ بعضَ رقيقِهِ ، فالتفَتَ إليهِ فقالَ : « يا أبا بكرٍ ؛ أَلَعَّانينَ وصدِّيقينَ ؟! كلَّا وربِّ الكعبةِ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، فأعتقَ أبو بكرٍ يومئذٍ بعضَ رقيقِهِ ، وجاءَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : لا أعودُ(٦)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللَّعَّانينَ لا يكونونَ شفعاءَ ولا شهداءَ يومَ القيامةِ »(٧)

وقالَ أنسٌ : كانَ رجلٌ يسيرُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ بعيرٍ ، فلعنَ بعيرَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ ؛ لا تسرْ معَنا علىٰ بعيرٍ ملعونٍ » ، وقالَ ذٰلكَ إنكاراً عليهِ(٨)

واللَّعنُ : عبارةٌ عنِ الطَّرْدِ والإبعادِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ غيرُ جائزٍ إلا علىٰ مَنْ يتصفُ بصفةٍ تبعدُهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهيَ الكفرُ والظلمُ ، بأنْ يقولَ : لعنةُ اللهِ على الظالمينَ وعلى الكافرينَ .

وينبغي أنْ يُتبعَ فيهِ لفظُ الشرعِ ؛ فإنَّ في اللعنةِ خطراً ، لأنَّهُ حكمٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ بأنَّهُ قدْ أبعدَ الملعونَ ، وذٰلكَ غيبٌ لا يطلعُ عليهِ غيرُ اللهِ تعالىٰ ، ويطَّلعُ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أطلعَهُ اللهُ عليهِ .

والصفاتُ المقتضيةُ للَّعنِ ثلاثةٌ : الكفرُ ، والبدعةُ ، والفسقُ ، وللَّعنِ في كلِّ واحدةٍ ثلاثةُ مراتبَ :

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « لا يكون المؤمن لعاناً » .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٦) ، والترمذي (١٩٧٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٥٣٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٤٩٦) .

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٨٥) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٧٩١) .

(٧) رواه مسلم (٢٥٩٨) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٠) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٦٢٢) .

الأولى : اللَّعنُ بالوصفِ الأعمِّ ؛ كقولِكَ : لعنةُ اللهِ على الكافرينَ والمبتدعةِ والفسقةِ .

والثانيةُ : اللَّعنُ بأوصافٍ أخصَّ منهُ ؛ كقولِكَ : لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنَّصارىٰ والمجوسِ ، وعلى القدريةِ والخوارجِ والروافضِ ، وعلى الزناةِ والظَّلمةِ وآكلي الرِّبا .

وكلُّ ذٰلكَ جائزٌ ، ولٰكنْ في لعنِ أصنافِ المبتدعةِ خطرٌ ؛ لأنَّ معرفةَ البدعةِ غامضٌ ، فما لمْ يردْ فيهِ لفظٌ مأثورٌ [1] ، فينبغي أنْ يُمنعَ منهُ العوامُّ ؛ لأنَّ ذٰلكَ يستدعي المعارضةَ بمثلِهِ ، ويثيرُ نزاعاً بينَ الناسِ وفساداً .

والثالثةُ : اللَّعنُ للشَّخصِ المعيَّنِ ، وهٰذا فيهِ نظرٌ [2] ؛ كقولِكَ : زيدٌ لعنهُ اللهُ ، وهوَ كافرٌ ، أوْ فاسقٌ ، أوْ مبتدعٌ .

والتفصيلُ فيهِ : أنَّ كلَّ شخصٍ ثبتَتْ لعنتُهُ شرعاً فتجوزُ لعنتُهُ .

كقولِكَ : فرعونُ لعنَهُ اللهُ ، وأبو جهلٍ لعنَهُ اللهُ ؛ لأنَّهُ قدْ ثبتَ أنَّ هٰؤلاءِ ماتوا على الكفرِ ، وعُرفَ ذٰلكَ شرعاً .

وأمَّا شخصٌ بعينِهِ في زمانِنا ؛ كقولِكَ : زيدٌ لعنَهُ اللهُ ، وهوَ يهوديٌّ مثلاً . . فهٰذا فيهِ خطرٌ ؛ فإنَّهُ ربَّما يسلِمُ ، فيموتُ مقرَّباً عندَ اللهِ ، فكيفَ يُحكمُ بكونِهِ ملعوناً ؟!

❁ ❁ ❁

فإنْ قلْتَ : يُلعنُ لكونِهِ كافراً في الحالِ ، كما يُقالُ للمسلمِ : (رحمَهُ اللهُ) لكونِهِ مسلماً في الحالِ ، وإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ يرتدَّ .

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ قولِنا : (رحمَهُ اللهُ) ؛ أيْ : ثبَّتَهُ اللهُ على الإسلامِ الذي هوَ سببُ الرحمةِ ، وعلى الطاعةِ ، ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : ثبَّتَ اللهُ الكافرَ علىٰ ما هوَ سببُ اللَّعنةِ ، فإنَّ هٰذا سؤالُ الكفرِ ، وهوَ في نفسِهِ كفرٌ ، **بلِ الجائزُ أنْ يُقالَ** : لعنَهُ اللهُ إنْ ماتَ على الكفرِ ، ولا لعنَهُ اللهُ إنْ ماتَ على الإسلامِ ، وذٰلك غيبٌ لا يُدرَىٰ ، والمطلَقُ مردَّدٌ بينَ الجهتينِ ؛ ففيه خطرٌ ، وليسَ في تركِ اللَّعنِ خطرٌ .

وإذا عرفتَ هٰذا في الكافرِ . . فهوَ في زيدٍ الفاسقِ أوْ زيدٍ المبتدعِ أولىٰ ، فلعنُ الأعيانِ فيهِ خطرٌ ؛ لأنَّ الأحوالَ تتقلبُ على الأعيانِ إلا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ يجوزُ أنْ يعلمَ مَنْ يموتُ على الكفرِ ، ولذٰلكَ عيَّنَ قوماً باللَّعنِ ، فكانَ يقولُ في دعائِهِ علىٰ قريشٍ : « اللَّهمَّ ؛ عليكَ بأبي جهلِ بنِ هشامٍ ، وعتبةَ بنِ ربيعةَ » ، وذكرَ جماعةً قُتلوا على الكفرِ ببدرٍ [3] ، حتَّىٰ إنَّ مَنْ لمْ يَعلَمْ عاقبتَهُ كانَ يلعنُهُ ، فنُهيَ عنْ ذٰلكَ ؛ إذْ رُويَ أنَّهُ كانَ يلعنُ الذينَ قَتلوا أصحابَ بئرِ معونةَ في قنوتِهِ شهراً ، فنزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [4] يعني : أنَّهمْ ربَّما يتوبونَ ، فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّهمْ ملعونونَ ؟!

وكذٰلكَ مَنْ بانَ لنا موتُهُ على الكفرِ . . جازَ لعنُهُ وجازَ ذمُّهُ إنْ لمْ يكُنْ فيهِ أذىً علىٰ مسلمٍ ، فإنْ كانَ . . لمْ

---

(١) في (أ) : (ولم يرد فيه . . .) ، وفي بقية النسخ : (فيما لم يرد فيه . . .) ، والمثبت من (ل) .

(٢) في (أ) وحدها : (خطر) بدل (نظر) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٠) ، ومسلم (١٧٩٤) .

(٤) رواه البخاري (٤٠٧٠) ، ومسلم (٦٧٥) .

يجزْ ، كما رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ قبرٍ مرَّ بهِ وهوَ يريدُ الطائفَ ، فقالَ : هٰذا قبرُ رجلٍ كانَ عاتياً على اللهِ وعلىٰ رسولِهِ ـ وهوَ سعيدُ بنُ العاصِ ـ فغضبَ ابنُهُ عمرُو بنُ سعيدٍ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا قبرُ رجلٍ كانَ أطعمَ للطعامِ وأضربَ للهامِ مِنْ أبي قحافةَ ، فقالَ أبو بكرٍ : يكلِّمُني هٰذا يا رسولَ اللهِ بمثلِ هٰذا الكلامِ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اكففْ عنْ أبي بكرٍ » فانصرفَ ، ثمَّ أقبلَ النبيُّ علىٰ أبي بكرٍ فقالَ : « يا أبا بكرٍ ؛ إذا ذكرتُمُ الكفَّارَ . . فعمِّموا ؛ فإنَّكُمْ إذا خصَّصتُمْ . . غضبَ الأبناءُ للآباءِ » ، فكفَّ الناسُ عنْ ذٰلكَ (١)

وشربَ نُعيمانُ الخمرَ ، فحُدَّ مراتٍ في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ بعضُ الصحابةِ : لعنَهُ اللهُ ؛ ما أكثرَ ما يُؤتىٰ بهِ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تكنْ عوناً للشَّيطانِ علىٰ أخيكَ » ، وفي روايةٍ : « لا تقُلْ هٰذا ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ » (٢) ، فنهاهُ عنْ ذٰلكَ ، فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ لعنةَ فاسقٍ بعينِهِ غيرُ جائزةٍ .

وعلى الجملةِ : ففي لعنةِ الأشخاصِ خطرٌ ، فليُجتنَبْ ، ولا خطرَ في السكوتِ عنْ لعنةِ إبليسَ ، فضلاً عنْ غيرِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قيلَ : هلْ يجوزُ لعنةُ يزيدَ ؛ لأنَّهُ قاتلُ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما ، أو آمرٌ بهِ ؟

قلنا : هٰذا لمْ يثبتْ أصلاً ، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ : إنَّه قتلَهُ أوْ أمرَ بقتلِهِ ما لمْ يثبتْ ذٰلكَ فضلاً عنِ اللَّعنةِ ؛ لأنَّهُ لا تجوزُ نسبةُ مسلمٍ إلىٰ كبيرةٍ منْ غيرِ تحقيقٍ .

نعمْ ؛ يجوزُ أنْ يُقالَ : قتلَ ابنُ مُلجمٍ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ ، وقتلَ أبو لؤلؤةَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فإنَّ ذٰلكَ ثبتَ متواتراً .

فلا يجوزُ أنْ يُرمىٰ مسلمٌ بفسقٍ أوْ كفرٍ مِنْ غيرِ تحقيقٍ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يرمي رجلٌ رجلاً بالكفرِ ، ولا يرميهِ بالفسقِ إلَّا ارتدَّتْ عليهِ إنْ لمْ يكنْ صاحبُهُ كذٰلكَ » (٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما شهدَ رجلٌ علىٰ رجلٍ بكفرٍ إلَّا باءَ بهِ أحدُهُما ، إنْ كانَ كافراً . . فهوَ كما قالَ ، وإنْ لمْ يكنْ كافراً . . فقدْ كفرَ بتكفيرِهِ إيَّاهُ » (٤) ، وهٰذا معناهُ : أنْ يكفِّرَهُ وهوَ يعلمُ أنَّهُ مسلمٌ ، فإنْ ظنَّ أنَّهُ كافرٌ ببدعةٍ أوْ غيرِها . . كانَ مخطئاً لا كافراً .

وقالَ معاذٌ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنهاكَ أنْ تشتمَ مسلماً ، أوْ تعصيَ إماماً عادلاً » (٥)

والتعرُّضُ للأمواتِ أشدُّ ، قالَ مسروقٌ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقالَتْ : ما فعلَ فلانٌ لعنَهُ اللهُ ؟ قلتُ :

---

(١) رواه بنحوه هناد في « الزهد » (١١٦٨) ، وأبو داوود في « المراسيل » (٥٠٢) ، كلاهما من حديث علي بن ربيعة مرسلاً ، وفيه : « إن سب الأموات يغضب الأحياء ، وإذا سببتم المشركين . . فسبوهم جميعاً » .

(٢) روى البخاري (٢٣١٦) عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال : (جيء بالنعيمان أو ابن النعيمان شارباً ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان في البيت أن يضربوا ، قال : فكنت أنا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد) .

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٥) ، ومسلم (٦١) بنحوه ، وبلفظ المصنف رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣) .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٨) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٣٣٧) .

(٥) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٠) مفرداً ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٠/١) ضمن حديث طويل .

تُوفيَ ، قالَتْ : رحمَهُ اللهُ ، قلتُ : وكيفَ هـٰذا ؟! قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسبُّوا الأمواتَ ؛ فإنَّهُمْ قدْ أفضَوا إلىٰ ما قدَّموا »[١]

وقالَ أيضاً : « لا تسبُّوا الأمواتَ فتؤذوا الأحياءَ »[٢]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أيُّها الناسُ ؛ احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبُّوهُمْ ، أيُّها الناسُ ؛ إذا ماتَ الميِّتُ . . فاذكروا منهُ خيراً »[٣]

❀ ❀ ❀

فإنْ قيلَ : فهلْ يجوزُ أنْ يُقالَ : قاتلُ الحسينِ لعنَهُ اللهُ ، أوِ الآمرُ بقتلِهِ لعنَهُ اللهُ ؟

قلنا : الصوابُ أنْ يُقالَ : قاتلُ الحسينِ إنْ ماتَ قبلَ التَّوبةِ . . لعنَهُ اللهُ ؛ لأنَّهُ يُحتملُ أنْ يموتَ بعدَ التوبةِ ، فإنَّ وحشيّاً قاتِلَ حمزةَ عمِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قتلَهُ وهوَ كافرٌ ، ثُمَّ تابَ عنِ الكفرِ والقتلِ جميعاً ، فلا يجوزُ أنْ يُلعنَ ، والقتلُ كبيرةٌ ، ولا تنتهي إلىٰ رتبةِ الكفرِ ، فإذا لمْ يُقيَّدْ بالتوبةِ وأُطلِقَ . . كانَ فيهِ خطرٌ ، وليسَ في السكوتِ خطرٌ ، فهوَ أولىٰ .

❀ ❀ ❀

وإنَّما أوردنا هـٰذا لتهاونِ الناسِ باللَّعنةِ وإطلاقِ اللسانِ بها ، والمؤمنُ ليسَ بلعَّانٍ ، فلا ينبغي أنْ يُطلَقَ اللِّسانُ باللَّعنةِ إلا علىٰ مَنْ ماتَ على الكفرِ ، أوْ على الأجناسِ المعروفينَ بأوصافِهِمْ دونَ الأشخاصِ المعيَّنينَ ، فالاشتغالُ بذكرِ اللهِ أولىٰ ، فإنْ لمْ يكُنْ . . ففي السكوتِ سلامةٌ .

قالَ مكيُّ بنُ إبراهيمَ : كنَّا عندَ ابنِ عونٍ ، فذكروا بلالَ بنَ أبي بردةَ ، فجعلوا يلعنونَهُ ويقعونَ فيهِ ، وابنُ عونٍ ساكتٌ ، فقالوا : يا بنَ عونٍ ؛ إنَّما نذكرُهُ لما ارتكبَ منكَ ، فقالَ ابنُ عونٍ : إنَّما هما كلمتانِ تخرجانِ مِنْ صحيفتي يومَ القيامةِ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، ولعنَ اللهُ فلاناً ، فلأنْ يخرجَ مِنْ صحيفتي لا إلـٰهَ إلا اللهُ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يخرجَ منها لعنَ اللهُ فلاناً[٤]

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، قالَ : « أوصيكَ ألا تكونَ لعَّاناً »[٥]

وقالَ ابنُ عمرَ : (إنَّ أبغضَ عبادِ اللهِ إلى اللهِ كلُّ طعَّانٍ لعَّانٍ)[٦]

وقالَ بعضُهمْ : (لعنُ المؤمنِ كعدْلِ قتلِهِ) ، وقالَ حمادُ بنُ زيدٍ بعدَ أنْ روىٰ هـٰذا الحديثَ : (لوْ قلتُ : إنَّهُ مرفوعٌ . . لمْ أبالِ)[٧]

---

(١) كذا رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٩٣) ، والمرفوع وحده دون القصة رواه البخاري (٦٥١٦) من حديثها رضي الله عنها .
(٢) رواه الترمذي (١٩٨٢) .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٦/١٠٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٤٦) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٥/٧٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٠) .
(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧١) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٢) .

وعنْ أبي قتادةَ قالَ : (كانَ يُقالُ : مَنْ لعنَ مؤمناً . . فهوَ مثلُ أنْ يقتلَهُ)[1] .

وقدْ نُقلَ ذٰلكَ حديثاً مرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

ويقربُ مِنَ اللَّعنِ الدعاءُ على الإنسانِ بالشرِّ ، حتَّى الدعاءُ على الظالمِ ؛ كقولِ الإنسانِ : (لا صحَّحَ اللهُ جسمَهُ ، ولا سلَّمَهُ اللهُ) ، وما يجري مجراهُ ، فكلُّ ذٰلكَ مذمومٌ .

وفي الخبرِ : « إنَّ المظلومَ ليدعو على الظالمِ حتَّىٰ يكافئَهُ ، ثمَّ يبقىٰ للظَّالمِ عندَهُ فضلةٌ يومَ القيامةِ »[3] .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٣) .
(٢) وهو ما رواه البخاري (٦٠٤٧) ، ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك مرفوعاً : « ولعن المؤمن كقتله » .
(٣) ومعناه فيما رواه الترمذي (٣٥٥٢) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من دعا علىٰ مَن ظلمه فقد انتصر » .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقدْ ذكرنا في كتابِ السَّماعِ ما يحرُمُ مِنَ الغِناءِ وما يحلُّ ، فلا نُعيدُهُ .

وأمَّا الشِّعرُ : فكلامٌ حسنُهُ حسنٌ ، وقبيحُهُ قبيحٌ [(١)] ، إلَّا أنَّ التجرُّدَ لهُ مذمومٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ يمتلئَ جوفُ أحدِكُمْ قيحاً حتَّىٰ يَرِيَهُ . . خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يمتلئَ شعراً » [(٢)] .

وعنْ مسروقٍ أنَّهُ سُئلَ عنْ بيتٍ مِنَ الشِّعرِ ، فكرهَهُ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : أنا أكرَهُ أنْ يُوجدَ في صحيفتي شعرٌ [(٣)] .

وسُئلَ بعضُهمْ عنْ شيءٍ مِنَ الشعرِ ، فقالَ : اجعلْ مكانَ هٰذا ذكراً ؛ فإنَّ ذكرَ اللهِ خيرٌ مِنَ الشِّعرِ [(٤)] .

وعلى الجملةِ : فإنشادُ الشعرِ ونظمُهُ ليسَ بحرامٍ إذا لمْ يكنْ فيهِ كلامٌ يكرَهُ [(٥)] ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ الشِّعرِ لحكمةً » [(٦)]

نعمْ ؛ مقصودُ الشِّعرِ : المدحُ ، والذَّمُّ ، والتَّشبيبُ ، وقد يدخلُهُ الكذبُ ، وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حسَّانَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ بهجاءِ الكفارِ [(٧)]

والتوسُّعُ في المدحِ وإنْ كان كذباً فإنَّهُ لا يلتحقُ في التحريمِ بالكذبِ ؛ كقولِ الشَّاعرِ [(٨)] : [من الطويل]

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

فإنَّ هٰذا عبارةٌ عنِ الوصفِ بنهايةِ السَّخاءِ ، فإنْ لمْ يكُنْ صاحبُهُ سخيّاً . . كانَ كاذباً ، وإنْ كانَ سخيّاً . . فالمبالغةُ مِنْ صنعةِ الشعرِ ، ولا يُقصَدُ منهُ أنْ تُعتقدَ صورتُهُ ، وقدْ أُنشدَتْ أشعارٌ بينَ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لوْ تُتُبِّعَتْ . . لوُجدَ فيها مثلُ ذٰلكَ ، ولمْ يمنعْ منهُ [(٩)]

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخصِفُ نعلَهُ ، وكنتُ جالسةً أغزِلُ ، قالَتْ :

---

(١) وقد روى البخاري في « الأدب المفرد » (٨٦٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام » .

(٢) رواه البخاري (٦١٥٥) ، ومسلم (٢٢٥٧) ، ويريه : هو من الوَرْي ، وهو داء يفسد الجوف ؛ أي : يأكل جوفه ويفسده .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٧) ، والمسؤول هو طلحة بن مصرف .

(٥) فقد روى الترمذي (٢٨٥٠) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مئة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، فربما تبسم معهم) .

(٦) رواه البخاري (٦١٤٥) .

(٧) رواه البخاري (٣٢١٣) ، ومسلم (٢٤٨٦) ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : « اهْجُهُمْ ـ أو هاجمهم ـ وجبريل معك » .

(٨) البيت متنازع في نسبته ، وهو في « الزهرة » (١٣٤/٢) لزياد الأعجم ، والبيت في « ديوانه » (ص ١١١) ، و« الأغاني » (٥٠٩٤/١٤) لعبد الله بن الزبير الأسدي ، والبيت في « ديوانه » (ص ١٢٢) ، و« التحف والأنواء » (ص ١٧٢) لدعبل الخزاعي ، والبيت في « ديوانه » (ص ٤٥٧) ، و« خاص الخاص » (ص ٩٦) لأبي تمام ، والبيت في « ديوانه » (٢٩/٣) ، و« وفيات الأعيان » لزينب بنت الطثرية ، وانظر « ديوان زهير » (ص ١١٣) في الهامش ينسب له ، و« شعر بكر بن النطاح » (ص ٣٤) .

(٩) فمن ذٰلك إنشاد كعب بن زهير بين يديه قصيدته اللامية وفيها من التشبيب والمبالغات ما لا يخفى ، ولم ينكر عليه ذٰلك « إتحاف » (٤٩٤/٧) .

فنظرتُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجعلَ جبينُهُ يعرَقُ ، وجعلَ عَرَقُهُ يتولَّدُ نوراً ، قالَتْ : فبُهِتُّ ، فنظرَ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ما لَكِ بُهِتِّ ؟ » فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ نظرتُ إليكَ ، فجعلَ جبينُكَ يعرَقُ ، وجعلَ عرقُكَ يتولَّدُ نوراً ، فلوْ رآكَ أبو كبيرٍ الهذليُّ . . لعلمَ أنَّكَ أحقُّ بشعرِهِ ، قالَ : « وما يقولُ يا عائشةُ أبو كبيرٍ الهذليُّ ؟ » قلتُ : يقولُ هـٰذينِ البيتينِ[1] : [من الكامل]

وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءِ مُغْيِلِ

وَإِذا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ الْعارِضِ الْمُتَهَلِّلِ[2]

قالَتْ : فوضعَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما كانَ في يدِهِ وقامَ إليَّ ، فقبَّلَ ما بينَ عينيَّ وقالَ : « جزاكِ اللهُ يا عائشةُ خيراً ، ما سُرِرْتِ منِّي كسُروري منكِ »[3]

ولمَّا قسَّمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ الغنائمَ يومَ حُنينٍ . . أمرَ للعباسِ بنِ مرداسٍ بأربعِ قلائصَ ، فاندفعَ يشكو في شعرٍ لَهُ ، وفي آخرِهِ[4] : [من المتقارب]

وَما كانَ بَدْرٌ وَلَا حابِسٌ ... يَسُودانِ مِرْداسَ في الْمَجْمَعِ

وَما كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُما ... وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لا يُرْفَعِ

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقطعُوا عنِّي لسانَهُ » ، فذهبَ بهِ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ حتَّى اختارَ مئةً مِنَ الإبلِ ، ثمَّ رجعَ وهوَ مِنْ أرضى الناسِ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتقولُ فيَّ الشعرَ ؟ » ، فجعلَ يعتذرُ إليهِ ويقولُ : بأبي أنتَ وأمي ؛ إنِّي لأجدُ للشعرِ دبيباً علىٰ لساني مثلَ دبيبِ النملِ ، ثمَّ يقرُصُني كما يقرُصُ النملُ ، فلا أجدُ بدّاً مِنْ قولِ الشعرِ ، فتبسَّمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « لا تدعُ العربُ الشِّعرَ حتَّىٰ تدعَ الإبلُ الحنينَ »[5]

* * *

---

(١) ديوان الهذليين (٢/٩٣) .

(٢) **الغُبَّر** : البقية ، **والمُغْيِل** : هو من الغيل ؛ اسم للبن الذي ترضعه المرأة وهي حامل ، فهو ينفي عنه أن تكون أمه قد حملته آخر الحيض أو وهي ترضع ، ولم ترضعه وهي حامل ، **والعارض** : السحاب ، **والمتهلل** : المترقرق .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/٤٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/٣٠٧) .

(٤) ديوانه (ص ١١٢) .

(٥) رواه مسلم (١٠٦٠) ، وانظر « الإتحاف » (٧/٤٩٥) .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصلُهُ مذمومٌ منهيٌّ عنهُ ، إلا قدراً يسيراً يُستثنىٰ منهُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تمارِ أخاكَ ولا تمازِحْهُ »[١]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : المماراةُ فيها إيذاءٌ ؛ لأنَّ فيها تكذيباً للأخِ والصديقِ ، أوْ تجهيلاً لهُ ، أمَّا المِزاحُ . . فمطايبةٌ ، وفيهِ انبساطٌ وطيبةُ قلبٍ ، فلِمَ يُنهىٰ عنهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ المنهيَّ عنهُ الإفراطُ فيهِ ، أوِ المداومةُ عليهِ .

أمَّا المداومةُ . . فلأنَّهُ اشتغالٌ باللعبِ والهزلِ ، واللعبُ مباحٌ ، ولٰكنَّ المواظبةَ عليهِ مذمومةٌ .

وأمَّا الإفراطُ فيهِ . . فإنَّهُ يورثُ كثرةَ الضحكِ ، وكثرةُ الضحكِ تميتُ القلبَ[٢] ، وتورثُ الضغينةَ في بعضِ الأحوالِ ، وتسقطُ المهابةَ والوقارَ ، فما يخلو عنْ هٰذهِ الأمورِ . . فلا يذمُّ ، كما رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنِّي لأمزحُ ، ولا أقولُ إلَّا حقاً »[٣] ، إلَّا أنَّ مثلَهُ يقدرُ علىٰ أن يمزحَ ولا يقولَ إلا حقّاً ، وأمَّا غيرُهُ إذا فُتِحَ بابُ المِزاحِ . . كانَ غرضُهُ أنْ يضحكَ الناسَ كيفما كانَ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحِكُ بها جلساءَهُ يهوي بها في النارِ أبعدَ من الثُّريَّا »[٤]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ كثُرَ ضحكُهُ . . قلَّتْ هيبتُهُ ، ومَنْ مَزَحَ . . استُخِفَّ بهِ ، ومَنْ أكثرَ مِنْ شيءٍ . . عُرِفَ بهِ ، ومَنْ كثُرَ كلامُهُ . . كثُرَ سَقَطُهُ ، ومَنْ كثُرَ سَقَطُهُ . . قلَّ حياؤُهُ ، ومَنْ قلَّ حياؤُهُ . . قلَّ ورعُهُ ، ومَن قلَّ ورَعُهُ . . ماتَ قلبُهُ)[٥]

ولأنَّ الضحكَ يدلُّ على الغفلةِ عنِ الآخرةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكْتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »[٦]

وقالَ رجلٌ لأخيهِ : يا أخي ؛ هلْ أتاكَ أنَّكَ واردُ النارَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فهلْ أتاكَ أنَّكَ خارجٌ منها ؟ قالَ : لا ، قالَ : ففيمَ الضحكُ ؟! قيلَ : فما رُئِيَ ضاحكاً حتَّىٰ ماتَ[٧]

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥) .

(٢) إذ روى الترمذي (٢٣٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يأخذ عني هٰؤلاء الكلمات فيعمل بهنَّ أو يعلِّم من يعمل بهنَّ ؟ » فقال أبو هريرة : فقلت : أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدي فعدَّ خمساً وقال : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلىٰ جارك تكن مؤمناً ، وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٠) ، ورواه الترمذي (١٩٩٠) ، وأحمد في « المسند » (٢/٣٤٠) بنحوه .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٢٨٠) .

(٦) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١١) .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (أقامَ الحسنُ ثلاثينَ سنةً لمْ يضحكْ)[١]

وقيلَ : أقامَ عطاءٌ السَّليميُّ لمْ يضحكْ أربعينَ سنةً[٢]

ونظرَ وهيبُ بنُ الوردِ إلىٰ قومٍ يضحكونَ في عيدِ فطرٍ ، فقالَ : إنْ كانَ هٰؤلاءِ قدْ غُفرَ لهمْ . . فما هٰذا فعلَ الشاكرينَ ، وإنْ كانَ لمْ يُغفرْ لهمْ . . فما هٰذا فعلَ الخائفينَ[٣]

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ أبي يعلىٰ يقولُ : (أتضحكُ ولعلَّ أكفانَكَ قدْ خرجَتْ مِنْ عندِ القصَّارِ ؟!)[٤]

وقالَ ابنُ عباسٍ : (مَنْ أذنبَ ذنباً وهوَ يضحكُ . . دخلَ النارَ وهوَ يبكي)[٥]

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ : إذا رأيتَ في الجنةِ رجلاً يبكي . . ألسْتَ تعجبُ مِنْ بكائِهِ ؟ قيلَ : بلىٰ ، قالَ : فالذي يضحكُ في الدنيا ولا يدري إلىٰ ماذا يصيرُ هوَ أعجبُ منهُ[٦]

فهٰذهِ آفةُ الضحكِ ، **والمذمومُ منهُ** : أنْ يستغرقَ ضحكاً ، **والمحمودُ منهُ** : التبسُّمُ الذي ينكشفُ فيه السِّنُ ، ولا يُسمَعُ لهُ صوتٌ ، وكذٰلكَ كانَ ضحكُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٧]

وقالَ القاسمُ مولىٰ معاويةَ : أقبلَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ قَلُوصٍ لهُ صعبٍ ، فسلَّمَ ، فجعلَ كلَّما دنا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليسألَهُ . . يفرُّ بهِ ، فجعلَ أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضحكونَ منهُ ، ففعلَ ذٰلكَ ثلاثَ مراتٍ ، ثم وَقَصَهُ فقتلَهُ ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الأعرابيَّ قدْ صرعَهُ قلوصُهُ ، فهلكَ ، فقالَ : « نعمْ ، وأفواهُكُمْ ملأىٰ مِنْ دمِهِ »[٨]

وأمَّا أداءُ المِزاحِ إلىٰ سُقوطِ الوقارِ . . فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ مَزَحَ . . استُخفَّ بهِ)[٩]

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : قالَتْ لي أمِّي : (يا بنيَّ ؛ لا تمازحِ الصبيانَ فتهونَ عليهِمْ)[١٠]

وقالَ سعيدُ بنُ العاصِ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تمازحِ الشريفَ فيحقِدَ عليكَ ، ولا الدنيءَ فيجترئَ عليكَ)[١١]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ تعالى : (اتقوا اللهَ ، وإياكُمْ والمِزاحةَ ؛ فإنَّها تُورثُ الضغينةَ ، وتجرُّ إلى القبيحِ ، تحدَّثوا بالقرآنِ ، وتجالسُوا بهِ ، فإنْ ثَقُلَ عليكُمْ . . فحديثٌ حسنٌ مِنْ حديثِ الرجالِ)[١٢] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٠/٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢١/٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (ص ١٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٨٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٦/٦) ، كلهم عن عبد الله بن ثعلبة الحنفي ، واتفقت النسخ على ما أثبت .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٦/٤) من حديثه مرفوعاً .
(٦) كذا حكاه عن محمد بن واسع ابنُ الجوزي في « المدهش » (٣٥٦/١) .
(٧) روىٰ ذٰلك البخاري (٤٨٢٩) ، ومسلم (١٦/٨٩٩) .
(٨) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن المبارك في « الزهد والرقائق » وهو مرسل) . « إتحاف » (٤٩٨/٧) .
(٩) هو جزء من خبر رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٢٨٠) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٣) .
(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٨) .
(١٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٧) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : أتدرونَ لمَ سُمِّيَ المِزاحُ مزاحاً ؟ قالُوا : لا ، قالَ : لأنَّهُ زاحَ عنِ الحقِّ [١]

وقيلَ : لكلِّ شيءٍ بَذْرٌ ، وبَذْرُ العداوةِ المِزاحُ [٢]

ويُقالُ : المِزاحُ مَسْلَبَةٌ للنُّهىٰ ، مَقْطَعَةٌ للأصدقاءِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ نُقلَ المِزاحُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ ، فكيفَ يُنهىٰ عنهُ ؟

فأقولُ : إنْ قدَرتَ علىٰ ما قَدَرَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ ، وهوَ أنْ تمزحَ ولا تقولَ إلا حقّاً ، ولا تؤذيَ قلباً ، ولا تفْرِطَ فيهِ ، وتقتصرَ علىٰ ذٰلكَ أحياناً وعلى الندورِ . . فلا حرجَ عليكَ فيهِ ، ولٰكنْ مِنَ الغلطِ العظيمِ أنْ يتَّخِذَ الإنسانُ المِزاحَ حرفةً ، ويواظبَ عليهِ ، ويفرطَ فيهِ ، ثمَّ يتمسَّكُ بفعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فهو كمَنْ يدورُ نهارَهُ أبداً معَ الزنوجِ ينظرُ إليهِمْ وإلىٰ رقصِهِمْ ويتمسَّكُ بأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أذِنَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها في النظرِ إلىٰ رقصِ الزنوجِ في يومِ عيدٍ [٣] ، وهوَ خطأٌ ؛ إذْ مِنَ الصغائرِ ما يصيرُ كبيرةً بالإصرارِ ، ومِنَ المباحاتِ ما يصيرُ صغيرةً بالإصرارِ ، فلا ينبغي أنْ تغْفُلَ عنْ هٰذا .

نعمْ ؛ روىٰ أبو هريرةَ أنَّهمْ قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّكَ تداعبُنا ، قالَ : « إنِّي وإنْ داعبتُكُمْ فلا أقولُ إلا حقّاً » [٤]

وقالَ عطاءٌ : إنَّ رجلاً سألَ ابنَ عباسٍ : أكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يمزحُ ؟ فقالَ ابنُ عباسٍ : نعمْ ، فقالَ الرجلُ : فما كانَ مِزاحُهُ ؟ فقالَ ابنُ عباسٍ : إنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كسا ذاتَ يومٍ امرأةً مِنْ نسائِهِ ثوباً واسعاً ، فقالَ لها : « البسيهِ واحمدِي ، وجرِّي منهُ ذيلاً كذيلِ العروسِ » [٥] .

وقالَ أنسٌ : (إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ مِنْ أفكَهِ النَّاسِ معَ نسائِهِ) [٦]

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ كثيرَ التَّبسُّمِ [٧]

وعنِ الحسنِ قالَ : أتتْ عجوزٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لها صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ عجوزٌ » ، فبكَتْ ، فقالَ : « إنَّكِ لسْتِ بعجوزٍ يومئذٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ » [٨]

وروىٰ زيدُ بنُ أسلمَ : أنَّ امرأةً يُقالُ لها : أمُّ أيمنَ جاءَتْ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَتْ : إنَّ زوجي يدعوكَ ، قالَ : « ومَنْ هوَ ؟ أهوَ الذي بعينِهِ بياضٌ ؟ » فقالَتْ : واللهِ ؛ ما بعينِهِ بياضٌ !! فقالَ : « بلىٰ ، إنَّ بعينِهِ بياضاً » ، فقالَتْ : لا واللهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ إلَّا وبعينِهِ بياضٌ » [٩] ، وأرادَ بهِ : البياضَ المحيطَ بالحدقةِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠١) ، نقله خالد بن صفوان .

(٣) إذنه للسيدة عائشة رضي الله عنها بالنظر إلىٰ رقص الزنوج رواه البخاري (٩٥٠) ، ومسلم (٨٩٢) .

(٤) رواه الترمذي (١٩٩٠) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/٤) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٦٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/٤) .

(٧) فقد روى الترمذي (٣٦٤١) عن عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه قال : (ما رأيت أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٨) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٠) .

(٩) قال الحافظ العراقي : (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح » ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن سهم الفهري مع اختلاف) . « إتحاف » (٥٠٠/٧) .

وجاءَتْهُ امرأةٌ أخرىٰ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ احملْني علىٰ بعيرٍ ، فقالَ : « بلْ نحملُكِ على ابنِ البعيرِ » ، فقالَتْ : ما أصنعُ بهِ ؟ إنَّهُ لا يحملُني ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ بعيرٍ إلا وهوَ ابنُ بعيرٍ »(1) ، فكانَ يمزحُ بهِ .

وقالَ أنسٌ : كانَ لأبي طلحةَ ابنٌ يُقالُ لهُ : أبو عُميرٍ ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأتيهِمْ فيقولُ : « يا أبا عُميرٍ ؛ ما فعلَ النُّغيرُ ؟ » لنُغيرٍ كانَ يلعبُ بهِ(2) ، وهوَ فرخُ العصفورِ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : خرجْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةِ بدرٍ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعالَي حتَّىٰ أسابقَكِ » ، فشدَدتُ دِرعي علىٰ بطني ، ثمَّ خططنا خطاً ، فقُمنا عليهِ فاستبقنا فسبقَني ، فقالَ : « هـٰذهِ مكانَ ذي المجازِ » ، وذلكَ أنَّهُ جاءَ يوماً ونحنُ بذي المجازِ وأنا جاريةٌ قدْ بعثَني أبي بشيءٍ ، فقالَ : « أعطينيهِ » ، فأبيتُ وسعيتُ ، فسعىٰ علىٰ أثري ، فلمْ يدركْني(3) .

وقالَتْ أيضاً : سابقَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسبقتُهُ ، فلمَّا حملتُ اللحمَ . . سابقَني فسبقَني وقالَ : « هـٰذهِ بتلكِ »(4) .

وقالَتْ أيضاً رضيَ اللهُ عنها : كانَ عندي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسودةُ بنتُ زمعةَ ، فصنعْتُ حريرةً وجئتُ بهِ ، فقلْتُ لسودةَ : كُلي ، فقالَتْ : لا أحبُّهُ ، فقلْتُ : واللهِ لتأكلِنَّ أوْ لألطِّخَنَّ بهِ وجهَكِ ، فقالَتْ : ما أنا بذائقتِهِ ، فأخذْتُ بيدي مِنَ الصَّحْفةِ شيئاً فلطَّخْتُ بهِ وجهَها ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالسٌ بيني وبينَها ، فخفضَ لها رسولُ اللهِ ركبتيهِ لتستقيدَ منِّي ، فتناولَتْ مِنَ الصَّحفَةِ شيئاً فمسحَتْ بهِ وجهي ، وجعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضحكُ(5) .

ورُويَ أنَّ الضحاكَ بنَ سفيانَ الكلابيَّ كانَ رجلاً دميماً قبيحاً ، فلما بايعَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : إنَّ عندي امرأتينِ أحسنُ مِنْ هـٰذهِ الحميراءِ ، أفلا أنزلُ لكَ عنْ إحداهما فتتزوَّجَها ؟ وعائشةُ جالسةٌ تسمعُ قبلَ أنْ يُضربَ الحجابُ ، فقالَتْ : أهيَ أحسنُ أمْ أنتَ ؟ فقالَ : بلْ أنا أحسنُ منها وأكرمُ ، فضحكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ سؤالِها إيَّاهُ ؛ لأنَّهُ كانَ دَميماً(6) .

وروىٰ علقمةُ عنْ أبي سلمةَ أنَّه كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُدلِعُ لسانَهُ للحسينِ بنِ عليٍّ فيرى الصبيُّ لسانَهُ ، فيهشُّ لهُ ، فقالَ لهُ عيينةُ بنُ بدرٍ الفزاريُّ : واللهِ ؛ ليكونُ ليَ الابنُ قدْ خرجَ وجهُهُ وما قَبَّلْتُهُ قطُّ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مَنْ لا يَرْحمُ لا يُرحَمُ »(7) .

---

(1) رواه أبو داوود (٤٩٩٨) ، والترمذي (١٩٩١) ، وفيه : « إنا حاملوك علىٰ ولد ناقة » .

(2) رواه البخاري (٦١٢٩) ، ومسلم (٢١٥٠) .

(3) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٥٦٠) ، و« مداراة الناس » (١٥٦) ، والطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (١٨٨١) .

(4) رواه أبو داوود (٢٥٧٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٩٤) ، وابن ماجه (١٩٧٩) .

(5) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٦٨) .

(6) قال الحافظ العراقي : (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح » من رواية عبد الله بن حسن بن حسن مرسلاً أو معضلاً ، وللدارقطني نحو هـٰذه القصة مع عيينة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف) . « إتحاف » (٥٠١/٧) ، وحديث عيينة قد رواه البزار في « مسنده » (٨٧٦١) .

(7) رواه هناد في « الزهد » (١٣٣٠) من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمـٰن بن عوف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٥٩٦) من حديثه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، **ويدلع لسانه** : يخرجه له ، **وخرج وجهه** : نبتت لحيته .

فأكثرُ هـٰذهِ المطايباتِ منقولةٌ معَ النِّساءِ والصِّبيانِ ، وكانَ ذٰلكَ منهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معالجةً لضعفِ قلوبِهِمْ ، مِنْ غيرِ ميلٍ إلىٰ هزْلٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً لصُهيبٍ وبهِ رمدٌ وهوَ يأكلُ تمراً : « أتأكلُ التَّمرَ وأنتَ رَمِدٌ ؟! » فقالَ : إنَّما آكلُ بالشِّقِّ الآخرِ يا رسولَ اللهِ ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ بعضُ الرُّواةِ : حتَّىٰ نظرتُ إلىٰ نواجذِهِ (١)

ورُوِيَ أنَّ خوَّاتَ بنَ جبيرٍ الأنصاريَّ كانَ جالساً إلىٰ نسوةٍ مِنْ بني كعبٍ بطريقِ مكَّةَ (٢) ، فطلعَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما لك معَ النِّسوةِ ؟! » فقالَ : يفْتِلْنَ ضفيراً لجملٍ لي شَرُودٍ ، قالَ : فمضىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحاجتِهِ ، ثمَّ عادَ فقالَ لهُ : « يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أما تركَ ذٰلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » قالَ : فسكتُّ واستحييتُ ، وكنتُ بعدَ ذٰلكَ أنفردُ منهُ كلَّما رأيتُهُ حياءً منهُ ، حتَّىٰ قدمتُ المدينةَ ، وبعدَما قدِمتُ المدينةَ قالَ : فرآني في المسجدِ يوماً أُصلي ، فجلسَ إليَّ ، فطوَّلْتُ ، فقالَ : « لا تطوِّلْ ؛ فإنِّي أنتظرُكَ » ، فلمَّا سلَّمتُ . . قالَ : « يا أبا عبدِ الله ؛ أما تركَ ذٰلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » ، قال : فسكتُّ واستحييتُ ، فقام وكنتُ بعدَ ذٰلكَ أنفردُ منهُ ، حتَّىٰ لحقَني يوماً وهوَ علىٰ حمارٍ ، وقدْ جعلَ رجليهِ مِنْ شقٍّ واحدٍ ، فقالَ : « أبا عبدِ اللهِ ؛ أما تركَ ذٰلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » ، فقلتُ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ ما شرَدَ منذُ أسلمْتُ ، فقالَ : « اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ؛ اهدِ أبا عبدِ اللهِ » ، قالَ : فحسُنَ إسلامُهُ وهداهُ اللهُ تعالىٰ (٣)

وكانَ نعيمانُ الأنصاريُّ رجلاً مَزَّاحاً ، وكانَ يشربُ ، فيُؤتىٰ بِهِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيضربُهُ بنعلِهِ ويأمرُ أصحابَهُ فيضربونَهُ بنعالِهِمْ ، فلَّما كثُرَ ذٰلكَ منهُ . . قالَ لهُ رجلٌ مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : لعنكَ اللهُ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تفعلْ ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ » (٤) ، وكانَ لا يدخلُ المدينةَ رَسَلٌ ولا طُرْفةٌ إلا اشترىٰ منها ، ثمَّ جاءَ بِهِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا قدِ اشتريتُهُ وأهديتُهُ لكَ ، فإذا جاءَ صاحبُهُ يطلبُ نعيمانَ بثمنِهِ . . جاءَ بِهِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أعطِهِ ثمنَ متاعِهِ ، فيقولُ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَلمْ تهدِهِ لنا ؟ » فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّهُ واللهِ لمْ يكُنْ عندِي ثمنُهُ وأحببتُ أنْ تأكُلَهُ ، فيضحكُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويأمرُ لصاحبِهِ بثمنِهِ (٥) .

فهـٰذهِ مطايباتٌ يباحُ مثلُها على الندورِ ، لا على الدوامِ ، والمواظبةُ عليها هزْلٌ مذمومٌ ، وسببٌ للضحكِ المُميتِ للقلبِ .

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣) .

(٢) في (أ) : (قريش) بدل (بني كعب) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠٣/٤) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٩٧٧/٢) بنحوه ، وفي جميع النسخ عدا (ج) : (أتقزز) بدل (أنفرد) ، والقزازة : الحياء .

(٤) رواه البخاري (٦٧٨٠) .

(٥) هو تتمة الخبر السابق ، والرَّسَل : ذوات اللبن .

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهٰذا محرَّمٌ مهما كانَ مؤذياً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ ﴾ .

ومعنى السخريةِ : الاستحقارُ والاستهانةُ والتنبيهُ على العيوبِ والنقائصِ علىٰ وجهٍ يُضْحكُ منهُ ، وقدْ يكونُ ذٰلكَ بالمحاكاةِ في الفعلِ والقولِ ، وقدْ يكونُ بالإشارةِ والإيماءِ .

وإذا كانَ بحضرةِ المستهزأ بهِ . . لمْ يُسمَّ ذٰلكَ غيبةً ، وفيهِ معنى الغيبةِ .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : حكيتُ إنساناً ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحبُّ أنِّي حكيتُ إنساناً وأنَّ لي كذا وكذا »[(١)]

وقالَ ابنُ عباسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾ : (الصغيرةُ : التبسُّمُ بالاستهزاءِ بالمؤمنِ ، والكبيرةُ : القهقهةُ بذٰلكَ)[(٢)] ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الضَّحكَ على الناسِ مِنْ جملةِ الذنوبِ والكبائرِ .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ زمعةَ : أنَّهُ سمعَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يخطبُ ، فوعظَهُمْ في ضحكِهِمْ مِنَ الضَّرطةِ ، وقالَ : « علامَ يضحكُ أحدُكُمْ ممَّا يفعلُ ؟! »[(٣)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المستهزئينَ بالنَّاسِ يُفتحُ لأحدِهِمْ بابٌ مِنَ الجنَّةِ ، فيُقالُ : هلمَّ هلمَّ ، فيجيءُ بكرْبِهِ وغمِّهِ ، فإذا جاءَ . . أُغلقَ دونَهُ ، ثمَّ يُفتحُ لهُ بابٌ آخرُ ، فيُقالُ لهُ : هلمَّ هلمَّ ، فيجيءُ بكرْبِهِ وغمِّهِ ، فإذا أتاهُ . . أُغلقَ دونَهُ ، فما يزالُ كذٰلكَ حتَّىٰ إنَّ الرَّجلَ لَيُفتحُ له البابُ فيُقالُ لهُ : هلمَّ هلمَّ فما يأتيهِ »[(٤)]

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عيَّرَ أخاهُ بذنبٍ قدْ تابَ منهُ . . لمْ يمُتْ حتَّىٰ يعملَهُ »[(٥)]

وكلُّ هٰذا يرجعُ إلى استحقارِ الغيرِ والضحكِ عليهِ استهانةً بهِ واستصغاراً لهُ ، وعليهِ نبَّهَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ أيْ : لِمَ تسخرُ بهِ استصغاراً ولعلَّهُ خيرٌ منكَ ؟!

وهٰذا إنَّما يحرمُ في حقِّ مَنْ يتأذَّىٰ بهِ .

فأمَّا مَنْ جعلَ نفسَهُ مَسْخَرةً ، وربَّما فَرِحَ بأنْ يُسخَرَ بهِ . . كانَتِ السخريةُ في حقِّهِ مِنْ جملةِ المزحِ ، وقد سبقَ ما يذمُّ منهُ وما يمدحُ .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وقوله : (**حكيت إنساناً**) أي : قلدتُ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٢) .

(٣) رواه البخاري (٤٩٤٢) ، ومسلم (٢٨٥٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٨٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٣٣) من حديث الحسن مرسلاً .

(٥) رواه الترمذي (٢٥٠٥) ، وزيادة : (قد تاب منه) نقلها شيخه أحمد بن منيع .

وإنَّما المحرَّمُ : استصغارٌ يتأذَّىٰ بهِ المستهزَأُ بهِ ؛ لما فيهِ مِنَ التحقيرِ والتهاونِ ، وذلكَ تارةً يجري بأنْ يضحكَ علىٰ كلامِهِ إذا تخبَّطَ فيهِ ولمْ ينتظِمْ ، أوْ علىٰ أفعالِهِ إذا كانَتْ مشوَّشةً ؛ كالضَّحكِ علىٰ خطِّهِ ، وعلىٰ صنعتِهِ ، أوْ علىٰ صورتِهِ وخِلْقتِهِ إذا كانَ قصيراً أوْ ناقصاً لعيبٍ منَ العيوبِ ، فالضحكُ منْ جميعِ ذلكَ داخلٌ في السخريةِ المنهيِّ عنها .

* * *

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهوَ منهيٌّ عنهُ ؛ لما فيهِ مِنَ الإيذاءِ ، والتهاونِ بحقِّ المعارفِ والأصدقاءِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا حدَّثَ الرَّجلُ الحديثَ ثمَّ الْتفتَ . . فهيَ أمانةٌ »(١)

وقالَ مطلقاً : « الحديثُ بينَكُمْ أمانةٌ »(٢)

وقالَ الحسنُ : (إنَّ مِنَ الخيانةِ أنْ تحدِّثَ بسرِّ أخيكَ)(٣)

ويُروىٰ أنَّ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ أسرَّ إلى الوليدِ بنِ عُتبةَ حديثاً ، فقالَ لأبيهِ : يا أبتِ ؛ إنَّ أميرَ المؤمنينَ أسرَّ إليَّ حديثاً ، وما أراهُ يطوي عنكَ ما بسطَهُ إلىٰ غيرِكَ .

قالَ : فلا تحدِّثْني بهِ ؛ فإنَّ مَنْ كتمَ سرَّهُ . . كانَ الخيارُ لهُ ، ومَنْ أفشاهُ . . كانَ الخيارُ عليهِ ، قالَ : فقلتُ : يا أبتِ ؛ وإنَّ هـٰذا ليدخلُ بينَ الرجلِ وبينَ أبيهِ ؟ فقالَ : لا واللهِ يا بنيَّ ، ولـٰكنْ أحبُّ ألَّا تذلِّلَ لسانَكَ بأحاديثِ السِّرِّ ، قالَ : فأتيتُ معاويةَ فحدَّثتُهُ ، فقالَ : يا وليدُ ؛ أعتقَكَ أخي مِنْ رقِّ الخطأ(٤)

فإفشاءُ السِّرِّ خيانةٌ ، وهوَ حرامٌ إذا كانَ فيهِ إضرارٌ ، ولؤمٌ إنْ لمْ يكُنْ فيهِ إضرارٌ ، وقدْ ذكرنا ما يتعلَّقُ بكتمانِ السِّرِّ في كتابِ آدابِ الصحبةِ ، فلا نعيدُهُ .

* * *

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٦٨) ، والترمذي (١٩٥٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١٠) .

الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب

فإنَّ اللِّسانَ سبَّاقٌ إلى الوعدِ ، ثمَّ النفسُ ربَّما لا تسمحُ بالوفاءِ ، فيصيرُ الوعدُ خُلْفاً ، وذٰلكَ مِنْ أماراتِ النِّفاقِ .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العِدةُ عطيَّةٌ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الوَأْيُ مثلُ الدَّينِ أوْ أفضلُ »[2] ، والوَأْيُ : الوعدُ .

وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ نبيِّهِ إسماعيلَ عليهِ السَّلامُ في كتابهِ العزيزِ فقالَ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ .

فيُقالُ : إنَّهُ واعدَ إنساناً في موضعٍ فلمْ يرجعْ إليهِ ذٰلكَ الإنسانُ بلْ نسيَ ، فبقيَ إسماعيلُ اثنينِ وعشرينَ يوماً في انتظارِهِ[3]

ولمَّا حضرَتْ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو الوفاةُ . . قالَ : (إنَّهُ كانَ خطبَ إليَّ ابنتي رجلٌ مِنْ قريشٍ ، وقد كانَ منِّي إليهِ شبهُ الوعدِ ، فواللهِ ؛ لا ألقى اللهَ بثُلُثِ النفاقِ ، اشهدُوا أني قدْ زوَّجتُهُ ابنتي)[4]

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ أبي الحَمْساءِ قالَ : بايعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يبعثَ ، فبقيَتْ لهُ بقيةٌ ، فوعدتُهُ أنْ آتيَهُ بها في مكانِهِ ذٰلكَ ، فنسيتُ يومي والغدَ ، فأتيتُهُ في اليومِ الثالثِ وهوَ في مكانِهِ ، فقالَ : « يا فتىٰ ؛ قدْ شققتَ عليَّ ، أنا هـٰهُنا منذ ثلاثٍ أنتظرُكَ »[5]

وقيلَ لإبراهيمَ : الرجلُ يواعدُ الرجلَ الميعادَ فلا يجيءُ ، قالَ : ينتظرُهُ ما بينَهُ وبينَ أنْ يدخلَ وقتُ الصلاةِ التي تجيءُ[6]

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا وعدَ وعداً . . قالَ : « عسىٰ »[7]

وكانَ ابنُ مسعودٍ لا يعِدُ وعداً إلَّا ويقولُ : (إنْ شاءَ اللهُ)[8] ، وهوَ الأولىٰ .

ثمَّ إذا فُهِمَ معَ ذٰلكَ الجزمُ في الوعدِ . . فلا بدَّ مِنَ الوفاءِ ، إلا أنْ يتعذَّرَ ، فإنْ كانَ عندَ الوعدِ عازماً علىٰ ألَّا يفيَ بهِ . . فهـٰذا هوَ النفاقُ ، قالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ كنَّ فيهِ . . فهوَ منافقٌ وإنْ صامَ وصلَّىٰ وزعمَ أنَّهُ مسلمٌ ؛ إذا حدَّثَ . . كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا اؤتُمِنَ . . خانَ »[9]

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٧٧٣) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٦) عن الحسن مرسلاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٧) عن ابن لهيعة مرسلاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦١) عن يزيد الرقاشي قاله .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٩) .

(٥) رواه أبو داوود (٤٩٩٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٠) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٣) .

(٧) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٥٠٧/٧) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٧) عن أبي إسحاق قال : كان أصحاب عبد الله رضي الله عنه يقولون : إذا وعد فقال : (إن شاء الله) . . لم يخلف .

(٩) رواه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) بنحوه .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ . . كانَ منافقاً ، ومَنْ كانَتْ فيهِ خلةٌ منهنَّ . . كانَتْ فيهِ خلةٌ مِنَ النِّفاقِ حتَّىٰ يدعَها ؛ إذا حدَّثَ . . كذَبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا عاهَدَ . . غدرَ ، وإذا خاصَمَ . . فجَرَ »[1]

وهـٰذا ينزَّلُ علىٰ مَنْ وَعَدَ وهوَ علىٰ عزمِ الخُلْفِ ، أوْ تركَ الوفاءَ مِنْ غيرِ عذرٍ ، فأما مَنْ عزمَ على الوفاءِ . . فعَنَّ لهُ عذرٌ منعَهُ مِنَ الوفاءِ . . لمْ يكنْ منافقاً ، وإنْ جرىٰ عليهِ ما هوَ صورةُ النِّفاقِ .

ولـٰكنْ ينبغي أنْ يحترزَ مِنْ صورةِ النِّفاقِ أيضاً كما يحترزُ مِنْ حقيقتِهِ ، ولا ينبغي أنْ يجعلَ نفسَهُ معذوراً مِنْ غيرِ ضرورةٍ حافزةٍ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ وعدَ أبا الهيثمِ بنَ التَّيِّهانِ خادماً ، فأُتِيَ بثلاثةٍ مِنَ السبيِ ، فأعطى اثنينِ وبقيَ واحدٌ ، فجاءَتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تطلُبُ منهُ خادماً وهيَ تقولُ : ألا ترىٰ أثرَ الرَّحىٰ يا رسولَ اللهِ في يدي ، فذكرَ موعدَهُ لأبي الهيثمِ ، فجعلَ يقولُ : « كيفَ بموعدي لأبي الهيثمِ ؟ » فآثرَهُ بهِ علىٰ فاطمةَ ؛ لما سبقَ مِنْ موعدِهِ لهُ ، معَ أنَّها كانَتْ تديرُ الرحىٰ بيدِها الضعيفةِ[2]

ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالساً يقسِمُ غنائمَ هوازنَ بحُنينٍ ، فوقفَ عليهِ رجلٌ مِنَ الناسِ ، فقالَ : إنَّ لي عندكَ موعداً يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « صَدَقتَ فاحْتَكِمْ ما شئتَ » ، فقالَ : أحتكمُ ثمانينَ ضائنةً وراعيَها ، فقالَ : « هيَ لكَ ، ولقد احتكَمتَ يسيراً ، ولَصاحبةُ موسَىٰ عليهِ السَّلامُ التي دلَّتهُ علىٰ عظامِ يوسفَ كانَتْ أحزمَ وأجزلَ حكماً منكَ حينَ حكَّمَها موسىٰ عليهِ السلامُ فقالَتْ : حكمي أنْ تردَّني شابَّةً ، وأدخلَ معكَ الجنَّةَ »[3]

قيلَ : فكانَ الناسُ يضعِّفونَ ما احتكمَ بهِ ، حتَّىٰ جُعِلَ مثلاً ، يقولونَ : (أشحُّ[4] مِنْ صاحبِ الثمانينَ والراعي) .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الخلْفُ أنْ يعدَ الرَّجلُ الرَّجلَ ومِنْ نيَّتِهِ أنْ يفيَ »[5]

وفي لفظٍ آخرَ : « إذا وعدَ الرَّجلُ أخاهُ وفي نيَّتِهِ أنْ يفيَ فلمْ يجدْ . . فلا إثمَ عليهِ »[6]

* * *

(١) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

(٢) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (١/٣٦٠) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٢٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٤٠٤) بنحوه .

(٤) في (ب) : (أقنع) ، وفي (ج) : (أسمح) بدل (أشح) .

(٥) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٣٦٣) .

(٦) رواه أبو داوود (٤٩٩٥) ، والترمذي (٢٦٣٣) ، وفيهما : (فلم يفِ) بدل (فلم يجد) .

الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين

وهوَ مِنْ قبائحِ الذنوبِ وفواحشِ العيوبِ .

قالَ إسماعيلُ بنُ أوسطَ (١) : سمعتُ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ يخطبُ بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مقامي هـٰذا عامَ أوَّلَ ، ثمَّ بكىٰ فقالَ : « إيَّاكُمْ والكذبَ ؛ فإنَّهُ معَ الفجورِ ، وهما في النَّارِ » (٢)

وقالَ أبو أمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الكذبَ بابٌ مِنْ أبوابِ النِّفاقِ » (٣)

وقالَ الحسنُ : (كانَ يُقالُ : إنَّ مِنَ النفاقِ اختلافَ السِّرِّ والعلانيةِ ، والقولِ والعملِ ، والمدخلِ والمخرجِ . وإنَّ الأصلَ الذي يُبنىٰ عليهِ النفاقُ الكذبُ) (٤)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كَبُرَتْ خيانةً أنْ تحدِّثَ أخاكَ حديثاً هوَ لكَ بهِ مصدِّقٌ وأنتَ لهُ بهِ كاذبٌ » (٥)

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزالُ العبدُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتَّىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً » (٦)

ومرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلينِ يتبايعانِ شاةً ويتحالفانِ ، يقولُ أحدُهما : واللهِ ؛ لا أنقصُكَ مِنْ كذا وكذا ، ويقولُ الآخرُ : واللهِ ؛ لا أزيدُكَ علىٰ كذا وكذا ، فمرَّ بالشاةِ وقدِ اشتراها أحدُهُما ، فقالَ : « أوجبَ أحدُهُما بالإثمِ والكفَّارةِ » (٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكذبُ ينقُصُ الرِّزقَ » (٨)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ التُّجَّارَ همُ الفُجَّارُ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ، أليسَ قدْ أحلَّ اللهُ البيعَ ؟ قالَ : « نعمْ ، ولـٰكنَّهُمْ يحلفونَ فيأثمونَ ، ويحدِّثونَ فيكذبونَ » (٩)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةُ نفرٍ لا يكلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القيامةِ ولا ينظرُ إليهِمْ : المنَّانُ بعطيَّتِهِ ، والمنفقُ سلعتَهُ بالحلِفِ الفاجرِ ، والمسبلُ إزارَهُ » (١٠)

---

(١) كذا في جميع النسخ ، والصواب ـ كما نبَّه عليه الحافظ العراقي ـ أوسط بن إسماعيل بن أوسط البجلي ، انظر « الإتحاف » (٥١٠/٧) .
(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٩) واللفظ له .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٢١) ، ومعناه في حديث : « آية المنافق . . . » .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٤) .
(٥) رواه أبو داوود (٤٩٧١) من حديث سفيان بن أُسيد رضي الله عنه ، وهو عند أحمد في « المسند » (١٨٣/٤) من حديث نواس بن سمعان رضي الله عنه .
(٦) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٦) ، والترمذي (١٩٧١) واللفظ له .
(٧) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١١٦) .
(٨) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١١٧) .
(٩) رواه أحمد في « المسند » (٤٢٨/٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٦/٢) ، وفيهما : (بلىٰ) بدل (نعم) .
(١٠) رواه مسلم (١٠٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حلفَ حالفٌ باللهِ فأدخلَ فيها مثلَ جناحِ بعوضةٍ إلَّا كانَتْ نكتةً في قلبِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »(١)

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ يحبُّهُمُ اللهُ : رجلٌ كانَ في فئةٍ فنَصبَ نحْرَهُ حتَّىٰ يُقتَلَ أوْ يفتحَ اللهُ عليهِ أوْ علىٰ أصحابِهِ ، ورجلٌ كانَ لهُ جارُ سُوءٍ يؤذيهِ فيصبرُ علىٰ أذاهُ حتَّىٰ يفرِّقَ بينَهُما موتٌ أو ظَعنٌ ، ورجلٌ كانَ معَهُ قومٌ في سفرٍ أوْ سريَّةٍ فأطالوا السُّرىٰ حتَّىٰ أعجبهُمْ أنْ يمسُّوا الأرضَ فنزلُوا ، فتنحَّىٰ يصلِّي حتَّىٰ يوقظَ أصحابَهُ للرَّحيلِ ، وثلاثةٌ يشْنَؤُهُمُ اللهُ : التَّاجرُ ـ أوِ البيَّاعُ ـ الحلَّافُ ، والفقيرُ المختالُ ، والبخيلُ المنَّانُ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويلٌ للذي يحدِّثُ فيكذبُ ليُضحكَ بهِ القومَ ، ويلٌ لهُ ، ويلٌ لهُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُ كأنَّ رجلاً جاءَني فقالَ لي : قُمْ ، فقمتُ معَهُ ؛ فإذا أنا برجلينِ أحدُهُما قائمٌ والآخرُ جالسٌ ، بيدِ القائمِ كَلُّوبٌ مِنْ حديدٍ يلقمُهُ في شدقِ الجالسِ فيجذِبُهُ حتَّىٰ يبْلُغَ كاهلَهُ ، ثُمَّ يجذِبُهُ فيلقمُهُ الجانبَ الآخرَ ، فيمدُّهُ ، فإذا مدَّهُ . . رجعَ الآخرُ كما كانَ ، فقلتُ للذي أقامَني : ما هٰذا ؟ قالَ : هٰذا رجلٌ كذَّابٌ يُعذَّبُ في قبرِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »(٤)

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ جرادٍ أنَّهُ سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يزني المؤمنُ ؟ قالَ : « قدْ يكونُ منهُ ذٰلكَ » ، قالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ هلْ يكذبُ المؤمنُ ؟ قالَ : « لا » ، ثمَّ أتبعَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٥)

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدعو فيقولُ في دعائِهِ : « اللَّهمَّ ؛ طهِّرْ قلبي مِنَ النِّفاقِ ، وفرجي مِنَ الزِّنا ، ولساني مِنَ الكذِبِ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ لا يكلِّمُهُمُ اللهُ ولا ينظرُ إليهِمْ ولا يزكِّيهِمْ ولهُمْ عذابٌ أليمٌ : شيخٌ زانٍ ، وملِكٌ كذَّابٌ ، وعائلٌ مستكبرٌ »(٧)

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ : جاءَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ بيتِنا وأنا صبيٌّ صغيرٌ ، فذهبتُ لألعَبَ ، فقالَتْ أمِّي : يا عبدَ اللهِ ؛ تعالَ لأُعطيَكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما أردتِ أنْ تعطيهِ ؟ » فقالَتْ : تمراً ، فقالَ : « أما إنَّكِ لوْ لمْ تفعلي . . كُتبَتْ عليكِ كذْبةٌ »(٨)

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٠) ضمن حديث ، ومفرداً رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٢٤) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٥١/٥) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٢٦) بلفظه .
(٣) رواه أبو داوود (٤٩٩٠) ، والترمذي (٢٣١٥) .
(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣١) بلفظه هنا ، وهو عند البخاري (١٣٨٦) ضمن حديث طويل .
(٥) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣٢) ، وفيه زيادة : يا رسول الله ؛ هل يسرق المؤمن ؟ قال : « قد يكون من ذلك » ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٧) وفيه السؤال عن الكذب فقط والسائل أبو الدرداء رضي الله عنه .
(٦) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣٤) .
(٧) رواه مسلم (١٠٧) .
(٨) رواه أبو داوود (٤٩٩١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٤٠) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أفاءَ اللهُ عليَّ نَعماً عددَ هـٰذهِ العِضاهِ . . لقسمتُها بينَكُمْ ثمَّ لا تجدُوني بخيلاً ولا كذَّاباً ولا جباناً »[(١)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكانَ متكئاً : « ألا أنبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ ؟ الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدينِ » ، ثمَّ قعدَ فقالَ : « ألا وقولُ الزُّورِ »[(٢)]

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليكذِبُ الكذْبةَ فيتباعدُ الملَكُ منهُ مسيرةَ ميلٍ مِنْ نَتْنِ ما جاءَ بهِ »[(٣)]

وقالَ أنسٌ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تقبَّلُوا لي بستٍّ . . أتقبَّلْ لكمْ بالجنَّةِ » ، قالوا : وما هيَ ؟ قالَ : « إذا حدَّثَ أحدُكمْ . . فلا يكذبْ ، وإذا وعدَ . . فلا يخلفْ ، وإذا اؤتمنَ . . فلا يخنْ ، وغضُّوا أبصارَكمْ ، وكفُّوا أيديَكُمْ ، واحفظُوا فروجَكمْ »[(٤)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للشَّيطانِ كحلاً ولَعُوقاً ونَشُوقاً ، فأمَّا لَعُوقُهُ . . فالكذبُ ، وأمّا نَشُوقُهُ . . فالغَضبُ ، وأمَّا كحْلُهُ . . فالنومُ »[(٥)]

وخطبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ بالجابيةِ فقالَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كمَقامِي فيكُمْ ، فقالَ : « أحسنُوا إلىٰ أصحابِي ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ثمَّ يفشُو الكذِبُ حتَّىٰ يحلِفُ الرَّجلُ على اليمينِ ولمْ يُحلَّفْ ، ويَشْهدُ ولمْ يُستشهَدْ »[(٦)]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حدَّثَ بحديثٍ وهوَ يرىٰ أنَّهُ كذبٌ . . فهوَ أحدُ الكاذبينَ »[(٧)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حدَّثَ عنِّي حديثاً يُرىٰ أنَّهُ كذبٌ . . فهوَ أحدُ الكاذبينَ »[(٨)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حَلَفَ علىٰ يمينٍ بإثمٍ ليقتطعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ بغيرِ حقٍّ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهوَ عليهِ غضبانُ »[(٩)]

ورُويَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ردَّ شهادةَ رجلٍ في كذبةٍ كذَبَها[(١٠)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ كلِّ خَصْلةٍ يُطبَعُ ، أو يُطوىٰ عليها المؤمنُ إلا الخيانةَ والكذبَ »[(١١)]

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما كانَ مِنْ خُلُقٍ أشدَّ عندَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكذبِ ،

---

(١) رواه البخاري (٢٨٢١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٤٤) .

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٧٢) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٥٥) .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٥٩/٤) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٨٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠٦/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣٧٤/٣) بنحوه .

(٦) رواه الترمذي (٢١٦٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٨١) .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٢/٤) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٦٦) .

(٨) رواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (٩/١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٦٨) .

(٩) رواه البخاري (٢٣٥٧) ، ومسلم (١٣٨) .

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٩٠) عن موسى بن شيبة مرسلًا

(١١) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٢/٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٥) .

ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يطَّلِعُ على الرَّجلِ مِنْ أصحابِهِ على الكذبةِ ، فما ينجلي مِنْ صدرِهِ حتَّىٰ يعلمَ أنَّهُ قدْ أحدثَ للهِ عزَّ وجلَّ منها توبةً)[1]

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربُّ ؛ أيُّ عبادِكَ خيرٌ لكَ عملاً ؟ قالَ : مَنْ لا يكذبُ لسانُهُ ، ولا يفجرُ قلبُهُ ، ولا يزني فرجُهُ[2]

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إيَّاكَ والكذبَ ؛ فإنَّهُ شهيٌّ كلحمِ العصفورِ ، عمَّا قليلٍ يقْلاهُ صاحبُهُ)[3]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في مدحِ الصدقِ : « أربعٌ إذا كنَّ فيكَ . . فلا يضرُّكَ ما فاتَكَ مِنَ الدُّنيا : صدقُ حديثٍ ، وحفظُ أمانةٍ ، وحسنُ خليقةٍ ، وعفَّةُ طُعمةٍ »[4]

وقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ في خُطبتِهِ بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلَ مقامي هـٰذا عامَ أوَّلَ ثمَّ بكىٰ فقالَ : « عليكُمْ بالصِّدقِ ؛ فإنَّهُ معَ البرِّ ، وهما في الجنَّةِ »[5]

وقالَ معاذٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لي : « أوصيكَ بتقوى اللهِ ، وصدقِ الحديثِ ، وأداءِ الأمانةِ ، ووفاءِ بالعهدِ ، وبذلِ السَّلامِ ، وخفضِ الجناحِ »[6]

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أعظمُ الخطايا عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ اللسانُ الكذوبُ ، وشرُّ الندامةِ ندامةُ يومِ القيامةِ)[7]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ : (ما كذبتُ كذبةً منذُ شددْتُ عليَّ إزاري)[8]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنْهُ : (أحبُّكمْ إلينا ما لمْ نرَكُمْ أحسنُكُمُ اسماً ، فإذا رأيناكُمْ . . فأحبُّكُمْ إلينا أحسنُكُم خُلُقاً ، فإذا اختبرْناكُمْ . . فأحبُّكُمْ إلينا أصدقُكُمْ حديثاً ، وأعظمُكُمْ أمانةً)[9]

وعنْ ميمونِ بنِ أبي شبيبٍ قالَ : (قعدْتُ أكتبُ كتاباً ، فمررتُ بحرفٍ إنْ أنا كتبتُهُ . . زيَّنتُ الكتابَ وكنتُ قدْ كذبْتُ ، فعزمْتُ علىٰ تركِهِ ، فناداني منادٍ مِنْ جانبِ البيتِ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾)[10]

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٥٢/٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٨) عن هزيل بن شرحبيل .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٢) عن الحسن .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (١٧٧/٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٣١٤/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٤٦٣) .
(٥) هو بعض حديث رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٩) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٠/١) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٩٥٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٣٤/٨) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨١) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٦) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٧) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٣٩) .

وقالَ الشَّعبيُّ : ما أدري أيُّهما أبعدُ غوراً في النارِ ، الكذبُ أوِ البخلُ)[١]

وقالَ ابنُ السَّمَّاكِ : (ما أُراني أوجَرُ علىٰ تركِ الكذبِ ؛ لأنِّي إنَّما أدعُهُ أنفةً)[٢]

وقيلَ لخالدِ بنِ صُبيحٍ : مَنْ يكذبُ كذبةً واحدةً هل يُسمىٰ فاسقاً ؟ قالَ : نعمْ[٣]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ : ما مِنْ خطيبٍ إلا عُرِضَتْ خطبتُهُ علىٰ عملِهِ ؛ فإنْ كانَ صادقاً . . صُدِّقَ ، وإنْ كانَ كاذباً . . قُرِضَتْ شفتاهُ بمقراضَيْنِ مِنْ نارٍ ، كلَّما قُرِضَتا . . نَبَتَتا)[٤]

وقال مالكُ بنُ دينارٍ أيضاً : (الصدقُ والكذبُ يعتركانِ في القلبِ حتَّىٰ يخرجَ أحدُهما صاحبَهُ)[٥]

وكلَّم عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ في شيءٍ ، فقالَ لهُ : كذبْتَ ، فقالَ عمرُ : واللهِ ؛ ما كذبْتُ منذُ علمْتُ أنَّ الكذبَ يشينُ صاحبَهُ[٦]

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٥٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٧٨) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٦٠) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٢٩) .

بيان ما رُخّص فيه من الكذب

اعلمْ : أنَّ الكذبَ ليسَ حراماً لعينِهِ ، بلْ لما فيهِ مِنَ الضررِ على المخاطبِ أوْ على غيرِهِ ، فإنَّ أقلَّ درجاتِهِ أنْ يعتقدَ المُخبَرُ الشيءَ على خلافِ ما هوَ عليهِ فيكونَ جاهلاً ، وقدْ يتعلَّقُ بهِ ضررُ غيرِهِ .

وربَّ جهلٍ فيهِ منفعةٌ ومصلحةٌ وَالكذبُ محصِّلٌ لذلكَ الجهلِ ؛ فيكونُ مأذوناً فيهِ ، وربَّما كانَ واجباً .

قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (إنَّ الكذبَ في بعضِ المواطنِ خيرٌ مِنَ الصِّدقِ ، أرأيتَ لوْ أنَّ رجلاً يسعَىٰ وآخرُ وراءَهُ بالسيفِ ، فدخلَ داراً ، فانتهىٰ إليكَ فقالَ : أرأيتَ فلاناً ؟ ما كنْتَ قائلاً : ألسْتَ تقولُ : لمْ أرَهُ ، وما تصدقُ بهِ ؟)[1] ، فهٰذا الكذبُ واجبٌ .

فنقولُ : الكلامُ وسيلةٌ إلى المقاصدِ ؛ فكلُّ مقصودٍ محمودٍ يمكنُ التَّوصُّلُ إليهِ بالصدقِ والكذبِ جميعاً . . فالكذبُ فيهِ حرامٌ ، وإن أمكنَ التوصُّلُ إليهِ بالكذبِ دونَ الصدقِ . . فالكذبُ فيهِ مباحٌ إنْ كانَ تحصيلُ ذلكَ المقصودِ مباحاً ، وواجبٌ إنْ كانَ المقصودُ واجباً ، كما أنَّ عصمةَ دمِ المسلمِ واجبةٌ ، فمهما كانَ في الصدقِ سفكُ دمِ امرئٍ مسلمٍ قدِ اختفىٰ مِنْ ظالمٍ . . فالكذبُ فيهِ واجبٌ ، ومهما كانَ لا يتمُّ مقصودُ الحربِ ، أوْ إصلاحُ ذاتِ البينِ ، أوِ استمالةُ قلبِ المجنيِّ عليهِ إلا بكذبٍ . . فالكذبُ مباحٌ ، إلَّا أنَّهُ ينبغي أنْ يحترزَ عنهُ ما أمكنَ ؛ لأنَّهُ إذا فتحَ بابَ الكذبِ علىٰ نفسِهِ . . فيُخشىٰ أنْ يتداعَىٰ إلىٰ ما يستغني عنْهُ ، وإلىٰ ما لا يقتصرُ علىٰ حدِّ الضرورةِ ؛ فكانَ الكذبُ حراماً في الأصلِ إلا لضرورةٍ .

والذي يدلُّ على الاستثناءِ : ما رُويَ عنْ أمِّ كُلثومٍ قالَتْ : (ما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرخِّصُ في شيءٍ مِنَ الكذبِ إلَّا في ثلاثٍ : الرجلُ يقولُ القولَ يريدُ بهِ الإصلاحَ ، والرجلُ يقولُ القولَ في الحربِ ، والرجلُ يحدِّثُ امرأتَهُ ، والمرأةُ تحدِّثُ زوجَها)[2]

وقالَتْ أيضاً : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ بكذَّابٍ مَنْ أصلَحَ بينَ اثنينِ ، فقالَ خيراً أوْ نمىٰ خيراً »[3] .

وقالَتْ أسماءُ بنتُ يزيدَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ الكذبِ يُكتبُ على ابنِ آدمَ إلا رجلٌ كَذَبَ بينَ رجلينِ ليصلحَ بينَهما »[4]

ورُويَ عنْ أبي كاهلٍ قالَ : وقعَ بينَ رجلينِ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلامٌ حتَّىٰ تصارما ، فلقيتُ أحدَهُما فقلتُ : ما لكَ ولفلانٍ ؟ فقدْ سمعتُهُ يحسِنُ عليكَ الثناءَ ، ثمَّ لقيتُ الآخرَ فقلتُ لهُ مثلَ ذلكَ ، حتَّى اصطلحا ، ثمَّ قلْتُ : أهلكْتُ نفسي وأصلحْتُ بينَ هٰذينِ ، فأخبرْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا كاهلٍ ، أصلحْ بينَ الناسِ ولو . . . » يعني : بالكذبِ[5]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠٦) بنحوه .

(٢) رواه مسلم (٢٦٠٥) ، وأم كلثوم هي بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها .

(٣) رواه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) .

(٤) رواه الترمذي (١٩٣٩) بزيادة فيه .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٦١/١٨) ، وفيه : « يا أبا كاهل ؛ أصلح بين الناس ولو بكذا وكذا » .

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : قالَ رجلٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أكذبُ أهلي ؟ فقالَ : « لا خيرَ في الكذبِ » ، قالَ : أعِدُها وأقولُ لها ؟ قالَ : « لا جناحَ عليكَ »(١)

ويُروىٰ أنَّ ابنَ أبي عزرةَ الدُّؤليَّ ـ وكانَ في خلافةِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ـ يخلعُ النساءَ اللَّاتي يتزوجُهُنَّ ، فطارَ لهُ في الناسِ مِنْ ذٰلكَ أُحدوثةٌ يكرهُها ، فلمَّا علمَ بذٰلكَ . . قامَ بعبدِ اللهِ بنِ الأرقمِ حتَّىٰ أدخلَهُ بيتَهُ ، فقالَ لامرأتِهِ : أنشُدُكِ باللهِ ؛ هلْ تبغضيني ؟ قالَتْ : لا تنشُدْني ، قالَ : فإنِّي أنشدُكِ باللهِ ، قالَتْ : نعمْ ، فقالَ لابنِ الأرقمِ : أتسمعُ ؟! ثمَّ انطلقا حتَّىٰ أتيا عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : إنَّكمْ لتُحدَّثونَ أنِّي أظلِمُ النساءَ وأخلعُهُنَّ ، فاسألِ ابنَ الأرقمِ ، فسألَهُ ، فأخبرَهُ ، فأرسلَ إلى امرأةِ ابنِ أبي عزرةَ ، فجاءَتْ هيَ وعمَّتُها ، فقالَ : أنتِ التي تحدثينَ لزوجِكِ أنَّكِ تبغضينَهُ ؟ فقالَتْ : إنِّي أوَّلُ مَنْ تابَ وراجعَ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّهُ ناشدَني اللهَ ، فتحرَّجْتُ أنْ أكذِبَ ، أفأكذِبُ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، فاكذبي ؛ فإنْ كانَتْ إحداكُنَّ لا تحبُّ أحدَنا . . فلا تحدِّثْهُ بذٰلِكَ ؛ فإنَّ أقلَّ البيوتِ الذي يُبنىٰ على الحُبِّ ، ولٰكنَّ الناسَ يتعاشرونَ بالإسلامِ والإحسانِ(٢)

وعنِ النواسِ بنِ سمعانَ الكلابيِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لي أراكمْ تتهافتونَ في الكذبِ تهافُتَ الفَراشِ في النَّارِ ؟! كلُّ الكذبِ مكتوبٌ كذباً لا محالةَ ، إلا أنْ يكذِبَ الرَّجلُ في الحربِ ؛ فإنَّ الحَرْبَ خُدْعةٌ ، أوْ يكونَ بينَ رجلينِ شحْناءُ فيُصلحَ بينَهما ، أوْ يحدِّثَ امرأتَهُ يرضيها »(٣)

وقالَ ثوبانُ : (الكذِبُ كلُّهُ إثمٌ إلَّا ما نُفِعَ بِهِ مسلمٌ ، أوْ دُفِعَ بِهِ عنهُ ضررٌ)(٤)

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا حدَّثْتُكُمْ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فلأَنْ أخِرَّ مِنَ السَّماءِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أكذِبَ عليهِ ، وإذا حدَّثْتُكمْ فيما بيني وبينَكُمْ . . فالحربُ خُدْعةٌ)(٥)

فهٰذهِ الثلاثُ وردَ فيها صريحُ الاستثناءِ ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبطَ بهِ غرضٌ مقصودٌ صحيحٌ لهُ أوْ لغيرِهِ .

أمَّا ما لَهُ . . فمثلُ أنْ يأخذَهُ ظالمٌ ويسألَهُ عنْ مالِهِ ، فلَهُ أنْ ينكرَ ، أوْ يأخذَهُ السلطانُ فيسألَهُ عنْ فاحشةٍ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالى ارتكبَها ؛ فلهُ أنْ ينكرَ ذٰلكَ ويقولَ : ما زنيتُ ، وما سرقتُ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ارتكبَ شيئاً مِنْ هٰذهِ القاذوراتِ . . فليستتِرْ بستْرِ اللهِ »(٦) ، وذٰلكَ أنَّ إظهارَ الفاحشةِ فاحشةٌ أخرىٰ ؛ فللرَّجلِ أنْ يحفظَ دمَهُ ومالَهُ الذي يُؤخذُ ظلماً وعرضَهُ بلسانِهِ وإنْ كانَ كاذباً .

وأمَّا غَرَضُ غيرِهِ . . فبأنْ يُسألَ عنْ سرِّ أخيهِ ، فلهُ أنْ ينكرَهُ ، وأنْ يصلحَ بينَ اثنينِ ، وأنْ يصلحَ بينَ الضَّرَّاتِ مِنْ نسائِهِ ، بأنْ يظهرَ لكلِّ واحدةٍ أنَّها أحبُّ إليهِ ، أوْ كانَتِ امرأتُهُ لا تطيعُهُ إلَّا بوعدٍ لا يقدِرُ عليهِ ، فيعدُها في الحالِ

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٩٨٩/٢) عن صفوان بن سليم معضلاً ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤٧/١٦) عنه عن عطاء بن يسار مرسلاً .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٨٦) .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٦٢) .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٤١٦٢) ، وتظنن في رفعه .

(٥) رواه البخاري (٣٦١١) ، ومسلم (١٠٦٦) .

(٦) رواه مالك في « الموطأ » (٨٢٥/٢) عن زيد بن أسلم مرسلاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٣٨٣/٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

تطييباً لقلبها ، أوْ يعتذرَ إلىٰ إنسانٍ وكانَ لا يطيبُ قلبُهُ إلَّا بإنكارِ ذنبٍ وزيادةِ تودُّدٍ ؛ فلا بأسَ بهِ .

ولٰكنِ الحدُّ فيهِ : أنَّ الكذبَ محذورٌ ، ولوْ صدقَ في هٰذهِ المواضعِ . . تولَّدَ منهُ محذورٌ ؛ فينبغي أنْ يقابلَ أحدَهُما بالآخرِ ، ويزنَ بالميزانِ القسطِ ، فإذا علمَ أنَّ المحذورَ الذي يحصلُ بالصِّدقِ أشدُّ وقعاً في الشرعِ مِنَ الكذبِ . . فلهُ الكذبُ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ المقصودُ أهونَ مِنْ مقصودِ الصِّدقِ . . فيجبُ الصِّدقُ ، وقدْ يتقابلُ الأمرانِ بحيثُ يتردَّدُ فيهما ، وعندَ ذٰلكَ الميلُ إلى الصِّدقِ أولىٰ ؛ لأنَّ الكذبَ يُباحُ لضرورةٍ أوْ حاجةٍ مهمةٍ ، فإنْ شكَّ في كونِ الحاجةِ مهمةً . . فالأصلُ التحريمُ ، فيُرجعُ إليهِ .

ولأجلِ غموضِ إدراكِ مراتبِ المقاصدِ ينبغي أنْ يحترزَ الإنسانُ مِنَ الكذبِ ما أمكنَهُ ، ولذٰلكَ مهما كانتِ الحاجةُ لهُ . . فيُستحبُّ لهُ أن يتركَ أغراضَهُ ويهجرَ الكذِبَ .

فأمَّا إذا تعلَّقَ بغرضِ غيرِهِ . . فلا تجوزُ المسامحةُ لحقِّ الغيرِ والإضرارِ بهِ .

وأكثرُ كذبِ الناسِ إنَّما هوَ لحظوظِ أنفسِهِمْ ، ثمَّ هوَ لزياداتِ المالِ والجاهِ ، ولأمورٍ ليسَ فواتُها محذوراً ، حتَّىٰ إنَّ المرأةَ لتحكي عَنْ زوجِها ما تتفاخرُ بهِ وتكذبُ لأجلِ مُراغمةِ الضَّرَّاتِ ، وذٰلكَ حرامٌ .

وقالَتْ أسماءُ رضيَ اللهُ عنها : سمعْتُ امرأةً تسألُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَتْ : إنَّ لي ضَرَّةً ، وإنِّي أتكثَّرُ مِنْ زوجي بما لا يفعلُ أضارُّها بذٰلكَ ، فهلْ عليَّ فيهِ شيءٌ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المُتشبِّعُ بما لمْ يُعطَ كلابسِ ثوبي زُورٍ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تطعَّمَ بما لا يطعَمُ ، وقالَ : لي وليسَ لهُ ، وأُعطِيتُ ولمْ يُعطَ . . كانَ كلابسِ ثوبَيْ زُورٍ يومَ القيامةِ »[2]

ويدخلُ في هٰذا فتوى العالمِ بما لا يتحقَّقُهُ ، وروايتُهُ الحديثَ الذي ليسَ بثَبْتٍ فيهِ ؛ إذ غرضُهُ أنْ يُظهِرَ فضلَ نفسِهِ ، فهوَ لذٰلكَ يستنكفُ مِنْ أنْ يقولَ : لا أدري ، وهٰذا حرامٌ[3]

ومما يلتحقُ بالنساءِ الصبيانُ ؛ فإنَّ الصبيَّ إذا كانَ لا يرغبُ في المكتبِ إلَّا بوعدٍ أوْ وعيدٍ أوْ تخويفٍ كاذبٍ . . كانَ ذٰلكَ مباحاً .

نعمْ ؛ روينا في الأخبارِ أنَّ ذٰلكَ يُكتبُ كذباً ، ولٰكنَّ الكذبَ المباحَ أيضاً يُكتبُ ويُحاسبُ عليهِ ، ويُطالبُ بتصحيحِ قصدِهِ فيهِ ، ثمَّ يُعفىٰ عنهُ ؛ لأنَّهُ إنَّما أُبيحَ بقصدِ الإصلاحِ ، ويتطرَّقُ إليهِ غرورٌ كبيرٌ ؛ فإنَّهُ قدْ يكونُ الباعثُ لهُ حظَّهُ وغرضَهُ الذي هوَ مستغنيً عنهُ ، وإنَّما يتعلَّلُ ظاهراً بالإصلاحِ ؛ فلهٰذا يُكتبُ .

وكلُّ مَنْ أتىٰ بكذبةٍ . . فقدْ وقعَ في خطرِ الاجتهادِ ؛ ليعلمَ أنَّ المقصودَ الذي كذبَ لأجلِهِ هلْ هوَ أهمُّ في الشرعِ مِنَ

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩) ، ومسلم (٢١٢٩) ، وأسماء هي بنت الصديق رضي الله عنهما .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٥٢٦/٧) ، وقد روى ابن حبان في « صحيحه » (٣٤١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٤٧/٦) من حديث جابر رضي الله عنه : « ومن تحلىٰ بباطل . . فهو كلابس ثوبي زور » .

(٣) ويلتحق به : الانتصاب للتدريس والإفادة في العلوم الظاهرة أو الباطنة من غير تمكنه من الأهلية ؛ فإنه لعب في الدين وإزراء به ، وروى البيهقي في « الشعب » (٦٥٤٧) عن الحسن قال : (من تزيَّن للناس بغير ما يعلم الله منه . . شانه) ، وحكىٰ عن أبي الطيب الصعلوكي (٧٩١٥) : (من تصدر قبل أوانه . . فقد تصدىٰ لهوانه) ، ومثله المشهور على الألسنة : (من استعجل الشيء قبل أوانه . . عوقب بحرمانه) . انظر « فيض القدير » (٢٦٠/٦) ، و« الإتحاف » (٥٢٦/٧) .

الصدقِ أمْ لا ، وذٰلكَ غامضٌ جداً ، فالحزمُ في تركِهِ إلَّا أنْ يصيرَ واجباً بحيثُ لا يجوزُ تركُهُ ؛ كما لوْ أدىٰ إلىٰ سفكِ دمٍ ، أوِ ارتكابِ معصيةٍ كيفَ كانَ .

وقدْ ظنَّ ظانُّونَ أنَّهُ يجوزُ وضعُ الأحاديثِ في فضائلِ الأعمالِ ، وفي التَّشديدِ في المعاصي ، وزعموا أنَّ القصدَ منه صحيحٌ ، وهوَ خطأٌ محضٌ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كذبَ عليَّ متعمِّداً . . فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النَّارِ »[1] ، وهٰذا لا يرتكبُ إلَّا لضرورةٍ[2] ، ولا ضرورةَ ؛ إذْ في الصِّدقِ مندوحةٌ عنِ الكذبِ ، ففيما وردَ مِنَ الآياتِ والأخبارِ كفايةٌ عنْ غيرِها .

وقولُ القائلِ : (إنَّ ذٰلكَ تكرَّرَ على الأسماعِ وسقطَ وقعُهُ ، وما هوَ جديدٌ فوقعُهُ أعظمُ) . . فهٰذا هوسٌ ؛ إذْ ليسَ هٰذا مِنَ الأغراضِ التي تُقاومُ محذورَ الكذبِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلى اللهِ تعالىٰ ، ويؤدي فتحُ بابِهِ إلىٰ أمورٍ تشوِّشُ الشريعةَ ، فلا يقاوِمُ خيرُ هٰذا شرَّهُ أصلاً ، فالكذبُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ التي لا يقاومُها شيءٌ ، نسألُ اللهَ العفوَ عنّا وعنْ جميعِ المسلمينَ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) .

(٢) في النسخ : (لا يترك إلا ضرورة) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قدْ نُقِلَ عنِ السَّلفِ أنَّ في المعاريضِ مندوحةً عنِ الكذبِ[1]

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أمَا في المعاريضِ ما يكفي الرَّجلَ منَ الكذبِ) ، ورُويَ ذٰلكَ عنِ ابنِ عباسٍ وغيرِهِ[2]

وإنَّما أرادوا بذٰلكَ إذا اضطُّرَّ الإنسانُ إلى الكذبِ ، فأمَّا إذا لمْ تكنْ حاجةٌ وضرورةٌ . . فلا يجوزُ التعريضُ ولا التصريحُ جميعاً ، ولٰكنَّ التعريضَ أهونُ .

ومثالُ التَّعريضِ : ما رُوِيَ أنَّ مطرِّفاً دخلَ على زيادٍ ، فاستبطأَهُ ، فتعلَّلَ بمرضٍ وقالَ : ما رفعْتُ جنبي مذْ فارقْتُ الأميرَ إلَّا ما رفعَني اللهُ[3]

وقالَ إبراهيمُ : إذا بلغَ الرَّجلَ عنكَ شيءٌ فكرهْتَ أنْ تكذِبَ . . فقُلْ : إنَّ اللهَ تعالىٰ ليعلَمُ ما قلْتُ مِنْ ذٰلكَ مِنْ شيءٍ ، فيكونُ قولُهُ : (ما) حرفَ نفيٍ عندَ المستمعِ ، وعندَهُ للإبهامِ[4]

وكانَ معاذُ بنُ جبلٍ عاملاً لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمَّا رجعَ . . قالَتِ امرأتُهُ : ما جئتَ بهِ ممَّا يأتي بهِ العمَّالُ مِنْ عُراضةِ أهليهِمْ ؟[5] وما كانَ قدْ أتاها بشيءٍ ، فقالَ : كانَ معي ضاغطٌ ، فقالَتْ : كنْتَ أميناً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فبعث عمرُ معكَ ضاغطاً !! فقامَتْ بذٰلكَ في نسائِها ، واشتكَتْ عمرَ ، فلمَّا سمعَ عمرُ ذٰلكَ . . دعا معاذاً فقالَ : بعثتُ معكَ ضاغطاً ؟ فقالَ : لمْ أجدْ ما أعتذرُ بهِ إليها إلَّا ذٰلكَ ، فضحكَ عمرُ رضيَ اللهُ عنْهُ ، وأعطاه شيئاً ، وقالَ : أرضِها بهِ .

وقولُهُ : (ضاغطاً) يعني : رقيباً ، يريدُ بهِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ[6]

وكانَ النخعيُّ لا يقولُ لابنتِهِ : أشتري لكِ سكَّراً ، بلْ يقولُ : أرأيتِ لوِ اشتريتُ لكِ سكَّراً ؟ فإنَّهُ ربَّما لا يتَّفقُ لهُ ذٰلكَ .

وكانَ إبراهيمُ إذا طلَبَهُ مَنْ يكرَهُ أنْ يخرجَ إليهِ وهوَ في الدارِ . . قالَ للجاريةِ : قولي لهُ : (اطلبْهُ في المسجدِ) ، ولا تقولي : (ليسَ ها هنا) ؛ كي لا يكونَ كذباً .

وكانَ الشَّعبيُّ إذا طُلِبَ في البيتِ وهوَ يكرهُهُ . . يخطُّ دائرةً ويقولُ للجاريةِ : ضَعي إصبعَكِ فيها ، وقولي : (ليسَ ها هنا) .

وهٰذا كلُّهُ في موضعِ الحاجةِ ، وأمَّا في غيرِ موضعِ الحاجةِ . . فلا ؛ لأنَّ هٰذا تفهيمٌ للكذبِ .

---

(١) **والمعاريض** : جمع معراض ، والمراد به التعريض ، وهو ذكر لفظ محتمل يفهم منه السامع خلاف ما يريده المتكلم ، **ومندوحة** : سعة وغنية وفسحة . انظر « الإتحاف » (٥٢٨/٧) .

(٢) هو من قول عمر رضي الله عنه رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٩٩/١٠) ، وعنده كذٰلك عن عمران بن حصين رضي الله عنهما .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٤٤/٩) ، وعنه روىٰ أيضاً القول السابق في المعاريض ، ومعلوم أن الرفع يشمل الاختياري والاضطراري .

(٤) رواه ابن الجوزي في « الأذكياء » (ص ٧١) ، و(ما) عند المتكلم إما موصولة أو استفهامية ، وفي كل منهما الإبهام ، وكذا لو قال : (الله يعلم ما قلته) ، وهو أخصر من الأول . « إتحاف » (٥٢٩/٧) .

(٥) **العُراضة** : الهدية والتحفة تحمل إلى الأهلين وتعرض عليهم .

(٦) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٧٨) ، مع تفسير قوله (ضاغطاً) ، وقد نقله عن ابن جريج .

فإنْ لمْ يكنْ اللَّفظُ كذباً . . فهوَ مكروهٌ على الجملةِ ، كما رُويَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ قالَ : دخلْتُ معَ أبي على عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ ، فخرجْتُ وعليَّ ثوبٌ ، فجعلَ الناسُ يقولونَ : هٰذا كساكَهُ أميرُ المؤمنينَ ؟ فكنْتُ أقولُ : جزى اللهُ أميرَ المؤمنينَ خيراً ، فقالَ لي : يا بنيَّ ؛ اتقِ الكذبَ ، إياكَ والكذبَ ، وما أشبهَهُ ، فنهاهُ عنْ ذٰلكَ [1] ؛ لأنَّ فيهِ تقريراً لهمْ على ظنٍّ كاذبٍ ؛ لأجلِ غرضِ المفاخرةِ ، وهوَ غرضٌ باطلٌ لا فائدةَ فيهِ .

نعم ؛ المعاريضُ تُباحُ لغرضٍ خفيفٍ ؛ كتطييبِ قلبِ الغيرِ بالمِزاحِ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تدخلُ الجنَّةَ عجوزٌ » [2] ، وقولِهِ للأخرى : « في عينِ زوجِكِ بياضٌ » [3] ، وللآخرِ : « نحملُكَ على ولدِ البعيرِ » [4] ، وما أشبهَهُ .

فأمَّا الكذبُ الصريحُ . . فكما فعلَهُ نُعيمانُ الأنصاريُّ معَ عثمانَ في قصَّةِ الضَّريرِ إذْ قالَ لهُ : (إنَّهُ نُعيمانُ) [5] ، وكما يعتادُهُ الناسُ مِنْ ملاعبةِ الحمقى ؛ بتغريرِهِمْ بأنَّ امرأةً قدْ رغبَتْ في تزويجِكَ ، فإنْ كانَ فيهِ ضررٌ يؤدي إلى إيذاءِ قلبٍ . . فهوَ حرامٌ ، وإنْ لمْ يكنْ إلا مطايبةً . . فلا يُوصفُ صاحبُها بالفسقِ ، ولٰكنْ ينقصُ ذٰلكَ مِنْ درجةِ إيمانِهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّى يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ ، وحتَّى يجتنبَ الكذبَ في مزاحِهِ » [6]

وأمَّا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يضحكُ بها النَّاسَ يهوي بها في النارِ أبعدَ مِنَ الثُّريَّا » [7] . . أرادَ بهِ ما فيهِ غيبةُ مسلمٍ ، أوْ إيذاءُ قلبٍ ، دونَ محضِ المِزاحِ .

ومِنَ الكذبِ الذي لا يوجبُ الفسقَ : ما جرَتْ بهِ العادةُ في المبالغةِ ؛ كقولِهِ : (طلبتُكَ كذا وكذا مرةٍ) ، و(قلتُ لكَ كذا مئةَ مرةٍ) ؛ فإنَّهُ لا يريدُ بهِ تفهيمَ المرَّاتِ بعددِها ، بلْ تفهيمَ المبالغةِ ، فإنْ لمْ يكنْ طلبَهُ إلَّا مرةً واحدةً . . كانَ كاذباً ، وإنْ كانَ طلبَهُ مرَّاتٍ لا يُعتادُ مثلُها في الكثرةِ . . فلا يأثمُ ، وإنْ لمْ تبلغْ مئةً ، وبينَهُما درجاتٌ يتعرَّضُ مطلقُ اللسانِ بالمبالغةِ فيها لخطرِ الكذبِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٠) عن عون بن عبد الله بن عتبة ، وانظر « الإتحاف » (٥٢٩/٧) .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٠) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح ») . « إتحاف » (٥٠٠/٧) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٩٩٨) ، والترمذي (١٩٩١) بنحوه .

(٥) وهو ما رواه ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٧٣٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٧/٦٢) عن عبد الله بن مصعب قال : كان مخرمة بن نوفل بن وهيب الزهري شيخاً كبيراً بالمدينة أعمى ، وكان قد بلغ مئة وخمس عشرة سنة ، فقام يوماً في المسجد يريد أن يبول ، فصاح به الناس ، فأتاه نعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث بن سواد النجاري ، فتنحّى به ناحية من المسجد ثم قال : اجلس ها هنا ، فأجلسه يبول وتركه ، فبال ، وصاح به الناس ، فلما فرغ . . قال : من جاء بي ويحكم في هٰذا الموضع ؟ قالوا له : النعيمان بن عمرو ، قال : فعل الله به وفعل ، أما إن لله علي إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هٰذه ضربة تبلغ منه ما بلغت ، فمكث ما شاء الله حتى نسي ذٰلك مخرمة ، ثم أتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد ، وكان عثمان إذا صلى لم يلتفت ، فقال له : هل لك في نعيمان ؟ قال : نعم ، أين هو ؟ دلني عليه ، فأتى به حتى أوقفه على عثمان ، فقال : دونك ، هٰذا هو ، فجمع مخرمة يديه بعصاه فضرب عثمان فشجَّه ، فقيل له : إنما ضربت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه . . . الخبر .

(٦) قوله : (لا يستكمل العبد الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) أورده ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٨٥٩) ، وروى نحوه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) عن أنس رضي الله عنه ، وعند أحمد في « المسند » (٣٥٢/٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاحة ، ويترك المراء وإن كان صادقاً » .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

وممَّا يُعتادُ الكذبُ فيهِ ويُتساهلُ بهِ : أنْ يُقالَ : (كُلِ الطعامَ) ، فيقولَ : (لا أشتهيهِ) ، وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، وهوَ حرامٌ إنْ لـمْ يكُنْ فيهِ غرضٌ صحيحٌ ، قالَ مجاهدٌ : قالَتْ أسماءُ بنتُ عُميسٍ : كنتُ صاحبةَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في الليلةِ التي هيَّأتُها وأدخلتُها على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعي نسوةٌ ، قالَتْ : فواللهِ ؛ ما وجدْنا عندَهُ قِرىً إلَّا قدحاً مِنْ لبنٍ ، فشربَ ثمَّ ناولَهُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، قالَتْ : فاستحيَتِ الجاريةُ ، قالَتْ فقلْتُ : لا تردِّي يدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، خذي منهُ ، قالَتْ : فأخذَتْهُ علىٰ حياءٍ فشربَتْ منهُ ، ثمَّ قالَ : « ناولي صواحبَكِ » ، فقلْنَ : لا نشتهيهِ ، فقالَ : « لا تجمعْنَ جوعاً وكذباً » ، قالَتْ : فقلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنْ قالَتْ إحدانا لشيءٍ تشتهيهِ : لا أشتهيهِ . . أيُعدُّ ذٰلكَ كذباً ؟ قالَ : « إنَّ الكذبَ ليُكتَبُ كذباً حتَّى الكُذَيبةُ كُذيبَةً »(١)

وقدْ كانَ أهلُ الورعِ يحترزونَ عنِ التَّسامحِ بمثلِ هٰذا الكذبِ ، قالَ اللَّيثُ بنُ سعدٍ : كانَتْ ترمَصُ عينا سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، حتَّىٰ يبلغَ الرَّمصُ خارجَ عينيهِ ، فيُقالُ لهُ : لوْ مسحْتَ هٰذا الرَّمصَ ، فيقولُ : فأينَ قولُ الطبيبِ وهوَ يقولُ لي : لا تمسَّ عينيكَ ، فأقولُ : لا أفعلُ ؟!(٢)

وهٰذهِ مراقبةُ أهلِ الورعِ ، ومَنْ تركَهُ . . انسلَّ لسانُهُ في الكذبِ عنِ حدِّ اختيارِهِ ، فيكذبُ ولا يشعرُ .

وعن جوَّابٍ التيميِّ قالَ : جاءَتْ أختُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ عائدةً إلىٰ بُنيٍّ لهُ ، فانكبَّتْ عليهِ ، فقالَتْ : كيفَ أنتَ يا بُنيِّ ؟ فجلسَ الربيعُ فقالَ : أرضعتيهِ ؟ قالَتْ : لا ، قالَ : ما عليكِ لوْ قلتِ : يا بنَ أخي فصدقْتِ ؟!(٣)

ومِنَ العادةِ أنْ يقولَ : يعلمُ اللهُ فيما لا يعلمُهُ(٤) ، قالَ عيسىَ عليهِ السلامُ : (إنَّ مِنْ أعظمِ الذنوبِ عندَ اللهِ أنْ يقولَ العبدُ : إنَّ اللهَ يعلمُ لما لا يعلمُ)(٥)

وربَّما يكذبُ في حكايةِ المنامِ ، والإثمُ فيهِ عظيمٌ ؛ قالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ مِنْ أَعْظمِ الفِرَىٰ أنْ يَدَّعيَ الرَّجلُ إلىٰ غيرِ أبيهِ ، أوْ يُرِيَ عينَهُ في المنامِ ما لمْ ترَ ، أوْ يقولَ عليَّ ما لمْ أقُلْ »(٦)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ كذبَ في حُلْمِهِ . . كُلِّفَ يومَ القيامةِ أنْ يعقِدَ بينَ شعيرتينِ ، وليسَ بعاقدٍ بينَهما أبداً »(٧)

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤٣٨/٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٢٤) ، كلاهما عن أسماء بنت عميس ، قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥٤/٤) : (رواه أحمد والطبراني في « الكبير » ، وفيه شداد عن مجاهد ، روىٰ عنه ابن جريج ويونس بن يزيد ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، إلا أن أسماء بنت عميس كانت بأرض الحبشة مع زوجها جعفر حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة ، والصواب حديث أسماء بنت يزيد والله أعلم) ، وهو عن أسماء بنت يزيد عند ابن ماجه (٣٢٩٨) بلفظ المرفوع دون ذكر القصة مفصلة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١١) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٣٣) ، ووقع في النسخ : (خوات) بدل (جواب) .

(٤) أي : القائل .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٢٧) عن سعيد بن عبد العزيز .

(٦) رواه البخاري (٣٥٠٩) .

(٧) رواه البخاري (٧٠٤٢) ، وأبو داوود (٥٠٢٤) .

الآفة الخامسة عشرة الغيبة

والنظرُ فيها طويلٌ ، فلنذكرْ أوّلاً مذمَّةَ الغيبةِ ، وما وردَ فيها مِنْ شواهدِ الشرعِ .

وقدْ نصَّ اللهُ سبحانَهُ علىٰ ذمِّها في كتابِهِ ، وشبَّهَ صاحبَها بآكلِ لحمِ الميتةِ .

فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ ؛ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ »(١) ، والغيبةُ تناولُ العِرضِ ، وقدْ جمعَ اللهُ بينَهُ وبينَ الدمِ والمالِ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تحاسدُوا ، ولا تباغضُوا ، ولا تناجَشُوا ، ولا تدابَرُوا ، ولا يغتبْ بعضُكمْ بعضاً ، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً »(٢)

وعنْ جابرٍ وأبي سعيدٍ قالا : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والغيبةَ ، فإنَّ الغيبةَ أشدُّ مِنَ الزنا ، إنَّ الرَّجلَ قدْ يزني ويتوبُ فيتوبُ اللهُ سبحانَهُ عليهِ ، وإنَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغفرُ لهُ حتَّىٰ يغفرَ لهُ صاحبُهُ »(٣)

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررْتُ ليلةَ أُسريَ بي علىٰ قومٍ يخمِشُونَ وجوهَهُم بأظافيرِهِمْ ، فقلْتُ : يا جبريلُ ؛ مَنْ هـٰؤلاءِ ؟ قالَ : هـٰؤلاءِ الذينَ يغتابونَ الناسَ ويقعونَ في أعراضِهِمْ »(٤)

وقالَ سليمُ بنُ جابرٍ : أتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقلْتُ : علِّمني خيراً ينفعُني اللهُ بهِ ، فقالَ : « لا تحقرَنَّ مِنَ المعروفِ شيئاً ولوْ أنْ تصبَّ مِنْ دلوكَ في إناءِ المستقي ، وأنْ تلقىٰ أخاكَ ببشرٍ حسنٍ ، وإذا أدبرَ . . فلا تغتابُهُ »(٥) .

وقالَ البراءُ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أسمعَ العواتقَ في بيوتِها ، فقالَ : « يا معشرَ مَنْ آمَنَ بلسانِهِ ولمْ يؤمنْ بقلبِهِ ؛ لا تغتابُوا المسلمينَ ، ولا تتَّبعُوا عوراتِهِمْ ؛ فإنَّهُ مَنْ يتَّبعْ عورةَ أخيهِ . . يتَّبِعِ اللهُ عورتَهُ ، ومَنْ يتَّبعِ اللهُ عورتَهُ . . يفضحْهُ في جوفِ بيتِهِ »(٦)

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : (مَنْ ماتَ تائباً مِنَ الغيبةِ . . فهوَ آخرُ مَنْ يدخلُ الجنةَ ، ومَنْ ماتَ مصرّاً عليها . . فهوَ أوّلُ مَنْ يدخلُ النارَ)(٧)

وقالَ أنسٌ : أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الناسَ بصومِ يومٍ وقالَ : « لا يفطرَنَّ أحدٌ حتَّىٰ آذنَ لهُ » ، فصامَ الناسُ ، حتَّىٰ إذا أمسَوا . . جعلَ الرجلُ يجيءُ فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ظللْتُ صائماً ، فأذنْ لي لأفطرَ ، فيأذنُ لهُ ، والرجلُ والرجلُ ، حتَّىٰ جاءَ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فتاتانِ مِنْ أهلكَ ظلَّتا صائمتينِ ، وإنَّهما يستحيانِ أنْ يأتياكَ ، فأذنْ لهما

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ضمن حديث .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٣) ، وأصله في « الصحيحين » وقد تقدم .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٤) .
(٤) رواه أبو داوود (٤٨٧٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٥) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٦) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٧) ، ورواه أبو داوود (٤٨٨٠) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .
(٧) الرسالة القشيرية (ص ٢٨٤) ، وانظر « تنبيه الغافلين » للسمرقندي (١٦٥) .

أنْ يفطرا ، فأعرضَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ عاودَهُ فأعرضَ عنهُ ، ثمَّ عاودَهُ ، فقالَ : « إنَّهما لمْ يصوما ، وكيفَ صامَ منْ ظلَّ هـٰذا اليومَ يأكلُ لحومَ النَّاسِ ، اذهبْ فمرْهُما إنْ كانتا صائمتَينِ أنْ تستقِيئا » ، فرجعَ إليهما فأخبرَهُما ، فاستقاءَتا ، فقاءَتْ كلُّ واحدةٍ منهمَا علقةً مِنْ دمٍ ، فرجعَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرَهُ ، فقالَ : « والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ ؛ لوْ بقيَتا في بطونِهما . . لأكلَتْهُما النَّارُ »[1]

وفي روايةٍ : أنَّهُ لمَّا أعرضَ عنهُ . . جاءَهُ بعدَ ذلكَ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّهما واللهِ لقدْ ماتَتَا أوْ كادَتا أنْ تموتا ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ائتوني بهِما » ، فجاءَتا ، فدعا بعُسٍّ ، فقالَ لإحداهما : « قيئي » ، فقاءَتْ مِنْ قيحٍ ودمٍ وصديدٍ حتَّىٰ ملأتِ القدحَ ، وقالَ للأخرىٰ : « قيئي » ، فقاءَتْ كذلكَ ، فقالَ : « إنَّ هاتينِ صامتَا عمَّا أحلَّ اللهُ لهما ، وأفطرتا علىٰ ما حرَّمَ اللهُ عليهما ، جلسَتْ إحداهُما إلى الأخرىٰ ، فجعلَتا تأكلانِ لحومَ الناسِ »[2]

وقالَ أنسٌ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فذكرَ الرِّبا وعظَّمَ شأنَهُ ، فقالَ : « إنَّ الدرهَمَ يصيبُهُ الرَّجلُ من الرِّبا أعظمُ عندَ اللهِ في الخطيئةِ مِنْ ستٍّ وثلاثينَ زنيةً يزنيها الرَّجلُ ، وإنَّ أربى الربا عِرْضُ الرَّجلِ المسلمِ »[3]

وقالَ جابرٌ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مسيرٍ ، فأتىٰ علىٰ قبرينِ يُعذَّبُ صاحباهُما ، فقالَ : « إنَّهما يُعذَّبانِ ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ ، أمَّا أحدُهُما . . فكانَ يغتابُ النَّاسَ ، وأمَّا الآخرُ . . فكانَ لا يستنزهُ مِنْ بَولِهِ » ، ودعا بجريدةٍ رطبةٍ أوْ جريدتينِ ، فكسرَهُما ، ثمَّ أمرَ بكلِّ كسرةٍ فغرِسَتْ علىٰ قبرٍ ، فقالَ : « أمَا إنَّه سيُهَوَّنُ مِنْ عذابِهما ما كانَتا رطبتيْنِ » ، أوْ « ما لمْ يَيْبَسا »[4]

ولمَّا رجَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ماعزاً في الزنا . . قالَ رجلٌ لصاحبِهِ : هـٰذا أُقعِصَ كما يُقْعَصُ الكلبُ ، فمرَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهما معَهُ بجيفةٍ ، فقالَ : « انهَشا منها » ، فقالا : يا رسولَ اللهِ ؛ ننهشُ جيفةً ؟! فقالَ : « ما أصبتُما مِنْ أخيكُما أنتنُ مِنْ هـٰذِهِ »[5] .

وكانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم يتلاقونَ بالبِشْرِ ، ولا يغتابونَ عندَ الغَيْبةِ ، ويرونَ ذلكَ أفضلَ الأعمالِ ، ويرونَ خلافَهُ عادةَ المنافقينَ .

وقالَ أبو هريرةَ : (مَنْ أكلَ لحمَ أخيهِ في الدُّنيا . . قُرِّبَ إليهِ لحمُهُ في الآخرةِ ، فقيلَ له : كُلْهُ ميتاً كما أكلْتَهُ حيّاً ، فيأكلُهُ ويضِجُّ ويكلَحُ) ، ورُوِيَ مرفوعاً كذلكَ[6]

ورُوِي أنَّ رجلينِ كانا قاعدينِ عندَ بابٍ مِنْ أبوابِ المسجدِ ، فمرَّ بهما رجلٌ كانَ مخنَّثاً فتركَ ذلكَ ، فقالا : لقدْ بقيَ فيهِ منهُ شيءٌ ، فأُقيمَتِ الصلاةُ ، فدخلا فصلَّيا معَ الناسِ ، فحاكَ في أنفسِهما ممَّا قالا ، فأتيا عطاءً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٣١) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧١) ، وقد تقدمت هـٰذه الرواية .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٥) ، وإنما شبهه بالربا للاستطالة وتناول الزيادة مما لا يجوز في حقه .

(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٣٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٦) ، وعند البخاري (٢١٦) ، ومسلم (٢٩٢) وفيهما ذكر النميمة بدل الغيبة .

(٥) رواه الطيالسي في « مسنده » (٢٤٧٣) ، وفيه : (انهسا) بدل (انهشا) ، والنهش والنهس بمعنىً ، وبنحوه رواه أبو داوود (٤٤٢٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧١٢٧) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٨) ، ورواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٩٣) عنه مرفوعاً ، **ويضجُّ** : يصيح ويتململ ، **ويكلح** : يعبس وجهه .

فسألاهُ ، فأمرَهُما أنْ يُعيدا الوضوءَ والصلاةَ ، وأمرَهما إنْ كانا صائمينِ أنْ يقضيا صيامَ ذٰلكَ اليومِ [١]

وعنْ مجاهدٍ قالَ : (﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ الهُمَزةُ : الطَّعّانُ في الناسِ ، واللُّمزَةُ : الذي يأكلُ لحومَ الناسِ) [٢]

وقالَ قتادةُ : (ذُكِرَ لنا أنَّ عذابَ القبرِ ثلاثةُ أثلاثٍ : ثلثٌ مِنَ الغيبةِ ، وثلثٌ مِنَ البولِ ، وثلثٌ مِنَ النميمةِ) [٣]

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لَلْغيبةُ أسرعُ في دينِ المؤمنِ مِنَ الأَكِلَةِ في جسدِهِ) [٤]

وقالَ بعضُهُم : (أدركْنا السَّلفَ وهمْ لا يرونَ العبادةَ في الصَّومِ ولا في الصَّلاةِ ، ولٰكنْ في الكفِّ عنْ أعراضِ الناسِ) [٥]

وقالَ ابنُ عباسٍ : (إذا أردْتَ أنْ تذكرَ عيوبَ صاحبِكَ . . فاذكرْ عيوبَكَ) [٦]

وقالَ أبو هريرةَ : (يبصرُ أحدُكُمُ القَذَىٰ في عينِ أخيهِ ويدعُ الجذْعَ في عينِ نفسِهِ) [٧]

وكانَ الحسنُ يقولُ : (ابنَ آدمَ ؛ إنَّكَ لنْ تصيبَ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ لا تعيبَ الناسَ بعيبٍ هوَ فيكَ ، وحتَّىٰ تبدأَ بصلاحِ ذٰلكَ العيبِ فتصلحَهُ مِنْ نفسِكَ ، فإذا فعلْتَ ذٰلكَ . . كانَ شغْلُكَ في خاصَّةِ نفسِكَ ، وأحبُّ العبادِ إلى اللهِ مَنْ كانَ هٰكذا) [٨]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : مرَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ ومعَهُ الحواريونَ علىٰ جيفةِ كلبٍ ، فقالَ الحواريُّونَ : ما أنتنَ ريحَ هٰذا الكلبِ !! فقالَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ما أشدَّ بياضَ أسنانِهِ [٩] كأنَّهُ عليهِ السلامُ نهاهُمْ عنْ غيبةِ الكلبِ ، ونبَّهَهُمْ علىٰ أنَّهُ لا يُذكرُ شيءٌ مِنْ خلقِ اللهِ إلَّا أحسنُهُ .

وسمعَ عليُّ بنُ الحسينِ رجلاً يغتابُ آخرَ ، فقالَ لهُ : (إيَّاكَ والغيبةَ ؛ فإنَّها إدامُ كلابِ الناسِ) [١٠]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (عليكُمْ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ شفاءٌ ، وإيَّاكُمْ وذكرَ النَّاسِ ؛ فإنَّهُ داءٌ) [١١]

نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لطاعتِهِ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٠) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٢) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٣) عن خصاف وخصيف وعبد الكريم بن مالك .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٤) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٥) وفيه (الجذل) بدل (الجذع) ، ورواه عنه مرفوعاً بلفظ المصنف القضاعي في « مسند الشهاب » (٦١٠) ، وقد تقدم .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٨) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٧) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٩) .
(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٤) ، وغالب ما رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » بما يخص الغيبة قد رواه في « ذم الغيبة والنميمة » كذلك .

بيان معنى الغيبة وحدّها

اعلمْ : أنَّ حدَّ الغيبةِ : أنْ تذكُرَ أخاكَ بما يكرهُهُ لوْ بلغَهُ ، سواءٌ ذكرْتَ نقصاً في بدنِهِ ، أوْ في نسبِهِ ، أوْ في خُلُقِهِ ، أوْ في فعلِهِ ، أوْ في قولِهِ ، أوْ في دينِهِ ، أوْ في دنياهُ ، وحتَّىٰ في ثوبِهِ ، وفي دارِهِ ودابتِهِ .

أمَّا البدنُ : فكذكرِكَ العمشَ والحوَلَ ، والقَرَعَ ، والقِصَرَ والطولَ ، والسَّوادَ والصفرةَ ، وجميعَ ما يتصوَّرُ أنْ يُوصفَ بهِ ممَّا يكرهُهُ كيفما كانَ .

وأمَّا النسبُ : فأنْ تقولَ : أبوهُ نَبَطيٌّ ، أوْ هنديٌّ ، أوْ فاسقٌ ، أوْ خسيسٌ ، أوْ إسكافٌ ، أوْ زبَّالٌ ، أوْ شيءٌ ممَّا يكرهُهُ كيفما كانَ .

وأمَّا الخُلُقُ : فأنْ تقولَ : هوَ سيِّئُ الخلُقِ ، بخيلٌ ، متكبِّرٌ ، مُراءٍ ، شديدُ الغضبِ ، جبانٌ ، عاجزٌ ، ضعيفُ القلبِ ، متهوِّرٌ ، وما يجري مجراهُ .

وأمَّا في أفعالِهِ المتعلقةِ بالدِّينِ : فكقولِكَ : سارقٌ ، وكذابٌ ، وشاربُ خمرٍ ، وخائنٌ ، وظالمٌ ، ومتهاونٌ بالصلاةِ والزكاةِ ، ولا يحسنُ الركوعَ والسجودَ ، ولا يحترزُ عنِ النجاساتِ ، وليسَ باراً بوالديهِ ، ولا يضعُ الزكاةَ موضعَها ، ولا يحسنُ قسمتَها ، ولا يحرُسُ صومَهُ مَنَ الرفثِ والغيبةِ والتعرُّضِ لأعراضِ الناسِ .

وأمَّا فعلُهُ المتعلّقُ بالدنيا : فكقولِكَ : إنَّهُ قليلُ الأدبِ ، متهاونٌ بالناسِ ، ولا يرىٰ علىٰ نفسِهِ لأحدٍ حقّاً ويرىٰ لنفسِهِ حقّاً ، وإنَّهُ كثيرُ الكلامِ ، كثيرُ الأكلِ ، وإنَّهُ نؤومٌ ، وينامُ في غيرِ وقتِ النومِ ، ويجلسُ في غيرِ موضعِهِ .

وأمَّا في ثوبِهِ : فكقولِكَ : إنَّهُ واسعُ الكُمّ ، طويلُ الذَّيلِ ، وسخُ الثيابِ .

وقالَ قومٌ : لا غيبةَ في الدِّينِ ؛ لأنَّهُ ذمُّ ما ذمَّهُ اللهُ تعالىٰ ، فذكرُهُ بالمعاصي وذمُّهُ بها يجوزُ ، بدليلِ ما رُويَ : أنَّهُ ذُكِرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امرأةٌ وكثرةُ صلاحِها وصومِها وصلاتِها ، ولـٰكنَّها تُؤذي جيرانَها بلسانِها ، فقالَ : « هيَ في النَّارِ »[1] ، وذكرَتْ عندَه امرأةٌ أخرىٰ بأنَّها بخيلةٌ ، فقالَ : « فما خيرُها إذاً ؟! »[2] .

وهـٰذا فاسدٌ ؛ لأنَّهم كانُوا يذكرونَ ذٰلكَ لحاجتِهِمْ إلىٰ تعرُّفِ الأحكامِ بالسؤالِ ، ولمْ يكنْ غرضُهمُ التنقُّصَ ، ولا يُحتاجُ إليهِ في غيرِ مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

والدليلُ عليهِ : إجماعُ الأمةِ أنَّ مَنْ ذكرَ غيرَهُ بما يكرهُهُ . . فهوَ مغتابٌ ؛ لأنَّهُ داخلٌ فيما ذكرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حدِّ الغيبةِ ، وكلُّ هـٰذا وإنْ كانَ صادقاً فيهِ . . فهوَ بهِ مغتابٌ ، عاصٍ لربِّهِ ، وآكلٌ لحمَ أخيهِ ؛ بدليلِ ما رُويَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « هلْ تدرونَ ما الغيبةُ ؟ » قالُوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « ذكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ » ، قيلَ : أرأيتَ إنْ كانَ في أخي ما أقولُ ؟ قالَ : « إنْ كانَ فيهِ ما تقولُ . . فقدِ اغتبتَهُ ، وإنْ لمْ يكُنْ فيهِ . . فقدْ بَهَتَّهُ »[3] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٤٤٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٧٦٤) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٤٣) عن أبي جعفر محمد بن علي مرسلاً .

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٩) .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ : ذُكِرَ رجلٌ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالوا : ما أعجزَهُ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اغتبْتُمْ أخاكُمْ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ قلنا ما فيهِ ، قالَ : « إنْ قلتُم ما ليسَ فيهِ . . فقدْ بهتُّموهُ »[١]

وعنْ أبي حذيفةَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها ذكرَتْ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امرأةً فقالَتْ : إنَّها قصيرةٌ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اغتبْتِيها »[٢]

وقالَ الحسنُ : (ذِكرُ الغيرِ ثلاثةٌ : الغيبةُ ، والبُهتانُ ، والإفكُ ، والكلُّ في كتابِ اللهِ تعالى ؛ الغيبةُ : أنْ تقولَ ما فيهِ ، والبُهتانُ : أنْ تقولَ ما ليسَ فيهِ ، والإفكُ : أنْ تقولَ ما بلغَكَ) .

وذكرَ ابنُ سيرينَ رجلاً فقالَ : ذٰلكَ الرجلُ الأسودُ ، ثمَّ قالَ : أستغفرُ اللهَ ، إنِّي أُراني قدِ اغتبتُهُ[٣]

وذكرَ ابنُ سيرينَ إبراهيمَ النخعيَّ فوضعَ يدَهُ علىٰ عينِهِ ، ولمْ يقلِ : الأعورَ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : لا يغتابنَّ منكمْ أحدٌ أحداً ؛ فإنِّي قلْتُ لامرأةٍ مرّةً وأنا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ هٰذهِ لطويلةُ الذَّيلِ ، فقالَ : « الفظي الفظي » ، فلفظتُ بضْعةً مِنْ لحمٍ[٤]

* * *

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٩/٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٠٨) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٧) واللفظ له ، والجميع رواه عن أبي حذيفة عن عائشة ، وفي النسخ : (حذيفة) بدل (أبي حذيفة) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١٦) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٠١) .

بيان أنّ الغيبة لا تقتصر على اللّسان

اعلمْ : أنَّ الذكرَ باللِّسانِ إنَّما حرُمَ لأنَّ فيهِ تفهيمَ الغيرِ نقصانَ أخيكَ وتعريفَهُ بما يكرهُهُ ، فالتعريضُ بهِ كالتصريحِ ، والفعلُ فيهِ كالقولِ ، والإشارةُ والإيماءُ والغمْزُ والرَّمزُ والكتابةُ والحركةُ وكلُّ ما يُفهِمُ المقصودَ . . فهوَ داخلٌ في الغيبةِ ، وهوَ حرامٌ .

ومِنْ ذٰلكَ : قولُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : دخلَتْ علينا امرأةٌ ، فلمَّا ولَّتْ . . أومأْتُ بيدي ؛ أيْ : أنَّها قصيرةٌ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « اغتبْتيها »(١)

ومِنْ ذٰلكَ : المحاكاةُ ؛ بأنْ يمشيَ متعارجاً ، أوْ كما يمشي ؛ فهوَ غيبةٌ ، بلْ هوَ أشدُّ مِنَ الغيبةِ ؛ لأنَّهُ أعظمُ في التصويرِ والتفهيمِ .

ولمَّا رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عائشةَ حكَتِ امرأةً . . فقالَ : « ما يسرُّني أنِّي حكيتُ إنساناً ولي كذا وكذا »(٢)

وكذٰلكَ الغيبةُ بالكتابةِ ؛ فإنَّ القلمَ أحدُ اللسانينِ ، وذكرُ المصنِّفِ شخصاً معيَّناً ، وتهجينُ كلامِهِ في الكتابِ غيبةٌ ، إلَّا أنْ يقترنَ بهِ شيءٌ مِنَ الأعذارِ المُحوِجةِ إلىٰ ذكرِهِ ، كما سيأتي بيانُهُ .

وأمَّا قولُه : قالَ قومٌ : كذا . . فليسَ ذٰلكَ بغيبةٍ ، إنَّما الغيبةُ التعرُّضُ لشخصٍ معيَّنٍ ، إمَّا حيٍّ وإمَّا ميْتٍ .

ومِنَ الغيبةِ : أنْ تقولَ : بعضُ مَنْ مرَّ بنا اليومَ ، أوْ بعضُ مَنْ رأيناهُ ، إذا كانَ المخاطَبُ يفهمُ منهُ شخصاً معيّناً ؛ لأنَّ المحذورَ تفهيمُهُ ، دونَ ما بِهِ التَّفهيمُ ، فأمَّا إذا لمْ يفهمْ عينَهُ . . جازَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إذا كرِهَ مِنْ إنسانٍ شيئاً . . قالَ : « ما بالُ أقوامٍ يفعلونَ كذا وكذا » ، وكانَ لا يعيِّنُ(٣)

وقولُكَ : بعضُ مَنْ قدِمَ مِنَ السفرِ ، أوْ بعضُ مَنْ يدَّعي العلمَ ، إذا كانَ معَهُ قرينةٌ تُفهِمُ عينَ الشَّخصِ . . فهوَ غيبةٌ .

وأخبثُ أنواعِ الغيبةِ : غيبةُ القرَّاءِ المرائينَ ، فإنَّهمْ يُفهِمونَ المقصودَ علىٰ صيغةِ أهلِ الصَّلاحِ ؛ ليظهروا مِنْ أنفسِهِمُ التَّعفُّفَ عنِ الغيبةِ ، ويُفهمونَ المقصودَ ، ولا يدرونَ بجهلِهِمْ أنَّهمْ جمعوا بينَ فاحشتَينِ الرياءِ والغيبةِ ، وذٰلكَ مثلُ أنْ يُذكرَ عندَهُ إنسانٌ ، فيقولُ : (الحمدُ للهِ الذي لمْ يبتلِنا بالدُّخولِ على السلطانِ ، والتبذُّلِ في طلبِ الحطامِ) ، أوْ يقولُ : (نعوذُ باللهِ مِنْ قلَّةِ الحياءِ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يعصمَنا منها) ، وإنَّما قصدُهُ أنْ يفهِمَ عيبَ الغيرِ ، فيذكرَهُ بصيغةِ الدعاءِ .

وكذٰلكَ قدْ يقدِّمُ مدحَ مَن يريدُ غيبتَهُ ، فيقولُ : (ما أحسنَ أحوالَ فلانٍ ، ما كانَ يقصِّرُ في العباداتِ ، ولٰكنْ قدِ اعتراهُ فتورٌ ، وابتليَ بما يُبتلىٰ بِهِ كلُّنا ، وهوَ قلَّةُ الصبرِ) ، فيذكرُ نفسَهُ ومقصودُهُ أنْ يذمَّ غيرَهُ في ضمنِ ذٰلكَ ، وأنْ يمدحَ نفسَهُ

---

(١) تقدم قريباً .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) .

(٣) فقد روىٰ أبو داوود (٤٧٨٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل الشيء . . لم يقل : ما بال فلان ، ولـٰكن يقول : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا » .

بالتَّشبُّهِ بالصالحينَ في ذمِّ أنفسِهِمْ ، فيكونُ مغتاباً ومرائياً ومزكِّياً نفسَهُ ، فيجمَعَ بينَ ثلاثِ فواحشَ وهوَ يظنُّ بجهلِهِ أنَّهُ مِنَ الصالحينَ المتعففينَ عَنِ الغيبةِ .

وكذٰلكَ يلعبُ الشيطانُ بأهلِ الجهلِ إذا اشتغلوا بالعبادةِ مِنْ غيرِ علمٍ ، فإنَّهُ يتعبُهمْ ، ويُحبطُ بمكايدِهِ عملَهُمْ ، ويضحَكُ عليهِمْ ، ويسخرُ منهمْ .

ومِنْ ذٰلكَ : أنْ يُذكرَ عيبُ إنسانٍ فلا يتنبهُ لهُ بعضُ الحاضرينَ ، فيقولُ : سبحانَ اللهِ !! ما أعجبَ هٰذا !! حتَّىٰ يُصغيَ إلى المغتابِ ويُعلمَ ما يقولُهُ ، فيذكرُ اللهَ تعالىٰ ، ويستعملُ اسمَه آلةً لهُ في تحقيقِ خبثِهِ ، وهو يمنُّ على اللهِ عزَّ وجلَّ بذكرِهِ جهلاً منهُ وغروراً .

وكذٰلكَ يقولُ : لقدْ ساءَني ما جرىٰ علىٰ صديقِنا مِنَ الاستخفافِ بهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يروِّحَ نفسَه ، ويكونُ كاذباً في دعوى الاغتمامِ ، وفي إظهارِ الدعاءِ لهُ ، بلْ لوْ قصدَ الدعاءَ . . لأخفاهُ في خلوتِهِ عَقيبَ صلاتِهِ ، ولوْ كانَ يغتمُّ بهِ . . لاغتمَّ أيضاً بإظهارِ ما يكرهُهُ .

وكذٰلكَ يقولُ : ذٰلكَ المسكينُ قدْ بُلِيَ بآفةٍ عظيمةٍ تابَ اللهُ علينا وعليهِ ، فهوَ في كلِّ ذٰلكَ يظهرُ الدعاءَ ، واللهُ مطَّلعٌ علىٰ خُبْثِ ضميرِهِ وخفيِّ قصدِهِ ، وهوَ لجهلِهِ لا يدري أنَّهُ قدْ تعرَّضَ لمقتٍ أعظمَ ممَّا يتعرَّضُ لهُ الجهَّالُ إذا جاهرُوا .

ومِنْ ذٰلكَ : الإصغاءُ إلى الغيبةِ علىٰ سبيلِ التعجُّبِ ؛ فإنَّهُ إنَّما يُظهِرُ التعجُّبَ ليزيدَ نشاطَ المغتابِ في الغيبةِ ، فيندفعَ فيها ، فكأنَّه يستخرجُ الغيبةَ منهُ بهٰذا الطريقِ ، فيقولُ : عجبٌ !! ما علمتُ أنَّه كذٰلكَ !! ما عرفْتُهُ إلى الآنَ إلَّا بالخيرِ !! وكنْتُ أحسبُ فيهِ غيرَ هٰذا !! عافانا اللهُ مِنْ بلائِهِ ، فإنَّ كلَّ ذٰلكَ تصديقٌ للمغتابِ ، والتصديقُ بالغيبةِ غيبةٌ ، بلِ الساكتُ شريكُ المغتابِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستمِعُ أحدُ المغتابَيْنِ »[1]

وقد رُوِيَ عنْ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّ أحدَهُما قالَ لصاحبِهِ : إنَّ فلاناً لنؤومٌ ، ثمَّ إنَّهما طلبا أُدْماً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليأكلا بهِ الخبزَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قدِ ائتدَمْتُما » ، فقالا : ما نعلمُهُ ، فقالَ : « بلىٰ ، إنَّكما أكلْتُما مِنْ لحمِ أخيكُما »[2] ، فانظرْ كيفَ جمعَهما ، وكانَ القائلُ أحدَهُما والآخرُ مستمعٌ ، وقالَ للرجلينِ اللذينِ قالَ أحدُهُما : أُقعِصَ الرجلُ كما يُقعَصُ الكلبُ : « انهشا مِنْ هٰذِهِ الجيفةِ »[3] ، فجمعَ بينهُما .

فالمستمعُ لا يخرجُ مِنْ إثمِ الغيبةِ إلَّا بأنْ ينكرَ بلسانِهِ .

فإنْ خافَ . . فبقلبِهِ ، وإنْ قدَرَ على القيامِ أوْ قطعِ الكلامِ بكلامٍ آخرَ فلمْ يفعلْهُ . . لزمَهُ .

وإنْ قالَ بلسانِهِ : (اسكُتْ) وهوَ مشتهٍ لذٰلكَ بقلبِهِ . . فذٰلكَ نفاقٌ ، ولا يخرجُهُ مِنَ الإثمِ ما لم يكرهْهُ بقلبِهِ .

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٢٢/٦) عن الحسن قال : (حدثني سبعة رهط من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهىٰ عن النياحة وعن سماع إلى النياحة ، ونهىٰ عن الغيبة والاستماع إلى الغيبة . . .) الخبر .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) تقدم قريباً .

ولا يكفي في ذٰلكَ أنْ يشيرَ باليدِ ، أي : اسكتْ ، أوْ يشيرَ بحاجبِهِ وجبينِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ استحقارٌ للمذكورِ ، بلْ ينبغي أنْ يعظِّمَهُ فيذبَّ عنهُ صريحاً .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أُذِلَّ عندَهُ مؤمِنٌ فلمْ ينصرْهُ وهوَ قادرٌ علىٰ أن ينصرَهُ . . أذلَّهُ اللهُ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ »(١)

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ردَّ عنْ عرضِ أخيهِ بالغيبِ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يردَّ عنْ عرضِهِ يومَ القيامةِ »(٢)

وقالَ أيضاً : « من ذبَّ عنْ عرْضِ أخيهِ بالغيبِ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يعتقَهُ مِنَ النَّارِ »(٣)

وقدْ وردَ في نصرةِ المسلمِ في الغَيْبةِ وفي فضلِ ذٰلكَ أخبارٌ كثيرةٌ ، أوردْناها في كتابِ آدابِ الصُّحبةِ وحقوقِ المسلمينَ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِها .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤٨٧/٣) ، والطبراني في « الكبير » (٧٣/٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الغيبة والنميمة » (١٠٣) ، ورواه الترمذي (١٩٣١) بلفظ : « من رد عن عرض أخيه . . رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٦١/٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٧٦/٢٤) .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلمْ : أنَّ البواعثَ على الغيبةِ كثيرةٌ ، ولكنْ يجمعُها أحدَ عشرَ سبباً ، ثمانيةٌ منها تطَّردُ في حقِّ العامَّةِ ، وثلاثةٌ تختصُّ بأهلِ الدينِ والخاصَّةِ .

أما الثمانيةُ :

فالأوَّلُ : أنْ يشفيَ الغيظَ ، وذٰلكَ إذا جرىٰ سببٌ غضِبَ بهِ عليهِ ، فإنَّهُ إذا هاجَ غضبُهُ . . تشفَّىٰ بذكرِ مساوئِهِ ، فيسبقُ اللِّسانُ إليهِ بالطَّبعِ إنْ لمْ يكُنْ ثَمَّ دينٌ وازعٌ ، وقدْ يمتنعُ تشفِّي الغيظِ عندَ الغضبِ ، فيحتقِنُ الغضبُ في الباطنِ ، فيصيرُ حقداً ثابتاً ، فيكونُ سبباً دائماً لذكرِ المساوئِ ، فالحقدُ والغضبُ مِنَ البواعثِ العظيمةِ على الغيبةِ .

❀ ❀ ❀

الثاني : موافقةُ الأقرانِ ، ومجاملَةُ الرفقاءِ ، ومساعدتُهُمْ على الكلامِ ؛ فإنَّهُمْ إذا كانُوا يتفكَّهونَ بذكرِ الأعراضِ ، فيرىٰ أنَّهُ لوْ أنكرَ عليهِمْ أوْ قطعَ المجلسَ . . استثقلُوهُ ونفرُوا عنهُ ، فيساعدُهُمْ ويرىٰ ذٰلكَ مِنْ حُسْنِ المعاشرةِ ، ويظنُّ أنَّهُ مجاملةٌ في الصحبةِ ، وقدْ يغضبُ رفقاؤُهُ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يغضبَ لغضبِهِمْ ؛ إظهاراً للمساهمةِ في السراءِ والضَّراءِ ، فيخوضُ معهم في ذكرِ العيوبِ والمساوئِ .

❀ ❀ ❀

الثالثُ : أنْ يستشعرَ مِنْ إنسانٍ أنَّهُ سيقصدُهُ ويطوِّلُ لسانَهُ فيهِ ، أوْ يقبِّحُ حالَهُ عندَ محتشمٍ ، أوْ يشهدُ عليهِ بشهادةٍ ، فيبادرُهُ قبلَ أنْ يقبِّحَ هوَ حالَهُ ويطعنُ فيهِ ليُسقِطَ أثرَ شهادتِهِ ، أوْ يبتدئُ بذكرِ ما فيهِ صادقاً ليكذبَ عليهِ بعدَهُ ، فيروِّجُ كذبَهُ بالصدقِ الأوَّلِ ، ويستشهدُ بهِ ويقولُ ما مِنْ عادتي الكذبُ ؛ فإنِّي أخبرتُكُمْ بكذا وكذا مِنْ أحوالِهِ ، فكانَ كما قلتُ .

❀ ❀ ❀

الرابعُ : أنْ يُنسبَ إلىٰ شيءٍ ، فيريدُ أنْ يتبرّأَ منهُ ، فيذكرُ الذي فعلَهُ ، وكانَ مِنْ حقِّهِ أنْ يبرِّئَ نفسَهُ ، ولا يذكرَ الذي فعلَهُ ، فلا ينسبَ غيرَهُ إليهِ ، أوْ يذكرَ غيرَهُ بأنَّهُ كانَ مشاركاً لهُ في الفعلِ ؛ ليمهِّدَ بذٰلكَ عذرَ نفسِهِ في فعلِهِ .

❀ ❀ ❀

الخامسُ : إرادةُ التصنُّعِ والمباهاةِ ، وهوَ أنْ يرفَعَ نفسَهُ بتنقيصِ غيرِهِ ، فيقولُ : فلانٌ جاهلٌ ، وفهمُهُ ركيكٌ ، وكلامُهُ ضعيفٌ ، وغرضُهُ : أنْ يثبتَ في ضمنِ ذٰلكَ فضلَ نفسِهِ ، ويريَهُمْ أنَّهُ أفضلُ منهُ ، أوْ يحذِّرَ أنْ يُعظَّمَ مثلَ تعظيمِهِ ؛ فيقدحُ فيهِ لذٰلكَ .

❀ ❀ ❀

السادسُ : الحسدُ ، وهوَ أنَّهُ ربَّما يحسدُ مَنْ يثني الناسُ عليهِ ، ويحبُّونَهُ ويكرمونَهُ ، فيريدُ زوالَ تلكَ النعمةِ عنهُ ، فلا يجدُ سبيلاً إليهِ إلَّا بالقدْحِ فيهِ ، فيريدُ أنْ يسقطَ ماءَ وجههِ عندَ الناسِ ؛ حتَّىٰ يكفُّوا عنْ إكرامِهِ والثناءِ عليهِ ؛ لأنَّهُ يثقلُ

عليهِ أنْ يسمعَ ثناءَ الناسِ عليهِ ، وإكرامَهُمْ لهُ ، وهـٰذا هوَ عينُ الحسَدِ ، وهوَ غيرُ الغضبِ والحقدِ ، فإنَّ ذٰلكَ يستدعي جنايةً مِنَ المغضوبِ عليهِ ، والحسدُ قدْ يكونُ معَ الصديقِ المحسنِ والقريبِ الموافقِ .

❀ ❀ ❀

السابعُ : اللعبُ ، والهزلُ ، والمطايبةُ ، وتزجيةُ الوقتِ بالضَّحكِ ، فيذكرُ غيرَهُ بما يضحِكُ الناسَ علىٰ سبيلِ المحاكاةِ والتَّعجُّبِ والتَّعجيبِ .

❀ ❀ ❀

الثامنُ : السخريةُ والاستهزاءُ استحقاراً لهُ ، فإنَّ ذٰلكَ قدْ يجري في الحضورِ ويجري أيضاً في الغَيْبةِ ، ومنشؤُهُ التكبُّرُ واستصغارُ المستهزَأِ بهِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الأسبابُ الثلاثةُ التي هيَ في الخاصَّةِ . . فهيَ أغمضُها وأدقُّها ؛ لأنَّها شرورٌ خبأَها الشيطانُ في معرِضِ الخيراتِ ، وفيها خيرٌ ، ولـٰكنْ شابَ الشيطانُ بها الشَّرَّ .

الأولُ : أنْ تنبعثَ مِنَ الدينِ داعيةُ التَّعجُّبِ مِنْ إنكارِ المنكرِ والخطأ في الدينِ ، فيقولَ : ما أعجبَ ما رأيتُ مِنْ فلانٍ ؛ فإنَّهُ قدْ يكونُ بهِ صادقاً ، ويكونُ تعجبُهُ مِنَ المنكرِ ، ولـٰكنْ كانَ حقُّهُ أنْ يتعجَّبَ ولا يذكرَ اسمَهُ ، فيسهِّلُ الشيطانُ عليهِ ذكرَ اسمِهِ في إظهارِ تعجُّبِهِ ، فصارَ بهِ مغتاباً وآثماً مِنْ حيثُ لا يدري .

ومِنْ ذٰلكَ قولُ الرجلِ : تعجَّبتُ مِنْ فلانٍ كيفَ يحبُّ جاريتَهُ وهيَ قبيحةٌ ، وكيفَ يجلسُ بينَ يديْ فلانٍ وهوَ جاهلٌ .

الثاني : الرَّحمةُ ، وهوَ أنْ يغتمَّ بسببِ ما يُبتلىٰ بهِ ، فيقولَ : مسكينٌ فلانٌ قدْ غمَّني أمرُهُ وما ابتُليَ بهِ ، فيكونُ صادقاً في دعوى الاغتمامِ ، ويلهيهِ الغمُّ عنِ الحذرِ عنْ ذكرِ اسمِهِ ، فيذكرُهُ ، فيصيرُ بهِ مغتاباً ، فيكونُ غمُّهُ ورحمتُهُ خيراً ، وكذا تعجُّبُهُ ، ولـٰكنْ ساقَهُ الشيطانُ إلىٰ شرٍّ مِنْ حيثُ لا يدري ، والتَّرحُّمُ والاغتمامُ ممكنٌ دونَ ذكرِ اسمِهِ ، فيهيِّجُهُ الشَّيطانُ علىٰ ذكرِ اسمِهِ ؛ ليبطلَ بهِ ثوابَ اغتمامِهِ وترحُّمِهِ .

الثالثُ : الغضبُ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ قدْ يغضبُ علىٰ منكرٍ قارفَهُ إنسانٌ إذا رآهُ أوْ سمعَهُ ، فيُظهرُ غضبَهُ ويذكرُ اسمَهُ ، وكانَ الواجبُ أنْ يُظهِرَ غضبَهُ عليهِ بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، ولا يُظهِرَهُ علىٰ غيرِهِ ، أوْ يسترَ اسمَهُ ولا يذكرَهُ بالسُّوءِ .

فهـٰذِهِ الثلاثةُ مما يغمضُ دَرْكُها على العلماءِ فضلاً عنِ العوامِّ ؛ فإنَّهم يظنُّونَ أنَّ التعجُّبَ والرحمةَ والغضبَ إذا كانَ للهِ تعالىٰ . . كانَ عذراً في ذكرِ الاسمِ ، وهوَ خطأٌ ، بلِ المرخِّصُ في الغيبةِ حاجاتٌ مخصوصةٌ لا مندوحةَ فيها عنْ ذكرِ الاسمِ كما سيأتي ذكرُهُ .

رُوِيَ عنْ عامرِ بنِ واثلةَ : أنَّ رجلاً مرَّ علىٰ قومٍ في حياةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسلَّمَ عليهِمْ ، فردُّوا عليهِ السَّلامَ ، فلمَّا جاوزَهُم . . قالَ رجلٌ منهُمْ : إنِّي لأبغضُ هـٰذا للهِ تعالىٰ ، فقالَ أهلُ المجلسِ : لبئسَ ما قلْتَ ، واللهِ ؛ لننبئنَّهُ ، ثمَّ قالُوا : قمْ يا فلانُ ـ لرجلٍ منهُمْ ـ فأدركْهُ فأخبرْهُ بما قالَ : فأدركَهُ رسولُهُمْ فأخبرَهُ بما قالَ ، فأتى الرجلُ

رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحكىٰ لهُ ما قالَهُ ، وسألَهُ أنْ يدعوَهُ ، فدعاهُ وسألَهُ ، فقالَ : قدْ قلْتُ ذٰلكَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِمَ تبغضُهُ ؟ » ، قالَ : أنا جارُهُ ، وأنا بهِ خابرٌ ، واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يصلي صلاةً قطُّ إلَّا هٰذهِ المكتوبةَ ، قالَ : فاسألْهُ يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ رآني قطُّ أخرْتُها عنْ وقتِها ، أوْ أسأتُ الوضوءَ لها ، أوِ الركوعَ والسجودَ فيها ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، فقالَ : واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يصومُ شهراً قطُّ إلَّا هٰذا الشَّهرَ الذي يصومُهُ البَرُّ والفاجرُ ، قالَ : فاسألْهُ يا رسولَ اللهِ : هلْ رآني قطُّ أفطرْتُ فيهِ ، أوْ نقصْتُ مِنْ حقِّهِ شيئاً ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، قالَ : واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يُعطي سائلاً ولا مسكيناً قطُّ ، ولا رأيتُهُ ينفقُ مِنْ مالِهِ شيئاً في سبيلِ اللهِ إلَّا هٰذهِ الزكاةَ التي يؤدِّيها البَرُّ والفاجرُ ، قالَ : فاسألْهُ يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ رآني نقصْتُ منها شيئاً ، أوْ ماكَسْتُ فيها طالبَها الذي يسألُها ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرَّجلِ : « قمْ فلعلَّهُ خيرٌ منكَ »[(١)]

❋ ❋ ❋

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٥٥) .

بيان العلاج الّذي به يُمنَع اللّسان من الغيبة

اعلمْ : أنَّ مساوئَ الأخلاقِ كلَّها إنَّما تُعالجُ بمعجونِ العلمِ والعملِ ، وإنَّما علاجُ كلِّ علةٍ بمضادَّةِ سببِها ، فلنفحصْ عنْ سببِها .

وعلاجُ كفِّ اللسانِ عنِ الغيبةِ على وجهينِ ؛ أحدُهما على الجملةِ ، والآخرُ على التَّفصيلِ .

أمَّا على الجملةِ : فهوَ أنْ يعلمَ تعرُّضَهُ لسخطِ اللهِ تعالىٰ بغيبتِهِ بهٰذهِ الأخبارِ التي رويناها ، وأنْ يعلمَ أنَّها تحبطُ حسناتِهِ يومَ القيامةِ ؛ فإنَّها تنقلُ يومَ القيامةِ حسناتِهِ إلىٰ مَنِ اغتابَهُ بدلاً عمَّا اجتاحَهُ مِنْ عرضِهِ ، فإنْ لمْ تكُنْ لهُ حسناتٌ . . نُقلَ إليهِ مِنْ سيئاتِ خصمِهِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ متعرِّضٌ لمقتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومشبَّهٌ عندَهُ بآكلِ الميتةِ ، بلِ العبدُ يدخلُ النارَ بأنْ تترجَّحَ كِفَّةُ سيئاتِهِ على كِفَّةِ حسناتِهِ ، وربَّما تُنقلُ إليهِ سيئةٌ واحدةٌ ممَّنِ اغتابَهُ فيحصلُ بها الرجحانُ ويدخلُ بها النارَ ، وإنَّما أقلُّ الدرجاتِ أنْ تنقصَ مِنْ ثوابِ أعمالِهِ ، وذٰلكَ بعدَ المخاصمةِ والمطالبةِ ، والسؤالِ والجوابِ والحسابِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما النَّارُ في اليبسِ بأسرعَ مِنَ الغيبةِ في حسناتِ العبدِ »[1]

ورُويَ أنَّ رجلاً قالَ للحسنِ : بلغَني أنَّكَ تغتابُني ، فقالَ : ما بلغَ مِنْ قدرِكَ عندي أنْ أحكِّمَكَ في حسناتِي .

فمهما آمنَ العبدُ بما وردَ مِنَ الأخبارِ في الغيبةِ . . لمْ يطلقْ لسانَهُ بها خوفاً مِنْ ذٰلكَ .

وينفعُهُ أيضاً : أنْ يتدبَّرَ في نفسِهِ ، فإنْ وجدَ فيها عيباً . . اشتغلَ بعيبِ نفسِهِ ، وذكرَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ شغلَهُ عيبُهُ عنْ عيوبِ النَّاسِ »[2]

ومهما وجدَ عيباً . . فينبغي أنْ يستحييَ مِنْ أنْ يتركَ ذمَّ نفسِهِ ويذمَّ غيرَهُ ، بلْ ينبغي أنْ يتحقَّقَ أنَّ عجزَ غيرِهِ عنْ نفسِهِ في التنزُّهِ عنْ ذٰلكَ العيبِ كعجزِهِ ، وهٰذا إنْ كانَ ذٰلكَ عيباً يتعلَّقُ بفعلِهِ واختيارِهِ .

وإنْ كانَ أمراً خلْقيّاً . . فالذمُّ لهُ ذمٌّ للخالقِ ، فإنَّ مَنْ ذمَّ صنعةً . . فقدْ ذمَّ صانعَها ، قالَ رجلٌ لحكيمٍ : يا قبيحَ الوجهِ ، قالَ : ما كانَ خلقُ وجهي إليَّ فأحسنَهُ .

وإنْ لمْ يجدِ العبدُ عيباً في نفسِهِ . . فليشكرِ اللهَ تعالىٰ ، ولا يلوِّثنَّ نفسَهُ بأعظمِ العيوبِ ، فإنَّ ثلبَ الناسِ وأكلَ لحمِ الميتةِ مِنْ أعظمِ العيوبِ ، بلْ لوْ أنصفَ . . لعلمَ أنَّ ظنَّهُ بنفسِهِ أنَّهُ بريءٌ مِنْ كلِّ عيبٍ جهلٌ بنفسِهِ ، وهوَ مِنْ أعظمِ العيوبِ .

وينفعُهُ أنْ يعلمَ أنَّ تألُّمَ غيرِهِ بغيبتِهِ كتألُّمِهِ بغيبةِ غيرِهِ لهُ ، فإذا كانَ لا يرضىٰ لنفسِهِ أنْ يُغتابَ . . فينبغي ألَّا يرضىٰ لغيرِهِ ما لا يرضاهُ لنفسِهِ .

فهٰذهِ معالجاتٌ جمليَّةٌ .

أمَّا التفصيلُ : فهوَ أنْ ينظرَ في السببِ الباعثِ لهُ على الغيبةِ ، فإنَّ علاجَ العلةِ بقطعِ سببِها ، وقدْ قدَّمنا الأسبابَ .

---

(١) ما رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٢) عن الحسن قوله : (إياكم والغيبة ، والذي نفسي بيده ؛ لهي أسرع في الحسنات من النار في الحطب) ، أما مرفوعاً فقد قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٥٤٨/٧)

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٩) .

أمَّا الغضبُ . . فيعالجُهُ بما سيأتي في كتابِ آفاتِ الغضبِ ، وهوَ أنْ يقولَ : إنِّي إنْ أمضيتُ غضبي عليهِ . . فلعلَّ اللهَ يمضي غضبَهُ عليَّ بسببِ الغيبةِ ؛ إذْ نهاني عنها فاجترأتُ علىٰ نهيهِ واستخففْتُ بزجرِهِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لجهنمَ باباً لا يدخلُ منهُ إلَّا مَنْ شفىٰ غيظَهُ بمعصيةِ اللهِ تعالىٰ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منِ اتَّقىٰ ربَّهُ . . كلَّ لسانُهُ ، ولمْ يشفِ غيظَهُ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منْ كظمَ غيظاً وهوَ يقدرُ علىٰ أنْ يمضيَهُ . . دعاهُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ حتَّىٰ يخيِّرَهُ في أيِّ الحورِ شاءَ »(٣)

وفي بعضِ الكتبِ المنزلةِ علىٰ بعضِ النبيينَ : (يا بنَ آدمَ ؛ اذكرْني حينَ تغضبُ . . أذكرْكَ حينَ أغضبُ ، فلا أمحقُكَ فيمَنْ أمحقُ)(٤)

وأمَّا الموافقةُ(٥) . . فبأنْ تعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يغضبُ عليكَ إذا طلبتَ سخطَهُ في رضا المخلوقينَ ، فكيفَ ترضىٰ لنفسِكَ أنْ توقِّرَ غيرَكَ وتحقِّرَ مولاكَ ، فتتركَ رضاهُ لرضاهُمْ ؟! إلَّا أنْ يكونَ غضبُكَ للهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ لا يوجبُ أنْ تذكرَ المغضوبَ عليهِ بسوءٍ ، بلْ ينبغي أنْ تغضبَ للهِ أيضاً علىٰ رفقائِكَ إذا ذكروهُ بالسُّوءِ ؛ فإنَّهمْ عصَوا ربَّكَ بأفحشِ الذنوبِ ، وهيَ الغيبةُ .

وأمَّا تنزيهُ النفسِ بنسبةِ الغيرِ إلى الجنايةِ ؛ حيثُ يُستغنىٰ عنْ ذكرِ الغيرِ . . فتعالجُهُ بأنْ تعرفَ أنَّ التعرُّضَ لمقتِ الخالقِ أشدُّ مِنَ التعرُّضِ لمقتِ المخلوقينَ ، وأنتَ بالغيبةِ متعرّضٌ لسخطِ اللهِ يقيناً ، ولا تدري أنَّكَ تتخلَّصُ مِنْ سخطِ الناسِ أمْ لا ، فتخلِّصُ نفسَكَ في الدنيا بالتوهُّمِ ، وتَهلَكُ في الآخرةِ وتخسرُ حسناتِكَ بالحقيقةِ ، ويحصلُ لكَ ذمُّ اللهِ عزَّ وجلَّ نقداً وتنتظرُ دفعَ ذمِّ الخلقِ نسيئةً ، وهٰذا غايةُ الجهلِ والخذلانِ .

وأمَّا عذرُكَ ؛ كقولِكَ : إنِّي إنْ أكلْتُ الحرامَ ففلانٌ يأكلُهُ ، وإنْ قبلْتُ مالَ السلطانِ ففلانٌ يقبلُهُ . . فهٰذا جهلٌ ؛ لأنَّكَ تعتذرُ بالاقتداءِ بمَنْ لا يجوزُ الاقتداءُ بهِ ، فإنَّ مَنْ خالفَ أمرَ اللهِ تعالىٰ لا يُقتدىٰ بهِ كائناً مَنْ كانَ ، ولوْ دخلَ غيرُكَ النارَ وأنتَ تقدرُ علىٰ ألا تدخلَها . . لمْ توافقْهُ ، ولوْ وافقتَهُ . . لسُفِّهَ عقلُكَ ، فما ذكرتَهُ غيبةٌ وزيادةُ معصيةٍ أضفتَها إلىٰ ما اعتذرْتَ عنهُ ، وسَجَّلْتَ معَ الجمعِ بينَ المعصيتينِ علىٰ جهلِك وغباوتِكَ ، وكنتَ كالشاةِ تنظرُ إلى العنزِ تردِّي نفسَها من قُلَّةِ الجبلِ ، فهيَ أيضاً تردِّي نفسَها ولوْ كانَ لها لسانٌ ناطقٌ وصرَّحت بالعذرِ وقالَتْ : العنزُ أكيسُ منِّي وقدْ أهلكَتْ نفسَها ، فكذٰلكَ أفعلُ . . لكنتَ تضحكُ من جهلِها ، وحالُكَ مثلُ حالِها ، ثمَّ لا تعجبُ ولا تضحكُ مِنْ نفسكَ !!

وأمَّا قصدُكَ المباهاةَ وتزكيةَ النفسِ بزيادةِ الفضلِ بأنْ تقدحَ في غيرِكَ . . فينبغي أنْ تعلمَ أنَّكَ بما ذكرتَهُ بهِ أبطلْتَ فضلَكَ عندَ اللهِ ، وأنتَ مِن اعتقادِ الناسِ فضلَكَ علىٰ خطرٍ ، وربَّما نقصَ اعتقادُهُمْ فيكَ إذا عرفوكَ بثلْبِ الناسِ ،

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٥١٨٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥١/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٧٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٠٤) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٧٣٤/٢) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٣) ، وابن ماجه (٤١٨٦) .
(٤) رواه أحمد في « الزهد » (ص ٤٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٥٠) عن وهيب بن الورد المكي .
(٥) أي : مع الرفقاء .

فتكونُ قدْ بعتَ ما عندَ الخالقِ يقيناً بما عندَ المخلوقينَ وهْماً ، ولوْ حصلَ لكَ مِنَ المخلوقينَ اعتقادُ الفضلِ . . لكانُوا لا يغنونَ عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً .

وأمَّا الغيبةُ لأجلِ الحسدِ . . فهوَ جمعٌ بينَ عذابينِ ؛ لأنَّكَ حسدْتَهُ علىٰ نعمةِ الدنيا ، وكنتَ في الدنيا معذَّباً بالحسدِ ، فما قنعْتَ بذٰلكَ حتَّىٰ أضفْتَ إليهِ عذابَ الآخرةِ لتجمعَ بينَ النَّكالينِ ، فكنتَ خاسراً في الدنيا ، فصرْتَ أيضاً خاسراً في الآخرةِ ، فقدْ قصدتَ محسودَكَ فأصبتَ نفسَكَ ، وأهديتَ إليهِ حسناتِكَ ، فإذا أنتَ صديقُهُ وعدوُّ نفسِكَ ، إذْ لا تضرُّهُ غيبتُكَ وتضرُّكَ ، وتنفعُهُ إذْ تنقلُ إليهِ حسناتِكَ أوْ تنقلُ إليكَ سيئاتِهِ ولا تنفعُكَ ، وقدْ جمعْتَ إلىٰ خبثِ الحسدِ جهلَ الحماقةِ ، وربَّما يكونُ حسدُكَ وقدحُكَ سببَ انتشارِ فضلِ محسودِكَ ، فقدْ قيلَ[1] : [من الكامل]

وَإِذا أَرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتاحَ لَها لِسانَ حَسُودِ

وأمَّا الاستهزاءُ . . فمقصودُكَ منهُ إخزاءُ غيرِكَ عندَ الناسِ بإخزاءِ نفسِكَ عندَ اللهِ تعالىٰ وعندَ الملائكةِ والنبيّينَ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ ، فلوْ تفكَّرتَ في حسرتِكَ وجنايتِكَ وخجلتِكَ وخزيِكَ يومَ القيامةِ ، يومَ تحملُ سيئاتِ مَنِ استهزأْتَ بهِ وتُساقُ إلى النارِ . . لأدهشَكَ ذٰلكَ عنْ إخزاءِ صاحبِكَ ، ولوْ عرفْتَ حالَكَ . لكنتَ أولىٰ أنْ يُضحَكَ منكَ ، فإنَّكَ سخرْتَ بهِ عندَ نفرٍ قليلٍ ، وعرَّضتَ نفسَكَ لأَنْ يأخذَ يومَ القيامةِ بيدكَ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ويسوقُكَ تحتَ سيئاتِهِ كما يُساقُ الحمارُ إلى النارِ ، مستهزِئاً بكَ ، وفَرِحاً بخزيِكَ ، ومسروراً بنصرةِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ عليكَ ، وتسلُّطِهِ على الانتقامِ منكَ .

وأمَّا الرحمةُ لهُ علىٰ إثمِهِ . . فهوَ حسنٌ ، ولٰكنْ حسدَكَ إبليسُ فأضلَّكَ ، واستنطقَكَ بما ينقلُ مِنْ حسناتِكَ إليهِ ما هوَ أكثرُ مِنْ رحمتِكَ ، فيكونُ جبراً لإثمِ المرحومِ ، فيخرجُ عنْ كونِهِ مرحوماً ، وتنقلبُ أنتَ مستحقاً لأَنْ تكونَ مرحوماً ؛ إذْ حبِطَ أجرُكَ ، ونقَّصتَ مِنْ حسناتِكَ .

وكذٰلكَ الغضبُ للهِ عزَّ وجلَّ لا يوجبُ الغيبةَ ، وإنَّما الشيطانُ حبَّب إليكَ الغيبةَ ليحبطَ أجرَ غضبِكَ ، وتصيرَ مُعرَّضاً لغضبِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغيبةِ .

وأمَّا التعجُّبُ إذا أخرجَكَ إلى الغيبةِ . . فتعجَّبْ مِنْ نفسِكَ أنَّكَ كيفَ أهلكْتَ نفسَكَ ودينَكَ بدينِ غيرِكَ أوْ بدنياهُ وأنتَ معَ ذٰلكَ لا تأمنُ عقوبةَ الدنيا ، وهوَ أنْ يهتِكَ اللهُ سترَكَ كما هتكتَ بالتعجُّبِ سترَ أخيكَ .

فإذاً ؛ علاجُ جميعِ ذٰلكَ : المعرفةُ فقطْ ، والتحقُّقُ بهٰذهِ الأمورِ التي هيَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، فمَنْ قويَ إيمانُهُ بجميعِ ذٰلكَ . . انكفَّ لسانُهُ عنِ الغيبةِ لا محالةَ .

❋ ❋ ❋

(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه بشرح التبريزي » (١/٣٩٧) .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلمْ : أنَّ سوءَ الظنِّ حرامٌ مثلَ سوءِ القولِ ، فكما يحرمُ عليكَ أنْ تحدِّثَ غيرَكَ بلسانِكَ بمساوئِ الغيرِ . . فليسَ لكَ أنْ تحدِّثَ نفسَكَ وتسيءَ الظنَّ بأخيكَ ، ولستُ أعني بهِ إلَّا عقدَ القلبِ وحكمَهُ علىٰ غيرِهِ بالسوءِ ، فأمَّا الخواطرُ وحديثُ النفسِ . . فهوَ معفوٌّ عنهُ ، بلِ الشكُّ أيضاً معفوٌّ عنهُ ، ولٰكنَّ المنهيَّ عنهُ أنْ يظنَّ ، والظنُّ : عبارةٌ عمَّا تركنُ إليهِ النفسُ ، ويميلُ إليهِ القلبُ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ .

وسببُ **تحريمِهِ** : أنَّ أسرارَ القلوبِ لا يعلمُها إلَّا علَّامُ الغيوبِ ، فليسَ لكَ أنْ تعتقدَ في غيرِكَ سوءاً إلا إذا انكشفَ لكَ بعيانٍ لا يحتملُ التأويلَ ، فعندَ ذٰلكَ لا يمكنُكَ ألا تعتقدَ ما علمتَهُ وشاهدتَهُ ، وما لمْ تشاهدْهُ بعينِكَ ، ولمْ تسمعْهُ بأذنِكَ ، ثمَّ وقعَ في قلبِكَ . . فإنَّما الشيطانُ يلقيهِ إليكَ ، فينبغي أنْ تكذِّبَهُ ؛ فإنَّهُ أفسقُ الفسَّاقِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ فلا يجوزُ تصديقُ إبليسَ .

وإنْ كانَ ثَمَّ مَخْيَلَةٌ تدلُّ علىٰ فسادٍ واحتُمِلَ خلافُهُ . . لمْ يجزْ أنْ تصدِّقَ بهِ ؛ لأنَّ الفاسقَ يُتصوَّرُ أنْ يصدقَ في خبرِهِ ، ولٰكنْ لا يجوزُ لكَ أنْ تصدِّقَ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ منِ استُنْكِهَ فوُجِدَ منهُ رائحةُ الخمرِ لا يجوزُ أنْ يُحَدَّ ؛ إذْ يُقالُ : يمكنُ أنْ يكونَ قدْ تمضمضَ بالخمرِ ومجَّها وما شربَها ، أوْ حُمِلَ عليهِ قهراً ، فكلُّ ذٰلكَ لا محالةَ دلالةٌ محتملةٌ ، فلا يجوزُ تصديقُها بالقلبِ وإساءةُ الظنِّ بالمسلمِ بها .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ حرَّمَ مِنَ المسلمِ دمَهُ ومالَهُ ، وأنْ يُظَنَّ بهِ ظنُّ السوءِ »(١)

فلا يُستباحُ ظنُّ السوءِ إلَّا بما يُستباحُ بهِ المالُ ، وهوَ يقينُ مشاهدتِهِ ، أوْ بيِّنةٌ عادلةٌ ، فإذا لمْ يكنْ ذٰلكَ ، وخطرَ لكَ سوءُ الظَّنِّ . . فينبغي أنْ تدفعَهُ عنْ نفسِكَ ، وتقرِّرَ عليها أنَّ حالَهُ عندَكَ مستورٌ كما كانَ ، وأنَّ ما رأيتَهُ منهُ يحتملُ الخيرَ والشَّرَّ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلْتَ : فبماذا يُعرفُ عقدُ الظَّنِّ والشكوكُ تختلجُ والنفسُ تحدِّثُ ؟

فأقولُ : أمارةُ عقدِ الظَّنِّ : أنْ يتغيَّرَ القلبُ معَهُ عمَّا كانَ ، فينفرَ عنهُ نفوراً ما ، ويستثقلَهُ ، ويفترَ عنْ مراعاتِهِ وتفقُّدِهِ وإكرامِهِ والاغتمامِ بسببِهِ ، فهٰذهِ أماراتُ عقدِ الظنِّ وتحقيقِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ في المؤمنِ ولهُ منهنَّ مخرجٌ ، فمخرجُهُ مِنْ سوءِ الظَّنِّ ألَّا يحقِّقَهُ »(٢) أيْ : لا يحقِّقَهُ في نفسِهِ بعقدٍ ولا فعلٍ ، لا في القلبِ ولا في الجوارحِ ، أمَّا في القلبِ . . فبتغيُّرِهِ إلى النفرةِ والكراهةِ ، وأمَّا في الجوارحِ . . فبالعملِ بموجَبِهِ ، والشيطانُ قدْ يقرِّرُ على القلبِ بأدنىٰ مَخْيلةٍ مساءةَ الناسِ ، ويلقي إليهِ أنَّ هٰذا مِنْ فطنتِكَ وسرعةِ تنبُّهِكَ وذكائِكَ ، وأنَّ المؤمنَ ينظرُ بنورِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ على التحقيقِ ناظرٌ بغرورِ الشيطانِ وظُلمتِهِ .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٨٠) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢٨/٣) من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه ، ولفظه مرفوعاً : « ثلاث لازمات لأمتي ؛ الطيرة والحسد وسوء الظن » ، فقال رجل : ما يذهبهن يا رسول الله ممن هو فيه ؟ قال : « إذا حسدت . . فاستغفر الله ، وإذا ظننت . . فلا تحقِّق ، وإذا تطيَّرت . . فامضِ » .

فأمَّا إذا أخبرَكَ بِهِ عدلٌ ، فمالَ ظنُّكَ إلىٰ تصديقِهِ . . كنتَ معذوراً ؛ لأنَّكَ لوْ كذَّبْتَهُ . . لكنتَ جانياً علىٰ هٰذا العدْلِ ؛ إذْ ظننْتَ بِهِ الكذبَ ، وذٰلكَ أيضاً مِنْ سوءِ الظَّنِّ ، فلا ينبغي أنْ تحسنَ الظَّنَّ بواحدٍ وتسيءَ بالآخرِ .

نعمْ ؛ ينبغي أنْ تبحثَ هلْ بينَهُما عداوةٌ ومحاسدةٌ وتعنُّتٌ ، فتتطرَّقَ التهمةُ بسببِهِ ؟ فقدْ ردَّ الشرعُ شهادةَ الأبِ العدلِ للولدِ للتهمةِ ، وردَّ شهادةَ العدوِّ [1] ، فلكَ عندَ ذٰلكَ أنْ تتوقَّفَ وإنْ كانَ عدلاً ؛ فلا تصدقْهُ ولا تكذبْهُ ، ولٰكنْ تقولُ في نفسِكَ : المذكورُ حالُهُ كانَ في سترِ اللهِ تعالىٰ عندي ، وكانَ أمرُهُ محجوباً عنِّي ، وقد بقيَ كما كانَ ، لمْ ينكشفْ لي شيءٌ مِنْ أمرِهِ .

وقدْ يكونُ الرجلُ ظاهرُهُ العدالةُ ولا محاسدةَ بينَهُ وبينَ المذكورِ ، ولٰكنْ يكونُ مِنْ عادتِهِ التعرُّضُ للناسِ ، وذكرُ مساوئِهِمْ ، فهٰذا قدْ يُظَنُّ أنَّهُ عدلٌ وليسَ بعدلٍ ؛ فإنَّ المغتابَ فاسقٌ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ مِنْ عادتِهِ . . رُدَّتْ شهادتُهُ ، إلَّا أنَّ الناسَ لكثرةِ الاعتيادِ تساهلُوا في أمرِ الغيبةِ ، ولمْ يكترثوا بتناولِ أعراضِ الخلقِ .

ومهما خطرَ لكَ خاطرُ سوءٍ علىٰ مسلمٍ . . فينبغي أنْ تزيدَ في مراعاتِهِ ، وتدعوَ لهُ بالخيرِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يغيظُ الشيطانَ ، ويدفعُهُ عنكَ ، فلا يلقي إليكَ الخاطرَ السوءَ ؛ خيفةً مِنِ اشتغالِكَ بالدعاءِ والمراعاةِ .

ومهما عرفتَ هفوةَ مسلمٍ بحجَّةٍ . . فانصحْهُ في السِّرِّ ، ولا يخدعنَّكَ الشيطانُ فيدعوَكَ إلى اغتيابِهِ ، وإذا وعظتَهُ . . فلا تعظْهُ وأنتَ مسرورٌ باطلاعِكَ علىٰ نقصِهِ لينظرَ إليكَ بعينِ التعظيمِ ، وتنظرَ إليهِ بعينِ الاستحقارِ ، وتترفَّعَ عليهِ بدالَّةِ الوعظِ ، وليكنْ قصدُكَ تخليصَهُ مِنَ الإثمِ وأنتَ حزينٌ ؛ كما تحزنُ علىٰ نفسِكَ إذا دخلَ عليكَ نقصانٌ في دينِكَ .

وينبغي أنْ يكونَ تركُهُ لذٰلكَ مِنْ غيرِ نصحِكَ أحبَّ إليكَ مِنْ تركِهِ بالنصيحةِ ، فإذا أنتَ فعلتَ ذٰلكَ . . كنتَ قدْ جمعتَ بينَ أجرِ الوعظِ وأجرِ الغمِّ بمصيبتِهِ وأجرِ الإعانةِ لهُ علىٰ دينِهِ .

ومِنْ ثمراتِ سوءِ الظنِّ : التجسُّسُ ، فإنَّ القلبَ لا يقنعُ بالظنِّ ، ويطلبُ التحقيقَ ، فيشتغلُ بالتجسُّسِ ، وهوَ أيضاً منهيٌّ عنهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ، فالغيبةُ وسوءُ الظنِّ والتجسُّسُ منهيٌّ عنهُ في آيةٍ واحدةٍ .

ومعنى التجسُّسِ : ألَّا تتركَ عبادَ اللهِ تحتَ سترِ اللهِ ، فتتوصلَ إلى الاطلاعِ وهتكِ السترِ حتَّىٰ ينكشفَ لكَ ما لوْ كانَ مستوراً عنكَ . . كانَ أسلمَ لقلبِكَ ودينِكَ ، وقدْ ذكرْنا في كتابِ الأمرِ بالمعروفِ حكمَ التجسُّسِ وحقيقتَهُ .

* * *

(١) فقد روى الترمذي (٢٢٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ، ولا مجلود حداً ولا مجلودة ، ولا ذي غمر لأخيه ، ولا مجرَّب شهادة ، ولا القانع أهل البيت لهم ، ولا ظنين في ولاء ولا قرابة » ، والقانع هنا : التابع .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلمْ : أنَّ المرخِّصَ في الغيبةِ وذكرِ مساوئِ الغيرِ هوَ غرضٌ صحيحٌ في الشرعِ لا يمكنُ التوصُّلُ إليهِ إلا بهِ ، فيدفعُ ذٰلكَ إثمَ الغيبةِ .

وهيَ ستةُ أمورٍ :

الأولُ : التظلُّمُ :

فإنَّ مَنْ ذكرَ قاضياً بالظُّلمِ والخيانةِ وأخذِ الرشوةِ . . كانَ مغتاباً عاصياً إنْ لمْ يكنْ مظلوماً .

أمَّا المظلومُ مِنْ جهةِ القاضي . . فلهُ أنْ يتظلَّمَ إلى السلطانِ وينسبَهُ إلى الظُّلمِ ؛ إذْ لا يمكنُهُ استيفاءُ حقِّهِ إلا بهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً »[1]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَطْلُ الغنيِّ ظلْمٌ »[2]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لَيُّ الواجدِ يُحِلُّ عرضَهُ وعقوبتَهُ »[3]

❀ ❀ ❀

الثاني : الاستعانةُ علىٰ تغييرِ المنكرِ وردِّ العاصي إلىٰ منهجِ الصلاحِ :

كما رُوِيَ أنَّ عمرَ مرَّ علىٰ عثمانَ ـ وقيلَ : علىٰ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهمْ أجمعينَ ـ فسلَّمَ عليهِ فلم يردَّ السلامَ ، فذهبَ إلىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فذكرَ لهُ ذٰلكَ ، فجاءَ أبو بكرٍ إليهِ ليصلحَ ذٰلكَ ، ولمْ يكنْ ذٰلكَ غيبةً عندَهُمْ[4]

وكذٰلكَ لمَّا بلغَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ أبا جندلٍ قدْ عاقرَ الخمرَ بالشامِ . . كتبَ إليهِ : بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ : ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ . . . ﴾ الآيةَ ، فتابَ[5] ، ولمْ يرَ عمرُ ذٰلكَ ممَّنْ أبلغَهُ غيبةً ؛ إذْ كانَ قصدُهُ أنْ ينكرَ عليهِ عمرُ فينفعُهُ نصحُهُ ما لا ينفعُهُ نصحُ غيرِهِ .

وإنَّما إباحةُ هٰذا بالقصدِ الصحيحِ ، فإنْ لمْ يكنْ ذٰلكَ هوَ المقصودَ . . كانَ حراماً .

❀ ❀ ❀

الثالثُ : الاستفتاءُ :

كما يقولُ للمفتي : قدْ ظلمَني أبي أوْ أخي أوْ زوجتي ، فكيفَ طريقي في الخلاصِ ، والأسلمُ التعريضُ ، بأنْ يقولَ : ما قولُكَ في رجلٍ ظلمَهُ أبوهُ أوْ أخوهُ أوْ زوجتُهُ ؟ ولٰكنَّ التعيينَ مباحٌ بهٰذا العذرِ ؛ لما رُوِيَ عنْ هندَ بنتِ عتبةَ أنَّها قالَتْ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، أفآخذُ مِنْ غيرِ علمِهِ ؟

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٦) ، ومسلم (١٦٠١) .

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٧) ، ومسلم (١٥٦٤) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٢٨) ، والنسائي (٣١٦/٧) ، وابن ماجه (٢٤٢٧) ، واللَّيُّ : المطل .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/١) ، وسبب عدم ردِّ عثمان رضي الله عنه لذهوله بوفاة سيد الوجود عليه الصلاة والسلام .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٧٠٧٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٥/٩) .

فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خُذي ما يكفيكِ وولدَكِ بالمعروفِ »[1] ، فذكرَتِ الشُّحَّ ، والظلمَ لها ولولدِها ، ولمْ يزجرْها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ كانَ قصدُها الاستفتاءَ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : تحذيرُ المسلمينَ مِنَ الشَّرِّ :

فإذا رأيتَ متفقِّهاً يتردَّدُ إلىٰ مبتدعٍ أوْ فاسقٍ ، وخفتَ أنْ تتعدَّىٰ إليهِ بدعتُهُ أو فسقُهُ . . فلكَ أنْ تكشفَ لهُ بدعتَهُ وفسقَهُ ، مهما كانَ الباعثُ لكَ الخوفَ عليهِ مِنْ سرايةِ البدعةِ والفسقِ لا غيرُ ، وذٰلكَ موضعُ الغرورِ ؛ إذْ قدْ يكونُ الحسدُ هوَ الباعثَ ، ويلبِّسُ الشيطانُ ذٰلكَ بإظهارِ الشفقةِ على الخلقِ .

وكذٰلكَ مَنِ اشترىٰ مملوكاً وقدْ عرفْتَ المملوكَ بالسرقةِ أوْ بالفسقِ أوْ بعيبٍ آخرَ ، فلكَ أنْ تذكرَ ذٰلكَ ؛ فإنَّ في سكوتِكَ ضررَ المشتري ، وفي ذكرِكَ ضررَ العبدِ ، والمشتري أولىٰ بمراعاةِ جانبِهِ .

وكذٰلكَ المزكِّي إذا سُئلَ عنِ الشاهدِ ، فلهُ الطعنُ فيهِ إنْ علمَ مَطعناً .

وكذٰلكَ المستشارُ في التزويجِ وإيداعِ الأمانةِ لهُ أنْ يذكرَ ما يعرفُهُ علىٰ قصدِ النصحِ للمستشيرِ ، لا علىٰ قصدِ الوقيعةِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ يتركُ التزويجَ بمجردِ قولِهِ : (لا يصلحُ لكَ) . . فهوَ الواجبُ ، وفيهِ الكفايةُ ، وإنْ علمَ أنَّهُ لا ينزجرُ إلَّا بالتصريحِ بعيبِهِ . . فلهُ أنْ يصرِّحَ بهِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَتَرِعونَ عنْ ذكرِ الفاجرِ ؟ هتِّكُوهُ حتَّىٰ يعرفَهُ الناسُ ، اذكرُوهُ بما فيهِ حتَّىٰ يحذرَهُ النَّاسُ »[2]

وكانُوا يقولونَ : (ثلاثةٌ لا غيبةَ لهمْ : الإمامُ الجائرُ ، والمبتدعُ ، والمجاهرُ بفسقِهِ)[3]

❁ ❁ ❁

الخامسُ : أنْ يكونَ الإنسانُ معروفاً بلقبٍ يعربُ عنْ عيبِهِ :

كالأعرجِ والأعمشِ ، فلا إثمَ علىٰ مَنْ يقولُ : روىٰ أبو الزِّنادِ عنِ الأعرجِ ، وسليمانُ عنِ الأعمشِ ، وما يجري مجراهُ ، فقدْ فعلَ العلماءُ ذٰلكَ لضرورةِ التعريفِ ، ولأنَّ ذٰلكَ قدْ صارَ بحيثُ لا يكرهُهُ صاحبُهُ لوْ علمَهُ بعدَ أنْ صارَ مشهوراً بهِ .

نعمْ ؛ لوْ وجدَ عنهُ معدلاً ، وأمكنَهُ التعريفُ بعبارةٍ أخرىٰ . . فهوَ أولىٰ ، ولذٰلكَ يُقالُ للأعمى : البصيرُ ؛ عدولاً عنِ اسمِ النقصِ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : أنْ يكونَ مجاهراً بالفسقِ :

كالمخنَّثِ ، وصاحبِ الماخورِ ، والمجاهرِ بشربِ الخمرِ ، ومصادرةِ الناسِ ، وكانَ ممنْ يتظاهرُ بالفسقِ ؛ بحيثُ لا

---

(١) رواه البخاري (٢٢١١) ، ومسلم (١٧١٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢١) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٣٦٩) ، وأتَرِعون : أتتحرَّجون وتمتنعون ؛ من ورع يرع كوعد يعد ، وهتِّكوه : اكشفوا حاله وارفعوا ستره . « إتحاف » (٥٥٥/٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢٧) بنحوه .

يستنكفُ مِنْ أنْ يُذكرَ لهُ ، ولا يكرهُ أنْ يُذكرَ بهِ ، فإذا ذُكرَ منهُ ما يتظاهرُ بهِ . . فلا إثمَ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ألقىٰ جلبابَ الحياءِ عنْ وجهِهِ . . فلا غيبةَ لهُ »(١)

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ لفاجرٍ حرمةٌ)(٢) ، وأرادَ بهِ المجاهرَ بفسقِهِ دونَ المستترِ ؛ إذِ المستترُ لا بدَّ مِنْ مراعاةِ حرمتِهِ .

وقالَ الصَّلتُ بنُ طريفٍ : قلتُ للحسنِ : الرجلُ الفاجرُ المعلنُ بفجورِهِ ذكري لهُ بما فيهِ غيبةٌ ؟ قالَ : لا ، ولا كرامةَ(٣)

وقالَ الحسنُ : (ثلاثةٌ لا غيبةَ لهمْ : صاحبُ الهوىٰ ، والفاسقُ المعلنُ بفسقِهِ ، والإمامُ الجائرُ)(٤) ، وهٰؤلاءِ الثلاثةُ يجمعُهُمْ أنَّهمْ يتظاهرونَ بهِ ، وربَّما يتفاخرونَ بهِ ، فكيفَ يكرهونَ ذٰلكَ وهمْ يقصدُونَ إظهارَهُ ؟!

نعمْ ؛ لوْ ذكرَهُ بغيرِ ما يتظاهرُ بهِ . . أثمَ .

وقالَ عوفٌ : دخلْتُ على ابنِ سيرينَ ، فتناولْتُ عندَهُ الحجَّاجَ ، فقالَ : إنَّ اللهَ حكمٌ عدْلٌ ينتقمُ للحجاجِ ممَّنِ اغتابَهُ ، كما ينتقمُ مِنَ الحجاجِ لمَنْ ظلمَهُ ، وإنَّكَ إذا لقيتَ اللهَ تعالىٰ غداً . . كانَ أصغرُ ذنبٍ أصبتَهُ أشدَّ عليكَ مِنْ أعظمِ ذنبٍ أصابَهُ الحجَّاجُ(٥)

* * *

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/٣٨٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/٢١٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٥) ، وروىٰ عنه أيضاً (٢٣٧) قال : (إذا ظهر فجوره . . فلا غيبة له ، قال : نحو المخنث ونحو الحرورية) ، والحرورية فرقة من الخوارج .

(٥) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٨٤) ، وبنحوه رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٧٠) .

بيان كفارة الغيبة

اعلمْ : أنَّ الواجبَ على المغتابِ[1] أنْ يندمَ ويتوبَ ، ويتأسَّفَ على ما فعلَهُ ؛ ليخرجَ بهِ مِنْ حقِّ اللهِ سبحانَهُ ، ثمَّ يستحلَّ المغتابَ ليُحِلَّهُ فيخرجَ مِنْ مظلمتِهِ ، وينبغي أنْ يستحلَّهُ وهوَ حزينٌ متأسِّفٌ نادمٌ على فعلِهِ ، إذِ المرائي قدْ يستحلُّ ليظهرَ مِنْ نفسِهِ الورعَ ، وفي الباطنِ لا يكونُ نادماً ، فيكونُ قدْ قارفَ معصيةً أخرىٰ .

وقالَ الحسنُ : (يكفيهِ الاستغفارُ دونَ الاستحلالِ) ، وربَّما احتجَّ في ذلكَ بما روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفَّارةُ مَنِ اغتبْتَ أنْ تستغفرَ لهُ »[2]

وقالَ مجاهدٌ : (كفارةُ أكلِكَ لحمَ أخيكَ أنْ تثنيَ عليهِ ، وتدعوَ لهُ بخيرٍ)[3]

وسئلَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ عنِ التوبةِ مِنَ الفريةِ ، قالَ : أنْ تمشيَ إلىٰ صاحبِكَ فتقولَ : كذبْتُ فيما قلْتُ ، وظلمْتُ ، وأسأْتُ ، فإنْ شئْتَ . . أخذْتَ بحقِّكَ ، وإنْ شئْتَ . . عفوتَ[4]

وهٰذا هوَ الأصح .

وقولُ القائلِ : العِرْضُ لا عوضَ لهُ ؛ فلا يجبُ الاستحلالُ منهُ ؛ بخلافِ المالِ . . كلامٌ ضعيفٌ ؛ إذْ قدْ وجبَ في العرضِ حدُّ القذفِ ، وتثبتُ المطالبةُ بهِ .

بلْ في الحديثِ الصحيحِ : ما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ كانَتْ لأخيهِ عندَهُ مظْلَمَةٌ في عرضٍ أوْ مالٍ . . فليتحلَّلْهُ منهُ مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ ليسَ هناكَ دينارٌ ولا درهمٌ ، إنَّما يؤخذُ مِنْ حسناتِهِ ، فإنْ لمْ يكُنْ لهُ حسناتٌ . . أخذَ مِنْ سيئاتِ صاحبِهِ فزيدَتْ علىٰ سيِّئاتِهِ »[5] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لامرأةٍ قالَتْ لأخرىٰ : إنَّها طويلةُ الذيلِ : (قدِ اغتبتِيها ، فاستحلِّيها)[6]

فإذاً ؛ لا بدَّ مِنَ الاستحلالِ إنْ قدرَ عليهِ ، فإنْ كانَ غائباً أوْ ميتاً . . فينبغي أنْ يكثرَ لهُ الاستغفارَ والدعاءَ ، ويكثرَ مِنَ الحسناتِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلْتَ : فالتحليلُ هل يجبُ ؟

---

(١) أي : الذي اغتاب ، فهي صيغة اسم فاعل ، وقوله بُعيدهُ : (**يستحل المغتاب**) أي : الذي اغتيب ، فهي صيغة اسم مفعول ، والتفرقة تكون بالقرائن .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٣) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢١٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٦٨) ، و« الدعوات الكبير » (٥٠٧) ، وروي هٰذا الرأي عن عبد الله بن المبارك ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٣٦٧) عنه قال : (إذا اغتاب رجل رجلاً . . فلا يخبره به ، ولٰكن يستغفر الله) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٥) .

(٥) رواه البخاري (٢٤٤٩) .

(٦) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٠٠) .

فأقولُ : لا ؛ لأنَّهُ تبرُّعٌ ، والتبرُّعُ فضلٌ وليسَ بواجبٍ ، ولـٰكنَّهُ مستحسنٌ ، وسبيلُ المعتذِرِ : أنْ يبالغَ في الثناءِ عليهِ ، والتَّودُّدِ إليهِ ، ويلازمَ ذٰلكَ حتَّىٰ يطيبَ قلبُهُ ، فإنْ لـمْ يطِبْ قلبُهُ . . كانَ اعتذارُهُ وتودُّدُهُ حسنةً محسوبةً لهُ ، يقابلُ بها سيئةَ الغيبةِ في القيامةِ .

❁ ❁ ❁

وكانَ بعضُ السلفِ لا يحللُ ، قالَ سعيدُ بنُ المسيِّبِ : (لا أحللُ مَنْ ظلمَني)[1]

وقالَ ابنُ سيرينَ : (إني لـمْ أحرِمْها عليهِ فأحلِّلَها لهُ ، إنَّ اللهَ حرَّمَ الغيبةَ عليهِ ، وما كنتُ لأحلِّلَ ما حرَّمَهُ اللهُ أبداً)[2]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلْتَ : فما معنىٰ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينبغي أنْ يستحلَّها » وتحليلُ ما حرَّمَهُ اللهُ تعالىٰ غيرُ ممكنٍ ؟

فنقولُ : المرادُ بهِ العفوُ عنِ المظلمةِ ، لا أنْ ينقلبَ الحرامُ حلالاً ، وما ذكرَهُ ابنُ سيرينَ حسنٌ في التحليلِ قبلَ الغيبةِ ، فإنَّهُ لا يجوزُ لهُ أنْ يحلِّلَ لغيرِهِ الغيبةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلْتَ : فما معنىٰ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيعجزُ أحدُكُمْ أنْ يكونَ كأبي ضمضمٍ ؛ كانَ إذا خرجَ مِنْ بيتِهِ . . قالَ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي تصدَّقتُ بعرضي على الناسِ »[3] ، فكيفَ يتصدَّقُ بالعرْضِ ؟ ومنْ تصدَّقَ بهِ فهلْ يُباحُ تناولُهُ ؟ فإنْ كانَ لا تنفذُ صدقتُهُ . . فما معنى الحثِّ عليهِ ؟

فنقولُ : معناهُ : أنِّي لا أطلبُ مظلمةً في القيامَةِ منهُ ، ولا أخاصمُهُ ، وإلَّا . . فلا تصيرُ الغيبةُ حلالاً بهِ ، ولا تسقطُ المظلمةُ عنهُ ؛ لأنَّهُ عفوٌ قبلَ الوجوبِ ، إلَّا أنَّهُ وعدٌ ، ولهُ العزمُ على الوفاءِ بألا يخاصمَ ، فإنْ رجعَ وخاصمَ . . كانَ القياسُ كسائرِ الحقوقِ أنَّ لهُ ذٰلكَ ، بلْ صرَّحَ الفقهاءُ بأنَّ مَنْ أباحَ القذفَ . . لـمْ يسقطْ حقُّهُ مِنْ حدِّ القذفِ ، ومظلمةُ الآخرةِ مثلُ مظلمةِ الدنيا .

❁ ❁ ❁

وعلى الجملةِ : فالعفوُ أفضلُ ، قالَ الحسنُ : (إذا جثَتِ الأممُ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ . . نُودُوا : ليقُمْ مَنْ كانَ أجرُهُ على اللهِ ، فلا يقومُ إلَّا العافونَ عنِ الناسِ في الدنيا)[4]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ . . . ﴾ الآيةَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا جبريلُ ؛ ما هـٰذا ؟ فقالَ : إنَّ اللهَ يأمرُكَ أنْ تعفوَ عمَّنْ ظلمَكَ ، وتصلَ مَنْ قطعَكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمَكَ »[5]

---

(١) إذ لم يسامح من آذاه وضربه على البيعة لعبد الملك بن مروان كما في « طبقات ابن سعد » (١٢٧/٧) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦٣/٢) .
(٣) رواه الطبراني في « مكارم الأخلاق » (٥٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٥) .
(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٧٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٦٠) مرفوعاً .
(٥) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٣١٠/٤) من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، ورواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) عن أُمَيّ الصيرفي .

ورُوِيَ عنِ الحسنِ : أنَّ رجلاً قالَ لهُ : إنَّ فلاناً قدِ اغتابَكَ ، فبعثَ إليهِ رُطباً على طبقٍ وقالَ : قدْ بلغَني أنَّكَ أهديتَ إليَّ منْ حسناتِكَ ، فأردْتُ أنْ أكافِئَكَ عليها ، فاعذرْني ؛ فإنّي لا أقدِرُ أنْ أكافئَكَ على التمامِ [1]

* * *

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٨٥) .

الآفة السادسة عشرة النميمة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ، ثم قَالَ : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : الزنيمُ : ولدُ الزنا الذي لا يكتمُ الحديثَ . وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّ كلَّ مَنْ لمْ يكتمِ الحديثَ ومشىٰ بالنميمةِ . . دلَّ علىٰ أنَّهُ ولدُ زناً ؛ استنباطاً مِنْ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ، والزنيمُ : هوَ الدَّعيُّ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ ، قيلَ : الهُمزَةُ : النَّمامُ (١)

وقالَ تعالىٰ : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ ، قيلَ : إنَّها كانَتْ نمَّامةً ، حمَّالةً للحديثِ (٢)

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ، قيلَ : كانتِ امرأةُ لوطٍ تخبرُ بالضيفانِ ، وامرأةُ نوحٍ كانَتْ تخبرُ أنَّهُ مجنونٌ (٣)

وقد قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ نمَّامٌ » (٤)

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يدخلُ الجنةَ قتَّاتٌ » (٥) ، والقتَّاتُ : هوَ النمَّامُ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّكمْ إلى اللهِ أحاسنُكمْ أخلاقاً ، الموطؤونَ أكنافاً ، الذينَ يَألفونَ ويُؤلفونَ ، وإنَّ أبغضَكمْ إلى اللهِ المشاؤونَ بالنميمةِ ، المفرّقونَ بينَ الإخوانِ ، الملْتمسونَ للبرآءِ العثراتِ » (٦)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ألا أخبرُكمْ بشرارِكمْ ؟ » قالُوا : بلىٰ ، قالَ : « المشاؤونَ بالنميمةِ ، المفسدونَ بينَ الأحبَّةِ ، الباغونَ للبُرآءِ العنتَ » (٧)

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أشادَ علىٰ مسلمٍ كلمةً ليشينَهُ بها بغيرِ حقٍّ . . شانَهُ اللهُ بها في النارِ يومَ القيامةِ » (٨)

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما رجلٍ أشاعَ علىٰ رجلٍ كلمةً وهوَ منها بريءٌ ليشينَهُ بها في الدنيا . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يذيبَهُ بها يومَ القيامةِ في النارِ » (٩)

---

(١) روىٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) روىٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٥) عن مجاهد .
(٣) روىٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٤) رواه مسلم (١٠٥) .
(٥) رواه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥/١٦٩) .
(٦) رواه الطبراني في « الصغير » (٢/٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٤٦) .
(٧) رواه أحمد في « المسند » (٦/٤٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/١٦٧) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٥٨) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٥٩) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال الحافظ العراقي : (ورواه الطبراني بلفظ آخر من حديثه مرفوعاً) . « إتحاف » (٧/٥٦٣) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شهدَ علىٰ مسلمٍ شهادةً ليسَ لها بأهلٍ . . فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ »[1]

ويقالُ : إنَّ ثلثَ عذابِ القبرِ منَ النميمةِ[2]

وعنِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا خلَقَ الجنَّةَ . . قالَ لها : تكلَّمي ، فقالَتْ : سَعِدَ مَنْ دخلَني ، فقالَ الجبَّارُ جلَّ جلالُهُ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا يسكنُ فيكِ ثمانيةُ نفرٍ مِنَ الناسِ ، لا يسكنُ فيكِ مدمنُ خمرٍ ، ولا مصرٌّ على الزِّنا ، ولا قتَّاتٌ ـ وهوَ النَّمامُ ـ ولا ديوثٌ ، ولا شُرَطيٌّ ، ولا مخنثٌ ، ولا قاطعُ رحمٍ ، ولا الذي يقولُ : عليَّ عهدُ اللهِ إنْ لمْ أفعلْ كذا وكذا ثمَّ لمْ يفِ بهِ »[3]

وروىٰ كعبُ الأحبارِ : (أنَّ بني إسرائيلَ أصابَهمْ قحطٌ ، فاستسقىٰ موسىٰ عليهِ السَّلام مراتٍ فما سُقوا ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنِّي لا أستجيبُ لكَ ولمنْ معكَ وفيكمْ نمامٌ قدْ أصرَّ على النميمةِ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ منْ هوَ ؟ دلَّني عليهِ حتَّىٰ نخرجَهُ مِنْ بيننا ، قالَ : يا موسىٰ ؛ أنهاكُمْ عنِ النميمةِ وأكونُ نماماً ؟! فتابوا جميعاً ؛ فسُقُوا) .

ويُقالُ : اتبعَ رجلٌ حكيماً سبعَ مئةِ فرسخٍ في سبعِ كلماتٍ ، فلمَّا قدمَ عليهِ . . قالَ : إنِّي جئتُكَ للذي آتاكَ اللهُ تعالىٰ مِنَ العلمِ ، أخبرني عنِ السماءِ وما أثقلُ منها ، وعنِ الأرضِ وما أوسعُ منها ، وعنِ الحجرِ وما أقسىٰ منهُ ، وعنِ النارِ وما أحرُّ منها ، وعنِ الزمهريرِ وما أبردُ منهُ ، وعنِ البحرِ وما أغنىٰ منهُ ، وعنِ اليتيمِ وما أذلُّ منهُ ؟ فقالَ لهُ الحكيمُ : البهتانُ على البريءِ أثقلُ مِن السماواتِ ، والحقُّ أوسعُ مِنَ الأرضِ ، والقلبُ القانعُ أغنىٰ مِنَ البحرِ ، والحرصُ والحسدُ أحرُّ مِنَ النارِ ، والحاجةُ إلى القريبِ إذا لمْ تنجحْ أبردُ مِنَ الزمهريرِ ، وقلبُ الكافرِ أقسىٰ مِنَ الحجرِ ، والنَّمامُ إذا بانَ أمرُهُ أذلُّ مِنَ اليتيمِ[4]

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥٠٩/٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٠) عن قتادة يذكره .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هكذا بتمامه ، ولأحمد : « لا يدخل الجنة عاق لوالديه والديوث » ، وفيه من لم يسم ، وللنسائي من حديث ابن عمر : « لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » ، وفيه انقطاع واضطراب ، وللشيخين من حديث حذيفة : « لا يدخل الجنة قتات » ، ولهما من حديث جبير بن مطعم : « لا يدخل الجنة قاطع » ، وذكر صاحب « الفردوس » من حديث ابن عباس : « لما خلق الله الجنة فقال لها : تكلمي تزيني ، فتزينت ، فقالت : طوبىٰ لمن دخلني ورضي عنه إلهي ، فقال الله عز وجل : لا يسكنك مخنث ولا نائحة » ، ولم يخرجه ولده في « مسنده ») . « إتحاف » (٥٦٣/٧) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٧٠) .

بيان حدّ النميمة وما يجب في ردّها

اعلمْ : أنَّ اسمَ النميمةِ إنَّما يُطلقُ في الأكثرِ علىٰ مَنْ ينُمُّ قولَ الغيرِ إلى المقولِ فيهِ ؛ كما تقولُ : فلانٌ كانَ يتكلَّمُ فيكَ بكذا وكذا ، وليستِ النميمةُ مخصوصةً بهِ ، بلْ **حدُّها** : كشفُ ما يُكرَهُ كشفُهُ ، سواءٌ كرهَهُ المنقولُ عنهُ ، أوِ المنقولُ إليهِ ، أوْ كرهَهُ ثالثٌ ، وسواءٌ كانَ الكشفُ بالقولِ أوْ بالكِتبةِ أوْ بالرمزِ أوْ بالإيماءِ ، وسواءٌ كانَ المنقولُ مِنَ الأعمالِ أوْ مِنَ الأقوالِ ، وسواءٌ كانَ ذٰلكَ عيباً ونقصاً في المنقولِ عنهُ أوْ لمْ يكُنْ ، بلْ **حقيقةُ النميمةِ** : إفشاءُ السِّرِّ ، وهتكُ السترِ عمَّا يُكرهُ كشفُهُ ، بلْ كلُّ ما رآهُ الإنسانُ مِنْ أحوالِ الناسِ ممَّا يُكرَهُ . . فينبغي أنْ يسكتَ عنهُ ، إلَّا ما في حكايتِهِ فائدةٌ لمسلمٍ ، أوْ دفعٌ لمعصيةٍ ؛ كما إذا رأىٰ مَنْ يتناولُ مالَ غيرِهِ ، فعليهِ أنْ يشهدَ بهِ ؛ مراعاةً لحقِّ المشهودِ لهُ ، فأمَّا إذا رآهُ يخفي مالاً لنفسِهِ فذكرَهُ . . فهوَ نميمةٌ ، وإفشاءٌ للسِّرِّ .

فإنْ كانَ ما ينُمُّ بهِ نقصاً وعيباً في المحكيِّ عنهُ . . كانَ قدْ جمعَ بينَ الغيبةِ والنميمةِ .

والباعثُ على النميمةِ : إمَّا إرادةُ السوءِ بالمحكيِّ عنهُ ، أوْ إظهارُ الحبِّ للمحكيِّ لهُ ، أوِ التفرُّجُ بالحديثِ ، أوِ الخوضُ في الفضولِ والباطلِ .

وكلُّ مَنْ حُملَتْ إليهِ النميمةُ وقيلَ لهُ : إنَّ فلاناً قالَ فيكَ كذا وكذا ، أوْ فعلَ في حقِّكَ كذا وكذا ، أوْ هوَ يدبِّرُ في إفسادِ أمرِكَ ، أوْ في ممالأةِ عدوِّكَ ، أوْ تقبيحِ حالِكَ ، أوْ ما يجري مجراهُ . . **فعليهِ ستةُ أمورٍ** :

الأوَّلُ : ألَّا يصدِّقَهُ ؛ لأنَّ النمامَ فاسقٌ ، وهوَ مردودُ الشهادةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ .

الثاني : أنْ ينهاهُ عنْ ذٰلكَ وينصحَهُ ، ويقبِّحَ لهُ فعلَهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ .

الثالثُ : أنْ يبغضَهُ في اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ بغيضٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ويجبُ بغضُ مَنْ يبغضُهُ اللهُ تعالىٰ .

الرابعُ : ألَّا تظنَّ بأخيكَ الغائبِ السوءَ ؛ لقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ .

الخامسُ : ألَّا يحملَكَ ما حُكِيَ لكَ على التجسُّسِ والبحثِ لتتحقَّقَ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ .

السادسُ : ألَّا ترضىٰ لنفسِكَ ما نهيتَ النَّمامَ عنهُ ، فلا تحكي نميمتَهُ فتقولَ : فلانٌ قدْ حكىٰ لي كذا وكذا ، فتكونَ بهِ نمَّاماً ومغتاباً ، وتكونَ قدْ أتيتَ ما عنهُ نَهيتَ .

وقدْ رُويَ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ دخلَ عليهِ رجلٌ ، فذكرَ عندَهُ عنْ رجلٍ شيئاً ، فقالَ عمرُ : إنْ شئتَ . . نظرنا في أمرِكَ ؛ فإنْ كنتَ كاذباً . . فأنتَ مِنْ أهلِ هٰذهِ الآيةِ : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ، وإنْ كنتَ صادقاً . . فأنتَ مِنْ أهلِ هٰذهِ الآيةِ : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ ، وإنْ شئتَ . . عفونا عنكَ ، فقالَ : العفوَ يا أميرَ المؤمنينَ ، لا أعودُ إليهِ أبداً .

وذكرَ أنَّ حكيماً مِنَ الحكماءِ زارَهُ بعضُ إخوانِهِ ، فأخبرَهُ بخبرٍ عنْ بعضِ أصدقائِهِ ، فقالَ لهُ الحكيمُ : قدْ أبطأتَ في الزيارةِ وأتيتني بثلاثِ جناياتٍ : بغَّضْتَ أخي إليَّ ، وشغلتَ قلبي الفارغَ ، واتهمْتَ نفسَكَ الأمينةَ .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ كانَ جالساً وعندَهُ الزهريُّ ، فجاءَهُ رجلٌ ، فقالَ لهُ سليمانُ : بلغَني أنَّكَ وقعتَ فيَّ وقلتَ كذا وكذا ، فقالَ الرجلُ : ما فعلتُ ولا قلْتُ ، فقالَ سليمانُ : إنَّ الذي أخبرني صادقٌ ، فقالَ لهُ الزهريُّ : لا يكونُ النمامُ صادقاً ، فقالَ سليمانُ : صدقْتَ ، ثمَّ قالَ للرجلِ : اذهبْ بسلامٍ .

وقالَ الحسنُ : (منْ نمَّ إليكَ . . نمَّ عليكَ)[1]

وهٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ النَّمامَ ينبغي أنْ يُبغضَ ولا يُوثقَ بقولِهِ ولا بصداقتِهِ ، وكيفَ لا يُبغضُ وهوَ لا ينفكُّ عنِ الكذبِ والغيبةِ ، والغدرِ والخيانةِ ، والغلِّ والحسدِ والنفاقِ ، والإفسادِ بينَ الناسِ والخديعةِ ، وهوَ ممَّنْ يسعىٰ في قطعِ ما أمرَ اللهُ بهِ أنْ يوصلَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؟!

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، والنمَّامُ منهُمْ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ شرِّ الناسِ مَنِ اتقاهُ الناسُ لشرِّهِ »[2] ، والنمَّامُ منهُمْ .

وقالَ : « لا يدخلُ الجنةَ قاطعٌ »[3] ، قيلَ : قاطعٌ بينَ الناسِ ، وهوَ النمَّامُ ، وقيلَ : قاطعُ الرحمِ .

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رجلاً سعىٰ إليهِ برجلٍ ، فقالَ : يا هٰذا ؛ نحنُ نسألُ عمَّا قلْتَ ؛ فإنْ كنتَ صادقاً . . مقتناكَ ، وإنْ كنتَ كاذباً . . عاقبناكَ ، وإنْ شئتَ أنْ نقيلَكَ . . أقلْناكَ ، فقالَ : أقلْني يا أميرَ المؤمنينَ .

وقيلَ لمحمدِ بنِ كعبٍ القُرظيِّ : أيُّ خصالِ المؤمنِ أوضعُ لهُ ؟ فقالَ : كثرةُ الكلامِ ، وإفشاءُ السِّرِّ ، وقبولُ قولِ كلِّ أحدٍ[4]

وقالَ رجلٌ لعبدِ اللهِ بنِ عامرٍ وكانَ أميراً : بلغَني أنَّ فلاناً أعلمَ الأميرَ أنِّي ذكرتُهُ بسوءٍ ، قالَ : قدْ كانَ ذٰلكَ ، قالَ : فأخبرْني بما قالَ لكَ حتَّىٰ أظهرَ كذبَهُ عندكَ ، قالَ : ما أحبُّ أنْ أشتمَ نفسي بلساني ، وحسبي أنِّي لمْ أصدِّقْهُ فيما قالَ ، ولا أقطعُ عنكَ الوصالَ .

وذُكرتِ السعايةُ عندَ بعضِ الصالحينَ ، فقالَ : ما ظنُّكُمْ بقومٍ يُحمدُ الصدقُ مِنْ كلِّ طبقةٍ مِنَ الناسِ إلا منهُمْ ؟!

وقالَ مصعبُ بنُ الزبيرِ : (نحنُ نرىٰ أنَّ قبولَ السِّعايةِ شرٌّ مِنَ السعايةِ ؛ لأنَّ السعايةَ دلالةٌ ، والقبولُ إجازةٌ ، وليسَ مَنْ دلَّ علىٰ شيءٍ فأخبرَ بهِ كمَنْ قبلَهُ وأجازَهُ ، فاتقوا السَّاعيَ ، فلوْ كانَ صادقاً في قولِهِ . . لكانَ لئيماً في صدقِهِ ؛ حيثُ لمْ يحفظِ الحرمةَ ، ولمْ يسترِ العورةَ)[5]

والسعايةُ هيَ النميمةُ ، إلَّا أنَّها إذا كانَتْ إلىٰ مَنْ يُخافُ جانبُهُ . . سُميَّتْ سعايةً ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السَّاعي بالناسِ إلى الناسِ لغيرِ رِشْدَةٍ »[6] ؛ يعني : ليسَ بولدِ حلالٍ .

ودخلَ رجلٌ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فاستأذنَهُ في الكلامِ ، وقالَ : إنِّي مكلِّمُكَ يا أميرَ المؤمنينَ بكلامٍ

---

(١) تقدم عن الخليل بن أحمد .
(٢) رواه البخاري (٦٠٣٢) ، ومسلم (٢٥٩١) .
(٣) رواه البخاري (٥٩٨٤) ، ومسلم (٢٥٥٦) .
(٤) رواه الخطابي في « العزلة » (ص ٧١) .
(٥) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١٢٢/٩) عن الإمام الشافعي .
(٦) رواه الحاكم في « المستدرك » (١٠٣/٤) ولم يصححه .

فاحتملْهُ وإنْ كرهتَهُ ، فإنَّ وراءَهُ ما تحبُّ إنْ قبلْتَهُ ، فقالَ : قلْ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّهُ قدِ اكتنفَكَ رجالٌ ابتاعوا دنياكَ بدينِهِمْ ، ورضاكَ بسخَطِ ربِّهِمْ ، خافوكَ في اللهِ ولمْ يخافوا اللهَ فيكَ ، فلا تأمنْهُمْ على ما ائتمنَكَ اللهُ عليهِ ، ولا تصخْ إليهِمْ فيما استحفظَكَ اللهُ إيَّاهُ ، فإنَّهمْ لنْ يألوا في الأمةِ خسفاً ، وفي الأمانةِ تضييعاً ، والأعراضِ قطعاً وانتهاكاً ، أعلىٰ قُرَبِهِمُ البغيُ والنميمةُ ، وأجلُّ وسائلِهِمُ الغيبةُ والوقيعةُ ، وأنتَ مسؤولٌ عمَّا اجترحُوا ، وليسوا بمسؤولينَ عمَّا اجترحتَ ، فلا تصلحْ دنياهمْ بفسادِ آخرتِكَ ، فإنَّ أعظمَ الناسِ غَبناً مَنْ باعَ آخرتَهُ بدنيا غيرِهِ (١)

وسعىٰ رجلٌ بزيادٍ الأعجمِ إلىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فجمعَ بينَهُما للموافقةِ ، فأقبلَ زيادٌ على الرجلِ وقالَ (٢) : [من الطويل]

فَأَنْتَ امْرُؤٌ إِمَّا ائْتَمَنْتُكَ خَالِياً ... فَخُنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلاً بِلا عِلْمِ

فَأَنْتَ مِنَ الأَمْرِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ... بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْخِيَانَةِ وَالإِثْمِ

وقالَ رجلٌ لعمرِو بنِ عبيدٍ : إنَّ الأُسواريَّ ما يزالُ يذكرُكَ في قَصصِهِ بشرٍّ ، فقالَ لهُ عمرٌو : يا هاذا ؛ ما رعيتَ حقَّ مجالسةِ الرجلِ حيثُ نقلْتَ إلينا حديثَهُ ، ولا أدَّيتَ حقِّي حينَ أبلغتَني عنْ أخي ما أكرَهُ ، ولكنْ أبلغْهُ أنَّ الموتَ يعمُّنا ، والقبرَ يضمُّنا ، والقيامةَ تجمعُنا ، واللهُ تعالىٰ يحكمُ بينَنا وهوَ خيرُ الحاكمينَ (٣)

ورفعَ بعضُ السعاةِ إلى الصاحبِ بنِ عبادٍ رقعةً نبَّهَ فيها علىٰ مالِ يتيمٍ يحملُهُ علىٰ أخذِهِ لكثرتِهِ ، فوقَّعَ علىٰ ظهرِها : السعايةُ قبيحةٌ وإنْ كانَتْ صحيحةً ، فإنْ كنتَ أجريتَها مُجرى النصحِ . . فخسرانُكَ فيها أفضلُ مِنَ الربحِ ، ومعاذَ اللهِ أنْ نقبلَ مهتوكاً في مستورٍ ، ولولا أنَّكَ في خفارةِ شيبتِكَ . . لقابلناكَ بما يقتضيهِ فعلُكَ في مثلِكَ ، فتوقَّ يا ملعونُ العيبَ ؛ فإنَّ اللهَ أعلمُ بالغيبِ ، الميتُ رحمهُ اللهُ ، واليتيمُ جبَرَهُ اللهُ ، والمالُ ثمَّرَهُ اللهُ ، والسَّاعي لعنَهُ اللهُ .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنِّي موصيكَ بخلالٍ ، إنْ تمسَّكتَ بهنَّ . . لمْ تزلْ سيِّداً : ابسطْ خلُقَكَ للقريبِ والبعيدِ ، وأمسكْ جهلَكَ عنِ الكريمِ واللئيمِ ، واحفظْ إخوانَكَ ، وصلْ أقاربَكَ ، وآمنهُمْ مِنْ قبولِ قولِ ساعٍ ، أوْ سماعِ باغٍ يريدُ فسادَكَ ويرومُ خداعَكَ ، وليكنْ إخوانُكَ مَنْ إذا فارقتَهمْ وفارقوكَ . . لمْ تعبْهُمْ ولمْ يعيبوكَ) (٤)

وقالَ بعضُهمْ : (النميمةُ مبنيَّةٌ على الكذبِ والحسدِ والنفاقِ ، وهيَ أثافي الذُّلِّ) .

وقالَ بعضُهمْ : (لوْ صحَّ ما نقلَهُ النَّمامُ إليكَ . . لكانَ هوَ المجترئَ بالشتمِ عليكَ ، والمنقولُ عنهُ أولىٰ بحلمِكَ ؛ لأنَّهُ لمْ يقابلْكَ بشتمِكَ) .

وعلى الجملةِ : فشرُّ النمامِ عظيمٌ ينبغي أنْ يُتوقَّىٰ .

قالَ حمادُ بنُ سلمةَ : باعَ رجلٌ عبداً وقالَ للمشتري : ما فيهِ عيبٌ إلَّا النميمةُ ، قالَ : قدْ رضيتُ ، فاشتراهُ فمكثَ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٠٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧٤/٦٨) .

(٢) الخبر ورد بسياقات مختلفة في المصادر . انظر « عيون الأخبار » (٤١/١) ، و« روضة العقلاء » (ص ١٧٧) ، و« الأمالي » (٤٦/٢) ، و« الجليس الصالح » (٣٠٢/١) ، و« بهجة المجالس » (٥٧٧/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٦١/٢) ، و« التذكرة الحمدونية » (١٥٧/٣) .

(٣) رواه أبو هلال العسكري في « جمهرة الأمثال » (٢٦٩/٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٠) عن محمد بن أبي الفضل .

الغلامُ أياماً ، ثمَّ قالَ لزوجةِ مولاهُ : إنَّ زوجَكِ لا يحبُّكِ ، وهوَ يريدُ أنْ يتسرَّىٰ عليكِ ، فخذي الموسىٰ واحلقي مِنْ شعرِ قفاهُ عندَ نومِهِ شعراتٍ حتَّىٰ أسحرَهُ عليها ، فيحبَّكِ ، ثم قالَ للزوجِ : إنَّ امرأتَكَ اتخذَتْ خليلاً ، وتريدُ أنْ تقتلَكَ ، فتناوَمْ لها حتَّىٰ تعرفَ ذٰلكَ ، قالَ : فتناومَ لها ، فجاءَتِ المرأةُ بالموسىٰ ، فظنَّ أنَّها تريدُ قتلَهُ ، فقامَ إليها فقتلَها ، فجاءَ أهلُ المرأةِ فقتلُوا الزوجَ ، فوقعَ القتالُ بينَ القبيلتينِ ، وطالَ الأمرُ[1] ، فنسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧٠) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٧٩) .

الآفة السابعة عشرة : كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد بكلام يوافقه

وقلَّما يخلو عنهُ مَنْ يشاهدُ متعاديينِ ، وذٰلكَ عينُ النفاقِ .

قالَ عمارُ بنُ ياسرٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ وجهانِ في الدنيا . . كانَ لهُ لسانانِ مِنْ نارٍ يومَ القيامةِ »[1]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تجدونَ مِنْ شرِّ عبادِ اللهِ يومَ القيامةِ ذا الوجهينِ ، الذي يأتي هٰؤلاءِ بحديثِ هٰؤلاءِ ، وهٰؤلاءِ بحديثِ هٰؤلاءِ » .

وفي لفظٍ آخرَ : « الذي يأتي هٰؤلاءِ بوجهٍ وهٰؤلاءِ بوجهٍ »[2]

وقالَ أبو هريرةَ : (لا ينبغي لذي الوجهينِ أنْ يكونَ أميناً عندَ اللهِ)[3]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (قرأتُ في التوراةِ : بطلَتِ الأمانةُ والرجلُ معَ صاحبِهِ بشفتينِ مختلفتينِ ، يهلكُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ كلَّ شفتينِ مختلفتينِ)[4]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ خليقةِ اللهِ إلى اللهِ يومَ القيامةِ الكذَّابونَ والمستكبرونَ ، والذينَ يكثرونَ البغضاءَ لإخوانِهِمْ في صدورِهِمْ ، فإذا لقوهُمْ . . تملَّقوا لهمْ ، والذينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ . . كانُوا بطآءَ ، وإذا دُعوا إلى الشيطانِ وأمرِهِ . . كانوا سِراعاً »[5]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : لا يكونَنَّ أحدُكمْ إمَّعةً ، قالُوا : وما الإمَّعةُ ؟ قالَ : يجري معَ كلِّ ريحٍ[6]

واتَّفقُوا علىٰ أنَّ ملاقاةَ الاثنينِ بوجهينِ نفاقٌ ، وللنِّفاقِ علاماتٌ كثيرةٌ ، وهٰذهِ مِنْ جملتِها .

وقدْ رُوِيَ أنَّ رجلاً مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ماتَ ، فلمْ يصلِّ عليهِ حذيفةُ ، فقالَ عمرُ : أيموتُ رجلٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا تصلي عليهِ ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّهُ منهمْ ، قالَ : فنشدْتُكَ اللهَ ؛ أنا منهُمْ أمْ لا ؟ قالَ : اللهمَّ لا ، ولا أؤمِّنُ منها أحداً بعدَكَ[7]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلْتَ : بماذا يصيرُ الرجلُ ذا لسانينِ ، وما حدُّ ذٰلكَ ؟

فأقولُ : إذا دخلَ علىٰ متعاديينِ ، وجاملَ كلَّ واحدٍ منهما ، وكانَ صادقاً فيهِ . . لمْ يكنْ منافقاً ولا ذا لسانينِ ، فإنَّ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٧٣) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٩٢) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٩٤ ، ٦٠٥٨) ، ومسلم (٢٥٢٦) بنحوه ، وبلفظ المصنف رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧٧ ، ٢٧٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/٢٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٨٣) من حديثه مرفوعاً .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٩١) .

(٥) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٩٩) .

(٦) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٠١) .

(٧) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣١١) ، وتقدم سؤال الفاروق هٰذا .

الواحدَ قدْ يصادقُ متعاديينِ ، ولٰكنْ صداقةً ضعيفةً لا تنتهي إلىٰ حدِّ الأخوَّةِ ؛ إذْ لوْ تحقَّقَتِ الصداقةُ . . لاقتضَتْ معاداةَ الأعداءِ ، كما ذكرْناهُ في كتابِ آدابِ الصحبةِ والأخوةِ .

نعمْ ؛ لوْ نقلَ كلامَ كلِّ واحدٍ منهما إلى الآخرِ . . فهوَ ذو لسانينِ ، وذٰلكَ شرٌّ مِنَ النميمةِ ؛ إذْ يصيرُ نمَّاماً بأنْ ينقلَ مِنْ أحدِ الجانبينِ فقطْ ، فإذا نقلَ مِنَ الجانبينِ . . فهوَ شرٌّ مِنَ النمامِ .

وإنْ لمْ ينقلْ كلاماً ، ولٰكنْ حسَّنَ لكلِ واحدٍ منهما ما هوَ عليهِ مِنَ المعاداةِ معَ صاحبِهِ . . فهٰذا ذو لسانينِ .

وكذٰلكَ إذا وعدَ كلَّ واحدٍ منهما بأنْ ينصرَهُ ، وكذٰلكَ إذا أثنىٰ علىٰ كلِّ واحدٍ منهما في معاداتِهِ ، وكذٰلكَ إذا أثنىٰ علىٰ أحدِهما ، وكانَ إذا خرجَ مِنْ عندِهِ يذمُّهُ . . فهوَ ذو لسانينِ .

بلْ ينبغي أن يسكتَ ، أوْ يثنيَ على المحقِّ مِنَ المتعاديينِ ، ويثني عليهِ في حضورِهِ وفي غيبتِهِ وبينَ يدي عدوِّهِ .

قيلَ لابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : إنَّا ندخلُ علىٰ أمرائِنا فنقولُ القولَ ، فإذا خرجْنا . . قلْنا غيرَهُ ، فقالَ : كنَّا نعدُّ ذٰلكَ نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (١)

وهٰذا نفاقٌ مهما كانَ مستغنياً عنِ الدخولِ على الأميرِ ، وعنِ الثناءِ عليهِ ، فلوِ استغنىٰ عنِ الدخولِ ولٰكنْ إذا دخلَ يخافُ إنْ لمْ يثنِ . . فهوَ نفاقٌ ؛ لأنَّهُ الذي أحوجَ نفسَهُ إلىٰ ذٰلكَ ، وإنْ كانَ مستغنياً عنِ الدخولِ لوْ قنعَ بالقليلِ وتركَ المالَ والجاهَ ، فدخلَ لضرورةِ الجاهِ والغنىٰ وأثنىٰ . . فهوَ منافقٌ .

وهٰذا معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والجاهِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ » ؛ لأنَّهُ يحوجُ إلى الأمراءِ وإلىٰ مراعاتِهِمْ ومراءاتِهِمْ .

فأمَّا إذا ابتليَ بهِ لضرورةٍ ، وخافَ إنْ لم يُثنِ . . فهوَ معذورٌ ؛ فإنَّ اتقاءَ الشرِّ جائزٌ ، قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّا لنكشِرُ في وجوهِ أقوامٍ وإنَّ قلوبَنا لتبغضُهمْ) (٢)

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : استأذنَ رجلٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ائذنُوا لهُ فبئسَ رجلُ العشيرةِ » ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . ألانَ لهُ القولَ ، فلمَّا خرجَ . . قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ قلتَ فيهِ ما قلتَ ، ثمَّ ألنتَ لهُ القولَ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّ شرَّ الناسِ الذي يُكرمُ اتقاءَ فحشِهِ » (٣)

ولٰكنَّ هٰذا وردَ في الإقبالِ وفي الكشرِ والتبسُّمِ ، فأمَّا الثناءُ . . فهوَ كذبٌ صريحٌ ، ولا يجوزُ إلا لضرورةٍ ، أوْ إكراهٍ يُباحُ الكذبُ بمثلِهِ ، كما ذكرناهُ في آفةِ الكذبِ ، بلْ لا يجوزُ الثناءُ ، ولا التصديقُ ، ولا تحريكُ الرأسِ في معرضِ التقريرِ علىٰ كلِّ كلامٍ باطلٍ ، فإنْ فعَلَ ذٰلكَ . . فهوَ منافقٌ ، بلْ ينبغي أنْ ينكرَ ، فإنْ لمْ يقدِرْ . . فيسكُتُ بلسانِهِ وينكرُ بقلبِهِ .

* * *

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٠٢) .

(٢) رواه البخاري تعليقاً قبل الحديث (٦١٣١) ، ووصله البيهقي في « الشعب » (٧٧٤٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٢/١) ، وفي (ل) : (قلوبنا تلعنهم) .

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٤) ، ومسلم (٢٥٩١) بنحوه .

الآفة الثامنة عشرة : المدح

وهوَ منهيٌّ عنهُ في بعضِ المواضعِ ، أمّا الذمُّ . . فهوَ الغيبةُ والوقيعةُ ، وقدْ ذكرنا حكمَها .

والمدحُ يدخلُهُ ستُّ آفاتٍ ، أربعٌ في المادحِ ، واثنتانِ في الممدوحِ .



فأمَّا المادحُ :

فالأولىٰ : أنَّهُ قدْ يُفرِطُ ، فينتهي بهِ الإفراطُ إلى الكذبِ .

قالَ خالدُ بن معدانَ : (مَنْ مدحَ إماماً أوْ أحداً بما ليسَ فيهِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ . . بعثَهُ اللهُ يومَ القيامةِ يتعثَّرُ بلسانِهِ)[1]

الثانيةُ : أنَّهُ قدْ يدخلُهُ الرياءُ ، فإنَّهُ بالمدحِ مظهرٌ للحبِّ ، وقدْ لا يكونُ مضمراً لهُ ، ولا معتقداً لجميعِ ما يقولُهُ ؛ فيصيرُ بهِ مرائياً منافقاً .

الثالثةُ : أنَّهُ قدْ يقولُ ما لا يتحقَّقُهُ ولا سبيلَ لهُ إلى الاطلاعِ عليهِ ، رُوِي أنَّ رجلاً مدحَ رجلاً عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « ويحَكَ !! قطعتَ عُنقَ صاحبِكَ ، لو سمعَها . . ما أفلحَ » ، ثمَّ قالَ : « إنْ كانَ أحدُكمْ لا بدَّ مادحاً أخاهُ . . فليقلْ : أحسبُ فلاناً ولا أزكِّي على اللهِ أحداً ، حسيبُهُ اللهُ ، إن كانَ يرىٰ أنَّهُ كذٰلكَ »[2]

وهٰذهِ الآفةُ تتطرَّقُ إلى المدحِ بالأوصافِ المطلقةِ التي تُعرفُ بالأدلَّةِ ؛ كقولِهِ : إنَّهُ متَّقٍ ، وورعٌ ، وزاهدٌ ، وخيِّرٌ ، وما يجري مَجراهُ .

فأمَّا إذا قالَ : رأيتُهُ يصلِّي بالليلِ ، ويتصدَّقُ ، ويحجُّ . . فهٰذهِ أمورٌ مستيقنةٌ .

ومِنْ ذٰلكَ قولُهُ : إنَّهُ عدلٌ رضاً ؛ فإنَّ ذٰلكَ خفيٌّ ، فلا ينبغي أنْ يجزمَ القولَ بهِ إلَّا بعدَ خبرةٍ باطنةٍ ، سمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً يُثني علىٰ رجلٍ ، فقالَ : أسافرتَ معهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أخالطْتَهُ في المبايعةِ والمعاملةِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فأنتَ جارُهُ صباحَهُ ومساءَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : واللهِ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ ؛ لا أراكَ تعرفُهُ[3]

الرابعةُ : أنَّهُ قدْ يفرحُ الممدوحَ وهوَ ظالمٌ أوْ فاسقٌ ، وذٰلكَ غيرُ جائزٍ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يغضبُ إذا مُدحَ الفاسقُ »[4]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٦١) ، ومسلم (٣٠٠٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٩٧) واللفظ له ، وفي (ك) وحدها زيادة : (لو سمعها . . ما أفلح) ، وقد رواها أحمد في المسند (٥/٥١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٤٣) .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ دعا لظالمٍ بالبقاءِ . . فقدْ أحبَّ أنْ يُعصى اللهُ تعالىٰ في أرضِهِ)[1]

والظالمُ الفاسقُ ينبغي أنْ يُذمَّ ليغتمَّ ، ولا يمدحَ ليفرحَ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الممدوحُ . . فيضرُّهُ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ يحدِثُ فيهِ كبراً وإعجاباً ، وهما مهلكانِ ، قالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ قاعداً ومعهُ الدِّرَّةُ والناسُ حولَهُ ؛ إذْ أقبلَ الجارودُ بنُ المنذرِ ، فقالَ رجلٌ : هـٰذا سيدُ ربيعةَ ، فسمعَها عمرُ ومَنْ حولَهُ ، وسمعَها الجارودُ ، فلمَّا دنا منهُ . . خفقَهُ بالدِّرَّةِ ، فقالَ : ما لي ولكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ : ما لي ولكَ !! أمَا لقدْ سمعتَها ؟ قالَ : سمعتُها فمَهْ ؟ قالَ : خشيتُ أنْ يخالطَ قلبكَ منها شيءٌ ، فأحببْتُ أنْ أطأطئَ منكَ[2]

الثاني : هوَ أنَّهُ إذا أثنىٰ عليهِ بالخيرِ . . فرحَ بهِ وفترَ ، ورضيَ عنْ نفسِهِ ، ومَنْ أُعجبَ بنفسِهِ . . قلَّ تشمرُهُ ، وإنَّما يتشمَّرُ للعملِ مَنْ يرىٰ نفسَهُ مقصِّراً ، فأمَّا إذا انطلقَتِ الألسنةُ بالثناءِ عليهِ . . ظنَّ أنَّهُ قدْ أدركَ ، ولهـٰذا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قطعْتَ عُنقَ صاحبِكَ ، لوْ سمعَها . . ما أفلحَ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مَدحْتَ أخاكَ في وجهِهِ . . فكأنَّما أمرَرْتَ علىٰ حلْقِهِ موسىً رميضاً »[4]

وقالَ أيضاً لمَنْ مدحَ رجلاً : « عقرْتَ الرجلَ عقرَكَ اللهُ »[5]

وقالَ مطرِّفٌ : (ما سمعتُ قطُّ ثناءً أوْ مدحةً إلَّا تصاغرَتْ إليَّ نفسي) ، وقالَ يزيدُ بنُ أبي مسلمٍ : (ليسَ أحدٌ يسمعُ ثناءً عليهِ أوْ مدحةً إلا تراءىٰ لهُ الشيطانُ ، ولـٰكنَّ المؤمنَ يراجعُ)[6] ، فقالَ ابنُ المباركِ : لقد صدقَ كلاهما ؛ أمَّا ما ذكرَهُ يزيدُ . . فذلكَ قلبُ العوامِّ ، وأمَّا ما ذكرَهُ مطرِّفٌ . . فذلكَ قلبُ الخواصِّ[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ مشىٰ رجلٌ إلىٰ رجلٍ بسكينٍ مرهفٍ . . كان خيراً لهُ مِنْ أنْ يثنيَ عليهِ في وجهِهِ »[8] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (المدحُ هوَ الذبحُ)[9] ، وذلكَ لأنَّ المذبوحَ هوَ الذي يفترُ عنِ العملِ ، والمدحُ يوجبُ الفتورَ ، ولأنَّ المدحَ يورثُ الكبرَ والعجبَ ، وهما مهلكانِ كالذبحِ ، فلذلكَ شبَّهَهُ بهِ .

فإنْ سلمَ المدحُ عنْ هـٰذِهِ الآفاتِ في حقّ المادحِ والممدوحِ . . لمْ يكنْ بهِ بأسٌ ، بلْ ربَّما كان مندوباً إليهِ ، ولذلكَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٩٨٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٥) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/٥١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، ورواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) دون زيادة : « لو سمعها . . ما أفلح » .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٢) من زيادات نعيم بن حماد ، **والرميض** : الحادُّ .

(٥) هو موقوف من قول الفاروق عمر رضي الله عنه كما رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٣٥) .

(٦) رواهما ابن المبارك في « الزهد » (٢١٣) من زيادات نعيم بن حماد .

(٧) حكاه عنه المحاسبي في « آداب النفوس » (ص ٧٣) ، وله كلام مفصل في المدح في « الوصايا » (ص ١٧٣) .

(٨) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، وقد تبع المصنف في إيراده مرفوعاً الحارث المحاسبي في « آداب النفوس » (ص ١٠٠) .

(٩) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٧٨٨) .

أثنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الصحابةِ ، فقالَ : « لو وُزِنَ إيمانُ أبي بكرٍ بإيمانِ العالمينِ . . لرجحَ »[١] ، وقالَ لعمرَ : « لوْ لمْ أُبعثْ . . لبُعثْتَ يا عمرُ »[٢] ، وأيُّ ثناءٍ يزيدُ علىٰ هـٰذا ؟ ولـٰكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ عنْ صدقٍ وبصيرةٍ ، وكانُوا رضيَ اللهُ عنهُم أجلَّ رتبةً مِنْ أنْ يورثَهُمْ ذٰلكَ كبراً أوْ عجباً أوْ فتوراً .

بلْ مدحُ الرجلِ نفسَهُ قبيحٌ ؛ لما فيهِ مِنَ الكبرِ والتفاخرِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ »[٣] أيْ : لستُ أقولُ هـٰذا تفاخراً كما يقصدُهُ الناسُ بالثناءِ علىٰ أنفسِهِمْ ، وذٰلكَ لأنَّ افتخارَهُ كانَ باللهِ ، وبقربِهِ مِنَ اللهِ ، لا بكونِهِ مقدَّماً علىٰ ولدِ آدمَ ، كما أنَّ المقبولَ عندَ الملكِ قبولاً عظيماً إنَّما يفتخرُ بقبولِهِ إيَّاهُ ، وبهِ يفرحُ ، لا بتقدُّمِهِ علىٰ بعضِ رعاياهُ .

وبتفصيلِ هـٰذِهِ الآفاتِ تقدرُ على الجمعِ بينَ ذمِّ المدحِ وبين الحثِّ عليهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجبَتْ » لمَّا أثنَوا علىٰ بعضِ الموتىٰ[٤] .

وقالَ مجاهدٌ : (إنَّ لبني آدمَ جلساءَ مِنَ الملائكةِ ، فإذا ذكرَ الرجلُ أخاهُ المسلمَ بخيرٍ . . قالَتِ الملائكةُ : ولكَ مثلُهُ ، وإذا ذكرَهُ بسوءٍ . . قالَتِ الملائكةُ : يا بنَ آدمَ المستورَ عورتُهُ ؛ اربَعْ علىٰ نفسِكَ ، واحمدِ اللهَ الذي سترَ عورتَكَ)[٥] .

فهـٰذِهِ آفاتُ المدحِ .

* * *

---

(١) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٢٠١/٤) ، والبيهقي موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه في « الشعب » (٣٥) .

(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٦٧٦) ، وابن عدي في « الكامل » (١٥٥/٣) بلفظ : « لو لم أبعث فيكم نبياً . . لبعث عمر بن الخطاب » ، ورواه الترمذي (٣٦٨٦) بلفظ : « لو كان بعدي نبي . . لكان عمر بن الخطاب » .

(٣) رواه ابن ماجه (٤٣٠٨) ، وعند مسلم (٢٢٧٨) : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٤) رواه البخاري (١٣٦٧) ، ومسلم (٩٤٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١٥) ، واربع **علىٰ نفسك** : ارفق بها .

بيان ما على الممدوح

اعلمْ : أنَّ على الممدوحِ أنْ يكونَ شديدَ الاحترازِ عنْ آفةِ الكبرِ والعُجبِ ، وآفةِ الفتورِ ، ولا ينجو منهُ إلَّا بأنْ يعرفَ نفسَهُ ، ويتأمَّلَ في خطرِ الخاتمةِ ، ودقائقِ الرياءِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، فإنَّهُ يعرفُ مِنْ نفسِهِ ما لا يعرفُهُ المادحُ ، ولوِ انكشفَ لهُ جميعُ أسرارِهِ وما يجري على خواطرِهِ . . لكفَّ المادحُ عنْ مدحِهِ .

وعليهِ أنْ يُظهرَ كراهةَ المدحِ بإذلالِ المادحِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « احثُوا في وجوهِ المدَّاحينَ الترابَ »[١]

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : (لا يضرُّ المدحُ مَنْ عرفَ نفسَهُ)[٢]

وأُثنيَ على رجلٍ مِنَ الصالحينَ ، فقالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هؤلاءِ لا يعرفوني ، وأنتَ تعرفُني)[٣]

وقالَ آخرُ لمَّا أُثنيَ عليهِ : (اللَّهمَّ ؛ إنَّ عبدَكَ هذا تقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ ، وأنا أشهدُكَ على مقتِهِ)[٤]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا أُثنيَ عليهِ : (اللَّهمَّ ؛ اغفرْ لي ما لا يعلمونَ ، ولا تؤاخذْني بما يقولونَ ، واجعلْني خيراً ممَّا يظنُّونَ)[٥]

وأثنى رجلٌ على عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : (أتهلكُني وتهلكُ نفسكَ ؟!)[٦]

وأثنى رجلٌ على عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ في وجهِهِ ، وكانَ بلغَهُ أنَّهُ يقعُ فيهِ ، فقالَ عليٌّ : (أنا دونَ ما قلتَ ، وفوقَ ما في نفسِكَ)[٧]

* * *

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٢) .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣٢/٣٠) عن الأصمعي يحكيه عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١٠) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١١) .

الآفة التاسعة عشرة : في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام

لا سيَّما فيما يتعلَّقُ باللهِ وصفاتِهِ ، ويرتبطُ بأمورِ الدينِ ، فلا يقدرُ علىٰ تقويمِ اللفظِ في أمورِ الدينِ إلَّا العلماءُ الفصحاءُ .

فمَنْ قصَّرَ في علمٍ أوْ فصاحةٍ . . لمْ يخلُ كلامُهُ عنِ الزَّللِ ، لـٰكنَّ اللهَ تعالىٰ يعفو عنهُ لجهلِهِ .

مثالُهُ : ما قالَ حذيفةُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقلْ أحدُكُمْ : ما شاءَ اللهُ وشئْتَ ، ولـٰكنْ ليقُلْ : ما شاءَ اللهُ ثمَّ شئْتَ »(١)

وذٰلكَ لأنَّ في العطفِ المطلقِ تشريكاً وتسويةً ، وهوَ علىٰ خلافِ الاحترامِ .

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكلَّمَهُ في بعضِ الأمورِ ، فقالَ : ما شاءَ اللهُ وشئتَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أجعلتَني للهِ عديلاً ؟! بلْ ما شاءَ اللهُ وحدَهُ »(٢)

وخطبَ رجلٌ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : مَنْ يطعِ اللهَ ورسولَهُ . . فقدْ رَشَدَ ، ومَنْ يعصِهِمَا . . فقدْ غوىٰ ، فقالَ : « قُلْ : ومَنْ يعصِ اللهَ ورسولَهُ . . فقدْ غَوىٰ »(٣) ، فكرِهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ : « ومَنْ يعصِهما » ؛ لأنَّهُ تسويةٌ وجمعٌ(٤)

وكانَ إبراهيمُ يكرَهُ أنْ يقولَ الرجلُ : أعوذُ باللهِ وبكَ ، ويجوِّزُ أنْ يقولَ : أعوذُ باللهِ ثمَّ بكَ ، وأنْ يقولَ : لولا اللهُ ثمَّ فلانٌ ، ولا يقولُ : لولا اللهُ وفلانٌ(٥)

وكرِهَ بعضُهمْ أنْ يُقالَ : اللَّهمَّ ؛ أعتقْنا مِنَ النارِ ، ويقولُ : العتقُ يكونُ بعدَ الورودِ ، وكانوا يستجيرونَ مِنَ النارِ ، ويتعوَّذونَ مِنَ النارِ(٦)

وقالَ رجلٌ : اللَّهمَّ ؛ اجعلْني ممَّنْ تصيبُهُ شفاعةُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ حذيفةُ : (إنَّ اللهَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٤) ، ورواه أبو داوود (٤٩٨٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٧٥٥) بلفظ : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » ، وبلفظ المصنف رواه ابن ماجه (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وروى النسائي (٦/٧) من حديث قتيلة رضي الله عنها : أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تندِّدون ، وإنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئتَ ، وتقولون : والكعبةِ ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، ويقولون : ما شاء الله ثم شئتَ .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٧٥٩) .

(٣) رواه مسلم (٨٧٠) .

(٤) أي : ذكرهما في حيز واحد ، هـٰذا هو المشهور ، واختلف في ذٰلك ؛ فقيل : كان ذٰلك في أول الإسلام ، ثم لما شاع وانتشر وكمل نور الإيمان . . أبيح ذٰلك كما ذكره شرَّاح « الشفاء » ، وقال بعضهم : ولعل الأوجه أن يقال : العدول عن الاسمين الكريمين غير لائق وإن كان المقام يقتضي الضمير اختصاراً ، ولهـٰذا ورد في كثير من القرآن : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، ولله در القائل :

أعِـدْ ذكـرَ نَـعـمـانَ لـنـا إنَّ ذكـرَهُ ... هـوَ الـمـسـكُ مـا كـرَّرْتَـهُ يـتـضـوَّعُ

« إتحاف » (٥٧٥/٧) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٧) ، وإبراهيم هو النخعي .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٨) .

يُغني المؤمنينَ عنْ شفاعةِ محمدٍ ، وتكونُ شفاعتُهُ للمذنبينَ مِنَ المسلمينَ)[1]

وقالَ إبراهيمُ : (إذا قالَ الرجلُ للرجلِ : يا حمارُ ، يا خنزيرُ . . قيلَ لهُ يومَ القيامةِ : حماراً رأيتَني خلقتُهُ ؟ خنزيراً رأيتَني خلقتُهُ ؟)[2]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّ أحدَكُمْ ليشركُ حتَّىٰ يشركَ بكلبِهِ ، يقولُ : لولاهُ . . لسُرِقْنا الليلةَ)[3]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ ينهاكُمْ أنْ تحلفُوا بآبائِكُم ، مَنْ كانَ حالفاً . . فلْيحلِفْ باللهِ أوْ لِيَصْمُتْ » ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما حلفْتُ بها منذُ سمعتُها[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسمُّوا العنبَ الكرمَ ، إنَّما الكرمُ الرجلُ المسلمُ »[5]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقولنَّ أحدُكُمْ : عبدي وأمتي ، كلُّكمْ عبيدُ اللهِ ، وكلُّ نسائِكُمْ إماءُ اللهِ ، ولـٰكنْ ليقُلْ : غلامي وجاريتي ، وفتايَ وفتاتي ، ولا يقُلِ المملوكُ : ربِّي ، ولا ربَّتي ، ولـٰكنْ ليقلْ : سيدي وسيدتي ، فكلُّكمْ عبيدُ اللهِ ، والربُّ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ »[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقولُوا للمنافقِ : سيدُنا ؛ فإنَّهُ إنْ يكنْ سيدَكُمْ . . فقدْ أسخطْتُمْ ربَّكمْ »[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : أنا بريءٌ مِنَ الإسلامِ ؛ فإنْ كانَ صادقاً . . فهوَ كما قالَ ، وإنْ كانَ كاذباً . . فلنْ يرجعَ إلى الإسلامِ سالماً »[8]

فهـٰذا وأمثالُهُ ممَّا يدخلُ في الكلامِ ، ولا يمكنُ حصرُهُ .

ومَنْ تأمَّلَ جميعَ ما أوردناهُ مِنْ آفاتِ اللسانِ . . علمَ أنَّهُ إذا أطلقَ لسانَهُ . . لمْ يسلمْ ، وعندَ ذٰلكَ يعرفُ سرَّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صمتَ . . نجا »[9] ، لأنَّ هـٰذهِ الآفاتِ كلَّها مهالكُ ومعاطبُ ، وهيَ علىٰ طريقِ المتكلِّمِ .

فإنْ سكتَ . . سلمَ مِنَ الكلِّ ، وإنْ نطقَ وتكلَّمَ . . خاطرَ بنفسِهِ ، إلَّا أنْ يوافقَهُ لسانٌ فصيحٌ ، وعلمٌ غزيرٌ ، وورعٌ حافظٌ ، ومراقبةٌ لازمةٌ ، ويقلِّلَ مِنَ الكلامِ ، فعساهُ يسلمُ عندَ ذٰلكَ ، وهوَ معَ جميعِ ذٰلكَ لا ينفكُّ عنِ الخطرِ ، فإنْ كنتَ لا تقدرُ علىٰ أنْ تكونَ ممَّن تكلَّمَ فغنمَ . . فكنْ ممَّنْ سكَتَ فسلِمَ ؛ فالسلامةُ إحدى الغنيمتَينِ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٥٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٠) .
(٤) رواه البخاري (٦٦٤٧) ، ومسلم (٣/١٦٤٦) واللفظ له .
(٥) رواه البخاري (٦١٨٣) ، ومسلم (٢٢٤٧) واللفظ له .
(٦) رواه البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٥) واللفظ له .
(٧) رواه أبو داوود (٤٩٧٧) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٧) واللفظ له .
(٨) رواه أبو داوود (٣٢٥٨) ، والنسائي (٦/٧) ، وابن ماجه (٢١٠٠) .
(٩) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة

ومِنْ حقِّهِمُ الاشتغالُ بالعملِ بما في القرآنِ [١] ، إلَّا أنَّ ذٰلك ثقيلٌ على النفوسِ ، والفضولَ خفيفٌ على القلبِ ، والعاميُّ يفرحُ بالخوضِ في العلمِ ؛ إذِ الشيطانُ يخيِّلُ إليهِ أنَّكَ مِنَ العلماءِ وأهلِ الفضلِ .

ولا يزالُ يحبِّبُ إليهِ ذٰلكَ حتَّىٰ يتكلَّمَ في العلمِ بما هوَ كفرٌ وهوَ لا يدري .

وكلُّ كبيرةٍ يرتكبُها العاميُّ فهيَ أسلمُ لهُ مِنْ أنْ يتكلَّمَ في العلمِ ، لا سيَّما فيما يتعلَّقُ باللهِ وصفاتِهِ ، وإنَّما شأنُ العوامِّ الاشتغالُ بالعباداتِ ، والإيمانُ بما وردَ بهِ القرآنُ ، والتسليمُ لما جاءَتْ بهِ الرسلُ مِنْ غيرِ بحثٍ .

وسؤالُهُمْ عنْ غيرِ ما يتعلقُ بالعباداتِ سوءُ أدبٍ منهُمْ ، يستحقُّونَ بهِ المقتَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويتعرَّضونَ لخطرِ الكفرِ ، وهوَ كسؤالِ ساسةِ الدوابِّ عنْ أسرارِ الملوكِ ، وهوَ موجبٌ للعقوبةِ ، وكلُّ مَنْ سألَ عنْ علمٍ غامضٍ ولمْ يبلغْ فهمُهُ تلكَ الدرجةَ فهوَ مذمومٌ ؛ فإنَّهُ بالإضافةِ إليهِ عاميٌّ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذروني ما تركتُكُمْ ، فإنَّما هلكَ مَنْ كانَ قبلَكُم بكثرةِ سؤالِهِمْ ، واختلافِهِمْ علىٰ أنبيائِهِمْ ، ما نهيتُكمْ عنهُ فاجتنبُوهُ ، وما أمرتُكمْ بهِ فأتوا منهُ ما استطعتُمْ » [٢]

وقالَ أنسٌ : سألَ الناسُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً حتَّىٰ أكثرُوا عليهِ وأغضبُوهُ ، فصعدَ المنبرَ وقالَ : « سلوني ، فلا تسألُوني عنْ شيءٍ إلا أنبأتكُمْ بهِ » ، فقامَ إليهِ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أبي ؟ فقالَ : « أبوكَ حذافةُ » ، فقامَ إليهِ شابَّانِ أخوانِ ، فقالا : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أبونا ؟ فقالَ : « أبوكُما الذي تدعيانِ إليهِ » فقامَ إليهِ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أفي الجنةِ أنا أمْ في النارِ ؟ فقالَ : لا ، بلْ في النارِ » ، فلمَّا رأى الناسُ غضبَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . أمسكُوا ، فقامَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : رضينا باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولاً ، فقالَ : « اجلسْ يا عمرُ ؛ يرحمُكَ اللهُ ، إنَّكَ ما علمتَ لموفقٌ » [٣]

وفي الحديثِ : (نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ القيلِ والقالِ ، وإضاعةِ المالِ ، وكثرةِ السؤالِ) [٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يوشكُ الناسُ يتساءلونَ بينهُمْ حتَّىٰ يقولوا هٰذا : خَلقَ اللهُ الخلقَ ، فمَنْ خلقَ اللهَ ؟

---

(١) أي : من الأوامر والنواهي . « إتحاف » (٥٧٩/٧) ، ثم ما المراد بالعاميّ في هٰذا الباب ؟ يقول الحافظ الزبيدي موضحاً ومبيناً في « الإتحاف » (٥٨١/٧) : (وليس المراد بالعوام السوقية والأجلاف من أهل السواد فقط ، بل في معنى العوام الأديب والنحوي والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم ، بل كل عالم سوى المتجردين لعلم السباحة في بحار المعرفة القاصرين أعمارهم عليه ، الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات ، المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات ، المخلصين لله تعالىٰ في العلوم والأعمال ، القائمين بجميع حدود الشريعة وآدابها في القيام بالطاعات وترك المنكرات ، المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله لله ، المستحقرين للدنيا بل للآخرة في جنب محبة الله تعالىٰ ، فهٰؤلاء هم أهل الغوص في بحر المعرفة ، وهم مع ذٰلك كله علىٰ خطر عظيم ، يهلك في العشرة تسعة إلىٰ أن يسعد واحد منهم بالدر المكنون والسر المخزون) .

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٢٧) .

(٣) رواه البخاري (٩٣) ، ومسلم (٢٣٥٩) وليس فيهما ذكر الشابين والسائل عن عاقبته ، ورواه أحمد في « المسند » (١٦٢/٣) وليس فيه ذكر الشابين .

(٤) رواه البخاري (١٤٧٧) ، ومسلم (٥٩٣) (كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل) .

فإذا قالُوا ذٰلكَ . . فقولوا : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . . . ﴾ حتَّىٰ تختموا السورةَ ، ثمَّ ليتفُلْ أحدُكمْ عنْ يسارِهِ ثلاثاً ، وليستعذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ »[1]

وقالَ جابرٌ : (ما نزلَتْ آيةُ التلاعنِ إلا لكثرةِ السؤالِ)[2]

وفي قصةِ موسىٰ والخضرِ عليهما السلامُ تنبيهٌ على المنعِ مِنَ السؤالِ قبلَ أوانِ استحقاقِهِ ؛ إذْ قالَ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ، فلمَّا سألَ عنِ السفينةِ . . أنكرَ عليهِ حتَّى اعتذرَ ، وقالَ : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ ، فلمَّا لم يصبرْ حتَّىٰ سألَ ثلاثاً . . قالَ : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ وفارقَهُ .

فسؤالُ العوامِّ عنْ غوامضِ الدينِ مِنْ أعظمِ الآفاتِ ، وهوَ مِنَ المثيراتِ للفتنِ ، فيجبُ ذمُّهمْ ومنعهُمْ مِنْ ذٰلكَ ، وخوضُهُمْ في حروفِ القرآنِ يضاهي حالَ مَنْ كتبَ إليهِ الملكُ كتاباً ، ورسمَ لهُ فيهِ أموراً ، فلمْ يشتغلْ بشيءٍ منها ، وضيَّعَ زمانَهُ في السؤالِ : أنَّ قرطاسَ الكتابِ عتيقٌ أمْ حديثٌ ؟ فاستحقَّ بذٰلكَ العقوبةَ لا محالةَ ، فكذٰلكَ تضييعُ العاميِّ حدودَ القرآنِ واشتغالُهُ بحروفِهِ أهيَ قديمةٌ أمْ محدثةٌ ، وكذٰلكَ سائرُ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

❁ ❁ ❁

تمَّ كتابُ آفاتِ اللّسان

وهو الكتاب الرّابع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، حمداً دائماً كثيراً طيّباً مباركاً فيه

وصلى الله على سيّدنا محمّد النّبيّ العربيّ المصطفى

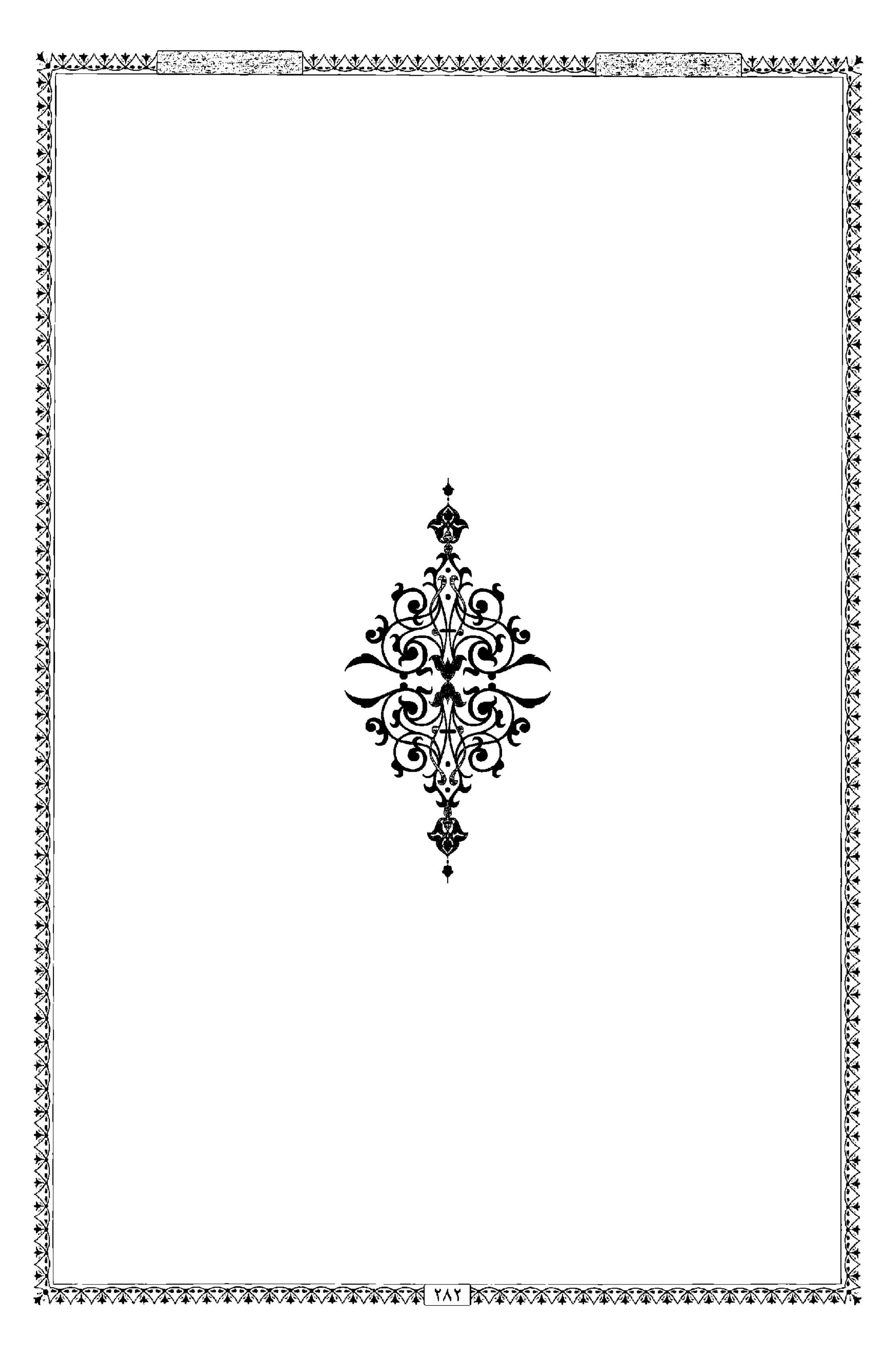
خيرة الله من خلقه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً

يتلوه كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

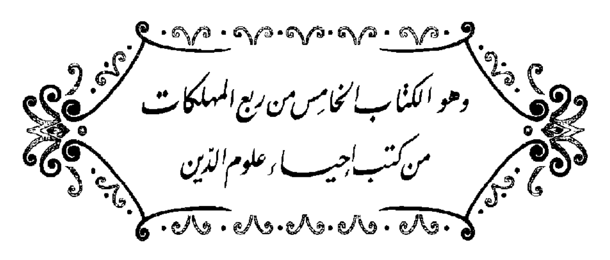
---

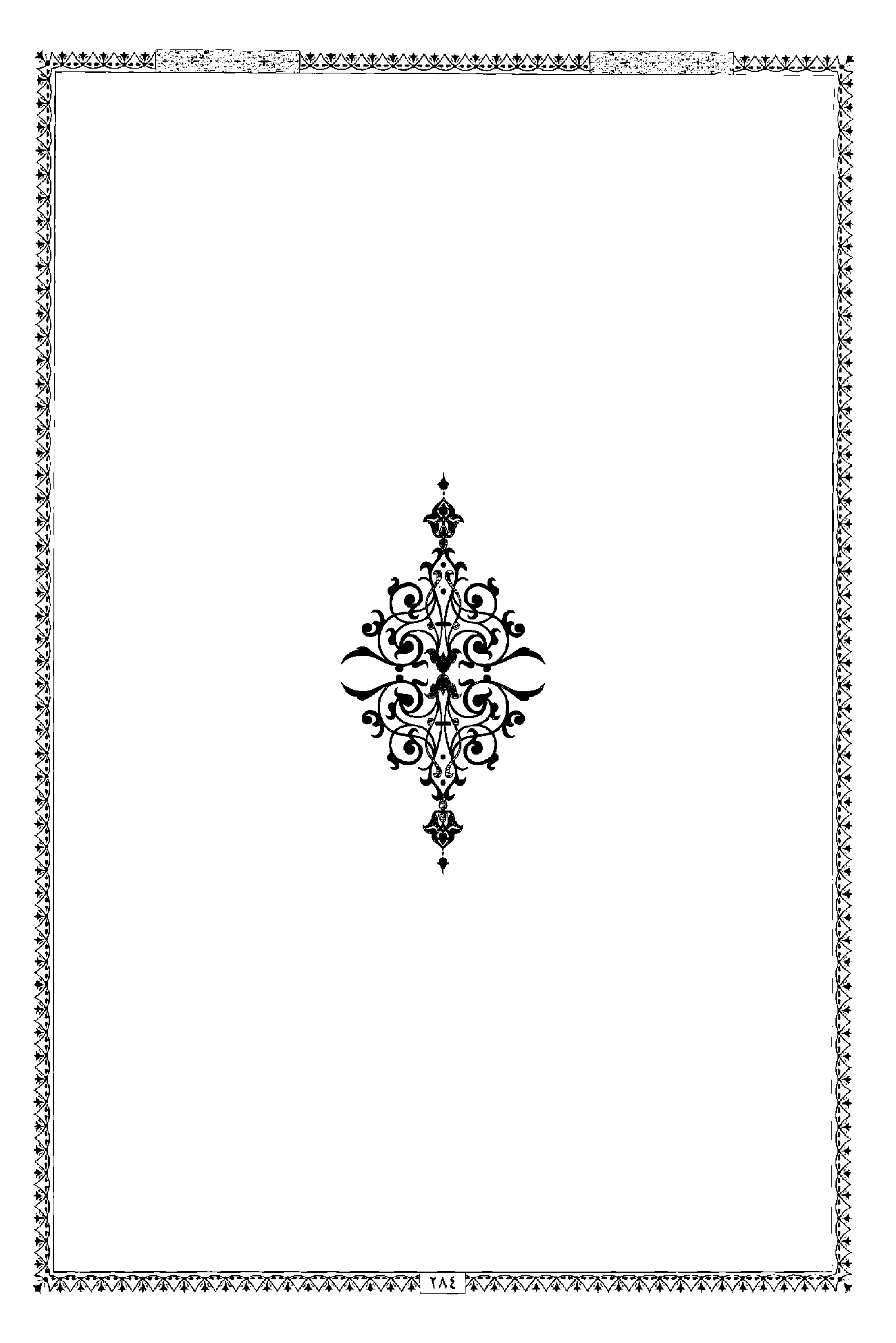
(١) رواه أبو داوود (٤٧٢٢) ، وبنحوه رواه البخاري (٧٢٩٦) ، ومسلم (١٣٤) .

(٢) رواه الخطيب في « الأسماء المبهمة » (ص ٤٨١) .



كتاب
آفة الغضب والحقد والحسد





كتاب آفات الغضب والحقد والحسد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي لا يتكلُ إلا علىٰ عفوهِ ورحمتهِ الراجونَ ، ولا يحذرُ سوىٰ غضبِهِ وسطوتِهِ الخائفونَ ، الذي استدرجَ عبادَهُ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ ، وسلَّطَ عليهمُ الشهواتِ وأمرَهُمْ بتركِ ما يشتهونَ ، وابتلاهُمْ بالغضبِ وكلَّفَهُمْ كظمَ الغيظِ فيما يغضبونَ ، ثمَّ حفَّهُمْ بالمكارهِ واللذّاتِ وأملىٰ لهُمْ لينظرَ كيفَ يعملونَ ، وامتحنَ بهِ حبَّهُمْ ليعلمَ صدقَهُمْ فيما يدَّعونَ ، وعرَّفَهُمْ أنَّهُ لا يخفىٰ عليهِ شيءٌ مما يسرُّونَ وما يعلنونَ ، وحذَّرهُمْ أنْ يأخذَهُمْ بغتةً وهُمْ لا يشعرونَ ؛ فقالَ : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

والصَّلاةُ علىٰ محمدٍ رسولِهِ الذي يسيرُ تحتَ لوائِهِ النبيونَ والمرسلونَ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الأئمةِ المهديّينَ والسادةِ المرضيّينَ ، صلاةً يوازي عددُها عددَ ما كانَ مِنْ خلقِ اللهِ وما سيكونُ ، ويحظىٰ ببركتِها الأولونَ والآخرونَ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الغضبَ شعلةُ نارٍ اقتُبِسَتْ مِنْ نارِ اللهِ الموقدةِ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ ، وإنَّها لمستكنَّةٌ في طيّ الفؤادِ استكنانَ الجمرِ تحتَ الرمادِ ، ويستخرجُها الكِبْرُ الدفينُ فِي قلبِ كلِّ جبارٍ عنيدٍ ؛ كما يستخرجُ الحجرُ النارَ مِنَ الحديدِ ، وقدِ انكشفَ للناظرينَ بنورِ اليقينِ : أنَّ الإنسانَ ينزعُ منهُ عرقٌ إلى الشيطانِ اللعينِ ، فمَنِ استفزَّتْهُ نارُ الغضبِ . . فقدْ قويَتْ فيهِ قرابةُ الشيطانِ ؛ حيثُ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ ، فإنَّ شأنَ الطينِ السكونُ والوقارُ ، وشأنَ النارِ التلظّي والاستعارُ ، والحركةُ والاضطرابُ .

ومِنْ نتائجِ الغضبِ الحقدُ والحسدُ ، وبهما هلكَ مَنْ هلكَ ، وفسدَ مَنْ فسدَ ، ومفيضُهما مضغةٌ إذا صلُحَتْ . . صلُحَ سائرُ الجسدِ ، وإذا كانَ الحقدُ والحسدُ والغضبُ ممَّا يسوقُ العبدَ إلىٰ مواطنِ العطَبِ . . فما أحوجَهُ إلىٰ معرفةِ معاطبِهِ ومساويهِ ؛ ليحذرَ ذٰلكَ ويتقيهِ ، ويميطَهُ عنِ القلبِ إن كانَ وينقّيهِ[1] ، ويعالجَهُ إنْ رسَخَ في قلبِهِ ويداويهِ ، فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، ومَنْ عرفَهُ . . فالمعرفةُ لا تكفيهِ ، ما لمْ يعرفِ الطريقَ الذي بِهِ يدفعُ الشرَّ ويُقصيهِ .

ونحنُ نذكرُ ذمَّ الغضبِ وآفاتِ الحقدِ والحسدِ في هٰذا الكتابِ ، ويجمعُها بيانُ ذمِّ الغضبِ ، ثمَّ بيانُ حقيقةِ الغضبِ ، ثمَّ بيانُ أنَّ الغضبَ هلْ يمكنُ إزالةُ أصلِهِ بالرياضةِ أمْ لا ، ثمَّ بيانُ الأسبابِ المهيّجةِ للغضبِ ، ثمَّ بيانُ علاجِ الغضبِ بعدَ هيجانِهِ ، ثمَّ بيانُ فضيلةِ كظْمِ الغيظِ ، ثمَّ بيانُ فضيلةِ الحلمِ ، ثمَّ بيانُ القدرِ الذي بهِ يجوزُ الانتصارُ والتشفّي مِنَ الكلامِ ، ثمَّ بيانُ القولِ في معنى الحقدِ ونتائجِهِ ، وفضيلةِ العفوِ والرفقِ ، ثمَّ بيانُ القولِ في ذمِّ الحسدِ ،

(١) وحقها ظهور علامة النصب ، وسكنت مراعاة للسجعة ، وكذا القول فيما سيأتي .

وفي حقيقتِهِ وأسبابِهِ ومعالجتِهِ ، وغايةِ الواجبِ في إزالتِهِ ، ثمَّ بيانُ السببِ في كثرةِ الحسدِ بينَ الأمثالِ والأقرانِ والإخوةِ وبني العمِّ والأقاربِ وتأكُّدِهِ ، وقلَّتِهِ وضعفِهِ في غيرِهِمْ ، ثمَّ بيانُ الدواءِ الذي بهِ يُنفىٰ مرضُ الحسدِ عنِ القلبِ ، ثمَّ بيانُ القدرِ الواجبِ في نفيِ الحسدِ عنِ القلبِ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

بيان ذمّ الغضب

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ الآيةَ ، ذمَّ الكفارَ بما تظاهرُوا بهِ مِنَ الحميَّةِ الصادرةِ عنِ الغضبِ بالباطلِ ، ومدحَ المؤمنينَ بما أنزلَ اللهُ عليهِمْ مِنَ السكينةِ .

وروىٰ أبو هريرةَ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مُرْني بعملٍ وأقلِلْ ، قالَ : « لا تغضبْ » ، ثمَّ أعادَ عليهِ ، قالَ : « لا تغضبْ »[1]

وقالَ ابنُ عمرَ : قلتُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قلْ لي قولاً وأقلِلْ لعلِّي أعقلُهُ ، فقالَ : « لا تغضبْ » ، فأعدْتُ عليهِ مرَّتينِ ، كلُّ ذٰلكَ يرجعُ إليَّ « لا تغضبْ »[2]

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ أنَّهُ سألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ماذا يبعدُني مِنْ غضبِ اللهِ ؟ قالَ : « لا تغضبْ »[3] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تعدُّونَ الصُّرَعةَ فيكُمْ ؟ » قلْنا : الذي لا يصرعُهُ الرجالُ ، قالَ : « ليسَ ذٰلكَ ، ولٰكنِ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ »[4]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ ، إنَّما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ »[5]

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ غضبَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ »[6]

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ : (يا بُنيَّ ؛ إياكَ وكثرةَ الغضبِ ؛ فإنَّ كثرةَ الغضبِ تستخفُّ فؤادَ الرجلِ الحليمِ)[7]

وعنْ عكرمةَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ . قال : (السيدُ الذيْ لا يغلبُهُ الغضبُ)[8]

وقالَ أبو الدرداءِ : قلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « لا تغضبْ »[9]

وقالَ يحيىٰ لعيسىٰ عليهِما السلامُ : لا تغضبْ ، قالَ : لا أستطيعُ ألَّا أغضبَ ، إنَّما أنا بشرٌ ، قالَ : لا تقتنِ مالاً ، قالَ : هٰذا عسىٰ[10]

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٦٨٥) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » (١٧٥/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٢٩) .

(٤) رواه مسلم (٢٦٠٨) .

(٥) رواه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٣٤٦/١٢ ـ ٣٤٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٨/٦) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧٠/٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨٤/٢٢) .

(٨) رواه الطبري في « تفسيره » (٣٢٨/٣/٣) .

(٩) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٢١) ، وفي « الأوسط » (٢٣٧٤) .

(١٠) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٨٦) عن عبد الله بن أبي الهذيل .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الغضبُ يفسدُ الإيمانَ كما يفسدُ الصَّبِرُ العسلَ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما غضبَ أحدٌ إلا أشفَىٰ علىٰ جهنَّمَ »(٢)

وقالَ لهُ رجلٌ : أيُّ شيءٍ أشدُّ ؟ قالَ : « غضبُ اللهِ » ، قالَ : فما يبعدُنِي مِنْ غضبِ اللهِ ؟ قالَ : « لا تغضبْ »(٣)

❀ ❀ ❀

الآثارُ :

قالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ كلمَّا غضبتَ . . وثبتَ ؟! يوشكُ أنْ تثِبَ وثبةً فتقعَ في النارِ)(٤)

وعنْ ذي القرنينِ أنَّهُ لقيَ مَلَكاً منَ الملائكةِ ، فقالَ : علِّمْني علماً أزدادُ بهِ إيماناً ويقيناً ، قالَ : لا تغضبْ ؛ فإنَّ الشيطانَ أقدرُ ما يكونُ على ابنِ آدمَ حينَ يغضبُ ، فرُدَّ الغضبَ بالكظمِ ، وسكِّنْهُ بالتؤدةِ ، وإياكَ والعجلةَ ؛ فإنَّكَ إذا عجلتَ . . أخطأتَ حظَّكَ ، وكنْ سهلاً ليناً للقريبِ والبعيدِ ، ولا تكنْ جباراً عنيداً(٥)

وعنْ وهبِ بنِ منبِّهٍ : أنَّ راهباً كانَ في صومعتِهِ ، فأرادَ الشيطانُ أنْ يضلَّهُ ، فلمْ يستطعْ ، فجاءَهُ حتَّىٰ ناداهُ ، فقالَ لهُ : افتحْ ، فلمْ يجبْهُ ، فقالَ : افتحْ ؛ فإنِّي إنْ ذهبتُ . . ندمتَ ، فلمْ يلتفتْ إليهِ ، فقالَ : إنِّي أنا المسيحُ ، قالَ الراهبُ : وإنْ كنتَ المسيحَ ، فما أصنعُ بكَ ؟ أليسَ قدْ أمرْتَنا بالعبادةِ والاجتهادِ ، ووعدْتَنا القيامةَ ؟ فلوْ جئْتَنا اليومَ بغيرِ ذٰلكَ . . لمْ نقبلْهُ منكَ ، قالَ : فقالَ : فإنِّي أنا الشيطانُ وقدْ أردْتُ أنْ أضلَّكَ ، فلمْ أستطعْ ، فجئتُكَ لتسألَني عمَّا شئتَ فأخبرَكَ ، قالَ : ما أريدُ أنْ أسألَكَ عنْ شيءٍ ، قالَ : فولَّىٰ مدبراً ، فقالَ الراهبُ : ألا تسمعُ ؟ قال : بلىٰ ، قالَ : أخبرْني أيُّ أخلاقِ بني آدمَ أعونُ لكَ عليهِمْ ؟ قالَ : الحِدَّةُ ، إنَّ الرجلَ إذا كانَ حديداً . . قلَّبناهُ كما يقلِّبُ الصبيانُ الكرةَ(٦)

وقالَ خيثمةُ : (الشيطانُ يقولُ : كيفَ يغلبُني ابنُ آدمَ ، وإذا رضيَ . . جئتُ حتَّىٰ أكونَ في قلبِهِ ، وإذا غضبَ . . طرتُ حتَّىٰ أكونَ في رأسِهِ ؟!)(٧)

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : (الغضبُ مفتاحُ كلِّ شرٍّ)(٨)

وقالَ بعضُ الأنصارِ : (رأسُ الحمقِ الحِدَّةُ ، وقائدُهُ الغضبُ ، ومَنْ رضيَ بالجهلِ . . استغنىٰ عنِ الحلمِ ، والحلمُ زينٌ ومنفعةٌ ، والجهلُ شينٌ ومضرَّةٌ ، والسكوتُ عنْ جوابِ الأحمقِ جوابُهُ)(٩)

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٤١٧/١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٤١) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه .
(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه البزار وابن عدي من حديث ابن عباس : « للنار باب لا يدخله إلا من شفىٰ غيظه بمعصية الله » وإسناده ضعيف) .
(٣) تقدم قريباً .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٦/٨) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٥٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٣٢) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥٢/٤) .
(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٧/٤) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٧/٨) .
(٩) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٧١٣) .

وقالَ مجاهدٌ : (قالَ إبليسُ : ما أعجزَني بنو آدمَ فلنْ يعجزوني في ثلاثٍ ؛ إذا سكِرَ أحدُهُم . . أخذنا بخزامتِهِ ، فقدْناهُ حيثُ شئْنا ، وعملَ لنا بما أحببْنا ، وإذا غضبَ . . قالَ بما لا يعلمُ ، وعملَ بما يندمُ ، ونبخِّلُهُ بما في يديهِ ، ونمنِّيهِ بما لا يقدرُ عليهِ)(١)

وقيلَ لحكيمٍ : ما أملكَ فلاناً لنفسِهِ !! قالَ : إذاً لا تذلُّهُ الشهوةُ ، ولا يصرعَهُ الهوىٰ ، ولا يغلبَهُ الغضبُ(٢)

وقالَ بعضُهمْ : (إيَّاكَ والغضبَ ؛ فإنَّهُ يصيِّرُكَ إلىٰ ذلةِ الاعتذارِ)(٣)

وقيلَ : (اتقوا الغضبَ ، فإنَّهُ يفسدُ الإيمانَ كما يفسدُ الصبرُ العسلَ)(٤)

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (انظرُوا إلىٰ حلْمِ الرجلِ عندَ غضبِهِ ، وأمانتِهِ عندَ طمعِهِ ، وما علمُكَ بحلمِهِ إذا لمْ يغضبْ ؟! وما علمُكَ بأمانتِهِ إذا لمْ يطمعْ ؟!)(٥)

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ إلىٰ عاملِهِ : (ألا تعاقبَ عندَ غضبِكَ ، وإذا غضبْتَ علىٰ رجلٍ . . فاحبسْهُ ، فإذا سكنَ غضبُكَ . . فأخرجْهُ فعاقبْهُ علىٰ قدْرِ ذنبِهِ ، ولا تجاوزْ بِهِ خمسةَ عشرَ سوطاً)(٦)

وقالَ عليُّ بنُ زيدٍ : أغلظَ رجلٌ مِنْ قريشٍ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ القولَ ، فأطرقَ عمرُ طويلاً ، ثمَّ قالَ : أردْتَ أنْ يستفزَّني الشيطانُ بعزِّ السلطانِ ، فأنالَ منكَ اليومَ ما تنالُهُ منّي غداً(٧)

وقالَ بعضُهمْ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا يثبتُ العقلُ عندَ الغضبِ ، كما لا تثبتُ روحُ الحيِّ في التنانيرِ المسجورةِ ، فأقلُّ الناسِ غضباً أعقلُهُمْ ، فإنْ كانَ للدنيا . . كانَ دهاءً ومكراً ، وإنْ كانَ للآخرةِ . . كانَ علماً وحلماً)(٨)

وقدْ قيلَ : (الغضبُ عدوُّ العقلِ ، والغضبُ غولُ العقلِ)(٩)

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا خطبَ . . قالَ في خطبتِهِ : (أفلحَ منكُمْ مَنْ حُفِظَ مِنَ الهوىٰ والطمعِ والغضبِ)(١٠)

وقالَ بعضُهمْ : (مَنْ أطاعَ شهوتَهُ وغضبَهُ . . قاداهُ إلى النارِ)(١١)

وقالَ الحسنُ : (مِنْ علاماتِ المسلمِ : قوةٌ في دينٍ ، وحزمٌ في لينٍ ، وإيمانٌ في يقينٍ ، وعلمٌ في حلمٍ ، وكيسٌ في رفقٍ ، وإعطاءٌ في حقٍّ ، وقصدٌ في غنىً ، وتجمُّلٌ في فاقةٍ ، وإحسانٌ في قدرةٍ ، وتحمُّلٌ في رفاقةٍ ، وصبرٌ في شدَّةٍ ، لا يغلبُهُ الغضبُ ، ولا تجمحُ بِهِ الحميَّةُ ، ولا تغلبُهُ شهوتُهُ ، ولا يفضحُهُ بطنُهُ ، ولا يستخفُّهُ حرصُهُ ، ولا تقصرُ بِهِ نيتُهُ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم المسكر » (٣٨) .

(٢) عزاه أبو حيان التوحيدي في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٦٤) لفيثاغورس ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٧/٨) : (رواه ابن أبي الدنيا) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٧/٨) .

(٤) تقدم مرفوعاً قريباً .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧٨/٣٣) .

(٦) روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٤/٥) .

(٧) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٧١) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٨) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٨/٨) .

(١٠) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢١٥/٣) .

(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٨) .

ينصُرُ المظلومَ ، ويرحمُ الضعيفَ ، ولا يبخلُ ولا يبذِّرُ ، ولا يسرِفُ ولا يقتِّرُ ، يغفرُ إذا ظُلِمَ ، ويعفو عنِ الجاهلِ ، نفسُهُ منهُ في عناءٍ ، والناسُ منهُ في رخاءٍ)(١)

وقيلَ لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ : أجمِلْ لنا حسنَ الخلقِ في كلمةٍ ، فقالَ : تركُ الغضبِ(٢)

وقالَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ لمَنْ معَهُ : مَنْ يتكفَّلُ لي ألَّا يغضبَ ويكونَ معي في درجتي ، ويكونَ بعدي خليفتي ؟ فقالَ شابٌّ مِنَ القومِ : أنا ، ثمَّ أعادَ عليهِ ، فقالَ : الشابُّ : أنا أُوفِّي بهِ ، فلما ماتَ . . كانَ في منزلتِهِ بعدَهُ ، وهوَ ذو الكِفْلِ ، سُمِّيَ بهِ ؛ لأنَّهُ كفَلَ بالغضبِ ووفَّىٰ بهِ(٣)

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (للكفرِ أربعةُ أركانٍ : الغضبُ ، والشهوةُ ، والخُرْقُ ، والطمعُ)(٤)

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف (٨/٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٨/٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٨) ، وفي (أ) : (كفل بترك الغضب) .

(٤) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٧٠/٤) ، وفي (أ) : (الحرص) بدل (الخرق) .

بيان حقيقة الغضب

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا خلقَ الحيوانَ معرَّضاً للفسادِ والمُوتانِ بأسبابٍ في داخلِ بدنِهِ وأسبابٍ خارجةٍ عنهُ . . أنعمَ عليهِ بما يحميهِ عنِ الفسادِ ، ويدفعُ عنهُ الهلاكَ إلىٰ أجلٍ معلومٍ سمَّاهُ في كتابِهِ .

أما السببُ الداخلُ : فهوَ أنَّهُ ركَّبَهُ منَ الحرارةِ والرطوبةِ ، وجعلَ بينَ الحرارةِ والرطوبةِ عداوةً ومضادَّةً ؛ فلا تزالُ الحرارةُ تحلِّلُ الرطوبةَ وتجفِّفُها وتبخِّرُها حتىٰ تتفشَّىٰ أجزاؤُها بخاراً يتصاعدُ منها ، فلوْ لمْ يتصلْ بالرطوبةِ مددٌ مِنَ الغذاءِ يَجبُرُ ما انحلَّ وتبخَّرَ منْ أجزائِها . . لفسدَ الحيوانُ ، فخلقَ اللهُ الغذاءَ الموافقَ لبدنِ الحيوانِ ، وخلقَ في الحيوانِ شهوةً تبعثُهُ علىٰ تناولِ الغذاءِ ؛ كالموكلِ بهِ في جبْرِ ما انكسرَ وسدِّ ما انثلمَ ؛ ليكونَ ذٰلكَ حافظاً لهُ مِنَ الهلاكِ بهٰذا السببِ .

وأمَّا الأسبابُ الخارجةُ التي يتعرَّضُ لها الإنسانُ : فكالسيفِ والسِّنانِ وسائرِ المهلكاتِ التي يقصدُ بها ، فافتقرَ إلىٰ قوَّةٍ وحميَّةٍ تثورُ مِنْ باطنِهِ فتدفعُ المهلكاتِ عنهُ ، فخلقَ اللهُ الغضبَ مِنَ النارِ ، وغرزَهُ في الإنسانِ ، وعجنَهُ بطينتِهِ ، فمهما قُصِدَ في غرضٍ مِنْ أغراضِهِ ، ومقصودٍ مِنْ مقاصدِهِ . . اشتعلَتْ نارُ الغضبِ ، وثارَتْ ثوراناً يغلي منها دمُ القلبِ ، وينتشرُ في العروقِ ، ويرتفعُ إلىٰ أعالي البدنِ كما ترتفعُ النارُ ، وكما يرتفعُ الماءُ الذي يغلي في القِدْرِ ؛ فلذٰلكَ ينصبُّ إلى الوجهِ ، فيحمرُّ الوجهُ والعينُ ، والبشرةُ لصفائِها تحكي لونَ ما وراءَها مِنْ حمرةِ الدمِ ؛ كما تحكي الزجاجةُ لونَ ما فيها ، وإنَّما ينبسطُ الدمُ إذا غضبَ علىٰ مَنْ دونَهُ واستشعرَ القدرةَ عليهِ ، فإنْ صدرَ الغضبُ علىٰ مَنْ فوقَهُ ، وكانَ معَهُ يأسٌ مِنَ الانتقامِ . . تولَّدَ منهُ انقباضُ الدمِ مِنْ ظاهرِ الجلدِ إلىٰ جوفِ القلبِ ، وصارَ حزناً ، ولذٰلكَ يصفرُّ اللونُ ، وإنْ كانَ الغضبُ علىٰ نظيرٍ يشكُّ فيهِ . . تولَّدَ منهُ تردُّدُ الدمِ بينَ انقباضٍ وانبساطٍ ؛ فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطربُ .

وبالجملةِ : فقوَّةُ الغضبِ محلُّها القلبُ ، ومعناها : غليانُ دمِ القلبِ لطلبِ الانتقامِ ، وإنَّما تتوجَّهُ هٰذهِ القوَّةُ عندَ ثورانِها إلىٰ دفعِ المؤذياتِ قبلَ وقوعِها ، وإلى التشفِّي والانتقامِ بعدَ وقوعِها ، والانتقامُ قوتُ هٰذهِ القوَّةِ وشهوتُها ، وفيه لذَّتُها ، ولا تسكنُ إلا بهِ .

ثمَّ الناسُ في هٰذهِ القوَّةِ علىٰ درجاتٍ ثلاثٍ في أوَّلِ الفطرةِ : مِنَ التفريطِ ، والإفراطِ ، والاعتدالِ .

أمَّا التفريطُ : فبفقدِ هٰذهِ القوَّةِ أوْ ضعفِها ، وذٰلكَ مذمومٌ ، وهوَ الذي يُقالُ فيهِ : (إنَّهُ لا حميَّةَ لهُ) ، ولذٰلكَ قالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : (منِ استُغضِبَ فلمْ يغضبْ . . فهوَ حمارٌ)[1]

فمَنْ فَقَدَ قوَّةَ الحميَّةِ والغضبِ أصلاً . . فهوَ ناقصٌ جدّاً ، وقدْ وصفَ اللهُ سبحانَهُ أصحابَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشدَّةِ والحميَّةِ ، فقالَ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وإنَّما الغِلْظةُ والشدَّةُ مِنْ آثارِ قوَّةِ الحميَّةِ ، وهوَ الغضبُ .

وأمَّا الإفراطُ : فهوَ أنْ تغلبَ هٰذهِ الصفةُ حتَّىٰ تخرجَ عنْ سياسةِ العقلِ والدينِ وطاعتِهِ ، ولا يبقىٰ للمرءِ معها بصيرةٌ ولا نظرٌ ولا فكرٌ ولا اختيارٌ ، بلْ يصيرُ في صورةِ المضطرِّ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/١٤٣) .

وسببُ غلبتِهِ : أمورٌ غريزيَّةٌ ، وأمورٌ اعتياديَّةٌ ، فربَّ إنسانٍ هوَ بالفطرةِ مستعدٌّ لسرعةِ الغضبِ ، حتَّىٰ كأنَّ صورتَهُ في الفطرةِ صورةُ غضبانَ ، ويعينُ علىٰ ذٰلكَ حرارةُ مزاجِ القلبِ ؛ لأنَّ الغضبَ مِنَ النارِ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، وإنَّما برودةُ المزاجِ تطفئُهُ وتكسرُ سَوْرَتَهُ .

وأمَّا الأسبابُ الاعتياديةُ : فهوَ أنْ يخالطَ قوماً يتبجَّحونَ بتشفِّي الغيظِ وطاعةِ الغضبِ ، ويسمُّونَ ذٰلكَ شجاعةً ورجوليَّةً ، فيقولُ الواحدُ منهمْ : (أنا الذي لا أصبرُ على المكرِ والمحالِ ، ولا أحتملُ مِنْ أحدٍ أمراً) ، ومعناهُ : لا عقلَ لي ولا حلمَ ، ثمَّ يذكرُهُ في معرضِ الفخرِ لجهلِهِ ، فمَنْ سمعَهُ . . رسَخ في نفسِهِ حسنُ الغضبِ ، وحبُّ التشبُّهِ بالقومِ ، فيقوىٰ بهِ الغضبُ .

ومهما اشتعلَتْ نارُ الغضبِ وقويَ اضطرامُها . . أعمَتْ صاحبَها ، وأصمَّتْهُ عنْ كلِّ موعظةٍ ، فإذا وُعظَ . . لمْ يسمعْ ، بلْ زادَهُ ذٰلكَ غضباً ، فإنِ استضاءَ بنورِ عقلِهِ ، وراجعَ نفسَهُ . . لمْ يقدرْ ؛ إذْ ينطفئُ نورُ العقلِ ، وينمحي في الحالِ بدخانِ الغضبِ ، فإنَّ معدِنَ الفكرِ الدماغُ ، ويتصاعدُ عندَ شدَّةِ الغضبِ منْ غليانِ دمِ القلبِ دخانٌ إلى الدماغِ مظلمٌ يستولي علىٰ معادنِ الفكرِ ، وربَّما يتعدَّىٰ إلىٰ معادنِ الحسِّ ، فتظلمُ عينُهُ حتَّىٰ لا يرىٰ بعينِهِ ، وتسودُّ عليهِ الدنيا بأسرِها ، ويكونُ دماغُهُ علىٰ مثالِ كهفٍ اضطرمَتْ فيهِ نارٌ فاسودَّ جوُّهُ ، وحميَ مستقرُّهُ ، وامتلأَ بالدخانِ جوانبُهُ ، وكانَ فيهِ سراجٌ ضعيفٌ فانطفأَ وانمحىٰ نورُهُ ، فلا تثبُتُ فيهِ قدمٌ ، ولا يُسَمعُ فيهِ كلمٌ ، ولا تُرىٰ فيهِ صورةٌ ، ولا يقدرُ علىٰ إطفائِهِ لا مِنْ داخلٍ ولا مِنْ خارجٍ ، بلْ ينبغي أنْ يصبرَ إلىٰ أنْ يحترقَ جميعُ ما يقبلُ الاحتراقَ ، فكذٰلكَ يفعلُ الغضبُ بالقلبِ والدماغِ .

وربما تقوىٰ نارُ الغضبِ فتفنى الرطوبةُ التي بها حياةُ القلبِ ، فيموتُ صاحبُهُ غيظاً ؛ كما تقوى النارُ في الكهفِ فيتشقَّقُ وتنهدُّ أعاليهِ علىٰ أسافلِهِ ، وذٰلكَ لإبطالِ النارِ ما في جوانبِهِ مِنَ القوَّةِ الممسكةِ الجامعةِ لأجزائِهِ ، فهٰكذا حالُ القلبِ معَ الغضبِ .

وبالحقيقةِ فالسفينةُ في ملتطمِ الأمواجِ عندَ اضطرابِ الرياحِ في لجَّةِ البحرِ أحسنُ حالاً وأرجىٰ سلامةً مِنَ النفسِ المضطربةِ غيظاً ؛ إذْ في السفينةِ مَنْ يحتالُ لتسكينِها وتدبيرِها ، وينظرُ لها ويسوسُها ، وأمَّا القلبُ . . فهوَ صاحبُ السفينةِ ، وقدْ سقطَتْ حيلتُهُ ؛ إذْ أعماهُ الغضبُ وأصمَّهُ .

ومِنْ آثارِ هٰذا الغضبِ في الظاهرِ : تغيُّرُ اللَّونِ ، وشدَّةُ الرِّعدةِ في الأطرافِ ، وخروجُ الأفعالِ عنِ الترتيبِ والنظامِ ، واضطرابُ الحركةِ والكلامِ ، حتَّىٰ يظهرُ الزبدُ على الأشداقِ ، وتحمرُّ الأحداقُ ، وتنقلبُ المناخرُ ، وتستحيلُ الخِلْقةُ ، ولَوْ رأى الغضبانُ في حالِ غضبِهِ قبحَ صورتِهِ . . لسكنَ غضبُهُ حياءً مِنْ قبحِ صورتِهِ واستحالةِ خِلْقتِهِ ، وقبحُ باطنِهِ أعظمُ مِنْ قبحِ ظاهرِهِ ؛ فإنَّ الظاهرَ عنوانُ الباطنِ ، وإنَّما قبُحَتْ صورةُ الباطنِ أوَّلاً ثمَّ انتشرَ قبحُها إلى الظاهرِ ثانياً ، فتغيُّرُ الظاهرِ ثمرةُ تغيُّرِ الباطنِ ، فقسِ المثمِرَ بالثمرةِ ، فهٰذا أثرُهُ في الجسدِ .

وأمَّا أثرُهُ في اللسانِ : فانطلاقُهُ بالشتمِ والفُحشِ وقبائحِ الكلامِ الذي يستحيي منهُ ذوو العقولِ ، ويستحيي منهُ قائلُهُ عندَ فتورِ الغضبِ ، وذٰلكَ معَ تخبُّطِ النظمِ ، واضطرابِ اللفظِ .

---

(١) إذ روى الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلىٰ حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه . . . » الحديث . وروىٰ أبو داوود (٤٧٨٤) من حديث عطية السعدي رضي الله عنه مرفوعاً : إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار . . . » الحديث .

وأمَّا أثرُهُ على الأعضاءِ : فالضربُ ، والتهجُّمُ ، والتمزيقُ ، والقتلُ ، والجرحُ عندَ التمكُّنِ مِنْ غيرِ مبالاةٍ ، فإنْ هربَ منهُ المغضوبُ عليهِ ، أوْ فاتَهُ بسببٍ وعجزَ عنِ التشفِّي . . رجعَ الغضبُ علىٰ صاحبِهِ ، فيمزِّقُ ثوبَ نفسِهِ ، ويلطِمُ نفسَهَ ، وقدْ يضربُ بيدِهِ على الأرضِ ، ويعدو عدْوَ الوالِهِ السكرانِ والمدهوشِ المتحيِّرِ ، وربَّما يسقطُ صريعاً ، لا يطيقُ العدْوَ والنهوضَ لشدَّةِ الغضبِ ، ويعتريهِ مثلُ الغشيةِ ، وربَّما يضربُ الجماداتِ والحيواناتِ ، فيضربُ القصعةَ مثلاً على الأرضِ ، وقدْ يكسرُ المائدةَ إذا غضبَ عليها ، ويتعاطىٰ أفعالَ المجانينِ ، فيشتمُ البهيمةَ والجمادَ ويخاطبُها ويقولُ : إلىٰ متىٰ هٰذا منكِ يا كيتَ وكيتَ ؟! كأنَّهُ يخاطبُ عاقلاً !! حتَّىٰ ربَّما رفستْهُ دابةٌ فيرفسُ الدابَّةَ ويقابلُها بذٰلكَ .

وأمَّا أثرُهُ في القلبِ معَ المغضوبِ عليهِ : فالحقدُ ، والحسدُ ، وإضمارُ السوءِ ، والشماتةُ بالمساءاتِ ، والحزنُ بالسرورِ ، والعزمُ علىٰ إفشاءِ السرِّ وهتكِ السترِ ، والاستهزاءُ ، وغيرُ ذٰلكَ مِنَ القبائحِ .

فهٰذهِ ثمرةُ الغضبِ المفرطِ .

وأمَّا ثمرةُ الحميَّةِ الضعيفةِ : فقلَّةُ الأنفةِ ممَّا يُؤنفُ منهُ ؛ مِنَ التعرضِ للحُرَمِ ، والزوجةِ ، والأمِّ ، واحتمالُ الذلِّ من الأخسَّاءِ ، وصغرُ النفسِ ، والقماءةُ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ ؛ إذْ مِنْ ثمراتِهِ عدمُ الغَيرةِ على الحُرَمِ ، وهوَ خنوثةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ سعداً لغيورٌ ، وأنا أغيرُ منْ سعدٍ ، وإنَّ اللهَ أغيرُ منِّي »[1]

وإنَّما خلقَتِ الغَيرةُ لحفظِ الأنسابِ ، ولو تسامحَ الناسُ بذٰلكَ . . لاختلطتِ الأنسابُ ، ولذٰلكَ قيلَ : (كلُّ أمَّةٍ وُضعَتِ الغيرةُ في رجالِها . . وُضعَتِ الصيانةُ في نسائِها) .

ومنْ ضعفِ الغضبِ الخَوَرُ ، والسكوتُ عندَ مشاهدةِ المنكراتِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيارُ أمتِي أحدَّاؤُها »[2] يعني : في الدينِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ .

بلْ مَنْ فقدَ الغضبَ . . عجزَ عنْ رياضةِ نفسِهِ ؛ إذْ لا تتمُّ الرياضةُ إلا بتسليطِ الغضبِ على الشهوةِ حتَّىٰ يغضبَ علىٰ نفسِهِ عندَ الميلِ إلى الشهواتِ الخسيسةِ .

ففقدُ الغضبِ مذمومٌ ، وإنَّما المحمودُ غضبٌ ينتظرُ إشارةَ العقلِ والدينِ ، فينبعثُ حيثُ تجبُ الحميَّةُ ، وينطفئُ حيثُ يحسُنُ الحلمُ ، وحفظُهُ علىٰ حدِّ الاعتدالِ هوَ الاستقامةُ التي كلَّفَ اللهُ بها عبادَهُ ، وهوَ الوسطُ الذي وصفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »[3] ، فمَنْ مالَ غضبُهُ إلى الفتورِ حتَّىٰ أحسَّ مِنْ نفسِهِ بضعفِ الغَيرةِ وخسَّةِ النفسِ في احتمالِ الذلِّ والضيمِ في غيرِ محلِّهِ . . فينبغي أنْ يعالجَ نفسَهُ حتَّىٰ يقوِّيَ غضبَهُ ، ومَنْ مالَ غضبُهُ إلى الإفراطِ حتَّىٰ جرَّهُ إلى التهوّرِ واقتحامِ الفواحشِ . . فينبغي أنْ يعالجَ نفسَهُ ليغضَّ مِنْ سَوْرةِ

(١) رواه البخاري (٦٨٤٦) ، ومسلم (١٤٩٩) .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٤٨ ، ٧٩٤٩) من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه زيادة : « الذين إذا غضبوا . . رجعوا » ، وأحداء : جمع حديد ، والمعنىٰ كما أشار الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٣/٨) : (أنشطها وأسرعها إلى الخير) ، أو أن الحدة الصلابة في الدين كما في « النهاية » (٣٥٣/١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٧٠/٦) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

الغضبِ ، ويقفَ على الوسطِ الحقِّ بينَ الطرفينِ ، فهوَ الصراطُ المستقيمُ ، وهوَ أرقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ ، وأحدُّ مِنَ السيفِ ، فإنْ عجزَ عنهُ . . فليطلبِ القربَ منهُ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ ، فليسَ كلُّ مَنْ عجزَ عنِ الإتيانِ بالخَيرِ كلِّهِ ينبغي أنْ يأتيَ بالشرِّ كلِّهِ ، ولـٰكنْ بعضُ الشرِّ أهونُ مِنْ بعضٍ ، وبعضُ الخيرِ أرفعُ مِنْ بعضٍ .

فهـٰذهِ حقيقةُ الغضبِ ودرجاتُهُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضيهِ ؛ إنَّهُ علىٰ ما يشاءُ قديرٌ .

* * *

بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ؟

اعلمْ : أنَّهُ ظنَّ ظانُّونَ أنَّهُ يُتصوَّرُ محوُ الغضبِ بالكلِّيَّةِ ، وزعموا أنَّ الرياضةَ إليهِ تتوجَّهُ ، وإيَّاهُ تقصدُ ، وظنَّ آخرونَ أنَّهُ لا يقبلُ العلاجَ أصلاً ، وهـٰذا رأيُ مَنْ يظنُّ أنَّ الخُلُقَ كالخَلْقِ ، وكلاهما لا يقبلُ التغييرَ .

وكلا الرأيينِ ضعيفٌ ، بلِ الحقُّ فيهِ ما نذكرُهُ ؛ وهوَ أنَّهُ ما دامَ الإنسانُ يحبُّ شيئاً ويكرهُ شيئاً . . فلا يخلو عَنِ الغيظِ والغضبِ ، وما دامَ يوافقُهُ شيءٌ ويخالفُهُ آخرُ . . فلا بدَّ وأنْ يحبَّ ما يوافقُهُ ويكرهَ ما يخالفُهُ ، والغضبُ يتبعُ ذٰلكَ ، فإنَّهُ مهما أُخِذَ منهُ محبوبُهُ . . غضبَ لا محالةَ ، وإذا قُصِدَ بمكروهٍ . . غضبَ لا محالةَ ، **إلا أنَّ ما يحبُّهُ الإنسانُ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ :**

الأوَّلُ : ما هوَ ضروريٌّ في حقِّ الكافَّةِ :

وهوَ كالقوتِ ، والمسكنِ ، والملبسِ ، وصحةِ البدنِ ، فمنْ قُصِدَ بدنُهُ بالضربِ والجرحِ . . فلا بدَّ وأنْ يغضبَ ، وكذٰلكَ إذا أُخِذَ منهُ ثوبُهُ الذي يسترُ عورتَهُ ، وكذٰلكَ إذا أُخرجَ مِنْ دارِهِ التي هيَ مسكنُهُ ، أوْ أُريقَ ماؤُهُ الذي هوَ لعطشِهِ ، فهـٰذهِ ضروراتٌ لا يخلو الإنسانُ مِنْ كراهةِ زوالِها ، ومِنْ غيظٍ علىٰ مَنْ يتعرَّضُ لها .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثاني : ما ليسَ ضرورياً لأحدٍ مِنَ الخلقِ :

كالجاهِ ، والمالِ الكثيرِ ، والغلمانِ ، والدوابِّ ، فإنَّ هـٰذهِ الأمورَ صارَتْ محبوبةً بالعادةِ والجهلِ بمقاصدِ الأمورِ ، حتَّىٰ صارَ الذهبُ والفضةُ محبوبينِ في أنفسِهما فيُكنزانِ ، ويغضبُ علىٰ مَنْ يسرقُهُما وإنْ كانَ مستغنياً عنهُما في القوتِ ، فهـٰذا الجنسُ ممَّا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ الإنسانُ عنْ أصلِ الغيظِ عليهِ ، فإذا كانَتْ لهُ دارٌ زائدةٌ علىٰ مسكنِهِ ، فهدمَها ظالمٌ . . فيجوزُ أَلَّا يغضبَ ؛ إذْ يجوزُ أنْ يكونَ بصيراً بأمرِ الدنيا ، فيزهدَ في الزيادةِ على الحاجةِ ، فلا يغضبَ بأخذِها ، فإنَّهُ لا يحبُّ وجودَها ، ولوْ أحبَّ وجودَها . . لغضبَ على الضرورةِ بأخذِها .

وأكثرُ غضبِ الناسِ علىٰ ما هوَ غيرُ ضروريٍّ ، كالجاهِ ، والصِّيتِ ، والتصدُّرِ في المجالسِ ، والمباهاةِ بالعلمِ ، فمنْ غلبَ هـٰذا الحبُّ عليهِ . . فلا محالةَ يغضبُ إذا زاحمَهُ مزاحمٌ على الصدرِ في المحافلِ ، ومنْ لا يحبُّ ذٰلكَ . . فلا يبالي ولوْ جلسَ في صفِّ النعالِ ، فلا يغضبُ إذا جلسَ غيرُهُ فوقَهُ .

وهـٰذهِ العاداتُ الرديئةُ هيَ التي أكثرَتْ محابَّ الإنسانِ ومكارهَهُ ، فأكثرَتْ غضبَهُ ، وكلَّما كانَتِ الإراداتُ والشهواتُ أكثرَ . . كانَ صاحبُها أحطَّ رتبةً وأنقصَ ؛ لأنَّ الحاجةَ صفةُ نقصٍ ، فمهما كثرَتْ . . كثرَ النقصُ ، والجاهلُ أبداً جهدُهُ في أنْ يزيدَ في حاجاتِهِ وفي شهواتِهِ ، وهوَ لا يدري أنَّهُ مستكثرٌ مِنْ أسبابِ الغمِّ والحزنِ ، حتَّىٰ ينتهيَ بعضُ الجهَّالِ بالعاداتِ الرديئةِ ومخالطةِ قرناءِ السوءِ إلىٰ أنْ يغضبَ لوْ قيلَ لهُ : إنَّهُ لا يُحسِنُ اللعبَ بالطيورِ ، واللعبَ بالشطرنجِ ، ولا يقدرُ علىٰ شربِ الخمرِ الكثيرِ ، وتناولِ الطعامِ الكثيرِ ، وما يجري مجراهُ مِنَ الرذائلِ ، فالغضبُ علىٰ هـٰذا الجنسِ ليسَ بضروريٍّ ؛ لأنَّ حبَّهُ ليسَ بضروريٍّ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثالثُ : ما يكونُ ضرورياً في حقِّ بعضِ الناسِ دونَ البعضِ :

كالكتابِ للعالمِ ؛ لأنهُ مضطرٌّ إليهِ ، فيحبُّهُ ، فيغضبُ علىٰ مَنْ يخرقُهُ ويمزقُهُ ، وكذلكَ أدواتُ الصناعاتِ في حقِّ المكتسبِ الذي لا يمكنُهُ التوصُّلُ إلى القوتِ إلَّا بها ، فإنَّ ما هوَ وسيلةٌ إلى الضروريِّ والمحبوبِ يصيرُ ضرورياً ومحبوباً ، وهاذا يختلفُ بالأشخاصِ .

وإنَّما الحبُّ الضروريُّ ما أشارَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « مَنْ أصبحَ آمناً في سربِهِ ، معافىً في بدنِهِ ، وعندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدُّنيا بحذافيرِها »[1] ، ومَنْ كانَ بصيراً بحقائقِ الأمورِ وسلمَتْ لهُ هاذهِ الثلاثُ . . يُتصوَّرُ أَلَّا يغضبَ في غيرِها .

❁ ❁ ❁

فهاذهِ ثلاثةُ أقسامٍ ، فلنذكُرْ غايةَ الرياضةِ في كلِّ واحدٍ منها .

أمَّا القسمُ الأوَّلُ . . فليسَتِ الرياضةُ فيهِ لينعدمَ غيظُ القلبِ ، ولاكنْ لكي يقدرَ علىٰ أَلَّا يطيعَ الغضبَ ، ولا يستعملَهُ في الظاهرِ إلَّا علىٰ حدٍّ يستحبُّهُ الشرعُ ، ويستحسنُهُ العقلُ ، وذلكَ ممكنٌ بالمجاهدةِ ، وتكلُّفِ الحلمِ والاحتمالِ مدَّةً ، حتَّىٰ يصيرَ الحِلمُ والاحتمالُ خُلُقاً راسخاً .

فأمَّا قمعُ أصلِ الغيظِ مِنَ القلبِ . . فليسَ مقتضى الطبعِ ، وهوَ غيرُ ممكنٍ .

نعمْ ؛ يمكنُ كسرُ سَوْرتِهِ وتضعيفُهُ ، حتىٰ لا يشتدَّ هيجانُ الغيظِ في الباطنِ ، وينتهيَ ضعفُهُ إلىٰ أَلَّا يظهرَ أثرُهُ في الوجهِ ، ولاكنَّ ذلكَ شديدٌ جدّاً ، **وهاذا حكمُ القسمِ الثالثِ أيضاً** ؛ لأنَّ ما صارَ ضرورياً في حقِّ شخصٍ فلا يمنعُهُ مِنَ الغيظِ استغناءُ غيرِهِ عنهُ ، فالرياضةُ فيهِ تمنعُ العملَ بهِ ، وتضعفُ هيجانَهُ في الباطنِ ، حتَّىٰ لا يشتدَّ التألُّمُ بالصبرِ عليهِ .

وأمَّا القسمُ الثاني . . فيمكنُ التوصُّلُ بالرياضةِ إلى الانفكاكِ عنِ الغضبِ عليهِ ؛ إذْ يمكنُ إخراجُ حُبِّهِ مِنَ القلبِ ، وذلكَ بأنْ يعلمَ الإنسانُ أنَّ وطنَهُ القبرُ ، ومستقرَّهُ الآخرةُ ، وأنَّ الدنيا معبرٌ يعبرُ عليها ، ويتزوَّدُ منها قدرَ الضرورةِ ، وما وراءَ ذلكَ عليهِ وبالٌ في وطنِهِ ومستقرِّهِ ، فيزهدُ في الدنيا ، وينمحي حبُّها عَنْ قلبِهِ ، ولوْ كانَ للإنسانِ كلبٌ لا يحبُّهُ . . لمْ يغضبْ إذا ضربَهُ غيرُهُ ، فالغضبُ تبعٌ للحُبِّ ، فالرياضةُ في هاذا قدْ تنتهي إلىٰ قمعِ أصلِ الغضبِ ، وهوَ نادرٌ جدّاً ، وقدْ تنتهي إلى المنعِ مِنِ استعمالِ الغضبِ والعملِ بموجَبِهِ ، وهوَ أهونُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : الضروريُّ مِنَ القسمِ الأولِ التألُّمُ بفواتِ المحتاجِ إليهِ دونَ الغضبِ ، فمَنْ لهُ شاةٌ مثلاً وهيَ قوتُهُ ، فماتَتْ . . لا يغضبُ علىٰ أحدٍ ، وإنْ كانَ يحصلُ فيهِ كراهةٌ ، وليسَ مِنْ ضرورةِ كلِّ كراهةٍ غضبٌ ، فالإنسانُ يتألَّمُ بالفصدِ والحجامةِ ولا يغضبُ على الفصَّادِ والحجَّامِ ، فمَنْ غلبَ عليهِ التوحيدُ حتَّىٰ يرى الأشياءَ كلَّها بيدِ اللهِ ومنهُ . . فلا يغضبُ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِهِ ؛ إذْ يراهُمْ مسخَّرينَ في قبضةِ قدرتِهِ ؛ كالقلمِ في يدِ الكاتبِ ، ومَنْ وقَّعَ ملكٌ بضربِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٢٤٩/٥) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

رقبتِهِ . . لمْ يغضبْ على القلمِ ، فلا يغضبُ على مَنْ يذبحُ شاتَهُ التي هيَ قوتُهُ كما لا يغضبُ على موتِها ؛ إذْ يرى الموتَ والذبحَ مِنَ اللهِ تعالى ، فيندفعُ الغضبُ بغلبةِ التوحيدِ ، ويندفعُ أيضاً بحسنِ الظنِّ باللهِ ، وهوَ أنْ يرى أنَّ الكلَّ مِنَ اللهِ ، وأنَّ اللهَ لا يقدرُ لهُ إلا ما فيهِ الخِيرَةُ ، وربَّما تكونُ الخِيرَةُ في جوعِهِ ومرضِهِ ، وجرحِهِ وقتلِهِ ، فلا يغضبُ ، كما لا يغضبُ على الفصَّادِ والحجَّامِ ؛ لأنَّهُ يرى أنَّ الخِيَرَةَ فيهِ .

فنقولُ : هٰذا على هٰذا الوجهِ غيرُ محالٍ ، ولٰكنَّ غلبةَ التوحيدِ إلى هٰذا الحدِّ إنَّما تكونُ كالبرقِ الخاطفِ ، تغلبُ في أحوالٍ مختطفةٍ ولا تدومُ ، ويرجعُ القلبُ إلى الالتفاتِ إلى الوسائطِ رجوعاً طبْعِيّاً لا يندفعُ عنهُ ، ولوْ تُصوِّرَ ذٰلكَ على الدوامِ لبشرٍ . . لتُصوِّرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنهُ كانَ يغضبُ حتَّى تحمرَّ وجنتاهُ[1] ، حتَّى قالَ : « اللهمَّ ؛ إنَّما أنا بشرٌ ، أغضبُ كما يغضبُ البشرُ ، فأيُّما مسلمٍ سببتُهُ أوْ لعنتُهُ أوْ ضربتُهُ . . فاجعلْها منِّي صلاةً عليهِ وزكاةً وقربةً تقرِّبُهُ بها إليكَ يومَ القيامةِ »[2]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ : يا رسولَ اللهِ ؛ أكتبُ عنكَ كلَّ ما قلْتَ في الغضبِ والرضا ؟ فقالَ : « اكتبْ ، فوالذي بعثَني بالحقِّ نبيّاً ؛ ما يخرجُ منهُ إلَّا حقٌّ » ، وأشارَ إلى لسانِهِ[3] ، فلمْ يقلْ : إنِّي لا أغضبُ ، ولٰكنْ قالَ : إنَّ الغضبَ لا يخرجُني عنِ الحقِّ ؛ أيْ : لا أعملُ بموجَبِ الغضبِ .

وغضبَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها مرةً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لكِ جاءَكِ شيطانُكِ ؟ » ، فقالَتْ : وما لكَ شيطانٌ ؟ فقالَ : « بلى ، ولٰكنْ دعوتُ اللهَ فأعانني عليهِ فأسلمُ ، فلا يأمرُ إلَّا بخيرٍ »[4] ، فلمْ يقلْ : لا شيطانَ لي ، وأرادَ شيطانَ الغضبِ ، لٰكنْ قالَ : لا يحملُني على الشرِّ .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يغضبُ للدنيا ، فإذا أغضبَهُ الحقُّ . . لمْ يعرفْهُ أحدٌ ، ولمْ يقمْ لغضبِهِ شيءٌ ، حتَّى ينتصرَ لهُ)[5]

فكانَ يغضبُ على الحقِّ ، وإنْ كانَ غضبُهُ للهِ . . فهوَ التفاتٌ إلى الوسائطِ على الجملةِ ، بلْ كلُّ مَنْ يغضبُ على مَنْ يأخذُ ضرورةَ قوتِهِ وحاجتِهِ التي لا بدَّ لهُ في دينِهِ منها . . فإنَّما غضبَ للهِ ، فلا يمكنُ الانفكاكُ عنهُ .

نعمْ ؛ قدْ يُفْقدُ أصلُ الغضبِ فيما هوَ ضروريٌّ إذا كانَ القلبُ مشغولاً بضروريٍّ أهمَّ منهُ ، فلا يكونُ في القلبِ متسعٌ للغضبِ ؛ لاشتغالِهِ بغيرِهِ ، فإنَّ استغراقَ القلبِ ببعضِ المهمَّاتِ يمنعُ الإحساسَ بما عداهُ ، وهٰذا كما أنَّ سلمانَ لمَّا شُتِمَ قالَ : (إنْ خفَّتْ موازيني . . فأنا شرٌّ ممَّا تقولُ ، وإنْ ثقلَتْ موازيني . . لمْ يضرَّني ما تقولُ)[6] ، فقدْ كانَ همُّهُ مصروفاً إلى الآخرةِ ، فلمْ يتأثرْ قلبُهُ بالشتمِ .

---

(١) روى ذٰلك البخاري (٩١) ، ومسلم (٢/١٧٢٢) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٠١) بلفظ : « اللهم ؛ إنما محمد بشر ، يغضب كما يغضب البشر ، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه ، فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته . . فاجعلها له كفارة ، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة » ، وذكر الضرب عند أبي يعلىٰ في « مسنده » (١٢٦٢) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٤٦) .

(٤) رواه مسلم (٢٨١٥) .

(٥) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٢٥) .

(٦) روى قوله البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٦٣) ، وليس فيه ذكر الشتم .

وكذٰلكَ شُتمَ الربيعُ بنُ خثيمٍ فقالَ : (يا هٰذا ؛ قدْ سمعَ اللهُ كلامَكَ ، وإنَّ دونَ الجنةِ عقَبَةً ، إنْ قطعْتُها . . لمْ يضرَّني ما تقولُ ، وإنْ لمْ أقطعْها . . فأنا شرٌّ ممَّا تقولُ)[1]

وسبَّ رجلٌ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : (ما سترَ اللهُ عنكَ أكثرُ)[2] ، فكأنَّهُ كانَ مشغولاً بالنظرِ في تقصيرِ نفسِهِ عنْ أنْ يتقيَ اللهَ حقَّ تقاتِهِ ، ويعرفَهُ حقَّ معرفتِهِ ، فلمْ يغضبْهُ نسبةُ غيرِهِ إياهُ إلىٰ نقصانٍ ؛ إذْ كانَ ينظرُ إلىٰ نفسِهِ بعينِ النقصانِ ، وذٰلكَ لجلالةِ قدرِهِ .

وقالَتِ امرأةٌ لمالكِ بنِ دينارٍ : يا مُرائي ، فقالَ : ما عرفَني غيرُكِ[3] ، فكأنَّهُ كانَ مشغولاً بأنْ ينفيَ عنْ نفسِهِ آفةَ الرياءِ ، ومنكراً علىٰ نفسِهِ ما يلقيهِ الشيطانُ إليهِ ، فلمْ يغضبْ لما نُسبَ إليهِ .

وسبَّ رجلٌ الشعبيَّ فقالَ : (إن كنتَ صادقاً . . فغفرَ اللهُ لي ، وإنْ كنتَ كاذباً . . فغفرَ اللهُ لكَ)[4]

فهٰذهِ الأقاويلُ دالةٌ في الظاهرِ علىٰ أنَّهمْ لمْ يغضبُوا لاشتغالِ قلوبِهِمْ بمهماتِ دينِهِمْ ، ويحتملُ أنْ يكونَ قدْ أثَّرَ ذٰلكَ في قلوبِهِمْ ، ولٰكنَّهمْ لمْ يشتغلُوا بهِ ، واشتغلُوا بما كانَ هوَ الأغلبَ علىٰ قلوبِهِمْ .

فإذاً ؛ اشتغالُ القلبِ ببعضِ المهماتِ لا يبعدُ أنْ يمنعَ هيجانَ الغضبِ عندَ فواتِ بعضِ المحابِّ ، فإذاً ؛ يُتصوَّرُ فقْدُ الغيظِ ؛ إمَّا باشتغالِ القلبِ بمهمٍّ ، أوْ بغلبةِ نظرِ التوحيدِ ، أوْ بسببٍ ثالثٍ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ منهُ ألَّا يغتاظَ ، فتطفئُ شدَّةُ حبِّهِ للهِ غيظَهُ ، وذٰلكَ غيرُ محالٍ في أحوالٍ نادرةٍ .

وقدْ عرفْتَ بهٰذا أنَّ طريقَ الخلاصِ مِنْ نارِ الغضبِ محوُ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، وذٰلكَ بمعرفةِ آفاتِ الدنيا وغوائلِها ، كما سيأتي في كتابِ ذمِّ الدنيا ، ومَنْ أخرجَ حُبَّ المزايا عنِ القلبِ . . تخلَّصَ مِنْ أكثرِ أسبابِ الغضبِ ، وما لا يمكنُ محوُهُ . . فيمكنُ كسرُهُ وتضعيفُهُ ، فيضعفُ الغضبُ بسببِهِ ، ويهونُ دفعُهُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ ؛ إنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، والحمدُ للهِ وحدَهُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) عزاه الحافظ الزبيدي لأبي نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٨/٨) .

(٢) سيأتي قريباً خبر شتمه وصبره ثم ردّه رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٣٩/٨) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٣٧) .

بيان الأسباب المهيجة للغضب

قدْ عرفتَ أنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ بحسمِ مادَّتِها ، وإزالةِ أسبابِها ، فلا بدَّ مِنْ معرفةِ أسبابِ الغضبِ .

وقدْ قالَ يحيىٰ لعيسىٰ عليهما السلامُ : أيُّ شيءٍ أشدُّ ؟ قالَ : غضبُ اللهِ ، قالَ : فما يقرِّبُ مِنْ غضبِ اللهِ ؟ قالَ : أنْ تغضبَ ، قالَ : فما يبدي الغضبَ وما ينبتُهُ ، قالَ عيسى : الكِبرُ ، والفخرُ ، والتعزُّزُ ، والحميَّةُ (١)

فالأسبابُ المهيجةُ للغضبِ هيَ : الزهو ، والعجبُ ، والمِزاحُ ، والهزلُ ، والهزءُ ، والتعييرُ ، والمماراةُ ، والمضادَّةُ ، والغدرُ ، وشدَّةُ الحرصِ علىٰ فضولِ المالِ والجاهِ ، وهيَ بأجمعِها أخلاقٌ رديئةٌ مذمومةٌ شرعاً ، ولا خلاصَ عنِ الغضبِ معَ بقاءِ هـٰذهِ الأسبابِ ، فلا بدَّ مِنْ إزالةِ هـٰذهِ الأسبابِ بأضدادِها .

فينبغي أنْ تميتَ الزهوَ بالتواضعِ ، وتميتَ العجبَ بمعرفتِكَ بنفسِكَ ، كما سيأتي بيانُهُ في كتابِ الكبرِ والعجبِ ، وتزيلَ الفخرَ بأنَّكَ مِنْ جنسِ عبدِكَ ؛ إذِ الناسُ يجمعُهُمْ في الانتسابِ أبٌ واحدٌ ، وإنَّما اختلفُوا في الفضلِ أشتاتاً ، فبنو آدمَ جنسٌ واحدٌ ، وإنَّما الفخرُ بالفضائلِ ، والفخرُ والعجبُ والكِبرُ أكبرُ الرذائلِ ، وهيَ رأسُها وأصلُها ، فإذا لم تخلُ عنها . . فلا فضلَ لكَ علىٰ غيرِكَ ، فلِمَ تفتخرُ وأنتَ مِنْ جنسِ عبدِكَ مِنْ حيثُ البنيةُ والنسبُ والأعضاءُ الظاهرةُ والباطنةُ ؟!

وأما المزاحُ . . فتزيلُهُ بالتشاغلِ بالمهمَّاتِ الدينيَّةِ التي تستوعبُ العمرَ وتفضلُ عنهُ إذا عرفْتَها .

وأمَّا الهزلُ . . فتزيلُهُ بالجدِّ في طلبِ الفضائلِ والأخلاقِ الحسنةِ ، والعلومِ الدينيَّةِ التي تبلِّغُكَ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ .

وأمَّا الهزءُ . . فتزيلُهُ بالتكرُّمِ عنْ إيذاءِ الناسِ ، وبصيانةِ النفسِ عنْ أنْ يُستهزأَ بكَ .

وأمَّا التعييرُ . . فبالحذرِ عنِ القولِ القبيحِ ، وصيانةِ النفسِ عنْ مُرِّ الجوابِ .

وأمَّا شدَّةُ الحرصِ علىٰ مزايا العيشِ . . فتزالُ بالقناعةِ بقدْرِ الضرورةِ ؛ طلباً لعزِّ الاستغناءِ ، وترفُّعاً عنْ ذلِّ الحاجةِ .

وكلُّ خُلُقٍ مِنْ هـٰذهِ الأخلاقِ وصفةٍ مِنْ هـٰذهِ الصفاتِ يَفتقرُ في علاجِهِ إلىٰ رياضةٍ وتحمُّلِ مشقَّةٍ ، وحاصلُ رياضتِها يرجعُ إلىٰ معرفةِ غوائلِها ؛ لترغبَ النفسُ عنها ، وتنفرَ عنْ قبحِها ، ثمَّ المواظبةِ علىٰ مباشرةِ أضدادِها مدَّةً مديدةً ، حتَّىٰ تصيرَ بالعادةِ مألوفةً هيِّنةً على النفسِ ، فإذا انمحَتْ عنِ النفسِ . . فقدْ زكَتْ وطهُرَتْ عنْ هـٰذهِ الرذائلِ ، وتخلَّصَتْ أيضاً مِنَ الغضبِ الذي يتولَّدُ منها .

ومِنْ أشدِّ البواعثِ على الغضبِ عندَ أكثرِ الجهالِ : تسميتُهُمُ الغضبَ شجاعةً ، ورجوليةً ، وعزَّةَ نفسٍ ، وكبرَ همةٍ ، وتلقيبُهُ بالألقابِ المحمودةِ غباوةً وجهلاً ، حتَّىٰ تميلَ النفسُ إليهِ وتستحسنَهُ ، وقدْ يتأكَّدُ ذٰلكَ بحكايةِ شدَّةِ الغضبِ عنِ الأكابرِ في معْرِضِ المدحِ بالشجاعةِ ، والنفوسُ مائلةٌ إلى التشبُّهِ بالأكابرِ ، فيهيجُ الغضبُ في القلبِ بسببِهِ ، وتسميةُ هـٰذا عزَّةَ نفسٍ وشجاعةً جهلٌ ، بلْ هوَ مرضُ قلبٍ ، ونقصانُ عقلٍ ، وهوَ لضعفِ النفسِ ونقصانِها ، وآيةُ أنَّهُ لضعفِ النفسِ : أنَّ المريضَ أسرعُ غضباً مِنَ الصحيحِ ، والمرأةُ أسرعُ غضباً مِنَ الرجلِ ، والصبيُّ أسرعُ غضباً من الرجلِ الكبيرِ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/١٨) .

والشيخُ الضعيفُ أسرعُ غضباً مِنَ الكهلِ ، وذو الخُلُقِ السيِّئِ والرذائلِ القبيحةِ أسرعُ غضباً مِنْ صاحبِ الفضائلِ ؛ فالرَّذْلُ يغضبُ لشهوتِهِ إذا فاتَتْهُ اللُّقمةُ ، ولبخلِهِ إذا فاتتْهُ الحبَّةُ ، حتَّىٰ إنَّهُ يغضبُ علىٰ أهلِهِ وولدِهِ وأصحابِهِ ، بلِ القويُّ مَنْ يملِكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ »[١] ، بلْ ينبغي أنْ يُعالَجَ هـٰذا الجاهلُ بأنْ تُتلىٰ عليهِ حكاياتُ أهلِ الحلمِ والعفوِ ، وما استُحْسِنَ منهمْ مِنْ كظمِ الغيظِ ، فإنَّ ذٰلكَ منقولٌ عنِ الأنبياءِ والأولياءِ والحكماءِ والعلماءِ ، وأكابرِ الملوكِ الفضلاءِ ، وضدُّ ذٰلكَ منقولٌ عنِ الأتراكِ والأكرادِ ، والجهلةِ والأغبياءِ ، الذين لا عقلَ لهمْ ولا فضلَ .

* * *

(١) رواه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ هوَ حسمٌ لموادِّ الغضبِ ، وقطعٌ لأسبابِهِ حتَّىٰ لا يهيجَ ، فإذا جرىٰ سببٌ هيَّجَهُ . . فعندَهُ يجبُ التثبُّتُ ؛ حتَّىٰ لا يضطرَّ صاحبُهُ إلى العملِ بهِ على الوجهِ المذمومِ ، وإنَّما يعالجُ الغضبَ عندَ هيجانِهِ بمعجونِ العلمِ والعملِ .

❀ ❀ ❀

أمَّا العلمُ . . فهوَ ستةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : أنْ يتفكَّرَ في الأخبارِ التي سنوردُها في فضلِ كظمِ الغيظِ والعفوِ والحلمِ والاحتمالِ ، فيرغبَ في ثوابِهِ ، فتمنعَهُ شدَّةُ الحرصِ علىٰ ثوابِ الكظمِ عنِ التشفِّي والانتقامِ ، وينطفئَ غيظُهُ .

قالَ مالكُ بنُ أوسِ بنِ الحَدَثانِ : غضبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ رجلٍ وأمرَ بضربِهِ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، فكانَ عمرُ يقولُ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فكانَ يتأملُ في الآيةِ ، وكانَ وقَّافاً عندَ كتابِ اللهِ مهما تُليَ عليهِ ، كثيرَ التدبُّرِ فيهِ ، فتدبَّرَ فيهِ ، وخلَّى الرجلَ (١)

وأمرَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بضربِ رجلٍ ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، وقالَ لغلامِهِ : خَلِّ عنهُ (٢)

❀ ❀ ❀

الثاني : أنْ يخوِّفَ نفسَهُ بعقابِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ أنْ يقولَ : قدرةُ اللهِ عليَّ أعظمُ مِنْ قدرتي علىٰ هـٰذا الإنسانِ ، فلوْ أمضيتُ غضبي عليهِ . . لمْ آمنْ أنْ يمضيَ اللهُ غضبَهُ عليَّ يومَ القيامةِ أحوجَ ما أكونُ إلى العفوِ ، فقدْ قالَ تعالىٰ في بعضِ الكتبِ القديمةِ : (يا بنَ آدمَ ؛ اذكرْني حينَ تغضبُ . . أذكرْكَ حينَ أغضبُ ، فلا أمحقُكَ فيمَنْ أمحقُ) (٣)

وبعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصيفاً إلىٰ حاجةٍ ، فأبطأَ عليهِ ، فلمَّا جاءَ . . قالَ : « لولا القصاصُ . . لأوجعْتُكِ » (٤) ؛ أي : القصاصُ في القيامةِ .

وقيلَ : ما كانَ في بني إسرائيلَ ملكٌ إلا ومعهُ حكيمٌ ، إذا غضبَ . . أعطاهُ صحيفةً فيها : ارحمِ المسكينَ ، واخشَ الموتَ ، واذكرِ الآخرةَ ، فكانَ يقرؤُها حتَّىٰ يسكنَ غضبُهُ (٥)

الثالثُ : أنْ يحذِّرَ نفسَهُ عاقبةَ العداوةِ والانتقامِ ، وتَشمُّرَ العدوِّ لمقابلتِهِ ، والسعيَ في هدمِ أغراضِهِ ، والشماتةَ بمصائبِهِ ، وهوَ لا يخلو عنِ المصائبِ ، فيخوِّفَ نفسَهُ بعواقبِ الغضبِ في الدنيا إنْ كانَ لا يخافُ مِنَ الآخرةِ .

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يذكره بنحوه ، والناصح فيه لأمير المؤمنين هو الحرُّ بن قيس رضي الله عنه .
(٢) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٤٨/٨) .
(٣) رواه أحمد في « الزهد » (ص ٤٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٥٠) عن وهيب بن الورد المكي .
(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٩٠١) ، والطبراني في « الكبير » (٣٧٦/٢٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧٨/٨) ، والوصيف : الخادم ، غلاماً كان أو جارية كما هو الحال هنا .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٢١/٨) .

وهٰذا يرجعُ إلىٰ تسليطِ شهوةٍ علىٰ غضبٍ ، وليسَ هٰذا مِن أعمالِ الآخرةِ ، ولا ثوابَ عليهِ ؛ لأنَّهُ متردِّدٌ علىٰ حظوظِهِ العاجلةِ ، يقدِّمُ بعضَها علىٰ بعضٍ ، إلَّا أنْ يكونَ محذورُهُ أنْ يتشوَّشَ عليهِ في الدنيا فراغُهُ للعلمِ والعملِ ، وما يعينُهُ علىٰ الآخرةِ ؛ فيكونُ مثاباً عليهِ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنْ يتفكَّرَ في قبحِ صورتِهِ عندَ غضبِهِ ؛ بأنْ يتذكَّرَ صورةَ غيرِهِ في حالةِ الغضبِ ويتفكَّرَ في قبحِ الغضبِ في نفسِهِ ، ومشابهةِ صاحبِهِ للكلبِ الضاري والسبعِ العادي ، ومشابهةِ الحليمِ الهادئِ التاركِ للغضبِ الأنبياءَ والأولياءَ والعلماءَ والحكماءَ ، ويخيِّرُ نفسَهُ بينَ أنْ يتشبَّهَ بالكلابِ والسباعِ وأراذلِ الناسِ ، وبينَ أنْ يتشبَّهَ بالأنبياءِ والعلماءِ في عادتِهم ؛ لتميلَ نفسُهُ إلىٰ حبِّ الاقتداءِ بهٰؤلاءِ إن كانَ قدْ بقيَ معَهُ مُسْكةٌ مِنْ عقلٍ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : أنْ يتفكَّرَ في السببِ الذي يدعوهُ إلى الانتقامِ ، ويمنعُهُ مِنْ كظمِ الغيظِ ، ولا بدَّ وأنْ يكونَ لهُ سببٌ ؛ مثلَ قولِ الشيطانِ لهُ : إنَّ هٰذا يُحمَلُ منكَ على العجزِ ، وصغَرِ النفسِ ، والذلَّةِ ، والمهانةِ ، وتصيرُ حقيراً في أعينِ الناسِ ، فليقلْ لنفسِهِ : ما أعجبَكِ يا نفسُ !! تأنفينَ مِنَ الاحتمالِ الآنَ ، ولا تأنفينَ مِنْ خزيِ يومِ القيامةِ والافتضاحِ إذا أخذَ هٰذا بيدِكِ وانتقمَ منكِ ، وتحذرينَ مِنْ أنْ تَصغُري في أعينِ الناسِ ، ولا تحذرينَ مِنْ أنْ تصغُري عندَ اللهِ والملائكةِ والنبيِّينَ ؟!

فمهما كظمَ الغيظَ . . فينبغي أنْ يكظمَهُ للهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ يعظِّمُهُ عندَ اللهِ ، فما لهُ وللناسِ ؟! وذلُّ مَنْ ظلمَهُ يومَ القيامةِ أشدُّ مِنْ ذلِّه لَوِ انتقمَ الآنَ ، أفلا يحبُّ أنْ يكونَ هوَ القائمَ إذا نوديَ يومَ القيامةِ : ليقمْ مَنْ أجرُهُ على اللهِ ، فلا يقومُ إلا مَنْ عفا(١)

فهٰذا وأمثالُهُ مِنْ معارفِ الإيمانِ ينبغي أنْ يقرِّرَه علىٰ قلبِهِ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : أنْ يعلمَ أنَّ غضبَهُ مِنْ تعجُّبِهِ مِنْ جريانِ الشيءِ علىٰ وفقِ مرادِ اللهِ لا علىٰ وَفقِ مرادِهِ ، فكيفَ يقولُ : مرادي أولىٰ مِنْ مرادِ اللهِ ؟! ويوشكُ أنْ يكونَ غضبُ اللهِ عليهِ أعظمَ مِنْ غضبِهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا العملُ :

فأنْ تقولَ بلسانِكَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ) ، هٰكذا أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يُقالَ عندَ الغيظِ(٢)

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا غضبَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها . . أخذَ بأنفِها وقالَ : « يا عويشُ ؛ قولي :

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٤/٩) عن الحسن .
(٢) رواه البخاري (٣٢٨٢) ، ومسلم (٢٦١٠) .

اللهمَّ ، ربَّ النَّبيِّ محمدٍ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، وأذهبْ غيظَ قلبي ، وأجرْني مِنْ مضلَّاتِ الفِتنِ »[1] ، فيُستحبُّ أنْ تقولَ ذٰلكَ .

فإنْ لمْ يزُلْ بذٰلكَ . . فاجلس إنْ كنتَ قائماً ، واضطجعْ إنْ كنتَ جالساً ، واقربْ مِنَ الأرضِ التي منها خلقتَ ؛ لتعرفَ بذٰلكَ ذلَّ نفسِكَ ، واطلبْ بالجلوسِ والاضطجاعِ السكونَ ؛ فإنَّ سببَ الغضبِ الحرارةُ ، وسببَ الحرارةِ الحركةُ ، فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الغضبَ جمرةٌ تُوقَدُ في القلبِ ، ألمْ تروا إلى انتفاخِ أوداجِهِ وحُمرةِ عينيهِ ؟! فإذا وجدَ أحدُكمْ مِنْ ذٰلكَ شيئاً ؛ فإنْ كانَ قائماً . . فليجلسْ ، وإنْ كانَ جالساً . . فلينمْ »[2]

فإنْ لمْ يزُلْ ذٰلكَ . . فليتوضَّأْ بالماءِ الباردِ أوْ يغتسلْ ؛ فإنَّ النارَ لا يطفئُها إلا الماءُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا غضبَ أحدُكمْ . . فليتوضَّأْ بالماءِ ؛ فإنَّ الغضبَ مِنَ النارِ » ، وفي روايةٍ : « إنَّ الغضبَ مِنَ الشيطانِ ، وإنَّ الشيطانَ خُلقَ مِنَ النارِ ، وإنَّما تُطفأُ النارُ بالماءِ ، فإذا غضبَ أحدُكُمْ . . فليتوضأْ »[3]

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا غضبتَ . . فاسكُتْ »[4]

وقالَ أبو هريرةَ : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا غضبَ وهوَ قائمٌ . . جلسَ ، وإذا غضبَ وهوَ جالسٌ . . اضطجعَ ، فيذهبُ غضبُهُ)[5]

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا إنَّ الغضبَ جمرةٌ في قلبِ ابنِ آدمَ ، ألا ترونَ إلىٰ حُمرةِ عينيهِ وانتفاخِ أوداجِه ؟! فمَنْ وجدَ مِنْ ذٰلكَ شيئاً . . فليُلصِقْ خدَّهُ بالأرضِ »[6] ، وكأنَّ هٰذا إشارةٌ إلى السجودِ ، وتمكينِ أعزِّ الأعضاءِ مِنْ أذلِّ المواضعِ ، وهوَ الترابُ ؛ لتستشعرَ بهِ النفسُ الذلَّ ، وتزايلَ بهِ العزَّةَ والزهوَ الذي هوَ سببُ الغضبِ .

ورُويَ أنَّ عمرَ غضبَ يوماً ، فدعا بماءٍ فاستنشقَ وقالَ : (إنَّ الغضبَ مِنَ الشيطانِ ، وهٰذا يذهبُ الغضبَ)[7]

وقالَ عروةُ بنُ محمدٍ : لمَّا استُعمِلتُ على اليمنِ . . قالَ لي أبي : أَوَلِيتَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإذا غضبتَ . . فانظرْ إلى السماءِ فوقَكَ ، وإلى الأرضِ تحتَكَ ، ثمَّ أعظمْ خالقَهُما[8]

ورُويَ أنَّ أبا ذرٍّ قالَ لرجلٍ : يا بنَ الحمراءِ ، في خصومةٍ بينهُما ، فبلغَ ذٰلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ بلغَني أنَّكَ اليومَ عيَّرْتَ رجلاً بأمِّهِ !! » فقالَ : نعمْ ، فانطلقَ أبو ذرٍّ ليرضيَ صاحبَهُ ، فسبقَهُ الرجلُ فسلَّم

---

(١) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨١/٦٨) .

(٢) رواه الترمذي (٢١٩١) بنحوه ، وقد تقدم بعضه ، وذكر الجلوس والاضطجاع أيضاً جاء عند أبي داوود (٤٧٨٢) .

(٣) رواه أبو داوود (٤٧٨٤) ، وأحمد في « المسند » (٢٢٦/٤) .

(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٢٨٣/١) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١٣٢٠) ، والطبراني في « الكبير » (٣٣/١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم) . « إتحاف » (٢٣/٨) ، وتقدم نحو هٰذا المعنى ، ولابن حبان في « صحيحه » (٥٦٨٨) عن أبي ذر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم . . فليجلس ، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا . . فليضطجع » .

(٦) هو جزء من حديث رواه الترمذي (٢١٩١) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٢٣/٨) .

(٨) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢١٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢١/٥٤) .

عليهِ ، فذُكِرَ ذٰلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ ارفعْ رأسَكَ فانظرْ ، ثمَّ اعلمْ أنَّكَ لستَ بأفضلَ مِن أحمرَ فيها ولا أسودَ إلَّا أنْ تفضلَهُ بعملٍ » ، ثمَّ قالَ : « إذا غضبتَ ؛ فإنْ كنتَ قائماً . . فاقعدْ ، وإنْ كنتَ قاعداً . . فاتَّكِئْ ، وإنْ كنتَ متَّكئاً . . فاضطجعْ »[1]

وقالَ المعتمرُ بنُ سليمانَ : كانَ رجلٌ ممَّنْ كانَ قبلَكُمْ يغضبُ فيشتدُّ غضبُهُ ، فكتبَ ثلاثَ صحائفَ ، فأعطىٰ كلَّ صحيفةٍ رجلاً ، وقالَ للأوَّلِ : إذا غضبتُ . . فأعطني هٰذهِ ، وقالَ للثاني : إذا سكنَ بعضُ غضبي . . فأعطني هٰذهِ ، وقالَ للثالثِ : إذا ذهبَ غضبي . . فأعطني هٰذهِ ، فاشتدَّ غضبُهُ يوماً ، فأُعطيَ الصحيفةَ الأولىٰ ، فإذا فيها : (ما أنتَ وهٰذا الغضبُ ؟! إنَّكَ لستَ بإلٰهٍ ، إنَّما أنتَ بشرٌ يوشكُ أنْ يأكلَ بعضُكَ بعضاً) ، فسكنَ بعضُ غضبِهِ ، فأُعطيَ الثانيةَ ، فإذا فيها : (ارحمْ مَنْ في الأرضِ . . يرحمْكَ مَنْ فِي السماءِ) ، فأُعطيَ الثالثةَ ، فإذا فيها : (خذِ الناسَ بحقِّ اللهِ ؛ فإنَّهُ لا يصلحُهُمْ إلَّا ذٰلكَ) أيْ : لا تعطلِ الحدودَ[2]

وغضبَ المهديُّ علىٰ رجلٍ ، فقالَ شبيبٌ : لا تغضبنَّ للهِ بأشدَّ مِنَ غضبِهِ لنفسِهِ ، فقالَ : خلُّوا سبيلَهُ[3]

* * *

(١) قال الحافظ العراقي : (أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » بإسناد صحيح) . « إتحاف » (٨/٢٤) ، وأصل الخبر عند البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) ، وعند أحمد في « المسند » (٥/١٥٨) من حديثه مرفوعاً : « انظر ، فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بالتقوىٰ » .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٢٤) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٢٤) .

فضيلة كظم الغيظ

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، وذكرَ ذٰلكَ في معرِضِ المدحِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ غضبَهُ . . كفَّ اللهُ عنهُ عذابَهُ ، ومَنِ اعتذرَ إلى اللهِ . . قبِلَ اللهُ عذرَهُ ، ومَنْ خزَنَ لسانَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّكُمْ مَنْ غلَبَ نفسَهُ عندَ الغضبِ ، وأحلمُكُمْ مَنْ عفا بعدَ القدرةِ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كظمَ غيظاً ولوْ شاءَ أنْ يمضيَهُ أمضاهُ . . ملأَ اللهُ قلبَهُ يومَ القيامةِ رضاً »(٣)

وفي روايةٍ : « ملأَ اللهُ قلبَهُ أمناً وإيماناً »(٤)

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جرعَ عبدٌ جُرعةً أعظمَ أجراً مِنْ جُرعةِ غيظٍ كظَمَها ابتغاءَ وجهِ اللهِ »(٥)

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لجهنَّمَ باباً لا يدخلُهُ إلَّا مَنْ شفىٰ غيظَهُ بمعصيةِ اللهِ تعالىٰ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنَ جُرعةٍ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ جرعةِ غيظٍ يكظمُها عبدٌ ، وما كظمَها عبدٌ إلَّا ملأَ اللهُ قلبَهُ إيماناً »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كظمَ غيظاً وهوَ يقدرُ علىٰ أنْ يُنْفذَهُ . . دعاهُ اللهُ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ ويخيِّرُهُ مِنْ أيِّ الْحورِ شاءَ »(٨)

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ اتقى اللهَ . . لمْ يشفِ غيظَهُ ، ومَنْ خافَ اللهَ . . لمْ يفعلْ ما يريدُ ، ولولا يومُ القيامةِ . . لكانَ غيرَ ما ترونَ)(٩)

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٢٤/٨) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٥٨٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٢٥/٨) ، وكذا رواه العسكري في « تصحيفات المحدثين » (٣٤٩/١) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٢٥/٨) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) .

(٥) رواه ابن ماجه (٤١٨٩) .

(٦) رواه البزار في « مسنده » (٥١٨٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥١/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٧٨) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث ابن عباس . « إتحاف » (٢٥/٨) .

(٨) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٣) ، وابن ماجه (٤١٨٦) .

(٩) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٠٥) من طريق ابن أبي الدنيا .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تذهبْ ماءَ وجهِكَ بالمسألةِ ، ولا تشفِ غيظَكَ بفضيحتِكَ ، واعرفْ قدرَكَ . . تنفعْكَ معيشتُكَ)[1]

وقالَ أيوبُ : (حلمُ ساعةٍ يدفعُ شرّاً كثيراً)[2]

واجتمعَ سفيانُ الثوريُّ وأبو خزيمةَ اليربوعيُّ والفضيلُ بنُ عياضٍ ، فتذاكرُوا الزهدَ ، فأجمعُوا علىٰ أنَّ أفضلَ الأعمالِ الحلمُ عندَ الغضبِ ، والصبرُ عندَ الطمعِ[3]

وقالَ رجلٌ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما تقضي بالعدلِ ، ولا تعطي الجزلَ ، فغضبَ عمرُ حتَّىٰ عُرِفَ ذٰلكَ في وجهِهِ ، فقالَ لهُ رجلٌ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ألمْ تسمعْ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فهٰذا مِنَ الجاهلينَ ، فقالَ عمرُ : صدقتَ ، فكأنَّما كانَتْ ناراً فأُطفِئَتْ[4]

وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ : (ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ استكملَ الإيمانَ باللهِ ؛ إذا رضيَ . . لمْ يُدخِلْهُ رضاهُ في الباطلِ ، وإذا غضبَ . . لمْ يخرجْهُ غضبُهُ عنِ الحقِّ ، وإذا قدرَ . . لمْ يتناولْ ما ليسَ لهُ)[5]

وجاءَ رجلٌ إلىٰ سلمانَ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : لا تغضبْ ، قالَ : لا أقدرُ ، قالَ : فإنْ غضبتَ . . فأمسِكْ لسانَكَ ويدَكَ[6]

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٢٦/٨) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٠٦٨) ، وأيوب هو السختياني .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٢٦/٨) .

(٤) رواه البخاري (٤٦٤٢) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٢/٥) ضمن خبر طويل .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٢٦/٨) .

بيان فضيلة الحلم

اعلمْ : أنَّ الحلمَ أفضلُ مِنْ كظمِ الغيظِ ؛ لأنَّ كظمَ الغيظِ عبارةٌ عنِ التحلُّمِ ؛ أيْ : تكلُّفِ الحلمِ ، ولا يحتاجُ إلىٰ كظمِ الغيظِ إلَّا مَنْ هاجَ غيظُهُ ، ويحتاجُ فيهِ إلىٰ مجاهدةٍ شديدةٍ ، ولٰكنْ إذا تعوَّدَ ذٰلكَ مدَّةً . . صارَ ذٰلكَ اعتياداً ، فلا يهيجُ الغيظُ ، وإنْ هاجَ . . فلا يكونُ في كظمِهِ تعبٌ ، وهوَ الحلمُ الطبيعيُّ ، وهوَ دلالةُ كمالِ العقلِ واستيلائِهِ ، وانكسارِ قوةِ الغضبِ وخضوعِها للعقلِ ، ولٰكنِ ابتداؤُهُ التحلُّمُ وكظمُ الغيظِ تكلُّفاً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما العلمُ بالتعلُّمِ ، والحلمُ بالتحلُّمِ ، ومَنْ يتحرَّ الخيرَ . . يعطَهُ ، ومَنْ يتوقَّ الشَّرَّ . . يوقَهُ »[1] ، أشارَ بهٰذا إلىٰ أنَّ اكتسابَ الحلمِ طريقُهُ التحلُّمُ أولاً وتكلُّفُهُ ؛ كما أنَّ اكتسابَ العلمِ طريقُهُ التعلُّمُ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبُوا العلمَ ، واطلبُوا معَ العلمِ السكينةَ والحلمَ ، لينُوا لمَنْ تُعلِّمونَ ولمَنْ تَعلَّمونَ منهُ ، ولا تكونُوا مِن جبابرةِ العلماءِ ؛ فيغلبَ جهلُكُمْ حلمَكُمْ »[2] ، أشارَ بهٰذا إلىٰ أنَّ التجبُّرَ والتكبُّرَ هوَ الذي يهيِّجُ الغضبَ ويمنعُ مِنَ الحلمِ واللِّينِ .

وكانَ مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ أغنني بالعلمِ ، وزيِّنِّي بالحلمِ ، وأكرمْني بالتقوىٰ ، وجمِّلْني بالعافيةِ »[3]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ابتغُوا الرِّفعةَ عندَ اللهِ » ، قالُوا : وما هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « تصلُ مَنْ قطعَكَ ، وتعطي مَنْ حرَمَك ، وتحلُمُ عمَّنَ جهِلَ عليكَ »[4]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خمسٌ مِنْ سننِ المرسلينَ : الحياءُ ، والحِلْمُ ، والحجامَةُ ، والسِّواكُ ، والتَّعطُّرُ »[5]

وقالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ المسلمَ ليُدْرِكُ بالحلْمِ درجةَ الصائمِ القائمِ ، وإنَّهُ ليُكْتَبُ جباراً عنيداً وما يملكُ إلَّا أهلَ بيتِهِ »[6]

وقالَ أبو هريرةَ : إنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ لي قرابةً أصِلُهُمْ ويقطعُوني ، وأحسنُ إليهِمْ ويسيئونَ إليَّ ، ويجهلونَ عليَّ وأحلُمُ عنهُمْ ، فقالَ : « لئِنْ كانَ كما تقولُ . . فكأنَّما تُسِفُّهُمُ الملَّ ، ولا يزالُ معكَ مِنَ اللهِ ظهيرٌ ما دُمتَ علىٰ ذٰلكَ »[7] ، الملُّ ؛ يعني : الرملَ .

وقالَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ : اللهمَّ ؛ ليسَ عندي صدقةٌ أتصدَّقُ بها ، فأيُّما رجلٍ أصابَ مِنْ عرضي شيئاً . .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٦٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٤/٥) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣٣٥/٤) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣) عن سفيان بن عيينة معضلاً ، ووصله الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣٢٤/٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤) بلفظ المصنف هنا .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٦) من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٩/٨) .

(٧) رواه مسلم (٢٥٥٨) .

فهوَ عليهِ صدقةٌ ، فأَوحى اللهُ تعالىٰ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنِّي قدْ غفرتُ لهُ [1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيعجزُ أحدُكُمْ أنْ يكونَ كأبي ضمضمٍ ؟ » قالُوا : وما أبو ضمضمٍ ؟ قالَ : « رجلٌ فيمَنْ كانَ قبلَكُمْ ، كانَ إذا أصبحَ يقولُ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي تصدَّقْتُ اليومَ بعرضي علىٰ مَنْ ظلمَني » [2]

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ أيْ : حلماءَ علماءَ [3]

وعنِ الحسنِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ قالَ : (حلماءُ ، إن جُهِلَ عليهِمْ . . لمْ يجهلُوا) [4] .

وقالَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أيْ : حلماً [5]

وقالَ ابنُ أبي حبيبٍ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَهْلًا ﴾ قالَ : الكهْلُ : منتهى الحلمِ [6]

وقالَ مجاهدٌ : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ أيْ : إذا أُوذُوا . . صفحُوا [7]

ورُوِيَ أنَّ ابنَ مسعودٍ مرَّ بلغوٍ معرضاً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصبحَ ابنُ مسعودٍ وأمسىٰ كريماً » ، ثمَّ تلا إبراهيمُ بنُ ميسرةَ ـ وهوَ الرَّاوي ـ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [8]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ لا يُدْركُني ولا أدركُهُ زمانٌ لا يتَّبعُونَ فِيهِ العليمَ ، ولا يستحْيونَ فيهِ مِنَ الحليمِ ، قلوبُهُم قلوبُ العجمِ ، وألسنَتُهمْ ألسنةُ العربِ » [9]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليلِني منكُمْ ذوُو الأحلامِ والنُّهىٰ ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ولا تختلفُوا فتختلفَ قلوبُكُمْ ، وإيَّاكُمْ وهَيْشاتِ الأسواقِ » [10]

ورُوِيَ أنَّهُ وفدَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأشجُّ ، فأناخَ راحلتَهُ ثمَّ عقلَها ، ثمَّ طرحَ عنهُ ثوبينِ كانا عليهِ ، وأخرجَ مِنَ العَيبةِ ثوبينِ حسنينِ فلبسَهُما ، وذٰلكَ بعينِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرىٰ ما يصنعُ ، ثمَّ أقبلَ يمشي إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أشجُّ ؛ إنَّ فيكَ لخُلقينِ يحبُّهمَا اللهُ ورسولُهُ » ، قالَ : وما هما بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « الحلمُ والأناةُ » ، فقالَ : خُلُقانِ تخلَّقْتُهما أوْ خُلُقانِ جُبلتُهما ؟ فقالَ : « بلْ خُلُقانِ جبَلَكَ اللهُ عليهِما » ، فقالَ : الحمدُ للهِ الذي جبلَني علىٰ خُلُقينِ يحبُّهُما اللهُ ورسولُهُ [11]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الحليمَ الحييَّ ، الغنيَّ المتعفِّفَ أبا العيالِ التقيَّ ، ويبغضُ الفاحشَ البذيءَ ، السائلَ الملحِفَ الغبيَّ » [12]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٩) ، والقائل هو عبلة بن زيد رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « مكارم الأخلاق » (٥٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١١) .

(٦) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٥٢٦) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٢٥) .

(٨) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٥٤٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٨/٣٣) عن إبراهيم بن ميسرة بلاغاً .

(٩) رواه أحمد في « مسنده » (٣٤٠/٥) .

(١٠) رواه مسلم (٤٣٢) مختصراً ، وهو عند أبي داوود (٢٢٨) ، والهيشة : الفتنة .

(١١) رواه أبو داوود (٥٢٢٥) ، وأصله عند مسلم (١٨) .

(١٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٤) مرسلًا من حديث عمرو بن دينار ، وعند مسلم (٢٩٦٥) مرفوعاً : « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي » .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ لمْ تكنْ فيهِ واحدةٌ منهنَّ . . فلا يُعتدَّنَّ بشيءٍ مِنْ عملِهِ : تقوىً تحجزُهُ عنْ معاصي اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحِلْمٌ يكفُّ بهِ السَّفيهَ ، وخُلُقٌ يعيشُ بهِ في الناسِ »(١)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا جمعَ اللهُ الخلائقَ يومَ القيامةِ . . نادىٰ منادٍ : أينَ أهلُ الفضلِ ؟ فيقومُ ناسٌ وهمْ يسيرٌ ، فينطلقُونَ سراعاً إلى الجنَّةِ ، فتتلقاهُمُ الملائكةُ ، فيقولُونَ لهُمْ : إنَّا نراكُمْ سراعاً إلى الجنَّةِ ، فيقولُونَ : نحنُ أهلُ الفضلِ ، فيقولُونَ لهُمْ : ما كانَ فضلُكُمْ ؟ فيقولُونَ : كنَّا إذا ظُلِمْنا . . صبرْنا ، وإذا أُسِيءَ إلينا . . غفرْنا ، وإذا جُهِلَ علينا . . حَلُمْنا ، فيُقالُ لهمْ : ادخلُوا الجنَّةَ ؛ فنعمَ أجرُ العاملينَ »(٢)

❊ ❊ ❊

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّمُوا للعلمِ السكينةَ والحلمَ)(٣)

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ الخيرُ أنْ يكثُرَ مالُكَ وولدُكَ ، ولٰكنَّ الخيرَ أنْ يكثرَ علمُكَ ، ويعظمَ حلمُكَ ، وأن تباهيَ الناسَ بعبادةِ ربِّكَ ، فإذا أحسنتَ . . حمدتَ الله ، وإذا أسأتَ . . استغفرتَ اللهَ)(٤)

وقالَ الحسنُ : (اطلبُوا العلمَ ، وزيِّنوهُ بالوقارِ والحلْمِ)(٥)

وقالَ أكثمُ بنُ صيفيٍّ : (دعامةُ العقلِ الحلمُ ، وجماعُ الأمرِ الصبرُ)(٦)

وقالَ أبو الدرداءِ : أدركْتُ الناسَ ورقاً لا شوكَ فيهِ ، فأصبحُوا شوكاً لا ورقَ فيه ، إنْ نقدْتَهمْ . . نقدُوكَ ، وإنْ تركتَهُمْ . . لمْ يتركوكَ ، قالُوا : كيفَ نصنعُ ؟ قالَ : تقرضُهُمْ مِنْ عرضِكَ ليومِ فقرِكَ(٧)

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ أوَّلَ عوضِ الحليمِ من حلمِهِ أنَّ الناسَ كلَّهُمْ أعوانُهُ على الجاهلِ)(٨)

وقالَ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يبلغُ الرجلُ مبلغَ الرأيِ حتَّىٰ يغلبَ حلمُهُ جهلَهُ ، وصبرُهُ شهوتَهُ ، ولا يبلغُ ذٰلكَ إلا بقوَّةِ العلمِ)(٩)

وقالَ معاويةُ لعمرِو بنِ الأهتمِ : أيُّ الرجالِ أشجعُ ؟ قالَ : مَنْ ردَّ جهلَهُ بحلمِهِ ، قالَ : أيُّ الرجالِ أسخىٰ ؟ قالَ : مَنْ بذلَ دنياهُ لصلاحِ دينِهِ(١٠)

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٧/٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٣١) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٠٧) ، ورواه مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ابن عدي في « الكامل » (٣٣٥/٤) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧٥/١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٦٠) ولكن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٣٢/٨) ، وقد رویٰ بنحوه مرفوعاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ابن عدي في « الكامل » (٣٣٥/٤) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) ولفظه : « اطلبوا العلم ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم . . . » الحديث .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٦) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٣) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٢) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٣) .

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٢٢) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ : (هوَ الرجلُ يشتمُهُ أخوهُ ، فيقولُ : إنْ كنتَ كاذباً . . فغفرَ اللهُ لكَ ، وإنْ كنتَ صادقاً . . فغفرَ اللهُ لي)(١)

وعنْ بعضِهِمْ قالَ : شتمتُ فلاناً مِنْ أهلِ البصرةِ ، فحلمَ عنِّي ، فاستعبدَني بها زماناً(٢)

وقالَ معاويةُ لعَرابةَ بنِ أوسٍ : بمَ سدتَ قومَكَ ؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، كنتُ أحلُمُ عنْ جاهلِهِمْ ، وأعطي سائلَهُمْ ، وأسعىٰ في حوائجِهِمْ ، فمَنْ فعلَ فعلي . . فهوَ مثلي ، ومَنْ جاوزَني . . فهوَ أفضلُ مني ، ومَنْ قصُرَ عنِّي . . فأنا خيرٌ منهُ(٣)

وسبَّ رجلٌ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمَّا فرغَ . . قالَ : يا عكرمةُ ؛ هلْ للرجلِ حاجةٌ فنقضيَها ؟ فنكَّسَ الرجلُ رأسَهُ واستحيا(٤)

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : أشهدُ أنَّكَ مِنَ الفاسقينَ ، فقالَ : ليسَ تُقبلُ شهادتُكَ(٥)

وعنْ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ : أنَّهُ سبَّهُ رجلٌ ، فرمىٰ إليهِ خميصةً كانَتْ عليهِ ، وأمرَ لهُ بألفِ درهمٍ(٦) ، فقالَ بعضُهمْ : جَمعَ فيهِ خمسَ خصالٍ محمودةٍ : الحلمُ ، وإسقاطُ الأذىٰ ، وتخليصُ الرجلِ ممَّا يبعدُهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحملُهُ على الندمِ والتوبةِ ، ورجوعُهُ إلى المدحِ بعدَ الذمِّ ، اشترىٰ جميعَ ذٰلكَ بشيءٍ مِنَ الدنيا يسيرٍ(٧)

وقالَ رجلٌ لجعفرِ بنِ محمدٍ : إنهُ قدْ وقعَ بيني وبينَ قومٍ منازعةٌ في أمرٍ ، وإنِّي أريدُ أنْ أتركَهُ فأخشىٰ أنْ يقالَ لي : إنَّ تركَكَ لهُ ذلٌّ ، فقالَ جعفرٌ : إنَّما الذليلُ الظالمُ(٨)

وقالَ الخليلُ بنُ أحمدَ : (كانَ يُقالُ : مَنْ أساءَ فأُحسِنَ إليهِ . . فقدْ جُعلَ لهُ حاجزٌ مِنْ قلبِهِ يردعُهُ عنْ مثلِ إساءَتِهِ)(٩) .

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : (لستُ بحليمٍ ، ولٰكنِّي أتحلَّمُ)(١٠)

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (مَنْ يَرحَمْ . . يُرحمْ ، ومَنَ يصمُتْ . . يسلمْ ، ومَنْ يجهلْ . . يُغلَبْ ، ومَنْ يعجلْ . . يخطئْ ، ومَنْ يحرصْ على الشرِّ . . لا يسلمْ ، ومَنْ لا يدعِ المراءَ . . يُشْتَمْ ، ومَنْ لا يكرهِ الشتمَ . . يأثمْ ، ومَنْ يكرهِ الشرَّ . . يُعصَمْ ، ومَنْ يتبعْ وصيةَ اللهِ . . يُحفَظْ ، ومَنْ يحذرِ اللهَ . . يأمنْ ، ومَنْ يتولَّ اللهَ . . يُمنعْ ، ومَنْ لا

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٤٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣٤) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣٩) إلىٰ قوله : (وأسعىٰ في حوائجهم) ، وأشار إلىٰ روايته بتمامه الحافظ الزبيدي عنده في « ذم الغضب » . انظر « الإتحاف » (٣٣/٨) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٣٣/٨) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٣٣/٨) .
(٦) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩٤/٤١) ، وفيه أنه قال له بعد أن سبَّه الرجل : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل ورجع إلىٰ نفسه ، فألقىٰ إليه خميصة . . . الخبر .
(٧) كذا الخبر بتمامه عند ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٣٣/٨) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٣٣/٨) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٦) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٨) .

يسألِ اللهَ . . يفتقرْ ، ومَنْ لا يكنْ معَ اللهِ . . يُخذلْ ، ومَنْ يستعنْ باللهِ . . يظفرْ)[١]

وقالَ رجلٌ لمالكِ بنِ دينارٍ : بلغَني أنَّكَ ذكرتَني بسوءٍ ، قالَ : أنتَ إذاً أكرمُ عليَّ مِنْ نفسي ؛ إنِّي إذا فعلتُ ذٰلكَ . . أهديتُ إليكَ حسناتِي[٢]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (الحلمُ أرفعُ مِنَ العقلِ ؛ لأنَ اللهَ تعالىٰ تسمَّىٰ بهِ)[٣]

وقالَ رجلٌ لبعضِ الحكماءِ : واللهِ ؛ لأسبَّنَّكَ سبّاً يدخلُ معكَ في قبرِكَ ، فقالَ : معكَ يدخلُ لا معي[٤]

ومرَّ المسيحُ ابنُ مريمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بقومٍ مِنَ اليهودِ ، فقالُوا لهُ شراً ، فقالَ لهمْ خيراً ، فقيلَ لهُ : إنَّهمْ يقولونَ شراً وأنتَ تقولُ خيراً !! فقالَ : كلُّ واحدٍ ينفقُ ممَّا عندَهُ[٥]

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (ثلاثةٌ لا يُعرَفُونَ إلا عندَ ثلاثةٍ : لا يُعرفُ الحليمُ إلا عندَ الغضبِ ، ولا الشجاعُ إلا عندَ الحربِ ، ولا الأخُ إلَّا عندَ حاجتِكَ إليهِ)[٦]

ودخلَ علىٰ بعضِ الحكماءِ صديقٌ لهُ ، فقدَّمَ إليهِ طعاماً ، فخرجَتِ امرأةُ الحكيمِ وكانَتْ سيّئةَ الخلُقِ ، فرفعَتِ المائدةَ ، وأقبلَتْ علىٰ شتمِ الحكيمِ ، فخرجَ الصديقُ مغضباً ، فتبعَهُ الحكيمُ وقالَ لهُ : تذكرُ يومَ كنَّا في منزلِكَ نَطعَمُ فسقطَتْ دجاجةٌ على المائدةِ فأفسدَتْ ما عليها فلمْ يغضبْ أحدٌ منَّا ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فاحسَبْ أنَّ هٰذهِ مثلُ تلكَ الدجاجةِ ، فسُرِّيَ عنِ الرجلِ غضبُهُ وانصرفَ ، وقالَ : صدقَ الحكيمُ ، الحلمُ شفاءٌ مِنْ كلِّ ألمٍ[٧]

وضربَ رجلٌ قدمَ حكيمٍ فأوجعَهُ ، فلمْ يغضبْ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : أقمتُهُ مقامَ حجرٍ تعثَّرتُ بهِ ، وذبحتُ الغضبَ .

وقالَ محمودٌ الوراقُ[٨] : [من الطويل]

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الْجَرائِمُ

وَما النَّاسُ إِلَّا واحِدٌ مِنْ ثَلاثَةٍ ... شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقاوِمُ

فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ ... وَأَتْبَعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لازِمُ

وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنتُ عَنْ ... إِجابَتِهِ عِرْضِي وَإِنْ لامَ لائِمُ

وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفا ... تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْفَضْلَ بِالْخَيْرِ حاكِمُ

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥١) مختصراً .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٥) عن رجاء بن أبي سلمة .
(٤) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣٢٣/١٢) ، والحكيم فيه هو الأحنف .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٣٤/٨) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٩/٧) .
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . (٣٤/٨) .
(٨) ديوانه (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥) .

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

اعلمْ : أنَّ كلَّ ظلمٍ صَدَرَ مِنْ شخصٍ فلا يجوزُ مقابلتُهُ بمثلِهِ ؛ فلا تجوزُ مقابلةُ الغيبةِ بالغيبةِ ، ولا مقابلةُ التجسُّسِ بالتجسُّسِ ، ولا مقابلةُ السَّبِّ بالسَّبِّ ، وكذا سائرُ المعاصي ، وإنَّما القصاصُ والغرامةُ علىٰ قدرِ ما وردَ الشرعُ بهِ ، وقدْ فصَّلناهُ في الفقهِ .

وأمَّا السَّبُّ . . فلا يقابلُ بمثلِهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِ امرؤٌ عيَّرَكَ بما فيكَ . . فلا تعيِّرْهُ بما فيهِ »[1]

وقالَ : « المستبَّانِ ما قالا ، فهو على البادئِ ما لم يعتدِ المظلومُ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ شيطانانِ يتهاترانِ »[3]

وشتمَ رجلٌ أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ ساكتٌ ، فلمَّا ابتدأَ ينتصرُ منْهُ . . قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ أبو بكرٍ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّكَ كنتَ ساكتاً لما شتمَني ، فلمَّا تكلَّمتُ . . قمتَ ؟ قالَ : « لأنَّ المَلكَ كانَ يجيبُ عنكَ ، فلمَّا تكلَّمتَ . . ذهبَ الملَكُ وجاءَ الشَّيطانُ ، فلمْ أكُنْ لأجلسَ في مجلسٍ فيهِ الشَّيطانُ »[4]

وقالَ قومٌ : تجوزُ المقابلةُ بما لا كذبَ فيهِ ، ونهيُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ مقابلةِ التعييرِ بمثلِهِ نهيُ تنزيهٍ ، والأفضلُ تركُهُ ، ولٰكنَّهُ لا يعصي بهِ .

والذي يُرخَّصُ فيهِ أنْ تقولَ : مَنْ أنتَ ؟ وهلْ أنتَ إلَّا مِنْ بني فلانٍ[5] ؛ كما قالَ سعدٌ لابنِ مسعودٍ : وهلْ أنتَ إلَّا مِنْ بني هذيلٍ ؟ فقالَ ابنُ مسعودٍ : وهلْ أنتَ إلَّا مِنْ بني أميَّةَ ؟

ومثلُ قولِهِ : يا أحمقُ ، قالَ مطرفٌ : (كلُّ الناسِ أحمقُ فيما بينَهُ وبينَ ربِّه ، إلَّا أنَّ بعضَ الناسِ أقلُّ حماقةً مِنْ بعضٍ)[6]

وقالَ ابنُ عمرَ في حديثٍ طويلٍ : (حتَّىٰ ترى الناسَ كلَّهمْ حمقىٰ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ)[7]

وكذٰلكَ قولُهُ : يا جاهلُ ؛ إذْ ما مِنْ أحدٍ إلَّا وفيهِ جهلٌ ؛ فقدْ آذاهُ بما ليسَ بكذبٍ .

وكذٰلكَ قولُهُ : يا سيِّئَ الخلُقِ ، يا صفيقَ الوجهِ ، يا ثلَّابَ الأعراضِ ، وكانَ ذٰلكَ فيهِ .

وكذٰلكَ قولُهُ : لوْ كانَ فيكَ حياءٌ . . لما تكلَّمْتَ ، وما أحقرَكَ في عيني بما فعلْتَ ، وأخزاكَ اللهُ ، وانتقمَ منكَ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦٣/٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٨٢) .
(٢) رواه مسلم (٢٤٤٢) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٦٢/٤) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٢٨) .
(٤) رواه أبو داوود (٤٨٩٦) موصولاً ومرسلاً بنحوه .
(٥) ينسبه لقبيلته التي هو منها ، إلا إن كانت القبيلة مما ينبز باللؤم ؛ كباهلة وسلول وهيثم . « إتحاف » (٣٥/٨) .
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٣٥/٨) .
(٧) رواه مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٥) ، وفيه : « لا يفقه العبد كل الفقه حتىٰ يمقت الناس في ذات الله . . . » .

فأمَّا النميمةُ ، والغيبةُ ، والكذبُ ، وسبُّ الوالدين . . فحرامٌ بالاتفاقِ ؛ لما رُوِيَ أنَّهُ كانَ بينَ خالدِ بنِ الوليدِ وسعدٍ كلامٌ ، فذكرَ رجلٌ خالداً عندَ سعدٍ ، فقالَ سعدٌ : (مَهْ ؛ إنَّ ما بينَنا لمْ يبلغْ دينَنا)[(١)] ؛ يعني : أنْ يأثَمَ بعضُنا في بعضٍ ، فلمْ يسمعِ السوءَ ، فكيفَ يجوزُ أنْ يقولَهُ .

والدليلُ علىٰ جوازِ ما ليسَ بكذبٍ ولا حرامٍ ؛ كالنسبةِ إلى الزِّنا والسَّبِّ والفحشِ . . ما روَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرسلْنَ إليهِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فجاءَتْ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرسلَني إليكَ أزواجُكَ يسألْنَكَ العدلَ في ابنةِ أبي قحافةَ ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نائمٌ ، فقالَ : « يا بنيَّةُ ؛ أتحبينَ ما أحبُّ ؟ » ، قالَتْ : نعمْ ، قالَ : « فأحبِّي هٰذهِ » ، فرجعَتْ إليهنَّ ، فأخبرتْهُنَّ بذٰلكَ ، فقلنَ : ما أغنيتِ عنَّا شيئاً ، فأرسلنَ زينبَ بنتَ جحشٍ ، قالَتْ : وهيَ التي كانَتْ تساميني في الحبِّ ، فجاءَتْ ، فقالَتْ : بنتُ أبي بكرٍ ، وبنتُ أبي بكرٍ ، فما زالَتْ تذكرُني وأنا ساكتةٌ أنتظرُ أنْ يأذنَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الجوابِ ، فأذنَ لي ، فسببتُها حتَّىٰ جفَّ لساني ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلَّا ، إنَّها ابنةُ أبي بكرٍ »[(٢)] ، يعني : أنَّكِ لا تقاومينَها في الكلامِ قطُّ ، وقولُها : (سببتُها) ليسَ المرادُ بهِ الفحشَ ، بلْ هوَ الجوابُ عنْ كلامِها بالحقِّ ، ومقابلتُها بالصدقِ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ ما قالا ، فعلى البادئِ منهما حتَّىٰ يعتديَ المظلومُ »[(٣)] ، فأثبتَ للمظلومِ انتصاراً إلىٰ أنْ يعتديَ ، فهٰذا القدرُ هوَ الذي أباحَهُ هٰؤلاءِ ، وهوَ رخصةٌ في الإيذاءِ جزاءً علىٰ إيذائِهِ السابقِ .

ولا تبعدُ الرخصةُ في هٰذا القدْرِ ، ولٰكنَّ الأفضلَ تركُهُ ؛ فإنَّهُ يجرُّ إلىٰ ما وراءَهُ ، ولا يمكنُهُ الاقتصارُ علىٰ مقدارِ الحقِّ فيهِ ، والسكوتُ عنْ أصلِ الجوابِ لعلَّهُ أيسرُ مِنَ الشروعِ في الجوابِ والوقوفِ علىٰ حدِّ الشرعِ فيهِ ، ولٰكنْ مِنَ الناسِ مَنْ لا يقدرُ علىٰ ضبطِ نفسِهِ في فورةِ الغضبِ ، ولٰكنْ يعودُ سريعاً ، ومنهمْ مَنْ يكفُّ نفسَهُ في الابتداءِ ولٰكنْ يحقِدُ على الدوامِ .

والناسُ في الغضبِ أربعةٌ : فبعضُهُمْ كالحَلْفاءِ ، سريعُ الوقودِ سريعُ الخمودِ ، وبعضُهُم كالغضا ، بطيءُ الوقودِ بطيءُ الخمودِ ، وبعضُهُمْ بطيءُ الوقودِ سريعُ الخمودِ ، وهوَ الأحمدُ ، ما لمْ ينتهِ إلىٰ فتورِ الحميَّةِ والغَيْرةِ ، وبعضُهُمْ سريعُ الوقودِ بطيءُ الخمودِ ، وهٰذا هَو شرُّهمْ .

وفي الخبرِ : « المؤمنُ سريعُ الغضبِ سريعُ الرِّضا ، فهٰذهِ بتلكَ »[(٤)]

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (منِ استُغضِبَ فلمْ يغضبْ . . فهوَ حمارٌ ، ومَنِ استُرضيَ فلمْ يرضَ . . فهوَ شيطانٌ)[(٥)] .

وقدْ قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا إنَّ بني آدمَ خُلقُوا علىٰ طبقاتٍ شتَّىٰ ، فمنهُمْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٠٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٦/٤) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٨١) ، ومسلم (٢٤٤٢) واللفظ له .

(٣) رواه مسلم (٢٤٤٢) ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٤٠/١٦) : (معناه : أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادئ منهما كله ؛ إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار ، فيقول للبادئ أكثر مما قال له ، وفي هٰذا جواز الانتصار ولا خلاف في جوازه) .

(٤) نسب الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٣٢/٦) لفظه لصاحب « القوت » وزاد : (فهٰذه بهٰذه) ، وروىٰ نحوه الترمذي (٢١٩١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما سيأتي قريباً .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٣/٩) .

بطيءُ الغضبِ سريعُ الفيءِ ، ومنهُمْ سريعُ الغضبِ سريعُ الفيءِ ، فتلكَ بتلكَ ، ومنهُمْ سريعُ الغضبِ بطيءُ الفيءِ ، ألا وإنَّ خيرَهُمُ البطيءُ الغضبِ السَّريعُ الفيءِ ، وشرَّهُمُ السَّريعُ الغضبِ البطيءُ الفيءِ »[١]

ولمَّا كانَ الغضبُ في الحالِ يهيّجُ ويؤثّرُ في كلِّ إنسانٍ . . وجبَ على السلطانِ ألَّا يعاقبَ أحداً في حالِ غضبِهِ ؛ لأنَّهُ ربَّما يتعدَّى الواجبَ ، ولأنَّهُ ربَّما يكونُ مُشْفياً غيظَهُ ، ومريحاً نفسَهُ منْ ألمِ الغيظِ ؛ فيكونُ صاحبَ حظٍّ فيهِ ؛ فينبغي أنْ يكونَ انتقامُهُ وانتصارُهُ للهِ تعالىٰ لا لنفسِهِ .

ورأىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سكرانَ ، فأرادَ أنْ يأخذَهُ ويعزِّرَهُ ، فشتمَهُ السكرانُ ، فرجعَ عمرُ ، فقيلَ له : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لمَّا شتمَكَ . . تركتَهُ !! قالَ : لأنَّهُ أغضبَني ، ولوْ عزَّرتُهُ . . لكانَ ذٰلكَ لغضبِي لنفسِي ، ولمْ أحبَّ أنْ أضربَ مسلماً حميَّةً لنفسِي[٢]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ لرجلٍ أغضبَهُ : (لولا أنَّكَ أغضبتَني . . لعاقَبتُكَ)[٣]

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢١٩١) .

(٢) أخرجه الإسماعيلي في « مناقب عمر » . « إتحاف » (٨/٣٧) ، وتقدم قوله رضي الله عنه : (من اتقى الله . . لم يشف غيظه) .

(٣) نسبه الحافظ الزبيدي لأبي نعيم في « الحلية » . انظر « الإتحاف » (٨/٣٧) .

القول في معنى الحقد ونتائجه ، وفضيلة العفو والرفق

اعلمْ : أنَّ الغضبَ إذا لزمَ كظمُهُ لعجزٍ عنِ التشفِّي في الحالِ . . رجعَ إلى الباطنِ واحتقنَ فيهِ ، فصارَ حقداً .

ومعنى الحقدِ : أنْ يلزمَ قلبَهُ استثقالُهُ والبغضةُ لهُ والنفارُ منهُ ، وأنْ يدومَ ذٰلكَ ويبقىٰ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بحقودٍ »(١) ، فالحقدُ ثمرةُ الغضب .

❁ ❁ ❁

والحقدُ يثمرُ ثمانيةَ أمورٍ :

الأولُ : الحسدُ ، وهوَ أن يحملَكَ الحقدُ علىٰ أنْ تتمنَّىٰ زوالَ النعمةِ عنهُ ، فتغتمَّ بنعمةٍ إنْ أصابَها ، وتُسرَّ بمصيبةٍ إنْ نزلَتْ بهِ ، وهٰذا مِنْ فعلِ المنافقينَ ؛ أعني : الحسدَ ، وسيأتي ذمُّهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

الثاني : أنْ تزيدَ علىٰ إضمارِ الحسدِ في الباطنِ ، فتشمَتَ بما يصيبُهُ مِن البلاءِ .

الثالثُ : أنْ تهجرَهُ وتصارِمَهُ وتنقطعَ عنهُ وإنْ طلبَكَ وأقبلَ عليكَ .

الرابعُ : ـ وهوَ دونَهُ ـ : أنْ تعرِضَ عنهُ استصغاراً لهُ .

الخامسُ : أنْ تتكلَّمَ فيهِ بما لا يحلُّ ؛ مِنْ كذبٍ ، وغيبةٍ ، وإفشاءِ سرٍّ ، وهتكِ سترٍ ، وغيرِهِ .

السادسُ : أنْ تحاكيَهُ استهزاءً بهِ وسخريةً منهُ .

السابعُ : إيذاؤُهُ بالضربِ وما يؤلِمُ بدنَهُ .

الثامنُ : أنْ تمنعَهُ حقَّهُ ؛ مِنْ صلةِ رحمٍ ، أوْ قضاءِ دَينٍ ، أوْ ردِّ مظلمةٍ ، وكلُّ ذٰلكَ حرامٌ .

❁ ❁ ❁

وأقلُّ درجاتِ الحقدِ :

أنْ تحترزَ مِنَ الآفاتِ الثمانيةِ المذكورةِ ، ولا تخرجَ بسببِ الحقدِ إلىٰ ما تعصي اللهَ بهِ ، ولٰكنْ تستثقلُهُ في الباطنِ ، ولا تنهىٰ قلبَكَ عنْ بغضِهِ ، حتَّىٰ تمتنعَ عمَّا كنتَ تتطوعُ بهِ مِنَ البشاشةِ ، والرفقِ ، والعنايةِ ، والقيامِ بحاجاتِهِ ، والمجالسةِ معَهُ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والمعاونةِ على المنفعةِ لهُ ، أوْ تتركَ الدعاءَ لهُ ، والثناءَ عليهِ ، أوِ التحريضَ علىٰ برِّهِ ومواساتِهِ ، فهٰذا كلُّهُ ممَّا ينقصُ درجتَكَ في الدينِ ، ويحولُ بينَكَ وبينَ فضلٍ عظيمٍ وثوابٍ جزيلٍ ، وإنْ كانَ لا يعرِّضُكَ لعقابِ اللهِ .

ولمَّا حلفَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ألَّا ينفقَ علىٰ مِسْطحٍ ـ وكانَ قريبَهُ ـ لما تكلَّمَ في واقعةِ الإفكِ . . نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقالَ أبو بكرٍ : بلىٰ ، نحبُّ ذٰلكَ ، وعادَ إلى الإنفاقِ عليهِ(٢)

---

(١) وقد روى النسائي (١١/٦) : « ولا يجتمعان في قلب عبدٍ الإيمانُ والحسدُ » ، وقوله : « يجتمعان » علىٰ لغةٍ أو حذفٍ ، وأما الحديث بلفظ المؤلف « المؤمن ليس بحقود » . . فانظر « كشف الخفاء » (٢٩٣/٢) .

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) ضمن حديث البراءة المشهور .

والأولىٰ أنْ يبقىٰ علىٰ ما كانَ عليهِ ، فإنْ أمكنَهُ أنْ يزيدَ في الإحسانِ مجاهدةً للنفسِ وإرغاماً للشيطانِ . . فذٰلكَ هوَ مقامُ الصدِّيقينَ ، وهوَ مِنْ فضائلِ أعمالِ المقرَّبينَ .

فللمحقودِ ثلاثةُ أحوالٍ عندَ القدرةِ :

أحدُها : أنْ يستوفيَ حقَّهُ الذي يستحقُّهُ مِنْ غيرِ زيادةٍ ونقصانٍ ، وهوَ العدلُ .

والثاني : أنْ يحسنَ إليهِ بالعفوِ والصلةِ ، وذٰلكَ هوَ الفضلُ .

والثالثُ : أنْ يظلمَهُ بما لا يستحقُّهُ ، وذٰلكَ هوَ الجورُ ، وهوَ اختيارُ الأراذلِ ، والثاني هوَ اختيارُ الصدِّيقينَ ، والأولُ هوَ منتهىٰ درجاتِ الصالحينَ ، ولنذكرِ الآنَ فضيلةَ العفوِ والإحسانِ .

* * *

فضيلة العفو والإحسان

اعلمْ : أنَّ معنى العفوِ أنْ تستحقَّ حقّاً ، فتسقطَهُ وتبرئَ عنهُ ؛ مِنْ قصاصٍ أوْ غرامةٍ ، وهوَ غيرُ الحلمِ وكظمِ الغيظِ ؛ فلذلكَ أفردناهُ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ ـ والَّذي نفسِي بيدِهِ ـ إنْ كنتُ لحالفاً عليهنَّ : ما نقصَتْ صدقةٌ مِنْ مالٍ ؛ فتصدَّقُوا ، ولا عفا رجلٌ عنْ مظلمةٍ يبتغي بها وجهَ اللهِ إلَّا زادَهُ اللهُ بها عزّاً يومَ القيامة ، ولا فتحَ رجلٌ علىٰ نفسِهِ بابَ مسألةٍ إلَّا فتحَ اللهُ عليهِ بابَ فقرٍ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التَّواضعُ لا يزيدُ العبدَ إلا رفعةً ، فتواضعُوا . . يرفعْكُمُ اللهُ ، والعفوُ لا يزيدُ العبدَ إلَّا عزّاً ، فاعفُوا . . يعزَّكمُ اللهُ ، والصَّدقةُ لا تزيدُ المالَ إلَّا كثرةً ، فتصدَّقوا . . يرحمْكُمُ اللهُ »(٢)

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منتصراً مِنْ مظلمةٍ ظُلِمَها قطُّ ما لَمْ تُنتهَكْ حرمةٌ مِنْ محارمِ اللهِ ، فإذا انتُهِكَ مِنْ محارمِ اللهِ شيءٌ . . كانَ أشدَّهُمْ في ذلكَ غضباً ، وما خُيِّرَ بينَ أمرينِ إلَّا اختارَ أيسرَهُما ما لَمْ يكنْ مأثماً)(٣)

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : لقيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً ، فبدرتُهُ فأخذتُ بيدِهِ ، أوْ بدرَني فأخذَ بيدي ، فقالَ : « يا عقبةُ ؛ ألا أخبرُكَ بأفضلِ أخلاقِ أهلِ الدُّنيا والآخرةِ ؟ تصلُ مَنْ قطعَكَ ، وتعطي مَنْ حرمَكَ ، وتعفو عمَّنْ ظلمَكَ »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : يا ربِّ ؛ أيُّ عبادِكَ أعزُّ عليكَ ؟ قالَ : الذي إذا قدَرَ . . عفا »(٥)

وكذلكَ سُئلَ أبو الدرداءِ : مَنْ أعزُّ الناسِ ؟ قالَ : الذي يعفو إذا قدرَ ؛ فاعفُوا . . يعزَّكمُ اللهُ(٦)

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يشكو مظلمةً ، فأمرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يجلسَ ، وأرادَ أن يأخذَ لهُ بمظلمتِهِ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المظلومينَ همُ المفلحونَ يومَ القيامةِ » ، فأبىٰ أن يأخذَها حينَ سمعَ الحديثَ(٧)

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٩٣/١) من حديث عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه ، والترمذي (٢٣٢٥) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه ، وبنحوه هو عند مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث محمد بن عمير العبدي ، وقال العراقي : رواه أبو الشيخ الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » ، والديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس بسند ضعيف . « إتحاف » (٣٩/٨) .

(٣) رواه الترمذي في « الشمائل المحمدية » (٣٤٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (١٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢٦٩/١٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١٦١/٤) .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٤/٦١) .

(٦) تقدم قريباً في المرفوع .

(٧) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » عن أبي صالح الحنفي مرسلاً) . « إتحاف » (٤٠/٨) ، وزاد أن ابن أبي الدنيا رواه أيضاً في « ذم الغضب » ، وكذا أرسله سفيان الثوري كما في « الحلية » (٦٩/٧) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ . . فقدِ انتصرَ »(١)

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا بعثَ اللهُ الخلائقَ يومَ القيامةِ . . نادىٰ منادٍ مِنْ تحتِ العرشِ ثلاثةَ أصواتٍ : يا معشرَ الموحِّدينَ ؛ إنَّ اللهَ قدْ عفا عنكُمْ ، فليعْفُ بعضُكُمْ عنْ بعضٍ »(٢)

وعنْ أبي هريرةَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا فتحَ مكةَ . . طافَ بالبيتِ ، وصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ أتى الكعبةَ ، فأخذَ بعضادتي البابِ فقالَ : « ما تقُولونَ ؟ وما تظنُّونَ ؟ » فقالُوا : نقولُ : أخٌ وابنُ عمٍّ حليمٌ رحيمٌ ، قالُوا ذٰلكَ ثلاثاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقولُ كما قالَ يوسفُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ » ، قالَ : فخرجُوا كأنَّما نُشرُوا مِنَ القبورِ ، فدخلُوا في الإسلامِ(٣)

وعنْ سهيلِ بنِ عمرٍو قالَ : لمَّا قدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مكَّةَ . . وضعَ يديهِ علىٰ بابَيِ الكعبةِ والناسُ حولَهُ ، فقالَ : « لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزَمَ الأحزابَ وحدَهُ » ، ثمَّ قالَ : « يا معشرَ قريشٍ ؛ ما تقولُونَ ؟ وما تظنُّونَ ؟ » قالَ : قلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ نقولُ خيراً ، ونظنُّ خيراً ؛ أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ ، وقدْ قدَرْتَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقولُ كما قالَ أخي يوسفُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ »(٤)

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا وقفَ العبادُ . . نادىٰ منادٍ : ليقمْ مَنْ أجرُهُ على اللهِ فليدخلِ الجنةَ ، قيلَ : ومَنْ ذا الذي أجرُهُ على اللهِ ؟ قالَ : العافُونَ عنِ النَّاسِ ، فقامَ كذا وكذا ألفاً ، فدَخلُوها بغيرِ حسابٍ »(٥)

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي لوالي أمرٍ أنْ يُؤتىٰ بحدٍّ إلا أقامَهُ ، واللهُ عفوٌّ يحبُّ العفوَ » ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ . . . ﴾ الآيةَ(٦)

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ جاءَ بهنَّ معَ إيمانٍ . . دخلَ مِنْ أيِّ أبوابِ الجنةِ شاءَ ، وزُوِّجَ مِنَ الحورِ العينِ حيثُ شاءَ ؛ مَنْ أدَّىٰ ديْناً خفيّاً ، وقرأَ في دُبرِ كلِّ صلاةٍ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرَ مراتٍ ، وعفا عنْ قاتلِهِ » ، فقالَ أبو بكرٍ : أوْ إحداهُنَّ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أوْ إحداهنَّ »(٧)

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٥٢) .

(٢) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧٢٤٢) ، والطبراني في « الأوسط » (١٣٥٨) عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٤٩/٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأشار المتقي الهندي في « كنز العمال » (٢٩٢) إلىٰ روايته عن ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » بلفظ المصنف .

(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٢٣٤) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٥٧/٥) واللفظ له .

(٤) رواه الواقدي في « مغازيه » (٨٣٥/٢) ، ورواه مرسلاً القاسم بن سلام في « الأموال » (٣٢٢) ، ورواه ابن زنجويه في « الأموال » (٤٥٦) موصولاً ، وعنده ذكر سهيل بن عمرو رضي الله عنه .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٠١٩) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٨٧/٦) .

(٦) هو جزء من خبر رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٣٥١٩) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٩/٩) .

(٧) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٧٩٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٣٨٥) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٥٥٢/٢) .

الآثار :

قالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إنَّ الرجلَ ليظلمُني فأرحمُهُ)[1]

وهٰذا إحسانٌ وراءَ العفوِ ؛ لأنَّهُ يشتغلُ قلبُهُ بتعرُّضِهِ لمعصيةِ اللهِ تعالىٰ بالظُّلمِ ، وأنَّهُ يطالَبُ يومَ القيامةِ فلا يكونُ لهُ جوابٌ .

وقالَ بعضُهمْ : (إذا أرادَ اللهُ أنْ يتحِفَ عبداً . . قيضَ لهُ مَنْ يظلِمُهُ)[2]

ودخلَ رجلٌ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فجعلَ يشكُو إليهِ رجلاً ظلمَهُ ويقعُ فيهِ ، فقالَ لهُ عمرُ : (إنَّكَ أنْ تلقى اللهَ ومظلمتُكَ كما هيَ خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تلقاهُ وقدِ انتقصْتَها)[3]

وقالَ يزيدُ بنُ ميسرةَ : (إنْ ظَلِلتَ تدعُو علىٰ مَنْ ظلمَكَ . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : إنَّ آخرَ يدعُو عليكَ بأنَّكَ ظلمتَهُ ، فإنْ شئتَ . . استجبنا لكَ واستجبنا عليكَ ، وإنْ شئتَ . . أخَّرتُكما إلىٰ يومِ القيامةِ ، فيسعُكُما عفوي)[4]

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ لرجلٍ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ : (كِلِ الظالمَ إلىٰ ظلمِهِ ، فإنَّهُ أسرعُ إليهِ مِنْ دعائِكَ عليهِ ، إلَّا أنْ يتدارَكَهُ بعملٍ ، وقمِنٌ ألَّا يفعلَ)[5]

وعنِ ابنِ عمرَ عنْ أبي بكرٍ أنَّهُ قالَ : (بلغَنا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يأمرُ منادياً يومَ القيامةِ فينادي : مَنْ كانَ لهُ عندَ اللهِ شيءٌ . . فليقُمْ ، فيقومُ أهلُ العفوِ ، فيكافئُهُمُ اللهُ بما كانَ مِنْ عفوِهِمْ عنِ الناسِ)[6]

وقالَ هشامُ بنُ محمدٍ : أُتِيَ النعمانُ بنُ المنذرِ برجلينِ ، أحدُهُما قدْ أذنبَ ذنباً عظيماً فعفا عنهُ ، والآخرُ أذنبَ ذنباً صغيراً فعاقبَهُ ، وقالَ[7] : [من مجزوء الكامل]

تَعْفُو الْمُلُوكُ عَنِ الْعَظِيـ ـمِ مِنَ الذُّنُوبِ بِفَضْلِها
وَلَقَدْ تُعاقِبُ فِي الْيَسِيـ ـرِ وَلَيْسَ ذاكَ لِجَهْلِها
إلَّا لِيُعْرَفَ حِلْمُها وَتُخافَ شِدَّةُ نَكْلِها

وعنْ مباركِ بنِ فضالةَ قالَ : وفدَ سوارُ بنُ عبدِ اللهِ في وفدٍ مِنْ أهلِ البصرةِ إلىٰ أبي جعفرٍ ، فكنْتُ عندَهُ ؛ إذْ أُتِيَ برجلٍ فأمرَ بقتلِهِ ، فقلتُ : يُقتَلُ رجلٌ مِنَ المسلمينَ وأنا حاضرٌ ؟! فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ألا أحدِّثُكَ حديثاً سمعتُهُ مِنَ الحسنِ ؟ قالَ : وما هُوَ ؟ قلتُ : سمعتُهُ يقولُ : إذا كانَ يومُ القيامةِ . . جمعَ اللهُ عزَّ وجلَّ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ ؛ حيثُ يسمعُهُمُ الداعي ، وينفذُهُمُ البصرُ ، فيقومُ منادٍ فيقولُ : مَنْ لهُ عندَ اللهِ يدٌ . . فليقُمْ ، فلا يقومُ إلَّا مَنْ عفا ، فقالَ : واللهِ ؛ لسمعتَهُ مِنَ الحسنِ ؟ فقلتُ : واللهِ ؛ لسمعتُهُ منهُ ، فقالَ : خلَّينا عنهُ[8]

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٣/٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الإشراف في منازل الأشراف » (٧٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٨٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٩/٥) .
(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٧٧) .
(٦) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٧٠٠) .
(٧) انظر « عيون الأخبار » (١٠٠/١) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣١٢/١) .
(٨) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٣/١٣) .

وقالَ معاويةُ : (عليكُمْ بالحلمِ والاحتمالِ حتَّىٰ تمكنَكُمُ الفرصةُ ، فإذا أمكنَتْكُمْ . . فعليكُمْ بالصفحِ والإفضالِ)[١]

ورُوِيَ أنَّ راهباً دخلَ علىٰ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ، فقالَ للراهبِ : أرأيتَ ذا القرنينِ أكانَ نبياً ؟ قالَ : لا ، ولٰكنَّهُ إنَّما أُعطيَ ما أُعطيَ بأربعِ خصالٍ كنَّ فيهِ ؛ كانَ إذا قدرَ . . عفا ، وإذا وعدَ . . وفَّىٰ ، وإذا حدَّثَ . . صدقَ ، ولا يجمعُ شغلَ اليومِ لغدٍ[٢]

وقالَ بعضُهُمْ : (ليسَ الحليمُ مَنْ ظُلِمَ فحلمَ ، حتَّىٰ إذا قدَرَ . . انتقمَ ، ولٰكنَّ الحليمَ مَنْ ظُلِمَ فحلمَ ، ثم قدَرَ فعفا)[٣]

وقالَ زيادٌ : (القدرةُ تذهِبُ الحفيظةَ)[٤] يعني : الحقدَ والغضبَ .

وأُتيَ هشامٌ برجلٍ بلغَهُ عنهُ أمرٌ ، فلما أُقيمَ بينَ يديهِ . . جعلَ يتكلَّم بحجتِهِ ، فقالَ لهُ هشامٌ : وتتكلَّمُ أيضاً ؟! فقالَ الرجلُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ أفنجادلُ اللهَ تعالىٰ ولا نتكلَّمُ بينَ يديكَ كلاماً ؟! قالَ هشامٌ : بلىٰ ويحَكَ ، فتكلَّمْ[٥]

ورُوِيَ أنَّ سارقاً دخلَ خباءَ عمارِ بنِ ياسرٍ بصفينَ ، فقيلَ لهُ : اقطعْهُ فإنَّهُ مِنْ أعدائِنا ، فقالَ : بلْ أسترُ عليهِ ، لعلَّ اللهَ أنْ يسترَ عليَّ يومَ القيامةِ .

وجلسَ ابنُ مسعودٍ في السوقِ يبتاعُ متاعاً ، فابتاعَ ، ثمَّ طلبَ الدراهمَ وكانَتْ في عمامتِهِ ، فوجدَها قدْ حُلَّتْ ، فقالَ : لقَدْ جلستُ وإنَّها لمعي ، فجعلوا يدعونَ علىٰ مَنْ أخذَها : اللهمَّ ؛ اقطعْ يدَ السارقِ الذي أخذَها ، اللهمَّ ؛ افعلْ بِهِ كذا ، فقالَ عبدُ اللهِ : اللهمَّ ؛ إنْ كانَ حملَهُ علىٰ أخذِها حاجةٌ . . فبارِكْ لهُ فيها ، وإنْ كانَ حملَهُ جراءةٌ على الذنبِ . . فاجعلْهُ آخرَ ذنوبِهِ[٦]

وقالَ الفضيلُ : ما رأيتُ أزهدَ مِنْ رجلٍ مِنْ أهلِ خراسانَ ، جلسَ إليَّ في المسجدِ الحرامِ ، ثمَّ قامَ ليطوفَ ، فسُرقَتْ دنانيرُ كانَتْ معَهُ ، فجعلَ يبكي ، فقلتُ : أعلى الدنانيرِ تبكي ؟ قالَ : لا ، ولٰكنْ مثَّلْتُني وإيَّاهُ بينَ يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فأشرفَ عقلي علىٰ إدحاضِ حجتِهِ ، فبكائي رحمةٌ لهُ[٧]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أتينا منزلَ الحكمِ بنِ أيوبَ ليلاً وهوَ على البصرةِ أميرٌ ، وجاءَ الحسنُ وهوَ خائفٌ ، فدخلنا عليهِ ومعنا الحسنُ ، فما كنَّا معه إلا بمنزلةِ الفراريجِ

فذكرَ الحسنُ قصةَ يوسفَ عليهِ السلامُ ، وما صنعَ بِهِ إخوتُهُ مِنْ بيعِهِمْ إيَّاهُ ، وطرحِهِمْ لهُ في الجبِّ ، فقالَ : باعُوا أخاهُمْ وأحزنُوا أباهُمْ ، وذكرَ ما لقيَ مِنْ كيدِ النساءِ ، ومِنَ الحبسِ ، ثمَّ قالَ : أيُّها الأميرُ ؛ ماذا صنعَ اللهُ بِهِ ؟ أدالَهُ منهُمْ ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٤٣/٨) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٤٣/٨) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٤٣/٨) .
(٤) أورده البلاذري في « أنساب الأشراف » (٢٠٥/٥) لزياد بن أبيه .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١٢/٦٨) .
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٤٣/٨) .
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٤٤/٨) .

ورفعَ ذكرَهُ ، وأعلىٰ كعبَهُ ، وجعلَهُ علىٰ خزائنِ الأرضِ ، فماذا صنعَ حينَ أكملَ لهُ أمرَهُ ، وجمعَ لهُ أهلَهُ ؟ قالَ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، يعرِّضُ للحَكَمِ بالعفوِ عنْ أصحابِهِ .

فقالَ الحكمُ : فأنا أقولُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، ولوْ لمْ أجدْ إلا ثوبي . . لواريتُكُمْ تحتَهُ[1]

وكتبَ ابنُ المقفَّعِ إلىٰ صديقٍ لهُ يسألُهُ العفوَ عَنْ بعضِ إخوانِهِ : (فلانٌ هاربٌ مِنْ زلَّتِهِ إلىٰ عفوكَ ، لائذٌ منكَ بكَ ، واعلمْ أنَّهُ لنْ يزدادَ الذنبُ عظماً إلَّا ازدادَ العفوُ فضلاً)[2]

وأُتِيَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ بأُسارى ابنِ الأشعثِ ، فقالَ لرجاءِ بنِ حيوةَ : ما ترىٰ ؟ قال : إنَّ اللهَ قدْ أعطاكَ ما تحبُّ مِنَ الظفرِ ، فأعطِ اللهَ ما يحبُّ مِنَ العفوِ ، فعفا عنهُمْ[3]

ورُوِيَ أنَّ زياداً أخذَ رجلاً مِنَ الخوارجِ فأفلَتَ منْهُ ، فأخذَ أخاً لهُ ، فقالَ : إنْ جئتَ بأخيكَ وإلَّا . . ضربتُ عنقَكَ .

فقالَ : أرأيتَ إنْ جئتُكَ بكتابٍ مِنْ أميرِ المؤمنينَ . . تخلِّي سبيلي ؟

قالَ : نعمْ ، قالَ : فأنا آتيكَ بكتابٍ مِنَ العزيزِ الحكيمِ ، وأقيمُ عليهِ شاهدينِ إبراهيمَ وموسىٰ ، ثمَّ تلا : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۞ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فقالَ زيادٌ : خلوا سبيلَهُ ، هـٰذا رجلٌ قدْ لُقِّنَ حجَّتَهُ[4]

وقيلَ : مكتوبٌ في الإنجيلِ : (مَنِ استغفرَ لِمنْ ظلمَهُ . . فقدْ هزمَ الشيطانَ)[5]

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٤) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٥) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٥) .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/٤٥) .

فضيلة الرفق

اعلمْ : أنَّ الرفقَ محمودٌ ، ويضادُّهُ العنفُ والحدَّةُ ، والعنفُ نتيجةُ الغضبِ والفظاظةِ ، والرفقُ واللينُ نتيجةُ حسنِ الخُلُقِ والسلامةِ ، وقدْ يكونُ سببُ الحِدَّةِ الغضبَ ، وقدْ يكونُ سببُها شدةَ الحرصِ واستيلاءَهُ ، بحيثُ يدهشُ عنِ التفكرِ ، ويمنعُ مِنَ التثبُّتِ .

فالرفقُ في الأمورِ ثمرةٌ لا يثمرُها إلا حسنُ الخلُقِ ، ولا يحْسُنُ الخلُقُ إلا بضبطِ قوَّةِ الغضبِ وقوَّةِ الشهوةِ ، وحفظِهما على حدِّ الاعتدالِ ؛ ولأجلِ هٰذا أثنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الرفقِ وبالغَ فيهِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّهُ مَنْ أُعْطيَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ . . فقدْ أُعطيَ حظَّهُ مِنْ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ، ومَنْ حُرِمَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ . . فقدْ حُرِمَ حظَّهُ مِنْ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ أهلَ بيتٍ . . أدخلَ عليهِمُ الرِّفقَ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليُعطِي على الرفْقِ ما لا يُعطي على الخُرْقِ ، وإذا أحبَّ اللهُ عبداً . . أعطاهُ الرِّفقَ ، وما مِنْ أهلِ بيتٍ يُحرمونَ الرِّفقَ إلَّا قدْ حُرِمُوا »(٣)

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرفقَ ، ويُعطِي عليه ما لا يُعطِي على العُنفِ »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشةُ ؛ ارفقي ، فإنَّ اللهَ إذا أرادَ بأهلِ بيتٍ كرامةً . . دلَّهمْ علىٰ بابِ الرِّفقِ »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يُحرَمِ الرِّفقَ . . يُحرَمِ الخيرَ كلَّهُ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما والٍ وليَ فَلانَ ورفقَ . . رفقَ اللهَ تعالىٰ بهِ يومَ القيامةِ »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تدرونَ مَنْ يُحرَّمُ على النارِ يومَ القيامةِ ؟ كلُّ هيِّنٍ ليِّنٍ سهلٍ قريبٍ »(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرِّفقُ يُمنٌ والخُرْقُ شؤْمٌ »(٩)

---

(١) رواه بتمامه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٩/٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٤٤٤) ، وأشار إليه الترمذي (٢٠١٣) وقد رواه عن أم الدرداء رضي الله عنها ، وعند البخاري (٦٠٢٤) ، ومسلم (٢١٦٥) من حديثها رضي الله عنها : « مهلاً يا عائشة ؛ إن الله يحب الرفق في الأمر كله » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٧١/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٤٠) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٦/٢) ، **والخرق** ـ بضمة وبضمتين ـ : ضد الرفق ، وبفتحتين هو الدهش من الخوف والحياء ، وفي « الإتحاف » (٤٦/٨) : (الخرق بالضم : اسم من خرق كتعب ؛ إذا عمل شيئاً فلم يرفق فيه ، فهو أخرق وهي خرقاء) ، وفي (ب) : (إلا حرموا محبة الله تعالىٰ) .

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٣) .

(٥) رواه أحمد في « مسنده » (١٠٤/٦) ، وهو بنحوه عند أبي داوود (٤٨٠٨) ولفظه : « يا عائشة ؛ ارفقي ، فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه ، ولا نزع من شيء قط إلا شانه » .

(٦) رواه مسلم (٢٥٩٢) ، وقوله : (كله) عند أبي داوود (٤٨٠٩) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث عائشة رضي الله عنها . « إتحاف » (٤٧/٨) ، وعند مسلم (١٨٢٨) من دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم . . فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم . . فارفق به » .

(٨) رواه الترمذي (٢٤٨٨) ، وأحمد في « المسند » (٤١٥/١) ، والطبراني في « الكبير » (٣٥٢/٢٠) .

(٩) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٩٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣٢٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التأنِّي مِنَ اللهِ ، والعجلةُ مِنَ الشيطانِ »(١)

ورُوِي أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتاهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ اللهَ قدْ باركَ لجميعِ المسلمينَ فيكَ ، فاخصصْني منكَ بخيرٍ ، فقالَ : « الحمدُ للهِ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، ثمَّ أقبلَ عليهِ فقالَ : « هلْ أنتَ مستوصٍ ؟ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، قالَ : نعمْ ، قالَ : « إذا أردتَ أمراً . . فتدبَّرْ عاقبتَهُ ، فإنْ كانَ رشداً . . فأمْضِهِ ، وإنْ كانَ سوىٰ ذٰلكَ . . فانْتهِ عنْهُ »(٢)

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّها كانَتْ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ علىٰ بعيرٍ صعبٍ ، فجعلَتْ تصرفُهُ يميناً وشمالاً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشةُ ؛ عليكِ بالرِّفقِ ؛ فإنَّهُ لا يدخلُ في شيءٍ إلَّا زانَهُ ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلَّا شانَهُ »(٣)



الآثارُ :

بلغَ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ جماعةً منْ رعيَّتِهِ اشتكَوا مِنْ عمَّالِهِ ، فأمرَهُمْ أنْ يوافُوهُ ، فلما أتَوْهُ . . قامَ فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ، ثمَّ قالَ : (أيَّتُها الرَّعيَّةُ ؛ إنَّ لنا عليكُمْ حقاً ، النصيحةُ بالغيبِ ، والمعاونةُ على الخيرِ ، أيَّتُها الرُّعاةُ ؛ إنَّ للرعيَّةِ عليكُمْ حقّاً ، واعلموا أنَّه لا حلمَ أحبُّ إلى اللهِ ولا أعمُّ مِنْ حلمِ إمامٍ ورفقِهِ ، وليسَ جهلٌ أبغضَ إلى اللهِ ولا أغمَّ مِنْ جهلِ إمامٍ وخُرْقِهِ ، واعلمُوا أنَّهُ من يأخذْ بالعافيةِ فيمَنْ بينَ ظهريهِ . . يرزقِ العافيةَ ممَّنْ هوَ دونَهُ)(٤) .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (الرفقُ بُنَيُّ الحلمِ)(٥)

وفي الخبرِ موقوفاً ومرفوعاً : « العلمُ خليلُ المؤمنِ ، والحلمُ وزيرُهُ ، والعقلُ دليلُهُ ، والعملُ قيِّمُهُ ، والرِّفقُ والدُهُ ، واللِّينُ أخوهُ ، والصبرُ أميرُ جنودِهِ »(٦)

وقالَ بعضُهمْ : (ما أحسنَ الإيمانَ يزينُهُ العلمُ !! وما أحسنَ العلمَ يزينُهُ العملُ !! وما أحسنَ العملَ يزينُهُ الرفقُ !! وما أضيفَ شيءٌ إلىٰ شيءٍ مثلَ حلمٍ إلىٰ علمٍ)(٧)

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ لابنِهِ عبدِ اللهِ : ما الرِّفقُ ؟ قالَ : أن تكونَ ذا أناةٍ وتلاينَ الولاةَ ، قالَ : فما الخُرْقُ ؟ قالَ : معاداةُ إمامِكَ ، ومناوأةُ مَنْ يقدرُ علىٰ ضررِكَ(٨)

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٥٨) ، وتقدم بلفظ : « الأناة من الله . . . » .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن عبد الله بن مسور أبي جعفر مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٣٥٩/١) عن أبي جعفر عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوص إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غيّاً . . فانتهِ » .

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٤) .

(٤) رواه هناد في « الزهد » (١٢٨١) بنحوه ، وابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٤٨/٨) .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٤٨/٨) ، وبُنَيُّ : تصغير ابن ؛ أي : ثمرته ونتيجته ، كذا في « الإتحاف » ، وعنده في « تاج العروس » (ب ن ي) : (الرفق بنيُّ الحلم ؛ أي : مثله) أي : يحاكيه في البناء .

(٦) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٥٢ ، ١٥٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤١٩٥) .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٣٦) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٤٩/٨) .

وقالَ سفيانُ لأصحابِهِ : أتدرونَ ما الرفقُ ؟ قالوا : قلْ يا أبا محمدٍ ؛ قالَ : أنْ تضعَ الأمورَ مواضعَها ، الشدَّةَ في موضعِها ، واللينَ في موضعِهِ ، والسيفَ في موضعِهِ ، والسوطَ في موضعِهِ (١)

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ لا بدَّ مِنْ مزجِ الغلظةِ باللينِ ، والفظاظةِ بالرِّفقِ ؛ كما قيلَ (٢) : [من الطويل]

وَوَضْعُ النَّدَىٰ فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَىٰ

فالمحمودُ وسطٌ بينَ اللينِ والعنفِ ؛ كما في سائرِ الأخلاقِ ، ولٰكنْ لمَّا كانَتِ الطِّباعُ إلى الحدَّةِ والعنفِ أميلَ . . كانَتِ الحاجةُ إلىٰ ترغيبِهِمْ في جانبِ الرفقِ أكثرَ ، فلذٰلكَ كثُرَ ثناءُ الشرعِ علىٰ جانبِ الرفقِ دونَ العنفِ ، وإنْ كانَ العنفُ في محلِّهِ حسناً ، كما أنَّ الرفقَ في محلِّهِ حسنٌ ، فإذا كانَ الواجبُ هوَ العنفَ . . فقدْ وافقَ الحقُّ الهوىٰ ، وهوَ ألذُّ مِنَ الزُّبْدِ بالشهدِ ، هٰكذا قالَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ (٣)

رُوِيَ أنَّ عمرَو بنَ العاصِ كتبَ إلىٰ معاويةَ يعاتبُهُ في التأنِّي ، فكتبَ إليهِ معاويةُ :

(أمَّا بعدُ : فإنَّ التفهُّمَ في الخيرِ زيادةٌ ورشدٌ ، وإنَّ الرشيدَ مَنْ رشدَ عنِ العجلةِ ، وإنَّ الخائبَ مَنْ خابَ عنِ الأناةِ ، وإنَّ المتثبِّتَ مصيبٌ ، أوْ كادَ أنْ يكونَ مصيباً ، وإنَّ المعجِّلَ مخطئٌ ، أوْ كادَ أنْ يكونَ مخطئاً ، وإنَّ مَنْ لا ينفعُهُ الرفقُ . . يضرُّهُ الخُرْقُ ؛ ومَنْ لا تنفعُهُ التجاربُ . . لا يدركُ المعاليَ) (٤)

وعنْ أبي عونٍ الأنصاريِّ قالَ : (ما تكلَّمَ الناسُ بكلمةٍ صعبةٍ إلَّا وإلىٰ جانبِها كلمةٌ ألينُ منها تجري مجراها) (٥) .

وقالَ أبو حمزةَ الكوفيُّ : (لا تتخذْ مِنَ الخدمِ إلَّا ما لا بدَّ منهُ ، فإنَّ معَ كلِّ إنسانٍ شيطاناً ، واعلمْ أنَّهم لا يعطونَكَ بالشدَّةِ شيئاً إلَّا أعطوكَ باللِّينِ ما هوَ أفضلُ منهُ) (٦)

وقالَ الحسنُ : (المؤمنُ وقَّافٌ متأنٍّ ، وليسَ كحاطبِ ليلٍ) (٧)

فهٰذا ثناءُ أهلِ العلمِ على الرفقِ ؛ وذٰلكَ لأنَّهُ محمودٌ ومفيدٌ في أكثرِ الأحوالِ وأغلبِ الأمورِ ، والحاجةُ إلى العنفِ قَدْ تقعُ ، ولٰكنْ على الندورِ ، وإنَّما الكاملُ مَنْ يميِّزُ مواقعَ الرفقِ مِنْ مواقعِ العنفِ ، فيعطي كلَّ أمرٍ حقَّهُ ، فإنْ كانَ قاصرَ البصيرةِ ، أوْ أشكلَ عليهِ حكمُ واقعةٍ مِنَ الوقائعِ . . فليكنْ ميلُهُ إلى الرفقِ ؛ فإنَّ النُّجْحَ معهُ في الأكثرِ .

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » ، وسفيان هو ابن عيينة . « إتحاف » (٨/٤٩) .

(٢) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (١/٢٨٨) .

(٣) تقدم ، ولفظه : (إذا وافق الحق الهوىٰ . . فهو الزبد بالنَّرسيان) ، وقال الحافظ الزبيدي : (كما أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب ») . « إتحاف » (٨/٤٩) .

(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٢١٤) .

(٥) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٧١٦) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٥١) ، وفي النسخ : (ابن عون) بدل (أبي عون) .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٥٠) .

(٧) إذ لا يخوض فيما لا يعنيه ، فإن الذي يجمع الحطب بالليل يوشك أن يلم ما يؤذيه من حية وغيرها يظنه حطباً ، أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٥٠) ، ونحوه عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٣٠) .

القول في ذمّ الحسد ، وفي حقيقته ، وأسبابه ، ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذمّ الحسد

اعلمْ : أنَّ الحسدَ أيضاً مِنْ نتائجِ الحقدِ ، والحقدُ مِنْ نتائجِ الغضبِ ، فهوَ فرعُ فرعِ الغضبِ ، والغضبُ أصلُ أصلِهِ .

ثمَّ إنَّ للحسدِ مِنَ الفروعِ الذميمةِ ما لا يكادُ يُحصىٰ ، وقدْ وردَ في ذمِّ الحسدِ خاصةً أخبارٌ كثيرةٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النهيِ عنِ الحسدِ وأسبابِهِ وثمراتِهِ : « لا تحاسدُوا ، ولا تقاطعُوا ، ولا تباغضُوا ، ولا تدابرُوا ، وكونُوا عبادَ اللهِ إخواناً »(٢)

وقالَ أنسٌ : كنَّا يوماً جلوساً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يطلُعُ عليكُمُ الآنَ مِنْ هـٰذا الفجِّ رجلٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ » ، قالَ : فطلعَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ تنطفُ لحيتُهُ مِنْ وضوئِهِ ، قدْ علَّقَ نعليهِ في يدِهِ الشمالِ فسلَّمَ ، فلمَّا كانَ الغدُ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلَ ذٰلكَ ، فطلعَ ذٰلكَ الرجلُ ، وقالَهُ في اليومِ الثالثِ ، فطلعَ ذٰلكَ الرجلُ ، فلمَّا قامَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . تبعَهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ فقالَ : إنِّي لاحيتُ أبي ، فأقسمْتُ ألَّا أدْخلَ عليهِ ثلاثاً ، فإنْ رأيتَ أنْ تؤوِيَني إليكَ حتَّىٰ تمضيَ الثلاثُ . . فعلتُ ، قالَ : نعمْ ، فباتَ عندَهُ ثلاثَ ليالٍ ، فلمْ يرَهُ يقومُ مِنَ الليلِ شيئاً ، غيرَ أنَّهُ إذا تقلَّبَ علىٰ فراشِهِ . . ذكرَ اللهَ تعالىٰ ، ولمْ يقمْ حتَّىٰ يقومَ لصلاةِ الفجرِ ، قالَ : غيرَ أنِّي لمْ أسمعْهُ يقولُ إلا خيراً ، فلمَّا مضتِ الثلاثُ ، وكدتُ أنْ أحتقرَ عملَهُ . . قلتُ : يا عبدَ اللهِ ؛ لمْ يكنْ بيني وبينَ والدي غضبٌ ولا هجرةٌ ، ولـٰكنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ كذا وكذا ، فأردتُ أنْ أعرفَ عملَكَ ، فلمْ أركَ تعملُ عملاً كثيراً ، فما الذي بلغَ بكَ ذاكَ ؟ قالَ : ما هو إلَّا ما رأيتَ ، فلمَّا ولَّيتُ . . دعاني ، فقالَ : ما هوَ إلَّا ما رأيتَ ، غيرَ أنِّي لا أجدُ علىٰ أحدٍ منَ المسلمينَ في نفسِي غشّاً ولا حسداً علىٰ خيرٍ أعطاهُ اللهُ إيَّاهُ ، فقالَ عبدُ اللهِ : فقلتُ لهُ : هيَ التي بلغَتْ بكَ ، وهيَ التي لا نطيقُ(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا ينجو منهنَّ أحدٌ : الظَّنُّ والطِّيرةُ والحسدُ ، وسأحدِّثُكمْ بالمخرجِ مِنْ ذٰلكَ ، إذا ظننتَ . . فلا تحقِّقْ ، وإذا تطيَّرتَ . . فامضِ ، وإذا حسدتَ . . فلا تبغِ »(٤)

وفي روايةٍ : « ثلاثٌ لا ينجُو منهنَّ أحدٌ ، وقلَّ مَنْ ينجُو منهنَّ »(٥) ، فأثبتَ في هـٰذهِ الروايةِ إمكانَ النجاةِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩٤) ، وأحمد في « المسند » (١٦٦/٣) .

(٤) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٨/٢) عن إسماعيل بن أمية معضلاً ، وفي « الإتحاف » (٥١/٨) : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الحسد » من حديث أبي هريرة ، وفيه يعقوب بن محمد الزهري ، وموسى بن يعقوب ، ضعفهما الجمهور) .

(٥) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥١/٨) : (رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمـٰن بن معاوية ، وهو مرسل ضعيف ، وتقدم

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دبَّ إليكمْ داءُ الأممِ قبلَكُمْ : الحسدُ ، والبغضاءُ ، والبغضةُ هيَ الحالقةُ ، لا أقولُ : حالقةُ الشَّعرِ ، ولـٰكنْ حالقةُ الدِّينِ ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ لا تدخلونَ الجنةَ حتَّىٰ تؤمنُوا ، ولنْ تؤمنُوا حتَّىٰ تحابُّوا ، ألَا أنبِّئُكُمْ بما يثْبتُ ذٰلكَ لكم ؟ أفشُوا السَّلامَ بينَكُمْ »[(١)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً ، وكادَ الحسدُ أنْ يغلبَ القدَرَ »[(٢)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ سيصيبُ أمَّتي داءُ الأممِ » ، قالُوا : وما داءُ الأممِ ؟ قالَ : « الأشرُ ، والبطرُ ، والتَّكاثرُ ، والتَّنافسُ في الدُّنيا ، والتَّباعدُ ، والتَّحاسدُ ، حتَّىٰ يكونَ البغيُ ، ثمَّ الهرْجُ »[(٣)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تظهرِ الشماتةَ لأخيكَ ، فيعافيَهُ اللهُ ويبتليَكَ »[(٤)]

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا تعجَّلَ إلىٰ ربِّهِ تعالىٰ . . رأىٰ في ظلِّ العرشِ رجلاً ، فغبطَهُ بمكانِهِ ، وقالَ : إنَّ هـٰذا لكريمٌ علىٰ ربِّهِ ، فسألَ ربَّهُ أنْ يخبرَهُ باسمِهِ ، فلمْ يخبرْهُ باسمِهِ ، وقالَ : أحدثُكَ مِنْ عملِهِ بثلاثٍ ، كانَ لا يحسدُ الناسَ علىٰ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ ، وكانَ لا يعقُّ والديهِ ، ولا يمشِي بالنميمةِ[(٥)]

وقالَ زكريا عليهِ السلامُ : (يقولُ اللهُ تعالى : الحاسدُ عدوٌّ لنعمتي ، متسخِّطٌ لقضائي ، غيرُ راضٍ بقسمتي التي قسمتُ بينَ عبادي)[(٦)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخوفُ ما أخافُ علىٰ أمَّتي أن يكثرَ لهمُ المالُ ، فيتحاسدونَ ويقتتلونَ »[(٧)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استعينوا علىٰ قضاءِ الحوائجِ بالكتمانِ ، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ »[(٨)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لنعمِ اللهِ أعداءً » ، فقيلَ : ومَنْ أولـٰئكَ ؟ قالَ : « الذينَ يحسدونَ الناسَ علىٰ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ »[(٩)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ستَّةٌ يدخلونَ النَّارَ قبلَ الحسابِ بستةٍ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ هُمْ ؟ قالَ :

في آفات اللسان حديث حارثة بن النعمان : « ثلاث لازمات لأمتي : سوء الظن والحسد والطيرة ، فإذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فاستغفر الله تعالىٰ ، وإذا تطيرت . . فامض » ، رواه أبو الشيخ في « التوبيخ » [٧٧] ، والطبراني في « الكبير » [٢٢٨/٣] ، ورویٰ رستة في كتاب « الإيمان » له من مرسل الحسن بلفظ : « ثلاث لم تسلم منها هـٰذه الأمة ، الحسد والظن والطيرة ، ألا أنبئكم بالمخرج منها ؟ إذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فلا تبغ ، وإذا تطيرت . . فامض ») .

(١) رواه الترمذي (٢٥١٠) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٣/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٠١٢) ، والحاكم في « المستدرك » (١٦٨/٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٠٦) ، وفيه : (فيرحمه الله) بدل (فيعافيه الله) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (١٨٦/٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٤٩/٤) .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢١٣) عن الأصمعي قال : (إن الله عز وجل يقول : الحاسد . . .) .

(٧) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١١١٥) من حديث أبي عامر الأشعري رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٤٦٥) ، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه : « إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . . . » الحديث .

(٨) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٦٨١) ، والطبراني في « الكبير » (٩٤/٢٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٣٦٠/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٢٢٨) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٩) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٢٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ : « إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم » .

« الأمراءُ بالجورِ ، والعربُ بالعصبيَّةِ ، والدَّهاقينُ بالكبرِ ، والتُّجّارُ بالخيانة ، وأهلُ الرُّستاقِ بالجهالةِ ، والعلماءُ بالحسدِ »[١]

❀ ❀ ❀

الآثارُ :

قالَ بعضُ السلفِ : (أوَّلُ خطيئةٍ كانَتْ هيَ الحسدُ ، حسدَ إبليسُ آدمَ عليهِ السلامُ على رتبتِهِ فأبىٰ أنْ يسجدَ لهُ ، فحملَهُ الحسدُ على المعصيةِ)[٢]

وحُكيَ أنَّ عونَ بنَ عبدِ اللهِ دخلَ على المفضَّلِ بنِ المهلَّبِ وكانَ يومئذٍ علىٰ واسطٍ ، فقالَ : إنِّي أريدُ أنْ أعظَكَ بشيءٍ ، فقالَ : وما ذاكَ ؟

قالَ : إيَّاكَ والكبرَ ؛ فإنَّهُ أولُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بهِ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ . . . ﴾ الآيةَ .

وإيَّاكَ والحرصَ ؛ فإنَّهُ أخرجَ آدمَ مِنَ الجنةِ ، أمكنَهُ اللهُ مِنْ جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ يأكلُ منها إلا شجرةً واحدةً نهاهُ اللهُ عنها ، فأكلَ منها ، فأخرجَهُ اللهُ تعالىٰ منها ، ثمَّ قرأَ : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا . . . ﴾ إلىٰ آخرِ الآيةِ .

وإيَّاكَ والحسدَ ، فإنَّهُ قتلَ ابنُ آدم أخاهُ حينَ حسَدَهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ . . . ﴾ الآياتِ ، وإذا ذُكِرَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فاسكتْ ، وإذا ذُكرَ القدرُ . . فاسكتْ ، وإذا ذُكرَتِ النجومُ . . فاسكتْ[٣]

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : كانَ رجلٌ يغشىٰ بعضَ الملوكِ فيقومُ بحذاءِ الملكِ ، فيقولُ :

أحسنْ إلى المحسنِ بإحسانِهِ ؛ فإنَّ المسيءَ ستكفيكَهُ إساءتُهُ ، قالَ : فحسدَهُ رجلٌ علىٰ ذٰلكَ المقامِ والكلامِ ، فسعىٰ بهِ إلى الملكِ ، فقالَ :

إنَّ هـٰذا الذي يقومُ بحذائِكَ ويقولُ ما يقولُ زعمَ أنَّ الملكَ أبخرُ ، فقالَ لهُ الملكُ : وكيفَ يصحُّ ذٰلكَ عندي ؟

قالَ : تدعو بهِ إليكَ ، فإنَّهُ إذا دنا منكَ وضعَ يدَهُ علىٰ أنفِهِ ؛ لئلا يشمَّ ريحَ البخَرِ .

فقالَ لهُ : انصرفْ حتَّىٰ أنظرَ ، فخرجَ مِنْ عندِ الملكِ ، فدعا الرجلَ إلىٰ منزلِهِ ، فأطعمَهُ طعاماً فيهِ ثومٌ ، فخرجَ الرجلُ مِنْ عندِهِ ، وقامَ بحذاءِ الملكِ ، فقالَ :

أحسنْ إلى المحسنِ بإحسانِهِ ، فإنَّ المسيءَ ستكفيكَهُ إساءتُهُ ، فقالَ لهَ الملكُ :

ادْنُ مِنِّي ، فدنا منهُ ، فوضعَ يدَهُ علىٰ فيهِ مخافةَ أنْ يشَمَّ الملكُ منهُ ريحَ الثومِ ، فقالَ الملكُ في نفسِهِ : ما أرىٰ فلاناً إلَّا قدْ صدقَ .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٩١) من حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٥٦٥) من حديث عثمان رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٦٩) عن جنادة بن أبي أمية بنحوه .

(٣) قطعة من الخبر عند البلاذري في « أنساب الأشراف » (٢٣٠/١١) ، وروىٰ نحوه عن عبد الملك بن مروان ورجل من المهاجرين يعظه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٦٨) .

قالَ : وكانَ الملكُ لا يكتبُ بخطِّهِ إلا بجائزةٍ أوْ صلةٍ ، فكتبَ لهُ كتاباً بخطِّهِ إلىٰ عاملٍ مِنْ عمالِهِ :

إذا أتاكَ حاملُ كتابي . . فاذبحْهُ واسلخْهُ ، واحشُ جلدَهُ تبناً ، وابعثْ بهِ إليَّ .

فأخذَ الكتابَ وخرجَ ، فلقيَهُ الرجلُ الذي سعىٰ بهِ ، فقالَ : ما هٰذا الكتابُ ؟

فقالَ : خطُّ الملكِ لي بصلةٍ ، فقالَ : هبْهُ لي ، فقالَ : هوَ لكَ .

فأخذَهُ ومضىٰ إلى العاملِ ، فقالَ العاملُ :

في كتابِكَ أنْ أذبحَكَ وأسلخَكَ ، قالَ : إنَّ الكتابَ ليسَ هوَ لي ، فاللهَ اللهَ في أمري حتَّىٰ أراجعَ الملكَ .

قالَ : ليسَ لكتابِ الملكِ مراجعةٌ ، فذبحَهُ وسلخَهُ ، وحشا جلدَهُ تبناً ، وبعثَ بهِ .

ثمَّ عادَ الرجلُ إلى الملكِ كعادتِهِ ، وقالَ مثلَ قولِهِ ، فتعجبَ الملكُ ، وقالَ : ما فعلَ الكتابُ ؟

فقالَ : لقيَني فلانٌ واستوهبَهُ منِّي فوهبتُهُ لهُ ، قالَ الملكُ : إنَّهُ ذكرَ لي أنَّكَ تزعمُ أنِّي أبخرُ ، قالَ : ما فعلْتُ ، قالَ : فلمَ وضعْتَ يدكَ علىٰ أنفِكَ ؟ قالَ : كانَ أطعمَني طعاماً فيه ثومٌ ، فكرهتُ أن تشمَّهُ ، قالَ : صدقتَ ، ارجعْ إلىٰ مكانِكَ ، فقدْ كفاكَ المسيءَ إساءتُهُ[1]

وقالَ ابنُ سيرينَ رحمهُ اللهُ : (ما حسدتُ أحداً علىٰ شيءٍ مِنَ الدنيا ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ مِنَ أهلِ الجنةِ . . فكيفَ أحسدُهُ على الدنيا وهيَ حقيرةٌ في الجنةِ ؟! وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . . فكيفَ أحسدُهُ علىٰ أمرِ الدنيا ، وهوَ يصيرُ إلى النارِ ؟!)[2]

وقالَ رجلٌ للحسنِ : هلْ يَحسدُ المؤمنُ ؟

قالَ : ما أنساكَ بني يعقوبَ !! نعمْ ، ولٰكنْ غمَّةٌ في صدرِكَ ، وإنَّهُ لا يضرُّكَ ما لمْ تعدِّ بهِ يداً ولا لساناً[3]

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما أكثرَ عبدٌ ذكرَ الموتِ إلا قلَّ فرحُهُ ، وقلَّ حسدُهُ)[4]

وقالَ معاويةُ : (كلُّ الناسِ أقدرُ علىٰ رضاهُ إلا حاسدَ نعمةٍ ؛ فإنَّه لا يرضيهِ إلا زوالُها)[5]

ولذٰلك قيلَ[6] : [من البسيط]

كُلُّ الْعَداوَةِ قَدْ تُرْجَىٰ إماتَتُها ... إلَّا عَداوَةَ مَنْ عاداكَ مِنْ حَسَدِ

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الحسدُ جرحٌ لا يبرأُ ، وحسْبُ الحسودِ ما يلقىٰ)[7]

وقالَ أعرابيٌّ : (ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلومٍ مِنْ حاسدٍ ، إنَّهُ يرى النعمةَ عليكَ نقمةً عليهِ)[8]

---

(١) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٢٨) .
(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٣٤) .
(٣) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٣٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٢٠) .
(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١١٣) .
(٦) البيت للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ٥٤) .
(٧) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٢٤) عن ذي النون المصري .
(٨) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢١١) عن الخليل بن أحمد .

وقالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ لمَ تحسدُ أخاكَ ؟ فإنْ كانَ الذي أعطاهُ اللهُ لكرامتِهِ عليهِ . . فلِمَ تحسدُ مَنْ أكرمَهُ اللهُ ؟! وإنْ كانَ غيرَ ذٰلكَ . . فلمَ تحسدُ مَنْ مصيرُهُ إلى النارِ ؟!)[1]

وقالَ بعضُهمْ : (الحاسدُ لا ينالُ مِنَ المجالسِ إلا مذمَّةً وذُلّاً ، ولا ينالُ مِنَ الملائكةِ إلا لعنةً وبغضاً ، ولا ينالُ مِنَ الخلقِ إلَّا جزعاً وغمّاً ، ولا ينالُ عندَ النزعِ إلا شدّةً وهولاً ، ولا ينالُ عندَ الموقفِ إلا فضيحةً ونكالاً)[2]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » . « إتحاف » (٥٧/٨) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » . « إتحاف » (٥٧/٨) .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلمْ : أنَّهُ لا حسدَ إلا على نعمةٍ ، فإذا أنعمَ اللهُ على أخيكَ بنعمةٍ . . فلكَ فيها حالتانِ :

إحداهُما : أنْ تكرهَ تلكَ النعمةَ وتحبَّ زوالَها ، وهلذهِ الحالةُ تُسمَّى حسداً ، **فالحسدُ حدُّهُ** : كراهةُ النعمةِ ، وحبُّ زوالِها عنِ المنعَمِ عليهِ .

الحالةُ الثانيةُ : ألَّا تحبَّ زوالَها ولا تكرهَ وجودَها ودوامَها ، ولكنْ تشتهي لنفسِكَ مثلَها ، وهلذهِ تُسمَّى **غبطةً** ، وقدْ تُخصُّ باسمِ المنافسةِ ، وقدْ تُسمَّى المنافسةُ حسداً ، والحسدُ منافسةً ، ويُوضعُ أحدُ اللفظينِ موضعَ الآخرِ ، ولا حجرَ في الأسامي بعدَ فهمِ المعاني .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يغبطُ ، والمنافقُ يحسُدُ »(١) .

فأمَّا الأوَّلُ . . فهوَ حرامٌ بكلِّ حالٍ إلا نعمةً أصابَها فاجرٌ أوْ كافرٌ ، وهوَ يستعينُ بها على تهييجِ الفتنةِ ، وإفسادِ ذاتِ البينِ ، وإيذاءِ الخلقِ ، فلا يضرُّكَ كراهتُكَ لها ، ومحبتُكَ لزوالِها ؛ فإنَّكَ لا تحبُّ زوالَها مِنْ حيثُ إنَّها نعمةٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّها آلةُ الفسادِ ، ولوْ أمنْتَ فسادَهُ . . لمْ يغمَّكَ تنعُّمُهُ .

ويدلُّ على تحريمِ الحسدِ الأخبارُ التي نقلناها ، وأنَّ هلذهِ الكراهةَ تسخُّطٌ لقضاءِ اللهِ تعالى في تفضيلِ بعضِ عبادِهِ على بعضٍ ، وذلكَ لا عذرَ فيهِ ولا رخصةَ ، وأيُّ معصيةٍ تزيدُ على كراهتِكَ لراحةِ مسلمٍ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لكَ فيهِ مضرةٌ ؟!

وإلى هلذا أشارَ القرآنُ بقولِهِ : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ ، وهلذا الفرحُ شماتةٌ ، والحسدُ والشماتةُ يتلازمانِ .

وقالَ تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ﴾ ، فأخبرَ تعالى أنَّ حبَّهمْ زوالَ نعمةِ الإيمانِ حسدٌ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾

وذكرَ اللهُ تعالى حسدَ إخوةِ يوسفَ ، وعبَّرَ عمَّا في قلوبِهِمْ بقولِهِ : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ ، فلمَّا كرهُوا حبَّ أبيهِمْ لهُ . . ساءَهُمْ ذلكَ ، وأحبُّوا زوالَهُ عنهُ ، فغيَّبُوهُ عنهُ .

وقالَ تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أيْ : لا تضيقُ بهِ صدورُهُمْ ولا يغتمُّونَ ، فأثنى عليهِمْ بعدمِ الحسدِ .

وقالَ تعالى في معرضِ الإنكارِ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً مرفوعاً ، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد ») . « إتحاف » (٥٨/٨) ، ورواه أبو نعيم عنه في « الحلية » (٩٥/٨) .

وقالَ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ قيلَ في التفسيرِ : حسداً [١]

وقالَ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ ، فأنزلَ اللهُ العلمَ ليجمعَهُمْ ويؤلِّفَ بينهُمْ علىٰ طاعتِهِ ، فأمرَهُمْ أنْ يتألَّفوا بالعلمِ ، فتحاسدُوا واختلفُوا ؛ إذ أرادَ كلُّ واحدٍ أنْ ينفردَ بالرئاسةِ وقبولِ القولِ ، فردَّ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ .

قالَ ابنُ عباسٍ : كانَتِ اليهودُ قبلَ أنْ يُبعثَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قاتلوا قوماً . . قالوا :

نسألُكَ بالنبيِّ الذي وعدتَنا أن ترسلَهُ ، وبالكتابِ الذي تنزلُهُ إلا ما نصرتَنا ، فكانُوا يُنصرونَ .

فلمَّا جاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ ولدِ إسماعيلَ . . عرفُوهُ ، وكفرُوا بهِ بعدَ معرفتِهِمْ إيَّاهُ ، فقالَ تعالَىٰ : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا ﴾ أيْ : حسداً [٢]

وقالَتْ صفيَّةُ بنتُ حييٍّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جاءَ أبي وعمِّي مِنْ عندِكَ يوماً ، فقالَ أبي لعمي : ما تقولُ فيهِ ؟

قالَ : أقولُ : إنَّهُ النبيُّ الذي بشَّرَ بهِ موسىٰ ، قالَ : فما ترىٰ ؟ قالَ : أرىٰ معاداتَهُ أيامَ الحياةِ [٣]

فهٰذا حكمُ الحسدِ في التحريمِ .

وأمَّا المنافسةُ . . فليسَتْ بحرامٍ ، بلْ هيَ إمَّا واجبةٌ ، وإمَّا مندوبةٌ ، وإمَّا مباحةٌ ، وقدْ يُستعملُ لفظُ المنافسةِ بدلَ الحسدِ ، والحسدِ بدلَ المنافسةِ .

قالَ قثمُ بنُ العباسِ : لمَّا أرادَ هوَ والفضلُ أنْ يأتيا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيسألانِهِ أنْ يؤمِّرَهُما على الصدقةِ . قالا لعليٍّ حينَ قالَ لهُما :

لا تذهبا إليهِ ؛ فإنَّهُ لا يؤمِّرُكما عليها ، فقالا لهُ : ما هٰذا منكَ إلا نفاسةٌ ، واللهِ ؛ لقدْ زوَّجَكَ ابنتَهُ فما نفِسْنا ذٰلكَ عليكَ ؛ أيْ : هٰذا منكَ حسدٌ ، وما حسدناكَ علىٰ تزويجِهِ إياكَ فاطمةَ [٤]

والمنافسةُ مشتقةٌ في اللغةِ مِنَ النفاسةِ ، والذي يدلُّ علىٰ إباحةِ المنافسةِ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

وإنَّما المسابقةُ عندَ خوفِ الفوتِ ، وهوَ كالعبدينِ يتسابقانِ إلىٰ خدمةِ مولاهما ؛ إذْ يجزعُ كلُّ واحدٍ أن يسبقَهُ صاحبُهُ فيحظىٰ عندَ مولاهُ بمنزلةٍ لا يحظىٰ هوَ بها .

---

(١) أي : فسروا البغي بالحسد ؛ فإنه تجاوز من الحق إلى الباطل . « إتحاف » (٦٠/٨) .

(٢) رواه الآجري في « الشريعة » (٩٧٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٦٣/٢) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٧٦/٢) ، ومجمل روايات الاستنصار به صلى الله عليه وسلم وحسدهم له عليه الصلاة والسلام عند الطبري في « تفسيره » (٥٣٩/١/١ ـ ٥٤٢) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن إسحاق في « السيرة » ، قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : حدثت صفية ، فذكره نحوه ، وهو منقطع) . « إتحاف » (٦٠/٨) .

(٤) رواه مسلم (١٠٧٢) بنحوه .

وكيفَ وقدْ صرَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذٰلكَ فقالَ :

« لاحسدَ إلَّا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ، فسلَّطَهُ علىٰ هلكتِهِ في الحقِّ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ، فهوَ يعملُ بهِ ويعلِّمُهُ النَّاسَ »(١)

ثمَّ فسَّرَ ذٰلكَ في حديثِ أبي كبشةَ الأنماريِّ فقالَ : « مثلُ هٰذهِ الأمَّةِ مثلُ أربعةِ رجالٍ :

رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً وعلماً ، فهو يعملُ بعلمِهِ في مالِهِ .

ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ولمْ يؤتِهِ مالاً ، فيقولُ ربُّ العلمِ : لوْ أنَّ لي مالاً مثلَ مالِ فلانٍ . . لكنتُ أعملُ فيهِ بمثلِ عملِهِ ؛ فهما في الأجرِ سواءٌ » .

وهٰذا منهُ حبٌّ لأنْ يكونَ لهُ مثلُ مالِهِ فيعملَ مثلَ ما يعملُ مِنْ غيرِ حبِّ زوالِ النعمةِ عنهُ .

قالَ : « ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ولم يؤتِهِ علماً ، فهوَ يُنفقُهُ في معاصِي اللهِ .

ورجلٌ لمْ يؤتِهِ اللهُ علماً ولمْ يؤتِهِ مالاً ، فيقولُ : لوْ أنَّ لي مثلَ مالِ فلانٍ . . لكنْتُ أنفقُهُ في مثلِ ما أنفقَهُ فيهِ مِنَ المعاصي ؛ فهما في الوزْرِ سواءٌ »(٢)

فذمَّهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ جهةِ تمنِّيهِ للمعصيةِ ، لا مِنْ جهةِ حبِّهِ أنْ يكونَ لَهُ مِنَ النعمةِ مثلُ مالِهِ .

فإذاً ؛ لا حرجَ علىٰ مَنْ يغبطُ غيرَهُ في نعمةٍ ويشتهي لنفسِهِ مثلَها ؛ مهما لمْ يحبَّ زوالَها عنهُ ، ولمْ يكرَهْ دوامَها لهُ .

نعمْ ؛ إنْ كانَتْ تلكَ النعمةُ نعمةً دينيَّةً واجبةً ؛ كالإيمانِ ، والصلاةِ ، والزكاةِ . . فهٰذِهِ المنافسةُ واجبةٌ ، وهوَ أنْ يحبَّ أنْ يكونَ مثلَهُ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يحبَّ ذٰلكَ . . فيكونُ راضياً بالمعصيةِ ، وذٰلكَ حرامٌ .

وإنْ كانَتِ النعمةُ مِنَ الفضائلِ ؛ كإنفاقِ الأموالِ في المكارمِ والصدقاتِ . . فالمنافسةُ فيها مندوبٌ إليها ، وإنْ كانَتْ نعمةً يُتنعَّمُ بها علىٰ وجهٍ مباحٍ . . فالمنافسةُ فيها مباحةٌ .

وكلُّ ذٰلكَ يرجعُ إلىٰ إرادتِهِ مساواتَهُ واللحوقَ بهِ في النعمةِ ، وليسَ فيها كراهةُ النعمةِ ، وكانَ تحتَ هٰذهِ النعمةِ أمرانِ :

أحدُهُما : راحةُ المنعَمِ عليهِ .

والآخرُ : ظهورُ نقصانِ غيرِهِ وتخلُّفِهِ عنهُ .

وهوَ يكرَهُ أحدَ الوجهينِ ، وهوَ تخلُّفُ نفسِهِ ، ويحبُّ مساواتَهُ لهُ ، ولا حرجَ علىٰ مَنْ يكرهُ تخلُّفَ نفسِهِ ونقصانَها في المباحاتِ .

نعمْ ؛ ذٰلكَ ينقصُ مِنَ الفضلِ ، ويناقضُ الزهدَ والتوكلَ والرضا ، ويحجبُ عنِ المقاماتِ الرفيعةِ ، ولٰكنَّهُ لا يوجبُ العصيانَ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) .

وها هنا دقيقةٌ غامضةٌ : وهيَ أنَّهُ إذا أيسَ مِنْ أنْ ينالَ مثلَ تلكَ النعمةِ وهوَ يكرهُ تخلُّفَهُ ونقصانَهُ . . فلا محالةَ يحبُّ زوالَ النقصانِ ، وإنَّما يزولُ نقصانُهُ إمَّا بأنْ ينالَ مثلَ ذٰلكَ ، أوْ بأنْ تزولَ نعمةُ المحسودِ .

فإذا انسدَّ أحدُ الطريقينِ . . فيكادُ القلبُ لا ينفكُّ عنْ شهوةِ الطريقِ الآخرِ ، حتَّىٰ إذا زالَتِ النعمةُ عنِ المحسودِ . . كانَ ذٰلكَ أشهىٰ عندَهُ مِنْ دوامِها ؛ إذ بزوالِها يزولُ تخلُّفُهُ وتقدُّمُ غيرِهِ ، وهٰذا لا يكادُ ينفكُّ القلبُ عنهُ .

فإنْ كانَ بحيثُ لوْ أُلقيَ الأمرُ إليهِ ورُدَّ إلى اختيارِهِ لسعىٰ في إزالةِ النعمةِ عنهُ . . فهوَ حسودٌ حسداً مذموماً ، وإنْ كانَ تردعُهُ التقوىٰ عنْ إزالةِ ذٰلكَ . . فيُعفىٰ عنهُ فيما يجدُهُ في طبعِهِ مِنِ ارتياحٍ إلىٰ زوالِ النعمةِ عنْ محسودِهِ مهما كانَ كارهاً لذٰلكَ مِنْ نفسِهِ بعقلِهِ ودينِهِ ، ولعلَّهُ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا ينفكُّ المؤمنُ عنهنَّ : الحسدُ والظنُّ والطِّيَرةُ » .

ثمَّ قالَ : « ولهُ منهنَّ مخرجٌ ، إذا حسدتَ . . فلا تبغِ »[1] ؛ أيْ : إنْ وجدتَ في قلبِكَ شيئاً . . فلا تعملْ بهِ ، وبعيدٌ أنْ يكونَ الإنسانُ مريداً للحاقِ بأخيهِ في النعمةِ فيعجزُ عنها ، ثمَّ ينفكُّ عنْ ميلٍ إلىٰ زوالِ النعمةِ ؛ إذْ يجدُ ـ لا محالةَ ـ لهُ ترجيحاً علىٰ دوامِها .

فهٰذا الحدُّ مِنَ المنافسةِ يزاحمُ الحسدَ الحرامَ ، فينبغي أنْ يُحتاطَ منهُ ، فإنَّهُ موضعُ الخطرِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلَّا وهوَ يرىٰ فوقَ نفسِهِ مِنْ معارفِهِ وأقرانِهِ مَنْ يحبُّ أن يساويَهُ ، ويكادُ يجرُّهُ ذٰلكَ إلى الحسدِ المحظورِ إنْ لمْ يكنْ قويَّ الإيمانِ رزينَ التقوىٰ .

ومهما كانَ محرِّكُهُ خوفَ التفاوتِ وظهورَ نقصانِهِ عنْ غيرِهِ . . جرَّهُ ذٰلكَ إلى الحسدِ المذمومِ ، وإلىٰ ميلِ الطبعِ إلىٰ زوالِ النعمةِ عنْ أخيهِ ، حتَّىٰ ينزلَ هوَ إلىٰ مساواتِهِ إذْ لمْ يقدِرْ هوَ أنْ يرتقيَ إلىٰ مساواتِهِ بإدراكِ النعمةِ ؛ وذٰلكَ لا رخصةَ فيهِ أصلاً ، بلْ هوَ حرامٌ ، سواءٌ كانَ في مقاصدِ الدينِ أوْ مقاصدِ الدنيا ، ولٰكنْ يُعفىٰ عنهُ في ذٰلكَ ما لمْ يعملْ بهِ إنْ شاءَ اللهُ ، وتكونُ كراهتُهُ لذٰلكَ مِنْ نفسِهِ كفارةً لهُ .

فهٰذهِ حقيقةُ الحسدِ وأحكامُهُ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا مراتبُهُ . . فأربعٌ :

الأُولىٰ : أنْ يحبَّ زوالَ النعمةِ عنهُ وإنْ كانَتْ لا تنتقلُ إليهِ ، وهٰذا غايةُ الخبثِ .

الثانيةُ : أنْ يحبَّ زوالَ النعمةِ إليهِ ؛ لرغبتِهِ في تلكَ النعمةِ ، مثلُ رغبتِهِ في دارٍ حسنةٍ ، أوِ امرأةٍ جميلةٍ ، أوْ ولايةٍ نافذةٍ واسعةٍ نالَها غيرُهُ ، وهوَ يحبُّ أنْ تكونَ لهُ ، ومطلوبُهُ تلكَ النعمةُ لا زوالُها عنهُ ، ومكروهُهُ فقدُ النعمةِ لا تنعُّمُ غيرِهِ بها .

الثالثةُ : ألَّا يشتهيَ عينَها ، بلْ يشتهي لنفسِهِ مثلَها ، فإنْ عجزَ عنْ مثلِها . . أحبَّ زوالَها ؛ كي لا يظهرَ التفاوتُ بينهُما .

---

(1) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٨/٢) عن إسماعيل بن أمية معضلاً ، وفي « الإتحاف » (٥١/٨) : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الحسد » من حديث أبي هريرة ، وفيه يعقوب بن محمد الزهري ، وموسى بن يعقوب ، ضعفهما الجمهور) .

الرابعةُ : أنْ يشتهيَ لنفسِهِ مثلَها ، فإنْ لمْ يحصلْ . . فلا يحبُّ زوالَها عنهُ .

وهٰذا الأخيرُ هوَ المعفوُّ عنهُ إنْ كانَ في الدنيا ، والمندوبُ إليهِ إنْ كانَ في الدينِ ، والثالثةُ فيها مذمومٌ وغيرُ مذمومٍ ، والثانيةُ أخفُّ مِنَ الثالثةِ ، والأولىٰ مذمومٌ محضٌ .

وتسميةُ الثانيةِ حسداً فيهِ تجوُّزٌ وتوسُّعٌ ، ولٰكنَّهُ مذمومٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، فتمنِّيهِ لمثلِ ذٰلكَ غيرُ مذمومٍ ، وأمَّا تمنِّيهِ عينَ ذٰلكَ . . فهوَ مذمومٌ .

* * *

بيان أسباب الحسد والمنافسة

أمَّا المنافسةُ . . فسببُها حبُّ ما فيهِ المنافسةُ ، فإنْ كانَ ذٰلكَ أمراً دينيّاً . . فسببُهُ حبُّ اللهِ تعالىٰ وحبُّ طاعتِهِ ، وإنْ كانَ دنيوياً . . فسببُهُ حبُّ مباحاتِ الدنيا والتنعُّمِ بها ، وإنَّما نظرُنا الآنَ في الحسدِ المذمومِ ، ومداخلُهُ كثيرةٌ جدّاً ، ولٰكنْ **يحصُرُ جملتَها سبعةُ أسبابٍ** : العداوةُ ، والتعزُّزُ ، والكبرُ ، والتعجُّبُ ، والخوفُ مِنْ فوتِ المقاصدِ المحبوبةِ ، وحبُّ الرئاسةِ ، وخبثُ النفسِ وبخلُها .

فإنَّهُ إنَّما يكرَهُ النعمةَ علىٰ غيرِهِ إمَّا لأنَّهُ عدوُّهُ ، فلا يريدُ لهُ الخيرَ ، وهٰذا لا يختصُّ بالأمثالِ ، بلْ يحسُدُ الخسيسُ الملِكَ ؛ بمعنىٰ : أنَّهُ يحبُّ زوالَ نعمتِهِ ؛ لكونِهِ مبغضاً لهُ بسببِ إساءتِهِ إليهِ أوْ إلىٰ مَنْ يحبُّهُ .

وإمَّا أنْ يكونَ مِنْ حيثُ يعلمُ أنَّهُ يستكبرُ بالنعمةِ عليهِ وهوَ لا يطيقُ احتمالَ كبرِهِ وتفاخرِهِ لعزَّةِ نفسِهِ ، وهوَ المرادُ بالتعزُّزِ .

وإمَّا أنْ يكونَ في طبعِهِ أنْ يتكبَّرَ على المحسودِ ، ويمتنعُ ذٰلكَ عليهِ لنعمتِهِ ، وهوَ المرادُ بالتكبُّرِ .

وإمَّا أنْ تكونَ النعمةُ عظيمةً والمنصبُ كبيراً ، فيتعجَّبُ مِنْ فوزِ مثلِهِ بمثلِ تلكَ النعمةِ ، وهوَ المرادُ بالتعجُّبِ .

وإمَّا أنْ يخافَ مِنْ فواتِ مقاصدِهِ بسببِ نعمتِهِ ؛ بأنْ يتوصَّلَ بها إلىٰ مزاحمتِهِ في أغراضِهِ .

وإمَّا أنْ يكونَ يحبُّ الرئاسةَ التي تنبني على الاختصاصِ بنعمةٍ لا يُساوىٰ فيها .

وإمَّا ألا يكونَ بسببٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ ، بلْ لخبثِ النفسِ وشحِّها بالخيرِ لعبادِ اللهِ تعالىٰ .

ولا بدَّ مِنْ شرحِ هٰذهِ الأسبابِ .

❁ ❁ ❁

السببُ الأولُ : العداوةُ والبغضاءُ :

وهٰذا أشدُّ أسبابِ الحسدِ ، فإنَّ مَنْ آذاهُ إنسانٌ بسببٍ مِنَ الأسبابِ ، وخالفَهُ في غرضِهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ . . أبغضَهُ قلبُهُ ، وغضبَ عليهِ ، ورسخَ في نفسِهِ الحقدُ ، والحقدُ يقتضي التشفِّيَ والانتقامَ .

فإنْ عجزَ المبغضُ عنْ أنْ يتشفَّىٰ بنفسِهِ . . أحبَّ أنْ يتشفَّىٰ منهُ الزمانُ ، وربَّما يحيلُ ذٰلكَ علىٰ كرامةِ نفسِهِ عندَ اللهِ ، فمهما أصابَتْ عدوَّهُ بليَّةٌ . . فرحَ بها ، وظنَّ أنَّها مكافأةٌ لهُ مِنْ جهةِ اللهِ علىٰ بغضِهِ ، وأنَّها أصابَتْهُ لأجلِهِ ، ومهما أصابَتْهُ نعمةٌ . . ساءَهُ ذٰلكَ ؛ لأنَّهُ ضدُّ مرادِهِ ، وربَّما يخطرُ لهُ أنَّهُ لا منزلةَ لهُ عندَ اللهِ ؛ حيثُ لمْ ينتقمْ لهُ مِنْ عدوِّهِ الذي آذاهُ ، بلْ أنعمَ عليهِ .

وبالجملةِ : فالحسدُ يلزمُ البغضَ والعداوةَ ولا يفارقُهُما ، وإنَّما غايةُ التقيِّ ألَّا يبغيَ ، وأنْ يكرهَ ذٰلكَ مِنْ نفسِهِ ، فأمَّا أنْ يبغضَ إنساناً ثمَّ يستويَ عندَهُ مسرَّتُهُ ومساءتُهُ . . فهٰذا غيرُ ممكنٍ .

وهٰذا ما وصفَ اللهُ تعالى الكفارَ بهِ ؛ أعني : الحسدَ بالعداوةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وكذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ .

والحسدُ بسببِ البغضِ ربَّما يفضي إلى التنازعِ والتقاتلِ ، واستغراقِ العمرِ في إزالةِ النعمةِ بالحيلِ ، وبالسعايةِ ، وهتكِ السترِ ، وما يجري مجراهُ .

❀ ❀ ❀

السببُ الثاني : التعزُّزُ :

وهوَ أن يثقُلَ عليهِ أنْ يترفَّعَ عليهِ غيرُهُ ، فإذا أصابَ بعضُ أمثالِهِ ولايةً أوْ علماً أوْ مالاً . . خافَ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ، وهوَ لا يطيقُ تكبُّرَهُ ، ولا تسمحُ نفسُهُ باحتمالِ صَلفِهِ وتفاخرِهِ عليهِ ، وليسَ مِنْ غرضِهِ أنْ يتكبَّرَ ، بلْ غرضُهُ أنْ يدفَعَ كبرَهُ ، فإنَّهُ قدْ رضيَ بمساواتِهِ مثلاً ، ولٰكنْ لا يرضىٰ بترفُّعِهِ عليهِ .

❀ ❀ ❀

السببُ الثالثُ : الكبرُ :

وهوَ أنْ يكونَ في طبعِهِ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ، ويستصغرَهُ ويستخدمَهُ ، ويتوقَّعَ منهُ الانقيادَ لهُ ، والمتابعةَ في أغراضِهِ ، فإذا نالَ نعمةً . . خافَ ألا يحتملَ تكبُّرَهُ ، ويترفعَ عنْ متابعتِهِ ، أوْ ربَّما يتشوَّفُ إلىٰ مساواتِهِ ، أوْ إلىٰ أنْ يرتفعَ عليهِ ، فيعودَ متكبراً بعدَ أنْ كانَ متكبَّراً عليهِ .

وَمِنَ التعزُّزِ والتكبُّرِ كانَ حسدُ أكثرِ الكفارِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالُوا : كيفَ يتقدَّمُ علينا غلامٌ يتيمٌ ؟!(١)

وكيفَ نطأطئُ لهُ رؤوسَنا ؟! فقالُوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أيْ : كانَ لا يثقلُ علينا أنْ نتواضعَ لهُ ونتَّبعَهُ إذا كانَ عظيماً(٢)

وقالَ اللهُ تعالىٰ يصفُ قولَ قريشٍ : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ كالاستحقارِ لهمْ والأنفةِ منهُمْ(٣)

❀ ❀ ❀

السببُ الرابعُ : التعجُّبُ :

كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنِ الأممِ السالفةِ ؛ إذْ قالُوا : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .

وقالُوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ ، ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ ، فتعجَّبُوا مِنْ أنْ يفوزَ برتبةِ الرسالةِ والوحيِ والقربِ مِنَ اللهِ بشرٌ مثلُهُمْ ، فحسدُوهُمْ ، وأحبُّوا زوالَ النبوَّةِ عنهُمْ ؛ جزعاً أنْ يفضلَ عليهِمْ مَنْ هوَ مثلُهُمْ في الخلقةِ ، لا عنْ قصدِ تكبُّرٍ ، وطلبِ رئاسةٍ ، وتقدُّمِ عداوةٍ ، أوْ سببٍ آخرَ مِنْ سائرِ الأسبابِ .

---

(١) إذ روى ابن سعد في « طبقاته » (١/١٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعثت قريش النضر بن الحارث بن علقمة وعقبة بن أبي معيط وغيرهما إلىٰ يهود يثرب وقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، فقدموا المدينة فقالوا : أتيناكم لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم حقير يقول قولاً عظيماً ، يزعم أنه رسول الرحمٰن ، ولا نعرف الرحمٰن إلا رحمان اليمامة ، قالوا : صفوا لنا صفته ، فوصفوا لهم ، قالوا : فمن تبعه منكم ؟ قالوا : سفلتنا ، فضحك حبرٌ منهم وقال : هٰذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة .

(٢) والمراد بالقريتين : مكة والطائف ، واختلفوا في تعيين المراد بالرجل في الآية . انظر « تفسير الطبري » (١٣/٢٥/٧٩) .

(٣) يشيرون إلىٰ من اتبعه صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، حملهم علىٰ ذٰلك التعزز والكبر والجبروت . « إتحاف » (٨/٦٥) .

وقالُوا متعجّبينَ : ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ ، وقالُوا : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

❁ ❁ ❁

السببُ الخامسُ : الخوفُ مِن فوتِ المقاصدِ :

وذٰلكَ يختصُّ بمتزاحمينِ علىٰ مقصودٍ واحدٍ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ يحسُدُ صاحبَه علىٰ كلّ نعمةٍ تكونُ عوناً لَهُ في الانفرادِ بمقصودِهِ ، ومِنْ هٰذا الجنسِ تحاسدُ الضَّرَّاتِ في التزاحمِ علىٰ مقاصدِ الزوجيَّةِ ، وتحاسدُ الإخوةِ في التزاحمِ علىٰ نيلِ المنزلةِ في قلبِ الأبوينِ ؛ للتوصُّلِ بهِ إلىٰ مقاصدِ الكرامةِ والمالِ .

وكذٰلكَ تحاسدُ التلميذينِ لأستاذٍ واحدٍ في نيلِ المنزلةِ في قلبِ الأستاذِ ، وتحاسدُ ندماءِ الملكِ وخواصّهِ علىٰ نيلِ المنزلةِ مِنْ قلبِهِ ؛ للتوصُّلِ بهِ إلى الجاهِ والمالِ .

وكذٰلكَ تحاسدُ الواعظينِ المتزاحمينِ علىٰ أهلِ بلدةٍ واحدةٍ ، إذا كانَ غرضُهما نيلَ المالِ مِنَ القبولِ عندَهُمْ ، وكذٰلكَ تحاسدُ العالمينِ المتزاحمينِ علىٰ طائفةٍ مِنَ المتفقّهةِ محصورينَ ؛ إذْ يطلبُ كلُّ واحدٍ منزلةً في قلوبِهِمْ ؛ للتوصُّلِ بهِمْ إلىٰ أغراضٍ لهُ .

❁ ❁ ❁

السببُ السادسُ : حبُّ الرئاسةِ ، وطلبُ الجاهِ لنفسِهِ مِنْ غيرِ توصُّلٍ بهِ إلىٰ مقصودٍ :

وذٰلكَ كالرجلِ الذي يريدُ أنْ يكونَ عديمَ النظيرِ في فنٍّ مِنَ الفنونِ ، إذا غلبَ عليهِ حبُّ الثناءِ ، واستفزَّهُ الفرحُ بما يُمدحُ بهِ مِنْ أنَّهُ واحدُ الدهرِ وفريدُ العصرِ في فنّهِ ، وأنَّهُ لا نظيرَ لهُ ، فإنَّهُ لوْ سمعَ بنظيرٍ لهُ في أقصى العالمِ . . ساءَهُ ذٰلكَ ، وأحبَّ موتَهُ ، أوْ زوالَ النعمةِ التي بها يشاركُهُ في المنزلةِ ؛ مِنْ شجاعةٍ ، أوْ علمٍ ، أوْ عبادةٍ ، أوْ صناعةٍ ، أوْ جمالٍ ، أوْ ثروةٍ ، أوْ غيرِ ذٰلكَ ممَّا يتفرَّدُ هوَ بهِ ، ويفرحُ بسببِ تفرُّدِهِ .

وليسَ السببُ في هٰذا عداوةً ، ولا تعزُّزاً ، ولا تكبراً على المحسودِ ، ولا خوفاً مِنْ فواتِ مقصودٍ ، سوىٰ محضِ الرئاسةِ بدعوى الانفرادِ ، وهٰذا وراءَ ما بينَ آحادِ العلماءِ مِنْ طلبِ الجاهِ والمنزلةِ في قلوبِ الناسِ للتوصُّلِ إلىٰ مقاصدَ سوى الرئاسةِ .

وقدْ كانَ علماءُ اليهودِ ينكرونَ معرفةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا يؤمنونَ بهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ تبطلَ رئاستُهُمْ واستتباعُهُمْ مهما نُسِخَ علمُهُمْ .

❁ ❁ ❁

السببُ السابعُ : خبثُ النفسِ وشحُّها بالخيرِ لعبادِ اللهِ تعالىٰ :

فإنَّكَ تجدُ مَنْ لا يشتغلُ برئاسةٍ ولا تكبرٍ ولا طلبِ مالٍ ، إذا وصِفَ عندَهُ حسنُ حالِ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ فيما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ . . شقَّ عليهِ ذٰلكَ .

وإذا وُصِفَ لهُ اضطرابُ أمورِ الناسِ ، وإدبارُهُمْ ، وفواتُ مقاصدِهِمْ ، وتنغُّصُ عيشِهِمْ . . فرحَ بهِ ، فهوَ أبداً يحبُّ الإدبارَ لغيرِهِ ، ويبخلُ بنعمةِ اللهِ علىٰ عبادِهِ ، كأنَّهُم يأخذونَ ذٰلكَ مِنْ ملكِهِ وخزانتِهِ .

ويُقالُ : البخيلُ : مَنْ يبخلُ بمالِ نفسِهِ ، والشحيحُ : هوَ الذي يبخلُ بمالِ غيرِهِ ، فهٰذا يبخلُ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ الذينَ ليسَ بينَهُ وبينهُمْ عداوةٌ ولا رابطةٌ ، وهٰذا ليسَ لهُ سببٌ ظاهرٌ إلا خبثٌ في النفسِ ، ورذالةٌ في الطبعِ ، عليهِ وقعَتِ الجبلَّةُ ، ومعالجتُهُ شديدةٌ ؛ لأنَّ الحسدَ الثابتَ بسائرِ الأسبابِ أسبابُهُ عارضةٌ يُتصوَّرُ زوالُها ، فيطمعُ في إزالتِها ، وهٰذا خبثٌ في الجبلَّةِ ، لا عنْ سببٍ عارضٍ ؛ فتعسرُ إزالتُهُ ؛ إذْ يستحيلُ في العادةِ إزالتُهُ .

❁ ❁ ❁

فهٰذهِ هيَ أسبابُ الحسدِ ، وقدْ يجتمعُ بعضُ هٰذهِ الأسبابِ أوْ أكثرُها أوْ جميعُها في شخصٍ واحدٍ فيعظمُ فيهِ الحسدُ بذٰلكَ ، ويقوىٰ قوَّةً لا يقدرُ معها على الإخفاءِ والمجاملةِ ، بلْ يهتكُ حجابَ المجاملةِ ، ويظهرُ العداوةَ بالمكاشفةِ ، وأكثرُ المحاسداتِ تجتمعُ فيها جملةٌ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ ، وقلَّما يتجرَّدُ سببٌ واحدٌ منها .

❁ ❁ ❁

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه

اعلمْ : أنَّ الحسدَ إنَّما يكثرُ بينَ قومٍ تكثرُ بينهُمُ الأسبابُ التي ذكرْناها ، وإنَّما يقوىٰ بينَ قومٍ تجتمعُ فيهِمْ جملةٌ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ وتتظاهرُ ؛ إذِ الشخصُ الواحدُ يجوزُ أنْ يحسدَ ؛ لأنَّهُ يمتنعُ عنْ قبولِ التكبُّرِ ، ولأنَّهُ يتكبَّرُ ، ولأنَّهُ عدوٌّ ، ولغيرِ ذٰلكَ مِنَ الأسبابِ .

وهٰذهِ الأسبابُ إنَّما تكثرُ بينَ أقوامٍ تجمعُهُمْ روابطُ يجتمعونَ بسببِها في مجالسِ المخاطباتِ ، ويتواردونَ على الأغراضِ .

فإذا خالفَ واحدٌ صاحبَهُ في غرضٍ مِنْ أغراضِهِ . . نفرَ عنهُ طبعُهُ ، وأبغضَهُ ، وثبتَ الحقدُ في قلبِهِ ، فعندَ ذٰلكَ يريدُ أنْ يستحقرَهُ ويتكبَّرَ عليهِ ، ويكافئَهُ علىٰ مخالفتِهِ لغرضِهِ ، ويكرهُ تمكُّنَهُ مِنَ النعمةِ التي توصلُهُ إلىٰ أغراضِهِ ، وتترادفُ جملةٌ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ ؛ إذْ لا رابطةَ بينَ شخصينِ في بلدتينِ متنائيتينِ ؛ فلا يكونُ بينَهما محاسدةٌ ، وكذٰلكَ في محلَّتينِ .

نعمْ ؛ إذا تجاوروا في مسكنٍ ، أوْ سوقٍ ، أوْ مسجدٍ ، أوْ مدرسةٍ . . تواردا علىٰ مقاصدَ تتناقضُ فيها أغراضُهُما ، فيثورُ مِنَ التناقضِ التنافرُ والتباغضُ ، ومنهُ تثورُ بقيَّةُ أسبابِ الحسدِ ، فلذٰلكَ ترى العالمَ يحسدُ العالمَ دونَ العابدِ ، والعابدُ يحسدُ العابدَ دونَ العالمِ ، والتاجرُ يحسدُ التاجرَ ، بلِ الإسكافُ يحسدُ الإسكافَ ، ولا يحسدُ البزَّازَ إلَّا بسببٍ آخرَ سوى الاجتماعِ في الحرفةِ ، ويحسدُ الرجلُ أخاهُ وابنَ عمِّهِ أكثرَ ممَّا يحسدُ الأجانبَ ، والمرأةُ تحسُدُ ضرَّتَها وسُرِّيَّةَ زوجِها أكثرَ مما تحسُدُ أمَّ الزوجِ وابنتَهُ ؛ لأنَّ مقصدَ البزَّازِ غيرُ مقصدِ الإسكافِ ؛ فلا يتزاحمونَ على المقاصدِ ؛ إذْ مقصدُ البزَّازِ الثروةُ ، ولا يحصِّلُها إلا بكثرةِ الزبونِ ، وإنَّما ينازعُهُ فيهِ بزَّازٌ آخرُ ؛ إذْ حَريفُ البزَّازِ لا يطلبُهُ الإسكافُ (١) ، بلِ البزَّازُ ، ثمَّ مزاحمةُ البزَّازِ المجاورِ لهُ أكثرُ مِنْ مزاحمةِ البعيدِ عنهُ إلىٰ طرفِ السوقِ ؛ فلا جرمَ يكونُ حسدُهُ للجارِ أكثرَ .

وكذٰلكَ الشجاعُ يحسدُ الشجاعَ ، ولا يحسدُ العالمَ ؛ لأنَّ مقصدَهُ أنْ يُذكرَ بالشجاعةِ ، ويُشتهرَ بها ، وينفردَ بهٰذهِ الخصلةِ ، ولا يزاحمُهُ العالمُ علىٰ هٰذا الغرضِ ، وكذٰلكَ يحسُدُ العالمُ العالمَ ، ولا يحسدُ الشجاعَ ، ثمَّ حسدُ الواعظِ للواعظِ أكثرُ مِنْ حسدِهِ للفقيهِ والطبيبِ ؛ لأنَّ التزاحمَ بينَهُما علىٰ مقصودٍ واحدٍ أخصَّ .

فأصلُ هٰذهِ المحاسداتِ العداوةُ ، وأصلُ العداوةِ التزاحمُ بينهُما علىٰ غرضٍ واحدٍ ، والغرضُ الواحدُ لا يجمعُ متباعدينِ بلْ متناسبينِ ؛ فلذٰلكَ يكثرُ الحسدُ بينهُما .

نعمْ ؛ مَنِ اشتدَّ حرصُهُ على الجاهِ ، وأحبَّ الصيتَ في جميعِ أطرافِ العالمِ بما هوَ فيهِ . . فإنَّهُ يحسُدُ كلَّ مَنْ هوَ في العالمِ ـ وإنْ بعدَ ـ ممَّنْ يساهمُهُ في الخصلةِ التي يتفاخرُ بها .

ومنشأُ جميعِ ذٰلكَ حبُّ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا هيَ التي تضيقُ على المتزاحمينَ ، أمَّا الآخرةُ . . فلا ضيقَ فيها ، وإنَّما

---

(١) **الحريف** : المعامل ، والجمع حرفاء ؛ كشريف وشرفاء . « إتحاف » (٨/٦٧) .

مثالُ الآخرةِ نعمةُ العلمِ ، فلا جرمَ مَنْ يحبُّ معرفةَ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةَ صفاتِهِ ، وملائكتِهِ ، وأنبيائِهِ ، وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ . . لمْ يحسُدْ غيرَهُ إذا عرفَ ذٰلكَ أيضاً ؛ لأنَّ المعرفةَ لا تضيقُ عنِ العارفينَ ، بلِ المعلومُ الواحدُ يعرفُهُ ألفُ ألفِ عالمٍ ، ويفرحُ بمعرفتِهِ ، ويلْتَذُّ بهِ ، ولا تنقصُ لذَّةُ واحدٍ بسببِ غيرِهِ ، بلْ يحصُلُ بكثرةِ العارفينَ زيادةُ الأنسِ ، وثمرةُ الإفادةِ والاستفادةِ ؛ فلذٰلكَ لا يكونُ بينَ علماءِ الدينِ محاسدةٌ ؛ لأنَّ مقصودَهُمْ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بحرٌ واسعٌ لا ضيقَ فيهِ ، وغرضُهُمُ المنزلةُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولا ضيقَ أيضاً فيما عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ أجملَ ما عندَ اللهِ مِنَ النعيمِ لذَّةُ لقائِهِ ، وليسَ فيهِ ممانعةٌ ومزاحمةٌ ، ولا يضيِّقُ بعضُ الناظرينَ علىٰ بعضٍ ، بلْ يزيدُ الأنسُ بكثرتِهِمْ .

نعمْ ؛ إذا قصدَ العلماءُ بالعلمِ المالَ والجاهَ . . تحاسدوا ؛ لأنَّ المالَ هوَ أعيانٌ وأجسامٌ ، إذا وقعَتْ في يدِ واحدٍ . . خلَتْ عنها يدُ الآخرِ ، ومعنى الجاهِ : ملكُ القلوبِ ، ومهما امتلأَ قلبُ شخصٍ بتعظيمِ عالمٍ . . انصرفَ عنْ تعظيمِ الآخرِ أوْ نقصَ عنهُ لا محالةَ ، فيكونُ ذٰلكَ سبباً للمحاسدةِ ، وإذا امتلأَ قلبٌ بالفرحِ بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ . . لمْ يمنعْ ذٰلكَ أنْ يمتلئَ قلبُ غيرِهِ بها ، وأنْ يفرحَ بذٰلكَ .

فالفرقُ بينَ العلمِ والمالِ : أنَّ المالَ لا يحُلُّ في يدٍ ما لمْ يرتحلْ عنِ اليدِ الأخرىٰ ، والعلمُ في قلبِ العالمِ مستقرٌّ ، ويحلُّ في قلبِ غيرِهِ بتعليمِهِ مِنْ غيرِ أنْ يرتحلَ عنْ قلبِهِ ، وأنَّ المالَ أجسامٌ وأعيانٌ ولها نهايةٌ ، فلوْ ملكَ الإنسانُ جميعَ ما في الأرضِ . . لمْ يبقَ بعدَهُ مالٌ يتملَّكُهُ غيرُهُ ، والعلمُ لا نهايةَ لهُ ، ولا يُتصوَّرُ استيعابُهُ ، فمَنْ عوَّدَ نفسَهُ الفكرَ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ . . صارَ ذٰلكَ ألذَّ عندَهُ مِنْ كلِّ نعيمٍ ، ولمْ يكنْ ممنوعاً منهُ ، ولا مُزاحَماً فيه ، فلا يكونُ في قلبِهِ حسدٌ لأحدٍ مِنَ الخلقِ ؛ لأنَّ غيرَهُ أيضاً لوْ عرفَ مثلَ معرفتِهِ . . لمْ ينقصْ مِنْ لذَّتِهِ ، بلْ زادَتْ لذَّتُهُ بمؤانستِهِ ، فتكونُ لذَّةُ هٰؤلاءِ في مطالعةِ عجائبِ الملكوتِ على الدوامِ أعظمَ مِنْ لذةِ مَنْ ينظرُ إلىٰ أشجارِ الجنَّةِ وبساتينِها بالعينِ الظاهرةِ ؛ فإنَّ نعيمَ العارفِ وجنَّتَهُ معرفتُهُ التي هيَ صفةُ ذاتِهِ ، يأمنُ زوالَها ، وهوَ أبداً يجني ثمارَها ، فهوَ بروحِهِ وقلبِهِ متغذٍّ بفاكهةِ علمِهِ ، وهيَ فاكهةٌ غيرُ مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ، بلْ قطوفُها دانيةٌ ، فهوَ وإنْ غمضَ العينَ الظاهرةَ . . فروحُهُ أبداً ترتعُ في جنةٍ عاليةٍ ، ورياضٍ زاهرةٍ ، فإنْ فُرِضَ كثرةٌ في العارفينَ . . لمْ يكونُوا متحاسدينَ ، بلْ كانُوا كما قالَ فيهِمْ ربُّ العالمينَ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ ، فهٰذا حالُهُمْ وهُمْ بعدُ في الدنيا ، فماذا يُظَنُّ بهِمْ عندَ انكشافِ الغطاءِ ومشاهدةِ المحبوبِ في العُقبىٰ ؟!

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ في الجنةِ محاسدةٌ ، ولا أنْ يكونَ بينَ أهلِ الجنةِ في الدنيا محاسدةٌ ؛ لأنَّ الجنَّةَ لا مضايقةَ ولا مزاحمةَ فيها ، ولا تُنالُ إلا بمعرفةِ اللهِ تعالى ، التي لا مزاحمةَ فيها في الدنيا أيضاً ، فأهلُ الجنةِ بالضَّرورةِ برآءُ مِنَ الحسدِ في الدنيا والآخرةِ جميعاً ، بلِ الحسدُ مِنْ صفاتِ المبعدينَ عنْ سعةِ علِّيِّينَ إلىٰ مضيقِ سجينٍ ، ولذٰلكَ وُسِمَ بهِ الشيطانُ اللعينُ ، وذُكرَ مِنْ صفاتِهِ أنَّهُ حسدَ آدمَ علىٰ ما خُصَّ بهِ مِنَ الاجتباءِ ، ولمَّا دُعِيَ إلى السجودِ . . استكبرَ وأبىٰ ، وتمردَّ وعصىٰ .

فقدْ عرفتَ أنَّهُ لا حسدَ إلا للتواردِ علىٰ مقصودٍ يضيقُ عنِ الوفاءِ بالكلِّ ، ولهٰذا لا ترى الناسَ يتحاسدُونَ على النظرِ إلىٰ زينةِ السماءِ ، ويتحاسدونَ على البساتينِ التي هيَ جزءٌ يسيرٌ مِنْ جملةِ الأرضِ ، وكلُّ الأرضِ لا وزنَ لها بالإضافةِ إلى السماءِ ، ولٰكنَّ السماءَ لسعةِ الأقطارِ وافيةٌ بجميعِ الأبصارِ ، فلمْ يكنْ فيها تزاحمٌ ولا تحاسدٌ أصلاً .

فعليكَ ـ إنْ كنتَ بصيراً وعلىٰ نفسكَ مشفقاً ـ أنْ تطلبَ نعيماً لا زحمةَ فيهِ ، ولذةً لا مكدِّرَ لها ، ولا يُوجدُ ذٰلكَ في الدنيا إلا في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وعجائبِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ولا يُنالُ ذٰلكَ في الآخرةِ إلا بهٰذهِ المعرفةِ أيضاً ، فإنْ كنتَ لا تشتاقُ إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ تجدْ لذَّتَها ، وفترَ عنكَ رأيُكَ ، وضعفَتْ فيها رغبتُكَ . . فأنتَ في ذٰلكَ معذورٌ ؛ إذِ العِنِّينُ لا يشتاقُ إلىٰ لذَّةِ الوقاعِ ، والصبيُّ لا يشتاقُ إلىٰ لذةِ الملكِ ، فإنَّ هٰذهِ لذاتٌ يختصُّ بإدراكِها الرجالُ دونَ الصبيانِ والمخنثينَ ، فكذٰلكَ لذةُ المعرفةِ يختصُّ بإدراكِها الرجالُ ، ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، ولا يشتاقُ إلىٰ هٰذهِ اللذَّةِ غيرُهُمْ ؛ لأنَّ الشوقَ بعدَ الذوقِ ، ومَنْ لمْ يذقْ . . لمْ يعرفْ ، ومَنْ لمْ يعرفْ . . لمْ يشتَقْ ، ومَنْ لمْ يشتَقْ . . لمْ يطلُبْ ، ومَنْ لمْ يطلُبْ . . لمْ يدرِكْ ، ومَنْ لمْ يدرِكْ . . بقيَ معَ المحرومينَ في أسفلِ السافلينَ ، ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ .

* * *

بيان الدّواء الّذي به يُنفى مرض الحسد عن القلب

اعلمْ : أنَّ الحسدَ مِنَ الأمراضِ العظيمةِ للقلوبِ ، ولا تُداوىٰ أمراضُ القلوبِ إلَّا بالعلمِ والعملِ .

❁ ❁ ❁

والعلمُ النافعُ لمرضِ الحسدِ : هوَ أنْ تعرفَ تحقيقاً أنَّ الحسدَ ضررٌ عليكَ في الدنيا والدينِ ، وأنَّهُ لا ضررَ فيهِ على المحسودِ في الدنيا والدينِ ، بلْ ينتفعُ بهِ في الدنيا والدينِ ، ومهما عرفتَ هـٰذا عنْ بصيرةٍ ، ولمْ تكنْ عدوَّ نفسِكَ وصديقَ عدوِّكَ . . فارقتَ الحسدَ لا محالةَ .

أمَّا كونُهُ ضرراً عليكَ في الدينِ : فهوَ أنَّكَ بالحسدِ سخطتَ قضاءَ اللهِ تعالىٰ ، وكرهتَ نعمتَهُ التي قسمَها لعبادِهِ ، وعدلَهُ الذي أقامَهُ في ملكِهِ بخفيِّ حكمتِهِ ، فاستنكرتَ ذٰلكَ واستبشعتَهُ ، وهـٰذهِ جنايةٌ علىٰ حدقةِ التوحيدِ ، وقذىً في عينِ الإيمانِ ، وناهيكَ بهِما جنايةً على الدينِ ، وقدِ انضافَ إلىٰ ذٰلكَ أنَّكَ غششتَ رجلاً مِنَ المؤمنينَ ، وتركتَ نصيحتَهُ ، وفارقتَ أولياءَ اللهِ وأنبياءَهُ في حبِّهِمُ الخيرَ لعبادِ اللهِ تعالىٰ ، وشاركتَ إبليسَ وسائرَ الكفارِ في محبَّتِهِمْ للمؤمنينَ البلايا وزوالَ النعمِ ، وهـٰذهِ خبائثُ في القلبِ ، تأكلُ حسناتِ القلبِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ ، وتمحوها كما يمحو الليلُ النهارَ .

وأمَّا كونُهُ ضرراً عليكَ في الدنيا : فهوَ أنَّكَ تتألَّمُ بحسدِكَ في الدنيا أوْ تتعذَّبُ بهِ ولا تزالُ في كمدٍ وغمٍّ ؛ إذْ أعداؤُكَ لا يخليهِمُ اللهُ عنْ نعمٍ يفيضُها عليهِمْ ، فلا تزالُ تتعذَّبُ بكلِّ نعمةٍ تراها ، وتتألَّمُ بكلِّ بليَّةٍ تنصرفُ عنهُمْ ، فتبقىٰ مغموماً محروماً متشعِّبَ القلبِ ، ضيِّقَ الصدرِ قدْ نزلَ بكَ ما يشتهيهِ الأعداءُ لكَ وتشتهيهِ لأعدائِكَ ، فقدْ كنتَ تريدُ المحنةَ لعدوِّكَ ، فتنجَّزَتْ في الحالِ محنتُكَ وغمُّكَ نقداً ، ومعَ هـٰذا فلا تزولُ النعمةُ عنِ المحسودِ بحسدِكَ ، ولوْ لمْ تكنْ تؤمنُ بالبعثِ والحسابِ . . لكانَ مقتضى الفطنةِ ـ إن كنتَ عاقلاً ـ أنْ تحذرَ مِنَ الحسدِ ؛ لما فيهِ مِنْ ألمِ القلبِ ومساءَتِهِ ، معَ عدمِ النفعِ ، فكيفَ وأنتَ عالمٌ بما في الحسدِ مِنَ العذابِ الشديدِ في الآخرةِ ، فما أعجبَ مِنَ العاقلِ أنْ يتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ نفعٍ ينالُهُ ، بلْ معَ ضررٍ يحتملُهُ ، وألمٍ يقاسيهِ ، فيهلكُ دينَهُ ودنياهُ مِنْ غيرِ جدوىٰ ولا فائدةٍ !!

وأمَّا أنَّهُ لا ضررَ فيهِ على المحسودِ في دينِهِ ودنياهُ : فواضحٌ ؛ لأنَّ النعمةَ لا تزولُ عنهُ بحسدِكَ ، بلْ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ إقبالٍ ونعمةٍ فلا بدَّ أنْ يدومَ إلىٰ أجلٍ معلومٍ قدَّرَهُ اللهُ سبحانَهُ ، فلا حيلةَ في دفعِهِ ، بلْ كلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ ، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ ، ولذٰلكَ شكا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ مِن امرأةٍ ظالمةٍ مستوليةٍ على الخلقِ ، **فأوحى اللهُ إليهِ** : (فرَّ مِنْ قُدَّامِها حتَّىٰ تنقضيَ أيامُها) أي : ما قدرناهُ في الأزلِ لا سبيلَ إلىٰ تغييرِهِ ، فاصبرْ حتَّىٰ تنقضيَ المدَّةُ التي سبقَ القضاءُ بدوامِ إقبالِها فيها ، ومهما لمْ تزلِ النعمةُ بالحسدِ . . لم يكنْ على المحسودِ ضررٌ في الدنيا ، ولا يكونُ عليهِ إثمٌ في الآخرةِ .

ولعلكَ تقولُ : ليتَ النعمةَ كانَتْ تزولُ عنِ المحسودِ بحسدِي ، **وهـٰذا غايةُ الجهلِ** ؛ فإنَّهُ بلاءٌ تشتهيهِ أوَّلاً لنفسِكَ ، فإنَّكَ أيضاً لا تخلو عنْ عدوٍّ يحسدُكَ ، فلوْ كانَتِ النعمةُ تزولُ بالحسدِ . . لم تبقَ للهِ تعالىٰ عليكَ نعمةٌ ، ولا على الخلقِ ،

ولا نعمةُ الإيمانِ أيضاً ؛ لأنَّ الكفارَ يحسدونَ المؤمنينَ على الإيمانِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ مخبراً عنْ حسدِهِمْ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ .

إذْ ما يريدُهُ الحسودُ لا يكونُ .

نعمْ ؛ هوَ يضلُّ بإرادتِهِ الضلالَ لغيرِهِ ، فإنَّ إرادةَ الكفرِ كفرٌ ، فمَنِ اشتهىٰ أنْ تزولَ النعمةُ عنِ المحسودِ بالحسَدِ . . فكأنَّهُ يريدُ أنْ يُسلبَ نعمةَ الإيمانِ بحسدِ الكفارِ ، وكذٰلكَ سائرُ النعمِ .

وإنِ اشتهيتَ أنْ تزولَ النعمةُ عنِ الخلقِ بحسدِكَ ولا تزولَ عنكَ بحسدِ غيرِكَ . . فهٰذا غايةُ الجهلِ والغباوةِ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ حمقى الحسَّادِ أيضاً يشتهي أنْ يُخصَّ بهٰذهِ الخاصيَّةِ ، ولستَ بأولىٰ مِنْ غيرِكَ ، فنعمةُ اللهِ عليكَ في أنْ لمْ تزُلِ النعمةُ بالحسدِ ممَّا يجبُ عليكَ شكرُها ، وأنتَ بجهلِكَ تكرهُها .

❁ ❁ ❁

وأمَّا أنَّ المحسودَ ينتفعُ بهِ في الدينِ والدنيا . . فواضحٌ :

أمَّا منفعتُهُ في الدينِ : فهوَ أنَّهُ مظلومٌ مِنْ جهتِكَ ، لا سيَّما إذا أخرجَكَ الحسدُ إلى القولِ والفعلِ ؛ بالغيبةِ ، والقدحِ فيهِ ، وهتكِ سترِهِ ، وذكرِ مساويهِ ، فهٰذهِ هدايا تهديها إليهِ ؛ أعني : أنَّكَ بذٰلكَ تُهدي إليهِ حسناتِكَ ، حتَّىٰ تلقاهُ يومَ القيامةِ مفلساً محروماً عنِ النعمةِ ، كما حرمتَ في الدنيا مِنَ النعمةِ ، فكأنَّكَ أردتَ زوالَ النعمةِ عنهُ فلمْ تزُلْ .

نعمْ ؛ كانَ للهِ عليهِ نعمةٌ ؛ إذْ وفقَكَ للحسناتِ ، فنقلتَها إليهِ ، فأضفتَ لهُ نعمةً إلىٰ نعمةٍ ، وأضفتَ لنفسِكَ شقاوةً إلىٰ شقاوةٍ .

وأمَّا منفعتُهُ في الدنيا : فهوَ أنَّ أهمَّ أغراضِ الخلقِ مساءةُ الأعداءِ ، وغمُّهُمْ ، وشقاوتُهُمْ ، وكونُهُمْ معذَّبينَ مغمومينَ ، ولا عذابَ أعظمُ ممَّا أنتَ فيهِ مِنْ ألمِ الحسدِ ، وغايةُ أماني أعدائِكَ : أنْ يكونُوا في نعمةٍ ، وأنْ تكونَ في غمٍّ وحسرةٍ بسببِهِمْ ، وقدْ فعلتَ بنفسِكَ ما هوَ مرادُهُمْ ؛ ولذٰلكَ لا يشتهي عدوُّكَ موتَكَ ، بلْ يشتهي أنْ تطولَ حياتُكَ ، ولٰكنْ في عذابِ الحسَدِ ؛ لتنظرَ إلىٰ نعمةِ اللهِ عليهِ فينقطعَ قلبُكَ حسداً ، ولذٰلكَ قيلَ[1] : [من السريع]

لا مــاتَ أَعْـــدَاؤُكَ بَــلْ خَــلَّــدُوا ... حَــتَّــىٰ يَــرَوا فِــيـكَ الَّــذِي يُــكْـمِـدُ

لا زِلْـــتَ مَــحْــسُــوداً عَــلَــىٰ نِــعْــمَــةٍ ... فَــإِنَّــمَــا الْــكَــامِــلُ مَــنْ يُــحْــسَــدُ

ففرحُ عدوِّكَ بغمِّكَ وحسدِكَ أعظمُ مِنْ فرحِهِ بنعمتِهِ ، ولوْ علمَ خلاصَكَ مِنْ ألمِ الحسدِ وعذابِهِ . . لكانَ ذٰلكَ أعظمَ مصيبةٍ وبليَّةٍ عندَهُ ، فما أنتَ فيما تلازمُهُ مِن غمِّ الحسدِ إلَّا كما يشتهيهِ عدوُّكَ .

❁ ❁ ❁

فإذا تأمَّلتَ هٰذا . . عرفتَ أنَّكَ عدوُّ نفسِكَ ، وصديقُ عدوِّكَ ؛ إذْ تعاطيتَ ما تضررتَ بهِ في الدنيا والآخرةِ ، وانتفعَ بهِ عدوُّكَ في الدنيا والآخرةِ ، وصرتَ مذموماً عندَ الخلقِ والخالقِ ، شقيّاً في الحالِ والمآلِ ، ونعمةُ المحسودِ دائمةٌ ، شئتَ أمْ أبيتَ باقيةٌ .

---

(١) انظر « حماسة الظرفاء » (٢/١٩٧) .

ثمَّ لمْ تقتصرْ علىٰ تحصيلِ مرادِ عدوِّكَ ، حتَّىٰ توصَّلتَ إلىٰ إدخالِ أعظمِ سرورٍ علىٰ إبليسَ الذي هوَ أعدىٰ أعدائِكَ ؛ لأنَّهُ لمَّا رآكَ محروماً مِنْ نعمةِ العلمِ والورعِ والجاهِ والمالِ الذي اختُصَّ بهِ عدوُّكَ عنكَ . . خافَ أنْ تحبَّ ذٰلكَ لهُ ، فتشاركَهُ في الثوابِ بسببِ المحبَّةِ ؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ الخيرَ للمسلمينَ . . كانَ شريكاً في الخيرِ ، ومَنْ فاتَهُ اللحاقُ بدرجةِ الأكابرِ في الدينِ . . لمْ يفتْهُ ثوابُ الحُبِّ لهمْ مهما أحبَّ ذٰلكَ ، فخافَ إبليسُ أنْ تحبَّ ما أنعمَ اللهُ بهِ علىٰ عبدِهِ في دينِهِ ودنياهُ ، فتَفوزَ بثوابِ الحبِّ ، فبغَّضَهُ إليكَ حتَّىٰ لا تلحقَهُ بحبِّكَ ، كما لمْ تلحقْهُ بعمَلِكَ .

وقدْ قالَ أعرابيٌّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يحبُّ القومَ ولمَّا يلحقْ بهمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »[1]

وقامَ أعرابيٌّ ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخطبُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متى الساعةُ ؟ فقالَ : « ما أعددْتَ لها ؟ » قالَ : ما أعددْتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ، إلا أنِّي أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ معَ مَنْ أحببتَ » ، قالَ أنسٌ : فما فرحَ المسلمونَ بعدَ إسلامِهِمْ كفرحِهِم يومئذٍ ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ أكثرَ ثقتِهِمْ كانَ بحبِّ اللهِ ورسولِهِ ، قالَ أنسٌ : فنحنُ نحبُّ رسولَ اللهِ وأبا بكرٍ وعمرَ ولا نعملُ بمثلِ عملِهِمْ ، ونرجُو أنْ نكونَ معَهُمْ[2]

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يحبُّ المصلِّينَ ولا يصلِّي ، ويحبُّ الصُّوَّامَ ولا يصومُ ، حتىٰ عدَّ أشياءَ ، فقالَ : النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ معَ مَنْ أحبَّ »[3]

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : إنَّهُ كانَ يُقالُ : إنِ استطعتَ أنْ تكونَ عالماً . . فكنْ عالماً ، فإنْ لمْ تستطعْ أنْ تكونَ عالماً . . فكُنْ متعلِّماً ؛ فإنْ لمْ تستطعْ أنْ تكونَ متعلِّماً . . فأحبَّهُمْ ، فإنْ لم تستطِعْ . . فلا تبغضْهُمْ ، فقالَ : سبحانَ اللهِ ؛ لقدْ جعلَ اللهُ لنا مخرجاً !![4]

فانظرِ الآنَ كيفَ حسدَكَ إبليسُ ، ففوَّتَ عليكَ ثوابَ الحبِّ ، ثمَّ لمْ يقنَعْ بذٰلكَ حتَّىٰ بغَّضَ إليكَ أخاكَ ، وحملَكَ على الكراهةِ حتَّىٰ أثمتَ .

وكيفَ لا وعساكَ تحسدُ رجلاً مِنْ أهلِ العلمِ ، وتحبُّ أنْ يخطئَ في دينِ اللهِ وينكشفَ خطؤُهُ ليُفتضحَ ، وتحبُّ أنْ يخرسَ لسانُهُ حتَّىٰ لا يتكلَّمَ ، أوْ يمرضَ حتَّىٰ لا يعلِّمَ ولا يتعلَّمَ ، وأيُّ إثمٍ يزيدُ علىٰ ذٰلكَ ؟! فليتكَ إذْ فاتَكَ اللحاقُ بهِ ثمَّ اغتمَمْتَ بسببِهِ . . سلمتَ مِنَ الإثمِ وعذابِ الآخرةِ ؛ فقدْ جاءَ في الحديثِ : « أهلُ الجنَّةِ ثلاثةٌ : المحسنُ ، والمحبُّ لهُ ، والكافُّ عنهُ »[5] أيْ : مَنْ يكفُّ عنهُ الأذىٰ ، والحسدَ ، والبغضَ ، والكراهةَ .

فانظرْ كيفَ أبعدَكَ إبليسُ عنْ جميعِ المداخلِ الثلاثةِ ، حتَّىٰ لا تدورَ بها ألبتةَ ، فقدْ نفذَ فيكَ حسدُ إبليسَ وما نفذَ حسدُكَ في عدوِّكَ ، بلْ علىٰ نفسِكَ .

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٩) ، ومسلم (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (٤٨١) بلفظ المصنف هنا عن عبيد بن عمير مرسلاً ، وهو عند البخاري (٦١٧٠) ، ومسلم (٢٦٤١) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه وقد سئل صلى الله عليه وسلم : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال : « المرء مع من أحب » .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٣) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧٣/٨) ، وتقدم حديث : « من ذب عن عرض أخيه بالغيب . . كان حقاً على الله أن يعتقه من النار » .

بلْ لوْ كُوشفتَ بحالِكَ في يقظةٍ أوْ منامٍ . . لرأيتَ نفسَكَ ـ أيُّها الحاسدُ ـ في صورةِ مَنْ يرمي حجراً إلىٰ عدوِّهِ ليصيبَ بهِ مقتلَهُ ، فلا يصيبُهُ ، بلْ يرجعُ علىٰ حدقتِهِ اليُمنىٰ فيقلعُها ، فيزيدُ غضبُهُ فيعودُ ثانيةً فيرمِيهِ أشدَّ مِنَ الأولىٰ فيرجعُ علىٰ عينِهِ الأخرىٰ فيعميها ، فيزدادُ غيظُهُ ، فيعودُ ثالثةً ، فيعودُ علىٰ رأسِهِ فيشجُّهُ ، وعدوُّهُ سالمٌ في كلِّ حالٍ ، وهوَ راجعٌ إليهِ مرةً بعدَ أخرىٰ ، وأعداؤُهُ حولَهُ يفرحونَ بهِ ، ويضحكونَ عليهِ ، وهـٰذا حالُ الحسودِ وسخريةِ الشيطانِ منهُ .

لا بلْ حالُكَ في الحسدِ أقبحُ مِنْ هـٰذا ؛ لأنَّ الحجرَ العائدَ لمْ يُفوِّتْ إلا العينَ ، ولوْ بقيَتْ . . لفاتَتْ بالموتِ لا محالةَ ، والحسدُ يعودُ بالإثمِ ، والإثمُ لا يفوتُ بالموتِ ، ولعلَّهُ يسوقُهُ إلىٰ غضبِ اللهِ تعالىٰ وإلى النارِ ، فلأَنْ تذهبَ عينُهُ في الدنيا خيرٌ لهُ مِنْ أنْ تبقىٰ لهُ عينٌ يدخلُ بها النارَ فيقلعُها لهيبُ النارِ .

فانظرْ كيفَ انتقمَ اللهُ مِنَ الحاسدِ ؛ إذْ أرادَ زوالَ النعمةِ عنِ المحسودِ ، فلمْ يزلْهَا اللهُ عنْهُ ، ثمَّ أزالَها عنِ الحاسدِ ؛ إذِ السلامةُ مِنَ الإثمِ نعمةٌ ، والسلامةُ مِنَ الغمِّ والكمدِ نعمةٌ ، وقدْ زالتا عنهُ ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ ، وربَّما يُبتلىٰ بعينِ ما يشتهيهِ لعدوِّهِ ، وقلَّما يشمتُ شامتٌ بمساءةٍ إلَّا ويُبتلىٰ بمثلِها ، حتَّىٰ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما تمنيتُ لعثمانَ شيئاً إلَّا نزلَ بي ، حتَّىٰ لوْ تمنَّيتُ لهُ القتلَ . . لقتلتُ)[1]

فهـٰذا إثمُ الحسدِ نفسِهِ ، فكيفَ ما يجرُّ إليهِ الحسدُ ؛ مِنَ الاختلافِ ، وجحودِ الحقِّ ، وإطلاقِ اللسانِ واليدِ بالفواحشِ في التشفِّي مِنَ الأعداءِ ، وهوَ الداءُ الذي فيهِ هلَكَتِ الأممُ السالفةُ ؟!

فهـٰذهِ هيَ الأدويةُ العلميَّةُ ، فمهما تفكَّرَ الإنسانُ فيها بذهنٍ صافٍ ، وقلبٍ حاضرٍ . . انطفأَتْ مِنْ قلبِهِ نارُ الحسدِ ، وعلمَ أنَّهُ مهلكٌ نفسَهُ ، ومفرحٌ عدوَّهُ ، ومسخطٌ ربَّهُ ، ومنغِّصٌ عيشَهُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا العملُ النافعُ فيهِ :

فهوَ أنْ يحكِّمَ الحسدَ ، فكلُّ ما يتقاضاهُ الحسدُ مِنْ قولٍ وفعلٍ فينبغي أنْ يكلِّفَ نفسَهُ نقيضَهُ ، فإنْ بعثَهُ الحسدُ على القدحِ في محسودِهِ . . كلَّفَ لسانَهُ المدحَ لهُ والثناءَ عليهِ ، وإنْ حملَهُ على التكبُّرِ عليهِ . . ألزمَ نفسَهُ التواضعَ لهُ والاعتذارَ إليهِ ، وإنْ بعثَهُ علىٰ كفِّ الإنعامِ عنهُ . . ألزمَ نفسَهُ الزيادةَ في الإنعامِ عليهِ ، فمهما فعلَ ذٰلكَ عنْ تكلُّفٍ وعرفَهُ المحسودُ . . طابَ قلبُهُ وأحبَّهُ ، ومهما ظهرَ حبُّهُ . . عادَ الحاسدُ وأحبَّهُ ، وتولَّدَتْ بينَهُما الموافقةُ التي تقطعُ مادَّةَ الحسدِ ؛ لأنَّ التواضعَ والثناءَ والمدحَ وإظهارَ السرورِ بالنعمةِ يستميلُ قلبَ المنعَمِ عليهِ ، ويسترقُّهُ ويستعطفُهُ ، ويحملُهُ علىٰ مقابلةِ ذٰلكَ بالإحسانِ ، ثمَّ ذٰلكَ الإحسانُ يعودُ إلى الأوَّلِ ، فيطيبُ قلبُهُ ، فيصيرُ ما تكلَّفَهُ أوَّلاً طبعاً آخراً .

ولا يصدَّنَّهُ عنْ ذٰلكَ قولُ الشيطانِ لهُ : لوْ تواضعتَ وأثنيتَ عليهِ . . حملَهُ العدوُّ على العجزِ ، أوْ على النفاقِ أوِ الخوفِ ، وأنَّ ذٰلكَ مذلةٌ ومهانةٌ ، فإنَّ ذٰلكَ مِنْ خدعِ الشيطانِ ومكايدِهِ ، بلِ المجاملةُ ـ تكلُّفاً كانَتْ أوْ طبعاً ـ تكسرُ سَوْرةَ العداوةِ مِنَ الجانبينِ ، وتفلُّ مِنْ غَرْبِها ، وتقودُ القلوبَ إلى التآلفِ والتحابِّ ، وبذٰلكَ تستريحُ القلوبُ مِنْ ألمِ الحسدِ وغمِّ التباغضِ .

---

(١) رواه ابن شبة في « تاريخ المدينة المنورة » (١٢٣٥/٤) ، وكان سبب كلامها فيه لكثرة ما كان يبلغها من الشكاية في حقه من قبل جور عماله وإبقائهم علىٰ أعمالهم ، فكانت كغيرها من الصحابة يغضبون بذٰلك منه . « إتحاف » (٧٤/٨) .

فهٰذهِ هيَ أدويةُ الحسدِ ، وهيَ نافعةٌ جدّاً ، إلا أنَّها مُرَّةٌ على القلوبِ جدّاً ، ولٰكنَّ النفعَ في الدواءِ المرِّ ، فمَنْ لمْ يصبرْ علىٰ مرارةِ الدواءِ . . لمْ ينلْ حلاوةَ الشفاءِ ، وإنَّما تهونُ مرارةُ هٰذا الدواءِ ـ أعني : التواضعَ للأعداءِ ، والتقرُّبَ إليهمْ بالمدحِ والثناءِ ـ بقوَّةِ العلمِ بالمعاني التي ذكرْناها ، وقوَّةِ الرغبةِ في ثوابِ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وحبِّ ما أحبَّهُ اللهُ ، وعزَّةِ النفسِ وترفُّعِها عنْ أنْ يكونَ في العالمِ شيءٌ علىٰ خلافِ مرادِهِ ، وعندَ ذٰلكَ يريدُ ما يكونُ ؛ إذْ لا مطمعَ في أنْ يكونَ ما يريدُ ، وفواتُ المرادِ ذلٌّ وخِسَّةٌ ، ولا طريقَ إلى الخلاصِ مِنْ هٰذا الذلِّ إلا بأحدِ أمرينِ : إمَّا بأنْ يكونَ ما تريدُ ، أوْ بأنْ تريدَ ما يكونُ ، والأولُ ليسَ إليكَ ، ولا مدخلَ للتكلُّفِ والمجاهدةِ فيهِ ، وأمَّا الثاني . . فللمجاهدةِ فيهِ مدخلٌ ، وتحصيلُهُ بالرياضةِ ممكنٌ ، فيجبُ تحصيلُهُ علىٰ كلِّ عاقلٍ .

هٰذا هوَ الدواءُ الكلِّيُّ .

فأمَّا الدواءُ المفصلُ . . فهوَ تتبُّعُ أسبابِ الحسدِ ؛ مِنَ الكبرِ ، وعزَّةِ النفسِ ، وشدَّةِ الحرصِ علىٰ ما لا يُغني ، وسيأتي تفصيلُ مداواةِ هٰذهِ الأسبابِ في مواضعِها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّها موادُّ هٰذا المرضِ ، ولا ينقمعُ المرضُ إلا بقمعِ المادةِ ، فإنْ لمْ تُقمَعِ المادةُ . . لمْ يحصلْ بما ذكرْناهُ إلا تسكينٌ وتطفئةٌ ، ولا يزالُ يعودُ مرّةً بعدَ أخرىٰ ، ويطولُ الجهدُ في تسكينِهِ معَ بقاءِ موادِّهِ ، فإنَّه ما دامَ محبّاً للجاهِ فلا بدَّ وأنْ يحسدَ مَنِ استأثرَ بالجاهِ والمنزلةِ في قلوبِ الناسِ دونَهُ ، ويغمَّهُ ذٰلكَ لا محالةَ ، وإنَّما غايتُهُ : أنْ يهوِّنَ الغمَّ علىٰ نفسِهِ ، ولا يظهرَ بلسانِهِ ويدِهِ ، فأمَّا الخلوُّ عنهُ رأساً . . فلا يمكنُهُ ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم : أنَّ المؤذيَ ممقوتٌ بالطبعِ ، ومَنْ آذاكَ . . فلا يمكنُكَ ألَّا تبغضَهُ غالباً ، فإذا تيسَّرَتْ لهُ نعمةٌ . . فلا يمكنُكَ ألا تكرهَها حتَّىٰ يستويَ عندَكَ حسنُ حالِ عدوِّكَ وسوءُ حالِهِ ، بلْ لا تزالُ تدركُ في النفسِ بينَهما تفرقةً ، ولا يزالُ الشيطانُ ينازعُكَ إلى الحسدِ لهُ .

ولـٰكنْ إنْ قويَ ذٰلكَ فيكَ حتَّىٰ بعثَك علىٰ إظهارِ الحسدِ بقولٍ أوْ فعلٍ ، بحيثُ يُعرَفُ ذٰلكَ مِنْ ظاهرِكَ بأفعالِكَ الاختياريةِ . . فأنتَ حسودٌ عاصٍ بحسدِكَ .

وإنْ كففتَ ظاهرَكَ بالكلِّيَّةِ ، إلا أنَّكَ بباطنِكَ تحبُّ زوالَ النعمةِ ، وليسَ في نفسِكَ كراهةٌ لهـٰذهِ الحالةِ . . فأنتَ أيضاً حسودٌ عاصٍ ؛ لأنَّ الحسدَ صفةُ القلبِ لا صفةُ الفعلِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ .

أمَّا الفعلُ . . فهوَ غيبةٌ وكذبٌ ، وهوَ عملٌ صادرٌ عنِ الحسدِ ، وليسَ هوَ عينَ الحسدِ ، بلْ محلُّ الحسدِ القلبُ دونَ الجوارحِ .

نعمْ ؛ هـٰذا الحسدُ ليسَ مظلمةً يجبُ الاستحلالُ منها ، بلْ هوَ معصيةٌ بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما يجبُ الاستحلالُ مِنَ الأسبابِ الظاهرةِ على الجوارحِ .

فأمَّا إذا كففتَ ظاهرَكَ ، وألزمتَ معَ ذٰلكَ قلبَكَ كراهةَ ما يترشَّحُ منهُ بالطبعِ ؛ مِنْ حبِّ زوالِ النعمةِ حتَّىٰ كأنَّكَ تمقتُ نفسَكَ علىٰ ما في طبعِها ، فتكونُ تلكَ الكراهةُ مِنْ جهةِ العقلِ في مقابلةِ الميلِ مِنْ جهةِ الطبعِ . . فقدْ أدَّيتَ الواجبَ عليكَ ، ولا يدخلُ تحتَ اختيارِكَ في أغلبِ الأحوالِ أكثرُ مِنْ هـٰذا .

فأمَّا تغييرُ الطبعِ ليستويَ عندَهُ المؤذي والمحسنُ ، ويكونَ فرحُهُ أوْ غمُّهُ بما يتيسَّرُ لهما مِنْ نعمةٍ ، أوْ ينصبُّ عليهما مِنْ بليةٍ سواءً . . فهـٰذا ممَّا لا يطاوعُ الطبعُ عليهِ ما دامَ ملتفتاً إلىٰ حظوظِ الدنيا ، إلَّا أنْ يصيرَ مستغرقاً بحبِّ اللهِ تعالىٰ ؛ مثلَ السكرانِ الوالهِ ، فقدْ ينتهي أمرُهُ إلىٰ ألَّا يلتفتَ قلبُهُ إلىٰ تفاصيلِ أحوالِ العبادِ ، بلْ ينظرُ إلى الكلِّ بعينٍ واحدةٍ ، وهيَ عينُ الرحمةِ ، ويرى الكلَّ عباداً للهِ ، وأفعالَهُمْ أفعالاً للهِ ، ويراهُمْ مسخَّرينَ ، وذٰلكَ إنْ كانَ . . فهوَ كالبرقِ الخاطفِ لا يدومُ ، ويرجعُ القلبُ بعدَ ذٰلكَ إلىٰ طبعِهِ ، ويعودُ العدوُّ إلىٰ منازعتِهِ ؛ أعني : الشيطانَ ؛ فإنَّهُ ينازعُ بالوسوسةِ ، فمهما قابلَ ذٰلكَ بكراهةٍ وألزمَ قلبَهُ هـٰذهِ الحالةَ . . فقدْ أدَّىٰ ما كُلِّفَهُ .

وذهبَ ذاهبونَ إلىٰ أنَّه لا يأثمُ إذا لمْ يظهرِ الحسدُ علىٰ جوارحِهِ ؛ لما رويَ عنِ الحسنِ : أنَّهُ سئلَ عنِ الحسدِ فقالَ : (غمَّةٌ ؛ فإنَّهُ لا يضرُّكَ ما لمْ تبدِهِ)[1]

ورُوِيَ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ثلاثٌ لا يخلو منهنَّ مؤمنٌ ، ولهُ منهنَّ مخرجٌ . . . ، ومخرجُهُ مِنَ الحسدِ ألا يبغيَ »[2]

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٣٦) .

(٢) أما الموقوف . . فرواه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » ، ورستة في كتاب « الإيمان » له بلفظ : (ثلاث لم تسلم منها هـٰذه الأمة : الحسد والظن

والأولىٰ أنْ يُحملَ هٰذا علىٰ ما ذكرناهُ ؛ مِنْ أنْ يكونَ فيهِ كراهةٌ مِنْ جهةِ الدينِ والعقلِ في مقابلةِ حبِّ الطبعِ لزوالِ نعمةِ العدوِّ ، وتلكَ الكراهةُ تمنعُهُ مِنَ البغيِ والإيذاءِ ؛ فإنَّ جميعَ ما وردَ مِنَ الأخبارِ في ذمِّ الحسدِ يدلُّ ظاهرُهُ علىٰ أنَّ كلَّ حاسدٍ آثمٌ ، والحسدُ عبارةٌ عنْ صفةِ القلبِ لا عنِ الأفعالِ ، فكلُّ محبٍّ مساءَةَ المسلمينَ . . فهوَ حاسدٌ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ كونُهُ آثماً بمجرَّدِ حسدِ القلبِ مِنْ غيرِ فعلٍ هوَ في محلِّ الاجتهادِ ، والأظهرُ ما ذكرناهُ مِن حيثُ ظواهرُ الآياتِ والأخبارِ ، ومِنْ حيثُ المعنىٰ ؛ إذْ بعيدٌ أنْ يُعفىٰ عنِ العبدِ في إرادتِهِ مساءَةَ المسلمينَ واشتمالِهِ بالقلبِ علىٰ ذٰلكَ مِن غيرِ كراهةٍ .

وقدْ عرفتَ مِنْ هٰذا أنَّ لكَ في أعدائِكَ ثلاثةَ أحوالٍ :

إحداها : أنْ تحبَّ مساءَتَهمْ بطبعِكَ ، وتكرَهَ حبَّكَ لذٰلكَ ، وميلَ قلبِكَ إليهِ بعقلِكَ ، وتمقتَ نفسَكَ عليهِ ، وتودُّ لوْ كانَتْ لكَ حيلةٌ في إزالةِ ذٰلكَ الميلِ منكَ ، وهٰذا معفوٌّ عنهُ قطعاً ؛ لأنَّهُ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ أكثرُ منهُ .

الثانيةُ : أنْ تحبَّ ذٰلكَ ، وتظهرَ الفرحَ بمساءتِهِ ؛ إمَّا بلسانِكَ أوْ بجوارحِكَ ، فهٰذا هو الحسدُ المحظورُ قطعاً .

الثالثةُ : وهو بينَ الطرفينِ ، أنْ تحسدَ بالقلبِ مِنْ غيرِ مقتٍ لنفسِكَ علىٰ حسدِكَ ، ومِنْ غيرِ إنكارٍ منكَ علىٰ قلبِكَ ، ولٰكنْ تحفظُ جوارحَكَ عنْ طاعةِ الحسدِ في مقتضاها ، وهٰذا محلُّ الخلافِ ، **والظاهرُ** : أنَّهُ لا يخلو عنْ إثمٍ بقدْرِ قوَّةِ ذٰلكَ الحبِّ وضعفِهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وحسبنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

❁ ❁ ❁

تمّ كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

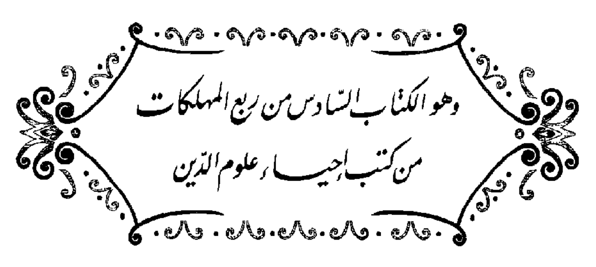
والحمد لله ربّ العالمين

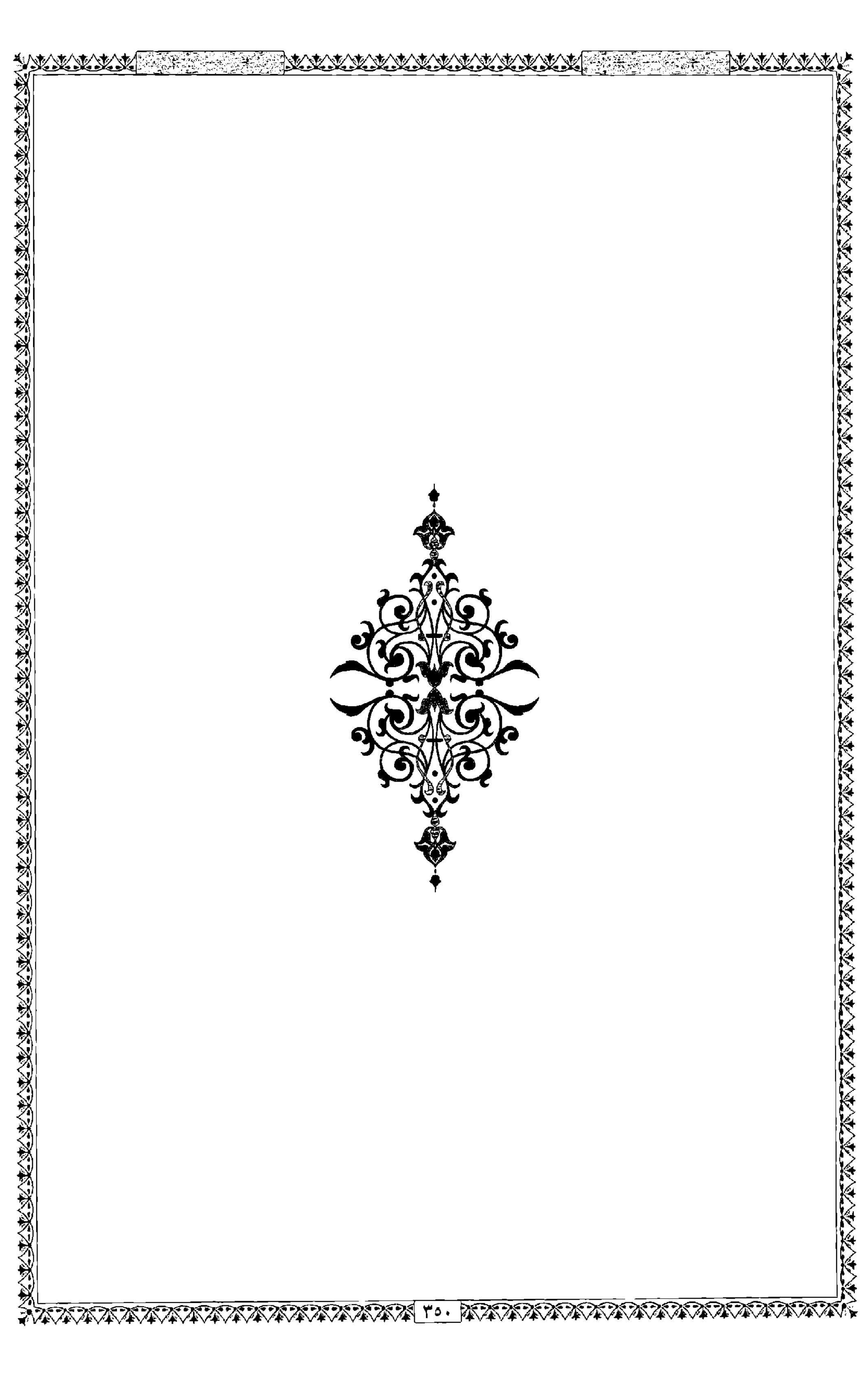
والصّلاة والسّلام على رسوله محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب ذمّ الدّنيا

والطيرة ، ألا أنبئكم بالمخرج منها ؟ إذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فلا تبغ ، وإذا تطيرت . . فامض) . « إتحاف » (٨/٧٦) . وأما المرفوع . . فرواه الطبراني في « الكبير » (٣/٢٢٨) ، وأبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (١٥٢ ، ٢٣٧) .

كتاب ذم الدنيا


وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب ذمّ الدنيا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي عرَّفَ أولياءَهُ غوائلَ الدُّنيا وآفاتِها ، وكشفَ لهُمْ عنْ عيوبِها وعوراتِها ، حتَّىٰ نظرُوا في شواهدِها وآياتِها ، ووَزَنُوا بحسناتِها سيِّئاتِها ، فعلمُوا أنَّهُ يزيدُ مُنكَرُها علىٰ معروفِها ، ولا يفي مرجوُّها بمَخُوفِها ، ولا يسلمُ طلوعُها مِنْ كسوفِها ، ولـٰكنَّها في صورةِ امرأةٍ مليحةٍ تستميلُ الناسَ بجمالِها ، ولها أسرارُ سوءٍ قبائحُ تهلكُ الراغبينَ في وصالِها .

ثمَّ هيَ فرَّارةٌ عنْ طلَّابِها ، شحيحةٌ بإقبالِها ، وإذا أقبلَتْ . . لمْ يُؤمَنْ شرُّها ووبالُها ، إنْ أحسنَتْ ساعةً . . أساءَتْ سنَةً ، وإن أساءَتْ مرَّةً . . جعلَتْها سُنَّةً ، فدوائرُ إقبالِها على التقاربِ دائرةٌ ، وتجارةُ بنيها خاسرةٌ بائرةٌ ، وآفاتُها على التَّوالي لصدورِ طلَّابِها راشقةٌ ، ومجاري أحوالِها بذلِّ طالبِيها ناطقةٌ ؛ فكلُّ متعزِّزٍ بها إلى الذُّلِّ مصيرُهُ ، وكلُّ متكبِّرٍ بها إلى التحسُّرِ مسيرُهُ .

شأنُها الهربُ مِنْ طالبِها ، والطلبُ لهاربِها ، مَنْ خدمَها . . فاتَتْهُ ، ومَنْ أعرضَ عنها . . واتَتْهُ ، لا يخلُو صفوُها عَنْ شوائبِ الكُدوراتِ ، ولا ينفكُّ سرورُها عنِ المنغِّصاتِ ، سلامتُها تعقبُ السَّقَمَ ، وشبابُها يسوقُ إلى الهرمِ ، ونعيمُها لا يثمرُ إلا الحسرةَ والندمَ .

فهيَ خدَّاعةٌ مكَّارةٌ ، طيَّارةٌ فرَّارةٌ ، لا تزالُ تتزيَّنُ لطلَّابِها ، حتَّىٰ إذا صاروا مِنْ أحبابِها . . كشرَتْ لهُمْ عن أنيابِها ، وشوَّشَتْ عليهِمْ مناظمَ أسبابِها ، وكشفَتْ لهَمْ عنْ مكنونِ عُجابِها ، فأذاقتْهُمْ قواتلَ سِمامِها[1] ، ورشقَتْهُمْ بصوائبِ سِهامِها .

بينَما أصحابُها مِنْها في سرورٍ وإنعامٍ . . إذْ ولَّتْ عنهُمْ كأنَّها أضغاثُ أحلامٍ ، ثمَّ كرَّتْ عليهِمْ بدواهِيها ، فطحنَتْهُمْ طحنَ الحصيدِ ، ووارَتْهُمْ في أكفانِهِمْ تحت الصعيدِ ، إنْ ملَّكَتْ واحداً منهُمْ جميعَ ما طلعَتْ عليهِ الشمسُ . . جعلَتْهُ حصيداً كأنْ لمْ يغنَ بالأمسِ ، تُمنِّي أصحابَها سروراً ، وتعدُهُمْ غروراً ، حتَّىٰ يأملونَ كثيراً ، ويبنونَ قصوراً ، فتصبحُ قصورُهُمْ قبوراً ، وجمعُهُمْ بوراً ، وسعيُهُمْ هباءً منثوراً ، ودعاؤُهُمْ ثبوراً ، هـٰذهِ صفتُها ، وكانَ أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ المرسلِ إلى العالمينَ بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً ، وعلىٰ مَنْ كانَ مِنْ أهلِهِ وأصحابِهِ لهُ في الدينِ ظهيراً ، وعلى الظالمينَ نصيراً ، وسلِّمْ تسليماً كثيراً .

أما بعـد :

فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ للهِ ، وعدوَّةٌ لأولياءِ اللهِ ، وعدوَّةٌ لأعداءِ اللهِ .

أمَّا عداوتُها للهِ . . فإنَّها قطعَتِ الطريقَ علىٰ عبادِ اللهِ ، ولذلكَ لمْ ينظرِ اللهُ إليها منذُ خلقَها .

---

(١) السِّمام : جمع سمّ . « إتحاف » (٧٨/٨) .

وأمَّا عداوتُها لأولياءِ اللهِ . . فإنَّها تزيَّنَتْ لهمْ بزينَتِها ، وعمَّتْهُمْ بزهرَتِها ونضارتِها ، حتَّىٰ تجرَّعُوا مرارةَ الصبرِ في مقاطعتِها .

وأمَّا عداوتُها لأعداءِ اللهِ . . فإنَّها استدرجَتْهُمْ بمكرِها ومكيدتِها ، واقتنصَتْهُمْ بشبكتِها ، حتَّىٰ وثِقُوا بها ، وعوَّلُوا عليها ، فخذلَتْهُمْ أحوجَ ما كانُوا إليها ، فاجتنَوا مِنها حسرةً تتقطَّعُ دونَها الأكبادُ ، ثمَّ حرمَتْهُمُ السعادةَ أبدَ الآبادِ ؛ فهُمْ علىٰ فراقِها يتحسَّرونَ ، ومِنْ مكايدِها يستغيثُونَ فلا يُغاثونَ ، بلْ يُقالُ لهُمْ : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

وإذا عظمَتْ غوائلُ الدُّنيا وشرورُها . . فلا بدَّ أوَّلاً مِنْ معرفةِ حقيقةِ الدُّنيا ، وما هيَ ، وما الحكمةُ في خلْقِها معَ عداوتِها ، وما مداخلُ غرورِها وشرورِها ؛ فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشَّرَّ . . لا يتقيهِ ، ويوشكُ أنْ يقعَ فيهِ .

ونحنُ نذكرُ ذمَّ الدنيا ، وأمثلتَها ، وحقيقتَها ، وتفصيلَ معانيها ، وأصنافَ الأشغالِ المتعلِّقةِ بها ، ووجهَ الحاجةِ إلىٰ أصولِها ، وسببَ انصرافِ الخلقِ عنِ اللهِ بسببِ التشاغلِ بفضولِها ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وهوَ المعينُ علىٰ ما يرتضيهِ .

* * *

بيان ذمّ الدنيا

الآياتُ الواردةُ في ذمِّ الدُّنيا وأمثلتِها كثيرةٌ ، وأكثرُ القرآنِ مشتملٌ على ذمِّ الدُّنيا ، وصرفِ الخلقِ عنها ، ودعوتِهِمْ إلى الآخرةِ ، بلْ هوَ مقصودُ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ، ولمْ يُبعثُوا إلا لذٰلكَ .

فلا حاجةَ إلى الاستشهادِ بآياتِ القرآنِ لظهورِها ، وإنَّما نوردُ بعضَ الأخبارِ الواردةِ فيها .

فقدْ رُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ على شاةٍ ميتةٍ فقالَ : « أترونَ هٰذهِ الشَّاةَ هيِّنةً على أهلِها ؟ » قالُوا : مِنْ هوانِها ألقَوْها ، قالَ : « والذي نفسِي بيدِهِ ؛ للدنيا أهونُ على اللهِ تعالى مِنْ هٰذهِ الشاةِ على أهلِها ، ولو كانَتِ الدُّنيا تعدِلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ . . ما سقى كافراً مِنْها شربةَ ماءٍ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ »(٢)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا ملعونَةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلا ما كان للهِ مِنْها »(٣)

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ دنياهُ . . أضرَّ بآخرتِهِ ، ومَنْ أحبَّ آخرتَهُ . . أضرَّ بدنياهُ ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ »(٥)

وقالَ زيدُ بنُ أرقمَ : كنَّا معَ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فدعا بشرابٍ ، فأُتيَ بماءٍ وعسلٍ ، فلمَّا أدناهُ مِنْ فيهِ . . بكى وبكى حتَّى أبكى أصحابَهُ ، فسكتُوا وما سكتَ ، ثمَّ عادَ وبكى حتَّى ظنُّوا أنَّهُمْ لا يقدرونَ على مسألتِهِ ، قالَ : ثمَّ مسحَ عينيهِ ، فقالُوا : يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؛ ما أبكاكَ ؟ قالَ : كنتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرأيتُهُ يدفعُ عنْ نفسِهِ شيئاً ولمْ أرَ معَهُ أحداً ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الذي تدفعُ عنْ نفسِكَ ؟ قال : « هٰذهِ الدُّنيا مثُلَتْ لي ، فقلتُ لها : إليكِ عنِّي ، ثمَّ رجعَتْ فقالَتْ : إنَّكَ إنْ أفلتَّ منِّي . . لمْ يفلِتْ منِّي مَنْ بعدَكَ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عجباً كلَّ العجبِ للمصدِّقِ بدارِ الخلودِ وهوَ يسعى لدارِ الغرورِ !! »(٧)

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقفَ على مزبلةٍ ، فقالَ : « هلمُّوا إلى الدُّنيا » ، وأخذ خرقاً قدْ بليَتْ على

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢١) ، وابن ماجه (٤١١١) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه بنحوه ، ورواه ابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وأفرد الجملة الأخيرة منه الترمذي (٢٣٢٠) من حديثه .

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) ، وفيه : « إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً » .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٤١٢/٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٠٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٨/٤) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٩/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٠٣) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٦) عن أبي جعفر عبد الله بن مسور مرسلاً .

تلكَ المزبلةِ ، وعظاماً قد نخِرَتْ فقالَ : « هـٰذهِ الدنيا »[1] ، وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ زينةَ الدنيا ستخلُقُ مثلَ تلكَ الخرقِ ، وأنَّ الأجسامَ التي تُرىٰ بها ستصيرُ عظاماً باليةً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الدُّنيا حلوةٌ خَضِرةٌ ، وإنَّ اللهَ مستخلِفُكُمْ فيها فناظرٌ كيفَ تعملونَ ، إنَّ بني إسرائيلَ لمَّا بُسِطَتْ لهمُ الدُّنيا ومُهِّدَتْ . . تاهُوا في الحليةِ والنِّساءِ والطِّيبِ والثِّيابِ »[2]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تتخذُوا الدُّنيا ربّاً فتتخذَكُمُ الدُّنيا عبيداً ، اكنزُوا كنزَكُمْ عندَ مَنْ لا يضيِّعُهُ ؛ فإنَّ صاحبَ كنزِ الدُّنيا يخافُ عليهِ الآفةَ ، وصاحبَ كنزِ اللهِ لا يخافُ عليهِ الآفةَ)[3]

وقالَ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريِّينَ ، إنِّي قدْ كبَبتُ لكُمُ الدُّنيا علىٰ وجهِها ، فلا تنعشُوها بعدي ؛ فإنَّ مِنْ خُبْثِ الدُّنيا أنْ عُصيَ اللهُ فيها ، وإنَّ مِنْ خُبْثِ الدُّنيا أنَّ الآخرةَ لا تُدرَكُ إلَّا بتركِها ، ألا فاعبرُوا الدُّنيا ولا تعمرُوها ، واعلمُوا أنَّ أصلَ كلِّ خطيئةٍ حبُّ الدُّنيا ، وربَّ شهوةٍ أورثَتْ أهلَها حزناً طويلاً)[4]

وقالَ عليهِ السلامُ أيضاً : (بطحتُ لكُمُ الدُّنيا وجلستُمْ علىٰ ظهرِها ، فلا ينازعُكُمْ فيها إلَّا الملوكُ والنساءُ ، فأمَّا الملوكُ . . فلا تنازعوهُمُ الدُّنيا ؛ فإنَّهُمْ لنْ يَعرِضُوا لكُمْ ما تركتُموهُمْ ودنياهُمْ ، وأمَّا النساءُ . . فاتقوهنَّ بالصومِ والصلاةِ)[5]

وقالَ عليهِ السلامُ أيضاً : (الدُّنيا طالبةٌ ومطلوبةٌ ، فطالبُ الآخرةِ تطلبُه الدُّنيا ، حتَّىٰ يستكملَ فيها رزْقَهُ ، وطالبُ الدُّنيا تطلبُهُ الآخرةُ حتَّىٰ يجيءَ الموتُ فيأخذَهُ بعنقِهِ)[6]

وقالَ موسى بنُ يسارٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جلَّ ثناؤُهُ لمْ يَخلُقْ خلقاً أبغضَ إليهِ مِنَ الدُّنيا ، وإنَّهُ منذُ خلَقَها لمْ ينظرْ إليها »[7]

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهِما السلامُ مرَّ في موكبِهِ والطيرُ تظلُّهُ ، والجنُّ والإنسُ عنْ يمينِهِ ويسارِهِ ، قالَ : فمرَّ بعابدٍ مِنْ بني إسرائيلَ ، فقالَ : واللهِ يا بنَ داوودَ ؛ لقدْ آتاكَ اللهُ ملكاً عظيماً ، قالَ : فسمعَ سليمانُ فقالَ : لتسبيحةٌ في صحيفةِ مؤمنٍ خيرٌ ممَّا أُعطيَ ابنُ داوودَ ؛ فإنَّ ما أُعطيَ ابنُ داوودَ يذهبُ ، والتسبيحةُ تبقىٰ[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألهاكُمُ التَّكاثرُ ، يقولُ ابنُ آدمَ : مالي مالي ، وهلْ لكَ مِنْ مالِكَ إلَّا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أوْ لبستَ فأبليتَ ، أوْ تصدَّقتَ فأمضيتَ ؟ »[9]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا دارُ مَنْ لا دارَ لهُ ، ومالُ مَنْ لا مالَ لهُ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ ، وعليها

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٨٨) عن أبي ميمون اللخمي مرسلاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٠) عن الحسن مرسلاً ، ورواه بنحوه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/١٤٥) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٧٠) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) ، ونحوه رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/١٦٢) مرفوعاً من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٠) من حديث ابن يسار بلاغاً .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣١٣) .
(٩) رواه مسلم (٢٩٥٨) .

يعادي مَنْ لا علمَ عندَهُ ، وعليْها يحسدُ مَنْ لا فقْهَ لهُ ، ولها يسعىٰ مَنْ لا يقينَ لهُ »[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ والدُّنيا أكبرُ همِّهِ . . فليسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ ، وألزمَ اللهُ قلبَهُ أربعَ خصالٍ : همّاً لا ينقطعُ عنهُ أبداً ، وشغلاً لا يتفرَّغُ مِنْهُ أبداً ، وفقراً لا يبلغُ غناهُ أبداً ، وأملاً لا يبلغُ منتهاهُ أبداً »[٢]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ ألَا أريكَ الدُّنيا جميعاً بما فيها ؟ » فقلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، فأخذَ بيدي ، وأتىٰ بي وادياً مِنْ أوديةِ المدينةِ ، فإذا مزبلةٌ فيها رؤوسُ أناسٍ ، وعذراتٌ ، وخرقٌ ، وعظامٌ ، ثمَّ قالَ : « يا أبا هريرةَ ؛ هٰذهِ الرؤوسُ كانَتْ تحرصُ كحرصِكُمْ ، وتأملُ آمالَكُمْ ، ثمَّ هيَ اليومَ عظامٌ بلا جلدٍ ، ثمَّ هيَ صائرةٌ رماداً ، وهٰذهِ العذِراتُ هيَ ألوانُ أطعمتِهِمْ ، اكتسبُوها مِنْ حيثُ اكتسبُوها ، ثمَّ قذفوها مِنْ بطونِهِمْ ، فأصبحَتْ والنَّاسُ يتحامونَها ، وهٰذهِ الخِرَقُ الباليةُ كانَتْ رياشَهُمْ ولباسَهُمْ ، فأصبحَتْ والرِّياحُ تصفِقُها ، وهٰذهِ العظامُ عظامُ دوابِّهِمْ التي كانُوا ينتجعُونَ عليها أطرافَ البلادِ ، فمنْ كانَ باكياً على الدُّنيا . . فليبكِ » ، قالَ : فما برحنا حتَّى اشتدَّ بكاؤُنا[٣]

ويُروىٰ : أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمَّا أهبطَ آدمَ إلى الأرضِ . . قالَ لهُ : ابنِ للخرابِ ، ولِدْ للفناءِ[٤]

وقالَ داوودُ بنُ هلالٍ : (مكتوبٌ في صحفِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا دنيا ؛ ما أهونَكِ على الأبرارِ الذينَ تصنَّعتِ لهُمْ وتزيَّنتِ لهُمْ ، إنِّي قذفتُ في قلوبِهِمْ بغضَكِ والصدودَ عنكِ ، وما خلقتُ خلقاً أهونَ عليَّ منكِ ، كلُّ شأنِكِ صغيرٌ ، وإلى الفناءِ تصيرينَ ، قضيتُ عليكِ يومَ خلقتُكِ ألَّا تدومي لأحدٍ ، ولا يدومَ لكِ أحدٌ ، وإنْ بخلَ بكِ صاحبُكِ وشحَّ عليكِ ، طوبىٰ للأبرارِ الذين أطلعُوني مِنْ قلوبِهِمْ على الرضا ، ومِنْ ضميرِهِمْ على الصِّدقِ والاستقامةِ ، طوبىٰ لهُمْ ما لهُمْ عندي مِنَ الجزاءِ إذا وفدُوا إليَّ مِنْ قبورِهِمْ ، النورُ يسعىٰ أمامَهُمْ ، والملائكةُ حافُّونَ بهِمْ ، حتَّىٰ أبلِّغَهُمْ ما يرجونَ مِنْ رحمتي)[٥]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا موقُوفةٌ بينَ السَّماءِ والأرضِ منذُ خلقَها اللهُ تعالىٰ لا ينظرُ إليها ، وتقولُ يومَ القيامةِ : يا ربِّ ؛ اجعلْني لأدنىٰ أوليائِكَ نصيباً اليومَ ، فيقولُ : اسكتي يا لا شيءَ ، إنِّي لمْ أرضَكِ لهُمْ في الدُّنيا ، أأرضاكِ لهُمُ اليومَ ؟! »[٦]

ورُوِيَ في أخبارِ آدمَ عليهِ السلامُ : أنَّهُ لمَّا أكلَ مِنَ الشجرةِ . . تحركَتْ معدتُهُ لخروجِ الثُّفْلِ ، ولمْ يكنْ ذٰلكَ مجعولاً

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٧١/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، مقتصراً على قوله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » ، وزاد ابن أبي الدنيا في روايته له في « ذم الدنيا » (١٨٢) : « ومال من لا مال له » .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) عن شعيب بن صالح قال : (قال عيسى ابن مريم عليه السلام : ما سكنت الدنيا قلب عبد إلا وأليط قلبه منها بثلاث . . .) ، فذكرها ، ولم يذكر الأولىٰ من المثبت .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨٤/٨) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً ، قلت : لكن أورده صاحب « القوت » عن الحسن مرسلاً) ، وأورده الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (٥٠) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦/٣) عن مجاهد أو غيره .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٨/١٠) .

(٦) كذا في « القوت » (٢٤٤/١) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وروى ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه : (الدنيا موقوفة ما بين السماء والأرض ، كالشنّ البالي ، تنادي ربها منذ يوم خلقها إلىٰ يوم يفنيها : يا رب ، يا رب ؛ لم تبغضني ؟ يا رب ، يا رب ؛ لم تبغضني ؟ فيقول لها : اسكتي يا لا شيء ، اسكتي يا لا شيء) .

في شيءٍ مِنْ أطعمةِ الجنةِ إلا في هـٰذهِ الشجرةِ ، فلذٰلكَ نُهيا عنْ أكلِها ، قالَ : فجعلَ يدورُ في الجنَّةِ ، فأمرَ اللهُ تعالىٰ ملَكاً يخاطبُهُ ، فقالَ لهُ : قلْ لهُ : أيَّ شيءٍ تريدُ ؟ قالَ آدمُ : أريدُ أنْ أضعَ ما في بطني مِنَ الأذىٰ ، فقيلَ للملكِ : قلْ لهُ : في أيِّ مكانٍ تضعُهُ ؟! على الفُرُشِ ؟! أمْ على السُّرُرِ ؟! أمْ على الأنهارِ ؟! أمْ تحتَ ظلالِ الأشجارِ ؟! هلْ ترىٰ ها هنا موضعاً يصلحُ لذٰلكَ ؟! ولـٰكنِ اهبطْ إلى الدُّنيا(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليجيئَنَّ أقْوامٌ يومَ القيامةِ وأعمالُهمْ كجبالِ تهامةَ ، فيُؤمرُ بِهِمْ إلى النَّارِ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ مصلينَ ؟ قالَ : « نعمْ ، كانُوا يصلُّونَ ويصومُونَ ، ويأخذونَ هنةً مِنَ الليلِ ، فإذا عرضَ لهُمْ شيءٌ مِنَ الدُّنيا . . وثبُوا عليهِ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ خطبِهِ : « المؤمنُ بينَ مخافتينِ ؛ بينَ أجلٍ قدْ مضىٰ لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيهِ ، وبينَ أجلٍ قدْ بقيَ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيهِ ، فليتزوَّدِ العبدُ مِنْ نفسِهِ لنفسِهِ ، ومِنْ دنياهُ لآخرتِهِ ، ومِنْ حياتِهِ لموتِهِ ، ومِنْ شبابِهِ لهرمِهِ ؛ فإنَّ الدُّنيا خُلِقَتْ لكُمْ ، وأنتُمْ خُلقتُمْ للآخرةِ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما بعدَ الموتِ مِنْ مستعتبٍ ، ولا بعدَ الدُّنيا مِنْ دارٍ إلا الجنَّةُ أوِ النَّارُ »(٣)

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا يستقيمُ حبُّ الدُّنيا والآخرةِ في قلبِ مؤمنٍ ، كما لا يستقيمُ الماءُ والنارُ في إناءٍ واحدٍ)(٤)

ويُروىٰ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ قالَ لنوحٍ عليهِ السَّلامُ : يا أطولَ الأنبياءِ عمراً ؛ كيفَ وجدتَ الدُّنيا ؟ قالَ : كدارٍ لها بابانِ ، دخلتُ مِنْ أحدِهِما ، وخرجتُ مِنَ الآخرِ(٥)

وقيلَ لعيسىٰ عليهِ السَّلامُ : لوِ اتخذتَ بيتاً يكُنُّكَ ، قالَ : يكفينا خُلْقانُ مَنْ كان قبلَنا(٦)

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « احذرُوا الدُّنيا ؛ فإنَّها أسحرُ مِنْ هاروتَ وماروتَ »(٧)

وعنِ الحسنِ قالَ : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يوم علىٰ أصحابِهِ فقالَ : « هلْ منكُمْ مَنْ يريدُ أنْ يذهبَ اللهُ عنهُ العمىٰ ويجعلَهُ بصيراً ؟ ألَا إنَّهُ مَنْ رغِبَ في الدُّنيا وطالَ أملُهُ فيها . . أعمى اللهُ قلبَهُ علىٰ قدْرِ ذٰلكَ ، ومَنْ زهدَ في الدُّنيا وقصُرَ أملُهُ فيها . . أعطاهُ اللهُ علماً بغيرِ تعلُّمٍ ، وهدىً بغيرِ هدايةٍ ، ألا إنَّهُ سيكونُ بعدَكُمْ قومٌ لا يستقيمُ لهُمُ الملكُ إلَّا بالقتلِ والتَّجبُّرِ ، ولا الغنىٰ إلَّا بالفخرِ والبُخْلِ ، ولا المحبَّةُ إلَّا باتِّباعِ الهوىٰ ، ألَا فمَنْ أدركَ ذٰلكَ الزَّمانَ منكُمْ فصبَرَ للفقرِ وهوَ يقدِرُ على الغنىٰ ، وصبرَ للبغضاءِ وهوَ يقدِرُ على المحبَّةِ ، وصبَرَ على الذُّلِّ وهوَ يقدِرُ على العزِّ ، لا يريدُ بذٰلكَ إلا وجهَ اللهِ تعالىٰ . . أعطاهُ اللهُ عزَّ وجلَ ثوابَ خمسينَ صديقاً »(٨)

---

(١) قوت القلوب (١/٢٥٤) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٨٦٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٨٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٧٧) عن سالم مولىٰ أبي حذيفة رضي الله عنه ، والهنة هنا : القليل .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٧) عن الحسن عن بعض الصحابة مرفوعاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢٦١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٦) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٠٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٢/٢٥٧) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٩) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٢) عن أبي الدرداء الرهاوي .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٣١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ اشتدَّ بهِ المطرُ والرعدُ والبرقُ يوماً ، فجعلَ يطلبُ شيئاً يلجأُ إليهِ فرُفِعَتْ لهُ خيمةٌ مِنْ بعيدٍ فأتاها ؛ فإذا فيها امرأةٌ ، فحادَ عنها ؛ فإذا هوَ بكهفٍ في جبلٍ ، فأتاهُ ؛ فإذا فيهِ أسدٌ ، فوضعَ يدَهُ عليهِ وقالَ : إلـٰهي ؛ جعلتَ لكلِّ شيءٍ مأوىً ، ولم تجعلْ لي مأوىً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : مأواكَ في مستقرٍّ مِنْ رحمتي ، لأزوِّجنَّكَ يومَ القيامةِ مئةَ حوراءَ خلقْتُها بيدي ، ولأطعمنَّ في عُرْسِكَ أربعةَ آلافِ عامٍ ، يومٌ منها كعمرِ الدُّنيا ، ولآمرنَّ منادياً ينادي : أينَ الزهادُ في الدُّنيا ؟ زورُوا عرسَ الزاهدِ عيسى ابنِ مريمَ[(١)]

وقالَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ : (ويلٌ لصاحبِ الدُّنيا ، كيفَ يموتُ ويتركُها وما فيها ، ويأمنُها وتغرُّهُ ، ويثقُ بها وتخذُلُهُ ، ويلٌ للمغترِّينَ ، كيفَ أرتْهُمْ ما يكرهونَ ، وفارقَهُمْ ما يحبُّونَ ، وجاءَهُمْ ما يُوعدُونَ ، وويلٌ لمَنِ الدُّنيا همُّهُ ، والخطايا عملُهُ ، كيفَ يُفتضَحُ غداً بذنبِهِ)[(٢)]

وقيلَ : (أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا موسىٰ ؛ ما لكَ ولدارِ الظالمينَ ؟! إنَّها ليسَتْ لكَ بدارٍ ، أخرِجْ منها همَّكَ ، وفارقْها بعقلِكَ ، فبئسَتِ الدارُ هيَ ، إلا لعاملٍ يعملُ فيها فنعمَتِ الدارُ هيَ ، يا موسىٰ ؛ إنِّي مرصدٌ للظالمِ حتَّىٰ آخذَ منهُ للمظلومِ)[(٣)]

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثَ أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ ، فجاءَهُ بمالٍ مِنَ البحرينِ ، فسمعَتِ الأنصارُ بقدومِ أبي عبيدةَ ، فوافَوا صلاةَ الفجرِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . انصرفَ ، فتعرَّضُوا لهُ ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ رآهُمْ ، ثمَّ قالَ : « أظنُّكُمْ سمعتُمْ أنَّ أبا عبيدةَ قدِمَ بشيءٍ ؟ » قالُوا : أجلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فأبشرُوا وأمِّلُوا ما يسُرُّكُمْ ، فواللهِ ؛ ما الفقْرَ أخشىٰ عليكُمْ ، ولـٰكنِّي أخشىٰ عليكُمْ أن تُبسطَ عليكُمُ الدُّنيا كما بُسطَتْ علىٰ مَنْ كانَ قبلَكُمْ ، فتنافسُوها كما تنافسُوها ، فتُهلكَكُمْ كما أهلكَتْهُمْ »[(٤)]

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ ما أخافُ عليكمْ ما يخرجُ اللهُ لكمْ مِنْ بركاتِ الأرضِ » ، فقيلَ : ما بركاتُ الأرضِ ؟ قالَ : « زهرةُ الدُّنيا »[(٥)]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشغلُوا قلوبَكُمْ بذكرِ الدُّنيا »[(٦)] ، فنهىٰ عنْ ذكرِها فضلاً عَنْ إصابةِ عينِها .

وقالَ عمارُ بنُ سعيدٍ : مرَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ بقريةٍ ؛ فإذا أهلُها موتىٰ في الأفنيةِ والطرقِ ، فقالَ لهمْ : يا معشرَ الحواريِّينَ ؛ إنَّ هـٰؤلاءِ ماتُوا عنْ سخطةٍ ، ولوْ ماتُوا عنْ غيرِ ذٰلكَ . . لتدافنُوا ، فقالُوا : يا روحَ اللهِ ؛ وددنا أنَّا علمنا خبرَهُم ، فسألَ ربَّهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إذا كانَ الليلُ . . فنادِهِمْ يجيبوكَ ، فلمَّا كانَ الليلُ . . أشرفَ علىٰ نشْزٍ ، ثمَّ نادىٰ : يا أهلَ القريةِ ؛ فأجابَهُ مجيبٌ : لبَّيكَ يا روحَ اللهِ ؛ فقالَ : ما حالُكُمْ ؟ وما قصَّتُكُمْ ؟ قالوا : بتنا في عافيةٍ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢١/٤٧) عن محمد بن سباع النميري .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٢) عن عبيد الله بن مسلم .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨٣) عن عبادة أبي مروان .

(٤) رواه البخاري (٣١٥٨) ، ومسلم (٢٩٦١) .

(٥) رواه البخاري (٢٨٤٢) ، ومسلم (١٠٥٢) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٠٠) عن محمد بن النضر الحارثي مرسلاً ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨٧/٨) : (لأن الله يغار علىٰ قلب عبده أن يشتغل بغيره) .

وأصبحنا في الهاويةِ ، قالَ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : بحبّنا الدُّنيا ، وطاعتِنا أهلَ المعاصي ، قالَ : وكيفَ كانَ حبُّكُمْ للدُّنيا ؟ قالَ : حبُّ الصبيّ لأمِّهِ ؛ إذا أقبلَتْ . . فرحنا ، وإذا أدبرَتْ . . حزنًا وبكينا عليها ، قالَ : فما بالُ أصحابِكَ لمْ يجيبوني ؟ قالَ : لأنَّهُمْ ملجمونَ بلُجُمٍ مِنْ نارٍ بأيدي ملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ ، قالَ : فكيفَ أجبتَني أنتَ مِنْ بينِهِمْ ؟ قالَ : لأنِّي كنتُ فيهِمْ ولمْ أكنْ منهُمْ ، فلمَّا نزلَ بهِمُ العذابُ . . أصابَني معَهُمْ ، فأنا معلَّقٌ علىٰ شفيرِ جهنَّمَ ، لا أدري أنجو مِنْها أمْ أُكبكبُ فيها ؟ فقالَ المسيحُ للحواريّينَ : لأكلُ خبزِ الشعيرِ بالملحِ الجريشِ ، ولبسُ المسوحِ ، والنومُ على المزابلِ . . كثيرٌ معَ عافيةِ الدُّنيا والآخرةِ [1]

وقالَ أنسٌ : كانَتْ ناقةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ العضباءُ لا تُسبَقُ ، فجاءَ أعرابيٌّ علىٰ قَعُودٍ فسبقَها ، فشقَّ ذٰلكَ على المسلمينَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّه حقٌّ على اللهِ ألَّا يرفعَ شيئاً مِنَ الدُّنيا إلَّا وضعَهُ » [2]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ ذا الذي يبني علىٰ موجِ البحرِ داراً ؟! تلكُمُ الدنيا ، فلا تتَّخذُوها قراراً) [3]

وقيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : علِّمْنا عملاً واحداً يحبُّنا اللهُ عليهِ ، قالَ : أبغضُوا الدُّنيا . . يحبَّكُمُ اللهُ تعالىٰ [4]

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً ، ولهانَتْ عليكُمُ الدُّنيا ، ولآثرتُمُ الآخرةَ » ، ثمَّ قالَ أبو الدرداءِ مِنْ قِبَلِ نفسِهِ : (لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لخرجتُمْ إلى الصُّعُداتِ تجأرونَ وتبكونَ علىٰ أنفسِكُمْ ، ولتركتُمْ أموالَكُمْ لا حارسَ لها ، ولا راجعَ إليها إلا ما لا بدَّ لكُمْ مِنْهُ ، ولٰكنْ يغيبُ عنْ قلوبِكُمْ ذكرُ الآخرةِ ، وحضرَها الأملُ ، فصارَتِ الدُّنيا أملكَ بأعمالِكُمْ ، وصرتُمْ كالذينَ لا يعلمونَ ، فبعضُكُمْ شرٌّ مِنَ البهائمِ التي لا تدعُ هواها مخافةً ممَّا في عاقبتِهِ .

ما لكُمْ لا تحابُّونَ ولا تناصحونَ وأنتم إخوانٌ علىٰ دينِ اللهِ ؟! ما فرَّقَ بينَ أهوائِكُمْ إلَّا خبثُ سرائرِكُمْ ، ولوِ اجتمعتُمْ على البرّ . . لتحاببتُمْ .

ما لكُمْ تناصحونَ في أمرِ الدُّنيا ولا تناصحونَ في أمرِ الآخرةِ ؟! ولا يملكُ أحدُكُمُ النصيحةَ لمَنْ يحبُّهُ ويعينُهُ علىٰ أمرِ آخرتِهِ ، ما هٰذا إلَّا مِنْ قلَّةِ الإيمانِ في قلوبِكُمْ ، لوْ كنتُمْ توقنونَ بخيرِ الآخرةِ وشرِّها كما توقنونَ بالدُّنيا . . لآثرتُمْ طلبَ الآخرةِ ؛ لأنَّها أملكُ بأمورِكُمْ .

فإنْ قلتُمْ : حبُّ العاجلةِ غالبٌ . . فإنَّا نراكُمْ تدَعونَ العاجلةَ مِنَ الدُّنيا للآجلِ مِنْها ، تكُدُّونَ أنفسَكُمْ بالمشقَّةِ والاحترافِ في طلبِ أمرٍ لعلَّكُمْ لا تدركونَهُ ، فبئسَ القومُ أنتُمْ ، ما حقَّقتُمْ إيمانَكُمْ بما يُعرَفُ بِهِ الإيمانُ البالغُ فيكُمْ ، فإنْ كنتُمْ في شكٍّ ممَّا جاءَ بِهِ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فأتونا فلنبيّنْ لكُمْ ، ولنريكُمْ مِنَ النورِ ما تطمئنُّ إليهِ قلوبُكُمْ ، واللهِ ؛ ما أنتُمْ بالمنقوصةِ عقولُكُمْ فنعذرَكُمْ ، إنَّكُم لتبيّنُونَ صوابَ الرأيِ في دنياكُمْ ، وتأخذونَ بالحزمِ في أمرِكُمْ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٢) ، وفي « الزهد » (٢٩٨) .

(٢) رواه البخاري (٢٨٧٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨٨/٨) : (ووجد بخط الكمال الدميري قال : أفادني بعض طلبة العلم أنه سمع بعض الحفاظ يقول : الأعرابي الذي جاء على قعود فسبق ناقة النبي صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٧٠) عن سعيد بن عبد العزيز ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣٠/٤٧) عن مجاهد .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤١٥) عن سلم بن بشير .

ما لكُمْ تفرحونَ باليسيرِ مِنَ الدُّنيا تصيبونَهُ ، وتحزنونَ على اليسيرِ مِنْها يفوتُكُمْ ؟! حتَّىٰ يتبيَّنَ ذٰلكَ في وجوهِكُمْ ، ويظهرَ علىٰ ألسنتِكُمْ ، وتسمُّونَها المصائبَ ، وتقيمونَ فيها المآتمَ ، وعامَّتُكُمْ قدْ تركوا كثيراً من دينِهِمْ ، ثمَّ لا يتبيَّنُ ذٰلكَ في وجوهِكُمْ ، ولا يتغيَّرُ حالٌ بكُمْ ، إنِّي لأرى اللهَ قدْ تبرَّأَ منكُمْ .

يلقىٰ بعضُكُمْ بعضاً بالسرورِ ، وكلُّكُمْ يكرَهُ أنْ يستقبلَ صاحبَهُ بما يكرَهُ مخافةَ أن يستقبلَهُ صاحبُهُ بمثلِهِ ، فأصبحتُمْ على الغلِّ ، ونبتَتْ مراعيكُمْ على الدِّمنِ ، وتصافيتُمْ علىٰ رفضِ الأجلِ ، ولوددتُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أراحَني منكُمْ ، وألحقَني بمَنْ أحبُّ رؤيتَهُ ، ولو كانَ حياً لمْ يصابرْكُمْ ، فإن كانَ فيكُمْ خيرٌ . . فقدْ أسمعتُكُمْ ، وإنْ تطلبوا ما عندَ اللهِ . . تجدُوهُ يسيراً ، وباللهِ أستعينُ علىٰ نفسي وعليكُمْ)[١]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريِّينَ ؛ ارضَوا بدنيءِ الدُّنيا معَ سلامةِ الدِّينِ ؛ كما رضيَ أهلُ الدُّنيا بدنيءِ الدِّينِ معَ سلامةِ الدُّنيا)[٢]

وفي معناهُ قيلَ[٣] : [من البسيط]

أَرَىٰ رِجالاً بِأَدْنَى الدِّينِ قَدْ قَنِعُوا ... وَما أَراهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِالدُّونِ

فَاسْتَغْنِ بِالدِّينِ عَنْ دُنْيا الْمُلُوكِ كَما اسْـ ... ـتَغْنَى الْمُلُوكُ بِدُنْياهُمْ عَنِ الدِّينِ

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا طالبَ الدُّنيا لِتَبَرَّ ، تركُكَ للدُّنيا أبرُّ)[٤]

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لتأتيَنَّكُمْ بعدي دنيا تأكلُ إيمانَكُمْ ؛ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ »[٥]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (يا موسىٰ ؛ لا تركنَنَّ إلىٰ حبِّ الدُّنيا ؛ فإنَّكَ لنْ تأتيَني بكبيرةٍ هيَ أشدُّ عليكَ مِنْها)[٦]

ومرَّ موسىٰ عليهِ السلامُ برجلٍ وهوَ يبكي ، ورجعَ وهوَ يبكي ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ يبكي مِنْ مخافتِكَ ، فقالَ : يا بنَ عمرانَ ؛ لوْ نزلَ دماغُهُ معَ دموعِ عينَيهِ ، ورفعَ يديهِ حتَّىٰ تسقطا . . لمْ أغفرْ لهُ وهوَ يحبُّ الدُّنيا[٧]

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ جمعَ ستَّ خصالٍ . . لمْ يدعْ للجنةِ مطلباً ، ولا عنِ النارِ مهرباً : مَنْ عرفَ اللهَ فأطاعَهُ ،

---

(١) رواه بتمامه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٢٧) ، وروى المرفوع منه البخاري (٤٦٢١) ، ومسلم (٢٣٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، **والصعدات** : البراري والقفار . « إتحاف » (٨/٨٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٤٩) عن زكريا بن عدي .

(٣) البيتان متنازع في نسبتهما ، وهما مما نسب لعبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٦٩) ، ولأبي العتاهية في « عيون الأخبار » (٢/٣٧٣) وليسا في « ديوانه » ، ولمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٨١) ، ولإبراهيم بن أدهم في « مختصر تاريخ دمشق » (٤/٣٢) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/٩٠) ، **والمعنىٰ** : يا من يطلب الدنيا ليكون باراً ببذلها ، فهو لا يطلبها لذاتها ؛ إن تركك لها أبرُّ من برِّك بها

(٥) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/٩٠) ، وروىٰ نعيم بن حماد في « الفتن » (١٢١) : عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه : (أبشروا بدنيا عريضة تأكل إيمانكم) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٥) بنحوه .

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/٩٠) .

وعرفَ الشيطانَ فعصاهُ ، وعرفَ الحقَّ فاتبعَهُ ، وعرفَ الباطلَ فاتقاهُ ، وعرفَ الدُّنيا فرفضَها ، وعرفَ الآخرةَ فطلبَها)[١] .

وقالَ الحسنُ : (رحمَ اللهُ أقواماً كانَتِ الدُّنيا عندَهُم وديعةً ، فأدَّوها إلىٰ مَنِ ائتمنَهُمْ عليها ، ثمَّ راحوا خِفافاً)[٢] .

وقالَ أيضاً رحمهُ اللهُ : (مَنْ نافسَكَ في دينِكَ . . فنافسْهُ ، ومَنْ نافسَكَ في دنياكَ . . فألقِها في نحرِهِ)[٣]

وقالَ لقمانُ عليهِ السلامُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّ الدُّنيا بحرٌ عميقٌ ، قدْ غرِقَ فيهِ ناسٌ كثيرٌ ، فلتكُنْ سفينتُكَ فيها تقوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحشوُها الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وشراعُها التوكُّلُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لعلَّكَ تنجو ، وما أراكَ ناجياً)[٤]

وقالَ الفضيلُ : (طالَتْ فكرتي في هـٰذهِ الآيةِ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنَّكَ لنْ تصبحَ في شيءٍ مِنَ الدُّنيا إلَّا وقدْ كانَ لهُ أهلٌ قبلَكَ ، ويكونُ لهُ أهلٌ بعدَكَ ، وليسَ لكَ مِنَ الدُّنيا إلَّا عشاءُ ليلةٍ وغداءُ يومٍ ، فلا تهلكْ في أكلةٍ ، وصمْ عنِ الدُّنيا ، وأفطرْ على الآخرةِ ، وإنَّ رأسَ مالِ الدُّنيا الهوىٰ ، وربحَها النارُ)[٥]

وقيلَ لبعضِ الرهبانِ : كيفَ ترى الدَّهرَ ؟ قالَ : يخلقُ الأبدانَ ، ويجدِّدُ الآمالَ ، ويقرِّبُ المنيَّةَ ، ويبعدُ الأُمنيَّةَ ، قيلَ : فما حالُ أهلِهِ ؟ قالَ : مَنْ ظفرَ بهِ . . تعبَ ، ومَنْ فاتَهُ . . نصِبَ[٦]

وفي ذٰلكَ قيلَ[٧] : [من الطويل]

وَمَـنْ يَحْمَـدِ الدُّنْيـا لِعَيْشٍ يَسُرُّهُ ... فَسَـوْفَ لَعَمْـرِي عَـنْ قَلِيـلٍ يَلُومُهـا
إِذَا أَدْبَـرَتْ كانَـتْ عَلَى الْمَـرْءِ حَسْرَةً ... وَإِنْ أَقْبَـلَـتْ كـانَـتْ كَثِيراً هُمُومُهـا

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (كانَتِ الدُّنيا ولمْ أكنْ فيها ، وتذهبُ الدُّنيا ولا أكونُ فيها ، فلا أسكنُ إليها ؛ فإنَّ عيشَها نكدٌ ، وصفوَها كدرٌ ، وأهلَها مِنْها علىٰ وجَلٍ ؛ إمَّا بنعمةٍ زائلةٍ ، أوْ بليَّةٍ نازلةٍ ، أو منيَّةٍ قاضيةٍ)[٨]

وقالَ بعضُهُمْ : (مِنْ عيبِ الدُّنيا أنَّها لا تُعطي أحداً ما يستحقُّ ، لـٰكنَّها إمَّا أنْ تزيدَهُ ، وإمَّا أنْ تنقصَهُ)[٩]

وقالَ سفيانُ : (أما ترى النِّعمَ كأنَّها مغضوبٌ عليها ، قدْ وُضِعتْ في غيرِ أهلِها ؟!)[١٠]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ طلبَ الدُّنيا على المحبَّةِ لها . . لم يُعْطَ مِنْها شيئاً إلَّا أرادَ أكثرَ ، ومَنْ طلبَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/٩٠) .
(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/٩٠) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/٩١) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٥١) عنه : (إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا . . فنافسه في الآخرة) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣٧) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/٩١) .
(٦) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٩٠) دون السؤال عن حال أهله ، ونصب : غار وذهب ، وفي بعض النسخ : (نصب) ولا يبعد .
(٧) البيتان لسيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ٢٢٦) .
(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٣٤) عن الحسن ضمن رسالة بعثها لعمر بن عبد العزيز .
(٩) أورده الآبي في « نثر الدر » (٧/٦٧) لبزرجمهر .
(١٠) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/٣٧٥) ، وسفيان هو ابن عيينة .

الآخرةَ على المحبَّةِ لها . . لمْ يُعْطَ مِنها شيئاً إلَّا أرادَ أكثرَ ، وليسَ لهٰذا غايةٌ ولا لهٰذا غايةٌ)[1]

وقالَ رجلٌ لأبي حازمٍ : أشكُو إليكَ حبَّ الدُّنيا وليسَتْ لي بدارٍ ، فقالَ : انظرْ ما آتاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْها ؛ فلا تأخذْهُ إلا مِنْ حِلِّهِ ، ولا تضعْهُ إلا في حقِّهِ ، ولا يضرُّكَ حبُّ الدُّنيا[2]

وإنَّما قالَ هٰذا لأنَّهُ لوْ آخذَ نفسَهُ بذٰلكَ . . لأتعبَهُ ، حتَّىٰ يتبرَّمَ بالدُّنيا ، ويطلبَ الخروجَ مِنْها .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (الدُّنيا حانوتُ الشيطانِ ، فلا تسرِقْ مِنْ حانوتِهِ شيئاً فيجيءَ في طلبِهِ فيأخذَكَ)[3]

وقالَ الفضيلُ : (لوْ كانَتِ الدُّنيا مِنْ ذهبٍ يفنىٰ والآخرةُ مِنْ خزفٍ يبقىٰ . . لكانَ ينبغي لنا أنْ نختارَ خزفاً يبقىٰ علىٰ ذهبٍ يفنىٰ ، فكيفَ وقدِ اخترنا خزفاً يفنىٰ علىٰ ذهبٍ يبقىٰ ؟!)[4]

وقالَ أبو حازمٍ : (إيَّاكُمْ والدُّنيا ؛ فإنَّهُ بلغَني أنَّهُ يُوقفُ العبدُ يومَ القيامةِ إذا كانَ معظِّماً للدُّنيا ، فيُقالُ : هٰذا عظَّمَ ما حقَّرَهُ اللهُ)[5]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (ما أصبحَ أحدٌ مِنَ النَّاسِ إلا وهوَ ضيفٌ ، ومالُهُ عاريةٌ ، والضيفُ مرتحلٌ ، والعاريةُ مردودةٌ)[6] .

وفي ذٰلكَ قيلَ[7] : [من الطويل]

وَمـا الْـمـالُ وَ الأَهْـلُـونَ إِلَّا وَدِيـعَـةٌ ... وَلا بُـدَّ يَـوْمـاً أَنْ تُـرَدَّ الْـوَدائِـعُ

وزارَ رابعةَ أصحابُها ، فذكرُوا الدُّنيا ، فأقبلُوا علىٰ ذمِّها ، فقالَتِ : اسكتُوا عنْ ذكرِها ، فلولا موقعُها مِنْ قلوبِكُمْ . . ما أكثرتُمْ مِنْ ذكرِها ، ألا مَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ مِنْ ذكرِهِ[8]

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : كيفَ أنتَ ؟ فقالَ[9] : [من الطويل]

نُـرَقِّـعُ دُنْـيـانـا بِـتَـمْـزِيـقِ دِيـنِـنـا ... فَـلا دِيـنُـنـا يَـبْـقَـىٰ وَلا مـا نُـرَقِّـعُ

فَـطُـوبَـىٰ لِـعَـبْـدٍ آثَـرَ اللهَ رَبَّـهُ ... وَجـادَ بِـدُنْـيـاهُ لِـمـا يَـتَـوَقَّـعُ

وَقِيلَ[10] : [من الطويل]

أَرَىٰ طـالِـبَ الـدُّنْـيـا وَإِنْ طـالَ عُـمْـرُهُ ... وَنـالَ مِـنَ الـدُّنْـيـا سُـرُوراً وَأَنْـعُـمـا

كَـبـانٍ بَـنَـىٰ بُـنْـيـانَـهُ فَـأَقـامَـهُ ... فَـلَـمَّـا اسْـتَـوَىٰ مـا قَـدْ بَـنـاهُ تَـهَـدَّمـا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩١/٨) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٢١) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٢/٨) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩٢/٨) .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » ، وأبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩٢/٨) .

(٦) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠١/٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٤/١) .

(٧) البيت للبيد في « ديوانه » (ص ١٧٠) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٦٤) .

(٩) البيت الأول ينسب إلىٰ عدي بن زيد وهو في « ديوانه » (ص ٢٠٠) ، وإلىٰ عبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٨٤) ، وانظر « بهجة المجالس » (٢٨٩/٣) .

(١٠) شرح نهج البلاغة (٢٩١/١٩) .

وقيلَ [١] : [من الوافر]

هَبِ الدُّنيا تُساقُ إِلَيكَ عَفْواً ... أَلَيسَ مَصيرُ ذاكَ إِلى انْتِقالِ
وَما دُنْياكَ إِلَّا مِثْلُ فَيْءٍ ... أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِالزَّوالِ

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ بعْ دُنياكَ بآخرتِكَ تربحْهُما جميعاً ، ولا تبعْ آخرتَكَ بدنياكَ فتخسرَهُما جميعاً) [٢]

وقالَ مطرِّف بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ : (لا تنظرْ إلىٰ خفضِ عيشِ الملوكِ ولينِ رياشِهِمْ ، ولـٰكنِ انظرْ إلىٰ سرعةِ ظعنِهِمْ وسوءِ منقلبِهِمْ) [٣]

وقالَ ابنُ عباسٍ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الدُّنيا ثلاثةَ أجزاءٍ ؛ جزءٌ للمؤمنِ ، وجزءٌ للمنافقِ ، وجزءٌ للكافرِ ؛ فالمؤمنُ يتزوَّدُ ، والمنافقُ يتزيَّنُ ، والكافرُ يتمتَّعُ) [٤]

وقالَ بعضُهُمْ : (الدُّنيا جيفةٌ ، فمَنْ أرادَ مِنْها شيئاً . . فليصبرْ علىٰ معاشرةِ الكلابِ) [٥]

وفي ذٰلكَ قيلَ [٦] : [من السريع]

يا خاطِبَ الدُّنْيا إِلىٰ نَفْسِها ... تَنَحَّ عَنْ خِطْبَتِها تَسْلَمِ
إِنَّ الَّتِي تَخْطُبُ غَدَّارَةٌ ... قَرِيبَةُ الْعُرْسِ مِنَ الْمَأْتَمِ

وقالَ أبو الدرداءِ : (مِنْ هوانِ الدُّنيا على اللهِ أنَّهُ لا يُعصىٰ إلَّا فيها ، ولا يُنالُ ما عندَهُ إلَّا بتركِها) [٧]

وفي ذٰلكَ قيلَ [٨] : [من الطويل]

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيابِ صَدِيقِ

وقيلَ أيضاً [٩] : [من البسيط]

يا راقِدَ اللَّيلِ مَسْرُوراً بِأَوَّلِهِ ... إِنَّ الْحَوادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحارا
أَفْنَى الْقُرُونَ الَّتِي كانَتْ مُنَعَّمَةً ... كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ إِقْبالاً وَإِدْبارا
كَمْ قَدْ أَبادَتْ صُروفُ الدَّهْرِ مِنْ مَلِكٍ ... قَدْ كانَ فِي الدَّهْرِ نَفَّاعاً وَضَرّارا
يا مَنْ يُعانِقُ دُنْيا لا بَقاءَ لَها ... يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي دُنْياهُ سَفَّارا
هَلَّا تَرَكْتَ مِنَ الدُّنْيا مُعانَقَةً ... حَتَّىٰ تُعانِقَ فِي الْفِرْدَوسِ أَبْكارا
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي جِنانَ الْخُلْدِ تَسْكُنُها ... فَيَنْبَغِي لَكَ أَلَّا تَأْمَنَ النَّارا

---

(١) البيتان لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (ص ٢٩٧) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢٩١/١٩) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٢/٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٣/٢) من قول الحسن .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٩٤) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٣/٨) .
(٥) كذا في « الحلية » (٢٣٨/٨) عن علي كرم الله وجهه .
(٦) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٤٤) .
(٧) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٠٩) عن بعض الحكماء .
(٨) البيت لأبي نواس في « ديوانه » (ص ٧١٤) .
(٩) الأبيات لمحمد بن حازم الباهلي في « ديوانه » (ص ٥٦) .

وقالَ أبو أمامةَ الباهليُّ رضيَ اللهُ عنهُ : لمَّا بُعِثَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . أتَتْ إبليسَ جنودُهُ ، فقالُوا : قدْ بُعِثَ نبيٌّ وأُخرِجَتْ أمَّةٌ ، قالَ : يحبُّونَ الدُّنيا ؟ قالُوا : نعمْ ، قالَ : لئنْ كانُوا يحبُّونَها . . ما أبالي ألَّا يعبدُوا الأوثانَ ، وأنا أغدو عليهِمْ وأَروحُ بثلاثٍ : أخذُ المالِ مِنْ غيرِ حقِّه ، وإنفاقُهُ في غيرِ حقِّهِ ، وإمساكُهُ عنْ حقِّهِ ، والشرُّ كلُّهُ لهـٰذا تبعٌ [1]

وقالَ رجلٌ لعليّ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ صفْ لنا الدُّنيا ، قالَ : وما أصفُ لكَ مِنْ دارٍ مَنْ صحَّ فيها . . ما أمِنَ ، ومنْ سقمَ فيها . . ندِمَ ، ومَنِ افتقرَ فيها . . حزِنَ ، ومَنِ استغنىٰ فيها . . افتُتِنَ ، في حلالِها الحسابُ ، وفي حرامِها العقابُ ، ومتشابهِها العتابُ [2]

وقيلَ لهُ ذٰلكَ مرةً أخرىٰ ، فقالَ : أطوِّلُ أمْ أقصِّرُ ؟ فقيلَ : قصِّرْ ، فقالَ : حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ [3]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (اتقُوا السَّحَّارةَ ؛ فإنَّها تسحرُ قلوبَ العلماءِ) [4] ؛ يعني : الدُّنيا .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا كانَتِ الآخرةُ في القلبِ . . جاءَتِ الدُّنيا تزحمُها ، وإذا كانَتِ الدُّنيا في القلبِ . . لمْ تزحمْها الآخرةُ ؛ لأنَّ الآخرةَ كريمةٌ ، والدُّنيا لئيمةٌ) [5] ، وهـٰذا تشديدٌ عظيمٌ ، ونرجو أنْ يكونَ ما ذكرَهُ سيارُ بنُ الحكَمِ أصحَّ ؛ إذْ قالَ : (الدُّنيا والآخرةُ يجتمعانِ في القلبِ ، فأيُّهما غلبَ . . كانَ الآخرُ تبعاً لهُ) [6]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (بقدْرِ ما تحزنُ للدُّنيا يخرجُ همُّ الآخرةِ مِنْ قلبِكَ ، وبقدْرِ ما تحزنُ للآخرةِ يخرجُ همُّ الدُّنيا مِنْ قلبِكَ) [7] ، وهـٰذا اقتباسٌ ممَّا قالَهُ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (الدُّنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، فبقدْرِ ما تُرضِي إحداهُما تسخطُ الأخرىٰ) [8]

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لقدْ أدركتُ أقواماً كانَتِ الدُّنيا أهونَ عليهِمْ مِنَ الترابِ الذي يمشونَ عليهِ ، ما يبالونَ أشرَّقَتِ الدُّنيا أمْ غرَّبَتْ ، ذهبَتْ إلىٰ ذا أمْ ذهبَتْ إلىٰ ذا) [9]

وقالَ رجلٌ للحسنِ : ما تقولُ في رجلٍ آتاهُ اللهُ مالاً ؛ فهوَ يتصدَّقُ منهُ ، ويصلُ منهُ ، ويحسنُ فيهِ ، ألَهُ أنْ يتعيَّشَ فيهِ ؟ يعني : التَّنعُّمَ ، فقالَ : لا ، لوْ كانَتْ لهُ الدُّنيا كُلُّها . . ما كانَ لهُ منْها إلَّا الكفافُ ، ويقدِّمُ ذٰلكَ ليومِ فقرِهِ [10]

وقالَ الفضيلُ : (لوْ أنَّ الدُّنيا بحذافيرِها عُرِضَتْ عليَّ حلالاً ، لا أُحاسبُ بها في الآخرةِ . . لكنتُ أتقذَّرُها ، كما يتقذَّرُ أحدُكُمُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أنْ تصيبَ ثوبَهُ) [11]

وقيلَ : قدِمَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ الشامَ ، فاستقبلَهُ أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ علىٰ ناقةٍ مخطومةٍ بحبلٍ ، فسلَّم عليهِ وسألَهُ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨) ، وفيه : (من صح فيها . . أمن) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٩) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢١) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٠) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٢) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٩) عن وهب بن منبه .
(٩) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٧٢) .
(١٠) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/١٩٨) .
(١١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٨٩) .

ثمَّ أتىٰ منزلَهُ ، فلمْ يرَ فيهِ إلَّا سيفَهُ وترسَهُ ورحلَهُ ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : لوِ اتخذتَ متاعاً ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ هـٰذا يبلِّغُنا المقيلَ [١]

وقالَ سفيانُ : (خذْ مِنَ الدُّنيا لبدنِكَ ، ومِنَ الآخرةِ لقلبِكَ) [٢]

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لقدْ عبدَتْ بنو إسرائيلَ الأصنامَ بعدَ عبادتِهِمُ الرحمـٰنَ بحبِّهِمُ الدُّنيا) [٣]

وقالَ وهبٌ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ : الدُّنيا غنيمةُ الأكياسِ ، وغفلةُ الجهَّالِ ، لمْ يعرفُوها حتَّىٰ خرجُوا منْها ، فسألُوا الرَّجعةَ فلمْ يُرجعوا) [٤]

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّكَ استدبرتَ الدُّنيا مِنْ يومَ نزلتَها واستقبلتَ الآخرةَ ؛ فأنْتَ إلىٰ دارٍ تقربُ مِنها أقربُ مِنْ دارٍ تباعدُ عنْها) [٥]

وقالَ سعدُ بنُ مسعودٍ : (إذا رأيتَ العبدَ تزدادُ دنياهُ وتنقصُ آخرتُهُ وهوَ بهِ راضٍ . . فذلكَ المغبونُ الذي يلعبُ بوجهِهِ وهوَ لا يشعرُ) [٦]

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ على المنبرِ : (واللهِ ؛ ما رأيتُ قوماً قطُّ أرغبَ فيما كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزهدُ فيهِ منْكُمْ ، واللهِ ؛ ما مرَّ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثٌ إلَّا والذي عليهِ أكثرُ مِنَ الذي لهُ) [٧]

وقالَ الحسنُ بعدَ أنْ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ : مَنْ قالَ ذا ؟ مَنْ خلقَها ومَنْ هوَ أعلمُ بها ، إيَّاكُمْ وما شغلَ مِنَ الدُّنيا ؛ فإنَّ الدُّنيا كثيرةُ الأشغالِ ، لا يفتحُ رجلٌ علىٰ نفسِهِ بابَ شغلٍ إلَّا أوشكَ ذلكَ البابُ أنْ يفتحَ عليهِ عشرةَ أبوابٍ [٨]

وقالَ أيضاً : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ؛ رضيَ بدارٍ حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ ، إنْ أخذَهُ مِنْ حلِّهِ . . حُوسبَ بنعمتِهِ ، وإنْ أخذَهُ مِنْ حرامٍ . . عُذِّبَ بهِ ، ابنُ آدمَ يستقلُّ مالَهُ ولا يستقلُّ عملَهُ ، يفرحُ بمصيبتِهِ في دينِهِ ، ويجزعُ مِنْ مصيبتِهِ في دنياهُ) [٩]

وكتبَ الحسنُ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِما : سلامٌ عليكَ ، أمَّا بعدُ : فكأنَّكَ بآخرِ مَنْ كُتِبَ عليهِ الموتُ قدْ ماتَ ، فأجابَهُ عمرُ : سلامٌ عليكَ ، كأنَّكَ بالدُّنيا لمْ تكنْ ، وبالآخرةِ لمْ تزَلْ [١٠]

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (الدُّخولُ في الدُّنيا هيِّنٌ ، لـٰكنَّ التخلُّصَ مِنْها شديدٌ) [١١]

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٨٦) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٢٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/١٩٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٦٥) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٣) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٦) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٠٦) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٠) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢١١) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢٦) .
(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣٩٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (عجباً لمَنْ يعرفُ أنَّ الموتَ حقٌّ كيفَ يفرحُ ؟! وعجباً لمَنْ يعلمُ أنَّ النارَ حقٌّ كيفَ يضحكُ ؟! وعجباً لمَنْ يرىٰ تقلُّبَ الدُّنيا بأهلِها كيفَ يطمئنُّ إليها ؟! وعجباً لمَنْ يعلمُ أنَّ القدَرَ حقٌّ كيفَ ينصبُ ؟!)[1]

وقدمَ علىٰ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ رجلٌ مِنْ نجرانَ عمرُهُ مئتا سنةٍ ، فسألَهُ عنِ الدُّنيا كيفَ وجدَها ؟ فقالَ : سُنيَّاتُ بلاءٍ ، وسُنيَّاتُ رخاءٍ ، يومٌ فيومٌ ، وليلةٌ فليلةٌ ، يُولدُ مولودٌ ، ويهلكُ هالكٌ ، فلولا المولودُ . . بادَ الخلقُ ، ولولا الهالكُ . . ضاقتِ الدُّنيا بمَنْ فيها ، فقالَ له : سلْ ما شئتَ ، قالَ : عمرٌ مضىٰ فتردُّهُ ، أوْ أجلٌ حضرَ فتدفعُهُ ؟ قالَ : لا أملكُ ذٰلكَ ، قالَ : لا حاجةَ لي إليكَ[2]

وقالَ داوودُ الطائيُّ رحمهُ اللهُ : (يا بنَ آدمَ ؛ فرحتَ ببلوغِ أملِكَ ، وإنَّما بلغتَهُ بانقضاءِ أجلِكَ ، ثمَّ سوَّفتَ بعملِكَ ؛ كأنَّ منفعتَهُ لغيرِكَ)[3]

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ سألَ اللهَ الدُّنيا . . فإنَّما يسألُهُ طولَ الوقوفِ بينَ يديهِ)[4]

وقالَ أبو حازمٍ : (ما في الدُّنيا شيءٌ يسرُّكَ ، إلا وقدْ أُلْصِقَ بهِ شيءٌ يسوءُكَ)[5]

وقالَ الحسنُ : (لا تخرجُ نفسُ ابنِ آدمَ مِنَ الدُّنيا إلا بحسراتٍ ثلاثٍ : أنَّهُ لمْ يشبعْ ممَّا جمعَ ، ولمْ يدرِكْ ما أمَّلَ ، ولمْ يحسنِ الزادَ لما قدمَ عليهِ)[6]

وقيلَ لبعضِ العبَّادِ : قدْ نلتَ الغنىٰ ، قالَ : إنَّما نالَ الغنىٰ مَنْ عتَقَ مِنْ رقِّ الدُّنيا[7]

وقالَ أبو سليمانَ : (لا يصبرُ عنْ شهواتِ الدُّنيا إلا مَنْ كانَ في قلبِهِ ما يشغلُهُ بالآخرةِ)[8]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (اصطلحنا علىٰ حبِّ الدُّنيا ، فلا يأمرُ بعضُنا بعضاً ، ولا ينهىٰ بعضُنا بعضاً ، ولا يدعُنا اللهُ علىٰ هٰذا ، فليتَ شعري ؛ أيُّ عذابِ اللهِ ينزلُ بنا ؟!)[9]

وقالَ أبو حازمٍ : (يسيرُ الدُّنيا يشغلُ عنْ كثيرِ الآخرةِ)[10]

وقالَ الحسنُ : (أهينُوا الدُّنيا ، فواللهِ ؛ ما هيَ لأحدٍ بأهنأَ مِنْها لمَنْ أهانَها)[11]

وقالَ أيضاً : (إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . أعطاهُ مِنَ الدُّنيا عطيةً ، ثمَّ يمسكُ ، فإذا نفِدَ . . أعادَ عليهِ ، وإذا هانَ عليهِ عبدٌ . . بسطَ لهُ الدُّنيا بسطاً)[12]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢٧) ضمن خبر عن مسعر بن كدام .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٤٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦١) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦٣) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٥) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٦) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٤) بلاغاً .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٩٧) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٠٥) .
(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٤) .
(١٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٥) .

وكانَ بعضُهُمْ يدعو : (يا ممسكَ السماءِ أنْ تقعَ على الأرضِ إلا بإذنِكَ ؛ أمسكْ عنِّي الدُّنيا)[1]

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : (أرأيتَ لوْ أنَّ رجلاً صامَ الدَّهرَ لا يفطرُ ، وقامَ الليلَ لا يفترُ ، وتصدَّقَ بمالِهِ ، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ ، واجتنبَ محارمَ اللهِ ، غيرَ أنَّهُ يُؤتىٰ بهِ يومَ القيامةِ فيُقالُ : ها إنَّ هـٰذا عظمَ في عينِهِ ما صغَّرَهُ اللهُ ، وصغرَ في عينِهِ ما عظَّمَهُ اللهُ . . كيفَ ترىٰ يكونُ حالُهُ ؟ فمَنْ مِنَّا ليسَ هـٰكذا الدُّنيا عظيمةٌ عندَهُ معَ ما اقترفنا مِنَ الذنوبِ والخطايا ؟!)[2]

وقالَ أبو حازم : (اشتدَّتْ مؤونةُ الدُّنيا والآخرةِ ، فأمَّا مؤونةُ الآخرةِ . . فإنَّكَ لا تجدُ عليها أعواناً ، وأمَّا مؤونةُ الدُّنيا . . فإنَّكَ لا تضربُ بيدِكَ إلىٰ شيءٍ مِنْها إلا وجدتَ فاجراً قدْ سبقَكَ إليهِ)[3]

وقالَ أبو هريرةَ : (الدُّنيا موقوفةٌ بينَ السماءِ والأرضِ كالشِّنِّ البالي ، تنادي ربَّها منذُ خلقَها إلىٰ يومِ يفنيها : يا ربِّ ، يا ربِّ ؛ لمَ تبغضُني ؟ فيقولُ لها : اسكتي يا لا شيءَ ، اسكتي يا لا شيءَ)[4]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : (حبُّ الدُّنيا في القلبِ والذنوبُ قدِ احتوشَتْهُ ، فمتىٰ يصلُ الخيرُ إليهِ ؟!)[5]

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (مَنْ فرحَ قلبُهُ بشيءٍ مِنَ الدُّنيا . . فقدْ أخطأَ الحكمةَ ، ومَنْ جعلَ شهوتَهُ تحتَ قدميهِ . . فَرِقَ الشيطانُ مِنْ ظلِّهِ ، ومَنْ غلبَ علمُهُ هواهُ . . فهوَ الغالبُ)[6]

وقيلَ لبشرٍ : ماتَ فلانٌ ، فقالَ : جمعَ الدُّنيا وذهبَ إلى الآخرةِ ، ضيَّعَ نفسَهُ ، قيلَ لهُ : إنَّهُ كانَ يفعلُ ويفعلُ ، وذكرُوا أبواباً مِنَ البرِّ ، فقالَ : وما ينفعُ هـٰذا وهوَ يجمعُ الدُّنيا ؟![7]

وقالَ بعضُهُمْ : (الدُّنيا تُبغِّضُ إلينا نفسَها ، ونحنُ نحبُّها !! فكيفَ لوْ تحبَّبَتْ إلينا ؟!)[8]

وقيلَ لحكيمٍ : الدُّنيا لمَنْ هيَ ؟ قالَ : لمَنْ تركَها ، فقيلَ : الآخرةُ لمَنْ هيَ ؟ قالَ : لمَنْ طلبَها[9]

وقالَ حكيمٌ : (الدُّنيا دارُ خرابٍ ، وأخربُ مِنْها قلبُ مَنْ يعمرُها ، والجنةُ دارُ عمرانٍ ، وأعمرُ مِنْها قلبُ مَنْ يطلبُها)[10]

وقالَ الجنيدُ : كانَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ مِنَ المريدينَ الناطقينَ بلسانِ الحقِّ في الدُّنيا ، وعظَ أخاً لهُ في اللهِ ، وخوَّفَهُ باللهِ ، فقالَ : يا أخي ؛ إنَّ الدُّنيا دَحْضُ مزلَّةٍ ، ودارُ مذلَّةٍ ، عمرانُها إلى الخرابِ صائرٌ ، وساكنُها إلى القبورِ زائرٌ ، شملُها على الفرقةِ موقوفٌ ، وغناها إلى الفقرِ مصروفٌ ، الإكثارُ فيها إعسارٌ ، والإعسارُ فيها يسارٌ ، فافزعْ إلى اللهِ ، وارضَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٦٠) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٣٧) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥٢) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥٩) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٠) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٦) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٧) .

برزقِ اللهِ ، ولا تتسلَّفْ مِنْ دارِ بقائِكَ في دارِ فنائِكَ ؛ فإنَّ عيشَكَ فيءٌ زائلٌ ، وجدارٌ مائلٌ ، أكثِرْ مِنْ عملِكَ ، وقصِّر مِنْ أملِكَ .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ لرجلٍ : أدرهمٌ في المنامِ أحبُّ إليكَ أمْ دينارٌ في اليقظةِ ؟ فقالَ : دينارٌ في اليقظةِ ، فقالَ : كذبتَ ؛ لأنَّ الذي تحبُّهُ في الدُّنيا كأنَّكَ تحبُّهُ في المنامِ ، والذي لا تحبُّهُ في الآخرةِ كأنَّكَ لا تحبُّهُ في اليقظةِ .

وعنْ إسماعيلَ بنِ عياشٍ قالَ : (كانَ أصحابُنا يسمُّونَ الدُّنيا خنزيرةً ، فيقولونَ : إليكِ عنَّا يا خنزيرةُ ، فلوْ وجدُوا لها اسماً أقبحَ مِنْ هـٰذا . . لسمَّوها بهِ)[1]

وقالَ كعبٌ : (لتُحبَّبَنَّ إليكمُ الدُّنيا حتَّىٰ تعبدُوها وأهلَها)[2]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ : (العقلاءُ ثلاثةٌ : مَنْ تركَ الدُّنيا قبلَ أنْ تتركَهُ ، وبنىٰ قبرَهُ قبلَ أنْ يدخلَهُ ، وأرضىٰ خالقَهُ قبلَ أنْ يلقاهُ)[3]

وقالَ أيضاً : (الدُّنيا بلغَ مِنْ شؤمِها أنَّ تمنِّيَكَ لها يلهيكَ عَنْ طاعةِ اللهِ ، فكيفَ الوقوعُ فيها ؟!) .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ : (مَنْ أرادَ أنْ يستغنيَ بالدُّنيا عنِ الدُّنيا . . كانَ كمطفئِ النَّارِ بالتِّبنِ)[4]

وقالَ بندارٌ : (إذا رأيتَ أبناءَ الدُّنيا يتكلَّمونَ في الزهدِ . . فاعلمْ أنَّهُمْ في سخرةِ الشيطانِ)[5]

وقالَ أيضاً : (مَنْ أقبلَ على الدُّنيا . . أحرقَتْهُ نيرانُها ـ يعني : الحرصَ ـ حتَّىٰ يصيرَ رماداً ، ومَنْ أقبلَ على الآخرةِ . . صفَّتْهُ نيرانُها ، فصارَ سبيكةَ ذهبٍ يُنتفعُ بهِ ، ومَنْ أقبلَ على اللهِ عزَّ وجلَّ . . أحرقَتْهُ نيرانُ التوحيدِ ، فصارَ جوهراً لا حدَّ لقيمتِهِ) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّما الدُّنيا ستَّةُ أشياءَ : مطعومٌ ، ومشروبٌ ، وملبوسٌ ، ومركوبٌ ، ومنكوحٌ ، ومشمومٌ ، فأشرفُ المطعوماتِ العسلُ ، وهوَ مذقةُ ذبابٍ ، وأشرفُ المشروباتِ الماءُ ، يستوي فيهِ البَرُّ والفاجرُ ، وأشرفُ الملبوساتِ الحريرُ ، وهوَ نسجُ دودةٍ ، وأشرفُ المركوباتِ الفرسُ ، وعليهِ يُقتلُ الرِّجالُ ، وأشرفُ المنكوحاتِ المرأةُ ، وهيَ مبالٌ في مبالٍ ، واللهِ ؛ إنَّ المرأَةَ لتزيِّنُ أحسنَ شيءٍ مِنْها ، ويُرادُ أقبحُ شيءٍ مِنْها ، وأشرفُ المشموماتِ المسكُ ، وهوَ دمُ حيوانٍ)[6]

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٧) عن إسماعيل بن عياش ، عن أبي راشد التنوخي ، عن يزيد بن ميسرة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٤٠) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٨٨) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٢) .

(٥) يعني : لا يتكلم في الزهد إلا من كان زاهداً ؛ حتىٰ يكون لكلامه التأثير . « إتحاف » (٨/٩٨) .

(٦) أورده الراغب في « الذريعة » (ص ٢١٨) .

بيان المواعظ في ذمّ الدّنيا وصفتها

قالَ بعضُهُمْ : (يا أيُّها الناسُ ؛ اعملُوا على مهلٍ ، وكونُوا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ على وَجَلٍ ، ولا تغترُّوا بالأملِ ونسيانِ الأجلِ ، ولا تركنُوا إلى الدُّنيا ؛ فإنَّها غدَّارةٌ خدَّاعةٌ ، قدْ تزخرفَتْ لكُمْ بغرورِها ، وفتنَتْكُمْ بأمانيها ، وتزيَّنَتْ لخطَّابِها ، فأصبحَتْ كالعروسِ المجلوَّةِ ، العيونُ إليها ناظرةٌ ، والقلوبُ عليها عاكفةٌ ، والنفوسُ لها عاشقةٌ ، فكمْ مِنْ عاشقٍ لها قتلَتْ ، ومطمئنٍّ إليها خذلَتْ .

فانظرُوا إليها بعينِ الحقيقةِ ؛ فإنَّها دارٌ كثُرَتْ بوائقُها ، وذمَّها خالقُها ، جديدُها يبلى ، ومُلْكُها يفنى ، وعزيزُها يذلُّ ، وكثيرُها يقلُّ ، وحيُّها يموتُ ، وخيرُها يفوتُ ، فاستيقظُوا رحمَكمُ اللهُ مِنْ غفلتِكُمْ ، وانتبهُوا مِنْ رقدتِكُمْ ، قبلَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عليلٌ ، أوْ مدنفٌ ثقيلٌ ، فهلْ على الدواءِ مِن دليلٍ ؟ وهلْ إلى الطبيبِ مِنْ سبيلٍ ؟ فيُدعى لكَ الأطباءُ ، ولا يُرجى لكَ الشفاءُ ، ثمَّ يُقالُ : فلانٌ أوصى ، ومالَهُ أحصى ، ثمَّ يُقالُ : قدْ ثقُلَ لسانُهُ ، فما يكلِّمُ إخوانَهُ ، ولا يعرفُ جيرانَهُ ، وعرقَ عندَ ذٰلكَ جبينُكَ ، وتتابعَ أنينُكَ ، وثبتَ يقينُكَ ، وطمحَتْ جفونُكَ ، وصدقَتْ ظنونُكَ ، وتلجْلَجَ لسانُكَ ، وبكى إخوانُكَ ، وقيلَ لكَ : هٰذا ابنُكَ فلانٌ ، وهٰذا أخوكَ فلانٌ ، ومُنعتَ الكلامَ فلا تنطقُ ، وخُتمَ على لسانِكَ فلا ينطلقُ ، ثمَّ حلَّ بكَ القضاءُ ، وانتُزعَتْ نفسُكَ مِنَ الأعضاءِ ، ثمَّ عُرِجَ بها إلى السماءِ ، فاجتمعَ عندَ ذٰلكَ إخوانُكَ ، وأُحضرَتْ أكفانُكَ ، فغسَّلوكَ وكفَّنوكَ ، فانقطعَ عوَّادُكَ ، واستراحَ حسَّادُكَ ، وانصرفَ أهلكَ إلى مالكَ ، وبقيتَ مرتهناً بأعمالِكَ) .

وقالَ بعضُهُمْ لبعضِ الملوكِ : (إنَّ أحقَّ الناسِ بذمِّ الدُّنيا وقِلاها مَنْ بُسطَ لهُ فيها ، وأُعطيَ حاجتَهُ مِنْها ؛ لأنَّهُ يتوقَّعُ آفةً تعدو على مالِهِ فتجتاحُهُ ، أوْ على جمعِهِ فتفرِّقُهُ ، أوْ تأتي سلطانَهُ فتهدمُهُ مِنَ القواعدِ ، أوْ تدِبُّ إلى جسمِهِ فتسقمُهُ ، أوْ تفجعُهُ بشيءٍ هوَ ضنينٌ بهِ مِنْ أحبابِهِ ، فالدُّنيا أحقُّ بالذَّمِّ ، هيَ الآخذةُ ما تعطي ، الراجعةُ فيما تهبُ ، بينا هيَ تضحِكُ صاحبَها إذْ أضحكَتْ منْهُ غيرَهُ ، وبينا هيَ تبكي لهُ إذْ أبكَتْ عليهِ ، وبينا هيَ تبسطُ كفَّها بالإعطاءِ إذْ بسطَتْها بالاستردادِ ، تعقدُ التاجَ على رأسِ صاحبِها اليومَ ، وتعفِّرُهُ في الترابِ غداً ، سواءٌ عليها ذهابُ ما ذهبَ وبقاءُ ما بقيَ ، تجدُ في الباقي مِنَ الذاهبِ خلفاً ، وترضى بكلٍّ مِنْ كلٍّ بدلاً)[(١)]

وكتبَ الحسنُ البصريُّ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدُّنيا دارُ ظعنٍ ليسَتْ بدارِ إقامةٍ ، وإنَّما أُنزلَ آدمُ عليهِ السلامُ مِنَ الجنةِ إليها عقوبةً ، فاحذرْها يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فإنَّ الزادَ مِنْها تركُها ، والغنى مِنْها فقرُها ، لها في كلِّ حينٍ قتيلٌ ، تذلُّ مَنْ أعزَّها ، وتفقِرُ مَنْ جمعَها ، هيَ كالسُّمِّ يأكلُهُ مَنْ لا يعرفُهُ وهوَ حتفُهُ ، فكنْ فيها كالمداوي جراحتَهُ ، يحتمي قليلاً مخافةَ ما يكرهُ طويلاً ، ويصبرُ على شدَّةِ الدواءِ مخافةَ طولِ البلاءِ .

فاحذرْ هٰذهِ الدارَ الغدَّارةَ ، الختَّالةَ الخدَّاعةَ ، التي قدْ زيَّنَتْ بخدعِها ، وفتنَتْ بغرورِها ، وتحلَّتْ بآمالِها ، وتشوَّقَتْ لخطَّابِها ، فأصبحَتْ كالعروسِ المجلوَّةِ ، العيونُ إليها ناظرةٌ ، والقلوبُ عليها والهةٌ ، والنفوسُ لها عاشقةٌ ، وهيَ لأزواجِها كلِّهِمْ قاتلةٌ ، فلا الباقي بالماضي معتبِرٌ ، ولا الآخرُ بالأوَّلِ مزدجرٌ ، ولا العارفُ باللهِ عزَّ وجلَّ حينَ أخبرَهُ عنها

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٧) .

مذَّكرٌ ، فعاشقٌ لها قدْ ظفرَ مِنْها بحاجتِهِ ، فاغترَّ وطغىٰ ، ونسيَ المعادَ ، فشغلَ فيها لُبَّهُ ، حتَّىٰ زلَّتْ عنْها قدَمُهُ ، فعظُمَتْ ندامتُهُ ، وكثُرَتْ حسرتُهُ ، واجتمعَتْ عليهِ سكراتُ الموتِ بألمِهِ ، وحسراتُ الفوتِ بغصَّتِهِ ، وراغبٌ فيها لمْ يدركْ مِنْها ما طلبَ ، ولمْ يروّحْ نفسَهُ مِنَ التَّعبِ ، فخرجَ بغيرِ زادٍ ، وقدِمَ علىٰ غيرِ مهادٍ ، فاحذرْها يا أميرَ المؤمنينَ .

وكنْ أسرَّ ما تكونُ فيها أحذرَ ما تكونُ لها ؛ فإنَّ صاحبَ الدُّنيا كلَّما اطمأنَّ مِنْها إلىٰ سرورٍ . . أشخصَتْهُ إلىٰ مكروهٍ ، السارُّ فيها لأهلِها غارٌّ ، والنافعُ مِنْها غداً ضارٌّ ، وقدْ وُصِلَ الرَّخاءُ مِنْها بالبلاءِ ، وجُعِلَ البقاءُ فيها إلىٰ فناءٍ ، فسرورُها مشوبٌ بالأحزانِ ، لا يرجعُ مِنْها ما ولَّىٰ وأدبرَ ، ولا يُدرىٰ ما هوَ آتٍ فينتظرَ .

أمانيها كاذبةٌ ، وآمالُها باطلةٌ ، وصفوُها كدرٌ ، وعيشُها نكدٌ ، وابنُ آدمَ فيها علىٰ خطرٍ ، إنْ عقَلَ ونظَرَ . . فهوَ مِنَ النَّعماءِ علىٰ خطرٍ ، ومِنَ البلاءِ علىٰ حذرٍ ، فلوْ كانَ الخالقُ لمْ يُخبِرْ عنها خبراً ، ولمْ يضربْ لها مثلاً . . لكانَتِ الدُّنيا قدْ أيقظَتِ النائمَ ، ونبَّهَتِ الغافلَ ، فكيفَ وقدْ جاءَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ عنها زاجرٌ ، وفيها واعظٌ ، فما لَها عندَ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ قدرٌ ، وما نظرَ إليها منذُ خلقَها .

ولقدْ عُرِضَتْ علىٰ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمفاتيحِها وخزائنِها لا ينقصُهُ ذٰلكَ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها ؛ إذْ كرِهَ أنْ يخالفَ على اللهِ أمرَهُ ، أوْ يحبَّ ما أبغضَ خالقُهُ ، أوْ يرفعَ ما وضعَ مليكُهُ ، فزواها عنِ الصالحينَ اختباراً ، وبسطَها لأعدائِهِ اغتراراً .

فيظنُّ المغرورُ بها المقتدرُ عليها أنَّهُ أُكرمَ بها ، ونسيَ ما صنعَ اللهُ عزَّ وجلَّ بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ شدَّ الحجرَ علىٰ بطنِهِ ، ولقدْ جاءَتِ الرِّوايةُ عنهُ عنْ ربِّهِ تباركَ وتعالىٰ : أنَّهُ قالَ لموسىٰ عليهِ السَّلامُ : إذا رأيتَ الغِنىٰ مقبلاً . . فقلْ : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ ، وإذا رأيتَ الفقرَ مُقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ ، وإنْ شئتَ . . اقتديتَ بصاحبِ الروحِ والكلمةِ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ ؛ فإنَّهُ كانَ يقولُ : إدامي الجوعُ ، وشعاري الخوفُ ، ولباسي الصوفُ ، وصِلائي في الشتاءِ مشارقُ الشمسِ ، وسراجي القمرُ ، ودابَّتي رجلايَ ، وطعامي وفاكهتي ما أنبتَتِ الأرضُ ، أبيتُ وليسَ لي شيءٌ ، وأصبحُ وليسَ لي شيءٌ ، وليسَ على الأرضِ أحدٌ أغنىٰ منِّي)(١)

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (لمَّا بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ موسىٰ وهارونَ عليهِما السلامُ إلىٰ فرعونَ . . قالَ : لا يَرُوعنَّكُما لباسُهُ الذي لبسَ مِنَ الدُّنيا ؛ فإنَّ ناصيتَهُ بيدي ، ليسَ ينطِقُ ولا يطرِفُ ولا يتنفَّسُ إلا بإذني ، ولا يعجبنَّكُما ما تمتَّعَ بهِ مِنْها ؛ فإنَّما هيَ زهرةُ الحياةِ الدُّنيا وزينةُ المترفينَ ، فلوْ شئتُ أنْ أزيّنَكُما بزينةٍ مِنَ الدُّنيا ، يعرفُ فرعونُ حينَ يراها أن مقدرتَهُ تعجزُ عمَّا أُوتيتُما . . لفعلتُ ، ولٰكنِّي أرغبُ بكُما عنْ ذٰلكَ ، فأزوي ذٰلكَ عنْكُما ، وكذٰلِكَ أفعلُ بأوليائي ، إنِّي لأذودُهُمْ عنْ نعيمِها ، كما يذودُ الرَّاعي الشفيقُ غنمَهُ عنْ مراتعِ الهَلَكَةِ ، وإنِّي لأجنِّبُهُمْ سلوتَها كما يجنِّبُ الراعي الشفيقُ إبلَهُ عنْ مباركِ العُرَّةِ(٢) ، وما ذاكَ لهوانِهِمْ عليَّ ، ولٰكنْ ليستكملُوا نصيبَهُمْ مِنْ كرامتِي سالماً موفراً ، إنَّما يتزيَّنُ لي أوليائي بالذُّلِّ والخشوعِ ، والخوفِ والخضوعِ ، والتقوىٰ تثبتُ في قلوبِهِمْ ، فتظهرُ علىٰ أجسادِهِمْ ؛ فهيَ

---

(١) كذا رواه بطوله ومرفوعه ابنُ أبي الدنيا في « الزهد » (٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٣/٦) عن الحسن ، فالمرفوع فيه مرسل ، وخبر إعراضه صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقد عرضت عليه رواه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة مرفوعاً : « عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً » ، وخبر موسىٰ عليه السلام رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٢) العُرَّة : الجرب .

ثيابُهُمُ التي يلبسونَ ، ودثارُهُمُ الذي يظهرونَ ، وضميرُهُمُ الذي يستشعرونَ ، ونجاتُهُمُ التي بها يفوزونَ ، ورجاؤُهُمُ الذي إيَّاهُ يأملونَ ، ومجدُهُمُ الذي بهِ يفخرونَ ، وسيماهُمُ التي بها يُعرفُونَ ، فإذا لقيتَهُمْ . . فاخفضْ لهُمْ جناحَكَ ، وذلِّلْ لهُمْ قلبَكَ ولسانَكَ ، واعلمْ أنَّهُ مَنْ أخافَ لي وليّاً . . فقدْ بارزَني بالمحاربةِ ، ثمَّ أنا الثائرُ لهُ يومَ القيامةِ)[1]

وخطبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً فقالَ : (اعلمُوا أنَّكُمْ ميّتُونَ ، ومبعوثونَ مِنْ بعدِ الموتِ ، وموقوفونَ علىٰ أعمالِكُمْ ، ومجزيُّونَ بها ، فلا تغرنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا ؛ فإنَّها بالبلاءِ محفوفةٌ ، وبالفناءِ معروفةٌ ، وبالغدْرِ موصوفةٌ ، وكلُّ ما فيها إلىٰ زوالٍ ، وهيَ بينَ أهلِها دولٌ وسجالٌ ، لا تدومُ أحوالُها ، ولا يسلمُ مِنْ شرِّها نُزَّالُها ، بينا أهلُها مِنْها في رخاءٍ وسرورٍ ؛ إذا هُمْ مِنْها في بلاءٍ وغرورٍ ، أحوالٌ مختلفةٌ ، وتاراتٌ متصرِّفةٌ ، العيشُ فيها مذمومٌ ، والرخاءُ فيها لا يدومُ ، وإنَّما أهلُها فيها أغراضٌ مستهدفةٌ ، ترميهِمْ بسهامِها ، وتقصمُهُمْ بحِمامِها ، وكلٌّ حتفُهُ فيها مقدورٌ ، وحظُّهُ فيها موفورٌ .

واعلمُوا عبادَ اللهِ أنَّكُمْ وما أنتمْ فيهِ مِنْ هٰذهِ الدُّنيا علىٰ سبيلِ مَنْ قَدْ مضىٰ ممَّنْ كانَ أطولَ منكُمْ أعماراً ، وأشدَّ منكُمْ بطشاً ، وأعمرَ دياراً ، وأبعدَ آثاراً ، فأصبحَتْ أصواتُهُمْ هامدةً خامدةً مِنْ بعدِ طولِ تقلُّبِها ، وأجسادُهُمْ باليةً ، وديارُهُمْ علىٰ عروشِها خاليةً ، وآثارُهُمْ عافيةً .

واستبدلُوا بالقصورِ المشيدةِ والسررِ والنمارقِ الممهَّدةِ الصخورَ والأحجارَ المسندةَ في القبورِ اللاطئةِ الملحدةِ ، فمحلُّها مقتربٌ ، وساكنُها مغتربٌ بينَ أهلِ عمارةٍ موحشينَ ، وأهلِ محلَّةٍ متشاغلينَ ، لا يستأنسونَ بالعمرانِ ، ولا يتواصلونَ تواصلَ الجيرانِ والإخوانِ ، علىٰ ما بينَهُمْ مِنْ قربِ المكانِ والجوارِ ودنوِّ الدارِ ، وكيفَ يكونُ بينَهُمْ تواصلٌ ، وقدْ طحنَهُمْ بكَلْكَلِهِ البلىٰ ، وأكلَتْهُمُ الجنادلُ والثرىٰ ، فأصبحُوا بعدَ الحياةِ أمواتاً ، وبعدَ غضارةِ العيشِ رُفاتاً .

فُجعَ بهِمُ الأحبابُ ، وسكنُوا تحتَ الترابِ ، وظعنُوا فليسَ لهُمْ إيابٌ ، هيهاتَ هيهاتَ ، ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ، فكأنْ قدْ صرتُمْ إلىٰ ما صارُوا إليهِ مِنَ البلا ، والوحدةِ في دارِ المثوىٰ ، وارتهنتُمْ في ذٰلكَ المضجعِ ، وضمَّكُمْ ذٰلكَ المستودعُ .

فكيفَ بكُمْ لوْ عاينتُمُ الأمورَ ، وبُعثرَتِ القبورُ ، وحُصِّلَ ما في الصدورِ ، وأُوقِفتُمْ للتحصيلِ بينَ يدي الملكِ الجليلِ ، فطارَتِ القلوبُ لإشفاقِها مِنْ سالفِ الذنوبِ ، وهُتكَتْ عنكُمُ الحجُبُ والأستارُ ، وظهرَتْ منكُمُ العيوبُ والأسرارُ ، هنالكَ تُجزىٰ كلُّ نفسٍ بما كسبَتْ ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . . . ﴾ الآيةَ ، جعلَنا اللهُ وإيَّاكُمْ عاملينَ بكتابِهِ ، ومتبعينَ لأوليائِهِ ؛ حتَّىٰ يُحِلَّنا وإيَّاكُمْ دارَ المُقامةِ مِنْ فضلِهِ ، إنَّهُ حميدٌ مجيدٌ)[2]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الأيامُ سهامٌ ، والناسُ أغراضٌ ، والدهرُ يرميكَ كلَّ يومٍ بسهامِهِ ، ويخترمُكَ بلياليهِ وأيامِهِ ، حتَّىٰ يستغرقَ جميعَ أجزائِكَ ، فكمْ بقاءُ سلامتِكَ معَ وقوعِ الأيامِ بكَ ، وسرعةِ الليالي في بدنِكَ ؟ لوْ كُشفَ لكَ عمَّا أحدثَتِ الأيامُ فيكَ مِنَ النقصِ . . لاستوحشْتَ مِنْ كلِّ يومٍ يأتي عليكَ ، واستثقلْتَ ممرَّ الساعاتِ بكَ ، ولٰكنْ تدبيرُ اللهِ سبحانَهُ فوقَ تدبيرِ الاعتبارِ ، وبالسلوِّ عنْ غوائلِ الدُّنيا وُجِدَ طعمُ لذاتِها ، وإنَّها لأمَرُّ مِنَ العلقمِ إذا عجمَها الحكيمُ[3] ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١/١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢١٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٦٤) .

(٣) عجمها ؛ يقال : عجمَ الشيء يعجمه عجماً ؛ عضَّه ليعلم صلابته من خوره ، وكذا العين تعجم إذا نظرت فاحصة مختبرة .

وقدْ أعيتِ الواصفَ لعيوبِها بظاهرِ أفعالِها ، وما تأتي بهِ مِنَ العجائبِ أكثرُ ممَّا يحيطُ بِهِ الواعظُ ، فنستوهبُ اللهَ رشداً إلى الصوابِ)[1]

وقالَ بعضُ الحكماءِ وقدِ استُوصفَ الدُّنيا وقدْرَ بقائِها : (الدُّنيا وقتُكَ الذي يرجعُ إليكَ فيهِ طرفُكَ ؛ لأنَّ ما مضىٰ عنكَ . . فقدْ فاتَكَ إدراكُهُ ، وما لمْ يأتِ . . فلا علمَ لكَ بهِ ، والدَّهرُ يومٌ مقبلٌ تنعاهُ ليلتُهُ ، وتطويهِ ساعتُهُ ، وأحداثُهُ تتوالىٰ على الإنسانِ بالتغييرِ والنقصانِ ، والدهرُ موكَّلٌ بتشتيتِ الجماعاتِ ، وانخرامِ الشَّملِ ، وتنقُّلِ الدُّولِ ، والأملُ طويلٌ ، والعمرُ قصيرٌ ، وإلى اللهِ تصيرُ الأمورُ)[2]

وخطبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ فقالَ : (أيُّها الناسُ ؛ إنَّكُمْ خُلِقتُمْ لأمرٍ إنْ كنتُمْ تصدِّقُونَ بهِ . . إنَّكُمْ حمقىٰ ، وإنْ كنتُمْ تكذِّبونَ بهِ . . إنَّكُمْ لهلكىٰ ، إنَّما خُلِقتُمْ للأبدِ ، ولـٰكنَّكُمْ مِنْ دارٍ إلىٰ دارٍ تُنقلونَ ، عبادَ اللهِ ؛ إنَّكُمْ في دارٍ لكُمْ فيها مِنْ طعامِكُمْ غصصٌ ، ومِنْ شرابِكُمْ شَرَقٌ ، لا تصفُو لكُمْ نعمةٌ تُسرُّونَ بها إلَّا بفراقِ أخرىٰ تكرهونَ فراقَها ، فاعملُوا لما أنتُمْ صائرونَ إليهِ ، وخالدونَ فيهِ) ، ثمَّ غلبَهُ البكاءُ فنزلَ[3]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنْهُ في خطبتِهِ : (أوصيكُمْ بتقوى اللهِ ، والتركِ للدُّنيا التاركةِ لكُمْ وإنْ كنتُمْ لا تحبونَ تركَها ، المبليةِ أجسامَكُمْ وإنْ كنتُمْ تريدونَ تجديدَها ، فإنَّما مثلُكُمْ ومثلُها كمَثَلِ سَفْرٍ سلكُوا طريقاً وكأنَّهُمْ قدْ قطعُوهُ ، وأفضَوا إلىٰ عَلَمٍ فكأنَّهُمْ بلغُوهُ ، وكمْ عسىٰ أنْ يجريَ المجرىٰ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الغايةِ ؟ وكمْ عسىٰ أنْ يبقىٰ مَنْ لَهُ يومٌ في الدُّنيا وطالبٌ حثيثٌ يطلبُهُ حتَّىٰ يفارقَها ؟ فلا تجزعُوا لبؤسِها وضرَّائِها ؛ فإنَّهُ إلى انقطاعٍ ، ولا تفرحُوا بنعيمِها ؛ فإنَّهُ إلىٰ زوالٍ ، عجبتُ لطالبِ الدُّنيا والموتُ يطلبُهُ ، وغافلٍ وليسَ بمغفولٍ عنْهُ)[4]

وقالَ محمدُ بنُ الحسينِ[5] : (لمَّا علمَ أهلُ العقلِ والعلمِ والمعرفةِ والأدبِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ أهانَ الدُّنيا ، وأنَّهُ لمْ يرضَها لأوليائِهِ ، وأنَّها عندَهُ حقيرةٌ قليلةٌ ، وأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ زهدَ فيها ، وحذَّرَ أصحابَهُ مِنْ فتنتِها . . أكلُوا منها قصداً ، وقدَّمُوا فضلاً ، وأخذُوا مِنْها ما يكفي ، وتركُوا ما يُلهِي ، لبسوا مِنَ الثيابِ ما سترَ العورةَ ، وأكلُوا مِنَ الطعامِ أدناهُ ممَّا سدَّ الجوعةَ ، نظرُوا إلى الدُّنيا بعينِ أنَّها فانيةٌ ، وإلى الآخرةِ أنَّها باقيةٌ ، فتزوَّدُوا مِنَ الدُّنيا كزادِ الراكبِ ، فخرَّبُوا الدُّنيا ، وعمرُوا بها الآخرةَ ، ونظرُوا إلى الآخرةِ بقلوبِهِمْ ، فعلمُوا أنَّهُمْ سينظرونَ إليها بأعينِهِمْ ، فارتحلُوا إليها بقلوبِهِمْ لمَّا علمُوا أنَّهُمْ سيرتحلُونَ إليها بأبدانِهِمْ ، صبروا قليلاً وتنعَّموا طويلاً ، كلُّ ذٰلكَ بتوفيقِ مولاهُمُ الكريمِ ، أحبُّوا ما أحبَّ لهُمْ ، وكرهُوا ما كرهَ لهُمْ) .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٥٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤١٤) .

(٥) في (ب) : (الحسن) بدل (الحسين) .

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا سريعةُ الفناءِ ، قريبةُ الانقضاءِ ، تعِدُ بالبقاءِ ، ثمَّ تُخلِفُ بالوفاءِ ، تنظرُ إليها فتراها ساكنةً مستقرَّةً ، وهيَ سائرةٌ سيراً عنيفاً ، ومرتحلةٌ ارتحالاً سريعاً ، ولـٰكنَّ الناظرَ إليها قدْ لا يحسُّ بحركتِها ، فيطمئنُّ إليها ، وإنَّما يحسُّ عندَ انقضائِها .

❀ ❀ ❀

ومثالُها : الظِّلُّ ، فإنَّهُ متحركٌ ساكنٌ ، متحركٌ في الحقيقةِ ، ساكنٌ في الظاهرِ ، لا تُدركُ حركتُهُ بالبصرِ الظاهرِ ، بلْ بالبصيرةِ الباطنةِ .

ولمَّا ذكرتِ الدُّنيا عندَ الحسنِ البصريِّ رحمةُ اللهِ عليهِ . . أنشدَ[1] : [من الكامل]

أَحْـــلامُ نَـــوْمٍ أَوْ كَـظِـلٍّ زائِـــلٍ ... إِنَّ الـلَّـبِـيـبَ بِـمِـثْـلِـهـا لا يُـخْـدَعُ

وكانَ الحسنُ بنُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُما يتمثلُ ويقولُ[2] : [من البسيط]

يـا أَهْـلَ لَـذَّاتِ دُنْـيـا لا بَـقـاءَ لَـهـا ... إِنَّ اغْـتِـراراً بِـظِـلٍّ زائِـلٍ حُـمُـقُ

وقيلَ : إنَّ هـٰذا مِنْ قولِهِ .

ويُقالُ : نزلَ أعرابيٌّ بقومٍ ، فقدَّموا إليهِ طعاماً ، فأكلَ ، ثمَّ قامَ إلىٰ ظلِّ خيمةٍ لهُمْ ، فنامَ هناكَ ، فاقتلعُوا الخيمةَ ، فأصابَتْهُ الشمسُ ، فانتبهَ وقامَ وهوَ يقولُ : [من الطويل]

أَلا إِنَّـمـا الـدُّنْـيـا كَـظِـلٍّ بَـنَـيْـتَـهُ ... وَلا بُـدَّ يَـوْماً أَنَّ ظِـلَّـكَ زائِـلُ[3]

وكذٰلكَ قيلَ[4] : [من الطويل]

وَإِنَّ امْـرَأً دُنْـيـاهُ أَكْـبَـرُ هَـمِّـهِ ... لَـمُـسْـتَـمْـسِـكٌ مِـنْـهـا بِـحَـبْـلِ غُـرُورِ

مثالٌ آخرُ :

الدُّنيا مِنْ حيثُ التغريرُ بخيالاتِها ، ثمَّ الإفلاسُ مِنْها بعدَ إفلاتِها . . تشبهُ خيالاتِ المنامِ ، وأضغاثَ الأحلامِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا حلمٌ ، وأهلُها عليها مجازونَ ومعاقبونَ »[5]

وقالَ يونسُ بنُ عبيدٍ : (ما شبَّهتُ نفسي في الدُّنيا إلَّا كرجلٍ نامَ ، فرأىٰ في منامِهِ ما يكرَهُ وما يحبُّ ، فبينَما هوَ كذٰلكَ إذِ انتبهَ)[6] ، فكذٰلكَ الناسُ نيامٌ ، فإذا ماتُوا . . انتبهُوا[7] ، فإذا ليسَ بأيديهِمْ شيءٌ ممَّا ركنُوا إليهِ وفرحُوا بهِ .

---

(١) البيت منسوب إلىٰ عمران بن حطان ، انظر « شعر الخوارج » (ص ١٥٥) ، وإلى ابن أبي حصينة في « ديوانه » (٣٧٦/١) .
(٢) انظر « ربيع الأبرار » (٧٠/١) ، و« المدهش » (٣٩٥/١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٥) .
(٤) انظر « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٦٩) ، و« ربيع الأبرار » (٤٦/١) .
(٥) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (١٠٧/٨) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٢) .
(٧) تقدم أنه من قول سفيان الثوري .

وقيلَ لحكيمٍ : أيُّ شيءٍ أشبهُ بالدُّنيا ؟ قالَ : أحلامُ النائمِ [1]

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في عداوتِها لأهلِها ، وإهلاكِها بنيها :

اعلمْ : أنَّ طبعَ الدُّنيا التلطُّفُ في الاستدراجِ أوَّلاً ، والتوصُّلُ إلى الإهلاكِ آخراً ، وهيَ كامرأةٍ تتزيَّنُ للخطَّابِ ، حتَّىٰ إذا نكحَتْهُمْ . . ذبحَتْهُمْ .

وقدْ رُويَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ كُوشفَ بالدُّنيا ، فرآها في صورةِ عجوزٍ هتماءَ ، عليها مِنْ كلِّ زينةٍ ، فقالَ لها : كمْ تزوجتِ ؟ قالَتْ : لا أحصيهِمْ ، قالَ : فكلُّهُمْ ماتَ عنكِ أوْ كلُّهُمْ طلقَكِ ؟ قالَتْ : بلْ كلُّهُمْ قتلتُ ، فقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : بؤساً لأزواجِكِ الباقينَ كيفَ لا يعتبرونَ بأزواجِكِ الماضينَ ؟! كيفَ تهلكينَهُمْ واحداً بعدَ واحدٍ ولا يكونونَ منكِ علىٰ حذرٍ ؟! [2]

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في مخالفةِ باطنِها لظاهرِها :

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا مزيَّنةُ الظَّواهرِ ، قبيحةُ السرائرِ ، وهيَ تشبهُ عجوزاً متزيّنةً تخدعُ الناسَ بظاهرِها ، فإذا وقفوا علىٰ باطنِها ، وكشفوا القناعَ عنْ وجهِها . . تمثلَتْ لهُمْ قبائحُها ، فندموا على اتباعِها ، وخجلوا مِنْ ضعفِ عقولِهِمْ في الاغترارِ بظاهرِها .

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (رأيتُ في المنامِ عجوزاً كبيرةً مُتغضِّنةَ الجلدِ ، عليها مِنْ كلِّ زينةِ الدُّنيا ، والناسُ عُكُوفٌ عليها متعجِّبونَ ينظرونَ إليها ، فجئتُ ونظرتُ وتعجَّبتُ مِنْ نظرِهِمْ إليها ، وإقبالِهِمْ عليها ، فقلتُ لها : ويلَكِ !! مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أوَما تعرفُني ؟! قلتُ : لا ، ما أدري مَنْ أنتِ ، قالَتْ : فإنّي أنا الدُّنيا ، قلتُ : أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ ، قالَتْ : فإنْ أحببتَ أنْ تُعاذَ مِنْ شرِّي . . فأبغضِ الدرهمَ) [3]

وقالَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ : (رأيتُ الدُّنيا في النومِ عجوزاً مشوَّهةً شمطاءَ ، تصفِّقُ بيديها ، وخلفَها خلقٌ يتبعونَها يصفِّقونَ ويرقصُونَ ، فلمَّا كانَتْ بحذائي . . أقبلَتْ عليَّ ، فقالَتْ : لوْ ظفرتُ بكَ . . لصنعتُ بكَ ما صنعتُ بهـٰؤلاءِ) ، ثمَّ بكىٰ أبو بكرٍ ، وقالَ : (رأيتُ هـٰذا قبلَ أنْ أقدمَ إلىٰ بغدادَ) [4]

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (يُؤتىٰ بالدُّنيا يومَ القيامةِ في صورةِ عجوزٍ شمطاءَ زرقاءَ ، أنيابُها باديةٌ ، مشوَّهٌ خَلْقُها ، فتشرفُ على الخلائقِ ، فيُقالُ : أتعرفونَ هـٰذهِ ؟ فيقولونَ : نعوذُ باللهِ مِنْ معرفةِ هـٰذهِ ، فيُقالُ : هـٰذهِ الدُّنيا التي تناحرتُمْ عليها ، بها تقاطعتُمُ الأرحامَ ، وبها تحاسدتُمْ وتباغضتُمْ واغتررتُمْ ، ثمَّ تُقذفُ في جهنَّمَ ، فتنادي : أيْ ربِّ ؛ أينَ أتباعي وأشياعي ؟ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ألحقُوا بها أتباعَها وأشياعَها) [5]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧) ، وقوله : (هتماء) أي : مكسورة الأسنان .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٣) .

وقالَ الفضيلُ : (بلغَني أنَّ رجلاً عُرِجَ بروحِهِ ؛ فإذا امرأةٌ علىٰ قارعةِ الطريقِ ، عليها مِنْ كلِّ زينةٍ مِنَ الحليِّ والثيابِ ، وإذا لا يمرُّ بها أحدٌ . . إلَّا جرحَتْهُ ، وإذا هيَ أدبرَتْ . . كانَتْ أحسنَ شيءٍ رآهُ الناسُ ، وإذا أقبلَتْ . . كانَتْ أقبحَ شيءٍ رآهُ الناسُ ، عجوزٌ شمطاءُ ، زرقاءُ عمشاءُ ، قالَ : فقلتُ : أعوذُ باللهِ منكِ ، قالَتْ : لا واللهِ ؛ لا يعيذُكَ اللهُ منِّي حتَّىٰ تبغضَ الدرهمَ ، قلتُ : مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أنا الدُّنيا)[1]

❀ ❀ ❀

مثالٌ آخرُ للدُّنيا وعبورِ الإنسانِ بها :

اعلمْ : أنَّ الأحوالَ ثلاثةٌ : حالةٌ لمْ تكنْ فيها شيئاً ، وهيَ ما قبلَ وجودِكَ إلى الأزلِ ، وحالةٌ لا تكونُ فيها مشاهداً للدُّنيا ، وهيَ ما بعدَ موتِكَ إلى الأبدِ ، وحالةٌ متوسطةٌ بينَ الأبدِ والأزلِ ، وهيَ أيامُ حياتِكَ في الدُّنيا ، فانظرْ إلىٰ مقدارِ طولِها وانسبْهُ إلىٰ طرفَيِ الأزلِ والأبدِ ؛ حتَّىٰ تعلمَ أنَّهُ أقلُّ مِنْ منزلٍ قصيرٍ في سفرٍ طويلٍ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لي وللدُّنيا ، إنَّما مَثلي ومَثلُ الدُّنيا كمثَلِ راكبٍ سارَ في يومٍ صائفٍ ، فرُفِعَتْ لهُ شجرةٌ ، فقالَ تحتَ ظلِّها ساعةً ، ثمَّ راحَ وتركَها »[2]

ومَنْ رأى الدُّنيا بهٰذهِ العينِ . . لمْ يركُنْ إليها ، ولمْ يبالِ كيفَ انقضَتْ أيامُهُ ؛ في ضرٍّ وضيقٍ ، أوْ في سعةٍ ورفاهيةٍ ، بلْ لا يبني لبنةً علىٰ لبنةٍ ، تُوفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما وضعَ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ[3]

ورأىٰ بعضَ الصحابةِ يبني بيتاً مِنَ خُصٍّ ، فقالَ : « ما أرى الأمرَ إلا أعجلَ مِنْ ذٰلكَ » ، وأنكرَ ذٰلكَ[4]

وإلىٰ هٰذا أشارَ عيسىٰ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : (الدُّنيا قنطرةٌ ، فاعبروها ولا تعمروها)[5]

وهوَ مثالٌ واضحٌ ؛ فإنَّ الحياةَ الدُّنيا معبرٌ إلى الآخرةِ ، والمهدُ هوَ الميلُ الأولُ علىٰ رأسِ القنطرةِ ، واللَّحدُ هوَ الميلُ الثاني ، وبينَهُما مسافةٌ محدودةٌ ، فمِنَ الناسِ مَنْ قطعَ نصفَ القنطرةِ ، ومنهُمْ مَنْ قطعَ ثلثَها ، ومنهُمْ مَنْ قطعَ ثلثيها ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يبقَ لهُ إلا خطوةٌ واحدةٌ وهوَ غافلٌ عنها ، وكيفمَا كانَ . . فلا بدَّ لهُ مِنَ العبورِ ، فالبناءُ على القنطرةِ وتزيينُها بأصنافِ الزينةِ وأنتَ عابرٌ عليها . . غايةُ الجهلِ والخذلانِ .

❀ ❀ ❀

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في لينِ موردِها وخشونةِ مصدرِها :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٧) ، وابن ماجه (٤١٠٩) .

(٣) فقد روى الطبراني في « الأوسط » (٣٢٦٥) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من سأل عني أو سرّه أن ينظر إلي . . فلينظر إلىٰ أشعث شاحب مشمّر ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة ، رفع إليه عَلَم فشمَّر إليه ، اليوم المضمار وغداً السباق ، والغاية الجنة والنار » . وروى ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٣٩) عن عمر بن عبد العزيز وكان لا يبني بنياناً : (سنة رسول الله خير من الدنيا وما فيها ، لم يبن بنياناً ، ولم يضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة) .

(٤) رواه أبو داوود (٥٢٣٥) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وكان قد مرَّ صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن عمرو وهو يطيّن مع أمه حائطاً له .

(٥) كذا في « القوت » (٢٥٦/١) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) .

اعلمْ : أنَّ أوائلَ أمورِ الدنيا تبدو هيِّنةً ليِّنةً ، يظنُّ الخائضُ فيها أنَّ حلاوةَ خفضِها كحلاوةِ الخوضِ فيها ، وهيهاتَ !! فإنَّ الخوضَ في الدُّنيا سهلٌ ، والخروجَ مِنْها معَ السلامةِ شديدٌ .

وقدْ كتبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ بمثالِها ، فقالَ : (مثلُ الدُّنيا مثلُ الحيَّةِ ليِّنٌ مسُّها ، ويقتلُ سمُّها ، فأعرضْ عمَّا يعجبُكَ مِنْها لقلةِ ما يصحبُكَ مِنْها ، وضعْ عنكَ همومَها لما أيقنتَ مِنْ فراقِها ، وكنْ أسرَّ ما تكونُ فيها أحذرَ ما تكونُ لها ؛ فإنَّ صاحبَها كلَّما اطمأنَّ مِنْها إلىٰ سرورٍ . . أشخصَهُ عنهُ مكروهٌ ، والسلامُ) [١]

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في تعذُّرِ الخلاصِ مِنْ تبعاتِها بعدَ الخوضِ فيها :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما مَثَلُ صاحبِ الدُّنيا كمثَلِ الماشي في الماءِ ، هلْ يستطيعُ الذي يمشي في الماءِ ألَّا تبتلَّ قدماهُ ؟! » [٢]

وهـٰذا يعرِّفُكَ جهالةَ قومٍ ظنُّوا أنَّهُمْ يخوضُونَ في نعيمِ الدُّنيا بأبدانِهِمْ وقلوبُهُمْ عنها مطهَّرةٌ ، وعلائقُها عَنْ بواطنِهِمْ منقطعةٌ ، وذٰلكَ مكيدةٌ مِنَ الشيطانِ ، بلْ لوْ أُخرِجُوا ممَّا همْ فيهِ . . لكانوا أعظمَ المتفجِّعينَ بفراقِها ، فكما أنَّ المشيَ على الماءِ يقتضي بللاً لا محالةَ يلتصقُ بالقدمِ ، فكذٰلكَ ملابسةُ الدُّنيا تقتضي علاقةً وظلمةً في القلبِ ، بلْ علاقةُ القلبِ معَ الدُّنيا تمنعُ حلاوةَ العبادةِ .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بحقٍّ أقولُ لكُمْ : كما ينظرُ المريضُ إلى الطعامِ فلا يلتذُّ بهِ مِنْ شدَّةِ الوجعِ ؛ كذٰلكَ صاحبُ الدُّنيا لا يلتذُّ بالعبادةِ ولا يجدُ حلاوتَها معَ ما يجدُ مِنْ حبِّ الدُّنيا ، وبحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ الدابَّةَ إذا لَمْ تُركبْ وتُمتهَنْ . . تصعَّبَتْ وتغيَّرَ خُلُقُها ؛ كذٰلكَ القلوبُ إذا لَمْ تُرقَّقْ بذكرِ الموتِ وبنصَبِ العبادةِ . . تقسو وتغلظُ ، بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ الزِّقَّ ما لَمْ يتَخرَّقْ أوْ يقحَلْ [٣] يوشكُ أنْ يكونَ وعاءً للعسلِ ؛ كذٰلكَ القلوبُ ما لَمْ تخرقْها الشهواتُ أوْ يدنِّسْها الطمعُ أوْ يقسِّها النعيمُ فسوفَ تكونُ أوعيةً للحكمةِ) [٤]

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما بقيَ مِنَ الدُّنيا بلاءٌ وفتنةٌ ، وإنَّما مثلُ عملِ أحدِكُمْ كمثَلِ الوعاءِ إذا طابَ أعلاهُ . . طابَ أسفلُهُ ، وإذا خبُثَ أعلاهُ . . خبُثَ أسفلُهُ » [٥]

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ لما بقيَ مِنَ الدُّنيا وقلَّتِهِ بالإضافةِ إلىٰ ما سبقَ :

قالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ هـٰذهِ الدُّنيا مثلُ ثوبٍ شُقَّ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٩) عن الحسن بلاغاً ، ووصله في « الشعب » (٩١٤١) ، وفي « الزهد الكبير » (٢٥٧) عن الحسن عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) أي : ييبس .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٠) .

(٥) رواه ابن ماجه (٤١٩٩) ولم يذكر صدره ، وهو بتمامه عند أحمد في « المسند » (٤/ ٩٤) .

فبقيَ متعلِّقاً بخيطٍ في آخرِهِ ، فيوشكُ ذٰلكَ الخيطُ أنْ ينقطعَ »[١]

❀ ❀ ❀

مثالٌ آخرُ لتأديةِ علائقِ الدُّنيا بعضِها إلىٰ بعضٍ حتَّى الهلاكِ :

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثَلُ طالبِ الدُّنيا مثَلُ شاربِ ماءِ البحرِ ، كلَّما ازدادَ شرباً . . ازدادَ عطشاً حتَّىٰ يقتلَهُ)[٢]

❀ ❀ ❀

مثالٌ آخرُ لمخالفةِ آخرِ الدُّنيا أولَها ، ولنضارةِ أوائلِها وخبثِ عواقبِها :

اعلمْ : أنَّ شهواتِ الدُّنيا في القلبِ لذيذةٌ ؛ كشهواتِ الأطعمةِ في المعدةِ ، وسيجدُ العبدُ عندَ الموتِ لشهواتِ الدُّنيا في قلبِهِ مِنَ الكراهةِ والنتنِ والقبحِ ما يجدُهُ للأطعمةِ اللذيذةِ إذا بلغَتْ في المعدةِ غايتَها ، وكما أنَّ الطعامَ كلَّما كانَ ألذَّ طعماً ، وأكثرَ دسماً ، وأظهرَ حلاوةً . . كانَ رجيعُهُ أقذرَ وأشدَّ نتناً ؛ فكذٰلكَ كلُّ شهوةٍ في القلبِ هيَ أشهىٰ وألذُّ وأقوىٰ فنَتْنُها وكراهتُها والتأذِّي بها عندَ الموتِ أشدُّ ، بلْ هيَ في الدُّنيا مشاهدةٌ ؛ فإنَّ مَنْ نُهبَتْ دارُهُ وأُخِذَ أهلُهُ وولدُهُ ومالُهُ . . فتكونُ مصيبتُهُ وألمُهُ وتفجُّعُهُ فِي كلِّ ما فقدَهُ بقدْرِ لذَّتِهِ بهِ ، وحبِّهِ لهُ وحرصِهِ عليهِ ، فكلُّ ما كانَ عندَ الوجودِ أشهىٰ عندَهُ وألذَّ . . فهوَ عندَ الفقدِ أدهىٰ وأمرُّ ، وما للموتِ معنىً إلا فقدُ ما في الدُّنيا .

وقدْ رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للضحَّاكِ بنِ سفيانَ الكلابيِّ : « ألستَ تُؤتَىٰ بطعامِكَ وقَدْ مُلِّحَ وقُزِّحَ ثمَّ تشربُ عليهِ اللَّبنَ والماءَ ؟ » قالَ : بلىٰ ، قالَ : « فإلامَ يصيرُ ؟ » قالَ : إلىٰ ما قدْ علمتَ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضربَ مثلَ الدُّنيا لما يصيرُ إليهِ طعامُ ابنِ آدمَ »[٣]

وقالَ أبيُّ بنُ كعبٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الدُّنيا ضُرِبَتْ مثلاً لابنِ آدمَ ، فانظرْ إلىٰ ما يخرجُ مِنِ ابنِ آدمَ وإنْ قزَّحَهُ وملَّحَهُ إلامَ يصيرُ ؟ »[٤]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ضربَ الدُّنيا لمطعمِ ابنِ آدمَ مثلاً ، وضربَ مطعمَ ابنِ آدمَ للدُّنيا مثلاً وإنْ قزَّحَهُ وملَّحَهُ » ، وقالَ الحسنُ : (قدْ رأيتُهُمْ يطيبونَهُ بالأفاويهِ والطيبِ ، ثمَّ يرمونَ بهِ حيثُ رأيتُمْ)[٥]

وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ : (إلىٰ رجيعِهِ)[٦]

وقالَ رجلٌ لابنِ عمرَ : إنِّي أريدُ أنْ أسألَكَ وأستحيي ، قالَ : فلا تستحيِ وسلْ ، قالَ : إذا قضىٰ أحدُنا حاجتَهُ فقامَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣١/٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٤٦) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٥٢/٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٩٩/٨) ، وليس فيه ذكر الملح والقزح ، **والقِزْح** : الأبزار التي يستصلح بها الطعام .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٩٤) .

(٥) كذا روى المرفوع مع قول الحسن ابنُ المبارك في « الزهد » (٤٩٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٦٤) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٣) .

ينظرُ إلىٰ ذٰلكَ منهُ ؟! قالَ : نعمْ ، إنَّ الملكَ يقولُ لهُ : انظرْ ، هـٰذا ما بخلتَ بهِ ، انظرْ إلىٰ ماذا صارَ [١]

وكانَ بُشيرُ بنُ كعبٍ يقولُ : انطلقُوا حتَّىٰ أريَكُمُ الدُّنيا ، فيذهبُ بهِمْ إلىٰ مزبلةٍ ، فيقولُ : انظرُوا إلىٰ ثمارِهِمْ ، ودجاجِهِمْ ، وعسلِهِمْ ، وسمنِهِمْ [٢]

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ في نسبةِ الدُّنيا إلى الآخرةِ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الدُّنيا في الآخرةِ إلا مثلُ ما يجعلُ أحدُ كُمْ إصبَعَهُ في اليمِّ ، فلينظُرْ بمَ يرجعُ إليهِ » [٣]

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ للدُّنيا وأهلِها في اشتغالِهِمْ بنعيمِ الدُّنيا وغفلتِهِمْ عنِ الآخرةِ وحسراتِهِمُ العظيمةِ بسببِها :

اعلمْ : أنَّ أهلَ الدُّنيا في غفلَتِهِمْ مثلُهُمْ مثلُ قومٍ ركبوا سفينةً ، فانتهَتْ بهِمْ إلىٰ جزيرةٍ ، فأمرَهُمُ الملَّاحُ بالخروجِ لقضاءِ الحاجةِ ، وحذَّرَهُمُ المقامَ وخوفَهُمْ مرورَ السفينةِ واستعجالَها ، فتفرَّقُوا في نواحي الجزيرةِ ، فقضىٰ بعضُهُمْ حاجتَهُ ، وبادرَ إلى السفينةِ ، فصادفَ المكانَ خالياً ، فأخذَ أوسعَ الأماكنِ وألينَها وأوفقَها لمرادِهِ .

وبعضُهُمْ توقَّفَ في الجزيرةِ ينظرُ إلىٰ أنوارِها وأزهارِها العجيبةِ ، وغياضِها الملتفَّةِ ، ونغماتِ طيورِها الطيبةِ ، وألحانِها الموزونةِ الغريبةِ ، وصارَ يلحظُ مِنْ تربتِها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفةَ الألوانِ والأشكالِ ، الحسنةَ المنظرِ ، العجيبةَ النقوشِ ، السالبةَ أعينَ الناظرينَ بحسنِ زِبْرِجِها وعجائبِ صورِها ، ثمَّ تنبَّهَ لخطرِ فواتِ السفينةِ ، فرجعَ إليها ، فلمْ يصادفْ إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقرَّ فيهِ .

وبعضُهُمْ أكبَّ علىٰ تلكَ الأصدافِ والأحجارِ ، وأعجبَهُ حسنُها ، ولمْ تسمحْ نفسُهُ بإهمالِها ، فاستصحَبَ منها جملةً ، فلمْ يجدْ في السفينةِ إلا مكاناً ضيقاً ، وزادَهُ ما حملَهُ مِنَ الحجارةِ ضيقاً ، وصارَ ثقلاً عليهِ ووبالاً ، فندمَ علىٰ أخذِهِ ولم يقدرْ علىٰ رميهِ ، ولمْ يجدْ مكاناً لوضعِهِ فحملَهُ في السفينةِ علىٰ عنقِهِ ، وهوَ متأسِّفٌ علىٰ أخذِهِ ، وليسَ ينفعُهُ التأسُّفُ .

وبعضُهُمْ تولَّجَ الغياضَ ، ونسيَ المركبَ ، وبعُدَ في متفرَّجِهِ ومتنزَّهِهِ ، حتَّىٰ لمْ يبلغْهُ نداءُ الملَّاحِ ؛ لاشتغالِهِ بأكلِ تلكَ الثمارِ ، واشتمامِ تلكَ الأنوارِ ، والتفرُّجِ بينَ تلكَ الأشجارِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ خائفٌ علىٰ نفسِهِ مِنَ السباعِ ، وغيرُ خالٍ مِنَ السقطاتِ والنكباتِ ، ولا ينفكُّ عنْ شوكٍ يتشبَّثُ بثيابِهِ ، وغصنٍ يجرحُ بدنَهُ ، وشوكةٍ تدخلُ في رِجْلِهِ ، وصوتٍ هائلٍ يفزعُ مِنْهُ ، وعوسَجٍ يخرقُ ثيابَهُ ويهتِكُ عورتَهُ ، ويمنعُهُ عنِ الانصرافِ لوْ أرادَهُ ، فلمَّا بلغَهُ نداءُ أهلِ السفينةِ . . انصرفَ بعضُهُمْ مثقلاً بما معَهُ ولمْ يجدْ في المركبِ موضعاً ، فبقيَ على الشطِّ حتَّىٰ ماتَ جوعاً ، وبعضُهُمْ لمْ يبلغْهُ

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١١٢/٨) ، وفي « القوت » (٢٤٤/١) : (وكذٰلك روينا في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، قيل : مواضع الغائط والبول) .
(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١١٣/٨) .
(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨) .

النداءُ ، وسارَتِ السفينةُ ، فمنهُمْ مَنِ افترسَتْهُ السباعُ ، ومنهُمْ مَنْ تاهَ فهامَ علىٰ وجهِهِ حتَّىٰ هلَكَ ، ومنهُمْ مَنْ ماتَ في الأوحالِ ، ومنهُمْ مَنْ نهشَتْهُ الحيَّاتُ ، وتفرقُوا كالجيفِ المنتنةِ .

وأما مَنْ وصلَ إلى المركبِ بثقلِ ما أخذَهُ مِنَ الأزهارِ والأحجارِ المزبرجةِ . . فقدِ استرقَّتْهُ ، وشغلَهُ الحزنُ بحفظِها ، والخوفُ مِنْ فوتِها ، وقدْ ضيَّقَتْ عليهِ مكانَهُ ، فلمْ يلبثْ أنْ ذبلَتْ تلكَ الأزهارُ ، وكمدَتْ ألوانُ الأحجارِ ، وظهرَ نتْنُ رائحتِها ، فصارَتْ معَ كونِها مضيِّقةً عليهِ مؤذيةً لهُ بنتْنِها ووحشتِها ، فلمْ يجدْ حيلةً إلَّا أنْ ألقاها في البحرِ هرباً مِنْها ، وقدْ أثَّرَ فيهِ ما أكلَ مِنْها ، فلمْ ينتهِ إلى الوطنِ إلَّا بعدَ أنْ ظهرَتْ عليهِ الأسقامُ بتلكَ الروائحِ ، فبلغَ سقيماً مدبراً .

ومَنْ رجعَ قريباً . . فما فاتَهُ إلا سعةُ المحلِّ ، فتأذَّىٰ بضيقِ المكانِ مدّةً ، ولٰكنْ لمَّا وصلَ إلى الوطنِ . . استراحَ .

ومَنْ رجعَ أوَّلاً . . وجدَ المكانَ الأوسعَ ووصلَ إلى الوطنِ سالماً .

فهٰذا مثالُ أصنافِ أهلِ الدُّنيا في اشتغالِهِمْ بحظوظِهِمُ العاجلةِ ، ونسيانِهِمْ موردَهُمْ ومصدرَهُمْ ، وغفلتِهِمْ عنْ عاقبةِ أمرِهِمْ ، وما أقبحَ مَنْ يزعُمُ أنَّهُ بصيرٌ عاقلٌ أنْ تغرَّهُ أحجارُ الأرضِ وهيَ الذهبُ والفضةُ ، وهشيمُ النبتِ ، وهيَ زينةُ الدُّنيا ، وشيءٌ مِنْ ذٰلكَ لا يصحَبُهُ عندَ الموتِ !! بلْ يصيرُ كلّاً ووبالاً عليهِ ، وهوَ في الحالِ شاغلٌ لهُ بالحزنِ والخوفِ عليهِ ، وهٰذهِ حالُ الخلقِ كلِّهِمْ ، إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ لاغترارِ الخلقِ بالدُّنيا وضعفِ إيمانِهِمْ بقولِ اللهِ تعالىٰ في تحذيرِهِ إياهُمْ غوائلَ الدُّنيا :

قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : بلغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأصحابِهِ : « إنَّما مثَلي ومثلُكُمْ ومثَلُ الدُّنيا كمثلِ قومٍ سلكُوا مفازةً غبراءَ ، حتَّىٰ إذا لمْ يدروا ما سلكوا مِنْها أكثرَ ، أو ما بقيَ . . أنفدُوا الزَّادَ ، وحسروا الظَّهرَ[1] ، وبقوا بينَ ظهرانيِ المفازةِ لا زادَ ولا حمولةَ ، فأيقنُوا بالهَلَكَةِ ، فبينا هُمْ كذٰلكَ إذْ خرجَ عليهِمْ رجلٌ في حُلَّةٍ يقطرُ رأسُهُ ، فقالُوا : هٰذا قريبُ عهدٍ بريفٍ ، وما جاءَكُمْ هٰذا إلا مِنْ قريبٍ ، فلمَّا انتهىٰ إليهِمْ . . قالَ : يا هٰؤلاءِ ؛ قالوا : يا هٰذا ؛ قالَ : علامَ أنتُمْ ؟ قالوا : علىٰ ما ترىٰ ؛ قالَ : أرأيتُكُمْ إنْ هديتُكُمْ إلىٰ ماءٍ رُواءٍ ورياضٍ خُضْرٍ ما تعملُونَ ؟ قالوا : لا نعصيكَ شيئاً ، قالَ : عهودَكُمْ ومواثيقَكُمْ باللهِ ، فأعطَوهُ عهودَهُمْ ومواثيقَهُمْ باللهِ لا يعصونَهُ شيئاً ، قالَ : فأوردَهُمْ ماءً رُواءً ورياضاً خضراً ، فمكثَ فيهِمْ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ قالَ : يا هٰؤلاءِ ؛ قالُوا : يا هٰذا ؛ قالَ : الرَّحيلَ ، قالُوا : إلىٰ أينَ ؟ قالَ : إلىٰ ماءٍ ليسَ كمائِكُمْ ، وإلىٰ رياضٍ ليسَتْ كرياضِكُمْ ، فقالَ أكثرُهُمْ : واللهِ ؛ ما وجدنا هٰذا حتَّىٰ ظنَنَّا أنَّا لنْ نجدَهُ ، وما نصنعُ بعيشٍ خيرٍ مِنْ هٰذا ؟ قالَ : وقالَتْ طائفةٌ وهُمْ أقلُّهُمْ : ألمْ تعطوا هٰذا الرَّجلَ عُهُودَكُمْ ومواثيقَكُمْ باللهِ ألا تعصُوهُ شيئاً وقدْ صدقَكُمْ في أوَّلِ حديثِهِ ؟! فواللهِ ؛ ليصدقَنَّكُمْ في آخرِهِ ، فراحَ فيمَنِ اتَّبعَهُ وتخلَّفَ بقيَّتُهُمْ ، فبدَرَ بِهِمْ عدوٌّ ، فأصبحوا مِن بينِ أسيرٍ وقتيلٍ »[2]

❊ ❊ ❊

---

(١) أي : أعروه ، وهو كناية عن هلاك ما يركبونه . « إتحاف » (١١٤/٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٨) عن الحسن بلاغاً ، وروىٰ نحوه أحمد في « مسنده » (٢٦٧/١) ، والطبراني في « الكبير » (٢١٩/١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في رؤيا أريها النبي صلى الله عليه وسلم وحدَّث بها أصحابه ، وأنه صلى الله عليه وسلم مثل الرجل الهادي للقوم .

مثالٌ آخرُ لتنعُّمِ الناسِ بالدُّنيا ثمَّ تفجُّعِهِمْ علىٰ فراقِها :

اعلمْ : أنَّ مثلَ الناسِ فيما أُعطوا مِنَ الدُّنيا مثَلُ رجلٍ هيَّأَ داراً وزيَّنَها ، وهوَ يدعُو إلىٰ دارِهِ على الترتيبِ قوماً واحداً بعدَ واحدٍ ، فدخلَ واحدٌ دارَهُ ، فقُدِّمَ إليهِ طبقُ ذهبٍ عليهِ بخورٌ ورياحينُ ليشَمَّهُ ويتركَهُ لمَنْ يلحقُهُ ، لا ليتملَّكَهُ ويأخذَهُ ، فجهلَ رسمَهُ ، فظنَّ أنَّهُ قدْ وُهِبَ ذٰلكَ لَهُ ، فتعلَّقَ بهِ قلبُهُ لما ظنَّ أنَّهُ لهُ ، فلمَّا استُرجِعَ منهُ . . ضجِرَ وتفجَّعَ ، ومَنْ كانَ عالماً برسمِهِ . . انتفعَ بهِ وشكرَهُ ، وردَّهُ بطيبةِ قلبٍ وانشراحِ صدرٍ .

فكذٰلكَ مَنْ عرفَ سُنَّةَ اللهِ في الدُّنيا . . علمَ أنَّها دارُ ضيافةٍ ، سُبِّلَتْ على المجتازينَ لا على المقيمينَ ؛ ليتزوَّدُوا مِنْها وينتفعُوا بما فيها كما ينتفعُ المسافرونَ بالعواري ، ولا يصرفُونَ إليها كلَّ قلوبِهِمْ حتىٰ تعظُمَ مصيبتُهُمْ عندَ فراقِها .

فهٰذِهِ أمثلةُ الدُّنيا وآفاتِها وغوائلِها ، نسألُ اللهَ تعالى اللطيفَ الخبيرَ حسْنَ العونِ بكرمِهِ وحلمِهِ .

* * *

بيان حقيقة الدّنيا وماهيتها في حقّ العبد

اعلمْ : أنَّ معرفةَ ذمّ الدُّنيا لا تكفيكَ ما لمْ تعرفِ الدُّنيا المذمومةَ ما هيَ ، وما الذي ينبغي أنْ يُجتنبَ مِنْها ، وما الذي لا يُجتنبُ ، فلا بدَّ وأنْ نبيِّنَ الدُّنيا المذمومةَ المأمورَ باجتنابِها ؛ لكونِها عدوةً قاطعةً لطريقِ اللهِ تعالىٰ ما هيَ ؟

فنقولُ : دنياكَ وآخرتُكَ عبارةٌ عنْ حالتينِ مِنْ أحوالِ قلبِكَ ، فالقريبُ الداني مِنْها يُسمَّىٰ دنيا ، وهوَ كلُّ ما قبلَ الموتِ ، والمتراخي المتأخِّرُ يُسمَّىٰ آخرةً ، وهوَ ما بعدَ الموتِ ، فكلُّ ما لكَ فيهِ حظٌّ وغرضٌ ونصيبٌ وشهوةٌ ولذَّةٌ في عاجلِ الحالِ قبلَ الوفاةِ . . فهوَ الدُّنيا في حقِّك .

إلا أنَّ جميعَ ما لكَ إليهِ ميلٌ وفيهِ نصيبٌ وحظٌّ . . فليسَ بمذمومٍ ، بلْ هوَ ثلاثةُ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : ما يصحبُكَ في الآخرةِ ، وتبقىٰ معَكَ ثمرتُهُ بعدَ الموتِ ، وهوَ شيئانِ : العلمُ والعملُ فقطْ .

وأعني بالعلمِ : العلمَ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وملائكتِهِ ، وكتبِهِ ، ورسلِهِ ، وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ ، والعلمِ بشريعةِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وأعني بالعملِ : العبادةَ الخالصةَ لوجهِ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ يأنسُ العالمُ بالعلمِ ، حتَّىٰ يصيرَ ذٰلكَ ألذَّ الأشياءِ عندَهُ ، فيهجرَ النومَ والمنكحَ والمطعمَ في لذَّتِهِ ؛ لأنَّهُ أشهىٰ عندَهُ مِنْ جميعِ ذٰلكَ ، فقدْ صارَ حظّاً عاجلاً في الدُّنيا ، ولـٰكنَّا إذا ذكرنا الدُّنيا المذمومةَ . . لمْ نعدَّ هـٰذا مِنَ الدُّنيا أصلاً ، بلْ قلنا : إنَّهُ مِنَ الآخرةِ .

وكذٰلكَ العابدُ قدْ يأنسُ بعبادتِهِ فيستلذُّها ؛ بحيثُ لوْ مُنِعَ عنها . . لكانَ ذٰلكَ أعظمَ العقوباتِ عليهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : (ما أخافُ مِنَ الموتِ إلا مِنْ حيثُ يحولُ بيني وبينَ قيامِ الليلِ)(١)

وكانَ آخرُ يقولُ : (اللَّهمَّ ؛ ارزقْني قوَّةَ الصلاةِ والركوعِ والسجودِ في القبرِ)(٢) ، فهـٰذا قدْ صارَتِ الصلاةُ مِنْ حظوظِهِ العاجلةِ ، وكلُّ حظٍّ عاجلٍ فاسمُ الدُّنيا ينطلقُ عليهِ مِنْ حيثُ الاشتقاقُ مِنَ الدنوِّ ، ولـٰكنَّا لسنا نعني بالدُّنيا المذمومةِ ذٰلكَ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكُمْ ثلاثٌ : الطِّيبُ والنِّساءُ وقرَّةُ عيني في الصَّلاةِ »(٣) ، فجعلَ الصلاةَ مِنْ جملةِ ملاذِّ الدُّنيا ؛ وذٰلكَ لأنَّ كلَّ ما يدخلُ في الحسِّ والمشاهدةِ فهوَ مِنْ عالمِ الشهادةِ ، وهوَ مِنَ الدُّنيا ، والتلذُّذُ بتحريكِ الجوارحِ بالركوعِ والسجودِ إنَّما يكونُ في الدُّنيا ؛ فلذٰلكَ أضافَها إلى الدُّنيا ، إلَّا أنَّا

---

(١) فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٥/٩) عن أبي سليمان الداراني قوله : (لأهل الطاعة بالهمّ ألذ من أهل اللهو بلهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا) .

(٢) وهو ثابت البناني ، روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣١٩/٢) دعاءه : (اللهم ؛ إن أذنت لأحد أن يصلي في قبره . . فأذن لثابت أن يصلي في قبره) .

(٣) رواه النسائي (٦١/٧) ، وأحمد في « المسند » (١٢٨/٣) ، وليس لفظ (ثلاث) منه ، وتبع المصنف هنا في لفظه صاحب « القوت » (٢٤٩/٢) ، قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (٢١٥٥/٥) : (وقد اشتهر على الألسنة بزيادة « ثلاث » ، وشرحه الإمام أبو بكر بن فورك في جزء مفرد علىٰ ذٰلك ، وكذٰلك ذكره الغزالي في « الإحياء » ، ولم نجد لفظ « ثلاث » في شيء من طرقه المسندة) ، وعلىٰ فرض عدمها لا يمنع ما ذكره المصنف هنا ؛ لنفي قطعية كون الصلاة من الآخرة بالنص .

في هٰذا الكتابِ لسنا نتعرَّضُ إلَّا للدُّنيا المذمومةِ ، فنقولُ : هٰذهِ ليسَتْ مِنَ الدُّنيا .

❀ ❀ ❀

القسمُ الثاني ـ وهوَ المقابلُ لهُ على الطرفِ الأقصىٰ ـ : كلُّ ما فيهِ حظٌّ عاجلٌ ، ولا ثمرةَ لهُ في الآخرةِ أصلاً ؛ كالتلذذِ بالمعاصي كلِّها ، والتنعُّمِ بالمباحاتِ الزائدةِ علىٰ قدرِ الضروراتِ والحاجاتِ ، الداخلةِ في جملةِ الرفاهيةِ والرعوناتِ ؛ كالتنعُّمِ بالقناطيرِ المقنطرةِ مِنَ الذهبِ والفضةِ ، والخيلِ المسوَّمةِ ، والأنعامِ ، والحرثِ ، والغلمانِ ، والجواري ، والخيولِ ، والمواشي ، والقصورِ ، والدورِ ، ورفيعِ الثيابِ ، ولذائذِ الأطعمةِ ؛ فحظُّ العبدِ مِنْ هٰذهِ كلِّها هيَ الدُّنيا المذمومةُ ، وفيما يُعدُّ فضولاً أوْ في محلِّ الحاجةِ نظرٌ طويلٌ ؛ إذْ رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ استعملَ أبا الدرداءِ علىٰ حمصَ ، فاتخذَ كنيفاً أنفقَ عليهِ درهمينِ ، فكتبَ إليهِ عمرُ : (مِنْ عمرَ بنِ الخطابِ أميرِ المؤمنينَ إلىٰ عويمرٍ ، قدْ كانَ لكَ في بناءِ فارسَ والرومِ ما تكتفي بهِ عنْ عمرانِ الدُّنيا حينَ أذنَ اللهُ بخرابِها ، فإذا أتاكَ كتابي هٰذا . . فقدْ سيَّرْتُكَ وأهلَكَ إلىٰ دمشقَ)[(١)] ، فلمْ يزلْ بها حتَّىٰ ماتَ ، فهٰذا رآهُ فضولاً مِنَ الدُّنيا ، فتأملْ فيهِ .

❀ ❀ ❀

القسمُ الثالثُ ـ وهوَ متوسِّطٌ بينَ الطرفينِ ـ : كلُّ حظٍّ في العاجلِ مُعينٍ علىٰ أعمالِ الآخرةِ ؛ كقدْرِ القوتِ مِنَ الطعامِ ، والقميصِ الواحدِ الخشنِ ، وكلِّ ما لا بدَّ منْهُ ليتأتَّىٰ للإنسانِ البقاءُ والصحةُ التي بها يتوصلُ إلى العلمِ والعملِ ، وهٰذا ليسَ مِنَ الدُّنيا كالقسمِ الأولِ ؛ لأنَّهُ مُعينٌ على القسمِ الأوَّلِ ووسيلةٌ إليهِ ، فمهما تناولَهُ العبدُ علىٰ قصدِ الاستعانةِ بهِ على العلمِ والعملِ . . لمْ يكنْ بهِ متناولاً للدُّنيا ، ولمْ يصِرْ بهِ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وإنْ كانَ باعثُهُ الحظَّ العاجلَ دونَ الاستعانةِ على التقوىٰ . . التحقَ بالقسمِ الثاني ، وصارَ مِنْ جملةِ الدُّنيا .

❀ ❀ ❀

ولا يبقىٰ معَ العبدِ عندَ الموتِ إلا ثلاثُ صفاتٍ : صفاءُ القلبِ ـ أعني : طهارتَهُ عنْ أدناسِ الدُّنيا ـ وأنسُهُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وحبُّهُ للهِ تعالىٰ ، وصفاءُ القلبِ وطهارتُهُ لا يحصلانِ إلَّا بالكفِّ عنْ شهواتِ الدُّنيا ، والأنسُ لا يحصلُ إلا بكثرةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ والمواظبةِ عليهِ ، والحبُّ لا يحصلُ إلا بالمعرفةِ ، ولا تحصلُ معرفةُ اللهِ إلا بدوامِ الفكرِ ، وهٰذهِ الصفاتُ الثلاثُ هيَ المنجياتُ المسعداتُ بعدَ الموتِ ، وهيَ الباقياتُ الصالحاتُ .

أمَّا طهارةُ القلبِ عنْ شهواتِ الدُّنيا . . فهيَ مِنَ المنجياتِ ؛ إذْ تكونُ جُنَّةً بينَ العبدِ وبينَ عذابِ اللهِ ؛ كما وردَ في الأخبارِ : « أنَّ أعمالَ العبدِ تناضلُ عنهُ ، فإذا جاءَ العذابُ مِنْ قبَلِ رجليهِ . . جاءَ قيامُ الليلِ يدفعُ عنهُ ، وإذا جاءَ مِنْ قبَلِ يديهِ . . جاءتِ الصَّدقةُ تدفعُ عنهُ . . . » الحديثَ[(٢)]

وأمَّا الأنسُ والحبُّ . . فهما مِنَ المسعداتِ ، وهما موصلانِ العبدَ إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ والمشاهدةِ ، وهٰذهِ السعادةُ تتعجَّلُ عقيبَ الموتِ إلىٰ أنْ يدخلَ أوانُ الرؤيةِ في الجنةِ ، فيصيرُ القبرُ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، وكيفَ لا يكونُ القبرُ عليهِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٦٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٥١) .

(٢) رواه بنحوه وبطوله الطبراني في « الأحاديث الطوال » (٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٦/٣٤) ، وروىٰ أحمد في « مسنده » (٣٥٢/٦) من حديث أسماء رضي الله عنها مرفوعاً : « إذا دخل الإنسان قبره ؛ فإن كان مؤمناً . . أحف به عمله ؛ الصلاة والصيام ، قال : فيأتيه الملك من نحو الصلاة ، فترده ، ومن نحو الصيام فيرده . . . » الحديث .

روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ولمْ يكنْ لهُ إلا محبوبٌ واحدٌ ، وكانَتِ العوائقُ تعوقُهُ عنِ الأنسِ بدوامِ ذكرِهِ ومطالعةِ جمالِهِ ، فارتفعَتِ العوائقُ ، وأفلَتَ مِنَ السجنِ ، وخُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، فقدمَ عليهِ مسروراً سليماً مِنَ الموانعِ ، آمناً مِنَ الفراقِ ؟!

وكيفَ لا يكونُ محبُّ الدُّنيا عندَ الموتِ معذَّباً ولَمْ يكنْ لهُ محبوبٌ إلا في الدُّنيا ، وقد غُصِبَ منهُ ، وحيلَ بينَهُ وبينَهُ ، وسُدَّتْ عليهِ طرُقُ الحيلةِ في الرجوعِ إليهِ ؟! : [من السريع]

ما حالُ مَنْ كانَ لَهُ واحِدٌ غُيِّبَ عَنْهُ ذَلِكَ الْواحِدُ[1]

وليسَ الموتُ عدماً ، إنَّما هوَ فراقٌ لمحابِّ الدُّنيا ، وقدومٌ على اللهِ تعالىٰ .

فإذاً ؛ سالكُ طريقِ الآخرةِ هوَ المواظبُ علىٰ أسبابِ هٰذهِ الصفاتِ الثلاثِ ؛ وهيَ الذكرُ ، والفكرُ ، والعملُ الذي يفطِمُهُ عنْ شهواتِ الدُّنيا ، ويبغِّضُ إليهِ ملاذَّها ، ويقطعُهُ عنها ، وكلُّ ذٰلكَ لا يمكنُ إلا بصحَّةِ البدنِ ، وصحةُ البدنِ لا تُنالُ إلا بقوتٍ وملبسٍ ومسكنٍ ، ويحتاجُ كلُّ واحدٍ إلىٰ أسبابٍ ، فالقدْرُ الذي لا بدَّ منهُ مِنْ هٰذهِ الثلاثةِ إذا أخذَهُ العبدُ مِنَ الدُّنيا للآخرةِ . . لمْ يكنْ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وكانَتِ الدُّنيا في حقِّه مزرعةً للآخرةِ ، وإنْ أخذَ ذٰلكَ لحظِّ النفسِ وعلىٰ قصدِ التَّنعُّمِ . . صارَ مِنْ أبناءِ الدُّنيا والراغبينَ في حظوظِها .

إلا أنَّ الرغبةَ في حظوظِ الدُّنيا تنقسمُ إلىٰ ما يعرِّضُ صاحبَهُ لعذابِ الآخرةِ ، ويُسمَّىٰ ذٰلكَ **حراماً** ، وإلىٰ ما يحولُ بينَهُ وبينَ الدرجاتِ العُلا ، ويعرِّضُهُ لطولِ الحسابِ ، ويُسمَّىٰ ذٰلكَ **حلالاً** ، والبصيرُ يعلمُ أنَّ طولَ الموقفِ في عَرصاتِ القيامةِ لأجلِ المحاسبةِ أيضاً عذابٌ ؛ فمنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ[2] ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ »[3] ، وقدْ قالَ أيضاً : « حلالُها عذابٌ » ، إلا أنَّهُ عذابٌ أخفُّ مِنْ عذابِ الحرامِ ، بلْ لوْ لمْ يكنِ الحسابُ . . لكانَ ما يفوِّتُ مِنَ الدرجاتِ العُلا في الجنةِ ، وما يردُ على القلبِ مِنَ التحسُّرِ علىٰ تفويتِها بحظوظٍ حقيرةٍ خسيسةٍ لا بقاءَ لها هوَ أيضاً عذابٌ ، وقسْ بهِ حالَكَ في الدُّنيا إذا نظرتَ إلىٰ أقرانِكَ وقدْ سبقوكَ بسعاداتٍ دنيويَّةٍ كيفَ يتقطَّعُ قلبُكَ عليها حسرةً ، معَ علمِكَ بأنَّها سعاداتٌ منصرمةٌ لا بقاءَ لها ، ومنغصةٌ بكدوراتٍ لا صفاءَ لها ، فما حالُكَ في فواتِ سعادةٍ لا يحيطُ الوصفُ بعظمتِها ، وتنقطعُ الدُّهورُ دونَ غايتِها ؟!

فكلُّ مَنْ تنعَّمَ في الدُّنيا ولوْ بسماعِ صوتٍ مِنْ طائرٍ ، أوْ بالنظرِ إلىٰ خُضْرةٍ ، أوْ بشربةِ ماءٍ باردٍ . . فإنَّهُ ينقصُ مِنْ حظِّهِ في الآخرةِ أضعافُهُ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : « هٰذا مِنَ النَّعيمِ الذي تُسألُ عنهُ »[4] ، أشارَ بهِ إلى الماءِ الباردِ ، والتعرُّضُ لجوابِ السؤالِ فيهِ ذلٌّ ، وخوفٌ ، وخطرٌ ، ومشقةٌ ، وانتظارٌ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنْ نقصانِ الحظِّ ، ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اعزلُوا عنِّي حسابَها) حيثُ كانَ بهِ عطشٌ ، فعُرِضَ عليهِ ماءٌ باردٌ بعسلٍ ، فأدارَهُ في كفِّهِ ، ثمَّ امتنعَ عنْ شربِهِ[5]

---

(١) انظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١١) .

(٢) كما روىٰ ذٰلك مرفوعاً البخاري (١٠٣ ، ٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٤) رواه النسائي (٦/٢٤٦) ، وأحمد في « المسند » (٣/٣٣٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٢٧٩) .

(٥) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٩٢) عن بكير بن عتيق قال : سقيت سعيد بن جبير شربة من عسل في قدح ، فشربها ثم قال : والله ؛ لأسألنَّ عن هٰذا ، فقلت : لمَهْ ؟ فقال : شربته وأنا أستلذُّه .

فالدُّنيا قليلُها وكثيرُها ، حلالُها وحرامُها ملعونةٌ ، إلا ما أعانَ على تقوى اللهِ ؛ فإنَّ ذلكَ القدْرَ ليسَ مِنَ الدُّنيا ، وكلُّ مَنْ كانَتْ معرفتُهُ أقوىٰ وأتقنَ . . كانَ حذرُهُ مِنْ نعيمِ الدُّنيا أشدَّ ، حتَّىٰ إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ وضعَ رأسَهُ علىٰ حجرٍ لمَّا نامَ ، ثمَّ رمىٰ بهِ ؛ إذْ تمثَّلَ لهُ إبليسُ وقالَ لهُ : رغبتَ في الدُّنيا[1]

وحتَّىٰ إنَّ سليمانَ عليهِ السلامُ في ملكِهِ كانَ يطعمُ الناسَ لذائذَ الأطعمةِ وهوَ يأكلُ خبزَ الشعيرِ ، فجعلَ المُلْكَ علىٰ نفسِهِ بهٰذا الطريقِ امتحاناً وشدةً ؛ فإنَّ الصبرَ عنْ لذائذِ الأطعمةِ معَ القدرةِ عليها ووجودِها أشدُّ[2]

ولهٰذا زوى اللهُ تعالى الدُّنيا عنْ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكانَ يطوي أياماً[3] ، وكانَ يشدُّ الحجرَ علىٰ بطنِهِ مِنَ الجوعِ[4]

ولهٰذا سلَّطَ اللهُ البلاءَ والمحنَ على الأنبياءِ والأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ ، كلُّ ذلكَ نظراً لهُمْ ، وامتناناً عليهِمْ ؛ ليتوفَّرَ مِنَ الآخرةِ حظُّهُمْ ؛ كما يمنعُ الوالدُ الشفيقُ ولدَهُ لذَّةَ الفواكهِ ، ويلزمُهُ ألمَ الفصدِ والحجامةِ ؛ شفقةً عليهِ ، وحبّاً لهُ ، لا بخلاً عليهِ .

وقد عرفتَ بهٰذا أنَّ كلَّ ما ليسَ للهِ . . فهوَ مِنَ الدُّنيا ، وما هوَ للهِ عزَّ وجلَّ . . فذلكَ ليسَ مِنَ الدُّنيا .



فإنْ قلتَ : فما الذي هوَ للهِ سبحانَهُ ؟

فأقولُ : الأشياءُ ثلاثةُ أقسامٍ :

مِنْها : ما لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ للهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ الذي يُعبَّرُ عنهُ بالمعاصي والمحظوراتِ ، وأنواعُ التنعُّماتِ في المباحاتِ ، وهيَ الدُّنيا المحضُ المذمومةُ ، فهيَ الدُّنيا صورةً ومعنىً .

ومِنْها : ما صورتُهُ للهِ ، ويمكنُ أنْ يُجعلَ لغيرِ اللهِ ، وهيَ ثلاثةٌ : الفكرُ ، والذكرُ ، والكفُّ عنِ الشهواتِ ؛ فإنَّ هٰذهِ الثلاثةَ إذا جرَتْ سرّاً ولمْ يكنْ عليها باعثٌ سوىٰ أمرِ اللهِ واليومِ الآخرِ . . فهيَ للهِ وليسَتْ مِنَ الدُّنيا ، وإنْ كانَ الغرضُ مِنَ الفكرِ طلبَ العلمِ للتشوُّفِ بهِ ، وطلبِ القبولِ بينَ الخلقِ بإظهارِ المعرفةِ ، أوْ كانَ الغرضُ مِنْ تركِ الشهوةِ حفظَ المالِ ، أوِ الحميةَ لصحَّةِ البدنِ ، أوِ الاشتهارَ بالزهدِ . . فقدْ صارَ هٰذا مِنَ الدُّنيا بالمعنىٰ وإنْ كانَ يُظنُّ بصورتِهِ أنَّهُ للهِ تعالىٰ .

ومِنْها : ما صورتُهُ لحظِّ النفسِ ، ويمكنُ أنْ يُجعلَ معناهُ للهِ سبحانَهُ ، وذلكَ كالأكلِ ، والنكاحِ ، وكلِّ ما يرتبطُ بهِ بقاؤُهُ وبقاءُ ولدِهِ ، فإنْ كانَ القصدُ حظَّ النفسِ . . فهوَ مِنَ الدُّنيا ، وإنْ كانَ القصدُ الاستعانةَ بهِ على التقوىٰ . . فهوَ للهِ بمعناهُ وإنْ كانَتْ صورتُهُ صورةَ الدُّنيا ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طلبَ الدُّنيا حلالاً مُفاخِراً مُكاثِراً . . لقيَ اللهَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٦/٤٧) .
(٢) رواه بنحوه أحمد في « الزهد » (٤٦٦) .
(٣) فقد روى الترمذي (٢٣٦٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله يبيت الليالي المتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير) ، وأما أنه سبحانه زوى الدنيا عنه صلى الله عليه وسلم . . فتقدم في غير خبر ، منها ما رواه البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) عن عمر رضي الله عنه وقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم : هٰذا الحصير قد أثَّر في جنبك ، وهٰذه خزانتك لا أرىٰ فيها إلا ما أرىٰ ، وذاك قيصر وكسرىٰ في الثمار والأنهار وأنت رسول الله وصفوته وهٰذه خزانتك ؟ فقال : « يا بن الخطاب ؛ ألا ترضىٰ أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟! » .
(٤) روىٰ ذلك البخاري في قصة الخندق (٤١٠١) .

وهوَ عليهِ غضبانُ ، ومَنْ طلبَها استعفافاً عنِ المسألةِ وصيانةً لنفسِهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدرِ »[1] ، فانظرْ كيفَ اختلفَ ذٰلكَ بالقصدِ .

فإذاً ؛ الدُّنيا حظُّ نفسِكَ العاجلُ ، الذي لا حاجةَ إليهِ لأمرِ الآخرةِ ، ويُعبَّرُ عنهُ بالهوىٰ ، وإليهِ أشارَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

ومجامعُ الهوىٰ خمسةُ أمورٍ ، وهيَ ما جمعَهُ اللهُ تعالَىٰ في قولِهِ : ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ ، والأعيانُ التي تحصلُ مِنْها هٰذهِ الخمسةُ سبعةٌ ، يجمعُها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

فقدْ عرفتَ أنَّ كلَّ ما هوَ للهِ فليسَ مِنَ الدُّنيا ، وقدْرُ ضرورةِ القُوتِ ، وما لا بدَّ منهُ مِنْ مسكنٍ وملبسٍ . . فهوَ للهِ إنْ قُصِدَ بهِ وجهُ اللهِ ، والاستكثارُ مِنْهُ تنعمٌ ، وهوَ لغيرِ اللهِ ، وبينَ التنعُّمِ والضرورةِ درجةٌ يُعبَّرُ عنها بالحاجةِ ، ولها طرفانِ وواسطةٌ ، طرفٌ يقربُ مِنْ حدِّ الضرورةِ ، فلا يضرُّ ؛ فإنَّ الاقتصارَ علىٰ حدِّ الضرورةِ غيرُ ممكنٍ ، وطرفٌ يزاحمُ جانبَ التنعُّمِ ويقربُ مِنْهُ ، وينبغي أنْ يُحْذرَ منهُ ، وبينَهُما وسائطُ متشابهةٌ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، والحزمُ في الحذرِ والتقوىٰ ، والتقريبِ مِنْ حدِّ الضرورةِ ما أمكنَ ؛ اقتداءً بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ والأولياءِ ؛ إذْ كانُوا يردُّونَ أنفسَهُمْ إلىٰ حدِّ الضرورةِ .

حتَّىٰ إنَّ أويساً القَرَنيَّ كانَ يظنُّ أهلُهُ أنَّهُ مجنونٌ ؛ لشدَّةِ تضييقِهِ علىٰ نفسِهِ ، فبنَوا لهُ بيتاً علىٰ بابِ دارِهِمْ ، فكانَ يأتي عليهِمُ السنةُ والسنتانِ والثلاثُ لا يرونَ لهُ وجهاً ، وكانَ يخرجُ أولَ الأذانِ ، ويأتي إلىٰ منزلِهِ بعدَ العشاءِ الآخرةِ ، وكانَ طعامُهُ أنْ يلتقطَ النوىٰ ، فكلَّما أصابَ مِنَ الحشفِ . . خبَّأَهُ لإفطارِهِ ، وإنْ لمْ يصبْ ما يقوتُهُ مِنَ الحشفِ . . باعَ النوىٰ ، واشترىٰ بهِ ما يقوتُهُ ، وكانَ لباسُهُ ما يلتقطُ مِنَ المزابلِ ، فيلتقطُ قطعَ الأكسيةِ ، فيغسلُها في الفراتِ ، ويلفِّقُ بعضَها إلىٰ بعضٍ ، ثمَّ يلبسُها ، فكانَ ذٰلكَ لباسَهُ[2] ، وكانَ ربَّما مرَّ بالصبيانِ فيرجمونَهُ ، ويظنونَ أنَّهُ مجنونٌ ، فيقولُ لهُمْ : (يا إخوتاهُ ؛ إنْ كانَ ولا بدَّ أنْ ترمُوني . . فارمُوني بأحجارٍ صغارٍ ، فإنِّي أخافُ أنْ تُدمو عقبي فيحضرَ وقتُ الصلاةِ ولا أصيبَ الماءَ)[3] ، فهٰكذا كانَتْ سيرتُهُ ، ولهٰذا عظَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَهُ ، فقالَ : « إنِّي لأجدُ نفَسَ الرَّحمٰنِ مِنَ جانبِ اليمنِ » إشارةً إليهِ رحمهُ اللهُ[4]

ولمَّا وليَ الخلافةَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ : أيُّها الناسُ ؛ مَنْ كانَ منكُمْ مِنْ أهلِ العراقِ . . فليقمْ ؛ قالَ : فقاموا ، فقالَ : اجلسُوا إلَّا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الكوفةِ فجلسُوا ، فقالَ : اجلسوا إلا مَنْ كانَ مِنْ مرادٍ ، فجلسوا ، فقالَ : اجلسوا إلا مَنْ كانَ مِنْ قرنٍ ، فجلسوا كلُّهُمْ إلا رجلاً واحداً ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أقرنيٌّ أنتَ ؟ فقالَ : نعمْ ، فقالَ : أتعرفُ أويسَ بنَ عامرٍ القرنيَّ ؟ فوصفَهُ لهُ ، فقالَ : نعمْ ، وما تسألُ عنْ ذٰلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! فواللهِ ؛ ما فينا أحمقُ منهُ ، ولا أجنُّ منهُ ، ولا أحوجُ منهُ ، ولا أدنىٰ منهُ ، فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثمَّ قالَ : ما قلتُ ما قلتُ إلا أنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يدخلُ في شفاعتِهِ مثلُ ربيعةَ ومضرَ » .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٩/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) خبر أويس إلىٰ هنا رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣١/٩ ـ ٤٣٢) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٤١٢) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٥٢/٧) ، وعند أحمد في « المسند » (٥٤٠/٢) : « نفَس ربكم » بدل « نفس الرحمٰن » .

فقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ : فلمَّا سمعتُ هـٰذا القولَ مِنْ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ . . قدمتُ الكوفةَ ، فلمْ يكنْ لي همٌّ إلا أنْ أطلبَ أويساً القرنيَّ وأسألَ عنهُ ، حتَّىٰ سقطتُ عليهِ جالساً علىٰ شاطئِ الفراتِ نصفَ النهارِ يتوضَّأُ ويغسلُ ثوبَهُ ، قالَ : فعرفتُهُ بالنعتِ الذي نُعِتَ لي ؛ فإذا رجلٌ لحيمٌ شديدُ الأدمةِ ، محلوقُ الرأسِ ، كثُّ اللحيةِ ، متغيرٌ جداً ، كريهُ الوجهِ ، مهيبُ المنظرِ .

قالَ : فسلَّمتُ عليهِ ، فردَّ عليَّ السلامَ ونظرَ إليَّ ، فقلتُ : حيَّاكَ اللهُ مِنْ رجلٍ ، ومددتُ يدي لأصافحَهُ ، فأبىٰ أنْ يصافحَني ، فقلتُ : رحمَكَ اللهُ يا أويسُ وغفرَ لكَ ، كيفَ أنتَ رحمَكَ اللهُ ؟ وخنقَتْني العبرةُ مِنْ حُبِّي إيَّاهُ ورقَّتي عليهِ ؛ إذْ رأيتُ مِنْ حالِهِ ما رأيتُ ، حتىٰ بكيتُ وبكىٰ ، قالَ : وأنتَ فحيَّاكَ اللهُ يا هَرِمَ بنَ حيانَ ، كيفَ أنتَ يا أخي ، ومَنْ دلَّكَ عليَّ ؟ قالَ : قلتُ : اللهُ ، فقالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، سبحانَ اللهِ ، ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ .

قالَ : فعجبتُ حينَ عرفَني ، ولا واللهِ ؛ ما رأيتُهُ قبلَ ذٰلكَ ولا رآني ، فقلتُ : مِنْ أينَ عرفتَ اسمي واسمَ أبي ، وما رأيتُكَ قبلَ اليومِ ولا رأيتَني ؟ قالَ : ﴿ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، وعرفَتْ روحي روحَكَ حينَ كلَّمَتْ نفسي نفسَكَ ، إنَّ الأرواحَ لها أنفسٌ كأنفسِ الأجسادِ ، وإنَّ المؤمنينَ ليعرفُ بعضُهُمْ بعضاً ، ويتحابُّونَ بروحِ اللهِ وإنْ لمْ يلتقوا ، يتعارفونَ ويتكلمونَ وإنْ نأتْ بهِمُ الدارُ وتفرقَتْ بهِمُ المنازلُ .

قالَ : قلتُ : حدِّثْني رحمَكَ اللهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بحديثٍ أسمعُهُ منكَ ، قالَ : إنِّي لمْ أدركْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولمْ يكنْ لي معَهُ صحبةٌ بأبي وأمِّي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولـٰكنِّي رأيتُ رجالاً قدْ رأوهُ ، وبلغَني مِنْ حديثِهِ نحوٌ ممَّا بلغَكَ ، ولستُ أحبُّ أنْ أفتحَ هـٰذا البابَ علىٰ نفسِي أنْ أكونَ محدِّثاً ، أو مفتياً ، أو قاصّاً ، في نفسي شغلٌ عَنِ الناسِ يا هرمَ بنَ حيانَ .

فقلتُ : يا أخي ؛ اقرأْ عليَّ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ أسمعُها منكَ ، وادعُ لي بدعواتٍ ، وأوصني بوصيةٍ أحفظُها عنكَ ؛ فإنِّي أحبُّكَ في اللهِ حبّاً شديداً .

قالَ : فقامَ وأخذَ بيدي علىٰ شاطئِ الفراتِ ، ثمَّ قالَ : أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ثم بكىٰ ، ثمَّ قالَ : قالَ ربِّي ، وأحقُّ القولِ قولُهُ ، وأصدقُ الحديثِ حديثُهُ ، وأصدقُ الكلامِ كلامُهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حتَّى انتهىٰ إلىٰ قولِهِ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، فشهقَ شهقةً ظننتُ أنَّهُ قدْ غُشِيَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : يا بنَ حيَّانَ ؛ ماتَ أبوكَ حيَّانُ ، ويوشكُ أنْ تموتَ أنتَ ، فإمَّا إلىٰ جنَّةٍ وإمَّا إلىٰ نارٍ ، وماتَ أبوكَ آدمُ ، وماتَتْ أمُّكَ حواءُ ، وماتَ نوحٌ ، وماتَ إبراهيمُ خليلُ الرحمـٰنِ ، وماتَ موسىٰ نجيُّ الرحمـٰنِ ، وماتَ داوودُ خليفةُ الرحمـٰنِ ، وماتَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولُ ربِّ العالمينَ ، وماتَ أبو بكرٍ خليفةُ المسلمينَ ، وماتَ أخي وصفيِّي عمرُ بنُ الخطابِ .

ثمَّ قالَ : يا عمراهُ يا عمراهُ ، قالَ : فقلتُ : رحمَكَ اللهُ ؛ إنَّ عمرَ لمْ يمتْ ، قالَ : قدْ نعاهُ إليَّ ربِّي ، ونعىٰ إليَّ نفسِي ، ثمَّ قالَ : وأنا وأنتَ في الموتىٰ كأنَّهُ قدْ كانَ ، ثمَّ صلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ دعا بدعواتٍ خفيَّاتٍ .

ثمَّ قالَ : هـٰذهِ وصيَّتي إيَّاكَ يا هرمَ بنَ حيَّانَ ؛ كتابَ اللهِ ، ونعيَ الصالحينَ المؤمنينَ [1] ، فقدْ نُعِيَتْ إليَّ نفسِي

---

(١) في (أ) : (وصيتي إياك ذكر الله تعالىٰ ، والصلاة على النبي عليه السلام ، ونعي المسلمين وغيرهم من الصالحين) ، وفي (ب) : (وسير نعي الصالحين) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (١٢٦/٨) : (ونهج الصالحين) بدل (ونعي الصالحين) .

ونفسُكَ ، عليكَ بذكرِ الموتِ لا يفارقُ قلبَكَ طرفةَ عينٍ ما بقيتَ ، وأنذرْ قومَكَ إذا رجعتَ إليهِمْ ، وانصحْ للأمةِ جميعاً ، وإيَّاكَ أنْ تفارقَ الجماعةَ قيدَ شبرٍ فتفارقَ دينَكَ وأنتَ لا تعلمُ ، فتدخلَ النارَ يومَ القيامةِ ، ادعُ لي ولنفسِكَ .

ثُمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّ هٰذا يزعمُ أنَّهُ يحبُّني فيكَ ، وزارَني مِنْ أجلِكَ ، فعرِّفْني وجهَهُ في الجنةِ ، وأدخلْهُ عليَّ في دارِكَ دارِ السلامِ ، واحفظْهُ ما دامَ في الدُّنيا حيّاً ، وضمَّ عليهِ ضيعتَهُ ، وأرضِهِ مِنَ الدُّنيا باليسيرِ ، وما أعطيتَهُ مِنَ الدُّنيا فيسِّرْهُ لهُ تيسيراً ، واجعلْهُ لما أعطيتَهُ مِنْ نعمائِكَ مِنَ الشاكرينَ ، واجزِهِ عنِّي خيرَ الجزاءِ .

ثُمَّ قالَ : أستودعُكَ اللهَ يا هرمَ بنَ حيَّانَ ، والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ ، لا أراكَ بعدَ اليومِ ـ رحمَكَ اللهُ ـ تطلبُني ، فإنِّي أكرهُ الشهرةَ ، والوحدةُ أعجبُ إليَّ ؛ لأنِّي كثيرُ الهمِّ ، شديدُ الغمِّ معَ هٰؤلاءِ الناسِ ما دمتُ حيّاً ، فلا تسألْ عنِّي ولا تطلبْني ، واعلمْ أنَّكَ منِّي علىٰ بالٍ وإنْ لم أرَكَ ولمْ ترني ؛ فاذكرْني ، وادعُ لي ؛ فإنِّي سأذكرُكَ وأدعو لكَ إنْ شاءَ اللهُ ، انطلقْ أنتَ ها هنا حتَّىٰ أنطلقَ أنا ها هنا ، فحرصتُ أنْ أمشيَ معَهُ ساعةً فأبىٰ عليَّ ، ففارقتُهُ ، فبكىٰ وأبكاني ، وجعلتُ أنظرُ في قفاهُ حتَّىٰ دخلَ بعضَ السككِ ، ثُمَّ سألتُ عنْهُ بعدَ ذٰلكَ ، فما وجدتُ أحداً يخبرُني عنهُ بشيءٍ ، رحمَهُ اللهُ وغفرَ لهُ[1]

فهٰكذا كانَتْ سيرةُ أبناءِ الآخرةِ المعرضينَ عنِ الدُّنيا ، وقدْ عرفتَ ممَّا سبقَ في بيانِ الدُّنيا ، ومِنْ سيرةِ الأنبياءِ والأولياءِ : أنَّ حدَّ الدُّنيا كلُّ ما أظلَّتْهُ الخضراءُ ، وأقلَّتْهُ الغبراءُ ، إلا ما كانَ للهِ عزَّ وجلَّ مِنْ ذٰلكَ ، وضدُّ الدُّنيا الآخرةُ ، وهوَ كلُّ ما أُريدَ بهِ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ممَّا يُؤخذُ بقدْرِ الضرورةِ مِنَ الدُّنيا ؛ لأجلِ قوَّةِ طاعةِ اللهِ ، وذٰلكَ ليسَ مِنَ الدُّنيا .

❁ ❁ ❁

ونبيِّنُ هٰذا بمثالٍ : وهوَ أنَّ الحاجَّ إذا حلفَ أنَّهُ في طريقِ الحجِّ لا يشتغلُ بغيرِ الحجِّ ، بلْ يتجرَّدُ لهُ ، ثُمَّ اشتغلَ بحفظِ الزادِ ، وعلفِ الجملِ ، وخرزِ الراويةِ ، وكلِّ ما لا بدَّ للحجِّ منهُ . . لمْ يحنثْ في يمينِهِ ، ولمْ يكنْ مشغولاً بغيرِ الحجِّ ؛ فكذٰلكَ البدنُ مركَبُ النفسِ ، تُقطعُ بهِ مسافةُ العمرِ ، فتعهُّدُ البدنِ بما تبقىٰ بهِ قوَّتُهُ علىٰ سلوكِ الطريقِ بالعلمِ والعملِ هوَ مِنَ الآخرةِ لا مِنَ الدُّنيا .

نعمْ ؛ إذا قصدَ تلذُّذَ البدنِ وتنعُّمَهُ بشيءٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ . . كانَ منحرفاً عنِ الآخرةِ ، ويُخشىٰ علىٰ قلبِهِ القسوةُ .

قالَ الطنافسيُّ : (كنتُ علىٰ بابِ بني شيبةَ في المسجدِ الحرامِ سبعةَ أيامٍ طاوياً ، فسمعتُ في الليلةِ الثامنةِ منادياً وأنا بينَ اليقظةِ والنومِ : ألا مَنْ أخذَ مِنَ الدُّنيا أكثرَ ممَّا يحتاجُ إليهِ أعمى اللهُ عينَ قلبِهِ)[2]

فهٰذا بيانُ حقيقةِ الدُّنيا في حقِّكَ ، فاعلمْ ذٰلكَ . . ترشدْ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

(١) روىٰ أجزاء الخبر ابن سعد في « طبقاته » (٨/٢٨٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٨٤) ، وهو بطوله ومرفوعه عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/٤٣١ ـ ٤٣٤) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٠٩٩) عن الحسن مرسلاً : « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي مثل ربيعة ومضر » ، قال الحسن : أويس القرني . وروى الترمذي (٢٤٣٩) عنه أيضاً مرسلاً : « يشفع عثمان بن عفان يوم القيامة بمثل ربيعة ومضر » ، وروى الطبراني في « الكبير » (٨/٢٣٥) من حديث أبي أمامة مرفوعاً : « من المؤمنين من يدخل بشفاعته الجنة مثل ربيعة ومضر » ، ولم يسم رجلاً .

(٢) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص ٢٣٤) ولٰكن عن سمنون المحب .

بيان ماهية الدّنيا في نفسها وأشغالها الّتي استغرقت هِمم الخلق حتّى أنستْهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا عبارةٌ عنْ أعيانٍ موجودةٍ ، وللإنسانِ فيها حظٌّ ، ولهُ في إصلاحِها شغلٌ ، فهـٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ قدْ يُظَنُّ أنَّ الدُّنيا عبارةٌ عنْ آحادِها ، وليسَ كذٰلكَ .

أمَّا الأعيانُ الموجودةُ التي الدُّنيا عبارةٌ عنها . . فهيَ الأرضُ وما عليها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، فالأرضُ فراشٌ للآدميِّينَ ومهادٌ ومسكنٌ ومستقرٌّ ، وما عليها لهُمْ ملبسٌ ومطعمٌ ومشربٌ ومنكحٌ .

ويجمعُ ما على الأرضِ ثلاثةُ أقسامٍ : المعادنُ ، والنباتُ ، والحيوانُ .

أمَّا النباتُ . . فيطلبُهُ الآدميُّ للاقتياتِ وللتداوي .

وأمَّا المعادنُ . . فيطلبُها الآدميُّ للآلاتِ والأواني ، كالنحاسِ والرصاصِ ، وللنقدِ ؛ كالذهبِ والفضةِ ، ولغيرِ ذٰلكَ مِنَ المقاصدِ .

وأمَّا الحيوانُ . . فينقسمُ إلى الإنسانِ والبهائمِ ، أمَّا البهائمُ . . فيطلبُ لحومَها للمآكلِ ، وظهورَها للمراكبِ والزينةِ ، وأمَّا الإنسانُ . . فقدْ يطلبُ الآدميُّ أنْ يملكَ أبدانَ الناسِ ليستخدمَهُمْ ويستسخرهُمْ ؛ كالغلمانِ ، أو ليتمتَّعَ بهِمْ ؛ كالجواري والنسوانِ ، ويطلبُ قلوبَ الناسِ ليملكَها ، بأنْ يغرسَ فيها التعظيمَ والإكرامَ ، وهوَ الذي يُعبَّرُ عنهُ بالجاهِ ؛ إذْ معنى الجاهِ : ملْكُ قلوبِ الآدميِّينَ .

فهـٰذهِ هيَ الأعيانُ التي يُعبَّرُ عنها بالدُّنيا ، وقدْ جمعَها اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ وهـٰذا مِنَ الإنسِ ، ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ وهـٰذا مِنَ الجواهرِ والمعادنِ ، وفيهُ تنبيهٌ علىٰ غيرِها مِنَ اللآلئِ واليواقيتِ وغيرِها ، ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وهيَ البهائمُ والحيواناتُ ، ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ وهوَ النباتُ والزرعُ .

فهـٰذهِ هيَ أعيانُ الدُّنيا ، **إلا أنَّ لها معَ العبدِ علاقتينِ :**

علاقةٌ معَ القلبِ : وهوَ حبُّهُ لها ، وحظُّهُ مِنْها ، وانصرافُ همِّهِ إليها ، حتَّىٰ يصيرَ قلبُهُ كالعبدِ ، أوِ المحبِّ المستهتَرِ بالدُّنيا ، ويدخلُ في هـٰذهِ العلاقةِ جميعُ صفاتِ القلبِ المتعلِّقةِ بالدُّنيا ؛ كالكبرِ ، والغلِّ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والسمعةِ ، وسوءِ الظَّنِّ ، والمداهنةِ ، وحبِّ الثناءِ ، وحبِّ التكاثرِ والتفاخرِ ، وهـٰذهِ هيَ الدُّنيا الباطنةُ ، وأمَّا الظاهرةُ . . فهيَ الأعيانُ التي ذكرناها .

العلاقةُ الثانيةُ : معَ البدنِ : وهوَ اشتغالُهُ بإصلاحِ هـٰذهِ الأعيانِ لتصلحَ لحظوظِهِ وحظوظِ غيرِهِ ، وهيَ جملةُ الصناعاتِ والحرفِ التي الخلقُ مشغولونَ بها .

والخلقُ إنَّما نسوا أنفسَهُمْ ومآبَهُمْ ومنقلبَهُمْ بالدُّنيا لهاتينِ العلاقتينِ ؛ علاقةِ القلبِ بالحبِّ ، وعلاقةِ البدنِ بالشغلِ ، ولوْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ ، وعرفَ حكمةَ الدُّنيا وسرَّها . . علمَ أنَّ هـٰذهِ الأعيانَ التي سمَّيناها دنيا لمْ تُخلقْ إلا لعلفِ

الدابَّةِ التي يسيرُ بها إلى اللهِ تعالىٰ ، وأعني بالدابة : البدنَ ؛ فإنَّهُ لا يبقىٰ إلا بمطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ ؛ كما لا يبقى الإبلُ في طريقِ الحجِّ إلَّا بعلفٍ وماءٍ وجِلالٍ(١)

ومثالُ العبدِ في الدُّنيا في نسيانِهِ نفسَهُ ومقصدَهُ مثالُ الحاجِّ الذي يقفُ في منازلِ الطريقِ ولا يزالُ يعلفُ الناقةَ ، ويتعهَّدُها وينظِّفُها ، ويكسوها ألوانَ الثيابِ ، ويحملُ إليها أنواعَ الحشيشِ ، ويبرِّدُ لها الماءَ بالثلجِ ، حتَّىٰ تفوتَهُ القافلةُ ، وهوَ غافلٌ عنِ الحجِّ وعنْ مرورِ القافلةِ ، وعنْ بقائِهِ في الباديةِ فريسةً للسباعِ هوَ وناقتُهُ ، والحاجُّ البصيرُ لا يهمُّهُ مِنْ أمرِ الجملِ إلَّا القدْرُ الذي يقوىٰ بِهِ على المشيِ ، فيتعهَّدُهُ وقلبُهُ إلى الكعبةِ والحجِّ ، وإنَّما يلتفتُ إلى الناقةِ بقدْرِ الضرورةِ ؛ فكذٰلكَ البصيرُ في سفرِ الآخرةِ لا يشتغلُ بتعهُّدِ البدنِ إلا بالضرورةِ ، كما لا يدخلُ بيتَ الماءِ إلا لضرورةٍ ، ولا فرقَ بينَ إدخالِ الطعامِ في البطنِ وبينَ إخراجِهِ مِنَ البطنِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما ضرورةُ البدنِ ، ومَنْ همَّتُهُ ما يدخلُ بطنَهُ . . فقيمتُهُ ما يخرجُ منهُ ، وأكثرُ ما شغلَ الناسَ عنِ اللهِ هوَ البطنُ ؛ فإنَّ القوتَ ضروريٌّ ، وأمرُ المسكنِ والملبسِ أهونُ ، ولوْ عرفُوا سببَ الحاجةِ إلىٰ هٰذهِ الأمورِ واقتصروا عليها . . لمْ تستغرقْهُمْ أشغالُ الدُّنيا ، وإنَّما استغرقَتْهُمْ لجهلِهِمْ بالدُّنيا وحكمتِها وحظوظِهِمْ منها ، ولٰكنَّهُمْ جهلُوا وغفلوا ، وتتابعَتْ أشغالُ الدُّنيا عليهِمْ ، واتصلَ بعضُها ببعضٍ ، وتداعَتْ إلىٰ غيرِ نهايةٍ محدودةٍ ، فتاهوا في كثرةِ الأشغالِ ، ونسُوا مقصودَها .

❀ ❀ ❀

ونحنُ نذكرُ تفاصيلَ **أشغالِ الدُّنيا** ، وكيفيةَ حدوثِ الحاجةِ إليها ، وكيفيةَ غلطِ الناسِ في مقاصدِها ؛ حتَّىٰ تتضحَ لكَ أشغالُ الدُّنيا كيفَ صَرَفَتِ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وكيفَ أنستْهُمْ عاقبةَ أمورِهِمْ ، فنقولُ :

الأشغالُ الدُّنيويَّةُ : هيَ الحِرَفُ ، والصناعاتُ ، والأعمالُ التي ترى الخلقَ منكبِّينَ عليها ، وسببُ كثرةِ الأشغالِ : هوَ أنَّ الإنسانَ مضطرٌّ إلىٰ ثلاثٍ : القوتِ ، والمسكنِ ، والملبسِ ، فالقوتُ للغذاءِ والبقاءِ ، والملبسُ لدفعِ الحرِّ والبردِ ، والمسكنُ لدفعِ الحرِّ والبردِ ولدفعِ أسبابِ الهلاكِ عنِ الأهلِ والمالِ ، ولمْ يخلقِ اللهُ القوتَ والمسكنَ والملبسَ مُصْلَحاً بحيثُ يُستغنىٰ عنْ صنعةِ الإنسانِ فيهِ ، نعمْ ، خلقَ اللهُ ذٰلكَ للبهائمِ ؛ فإنَّ النباتَ يغذِّي الحيوانَ مِنْ غيرِ طبخٍ ، والحرُّ والبردُ لا يؤثِّرُ في بدنِهِ ، فيستغني عنِ البناءِ ، ويقنعُ بالصحراءِ ، ولباسُها شعورُها وجلودُها ، فيستغني عنِ اللباسِ ، والإنسانُ ليسَ كذٰلكَ ، فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ خمسِ صناعاتٍ ، هيَ أصولُ الصناعاتِ ، وأوائلُ الأشغالِ الدنيويَّةِ ؛ وهيَ الفلاحةُ ، والرعايةُ ، والاقتناصُ ، والحياكةُ ، والبناءُ .

أمَّا البناءُ . . فللمسكنِ ، والحياكةُ وما يكتنفُها مِنَ الغزلِ والخياطةِ . . فللملبسِ ، والفلاحةُ للمطعمِ ، والرعايةُ للمواشي والخيلِ أيضاً للمطعمِ والمركبِ ، والاقتناصُ نعني بهِ : تحصيلَ ما خلقَهُ اللهُ مِنْ صيدٍ ، أوْ معدنٍ ، أوْ حشيشٍ ، أوْ حطبٍ ، فالفلاحُ يحصِّلُ النباتَ ، والرَّاعي يحفظُ الحيواناتِ ويستنتجُها ، والمقتنصُ يحصِّلُ ما نبتَ ونتجَ بنفسِهِ مِنْ غيرِ صنعِ آدميٍّ ، وكذٰلكَ يأخذُ مِنْ معادنِ الأرضِ ما خُلِقَ فيها مِنْ غيرِ صنعةِ آدميٍّ ، ونعني بالاقتناصِ ذٰلكَ ، ويدخلُ تحتَهُ صناعاتٌ وأشغالٌ عدَّةٌ .

ثمَّ هٰذهِ الصناعاتُ تفتقرُ إلىٰ أدواتٍ وآلاتٍ ؛ كالحياكةِ ، والفلاحةِ ، والبناءِ ، والاقتناصِ ، والآلاتُ إنَّما تُؤخذُ إمَّا مِنَ النباتِ وهيَ الأخشابُ ، أوْ مِنَ المعادنِ كالحديدِ والرصاصِ وغيرِهِ ، أوْ مِنْ جلودِ الحيواناتِ ؛ فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ

---

(١) جِلال : جمع جُل ، وهو ما يقي ظهره لئلا ينقبه الرحل . « إتحاف » (١٢٨/٨) .

ثلاثةِ أنواعٍ أُخَرَ مِنَ الصناعاتِ ؛ وهيَ النِّجارةُ ، والحدادةُ ، والخَرْزُ ، وهٰؤلاءِ هِمْ عمَّالُ الآلاتِ ، ونعني بالنجَّارِ : كلَّ عاملٍ في الخشبِ كيفما كانَ ، وبالحدَّادِ : كلَّ مَنْ عمِلَ في جواهرِ المعادنِ حتَّى النَّحَّاسِ والإبْرِيِّ وغيرِهما ، وغرضُنا ذكرُ الأجناسِ ، فأمَّا آحادُ الحرفِ . . فكثيرةٌ ، وأمَّا الخرَّازُ . . فنعني بهِ : كلَّ عاملٍ في جلودِ الحيواناتِ وأجزائِها ، فهٰذهِ أمهاتُ الصناعاتِ .

ثمَّ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ بحيثُ لا يعيشُ وحدَهُ ، بلْ يُضطرُّ إلى الاجتماعِ معَ غيرِهِ مِنْ جنسِهِ ؛ وذٰلكَ لسببينِ :

أحدُهُما : حاجتُهُ إلى النسلِ لبقاءِ جنسِ الإنسانِ ، ولا يكونُ ذٰلكَ إلا باجتماعِ الذكرِ والأنثىٰ وعشرتِهِما .

والثاني : التعاونُ علىٰ تهيئةِ أسبابِ المطعمِ والملبسِ وتربيةِ الولدِ ، فإنَّ الاجتماعَ يفضي إلى الولدِ لا محالةَ ، والواحدُ لا يستقلُّ بحفظِ الولدِ وتهيئةِ أسبابِ القوتِ ، ثمَّ ليسَ يكفيهِ الاجتماعُ معَ الأهلِ والولدِ في المنزلِ ، بلْ لا يمكنُهُ أنْ يعيشَ كذٰلكَ ما لَمْ تجتمعْ طائفةٌ كثيرةٌ ؛ ليتكفَّلَ كلُّ واحدٍ بصناعتِهِ ؛ فإنَّ الشخصَ الواحدَ كيفَ يتولَّى الفلاحةَ وحدَهُ وهوَ يحتاجُ إلىٰ آلاتِها ، وتحتاجُ الآلةُ إلىٰ حدادٍ ونجارٍ ، ويحتاجُ الطعامُ إلىٰ طحَّانٍ وخبَّازٍ ؟! وكذٰلكَ كيفَ ينفردُ بتحصيلِ الملبسِ وهوَ يفتقرُ إلىٰ حراثةِ القطنِ ، وآلاتِ الحياكةِ والخياطةِ ، وأعمالٍ كثيرةٍ ؟! فلذٰلكَ امتنعَ عيشُ الإنسانِ وحدَهُ ، وحدثَتِ الحاجةُ إلى الاجتماعِ .

ثمَّ لوِ اجتمعُوا في صحراءَ مكشوفةٍ . . لتأذَّوا بالحرِّ والبردِ والمطرِ واللصوصِ ؛ فافتقرُوا إلىٰ أبنيةٍ محكمةٍ ، ومنازلَ ينفردُ كلُّ أهلِ بيتٍ بهِ ، وبما معَهُ مِنَ الآلاتِ والأثاثِ ، والمنازلُ لدفعِ الحرِّ والبردِ والمطرِ ، ولدفعِ أذى الجيرانِ مِنَ اللصوصيَّةِ وغيرِها ، لٰكنَّ المنازلَ قدْ تقصِدُها جماعةٌ مِنَ اللصوصِ مِنْ خارجِ المنازلِ ، فافتقرَ أهلُ المنازلِ إلى التناصرِ والتعاونِ والتحصُّنِ بسورٍ يحيطُ بجميعِ المنازلِ ، فحدثتِ البلادُ لهٰذهِ الضرورةِ .

ثمَّ مهما اجتمعَ النَّاسُ في المنازلِ والبلادِ وتعاملُوا . . تولَّدَتْ بينَهُمْ خصوماتٌ ؛ إذْ تحدثُ رئاسةٌ وولايةٌ للزوجِ على الزوجةِ ، وولايةٌ للأبوينِ على الولدِ لأنَّهُ ضعيفٌ محتاجٌ إلىٰ قوَّامٍ بهِ ، ومهما حصلتِ الولايةُ علىٰ عاقلٍ . . أفضىٰ إلى الخصومةِ ، بخلافِ الولايةِ على البهائمِ ؛ إذْ ليسَ لها قوَّةُ المخاصمةِ وإنْ ظُلِمَتْ ، فأمَّا المرأةُ . . فتخاصمُ الزوجَ ، والولدُ يخاصمُ الأبوينِ ، هٰذا في المنزلِ .

وأمَّا أهلُ البلدِ أيضاً . . فيتعاملُونَ في الحاجاتِ ، ويتنازعونَ فيها ، ولو تُركوا كذٰلكَ . . لتقاتلوا وهلكوا ، وكذٰلكَ الرعاةُ وأربابُ الفلاحةِ يتواردونَ على المراعي والأراضي والمياهِ ، وهيَ لا تفي بكلِّ أغراضِهِمْ ، فيتنازعونَ لا محالةَ ، ثمَّ قدْ يعجزُ بعضُهُمْ عنِ الفلاحةِ والصناعةِ بعمىً أوْ مرضٍ أوْ هرمٍ ، وتعرضُ عوارضُ مختلفةٌ ، ولوْ تُرِكَ ضائعاً . . لهلكَ ، ولوْ وُكِّلَ تفقُّدُهُ إلى الجميعِ . . لتخاذلوا ، ولو خُصَّ واحدٌ مِنْ غيرِ سببٍ يخصُّهُ . . لكانَ لا يذعَنُ لهُ ؛ فحدثَ بالضرورةِ مِنْ هٰذهِ العوارضِ الحاصلةِ بالاجتماعِ صناعاتٌ أخرىٰ ، فمِنْها صناعةُ المِساحةِ التي بها تُعرَفُ مقاديرُ الأرضِ ؛ لتمكنَ القسمةُ بينَهُمْ بالعدلِ ، ومِنْها صناعةُ الجنديَّةِ ؛ لحراسةِ البلدِ بالسيفِ ، ودفعِ اللصوصِ عنهُمْ ، ومِنْها صناعةُ الحُكمِ ، والتوصُّلِ لفصلِ الخصومةِ ، ومِنْها الحاجةُ إلى الفقهِ ، وهوَ معرفةُ القانونِ الذي ينبغي أنْ يُضبطَ بهِ الخلقُ ، ويُلْزموا الوقوفَ علىٰ حدودِهِ ، حتَّىٰ لا يكثرَ النزاعُ ، وهوَ معرفةُ حدودِ اللهِ تعالىٰ في المعاملاتِ وشروطِها .

فهٰذهِ أمورٌ سياسيَّةٌ لا بدَّ مِنْها ، ولا يشتغلُ بها إلا مخصوصونَ بصفاتٍ مخصوصةٍ مِنَ العلمِ والتمييزِ والهدايةِ ، وإذا اشتغلوا بها . . لَمْ يتفرَّغُوا لصناعةٍ أخرىٰ ، ويحتاجونَ إلى المعاشِ ، ويحتاجُ أهلُ البلدِ إليهِمْ ؛ إذْ لوِ اشتغلَ أهلُ البلدِ

بالحربِ معَ الأعداءِ مثلاً . . تعطَّلَتِ الصناعاتُ ، ولوِ اشتغلَ أهلُ الحربِ والسلاحِ بالصناعاتِ لطلبِ القوتِ . . تعطَّلَتِ البلادُ عنِ الحرَّاسِ ، واستضرَّ الناسُ ؛ فمسَّتِ الحاجةُ إلىٰ أنْ يُصرفَ إلىٰ معايشِهِمْ وأرزاقِهِمُ الأموالُ الضائعةُ التي لا مالكَ لها إنْ كانَتْ ، أو تُصرفَ إليهِمُ الغنائمُ إنْ كانَتِ العداوةُ معَ الكفارِ ، فإنْ كانُوا أهلَ ديانةٍ وورعٍ . . قنعوا بالقليلِ مِنْ أموالِ المصالحِ ، وإنْ أرادوا التَّوسُّعَ . . فتمسُّ الحاجةُ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ أنْ يمدَّهُمْ أهلُ البلدِ بأموالِهِمْ ؛ ليمدُّوهُمْ بالحراسةِ ، فتحدثُ الحاجةُ إلى الخراجِ .

ثمَّ يتولَّدُ بسببِ الحاجةِ إلى الخراجِ الحاجةُ إلىٰ صناعاتٍ أخرَ ؛ إذْ يُحتاجُ إلىٰ مَنْ يوظِّفُ الخراجَ بالعدلِ على الفلاحينَ وأربابِ الأموالِ ، وهمُ العمالُ ، وإلىٰ مَنْ يستوفي مِنْهُمْ بالرفقِ ، وهمُ الجباةُ والمستخرجونَ ، وإلىٰ مَنْ يُجمَعُ عندَهُ ليحفظَهُ إلىٰ وقتِ التفرقةِ ، وهمُ الخُزَّانُ ، وإلىٰ مَنْ يفرِّقُ عليهِمْ بالعدلِ ، وهوَ الفارضُ للعساكرِ .

وهـٰذهِ الأعمالُ لوْ تولاها عددٌ لا تجمعُهُمْ رابطةٌ . . انخرمَ النِّظامُ ، فحدثَتْ منهُ الحاجةُ إلىٰ مَلِكٍ يدبِّرُهُمْ ، وأميرٍ مطاعٍ يعيِّنُ لكلِّ عملٍ شخصاً ، ويختارُ لكلِّ واحدٍ ما يليقُ بهِ ، ويراعي النصَفَةَ في أخذِ الخراجِ وإعطائِهِ ، واستعمالِ الجندِ في الحربِ ، وتوزيعِ أسلحتِهِمْ ، وتعيينِ جهاتِ الحربِ ، ونصبِ الأميرِ والقائدِ علىٰ كلِّ طائفةٍ منهُمْ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ صناعاتِ الملكِ ، فيحدثُ مِنْ ذٰلكَ ـ بعدَ الجندِ الذينَ هُمْ أهلُ السلاحِ ، وبعدَ الملِكِ الذي يراقبُهُمْ بالعينِ الكالئةِ ويدبِّرُهُمْ ـ الحاجةُ إلى الكُتَّابِ ، والخزَّانِ ، والحسَّابِ ، والجباةِ ، والعمَّالِ .

ثمَّ هـٰؤلاءِ أيضاً يحتاجونَ إلىٰ معيشةٍ ، ولا يمكنُهُمُ الاشتغالُ بالحرَفِ ، فتحدُثُ الحاجةُ إلىٰ مالِ الفرعِ معَ مالِ الأصلِ ، وهوَ المسمَّىٰ فرعَ الخراجِ .

وعندَ هـٰذا يكونُ النَّاسُ في الصناعاتِ ثلاثَ طوائفَ :

الأولى : الفلاحونَ ، والرعاةُ ، والمحترفونَ .

والثانيةُ : الجنديَّةُ الحماةُ لهُمْ بالسيوفِ .

والثالثةُ : المتردِّدونَ بينَ الطائفتينِ في الأخذِ والعطاءِ ، وهمُ العمَّالُ ، والجباةُ ، وأمثالُهُمْ .

فانظرْ كيفَ ابتدأَ الأمرُ مِنْ حاجةِ القوتِ والمسكنِ والملبسِ ، وإلىٰ ماذا انتهىٰ ، وهـٰكذا أمورُ الدُّنيا لا يُفتحُ منها بابٌ إلا وينفتحُ بسببِهِ عشرةُ أبوابٍ أخرَ ، وهـٰكذا تتناهىٰ إلىٰ غيرِ حدٍّ محصورٍ ، وكأنَّها هاويةٌ لا نهايةَ لعمقِها ، مَنْ وقعَ في مهواةٍ منها . . سقطَ منها إلىٰ أُخرىٰ ، وهـٰكذا على التَّوالي .

فهـٰذهِ هيَ الحرفُ والصناعاتُ ، إلا أنَّها لا تتمُّ إلا بالأموالِ والآلاتِ ، والمالُ عبارةٌ عنْ أعيانِ الأرضِ وما عليها ممَّا يُنتفعُ بهِ ، وأعلاها الأغذيةُ ، ثمَّ الأمكنةُ التي يأوي الإنسانُ إليها ، وهيَ الدورُ ، ثمَّ الأمكنةُ التي يسعىٰ فيها للتعيُّشِ ؛ كالحوانيتِ ، والأسواقِ ، والمزارعِ ، ثمَّ الكسوةُ ، ثمَّ أثاثُ البيتِ وآلاتُهُ ، ثم آلاتُ الآلاتِ ، وقدْ يكونُ في الآلاتِ ما هوَ حيوانٌ ؛ كالكلبِ آلةِ الصيدِ ، والبقرِ آلةِ الحراثةِ ، والفرسِ آلةِ الحربِ ، ثمَّ يحدثُ مِنْ ذٰلكَ حاجةُ البيعِ ، فإنَّ الفلَّاحَ رُبَّما يسكنُ قريةً ليسَ فيها آلةُ الفلاحةِ ، والحدَّادُ والنَّجارُ يسكنانِ قريةً لا يمكنُ فيها الزراعةُ ؛ فبالضرورةِ يحتاجُ الفلاحُ إليهما ، ويحتاجانِ إلى الفلَّاحِ ، فيحتاجُ أحدُهُما أنْ يبذلَ ما عندَهُ للآخرِ حتَّىٰ يأخذَ منهُ غرضَهُ ، وذٰلكَ بطريقِ المعاوضةِ .

إلا أنَّ النَّجارَ مثلاً إذا طلبَ مِنَ الفلَّاحِ الغذاءَ بآلتِهِ ربَّما لا يحتاجُ الفلاحُ في ذٰلكَ الوقتِ إلى الآلةِ ؛ فلا يبيعُهُ ، والفلاحُ إذا طلبَ الآلةَ مِنَ النَّجارِ بالطعامِ ربَّما كانَ عندَهُ طعامٌ في ذٰلكَ الوقتِ ؛ فلا يحتاجُ إليهِ ، فتتعوَّقُ الأغراضُ ، فاضطُرُّوا إلىٰ حانوتٍ يجمعُ آلةَ كلِّ صناعةٍ يترصَّدُ بها صاحبُها أربابَ الحاجاتِ ، وإلىٰ أنبارٍ يُجمَعُ إليها ما يحملُهُ الفلاحونَ ، فيشتريهِ منهُمْ صاحبُ الأنبارِ[1] يترصَّدُ بهِ أربابَ الحاجاتِ ، فظهرَ لذٰلكَ الأسواقُ والمخازنُ ، فيحملُ الفلاحُ الحبوبَ ، فإذا لمْ يصادفْ محتاجاً . . باعَها بثمنٍ رخيصٍ مِنَ الباعةِ ، فيخزِّنونَها في انتظارِ أربابِ الحاجاتِ ؛ طمعاً في الربحِ ، وكذٰلكَ في جميعِ الأمتعةِ والأموالِ .

ثمَّ يحدثُ ـ لا محالةَ ـ بينَ البلادِ والقرىٰ تردُّدٌ ، فيتردَّدُ الناسُ يشترونَ مِنَ القرى الأطعمةَ ، ومِنَ البلادِ الآلاتِ ، وينقلونَها ويتعيَّشونَ بهَا ؛ لتنتظمَ أمورُ الناسِ في البلادِ بسبَبِهِمْ ؛ إذْ كلُّ بلدٍ ربما لا تُوجدُ فيهِ كلُّ آلةٍ ، وكلُّ قريةٍ لا يُوجدُ فيها كلُّ طعامٍ ، والبعضُ يحتاجُ إلى البعضِ ، فيحوجُ إلى النَّقلِ ، فيَحدُثُ التجَّارُ المتكلِّفونَ بالنقلِ ، وباعثُهُمْ عليهِ حرصُ جمعِ المالِ لا محالةَ ، فيتعبونَ طولَ الليلِ والنهارِ في الأسفارِ لأغراضِ غيرِهِمْ ، ونصيبُهُمْ منها جمعُ المالِ الذي يأكلُهُ ـ لا محالةَ ـ غيرُهُمْ ، إمَّا قاطعُ طريقٍ ، وإمَّا سلطانٌ ظالمٌ ، ولٰكنْ جعلَ اللهُ تعالىٰ في غفلتِهِمْ وجهلِهِمْ نظاماً للبلادِ ، ومصلحةً للعبادِ ، بلْ جميعُ أمورِ الدُّنيا انتظمَتْ بالغفلةِ وخسَّةِ الهمَّةِ ، ولوْ عقلَ الناسُ وارتفعَتْ هممُهُمْ . . لزهدوا في الدُّنيا ، ولوْ فعلوا ذٰلكَ . . لبطلتِ المعايشُ ، ولوْ بطلَتْ . . لهلكوا ، ولهلكَ الزُّهادُ أيضاً .

ثمَّ هٰذهِ الأموالُ التي تُنقلُ لا يقدرُ الإنسانُ علىٰ حملِها ؛ فتحتاجُ إلىٰ دوابَّ تحملُها ، وصاحبُ المالِ قدْ لا يملكُ دابةً ، فتحدثُ معاملةٌ بينَهُ وبينَ مالكِ الدابَّةِ تُسمَّى الإجارةَ ، ويصيرُ الكراءُ نوعاً مِنَ الاكتسابِ أيضاً .

ثمَّ تحدثُ بسببِ البِياعاتِ الحاجةُ إلى النقدينِ[2] ؛ فإنَّ مَنْ يريدُ أنْ يشتريَ طعاماً بثوبٍ . . فمِنْ أينَ يدري أنَّ المقدارَ الذي يساويهِ مِنَ الطعامِ كمْ هوَ ؟ والمعاملةُ تجري في أجناسٍ مختلفةٍ ؛ كما يُباعُ ثوبٌ بطعامٍ ، وحيوانٌ بثوبٍ ، وهٰذهِ أمورٌ لا تتناسبُ ؛ فلا بدَّ مِنْ حاكمٍ عدلٍ يتوسَّطُ بينَ المتاعينِ ، يعدِّلُ أحدَهُما بالآخرِ ، فيُطلَبُ ذٰلكَ العِدْلُ مِنْ أعيانِ الأموالِ .

ثمَّ يُحتاجُ إلىٰ مالٍ يطولُ بقاؤُهُ ؛ لأنَّ الحاجةَ إليهِ تدومُ ، وأبقى الأموالِ المعادنُ ؛ فاتخذَتِ النقودُ مِنَ الذهبِ والفضةِ والنحاسِ .

ثمَّ مسَّتِ الحاجةُ إلى الضربِ والنَّقشِ والتقديرِ ؛ فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ دارِ الضرْبِ وإلى الصيارفةِ .

وهٰكذا تتداعى الأشغالُ والأعمالُ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، حتَّى انتهَتْ إلىٰ ما تراهُ .

فهٰذهِ أشغالُ الخلقِ ، وهيَ معايشُهُمْ .

وشيءٌ مِنْ هٰذهِ الحِرَفِ لا يمكنُ مباشرتُهُ إلا بنوعِ تعلُّمٍ وتعبٍ في الابتداءِ ، ومِنَ الناسِ مَنْ يغفُلُ عنْ ذٰلكَ في الصِّبا فلا يشتغلُ بهِ ، أوْ يمنعُهُ عنهُ مانعٌ ، فيبقىٰ عاجزاً عنِ الاكتسابِ ؛ لعجزِهِ عنِ الحرفِ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يأكلَ ممَّا يسعىٰ فيهِ غيرُهُ ، فتحدثُ منهُ حرفتانِ خسيستانِ : اللصوصيَّةُ ، والكِديةُ[3] ؛ إذْ يجمعُهُما أنَّهما يأكلانِ مِنْ سعيِ غيرِهِما .

---

(١) في (ب) : (أبيات) و(الأبيات) بدل (أنبار) و(الأنبار) .

(٢) البياعات : الأشياء التي يتبايع بها في التجارة .

(٣) الكِدية : هي الشحاذة ؛ أي : التكفف من الناس . « إتحاف » (١٣٥/٨) .

ثم إنَّ الناسَ يحترزونَ مِنَ اللصوصِ والمكدينَ ، ويحفظونَ عنهُمْ أموالَهُمْ ، فافتقرُوا إلىٰ صرفِ عقولِهِمْ في استنباطِ الحيلِ والتدابيرِ ، أمَّا اللصوصُ . . فمنهُمْ مَنْ يطلبُ أعواناً ، ويكونُ في يديهِ شوكةٌ وقوَّةٌ ، فيجتمعونَ ويتكاثرونَ ويقطعونَ الطرقَ ؛ كالأعرابِ والأكرادِ ، وأمَّا الضعفاءُ منهُمْ . . فيفزعونَ إلى الحيَلِ ؛ إمَّا بالنقبِ والتسلُّقِ عندَ انتهازِ فرصةِ الغفلةِ ، وإمَّا بأنْ يكونَ طرَّاراً أو سلَّالاً[1] ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ أنواعِ التلصُّصِ الحادثةِ بحسبِ ما أنتجَتْهُ الأفكارُ المصروفةُ إلى استنباطِها .

وأمَّا المُكدي : فإنَّهُ إذا طلبَ ما سعىٰ فيهِ غيرُهُ . . قيلَ لهُ : اتعبْ واعملْ كما عملَ غيرُكَ ، فما لكَ وللبطالةِ ؟! فلا يُعطىٰ شيئاً ، فافتقرَ إلىٰ حيلةٍ في استخراجِ الأموالِ وتمهيدِ العذرِ لأنفسِهِمْ في البطالةِ ، فاحتالُوا للتعلُّلِ بالعجْزِ ؛ إمَّا بالحقيقةِ ؛ كجماعةٍ يعمونَ أولادَهُمْ وأنفسَهُمْ بالحيلةِ ليُعذروا بالعمىٰ فيُعطَونَ ، وإمَّا بالتعامي ، والتفالجِ ، والتجانُنِ ، والتمارضِ وإظهارِ ذٰلكَ بأنواعٍ مِنَ الحيَلِ معَ بيانِ أنَّ تلكَ محنةٌ أصابَتْ مِنَ غيرِ استحقاقٍ ، ليكونَ ذٰلكَ سببَ الرحمةِ .

وجماعةٌ يلتمسونَ أقوالاً وأفعالاً يتعجَّبُ الناسُ مِنْها حتَّىٰ تنبسطَ قلوبُهُمْ عندَ مشاهدَتِها ، فيسخوا برفعِ اليدِ عنْ قليلٍ مِنَ المالِ في حالِ التعجُّبِ ، ثمَّ قدْ يندمُ بعدَ زوالِ التعجُّبِ ، ولا ينفعُ الندمُ ، وذٰلكَ قدْ يكونُ بالتمسخرِ ، والمحاكاةِ ، والشعبذةِ ، والأفعالِ المضحكةِ ، وقدْ يكونُ بالأشعارِ الغريبةِ ، والكلامِ المنثورِ المسجعِ معَ حسنِ الصوتِ ، والشعرُ الموزونُ أشدُّ تأثيراً في النفسِ ، لا سيَّما إذا كانَ فيهِ تعصُّبٌ يتعلَّقُ بالمذاهبِ ؛ كأشعارِ مناقبِ الصحابةِ ، وفضائلِ أهلِ البيتِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، أوِ الذي يحرِّكُ داعيةَ العشقِ مِنْ أهلِ المجانةِ ؛ كصنعةِ الطبَّالينَ في الأسواقِ ، أوْ تسليمِ ما يشبهُ العوضَ وليسَ بعوضٍ ؛ كبيعِ التعويذاتِ والحشائشِ التي يخيِّلُ بائعُها أنَّها أدويةٌ ، فيخدعُ بذٰلكَ الصبيانَ والجهَّالَ ، وكأصحابِ القرعةِ والفألِ مِنَ المنجِّمينَ ، ويدخلُ في هٰذا الجنسِ الوعَّاظُ المكدونَ علىٰ رؤوسِ المنابرِ ، إذا لمْ يكنْ وراءَهُمْ طائلٌ علميٌّ ، وكانَ غرضُهُمْ استمالةَ قلوبِ العوامِّ وأخذَ أموالِهِمْ ، وأنواعُ الكدية تزيدُ علىٰ ألفِ نوعٍ وألفينِ ، وكلُّ ذٰلكَ استنبطَ بدقيقِ الفكرِ لأجلِ المعيشةِ .

فهٰذهِ هيَ أشغالُ الخلقِ وأعمالُهُمْ التي أكبُّوا عليها ، وجرَّهُمْ إلىٰ ذٰلكَ كلِّهِ الحاجةُ إلى القوتِ والكسوةِ ، ولٰكنْ نسوا في أثناءِ ذٰلكَ أنفسَهُمْ ومقصودَهُمْ ومنقلبَهُمْ ومآبَهُمْ ، فضلُّوا وتاهُوا ، وسبقَ إلىٰ عقولِهِمُ الضعيفةِ بعدَ أنْ كدَّرَتْها زحمةُ أشغالِ الدُّنيا خيالاتٌ فاسدةٌ ، فانقسمَتْ مذاهبُهُمْ ، واختلفَتْ آراؤُهُمْ علىٰ عدَّةِ أوجهٍ :

فطائفةٌ غلبَهُمُ الجهلُ والغفلةُ ، فلمْ تنفتحْ أعينُهُمْ للنظرِ إلىٰ عاقبةِ أمرِهِمْ ، فقالوا : المقصودُ أنْ نعيشَ أياماً في الدُّنيا ، فنجتهدَ حتَّىٰ نكتسبَ القوتَ ، ثمَّ نأكلَ حتَّىٰ نقوىٰ على الكسبِ ، ثمَّ نكتسبَ حتَّىٰ نأكلَ ، فيأكلونَ ليكسِبوا ، ثمَّ يكسِبونَ ليأكلُوا ، وهٰذا مذهبُ الفلاحينَ والمحترفينَ ، ومَنْ ليسَ لهُ تنعُّمٌ في الدُّنيا ، ولا قدمٌ في الدِّينِ ؛ فإنَّهُ يتعبُ نهاراً ليأكلَ ليلاً ، ويأكلُ ليلاً ليتعبَ نهاراً ، وذٰلكَ كسيرِ السَّواني[2] ؛ فهوَ سفرٌ لا ينقطعُ إلا بالموتِ .

وطائفةٌ أخرىٰ زعمُوا أنَّهُم تفطَّنُوا للأمرِ ، وهوَ أنَّهُ ليسَ المقصودُ أنْ يشقىٰ الإنسانُ بالعملِ ولا يتنعمَ في الدُّنيا ، بلِ السعادةُ في أنْ يقضيَ وطرَهُ مِنْ شهواتِ الدُّنيا ، وهيَ شهوةُ البطنِ والفرجِ ؛ فهٰؤلاءِ نسوا أنفسَهُمْ ، وصرفوا هممَهُمْ

---

(١) **الطرار** : هو الذي يقطع النفقات ويأخذها علىٰ غفلة من أهلها ، **والسلال** : المختلس . « إتحاف » (١٣٥/٨) .

(٢) **السواني** : جمع سانية ، الناقة تدور ويستقىٰ عليها الماء ، وفي المثل : سير السواني سفر لا ينقطع .

إلى اتباعِ النسوانِ ، وجمع لذائذِ الأطعمةِ ، فيأكلونَ كما تأكلُ الأنعامُ ، ويظنونَ أنَّهُمْ إذا نالوا ذٰلكَ . . فقدْ أدركُوا غايةَ السعاداتِ ، فشغلَهُمْ ذٰلكَ عنِ اللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في كثرةِ المالِ ، والاستغناءِ بكثرةِ الكنوزِ ، فأسهرُوا ليلَهُمْ ، وأتعبُوا نهارَهمْ في الجمعِ ، فهُمْ يتعبونَ في الأسفارِ طولَ الليلِ والنهارِ ، ويتردَّدونَ في الأعمالِ الشاقةِ ، ويكتسبونَ ويجمعونَ ، ولا يأكلونَ إلا قدْرَ الضرورةِ ؛ شحّاً وبخلاً عليها أنْ تنقصَ ، وهٰذهِ لذَّتُهُمْ ، وفي ذٰلكَ دأبُهُمْ وحركتُهُمْ إلىٰ أنْ يدركَهُمُ الموتُ ، فيبقىٰ تحتَ الأرضِ ، أوْ يظفرُ بهِ مَنْ يأكلُهُ في الشهواتِ واللذَّاتِ ، فيكونُ للجامعِ تعبُها ووبالُها ، وللآكلِ لذتُها ، ثمَّ الذينَ يجمعونَ ينظرونَ إلىٰ أمثالِ ذٰلكَ ولا يعتبرونَ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في حُسنِ الاسمِ ، وانطلاقِ الألسنةِ بالثناءِ ، والمدحِ بالتجمُّلِ والمروءةِ ، فهٰؤلاءِ يتعبونَ في كسبِ المعاشِ ، ويضيِّقونَ علىٰ أنفسِهِمْ في المطعمِ والمشربِ ، ويصرفونَ جميعَ أموالِهِمْ إلى الملابسِ الحسنةِ ، والدوابِّ النفيسةِ ، ويزخرفونَ أبوابَ الدورِ ، وما يقعُ عليهِ أبصارُ الناسِ ؛ حتَّىٰ يُقالَ : إنَّهُ غنيٌّ ، وإنَّهُ ذو ثروةٍ ، ويظنُّونَ أنَّ ذٰلكَ هوَ السعادةُ ، فهمَّتُهُمْ ليلَهُمْ ونهارَهُمْ في تعهُّدِ موقعِ نظرِ الناسِ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في الجاهِ والكرامةِ بينَ الناسِ وانقيادِ الخلقِ بالتواضعِ والتوقيرِ ؛ فصرفُوا هممَهُمْ إلى استجرارِ الناسِ إلى الطاعةِ بطلبِ الولاياتِ ، وتقلُّدِ الأعمالِ السلطانيةِ ؛ لينفذَ أمرُهُمْ بها علىٰ طائفةٍ مِنَ الناسِ ، ويرونَ أنَّهُمْ إذا اتسعَتْ ولايتُهُمْ ، وانقادَتْ لهُمْ رعاياهُمْ . . فقدْ سعدوا سعادةً عظيمةً ، وأنَّ ذٰلكَ غايةُ المطلبِ ، وهٰذهِ أغلبُ الشهواتِ علىٰ قلوبِ المتعاقلينَ مِنَ الناسِ[1] ، فهٰؤلاءِ شغلَهُمْ حبُّ تواضعِ الناسِ لهُمْ عنِ التواضعِ للهِ ، وعنْ عبادتِهِ ، وعنِ التفكرِ في آخرتِهِمْ ومعادِهِمْ .

ووراءَ هٰؤلاءِ طوائفُ يطولُ حصرُها ، تزيدُ علىٰ نيفٍ وسبعينَ فرقةً ، كلُّهُمْ قدْ ضَلُّوا وأضلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ ، وإنَّما جرَّهُم إلىٰ جميعِ ذٰلكَ حاجةُ المطعمِ والملبسِ والمسكنِ ، ونسوا ما تُرادُ لهُ هٰذهِ الأمورُ الثلاثةُ ، والقدْرَ الذي يكفي منها ، وانجرَّتْ بهِمْ أوائلُ أسبابِها إلىٰ أواخرِها ، وتداعىٰ بهِمْ ذٰلكَ إلىٰ مهاوٍ لمْ يمكنْهُمُ التَّرقِّي منها .

فمَنْ عرفَ وجهَ الحاجةِ إلىٰ هٰذهِ الأسبابِ والأشغالِ ، وعرفَ غايةَ المقصودِ منها . . فلا يخوضُ في شغلٍ وحرفةٍ وعملٍ إلا وهوَ عالمٌ بمقصودِهِ ، وعالمٌ بحظِّهِ ونصيبِهِ منهُ ، وأنَّ غايةَ مقصودِهِ تعهُّدُ بدنِهِ بالقوتِ والكسوةِ حتَّىٰ لا يهلكَ .

وذٰلكَ إنْ سلكَ فيهِ سبيلَ التقليلِ . . اندفعَتِ الأشغالُ عنهُ ، وفرغَ القلبُ ، وغلبَ عليهِ ذكرُ الآخرةِ ، وانصرفَتِ الهمَّةُ إلى الاستعدادِ لهُ ، وإنْ تعدَّىٰ بهِ قدْرَ الضرورةِ . . كثرَتِ الأشغالُ ، وتداعى البعضُ إلى البعضِ ، وتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، فتشعَّبَتْ بهِ الهمومُ ، ومَنْ تشعَّبَتْ بهِ الهمومُ في أوديةِ الدُّنيا . . فلا يبالي اللهُ تعالىٰ في أيِّ وادٍ أهلكَهُ[2] .

فهٰذا شأنُ المنهمكينَ في أشغالِ الدُّنيا .

---

(١) في (د) : (المتغافلين) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/١٣٦) : (الغافلين) بدل (المتعاقلين) .

(٢) فقد روى ابن ماجه (٢٥٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من جعل الهموم هماً واحداً همَّ الآخرة . . كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعَّبت به الهموم في أحوال الدنيا . . لم يبال الله في أي أوديتها هلك » .

وتنبَّهَ لذٰلكَ طائفةٌ ، فأعرضُوا عنِ الدُّنيا ، فحسدَهُمُ الشيطانُ ، ولمْ يتركْهُمْ ، وأضلَّهُمْ في الإعراضِ أيضاً ، حتَّىٰ انقسمُوا إلىٰ طوائفَ :

فظنَّتْ طائفةٌ أنَّ الدُّنيا دارُ بلاءٍ ومحنةٍ ، وأنَّ الآخرةَ دارُ سعادةٍ لكلِّ مَنْ وصلَ إليها ، سواءٌ تعبَّدَ في الدُّنيا أوْ لمْ يتعبَّدْ ؛ فرأوا أنَّ الصوابَ في أنْ يقتلوا أنفسَهُمْ ؛ للخلاصِ مِنْ محنةِ الدُّنيا .

وإليهِ ذهبَ طائفةٌ منَ العبَّادِ مِنْ أهلِ الهندِ بلْ طوائفُ (1) ، فهُمْ يتهجَّمُونَ على النارِ ويقتلونَ أنفسَهُمْ بالإحراقِ ، ويظنُّونَ أنَّ ذٰلكَ خلاصٌ لهُمْ مِنْ محنِ الدُّنيا .

وظنَّتْ طائفةٌ أخرىٰ أنَّ القتلَ لا يخلِّصُ ، بلْ لا بدَّ أوَّلاً مِنْ إماتةِ الصفاتِ البشريةِ ، وقطعِها عنِ النفسِ بالكلِّيَّةِ ، وأنَّ السعادةَ في قطعِ الشهوةِ والغضبِ .

ثمَّ أقبلوا على المجاهدةِ ، وشدَّدُوا علىٰ أنفسِهِمْ ، حتَّىٰ هلَكَ بعضُهُمْ بشدَّةِ الرياضةِ ، وبعضُهُمْ فسدَ عقلُهُ وجُنَّ ، وبعضُهُمْ مرضَ وانسدَّ عليهِ طريقُ العبادةِ ، وبعضُهُمْ عجزَ عنْ قمعِ الصفاتِ بالكلِّيَّةِ ، فظنَّ أنَّ ما كلَّفَهُ الشرعُ محالٌ ، وأنَّ الشرعَ تلبيسٌ لا أصلَ لهُ ، فوقعَ في الإلحادِ .

وظهرَ لبعضِهِمْ أنَّ هٰذا التعبَ كلَّهُ للهِ ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ مستغنٍ عنْ عبادةِ العبادِ ، لا ينقصُهُ عصيانُ عاصٍ ، ولا تزيدُهُ عبادةُ عابدٍ ، فعادُوا إلى الشهواتِ ، وسلكُوا مسلكَ الإباحةِ ، وطوَوا بساطَ الشرعِ والأحكامِ .

وزعمُوا أنَّ ذٰلكَ مِنْ صفاءِ توحيدِهِمْ ، حيثُ اعتقدُوا أنَّ اللهَ مستغنٍ عنْ عبادةِ العبادِ .

وظنَّتْ طائفةٌ أخرىٰ أنَّ المقصودَ مِنَ العباداتِ المجاهدةُ حتَّىٰ يصلَ العبدُ بها إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإذا حصلَتِ المعرفةُ . . فقدْ وصلَ ، وبعدَ الوصولِ يستغني عنِ الوسيلةِ والحيلةِ .

فتركُوا السعيَ والعبادةَ ، وزعمُوا أنَّهُ ارتفعَ محلُّهُمْ في معرفةِ اللهِ سبحانَهُ عنْ أنْ يُمتَهَنوا بالتكاليفِ ، وإنَّما التكاليفُ علىٰ عوامِّ الخلقِ .

ووراءَ هٰذا مذاهبُ باطلةٌ ، وضلالاتٌ هائلةٌ يطولُ إحصاؤُها ، إلىٰ أنْ تبلغَ نيفاً وسبعينَ فرقةً .

وإنَّما الناجي مِنْها فرقةٌ واحدةٌ ، وهيَ السالكةُ ما كانَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ .

وهوَ ألَّا يتركَ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ ، ولا يقمعَ الشهواتِ بالكلِّيَّةِ .

أمَّا الدُّنيا . . فيأخذُ مِنْها قدْرَ الزادِ .

وأمَّا الشهواتُ . . فيقمعُ مِنْها ما يخرجُ عنْ طاعةِ الشرعِ والعقلِ ؛ فلا يتبعُ كلَّ شهوةٍ ، ولا يتركُ كلَّ شهوةٍ ، بلْ يتبعُ العدلَ ، ولا يتركُ كلَّ شيءٍ مِنَ الدُّنيا ، ولا يطلبُ كلَّ شيءٍ مِنَ الدُّنيا .

بلْ يعلمُ مقصودَ كلِّ ما خلقَ اللهُ مِنَ الدُّنيا ، ويحفظُهُ علىٰ حدِّ مقصودِهِ ، فيأخذُ مِنَ القوتِ ما يقوِّي بِهِ البدنَ على العبادةِ ، ومِنَ المسكنِ ما يحفظُهُ مِنَ اللصوصِ والحرِّ والبردِ ، ومِنَ الكسوةِ كذٰلكَ ، حتَّىٰ إذا فرغَ القلبُ مِنْ شغلِ البدنِ . . أقبلَ على اللهِ تعالىٰ بكُنْهِ همَّتِهِ ، واشتغلَ بالذكرِ والفكرِ طولَ العمرِ ، وبقيَ ملازماً لسياسةِ الشهواتِ ، ومراقباً لها حتَّىٰ لا يجاوزَ حدودَ الورعِ والتقوىٰ .

---

(1) هم البراهمة المعروفة بالجركية . « إتحاف » (١٣٨/٨) .

ولا يعلمُ تفصيلَ ذٰلكَ إلا بالاقتداءِ بالفرقةِ الناجيةِ .

والفرقةُ الناجيةُ : هُمُ الصحابةُ ؛ فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قالَ : « النَّاجي منها واحدةٌ » . . قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ ومَنْ هُمْ ؟ قالَ : « أهلُ السنَّة والجماعةِ » ، فقيلَ : ومَنْ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ ؟ قالَ : « ما أنا عليهِ وأصحابِي »(١)

وقدْ كانُوا على المنهجِ القصْدِ ، وعلى السبيلِ الواضحِ الذي فصَّلناهُ مِنْ قبلُ .

فإنَّهُمْ ما كانوا يأخذونَ الدُّنيا للدُّنيا ، بلْ للدِّينِ .

وما كانوا يترهَّبونَ ويهجرونَ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ .

وما كانَ لهُمْ في الأمورِ تفريطٌ ولا إفراطٌ ، بلْ كانَ أمرُهُمْ بينَ ذٰلكَ قَواماً ، وذٰلكَ هوَ العدْلُ والوسطُ بينَ الطرفينِ ، وهو أحبُّ الأمورِ إلى اللهِ تعالىٰ كما سبقَ ذكرُهُ في مواضعَ ، واللهُ أعلمُ .

والحمدُ للهِ أولاً وآخراً ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ .



تمّ كتاب ذمّ الدنيا

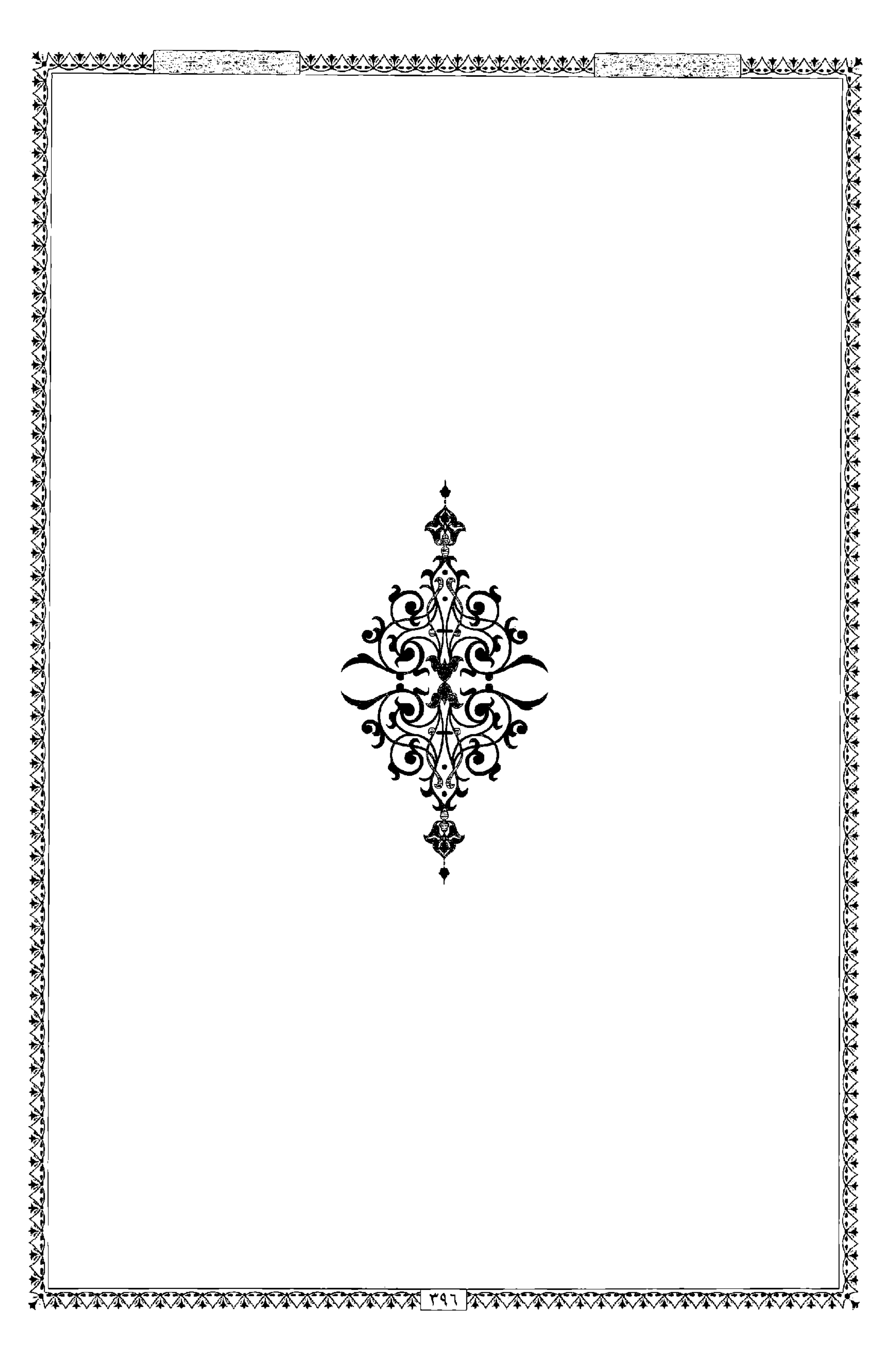
وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

وصلّى الله على سيّدنا محمّد النّبيّ العربيّ المصطفى وعلى آله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب ذمّ المال والبخل

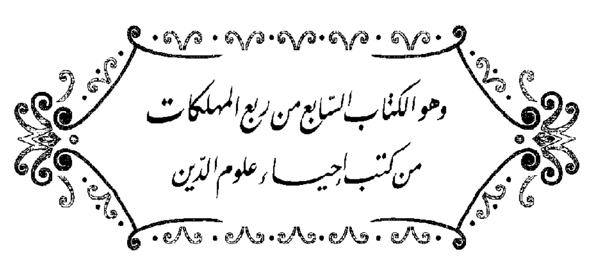
---

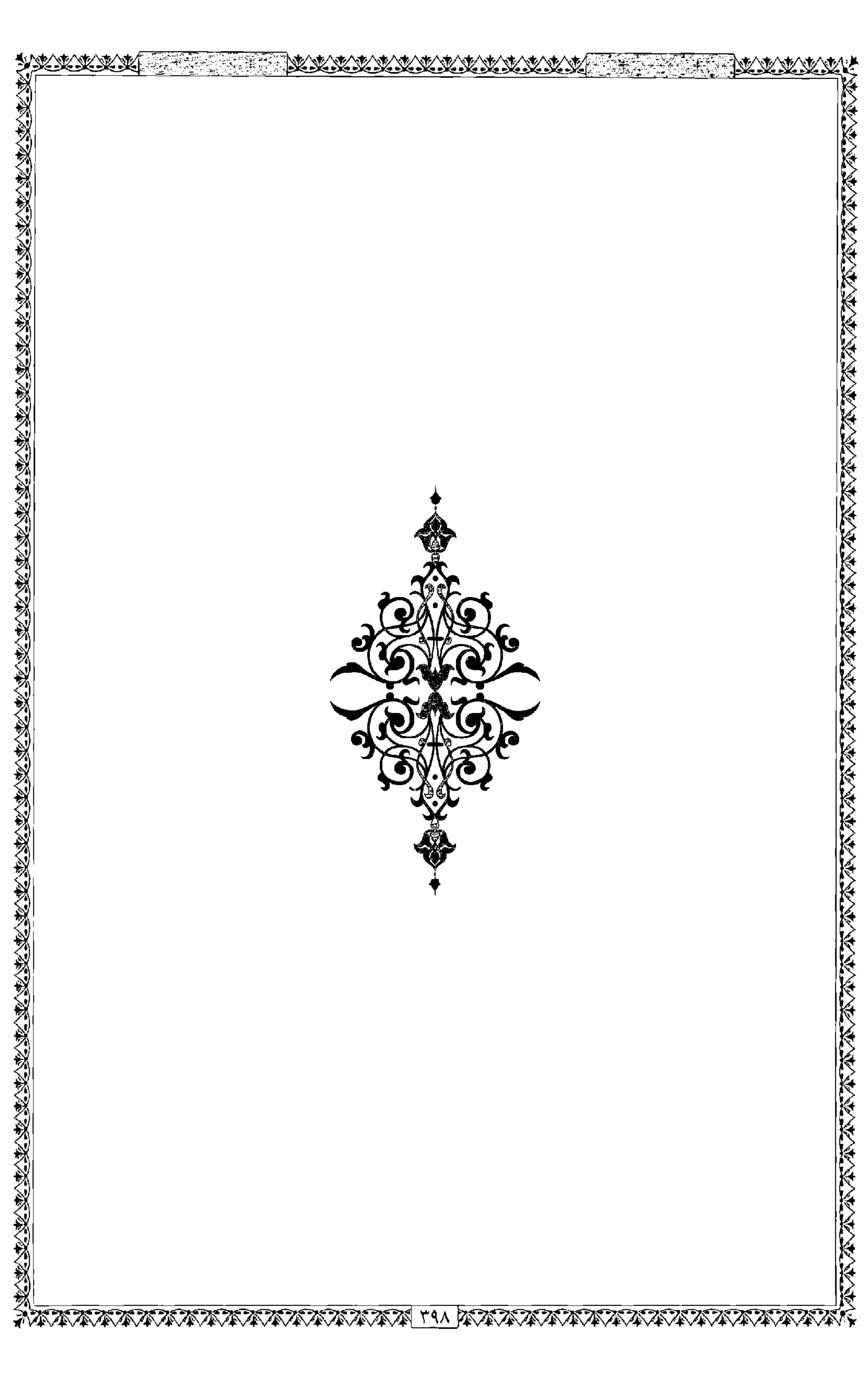
(١) وهو الحديث الذي رواه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية . . لكان في أمتي من يصنع ذٰلك ، وإن بني إسرائيل تفرّقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة » ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » . وعند أبي داوود (٤٥٩٧) من حديث معاوية رضي الله عنه بنحوه ، وفيه : « وهي الجماعة » ، والكلام على هٰذا الحديث طويل الذيل عند المحدثين وعلماء الكلام ، وانظر « الإتحاف » (١٤٠/٨) .



كتاب

ذمّ المال والبخل





كتاب ذمّ المال والبخل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ مستوجبِ الحمدِ برزقِهِ المبسوطِ ، وكاشفِ الضُّرِّ بعدَ القنوطِ ، الذي خلقَ الخلقَ ووسَّعَ الرزقَ ، وأفاضَ على العالمينَ أصنافَ الأموالِ ، وابتلاهُمْ فيها بتقلُّبِ الأحوالِ ، وردَّدَهُمْ فيها بينَ العُسرِ واليُسرِ ، والغنىٰ والفقرِ ، والطمعِ واليأسِ ، والثروةِ والإفلاسِ ، والعجزِ والاستطاعةِ ، والحرصِ والقناعةِ ، والبخلِ والجودِ ، والفرحِ بالموجودِ ، والأسفِ على المفقودِ ، والإيثارِ والإنفاقِ ، والتوسُّعِ والإملاقِ ، والتبذيرِ والتقتيرِ ، والرضا بالقليلِ ، واستحقارِ الكثيرِ ، كلُّ ذٰلكَ ليبلوَهُمْ أيُّهُمْ أحسنُ عملاً ، وينظرَ أيُّهُمْ آثرَ الدنيا على الآخرةِ بدلاً ، وابتغىٰ عنِ الآخرةِ عُدولاً وحِوَلاً ، واتخذَ الدنيا ذخيرةً وخَوَلاً

والصلاةُ علىٰ محمدٍ الذي نسخَ بملَّتِهِ مِللاً ، وطوىٰ بشريعتِهِ أدياناً ونِحَلاً ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ سلكوا سبيلَ ربِّهِمْ ذُلُلاً ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أمّا بعد :

فإنَّ فتنَ الدنيا كثيرةُ الشُّعَبِ والأطرافِ ، واسعةُ الأرجاءِ والأكنافِ ، ولٰكنَّ الأموالَ أعظمُ فتنِها ، وأطمُّ محنِها ، وأعظمُ فتنةٍ فيها أنَّهُ لا غنىٰ لأحدٍ عنها ، ثمَّ إذا وُجِدَتْ . . فلا سلامةَ مِنْها ، فإنْ فُقِدَ المالُ . . حصلَ مِنْهُ الفقرُ الذي يكادُ أنْ يكونَ كفراً ، وإنْ وُجِدَ . . حصلَ منه الطُّغيانُ الذي لا يكونُ عاقبةُ أمرِهِ إلا خُسْراً .

وبالجملةِ : فهي لا تخلو مِنَ الفوائدِ والآفاتِ ، وفوائدُها مِنَ المنجياتِ ، وآفاتُها مِنَ المهلكاتِ ، وتمييزُ خيرِها مِنْ شرِّها مِنَ المعوصاتِ ، التي لا يقوىٰ عليها إلا ذوُو البصائرِ في الدينِ ، مِنَ العلماءِ الراسخينَ دونَ المترسمينَ المغترينَ .

وشرحُ ذٰلكَ مهمٌّ على الانفرادِ ، فإنَّ ما ذكرْناهُ في كتاب ذمِّ الدُّنيا لمْ يكنْ نظراً في المالِ خاصةً ، بلْ في الدنيا عامةً ؛ إذِ الدنيا تتناولُ كلَّ حظٍّ عاجلٍ ، والمالُ بعضُ أجزاءِ الدنيا ، والجاهُ بعضُها ، واتباعُ شهوةِ البطنِ والفرجِ بعضُها ، وتشفِّي الغيظِ بحُكْمِ الغضبِ والحسدِ بعضُها ، والكبْرُ وطلبُ العلوِّ بعضُها ، ولها أبعاضٌ كثيرةٌ ، ويجمعُها كلُّ ما للإنسانِ فيهِ حظٌّ عاجلٌ .

ونظرُنا الآنَ في هٰذا الكتابِ في المالِ وحدَهُ ؛ إذْ فيهِ آفاتٌ وغوائلُ ، وللإنسانِ مِنْ فقدِهِ صفةُ الفقرِ ، ومِنْ وجودِهِ صفةُ الغنىٰ ، وهما حالتانِ يحصلُ بهما الاختبارُ والامتحانُ .

ثمَّ للفاقدِ حالتانِ : القناعةُ والحرصُ ، وإحداهُما مذمومةٌ والأخرىٰ محمودةٌ .

وللحريصِ حالتانِ : طمعٌ فيما في أيدي الناسِ ، أوْ تشمُّرٌ للحرفِ والصناعاتِ معَ اليأسِ عنِ الخلقِ ، والطمعُ شرُّ الحالتينِ .

وللواجدِ حالتانِ : إمساكٌ بحكمِ البخلِ والشحِّ ، وإنفاقٌ ، وإحداهما مذمومةٌ والأخرىٰ محمودةٌ .

وللمنفقِ حالتانِ : تبذيرٌ واقتصادٌ ، والمحمودُ هوَ الاقتصادُ .

وهٰذهِ أمورٌ متشابهةٌ ، وكشفُ الغطاءِ عنِ الغموضِ فيها مهمٌّ ، ونحنُ نشرحُ ذٰلكَ في أربعةَ عشرَ فصلاً إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وهيَ : بيانُ ذمِّ المالِ ، ثمَّ مدحِهِ ، ثمَّ تفصيلِ فوائدِ المالِ وآفاتِهِ ، ثمَّ ذمِّ الحرصِ والطمعِ ، ثمَّ علاجِ الحرصِ والطمعِ ، ثمَّ فضيلةِ السخاءِ ، ثمَّ حكاياتِ الأسخياءِ ، ثمَّ ذمِّ البخلِ ، ثمَّ حكاياتِ البخلاءِ ، ثمَّ الإيثارِ وفضلِهِ ، ثمَّ حدِّ السخاءِ والبخلِ ، ثمَّ علاجِ البخلِ ، ثمَّ مجموعِ الوظائفِ في المالِ ، ثمَّ ذمِّ الغنىٰ ومدحِ الفقرِ .

* * *

بيان ذمّ المال وكراهة حبّه

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ .

فمَنِ اختارَ مالَهُ وولدَهُ علىٰ ما عندَ اللهِ . . فقدْ خسرَ وغبنَ خسراناً عظيماً .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والشرفِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أُرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ فساداً فيها مِنْ حُبِّ الشرفِ والمالِ والجاهِ في دينِ الرجلِ المسلمِ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلكَ الأكثرونَ إلَّا مَنْ قالَ بهِ في عبادِ اللهِ هٰكذا وهٰكذا ، وقليلٌ ما هُمْ »(٣)

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ أمَّتِكَ شرٌّ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الأغنياءُ »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيأتي بعدَكُمْ قومٌ يأكلونَ أطايبَ الدنيا وألوانَها ، ويركبونَ فُرْهَ الخيلِ وألوانَها ، وينكحونَ أجملَ النساءِ وألوانَها ، ويلبسونَ أليَنَ الثيابِ وألوانَها ، لهُمْ بطُونٌ مِنَ القليلِ لا تشبعُ ، وأنفسٌ بالكثيرِ لا تقنعُ ، عاكفونَ على الدنيا يغدونَ ويروحونَ إليها ، اتَّخذوها آلهةً مِنْ دونِ إلٰـهِهِمْ ، وربّاً دونَ ربِّهِمْ ، إلىٰ أمرِها ينتهونَ ، وهواهُمْ يتَّبعونَ ، فعزيمةٌ مِنْ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ لمَنْ أدركَ ذٰلكَ الزمانَ مِنْ عقبِ عقبِكُمْ وخلفِ خلفِكُمْ ألا يسلِّمَ عليهِمْ ، ولا يعودَ مرضاهُمْ ، ولا يتَّبعَ جنائزَهُمْ ، ولا يوقِّرَ كبيرَهُمْ ، فمَنْ فعلَ ذٰلكَ . . فقدْ أعانَ علىٰ هدمِ الإسلامِ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعُوا الدنيا لأهلِها ، مَنْ أخذَ مِنَ الدنيا فوقَ ما يكفيهِ . . أخذَ حتفَهُ وهوَ لا يشعرُ »(٦) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ ، وذكره بعد هـٰذا بلفظ الجاه بدل الشرف) . « إتحاف » (٨/١٤٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » ، وبنحو لفظ المصنف مروي عند الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/٥٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم حديث « هم الأخسرون . . . » الذي رواه البخاري (٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) .

(٤) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٧٠) ، وروى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) من حديث السيدة فاطمة عليها السلام مرفوعاً : « شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ، الذين يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون في الكلام » .

(٥) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٩٦) وبتمامه ، وروىٰ بعضه الطبراني في « الكبير » (٨/١٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٩٠) من حديث أبي أمامة مرفوعاً ، ولفظه : « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ، ويشربون ألوان الشراب ، ويلبسون ألوان اللباس ، ويتشدقون في الكلام ، أولئك شرار أمتي » ، وفُرْه : جمع فاره ، النشيط المليح القوي .

(٦) رواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه : (جيفة) بدل (حتفه) ، وبلفظ المصنف رواه تمام في « فوائده » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/١٩١) ، والحتف : الهلاك .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ ابنُ آدمَ : مالي مالي ، وهلْ لكَ مِنْ مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أوْ لبستَ فأبلَيتَ ، أوْ تصدَّقتَ فأمضَيتَ ؟! »[١]

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لي لا أحبُّ الموتَ ؟ فقالَ : « هل معَكَ مِنْ مالٍ ؟ » ، قالَ : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قدِّمْ مالَكَ ؛ فإنَّ قلْبَ المؤمنِ معَ مالِهِ ، إنْ قدَّمَهُ . . أحبَّ أنْ يلحقَهُ ، وإنْ خلَّفَهُ . . أحبَّ أنْ يتخلَّفَ معَهُ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخلَّاءُ ابنِ آدمَ ثلاثةٌ : واحدٌ يتبعُهُ إلىٰ قبضِ روحِهِ ، والثاني إلىٰ قبرِهِ ، والثالثُ إلىٰ محشرِهِ ؛ فالذي يتبعُهُ إلىٰ قبضِ روحِهِ فمالُهُ ، والذي يتبعُهُ إلىٰ قبرِهِ فأهلُهُ ، والذي يتبعُهُ إلىٰ محشرِهِ فعملُهُ »[٣]

وقالَ الحواريونَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : ما لكَ تمشي على الماءِ ولا نقدرُ علىٰ ذٰلكَ ؟ فقالَ لهُمْ : ما منزلةُ الدينارِ والدرهمِ عندَكُمْ ؟ قالُوا : حسنةٌ ، قالَ : لٰكنَّهُما عندي والمدرَ سواءٌ[٤]

وكتبَ سلمانُ الفارسيُّ إلىٰ أبي الدرداءِ[٥] : يا أخي ؛ إيَّاكَ أنْ تجمعَ مِنَ الدنيا ما لا تؤدِّي شكرَهُ ؛ فإنِّي سمعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يُجاءُ بصاحبِ الدنيا الذي أطاعَ اللهَ فيها ومالُهُ بينَ يديهِ ، كلَّما تكفَّأَ بهِ الصِّراطُ . . قالَ لهُ مالُهُ : امضِ ؛ فقدْ أدَّيتَ حقَّ اللهِ فيَّ ، ثمَّ يُجاءُ بصاحبِ الدنيا الذي لمْ يطعِ اللهَ فيها ومالُهُ بينَ كتفيهِ ، كلَّما تكفَّأَ بهِ الصِّراطُ . . قالَ لهُ مالُهُ : ويلَكَ ؛ ألا أدَّيتَ حقَّ اللهِ فيَّ ، فما يزالُ كذٰلكَ حتَّىٰ يدعوَ بالويلِ والثبورِ »[٦]

وكلُّ ما أوردناهُ في كتابِ الفقرِ والزهدِ في ذمِّ الغنىٰ ومدحِ الفقرِ يرجعُ جميعُهُ إلىٰ ذمِّ المالِ ؛ فلا نطوِّلُ بتكريرِهِ ، وكذا كلُّ ما ذكرناهُ في ذمِّ الدنيا فيتناولُ ذمَّ المالِ بحكمِ العمومِ ؛ لأنَّ المالَ أعظمُ أركانِ الدنيا ، وإنَّما نذكرُ الآنَ ما وردَ في المالِ خاصةً .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ العبدُ . . قالَتِ الملائكةُ : ما قدَّمَ ؟ وقالَ النّاسُ : ما خلَّفَ ؟ »[٧]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتَّخذُوا الضَّيعَةَ فتحبُّوا الدُّنيا »[٨]

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٤) .
(٣) رواه البزار في « مسنده » (٨٣٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (٦٥١٤) ، ومسلم (٢٩٦٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقىٰ معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ويبقىٰ عمله » .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٤٠) عن الفضيل بن عياض .
(٥) كذا في النسخ ، وإنما هو كتاب من أبي الدرداء إلىٰ سلمان رضي الله تعالىٰ عنهما كما هو مثبت في مصادر تخريج الخبر ، ونص عليه الحافظ العراقي . انظر « الإتحاف » (١٤٦/٨) .
(٦) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٠٢٩) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٤/١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٧٤) .
(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٨) رواه الترمذي (٢٣٢٨) ، وفيه : (فترغبوا) بدل (فتحبوا) .

الآثار :

رُوِيَ أَنَّ رجلاً نالَ مِنْ أبي الدرداءِ وأراهُ سوءاً ، فقالَ : (اللهمَّ ؛ مَنْ فعلَ بي سوءاً . . فأصحَّ جسمَهُ ، وأطلْ عمرَهُ ، وأكثرْ مالَهُ)[١] ، فانظرْ كيفَ رأىٰ كثرةَ المالِ غايةَ البلاءِ معَ صحةِ الجسمِ وطولِ العمرِ ؛ لأنَّهُ لا بدَّ وأن يفضيَ إلى الطغيانِ .

ووضعَ عليٌّ رضي الله عنه درهماً علىٰ كفِّهِ وقالَ : (أما إنَّكَ ما لمْ تخرجْ عنِّي لا تنفعُني)[٢]

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أرسلَ إلىٰ زينبَ بنتِ جحشٍ بعطائِها ، فقالَتْ : ما هٰذا ؟ قالوا : أرسلَهُ إليكِ عمرُ بنُ الخطابِ ، فقالَتْ : غفرَ اللهُ لهُ ، ثمَّ حلَّتْ ستراً كانَ لها ، فقطعَتْهُ وجعلَتْهُ صرراً ، وقسَّمَتْها في أهلِ بيتِها ورحمِها وأيتامِها ، ثمَّ رفعَتْ يديها وقالَتْ : اللهمَّ ؛ لا يدركَنِّي عطاءُ عمرَ بعدَ عامي هٰذا ، فكانَتْ أولَ نساءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحوقاً بهِ[٣]

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما أعزَّ الدرهمَ أحدٌ إلا أذلَّهُ اللهُ تعالىٰ)[٤]

وقيلَ : إنَّ أوَّلَ ما ضُربَ الدينارُ والدرهمُ . . رفعَهُما إبليسُ ، ثمَّ وضعَهُما علىٰ جبهتِهِ ، ثمَّ قبَّلَهُما وقالَ : مَنْ أحبَّكُما . . فهوَ عبدي حقّاً[٥]

وقالَ شُمَيطُ بنُ عجلانَ : (إنَّ الدينارَ والدرهمَ أزمَّةُ المنافقينَ ، يُقادُونَ بها إلى النارِ)[٦]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : إنَّ الدرهمَ عقربٌ ؛ فإنْ لمْ تحسنْ رُقيتَهُ . . فلا تأخذْهُ ؛ فإنَّهُ إنْ لدغَكَ . . قتلَكَ سمُّهُ ، قيلَ : وما رقيتُهُ ؟ قالَ : أخذُهُ مِنْ حلِّهِ ، ووضعُهُ في حقِّهِ[٧]

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (تمثَّلَتْ ليَ الدنيا وعليها مِنْ كلِّ زينةٍ ، فقلْتُ : أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ ، فقالَتْ : إنْ سرَّكَ أنْ يعيذَكَ اللهُ مِنْ شرِّي . . فأبغضِ الدرهمَ)[٨]

وذٰلكَ لأنَّ الدينارَ والدرهمَ هُما الدنيا كلُّها ؛ إذْ يُتوصَّلُ بهِما إلىٰ جميعِ أصنافِها ، فمَنْ صبرَ عنهُما . . صبرَ عنِ الدنيا ، وفي ذٰلكَ قيلَ[٩] : [من الكامل]

إِنِّــي وَجَــدْتُ فَـلا تَـظُـنُّـوا غَـيْـرَهُ ... هَـٰذَا الـتَّـوَرُّعَ عِـنْـدَ هَـٰذا الـدِّرْهَـمِ

فَــإِذا قَــدَرْتَ عَـلَـيْـهِ ثُـمَّ تَـرَكْـتَـهُ ... فَـا عْـلَـمْ بِـأَنَّ تُـقـاكَ تَـقْـوَى الْـمُـسْـلِـمِ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩١/٢) عن عامر بن عبد الله بن عبد قيس أنه دعا بهٰذا ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٤٧/٨) : (نقله صاحب « القوت ») .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٤٧/٨) .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠٦/١٠) .

(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٨١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٨/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٢٨/٣) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦٠/١٠) دون الاستفهام .

(٨) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١١٥٨) .

(٩) البيتان لسفيان الثوري ، انظر « معجم الأدباء » (١٠٠/١) .

وفي ذٰلكَ قيلَ [١] : [من مجزوء الرمل]

لا يَـغُـرَّنْـكَ مِـنَ الْـمَـرْ ... ءِ قَـمِـيـصٌ رَقَـعَـهْ

أَوْ إِزارٌ فَـوْقَ كَـعْـبِ الـسَّـ ... ـاقِ مِـنْـهُ رَفَـعَـهْ

أَوْ جَـبِـيـنٌ لاحَ فِـيـهِ ... أَثَـرٌ قَـدْ قَـلَـعَـهْ [٢]

وَلَـدَى الـدِّرْهَـمِ فـانْـظُـرْ ... غَـيَّـهُ أَوْ وَرَعَـهْ

ويُروىٰ عنْ مسلمةَ بنِ عبدِ الملكِ أنَّهُ دخلَ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ عندَ موتِهِ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ صنعْتَ صنيعاً لمْ يصنعْهُ أحدٌ قبلَكَ ، تركْتَ ولدَكَ ليسَ لهُمْ دينارٌ ولا درهمٌ ـ وكانَ عندَهُ ثلاثةَ عشرَ مِنَ الولدِ ـ فقالَ عمرُ : أقعدوني ، فأقعدوهُ ، فقالَ : أمَّا قولُكَ : لمْ أدعْ لهُمْ ديناراً ولا درهماً . . فإنِّي لمْ أمنعْهُمْ حقّاً لهُمْ ، ولمْ أعطِهِمْ حقّاً لغيرِهِمْ ، وإنَّما ولدي أحدُ رجلينِ ؛ إمَّا مطيعٌ للهِ ، فاللهُ كافيهِ واللهُ يتولَّى الصالحينَ ، وإمَّا عاصٍ للهِ ، فلا أبالي علىٰ ما وقعَ [٣]

ورُوِيَ أنَّ محمدَ بنَ كعبٍ القرظيَّ أصابَ مالاً كثيراً ، فقيلَ لهُ : لوِ ادَّخرْتَهُ لولدِكَ مِنْ بعدِكَ ، قالَ : لا ، ولٰكنِّي أدخرُهُ لنفسِي عندَ ربِّي ، وأدَّخرُ ربِّي لولدِي [٤]

ويُروىٰ أنَّ رجلاً قالَ لأبي عبدِ ربٍّ : يا أخي ؛ لا تذهبْ بشرٍّ وتتركَ أولادَكَ بخيرٍ ، فخرجَ أبو عبدِ ربٍّ مِنْ مئة ألفِ درهمٍ [٥]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : مصيبتانِ لمْ يسمعِ الأولونَ والآخرونَ بمثلِهِما للعبدِ في مالِهِ عندَ موتِهِ ، قيلَ : وما هما ؟ قالَ : يُؤخذُ منهُ كلُّهُ ، ويُسألُ عنهُ كلِّهُ [٦]

* * *

(١) الأبيات في « المدهش » (٢١١/١) من غير نسبة .

(٢) **أثر قد قلعه** : تشبيه كثرة السجود وأثرها على الجبين بركبة العنز كيف فيها أثر القلع ، وقد يكون هٰذا مصطنعاً بمعالجة . انظر « الإتحاف » (٥٠٥/٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٣٣/٥) بنحوه .

(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٣٦) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٠/٥) بنحوه ، وأبو عبد رب هو عبيدة بن مهاجر .

(٦) رواه الخطيب في « الزهد » (١١) .

بيان مدح المال ، والجمع بينه وبين الذمّ

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ سمَّى المالَ خيراً في مواضعَ مِنَ القرآنِ ، فقالَ جلَّ وعزَّ : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمَ المالُ الصالحُ للرَّجلِ الصالحِ »(١)

وكلُّ ما جاءَ في ثوابِ الصدقةِ والحجِّ . . فهوَ ثناءٌ على المالِ ؛ إذْ لا يمكنُ الوصولُ إليهما إلا بهِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ ممتناً علىٰ عبادِهِ : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »(٢) ، وهوَ ثناءٌ على المالِ .

ولا تَقِفُ علىٰ وجهِ الجمعِ بينَ المدحِ والذمِّ إلا بأنْ تعرفَ حكمةَ المالِ ، ومقصودَهُ ، وآفاتِهِ ، وغوائلَهُ ؛ حتَّىٰ ينكشفَ لكَ أنَّهُ خيرٌ مِنْ وجهٍ ، وشرٌّ مِنْ وجهٍ ، وأنَّهُ محمودٌ مِنْ حيثُ هوَ خيرٌ ، ومذمومٌ مِنْ حيثُ هوَ شرٌّ ؛ فإنَّهُ ليسَ بخيرٍ محضٍ ، ولا هوَ بشرٍّ محضٍ ، بلْ هوَ سببٌ للأمرينِ جميعاً ، وما هٰذا وصفُهُ فيُمدحُ ـ لا محالةَ ـ تارةً ويُذمُّ أخرىٰ ، ولٰكنَّ البصيرَ المميِّزَ يدركُ أنَّ المحمودَ منهُ غيرُ المذمومِ .

وبيانُهُ بالاستمدادِ ممَّا ذكرْناهُ في كتابِ الشكرِ مِنْ بيانِ الخيراتِ ، وتفصيلِ درجاتِ النعمِ .

والقدْرُ المقنعُ فيهِ : هوَ أنَّ مقصدَ الأكياسِ وأربابِ البصائرِ سعادةُ الآخرةِ التي هيَ النعيمُ الدائمُ والملكُ المقيمُ ، والقصدُ إلىٰ هٰذا دأبُ الكرامِ والأكياسِ ؛ إذْ قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : مَنْ أكرمُ الناسِ وأكيسُهُمْ ؟ فقالَ : « أكثرُهُمْ للموتِ ذكراً ، وأشدُّهُمْ لهُ استعداداً »(٣)

وهٰذه السعادةُ لا تُنالُ إلا بثلاثِ وسائلَ في الدنيا ، وهيَ :

الفضائلُ النفسيةُ : كالعلمِ ، وحسنِ الخلُقِ .

والفضائلُ البدنيةُ : كالصحةِ ، والسلامةِ .

والفضائلُ الخارجةُ عنِ البدنِ : كالمالِ ، وسائرِ الأسبابِ .

وأعلاها النفسيةُ ، ثمَّ البدنيةُ ، ثمَّ الخارجةُ ، فالخارجةُ أخسُّها ، والمالُ مِنْ جملةِ الخارجاتِ ، وأدناها الدراهمُ والدنانيرُ ؛ فإنَّهُما خادمانِ ، ولا خادمَ لهُما ، ومرادانِ لغيرِهِما ، ولا يُرادانِ لذاتِهِما ؛ إذِ النفسُ هيَ الجوهرُ الشريفُ المطلوبُ سعادتُها ؛ فإنَّها تخدمُ العلمَ والمعرفةَ ومكارمَ الأخلاقِ ؛ لتحصِّلَها صفةً في ذاتِها ، والبدنُ يخدمُ النفسَ بواسطةِ الحواسِّ والأعضاءِ ، والمطاعمُ والملابسُ تخدُمُ البدنَ ، وقدْ سبقَ أنَّ المقصودَ مِنَ المطاعمِ إبقاءُ البدنِ ، ومِنَ المناكحِ إبقاءُ النسلِ ، ومِنَ البدنِ تكميلُ النفسِ وتزكيتُها وتزيينُها بالعلمِ والخُلُقِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٩٧/٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٣/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) .

ومَنْ عرفَ هـٰذا الترتيبَ . . فقدْ عرفَ قدْرَ المالِ ووجهَ شرفِهِ ، وأنَّهُ مِنْ حيثُ هوَ ضرورةُ المطاعمِ والملابسِ التي هيَ ضرورةُ بقاءِ البدنِ الذي هوَ ضرورةُ كمالِ النفسِ . . هوَ خيرٌ ، ومَنْ عرفَ فائدةَ الشيءِ وغايتَهُ ومقصدَهُ ، واستعملَهُ لتلكَ الغايةِ ملتفتاً إليها غيرَ ناسٍ لها . . فقدْ أحسنَ وانتفعَ ، وكانَ ما حصلَ لهُ الغرضُ محموداً في حقِّهِ .

فإذاً ؛ المالُ آلةٌ ووسيلةٌ إلىٰ مقصودٍ صحيحٍ ، ويصلحُ أنْ يُتَّخذَ آلةً ووسيلةً إلىٰ مقاصدَ فاسدةٍ ، وهيَ المقاصدُ الصادَّةُ عنْ سعادةِ الآخرةِ ، وتسدُّ سبيلَ العلمِ والعملِ ، فهوَ إذاً محمودٌ مذمومٌ ؛ محمودٌ بالإضافةِ إلى المقصودِ المحمودِ ، ومذمومٌ بالإضافةِ إلى المقصودِ المذمومِ ، فمَنْ أخذَ مِنَ الدنيا أكثرَ ممَّا يكفيهِ . . فقدْ أخذَ حتفَهُ وهوَ لا يشعرُ ؛ كما وردَ بِهِ الخبرُ [١]

ولمَّا كانَتِ الطباعُ مائلةً إلى اتباعِ الشهواتِ القاطعةِ لسبيلِ اللهِ ، وكانَ المالُ مسهِّلاً لها وآلةً إليها . . عظُمَ الخطرُ فيما يزيدُ علىٰ قدْرِ الكفايةِ ، فاستعاذَ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ مِنْ شرِّهِ ، حتَّىٰ قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كَفافاً » [٢]

فلمْ يطلبْ مِنَ الدنيا إلا ما يتمحَّضُ خيرُهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ أحيني مسكيناً وأمتْني مسكيناً ، واحشرْني في زمرةِ المساكينِ » [٣]

واستعاذَ إبراهيمُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، وعنىٰ بها هـٰذينِ الحجرينِ الذهبَ والفضةَ ؛ إذْ رتبةُ النبوَّةِ أجلُّ مِنَ أنْ يُخشىٰ عليها أنْ تعتقدَ الإلـٰهيةَ في شيءٍ مِنْ هـٰذهِ الحجارةِ ؛ إذْ قدْ كُفيَ قبلَ النبوّةِ عبادتَها معَ الصغرِ .

وإنَّما معنىٰ عبادتِها حبُّها ، والاغترارُ بها ، والركونُ إليها .

قال نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعِسَ عبدُ الدينارِ ، وتعسَ عبدُ الدرهمِ ، تعسَ ولا انتعشَ ، وإذا شِيكَ . . فلا انتقشَ » [٤] ، بيَّنَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنَّ محبَّهُما عبدٌ لهُما ، ومَنْ عبدَ حجراً . . فهوَ عابدُ صنمٍ ؛ بلْ كلُّ مَنْ كانَ عبداً لغيرِ اللهِ فهوَ عابدُ صنمٍ ؛ أي : مَنْ قطعَهُ ذٰلكَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ أداءِ حقِّهِ . . فهوَ كعابدِ صنمٍ ، وهوَ شرْكٌ ، إلا أنَّ الشركَ شركانِ ؛ شركٌ خفيٌّ لا يوجبُ الخلودَ في النارِ ، وقلَّما ينفكُّ عنهُ المؤمنونَ ؛ فإنَّهُ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وشركٌ جليٌّ يوجبُ الخلودَ في النارِ ، نعوذُ باللهِ مِنَ الجميعِ .

* * *

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وتمام في « فوائده » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩١/٥٥) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) ، وفيهما : (قوتاً) بدل (كفافاً) ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) ، **والمسكنة هنا** : الإخبات والخمول لا القلة .

(٤) رواه البخاري (٢٨٨٧) ، وابن ماجه (٤١٣٦) ، وليس فيهما : (تعس ولا انتعش) ، بل : (تعس وانتكس) ، وأورد (انتعش) العسكري في « تصحيفات المحدثين » (٢٩٩/١) وعدَّها تصحيفاً لـ (انتقش) ، ويقال : (انتعش العاثر ؛ نهض من عثرته) .

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلمْ : أنَّ المالَ مثلُ حيَّةٍ فيها سُمٌّ وترياقٌ ، ففوائدُها ترياقُهَا ، وغوائلُها سمومُها .

فمَنْ عرفَ غوائلَها وفوائدَها . . أمكنَهُ أن يحترزَ من شرِّها ، ويستدرَّ مِنْها خيرَها .

❀ ❀ ❀

أمَّا الفوائدُ : فهيَ تنقسمُ إلىٰ دنيويةٍ ودينيةٍ :

أمَّا الدُّنيويةُ : فلا حاجةَ إلىٰ ذكرِها ؛ فإنَّ معرفتَها مشتركةٌ بينَ أصنافِ الخلقِ ، ولولا ذٰلكَ . . لمْ يتهالكوا علىٰ طلبِها .

وأمَّا الدِّينيةُ : فتنحصرُ جميعُها في ثلاثةِ أنواعٍ :

النوعُ الأولُ : أنْ ينفقَهُ علىٰ نفسِهِ :

إمَّا في عبادةٍ ، أوْ في الاستعانةِ علىٰ عبادةٍ .

أمَّا في العبادةِ . . فهوَ كالاستعانةِ بِهِ على الحجِّ والجهادِ ؛ فإنَّهُ لا يتوصَّلُ إليهِما إلا بالمالِ ، وهُما مِنْ أمهاتِ القرباتِ ، والفقيرُ محرومٌ منْ فضلِهِما .

وأمَّا فيما يقوِّيهِ على العبادةِ . . فذٰلكَ هو المطعمُ ، والملبسُ ، والمسكنُ ، والمنكحُ ، وضروراتُ المعيشةِ ؛ فإنَّ هٰذهِ الحاجاتِ إذا لمْ تتيسَّرْ . . كانَ القلبُ منصرفاً إلىٰ تدبيرِها ، فلا يتفرَّغُ للدِّينِ ، وما لا يُتوصَّلُ إلى العبادةِ إلا بهِ . . فهوَ عبادةٌ ، فأخْذُ الكفايةِ مِنَ الدنيا لأجلِ الاستعانةِ على الدِّينِ مِنَ الفوائدِ الدينيَّةِ ، ولا يدخلُ في هٰذا التنعُّمُ والزيادةُ على الحاجةِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ حظوظِ الدنيا فقطْ .

❀ ❀ ❀

النوعُ الثاني : ما يصرفُهُ إلى الناسِ :

وهوَ أربعةُ أقسامٍ : الصدقةُ ، والمروءةُ ، ووقايةُ العرضِ ، وأجرةُ الاستخدامِ .

أمَّا الصدقةُ . . فلا يخفىٰ ثوابُها ، وإنَّها لتطفئُ غضبَ الربِّ عزَّ وجلَّ ، وقدْ ذكرْنا فضائلَها فيما تقدَّمَ .

وأمَّا المروءةُ . . فنعني بها : صرفَ المالِ إلى الأغنياءِ والأشرافِ في ضيافةٍ وهديةٍ وإعانةٍ وما يجري مجراها ، فإنَّ هٰذهِ لا تُسمىٰ صدقةً ، بلِ الصدقةُ ما يُسلَّمُ إلىٰ محتاجٍ ، إلا أنَّ هٰذا أيضاً مِنَ الفوائدِ الدينيَّةِ ؛ إذْ بِهِ يكتسبُ العبدُ الإخوانَ والأصدقاءَ ، وبهِ يكتسبُ صفةَ السخاءِ ، ويلتحقُ بزمرةِ الأسخياءِ ؛ فلا يُوصفُ بالجودِ إلا مَنْ يصطنعُ المعروفَ ويسلكُ سبيلَ الفتوةِ والمروءةِ ، وهٰذا أيضاً ممَّا يعظمُ الثوابُ فيهِ ، فقدْ وردَتْ أخبارٌ كثيرةٌ في الهدايا ، والضيافاتِ ، وإطعامِ الطعامِ مِنْ غيرِ اشتراطِ الفقرِ والفاقةِ في مصارفِها .

وأمَّا وقايةُ العِرضِ . . فنعني بِهِ بذلَ المالِ لدفعِ هجوِ الشعراءِ وثلبِ السفهاءِ ، وقطعِ ألسنتِهِمْ ودفعِ شرِّهِمْ ، وهوَ أيضاً معَ تنجُّزِ فائدتِهِ في العاجلةِ مِنَ الحظوظِ الدينيَّةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما وقىٰ بِهِ المرءُ عرضَهُ . .

كُتبَ لهُ بهِ صدقةٌ »[1] ، وكيفَ لا وفيهِ منعُ المغتابِ عنْ معصيةِ الغيبةِ ، واحترازٌ عمَّا يثورُ مِنْ كلامِهِ مِنَ العداوةِ التي تحملُ في المكافأةِ والانتقامِ علىٰ مجاوزةِ حدودِ الشريعةِ ؟!

وأمَّا الاستخدامُ . . فهوَ أنَّ الأعمالَ التي يحتاجُ إليها الإنسانُ لتهيئةِ أسبابِهِ كثيرةٌ ، ولوْ تولَّاها بنفسِهِ . . ضاعَتْ أوقاتُهُ ، وتعذَّرَ عليهِ سلوكُ سبيلِ الآخرةِ بالفكرِ والذكرِ اللذينِ هُما أعلىٰ مقاماتِ السالكينَ ، ومَنْ لا مالَ لهُ . . فيفتقرُ إلىٰ أنْ يتولَّىٰ بنفسِهِ خدمةَ نفسِهِ مِنْ شراءِ الطعامِ ، وطبخِهِ ، وكنسِ البيتِ ، حتَّىٰ نسخُ الكتابِ الذي يحتاجُ إليهِ ، وكلُّ ما يُتصوَّرُ أنْ يقومَ بهِ غيرُكَ ، ويحصلُ بهِ غرضُكَ . . فأنتَ مغبونٌ إذا اشتغلتَ بهِ ؛ إذْ عليكَ مِنَ العلمِ والعملِ والفكرِ والذكرِ ما لا يُتصوَّرُ أنْ يقومَ بهِ غيرُكَ ، فتضييعُ الوقتِ في غيرِهِ خسرانٌ .

❀ ❀ ❀

النوعُ الثالثُ : ما لا يصرفُهُ إلىٰ إنسانٍ معيَّنٍ ، ولٰكنْ يحصلُ بهِ خيرٌ عامٌّ :

كبناءِ المساجدِ ، والقناطرِ ، والرباطاتِ ، ودورِ المرضىٰ ، ونصبِ الحِبابِ في الطرُقِ[2] ، وغيرِ ذٰلكَ مِنَ الأوقافِ المرصدةِ للخيراتِ ، وهيَ مِنَ الخيراتِ المؤبَّدةِ ، الدَّارَّةِ بعدَ الموتِ ، المستجلبةِ بركةَ أدعيةِ الصالحينَ إلىٰ أوقاتٍ متماديَةٍ ، وناهيكَ بها خيراً .

فهٰذهِ جملةُ فوائدِ المالِ في الدينِ سوىٰ ما يتعلَّقُ بالحظوظِ العاجلةِ ؛ مِنَ الخلاصِ مِنْ ذلِّ السؤالِ ، وحقارةِ الفقرِ ، والوصولِ إلى العزِّ والمجدِ بينَ الخلقِ ، وكثرةِ الإخوانِ والأعوانِ والأصدقاءِ ، والوقارِ والكرامةِ في القلوبِ ، فكلُّ ذٰلكَ ممَّا يقتضيهِ المالُ مِنَ الحظوظِ الدُّنيويةِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآفاتُ : فدينيَّةٌ ، ودنيويَّةٌ :

أمَّا الدينيَّةُ . . فثلاثٌ :

الأولىٰ : أنَّهُ يجرُّ إلى المعاصي :

فإنَّ الشهواتِ متقاضيةٌ[3] ، والعجزُ قدْ يحولُ بينَ المرءِ وبينَ المعصيةِ ، ومِنَ العصمةِ ألا يقدرَ ، ومهما كانَ الإنسانُ آيساً عنْ نوعٍ مِنَ المعصيةِ . . لمْ تتحرَّكْ داعيتُهُ ، فإذا استشعرَ القدرةَ عليها . . انبعثَتْ داعيتُهُ ، والمالُ نوعٌ مِنَ القدرةِ يحرِّكُ داعيةَ المعاصي وارتكابِ الفجورِ ، فإنِ اقتحمَ ما اشتهاهُ . . هلكَ ، وإنْ صبرَ . . وقعَ في شدَّةٍ ؛ إذِ الصبرُ معَ القدرةِ أشدُّ ، وفتنةُ السرَّاءِ أعظمُ مِنْ فتنةِ الضرَّاءِ .

الثانيةُ : أنَّهُ يجرُّ إلى التَّنعُّمِ في المباحاتِ :

وهٰذا أقلُّ الدرجاتِ ، فمتىٰ يقدرُ صاحبُ المالِ علىٰ أنْ يتناولَ خبزَ الشعيرِ ، ويلبسَ الثوبَ الخشنَ ، ويتركَ لذائذَ الأطعمةِ ؛ كما كانَ يقدرُ عليهِ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما الصلاةُ والسلامُ في ملكِهِ ؟! فأحسنُ أحوالِهِ أنْ يتنعَّمَ بالدنيا ،

---

(١) رواه الدارقطني في « سننه » (٢٨/٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٠/٢)

(٢) **حباب** : جمع حُبّ ، لفظة فارسية معربة ، وهي الخابية ، والمراد بالتي على الطريق مخازن المياه .

(٣) إذ بعضها يقتضي وجود بعض ويدعو إليه .

ويمرّنَ علىٰ ذٰلكَ نفسَهُ ؛ فيصيرُ التنعُّمُ مألوفاً عندَهُ ، ومحبوباً لا يصبرُ عنهُ ، ويجرُّهُ البعضُ مِنْهُ إلى البعضِ .

فإذا اشتدَّ أنسُهُ بهِ . . ربَّما لا يقدرُ على التوصُّلِ إليهِ بالكسبِ الحلالِ ؛ فيقتحمُ الشبهاتِ ، ويخوضُ في المراءاةِ ، والمداهنةِ ، والكذبِ ، والنفاقِ ، وسائرِ الأخلاقِ الرديئةِ ؛ لينتظمَ لهُ أمرُ دنياهُ ، ويتيسَّرَ لهُ تنعُّمُهُ ؛ فإنَّ مَنْ كَثُرَ مالُهُ . . كَثُرَتْ حاجتُهُ إلى الناسِ ، ومَنِ احتاجَ إلى الناسِ . . فلا بدَّ وأنْ ينافقَهُمْ ، ويعصيَ اللّٰهَ تعالىٰ في طلبِ رضاهُمْ ؛ فإنْ سلِمَ الإنسانُ مِنَ الآفةِ الأولىٰ ـ وهيَ مباشرةُ المحظوراتِ ـ فلا يسلمُ عنْ هـٰذهِ أصلاً ، ومِنَ الحاجةِ إلى الخلقِ تثورُ العداوةُ والصداقةُ ، وينبني عليهِ الحسدُ ، والحقدُ ، والرياءُ ، والكبرُ ، والكذبُ ، والغيبةُ ، والنميمةُ ، وسائرُ المعاصي التي تخصُّ القلبَ واللسانَ ، ولا تخلو عنِ التعدي أيضاً إلىٰ سائرِ الجوارحِ ، وكلُّ ذٰلكَ يلزمُ مِنْ شؤمِ المالِ ، والحاجةِ إلىٰ حفظِهِ وإصلاحِهِ .

الثالثةُ ـ وهيَ التي لا ينفكُّ عنها أحدٌ ـ : **وهيَ أنَّهُ يلهيهِ إصلاحُ مالِهِ عنْ ذكرِ اللّٰهِ تعالىٰ** :

وكلُّ ما شغلَ العبدَ عنِ اللّٰهِ . . فهوَ خسرانٌ ، ولذٰلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : في المالِ ثلاثُ آفاتٍ : أنْ يأخذَهُ مِنْ غيرِ حلِّهِ ، فقيلَ : إنْ أخذَهُ مِنْ حلِّهِ ؟ فقالَ : يضعُهُ في غيرِ حقِّهِ ، فقيلَ : إنْ وضعَهُ في حقِّهِ ؟ فقالَ : يشغلُهُ إصلاحُهُ عنِ اللّٰهِ تعالىٰ[1]

وهـٰذا هوَ الداءُ العضالُ ، فإنَّ أصلَ العباداتِ ومخَّها وسرَّها ذكرُ اللّٰهِ تعالىٰ والفكرُ في جلالِهِ ، وذٰلكَ يستدعي قلباً فارغاً ، وصاحبُ الضَّيعةِ يمسي ويصبحُ متفكِّراً في خصومةِ الفلاحِ ومحاسبتِهِ ، وفي خصومةِ الشركاءِ ومنازعتِهِمْ في الماءِ والحدودِ ، وخصومةِ أعوانِ السلطانِ في الخراجِ ، وخصومةِ الأُجَراءِ في التقصيرِ في العمارةِ ، وخصومةِ الفلاحينَ في خيانتِهِمْ وسرقتِهِمْ ، وصاحبُ التجارةِ يكونُ متفكراً في خيانةِ شريكِهِ ، وانفرادِهِ بالربحِ ، وتقصيرِهِ في العملِ ، وتضييعِهِ للمالِ ، وكذٰلكَ صاحبُ المواشي ، وهـٰكذا سائرُ أصنافِ الأموالِ ، وأبعدُها عنْ كثرةِ الشغلِ النقدُ المكنوزُ تحتَ الأرضِ ، ولا يزالُ الفكرُ متردِّداً فيما يُصرفُ إليهِ ، وفي كيفيةِ حفظِهِ ، وفي الخوفِ ممَّنْ يعثرُ عليهِ ، وفي دفعِ أطماعِ الناسِ عنهُ ، وأوديةُ أفكارِ الدنيا لا نهايةَ لها ، والذي معَهُ قوتُ يومِهِ في سلامةٍ عنْ جميعِ ذٰلكَ .

فهـٰذهِ جملةُ الآفاتِ الدُّنيويةِ سوىٰ ما يقاسيهِ أربابُ الأموالِ في الدنيا ؛ مِنَ الخوفِ ، والحزنِ ، والغمِّ ، والهمِّ ، والتعبِ في دفعِ الحسَّادِ ، وتجشُّمِ المصاعبِ في حفظِ الأموالِ وكسبِها .

فإذاً ؛ ترياقُ المالِ أخذُ القوتِ منهُ ، وصرفُ الباقي إلى الخيراتِ ، وما عداهُ سمومٌ وآفاتٌ ، نسألُ اللّٰهَ تعالى السلامةَ وحسنَ العونِ بلطفِهِ وكرمِهِ ، إنَّهُ علىٰ ذٰلكَ قديرٌ .

* * *

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٤٨) عن سفيان بن سعيد يحكيه .

بيان ذمّ الحرص والطّمع ، ومدح القناعة واليأس ممّا في أيدي النّاس

اعلمْ : أنَّ الفقرَ محمودٌ ؛ كما أوردناهُ في كتاب الفقرِ ، ولـٰكنْ ينبغي أنْ يكونَ الفقيرُ قانعاً منقطعَ الطمعِ عنِ الخلقِ ، غيرَ ملتفتٍ إلىٰ ما في أيديهِمْ ، ولا حريصاً على اكتسابِ المالِ كيفَ كانَ ، ولا يمكنُهُ ذٰلكَ إلا بأنْ يقنعَ بقدْرِ الضرورةِ مِنَ المطعمِ والملبسِ والمسكنِ ، ويقتصرَ علىٰ أقلِّهِ قدراً وأخسِّهِ نوعاً ، ويردَّ أملَهُ إلىٰ يومِهِ أوْ إلىٰ شهرِهِ ، ولا يشغلَ قلبَهُ بما بعدَ شهرٍ .

فإنْ تشوَّفَ إلى الكثيرِ أوْ طوَّلَ أملَهُ . . فاتَهُ عزُّ القناعةِ ، وتدنَّسَ ـ لا محالةَ ـ بالطمعِ وذلِّ الحرصِ ، وجرَّهُ الحرصُ والطمعُ إلىٰ مساوئِ الأخلاقِ وارتكابِ المنكراتِ الخارقةِ للمروءاتِ ، وقدْ جُبِلَ الآدميُّ على الحرصِ والطمعِ وقلَّةِ القناعةِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ لابنِ آدمَ واديانِ مِنْ ذهبٍ . . لابتغىٰ إليهما ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ »[1]

وعنْ أبي واقدٍ الليثيِّ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أُوحِيَ إليهِ . . أتيناهُ يعلِّمُنا ممَّا أوحيَ إليهِ ، فجئتُهُ ذاتَ يومٍ فقالَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : إنَّا أنزلْنا المالَ لإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، ولوْ أنَّ لابنِ آدمَ وادياً مِنْ ذهبٍ . . لأحبَّ أنْ يكونَ إليهِ الثاني ، ولوْ كانَ لهُ الثاني . . لأحبَّ أنْ يكونَ إليهِما الثالثُ ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ »[2]

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : نزلَتْ سورةٌ نحوُ (براءةٌ) ، ثمَّ رُفِعَتْ ، وحُفِظَ مِنْها : (إنَّ اللهَ يؤيدُ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ ، ولوْ أنَّ لابنِ آدمَ واديينِ مِنْ مالٍ . . لتمنَّىٰ وادياً ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ)[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ ؛ منهومُ العلمِ ، ومنهومُ المالِ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يهرمُ ابنُ آدمَ ويشبُّ منهُ اثنتانِ ؛ الأملُ ، وحبُّ المالِ »[5] ، أوْ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ولمَّا كانَتْ هـٰذهِ جبلَّةً للآدميِّ مضلةً ، وغريزةً مهلكةً . . أثنى اللهُ تعالىٰ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على القناعةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ وكانَ عيشُهُ كفافاً وقنِعَ بهِ »[6]

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦ ، ٦٤٣٩) ، ومسلم (١٠٤٨ ، ١٠٤٩) .

(٢) رواه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ٣٢٢) ، وأحمد في « المسند » (٢١٨/٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤٧/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٠٠) .

(٣) رواه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ٣٢٣) واللفظ له ، وأصله عند مسلم (١٠٥٠) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٩٢/١) من حديث أنس مرفوعاً ، ولفظه : « منهومان لا يشبعان : منهوم في علم لا يشبع ، ومنهوم في دنيا لا يشبع » .

(٥) رواه البخاري (٦٤٢١) ، ومسلم (١٠٤٧) .

(٦) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٧٩٣) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ غنيٍّ ولا فقيرٍ إلا ودَّ يومَ القيامةِ أنَّه كانَ أُوتيَ قوتاً في الدنيا »[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الغنىٰ عنْ كثرةِ العَرَضِ ، إنَّما الغنىٰ غنى النَّفسِ »[٢]

ونهىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ شدَّةِ الحرصِ والمبالغةِ في الطلبِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أيُّها النَّاسُ ؛ أجملوا في الطَّلبِ ؛ فإنَّهُ ليسَ لعبدٍ إلا ما كُتِبَ لهُ ، ولَنْ يذهبَ عبدٌ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يأتيَهُ ما كُتِبَ لهُ مِنَ الدنيا وهيَ راغمةٌ »[٣]

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ سألَ ربَّهُ تعالىٰ فقالَ : أيُّ عبادِكَ أغنىٰ ؟ قالَ : أقنعُهُمْ بما أعطيتُهُ ، قالَ : فأيُّهُمْ أعدلُ ؟ قالَ : مَنْ أنصفَ مِنْ نفسِهِ[٤]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نَفَثَ في روعي أنَّ نفساً لَنْ تموتَ حتَّىٰ تستكملَ رزقَها ، فاتَّقوا اللهَ وأجملوا في الطَّلبِ »[٥]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ إذا اشتدَّ بكَ الجوعُ . . فعليكَ برغيفٍ وكوزٍ مِنْ ماءٍ وعلى الدنيا الدَّمارُ »[٦]

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كنْ ورعاً . . تكنْ أعبدَ الناسِ ، وكنْ قَنِعاً . . تكنْ أشكرَ الناسِ ، وأحِبَّ للناسِ ما تُحبُّ لنفسِكَ . . تكنْ مؤمناً »[٧]

ونهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الطمعِ فيما رواهُ أبو أيوبَ الأنصاريُّ : أنَّ أعرابياً أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ عِظْني وأوجزْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا صلَّيتَ . . فصلِّ صلاةَ مودِّعٍ ، ولا تحدِّثَنَّ بحديثٍ تعتذرُ منهُ غداً ، وأَجْمِعِ اليأسَ ممَّا في أيدي الناسِ »[٨]

وقالَ عوفُ بنُ مالكٍ الأشجعيُّ : كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تسعةً أوْ ثمانيةً أوْ سبعةً ، فقالَ : « ألا تبايعونَ رسولَ اللهِ ؟ » قلْنا : أَوَليسَ قدْ بايعناكَ يا رسولَ اللهِ ؟ ثمَّ قالَ : « ألا تبايعونَ رسولَ اللهِ ؟ » فبسطنا أيدينا فبايعْناهُ ، فقالَ قائلٌ منَّا : قدْ بايعناكَ يا رسولَ اللهِ ، فعلىٰ ماذا نبايعُكَ ؟ قالَ : « علىٰ أنْ تعبدوا اللهَ ولا تشركوا بهِ شيئاً ، والصلواتِ الخمسِ ، وتسمعوا وتطيعوا ـ وأسرَّ كلمةً خفيَّةً ـ ولا تسألوا الناسَ شيئاً » ، قالَ : فلقدْ كانَ بعضُ أولئكَ النفرِ يسقطُ سوطُهُ فلا يسألُ أحداً أنْ يناولَهُ إيَّاهُ[٩]

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٤٠) .
(٢) رواه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .
(٣) روى الحاكم في « المستدرك » (٤/٢) نحوه .
(٤) رواه هناد في « الزهد » (٤٨٩) .
(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٢) ، وابن ماجه (٢١٤٤) .
(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٨٨١) .
(٧) رواه ابن ماجه (٤٢١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٣٦٦) .
(٨) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .
(٩) رواه مسلم (١٠٤٣) ، وأبو داوود (١٦٤٢) ، والنسائي (٢٢٩/١) .

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الطمعَ فقرٌ ، وإنَّ اليأسَ غنىً ، وإنَّهُ مَنْ أيسَ ممَّا عندَ الناسِ . . استغنىٰ عنهُمْ)[1]

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما الغنىٰ ؟ قالَ : قلَّةُ تمنِّيكَ ، ورضاكَ بما يكفيكَ[2]

وفي ذٰلكَ قيلَ[3] : [مجزوء الكامل]

اَلْعَيْشُ ساعَاتٌ تَمُرْ ... وَخُطُوبُ أَيَّامٍ تَكُرْ
اِقْنَعْ بِعَيْشِكَ تَرْضَهُ ... وَ اتْرُكْ هَواكَ وَأَنْتَ حُرْ[4]
فَلَرُبَّ حَتْفٍ ساقَهُ ... ذَهَبٌ وَياقُوتٌ وَدُرْ

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ يبلُّ الخبزَ اليابسَ بالماءِ ويأكلُهُ ويقولُ : مَنْ قنعَ بهٰذا . . لمْ يحتجْ إلىٰ أحدٍ[5]

وقالَ سفيانُ : (خيرُ دنياكُمْ ما لمْ تُبتلَوا بهِ ، وخيرُ ما ابتليتُمْ بهِ ما خرجَ مِنْ أيديكُمْ)[6]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِن يومٍ إلا وملكٌ ينادي : يا بنَ آدمَ ؛ قليلٌ يكفيكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يطغيكَ)[7]

وقالَ شُمَيطُ بنُ عجلانَ : (إنَّما بطنُكَ يا بنَ آدمَ شبرٌ في شبرٍ ؛ فلِمَ يدخلُكَ النارَ ؟)[8]

وقيلَ لحكيمٍ : ما مالُكَ ؟ قالَ : التَّجمُّلُ في الظاهرِ ، والقصدُ في الباطنِ ، واليأسُ ممَّا في أيدي الناسِ .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ لوْ كانتِ الدنيا كلُّها لكَ . . لمْ يكنْ لكَ مِنْها إلا القوتُ ، فإذا أنا أعطيتُكَ مِنْها القوتَ ، وجعلتُ حسابَها علىٰ غيرِكَ . . فأنا إليكَ محسنٌ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إذا طلبَ أحدُكُمُ الحاجةَ . . فليطلبْها طلباً يسيراً ، ولا يأتي الرجلَ فيقولَ : إنَّكَ وإنَّكَ فيقطعُ ظهرَهُ ، فإنَّما يأتيهِ ما قُسِمَ لهُ أوْ ما رُزِقَ)[9]

وكتبَ بعضُ بني أميةَ إلىٰ أبي حازمٍ يعزمُ عليهِ إلا رفعَ إليهِ حوائجَهُ ، فكتَبَ إليهِ : قدْ رفعتُ حوائجي إلىٰ مولايَ ، فما أعطاني مِنْها . . قبلتُ ، وما أمسكَ عنِّي . . قنعتُ[10]

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣١) .
(٢) رواه أبو بكر الشاشي في « فوائده » (٦) .
(٣) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٦٣/١٩) .
(٤) في (أ) : (تعيش) بدل (وأنت) .
(٥) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٣) أن محمد بن واسع أريد على القضاء فأبىٰ ، فعاتبته امرأته فقالت : لك عيال وأنت محتاج ، قال : ما دمت تريني أصبر على الخل والبقل . . فلا تطمعي في هٰذا مني .
(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١/٧) بنحوه .
(٧) كذا في « القوت » . « إتحاف » (١٦١/٨) .
(٨) كذا في « القوت » . « إتحاف » (١٦١/٨) .
(٩) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٧٩) .
(١٠) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٧/٣) .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : أيُّ شيءٍ أسرُّ للعاقلِ ؟ وأيُّما شيءٍ أعونُ علىٰ دفعِ الحزنِ ؟ فقالَ : أسرُّها إليهِ ما قدَّمَ مِنْ صالحِ العملِ ، وأعونُها لهُ علىٰ دفعِ الحزنِ الرضا بمحتومِ القضاءِ[١]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (وجدتُ أطولَ الناسِ غمّاً الحسودَ ، وأهنأَهُمْ عيشاً القنوعَ ، وأصبرَهُمْ على الأذى الحريصَ إذا طمعَ ، وأخفضَهُمْ عيشاً أرفضَهُمْ للدنيا ، وأعظمَهُمْ ندامةً العالمَ المفرِّطَ) .

وفي ذٰلكَ قيلَ[٢] : [من البسيط]

أَرْفِـهْ بِبـالِ فَتـىً يُمْسِي عَلَىٰ ثِقَةٍ … أَنَّ الَّـذِي قَسَّمَ الأَرْزاقَ يَـرْزُقُـهُ

فَـالْعِـرْضُ مِـنْـهُ مَصُـونٌ لا يُـدَنِّسُـهُ … وَ الْـوَجْـهُ مِـنْـهُ جَدِيـدٌ لَيْسَ يُخْلِقُهُ

إِنَّ الْقَـنـاعَـةَ مَـنْ يَحْلُـلْ بِساحَتِها … لَـمْ يَلْـقَ فِـي دَهْـرِهِ شَيْـئاً يُـؤَرِّقُـهُ

وقدْ قيلَ أيضاً[٣] : [من البسيط]

حَـتَّـىٰ مَتَـىٰ أَنـا فِـي حِـلٍّ وَتَـرْحـالِ … وَطُـولِ سَـعْـيٍ وَإِدْبـارٍ وَإِقْـبـالِ

وَنَـازِحُ الـدَّارِ لا أَنْـفَـكُّ مُغْـتَـرِبـاً … عَـنِ الأَحِـبَّـةِ لا يَـدْرُونَ مـا حالِـي

بِـمَشْـرِقِ الأَرْضِ طَـوْراً ثُـمَّ مَغْرِبِها … لا يَخْطُرُ الْمَوْتُ مِنْ حِرْصِي عَلَىٰ بالِ

وَلَـوْ قَنِعْـتُ أَتـانِـي الـرِّزْقُ فِـي دَعَـةٍ … إِنَّ الْـقُـنُـوعَ الْغِـنَـىٰ لا كَـثْـرَةُ الْـمـالِ[٤]

وقالَ عمرُ رضيَ اللّٰهُ عنهُ : (ألا أخبرُكُمْ بما أستحلُّ مِنْ مالِ اللّٰهِ عزَّ وجلَّ ؟ حُلَّتانِ لشتائي وقيظي ، وما يسعُني مِنَ الظَّهْرِ لحجِّي وعُمرتي ، وقوتي بعدَ ذٰلكَ كقوتِ رجلٍ مِنْ قريشٍ ، لسْتُ بأرفعِهِمْ ولا بأوضعِهِمْ ، فواللّٰهِ ؛ ما أدري أيحلُّ ذٰلكَ أمْ لا ؟)[٥] ، كأنَّهُ شكَّ في أنَّ هـٰذا القدْرَ هلْ هوَ زيادةٌ على الكفايةِ التي تجبُ القناعةُ بها ؟

وعاتبَ أعرابيٌّ أخاهُ على الحرصِ فقالَ : (يا أخي ؛ أنتَ طالبٌ ومطلوبٌ ، يطلبُكَ مَنْ لا تفوتُهُ ، وتطلبُ أنتَ ما قدْ كُفيتَهُ ، وكأنَّ ما غابَ عنكَ قدْ كُشِفَ لكَ ، وما أنتَ فيهِ قدْ نُقلْتَ عنهُ ؛ كأنَّكَ ـ يا أخي ـ لمْ ترَ حريصاً محروماً ، وزاهداً مرزوقاً)[٦]

وقيلَ في ذٰلكَ[٧] : [من الوافر]

أَراكَ يَـزِيـدُكَ الإِثْـراءُ حِـرْصـاً … عَـلَـى الـدُّنـيـا كَـأَنَّـكَ لا تَـمُـوتُ

فَـهَـلْ لَـكَ غـايَـةٌ إِنْ صِـرْتَ يَـوْماً … إِلَـيْـهـا قُـلْـتَ حَسْـبِـي قَـدْ رَضِـيـتُ

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٦٢/٨) .

(٢) الأبيات للعطوي في « ديوانه » (ص ٨٤) (ضمن مجلة المورد ، المجلد الأول ١٣٩١ ـ ١٩٧١ ـ العددان ١+٢) ، والثالث في « بهجة المجالس » (٣٠٩/٣) .

(٣) الأبيات مما نسب إلىٰ أبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٢٨) ، وإلىٰ كلثوم العتابي . انظر « العقد الفريد » (٢٠٨/٣ ـ ٢٠٩) .

(٤) رواها الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٧١) للمأمون وهو قافل إلىٰ طرسوس .

(٥) رواه ابن زنجويه في « الأموال » (٩٨٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٠/٤٤) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣١٤) .

(٧) البيتان لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٨٩) .

وحكى الشَّعبيُّ : أنَّ رجلاً صادَ قُنْبَرةً ، فقالَتْ : ما تريدُ أنْ تصنعَ بي ؟ قالَ : أذبحُكِ وآكُلُكِ ، قالَتْ : واللهِ ؛ ما أشفي مِنْ قرَمٍ[١] ، ولا أشبعُ مِنْ جوعٍ ، ولـٰكنْ أعلِّمُكَ ثلاثَ خصالٍ هيَ خيرٌ لكَ مِنْ أكلي ؛ أمَّا واحدةٌ . . فأعلِّمُكَ وأنا في يدِكَ ، وأمَّا الثانيةُ . . فإذا صرتُ على الشجرةِ ، وأمَّا الثالثةُ . . فإذا صرْتُ على الجبلِ ، فقالَ : هاتِ الأولىٰ ، قالَتْ : لا تلهفَنَّ علىٰ ما فاتَكَ ، فخلَّاها ، فلمَّا صارَتْ على الشجرةِ . . قالَ : هاتِ الثانيةَ ، قالَتْ : لا تصدِّقَنَّ بما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ ، ثمَّ طارَتْ فصارَتْ على الجبلِ ، قالَتْ : يا شقيُّ ؛ لوْ ذبحتَني . . لأخرجتَ مِنْ حوصلتي دُرَّتينِ زِنةُ كلِّ واحدةٍ عشرونَ مثقالاً ، قالَ : فعضَّ علىٰ شفتيهِ وتلهَّفَ ، وقالَ : هاتِ الثالثةَ ، قالَتْ : قدْ نسيتَ اثنتينِ ؛ فكيفَ أخبرُكَ بالثالثةِ ؟! ألمْ أقلْ لكَ : لا تلهفَنَّ علىٰ ما فاتَكَ ، ولا تصدِّقنَّ بما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ ؟! أنا ولحمي ودمي وريشي لا يكونُ عشرينَ مثقالاً ، فكيفَ يكونُ في حوصلتي درَّتانِ في كلِّ واحدةٍ عشرونَ مثقالاً ، ثمَّ طارَتْ فذهبَتْ[٢]

وهـٰذا مثالٌ لفرطِ طمعِ الآدميِّ ؛ فإنَّهُ يُعميهِ عنْ دركِ الحقِّ حتَّىٰ يقدِّر ما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ ، وقالَ ابنُ السَّمَّاكِ : (إنَّ الرجاءَ حبلٌ في قلبِكَ ، وقيدٌ في رِجْلِكَ ، فأخرجِ الرجاءَ مِنْ قلبِكَ . . يخرجِ القيدُ مِنْ رجلِكَ)[٣]

وقالَ أبو محمدٍ اليزيديُّ : دخلتُ على الرشيدِ ، فوجدتُهُ ينظرُ في ورقةٍ مكتوبٍ فيها بالذهبِ ، فلمَّا رآني . . تبسَّمَ ، فقلْتُ : فائدةٌ أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، وجدتُ هـٰذينِ البيتينِ في بعضِ خزائنِ بني أميَّةَ فاستحسنتُهُما ، وقدْ أضفْتُ إليهما ثالثاً ، وأنشدَني[٤] : [من الطويل]

إذا سُـدَّ بـابٌ عَـنْـكَ مِـنْ دُونِ حاجَـةٍ ... فَـدَعْـهُ لأُخْـرَىٰ يَـنْـفَـتِـحْ لَـكَ بـابُـهـا

فَــإِنَّ قُــرابَ الْـبَـطْـنِ يَـكْـفِـيـكَ مِـلْـؤُهُ ... وَيَـكْـفِـيـكَ سَـوْءاتِ الأُمُـورِ اجْـتِـنـابُـهـا

وَلا تَـكُ مِـبْـذالاً لِـعِـرْضِـكَ وَ اجْـتَـنِـبْ ... رُكُـوبَ الْـمَـعاصِـي يَـجْـتَـنِـبْـكَ عِـقـابُـهـا

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ لكعبٍ : ما يُذهبُ العلمَ مِنْ قلوبِ العلماءِ بعدَ إذْ وعَوْهُ وعقلوهُ ؟ قالَ : الطمعُ ، وشرَهُ النفسِ ، وطلبُ الحوائجِ[٥]

وقالَ رجلٌ للفضيلِ : فسِّرْ لي قولَ كعبٍ ، قالَ : يطمعُ الرجلُ في الشيءِ فيطلبُهُ ، فيُذهِبُ عليهِ دينَهُ ، وأمَّا الشَّرهُ . . فشرهُ النفسِ في هـٰذا وفي هـٰذا ، حتَّىٰ لا تحبَّ أنْ يفوتَها شيءٌ ، ويكونُ لكَ إلىٰ هـٰذا حاجةٌ وإلىٰ هـٰذا حاجةٌ ، فإذا قضاها لكَ . . خزمَ أنفَكَ ، وقادَكَ حيثُ شاءَ ، واستمكنَ منكَ ، وخضعتَ لهُ ، فمِنْ حبِّكَ للدنيا سلَّمتَ عليهِ إذا مررتَ بهِ ، وعدتَهُ إذا مرضَ ، لمْ تسلِّمْ عليهِ للهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ تعدْهُ للهِ عزَّ وجلَّ ، فلوْ لمْ يكنْ لكَ إليهِ حاجةٌ . . كانَ خيراً لكَ ، ثمَّ قالَ : هـٰذا خيرٌ لكَ مِنْ مئةِ حديثٍ عنْ فلانٍ وفلانٍ[٦]

---

(١) القرَم : شدة الشهوة للأكل .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٦/٤) .

(٣) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٤٣) .

(٤) انظر « بهجة المجالس » (٣١٠/٣) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٢٥/٢٧) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧١/٥٠) .

(٦) رواه ـ وفيه الخبر السابق ـ القاضي عياض في « الإلماع » (ص ١٩٤) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مِنْ عجيبِ أمرِ الإنسانِ أنَّه لوْ نُوديَ بدوامِ البقاءِ في أيامِ الدنيا . . لمْ يكنْ في قوىٰ خلقتِهِ مِنَ الحرصِ على الجمعِ أكثرُ ممَّا قدْ استعملَهُ معَ قصرِ مدَّةِ التمتُّعِ وتوقُّعِ الزوالِ)[1]

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ براهبٍ ، فقلتُ لهُ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ قالَ : مِنْ بيدرِ اللطيفِ الخبيرِ ، الذي خلقَ الرَّحىٰ هوَ يأتيها بالطحينِ ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ رحىٰ أضراسِهِ[2] فسبحانَ القديرِ الخبيرِ .

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٦٤/٩) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٦٤/٩) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١١/٦) ضمن خبر طويل ولكن عن السليط بن سبيع .

بيان علاج الحرص والطمع ، والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلمْ : أنَّ هـٰذا الدواءَ مركَّبٌ مِنْ ثلاثةِ أركانٍ : الصبرِ ، والعلمِ ، والعملِ .

ومجموعُ ذٰلكَ خمسةُ أمورٍ :

الأولُ ـ وهوَ العملُ ـ : الاقتصادُ في المعيشةِ ، والرفقُ في الإنفاقِ : فمَنْ أرادَ عزَّ القناعةِ . . فينبغي أنْ يسدَّ عنْ نفسِهِ أبوابَ الخرْجِ ما أمكنَهُ ، ويردَّ نفسَهُ إلىٰ ما لا بدَّ منهُ ؛ فمَنْ كثرَ خرجُهُ ، واتسعَ إنفاقُهُ . . لمْ تمكنْهُ القناعةُ ، بلْ إنْ كانَ وحدَهُ . . فينبغي أنْ يقنعَ بثوبٍ واحدٍ خشنٍ ، ويقنعَ بأيِّ طعامٍ كانَ ، ويقلِّلَ مِنَ الإدامِ ما أمكنَهُ ، ويوطِّنَ نفسَهُ علىٰ ذٰلكَ ، وإنْ كانَ لهُ عيالٌ . . فيردُّ كلَّ واحدٍ إلىٰ هـٰذا القدْرِ ، فإنَّ هـٰذا القدْرَ يتيسَّرُ بأدنىٰ جهدٍ ، ويمكنُ معَهُ الإجمالُ في الطلبِ .

فالاقتصادُ في المعيشةِ هوَ الأصلُ في القناعةِ ، ونعني بهِ : الرفقَ في الإنفاقِ ، وتركَ الخُرقِ فيهِ [١]

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كلِّهِ » [٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما عالَ مَنِ اقتصَدَ » [٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ منجياتٌ : خشيةُ اللهِ في السرِّ والعلانيةِ ، والقصدُ في الغنىٰ والفقرِ ؛ والعدلُ في الرضا والغضبِ » [٤]

ورُويَ أنَّ رجلاً أبصرَ أبا الدرداءِ يلتقطُ حبّاً مِنَ الأرضِ وهوَ يقولُ : (إنَّ مِنْ فقهِكَ رفقَكَ في معيشتِكَ) [٥]

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الاقتصادُ ، وحسنُ السَّمتِ ، والهدْيُ الصالحُ . . جزءٌ مِنْ بضعٍ وعشرينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ » [٦]

وفي الخبرِ : « التدبيرُ نصفُ العيشِ » [٧]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اقتصدَ . . أغناهُ اللهُ ، ومَنْ بذَّرَ . . أفقرَهُ اللهُ ، ومَنْ ذكرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ اللهُ » [٨]

---

(١) **الخُرق** : ضد الرفق ، وهو أيضاً ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٤) ، ومسلم (٢١٦٥) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٤٧/١) ، وابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٨/١٠) ، **وما عال** : ما افتقر ، **من اقتصد** : من أنفق قصداً ولم يجاوزه إلى الإسراف . « إتحاف » (١٦٤/٨) .

(٤) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٦١٤٤) ، ورواه من حديثه أيضاً مرفوعاً (٦١٤٥) .

(٦) رواه أبو داوود (٤٧٧٦) مع تقديم وتأخير ، والترمذي (٢٠١٠) وفيه : (التؤدة) بدل (الهدي الصالح) .

(٧) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٢١) . **والتدبير هنا** : النظر في عواقب الإنفاق ؛ إذ به يحترز عن الإسراف والتقتير . « إتحاف » (١٦٥/٨) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٢٨) بتمامه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أردْتَ أمراً . . فعليكَ بالتُّؤدَةِ حتَّىٰ يجعلَ اللهُ لكَ فرجاً ومخرجاً »[1] ، والتؤدةُ في الإنفاقِ مِنْ أهمِّ الأمورِ .

❀ ❀ ❀

الثاني : أنَّهُ إذا تيسَّرَ لهُ في الحالِ ما يكفيهِ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ شديدَ الاضطرابِ لأجلِ المستقبلِ : ويعينُهُ علىٰ ذٰلكَ قصرُ الأملِ ، والتحققُ بأنَّ الرزقَ الذي قُدِّرَ لهُ لا بدَّ وأنْ يأتيَهُ وإنْ لمْ يشتدَّ حرصُهُ ، وأنَّ شدةَ الحرصِ ليسَ هيَ السببَ لوصولِ الأرزاقِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ واثقاً بوعدِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وذٰلكَ لأنَّ الشيطانَ يعدُهُ الفقرَ ويأمرُهُ بالفحشاءِ ، ويقولُ : إنْ لمْ تحرصْ على الجمعِ والادخارِ . . فربَّما تمرضُ وتعجزُ ، وتحتاجُ إلى احتمالِ الذلِّ في السؤالِ ، فلا يزالُ طولَ العمرِ يتعبُهُ في الطلبِ خوفاً مِنَ التعبِ ، ويضحكُ عليهِ في احتمالِهِ التعبَ نقداً معَ الغفلةِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ لتوهُّمِ تعبٍ في ثاني الحالِ ، وربَّما لا يكونُ .

وفي مثلِهِ قيلَ[2] : [من الطويل]

وَمَـنْ يُنْفِقِ السَّاعاتِ فِي جَمْعِ مالِهِ ... مَخافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

وقدْ دخلَ ابنا خالدٍ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُما : « لا تيئسا مِنَ الرزقِ ما تهزهزَتْ رؤوسُكُما ؛ فإنَّ الإنسانَ تلدُهُ أمُّهُ أحمرَ ليسَ عليهِ قشرٌ ، ثمَّ يرزقُهُ اللهُ تعالىٰ »[3]

ومرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بابنِ مسعودٍ وهوَ حزينٌ ، فقالَ لهُ : « لا تكثِرْ همَّكَ ، ما يقدَّرْ . . يكنْ ، وما تُرزقْ . . يأتِكَ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أيُّها الناسُ ؛ أجملوا في الطلبِ ؛ فإنَّهُ ليسَ لعبدٍ إلا ما كُتبَ لهُ ، ولنْ يذهبَ عبدٌ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يأتيَهُ ما كتبَ لهُ مِنَ الدنيا وهيَ راغمةٌ »[5]

ولا ينفكُّ الإنسانُ عنِ الحرصِ إلا بحسنِ ثقتِهِ بتدبيرِ اللهِ تعالىٰ في تقديرِ أرزاقِ العبادِ ، وأنَّ ذٰلكَ يحصلُ ـ لا محالةَ ـ معَ الإجمالِ في الطلبِ ، بلْ ينبغي أنْ يعلمَ أنَّ رزقَ العبدِ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ أكثرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، فإذا انسدَّ عليهِ بابٌ كانَ ينتظرُ الرزقَ منهُ . . فلا ينبغي أنْ يضطربَ قلبُهُ لأجلِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبى اللهُ أنْ يرزقَ عبدَهُ المؤمنَ إلا مِنْ حيثُ لا يحتسبُ »[6]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٢١) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٨) .

(٢) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (١٥٠/٢) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٦٥) ، والطبراني في « الكبير » (٧/٤) ، وابنا خالد هما حبة وسواء رضي الله عنهما ، وتهزهزت ـ وعند ابن ماجه (تهزّزت) ـ : تحركت .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٩٤٤/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٤) .

(٥) روى الحاكم في « المستدرك » (٤/٢) نحوه .

(٦) رواه ابن حبان في « المجروحين » (١٦١/١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٨٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٥٢) .

وقالَ سفيانُ : (اتقِ اللهَ ؛ فما رأيتُ تقياً محتاجاً)[1] أيْ : لا يتركُ التقيَّ فاقداً لضرورتِهِ ، بلْ يُلقي اللهُ في قلوبِ المسلمينَ أنْ يوصلوا إليهِ رزقَهُ[2]

وقالَ المفضَّلُ الضبيُّ : قلتُ لأعرابيٍّ : مِنْ أينَ معاشُكَ ، قالَ : بورودِ الحاجِّ ، قلتُ : فإذا صدَروا ؟ فبكىٰ وقالَ : لوْ لمْ نعشْ إلا مِنْ حيثُ ندري . . لمْ نعشْ[3]

وقالَ أبو حازمٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (وجدتُ الدنيا شيئينِ ؛ شيئاً منهُما هوَ لي ؛ فلنْ أعجلَهُ قبلَ أجلِهِ ولوْ طلبتُهُ بقوَّةِ السماواتِ والأرضِ ، وشيئاً منهُما هوَ لغيري ؛ فذٰلكَ لمْ أنلْهُ فيما مضىٰ ، فلا أرجوهُ فيما بقيَ ، يُمنَعُ الذي لغيري منّي كما يُمنَعُ الذي لي مِنْ غيري ؛ ففي أيِّ هٰذينِ أُفني عمري ؟!)[4]

فهٰذا دواءٌ مِنْ جهةِ المعرفةِ لا بدَّ منهُ لدفعِ تخويفِ الشيطانِ وإنذارِهِ بالفقرِ .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : أنْ يعرفَ ما في القناعةِ مِنْ عزِّ الاستغناءِ ، وما في الطمعِ والحرصِ مِنَ الذلِّ : فإذا تحقَّقَ عندَهُ ذٰلكَ . . انبعثَتْ رغبتُهُ إلى القناعةِ ؛ لأنَّهُ في الحرصِ لا يخلو مِنْ تعبٍ ، وفي الطمعِ لا يخلو مِنْ ذلٍّ ، وليسَ في القناعةِ إلا ألمُ الصبرِ عنِ الشهواتِ والفضولِ ، وهٰذا ألمٌ لا يطلعُ عليهِ أحدٌ إلا اللهُ ، وفيهِ ثوابُ الآخرةِ ، وذٰلكَ ممَّا يُضافُ إليهِ نظرُ الناسِ ، وفيهِ الوبالُ والمأثمُ ، ثمَّ يفوتُهُ عزُّ النفسِ ، والقدرةُ علىٰ متابعةِ الحقِّ ؛ فإنَّ مَنْ كثُرَ طمعُهُ وحرصُهُ . . كثُرَتْ حاجتُهُ إلى الناسِ ، فلا يمكنُهُ دعوتُهُمْ إلى الحقِّ ، بلْ تلزمُهُ المداهنةُ ، وذٰلكَ يهلكُ دينَهُ ، ومَنْ لا يؤْثِرُ عزَّ النفسِ علىٰ شهوةِ البطنِ . . فهوَ ركيكُ العقلِ ، ناقصُ الإيمانِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عزُّ المؤمنِ استغناؤُهُ عنِ الناسِ »[5]

ففي القناعةِ الحريةُ والعزُّ ، ولذٰلكَ قيلَ : (استغنِ عمَّنْ شئتَ . . فأنتَ نظيرُهُ ، واحتجْ إلىٰ مَنْ شئتَ . . فأنتَ أسيرُهُ ، وأحسنْ إلىٰ مَنْ شئتَ . . فأنتَ أميرُهُ)[6]

❊ ❊ ❊

الرابعُ : أنْ يكثِرَ تأمُّلَهُ في تنعُّمِ اليهودِ والنصارىٰ ، وأراذلِ الناسِ ، والحمقىٰ مِنَ الأكرادِ والأعرابِ الأجلافِ ، ومَنْ لا دينَ لهمْ ولا عقلَ ، **ثمَّ ينظرَ إلىٰ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ** ، وإلىٰ سمتِ الخلفاءِ الراشدينَ ، وسائرِ الصحابةِ والتابعينَ ، ويستمعَ أحاديثَهُمْ ، ويطالعَ أحوالَهُمْ ، ويخيِّرَ عقلَهُ بينَ أنْ يكونَ علىٰ مشابهةِ أراذلِ الناسِ ، أوْ على الاقتداءِ بمَنْ هوَ

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨/١٦٨) : (أخرجه صاحب « الحلية » ، وكأنه استنبط ذٰلك من قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ . . . ﴾ الآية ؛ أي : فلا يتصور الاحتياج مع التقوىٰ) .

(٢) من غير إشراف نفس منه ولا مسألة . « إتحاف » (٨/١٦٨) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/٢٤٨) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٣٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٤٠) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٥٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا محمد ؛ عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزَّه استغناؤه عن الناس) .

(٦) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/١٨٤) عن أبي محمد الأنصاري أنه قرأه علىٰ حجر ببيت المقدس .

أعزُّ أصنافِ الخلقِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّىٰ يهونَ عليهِ بذٰلكَ الصبرُ على القليلِ ، والقناعةُ باليسيرِ ؛ فإنَّهُ إنْ تنعَّمَ في البطنِ . . فالحمارُ أكثرُ أكلاً منهُ ، وإنْ تنعَّمَ في الوقاعِ . . فالخنزيرُ أعلىٰ رتبةً منهُ ، وإنْ تزيَّنَ في الملبسِ والخيلِ . . ففي اليهودِ مَنْ هوَ أعلىٰ رتبةً منهُ ، وإنْ قنعَ بالقليلِ ورضيَ بهِ . . لمْ يساهمْهُ في رتبتِهِ إلا الأنبياءُ والأولياءُ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : أنْ يفهمَ ما في جمعِ المالِ مِنَ الخطرِ : كما ذكرناه في آفاتِ المالِ ، وما فيهِ مِنْ خوفِ السرقةِ والنهبِ والضياعِ ، وما في خلوِّ اليدِ مِنَ الأمنِ والفراغِ ، ويتأملَ ما ذكرناهُ مِنْ آفاتِ المالِ ، معَ ما يفوتُهُ مِنَ المدافعةِ عنْ بابِ الجنةِ إلىٰ خمسِ مئةِ عامٍ ، فإنَّهُ إذا لمْ يقنعْ بما يكفيهِ . . التحقَ بزمرةِ الأغنياءِ ، وأُخرِجَ مِنْ جريدةِ الفقراءِ ، ويتمُّ ذٰلكَ بأنْ ينظرَ أبداً إلىٰ مَنْ دونَهُ في الدنيا ، لا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ، فإنَّ الشيطانَ أبداً يصرفُ نظرَهُ في الدنيا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ، فيقولُ : لِمَ تفترُ عنِ الطلبِ وأربابُ الأموالِ يتنعَّمونَ في المطاعمِ والملابسِ ؟ ويصرفُ نظرَهُ في الدِّينِ إلىٰ مَنْ دونَهُ ، فيقولُ : لِمَ تضيّقُ علىٰ نفسِكَ وتخافُ اللّهَ وفلانٌ أعلمُ منكَ وهوَ لا يخافُ اللهَ ، والناسُ كلُّهُمْ مشغولونَ بالتنعُّمِ ؟ فلِمَ تريدُ أنْ تتميَّزَ عنهُمْ ؟!

قالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللّهُ عنهُ : (أوصاني خليلي صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : أنْ أنظرَ إلىٰ مَنْ هوَ دوني ، ولا أنظرَ إلىٰ مَنْ هوَ فوقي)(١) أيْ : في الدنيا .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا نظرَ أحدُكُمْ إلىٰ مَنْ فُضِّلَ عليهِ في المالِ والخَلْقِ . . فلينظُرْ إلىٰ مَنْ هوَ أسفلَ منهُ ممَّنْ فُضِّلَ عليهِ »(٢)

فبهٰذهِ الأمورِ يقدرُ على اكتسابِ خُلُقِ القناعةِ ، وعمادُ الأمرِ الصبرُ وقصرُ الأملِ ، وأنْ يعلمَ أنَّ غايةَ صبرِهِ في الدنيا أيامٌ قلائلُ ليتمتَّعَ دهراً طويلاً ، فيكونَ كالمريضِ الذي يصبرُ علىٰ مرارةِ الدواءِ لشدةِ طمعِهِ في انتظارِ الشفاءِ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/١٥٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٤٩) .
(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠) ، ومسلم (٢٩٦٣) .

بيان فضيلة السخاء

اعلمْ : أنَّ المالَ إنْ كانَ مفقوداً . . فينبغي أنْ يكونَ حالُ العبدِ القناعةَ وقلَّةَ الحرصِ ، وإنْ كانَ موجوداً . . فينبغي أنْ يكونَ حالُهُ الإيثارَ والسخاءَ ، واصطناعَ المعروفِ ، والتباعدَ عنِ الشحِّ والبخلِ ؛ فإنَّ السخاءَ مِنْ أخلاقِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، وهوَ أصلٌ مِنْ أصولِ النجاةِ ، وعنهُ عبَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « السَّخاءُ شجرةٌ منْ شجرِ الجنَّةِ ، أغصانُها متدلِّيةٌ إلى الأرضِ ، فمَنْ أخذَ بغصْنٍ مِنْها . . قادَهُ ذٰلكَ الغصْنُ إلى الجنَّةِ »(١)

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ جبريلُ عليهِ السلامُ : قالَ اللهُ تعالىٰ : إنَّ هٰذا دينٌ ارتضيتُهُ لنفسِي ، ولنْ يصلحَهُ إلا السَّخاءُ وحسْنُ الخُلْقِ ، فأكرموهُ بهما ما استطعتُمْ » ، وفي روايةٍ : « فأكرموهُ بهما ما صحبتُموهُ »(٢)

وعنْ عائشةَ الصدِّيقةِ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جَبَلَ اللهُ تعالىٰ وليّاً لهُ إلا على السَّخاءِ وحُسْنِ الخُلُقِ »(٣)

وعنْ جابرٍ قالَ : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « الصبرُ والسماحةُ »(٤)

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خُلُقانِ يحبُّهما اللهُ عزَّ وجلَّ ، وخُلُقانِ يبغضُهما اللهُ عزَّ وجلَّ ، فأمَّا اللذانِ يحبُّهما اللهُ عزَّ وجلَّ . . فحسنُ الخُلُقِ والسخاءُ ، وأمَّا اللذانِ يبغضُهما اللهُ عزَّ وجلَّ . . فسوءُ الخُلُقِ والبخلُ ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . استعملَهُ في قضاءِ حوائجِ الناسِ »(٥)

وروى المقدامُ بنُ شريحٍ عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « إنَّ مِنْ موجباتِ المغفرةِ بذلَ الطعامِ ، وإفشاءَ السلامِ ، وحسنَ الكلامِ »(٦)

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخاءُ شجرةٌ في الجنَّةِ ؛ فمَنْ كانَ سخيّاً . . أخذَ بغصْنٍ مِنْها ، فلمْ يترُكْهُ ذٰلكَ الغصْنُ حتَّىٰ يدخلَهُ الجنَّةَ ، والشُّحُّ شجرةٌ في النارِ ؛ فمَنْ كانَ شحيحاً . . أخذَ بغصْنٍ مِنْها ، فلمْ يتركْهُ ذٰلكَ الغصْنُ حتَّىٰ يدخلَهُ النارَ »(٧)

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢٣٥/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٢/٧) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢١) ، وسيأتي بتمامه .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٩ ، ٥٥٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٨٩١٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٦٦) ، ولفظه بروايتيه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٢) .

(٣) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٠٥) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٢٨) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٣٨٥/٤) من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٥٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٩٨٩) .

(٦) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨٠/٢٢) بروايتين ، جمع هنا بينهما ، وهو كما أورده المصنف عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٣) .

(٧) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٧٧) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالى : اطلبوا الفضلَ عندَ الرحماءِ مِنْ عبادي . . تعيشوا في أكنافِهِمْ ؛ فإنّي جعلتُ فيهِمْ رحمتي ، ولا تطلبوهُ مِنَ القاسيةِ قلوبُهُمْ ؛ فإنّي جعلتُ فيهِمْ سخَطِي »[١]

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تجافَوا عنْ ذنبِ السخيِّ ؛ فإنَّ اللهَ آخذٌ بيدِهِ كلَّما عثَرَ »[٢] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرزقُ إلىٰ مُطعمِ الطعامِ أسرعُ مِنَ السكّينِ إلىٰ ذُروةِ البعيرِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ ليُباهي بمُطعمِ الطعامِ الملائكةَ عليهمُ السلامُ »[٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جوادٌ يحبُّ الجودَ ، ويحبُّ معاليَ الأخلاقِ ، ويكرهُ سَفْسافَها »[٤]

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يُسأَلْ على الإسلامِ شيئاً إلا أعطاهُ ، فأتاهُ رجلٌ فسألَهُ ، فأمرَ لهُ بشاءٍ كثيرٍ بينَ جبلينِ مِنْ شاءِ الصدقةِ ، فرجعَ إلىٰ قومِهِ فقالَ : يا قومِ ؛ أسلموا ، فإنَّ محمداً يعطي عطاءَ مَنْ لا يخافُ الفاقةَ[٥]

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عباداً يخصُّهُمْ بالنِّعمِ لمنافعِ العبادِ ، فمنْ بخلَ بتلكَ المنافعِ عنِ العبادِ . . نقلَها اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ ، وحوَّلَها إلىٰ غيرِهِ »[٦]

وعنِ الهلاليِّ قالَ : أُتيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأسرىٰ مِنْ بني العنبرِ ، فأمرَ بقتلِهِمْ ، وأفردَ منهُمْ رجلاً ، فقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الربُّ واحدٌ ، والدينُ واحدٌ ، والذنبُ واحدٌ ؛ فما بالُ هٰذا مِنْ بينِهِمْ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نزلَ عليَّ جبريلُ فقالَ : اقتلْ هٰؤلاءِ واتركْ هٰذا ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ شكرَ لهُ سخاءً فيهِ »[٧]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لكلِّ شيءٍ ثمرةً ، وثمرةُ المعروفِ تعجيلُ السَّراحِ »[٨]

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٦٨) ، وابن حبان في « المجروحين » (٢/٢٩٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٧١٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٠٠) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٩٧) ، ورواه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (٤/١٠٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٦٩) .

(٣) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٤) ، وقد روى ابن ماجه (٣٣٥٦ ، ٣٣٥٧) من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعاً : « الخير أسرع إلى البيت الذي يؤكل فيه ـ أو يُغشىٰ ـ من الشفرة إلىٰ سنام البعير » ، ورواه بنحوه هنا الرافعي في « تاريخ قزوين » (٤/١٢٠) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٧٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٦) ، والطبراني في « الكبير » (٦/١٨١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً ، وقد تقدم بعضه .

(٥) رواه مسلم (٢٣١٢) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٥١٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/١١٥) و(١٠/٢١٥) .

(٧) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٥) ، وفيه : (الهذلي) بدل (الهلالي) ، وزاد : فقال الأسير : لِمَ لم ألحق بأصحابي ؟ فقال : « إن الله تعالىٰ شكر سخاء فيك » ، فأسلم وحسن إسلامه ببركة سخاوته . وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « الإتحاف » (٨/١٧٥) .

(٨) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨/١٧٥) : (قال العراقي : لم أقف له علىٰ أصل . قلت : ولٰكن المعنىٰ صحيح ، ومنه قولهم : إما نعم صريحة وإلا مريحة) ، وقد سقط الخبر من مطبوع « تهذيب الأسرار » للخركوشي مع أن السياق عنده .

وعنْ نافعٍ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طعامُ الجوادِ دواءٌ ، وطعامُ البخيلِ داءٌ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عظُمَتْ نعمةُ اللهِ عندَهُ . . عظُمَتْ مؤنةُ الناسِ عليهِ ، فمَنْ لمْ يحتملْ تلكَ المؤنةَ . . عرَّضَ تلكَ النعمةَ للزوالِ »(٢)

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : استكثروا مِنْ شيءٍ لا تأكلُهُ النارُ ، قيلَ : وما هوَ ؟ قالَ : المعروفُ(٣)

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجنةُ دارُ الأسخياءِ »(٤)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ السخيَّ قريبٌ مِنَ اللهِ ، قريبٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ الجنَّةِ ، بعيدٌ مِنَ النارِ ، وإنَّ البخيلَ بعيدٌ مِنَ اللهِ ، بعيدٌ مِنَ الناسِ ، بعيدٌ مِنَ الجنَّةِ ، قريبٌ مِنَ النارِ ، وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ عابدٍ بخيلٍ ، وأدوأُ الداءِ البخلُ »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اصنعِ المعروفَ إلىٰ مَنْ هوَ أهلُهُ وإلىٰ مَنْ ليسَ بأهلِهِ ؛ فإنْ أصبتَ أهلَهُ . . فقدْ أصبتَ أهلَهُ ، وإنْ لمْ تصِبْ أهلَهُ . . فأنتَ مِنْ أهلِهِ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ بدلاءَ أمَّتي لمْ يدخلوا الجنَّةَ بصلاةٍ ولا صيامٍ ، ولٰكنْ دخلوها بسخاءِ الأنفسِ ، وسلامةِ الصدورِ ، والنصحِ للمسلمينَ »(٧)

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ للمعروفِ وجوهاً مِنْ خلقِهِ ، حبَّبَ إليهمُ المعروفَ ، وحبَّبَ إليهمْ فعالَهُ ، ووجَّه طلَّابَ المعروفِ إليهِمْ ، ويسَّر عليهِمْ إعطاءَهُ ؛ كما يسَّرَ الغيثَ إلى البلدةِ الجدبةِ فيحييها ويحيي بها أهلَها »(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ صدقةٌ ، وكلُّ ما أنفقَ الرجلُ علىٰ نفسِهِ وأهلِهِ كُتبَ لهُ صدقةً ، وما وقىٰ بِهِ المرءُ عرضَهُ . . فهوَ لهُ صدقةٌ ، وما أنفقَ الرَّجلُ مِنْ نفقةٍ . . فعلى اللهِ خلَفُها »(٩)

---

(١) كذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٩٥٤) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن عدي والدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو علي الصوفي في « عواليه » وقال : رجاله ثقات أئمة ، قال ابن القطان : وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داوود ؛ فإن أهل مصر تكلموا فيه) . « إتحاف » (١٧٥/٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (١٧٤/١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٩٨) ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٧١/٣) عن الزهري .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٩٧) ، وابن حبان في « الثقات » (٢٣/٥) ، وابن عدي في « الكامل » (١٨٧/١) .

(٥) رواه الترمذي (١٩٦١) دون الجملة الأخيرة ، ورواها الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٧٤) .

(٦) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٧٨) ، والجصاص في « أحكام القرآن » (٢٦٧/٣) ، والسلمي في « آداب الصحبة » (١٣٨) ، وهو عند الدارقطني في « العلل » (١٠٧/٣) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٩٣ ، ١٠٣٩٤) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٣٢١/٤) من حديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بنحوه .

(٩) رواه ابن عدي في « الكامل » (٤٣١/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٩) ، والجملة الأولىٰ منه رواها البخاري (٦٠٢١) ، ومسلم (١٠٠٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ صدقةٌ ، والدالُّ على الخيرِ كفاعلِهِ ، واللهُ يحبُّ إغاثةَ اللَّهفانِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ فعلتَهُ إلىٰ غنيٍّ أوْ فقيرٍ صدقةٌ »[2]

ورُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : لا تقتلِ السامريَّ ؛ فإنَّهُ سخيٌّ[3]

وقالَ جابرٌ : بَعَثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثاً عليهِمْ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ ، فجهدوا ، فنحرَ لهمْ قيسٌ تسعَ ركائبَ ، فحدَّثوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذٰلكَ ؛ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الجودَ لمِنْ شيمةِ أهلِ ذٰلكَ البيتِ »[4]

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : إذا أقبلَتِ الدنيا عليكَ . . فأنفقْ منها ؛ فإنَّها لا تفنىٰ ، وإذا أدبرَتْ عنكَ . . فأنفقْ منها ؛ فإنَّها لا تبقىٰ ، وأنشدَ[5] : [من البسيط]

لا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيا وَهْيَ مُقْبِلَةٌ ... فَلَيْسَ يَنْقُصُها التَّبْذِيرُ وَالسَّرَفُ
فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ تَجُودَ بِها ... فَٱلْحَمْدُ مِنْها إذا ما أَدْبَرَتْ خَلَفُ

وسألَ معاويةُ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ عنِ المروءةِ والنجدةِ والكرمِ ، فقالَ :

أمَّا المروءةُ . . فحفظُ الرجلِ دينَهُ ، وحذرُهُ نفسَهُ ، وحسنُ قيامِهِ بضيفِهِ ، وحسنُ المنازعةِ ، والإقدامُ في الكراهيةِ .

وأمَّا النجدةُ . . فالذبُّ عنِ الجارِ ، والصبرُ في المواطنِ .

وأمَّا الكرمُ . . فالتبرُّعُ بالمعروفِ قبلَ السؤالِ ، والإطعامُ في المحْلِ ، والرأفةُ بالسائلِ معَ بذلِ النائلِ[6]

ورفعَ رجلٌ إلى الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما رقعةً ، فقالَ : حاجتُكَ مقضيَّةٌ ، فقيلَ لهُ : يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ لوْ نظرتَ في رقعتِهِ ثمَّ رددتَ الجوابَ علىٰ قدْرِ ذٰلكَ !! فقالَ : يسألُني اللهُ عزَّ وجلَّ عنْ ذلِّ مقامِهِ بينَ يديَّ حتَّىٰ أقرأَ رقعتَهُ[7]

وقالَ ابنُ السماكِ : (عجبتُ لمَنْ يشتري المماليكَ بمالِهِ ولا يشتري الأحرارَ بمعروفِهِ)[8]

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٥١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٢) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (١١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٩/٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) ، والثعلبي في « تفسيره » (٢٥٨/٦) .
(٤) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٩١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١١/٤٩) .
(٥) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٨٠) .
(٦) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥٧/١٣) بنحوه ، وبلفظه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٩) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٩) .
(٨) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٠) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤٢١) .

وسُئِلَ بعضُ الأعرابِ : مَنْ سيدُكُمْ ؟ فقالَ : مَنِ احتملَ شتْمَنا ، وأعطىٰ سائلَنا ، وأغضىٰ عنْ جاهلِنا [١]

وقالَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَن وُصِفَ ببذلِ مالِهِ لطلابِهِ . . لمْ يكنْ سخيّاً ، وإنَّما السخيُّ مَنْ يبتدئُ بحقوقِ اللهِ تعالىٰ في أهلِ طاعتِهِ ، ولا تنازعُهُ نفسُهُ إلىٰ حبِّ الشكرِ لهُ إذا كانَ يقينُهُ بثوابِ اللهِ تامّاً) [٢]

وقيلَ للحسنِ البصريِّ : ما السخاءُ ؟ فقالَ : أنْ تجودَ بمالِكَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، قيلَ : فما الحزمُ ؟ قالَ : أنْ تمنعَ مالكَ فيهِ ، قيلَ : فما الإسرافُ ؟ قالَ : الإنفاقُ لحبِّ الرئاسةِ [٣]

وقالَ جعفرٌ الصادقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (لا مالَ أعودُ مِنَ العقلِ [٤] ، ولا مصيبةَ أعظمُ مِنَ الجهلِ ، ولا مظاهرةَ كالمشاورةِ ، ألا وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : إنِّي جوادٌ كريمٌ لا يجاورُني لئيمٌ ، واللؤمُ مِنَ الكفرِ ، وأهلُ الكفرِ في النارِ ، والجودُ والكرمُ مِنَ الإيمانِ ، وأهلُ الإيمانِ في الجنةِ) [٥]

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (رُبَّ فاجرٍ في دينِهِ ، أخرقُ في معيشتِهِ ، يدخلُ الجنةَ بسماحتِهِ) [٦]

ورأى الأحنفُ بنُ قيسٍ رجلاً في يدِهِ درهمٌ ، فقالَ : لمَنْ هٰذا الدرهمُ ، فقالَ : لي ، فقالَ : أما إنَّهُ ليسَ لكَ حتَّىٰ يخرجَ مِنْ يدِكَ [٧]

وفي معناهُ قيلَ [٨] : [من الرمل]

أَنْـتَ لِلْـمَـالِ إذا أَمْـسَـكْـتَـهُ ... فَـإذا أَنْـفَـقْـتَـهُ فَـالْـمَـالُ لَـكْ

وسُمِّي واصلُ بنُ عطاءٍ الغزَّالَ ؛ لأنهُ كانَ يجلسُ إلى الغزَّالينَ ، فإذا رأى امرأةً ضعيفةً . . أعطاها شيئاً [٩]

وقالَ الأصمعيُّ : كتبَ الحسنُ بنُ عليٍّ إلى الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهمْ يعتبُ عليهِ في إعطاءِ الشعراءِ ، فكتبَ إليهِ : خيرُ المالِ ما وُقِيَ بهِ العرضُ [١٠]

وقيلَ لسفيانَ بنِ عيينةَ : ما السخاءُ ؟ قالَ : السخاءُ البرُّ بالإخوانِ ، والجودُ بالمالِ [١١]

قالَ : وورثَ أبي خمسينَ ألفَ درهمٍ ، فبعثَ بها إلىٰ إخوانِهِ صرراً ، وقالَ : قدْ كنتُ أسألُ اللهَ تعالىٰ لإخواني الجنَّةَ في صلاتي ، أفأبخلُ عليهمْ بالمالِ ؟! [١٢]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٠) عن معاوية رضي الله عنه يسأل أحد أعراب طيء ، وقصدوا به خريم بن أوس .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .
(٤) أي : أكثر عائدة منه .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٣) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤٣/٢٤) ، وأنه تمثَّل بالبيت بعده عندهما .
(٨) انظر « عيون الأخبار » (١٨١/٣) .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٧) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٣٩) .
(١١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) .
(١٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) ، وعنده : (وورث الحسن) بدل (قال : وورث أبي) ، وبنحوه حكاه الطرطوشي في « سراج الملوك » (٣٧٣/١) عن عبد الملك بن بحر ، وفي (ب) : (وورث عبد الرحمٰن بن الحارث) .

وقالَ الحسنُ : (بذلُ المجهودِ في بذلِ الموجودِ منتهى الجودِ)[1]

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : مَنْ أحبُّ الناسِ إليكَ ؟ قالَ : مَنْ كثُرَتْ أياديهِ عندي ، قيلَ : فإنْ لمْ يكنْ ؟ قالَ : مَنْ كثُرَتْ أياديَّ عندَهُ[2] .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ : (إذا الرجلُ أمكنَني مِنْ نفسِهِ حتَّىٰ أضعَ معروفي عندَهُ . . فيدُهُ عندي مثلُ يدي عندَهُ)[3]

وقالَ المهديُّ لشَبيبِ بنِ شيبةَ : كيفَ رأيتَ الناسَ في داري ؟ فقالَ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ الرجلَ منهمْ ليدخلُ راجياً ويخرجُ راضياً[4]

وتمثلَ متمثلٌ عندَ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ فقالَ[5] : [من الكامل]

إنَّ ٱلصَّنيعَةَ لا تَكُونُ صَنِيعَةً ... حَتَّىٰ يُصابَ بِها طَرِيقُ الْمَصْنَعِ

فَإذا ٱصْطَنَعْتَ صَنِيعَةً فاعْمَدْ بِها ... للهِ أَوْ لِذَوِي الْقَرابَةِ أَوْ دَعِ

فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ : إنَّ هـٰذينِ البيتينِ ليبخلانِ الناسَ ، ولـٰكنْ أمطرِ المعروفَ مطراً ؛ فإنْ أصابَ الكرامَ . . كانُوا لهُ أهلاً ، وإنْ أصابَ اللئامَ . . كنتَ لهُ أهلاً[6]

* * *

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) عن الحماني .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) ، وقريب منه عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٨٤) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) .

(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٧٦/٩) .

(٥) البيتان لسيدنا حسان في « ديوانه » (٤٩٣/١) .

(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٦) ، ورواه بنحوه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٥٤) .

حكايات الأسخياء

عنْ محمدِ بنِ المنكدرِ ، عنْ أمِّ دُرَّةَ[١] ـ وكانَتْ تخدمُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ـ قالَتْ : إنَّ ابنَ الزبيرِ بعثَ إليها[٢] بمالٍ في غِرارتينِ ثمانينَ ومئةِ ألفِ درهمٍ ، فدعَتْ بطبقٍ ، فجعلَتْ تقسمُهُ بينَ الناسِ ، فلما أمسَتْ ، قالَتْ : يا جاريةُ ؛ هلمِّي فُطُوري ، فَجَاءَتْها بخبزٍ وزيتٍ ، فقالَتْ لها أمُّ درةَ : ما استطعتِ فيما قسمتِ اليومَ أنْ تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نفطرُ عليهِ ؟ فقالَتْ : لوْ كنتِ ذكرتيني . . لفعلتُ[٣]

وعنْ أبانَ بنِ عثمانَ قالَ : أرادَ رجلٌ أنْ يضارَّ عبدَ اللهِ بنَ عباسٍ ، فأتىٰ وجوهَ قريشٍ فقالَ : يقولُ لكمْ عبدُ اللهِ : تغدَّوا عندي اليومَ ، فأتوهُ حتَّىٰ ملؤوا عليهِ الدارَ ، فقالَ : ما هٰذا ، فأُخبرَ الخبرَ ، فأمرَ عبدُ اللهِ بشراءِ فاكهةٍ ، وأمرَ قوماً فطبخوا ، وخبزوا ، وقُدِّمَتِ الفاكهةُ إليهِمْ ، فلمْ يفرغوا منها حتَّىٰ وُضعَتِ الموائدُ ، فأكلوا حتَّىٰ صدروا ، فقالَ عبدُ اللهُ لوكلائِهِ : أموجودٌ كلَّما أردتُ في السوقِ مثلُ هٰذا ؟ قالوا : نعمْ ، قالَ : فليتغدَّ عندَنا هٰؤلاءِ في كلِّ يومٍ[٤]

وقالَ مصعبُ بنُ الزبيرِ : حجَّ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فلمَّا انصرفَ . . مرَّ بالمدينةِ ، فقالَ الحسينُ بنُ عليٍّ لأخيهِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهمْ : لا تلقَهُ ولا تسلِّمْ عليهِ ، فلمَّا خرجَ معاويةُ . . قالَ الحسنُ : إنَّ علينا دَيناً ولا بدَّ لنا مِنْ إتيانِهِ ، فركبَ في أثرِهِ فلحقَهُ ، فسلَّمَ عليهِ وأخبرَهُ بدَينِهِ ، فمرُّوا عليهِ ببُخْتيٍّ عليهِ ثمانونَ ألفَ دينارٍ وقدْ أعيا وتخلَّفَ عنِ الإبلِ وقومٌ يسوقونَهُ ، فقالَ معاويةُ : ما هٰذا ؟ فذُكِرَ لهُ ، فقالَ : اصرفوهُ بما عليهِ إلىٰ أبي محمدٍ[٥]

وعنْ واقدِ بنِ محمدٍ الواقديِّ قالَ : حدثَنا أبي أنَّهُ رفعَ رقعةً إلى المأمونِ يذكرُ فيها كثرةَ الدينِ وقلَّةَ صبرِهِ عليهِ ، فوقَّعَ المأمونُ علىٰ ظهرِ رقعتِهِ : إنَّكَ رجلٌ اجتمعَ فيكَ خصلتانِ : سخاءٌ ، وحياءٌ ، فأمَّا السخاءُ . . فهوَ الذي أطلقَ ما في يديكَ ، وأمَّا الحياءُ . . فهوَ الذي يمنعُكَ مِنْ تبليغِنا ما أنتَ عليهِ ، وقدْ أمرتُ لكَ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فإنْ كنتُ قدْ أصبتُ . . فازدَدْ في بسطِ يدِكَ ، وإنْ لمْ أكنْ قدْ أصبتُ . . فجنايتُكَ علىٰ نفسِكَ ، وأنتَ حدَّثتَني وكنتَ علىٰ قضاءِ الرشيدِ : عنْ محمدِ بنِ إسحاقَ ، عنِ الزهريِّ ، عنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للزبيرِ بنِ العوَّامِ : « يا زبيرُ ؛ اعلمْ أنَّ مفاتيحَ أرزاقِ العبادِ بإزاءِ العرشِ ، يبعثُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ كلِّ عبدٍ بقدْرِ نفقتِهِ ؛ فمَنْ كثَّرَ . . كثَّرَ لهُ ، ومَنْ قلَّلَ . . قلَّلَ لهُ » ، وأنتَ أعلمُ . قالَ الواقديُّ : فواللهِ ؛ لَمذاكرةُ المأمونِ إيَّايَ الحديثَ أحبُّ إليَّ مِنَ الجائزةِ وهيَ مئةُ ألفِ درهمٍ[٦]

وسألَ رجلٌ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما حاجةً فقالَ لهُ : يا هٰذا ؛ حقُّ سؤالِكَ إيايَ يعظمُ لديَّ ، ومعرفتي بما يجبُ لكَ تكبرُ عليَّ ، ويدي تعجزُ عنْ نيلِكَ بما أنتَ أهلُهُ ، والكثيرُ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ قليلٌ ، وما في ملكي وفاءٌ

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨/١٨١) : (هٰكذا ضبطه غير واحد بضم الدال المهملة) ، وضبطه الحافظ ابن حجر في « تبصير المنتبه » (٢/٥٦٠) : ذَرَّة ، بفتح الذال المعجمة .

(٢) أي : لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (٦١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٤٧) ، ولفظه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٧) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٢٢) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٨) .

(٦) رواه بتمامه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/٢٢٨) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٨) ، وروى المرفوع وحده أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢١٦) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٥٤) بنحوه .

لشكرِكَ ، فإنْ قبلتَ الميسورَ ، ورفعتَ عنّي مؤنَةَ الاحتمالِ والاهتمامِ لما أتكلَّفُهُ مِنْ واجبِكَ . . فعلتُ ، فقالَ : يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ أقبلُ وأشكرُ العطيَّةَ ، وأعذرُ على المنعِ ، فدعا الحسنُ بوكيلِهِ ، وجعلَ يحاسبُهُ علىٰ نفقاتِهِ حتَّى استقصاها ، فقالَ : هاتِ الفاضلَ مِنَ الثلاثِ مئةِ ألفِ درهمٍ ، فأحضرَ خمسينَ ألفاً ، قالَ : فما فعلتَ بالخمسِ مئةِ دينارٍ ؟ قالَ : هيَ عندي ، قالَ : أحضرْها ، فأحضرَها ، فدفعَ الدنانيرَ والدراهمَ إلى الرجلِ ، وقالَ : هاتِ مَنْ يحملُها لكَ ، فأتاهُ بحمالينَ ، فدفعَ إليهِ الحسنُ رداءَهُ لكراءِ الحملِ ، فقالَ لهُ مواليهِ : واللهِ ؛ ما عندَنا درهمٌ ، فقالَ : ولـٰكنّي أرجو أنْ يكونَ لي عندَ اللهِ أجرٌ عظيمٌ[1]

واجتمعَ قرَّاءُ البصرةِ إلى ابنِ عباسٍ وهوَ عاملُ البصرةِ ، فقالوا : لنا جارٌ صوَّامٌ قوَّامٌ يتمنَّىٰ كلُّ واحدٍ منَّا أنْ يكونَ مثلَهُ ، وقدْ زوَّجَ بنيَّةً لهُ مِنِ ابنِ أخيهِ وهوَ فقيرٌ وليسَ عندَهُ ما يجهِّزُها بهِ ، فقامَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ ، فأخذَ بأيديهِمْ ، وأدخلَهُمْ دارَهُ ، وفتحَ صندوقاً فأخرجَ منهُ ستَّ بُدَرٍ ، فقالَ : احملوا ، فحملوا ، فقالَ ابنُ عباسٍ : ما أنصفْناهُ ، أعطيناهُ ما يشغلُهُ عنْ قيامِهِ وصيامِهِ ، ارجعُوا بنا . . نكنْ أعوانَهُ علىٰ تجهيزِها ، فليسَ للدنيا مِنَ القدْرِ ما يشغلُ مؤمناً عنْ عبادةِ ربِّهِ تعالىٰ ، وما بنا مِنَ التكبُّرِ ما لا نخدمُ أولياءَ اللهِ تعالىٰ ، ففعلَ وفعلوا[2]

وحُكيَ أنَّهُ لمَّا أجدبَ الناسُ بمصرَ وعبدُ الحميدِ بنُ سعدٍ أميرُهُمْ ، فقالَ : واللهِ ؛ لأُعْلِمَنَّ الشيطانَ أنّي عدوُّهُ ، فَعالَ محاويجَهُمْ إلىٰ أنْ رخُصَتِ الأسعارُ ، ثمَّ عُزِلَ عنهُمْ ، فرحلَ وللتجارِ عليهِ ألفُ ألفِ درهمٍ ، فرهنَهُمْ بها حليَّ نسائِهِ ، وقيمتُهُ خمسةُ آلافِ ألفِ درهمٍ[3] ، فلمَّا تعذَّرَ عليهِ ارتجاعُها . . كتبَ إليهِمْ ببيعِها ، ودفعِ الفاضلِ مِنْها عنْ حقوقِهِمْ إلىٰ مَنْ لمْ تنلْهُ صِلاتُهُ[4]

وكانَ أبو طالبِ بنُ كثيرٍ شيعياً ، فقالَ لهُ رجلٌ : بحقِّ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ؛ لمَّا وهبتَ لي نِحلتَكَ بموضعِ كذا ، قالَ : قدْ فعلتُ ، وحقِّهِ ؛ لأعطينَّكَ ما يليها ، وكانَ ذٰلكَ أضعافَ ما طلبَ الرجلُ[5]

وكانَ أبو مرثدٍ أحدَ الكرماءِ ، فمدحَهُ بعضُ الشعراءِ ، فقالَ للشاعرِ : واللهِ ؛ ما عندي ما أعطيكَ ، ولـٰكنْ قدِّمْني إلى القاضي وادَّعِ عليَّ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، حتَّىٰ أقرَّ لكَ بها ، ثمَّ احبسْني ، فإنَّ أهلي لا يتركوني محبوساً ، ففعلَ ذٰلكَ ، فلمْ يُمسِ حتَّىٰ دُفعَ إليهِ عشرةُ آلافِ درهمٍ ، وأُخرجَ أبو مرثدٍ مِنَ الحبسِ[6]

وكانَ معنُ بنُ زائدةَ عاملاً على العراقينِ بالبصرةِ ، فحضرَ بابَهُ شاعرٌ ، فأقامَ مدَّةً ، وأرادَ الدخولَ علىٰ معنٍ ، فلمْ يتهيَّأْ لهُ ، فقالَ يوماً لبعضِ خدمِ معنٍ : إذا دخلَ الأميرُ البستانَ . . فعرِّفْني ، فلمَّا دخلَ . . أعلمَهُ ، فكتبَ الشاعرُ بيتاً علىٰ خشبةٍ وألقاها في الماءِ الذي يدخلُ بستانَ معنٍ ، وكانَ معنٌ علىٰ رأسِ الماءِ ، فلمَّا بصرَ بالخشبةِ . . أخذَها وقرأَها ؛ فإذا فيها مكتوبٌ : [من الطويل]

أَيـا جُـودَ مَـعْـنٍ نـاجِ مَـعْـناً بِـحَـاجَـتِـي ... فَـمـا لِـي إِلَـىٰ مَـعْـنٍ سِـواكَ شَـفِـيـعُ

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣١) ، وأورده مختصراً القشيري في « رسالته » (ص ٤٢٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣١) ، وانظر « ثمرات الأوراق » (ص ٤٤٠) ، و« المستطرف » (١/٤٩٢ ـ ٤٩٣) .
(٣) في غير (ج) : (وقيمته خمس مئة ألف ألف درهم) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٢٣) .

فقالَ : مَنْ صاحبُ هـٰذِهِ ؟ فدُعيَ بالرجلِ ، فقالَ لهُ : كيفَ قلتَ ؟ فقالَهُ ، فأمرَ لهُ بعشرِ بُدَرٍ ، فأخذَها ، ووضعَ الأميرُ الخشبةَ تحتَ بساطِهِ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثاني . . أخرجَها مِنْ تحتِ البساطِ وقرأَ ما فيها ، ودعا بالرجلِ فدفعَ إليهِ مئةَ ألفِ درهمٍ ، فلمَّا أخذَها الرجلُ . . تفكَّرَ وخافَ أنْ يأخذَ منهُ ما أعطاهُ ، فخرجَ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثالثُ . . قرأَ ما فيها ودعا بالرجلِ ، فطُلبَ فلمْ يُوجدْ ، فقالَ معنٌ : حقٌّ عليَّ أنْ أعطيَهُ حتَّىٰ لا يبقىٰ في بيتِ مالي درهمٌ ولا دينارٌ [1] .

وقالَ أبو الحسنِ المدائنيُّ : خرجَ الحسنُ والحسينُ وعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ حُجاجاً ، ففاتَهُمْ أثقالُهُمْ ، فجاعوا وعطشوا ، فمرُّوا بعجوزٍ في خباءٍ لها ، فقالوا : هلْ مِنْ شرابٍ ؟ فقالَتْ : نعمْ ، فأناخوا إليها وليسَ لها إلا شُويهةٌ في كسرِ الخيمةِ ، فقالَتِ : احلبوها وامتذقوا لبنَها ، ففعلوا ذٰلكَ ، ثمَّ قالوا لها : هلْ مِنْ طعامٍ ؟ قالَتْ : لا إلا هـٰذِهِ الشاةُ ، فليذبحْها أحدُكُمْ حتَّىٰ أهيِّئَ لكمْ ما تأكلونَ ، فقامَ إليها أحدُهُمْ فذبحَها وكشطَها ، ثمَّ هيأَتْ لهُمْ طعاماً ، فأكلُوا وأقاموا حتَّىٰ أبردوا ، فلمَّا ارتحلوا . . قالوا لها : نحنُ نفرٌ مِنْ قريشٍ نريدُ هـٰذا الوجهَ ، فإذا رجعنا سالمينَ . . فألمِّي بنا ؛ فإنَّا صانعونَ بكِ خيراً ، ثمَّ ارتحلوا ، وأقبلَ زوجُها فأخبرَتْهُ بخبرِ القومِ والشاةِ ، فغضبَ الرجلُ ، وقالَ : ويلَكِ ؛ تذبحينَ شاتي لقومٍ لا تعرفينَهُمْ ، ثمَّ تقولينَ : نفرٌ مِنْ قريشٍ ، قالَ : ثمَّ بعدَ مدةٍ ألجأتْهُما الحاجةُ إلىٰ دخولِ المدينةِ ، فدخلاها وجعلا ينقلانِ البعرَ إليها ويبيعانِهِ ، ويتعيَّشانِ بثمنِهِ ، فمرَّتِ العجوزُ في بعضِ سككِ المدينةِ ؛ فإذا الحسنُ بنُ عليٍّ جالسٌ علىٰ بابِ دارِهِ ، فعرفَ العجوزَ وهيَ لهُ منكرةٌ ، فبعثَ غلامَهُ ودعا العجوزَ ، فقالَ لها : يا أمةَ اللهِ ؛ أتعرفينني ؟ قالَتْ : لا ، قالَ : أنا ضيفُكِ يومَ كذا وكذا ، قالتِ العجوزُ : بأبي أنتَ وأمِّي ، أنتَ هوَ ؟ قالَ : نعمْ ، ثمَّ أمرَ الحسنُ فاشترَوا لها مِنْ شاءِ الصدقةِ ألفَ شاةٍ ، وأمرَ لها معَها بألفِ دينارٍ ، وبعثَ بها معَ غلامِهِ إلى الحسينِ ، فقالَ لها الحسينُ : بكمْ وصَلَكِ أخي ؟ قالَتْ : بألفِ شاةٍ وألفِ دينارٍ ، فأمرَ لها الحسينُ أيضاً بمثلِ ذٰلكَ ، ثمَّ بعثَ بها معَ غلامِهِ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، فقالَ لها : بكمْ وصلكِ الحسنُ والحسينُ ؟ قالَتْ : بألفي شاةٍ وألفي دينارٍ ، فأمرَ لها عبدُ اللهِ بألفي شاةٍ وألفي دينارٍ ، وقالَ لها : لوْ بدأتِ بي . . لأتعبتُهُما ، فرجعَتِ العجوزُ إلىٰ زوجِها بأربعةِ آلافِ شاةٍ ، وأربعةِ آلافِ دينارٍ [2] .

وخرجَ عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ كريزٍ مِنَ المسجدِ يريدُ منزلَهُ ، وهوَ وحدَهُ ، فقامَ إليهِ غلامٌ مِنْ ثقيفٍ ، فمشىٰ إلىٰ جانبِهِ ، فقالَ لهُ عبدُ اللهِ : ألكَ حاجةٌ يا غلامُ ؟ قالَ : صلاحُكَ وفلاحُكَ ، رأيتُكَ تمشي وحدَكَ ، فقلتُ : أقيكَ بنفسي ، وأعوذُ باللهِ إنْ طارَ بجنابِكَ مكروهٌ ، فأخذَ عبدُ اللهِ بيدِهِ ومشىٰ معَهُ إلىٰ منزلِهِ ، ثمَّ دعا بألفِ دينارٍ ، فدفعَها إلى الغلامِ ، وقالَ : استنفقْ هـٰذِهِ ، فنعمَ ما أدَّبَكَ أهلُكَ [3] .

وحُكِيَ أنَّ قوماً مِنَ العربِ جاؤوا إلىٰ قبرِ بعضِ أسخيائِهِمْ للزيارةِ ، فنزلوا عندَ قبرِهِ ، وباتوا عندَهُ وقدْ كانوا جاؤوا مِنْ سفرٍ بعيدٍ ، فرأىٰ رجلٌ منهمْ في النومِ صاحبَ القبرِ وهوَ يقولُ لَهُ : هلْ لكَ أنْ تبادلَ بعيرَكَ بنجيبي ؟ وكانَ السخيُّ الميتُ قدْ خلَّفَ نجيباً معروفاً بهِ ، ولهـٰذا الرجلِ بعيرٌ سمينٌ ، فقالَ لهُ في النومِ : نعمْ ، وباعَ في النومِ بعيرَهُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) ، وانظر « ثمرات الأوراق » (ص ٤٤٠) ، و« المستطرف » (١/٤٩٢ ـ ٤٩٣) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٣) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨/١٨٥) : (هـٰكذا أخرجه المدائني بأسانيده) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٤) ، وفيه : (صار) بدل (طار) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨/١٨٥) : (هـٰكذا أخرجه أبو الحسن المدائني في « أخبار الأسخياء ») .

بنجيبِهِ ، فلمَّا وقعَ بينهُما العقدُ . . عمدَ هـٰذا الرجلُ إلىٰ بعيرِهِ فنحرَهُ في النومِ ، فانتبَهَ الرجلُ مِنْ نومِهِ ؛ فإذا الدمُ يثجُّ مِنْ نحرِ بعيرِهِ ، فقامَ الرجلُ مِنَ النومِ فنحرَهُ ، وقسَّمَ لحمَهُ ، فطبخوهُ وقضَوا حاجتهُمْ منهُ ، ثُمَّ رحلوا وساروا ، فلما كانَ اليومُ الثاني وهمْ في الطريقِ . . استقبلَهُمْ ركبٌ ، فقالَ رجلٌ منهُمْ : مَنْ فلانُ بنُ فلانٍ منكمْ ؟ باسمِ ذٰلكَ الرجلِ ، فقالَ : أنا ، فقالَ : هلْ بعتَ مِنْ فلانٍ شيئاً ؟ وذكرَ الميتَ صاحبَ القبرِ ، قالَ : نعمْ ، بعتُ منهُ بعيري بنجيبِهِ في النومِ ، فقالَ : خذْ ، هـٰذا نجيبُهُ ، ثمَ قالَ : هوَ أبي ، وقدْ رأيتُهُ في النومِ وهوَ يقولُ : إنْ كنتَ ابني . . فادفعْ نجيبي إلىٰ فلانٍ وسمَّاهُ[1]

وقدمَ رجلٌ مِنْ قريشٍ مِنَ السفرِ ، فمرَّ برجلٍ مِنَ الأعرابِ علىٰ قارعةِ الطريقِ قدْ أقعدَهُ الدهرُ ، وأضرَّ بهِ المرضُ ، فقالَ : يا هـٰذا ؛ أعِنَّا على الدهرِ ، فقالَ الرجلُ لغلامِهِ : ما بقيَ معكَ مِنَ النفقةِ . . فادفعْهُ إليهِ ، فصبَّ الغلامُ في حجرِ الأعرابيِّ أربعةَ آلافِ درهمٍ ، فذهبَ لينهضَ ، فلمْ يقدرْ مِنَ الضعفِ فبكىٰ ، فقالَ لهُ الرجلُ : ما يبكيكَ ؟ لعلَّكَ استقللتَ ما أعطيناكَ ؟ قالَ : لا ، ولـٰكنْ ذكرتُ ما تأكلُ الأرضُ مِنْ كرمِكَ فأبكاني[2]

واشترىٰ عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ مِنْ خالدِ بنِ عقبةَ بنِ أبي معيطٍ دارَهُ التي في السوقِ بتسعينَ ألفَ درهمٍ ، فلمَّا كانَ الليلُ . . سمعَ بكاءَ أهلِ خالدٍ ، فقالَ لأهلِهِ : ما لهـٰؤلاءِ ؟ قالوا : يبكونَ لدارِهِمْ ، قالَ : يا غلامُ ؛ ائتهِمْ فأعلمْهُمْ أنَّ الدارَ والمالَ لهُمْ جميعاً[3]

وقيلَ : أنفذَ هارونُ الرشيدُ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُما خمسَ مئةِ دينارٍ ، فبلغَ ذٰلكَ الليثَ بنَ سعدٍ ، فأنفذَ إليهِ ألفَ دينارٍ ، فغضبَ هارونُ وقالَ : أعطيتُهُ خمسَ مئةٍ وتعطيهِ ألفاً وأنتَ مِنْ رعيَّتي ؟! فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ لي مِنْ غلَّتي كلَّ يومٍ ألفَ دينارٍ ، فاستحييتُ أنْ أعطيَ مثلَهُ أقلَّ مِنْ دخلِ يومٍ[4]

وحُكِيَ أنَّهُ لمْ تجبْ عليهِ الزكاةُ معَ أنَّ دخلَهُ كلَّ يومٍ ألفُ دينارٍ[5]

ورُوِيَ أنَّ امرأةً سألَتِ الليثَ بنَ سعدٍ رحمةُ اللهِ عليهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فأمرَ لها بزقٍّ مِنْ عسلٍ ، فقيلَ لهُ : إنَّها كانَتْ تقنعُ بدونِ هـٰذا ، فقالَ : إنَّها سألَتْ علىٰ قدرِها ، ونعطيها علىٰ قدْرِ النعمةِ علينا[6]

وكانَ الليثُ بنُ سعدٍ لا يتكلَّمُ كلَّ يومٍ حتَّىٰ يتصدَّقَ علىٰ ثلاثِ مئةٍ وستينَ مسكيناً[7]

وقالَ الأعمشُ : اشتكتْ شاةٌ عندي ، فكانَ خيثمةُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ يعودُها بالغداةِ والعشيِّ ، ويسألُني : هلِ استوفَتْ علفَها ؟ وكيفَ صبرُ الصبيانِ منذُ فقدوا لبنَها ؟ وكانَ تحتي لَبِدٌ أجلسُ عليهِ ؛ فإذا خرجَ . . قال : خذْ ما تحتَ اللَّبِدِ ، حتَّىٰ وصلَ إليَّ في غلَّةِ الشاةِ أكثرُ مِنْ ثلاثِ مئةِ دينارٍ مِنْ برِّهِ ، حتَّىٰ تمنيتُ أنَّ الشاةَ لمْ تبرأْ[8]

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٦) .
(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٤٨) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٨٨) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٢٣) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٩) .

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لأسماءَ بنِ خارجةَ : بلغَني عنكَ خصالٌ ، فحدِّثْني بها ، فقالَ : هي مِنْ غيري أحسنُ منها مِنِّي ، قالَ : عزمتُ عليكَ إلا حدثتَني بها ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ما مددتُ رجلي بينَ يدي جليسٍ لي قطُّ ، ولا صنعتُ طعاماً قطُّ فدعوتُ إليهِ قوماً إلا كانوا أمنَّ عليَّ منّي عليهِمْ ، ولا نصبَ لي رجلٌ وجهَهُ قطُّ ليسألَني شيئاً فاستكثرتُ شيئاً أعطيتُهُ إيَّاهُ(١)

ودخلَ سعيدُ بنُ خالدٍ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، وكانَ سعيدٌ رجلاً جواداً ، فإذا لمْ يجدْ شيئاً . . كتبَ لمَنْ سألَهُ صكّاً علىٰ نفسِهِ حتَّىٰ يخرجَ عطاؤُهُ ، فلمَّا نظرَ إليهِ سليمانُ . . تمثَّلَ بهـٰذا البيتِ فقالَ : [من الكامل]

إِنِّـي سَـمِـعْـتُ مَـعَ الـصَّـبـاحِ مُـنـادِيـاً   يـا مَـنْ يُـعِـيـنُ عَـلَـى الْـفَـتَـى الْـمِـعْـوانِ

ثمَّ قالَ : حاجتُكَ ؟ قالَ : دَيني ، قالَ : وكمْ هوَ ؟ قالَ : ثلاثونَ ألفَ دينارٍ ، قالَ : دَيْنُكَ ومثلُهُ(٢)

وقيلَ : مرضَ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ ، فاستبطأَ إخوانَهُ ، فقيلَ : إنَّهُمْ يستحيونَ ممَّا لكَ عليهِمْ مِنَ الدَّينِ ، فقالَ : أخزى اللهُ مالاً يمنعُ الإخوانَ مِنَ الزيارةِ ، ثمَّ أمرَ منادياً فنادىٰ : مَنْ كانَ عليهِ لقيسٍ حقٌّ . . فهوَ منهُ في حِلٍّ ، قالَ : فكُسِرَتْ درجتُهُ بالعشيِّ ؛ لكثرةِ مَنْ عادَهُ(٣)

وعنْ أبي إسحاقَ قالَ : صلَّيتُ الفجرَ في مسجدِ الأشعثِ بالكوفةِ أطلبُ غريماً لي ، فلمَّا صليتُ . . وُضِعَ بينَ يديَّ حلةٌ ونعلانِ ، فقلتُ : لستُ مِنْ أهلِ هـٰذا المسجدِ ، فقيلَ : إنَّ الأشعثَ بنَ قيسٍ الكنديَّ قدمَ البارحةَ مِنْ مكةَ فأمرَ لكلِّ مَنْ صلَّىٰ في المسجدِ بحلَّةٍ ونعلينِ(٤)

وقالَ الشيخُ أبو سعدٍ الخَرْكُوشيُّ النيسابوريُّ رحمهُ اللهُ : سمعتُ محمدَ بنَ محمدٍ الحافظَ يقولُ : سمعتُ الشافعيَّ المجاورَ بمكةَ يقولُ : كانَ بمصرَ رجلٌ عُرفَ بأنَّهُ يجمعُ للفقراءِ شيئاً ، فوُلِدَ لبعضِهِمْ ولدٌ ، قالَ : فجئتُ إليهِ ، فقلتُ لهُ : وُلِدَ لي مولودٌ ، وليسَ معي شيءٌ ، فقامَ معي ، ودخلَ علىٰ جماعةٍ ، فلمْ يُفتحْ بشيءٍ ، فجاءَ إلىٰ قبرِ رجلٍ ، وجلسَ عندَهُ ، وقالَ : رحمَكَ اللهُ ؛ كنتَ تفعلُ وتصنعُ ، وإنِّي دُرتُ اليومَ وكلَّفتُ جماعةً دفعَ شيءٍ لمولودٍ ، فلمْ يتفقْ لي شيءٌ ، قالَ : ثمَّ قامَ ، وأخرجَ ديناراً وكسرَهُ نصفينِ ، وناولَني نصفَهُ ، وقالَ : هـٰذا دينٌ عليكَ إلىٰ أنْ يُفتحَ لكَ بشيءٍ ، قالَ : فأخذتُهُ وانصرفتُ ، فأصلحتُ ما اتفقَ لي بهِ ، فرأىٰ ذٰلكَ المحتسبُ تلكَ الليلةَ ذٰلكَ الشخصَ في منامِهِ ، فقالَ : سمعتُ جميعَ ما قلتَ ، وليسَ لنا إذنٌ بالجوابِ ، ولـٰكنِ احضرْ منزلي ، وقلْ لأولادي يحفرُوا مكانَ الكانونِ ، ويخرجوا قرابةً فيها خمسُ مئةِ دينارٍ ، واحملْها إلىٰ هـٰذا الرجلِ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . تقدَّمَ إلىٰ منزلِ الميتِ ، وقصَّ عليهِمُ القصةَ ، فقالوا لهُ : اجلسْ ، وحفروا الموضعَ ، فأخرجوا الدنانيرَ ، وجاؤوا بها فوضعوها بينَ يديهِ ، فقالَ : هـٰذا مالُكُمْ ، وليسَ لرؤيايَ حكمٌ ، فقالوا : هوَ يتسخَّىٰ ميتاً ، ولا نتسخَّىٰ نحنُ أحياءً !! فلما ألحُّوا عليهِ . . حملَ الدنانيرَ إلى الرجلِ صاحبِ المولودِ ، وذكرَ لهُ القصةَ ، قالَ : فأخذَ مِنْها ديناراً وكسرَهُ نصفينِ ، فأعطاهُ النصفَ الذي أقرضَهُ ، وحملَ النصفَ الآخرَ ، وقالَ : يكفيني هـٰذا ، وتصدَّقْ بها على الفقراءِ ، فقالَ أبو سعدٍ : فلا أدري أيُّ هـٰؤلاءِ أسخىٰ(٥)

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) .
(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) ، و« ربيع الأبرار » (٥٩٥/١ ـ ٥٩٦) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) .
(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٢٢٢) دون ذكر أبي إسحاق السبيعي .
(٥) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤١) .

ورُوِيَ أنَّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ لما مرضَ مرضَ موتِهِ . . قالَ : مروا فلاناً يغسلُني [1] ، فلمَّا تُوفيَ . . بلغَه خبرُ وفاتِهِ ، فحضرَ وقالَ : ائتوني بتذكرتِهِ ، فأُتيَ بها ، فنظرَ فيها ؛ فإذا على الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ سبعونَ ألفَ درهمٍ دينٌ ، فكتبَها علىٰ نفسِهِ ، وقضاها عنهُ ، وقالَ : هـٰذا غسلي إيَّاهُ ؛ أيْ : أرادَ بهِ هـٰذا .

وقالَ أبو سعدٍ الواعظُ الخركوشيُّ رحمَهُ اللهُ : لمَّا قدمتُ مصرَ . . طلبتُ منزلَ ذٰلكَ الرجلِ ، فدلُّوني عليهِ ، فرأيتُ جماعةً مِنْ أحفادِهِ وزرتُهُمْ ، فرأيتُ فيهمْ سيما الخيرِ وآثارَ الفضلِ ، فقلتُ : بلغَ أثرُهُ في الخيرِ إليهمْ ، وظهرَتْ بركتُهُ فيهمْ ؛ مستدلاً بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [2]

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : لا أزالُ أحبُّ حمادَ بنَ أبي سليمانَ لشيءٍ بلغَني عنهُ ؛ أنَّهُ كانَ ذاتَ يومٍ راكباً حمارَهُ ، فحرَّكَهُ فانقطعَ زرُّهُ ، فمرَّ علىٰ خياطٍ ، فأرادَ أنْ ينزلَ إليهِ ليسوِّيَ زرَّهُ ، فقالَ الخياطُ : واللهِ ؛ لا نزلتَ ، فقامَ الخياطُ إليهِ ، فسوَّىٰ زرَّهُ ، فأخرجَ إليهِ صرَّةً فيها عشرةُ دنانيرَ ، فسلَّمَها إلى الخياطِ ، واعتذرَ إليهِ مِنْ قلَّتِها [3]

وأنشدَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ لنفسِهِ [4] : [من البسيط]

يا لَهْفَ قَلْبِي عَلَىٰ مالٍ أُفَرِّقُهُ ... عَلَى الْمُقِلِّينَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوءاتِ
إِنَّ اعْتِذارِي إِلَىٰ مَنْ جاءَ يَسْأَلُنِي ... مَا لَيْسَ عِنْدِي لَمِنْ إِحْدَى الْمُصِيباتِ

وعنِ الربيعِ بنِ سليمانَ قالَ : أخذَ رجلٌ بركابِ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ، فقالَ : يا ربيعُ ؛ أعطِهِ أربعةَ دنانيرَ واعتذرْ إليهِ عنِّي [5]

وقالَ الربيعُ : سمعتُ الحميديَّ يقولُ : قدمَ الشافعيُّ مِنْ صنعاءَ إلىٰ مكةَ بعشرةِ آلافِ دينارٍ ، فضربَ خباءَهُ في موضعٍ خارجاً مِنْ مكةَ ، فنثرَها علىٰ ثوبٍ ، ثمَّ أقبلَ علىٰ كلِّ مَنْ دخلَ عليهِ يقبضُ قبضةً ويعطيهِ حتَّىٰ صلَّى الظهرَ ، ونفضَ الثوبَ وليسَ عليهِ شيءٌ [6]

وعنْ أبي ثورٍ قالَ : أرادَ الشافعيُّ الخروجَ إلىٰ مكةَ ومعَهُ مالٌ ، وكانَ قلَّما يمسكُ شيئاً مِنْ سماحتِهِ ، فقلتُ لهُ : ينبغي أنْ تشتريَ بهـٰذا المالِ ضيعةً تكونُ لكَ ولولدِكَ ، قالَ : فخرجَ ، ثمَّ قدمَ علينا ، فسألتُهُ عنْ ذٰلكَ المالِ ، فقالَ : ما وجدتُ بمكةَ ضيعةً يمكنُني أنْ أشتريَها ؛ لمعرفتي بأصلِها ، وقدْ وُقفَ أكثرُها ، ولـٰكنِّي بنيتُ بمنىً مضرباً يكونُ لأصحابِنا إذا حجُّوا أنْ ينزلوا فيهِ [7]

وأنشدَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ [8] : [من الوافر]

أَرَىٰ نَفْسِي تَتُوقُ إِلَىٰ أُمُورٍ ... يُقَصِّرُ دُونَ مَبْلَغِهِنَّ مالِي

---

(١) وعنى به : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . « إتحاف » (١٨٩/٨) .
(٢) تهذيب الأسرار (ص ٤٤٢) .
(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٢) ، ورواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٣٢/٢) .
(٤) ديوان الإمام الشافعي (ص ٤٣) .
(٥) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٢٠/٢) .
(٦) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٢٠/٢) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٣) .
(٧) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٢٣/٢) .
(٨) البيتان مما نسب إلى الإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ١١٤) ، ولعبد الله بن معاوية في « ديوانه » (ص ٦٧) .

فَنَفْسِي لا تُطاوِعُنِي بِبُخْلٍ ... وَمالِي لا يُبَلِّغُنِي فِعالِي

وقالَ محمدُ بنُ عبادٍ المهلبيُّ : دخلَ أبي على المأمونِ ، فوصلَهُ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فلمَّا قامَ مِنْ عندِهِ . . تصدَّقَ بها ، فأُخبِرَ بذلكَ المأمونُ ، فلمَّا عادَ إليهِ . . عاتبَهُ المأمونُ في ذلكَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ منعُ الموجودِ سوء ظنٍّ بالمعبودِ ، فوصلَهُ بمئةِ ألفٍ أخرىٰ[(١)]

وقامَ رجلٌ إلىٰ سعيدِ بنِ العاصِ فسألَهُ ، فأمرَ لهُ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فبكىٰ ، فقالَ لهُ سعيدٌ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : أبكي على الأرضِ أنْ تأكلَ مثلَكَ ، فأمرَ لهُ بمئةِ ألفٍ أخرىٰ[(٢)]

ودخلَ أبو تمامٍ علىٰ إبراهيمَ بنِ شكلةَ بأبياتٍ امتدحَهُ بها ، فوجدَهُ عليلاً ، فقبِلَ منهُ المِدْحَةَ ، وأمرَ حاجبَهُ بنيلِهِ ما يصلحُهُ ؛ وقالَ : عسىٰ أنْ أقومَ مِنْ مرضي فأكافئَهُ ، فأقامَ شهرينِ ، فأوحشَهُ طولُ المقامِ ، فكتبَ إليهِ يقولُ[(٣)] : [من المنسرح]

إنَّ حَراماً قَبُولُ مِدْحَتِنا ... وَتَرْكُ ما نَرْتَجِي مِنَ الصَّفَدِ

كَما الدَّنانِيرُ وَ الدَّراهِمُ فِي الـ ... ـبَيْعِ حَرامٌ إِلَّا يَداً بِيَدِ

فلمَّا وصلَ البيتانِ إلىٰ إبراهيمَ . . قالَ لحاجبِهِ : كمْ أقامَ بالبابِ ؟ قالَ : شهرينِ ، قالَ : أعطِهِ ثلاثينَ ألفاً ، وجئْني بدَواةٍ ، فكتبَ إليهِ[(٤)] : [من الكامل]

أَعْجَلْتَنا فَأَتاكَ عاجِلُ بِرِّنا ... قُلّاً وَلَوْ أَمْهَلْتَنا لَمْ نُقْلِلِ

فَخُذِ الْقَلِيلَ وَكُنْ كَأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ ... وَنَكُونُ نَحْنُ كَأَنَّنا لَمْ نَفْعَلِ

ويُروىٰ أنَّهُ كانَ لعثمانَ علىٰ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُما خمسونَ ألفَ درهمٍ ، فخرجَ عثمانُ يوماً إلى المسجدِ ، فقالَ لهُ طلحةُ : قدْ تهيأَ مالُكَ فاقبضْهُ ، فقالَ : هوَ لكَ يا أبا محمدٍ معونةً لكَ علىٰ مروءَتِكَ[(٥)]

وقالَتْ سُعدىٰ بنتُ عوفٍ : دخلتُ علىٰ طلحةَ ، فرأيتُ منهُ ثقلاً ، فقلتُ : ما لكَ ؟ فقالَ : اجتمعَ عندي مالٌ وقدْ غمَّني ، فقلتُ : وما يغمُّكَ ؟! ادعُ قومَكَ ، فقالَ : يا غلامُ ؛ عليَّ بقومي ، فقسَّمَهُ فيهم ، فسألتُ الخادمَ : كمْ كانَ ؟ قالَ : أربعَ مئةِ ألفٍ[(٦)]

وجاءَ أعرابيٌّ إلىٰ طلحةَ ، فسألَهُ وتقرَّبَ إليهِ برحمٍ ، فقالَ : إنَّ هٰذهِ الرَّحمَ ما سألَني بها أحدٌ قبلَكَ ، إنَّ لي أرضاً قدْ أعطاني بها عثمانُ ثلاثَ مئةِ ألفٍ ، فإنْ شئتَ . . فاقبضْها ، وإنْ شئتَ . . بعتُها مِنْ عثمانَ ، ودفعتُ إليكَ الثمنَ ، فقالَ : الثمنُ ، فباعَها مِنْ عثمانَ ، ودفعَ إليهِ الثمنَ[(٧)]

---

(١) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٤) ، ورواه بنحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/١٧٦) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٦) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/١٣٢) .

(٣) البيتان ليسا في « ديوان أبي تمام » انظر « المحاسن والمساوئ » (ص ٢٤٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٩) .

(٤) البيتان منسوبان إلىٰ غير واحد ، وهما في « المنصف » لابن وكيع (١/١٠٨) ، وانظر تخريجها ثمة .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/١٠٣) .

(٦) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٣/٢٠١) .

(٧) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٨٣) .

وقيلَ : بكىٰ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : لمْ يأتني ضيفٌ منذُ سبعةِ أيامٍ ، أخافُ أنْ يكونَ اللهُ قدْ أهانَني [1]

وأتىٰ رجلٌ صديقاً لهُ ، فدَّق عليهِ البابَ ، فقالَ : مَا جاءَ بكَ ؟ قالَ : عليَّ أربعُ مئةِ درهمٍ دينٌ ، فوزنَ أربعَ مئةِ درهمٍ وأخرجَها إليهِ ، وعادَ يبكي ، فقالَتْ لهُ امرأتُهُ : لمَ أعطيتَهُ إذْ شقَّ عليكَ ؟ فقالَ : إنَّما أبكي لأنِّي لمْ أتفقدْ حالَهُ حتَّى احتاجَ إلىٰ مفاتحَتي بهِ [2] ، فرحمَ اللهُ مَنْ هـٰذهِ صفاتُهُمْ ، وغفرَ لهُمْ أجمعينَ .

* * *

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٤) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٤٢١) .

بيان ذمّ البخل

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّهُ أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ ، حملَهُمْ علىٰ أنْ يسفكوا دماءَهُمْ ، واستحلُّوا محارمَهُمْ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّهُ دعا مَنْ كانَ قبلَكُمْ فسفكوا دماءَهُمْ ، ودعاهُمْ فاستحلُّوا محارمَهُمْ ، ودعاهُمْ فقطعوا أرحامَهُمْ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ بخيلٌ ، ولا خَبٌّ ، ولا خائنٌ ، ولا سيِّئُ المَلَكَةِ » .

وفي روايةٍ : « ولا جبارٌ » ، وفي روايةٍ : « ولا منَّانٌ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يبغضُ ثلاثةً : الشَّيخَ الزَّانيَ ، والبخيلَ المنَّانَ ، والمعيلَ المختالَ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ المنفقِ والبخيلِ كمثلِ رجلينِ عليهما جُبَّتانِ مِنْ حديدٍ مِنْ لدنْ ثُدِيِّهما إلىٰ تراقِيهما ، فأمَّا المنفقُ . . فلا ينفقُ شيئاً إلا سبغَتْ أو وَفرَتْ علىٰ جلدِهِ حتَّىٰ تُخفيَ بنانَهُ ، وأمَّا البخيلُ . . فلا يريدُ أنْ ينفقَ شيئاً إلا قلصَتْ ولزمَتْ كلُّ حَلقةٍ مكانَها حتَّىٰ أخذَتْ بتراقيهِ ، فهوَ يوسِّعُها ولا تتَّسعُ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خصلتانِ لا تجتمعانِ في مؤمنٍ : البخلُ ، وسوءُ الخلقِ »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ البُخلِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الجبْنِ ، وأعوذُ بكَ أنْ أُردَّ إلىٰ أرذلِ العُمُرِ »(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والظُّلمَ ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ ، وإيَّاكُمْ والفُحْشَ ؛ فإنَّ اللهَ لا يحبُّ الفاحشَ ولا المتفحِّشَ ، وإيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّما أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُمُ الشُّحُّ ، أمرَهُمْ بالكذبِ فكذبوا ، وأمرَهُمْ بالظُّلمِ فظلموا ، وأمرَهُمْ بالقطيعةِ فقطعوا »(٩)

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٣٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٨٥٥٦) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٥٦) .

(٣) كذا رواه بروايته هنا الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٦١ ـ ٣٦٢) ، ونحوه عند الترمذي (١٩٦٣) .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٦٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) .

(٥) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٧٥) .

(٦) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٧٦) ، وأصله عند البخاري (١٤٤٤) ، ومسلم (١٠٢١) .

(٧) رواه الترمذي (١٩٦٢) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٧٧) .

(٨) رواه البخاري (٦٣٦٥) ، وهو عند الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٨١) .

(٩) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٥٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ ما في الرَّجلِ شحٌّ هالعٌ ، وجبنٌ خالعٌ »(١)

وقُتِلَ شَهيدٌ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبكتْهُ باكيةٌ ، فقالَتْ : واشهيداهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما يدريكِ أنَّهُ شهيدٌ ؟! فلعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ فيما لا يعنيهِ ، أوْ يبخلُ بما لا ينقصُهُ »(٢)

وقالَ جبيرُ بنُ مطعمٍ : بينا نحنُ نسيرُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعَهُ الناسُ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنينٍ . . علقَتْ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأعرابُ يسألونَهُ ، حتَّى اضطرُّوه إلىٰ سَمُرةٍ ، فخطفَتْ رداءَهُ ، فوقفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « أعطوني ردائي ، فوالَّذي نفسِي بيدِهِ ؛ لوْ كانَ لي عددُ هٰذهِ العِضاهِ نَعماً . . لقسمتُهُ بينَكُمْ ، ثمَّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً »(٣)

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَسْماً ، فقلتُ : غيرُ هٰؤلاءِ كانوا أحقَّ بهِ منهُمْ ، فقالَ : « إنَّهُمْ يخيّروني بينَ أن يسألوني بالفحشِ ، أو يبخِّلوني ولستُ بباخلٍ »(٤)

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلَ رجلانِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألاهُ ثمنَ بعيرٍ ، فأعطاهُما دينارينِ ، فخرجا مِنْ عندِهِ ، فلقيَهُما عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأثنيا وقالا معروفاً ، وشكرا ما صنعَ بهما ، فدخلَ عمرُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأخبرَهُ بما قالا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لٰكنْ فلانٌ أعطيتُهُ ما بينَ عشرةٍ إلىٰ مئةٍ ولمْ يقلْ ذٰلكَ ، إنَّ أحدَكُمْ ليسأَلُني فينطلقُ في مسألتِهِ متأبِّطَها وهيَ نارٌ » ، فقالَ عمرُ : فلِمَ تعطيهِمْ ما هوَ نارٌ ؟ فقالَ : « يأبونَ إلا أنْ يسألوني ، ويأبى اللهُ لي البخلَ »(٥)

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجودُ مِنْ جُودِ اللهِ تعالىٰ ، فجودوا . . يجُدِ اللهُ عليكُمْ ، ألا إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ الجُودَ فجعلَهُ في صورةِ رجلٍ ، وجعلَ أُسَّهُ راسخاً في أصلِ شجرةِ طُوبىٰ ، وشدَّ أغصانَها بأغصانِ سِدرةِ المُنتهىٰ ، ودلَّىٰ بعضَ أغصانِها إلى الدنيا ، فمَنْ تعلَّقَ بغصنٍ منها . . أدخلَهُ الجنَّةَ ، ألا إنَّ السَّخاءَ مِنَ الإيمانِ ، والإيمانُ في الجنَّةِ ، وخلقَ البخلَ مِنْ مقتِهِ ، وجعلَ أصلَهُ راسخاً في أصلِ شجرةِ الزَّقُّومِ ، ودلَّىٰ بعضَ أغصانِها إلى الدنيا ؛ فمَنْ تعلَّقَ بغصْنٍ منها . . أدخلَهُ النَّارَ ، ألا إنَّ البخلَ من الكفرِ ، والكفرُ في النارِ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخاءُ شجرةٌ تنبتُ في الجنَّةِ ؛ فلا يلجُ الجنَّةَ إلا سخيٌّ ، والبخلُ شجرةٌ تنبتُ في النارِ ؛ فلا يلجُ النار إلا بخيلٌ »(٧)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوفدِ بني لِحيانَ : « مَنْ سيِّدُكُمْ يا بني لِحيانَ ؟ » قالوا : سيدُنا جَدُّ بنُ قيسٍ ، إلا أنَّهُ رجلٌ فيهِ بخلٌ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ البخلِ ، ولٰكنْ سيِّدُكُمْ عمرُو بنُ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٥١١) ، **وهالع** : جازع ؛ يعني : شحاً يحمل على الحرص على المال ، والجزع على ذهابه ، وقيل : هو ألا يشبع ، كلما وجد شيئاً . . بلعه ، ولا قرار له ، **وخالع** : شديد ؛ كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه من الخلق . انظر « الإتحاف » (٨/١٩٤) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٦٤٦) ، وقريب منه عند الترمذي (٢٣١٦) .

(٣) رواه البخاري (٢٨٢١) .

(٤) رواه مسلم (١٠٥٦) .

(٥) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٢٧) ، وبنحوه عند أحمد في « المسند » (٣/٤) .

(٦) قال المتقي الهندي في « كنز العمال » (١٦٢١٧) : (رواه الخطيب في كتاب « البخلاء » عن ابن عباس ، وفي سنده أبو بكر النقاش ، صاحب مناكير) .

(٧) كذا هو عند صاحب « مسند الفردوس » (٣٥٤٣) .

الجموح »[1] ، وفي روايةٍ : أَنَّهُمْ قالوا : سيدُنا جَدُّ بنُ قيسٍ ، فقالَ : « بِمَ تسوِّدونَهُ ؟ » ، قالوا : إنَّهُ أكثرُنا مالاً ، وإنَّا علىٰ ذٰلكَ لنَزُنُّهُ بالبُخلِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ البخلِ ، ليسَ ذٰلكَ سيّدَكُمْ » ، قالوا : فمَنْ سيّدُنا يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « سيّدُكُمْ بِشْرُ بنُ البراءِ »[2]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يبغضُ البخيلَ في حياتِهِ ، السَّخيَّ عندَ موتِهِ »[3]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخيُّ الجهولُ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنَ العابدِ البخيلِ »[4] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يجتمعُ الشحُّ والإيمانُ في قلبِ عبدٍ »[5]

وقالَ أيضاً : « خصلتانِ لا يجتمعانِ في مؤمنٍ ؛ البخلُ ، وسوءُ الخُلُقِ »[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي للمؤمنِ أنْ يكونَ بخيلاً ولا جباناً »[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ قائلُكُمْ : الشحيحُ أعذرُ مِنَ الظالمِ ، وأيُّ ظلمٍ أظلمُ عندَ اللهِ مِنَ الشحِّ ؟! حلفَ اللهُ تعالىٰ بعزَّتِهِ وعظمتِهِ وجلالِهِ ؛ لا يدخلُ الجنَّةَ شحيحٌ ولا بخيلٌ »[8]

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يطوفُ بالبيتِ ؛ فإذا رجلٌ متعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ ، وهوَ يقولُ : بحرمةِ هٰذا البيتِ إلا غفرتَ لي ذنبي ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما ذنبُكَ ؟ صِفْهُ لي » قالَ : هوَ أعظمُ مِنْ أنْ أصفَهُ لكَ ، قالَ : « ويحَكَ !! ذنبُكَ أعظمُ أمِ الأرَضُونَ ؟ » ، قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « ويحَكَ !! ذنبُكَ أعظمُ أمِ الجبالُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي أعظمُ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ البحارُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قال : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ السماواتُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ العرشُ ؟ » قال : بلْ ذنبي أعظمُ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ اللهُ ؟ » قالَ : بلِ اللهُ أعظمُ وأعلىٰ ، قالَ : « ويحَكَ !! فصفْ لي ذنبَكَ » ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي رجلٌ ذو ثروةٍ مِنَ المالِ ، وإنَّ السائلَ ليأتيني ليسألَني ، فكأنَّما يستقبلُني بشعلةٍ مِنْ نارٍ .

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إليكَ عنِّي لا تحرقْني بنارِكَ ، فوالَّذي بعثَني بالهدايةِ والكرامةِ ؛ لوْ قمتَ بينَ الرُّكنِ والمقامِ ثمَّ صلَّيتَ ألفي ألفِ عامٍ ، وبكيتَ حتَّىٰ تجريَ مِنْ دمُوعِكَ الأنهارُ ، وتُسقىٰ بها الأشجارُ ، ثمَّ متَّ وأنتَ لئيمٌ .. لأكبَّكَ اللهُ في النارِ ، ويحَكَ !! أما علمتَ أنَّ البخلَ كفرٌ ، وأنَّ الكفرَ في النارِ ، ويحَكَ !! أما علمتَ أنَّ اللهَ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٥٨) ، ورواه من حديث جابر رضي الله عنه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٩٦) بنحوه .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٥/٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٢١٩/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٥٩) ، ولنَزُنُّه : لنتَّهِمُه .

(٣) كذا هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٧) ، وأشار السيوطي كما في « فيض القدير » (٢٨٥/٢) إلىٰ رواية الخطيب له في كتاب « البخلاء » ، وقال العلامة المناوي : (وهو مما بيَّض له الديلمي لعدم وقوفه له علىٰ سنده) .

(٤) رواه الترمذي (١٩٦١) .

(٥) رواه النسائي (١٣/٦) .

(٦) رواه الترمذي (١٩٦٢) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٧٧) .

(٧) رواه هناد في « الزهد » (٦١٦) عن أبي جعفر الباقر مرسلاً ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٩٧/٨) : (ورواه الخطيب من حديث أبي عبد الرحمٰن السلمي موقوفاً) .

(٨) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٧٨) عن نافع قال : سمع ابن عمر رجلاً يقول : الشحيح أعذر من الظالم ، فقال ابن عمر : كذبت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشحيح لا يدخل الجنة » ، فليسَ أوله مرفوعاً .

تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ »[1]

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : لمَّا خلقَ اللهُ تعالىٰ جنةَ عدنٍ . . قالَ لها : تزيني ، فتزينَتْ ، ثُمَّ قالَ لها : أظهري أنهارَكِ ، فأظهرَتْ عينَ السلسبيلِ ، وعينَ الكافورِ ، وعينَ التسنيمِ ، فتفجرَ منها في الجنانِ أنهارُ الخمرِ ، وأنهارُ العسلِ واللبنِ ، ثمَّ قالَ لها : أظهري سُررَكِ ، وحِجالَكِ ، وكراسيَّكِ ، وحُليَّكِ ، وحُلَلَكِ ، وحورَ عِينِكِ ، فأظهرَتْ ، فنظرَ إليها ، فقالَ : تكلَّمي ، فقالَتْ : طوبىٰ لِمَنْ دخلَنِي ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : وعزتي وجلالِي لا أسكنتُكِ بخيلاً[2]

وقالَتْ أمُّ البنينَ أختُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (أفٍّ للبخيلِ ، لوْ كانَ البخلُ قميصاً . . ما لبستُهُ ، ولوْ كانَ طريقاً . . ما سلكْتُهُ)[3]

وقالَ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّا لنجدُ بأموالِنا ما يجدُ البخلاءُ ، ولـٰكنَّا نتصبَّرُ)[4]

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : (كانَ يُقالُ : إذا أرادَ اللهُ بقومٍ شرّاً . . أمَّرَ عليهِمْ شرارَهُمْ ، وجعلَ أرزاقَهُمْ بأيدي بخلائِهِمْ)[5]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خطبتِهِ : (إنَّهُ سيأتي على الناسِ زمانٌ عضوضٌ ، يعضُّ المؤمنُ علىٰ ما في يدِهِ ولمْ يُؤمرْ بذلكَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾)[6]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : (الشحُّ أشدُّ مِنَ البخلِ ؛ لأنَّ الشحيحَ هوَ الذي يشحُّ علىٰ ما في يدِ غيرِهِ حتَّىٰ يأخذَهُ ، ويشحُّ بما في يديهِ فيحبسُهُ ، والبخيلُ هوَ الذي يبخلُ بما في يديهِ)[7]

وقالَ الشعبيُّ : (لا أدري أيُّهما أبعدُ غوراً في نارِ جهنمَ : البخلُ أوِ الكذبُ ؟!)[8]

وقيلَ : وردَ علىٰ أَنُوشَروانَ حكيمُ الهندِ وفيلسوفُ الرومِ ، فقالَ للهنديِّ : تكلَّمْ ، فقالَ : خيرُ الناسِ مَنْ أُلفيَ سخياً ، وعندَ الغضبِ وقوراً ، وفي القولِ متأنِّياً ، وفي الرِّفعةِ متواضعاً ، وعلىٰ كلِّ ذي رحمٍ مشفقاً ، فقالَ للروميِّ : تكلَّمْ ، فقالَ : مَنْ كانَ بخيلاً . . ورثَ عدوُّهُ مالَهُ ، ومَنْ قلَّ شكرُهُ . . لمْ ينلِ النجحَ ، وأهلُ الكذبِ مذمومونَ ، وأهلُ النميمةِ يموتونَ فقراءَ ، ومَنْ لمْ يَرحَمْ . . سُلِّطَ عليهِ مَنْ لا يرحمُهُ[9]

---

(١) رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٢٧٨/٢) من حديث الهيكل بن جابر رضي الله عنه ، وأورده الحارث المحاسبي في « الوصايا » (ص ١٠٢) بلاغاً ، وقال الحافظ العراقي كما في « الإتحاف » (١٩٧/٨) : (الحديث بطوله باطل لا أصل له) ، وانظر « أسد الغابة » (٤٢٤/٥) ، و« الإصابة » (٥٨١/٣) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٠/٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « لما خلق الله عز وجل جنة عدن . . خلق فيها ما لا عين رأت ولا خطر علىٰ قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » ، وزاد أحد رواته : « ثم قالت : أنا حرام علىٰ كل بخيل ومراءٍ » ، وقريب منه ولـٰكن عن شعيب الجبائي عند الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٧٢) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٨) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) .

(٥) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٥٧) .

(٦) رواه أبو داوود (٣٣٨٢) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٥٨) .

(٧) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٥٩) .

(٨) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٦٠) .

(٩) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٦٤) .

وقالَ الضحاكُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ قالَ : (البخلُ ، أمسكَ اللهُ تعالىٰ أيديَهُمْ عنِ النفقةِ في سبيلِ اللهِ ؛ فهُمْ لا يبصرونَ الهدىٰ)[1]

وقالَ كعبٌ : (ما مِنْ صباحٍ إلا وقدْ وُكِّلَ بهِ ملَكانِ يناديانِ : اللهمَّ ؛ عجِّلْ لممسكٍ تلفاً ، ولمنفقٍ خلفاً)[2]

وقالَ الأصمعيُّ : سمعتُ أعرابياً وقدْ وصَفَ رجلاً فقالَ : (لقد صَغُرَ فلانٌ في عيني ؛ لعظمِ الدنيا في عينِهِ ، وكأنَّما السائلُ إذا رآهُ . . ملكُ الموتِ إذا أتاهُ)[3]

وقالَ أبو حنيفةَ رحمَهُ اللهُ : (لا أرىٰ أنْ أعدِّلَ بخيلاً ؛ لأنَّهُ يحملُهُ البخلُ على الاستقصاءِ ، فيأخذُ فوقَ حقِّهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُغبَنَ ، فمَنْ كان هٰكذا . . لا يكونُ مأمونَ الأمانةِ)[4]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما استقصىٰ كريمٌ قطُّ حقَّهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾)[5]

وقالَ الجاحظُ : (ما بقيَ مِنَ اللذاتِ إلا ثلاثٌ : ذمُّ البخلاءِ ، وأكلُ القديدِ ، وحكُّ الجربِ) .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (البخيلُ لا غيبةَ لهُ ؛ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّك لبخيلٌ » ، ومُدِحَتِ امرأةٌ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالوا : صوَّامةٌ قوَّامةٌ ، إلا أنَّ فيها بخلاً ، قالَ : « فما خيرُها إذاً ؟! »)[6]

وقالَ بشرٌ أيضاً : (النظرُ إلى البخيلِ يقسِّي القلبَ) ، و(بقاءُ البخلاءِ كربٌ علىٰ قلوبِ المؤمنينَ)[7]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (يأبى القلبُ للأسخياءِ إلا حبّاً ولوْ كانوا فجّاراً ، وللبخلاءِ إلا بغضاً وإنْ كانوا أبراراً)[8]

وقالَ ابنُ المعتزِّ : (أبخلُ الناسِ بمالِهِ أجودُهُمْ بعرضِهِ)[9]

ولقيَ يحيى بنُ زكريا عليهما السلامُ إبليسَ في صورتِهِ ، فقالَ لهُ : يا إبليسُ ؛ أخبرْني بأحبِّ الناسِ إليكَ وأبغضِ الناسِ إليكَ ، قالَ : أحبُّ الناسِ إليَّ المؤمنُ البخيلُ ، وأبغضُ الناسِ إليَّ الفاسقُ السخيُّ ، قالَ لهُ : لمَ ؟ قالَ : لأنَّ البخيلَ قدْ كفاني بخلُهُ ، والفاسقُ السخيُّ أتخوَّفُ أنْ يطَّلعَ اللهُ عليهِ في سخائِهِ فيقبلَهُ ، ثمَّ ولَّىٰ وهوَ يقولُ : لولا أنَّكَ يحيىٰ . . لما أخبرتُكَ[10]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٧٠) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٨٤) ، وليس فيه : (ولمنفق خلفاً) ، ورواه مرفوعاً البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٦٢٤) عن أبي الحسن القرشي عن رجل من الأنصار بنحوه .

(٤) بنحوه أورده صاحب « القوت » (٢/٢٦٤) ، ونقله ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢٧/٣٥٥) .

(٥) كذا في « القوت » (٢/٢٦٤) ، ومختصراً عند ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢٧/٣٥٥) ورواه الدينوري ضمن خبر عن سفيان (ص ٩) .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤١٠) .

(٧) رواهما أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٥٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤١٢) .

(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٦٦) .

(٩) أورده الثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٤٠) .

(١٠) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٤/٢٠٤) .

حكايات البخلاء

قيلَ : كانَ بالبصرةِ رجلٌ موسرٌ بخيلٌ ، فدعاهُ بعضُ جيرانِهِ وقدَّمَ إليهِ طَباهِجةً ببيضٍ[1] ، فأكلَ منهُ فأكثرَ ، وجعلَ يشربُ الماءَ ، فانتفخَ بطنُهُ ، ونزلَ بهِ الكربُ والموتُ ، فجعلَ يتلوَّىٰ ، فلمَّا أجهدَهُ الأمرُ . . وصفَ حالَهُ للطبيبِ ، فقالَ : لا بأسَ عليكَ ، تقيأْ ما أكلتَ ، فقالَ : هاهِ ، أتقيأُ طباهجةً ببيضٍ ؟! الموتُ ـ واللهِ ـ ولا أتقيَّأُ طباهجةً ببيضٍ .

وقيلَ : أقبلَ أعرابيٌّ يطلبُ رجلاً وبينَ يديهِ تينٌ ، فغطَّى التينَ بكسائِهِ ، فجلسَ الأعرابيُّ ، فقالَ لهُ الرجلُ : هلْ تحسنُ مِنَ القرآنِ شيئاً ؟ قالَ : نعمْ ، فقرأَ : ﴿ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ، فقالَ : وأينَ التينُ ؟ قالَ : هوَ تحتَ كسائِكَ .

ودعا بعضُهُمْ أخاً لهُ ، ولمْ يطعمْهُ شيئاً إلى العصرِ ، حتَّى اشتدَّ جوعُهُ ، وأخذَهُ مثلُ الجنونِ ، فأخذَ صاحبُ البيتِ العودَ وقالَ لهُ : بحياتي ؛ أيَّ صوتٍ تشتهي أن أسمعَكَ ؟ قالَ : صوتَ المِقْلَىٰ .

ويُحكىٰ أنَّ محمدَ بنَ يحيى بنِ خالدِ بنِ برمكَ كانَ بخيلاً قبيحَ البخلِ ، فسُئِلَ نسيبٌ لهُ كانَ يعرفُهُ عنهُ ، فقيلَ لهُ : صفْ لي مائدتَهُ ، فقالَ : هيَ فِتْرٌ في فترٍ ، وصحافُهُ منقورةٌ مِنْ حبِّ الخشخاشِ ، قيلَ : فمَنْ يحضرُها ؟ قالَ : الكرامُ الكاتبونَ ، قيلَ : فما يأكلُ معَهُ أحدٌ ؟ قالَ : بلى ، الذبابُ ، فقيلَ : سوءةً لهُ ، أنتَ خاصٌّ بهِ وثوبُكَ مخرَّقٌ ؟! فقالَ : إنِّي ـ واللهِ ـ ما أقدرُ علىٰ إبرةٍ أخيطُهُ بها ، ولوْ ملكَ محمدٌ بيتاً مِنْ بغدادَ إلى النَّوْبةِ مملوءاً إبراً ، ثمَّ جاءَهُ جبريلُ وميكائيلُ ، ومعَهُما يعقوبُ النبيُّ عليهِ السَّلامُ يضمنانِ عنهُ إبرةً ، ويسألونَهُ إعارتَهُمْ إيَّاها ليخيطَ بها قميصَ يوسفَ الذي قُدَّ مِنْ دُبُرٍ . . ما فعلَ .

ويُقالُ : كانَ مروانُ بنُ أبي حفصةَ لا يأكلُ اللحمَ بخلاً حتىٰ يقرمَ إليهِ ، فإذا قَرِمَ إليه . . أرسلَ غلامَهُ فاشترىٰ لهُ رأساً ، فأكلَهُ ، فقيلَ لهُ : نراكَ لا تأكلُ إلا الرؤوسَ في الصيفِ والشتاءِ ، فلِمَ تختارُ ذٰلكَ ؟ قالَ : نعمْ ، الرأسُ أعرفُ سعرَهُ ، فآمنُ خيانةَ الغلامِ ، ولا يستطيعُ أن يغبنَني فيه وليسَ بلحمٍ يطبخُهُ الغلامُ ، فيقدرَ أنْ يأكلَ منهُ ، إنْ مسَّ عيناً أوْ أذناً أوْ خداً . . وقفتُ علىٰ ذٰلكَ ، وآكلُ مِنْهُ ألواناً ، فآكلُ عينَهُ لوناً ، وأذنَهُ لوناً ، ولسانَهُ لوناً ، وغَلْصَمَتَهُ لوناً ، ودماغَهُ لوناً ، وأُكفىٰ مؤنَةَ طبخِهِ ، فقدِ اجتمعَتْ لي فيهِ مرافقُ[2]

وخرجَ يوماً يريدُ الخليفةَ المهديَّ ، فقالَتْ لهُ امرأةٌ مِنْ أهلِهِ : ما لي عليكَ إنْ رجعتَ بالجائزةِ ؟ قالَ : إنْ أُعطيتُ مئةَ ألفٍ . . أعطيتُكِ درهماً ، فأُعطيَ ستينَ ألفاً ، فأعطاها أربعةَ دوانيقَ[3] .

واشترىٰ مرةً لحماً بدرهمٍ ، فدعاهُ صديقٌ لهُ ، فردَّ اللحمَ إلى القصابِ بنقصانِ دانقٍ وقالَ : أكرهُ الإسرافَ[4]

وكانَ للأعمشِ جارٌ لا يزالُ يعرضُ عليهِ المنزلَ فيقولُ : لو دخلتَ فأكلتَ كِسْرةً وملحاً ، فيأبىٰ عليهِ الأعمشُ ، فعرضَ عليهِ ذاتَ يومٍ ، فوافقَ جوعَ الأعمشِ ، فقالَ : مُرَّ بنا ، فدخلَ منزلَهُ ، فقرَّبَ إليهِ كِسْرةً وملحاً ، إذْ سألَ سائلٌ ،

---

(١) **طباهجة** : معرَّب تباهجه ، لفظة فارسية ، وهو الكباب ، اللحم المدقوق دقّاً ناعماً ، ويطلق أيضاً على العجّة .

(٢) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٥/٥٧) .

(٣) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٦/٥٧) .

(٤) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٦/٥٧) .

فقالَ لهُ ربُّ المنزلِ : بُوركَ فيكَ ، فأعادَ عليهِ المسألةَ ، فقالَ لهُ : بُوركَ فيكَ ، فلما سألَ الثالثةَ . . قالَ لهُ : اذهبْ وإلا واللهِ . . خرجتُ إليكَ بالعصا ، فناداهُ الأعمشُ وقالَ : اذهبْ ويحَكَ !! فلا واللهِ ؛ ما رأيتُ أحداً أصدقَ مواعيدَ منهُ ، هوَ منذُ مدةٍ يعدُني بكِسرَةٍ وملحٍ ، فلا واللهِ ؛ ما زادَني عليهِما .

* * *

بيان الإيثار وفضله

اعلمْ : أنَّ السخاءَ والبخلَ كلُّ واحدٍ منهُما ينقسمُ إلىٰ درجاتٍ ، فأرفعُ درجاتِ السخاءِ الإيثارُ ، وهو أنْ يجودَ بالمالِ معَ الحاجةِ إليهِ ، وإنَّما السخاءُ عبارةٌ عنْ بذلِ ما لا يحتاجُ إليهِ لمحتاجٍ أوْ لغيرِ محتاجٍ ، والبذلُ معَ الحاجةِ أشدُّ .

وكما أنَّ السخاوةَ قدْ تنتهي إلىٰ أنْ يسخوَ الإنسانُ علىٰ غيرِهِ معَ الاحتياجِ . . فالبخلُ قدْ ينتهي إلىٰ أنْ يبخلَ علىٰ نفسِهِ معَ الحاجةِ ، فكمْ مِنْ بخيلٍ يمسكُ المالَ ويمرضُ فلا يتداوىٰ ، ويشتهي الشهوةَ فلا يمنعُهُ منها إلا البخلُ بالثمنِ ، ولوْ وجدَها مجاناً . . لأكلَها ، فهٰذا يبخلُ علىٰ نفسِهِ معَ الحاجةِ ، وذٰلكَ يؤثرُ علىٰ نفسِهِ غيرَهُ معَ أنَّهُ محتاجٌ إليهِ ، فانظرْ ما بينَ الرجلينِ ؛ فإنَّ الأخلاقَ عطايا يضعُها اللهُ تعالىٰ حيثُ يشاءُ ؟

وليسَ بعدَ الإيثارِ درجةٌ في السخاءِ ، وقدْ أثنى اللهُ على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ بهِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما امرئٍ اشتهىٰ شهوةً فردَّ شهوتَهُ وآثرَ علىٰ نفسِهِ . . غُفِرَ لَهُ »(١)

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما شبعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثةَ أيامٍ متواليةٍ حتَّىٰ فارقَ الدنيا ، ولوْ شئنا . . لشبعنا ، ولٰكنَّا كُنَّا نؤثرُ علىٰ أنفسِنا)(٢)

ونزلَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضيفٌ ، فلمْ يجدْ عندَ أهلِهِ شيئاً ، فدخلَ عليهِ رجلٌ مِنَ الأنصارِ ، فذهبَ بهِ إلىٰ أهلِهِ فوضعَ بينَ يديهِ طعاماً ، وأمرَ امرأتَهُ بإطفاءِ السراجِ ، وجعلَ يمدُّ يدَهُ إلى الطعامِ كأنَّهُ يأكلُ ولا يأكلُ ، حتَّىٰ أكلَ الضيفُ الطعامَ ، فلمَّا أصبحَ . . قالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ عجبَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ صنيعِكُمُ الليلةَ إلىٰ ضيفِكُمْ » ، ونزلَتْ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٣)

فالسخاءُ خُلُقٌ مِنْ أخلاقِ اللهِ تعالىٰ(٤) ، والإيثارُ أعلىٰ درجاتِ السخاءِ ، وكانَ ذٰلكَ مِنْ دأْبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ سمَّاه اللهُ تعالىٰ عظيماً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٥)

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ أرني بعضَ درجاتِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأمتِهِ ، فقالَ : يا موسىٰ ؛ إنَّكَ لن تطيقَ ذٰلكَ ، ولٰكنْ أريكَ منزلةً مِنْ منازلِهِ جليلةً عظيمةً ، فضَّلتُهُ بها عليكَ وعلىٰ جميعِ خلقي ، قالَ : فكشفَ لهُ عنْ ملكوتِ السماءِ ، فنظرَ إلىٰ منزلةٍ كادَتْ تتلَفُ نفسُهُ مِنْ أنوارِها وقربِها مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ بماذا بلغتَ بهِ إلىٰ هٰذه الكرامةِ ؟ قالَ : بخُلُقٍ اختصصتُهُ بهِ مِنْ بينِهِمْ ، وهوَ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١٢٧/٥) ، ورواه أيضاً ضمن قصة ابن عمر رضي الله عنهما المتقدمة في اشتهائه السمكة الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٢/٣١) ، وسياق المصنف عنده .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٩) ، وعند البخاري (٥٣٧٤) ، ومسلم (٥٤١٦) من حديثها رضي الله عنها : (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البرّ ثلاث ليال تباعاً حتىٰ قبض) ، وللبيهقي في « الشعب » (١٣٩٦) بسنده عن بشر عنها : (لو شئنا أن نشبع . . شبعنا ، ولٰكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يؤثر علىٰ نفسه) ، وتقدم بعضه .

(٣) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٩) ، ورواه البخاري (٣٧٩٨) ، ومسلم (٢٠٥٤) .

(٤) روىٰ أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٧٨/١) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه مرفوعاً : « السخاء خلق الله الأعظم » .

(٥) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥٢) نقلاً عن الجنيد .

الإيثارُ ، يا موسىٰ ؛ لايأتيني أحدٌ مِنْهُمْ قدْ عملَ بهِ وقتاً مِنْ عمُرِهِ إلا استحييتُ مِنْ محاسبتِهِ ، وبوَّأتُهُ مِنْ جنَّتي حيثُ يشاءُ[1]

وقيلَ : خرجَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ إلىٰ ضيعةٍ لهُ ، فنزلَ علىٰ نخيلِ قومٍ وفيها غلامٌ أسودُ يعملُ فيها ؛ إذْ أتى الغلامُ بقوتِهِ ، ودخلَ الحائطَ كلبٌ ودنا مِنَ الغلامِ ، فرمىٰ إليهِ الغلامُ بقرصٍ فأكلَهُ ، ثمَّ رمىٰ إليهِ بالثاني والثالثِ فأكلَهُ ، وعبدُ اللهِ ينظرُ إليهِ ، فقالَ : يا غلامُ ؛ كمْ قوتُكَ كلَّ يومٍ ؟ قالَ : ما رأيتَ ، قالَ : فلِمَ آثرتَ بهِ هـٰذا الكلبَ ؟ قالَ : ما هيَ بأرضِ كلابٍ ، إنَّهُ جاءَ مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ جائعاً ، فكرهتُ ردَّهُ ، قالَ : فما أنتَ صانعٌ اليومَ ؟ قالَ : أطوي يومي هـٰذا ، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ : ألامُ على السخاءِ ؟! إنَّ هـٰذا لأسخىٰ منِّي ، فاشترى الحائطَ والغلامَ وما فيهِ مِنَ الآلاتِ ، فأعتقَ الغلامَ ، ووهبَهُ منهُ[2]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أُهديَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأسُ شاةٍ ، فقالَ : إنَّ أخي فلاناً أحوجُ منِّي إليهِ ، فبعثَ بهِ إليهِ ، فلمْ يزلْ يبعثُ بهِ الواحدُ إلىٰ آخرَ حتَّىٰ تداولَهُ سبعةُ أبياتٍ ، حتَّىٰ رجعَ إلى الأولِ[3]

وباتَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ فراشِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ جبريلَ وميكائيلَ عليهِما السلامُ : إنِّي آخيتُ بينَكُما ، وجعلتُ عمرَ أحدِكما أطولَ مِنَ عمرِ الآخرِ ، فأيُّكُما يؤثرُ صاحبَهُ بالحياةِ ، فاختارا كلاهما الحياةَ ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِما : أفلا كنتُما مثلَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ؟! آخيتُ بينَهُ وبينَ نبيِّي محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فباتَ علىٰ فراشِهِ يفديهِ بنفسِهِ ، ويؤثرُهُ بالحياةِ ، اهبطا إلى الأرضِ فاحفظاهُ مِنْ عدوِّهِ ، فكانَ جبريلُ عليهِ السلامُ عندَ رأسِهِ وميكائيلُ عندَ رجليهِ ، وجبريلُ عليهِ السلامُ يقولُ : بخٍ بخٍ ، مَنْ مِثلُكَ يا بنَ أبي طالبٍ يباهي اللهُ بكَ الملائكةَ ؟! فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[4]

وعنْ أبي الحسنِ الأنطاكيِّ أنَّهُ اجتمعَ عندَهُ نيِّفٌ وثلاثونَ نفساً ، وكانوا في قريةٍ بقربِ الرَّيِّ ، ولهُمْ أرغفةٌ معدودةٌ لم تشبعْ جميعَهُمْ ، فكسروا الرُّغفانَ وأطفؤوا السراجَ ، وجلسوا للطعامِ ، فلمَّا رُفِعَ . . فإذا الطعامُ بحالِهِ ، ولمْ يأكلْ واحدٌ منهُمْ شيئاً ؛ إيثاراً لصاحبِهِ علىٰ نفسِهِ[5]

ورُويَ أنَّ شعبةَ جاءَهُ سائلٌ ولمْ يكنْ عندَهُ شيءٌ ، فنزعَ خشبةً منْ سقفِ بيتِهِ فأعطاهُ ، ثمَّ اعتذرَ إليهِ[6]

وقالَ حذيفةُ العدويُّ : انطلقتُ يومَ اليرموكِ أطلبُ ابنَ عمٍّ لي ، ومعي شيءٌ مِنْ ماءٍ ، وأنا أقولُ : إنْ كانَ بهِ رمقٌ . . سقيتُهُ ، ومسحتُ بهِ وجهَهُ ، فإذا أنا بهِ ، فقلتُ : أسقيكَ ؟ فأشارَ أيْ : نعمْ ، فإذا رجلٌ يقولُ : آهِ ، فأشارَ ابنُ عمِّي أنِ انطلقْ بهِ إليهِ ، قالَ : فأتيتُهُ ؛ فإذا هوَ هشامُ بنُ العاصِ ، فقلتُ : أسقيكَ ؟ فسمعَ آخرَ يقولُ : آهِ ، فأشارَ هشامٌ أنِ انطلقْ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥٤) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص ٤٢١) .
(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١٨٤/٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٠٤) .
(٤) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥٠) ، والثعلبي في « تفسيره » (١٢٥/٢) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٨) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٨) .

بهِ إليهِ ، فجئتُهُ ؛ فإذا هوَ قدْ ماتَ ، فرجعتُ إلىٰ هشامٍ ؛ فإذا هو قدْ ماتَ ، فرجعتُ إلى ابنِ عمِّي ؛ فإذا هوَ قدْ ماتَ ، رحمةُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ [1]

وقالَ عباسُ بنُ دهقانَ : ما خرجَ أحدٌ مِنَ الدنيا كما دخلَها إلا بشرُ بنُ الحارثِ ، فإنَّهُ أتاهُ رجلٌ في مرضِهِ فشكا إليهِ الحاجةَ ، فنزعَ قميصَهُ فأعطاهُ إيَّاهُ ، واستعارَ ثوباً فماتَ فيهِ [2]

وعنْ بعضِ الصوفيةِ قالَ : كنَّا بطرسوسَ ، فاجتمعنا جماعةً ، وخرجنا إلىٰ بابِ الجهادِ ، فتبعَنا كلبٌ مِنَ البلدِ ، فلمَّا بلغنا بابَ الجهادِ . . إذا نحنُ بدابةٍ ميتةٍ فصعدنا إلىٰ موضعٍ خالٍ وقعدنا ، فلمَّا نظرَ الكلبُ إلى الميتةِ . . رجعَ إلى البلدِ ، ثمَّ عاد بعدَ ساعةٍ ومعَهُ مقدارُ عشرينَ كلباً ، فجاءَ إلىٰ تلكَ الميتةِ وقعدَ ناحيةً ووقعَتِ الكلابُ في الميتةِ ، فما زالَتْ تأكلُها ، وذٰلكَ الكلبُ قاعدٌ ينظرُ إليها حتَّىٰ أكلَتِ الميتةَ وبقيَتِ العظامُ ، ورجعَتِ الكلابُ إلى البلدِ ، فقامَ ذٰلكَ الكلبُ وجاءَ إلىٰ تلكَ العظامِ فأكلَ ما بقيَ عليها قليلاً ، ثمَّ انصرفَ [3]

وقد ذكرنا جملةً مِنْ أخبارِ الإيثارِ وأحوالِ الأولياءِ في كتابِ الفقرِ والزهدِ ، فلا حاجةَ إلى الإعادةِ ها هنا ، وباللهِ التوفيقُ ، وعليهِ التوكُّلُ فيما يرضيهِ عزَّ وجلَّ .

* * *

---

(١) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٨) ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٢٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٠٨) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥١) وفيه : (عياش) بدل (عباس) وهو موافق لما في (ب) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٥٤) .

بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلكَ تقولُ : قدْ عُرفَ بشواهدِ الشرعِ أنَّ البخلَ مِنَ المهلكاتِ ، ولكنْ ما حدُّ البخلِ ؟ وبماذا يصيرُ الإنسانُ بخيلاً ؟

وما مِنْ إنسانٍ إلا وهوَ يرىٰ نفسَهُ سخياً ، وربَّما يراهُ غيرُهُ بخيلاً ، وقدْ يصدرُ فعلٌ مِنْ إنسانٍ ، فيختلفُ فيهِ الناسُ ؛ فيقولُ قومٌ : هٰذا بخلٌ ، ويقولُ آخرونَ : ليسَ هٰذا مِنَ البخلِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلا ويجدُ في نفسِهِ حبّاً للمالِ ، ولأجلِهِ يحفظُ المالَ ويمسكُهُ ، فإنْ كانَ يصيرُ بإمساكِ المالِ بخيلاً . . فإذاً لا ينفكُّ أحدٌ عنِ البخلِ ، وإذا كانَ الإمساكُ مطلقاً لا يوجبُ البخلَ ولا معنىٰ للبخلِ إلا الإمساكُ . . فما البخلُ الذي يوجبُ الهلاكَ ؟

وما حدُّ السخاءِ الذي يستحقُّ بهِ العبدُ صفةَ السخاوةِ وثوابَها ؟

فنقولُ : قدْ قالَ قائلونَ : حدُّ البخلِ : منعُ الواجبِ ؛ فكلُّ مَنْ أدَّىٰ ما يجبُ عليهِ . . فليسَ ببخيلٍ ، وهٰذا غيرُ كافٍ ، فإنَّ مَنْ يردُّ اللحمَ مثلاً إلى القصابِ والخبزَ إلى الخبازِ بنقصانِ حبةٍ أوْ نصفِ حبةٍ . . فإنَّهُ يُعدُّ بخيلاً بالاتفاقِ ، وكذٰلكَ مَنْ يسلِّمُ إلىٰ عيالِهِ القدْرَ الذي يفرضُهُ القاضي ، ثمَّ يضايقُهُمْ في لقمةٍ زادوا عليهِ أوْ تمرةٍ أكلوها مِنْ مالِهِ . . يُعدُّ بخيلاً ، ومَنْ كانَ بينَ يديهِ رغيفٌ ، فحضرَ مَنْ يظنُّ أنَّهُ يأكلُ معَهُ ، فأخفاهُ . . عُدَّ بخيلاً .

وقالَ قائلونَ : البخيلُ هوَ الذي يستصعبُ العطيةَ ، وهوَ أيضاً قاصرٌ ، فإنَّهُ إنْ أُريدَ بهِ أنَّهُ يستصعبُ كلَّ عطيةٍ . . فكمْ مِنْ بخيلٍ لا يستصعبُ العطيةَ القليلةَ ؛ كالحبةِ وما يقربُ منها ، ويستصعبُ ما فوقَ ذٰلكَ ، وإنْ أُريدَ بهِ أنَّهُ يستصعبُ بعضَ العطايا . . فما مِنْ جوادٍ إلا وقدْ يستصعبُ بعضَ العطايا ، وهوَ ما يستغرقُ جميعَ مالِهِ ، أوِ المالَ العظيمَ ، وهٰذا لا يوجبُ الحكمَ بالبخلِ .

وكذٰلكَ تكلَّموا في الجودِ ، فقيلَ : الجودُ عطاءٌ بلا مَنٍّ ، وإسعافٌ مِنْ غيرِ رويَّةٍ .

وقيلَ : الجودُ عطاءٌ مِنْ غيرِ مسألةٍ علىٰ رؤيةِ التقليلِ .

وقيلَ : الجودُ السرورُ بالسائلِ ، والفرحُ بالعطاءِ لما أمكنَ .

وقيلَ : الجودُ عطاءٌ علىٰ رؤيةِ أنَّ المالَ للهِ تعالىٰ والعبدَ للهِ تعالىٰ ، فيعطي عبدَ اللهِ مالَ اللهِ علىٰ غيرِ رؤيةِ الفقرِ .

وقيلَ : مَنْ أعطى البعضَ وأبقى البعضَ . . فهوَ صاحبُ سخاءٍ ، ومَنْ بذلَ الأكثرَ وأبقىٰ لنفسِهِ شيئاً . . فهوَ صاحبُ جودٍ ، ومن قاسى الضرَّ وآثرَ غيرَهُ بالبلغةِ . . فهو صاحبُ إيثارٍ ، ومَنْ لمْ يبذلْ شيئاً . . فهوَ صاحبُ بخلٍ .

❀ ❀ ❀

وجملةُ هٰذهِ الكلماتِ غيرُ محيطةٍ بحقيقةِ البخلِ والجودِ ، بلْ نقولُ : المالُ خُلِقَ لحكمةٍ ومقصودٍ ، وهوَ صلاحُهُ لحاجاتِ الخلقِ ، ويمكنُ إمساكُهُ عنِ الصرفِ إلىٰ ما خُلِقَ للصرفِ إليهِ ، ويمكنُ بذلُهُ بالصرفِ إلىٰ ما لا يحسنُ الصرفُ إليهِ ، ويمكنُ التصرفُ فيهِ بالعدلِ ، وهوَ أنْ يُحفظَ حيثُ يجبُ الحفظُ ، ويُبذلَ حيثُ يجبُ البذلُ ،

فالإمساكُ حيثُ يجبُ البذلُ بخلٌ ، والبذلُ حيثُ يجبُ الإمساكُ تبذيرٌ ، وبينَهُما وسطٌ هوَ المحمودُ ، وينبغي أنْ يكونَ السخاءُ والجودُ عبارةً عنهُ ؛ إذْ لمْ يُؤمَرْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا بالسخاءِ ، وقدْ قيلَ لهُ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ .

فالجودُ وسطٌ بينَ الإسرافِ والإقتارِ ، وبينَ البسطِ والقبضِ ، وهوَ أنْ يُقَدِّرَ بذلَهُ وإمساكَهُ بقدْرِ الواجبِ ، ولا يكفي أنْ يفعلَ ذٰلكَ بجوارحِهِ ما لمْ يكنْ قلبُهُ طيباً بِهِ غيرَ منازعٍ لهُ فيهِ ، فإنْ بذلَ في محلِّ وجوبِ البذلِ ونفسُهُ تنازعُهُ وهوَ يصابرُها . . فهوَ متسخٍّ وليس بسخيٍّ ، بلْ ينبغي ألا يكونَ لقلبِهِ علاقةٌ معَ المالِ إلا مِنْ حيثُ يُرادُ المالُ لهُ ، وهوَ صرفُهُ إلىٰ ما يجبُ صرفُهُ إليهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ صارَ هٰذا موقوفاً علىٰ معرفةِ الواجبِ ، فما الذي يجبُ بذلُهُ ؟

فأقولُ : إنَّ الواجبَ قسمانِ ؛ واجبٌ بالشرعِ ، وواجبٌ بالمروءةِ والعادةِ ، والسخيُّ هوَ الذي لا يمنعُ واجبَ الشرعِ ولا واجبَ المروءةِ ، فإنْ منعَ واحداً منهما . . فهوَ بخيلٌ ، ولٰكنَّ الذي يمنعُ واجبَ الشرعِ أبخلُ ؛ كالذي يمنعُ أداءَ الزكاةِ ، ويمنعُ عيالَهُ وأهلَهُ النفقةَ ، أوْ يؤدِّيها ولٰكنْ يشقُّ عليهِ ، فإنَّهُ بخيلٌ بالطبعِ ، وإنَّما يتسخَّىٰ بالتكلُّفِ ، أوْ كالذي يتيمَّمُ الخبيثَ مِنْ مالِهِ ولا يطيبُ لهُ أنْ يعطيَ مِنْ أطيبِ مالِهِ ، أوْ مِنْ وسطِهِ ؛ فهٰذا كلُّهُ بخلٌ .

وأمَّا واجبُ المروءةِ . . فهوَ تركُ المضايقةِ والاستقصاءِ في المحقَّراتِ ، فإنَّ ذٰلكَ مستقبحٌ ، واستقباحُ ذٰلكَ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فمَنْ كَثُرَ مالُهُ . . يُستقبحُ منهُ ما لا يُستقبحُ مِنَ الفقيرِ مِنَ المضايقةِ ، ويُستقبحُ مِنَ الرجلِ المضايقةُ معَ أهلِهِ وأقاربِهِ ومماليكِهِ ما لا يُستقبحُ معَ الأجانبِ ، ويُستقبحُ معَ الجارِ ما لا يُستقبحُ معَ البعيدِ ، ويُستقبحُ في الضيافةِ مِنَ المضايقةِ ما لا يُستقبحُ أكثرُ منهُ[1] في المبايعةِ والمعاملةِ ، فيختلفُ ذٰلكَ بما فيهِ مِنَ المضايقةِ في ضيافةٍ أوْ معاملةٍ ، وبما بِهِ المضايقةُ مِنْ طعامٍ أوْ ثوبٍ ؛ إذْ يُستقبحُ في الأطعمةِ ما لا يُستقبحُ في غيرِها ، ويُستقبحُ في شراءِ الكفنِ مثلاً أوْ شراءِ الأضحيةِ أوْ شراءِ خبزِ الصدقةِ ما لا يُستقبحُ في غيرِهِ مِنَ المضايقةِ ، وكذٰلكَ يختلفُ بمَنْ معَهُ المضايقةُ ؛ مِنْ صديقٍ ، أوْ أخٍ ، أوْ قريبٍ ، أوْ زوجةٍ ، أو ولدٍ ، أوْ أجنبيٍّ ، وكذٰلكَ يختلفُ بمَنْ منهُ المضايقةُ ؛ مِنْ صبيٍّ وامرأةٍ ، وشيخٍ وشابٍّ ، وعالمٍ وجاهلٍ ، وموسرٍ وفقيرٍ .

فالبخيلُ : هوَ الذي يمنعُ حيثُ ينبغي ألَّا يمنعَ ؛ إمَّا بحكمِ الشرعِ ، وإمَّا بحكمِ المروءةِ ، وذٰلكَ لا يمكنُ التنصيصُ علىٰ مقدارِهِ .

ولعلَّ حدَّ البخلِ : هوَ إمساكُ المالِ عنْ غرضٍ ، ذٰلكَ الغرضُ هوَ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ؛ فإنَّ صيانةَ الدينِ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ، فمانعُ الزكاةِ والنفقةِ بخيلٌ ، وصيانةُ المروءةِ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ، والمضايقُ في الدقائقِ معَ مَنْ لا تحسنُ المضايقةُ معَهُ هاتكٌ سترَ المروءةِ لحبِّ المالِ ؛ فهوَ بخيلٌ .

---

(١) في (أ ، ب ، د) : (أقل منه) بدل (أكثر منه) .

وتبقىٰ درجةٌ أخرىٰ ، وهوَ أنْ يكونَ الرجلُ ممَّنْ يؤدي الواجبَ ، ويحفظُ المروءةَ ، ولـٰكنْ معَهُ مالٌ كثيرٌ قدْ جمعَهُ ليسَ يصرفُهُ إلى الصدقاتِ وإلى المحتاجينَ ، فقدْ تقابلَ غرضُ حفظِ المالِ ليكونَ لهُ عُدَّةً علىٰ نوائبِ الزمانِ وغرضُ الثوابِ ليكونَ رافعاً لدرجاتِهِ في الآخرةِ ، فإمساكُ المالِ عنْ هـٰذا الغرضِ بخلٌ عندَ الأكياسِ ، وليسَ ببخلٍ عندَ عوامِّ الخلقِ ؛ وذٰلكَ لأنَّ نظرَ العوامِّ كالمقصورِ علىٰ حظوظِ الدنيا ، فيرونَ إمساكَهُ لدفعِ نوائبِ الزمانِ مهمّاً ، وربَّما يظهرُ عندَ العوامِّ أيضاً سمةُ البخلِ عليهِ إنْ كانَ في جوارِهِ محتاجٌ ، فمنعَهُ وقالَ : (قدْ أديتُ الزكاةَ الواجبةَ ، وليسَ عليَّ غيرُها) ، ويختلفُ استقباحُ ذٰلكَ باختلافِ مقدارِ مالِهِ ، وباختلافِ شدَّةِ حاجةِ المحتاجِ وصلاحِهِ ودينِهِ واستحقاقِهِ ، فمَنْ أدَّىٰ واجبَ الشرعِ وواجبَ المروءةِ اللائقةِ بهِ . . فقدْ تبرَّأَ مِنَ البخلِ .

نعمْ ؛ لا يتصفُ بصفةِ الجودِ والسخاءِ ما لمْ يبذلْ زيادةً علىٰ ذٰلكَ لطلبِ الفضيلةِ ونيلِ الدرجاتِ ، فإذا اتسعَتْ نفسُهُ لبذلِ المالِ حيثُ لا يوجبُهُ الشرعُ ولا تتوجَّهُ إليهِ الملامةُ في العادةِ . . فهوَ جوادٌ بقدْرِ ما تتسعُ لهُ نفسُهُ مِنْ قليلٍ أوْ كثيرٍ ، ودرجاتُ ذٰلكَ لا تنحصرُ ، وبعضُ الناسِ أجودُ مِنْ بعضٍ .

واصطناعُ المعروفِ وراءَ ما توجبُهُ العادةُ والمروءةُ هوَ الجودُ ، ولـٰكنْ بشرطِ أنْ يكونَ عنْ طيبِ نفسٍ ، ولا يكونَ عنْ طمعٍ ، ورجاءِ خدمةٍ أوْ مكافأةٍ ، أوْ شكرٍ أوْ ثناءٍ ، فإنَّ مَنْ طمعَ في الشكرِ والثناءِ . . فهوَ بياعٌ وليسَ بجوادٍ ، فإنَّهُ يشتري المدحَ بمالِهِ ، والمدحُ لذيذٌ ، وهوَ مقصودٌ في نفسِهِ ، والجودُ هوَ بذلُ الشيءِ مِنْ غيرِ عوضٍ ، هـٰذا هوَ الحقيقةُ[1] ، ولا يُتصوَّرُ ذٰلكَ إلا مِنَ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا الآدميُّ . . فاسمُ الجودِ عليهِ مجازٌ ؛ إذْ لا يبذلُ الشيءَ إلا لغرضٍ ، ولـٰكنَّهُ إذا لمْ يكنْ غرضُهُ إلا الثوابَ في الآخرةِ أوِ اكتسابَ فضيلةِ الجودِ ، وتطهيرَ النفسِ عنْ رذالةِ البخلِ . . فيُسمَّىٰ جواداً ، فإنْ كانَ الباعثُ عليهِ الخوفَ مِنَ الهجاءِ مثلاً ، أوْ مِنْ ملامةِ الخَلْقِ ، أوْ ما يتوقَّعُهُ مِنْ نفعٍ ينالُهُ مِنَ المنعَمِ عليهِ . . فكلُّ ذٰلكَ ليسَ مِنَ الجودِ ؛ لأنَّهُ مضطرٌّ إليهِ بهـٰذهِ البواعثِ ، وهيَ أعواضٌ معجَّلةٌ لهُ عليهِ ، فهوَ معتاضٌ لا جوادٌ ، كما رُوِيَ عنْ بعضِ المتعبِّداتِ أنَّها وقفَتْ علىٰ حبَّانَ بنِ هلالٍ وهوَ جالسٌ معَ أصحابِهِ ، فقالَتْ : هلْ فيكُمْ مَنْ أسألُهُ عنْ مسألةٍ ؟ فقالوا لها : سلي عمَّا شئتِ ، وأشاروا إلىٰ حبَّانَ بنِ هلالٍ ، فقالَتْ : ما السخاءُ عندَكُمْ ؟ قالوا : العطاءُ ، والبذلُ ، والإيثارُ ، قالَتْ : هـٰذا السخاءُ في الدنيا ، فما السخاءُ في الدينِ ؟ قالوا : أنْ نعبدَ اللهَ سبحانَهُ سخيةً بها أنفسُنا غيرَ مكرهةٍ ، قالَتْ : فتريدونَ علىٰ ذٰلكَ أجراً ؟ قالوا : نعمْ ، قالَتْ : ولِمَ ؟ قالوا : لأنَّ اللهَ تعالىٰ وعدَنا بالحسنةِ عشرَ أمثالِها ، قالَتْ : سبحانَ اللهِ !! فإذا أعطيتُمْ واحدةً وأخذتُمْ عشرةً . . فبأيِّ شيءٍ تسخيتُمْ عليهِ ؟!

قالوا لها : فما السخاءُ عندَكِ يرحمُكِ اللهُ ؟ قالَتِ : السخاءُ عندي : أن تعبدوا اللهَ تعالىٰ متنعِّمينَ متلذِّذينَ بطاعتِهِ ، غيرَ كارهينَ ، لا تريدونَ علىٰ ذٰلكَ أجراً حتَّىٰ يكونَ مولاكُمْ يفعلُ بكُمْ ما يشاءُ ، ألا تستحيونَ مِنَ اللهِ أنْ يطَّلعَ علىٰ قلوبِكُمْ فيعلمَ مِنْها أنَّكُمْ تريدونَ شيئاً بشيءٍ ؟! إنَّ هـٰذا في الدنيا لقبيحٌ .

وقالَتْ بعضُ المتعبِّداتِ : أتحسبونَ أنَّ السخاءَ في الدرهمِ والدينارِ فقطْ ؟ قيلَ : ففيمَ ؟ قالَتِ : السخاءُ عندي في المهَجِ .

---

(١) أي : الحقيقة اللغوية . « إتحاف » (٢٠٦/٨) .

وقالَ المحاسبيُّ : (السخاءُ في الدينِ : أن تسخوَ نفسُكَ بتلفِهَا للهِ عزَّ وجلَّ ، ويسخوَ قلبُكَ ببذلِ مهجتِكَ وإهراقِ دمِكَ للهِ تعالىٰ بسماحةٍ مِنْ غيرِ إكراهٍ ، لا تريدُ بذٰلكَ ثواباً عاجلاً ولا آجلاً ، وإنْ كنتَ غيرَ مستغنٍ عنِ الثوابِ ، ولٰكنْ يغلبُ علىٰ قلبِكَ حسنُ كمالِ السخاءِ ، بتركِ الاختيارِ على اللهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ يكونَ مولاكَ هوَ الذي يفعلُ بكَ ما لا تحسنُ اختيارَهُ لنفسِكَ) .

* * *

بيان علاج البخل

اعلمْ : أنَّ البخلَ سببُهُ حبُّ المالِ .

ولحبِّ المالِ سببانِ :

أحدُهُما : حبُّ الشهواتِ التي لا وصولَ إليها إلا بالمالِ معَ طولِ الأملِ ، فإنَّ الإنسانَ لوْ علمَ أنَّهُ يموتُ بعدَ يوم . . ربَّما كانَ لا يبخلُ بمالِهِ ؛ إذِ القدْرُ الذي يحتاجُ إليهِ في يومٍ أو في شهرٍ أوْ في سنةٍ قريبٌ ، وإنْ كانَ قصيرَ الأملِ ولٰكنْ كانَ لهُ أولادٌ . . قامَ الولدُ مقامَ طولِ الأملِ ، فإنَّهُ يقدِّرُ بقاءَهُمْ كبقاءِ نفسِهِ ، فيمسكُ لأجلِهِمْ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ مجهلةٌ »(١) ، فإذا انضافَ إلىٰ ذٰلكَ خوفُ الفقرِ وقلَّةُ الثقةِ بمجيءِ الرزقِ . . قويَ البخلُ لا محالةَ .

السببُ الثاني : أنْ يحبَّ عينَ المالِ ، فمِنَ الناسِ مَنْ معَهُ ما يكفيهِ لبقيةِ عمرِهِ إذا اقتصرَ علىٰ ما جرتْ بهِ عادتُهُ بنفقتِهِ وتفضلُ آلافٌ ، وهوَ شيخٌ لا ولدَ لهُ ، ومعَهُ أموالٌ كثيرةٌ ، ولا تسمحُ نفسُهُ بإخراجِ الزكاةِ ، ولا بمداواةِ نفسِهِ عندَ المرضِ ، بل صارَ محبّاً للدنانيرِ عاشقاً لها ، يلتذُّ بوجودِها في يدِهِ وبقدرتِهِ عليها ، فيكنزُها تحتَ الأرضِ ، وهوَ يعلمُ أنَّهُ يموتُ فتضيعُ أوْ يأخذُها أعداؤُهُ ، ومعَ هٰذا فلا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يأكلَ أوْ يتصدَّقَ مِنْها بحبةٍ واحدةٍ !!

وهٰذا مرضٌ للقلبِ عظيمٌ عسيرُ العلاجِ ، لا سيما في كبرِ السنِّ ، وهوَ مرضٌ مزمنٌ لا يُرجىٰ علاجُهُ ، ومثالُ صاحبِهِ مثالُ رجلٍ عشقَ شخصاً ، فأحبَّ رسولَهُ لنفسِهِ ، ثمَّ نسيَ محبوبَهُ واشتغلَ برسولِهِ ، فإنَّ الدنانيرَ رسولٌ مبلِّغٌ إلى الحاجاتِ ، فصارَتْ محبوبةً لذٰلكَ ؛ لأنَّ الموصلَ إلى اللذيذِ لذيذٌ ، ثمَّ قدْ ينسى الحاجاتِ ، ويصيرُ الذهبُ عندَهُ كأنَّهُ محبوبٌ في نفسِهِ ، وهوَ غايةُ الضلالِ ، بلْ مَنْ رأىٰ بينَهُ وبينَ الحجرِ فرقاً . . فهوَ لجهلِهِ ، إلا مِنْ حيثُ قضاءُ حاجتِهِ بهِ ، فالفاضلُ عنْ قدْرِ حاجتِهِ والحجرُ بمثابةٍ واحدةٍ .

❊ ❊ ❊

فهٰذهِ أسبابُ حبِّ المالِ ، وإنَّما علاجُ كلِّ علَّةٍ بمضادَّةِ سببِها ، فيعالجُ حبَّ الشهواتِ بالقناعةِ باليسيرِ ، وبالصبرِ ، ويعالجُ طولَ الأملِ بكثرةِ ذكرِ الموتِ ، والنظرِ في موتِ الأقرانِ ، وطولِ تعبِهِمْ في جمعِ المالِ ، وضياعِهِ بعدَهُمْ ، ويعالجُ التفاتَ القلبِ إلى الولدِ بأنَّ الذي خلقَهُ خلقَ معَهُ رزقَهُ ، وكمْ مِنْ ولدٍ لمْ يرثْ مِنْ أبيهِ شيئاً وحالُهُ أحسنُ ممَّنْ ورثَ ، وبأنْ يعلمَ أنَّهُ بجمعِ المالِ لولدِهِ يريدُ أن يتركَ ولدَهُ بخيرٍ وينقلبَ هوَ إلىٰ شرٍّ ، وأنَّ ولدَهُ إن كانَ تقياً صالحاً . . فيكفيهِ اللهُ ، وإنْ كانَ فاسقاً . . فيستعينُ بمالِهِ على المعصيةِ ، وترجعُ مظلمتُهُ إليهِ .

ويعالجُ أيضاً قلبَهُ بكثرةِ التأمُّلِ في الأخبارِ الواردةِ في ذمِّ البخلِ ومدحِ السخاءِ ، وما توعَّدَ اللهُ بهِ على البخلِ مِنَ العقابِ العظيمِ .

ومِنَ الأدويةِ النافعةِ : كثرةُ التأمُّلِ في أحوالِ البخلاءِ ، ونفرةِ الطبعِ عنهُمْ ، واستقباحِهِ لهمْ ، فإنَّهُ ما مِنْ بخيلٍ إلا

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٦٦) وليس فيه : (مجهلة) ، وهي عند عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٤٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤١/٢٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٩٦/٣) .

ويستقبحُ البخلَ مِنْ غيرِهِ ، ويستثقلُ كلَّ بخيلٍ مِنْ أصحابِهِ ، فيعلمُ أنَّهُ مستثقلٌ ومستقذرٌ في قلوبِ الناسِ مثلُ سائرِ البخلاءِ في قلبِهِ .

ويعالجُ أيضاً قلبَهُ بأنْ يتفكَّرَ في مقاصدِ المالِ ؛ وأنَّهُ لماذا خُلقَ ، فلا يحفظُ مِنَ المالِ إلا قدْرَ حاجتِهِ ، والباقي يدخرُهُ لنفسِهِ ؛ بأنْ يحصلَ لهُ ثوابُ بذلِهِ .

فهٰذهِ الأدويةُ مِنْ جهةِ المعرفةِ والعلمِ ، فإذا عرفَ بنورِ البصيرةِ أنَّ البذلَ خيرٌ لهُ مِنَ الإمساكِ في الدنيا والآخرةِ . . هاجَتْ رغبتُهُ في البذلِ إنْ كانَ عاقلاً ، فإذا تحرَّكَتِ الداعيةُ . . فينبغي أن يجيبَ الخاطرَ الأولَ ولا يتوقفَ ؛ فإنَّ الشيطانَ يعدُهُ الفقرَ ويخوِّفُهُ ويصدُّهُ عنهُ .

وكانَ أبو الحسنِ البُوشَنْجيُّ ذاتَ يومٍ في الخلاءِ ، فدعا تلميذاً لهُ ، وقالَ : انزعْ عنِّي القميصَ وادفعْهُ إلىٰ فلانٍ ، فقالَ : هلَّا صبرتَ حتَّىٰ تخرجَ ؟ قالَ : لمْ آمنْ علىٰ نفسِي أن تتغيَّرَ ، وكانَ قدْ خطرَ لي بذلُهُ[1]

ولا تزولُ صفةُ البخلِ إلا بالبذلِ تكلُّفاً ؛ كما لا يزولُ العشقُ إلا بمفارقةِ المعشوقِ بالسفرِ عنْ مستقرِّهِ حتىٰ إذا سافرَ وفارقَ تكلفاً ، وصبرَ عنهُ مدَّةً . . تسلَّىٰ عنهُ قلبُهُ ، فكذٰلكَ الذي يريدُ علاجَ البخلِ ينبغي أنْ يفارقَ المالَ تكلُّفاً بأنْ يبذلَهُ .

بلْ لوْ رماهُ في الماءِ . . كانَ أولىٰ بهِ مِنْ إمساكِهِ إيَّاهُ معَ الحبِّ لهُ[2]

ومِنْ لطائفِ الحيلِ فيهِ : أنْ يخدعَ نفسَهُ بحسنِ الاسمِ والاشتهارِ بالسخاءِ ، فيبذلَ علىٰ قصدِ الرياءِ ، حتَّىٰ تسمحَ نفسُهُ بالبذلِ طمعاً في حشمةِ الجودِ ، فيكونَ قدْ أزالَ عنْ نفسِهِ خبثَ البخلِ واكتسبَ لها خبثَ الرياءِ ولٰكنْ ينعطفُ بعدَ ذٰلكَ على الرياءِ ويزيلُهُ بعلاجِهِ ، ويكونُ طلبُ الاسمِ كالتسليةِ للنفسِ عندَ فطامِها عنِ المالِ ؛ كما يُسلَّى الصبيُّ عندَ الفطامِ عنِ الثدي باللعبِ بالعصافيرِ وغيرِها لا ليخلَّىٰ واللعبَ ، ولٰكنْ ليُنقلَ عنِ الثدي إليهِ ، ثمَّ يُنقلَ عنهُ إلىٰ غيرِهِ ، فكذٰلكَ هٰذهِ الصفاتُ الخبيثةُ ينبغي أنْ يُسلَّط بعضُها علىٰ بعضٍ ؛ كما تُسلَّطُ الشهوةُ على الغضبِ وتُكسرُ سورتُهُ بها ، ويُسلَّطُ الغضبُ على الشهوةِ وتُكسرُ رعونتُها بهِ ، إلا أنَّ هٰذا مفيدٌ في حقِّ مَنْ كانَ البخلُ أغلبَ عليهِ مِنْ حبِّ الجاهِ والرياءِ ؛ فيبدلُ الأقوىٰ بالأضعفِ ، فإن كانَ الجاهُ محبوباً عندَهُ كالمالِ . . فلا فائدةَ فيهِ ؛ فإنَّهُ يقطعُ علةً ويزيدُ في أخرىٰ مثلِها ، إلا أنَّ علامةَ ذٰلكَ ألا يثقلَ عليهِ البذلُ لأجلِ الرياءِ ، فبذٰلكَ يتبيَّنُ أنَّ الرياءَ أغلبُ عليهِ ، فإنْ كانَ البذلُ يشقُّ عليهِ معَ الرياءِ . . فينبغي أنْ يبذلَ ، فإنَّ ذٰلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ مرضَ البخلِ أغلبُ علىٰ قلبِهِ .

ومثالُ دفعِ هٰذهِ الصفاتِ بعضِها ببعضٍ : ما يُقالُ : إنَّ الميتَ تستحيلُ جميعُ أجزائِهِ دوداً ، ثمَّ يأكلُ بعضُ الديدانِ البعضَ حتَّىٰ يقلَّ عددُها ويكبرونَ ، ثمَّ يأكلُ بعضُها بعضاً حتَّىٰ ترجعَ إلى اثنتينِ قويَّتينِ عظيمتينِ ، ثمَّ لا تزالانِ تتقاتلانِ إلىٰ أنْ تغلبَ إحداهُما الأخرىٰ فتأكلَها وتسمنَ بها ، ثمَّ لا تزالُ وحدَها تبقى جائعةً إلىٰ أنْ تموتَ ؛ فكذٰلكَ

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤٢٠) .

(٢) وقد تعجب ابن القيم من هٰذا الكلام ، وقال : إن الفقهاء كلَّهم يقولون : إن رمي المال في البحر لا يجوز . **والجواب** : أن أهل الطريق مجتهدون في أحوالها ، وأن من قواعد أهل الشريعة ارتكاب أخف الضررين إذا تعارض معنا مفسدتان ، وقد تعارض هنا أمران : أحدهما مفسدة الدين ، فقدموه على المفسد للدنيا ، فافهم والله أعلم . « إتحاف » (٣٨/١) .

هٰذهِ الصفاتُ الخبيثةُ يمكنُ أنْ يُسلَّطَ بعضُها علىٰ بعضٍ حتَّىٰ يقمعَها فيجعلَ الأضعفَ قوتاً للأقوىٰ ، إلىٰ ألا يبقىٰ إلا واحدةٌ ، ثمَّ تقعُ العنايةُ بمحوِها وإذابتِها بالمجاهدةِ ، وذٰلكَ بمنعِ القوتِ عنها .

ومنعُ القوتِ عنِ الصفاتِ ألا يُعملَ بمقتضاها ؛ فإنَّها تقتضي ـ لا محالةَ ـ أعمالاً ، فإذا خُولفَتْ . . خمدَتِ الصفاتُ وماتَتْ مثلَ البخلِ ؛ فإنَّهُ يقتضي إمساكَ المالِ ، فإذا مُنِعَ مقتضاهُ ، وبُذلَ المالُ معَ الجهدِ مرةً بعدَ أخرىٰ . . ماتَتْ صفةُ البخلِ ، وصارَ البذلُ طبعاً ، وسقطَ التعبُ فيهِ .

فإذاً ؛ علاجُ البخلِ بعلمٍ وعملٍ ؛ فالعلمُ يرجعُ إلىٰ معرفةِ آفةِ البخلِ وفائدةِ الجودِ ، والعملُ يرجعُ إلى البذلِ علىٰ سبيلِ التكلُّفِ ، ولٰكنْ قدْ يقوى البخلُ ، بحيثُ يعمي ويصمُّ ، فيمنعُ تحقُّقَ المعرفةِ بآفاتِهِ ، وإذا لمْ تتحققِ المعرفةُ . . لمْ تتحرَّكِ الرغبةُ ، فلمْ يتيسَّرِ العملُ ، فتبقى العلةُ مزمنةً ؛ كالمرضِ الذي يمنعُ معرفةَ الدواءِ وإمكانَ استعمالِهِ ؛ فإنَّهُ لا حيلةَ فيهِ إلا الصبرُ إلى الموتِ .

وكانَ مِنْ عادةِ بعضِ شيوخِ الصوفيةِ في معالجةِ علَّةِ البخلِ في المريدينَ أنْ يمنعَهُمْ مِنَ الاختصاصِ بزواياهُمْ ، فكانَ إذا توسَّمَ في مريدٍ فرحَهُ بزاويتِهِ وما فيها . . نقلَهُ إلىٰ زاويةِ غيرِهِ ، ونقلَ زاويةَ غيرِهِ إليهِ ، وأخرجَهُ مِنْ جميعِ ما ملكَهُ ، وإذا رآهُ يلتفتُ إلىٰ ثوبٍ جديدٍ يلبسُهُ ، أوْ سجادةٍ يفرحُ بها . . يأمرُهُ بتسليمِها إلىٰ غيرِهِ ، ويلبسُهُ ثوباً خَلَقاً لا يميلُ إليهِ قلبُهُ ، فبهٰذا يتجافى القلبُ عنْ متاعِ الدنيا ، فمَنْ لمْ يسلُكْ هٰذا السبيلَ . . أنسَ بالدنيا وأحبَّها ، فإنْ كانَ لهُ ألفُ متاعٍ . . كانَ لهُ ألفُ محبوبٍ ، ولذٰلكَ إذا سُرِقَ كلُّ واحدٍ منهُ . . ألمَّتْ بهِ مصيبةٌ بقدْرِ حبِّهِ لهُ ، فإذا ماتَ . . نزلَتْ بهِ ألفُ مصيبةٍ دُفعةً واحدةً ؛ لأنَّهُ كانَ يحبُّ الكلَّ ، وقدْ سُلِبَ مِنهُ ، بلْ هوَ في حياتِهِ علىٰ خطرِ المصيبةِ بالفقرِ والهلاكِ .

حُمِلَ إلىٰ بعضِ الملوكِ قدحٌ مِنْ فيروزجٍ مرصَّعٍ بالجواهرِ لمْ يُرَ لهُ نظيرٌ ، ففرحَ الملكُ بهِ فرحاً شديداً ، فقالَ لبعضِ الحكماءِ عندَهُ : كيفَ ترىٰ هٰذا ؟ قالَ : أراهُ مصيبةً أوْ فقراً ، قالَ : كيفَ ؟ قالَ : إنْ كُسِرَ . . كانَ مصيبةً لا جبرَ لها ، وإنْ سُرِقَ . . صرتَ فقيراً إليهِ ولمْ تجدْ مثلَهُ ، وقدْ كنتَ قبلَ أنْ يُحمَلَ إليكَ في أمنٍ مِنَ المصيبةِ والفقرِ ، ثمَّ اتفقَ أنِ انكسرَ يوماً ، فعظمَتْ مصيبةُ الملكِ عليهِ ، فقالَ : صدقَ الحكيمُ ، ليتَهُ لمْ يُحمَلْ إلينا .

وهٰذا شأنُ جميعِ أسبابِ الدنيا ، فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ لأعداءِ اللهِ ؛ إذْ تسوقُهُمْ إلى النارِ ، وعدوَّةٌ لأولياءِ اللهِ ؛ إذْ تغمُّهُمْ بالصبرِ عنها ، وعدوَّةُ اللهِ ؛ إذْ تقطعُ طريقَهُ علىٰ عبادِهِ ، وعدوَّةُ نفسِها ؛ فإنَّها تأكلُ نفسَها ؛ فإنَّ المالَ لا يُحفظُ إلا بالخزائنِ والحراسِ ، والخزائنُ والحراسُ لا يمكنُ تحصيلُها إلا بالمالِ ، وهوَ بذلُ الدراهمِ والدنانيرِ ، فالمالُ يأكلُ نفسَهُ ويضادُّ ذاتَهُ حتَّىٰ يفنىٰ ، ومَنْ عرفَ آفةَ المالِ . . لمْ يأنسْ بهِ ، ولمْ يفرحْ بهِ ، ولمْ يأخذْ منهُ إلا قدْرَ حاجتِهِ ، ومَنْ قنعَ بقدْرِ الحاجةِ . . لمْ يبخلْ ؛ لأنَّ ما أمسكَهُ لحاجتِهِ فليسَ ببخلٍ ، وما لا يحتاجُ إليهِ فلا يُتعِبُ نفسَهُ بحفظِهِ ، فيبذلُهُ ، بلْ هوَ كالماءِ علىٰ شاطئِ الدجلةِ ؛ إذْ لا يبخلُ بهِ أحدٌ ؛ لقناعةِ الناسِ منهُ بمقدارِ الحاجةِ .

* * *

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلمْ : أنَّ المالَ كما وصفناهُ ؛ خيرٌ مِنْ وجهٍ ، وشرٌّ مِنْ وجهٍ ، ومثالُهُ مثالُ حيَّةٍ يأخذُها الراقي ويستخرجُ مِنْها التِّرياقَ ، ويأخذُها الغافلُ فيقتلُهُ سمُّها مِن حيثُ لا يدري .

ولا يخلو أحدٌ عنْ سُمِّ المالِ إلا بالمحافظةِ علىٰ خمسِ وظائفَ :

الأولىٰ : أنْ يعرفَ مقصودَ المالِ ، وأنَّهُ لماذا خُلقَ ، وأنَّهُ لِمَ يحتاجُ إليهِ ؛ حتَّىٰ لا يكتسبَ ولا يحفظَ منهُ إلا قدْرَ الحاجةِ ، ولا يعطيَهُ مِنْ همَّتِهِ فوقَ ما يستحقُّهُ .

❁ ❁ ❁

الثانيةُ : أنْ يراعيَ جهةَ دخلِ المالِ ، فيجتنبَ الحرامَ المحضَ ، وما الغالبُ عليهِ الحرامُ ؛ كمالِ السلاطينِ ، ويجتنبَ الجهاتِ المكروهةَ القادحةَ في المروءةِ ؛ كالهدايا التي فيها شوائبُ الرشوةِ ، وكالسؤالِ الذي فيهِ الذلُّ وهتكُ المروءةِ ، وما يجري مجراهُ .

❁ ❁ ❁

الثالثةُ : في المقدارِ الذي يكتسبُهُ ، فلا يستكثرُ منهُ ولا يستقلُّ ، بلِ القدْرُ الواجبُ ، ومعيارُهُ الحاجةُ ، والحاجةُ ملبسٌ ومسكنٌ ومطعمٌ ، ولكلٍّ واحدٍ ثلاثُ درجاتٍ ، أدنىٰ وأوسطُ وأعلىٰ ، وما دامَ مائلاً إلىٰ جانبِ القلَّةِ ومتقرِّباً مِنْ حدِّ الضرورةِ . . كانَ محقّاً ، ويجيءُ مِنْ جملةِ المخفِّينَ ، وإنْ جاوزَ ذٰلكَ . . وقعَ في هاويةٍ لا آخرَ لعمقِها ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ هٰذهِ الدرجاتِ في كتابِ الزهدِ .

❁ ❁ ❁

الرابعةُ : أنْ يراعيَ جهةَ المخرجِ ، ويقتصدَ في الإنفاقِ ؛ غيرَ مبذِّرٍ ولا مقتِّرٍ ؛ كما ذكرناهُ ، فيضعُ ما اكتسبَهُ مِنْ حِلِّهِ في حقِّهِ ، ولا يضعُهُ في غيرِ حقِّهِ ، فإنَّ الإثمَ في الأخذِ مِنْ غيرِ حقِّهِ والوضعِ في غيرِ حقِّهِ سواءٌ .

❁ ❁ ❁

الخامسةُ : أنْ يصلحَ نيَّتَهُ في الأخذِ والتركِ ، والإنفاقِ والإمساكِ ، فيأخذَ ما يأخذُ ليستعينَ بهِ على العبادةِ ، ويتركَ ما يتركُ زهداً فيهِ واستحقاراً لهُ ، فإذا فعلَ ذٰلكَ . . لمْ يضرَّهُ وجودُ المالِ .

ولذٰلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ أنَّ رجلاً أخذَ جميعَ ما في الأرضِ وأرادَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ زاهدٌ ، ولوْ أنَّهُ تركَ الجميعَ ولمْ يردْ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . فليسَ بزاهدٍ) .

❁ ❁ ❁

فلتكنْ جميعُ حركاتِكَ وسكناتِكَ للهِ تعالىٰ مقصورةً علىٰ عبادةٍ ، أوْ ما يعينُ على العبادةِ ؛ فإنَّ أبعدَ الحركاتِ عنِ العبادةِ الأكلُ وقضاءُ الحاجةِ ، وهما معينانِ على العبادةِ ، فإذا كانَ ذٰلكَ قصدَكَ بهما . . صارَ ذٰلكَ عبادةً في حقِّكَ ، وكذٰلكَ ينبغي أنْ تكونَ نيَّتُكَ في كلِّ ما تحفظُ ؛ مِنْ قميصٍ وإزارٍ وفراشٍ وآنيةٍ ؛ لأنَّ كلَّ ذٰلكَ ممَّا قدْ يُحتاجُ إليهِ في

الدِّينِ ، وما فضلَ مِنَ الحاجةِ . . ينبغي أنْ يُقصدَ بِهِ أنْ ينتفعَ بهِ عبدٌ مِنْ عبادِ اللهِ ، فلا يمنعُهُ منهُ عندَ حاجتِهِ ، فمَنْ فعلَ ذٰلكَ . . فهوَ الذي أخذَ مِنْ حيَّةِ المالِ جوهرَها وترياقَها واتقىٰ سمَّها ، فلا تضرُّهُ كثرةُ المالِ ، ولٰكنْ لا يتأتىٰ ذٰلكَ إلا لمَنْ رسخَ في الدينِ قدمُهُ ، وعظمَ فيه علمُهُ ، والعاميُّ إذا تشبَّهَ بالعالِمِ في الاستكثارِ مِنَ المالِ ، وزعمَ أنَّهُ يشبهُ أغنياءَ الصحابةِ . . شابهَ الصبيَّ الذي يرى المعزِّمَ الحاذقَ يأخذُ الحيةَ ويتصرَّفُ فيها فيُخرِجُ ترياقَها ، فيقتدي بهِ ، ويظنُّ أنَّهُ أخذَها مستحسناً صورتَها وشكلَها ، ومستليناً جلدَها ، فيأخذُها اقتداءً بهِ ، فتقتلُهُ في الحالِ ، إلا أنَّ قتيلَ الحيةِ يدري أنَّهُ قتيلٌ ، وقتيلُ المالِ قدْ لا يعرفُ ، وقدْ شُبِّهتِ الدُّنيا بالحيَّةِ ، فقيلَ [1] : [من الخفيف]

هِـيَ دُنْـيـا كَـحَـيَّـةٍ تَـنْـفِـثُ الـسُّـمَّ وَإِنْ كـانَـتِ الْـمَـجَـسَّـةُ لانَـتْ

وكما يستحيلُ أنْ يتشبَّهَ الأعمىٰ بالبصيرِ في تخطِّي قُلَلِ الجبالِ ، وأطرافِ البحارِ ، والطرقِ المشوكةِ ؛ فمحالٌ أنْ يتشبَّهَ العاميُّ بالعالِمِ الكاملِ في تناولِ المالِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٧٥) .

بيان ذمّ الغنىٰ ومدح الفقر

اعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في تفضيلِ الغنيِّ الشاكرِ على الفقيرِ الصابرِ ، وقدْ أوردنا ذٰلكَ في كتابِ الفقرِ والزهدِ ، وكشفنا عنْ تحقيقِ الحقِّ فيهِ .

ولـٰكنَّا في هـٰذا الكتابِ ندلُّ علىٰ أنَّ الفقرَ أفضلُ وأعلىٰ مِنَ الغنىٰ على الجملةِ ، مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ تفصيلِ الأحوالِ .

ونقتصرُ فيهِ علىٰ حكايةِ فصلٍ ذكرَهُ الحارثُ المحاسبيُّ رضيَ اللهُ عنهُ في بعضِ كتبِهِ في الردِّ علىٰ بعضِ العلماءِ مِنَ الأغنياءِ ، حيثُ احتجَّ بأغنياءِ الصحابةِ ، وبكثرةِ مالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، وشبَّهَ نفسَهُ بهِمْ ، والمحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ حَبْرُ الأمةِ في علمِ المعاملةِ[1] ، ولهُ السبقُ علىٰ جميعِ الباحثينَ عنْ عيوبِ النفسِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، وأغوارِ العباداتِ ، وكلامُهُ جديرٌ بأنْ يُحكىٰ علىٰ وجهِهِ .

❁ ❁ ❁

وقدْ قالَ بعدَ كلامٍ لهُ في الردِّ علىٰ علماءِ السوءِ :

بلغَنا أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ قالَ : (يا علماءَ السوءِ ؛ تصومونَ ، وتصلُّونَ ، وتصدَّقونَ ، ولا تفعلونَ ما تُؤمرونَ ، وتدرِّسونَ ما لا تعملونَ ، فيا سوءَ ما تحكمونَ ، تتوبونَ بالقولِ والأمانيِّ ، وتعملونَ بالهوىٰ ، وما يغني عنكمْ أنْ تنقُّوا جلودَكُمْ وقلوبُكُمْ دنسةٌ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا تكونوا كالمنخلِ ، يخرجُ منهُ الدقيقُ الطيِّبُ ، وتبقىٰ فيهِ النخالةُ ، كذٰلكَ أنتمْ تخرجونَ الحكمَ مِنْ أفواهِكُمْ ، ويبقى الغلُّ في صدورِكُمْ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ كيفَ يدركُ الآخرةَ مَنْ لا تنقضي مِنَ الدنيا شهوتُهُ ، ولا تنقطعُ منها رغبتُهُ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ قلوبَكُمْ تبكي مِنْ أعمالِكُمْ ، جعلتُمُ الدنيا تحتَ ألسنتِكُمْ ، والأعمالَ تحتَ أقدامِكُمْ .

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : أفسدتُمْ آخرتَكُمْ ، فصلاحُ الدنيا أحبُّ إليكُمْ مِنْ صلاحِ الآخرةِ ، فأيُّ الناسِ أخسرُ منكُمْ لوْ تعلمونَ ؟!

ويلَكُمْ !! حتىٰ متىٰ تَصِفونَ الطريقَ للمدْلِجينَ ، وتقيمونَ في محلِّ المتحيرينَ[2] ؛ كأنَّكُمْ تدعونَ أهلَ الدنيا ليتركوها لكُمْ ؟ مهلاً مهلاً .

ويلَكُمْ !! ماذا يغني عنِ البيتِ المظلمِ أنْ يُوضعَ السراجُ فوقَ ظهرِهِ وجوفُهُ وحِشٌ مظلمٌ ؟! كذٰلكَ لا يغني عنكُمْ أنْ يكونَ نورُ العلمِ بأفواهِكُمْ وأجوافُكُمْ منهُ وحشةٌ معطَّلةٌ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ لا كعبيدٍ أتقياءَ ، ولا كأحرارٍ كرامٍ ، توشكُ الدنيا أنْ تقلعَكُمْ عنْ أُصولِكُمْ ، فتلقيَكُمْ علىٰ وجوهِكُمْ ، ثمَّ تكبَّكُمْ علىٰ مناخرِكُمْ ، ثمَّ تأخذَ خطاياكُمْ بنواصيكُمْ ، ثمَّ يدفعَكُمُ العلمُ مِنْ خلفِكُمْ حتَّىٰ يسلمَكُمْ

---

(١) انظر « الوصايا » (ص ٧٦) ، وفي (ج) : (خير) بدل (حبر) .

(٢) في « الوصايا » : (المتحيّرين) بدل (المتحيّرين) .

إلى الملكِ الديَّانِ عُراةً فُرادىٰ ، فيوقفَكُمْ علىٰ سَوْءاتِكُمْ ثمَّ يجزيَكُمْ بسوءِ أعمالِكُمْ)(١)

❁ ❁ ❁

ثمَّ قالَ الحارثُ رحمَهُ اللهُ :

إخواني ؛ فهـٰؤلاءِ علماءُ السوءِ ، شياطينُ الإنسِ ، وفتنةٌ على الناسِ ، رغبوا في عَرَضِ الدنيا ورفعتِها ، وآثروها على الآخرةِ ، وأذلُّوا الدينَ للدنيا ، فهُمْ في العاجلِ عارٌ وشَينٌ ، وفي الآخرةِ همُ الخاسرونَ أوْ يعفوَ الكريمُ بفضلِهِ .

وبعدُ : فإنّي رأيتُ الهالكَ المؤثرَ للدنيا سرورُهُ ممزوجٌ بالتنغيصِ ، فيتفجَّرُ عنهُ أنواعُ الهمومِ وفنونُ المعاصي ، وإلى التلفِ والبوارِ مصيرُهُ ، فيعودُ فرحُ الهالكِ ترحاً ، فلمْ تبقَ لهُ دنياهُ ، ولمْ يسلَمْ لهُ دينُهُ ، خسرَ الدنيا والآخرةَ ، ذٰلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ .

فيا لها مِنْ مصيبةٍ ما أفظعَها !! ورزيَّةٍ ما أجلَّها !! ألا فراقبوا اللهَ إخواني ، ولا يغرَّنكُمُ الشيطانُ وأولياؤُهُ من الإنسِ بالحججِ الداحضةِ عندَ اللهِ ؛ فإنَّهُمْ يتكالبونَ على الدنيا ، ثمَّ يطلبونَ لأنفسِهِمُ المعاذيرَ والحججَ ، ويزعمونَ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَتْ لهُمْ أموالٌ ، فيتزيَّنُ المغرورونَ بذكرِ الصحابةِ ؛ ليعذرَهُمُ الناسُ علىٰ جمعِ المالِ ، ولقدْ دهاهُمُ الشيطانُ وما يشعرونَ .

ويحَكَ أيُّها المفتونُ !! إنَّ احتجاجَكَ بمالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ مكيدةٌ مِنَ الشيطانِ ينطقُ بها علىٰ لسانِكَ لتهلكَ ؛ لأنَّكَ متىٰ زعمتَ أنَّ أخيارَ الصحابةِ أرادوا المالَ للتكاثرِ والشرفِ والزينةِ . . فقدِ اغتبتَ السادةَ ، ونسبتَهُمْ إلىٰ أمرٍ عظيمٍ !!

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ الحلالِ أعلىٰ وأفضلُ مِنْ تركِهِ . . فقَدْ أزريتَ بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والمرسلينَ ، ونسبتَهُمْ إلىٰ قلّةِ الرغبةِ والزهدِ في هـٰذا الخيرِ الذي رغبتَ فيهِ أنتَ وأصحابُكَ مِنْ جمعِ المالِ ، ونسبتَهُمْ إلى الجهلِ ؛ إذْ لمْ يجمعوا المالَ كما جمعتَ !!

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ الحلالِ أعلىٰ مِنْ تركِهِ . . فقدْ زعمتَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ ينصحِ الأمَّةَ ؛ إذْ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ ، وقدْ علمَ أنَّ جمعَ المالِ خيرٌ للأمةِ ؛ فقدْ غشَّهُمْ بزعمِكَ حينَ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ !!

كذبتَ وربِّ السماءِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ لقدْ كانَ للأمَّةِ ناصحاً ، وعليهِمْ مشفقاً ، وبهِمْ رؤوفاً .

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ أفضلُ . . فقدْ زعمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ ينظرْ لعبادِهِ حينَ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ وقدْ علمَ أنَّ جمعَ المالِ خيرٌ لهُمْ ، أوْ زعمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يعلمْ أنَّ الفضلَ في الجمعِ ؛ فلذٰلكَ نهاهُمْ عنهُ ، وأنتَ عليمٌ بما في المالِ مِنَ الخيرِ والفضلِ ، فلذٰلكَ رغبتَ في الاستكثارِ ؛ كأنَّكَ أعلمُ بموضعِ الخيرِ والفضلِ مِنْ ربِّكَ ، تعالى اللهُ عنْ جهلِكَ .

أيُّها المفتونُ ؛ تدبَّرْ ما دهاكَ بهِ الشيطانُ حينَ زيَّنَ لكَ الاحتجاجَ بمالِ الصحابةِ ، ويحَكَ !! ما ينفعُكَ الاحتجاجُ بمالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ وقدْ ودَّ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ في القيامةِ أنَّهُ لمْ يُؤتَ مِنَ الدنيا إلا قوتاً ؟! ولقدْ بلغَني أنَّهُ لما تُوفيَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ أناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّا نخافُ علىٰ

---

(١) انظر « الوصايا » (ص ٧٤ ـ ٧٦) ، ومجمل أقوال سيدنا عيسىٰ عليه السلام رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/٦٨) ، (٤٦٠/٤٧) .

عبدِ الرحمـٰنِ فيما تركَ ، فقالَ كعبٌ : سبحانَ اللهِ !! وما تخافونَ علىٰ عبدِ الرحمـٰنِ ؟ كسبَ طيباً ، وأنفقَ طيباً ، وتركَ طيباً ، فبلغَ ذٰلكَ أبا ذرٍّ ، فخرجَ مُغضَباً يريدُ كعباً ، فمرَّ بعظمِ لحيِ بعيرٍ ، فأخذَهُ بيدِهِ ، ثمَّ انطلقَ يطلبُ كعباً ، فقيلَ لكعبٍ : إنَّ أبا ذرٍّ يطلبُكَ ، فخرجَ هارباً ، حتَّىٰ دخلَ علىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ يستغيثُ بهِ ، وأخبرَهُ الخبرَ ، وأقبلَ أبو ذرٍّ يقتصُّ الأثرَ في طلبِ كعبٍ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ دارِ عثمانَ ، فلمَّا دخلَ . . قامَ كعبٌ فجلسَ خلفَ عثمانَ هارباً مِنْ أبي ذرٍّ ، فقالَ لَهُ أبو ذرٍّ : هيهِ يا بنَ اليهوديةِ ؛ تزعمُ أنْ لا بأسَ بما تركَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؟! لقدْ خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً نحوَ أحُدٍ وأنا معَهُ ، فقالَ : « يا أبا ذرٍّ » ؛ قلتُ : لبيكَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « الأكثرونَ همُ الأقلُّونَ يومَ القيامةِ ، إلا مَنْ قالَ هٰكذا وهٰكذا عَنْ يمينِهِ وشمالِهِ وقدَّامِهِ وخلفِهِ ، وقليلٌ ما هُمْ » ، ثمَّ قالَ : « يا أبا ذرٍّ » ؛ قلتُ : نعمْ يا رسولَ الله ؛ بأبي أنتَ وأمي ، قالَ : « ما يسرُّني أنَّ لي مثلَ أُحدٍ ذهباً أنفقُهُ في سبيلِ اللهِ ، أموتُ يومَ أموتُ وأتركُ منهُ قيراطينِ » ، قلتُ : أوْ قنطارينِ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « بلْ قيراطانِ » ، ثمَّ قالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ أنتَ تريدُ الأكثرَ وأنا أريدُ الأقلَّ ؟! » ، فرسولُ اللهِ يريدُ هٰذا وأنتَ تقولُ يا بنَ اليهوديةِ : لا بأسَ بما تركَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؟! كذبتَ وكذَبَ مَنْ قالَ ، فلمْ يردَّ عليهِ حرفاً حتَّىٰ خرجَ (١)

وبلغَنا أنَّ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ قدمَتْ عليهِ عيرٌ مِنَ اليمنِ ، فضجَّتِ المدينةُ ضجةً واحدةً ، فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : ما هٰذا ؟ فقيلَ : عيرٌ قدمَتْ لعبدِ الرحمـٰنِ ، قالَتْ : صدقَ اللهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبلغَ ذٰلكَ عبدَ الرحمـٰنِ ، فسألَها ، فقالَتْ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنِّي رأيتُ الجنَّةَ ، فرأيتُ فقراءَ المهاجرينَ والمسلمينَ يدخلونَ سعياً ولمْ أرَ أحداً مِنَ الأغنياءِ يدخُلُها معَهُمْ إلا عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ ، رأيتُهُ يدخلُها معَهُمْ حبواً » ، فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : « إنَّ العيرَ وما عليها في سبيلِ اللهِ ، وإنَّ أرقَّاءَها أحرارٌ ، لعلِّي أدخلُها معَهُمْ سعياً » (٢)

وبلغَنا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ : « أمَا إنَّكَ أوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ مِن أغنياءِ أمَّتي وما كدتَ أنْ تدخلَها إلا حبواً » (٣)

ويحَكَ أيُّها المفتونُ !! فما احتجاجُكَ بالمالِ وهٰذا عبدُ الرحمـٰنِ بن عوفٍ في فضلِهِ وتقواهُ ، وصنائعِهِ المعروفةِ ، وبذلِهِ الأموالَ في سبيلِ اللهِ ، معَ صُحبتِهِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبشراهُ بالجنةِ (٤) . . يُوقَفُ في عرْصَةِ القيامةِ

---

(١) الحديث المرفوع الذي ورد ضمن بلاغ الحارث رحمه الله تعالىٰ رواه البخاري (٦٤٤٤) ، ومسلم (٩٤) ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة ، ولقاء أبي ذر بعثمان رضي الله عنهما وحديثهما عن عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه رواه أحمد في « المسند » (٦٣/١) وفيه : أن أبا ذر جاء يستأذن علىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأذن له وبيده عصاه ، فقال عثمان رضي الله عنه : يا كعب ؛ إن عبد الرحمـٰن توفي وترك مالاً ، فما ترىٰ فيه ؟ فقال : إن كان يصل فهي حق الله . . فلا بأس عليه ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب لو أن لي هٰذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني أذر خلفي منه ست أواق » ، أنشدك الله يا عثمان ؛ أسمعته ؟ ثلاث مرات ، قال : نعم .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١١٥/٦) دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١١/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) ولفظه : « يا بن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً . . . » ، وروىٰ أبو نعيم في « فضائل الخلفاء الراشدين » (١١٩) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « أول من يدخل علينا من أغنياء الجنة عبد الرحمـٰن بن عوف » .

(٤) بشراه صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه بالجنة مع بقية العشرة رواه أبو داوود (٤٦٤٩) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، فضلاً عن الأحاديث التي أوردها المصنف رحمه الله تعالىٰ .

وأهوالِها بسببِ مالٍ كسبهُ مِنْ حلالٍ للتعفُّفِ ، ولصنائعِ المعروفِ ، وأنفقَ منهُ قصداً ، وأعطىٰ في سبيلِ اللهِ سحّاً ، مُنِعَ مِنَ السعيِ إلى الجنةِ معَ فقراءِ المهاجرينَ ، وصارَ يحبو في آثارِهِمْ حبواً !! فما ظنُّكُمْ بأمثالِنا الغرقىٰ في فتنِ الدنيا ؟!

وبعدُ : فالعجبُ كلُّ العجبِ لكلِّ مفتونٍ تمرَّغَ في تخاليطِ الشبهاتِ والسُّحتِ ، وتكالبَ علىٰ أوساخِ الناسِ ، وهوَ يتقلَّبُ في الشهواتِ والزينةِ والمباهاةِ ، ويتقلبُ في فتنِ الدنيا ، ثم يحتجُّ بعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ ، وتزعمُ أنَّكَ إنْ جمعتَ المالَ . . فقدْ جمعَهُ الصحابةُ ؟! كأنَّكَ أشبهتَ السلفَ وفعلَهُمْ ، ويحَكَ !! إنَّ هـٰذا مِنْ قياسِ إبليسَ ، ومِن فُتياهُ لأوليائِهِ .

وسأصفُ لكَ أحوالَكَ وأحوالَ السلفِ ؛ لتعرفَ فضائحَكَ وفضلَ الصحابةِ .

ولعمري ؛ لقدْ كانَ لبعضِ الصحابةِ أموالٌ أرادوها للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ ، فكسبوا حلالاً ، وأكلوا طيباً ، وأنفقوا قصداً ، وقدَّموا فضلاً ، ولمْ يمنعوا منها حقّاً ، ولمْ يبخلوا بها ، لـٰكنَّهُمْ جادوا للهِ بأكثرِها ، وجادَ بعضُهُمْ بجميعِها ، وفي الشدَّةِ آثروا اللهَ علىٰ أنفسِهِمْ كثيراً ، فيا للهِ !! أكذٰلكَ أنتَ ؟! واللهِ ؛ إنَّكَ لبعيدُ الشبهِ بالقومِ .

وبعدُ : فإنَّ أخيارَ الصحابةِ كانوا للمسكنةِ محبّينَ ، ومِنْ خوفِ الفقرِ آمنينَ ، وباللهِ في أرزاقِهِمْ واثقينَ ، وبمقاديرِ اللهِ مسرورينَ ، وفي البلاءِ راضينَ ، وفي الرخاءِ شاكرينَ ، وفي الضرَّاءِ صابرينَ ، وفي السرَّاءِ حامدينَ ، وكانوا للهِ متواضعينَ ، وعنْ حبِّ العلوِّ والتكاثرِ وَرِعينَ ، لمْ ينالوا مِنَ الدنيا إلا المباحَ لهُمْ ، ورضوا بالبُلْغةِ منها ، ورفضوا الدنيا ، وصبروا علىٰ مكارِهِها ، وتجرَّعوا مرارتَها ، وزهدوا في نعيمِها وزهرتِها ، فيا للهِ !! **أكذٰلكَ أنتَ ؟!**

ولقدْ بلغَنا أنَّهُمْ كانوا إذا أقبلَتِ الدنيا عليهِمْ . . حزنوا ، وقالوا : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإذا رأَوُا الفقرَ مقبلاً . . قالوا : مرحباً بشعارِ الصالحينَ (١)

وبلغَنا أنَّ بعضَهُمْ كانَ إذا أصبحَ وعندَ عيالِهِ شيءٌ . . أصبحَ كئيباً حزيناً ، وإذا لمْ يكنْ عندَهُمْ شيءٌ . . أصبحَ فرحاً مسروراً ، فقيلَ لهُ : إنَّ الناسَ إذا لمْ يكنْ عندَهُمْ شيءٌ . . حزنوا ، وإذا كانَ عندَهُمْ شيءٌ . . فرحوا ، وأنتَ لستَ كذٰلكَ ؟! فقالَ : إنّي إذا أصبحتُ وليسَ عندَ عيالي شيءٌ . . فرحتُ ؛ إذْ كانَ لي بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةٌ ، وإذا كانَ عندَ عيالي شيءٌ . . اغتممتُ ؛ إذْ لمْ يكنْ لي بآلِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةٌ .

وبلغَنا أنَّهُمْ كانوا إذا سُلِكَ بهِم سبيلُ الرخاءِ . . حزنوا وأشفقوا ، وقالوا : ما لنا وللدنيا وما يُراد بها ؟ فكأنَّهُمْ علىٰ جناحِ خوفٍ ، وإذا سُلِكَ بِهِمْ سبيلُ البلاءِ . . فرحوا واستبشروا ، وقالوا : الآنَ تعاهدَنا ربُّنا .

فهـٰذهِ أحوالُ السلفِ ونعتُهُمْ ، وفيهِمْ مِنَ الفضلِ أكثرُ ممَّا وصفنا ، فيا للهِ !! أكذٰلكَ أنتَ ؟! إنَّكَ لبعيدُ الشبهِ بالقومِ .

وسأصفُ لكَ أحوالَكَ ـ أيُّها المفتونُ ـ ضدّاً لأحوالِهِمْ ، وذٰلكَ أنَّكَ تطغىٰ عندَ الغنىٰ ، وتبطَرُ في الرخاءِ ، وتمرحُ عندَ السرَّاءِ ، وتغفُلُ عنْ شكرِ ذي النعماءِ ، وتقنطُ عندَ الضرَّاءِ ، وتسخطُ عندَ البلاءِ ، ولا ترضىٰ بالقضاءِ .

نعمْ ؛ وتبغضُ الفقرَ ، وتأنفُ مِنَ المسكنةِ ، وذٰلكَ فخرُ المرسلينَ ، وأنتَ تأنفُ مِنْ فخرِهِمْ ، وتدخرُ المالَ وتجمعُهُ ؛ خوفاً مِنَ الفقرِ ، وذٰلكَ مِنْ سوءِ الظنِّ باللهِ عزَّ وجلَّ وقلَّةِ اليقينِ بضمانِهِ ، وكفىٰ بهِ إثماً .

---

(١) كما روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/٦) عن كعب قال : (إن الرب تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : يا موسىٰ ؛ إذا رأيت الغنىٰ مقبلاً . . فقل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين) ، وقد تقدم .

وعساكَ تجمعُ المالَ لنعيمِ الدنيا وزهرتِها ، وشهواتِها ولذَّاتِها ، ولقد بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ غُذوا بالنعيمِ ونبتَتْ عليهِ أجسامُهُمْ »(١)

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : ليجيئنَّ يومَ القيامةِ قومٌ يطلبونَ حسناتٍ لهُمْ ، فيُقالُ لهُمْ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ ، وأنتَ في غفلةٍ قدْ حُرِمتَ نعيمَ الآخرةِ بسببِ نعيمِ الدنيا ، فيا لَها حسرةً ومصيبةً !!

نعمْ ؛ وعساكَ تجمعُ المالَ للتكاثرِ والعلوِّ والفخرِ والزينةِ في الدنيا ، وقدْ بلغَنا أنَّ مَنْ طلبَ الدنيا للتكاثرِ أوْ للتفاخرِ . . لقيَ اللهَ وهوَ عليهِ غضبانُ(٢) ، وأنتَ غيرُ مكترثٍ بما حلَّ بكَ مِنْ غضبِ اللهِ حينَ أردتَ التكاثرَ والعلوَّ .

نعمْ ؛ وعساكَ المكثُ في الدنيا أحبُّ إليكَ مِنَ النُّقلةِ إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ ؟! وأنتَ تكرهُ لقاءَ اللهِ ، واللهُ للقائِكَ أكرَهُ ، وأنتَ في غفلةٍ .

وعساكَ تأسفُ علىٰ ما فاتَكَ مِنْ عرضِ الدنيا ، وقدْ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَن أَسِفَ علىٰ دُنيا فاتَتْهُ . . اقترَبَ مِنَ النارِ مسيرةَ شهرٍ ، وقيلَ : سنةٍ »(٣) ، وأنتَ تأسفُ علىٰ ما فاتَكَ غيرَ مكترثٍ بقربِكَ مِنْ عذابِ اللهِ .

نعمْ ؛ ولعلَّكَ تخرجُ مِنْ دينِكَ أحياناً لتوفيرِ دنياكَ ، وتفرحُ بإقبالِ الدنيا عليكَ ، وترتاحُ لذٰلكَ سروراً بها ، وقدْ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ أحبَّ الدنيا وسُرَّ بها . . ذهبَ خوفُ الآخرةِ مِنْ قلبِهِ »(٤)

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : إنَّكَ مُحاسبٌ على التحزُّنِ علىٰ ما فاتَكَ مِنَ الدنيا ، ومُحاسبٌ بفرحِكَ في الدنيا إذا قدَرتَ عليها ، وأنت فرحٌ بدنياكَ وقدْ سُلبتَ الخوفَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وعساكَ تُعنىٰ بأمورِ دُنياكَ أضعافَ ما تُعنىٰ بأمورِ آخرتِكَ ، **وعساكَ** ترىٰ أنَّ مصيبتَكَ في معاصيكَ أهونُ مِنْ مصيبتِكَ في انتقاصِ دُنياكَ .

نعمْ ؛ وخوفَكَ مِنْ ذهابِ مالِكَ أكثرُ مِنْ خوفِكَ مِنَ الذنوبِ .

وعساكَ تبذلُ للناسِ ما جمعتَ مِنَ الأوساخِ كلِّها للعلوِّ والرفعةِ في الدنيا ، وعساكَ تُرضي المخلوقينَ بمساخطِ اللهِ تعالىٰ كيما تُكرَّمَ وتُعظَّمَ .

ويحَكَ !! فكأنَّ احتقارَ اللهِ تعالىٰ لكَ في القيامةِ أهونُ عليكَ مِن احتقارِ الناسِ إيَّاكَ .

وعساكَ تخفي مِنَ المخلوقينَ مساوئَكَ ولا تكترثُ باطلاعِ اللهِ عليكَ فيها ، فكأنَّ الفضيحةَ عندَ اللهِ تعالىٰ أهونُ عليكَ مِنَ الفضيحةِ عندَ الناسِ ، فكأنَّ العبيدَ أعلىٰ عندَكَ قدراً مِنَ اللهِ ، تعالى اللهُ عنْ جهلِكَ !!

فكيفَ تنطقُ عندَ ذوي الألبابِ وهٰذهِ المثالبُ فيكَ ؟! أفٍّ لكَ ، متلوِّثٌ بالأقذارِ وتحتجُّ بمالِ الأبرارِ ؟!

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٨/٥) من حديث السيدة فاطمة رضي الله عنها ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٠٧/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٠/٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٩/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رويناه في كتاب « القربة » لأبي حفص العتكي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال : « مسيرة ألف سنة » ، وإسناده ضعيف ، ورويناه في الجزء الثاني عشر من « فوائد الخلعي » من هٰذا الوجه) . « إتحاف » (٢١٩/٨) ، وذكره المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦١٤٧) وعزاه للرازي في مشيخته عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) قد رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٦٩) عن الحسن ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٩/٧) عن سفيان الثوري ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده إلا بلاغاً للحارث بن أسد كما ذكره المصنف عنه) . « إتحاف » (٢١٩/٨) .

هيهاتَ هيهاتَ !! ما أبعدَكَ مِنَ السلفِ الأخيارِ !! واللهِ ؛ لقدْ بلغَني أنَّهُمْ كانوا فيما أُحلَّ لهُمْ أزهدَ منكُمْ فيما حُرِّمَ عليكُمْ ، إنَّ الذي لا بأسَ بهِ عندَكُمْ كانَ مِنَ الموبقاتِ عندَهُمْ[1] ، وكانوا للزَّلَّةِ الصغيرةِ أشدَّ استعظاماً منكُمْ لكبائرِ المعاصي ، فليتَ أطيبَ مالِكَ وأحلَّهُ مثلُ شبهاتِ أموالِهِمْ ، وليتَكَ أشفقتَ مِن سيئاتِكَ كما أشفقوا مِنْ حسناتِهِمْ !! ألا تُقبلَ منهُمْ ، وليتَ صومَكَ علىٰ مثلِ إفطارِهِمْ ، وليتَ اجتهادَكَ في العبادةِ مثلُ فتورِهِمْ ونومِهِمْ ، وليتَ جميعَ حسناتِكَ مثلُ واحدةٍ مِنْ حسناتِهِمْ ، وقدْ بلغَني عنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : (غنيمةُ الصدِّيقينَ ما فاتَهُمْ مِنَ الدنيا ، ونهمتُهُمْ ما زُوِيَ عنهُمْ مِنْها ، فمَنْ لمْ يكنْ كذٰلكَ . . فليسَ معَهُمْ في الدنيا ، ولا معَهُمْ في الآخرةِ) .

فسبحانَ اللهِ !! كمْ بينَ الفريقينِ مِنَ التفاوتِ ، فريقُ خيارِ الصحابةِ في العلوِّ عندَ اللهِ ، وفريقُ أمثالِكُمْ في السفالةِ[2] أوْ يعفوَ اللهُ الكريمُ بفضلِهِ .

وبعدُ : فإنَّكَ إنْ زعمتَ أنَّكَ متأسٍّ بالصحابةِ بجمعِ المالِ للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ . . فتدبرْ أمرَكَ .

ويحَكَ !! هلْ تجدُ مِنَ الحلالِ في دهرِكَ كما وجدوا في دهرِهِمْ ؟ أوَتحسبُ أنَّكَ محتاطٌ في طلبِ الحلالِ كما احتاطوا ؟!

لقدْ بلغَني أنَّ بعضَ الصحابةِ قالَ : (كنَّا ندعُ سبعينَ باباً مِنَ الحلالِ مخافةَ أنْ نقعَ في بابٍ مِنَ الحرامِ)[3] ، أفتطمعُ مِنْ نفسِكَ في مثلِ هٰذا الاحتياطِ ؟! لا وربِّ الكعبةِ ؛ ما أحسبُكَ كذٰلكَ .

ويحَكَ !! كنْ علىٰ يقينٍ أنَّ جمعَ المالِ لأعمالِ البرِّ مكرٌ مِنَ الشيطانِ ؛ ليوقعَكَ بسببِ البرِّ في اكتسابِ الشبهاتِ الممزوجةِ بالسحتِ والحرامِ ، وقدْ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنِ اجترأَ على الشبهاتِ . . أوشكَ أنْ يقعَ في الحرامِ »[4]

أيُّها المغرورُ ؛ أما علمتَ أنَّ خوفَكَ مِنِ اقتحامِ الشبهاتِ أعلىٰ وأفضلُ وأعظمُ لقدْرِكَ عندَ اللهِ مِنِ اكتسابِ الشبهاتِ وبذلِها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ وسبيلِ البرِّ ؟ بلغَنا ذٰلكَ عنْ بعضِ أهلِ العلمِ ، قالَ : (لأنْ تدعَ درهماً واحداً مخافةَ ألا يكونَ حلالاً خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تتصدَّقَ بألفِ دينارٍ مِنْ شبهةٍ لا تدري أيحلُّ لكَ أمْ لا) .

فإنْ زعمتَ أنَّكَ أتقىٰ وأورعُ مِنْ أنْ تتلبَّسَ بالشبهاتِ ، وإنَّما تجمعُ المالَ بزعمِكَ مِنَ الحلالِ للبذلِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، ويحَكَ !! إنْ كنتَ كما زعمتَ بالغاً في الورعِ . . فلا تتعرضْ للحسابِ ؛ فإنَّ خيارَ الصحابةِ خافوا المسألةَ ، وقدْ بلغَنا أنَّ بعضَ الصحابةِ قالَ : (ما سرَّني أنْ أكتسبَ كلَّ يومٍ ألفَ دينارٍ مِنْ حلالٍ وأنفقَها في طاعةِ اللهِ ، ولمْ يشغلْني الكسبُ عنْ صلاةِ الجماعةِ ، قالوا : ولمَ ذٰلكَ رَحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : لأنِّي غنيٌّ عنْ مقامِ يومَ القيامةِ ، فيقولُ : عبدي ؛ مِنْ أينَ اكتسبتَ ؟ وفي أيِّ شيءٍ أنفقتَ ؟)[5]

---

(١) ففي « القوت » (٢٥٥/١) عن الحسن : (رأيت سبعين بدرياً كانوا ـ والله ـ فيما أحل الله تعالىٰ لهم أزهد منكم فيما حرم الله تعالىٰ عليكم) .

(٢) وعبارة الإمام المحاسبي : (فريق مع خيار الصحابة . . . ، وفريق مع أمثالهم في الأسفلين) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢١٠) عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري (٢٠٥١) ولفظه عنده : (ومن اجترأ علىٰ ما يشك فيه من الإثم . . أوشك أن يواقع ما استبان) ، ومسلم (١٥٩٩) بنحوه ، وقد تقدم .

(٥) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٩/١) عن عمرو بن مرة قال : قال أبو الدرداء : بعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنا تاجر ، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا ، فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة ، والذي نفس أبي الدرداء بيده ؛ ما أحب أن لي اليوم حانوتاً علىٰ باب المسجد لا يخطئني فيه صلاة ، أربح فيه كل يوم أربعين ديناراً وأتصدق بها كلها في سبيل الله ، قيل له : يا أبا الدرداء ؛ وما تكره من ذٰلك ؟ قال : شدة الحساب .

فهـٰؤلاءِ المتقونَ كانوا في جدَّةِ الإسلامِ[1] ، والحلالُ موجودٌ لديهِمْ . . تركوا المالَ وجلاً مِنَ الحسابِ ؛ مخافةَ ألا يقومَ خيرُ المالِ بشرِّهِ ، وأنتَ مِنْ نفايةِ الأمةِ ، والحلالُ في دهرِكَ مفقودٌ . . تتكالبُ على الأوساخِ ، ثمَّ تزعمُ أنَّكَ تجمعُ المالَ مِنَ الحلالِ ، ويحَكَ !! وأينَ الحلالُ فتجمعَهُ ؟!

وبعدُ : فلوْ كانَ الحلالُ موجوداً لديكَ . . أما تخافُ أنْ يتغيَّرَ عندَ الغنىٰ قلبُكَ ؟ وقدْ بلغَنا أنْ بعضَ الصحابةِ كانَ يرثُ المالَ الحلالَ فيتركُهُ ؛ مخافةَ أنْ يفسِدَ قلبَهُ ، أفتطمعُ أنْ يكونَ قلبُكَ أتقىٰ مِنْ قلوبِ الصحابةِ ، فلا يزولَ عن شيءٍ مِنَ الحقِّ في أمرِكَ وأحوالِكَ ؟! لئنْ ظَننتَ ذٰلكَ . . لقدْ أحسنتَ الظنَّ بنفسِكَ الأمَّارةِ بالسوءِ .

ويحَكَ !! إنِّي لكَ ناصحٌ ، أرىٰ لكَ أنْ تقنعَ بالبُلْغةِ ، ولا تجمعَ المالَ لأعمالِ البرِّ ، ولا تتعرَّضَ للحسابِ ، فإنَّهُ بلغَنا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ نُوقِشَ الحسابَ . . عُذِّبَ »[2] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ برجلٍ يومَ القيامةِ وقدْ جمعَ مالاً مِنْ حرامٍ ، فأنفقَهُ في حرامٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ، ويُؤتىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً مِنْ حلالٍ وأنفقَهُ في حرامٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ، ويُؤتَىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً مِنْ حرامٍ وأنفقَهُ في حلالٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ؛ ويُؤتىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً مِنْ حلالٍ وأنفقَهُ في حلالٍ ؛ فيُقالُ لهُ : قفْ ؛ لعلَّكَ أضررتَ في طلبِ هـٰذا بشيءٍ ممَّا فرضتُ عليكَ ؛ مِنْ صلاةٍ لمْ تصلِّها لوقتِها ، أوْ فرَّطتَ في شيءٍ مِنْ ركوعِها وسجودِها ووضوئِها ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ كسبتُ مِنْ حلالٍ وأنفقتُ في حلالٍ ، ولمْ أضيِّعْ شيئاً ممَّا فرضتَ عليَّ ، فيُقالُ : لعلَّكَ اختلتَ في هـٰذا المالِ في شيءٍ مِنْ مركبٍ أوْ ثوبٍ باهيتَ بهِ ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ لمْ أختلْ ، ولمْ أباهِ في شيءٍ ، فيُقالُ : لعلَّكَ منعتَ حقَّ أحدٍ أمرتُكَ أنْ تعطيَهُ مِنْ ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكينِ وابنِ السبيلِ ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ كسبتُ مِنْ حلالٍ ، وأنفقتُ في حلالٍ ، ولمْ أضيِّعْ شيئاً ممَّا فرضتَ عليَّ ، ولمْ أختلْ ، ولمْ أُباهِ ، ولمْ أمنعْ حقَّ أحدٍ أمرتَني أنْ أعطيَهُ ، قالَ : فيجيءُ أولـٰئكَ فيخاصمونَهُ ، فيقولونَ : يا ربِّ ؛ أعطيتَهُ وأغنيتَهُ ، وجعلتَهُ بينَ أظهرِنا ، وأمرتَهُ أنْ يعطيَنا ، فإنْ كانَ أعطاهُمْ ، وما ضيَّعَ معَ ذٰلكَ شيئاً مِنَ الفرائضِ ، ولمْ يختلْ في شيءٍ . . فيُقالُ : قفِ الآنَ ، هاتِ شكرَ كلِّ نعمةٍ أنعمتُها عليكَ مِنْ أكلةٍ أوْ شربةٍ أوْ لذَّةٍ ، فلا يزالُ يُسألُ »[3]

ويحَكَ !! فمَنِ الذي يتعرَّضُ لهـٰذهِ المساءلةِ التي كانَتْ لهـٰذا الرجلِ الذي تقلَّبَ في الحلالِ ، وقامَ بالحقوقِ كلِّها ، وأدَّى الفرائضَ بحدودِها ؛ حُوسِبَ هـٰذهِ المحاسبةَ ؟! فكيفَ تراهُ يكونُ حالُ أمثالِنا ؛ الغرقىٰ في فتنِ الدنيا وتخاليطِها وشبهاتِها وشهواتِها وزينتِها ؟!

ويحَكَ !! لأجلِ هـٰذه المساءلةِ يخافُ المتقونَ أنْ يتلبَّسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفافِ منها ، وعملوا بأنواعِ البرِّ مِنْ كسبِ المالِ ، فلكَ ـ ويحَكَ ـ بهـٰؤلاءِ الأخيارِ أسوةٌ ، فإنْ أبيتَ ذٰلكَ ، وزعمتَ أنَّكَ بالغٌ في الورعِ والتقوىٰ ، ولمْ تجمعِ المالَ إلا مِنْ حلالٍ ـ بزعمِكَ ـ للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ ، ولمْ تنفقْ شيئاً مِنَ الحلالِ إلا بحقٍّ ، ولمْ يتغيَّرْ بسببِ المالِ قلبُكَ عمَّا يحبُّ اللهُ ، ولمْ تسخطِ اللهَ في شيءٍ مِنْ سرائرِكَ وعلانيتِكَ .

ويحَكَ !! فإنْ كنتَ كذٰلكَ ـ ولستَ كذٰلكَ ـ فقدْ ينبغي لكَ أنْ ترضىٰ بالبُلْغةِ ، وتعتزلَ ذوي الأموالِ إذا وُقفوا للسؤالِ ،

---

(١) أي : في أوّله ونشاطه . « إتحاف » (٢٢١/٨) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

(٣) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٨٦) ، قال الحافظ العراقي : (الحديث بطوله لم أقف له على أصل) . « إتحاف » (٢٢١/٨) .

وتسبقَ معَ الرعيلِ الأوَّلِ في زمرةِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا حبسَ عليكَ للمساءلةِ والحسابِ ، فإمَّا سلامةٌ وإمَّا عطبٌ ، فإنَّهُ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يدخلُ صعاليكُ المهاجرينَ قبلَ أغنيائِهِمُ الجنَّةَ بخمسِ مئةِ عامٍ »[1] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدخلُ فقراءُ المؤمنينَ الجنَّةَ قبلَ أغنيائِهِمْ ، فيتمتعونَ ويأكلونَ ، والآخرونَ جثاةٌ علىٰ ركبِهِمْ ، فيقولُ اللهُ : قبلكُمْ طَلِبتي ، أنتُمْ حكَّامُ النَّاسِ وملوكُهُمْ ، فأروني ماذا صنعتُمْ فيما أعطيتُكُمْ ؟ »[2] .

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : ما يسرُّني أنَّ لي حمرَ النَّعمِ ولا أكونُ في الرعيلِ الأوَّلِ معَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحزبِهِ[3] .

يا قومِ ؛ فاستبقوا السباقَ معَ المخفِّينَ في زمرةِ المرسلينَ ، وكونوا وَجِلينَ مِنَ التخلُّفِ والانقطاعِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كما وجِلَ المتقونَ .

وقدْ بلغَنا أنَّ بعضَ الصحابةِ عطشَ فاستسقىٰ ، فأُتيَ بشربةٍ مِنْ ماءٍ وعسلٍ ، فلمَّا ذاقَهُ . . خنقَتْهُ العَبرةُ ، ثمَّ بكىٰ وأبكىٰ ، ثمَّ مسحَ الدموعَ عنْ وجهِهِ ، وذهبَ ليتكلَّمَ ، فعادَ في البكاءِ ، فلمَّا أكثرَ البكاءَ . . قيلَ لهُ : أكلُّ هـٰذا مِنْ أجلِ هـٰذهِ الشربةِ ؟ قالَ : نعمْ ، بينا أنا يوماً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما معَهُ في البيتِ أحدٌ غيري ، فجعلَ يدفعُ عنْ نفسِهِ ويقولُ : « إليكِ عنِّي » ، فقلتُ لهُ : فداكَ أبي وأمِّي ؛ ما أرىٰ بينَ يديكَ أحداً ، فمَنْ تخاطبُ ؟ فقالَ : « هـٰذهِ الدنيا تطاولَتْ إليَّ بعنُقِها ورأسِها ، فقالَتْ لي : يا محمَّدُ ؛ خذْني ، فقلتُ : إليكِ عنِّي ، فقالَتْ : إنْ تنجُ منِّي يا محمدُ . . فإنَّهُ لا ينجو منِّي مَنْ بعدَكَ » ، فأخافُ أنْ تكونَ هـٰذهِ قدْ لحقَتْني تقطعُني عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4] .

يا قومِ ؛ فهـٰؤلاءِ الأخيارُ بكَوا وجلاً أنْ تقطعَهُمْ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شربةٌ مِنْ حلالٍ .

ويحَكَ !! أنتَ في أنواعِ النعمِ والشهواتِ مِنْ مكاسبِ السُّحتِ والشبهاتِ لا تخشى الانقطاعَ ، أفٍّ لكَ ما أعظمَ جهلَكَ !!

ويحَكَ !! فإنْ تخلفتَ في القيامةِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محمدٍ المصطفىٰ . . لتنظرَنَّ إلىٰ أهوالٍ جزعَتْ مِنْها الملائكةُ والأنبياءُ ، ولئنْ قصَّرتَ عنِ السباقِ . . فليطولَنَّ عليكَ اللَّحاقُ ، ولئنْ أردتَ الكثيرَ . . لتصيرَنَّ إلىٰ حسابٍ عسيرٍ ، ولئنْ لمْ تقنعْ بالقليلِ . . لتصيرَنَّ إلىٰ وقوفٍ طويلٍ ، وصراخٍ وعويلٍ ، ولئنْ رضيتَ بأحوالِ المتخلفينَ . . لتنقطعَنَّ عنْ أصحابِ اليمينِ ، وعنْ رسولِ ربِّ العالمينَ ، ولتبطئَنَّ عنْ نعيمِ المتنعِّمينَ ، ولئنْ خالفتَ أحوالَ المتقينَ . . لتكونَنَّ مِنَ المحتبسينَ في أهوالِ يومِ الدينِ ، فتدبَّرْ ـ ويحَكَ ـ ما سمعتَ .

وبعدُ : فإنْ زعمتَ أنَّكَ في مثلِ خيارِ السلفِ ؛ قَنِعٌ بالقليلِ ، زاهدٌ في الحلالِ ، بذولٌ لمالِكَ ، مؤثرٌ علىٰ نفسِكَ ،

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٦) ولفظه : « أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذاك خمس مئة سنة » .

(٢) الحديث بهـٰذا اللفظ وتمامه أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٨٨) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٢٢٢/٨) ، وصدره وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم » رواه الترمذي (٢٣٥٤) وزاد : « بنصف يوم ، وهو خمس مئة عام » ، وروىٰ أحمد في « الزهد » (١٦٤٨) عن الحسن قوله : (يحشر الأمراء والأغنياء ، فيقول لهم : إنكم كنتم حكام المسلمين ، وأهل الغنىٰ قبلكم طلبتي) ، وفي (ج) : (مثلكم) بدل (قبلكم) .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٢٢/٨) : (رواه صاحب « القوت » عن سعيد بن عامر ، عن جذيم رضي الله عنه نحوه) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٩/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) ، وصاحب الخبر هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه .

لا تخشى الفقرَ ، ولا تدَّخرُ شيئاً لغدِكَ ، مبغضٌ للتكاثرِ والغنىٰ ، راضٍ بالفقرِ والبلا ، فرحٌ بالقلَّةِ والمسكنةِ ، مسرورٌ بالذُّلِّ والضَّعةِ ، كارهٌ للعلوِّ والرفعةِ ، قويٌّ في أمرِكَ ، لا يتغيَّرُ عنِ الرشدِ قلبُكَ ، قدْ حاسبتَ نفسَكَ في اللهِ ، وأحكمتَ أمورَكَ كلَّها علىٰ ما وافقَ رضوانَ اللهِ ، ولنْ تُوقفَ في المسألةِ ولا يُحاسبُ مثلُكَ مِنَ المتقينَ ، وإنَّما تجمعُ المالَ الحلالَ للبذلِ في سبيلِ اللهِ . . ويحَكَ أيُّها المغرورُ !! فتدبَّرِ الأمرَ ، وأحسنِ النظرَ ، أما علمتَ أنَّ تركَ الاشتغالِ بالمالِ ، وفراغَ القلبِ للذكرِ والتذكُّرِ والتذكارِ ، والفكرِ والاعتبارِ . . أسلمُ للدِّينِ ، وأيسرُ للحسابِ ، وأخفُّ للمساءلةِ ، وآمنُ منْ روعاتِ القيامةِ ، وأجزلُ للثوابِ ، وأعلىٰ لقدْرِكَ عندَ اللهِ تعالىٰ أضعافاً ؟!

بلغَنا عن بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : (لوْ أنَّ رجلاً في حجرِهِ دنانيرُ يعطيها والآخرُ يذكرُ اللهَ تعالىٰ . . لكانَ الذاكرُ أفضلَ)[1]

وسُئلَ بعضُ أهلِ العلمِ عنِ الرجلِ يجمعُ المالَ لأعمالِ البرِّ ، قالَ : تركُهُ أبرُّ بهِ[2]

وبلغَنا أنَّ بعضَ خيارِ التابعينَ سُئلَ عنْ رجلينِ : أحدُهُما طلبَ الدنيا حلالاً فأصابَها ، فوصلَ بها رحمَهُ ، وقدَّمَ لنفسِهِ .

وأمَّا الآخرُ . . فإنَّهُ جانبَها ، فلمْ يطلبْها ولمْ يبذُلْها ، فأيُّهما أفضلُ ؟ فقالَ : بعيدٌ واللهِ ما بينَهُما ، الذي جانبَها أفضلُ ؛ كما بينَ مشارقِ الأرضِ ومغاربِها[3]

ويحَكَ !! فهٰذا الفضلُ لكَ بتركِ الدنيا علىٰ مَنْ طلبَها ، ولكَ في العاجلِ إنْ تركتَ الاشتغالَ بالمالِ أنَّ ذٰلكَ أروحُ لبدنِكَ ، وأقلُّ لتعبِكَ ، وأنعمُ لعيشِكَ ، وأرضىٰ لبالِكَ ، وأقلُّ لهمومِكَ ، فما عذرُكَ في جمعِ المالِ وأنتَ بتركِ المالِ أفضلُ ممَّنْ طلبَ المالَ لأعمالِ البرِّ ؟!

نعمْ ؛ وشغلُكَ بذكرِ اللهِ أفضلُ مِنْ بذلِ المالِ في سبيلِ اللهِ ، فاجتمعَ لكَ راحةُ العاجلِ معَ السلامةِ والفضلِ في الآجلِ .

وبعدُ : فلوْ كانَ في جمعِ المالِ فضلٌ عظيمٌ . . لوجبَ عليكَ في مكارمِ الأخلاقِ أنْ تتأسَّىٰ بنبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ هداكَ اللهُ بهِ ، وترضىٰ ما اختارَهُ لنفسِهِ مِنْ مجانبةِ الدنيا .

ويحَكَ !! تدبَّرْ ما سمعتَ ، وكنْ علىٰ يقينٍ أنَّ السعادةَ والفوزَ في مجانبةِ الدنيا ، فسرْ معَ لواءِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سابقاً إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ ؛ فإنَّهُ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ساداتُ المؤمنينَ في الجنَّةِ مَنْ إذا تغدَّىٰ . . لمْ يجدْ عشاءً ، وإذا استقرضَ . . لمْ يجدْ قرضاً ، وليسَ لهُ فضلُ كسوةٍ إلا ما يواريهِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ أنْ يكتسبَ ما يغنيهِ ، يمسي معَ ذٰلكَ ويصبحُ راضياً عنْ ربِّهِ ، ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ »[4]

ألا يا أخي ؛ متىٰ جمعتَ هٰذا المالَ مِنْ بعدِ هٰذا البيانِ . . فإنَّكَ مبطلٌ فيما ادعيتَ أنَّكَ للبرِّ والفضلِ تجمعُهُ .

لا ؛ ولٰكنَّكَ خوفاً مِنَ الفقرِ تجمعُهُ ، وللتنعُّمِ والزينةِ والتكاثرِ والفخرِ والعلوِّ والرياءِ والسمعةِ والتعظُّمِ والتكرُّمِ تجمعُهُ ، ثمَّ تزعمُ أنَّكَ لأعمالِ البرِّ تجمعُ المالَ !! ويحَكَ !! راقبِ اللهَ واستحي مِنْ دعواكَ أيُّها المغرورُ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٣/٢) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٢٤/٨) : (رواه صاحب « القوت » عن الحسن) .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٢٤/٨) : (رواه صاحب « القوت » عن الحسن) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٩/٧) ضمن حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ويحَكَ !! إنْ كنتَ مفتوناً بحبِّ المالِ والدنيا . . فكنْ مقرّاً أنَّ الخيرَ والفضلَ في الرِّضا بالبُلغةِ ومجانبةِ الفضولِ .

نعمْ ؛ وكنْ عندَ جمعِ المالِ مزرياً علىٰ نفسِكَ ، معترفاً بإساءتِكَ ، وجِلاً مِنَ الحسابِ ، فذٰلكَ أنجىٰ لكَ ، وأقربُ إلى الفضلِ مِنْ طلبِ الحججِ لجمعِ المالِ .

إخواني ؛ اعلموا أنَّ دهرَ الصحابةِ كانَ الحلالُ فيهِ موجوداً ، وكانوا معَ ذٰلكَ مِنْ أورعِ الناسِ وَأزهدِهِمْ في المباحِ ، ونحنُ في دهرِ الحلالُ فيه مفقودٌ ، فكيفَ لنا مِنَ الحلالِ بمبلغِ القوتِ وسترِ العورةِ ؟! فأمَّا جمعُ المالِ في دهرِنا . . فأعاذَنا اللهُ وإيَّاكُمْ مِنْ ذٰلكَ .

وبعدُ : فأينَ لنا بمثلِ تقوى الصحابةِ وورعِهِمْ ، ومثلِ زهدِهِمْ واحتياطِهِمْ ؟! وأينَ لنا مثلُ ضمائرِهِمْ وحسنِ نياتِهِمْ ؟! دُهينا ـ وربِّ السماءِ ـ بأدواءِ النفوسِ وأهوائِها ، وعنْ قريبٍ يكونُ الورودُ ، فيا لسعادةِ المخفِّينَ يومَ النشورِ ، وحزنٌ طويلٌ لأهلِ التكاثرِ والتخاليطِ ، وقدْ نصحتُ لكُمْ إنْ قبلتُمْ ، والقابلونَ لهٰذا قليلٌ ، وفَّقَنا اللهُ وإياكُمْ لكلِّ خيرٍ برحمتِهِ .

هٰذا آخرُ كلامِهِ ، وفيهِ كفايةٌ في إظهارِ فضلِ الفقرِ على الغنىٰ ، ولا مزيدَ عليهِ[1] ، ويشهدُ لذٰلكَ جميعُ الأخبارِ التي أوردناها في كتابِ ذمِّ الدنيا ، وفي كتابِ الفقرِ والزهدِ .

ويشهدُ لهُ أيضاً ما رُوِيَ عنْ أبي أمامةَ الباهليِّ : أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً ، قالَ : « يا ثعلبةُ ؛ قليلٌ تؤدِّي شكرَهُ خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تطيقُهُ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً ، قالَ : « يا ثعلبةُ ؛ أما لكَ فيَّ أسوةٌ ؟ أما ترضىٰ أنْ تكونَ مثلَ نبيِّ اللهِ ؟ أما والذي نفسِي بيدِهِ ؛ لوْ شئتُ أنْ تسيرَ معيَ الجبالُ ذهباً وفضةً . . لسارَتْ » ، قالَ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ لئنْ دعوتَ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً . . لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ولأفعلَنَّ ولأفعلَنَّ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ ارزقْ ثعلبةَ مالاً » .

فاتخذَ غنماً ، فنمَتْ كما ينمو الدودُ ، فضاقَتْ عليهِ المدينةُ ، فتنحَّىٰ عنها ، ونزلَ وادياً مِنْ أوديتِها ، حتَّىٰ جعلَ يصلِّي الظهرَ والعصرَ في الجماعةِ ، ويدعُ ما سواهُما ، ثمَّ نمَتْ وكثرَتْ ، فتنحَّىٰ وتركَ الصلاةَ في الجماعةِ إلا الجمعةَ وهيَ تنمو كما ينمو الدودُ ، حتَّىٰ تركَ الجمعةَ ، وطفقَ يلقى الركبانَ يومَ الجمعةِ يسألُهُمْ عنِ الأخبارِ في المدينةِ .

وسألَ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ما فعلَ ثعلبةُ بنُ حاطبٍ ؟ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ اتخذَ غنماً ، فضاقَتْ عليهِ المدينةُ ، وأُخبرَ بأمرِهِ كلِّهِ ، فقالَ : « يا ويحَ ثعلبةَ ، يا ويحَ ثعلبةَ ، يا ويحَ ثعلبةَ » .

قالَ : وأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ ، وأنزلَ اللهُ تعالىٰ فرائضَ الصدقةِ ، فبعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً مِنْ جهينةَ ورجلاً مِنْ بني سليمٍ على الصدقةِ ، وكتبَ لهُما كتاباً بأخذِ الصدقةِ[2] ، وأمرَهُما أنْ يخرجا فيأخذا الصدقةَ مِنَ المسلمينَ ، وقالَ : « مرَّا بثعلبةَ بنِ حاطبٍ وبفلانٍ ـ رجلٍ مِنْ بني سليمٍ ـ وخُذا صدقاتِهِما » .

فخرجا حتَّىٰ أتيا ثعلبةَ ، فسألاهُ الصدقةَ ، وأقرأاهُ كتابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : ما هٰذهِ إلا جزيةٌ ، ما هٰذهِ إلا أختُ الجزيةِ ، انطلقا حتَّىٰ تفرغا ثمَّ تعودا إليَّ ، فانطلقا نحوَ السليميِّ ، فسمعَ بهِما ، فقامَ إلىٰ خيارِ أسنانِ

---

(١) انظر « الوصايا » (ص ٧٦ ـ ٩٣) للإمام الحارث المحاسبي الذي بدأ النقل عنه (ص ٤٥٣) .

(٢) بيَّن فيه أسنان الإبل والغنم . « إتحاف » (٨/٢٢٥) .

إبلِهِ ، فعزلَها للصدقةِ ، ثمَّ استقبلَهُما بها ، فلمَّا رأياهُ . . قالا : لا يجبُ عليكَ هٰذا ، وما نريدُ أنْ نأخذَ هٰذا منكَ ، قالَ : بلىٰ ، خُذاها ، نفسي بها طيِّبةٌ ، وإنَّما هيَ لتأخذاها .

فلمَّا فرغا مِنْ صدقاتِهِما . . رجعا حتَّىٰ مرَّا بثعلبةَ ، فسألاهُ الصدقةَ ، فقالَ : أرياني كتابَكُما ، فنظرَ فيهِ فقالَ : هٰذهِ أختُ الجزيةِ ، انطلقا حتَّىٰ أرىٰ رأيي ، فانطلقا حتَّىٰ أتيا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا رآهُما . . قالَ : « يا ويحَ ثعلبةَ » قبلَ أنْ يكلِّماهُ ، ودعا للسليميِّ ، فأخبراهُ بالذي صنعَ ثعلبةُ ، وبالذي صنعَ السليميُّ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ في ثعلبةَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ ، وعندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ مِنْ أقاربِ ثعلبةَ ، فسمعَ ما أنزلَ اللهُ فيهِ ، فخرجَ حتَّىٰ أتىٰ ثعلبةَ ، فقالَ : لا أمَّ لكَ يا ثعلبةُ ، قدْ أنزلَ اللهُ فيكَ كذا وكذا .

فخرجَ ثعلبةُ حتَّىٰ أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألَهُ أنْ يقبلَ منهُ صدقتَهُ ، فقالَ : « إنَّ اللهَ منعَني أنْ أقبلَ منْكَ صدقتَكَ » ، فجعلَ يحثو الترابَ علىٰ رأسِهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هٰذا عملُكَ ، أمرتُكَ فلمْ تطعْني » ، فلمَّا أبىٰ أنْ يقبلَ منهُ شيئاً . . رجعَ إلىٰ منزلِهِ .

فلمَّا قُبضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . جاءَ بها إلىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها منهُ ، وجاءَ بها إلىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها منهُ ، وتُوفِّي ثعلبةُ بعدَ خلافةِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ[1]

فهٰذا طغيانُ المالِ وشؤمُهُ ، وقدْ عرفتَهُ مِنْ هٰذا الحديثِ .

ولأجلِ بركةِ الفقرِ وشؤمِ الغنىٰ آثرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الفقرَ لنفسِهِ ولأهلِ بيتِهِ ، حتَّىٰ رُويَ عنْ عمرانَ بنِ حصينٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : كانَتْ لي مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منزلةٌ وجاهٌ ، فقالَ : « يا عمرانُ ؛ إنَّ لكَ عندَنا منزلةً وجاهاً ، فهلْ لكَ في عيادةِ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ » فقلتُ : نعمْ بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فقامَ وقمتُ معَهُ ، حتَّىٰ وقفَ ببابِ منزلِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقرعَ البابَ وقالَ : « السلامُ عليكُمْ ، أأدخلُ ؟ » فقالَتِ : ادخلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « أنا ومَنْ معي ؟ » قالَتْ : ومَنْ معَكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « عمرانُ بنُ حُصينٍ » ، قالَتْ : والذي بعثَكَ بالحقِّ نبياً ؛ ما عليَّ إلا عباءةٌ ، قالَ : « اصنعي بها هٰكذا وهٰكذا » وأشارَ بيدِهِ ، فقالَتْ : هٰذا جسدِي قدْ واريتُهُ ، فكيفَ برأسِي ؟ فألقىٰ إليها ملاءةً كانَتْ عليهِ خَلَقةً ، فقالَ : « شدِّي بها علىٰ رأسِكِ » .

ثمَّ أذنَتْ لهُ فدخلَ ، فقالَ : « السلامُ عليكِ يا بنتاهُ ، كيفَ أصبحتِ ؟ » فقالَتْ : أصبحتُ واللهِ وَجِعَةً ، وزادَني وجعاً علىٰ ما بي أنِّي لستُ أقدرُ علىٰ طعامٍ آكلُهُ ، فقدْ أجهدَني الجوعُ ، فبكىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « لا تجزعي يا بنتاهُ ، فواللهِ ؛ ما ذقتُ طعاماً منذُ ثلاثٍ ، وإنِّي لأكرمُ على اللهِ منكِ ، ولوْ سألتُ ربِّي . . لأطعمَني ، ولٰكنْ آثرتُ الآخرةَ على الدنيا » ، ثمَّ ضربَ بيدِهِ علىٰ مَنْكِبِها وقالَ لها : « أبشري ، فواللهِ ؛ إنَّكِ لسيِّدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ » ، فقالَتْ : فأينَ آسيةُ امرأةُ فرعونَ ومريمُ بنتُ عمرانَ ؟ فقالَ : « آسيةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، ومريمُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وخديجةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وأنتِ سيِّدةُ نساءِ عالمِكِ ، إنَّكنَّ في بيوتٍ مِنْ قصبٍ لا أذىٰ فيها ولا صخبَ » ، ثمَّ قالَ

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٣٦/١٠/٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢١٨/٨) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤٩٥/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٤٨) ، وقوله : (وتوفي ثعلبة بعد خلافة عمر) أي : في خلافة عثمان رضي الله عنه كما هو مصرح به عندهم .

لها : « اقنعي بابنِ عمِّكِ ، فواللهِ ؛ لقدْ زوَّجتُكِ سيِّداً في الدنيا سيِّداً في الآخرةِ »[1]

فانظرِ الآنَ إلىٰ حالِ فاطمةَ وهيَ بَضْعةٌ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كيفَ آثرَتِ الفقرَ ، وتركَتِ المالَ .

ومَنْ راقبَ أحوالَ الأنبياءِ والأولياءِ وأقوالَهُمْ ، وما ورَدَ مِنْ أخبارِهِمْ وآثارِهِمْ . . لمْ يشكَّ في أنَّ فقدَ المالِ أفضلُ مِنْ وجودِهِ وإنْ صُرِفَ إلى الخيراتِ ؛ إذْ أقلُّ ما فيهِ معَ أداءِ الحقوقِ ، والتوقِّي مِنَ الشبهاتِ ، والصرفِ إلى الخيراتِ . . اشتغالُ الهمِّ بإصلاحِهِ ، وانصرافُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ؛ إذْ لا ذكرَ إلا معَ الفراغِ ، ولا فراغَ معَ شغلِ المالِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ جَريرٍ ، عنْ ليثٍ قالَ : صحبَ رجلٌ عيسى ابنَ مريمَ عليهِ السلامُ ، فقالَ : أكونُ معَكَ وأصحبُكَ ، فانطلقا ، فانتهيا إلىٰ شطِّ نهرٍ ، فجلسا يتغدَّيانِ ومعَهُمَا ثلاثةُ أرغفةٍ ، فأكلا رغيفينِ ، وبقيَ رغيفٌ ، فقامَ عيسىٰ عليهِ السلامُ إلى النهرِ فشربَ ، ثمَّ رجعَ فلمْ يجدِ الرغيفَ ، فقالَ للرَّجلِ : مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ قالَ : لا أدري .

قالَ : فانطلَقَ ومعَهُ صاحبُهُ ، فرأىٰ ظبيةً ومعَها خِشْفانِ لها ، قالَ : فدعا أحدَهُما فأتاهُ ، فذبحَهُ واشتوىٰ منهُ ، فأكلَ هوَ وذلكَ الرجلُ ، ثمَّ قالَ للخِشْفِ : قمْ بإذنِ اللهِ ، فقامَ فذهبَ ، فقالَ للرجلِ : أسألُكَ بالذي أراكَ هٰذهِ الآيةَ ؛ مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ قالَ : لا أدري ، ثمْ انتهيا إلىٰ وادي ماءٍ ، فأخذَ عيسىٰ بيدِ الرجلِ فمشيَا على الماءِ ، فلمَّا جَاوزا . . قالَ : أسألكَ بالذي أراكَ هٰذهِ الآيةَ ، مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ فقالَ : لا أدري .

قالَ : فانتهيا إلىٰ مفازةٍ ، فجلسا ، فأخذَ عيسىٰ عليهِ السلامُ فجمعَ تراباً أوْ كثيباً ، ثمَّ قالَ : كنْ ذهباً بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، فصارَ ذهباً ، فقسمَهُ ثلاثةَ أثلاثٍ ، فقالَ : ثلثٌ لي ، وثلثٌ لكَ ، وثلثٌ لمَنْ أخذَ الرغيفَ ، قالَ : أنا الذي أخذتُ الرغيفَ ، قالَ : فكلُّهُ لكَ ، وفارقَهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ .

فانتهىٰ إليهِ رجلانِ في المفازةِ ومعَهُ المالُ ، فأرادا أنْ يأخذاهُ منهُ ويقتلاهُ ، فقالَ : هوَ بينَنا أثلاثاً ، فابعثوا أحدَكُمْ إلى القريةِ حتَّىٰ يشتريَ لنا طعاماً نأكلُهُ ، فبعثوا أحدَهُمْ ، فقالَ الذي بُعِثَ : لأيِّ شيءٍ أقاسمُ هٰؤلاءِ هٰذا المالَ ، لٰكنِّي أضعُ في الطعامِ سمّاً فأقتلُهُما وآخذُ المالَ وحدي ، قالَ : ففعلَ ، وقالَ ذانِكَ الرجلانِ : لأيِّ شيءٍ نجعلُ لهٰذا ثلثَ المالِ ، ولٰكنْ إذا رجَعَ . . قتلناهُ واقتسمنا المالَ بينَنا .

قالَ : فلما رجعَ إليهِما . . قتلاهُ وأكلا الطعامَ فماتا ، فبقيَ ذٰلكَ المالُ في المفازةِ وأولٰئكَ الثلاثةُ قتلىٰ عندَهُ ، فمرَّ بهِمْ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ تلكَ الحالةِ ، فقالَ لأصحابِهِ : هٰذهِ الدُّنيا فاحذروها[2]

وحُكيَ أنَّ ذا القرنينِ أتىٰ علىٰ أمةٍ مِنَ الأممِ ليسَ في أيديهِمْ شيءٌ ممَّا يستمتعُ بهِ الناسُ مِنْ دنياهُمْ قدِ احتفروا قبوراً ، فإذا أصبحوا . . تعهَّدوا تلكَ القبورَ وكنسوها ، وصلَّوا عندَها ، ورعَوُا البقلَ كما ترعى البهائمُ ، وقدْ قُيِّضَ لهُمْ في ذٰلكَ معايشُ مِنْ نباتِ الأرضِ ، فأرسلَ ذو القرنينِ إلىٰ ملكِهِمْ ، فقالَ لهُ : أجبْ ذا القرنينِ ، فقالَ : ما لي إليهِ حاجةٌ ، فإنْ كانَ لهُ حاجةٌ . . فليأتني ، فقالَ ذو القرنينِ : صدقَ ، فأقبلَ إليهِ ذو القرنينِ وقالَ : أرسلتُ إليكَ لتأتيَني فأبيتَ ، فهـٰأنا قدْ جئتُ ، فقالَ : لوْ كانَ لي إليكَ حاجةٌ . . لأتيتُكَ ، فقالَ لهُ ذو القرنينِ : ما لي أراكُمْ على الحالِ التي لمْ أرَ أحداً مِنَ الأممِ عليها ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قالَ : ليسَ لكُمْ دنيا ولا شيءٌ ، أفلا اتخذتُمُ الذهبَ والفضةَ فاستمتعتُمْ بهِما ؟

---

(١) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٠٧) ، ورواه مختصراً من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمدُ في « المسند » (٢٦/٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢٩/٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٦/٤٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩٤/٤٧) .

قالوا : إنَّما كرهناهُما لأنَّ أحداً لمْ يُعطَ منهما شيئاً إلا تاقَتْ نفسُهُ ودعَتْهُ إلىٰ ما هوَ أفضلُ منهُ ، فقالَ : ما بالُكُمْ قدِ احتفرتُمْ قبوراً ، فإذا أصبحتُمْ تعهَّدتُموها ، فكنستموها وصلَّيتُمْ عندَها ؟ قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا . . منعَتْنا قبورُنا مِنَ الأملِ ، قالَ : وأراكُمْ لا طعامَ لكُمْ إلا البقلُ مِنَ الأرضِ ، أفلا اتخذتُمُ البهائمَ مِنَ الأنعامِ فاحتلبتُموها وركبتُموها فاستمتعتُمْ بها ؟ فقالوا : كرهنا أنْ نجعلَ بطونَنا قبوراً لها ، ورأينا في نباتِ الأرضِ بلاغاً ، وإنَّما يكفي ابنَ آدمَ أدنى العيشِ مِنَ الطعامِ ، وإنَّ ما جاوزَ الحنكَ مِنَ الطعامِ . . لمْ نجدْ لهُ طعماً كائناً ما كانَ مِنَ الطعامِ ، ثمَّ بسطَ ملكُ تلكَ الأرضِ يدَهُ خلفَ ذي القرنينِ فتناولَ جُمجُمةً فقالَ : يا ذا القرنينِ ؛ أتدري مَنْ هـٰذا ؟ قالَ : لا ، ومَنْ هوَ ؟ قالَ : ملكٌ مِنْ ملوكِ الأرضِ ، أعطاهُ اللهُ سلطاناً علىٰ أهلِ الأرضِ ، فغشمَ وظلمَ وعتا ، فلمَّا رأى اللهُ تعالىٰ ذٰلكَ منهُ . . حسمَهُ بالموتِ ، فصارَ كالحجرِ الملقىٰ ، وقدْ أحصى اللهُ عليهِ عملَهُ حتَّىٰ يجزيَهُ بهِ في آخرتِهِ ، ثمَّ تناولَ جُمجُمةً أخرىٰ باليةً فقالَ : يا ذا القرنينِ ، هلْ تدري مَنْ هـٰذا ؟ قالَ : لا ، ومَنْ هوَ ؟ قالَ : هـٰذا ملكٌ ملَّكَهُ اللهُ بعدَهُ ، قدْ كانَ يرىٰ ما يصنعُ الذي قبلَهُ بالناسِ مِنَ الغَشْمِ والظلمِ والتجبُّرِ ، فتواضعَ وخشعَ للهِ عزَّ وجلَّ ، وأمرَ بالعدلِ في أهلِ مملكتِهِ ، فصارَ كما ترىٰ ، قدْ أحصى اللهُ عليهِ عملَهُ حتَّىٰ يجزيَهُ بهِ في آخرتِهِ ، ثمَّ أهوىٰ إلىٰ جمجمةِ ذي القرنينِ فقال : وهـٰذهِ الجمجمةُ كأنْ قدْ صارَتْ كهاتينِ ، فانظرْ يا ذا القرنينِ ما أنتَ صانعٌ ، فقالَ لهُ ذو القرنينِ : هلْ لكَ في صحبتي فأتخذَكَ أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني اللهُ مِنْ هـٰذا المالِ ؟ قالَ : ما أصلحُ أنا وأنتَ في مكانٍ ، ولا أنْ نكونَ جميعاً ، قالَ ذو القرنينِ : ولِمَ ؟ قالَ : مِنْ أجلِ أنَّ الناسَ كلَّهُمْ لكَ عدوٌّ ولي صديقٌ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : يعادونَكَ لما في يديكَ مِنَ الملكِ والمالِ والدنيا ، ولا أجدُ أحداً يعاديني لرفضي لذٰلكَ ، ولما عندي مِنَ الحاجةِ وقلَّةِ الشيءِ ، قالَ : فانصرفَ عنهُ ذو القرنينِ متعجباً منهُ ومتَّعظاً به [١]

❀ ❀ ❀

فهـٰذهِ الحكاياتُ تدلُّكَ علىٰ آفاتِ الغنىٰ معَ ما قدَّمناهُ مِنْ قبلُ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ .

❀ ❀ ❀

تمّ كتاب ذمّ المال والبخل

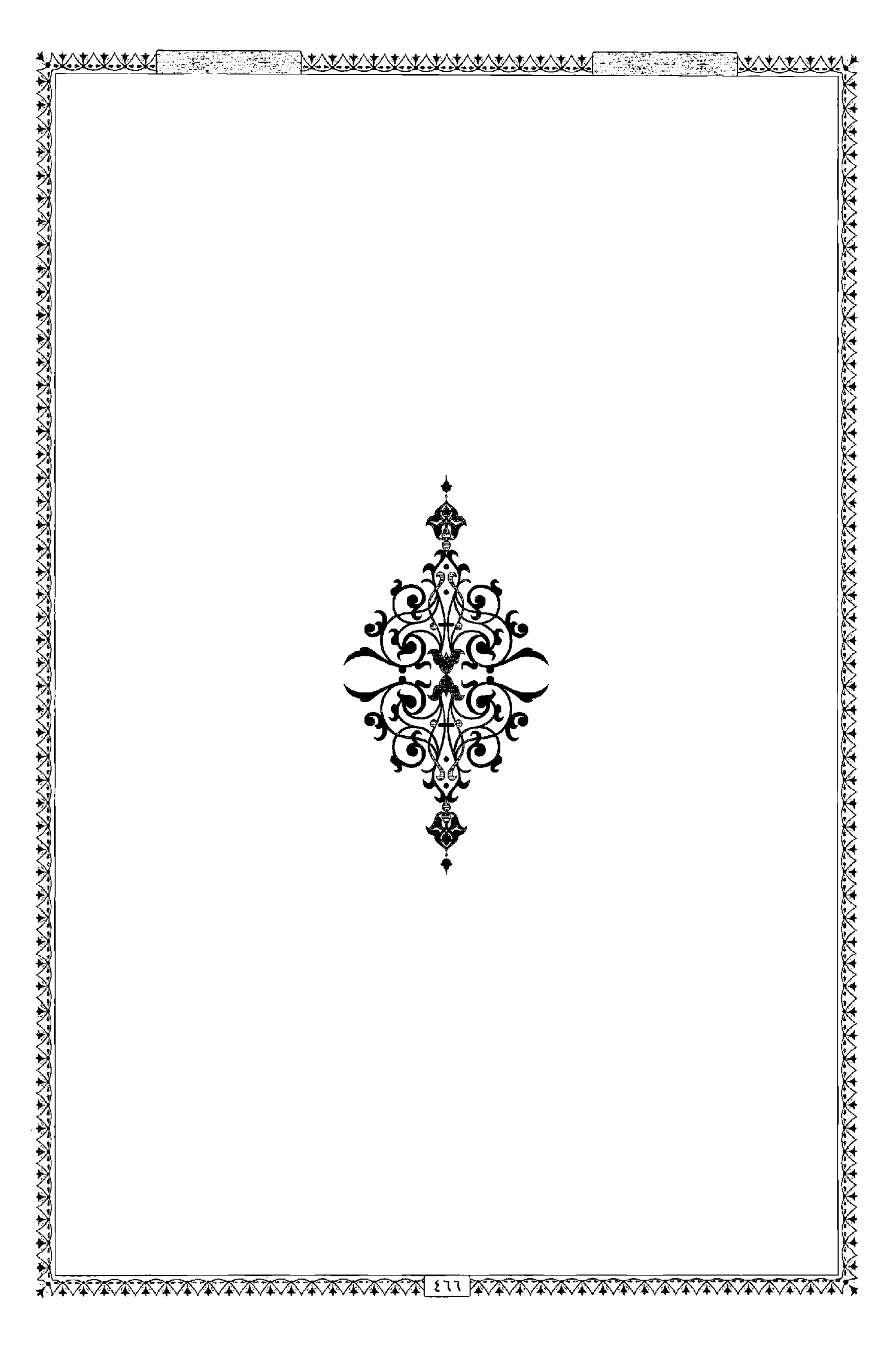
وهو الكتاب السّابع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وسلّم

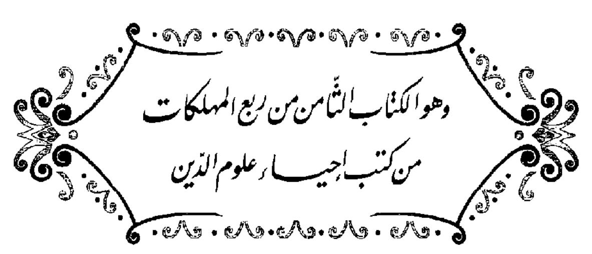
يتلوه كتاب ذمّ الجاه والرّياء

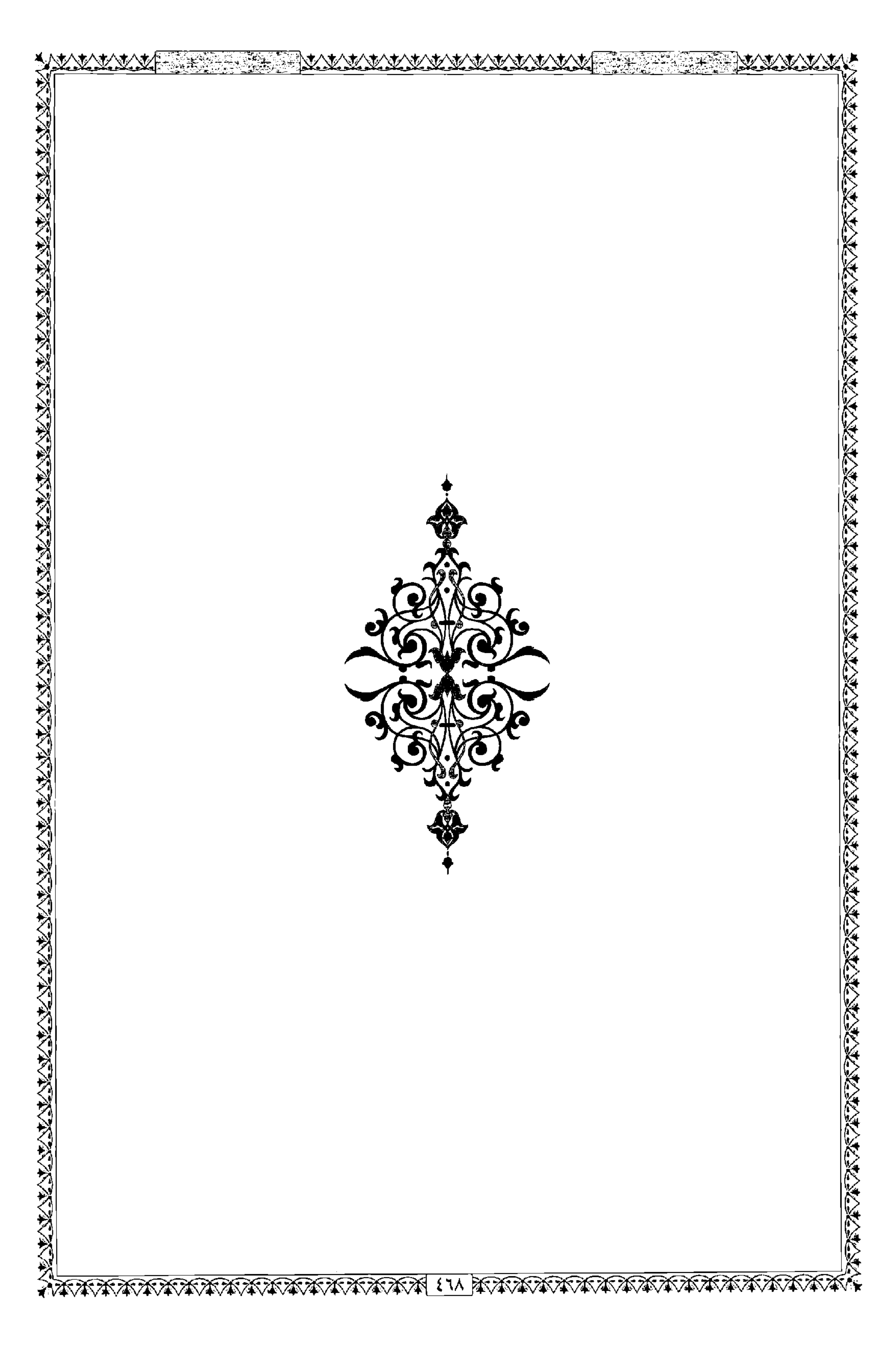
---

(١) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٩٥٨) ، وابن الجوزي من طريق ابن أبي الدنيا في « المنتظم » (١/١٨٥) .



كتاب
ذم الجاه والرياء





كتاب ذمّ الجاه والرّياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ علّامِ الغيوبِ ، المطَّلعِ علىٰ سرائرِ القلوبِ ، المتجاوزِ عنْ كبائرِ الذنوبِ ، العالمِ بما تُجِنُّهُ الضمائرُ مِنْ خفايا العيوبِ ، البصيرِ بسرائرِ النياتِ وخفايا الطوياتِ ، الذي لا يقبلُ مِنَ الأعمالِ إلا ما كمُلَ ووفىٰ ، وخلُصَ مِنْ شوائبِ الرِّياءِ والشركِ وصفا ، فإنَّهُ المنفردُ بالملكوتِ والملكِ ، وهوَ أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ ، والصلاةُ علىٰ محمدٍ وآلِهِ وأصحابِهِ المبرَّئينَ مِنَ الخيانةِ والإفكِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أمَّا بعـد :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ أمَّتي الرياءُ والشهوةُ الخفيةُ »[1]

والرياءُ مِنَ الشهوةِ الخفيةِ التي هيَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ في الليلةِ الظلماءِ ، ولذٰلكَ عجزَ عنِ الوقوفِ علىٰ غوائلِها سماسرةُ العلماءِ ، فضلاً عنْ عامَّةِ العبَّادِ والأتقياءِ ، وهوَ مِنْ أواخرِ غوائلِ النفسِ ، وبواطنِ مكايدِها ، وإنَّما يُبتلىٰ بهِ العلماءُ والعبَّادُ المشمِّرونَ عنْ ساقِ الجدِّ لسلوكِ سبيلِ الآخرةِ ؛ فإنَّهُمْ مهما قهروا أنفسَهُمْ وجاهدوها وفطموها عنِ الشهواتِ ، وصانوها عنِ الشبهاتِ ، وحملوها بالقهرِ علىٰ أصنافِ العباداتِ . . عجزَتْ نفوسُهُمْ عنِ الطمعِ في المعاصي الظاهرةِ الواقعةِ على الجوارحِ ، فطلبَتِ الاستراحةَ إلى التظاهرِ بالخيرِ ، وإظهارِ العملِ والعلمِ ، فوجدَتْ مخلصاً مِنْ مشقَّةِ المجاهدةِ إلىٰ لذَّةِ القبولِ عندَ الخلقِ ، ونظرِهِمْ إليها بعينِ الوقارِ والتعظيمِ ، فنازعَتْ إلىٰ إظهارِ الطاعةِ[2] ، وتوصَّلَتْ إلى اطِّلاعِ الخلقِ ، ولمْ تقنَعْ باطِّلاعِ الخالقِ ، وفرحَتْ بحمدِ الناسِ ، ولمْ تقنعْ بحمدِ اللهِ وحدَهُ ، وعلمَتْ أنَّهُمْ إذا عرفوا تركَها للشهواتِ ، وتوقِّيَها للشبهاتِ ، وتحمُّلَها لمشاقِّ العباداتِ . . أطلقوا ألسنتَهُمْ بالمدحِ والثناءِ ، وبالغوا في التقريظِ والإطراءِ ، ونظروا إليها بعينِ التوقيرِ والاحترامِ ، وتبرَّكوا بمشاهدتِها ولقائِها ، ورغبوا في بركةِ دعائِها ، وحرصوا على اتباعِ رأيِها ، وفاتحوها بالخدمةِ والسلامِ ، وأكرموها في المحافلِ غايةَ الإكرامِ ، وسامحوها في البيعِ والمعاملاتِ ، وقدَّموها في المجالسِ ، وآثروها بالمطاعمِ والملابسِ ، وتصاغروا لها متواضعينَ ، وانقادوا لها في أغراضِها موقِّرينَ ، فأصابَتِ النفسُ في ذٰلكَ لذَّةً هيَ أعظمُ اللذَّاتِ ، وشهوةً هيَ أغلبُ الشهواتِ ، فاستحقرَتْ فيها تركَ المعاصي والهفواتِ ، واستلانَتْ خشونةَ المواظبةِ على العباداتِ ؛ لإدراكِها في الباطنِ لذَّةَ اللذاتِ ، وشهوةَ الشهواتِ .

فهو يظنُّ أنَّ حياتَهُ باللهِ وبعبادتِهِ المرضيَّةِ ، وإنَّما حياتُهُ بهٰذِهِ الشهوةِ الخفيةِ ، التي تعمىٰ عنْ دركِها العقولُ النافذةُ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢٢/٧) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٦) ، وروى ابن ماجه (٤٢٠٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أخوف ما أتخوف علىٰ أمتي الإشراك بالله ؛ أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولٰكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » .

(٢) نازعت : اشتاقت ، وفي (أ) : (سارعت) بدل (نازعت) .

القويةُ ، ويرىٰ أَنَّهُ مخلصٌ في طاعةِ اللهِ ، ومجتنبٌ لمحارمِ اللهِ ، والنفسُ قدْ أبطنَتْ هٰذهِ الشهوةَ ؛ تزيُّناً للعبادِ ، وتصنُّعاً للخلقِ ، وفرحاً بما نالَتْ مِنَ المنزلةِ والوقارِ ، وأحبطَتْ بذٰلكَ ثوابَ الطاعاتِ وأجورَ الأعمالِ ، وقدْ أثبتَتْ اسمَهُ في جريدةِ المنافقينَ ، وهوَ يظنُّ أنهُ عندَ اللهِ مِنَ المقربينَ .

وهٰذهِ مكيدةٌ للنفسِ لا يسلمُ مِنْها إلا الصديقونَ ، ومهواةٌ لا يرقىٰ عنها إلا المقربونَ ، ولذٰلكَ قيلَ : (آخرُ ما يخرجُ مِن رؤوسِ الصدِّيقينَ حبُّ الرئاسةِ)[1]

وإذا كانَ الرياءُ هوَ الداءَ الدفينَ ، الذي هوَ أعظمُ شبكةٍ للشياطينِ . . وجبَ شرحُ القولِ في سببِهِ ، وحقيقتِهِ ، ودرجاتِهِ ، وأقسامِهِ ، وطرقِ معالجتِهِ ، والحذرِ مِنْهُ ، ويتضحُ الغرضُ مِنْهُ في ترتيبِ الكتابِ علىٰ شطرينِ .

* * *

(١) كما نقله القشيري وصاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/٢٣٢) .

الشَّطْرُ الأَوَّلُ
في حبّ الجاه والشّهرة

وفيهِ بيانُ ذمّ الشهرةِ ، وبيانُ فضيلةِ الخمولِ ، وبيانُ ذمّ الجاهِ ، وبيانُ معنى الجاهِ وحقيقتِهِ ، وبيانُ السببِ في كونِهِ محبوباً حبّاً أشدَّ مِنْ حُبِّ المالِ ، وبيانُ أنَّ الجاهَ كمالٌ وهميٌّ وليسَ بكمالٍ حقيقيّ ، وبيانُ ما يُحمدُ مِنْ حُبِّ الجاهِ وما يُذمُّ ، وبيانُ السببِ في حبِّ المدحِ والثناءِ وكراهةِ الذمّ ، وبيانُ العلاجِ في حُبِّ الجاهِ ، وبيانُ علاجِ حبِّ المدحِ ، وبيانُ علاجِ كراهةِ الذمّ ، وبيانُ اختلافِ أحوالِ الناسِ في المدحِ والذمّ .

فهيَ اثنا عشرَ فصلاً ، منها تنشأُ معاني الرياءِ ، فلا بدَّ مِنْ تقديمِها ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ بلطفِهِ ومنِّهِ وكرمِهِ .



بيان ذمّ الشّهرة وانتشار الصّيت

اعلمْ : أنَّ أصلَ الجاهِ هوَ انتشارُ الصّيتِ والاشتهارُ ، وهوَ مذمومٌ ، بلْ المحمودُ الخمولُ ، إلا مَنْ شهرَهُ اللهُ تعالىٰ لنشرِ دينِهِ مِنْ غيرِ تكلُّفِ طلبِ الشهرةِ مِنْهُ .

قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حسبُ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يشيرَ الناسُ إليهِ بالأصابعِ في دينِهِ ودنياهُ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ »(١)

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بحسبِ المرءِ مِنَ الشرّ ـ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ مِنَ السوءِ ـ أنْ يشيرَ الناسُ إليهِ بالأصابعِ في دينِهِ ودنياهُ ، إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ ، ولـٰكنْ ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وإلىٰ أعمالِكُمْ »(٢)

ولقدْ ذكرَ الحسنُ رحمهُ اللهُ للحديثِ تأويلاً لا بأسَ بهِ ؛ إذْ روىٰ هـٰذا الحديثَ ، فقيلَ لهُ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنَّ الناسَ إذا رأَوكَ . . أشاروا إليكَ بالأصابعِ ، قالَ : إنَّهُ لمْ يعنِ هـٰذا ، إنَّما عنىٰ بهِ المبتدعَ في دينِهِ ، والفاسقَ في دنياهُ(٣)

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (تبذَّلْ ، لا تشتهرْ ، ولا ترفعْ شخصَكَ لتُذكرَ وتُعلَمَ ، واكتُمْ واصمُتْ . . تسلمْ ، تسرُّ الأبرارَ وتغيظُ الفجارَ)(٤)

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (ما صدقَ اللهَ مَنْ أحبَّ الشهرةَ)(٥)

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٨٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم . . . » رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) روى ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٢) عن الحسن مرسلاً : « حسب المرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دينه ودنياه » ، وروىٰ قوله هنا عقبه (٣٣) ، قال الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٢٠) بعد رواية حديث الحسن : (إنما يشار إليه في دين لأنه أحدث بدعة ومنكراً ، وفي دنيا أحدث منكراً من الكبائر) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٤) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١/٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٧٦) .

وقالَ أيوبُ السختيانيُّ : (واللهِ ؛ ما صدقَ اللهَ عبدٌ إلا سرَّهُ ألا يُشعرَ بمكانِهِ)[١]

وعنْ خالدِ بنِ معدانَ أنَّهُ كانَ إذا كثُرَتْ حلقتُهُ . . قامَ مخافةَ الشهرةِ[٢]

وعنْ أبي العاليةِ أنَّهُ كانَ إذا جلسَ إليهِ أكثرُ مِنْ ثلاثةٍ . . قامَ[٣]

ورأىٰ طلحةُ قوماً يمشونَ معَهُ أكثرَ مِنْ عشرةٍ ، فقالَ : ذبابُ طمعٍ ، وفَراشُ نارٍ[٤]

وقالَ سُليمُ بنُ حنظلةَ : بينا نحنُ حولَ أُبيِّ بنِ كعبٍ نمشي خلفَهُ ؛ إذْ رآهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ ، فقالَ : انظرْ يا أميرَ المؤمنينَ ما تصنعُ ، فقالَ : إنَّ هاذهِ ذلةٌ للتابعِ ، وفتنةٌ للمتبوعِ[٥]

وعنِ الحسنِ قالَ : خرجَ ابنُ مسعودٍ يوماً مِنْ منزلِهِ ، فاتَّبعَهُ أناسٌ ، فالتفَتَ إليهِمْ فقالَ : علامَ تتبعوني ؟ فواللهِ ؛ لوْ تعلمونَ ما أُغلقَ عليهِ بابي . . ما اتَّبعَني منكُمْ رجلانِ[٦]

وقالَ الحسنُ : (إنَّ خفقَ النعالِ حولَ الرجالِ قلَّما تثبتُ معَهُ قلوبُ الحمقىٰ)[٧]

وخرجَ الحسنُ ذاتَ يومٍ فاتبعَهُ قومٌ ، فقالَ : هلْ لكُمْ مِنْ حاجةٍ ؟ وإلا . . فما عسىٰ أنْ يبقيَ هاذا مِنْ قلبِ المؤمنِ ؟[٨]

ورُويَ أنَّ رجلاً صحبَ ابنَ محيريزٍ في سفرٍ ، فلمَّا فارقَهُ . . قالَ : أوصني ، قالَ : إنِ استطعتَ أنْ تَعْرفَ ولا تُعْرفَ ، وتمشيَ ولا يُمشىٰ إليكَ ، وتسألَ ولا تُسألَ . . فافعلْ[٩]

وخرجَ أيوبُ في سفرٍ ، فتبعَهُ ناسٌ كثيرٌ ، فقالَ : لولا أنِّي أعلمُ أنَّ اللهَ يعلمُ مِنْ قلبي أنِّي لهاذا كارهٌ . . لخشيتُ المقتَ مِنَ اللهِ تعالىٰ[١٠]

وقالَ معمرٌ : عاتبتُ أيوبَ علىٰ طولِ قميصِهِ ، فقالَ : إنَّ الشهرةَ فيما مضىٰ كانَتْ في طولِهِ ، وهيَ اليومَ في تشميرِهِ[١١]

وقالَ بعضُهُمْ : كنَّا معَ أبي قلابةَ ؛ إذْ دخلَ عليهِ رجلٌ عليهِ أكسيةٌ ، فقالَ : إيَّاكُمْ وهاذا الحمارَ النهَّاقَ . . يشيرُ بهِ إلىٰ طلبِ الشهرةِ[١٢]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٤٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٤٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٠) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥١) ، وقد أورد نصر بن مزاحم في « وقعة صفين » (٥٣٢) ، وروى الطبري في « تاريخه » (٥/٦٢) أن حرب بن شرحبيل ـ وكان ذا شأن في قومه ـ أقبل يمشي مع سيدنا علي رضي الله عنه وهو راكب ، فقال له علي : ارجع ، فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٢) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٣) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٤) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٥) ، وفيه وفي (ب) : (ألا تعرف) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٩) ، وأيوب هو السختياني .
(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦١) .
(١٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٥) .

وقالَ الثوريُّ : (كانوا يكرهونَ الشهرتينِ ؛ الثيابَ الجيّدةَ ، والثيابَ الرديئةَ ؛ إذِ الأبصارُ تمتدُّ إليهِما جميعاً)[1]

وقالَ رجلٌ لبشرِ بنِ الحارثِ : أوصني ، فقالَ : أَخمِلْ ذكرَكَ ، وطيِّبْ مطعمَكَ[2]

وكانَ حوشبٌ يبكي ويقولُ : بلغَ اسمي مسجدَ الجامعِ[3]

وقالَ بشرٌ : (ما أعرفُ رجلاً أحبَّ أنْ يُعرفَ إلا ذهبَ دينُهُ وافتَضَحَ)[4]

وقالَ أيضاً : (لا يجدُ حلاوةَ الآخرةِ رجلٌ يحبُّ أنْ يعرفَهُ الناسُ)[5]

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٤) ، وجاء النهي عن الشهرتين مرفوعاً كما رواه البيهقي في « الشعب » (٥٨٢١) وقد سئل صلى الله عليه وسلم : ما الشهرتان ؟ فقال : « رقة الثياب وغلظها ، ولينها وخشونتها ، وطولها وقصرها ، ولكن سداد فيما ذلك واقتصاد » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .

بيان فضيلة الخمول

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ ، لا يُؤْبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، مِنهُمُ البراءُ بنُ مالكٍ »(٦)

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ ذي طمرينِ ، لا يُؤْبَهُ لهُ ، لوْ أقسَمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، لوْ قالَ : اللَّهمَّ ؛ أسألُكَ الجنَّةَ . . لأعطاهُ الجنَّةَ ، ولمْ يعطِهِ مِنَ الدنيا شيئاً »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أدلُّكُمْ على أهلِ الْجنَّةِ ؟ كلُّ ضعيفٍ متضعِّفٍ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، وأهلُ النَّارِ كلُّ مستكبرٍ جوَّاظٍ »(٨)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجنَّةِ كلُّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ لا يُؤْبَهُ لهُ ، الذينَ إذا استأذنوا على الأمراءِ . . لمْ يُؤذَنْ لهُمْ ، وإذا خطبوا النساءَ . . لمْ يُنكحوا ، وإذا قالوا . . لمْ يُنصَتْ لقولِهِمْ ، حوائجُ أحدِهِمْ تتجلجلُ في صدرِهِ ، لوْ قُسِّمَ نورُهُ يومَ القيامةِ على الناسِ . . لوسعَهُمْ »(٩)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ أمَّتي مَنْ لوْ أتىٰ أحدَكُمْ فسألَهُ ديناراً . . لمْ يعطِهِ إيَّاهُ ، ولو سألَهُ درهماً . . لمْ يعطِهِ إيَّاهُ ، ولوْ سألَهُ فَلساً . . لمْ يعطِهِ إيَّاهُ ، ولوْ سألَ اللهَ تعالى الجنَّةَ . . أعطاهُ إيَّاها ، ولوْ سألَهُ الدنيا . . لمْ يعطِهِ إيَّاها ، وما منعَها إيَّاهُ لهوانِهِ عليهِ ، ذو طمرينِ لا يُؤْبَهُ لهُ ، لوْ أقسَمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »(١٠)

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ دخلَ المسجدَ ، فإذا هوَ بمعاذِ بنِ جبلٍ يبكي عندَ قبرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ اليسيرَ مِنَ الرياءِ شركٌ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ الأتقياءَ الأخفياءَ ، الذينَ إنْ غابوا . . لمْ يُفقدوا ، وإنْ حضروا . . لمْ يُعرفوا ، قلوبُهُمْ مصابيحُ الهدىٰ ، ينجونَ مِنْ كلِّ غبراءَ مظلمةٍ »(١١)

وقالَ محمدُ بنُ سويدٍ : قُحِطَ أهلُ المدينةِ ، وكانَ بها رجلٌ صالحٌ لا يُؤْبَهُ لهُ ، لازمٌ لمسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبينَما هُمْ في دعائِهِمْ ؛ إذْ جاءَهُمْ رجلٌ عليهِ طِمرانِ خَلَقانِ ، فصلَّىٰ ركعتينِ ، وأوجزَ فيهِما ، ثمَّ بسطَ يديهِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أقسمتُ عليكَ إلا أمطرتَ علينا الساعةَ ، فلمْ يردَّ يديهِ ، ولمْ يقطَعْ دعاءَهُ حتَّىٰ تغشَّتِ السماءُ بالغيمِ وأُمطروا ، حتَّىٰ صاحَ أهلُ المدينةِ مِنْ مخافةِ الغرقِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّهُمْ قدِ اكتفَوا . . فارفعْ عنهُمْ ، فسكنَ ، وتبعَ الرجلُ صاحبَ المطرِ حتَّىٰ عرفَ منزلَهُ ، ثمَّ بكَّرَ إليهِ ، فخرجَ إليهِ ، فقالَ : إنِّي أتيتُكَ في حاجةٍ ، قالَ : وما هيَ ؟ قالَ : تخصُّني بدعوةٍ ، قالَ : سبحانَ اللهِ ؛ أنتَ أنتَ وتسألُني أنْ أخصَّكَ

---

(٦) رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) .

(٧) رواه تمام في « فوائده » (١٦٦٣) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا ، ومن طريقه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » بسند ضعيف) . « إتحاف » (٢٣٥/٨) .

(٨) رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) ، والجوَّاظ : الكثير اللحم ، المختال في مشيته ، وقيل : الفاجر ، وقيل : الأكول .

(٩) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٠٤ ، ١٠٠٠٥) ، وصدره : « إن ملوك أهل الجنة . . . » .

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١) عن سالم بن أبي الجعد مرسلاً .

(١١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨) واللفظ له .

بدعوةٍ !! قالَ : ما الذي بلَّغَكَ ما رأيتُ ؟ قالَ : أطعتُ اللهَ فيما أمرَني ونهاني ، فسألتُهُ فأعطاني [1]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كونوا ينابيعَ العلمِ ، مصابيحَ الهدىٰ ، أحلاسَ البيوتِ ، سُرُجَ الليلِ ، جُدُدَ القلوبِ ، خُلْقانَ الثيابِ ، تُعرفونَ في أهلِ السماءِ وتُخفَونَ في أهلِ الأرضِ) [2]

وقالَ أبو أمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ أغبطَ أوليائي عندي مؤمنٌ خفيفُ الحاذِ ، ذو حظٍّ مِنْ صلاةٍ ، أحسنَ عبادةَ ربِّهِ وأطاعَهُ في السِّرِّ ، وكانَ غامضاً في الناسِ لا يُشارُ إليهِ بالأصابعِ ، فمَنْ صبرَ علىٰ ذٰلكَ » قالَ : ثمَّ نقرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بيدِهِ وقالَ : « . . عُجِّلَتْ منيَّتُهُ ، وقلَّ تراثُهُ ، وقلَّتْ بواكيهِ » [3]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أحبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ الغرباءُ ، قيلَ : ومَنِ الغرباءُ ؟ قالَ : الفارُّونَ بدينِهِمْ ، يجتمعونَ يومَ القيامةِ إلىٰ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ [4]

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : بلغَني أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ في بعضِ ما يمُنُّ بهِ علىٰ عبدِهِ : (ألَمْ أُنعمْ عليكَ ؟ ألَمْ أسترْكَ ؟ ألَمْ أخمِلْ ذكرَكَ ؟) [5]

وكانَ الخليلُ بنُ أحمدَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْني عندَكَ مِنْ أرفعِ خلقِكَ ، واجعلْني عندَ نفسِي مِنْ أوضعِ خلقِكَ ، واجعلْني عندَ الناسِ مِنْ أوسطِ خلقِكَ) [6]

وقالَ الثوريُّ : (وجدتُ قلبي يصلحُ بمكةَ والمدينةِ مع قومٍ غرباءَ ، أصحابِ بُتوتٍ وعَباءٍ) [7]

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : ما قرَّتْ عيني في الدنيا قطُّ إلا مرَّةً ، بتُّ ليلةً في بعضِ مساجدِ قرى الشامِ ، وكانَ بي البطنُ ، فجرَّني المؤذنُ برجلِي حتَّىٰ أخرجَني مِنَ المسجدِ [8]

وقالَ الفضيلُ : (إنْ قدرتَ ألا تُعرفَ . . فافعلْ ، وما عليكَ ألا تُعرفَ ؟ وما عليكَ ألا يُثنىٰ عليكَ ؟ وما عليكَ أنْ تكونَ مذموماً عندَ الناسِ إذا كنتَ محموداً عندَ اللهِ تعالىٰ ؟) [9]

فهٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تعرِّفُكَ مذمَّةَ الشهرةِ وفضيلةَ الخمولِ ، وإنَّما المطلوبُ بالشهرةِ وانتشارِ الصِّيتِ هوَ الجاهُ والمنزلةُ في القلوبِ ، وحبُّ الجاهِ هوَ منشأُ كلِّ فسادٍ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١) .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) ، وابن ماجه (٤١١٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢) ، وبتوت : جمع بتّ ، الطيلسان من خزّ ونحوه ، وهو كساء غليظ مهلهل مربع أخضر ، وقيل : هو من وبر وصوف ، وعباء ـ بفتح العين ـ : جمع عباءة .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٨) ، وهو ضمن خبر طويل ساقه اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ٣٠٣) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) .

فإنْ قلتَ : فأيُّ شهرةٍ تزيدُ علىٰ شهرةِ الأنبياءِ والخلفاءِ الراشدينَ وأئمةِ العلماءِ ؟! فكيفَ فاتَهُمْ فضيلةُ الخمولِ ؟

فاعلمْ : أَنَّ المذمومَ طلبُ الشهرةِ ، فأمَّا وجودُها مِنْ جهةِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ مِنَ العبدِ . . فليسَ بمذمومٍ .

نعمْ ؛ فيهِ فتنةٌ على الضعفاءِ دونَ الأقوياءِ ، وذٰلكَ كالغريقِ الضعيفِ إذا كانَ معَهُ جماعةٌ مِنَ الغرقىٰ ، فالأولىٰ بهِ ألا يعرفَهُ أحدٌ منهُمْ ؛ فإنَّهُمْ يتعلَّقونَ بهِ فيضعفُ عنهُمْ ، فيهلكُ معَهُمْ ، وأمَّا القويُّ . . فالأولىٰ أنْ يعرفَهُ الغرقىٰ ليتعلَّقوا بهِ ، فينجيَهُمْ ويُثابَ علىٰ ذٰلكَ .

* * *

بيان ذمّ حبّ الجاه

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ ، جمعَ بينَ إرادةِ الفسادِ والعلوّ ، وبيَّنَ أنَّ الدارَ الآخرةَ للخالي عنِ الإرادتينِ جميعاً .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

وهـٰذا أيضاً متناولٌ بعمومِهِ لحبِّ الجاهِ ؛ فإنَّهُ أعظمُ لذةٍ مِنْ لذاتِ الحياةِ الدنيا ، وأكثرُ زينةٍ مِنْ زينتِها .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والجاهِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أُرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ فساداً مِنْ حبِّ الشرفِ والمالِ في دينِ الرجلِ المسلمِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « إنَّما هلاكُ الناسِ باتّباعِ الهوىٰ وحبِّ الثناءِ »[2]

نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » ، وبنحو لفظ المصنف مروي عند الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) .

(٢) تقدم معناه ، وهو حديث : « **ثلاث مهلكات** : شحٌّ مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء برأيه » .

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلمْ : أنَّ الجاهَ والمالَ هما ركنا الدنيا .

ومعنى المالِ : ملكُ الأعيانِ المنتفعِ بها .

ومعنى الجاه : ملكُ القلوبِ المطلوبِ تعظيمُها وطاعتُها .

وكما أنَّ الغنيَّ هوَ الذي يملكُ الدراهمَ والدنانيرَ ؛ أيْ : يقدرُ عليهما ؛ ليتوصَّلَ بهما إلى الأغراضِ والمقاصدِ وقضاءِ الشهواتِ وسائرِ حظوظِ النفسِ . . فكذٰلكَ ذو الجاهِ ، هوَ الذي يملكُ قلوبَ الناسِ ؛ أيْ : يقدرُ علىٰ أنْ يتصرَّفَ فيها ؛ ليستعملَ بواسطتِها أربابَها في أغراضِهِ ومآربِهِ ، وكما أنَّه يكتسبُ الأموالَ بأنواعٍ مِنَ الحرفِ والصناعاتِ . . فكذٰلكَ يكتسبُ قلوبَ الخلقِ بأنواعٍ مِنَ المعاملاتِ ، ولا تصيرُ القلوبُ مسخَّرةً إلا بالمعارفِ والاعتقاداتِ ، فكلُّ مَنِ اعتقدَ القلبُ فيهِ وصفاً مِنْ أوصافِ الكمالِ . . انقادَ لهُ ، وتسخَّرَ لهُ بحسبِ قوَّةِ اعتقادِهِ ، وبحسبِ درجةِ ذٰلكَ الكمالِ عندَهُ ، وليسَ يُشترطُ أنْ يكونَ الوصفُ كمالاً في نفسِهِ ، بلْ يكفي أنْ يكونَ كمالاً عندَهُ وفي اعتقادِهِ .

وقدْ يعتقدُ ما ليسَ كمالاً كمالاً ، ويذعنُ قلبُهُ للموصوفِ بهِ انقياداً ضرورياً بحسبِ اعتقادِهِ ؛ فإنَّ انقيادَ القلبِ حالٌ للقلبِ ، وأحوالُ القلوبِ تابعةٌ لاعتقاداتِ القلوبِ وعلومِها وتخيلاتِها ، وكما أنَّ محبَّ المالِ يطلبُ ملكَ الأرقاءِ والعبيدِ . . فطالبُ الجاهِ يطلبُ أنْ يسترقَّ الأحرارَ ويستعبدَهُمْ ، ويملكَ رقابَهُمْ بملكِ قلوبِهِمْ ، بلِ الرِّقُّ الذي يطلبُهُ صاحبُ الجاهِ أعظمُ ؛ لأنَّ المالكَ يملكُ العبدَ قهراً والعبدُ متأبٍّ بطبعِهِ ، ولوْ خُلِّيَ ورأيَهُ . . انسلَّ عنِ الطاعةِ ، وصاحبُ الجاهِ يطلبُ الطاعةَ طوعاً ، ويبغي أنْ يكونَ لهُ الأحرارُ عبيداً بالطبعِ والطوعِ معَ الفرحِ بالعبوديةِ والطاعةِ لهُ ، فما يطلبُهُ فوقَ ما يطلبُهُ مالكُ الرِّقِّ بكثيرٍ .

فإذاً ؛ معنى الجاهِ : قيامُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ ؛ أيِ : اعتقادُ القلوبِ لنعتٍ مِنْ نعوتِ الكمالِ فيهِ ، فبقدْرِ ما يعتقدونَ مِنْ كمالِهِ تذعنُ لهُ قلوبُهُمْ ، وبقدْرِ إذعانِ القلوبِ تكون قدرتُهُ على القلوبِ ، وبقدْرِ قدرتِهِ على القلوبِ يكونُ فرحُهُ وحبُّهُ للجاهِ .

فهٰذا هوَ معنى الجاهِ وحقيقتُهُ ، ولهُ ثمراتٌ ؛ كالمدحِ والإطراءِ ، فإنَّ المعتقدَ للكمالِ لا يسكتُ عنْ ذكرِ ما يعتقدُهُ ، فيثني عليهِ ، وكالخدمةِ والإعانةِ ؛ فإنَّهُ لا يبخلُ ببذْلِ نفسِهِ في طاعتِهِ بقدْرِ اعتقادِهِ ، فيكونُ سخرةً لهُ مثلَ العبدِ في أغراضِهِ ، وكالإيثارِ ، وتركِ المنازعةِ ، والتعظيمِ والتوقيرِ ؛ بالمفاتحةِ بالسلامِ ، وتسليمِ الصدرِ في المحافلِ ، والتقديمِ في جميعِ المقاصدِ .

فهٰذهِ آثارٌ تصدرُ عنْ قيامِ الجاهِ في القلبِ ، ومعنىٰ قيامِ الجاهِ في القلبِ : اشتمالُ القلوبِ على اعتقادِ صفاتِ الكمالِ في الشخصِ ؛ إمَّا بعلمٍ ، أوْ عبادةٍ ، أوْ حسنِ خلقٍ ، أو نسبٍ ، أو ولايةٍ ، أو جمالٍ في صورةٍ ، أوْ قوةٍ في بدنٍ ، أوْ شيءٍ ممَّا يعتقدُهُ الناسُ كمالاً ، فإنَّ هٰذهِ الأوصافَ كلَّها تعظِّمُ محلَّهُ في القلوبِ ، فتكونُ سبباً لقيامِ الجاهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتىٰ لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلمْ : أنَّ السببَ الذي يقتضي كونَ الذهبِ والفضةِ وسائرِ أنواعِ الأموالِ محبوباً . . هوَ بعينِهِ يقتضي كونَ الجاهِ محبوباً .

بلْ يقتضي أنْ يكونَ أحبَّ مِنَ المالِ ، كما يقتضي أنْ يكونَ الذهبُ أحبَّ مِنَ الفضةِ مهما تساويا في المقدارِ ، وهوَ أنَّكَ تعلمُ أنَّ الدراهمَ والدنانيرَ لا غرضَ في أعيانِها ؛ إذْ لا تصلحُ لمطعمٍ ولا مشربٍ ولا منكحٍ ولا ملبسٍ ، وإنَّما هيَ والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ ، ولـٰكنَّها محبوبةٌ لأنَّها وسيلةٌ إلىٰ جميعِ المحابِّ ، وذريعةٌ إلىٰ قضاءِ الشهواتِ ، فكذٰلكَ الجاهُ ؛ لأنَّ معنى الجاهِ ملكُ القلوبِ ، وكما أنَّ ملكَ الذهبِ والفضةِ يفيدُ قدرةً يتوصَّلُ الإنسانُ بها إلىٰ سائرِ أغراضِهِ . . فكذٰلكَ ملكُ قلوبِ الأحرارِ والقدرةُ على استسخارِها يفيدُ قدرةً على التوصُّلِ إلىٰ جميعِ الأغراضِ .

فالاشتراكُ في السببِ اقتضى الاشتراكَ في المحبةِ ، وترجيحُ الجاهِ على المالِ اقتضىٰ أنْ يكونَ الجاهُ أحبَّ مِنَ المالِ .

❁ ❁ ❁

ولملكِ القلوبِ ترجيحٌ علىٰ ملكِ المالِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : أنَّ التَّوصُّلَ بالجاهِ إلى المالِ أيسرُ مِنَ التوصُّلِ بالمالِ إلى الجاهِ ، فالعالمُ أوِ الزاهدُ الذي تقرَّرَ لهُ جاهٌ في القلوبِ لوْ قصدَ اكتسابَ المالِ . . تيسَّرَ لهُ ؛ فإنَّ أموالَ أربابِ القلوبِ مسخرةٌ للقلوبِ ، ومبذولةٌ لمَنِ اعتقدَ فيهِ الكمالَ ، وأمَّا الرجلُ الخسيسُ الذي لا يتَّصفُ بصفةِ كمالٍ إذا وجدَ كنزاً ، ولمْ يكنْ لهُ جاهٌ يحفظُ مالَهُ ، وأرادَ أنْ يتوصَّلَ بالمالِ إلى الجاهِ . . لمْ يتيسَّرْ لهُ .

فإذاً ؛ الجاهُ آلةٌ ووسيلةٌ إلى المالِ ، فمَنْ ملكَ الجاهَ . . فقدْ ملكَ المالَ أيضاً ، ومَنْ ملكَ المالَ . . لمْ يملكِ الجاهَ بكلِّ حالٍ ، فلذٰلكَ صارَ الجاهُ أحبَّ .

❁ ❁ ❁

الثاني : هوَ أنَّ المالَ معرَّضٌ للبلوىٰ والتلفِ ؛ بأنْ يُسرقَ ويُغصبَ ، ويَطمعَ فيهِ الملوكُ والظلمةُ ، ويحتاجُ فيهِ إلى الحفظةِ والحرَّاسِ والخزائنِ ، وتتطرَّقُ إليهِ أخطارٌ كثيرةٌ ، وأمَّا القلوبُ إذا مُلكَتْ . . لمْ تتعرَّضْ لهـٰذهِ الآفاتِ ، فهيَ على التحقيقِ خزائنُ عتيدةٌ لا يقدرُ عليها السرَّاقُ ، ولا تتناولُها أيدي النُّهابِ والغُصَّابِ ، وأثبتُ الأموالِ العقارُ ، ولا يُؤمنُ فيهِ الغصبُ والظلمُ ، ولا يستغني عنِ المراقبةِ والحفظِ ، وأمَّا خزائنُ القلوبِ . . فهيَ محفوظةٌ محروسةٌ بأنفسِها وذو الجاهِ في أمنٍ وأمانٍ مِنَ الغصبِ والسرقةِ فيها .

نعمْ ؛ إنَّما تُغصبُ القلوبُ بالتضريبِ[1] ، وتقبيحِ الحالِ ، وتغييرِ الاعتقادِ فيما صدقَ بهِ مِنْ أوصافِ الكمالِ ، وذٰلكَ ممَّا يهونُ دفعُهُ ، ولا يتيسَّرُ علىٰ محاولِهِ فعلُهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) التضريب بين القوم : الإغراء .

الثالثُ : أنَّ ملكَ القلوبِ يسري ويُنمَّىٰ ويتزايدُ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ تعبٍ ومقاساةٍ ؛ فإنَّ القلوبَ إذا أذعنَتْ لشخصٍ واعتقدَتْ كمالَهُ بعلمٍ أوْ عملٍ أوْ غيرِهِ . . أفصحَتِ الألسنةُ ـ لا محالةَ ـ بما فيها ، فيصفُ ما يعتقدُهُ لغيرِهِ ، ويقتنصُ ذٰلكَ القلبَ أيضاً لهُ ، ولهٰذا المعنىٰ يحبُّ الطبعُ الصيتَ وانتشارَ الذكرِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ إذا استطارَ في الأقطارِ . . اقتنصَ القلوبَ ، ودعاها إلى الإذعانِ والتعظيمِ ، فلا يزالُ يسري مِنْ واحدٍ إلىٰ واحدٍ ويتزايدُ ، وليسَ لهُ مردٌّ معينٌ .

وأمَّا المالُ : فمَنْ ملكَ منهُ شيئاً . . فهوَ مالكُهُ ، ولا يقدرُ على استنمائِهِ إلا بتعبٍ ومقاساةٍ ، والجاهُ أبداً في النماءِ بنفسِهِ ، ولا مردَّ لموقعِهِ ، والمالُ واقفٌ ؛ ولهٰذا إذا عظُمَ الجاهُ وانتشرَ الصيتُ وانطلقَتِ الألسنةُ بالثناءِ . . استُحقرَتِ الأموالُ في مقابلةِ ذٰلكَ .

فهٰذهِ مجامعُ ترجيحاتِ الجاهِ على المالِ ، وإذا فُصِّلَتْ . . كثُرَتْ وجوهُ الترجيحِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالإشكالُ قائمٌ في المالِ والجاهِ جميعاً ، فلمَ ينبغي أنْ يحبَّ الإنسانُ المالَ والجاهَ ؟

نعم ؛ القدرُ الذي يتوصَّلُ بهِ إلىٰ جلبِ الملاذِّ ودفعِ المضارِّ معلومٌ ؛ كالمحتاجِ إلى الملبسِ والمسكنِ والمطعمِ ، أوْ كالمبتلىٰ بمرضٍ أوْ بعقوبةٍ إذا كانَ لا يتوصَّلُ إلىٰ دفعِ العقوبةِ عنْ نفسِهِ إلا بمالٍ أوْ جاهٍ . . فحبُّهُ للمالِ وَالجاهِ معلومٌ ؛ إذْ كلُّ ما لا يُتوصَّلُ إلى المحبوبِ إلا بهِ فهوَ محبوبٌ ، وَفي الطباعِ أمرٌ عجيبٌ وراءَ هٰذا ، وهوَ حبُّ جمعِ الأموالِ ، وكنزِ الكنوزِ ، وادخارِ الذخائرِ ، واستكثارِ الخزائنِ وراءَ جميعِ الحاجاتِ ، حتَّىٰ لوْ كانَ للعبدِ واديانِ مِنْ ذهبٍ . . لابتغىٰ إليهِما ثالثاً ، وكذٰلكَ يحبُّ الإنسانُ اتساعَ الجاهِ ، وانتشارَ الصِّيتِ إلىٰ أقاصي البلادِ التي يعلمُ قطعاً أنَّهُ لا يطؤُها ولا يشاهدُ أصحابَها ؛ ليعظِّموهُ ، أوْ ليبرُّوهُ بمالٍ ، أوْ ليعينوهُ علىٰ غرضٍ مِنْ أغراضِهِ ، ومعَ اليأسِ مِنْ ذٰلكَ فإنَّهُ يلتذُّ بهِ غايةَ الالتذاذِ ، وحبُّ ذٰلكَ ثابتٌ في الطبعِ ، ويكادُ يُظنُّ أنَّ ذٰلكَ جهلٌ ؛ فإنَّهُ حبٌّ لما لا فائدةَ فيهِ لا في الدنيا ولا في الآخرةِ .

فنقولُ : **نعمْ** ، هٰذا الحبُّ لا تنفكُّ عنهُ القلوبُ ، ولهُ سببانِ : أحدُهُما جليٌّ تدركُهُ الكافةُ ، والآخرُ خفيٌّ ، وهوَ أعظمُ السببينِ ، ولٰكنَّهُ أدقُّهُما وأخفاهُما وأبعدُهُما عنْ أفهامِ الأذكياءِ فضلاً عنِ الأغبياءِ ؛ وذٰلكَ لاستمدادِهِ مِنْ عِرْقٍ خفيٍّ في النفسِ ، وطبيعةٍ مستكنَّةٍ في الطبعِ ، لا يكادُ يقفُ عليها إلا الغوَّاصونَ .

فأمَّا السببُ الأوَّلُ : فهوَ دفعُ ألمِ الخوفِ ؛ لأنَّ الشفيقَ[1] بسوءِ الظنِّ مولعٌ ، والإنسانُ وإنْ كانَ مكفيّاً في الحالِ فإنَّهُ طويلُ الأملِ ، ويخطرُ ببالِهِ أنَّ المالَ الذي فيهِ كفايتُهُ ربَّما يتلفُ ، فيحتاجُ إلىٰ غيرِهِ ، فإذا خطرَ ذٰلكَ ببالِهِ . . هاجَ الخوفُ مِنْ قلبِهِ ، ولا يدفعُ ألمَ الخوفِ إلا الأمنُ الحاصلُ بوجودِ مالٍ آخرَ يفزعُ إليهِ إنْ أصابَتْ هٰذا المالَ جائحةٌ ، فهوَ أبداً لشفقتِهِ علىٰ نفسِهِ وحبِّهِ للجاهِ يقدِّرُ طولَ الحياةِ ، ويقدِّرُ هجومَ الحاجاتِ ، ويقدِّرُ إمكانَ تطرُّقِ الآفاتِ إلى الأموالِ ، ويستشعرُ الخوفَ مِنْ ذٰلكَ ، فيطلبُ ما يدفعُ خوفَهُ ، وهوَ كثرةُ المالِ ، حتَّىٰ إنْ أُصيبَ بطائفةٍ مِنْ مالِهِ . . استغنىٰ بالآخرِ .

وهٰذا خوفٌ لا موقفَ لهُ عندَ مقدارٍ مخصوصٍ مِنَ المالِ ، فلذٰلكَ لمْ يكنْ لمثلِهِ مُوقِفٌ إلىٰ أنْ يملكَ جميعَ ما في

---

(١) أي : الخائف علىٰ نفسه . « إتحاف » (٨/٢٤١) .

الدنيا ؛ ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ ؛ منهومُ العلمِ ، ومنهومُ المالِ »(١)

ومثلُ هٰذهِ العلةِ تطردُ في حبِّهِ قيامَ المنزلةِ والجاهِ في قلوبِ الأباعدِ عنْ وطنِهِ وبلدِهِ ؛ فإنَّهُ لا يخلو عنْ تقديرِ سببٍ يزعجُهُ عنِ الوطنِ ، أوْ يُزعجُ أولٰئكَ عنْ أوطانِهِمْ إلىٰ وطنِهِ ويحتاجُ إلى الاستعانةِ بِهِمْ ، ومهما كانَ ذٰلكَ ممكناً ، ولمْ يكنِ احتياجُهُ إليهِمْ مستحيلاً إحالةً ظاهرةً . . كانَ للنفسِ فرحٌ ولذةٌ بقيامِ الجاهِ في قلوبِهِمْ ؛ لما فيهِ مِنَ الأمنِ مِنْ هٰذا الخوفِ .

وأما السببُ الثاني ـ وهوَ الأقوىٰ ـ : أنَّ الروحَ أمرٌ ربانيٌّ ، بِهِ وصفَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ إذ قالَ سبحانَهُ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ ، ومعنىٰ كونِهِ ربانياً : أنَّهُ مِنْ أسرارِ علومِ المكاشفةِ ، ولا رخصةَ في إظهارِهِ ؛ إذْ لمْ يظهرْهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) ، ولٰكنَّكَ قبلَ معرفةِ ذٰلكَ تعلمُ أنَّ للقلبِ ميلاً إلىٰ صفاتٍ بهيميَّةٍ ؛ كالأكلِ والوقاعِ ، وإلىٰ صفاتٍ سبعيَّةٍ ؛ كالقتلِ والضربِ والإيذاءِ ، وإلىٰ صفاتٍ شيطانيَّةٍ ؛ كالمكرِ والخديعةِ والإغواءِ ، وإلىٰ صفاتٍ ربوبيَّةٍ ؛ كالكبرِ والعزِّ والتجبُّرِ وطلبِ الاستعلاءِ ؛ وذٰلكَ لأنَّهُ مركَّبٌ مِنْ أصولٍ مختلفةٍ يطولُ شرحُ تفصيلِها ، فهوَ لما فيهِ مِنَ الأمرِ الربانيِّ يحبُّ الرُّبوبيَّةَ بالطَّبعِ ، ومعنى الربوبيَّةِ : التوحُّدُ بالكمالِ ، والتفرُّدُ بالوجودِ علىٰ سبيلِ الاستقلالِ ، فصارَ الكمالُ مِنْ نعوتِ الإلـٰهيَّةِ ، فصارَ محبوباً بالطَّبعِ للإنسانِ ، والكمالُ بالتفرُّدِ بالوجودِ ؛ فإنَّ المشاركةَ في الوجودِ نقصٌ لا محالةَ ، فكمالُ الشمسِ في أنَّها موجودةٌ وحدَها ، فلوْ كانَ معها شمسٌ أخرىٰ . . لكانَ ذٰلكَ نقصاناً في حقِّها ؛ إذْ لمْ تكنْ منفردةً بكمالِ معنى الشمسيَّةِ .

والمنفردُ بالوجودِ هوَ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ ليسَ معَهُ موجودٌ سواهُ ، فإنَّ ما سواهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، لا قوامَ لهُ بذاتِهِ ، بلْ هوَ قائمٌ بهِ ، فلمْ يكنْ موجوداً معَهُ ؛ لأنَّ المعيَّةَ توجبُ المساواةَ في الرتبةِ ، والمساواةُ في الرتبةِ نقصانٌ في الكمالِ ، بلِ الكاملُ مَنْ لا نظيرَ لهُ في رتبتِهِ ، فكما أنَّ إشراقَ نورِ الشمسِ في أقطارِ الآفاقِ ليسَ نقصاناً في الشمسِ ، بلْ هوَ مِنْ جملةِ كمالِها ، وإنَّما نقصانُ الشمسِ بوجودِ شمسٍ أخرىٰ تساويها في الرُّتبةِ معَ الاستغناءِ عنها . . فكذٰلكَ وجودُ كلِّ ما في العالمِ يرجعُ إلىٰ إشراقِ أنوارِ القدرةِ ، فيكونُ تابعاً ولا يكونُ معاً .

فإذاً ؛ معنى الرُّبوبيَّةِ : التفردُ بالوجودِ ، وهوَ الكمالُ ، وكلُّ إنسانٍ فإنَّهُ بطبعِهِ محبٌّ لأنْ يكونَ هوَ المنفردَ بالكمالِ ؛ ولذٰلكَ قالَ بعضُ مشايخِ الصوفيةِ : (ما مِنْ إنسانٍ إلا وفي باطنِهِ ما صرَّحَ بهِ فرعونُ مِنْ قولِهِ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ ، ولـٰكنَّهُ ليسَ يجدُ لهُ مجالاً) ، وهوَ كما قالَ ؛ فإنَّ العبوديَّةَ قهرٌ على النفسِ ، والربوبيةُ محبوبةٌ بالطَّبعِ ، وذٰلكَ للنسبةِ الرَّبانيَّةِ التي أومأَ إليها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾

ولـٰكنْ لما عجزَتِ النفسُ عنْ دركِ منتهى الكمالِ . . لمْ تسقطْ شهوتُها للكمالِ ، فهيَ محبَّةٌ للكمالِ ، ومشتهيةٌ لهُ ، وملتذَّةٌ بهِ لذاتِهِ ، لا لمعنىً آخرَ وراءَ الكمالِ ، فكلُّ موجودٍ فهوَ محبٌّ لذاتِهِ ، ولكمالِ ذاتِهِ ، ومبغضٌ الهلاكَ الذي هوَ عدمُ ذاتِهِ ، أو عدمُ صفاتِ الكمالِ مِنْ ذاتِهِ ، وإنَّما الكمالُ بعدَ أنْ يَسْلَمَ لهُ التفرُّدُ بالوجودِ في الاستيلاءِ علىٰ كلِّ الموجوداتِ ، فإنَّ أكملَ الكمالِ أنْ يكونَ وجودُ غيرِكَ منكَ ، فإنْ لم يكنْ منكَ . . فأنْ تكونَ مستولياً عليهِ ، فصارَ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٩٢/١) من حديث أنس مرفوعاً ، ولفظه : « منهومان لا يشبعان : منهوم في علم لا يشبع ، ومنهوم في دنيا لا يشبع » .

(٢) كما في « البخاري » (١٢٥) ، و« مسلم » (٢٧٩٤) .

الاستيلاءُ على الكلِّ محبوباً بالطبع ؛ لأنَّهُ نوعُ كمالٍ ، وكلُّ موجودٍ يعرفُ ذاتَهُ فإنَّهُ يحبُّ ذاتَهُ ، ويحبُّ كمالَ ذاتِهِ ويلتذُّ بهِ ، إلا أنَّ الاستيلاءَ على الشيءِ . . بالقدرةِ على التأثيرِ فيهِ ، وعلىٰ تغييرِهِ بحسبِ الإرادةِ ، وكونِهِ مسخراً لكَ ترددُهُ كيفَ تشاءُ ، فأحبَّ الإنسانُ أنْ يكونَ لهُ الاستيلاءُ علىٰ كلِّ الأشياءِ الموجودةِ معَهُ ، إلا أنَّ الموجوداتِ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا يقبلُ التغييرَ في نفسِهِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ .

وإلىٰ ما يقبلُ التغييرَ ولٰكنْ لا تستولي عليهِ قدرةُ الخلقِ ؛ كالأفلاكِ ، والكواكبِ ، وملكوتِ السماواتِ ، ونفوسِ الملائكةِ والجنِّ والشياطينِ ، وكالجبالِ ، والبحارِ ، وما تحتَ الجبالِ والبحارِ .

وإلىٰ ما يقبلُ التغييرَ بقدرةِ العبدِ ؛ كالأرضِ وأجزائِها ، وما عليها مِنَ المعادنِ والنباتِ والحيوانِ ، ومِنْ جملتِها قلوبُ الناسِ ؛ فإنَّها قابلةٌ للتأثيرِ والتغييرِ مثلُ أجسادِهِمْ وأجسادِ الحيواناتِ .

فإذاً ؛ انقسمَتِ الموجوداتُ إلىٰ ما يقدرُ الإنسانُ على التصرفِ فيهِ ؛ كالأرضياتِ ، وإلىٰ ما لا يقدرُ على التصرفِ فيهِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ ، والملائكةِ ، والسماواتِ ، فأحبَّ الإنسانُ أنْ يستوليَ على السماواتِ بالعلمِ والإحاطةِ والاطلاعِ علىٰ أسرارِها ، فإنَّ ذٰلكَ نوعُ استيلاءٍ ؛ إذِ المعلومُ المحاطُ بهِ كالداخلِ تحتَ العلمِ ، والعالِمُ كالمستولي عليهِ ؛ فلذٰلكَ أحبَّ أن يعرفَ اللهَ تعالىٰ ، والملائكةَ ، والأفلاكَ والكواكبَ ، وجميعَ عجائبِ السماواتِ ، وعجائبِ البحارِ والجبالِ وغيرِها ؛ لأنَّ ذٰلكَ نوعُ استيلاءٍ عليها ، والاستيلاءُ نوعُ كمالٍ ، وهٰذا يضاهي اشتياقَ مَنْ عجزَ عنْ صنعةٍ عجيبةٍ إلىٰ معرفةِ طريقِ الصنعةِ فيها ؛ كمَنْ يعجزُ عنْ وضعِ الشطرنجِ ، فإنَّهُ قدْ يشتهي أنْ يعرفَ اللعبَ بهِ ، وأنَّهُ كيفَ وُضِعَ ، وكمَنْ يرىٰ صنعةً عجيبةً في الهندسةِ ، أوِ الشعبذةِ ، أوْ جرِّ الثقيلِ أوْ غيرِهِ ، وهوَ مستشعرٌ في نفسِهِ نقصَ العجزِ والقصورَ عنهُ ، ولٰكنَّهُ يشتاقُ إلىٰ معرفةِ كيفيتِهِ ، فهوَ متألِّمٌ بنقصِ العجزِ ، متلذِّذٌ بكمالِ العلمِ إنْ علمَهُ .

وأمَّا القسمُ الثاني : وهوَ الأرضياتُ التي يقدرُ الإنسانُ عليها . . فإنَّهُ يحبُّ بالطَّبعِ أنْ يستوليَ عليها بالقدرةِ على التصرفِ فيها كيفَ يريدُ ، وهيَ قسمانِ : أجسادٌ ، وأرواحٌ .

أمَّا الأجسادُ : فهيَ الدراهمُ ، والدنانيرُ ، والأمتعةُ ، فيحبُّ أنْ يكونَ قادراً عليها ، يفعلُ فيها ما شاءَ مِنَ الرفعِ والوضعِ ، والتسليمِ والمنعِ ، فإنَّ ذٰلكَ قدرةٌ ، والقدرةُ كمالٌ ، والكمالُ من صفاتِ الربوبيةِ ، والربوبيةُ محبوبةٌ بالطَّبعِ ، فلذٰلكَ أحبَّ الأموالَ وإنْ كانَ لا يحتاجُ إليها في ملبسِهِ ومطعمِهِ وفي شهواتِ نفسِهِ ، وكذٰلكَ طلبُ استرقاقِ العبيدِ واستعبادِ أشخاصِ الأحرارِ ولوْ بالقهرِ والغلبةِ ، حتَّىٰ يتصرَّفَ في أجسادِهِمْ وأشخاصِهِمْ بالاستسخارِ وإنْ لمْ يملكْ قلوبَهُمْ ؛ فإنَّها ربَّما لمْ تعتقدْ كمالَهُ حتَّىٰ يصيرَ محبوباً لها وتقومَ منزلتُهُ فيها ، فإنَّ الحشمةَ القهريَّةَ أيضاً لذيذةٌ ؛ لما فيها مِنَ القدرةِ .

القسمُ الثاني : نفوسُ الآدميينَ وقلوبُهُمْ ، وهيَ أنفسُ ما علىٰ وجهِ الأرضِ ، فهوَ يحبُّ أنْ يكونَ لهُ استيلاءٌ وقدرةٌ عليها ؛ لتكونَ مسخَّرةً لهُ ، متصرِّفةً تحتَ إشارتِهِ وإرادتِهِ ؛ لما في ذٰلكَ مِنْ كمالِ الاستيلاءِ والتشبُّهِ بالصفاتِ الربَّانيةِ ، والقلوبُ إنَّما تتسخَّرُ بالحبِّ ، ولا تحبُّ إلا باعتقادِ الكمالِ ، فإنَّ كلَّ كمالٍ محبوبٌ ؛ لأنَّ الكمالَ مِنَ الصفاتِ الإلٰهيةِ ، والصفاتُ الإلٰهيةُ كلُّها محبوبةٌ بالطَّبعِ ؛ للمعنى الربانيِّ مِنْ جملةِ معاني الإنسانِ ، وهوَ الذي لا يبليهِ الموتُ فيعدمَهُ ، ولا يتسلطُ عليهِ الترابُ فيأكلَهُ ، فإنَّهُ محلُّ الإيمانِ والمعرفةِ ، وهوَ الواصلُ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ والساعي إليهِ .

فإذاً ؛ معنى الجاهِ : تسخيرُ القلوبِ ، ومَنْ تسخَّرَتْ لهُ القلوبُ . . كانَتْ لهُ قدرةٌ واستيلاءٌ عليها ، والقدرةُ والاستيلاءُ كمالٌ ، وهوَ مِنْ أوصافِ الربوبيةِ .

فإذاً ؛ محبوبُ القلبِ بطبعِهِ الكمالُ بالعلمِ والقدرةِ ، والمالُ والجاهُ مِنْ أسبابِ القدرةِ ، ولا نهايةَ للمعلوماتِ ، ولا نهايةَ للمقدوراتِ ، وما دامَ يبقىٰ معلومٌ أَوْ مقدورٌ فالشوقُ لا يسكنُ ، والنقصانُ لا يزولُ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ »(١)

فإذاً ؛ مطلوبُ القلوبِ الكمالُ ، والكمالُ بالعلمِ والقدرةِ ، وتفاوتُ الدرجاتِ فيهِ غيرُ محصورٍ ، فسرورُ كلِّ إنسانٍ ولذَّتُهُ بقدْرِ ما يدركُهُ مِنَ الكمالِ .

فهٰذا هوَ السببُ في كونِ العلمِ والمالِ والجاهِ محبوباً ، وهوَ أمرٌ ـ وراءَ كونِهِ محبوباً ـ لأجلِ التوصلِ إلىٰ قضاءِ الشهواتِ ، فإنَّ هٰذهِ العلَّةَ قدْ تبقىٰ معَ سقوطِ الشهواتِ ، بلْ يحبُّ الإنسانُ مِنَ العلومِ ما لا يصلحُ للتوصُّلِ بهِ إلى الأغراضِ ، بلْ ربَّما يفوِّتُ عليهِ جملةً مِنَ الأغراضِ والشهواتِ ، ولٰكنَّ الطبعَ يتقاضىٰ طلبَ العلمِ في جميعِ العجائبِ والمشكلاتِ ؛ لأنَّ في العلمِ استيلاءً على المعلومِ ، وهوَ نوعٌ مِنَ الكمالِ الذي هوَ مِنْ صفاتِ الربوبيةِ ؛ فكانَ محبوباً بالطبعِ ، إلا أنَّ في حبِّ كمالِ العلمِ والقدرةِ أغاليطَ لا بدَّ مِنْ بيانِها ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٩٢/١) .

بيان الكمال الحقيقيّ والكمال الوهميّ الّذي لا حقيقة له

قدْ عرفتَ أنَّهُ لا كمالَ بعدَ فواتِ التفرُّدِ بالوجودِ إلا فِي العلمِ والقدرةِ ، ولـٰكنَّ الكمالَ الحقيقيَّ فيهِ ملتبسٌ بالكمالِ الوهميِّ .

❁ ❁ ❁

وبيانُهُ : أنَّ كمالَ العلمِ للهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : مِنْ حيثُ كثرةُ المعلوماتِ وسعتُها ؛ فإنَّهُ محيطٌ بجميعِ المعلوماتِ ؛ فكذٰلكَ كلَّما كانَتْ علومُ العبدِ أكثرَ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

والثاني : مِنْ حيثُ تعلُّقُ العلمِ بالمعلومِ علىٰ ما هوَ بهِ ، وكونُ المعلومِ مكشوفاً بهِ كشفاً تاماً ، فإنَّ المعلوماتِ مكشوفةٌ للهِ تعالىٰ بأتمِّ أنواعِ الكشفِ علىٰ ما هيَ عليهِ ؛ فكذٰلكَ مهما كانَ علمُ العبدِ أوضحَ ، وأيقنَ وأصدقَ ، وأوفقَ للمعلومِ في تفاصيلِ صفاتِ المعلومِ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

والثالثُ : مِنْ حيثُ بقاءُ العلمِ أبدَ الآبادِ ، بحيثُ لا يتغيرُ ولا يزولُ ، فإنَّ علمَ اللهِ تعالىٰ باقٍ لا يُتصوَّرُ أنْ يتغيَّرَ . فكذٰلكَ مهما كانَ علمُ العبدِ بمعلوماتٍ لا يقبلُ التغيُّرَ والانقلابَ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

والمعلوماتُ قسمانِ : متغيراتٌ وأزلياتٌ :

أمَّا المتغيراتُ : فمثالُها : العلمُ بكونِ زيدٍ في الدارِ ، فإنَّهُ علمٌ لهُ معلومٌ ، ولـٰكنْ يُتصوَّرُ أنْ يخرجَ زيدٌ مِنَ الدارِ ، ويبقى اعتقادُ كونِهِ في الدارِ كما كانَ ، فينقلبُ جهلاً ، فيكونُ نقصاناً لا كمالاً ، فكلُّ ما اعتقدتَهُ اعتقاداً موافقاً لهُ وتُصوِّرَ أنْ ينقلبَ المعتقدُ فيهِ عمَّا اعتقدتَهُ . . كنتَ بصددِ أنْ ينقلبَ كمالُكَ نقصاً ، ويعودَ علمُكَ جهلاً .

ويلتحقُ بهـٰذا المثالِ جميعُ متغيراتِ العالمِ ؛ كعلمِكَ مثلاً بارتفاعِ جبلٍ ، ومساحةِ أرضٍ ، وبعددِ البلادِ ، وتباعدِ ما بينَها مِنَ الأميالِ والفراسخِ ، وسائرِ ما يُذكرُ في المسالِكِ والممالِكِ ، وكذٰلِكَ العلمُ باللغاتِ التي هيَ اصطلاحاتٌ تتغيَّرُ بتغيُّرِ الأعصارِ والأممِ والعاداتِ ، فهـٰذهِ علومٌ معلوماتُها مثلُ الزئبقِ ، تتغيَّرُ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ ، فليسَ فيها كمالٌ إلا في الحالِ ، ولا يبقىٰ كمالاً في القلبِ .

والقسمُ الثاني : هيَ **المعلوماتُ الأزليَّةُ** : وهيَ جوازُ الجائزاتِ ، ووجوبُ الواجباتِ ، واستحالةُ المستحيلاتِ ، فإنَّ هـٰذهِ معلوماتٌ أزليةٌ أبديةٌ ؛ إذْ لا يستحيلُ الواجبُ قطُّ جائزاً ، ولا الجائزُ محالاً ، ولا المحالُ واجباً ، وكلُّ هـٰذهِ الأقسامِ داخلةٌ في معرفةِ اللهِ ، وما يجبُ لهُ ، وما يستحيلُ في صفاتِهِ ، ويجوزُ في أفعالِهِ ، فالعلمُ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وحكمتِهِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وترتيبِ الدنيا والآخرةِ ، وما يتعلَّقُ بهِ . . هوَ الكمالُ الحقيقيُّ الذي يقرِّبُ مَنْ يتَّصفُ بهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويبقىٰ كمالاً للنفسِ بعدَ الموتِ ، فتكونُ هـٰذهِ المعرفةُ نوراً للعارفينَ بعدَ الموتِ يسعىٰ بينَ أيديهِمْ وبأيمانِهِمْ ، يقولونَ : ربَّنا أتممْ لنا نورَنا ؛ أيْ : تكونُ هـٰذهِ المعرفةُ رأسَ مالٍ يوصلُ إلىٰ كشفِ ما لمْ ينكشفْ في الدنيا ، كما أنَّ مَنْ معَهُ سراجٌ خفيٌّ . . فإنَّهُ يجوزُ أنْ يصيرَ ذٰلكَ سبباً لزيادةِ النورِ بسراجٍ آخرَ يقتبسُ منهُ ، فيكملُ النورُ

بذلكَ النورِ الخفيِّ على سبيلِ الاستتمامِ ، ومَنْ ليسَ معَهُ أصلُ السراجِ . . فلا مطمعَ لهُ في ذٰلكَ ، فمَنْ ليسَ معَهُ أصلُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ . . لمْ يكنْ لهُ مطمعٌ في هٰذا النورِ ، فيبقىٰ كمَنْ مثلُهُ في الظُّلماتِ ليسَ بخارجٍ مِنْها ، بلْ كظلماتٍ في بحرٍ لجّيٍّ ، يغشاهُ موجٌ مِنْ فوقِهِ موجٌ مِنْ فوقِهِ سحابٌ ، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ لا سعادةَ إلا في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا ما عدا ذٰلكَ مِنَ المعارفِ . . فمنها ما لا فائدةَ لها أصلاً ؛ كمعرفةِ الشِّعرِ وأنسابِ العربِ وغيرِ ذٰلكَ ، ومِنْها ما لها فائدةٌ في الإعانةِ علىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ؛ كمعرفةِ لغةِ العربِ ، والتفسيرِ ، والفقهِ ، والأخبارِ ، فإنَّ معرفةَ لغةِ العربِ تعينُ علىٰ معرفةِ تفسيرِ القرآنِ ، ومعرفةَ التفسيرِ تعينُ علىٰ معرفةِ ما في القرآنِ مِنْ كيفيةِ العباداتِ والأعمالِ التي تفيدُ تزكيةَ النفسِ ، ومعرفةَ طريقِ تزكيةِ النفسِ تفيدُ استعدادَ النفسِ لقبولِ الهدايةِ إلىٰ معرفةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، فتكونُ جملةُ هٰذهِ المعارفِ كالوسائلِ إلىٰ تحقيقِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما الكمالُ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وينطوي فيهِ جميعُ المعارفِ المحيطةِ بالموجوداتِ ؛ إذِ الموجوداتُ كلُّها مِنْ أفعالِهِ ، فمَنْ عرفَها مِنْ حيثُ هيَ فعلُ اللهِ تعالىٰ ، ومِنْ حيثُ ارتباطُها بالقدرةِ والإرادةِ والحكمةِ . . فهيَ مِنْ تكملةِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

هٰذا حكمُ كمالِ العلمِ ذكرناهُ وإنْ لمْ يكنْ لائقاً بأحكامِ الجاهِ والرياءِ ، ولٰكنْ أوردناهُ لاستيفاءِ أقسامِ الكمالِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا القدرةُ :

فليسَ فيها كمالٌ حقيقيٌّ للعبدِ ، بلْ للعبدِ علمٌ حقيقيٌّ ، وليسَ لهُ قدرةٌ حقيقيةٌ ، وإنَّما القدرةُ الحقيقيةُ للهِ تعالىٰ (١) ، وما يحدثُ مِنَ الأشياءِ عقيبَ إرادةِ العبدِ وقدرتِهِ وحركتِهِ . . فهيَ حادثةٌ بإحداثِ اللهِ ؛ كما قررناهُ في كتابِ الصبرِ والشكرِ ، وكتابِ التوكلِ ، وفي مواضعَ شتَّىٰ مِنْ ربعِ المنجياتِ ، فكمالُ العلمِ يبقىٰ معَهُ بعدَ الموتِ ، ويوصلُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فأمَّا كمالُ القدرةِ . . فلا .

نعمْ ؛ لهُ كمالٌ مِنْ جهةِ القدرةِ بالإضافةِ إلى الحالِ ، وهيَ وسيلةٌ لهُ إلىٰ كمالِ العلمِ ؛ كسلامةِ أطرافِهِ ، وقوَّةِ يديهِ للبطشِ ، ورجليهِ للمشيِ ، وحواسِّهِ للإدراكِ ؛ فإنَّ هٰذهِ القوىٰ آلاتٌ للوصولِ بها إلىٰ حقيقةِ كمالِ العلمِ ، وقدْ يحتاجُ في استيفاءِ هٰذهِ القوىٰ إلى القدرةِ بالمالِ والجاهِ للتوصُّلِ بهِ إلى المطعمِ والمشربِ والملبسِ والمسكنِ ، وذٰلكَ إلىٰ قدْرٍ معلومٍ ، فإنْ لمْ يستعملْهُ للوصولِ بهِ إلىٰ معرفةِ جلالِ اللهِ تعالىٰ . . فلا خيرَ فيهِ ألبتةَ إلا مِنْ حيثُ اللَّذةُ الحاليةُ التي تنقضي على القربِ ، ومَنْ ظنَّ ذٰلكَ كمالاً . . فقدْ جهلَ .

فالخلقُ أكثرهُمْ هالكونَ في غمرةِ هٰذا الجهلِ ، فإنَّهُمْ يظنُّونَ أنَّ القدرةَ على الأجسادِ بقهرِ الحشمةِ ، وعلىٰ أعيانِ

---

(١) ولقائل أن يقول : والعلم كالقدرة أيضاً ؛ إذ العلم الحقيقي لله وحده ، وعلم العبد حادث بخلق الله سبحانه ، قال عز من قائل : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ ، وللعبد علم يناسب حاله كما أن له قدرة تناسب حاله وتصحح تكليفه ، فالمرادُ بقول المصنف : (للعبد علم حقيقي) المعرفةُ التي هي أسُّ كمالات العبد ، وعلة تكليفه الأصيلة ، فحقيقته بصلاحه لطلب غايات الكمال ، وتصوُّر ديمومته للعبد أبد الآباد ، بخلاف القدرة التي هي وسيلة من جهة ، ومن أخرىٰ غير متصوَّرة الاستصحاب .

الأموالِ بسعةِ الغنىٰ ، وعلىٰ تعظيمِ القلوبِ بسعةِ الجاهِ . . كمالٌ ، فلمّا اعتقدوا ذٰلكَ . . أحبُّوهُ ، ولمّا أحبُّوهُ . . طلبوهُ ، ولمّا طلبوهُ . . شُغلوا بهِ ، وتهالكوا عليهِ ، فنسوا الكمالَ الحقيقيَّ الذي يوجبُ القربَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ومِنْ ملائكتِهِ ، وهوَ العلمُ والحريَّةُ ، أمَّا العلمُ . . فما ذكرناهُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الحريةُ . . فالخلاصُ مِنْ أسرِ الشهواتِ وغمومِ الدنيا ، والاستيلاءُ عليها بالقهرِ ؛ تشبهاً بالملائكةِ الذينَ لا تستفزُّهُمُ الشهوةُ ، ولا يستهويهِمُ الغضبُ ، فإنَّ دفعَ آثارِ الغضبِ والشهواتِ عنِ النفسِ مِنَ الكمالِ الذي هوَ منْ صفاتِ الملائكةِ .

ومِنْ صفاتِ الكمالِ للهِ تعالى استحالةُ التغيُّرِ والتأثُّرِ عليهِ ، فمَنْ كانَ عنِ التغيُّرِ والتأثُّرِ بالعوارضِ أبعدَ . . كانَ إلى اللهِ تعالىٰ أقربَ ، وبالملائكةِ أشبهَ ، ومنزلتُهُ عندَ اللهِ أعظمَ ، وهٰذا كمالٌ ثالثٌ سوىٰ كمالِ العلمِ والقدرةِ ، وإنَّما لمْ نوردْهُ في أقسامِ الكمالِ ؛ لأنَّ حقيقتَهُ ترجعُ إلىٰ عدمٍ ونقصانٍ ، فإنَّ التغيُّرَ نقصانٌ ؛ إذْ هوَ عبارةٌ عنْ عدمِ صفةٍ كائنةٍ وهلاكِها ، والهلاكُ نقصٌ في الذاتِ وفي صفاتِ الكمالِ للذاتِ .

فإذاً ؛ الكمالاتُ ثلاثةٌ ـ إنْ عددنا عدمَ التغيُّرِ بالشهواتِ وعدمَ الانقيادِ لها كمالاً ـ : كمالُ العلمِ ، وكمالُ القدرةِ ، وكمالُ الحريةِ ؛ وأعني بهِ : عدمَ العبوديةِ للشهواتِ وإراداتِ الأسبابِ الدُّنيويةِ ، وكمالُ القدرةِ للعبدِ طريقٌ إلى اكتسابِ كمالِ العلمِ وكمالِ الحريةِ ، ولا طريقَ لهُ إلى اكتسابِ كمالِ القدرةِ الباقيةِ بعدَ موتِهِ ؛ إذْ قدرتُهُ علىٰ أعيانِ الأموالِ وعلى استسخارِ القلوبِ والأبدانِ تنقطعُ بالموتِ ، ومعرفتُهُ وحرِّيَّتُهُ لا ينعدمانِ بالموتِ ، بلْ يبقيانِ كمالاً فيهِ ، ووسيلةً إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

فانظرْ كيفَ انقلبَ الجاهلونَ وانكبُّوا علىٰ وجوهِهِمُ انكبابَ العميانِ ، فأقبلوا علىٰ طلبِ كمالِ القدرةِ بالجاهِ والمالِ ، وهوَ الكمالُ الذي لا يسلمُ ، وإن سلمَ . . فلا بقاءَ لهُ ، وأعرضوا عنْ كمالِ الحريَّةِ والعلمِ الذي إذا حصلَ . . كانَ أبديّاً لا انقطاعَ لهُ ، وهٰؤلاءِ همُ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فلا جرَم لا يُخفَّفُ عنهُمُ العذابُ ولا هُمْ يُنظرونَ ، وهمُ الذينَ لم يفهموا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ، فالعلمُ والحريةُ هيَ الباقياتُ الصالحاتُ التي تبقىٰ كمالاً في النفسِ ، والمالُ والجاهُ هوَ الذي ينقضي على القربِ ، وهوَ كما مثَّلَهُ اللهُ تعالىٰ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ ، وكلُّ ما تذروهُ رياحُ الموتِ فهوَ زهرةُ الحياةِ الدنيا ، وكلُّ ما لا يقطعُهُ الموتُ فهوَ الباقياتُ الصالحاتُ .

فقدْ عرفتَ بهٰذا أنَّ كمالَ القدرةِ بالمالِ والجاهِ كمالٌ ظنيٌّ لا أصلَ لهُ ، وأنَّ مَنْ قَصَرَ الوقتَ علىٰ طلبِهِ وظنَّهُ مقصوداً فهوَ جاهلٌ .

وإليهِ أشارَ أبو الطيِّبِ بقولِهِ(١) :

وَمَنْ يُنْفِقِ السّاعاتِ في جَمْعِ مالِهِ مَخافَةَ فَقْرٍ فَالَّذي فَعَلَ الْفَقْرُ

إلا قدْرَ البُلْغةِ منهما إلى الكمالِ الحقيقيِّ ، اللهمَّ ؛ اجعلْنا ممَّنْ وفقتَهُ للخيرِ وهديتَهُ بلطفِكَ .

* * *

(١) البيت في « ديوانه بشرح العكبري » (٢/١٥٠) .

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفتَ أنَّ معنى الجاهِ ملكُ القلوبِ والقدرةُ عليها . . فحكمُهُ حكمُ ملكِ الأموالِ ، فإنَّهُ عرَضٌ مِنْ أعراضِ الحياةِ الدنيا ، وينقطعُ بالموتِ كالمالِ ، والدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، فكلُّ ما خُلقَ في الدنيا فيمكنُ أنْ يُتزوَّدَ مِنْه للآخرةِ ، وكما أنَّهُ لا بدَّ مِنْ أدنىٰ مالٍ لضرورةِ المطعمِ والمشربِ والملبسِ . . فلا بدَّ مِنْ أدنىٰ جاهٍ لضرورةِ المعيشةِ معَ الخلقِ ، والإنسانُ كما لا يستغني عنْ طعامٍ يتناولُهُ فيجوزُ أن يحبَّ الطعامَ أوِ المالَ الذي يبتاعُ بِهِ الطعامَ . . فكذلكَ لا يخلو عنِ الحاجةِ إلىٰ خادمٍ يخدمُهُ ، ورفيقٍ يعينُهُ ، وأستاذٍ يرشدُهُ ، وسلطانٍ يحرسُهُ ويدفعُ عنهُ ظلمَ الأشرارِ ، فحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ خادمِهِ مِنَ المحلِّ ما يدعوهُ إلى الخدمةِ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ رفيقِهِ مِنَ المحلِّ ما يحسِنُ بِهِ مرافقتَهُ ومعاونتَهُ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ أستاذِهِ مِنَ المحلِّ ما يحسِنُ بِهِ إرشادَهُ وتعليمَهُ والعنايةَ بِهِ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لَهُ مِنَ المحلِّ في قلبِ سلطانِهِ ما يحثُّهُ ذلكَ علىٰ دفعِ الشرِّ عنْهُ ليسَ بمذمومٍ ؛ فإنَّ الجاهَ وسيلةٌ إلى الأغراضِ كالمالِ ، فلا فرقَ بينَهُما .

إلا أنَّ التحقيقَ في هٰذا يفضي إلىٰ ألا يكونَ المالُ والجاهُ في أعيانِهِما محبوبينِ ، بلْ ينزلُ ذلكَ منزلةَ حبِّ الإنسانِ أنْ يكونَ في دارِهِ بيتُ ماءٍ ؛ لأنَّهُ مضطرٌّ إليهِ لقضاءِ حاجتِهِ ، وكانَ يودُّ لوِ استغنىٰ عنْ قضاءِ الحاجةِ حتَّىٰ يستغنيَ عنْ بيتِ الماءِ ، وهٰذا على التحقيقِ ليسَ بحبٍّ لبيتِ الماءِ ، فكلُّ ما يُرادُ للتوصُّلِ بِهِ إلىٰ محبوبٍ . . فالمحبوبُ هوَ المقصودُ المتوصَّلُ إليهِ .

وتُدركُ التفرقةُ بمثالٍ آخرَ ؛ وهوَ أنَّ الرجلَ قدْ يحبُّ زوجتَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ يدفعُ بها فضلةَ الشهوةِ كما يدفعُ ببيتِ الماءِ فضلةَ الطعامِ ، ولوْ كُفيَ مؤنةَ الشهوةِ . . لكانَ يهجرُ زوجتَهُ ، كما أنَّهُ لوْ كُفِيَ قضاءَ الحاجةِ . . لكانَ لا يدخلُ بيتَ الماءِ ولا يدورُ بِهِ ، وقدْ يحبُّ زوجتَهُ لذاتِها حبَّ العشَّاقِ ، ولوْ كُفِي الشهوةَ . . لبقيَ مستصحباً لنكاحِها ، فهٰذا هوَ الحبُّ دونَ الأولِ ، وكذلكَ الجاهُ والمالُ قدْ يحبُّ كلَّ واحدٍ منهُما علىٰ هٰذينِ الوجهينِ ، فحبُّهُما لأجلِ التوصُّلِ بهِما إلىٰ مهمَّاتِ البدنِ غيرُ مذمومٍ ، وحبُّهُما لأعيانِهِما فيما يجاوزُ ضرورةَ البدنِ وحاجتَهُ مذمومٌ ، ولٰكنَّهُ لا يُوصفُ صاحبُهُ بالفسقِ والعصيانِ ما لمْ يحملْهُ الحبُّ علىٰ مباشرةِ معصيةٍ ، وما لمْ يتوصَّلْ إلى اكتسابِهِ بكذبٍ وخداعٍ وارتكابِ محظورٍ ، وما لمْ يتوصَّلْ إلى اكتسابِهِ بعبادةٍ ؛ فإنَّ التوصُّلَ إلى الجاهِ والمالِ بالعبادةِ جنايةٌ على الدينِ ، وهوَ حرامٌ ، وإليهِ يرجعُ معنى الرِّياءِ المحظورِ كما سيأتي .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : طلبُهُ المنزلةَ والجاهَ في قلبِ أستاذِهِ وخادمِهِ ورفيقِهِ وسلطانِهِ ومَنْ يرتبطُ بِهِ أمرُهُ . . مباحٌ على الإطلاقِ كيفما كانَ ، أوْ يُباحُ إلىٰ حدٍّ مخصوصٍ وعلىٰ وجهٍ مخصوصٍ ؟

فأقولُ : يُطلبُ ذلكَ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ : وجهانِ منها مباحانِ ، ووجهٌ محظورٌ .

أمَّا الوجهُ المحظورُ : فهوَ أنْ يطلبَ قيامَ المنزلةِ في قلوبِهِمْ باعتقادِهِمْ فيهِ صفةً هوَ منفكٌّ عنها ؛ مثلَ العلمِ والورعِ والنسبِ ، فيظهرُ لهُمْ أنَّهُ علويٌّ أوْ عالمٌ أوْ ورعٌ ولا يكونُ كذلكَ ، فهٰذا حرامٌ ؛ لأنَّهُ كذبٌ وتلبيسٌ ؛ إمَّا بالقولِ وإمَّا بالمعاملةِ .

وأمّا أحدُ المباحينِ : فهوَ أنْ يطلبَ المنزلةَ بصفةٍ هوَ متصفٌ بها ؛ كقولِ يوسفَ عليهِ السلامُ فيما أخبرَ عنهُ الربُّ تعالىٰ : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ فإنَّهُ طلبَ المنزلةَ في قلبِهِ بكونِهِ حفيظاً عليماً ، وكانَ محتاجاً إليهِ ، وكانَ صادقاً فيهِ .

والثاني : أنْ يطلبَ إخفاءَ عيبٍ مِنْ عيوبِهِ ومعصيةٍ مِنْ معاصيهِ حتَّىٰ لا يُعلَمَ ، فلا تزولَ منزلتُهُ بهِ ، فهٰذا أيضاً مباحٌ ؛ لأنَّ حفظَ السترِ على القبائحِ جائزٌ ، ولا يجوزُ هتكُ السترِ وإظهارُ القبيحِ ، وهٰذا ليسَ فيهِ تلبيسٌ ، بلْ هوَ سدٌّ لطريقِ العلمِ بما لا فائدةَ في العلمِ بهِ ؛ كالذي يُخفي عنِ السلطانِ أنَّهُ يشربُ الخمرَ ، ولا يلقي إليهِ أنَّهُ ورعٌ ؛ فإنَّ قولَهُ : إنّي ورعٌ تلبيسٌ ، وعدمُ إقرارِهِ بالشربِ لا يوجبُ اعتقادَ الورعِ ، بلْ يمنعُ العلمَ بالشربِ .

ومِنْ جملةِ المحظوراتِ : تحسينُ الصلاةِ بينَ يديهِ ؛ ليحسُنَ فيهِ اعتقادُهُ ، فإنَّ ذٰلكَ رياءٌ ، وهوَ ملبِّسٌ ؛ إذْ يخيّلُ إليهِ أنَّهُ مِنَ المخلصينَ الخاشعينَ للهِ تعالىٰ ، وهوَ مراءٍ بما يفعلُهُ ، فكيفَ يكونُ مخلصاً ؟! فطلبُ الجاهِ بهٰذا الطريقِ حرامٌ ، وكذا بكلِّ معصيةٍ ، وذٰلكَ يجري مجرى اكتسابِ المالِ مِنْ غيرِ فرقٍ ، وكما لا يجوزُ أنْ يتملَّكَ مالَ غيرِهِ بتلبيسٍ في عوضٍ أوْ في غيرِهِ . . فلا يجوزُ لهُ أن يتملَّكَ قلبَهُ بتزويرٍ وخداعٍ ؛ فإنَّ ملكَ القلوبِ أعظمُ مِنْ ملكِ الأموالِ .

❋ ❋ ❋

بيان السبب في حب المدح والثناء، وارتياح النفس له، وميل الطباع إليه، وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلمْ : أنَّ لحبِّ المدحِ والتذاذِ القلبِ بهِ أربعةَ أسبابٍ :

السببُ الأولُ ـ وهوَ الأقوىٰ ـ : شعورُ النفسِ بالكمالِ ، فإنَّا بيَّنا أنَّ الكمالَ محبوبٌ ، وكلُّ محبوبٍ فإدراكُهُ لذيذٌ ، فمهما شعرَتِ النفسُ بكمالِها . . ارتاحَتْ ، واهتزَّتْ وتلذَّذَتْ ، والمدحُ يشعرُ نفسَ الممدوحِ بكمالِها ، فإنَّ الوصفَ الذي بهِ مدحٌ لا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ جليّاً ظاهراً ، أوْ يكونَ مشكوكاً فيهِ .

فإنْ كانَ جليّاً ظاهراً محسوساً . . كانَتِ اللَّذَّةُ فيهِ أقلَّ ، ولـٰكنَّهُ لا يخلو عنْ لذَّةٍ ؛ كثنائِهِ عليهِ بأنَّهُ طويلُ القامةِ ، أبيضُ اللونِ ، فإنَّ هـٰذا نوعُ كمالٍ ، ولـٰكنَّ النفسَ تغفُلُ عنهُ ، فتخلو عنْ لذَّتِهِ ، فإذا أُشعرَ بهِ . . لمْ يخلُ حدوثُ الشعورِ عنْ حدوثِ لذَّةٍ .

وإنْ كانَ ذٰلكَ الوصفُ ممَّا يتطرَّقُ إليهِ الشَّكُّ . . فاللذَّةُ فيهِ أعظمُ ؛ كالثناءِ عليهِ بكمالِ العلمِ ، وكمالِ الورعِ ، وبالحسنِ المطلقِ ، فإنَّ الإنسانَ ربَّما يكونُ شاكّاً في كمالِ حسنِهِ ، وكمالِ علمِهِ ، وكمالِ ورعِهِ ، ويكونُ مشتاقاً إلىٰ زوالِ هـٰذا الشكِّ ؛ بأنْ يصيرَ مستيقناً لكونِهِ عديمَ النظيرِ في هـٰذهِ الأمورِ ؛ إذْ تطمئنُّ نفسُهُ إليهِ ، فإذا ذكرَهُ غيرُهُ . . أورثَ ذٰلكَ طمأنينةً وثقةً باستشعارِ ذٰلكَ الكمالِ ، فتعظمُ لذَّتُهُ ، وإنَّما تعظمُ اللذَّةُ بهـٰذهِ العلَّةِ مهما صدرَ الثناءُ مِنْ بصيرٍ بهـٰذهِ الصفاتِ ، خبيرٍ بها ، لا يجازفُ في القولِ إلا عنْ تحقيقٍ ، وذٰلكَ كفرحِ التلميذِ بثناءِ أستاذِهِ عليهِ بالكياسةِ والذكاءِ وغزارةِ الفضلِ ، فإنَّهُ في غايةِ اللذَّةِ ، وإنْ صدرَ ممَّنْ يجازفُ في الكلامِ أوْ لا يكونُ بصيراً بذٰلكَ الوصفِ . . ضعُفَتِ اللذَّةُ .

وبهـٰذهِ العلَّةِ يبغضُ الذَّمَّ أيضاً ويكرهُهُ ؛ لأنَّهُ يشعرُهُ بنقصانِ نفسِهِ ، والنقصانُ ضدُّ الكمالِ المحبوبِ ، فهوَ ممقوتٌ ، والشعورُ بهِ مؤلمٌ ، ولذٰلكَ يعظمُ الألمُ إذا صدرَ الذَّمُّ مِنْ بصيرٍ موثوقٍ بهِ ، كما ذكرناهُ في المدحِ .

❀ ❀ ❀

السببُ الثاني : أنَّ المدحَ يدلُّ علىٰ أنَّ قلبَ المادحِ مملوكٌ للممدوحِ ، وأنَّهُ مريدٌ لهُ ، ومعتقدٌ فيهِ ، ومسخَّرٌ تحتَ مشيئتِهِ ، وملكُ القلوبِ محبوبٌ ، والشعورُ بحصولِهِ لذيذٌ ، وبهـٰذهِ العلَّةِ تعظمُ اللَّذةُ مهما صدرَ الثناءُ ممَّنْ تتَّسعُ قدرتُهُ ، وينتفعُ باقتناصِ قلبِهِ ؛ كالملوكِ والأكابرِ ، ويضعفُ مهما كانَ المُثني ممَّنْ لا يُؤبَهُ لهُ ، ولا يقدرُ علىٰ شيءٍ ، فإنَّ القدرةَ عليهِ بملكِ قلبِهِ قدرةٌ علىٰ أمرٍ حقيرٍ ، فلا يدلُّ المدحُ إلا علىٰ قدرةٍ قاصرةٍ ، وبهـٰذهِ العلَّةِ أيضاً يُكرهُ الذَّمُّ ، ويتألَّمُ بهِ القلبُ ، وإذا كانَ مِنَ الأكابرِ . . كانَتْ نكايتُهُ أعظمَ ؛ لأنَّ الفائتَ بهِ أعظمُ .

❀ ❀ ❀

السببُ الثالثُ : أنَّ ثناءَ المُثني ومدحَ المادحِ سببٌ لاصطيادِ قلبِ كلِّ مَنْ يسمعُهُ ، لا سيَّما إذا كانَ ممَّنْ يُلتفتُ إلىٰ قولِهِ ، ويُعتدُّ بثنائِهِ ، وهـٰذا يختصُّ بثناءٍ يقعُ على الملأ ، فلا جرمَ كلَّما كانَ الجمعُ أكثرَ والمُثني أجدرَ بأنْ يُلتفتَ إلىٰ قولِهِ . . كانَ المدحُ ألذَّ ، والذمُّ أشدَّ على النفسِ .

❀ ❀ ❀

السببُ الرابعُ : أنَّ المدحَ يدلُّ علىٰ حشمةِ الممدوحِ ، واضطرارِ المادحِ إلىٰ إطلاقِ اللسانِ بالثناءِ عليهِ ؛ إمَّا عنْ طوعٍ ، وإمَّا عنْ قهرٍ ، فإنَّ الحشمةَ أيضاً لذيذةٌ ؛ لما فيها مِنَ القهرِ والقدرةِ ، وهـٰذهِ اللذَّةُ تحصلُ وإنْ كانَ المادحُ لا يعتقدُ في الباطنِ ما مدحَ بهِ ، ولـٰكنْ كونُهُ مضطراً إلىٰ ذكرِهِ نوعُ قهرٍ واستيلاءٍ عليهِ ، فلا جرمَ تكونُ لذَّتُهُ بقدْرِ تمنُّعِ المادحِ وقوَّتِهِ ، فتكونُ لذَّةُ ثناءِ القويِّ الممتنعِ عنِ التواضعِ بالثناءِ أشدَّ .

فهـٰذهِ الأسبابُ الأربعةُ قدْ تجتمعُ في مدحِ مادحٍ واحدٍ فيعظمُ بها الالتذاذُ ، وقد تفترقُ فتنقصُ اللَّذَّةُ بها .

❊ ❊ ❊

أمَّا العلةُ الأولىٰ وهيَ استشعارُ الكمالِ . . فتندفعُ بأنْ يعلمَ الممدوحُ أنَّهُ غيرُ صادقٍ في مدحِهِ ؛ كما إذا مُدِحَ بأنَّهُ نسيبٌ ، أو سخيٌّ ، أو عالمٌ بعلمٍ ، أو متورِّعٌ عنِ المحظوراتِ ، وهوَ يعلمُ مِنْ نفسِهِ ضدَّ ذٰلكَ ، فتزولُ اللَّذَّةُ التي سببُها استشعارُ الكمالِ ، وتبقىٰ لذَّةُ الاستيلاءِ علىٰ قلبِهِ وعلىٰ لسانِهِ وبقيةُ اللَّذَّاتِ .

فإنْ كانَ يعلمُ أنَّ المادحَ ليسَ يعتقدُ ما يقولُهُ ويعلمُ خلوَّهُ عنْ هـٰذهِ الصفةِ . . بطلَتِ اللذَّةُ الثانيةُ ، وهوَ استيلاؤُهُ علىٰ قلبِهِ ، وتبقىٰ لذَّةُ الاستيلاءِ بالحشمةِ على اضطرارِ لسانِهِ إلى النطقِ بالثناءِ .

فإنْ لمْ يكنْ ذٰلكَ عنْ خوفٍ ، بلْ كانَ بطريقِ اللَّعِبِ . . بطلَتِ اللَّذاتُ كلُّها ، فلمْ يكنْ في المدحِ أصلاً لذةٌ ؛ لفواتِ الأسبابِ الثلاثةِ .

فهـٰذا ما يكشفُ الغطاءَ عنْ علَّةِ التذاذِ النفسِ بالمدحِ ، وتألُّمِها بسببِ الذَّمِّ ، وإنَّما ذكرناهُ ليُعرفَ طريقُ العلاجِ لحبِّ الجاهِ ، وحبِّ المحمدةِ ، وخوفِ المذمَّةِ ، فإنَّ ما لا يُعرفُ سببُهُ لا يمكنُ معالجتُهُ ؛ إذِ العلاجُ عبارةٌ عنْ حلِّ أسبابِ المرضِ ، واللهُ الموفقُ بكرمِهِ ولطفِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

❊ ❊ ❊

بيان علاج حب الجاه

اعلمْ : أنَّ مَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ حبُّ الجاهِ . . صارَ مقصورَ الهمِّ علىٰ مراعاةِ الخلقِ ، مشغوفاً بالتودُّدِ إليهِمْ والمراءاةِ لأجلِهِمْ ، ولا يزالُ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأعمالِهِ ملتفتاً إلىٰ ما يعظِّمُ منزلتَهُ عندَهُمْ ، وذٰلكَ بذرُ النفاقِ وأصلُ الفسادِ ، ويجرُّ ذٰلكَ ـ لا محالةَ ـ إلى التساهلِ في العباداتِ والمراءاةِ بها ، وإلى اقتحامِ المحظوراتِ للتوصُّلِ إلى اقتناصِ القلوبِ .

ولذٰلكَ شبَّهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حبَّ الشرفِ والمالِ وإفسادَهُما للدِّينِ بذئبينِ ضاريينِ ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّهُ ينبتُ النِّفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »[1] إذِ النفاقُ هوَ مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ بالقولِ أوِ الفعلِ ، وكلُّ مَنْ طلبَ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ فيُضطرُّ إلى النفاقِ معَهُمْ ، وإلى التَّظاهرِ بخصالٍ حميدةٍ هوَ خالٍ عنها ، وذٰلكَ هوَ عينُ النفاقِ .

❁ ❁ ❁

فحبُّ الجاهِ إذاً مِنَ المهلكاتِ ، فيجبُ علاجُهُ وإزالتُهُ عنِ القلبِ ، فإنَّهُ طبعٌ جُبِلَ القلبُ عليهِ كما جُبِلَ علىٰ حبِّ المالِ ، **وعلاجُهُ مركَّبٌ مِنْ علمٍ وعملٍ** :

أمَّا العلمُ : فهوَ أنْ يعلمَ السببَ الذي لأجلِهِ أحبَّ الجاهَ ، وهوَ كمالُ القدرةِ علىٰ أشخاصِ الناسِ وعلىٰ قلوبِهِمْ ، وقدْ بيَّنا أنَّ ذٰلكَ إنْ صفا وسلمَ . . فآخرُهُ الموتُ ، فليسَ مِنَ الباقياتِ الصالحاتِ ، بلْ لوْ سجدَ لكَ كلُّ مَنْ علىٰ بسيطِ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ فإلىٰ خمسينَ سنةً . . لا يبقى الساجدُ ولا المسجودُ لهُ ، ويكونُ حالُكَ كحالِ مَنْ ماتَ قبلَكَ مِنْ ذوي الجاهِ معَ المتواضعينَ لهُ ، فهٰذا لا ينبغي أنْ يُتركَ بهِ الدينُ الذي هوَ الحياةُ الأبديَّةُ التي لا انقطاعَ لها .

ومَنْ فهِمَ الكمالَ الحقيقيَّ والكمالَ الوهميَّ كما سبقَ . . صغُرَ الجاهُ في عينِهِ ، إلا أنَّ ذٰلكَ إنَّما يصغرُ في عينِ مَنْ ينظرُ إلى الآخرةِ كأنَّهُ يشاهدُها ، ويستحقرُ العاجلةَ ، ويكونُ الموتُ كالحاصلِ عندَهُ ، ويكونُ حالُهُ كحالِ الحسنِ البصريِّ إذْ كتبَ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِما : (أما بعدُ : فكأنَّكَ بآخرِ مَنْ كُتبَ عليهِ الموتُ قدْ ماتَ) ، فانظرْ كيفَ مدَّ نظرَهُ نحوَ المستقبلِ وقدَّرَهُ كائناً ، وكذٰلكَ حالُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حينَ كتبَ في جوابِهِ : (أما بعدُ : فكأنَّكَ بالدنيا لمْ تكنْ ، وكأنَّكَ بالآخرةِ لمْ تزلْ)[2] .

فهٰؤلاءِ كانَ التفاتُهُمْ إلى العاقبةِ ، فكانَ عملُهُمْ لها بالتقوىٰ ؛ إذْ علموا أنَّ العاقبةَ للمتقينَ ، فاستحقروا الجاهَ والمالَ في الدنيا ، وأبصارُ أكثرِ الخلقِ ضعيفةٌ مقصورةٌ على العاجلةِ لا يمتدُّ نورُها إلىٰ مشاهدةِ العواقبِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ، وقالَ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ .

فمَنْ هٰذا حدُّهُ فينبغي أنْ يعالجَ قلبَهُ في حبِّ الجاهِ بالعلمِ بالآفاتِ العاجلةِ ، وهوَ أنْ يتفكَّرَ في الأخطارِ التي

(١) رواه الديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ : (حبُّ الغنىٰ ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب) « إتحاف » (٦/٢٥٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢٦) .

يستهدفُ لها أربابُ الجاهِ في الدنيا ، فإنَّ كلَّ ذي جاهٍ محسودٌ ومقصودٌ بالإيذاءِ ، وخائفٌ على الدوامِ علىٰ جاهِهِ ، ومحترزٌ مِنْ أنْ تتغيَّرَ منزلتُهُ في القلوبِ ، والقلوبُ أشدُّ تغيراً مِنَ القِدْرِ في غليانِها ، وهيَ مترَدِّدةٌ بينَ الإقبالِ والإعراضِ ، فكلُّ ما يُبنىٰ علىٰ قلوبِ الخلقِ يضاهي ما يُبنىٰ علىٰ أمواجِ البحرِ ، فإنَّهُ لا ثباتَ لهُ ، والاشتغالُ بمراعاةِ القلوبِ ، وحفظِ الجاهِ ، ودفعِ كيدِ الحسادِ ، ومنعِ أذى الأعداءِ . . كلُّ ذٰلكَ غمومٌ عاجلةٌ ، ومكدِّرةٌ للذَّةِ الجاهِ ، فلا يفي في الدنيا مرجوُّها بمَخُوفِها ، فضلاً عمَّا يفوتُ في الآخرةِ ، فبهٰذا ينبغي أنْ تُعالجَ البصيرةُ الضعيفةُ .

وأمَّا مَنْ نفذَتْ بصيرتُهُ ، وقويَ إيمانُهُ . . لمْ يلتفتْ إلى الدنيا ، فهٰذا هوَ العلاجُ مِنْ حيثُ العلمُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا مِنْ حيثُ العملُ : فإسقاطُ الجاهِ عنْ قلوبِ الخلقِ بمباشرةِ أفعالٍ يُلامُ عليها ؛ حتَّىٰ يسقطَ مِنْ أعينِ الخلقِ ، وتفارقَهُ لذَّةُ القبولِ ، ويأنسَ بالخمولِ ، ويردَّ الخلقَ ، ويقنعَ بالقبولِ مِنَ الخالقِ .

وهٰذا هوَ منهجُ المَلامَتِيَّةِ(١) ؛ إذِ اقتحموا الفواحشَ في صورتِها ؛ ليسقطوا أنفسَهم عنْ أعينِ الناسِ ، فيسلموا مِنْ آفةِ الجاهِ ، وهٰذا غيرُ جائزٍ لِمَنْ يُقتدىٰ بهِ ، فإنَّهُ يوهنُ الدينَ في قلوبِ المسلمينَ ، وأمَّا الذي لا يُقتدىٰ بهِ . . فلا يجوزُ لهُ أنْ يقدمَ علىٰ محظورٍ لأجلِ ذٰلكَ ، بلْ لهُ أنْ يفعلَ مِنَ المباحاتِ ما يسقطُ قدرَهُ عند الناسِ ؛ كما رُوِيَ أنَّ بعضَ الملوكِ قصدَ بعضَ الزُّهَّادِ ، فلمَّا علمَ بقربِهِ منهُ . . استدعىٰ طعاماً وبقلاً وأخذَ يأكلُ بشَرَهٍ ، ويعظمُ اللُّقمَ ، فلمَّا نظرَ إليهِ الملكُ . . سقطَ مِنْ عينِهِ وانصرفَ ، فقالَ الزاهدُ : الحمدُ للهِ الذي صرفَكَ عنِّي(٢)

ومنهُمْ مَنْ شربَ شراباً حلالاً في قدحٍ لونُهُ لونُ الخمرِ ، حتَّىٰ يُظَنَّ بهِ أنَّهُ يشربُ الخمرَ فيسقطَ مِنَ الأعينِ ، وهٰذا في جوازِهِ نظرٌ مِنْ حيثُ الفقهُ ، إلا أنَّ أربابَ الأحوالِ ربَّما يعالجونَ أنفسَهُمْ بما لا يفتي بهِ الفقيهُ مهما رأَوا صلاحَ قلوبِهِمْ فيهِ ، ثمَّ يتداركونَ ما فرطَ منهُمْ فيهِ مِنْ صورةِ التقصيرِ ؛ كما فعلَ بعضُهُمْ ، فإنَّهُ عُرِفَ بالزهدِ ، وأقبلَ الناسُ عليهِ ، فدخلَ حماماً ، ولبسَ ثيابَ غيرِهِ وخرجَ ، ووقفَ في الطريقِ حتَّىٰ عرفوهُ ، فأخذوهُ وضربوهُ ، واستردُّوا منهُ الثيابَ ، وقالوا : إنَّهُ طرَّارٌ وهجرُوهُ(٣)

وأقوى الطرقِ في قطعِ الجاهِ : الاعتزالُ عنِ الناسِ ، والهجرةُ إلىٰ موضعِ الخمولِ ، فإنَّ المعتزلَ في بيتِهِ في البلدةِ التي هوَ بها مشهورٌ ، لا يخلو عنْ حبِّ المنزلةِ التي تترسَّخُ لهُ في القلوبِ بسببِ عزلتِهِ ، وربَّما يظنُّ أنَّهُ ليسَ محبّاً لذٰلكَ الجاهِ ، وهوَ مغرورٌ ، وإنَّما سكنَتْ نفسُهُ لأنَّها قدْ ظفرَتْ بمقصودِها ، ولوْ تغيَّرَ الناسُ عمَّا اعتقدوهُ فيهِ ؛ فذمُّوهُ أوْ نسبوهُ إلىٰ أمرٍ غيرِ لائقٍ بهِ . . جزعَتْ نفسُهُ وتألَّمَتْ ، وربَّما توصَّلَتْ إلى الاعتذارِ عنْ ذٰلكَ ، وإماطةِ ذٰلكَ الغبارِ عنْ قلوبِهِمْ ، وربَّما يحتاجُ في إزالةِ ذٰلكَ عنْ قلوبِهِمْ إلىٰ كذبٍ وتلبيسٍ ، ولا يبالي بهِ ، وبهِ يتبيَّنُ أنَّهُ محبٌّ للجاهِ والمنزلةِ ، ومَنْ أحبَّ الجاهَ والمنزلةَ . . فهوَ كمَنْ أحبَّ المالَ ، بلْ هوَ شرٌّ منهُ ، فإنَّ فتنةَ الجاهِ أعظمُ ، ولا يمكنُهُ ألا يحبَّ المنزلةَ

---

(١) نسبة إلى الملامة ؛ إذ لا ينفكون عن لوم أنفسهم ، والأصل أن يقال لهم : المَلاميَّة ، وهو مستعمل ، وقد يقال لهم : الأمناء ، وهم ـ كما سيبين المصنف ـ قوم يعمرون بواطنهم ويخربون ظواهرهم ، من أعظم أئمتهم الشيخ عبد الله بن منازل والشيخ حمدون القصار رضي الله عنهما ، انظر طرفاً من بيان صفات الملامية للعلامة الحافظ عبد الملك الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٤٨) بنحوه .

(٣) وهو إبراهيم الخواص رضي الله عنه ، ونُعت بعد هٰذه الحادثة بـ (لص الحمام) ، فقال لنفسه : ها هنا طاب المقام ، وانظر القصة ومثيلاتها وأجوبة الفقهاء في بيان جوازها عند اليافعي في « نشر المحاسن الغالية » (ص ٣٠٣) .

في قلوبِ الناسِ ما دامَ يطمعُ في الناسِ ، فإذا أحرزَ قوتَهُ مِنْ كسبِهِ أوْ مِنْ جهةٍ أخرىٰ ، وقطعَ طمعَهُ عنِ الناسِ رأساً . . أصبحَ الناسُ كلُّهُمْ عندَهُ كالأرذالِ[1] ، فلا يبالي أكانَتْ لهُ منزلةٌ في قلوبِهِمْ أمْ لمْ تكنْ ؛ كما لا يبالي بذٰلكَ في قلوبِ الذينَ هُمْ منهُ في أقصى الشرقِ ؛ لأنَّهُ لا يراهُمْ ولا يطمعُ فيهِمْ .

ولا يُقطعُ الطمعُ عنِ الناسِ إلا بالقناعةِ ، فمَنْ قنعَ . . استغنىٰ عنِ الناسِ ، وإذا استغنىٰ . . لمْ يشتغلْ قلبُهُ بالناسِ ، ولمْ يكنْ لقيامِ منزلتِهِ في القلوبِ عندَهُ وزنٌ ، ولا يتمُّ تركُ الجاهِ إلا بالقناعةِ وقطعِ الطمعِ ؛ ويستعينُ علىٰ جميعِ ذٰلكَ بالأخبارِ الواردةِ في ذمِّ الجاهِ ومدحِ الخمولِ والذلِّ ، مثلَ قولِهِمْ : (المؤمنُ لا يخلو مِنْ ذلَّةٍ ، أوْ قلَّةٍ ، أوْ علَّةٍ)[2] ، وينظرُ في أحوالِ السلفِ وإيثارِهِمْ للذلِّ على العزِّ ، ورغبتِهِم في ثوابِ الآخرةِ ، رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ .

* * *

---

(١) في (ب) : (كالجمادات) .

(٢) وهو قول مشهور علىٰ ألسنة الناس . « إتحاف » (٨/٢٥٥) ، ومعناه في الحديث الآتي .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

اعلمْ : أنَّ أكثرَ الناسِ إنَّما هلكوا بخوفِ مذمَّةِ الناسِ وحبِّ مدحِهِمْ ، فصارَتْ حركاتُهُمْ كلُّها موقوفةً على ما يوافقُ رضا الناسِ ؛ رجاءً للمدحِ وخوفاً مِنَ الذمِّ ، وذلكَ مِنَ المهلكاتِ ، فيجبُ معالجتُهُ .

وطريقُهُ : ملاحظةُ الأسبابِ التي لأجلِها يُحبُّ المدحُ ويُكرهُ الذمُّ .

❁ ❁ ❁

أمَّا السببُ الأوَّلُ وهوَ استشعارُ الكمالِ بسببِ قولِ المادحِ : فطريقُكَ فيهِ أنْ ترجعَ إلى عقلِكَ وتقولَ لنفسِكَ : هذهِ الصفةُ التي يمدحُكَ بها أنتَ متصفٌ بها أمْ لا ؟

فإنْ كنتَ متصفاً بها . . فهيَ إمَّا صفةٌ تستحقُّ بها المدحَ ؛ كالعلمِ والورعِ ، وإمَّا صفةٌ لا تستحقُّ بها المدحَ ؛ كالثروةِ والجاهِ والأغراضِ الدنيويَّةِ .

فإنْ كانَتْ مِنَ الأغراضِ الدنيويَّةِ . . فالفرحُ بها كالفرحِ بنباتِ الأرضِ الذي يصيرُ على القربِ هشيماً تذروهُ الرياحُ ، وهذا مِنْ قلَّةِ العقلِ ، بلِ العاقلُ يقولُ كما قالَ المتنبي (١) : [من الوافر]

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالا

فلا ينبغي أنْ يفرحَ الإنسانُ بعروضِ الدنيا ، وإنْ فرحَ . . فلا ينبغي أنْ يفرحَ بمدحِ المادحِ بها ، بلْ بوجودِها ، والمدحُ ليسَ هوَ سببَ وجودِها .

وإنْ كانَتِ الصفةُ ممَّا يستحقُّ الفرحَ بها ؛ كالعلمِ والورعِ . . فينبغي ألا يفرحَ بها ؛ لأنَّ الخاتمةَ غيرُ معلومةٍ ، وهذا إنَّما يقتضي الفرحَ لأنَّهُ يقرِّبُ عندَ اللهِ زُلفى ، وخطرُ الخاتمةِ باقٍ ، ففي الخوفِ مِنْ سوءِ الخاتمةِ شغلٌ عنِ الفرحِ بكلِّ ما في الدنيا ، بلِ الدنيا دارُ أحزانٍ وغمومٍ ، لا دارُ فرحٍ وسرورٍ .

ثمَّ إنْ كنتَ تفرحُ بها على رجاءِ حسنِ الخاتمةِ . . فينبغي أنْ يكونَ فرحُكَ بفضْلِ اللهِ تعالى عليكَ بالعلمِ والتقوى ، لا بمدحِ المادحِ ، فإنَّ اللذَّةَ في استشعارِ الكمالِ ، والكمالُ موجودٌ مِنْ فضْلِ اللهِ لا مِنَ المدحِ ، والمدحُ تابعٌ لهُ ، فلِمَ ينبغي أنْ تفرحَ بالمدحِ والمدحُ لا يزيدُكَ فضلاً ؟

وإنْ كانَتِ الصفةُ التي مُدحتَ بها أنتَ خالٍ عنها . . ففرحُكَ بالمدحِ غايةُ الجنونِ ، ومثالُكَ مثالُ مَنْ يهزأُ بهِ إنسانٌ ويقولُ لهُ : سبحانَ اللهِ !! ما أكثرَ العطرَ الذي في أحشائِهِ !! وما أطيبَ الروائحَ التي تفوحُ منهُ إذا قضى حاجتَهُ !! وهوَ يعلمُ ما تشتملُ عليهِ أمعاؤُهُ مِنَ الأقذارِ والأنتانِ ، ثمَّ يفرحُ بذلكَ ، فكذلكَ إذا أثنَوا عليكَ بالصلاحِ والورعِ ، ففرحتَ بهِ ، واللهُ مطَّلعٌ على خبائثِ باطنِكَ ، وغوائلِ سريرتِكَ ، وأقذارِ صفاتِكَ . . كانَ ذلكَ مِنْ غايةِ الجهلِ .

فإذاً ؛ المادحُ إنْ صدقَ . . فليكُنْ فرحُكَ بصفتِكَ التي هيَ مِنْ فضْلِ اللهِ عليكَ ؛ وإنْ كذبَ . . فينبغي أنْ يغمَّكَ ذلكَ ولا تفرحَ بهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر « ديوانه بشرح العكبري » (٢٢٤/٣) .

وأمَّا السببُ الثاني وهوَ دلالةُ المدحِ علىٰ تسخيرِ قلبِ المادحِ ، وكونِهِ سبباً لتسخيرِ قلبٍ آخرَ : فهٰذا يرجعُ إلىٰ حبِّ الجاهِ والمنزلةِ في القلوبِ ، وقدْ سبقَ وجهُ معالجتِهِ ، وذٰلكَ بقطعِ الطمعِ عنِ الناسِ ، وطلبِ المنزلةِ عندَ اللهِ ، وبأنْ تعلمَ أنَّ طلبَكَ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ وفرحَكَ بها يسقطُ منزلتَكَ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ تفرحُ بهِ ؟!

❊ ❊ ❊

وأمَّا السببُ الثالثُ وهوَ الحشمةُ التي اضطرَّتِ المادحَ إلى المدحِ : فهوَ أيضاً يرجعُ إلىٰ قدرةٍ عارضةٍ لا ثباتَ لها ولا تستحقُّ الفرحَ ، بلْ ينبغي أنْ يغمَّكَ مدحُ المادحِ وتكرهَهُ وتغضبَ بهِ ، كما نُقلَ ذٰلكَ عنِ السلفِ ؛ لأنَّ آفةَ المدحِ على الممدوحِ عظيمةٌ ، كما ذكرناها في كتابِ آفاتِ اللسانِ .

وقالَ بعضُ السلفِ : (مَنْ فرحَ بمدحٍ . . فقدْ مكَّنَ الشيطانَ مِنْ أنْ يدخلَ في بطنِهِ)[١]

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا قيلَ لكَ : نعمَ الرجلُ أنتَ ، فكانَ أحبَّ إليكَ مِنْ أنْ يُقالَ لكَ : بئسَ الرجلُ أنتَ . . فأنتَ واللهِ بئسَ الرجلُ)[٢]

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ ـ فإنْ صحَّ . . فهوَ قاصمٌ للظهورِ ـ : أنَّ رجلاً أثنىٰ علىٰ رجلٍ خيراً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ صاحبُكَ حاضراً فرضيَ الذي قلتَ فماتَ علىٰ ذٰلكَ . . دخلَ النارَ »[٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً للمادحِ : « ويحَكَ !! قطعتَ ظهرَهُ ، لوْ سمعَكَ . . ما أفلحَ إلىٰ يومِ القيامةِ »[٤]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « ألا لا تمادحوا ، وإذا رأيتُمُ المدَّاحينَ . . فاحثوا في وجوهِهِمُ الترابَ »[٥]

فلهٰذا كانَ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ علىٰ وَجَلٍ عظيمٍ مِنَ المدحِ وفتنتِهِ ، وما يدخلُ على القلبِ مِنَ السُّرورِ العظيمِ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ بعضَ الخلفاءِ الراشدينَ سألَ رجلاً عنْ شيءٍ فقالَ : أنتَ يا أميرَ المؤمنينَ خيرٌ منِّي وأعلمُ ، فغضبَ وقالَ : إنِّي لمْ آمرْكَ أنْ تزكِّيَني !![٦]

وقيلَ لبعضِ الصحابةِ : لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما أبقاكَ اللهُ ، فغضبَ وقالَ : إنِّي لأحسبُكَ عراقياً[٧]

وقالَ بعضُهُمْ لمَّا مُدِحَ : (اللَّهُمَّ ؛ إنَّ عبدَكَ تقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ ، فأشهدُكَ علىٰ مقتِهِ)[٨]

وإنَّما كرهوا المدحَ خيفةَ أنْ يفرحوا بمدحِ الخلقِ وهمْ ممقوتونَ عندَ الخالقِ ، فكانَ اشتغالُ قلوبِهِمْ بحالِهِمْ عندَ اللهِ يُبغِّضُ إليهِمْ مدحَ الخلقِ ؛ لأنَّ الممدوحَ على الحقيقةِ هوَ المقرَّبُ إلى اللهِ ، والمذمومَ على الحقيقةِ هوَ المبعَدُ مِنَ اللهِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٤/٢) عن مالك بن دينار .

(٢) أورده صاحب « القوت » (١٧٣/١) عن سفيان الثوري بنحوه .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٢٥٦/٨) .

(٤) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) بنحوه .

(٥) رواه مسلم (٦٩/٣٠٠٢) دون قوله : (ألا لا تمادحوا) .

(٦) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٨٢/٥) قاله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لأربد وقد مدحه بهٰذا .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٤) من زيادات نعيم بن حماد ، والصحابي هو عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٢) .

الملقَىٰ في النارِ معَ الأشرارِ ، فهـٰذا الممدوحُ إنْ كانَ عندَ اللهِ مِنْ أهلِ النَّارِ . . فما أعظمَ جهلَهُ إذا فرحَ بمدحِ غيرِهِ !! وإنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ . . فلا ينبغي أنْ يفرحَ إلا بفضْلِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وثنائِهِ عليهِ ؛ إذْ ليسَ أمرُهُ بيدِ الخلقِ ، ومهما علمَ أنَّ الآجالَ والأرزاقَ بيدِ اللهِ تعالىٰ . . قلَّ التفاتُهُ إلىٰ مدحِ الخلقِ وذمِّهِمْ ، وسقطَ مِنْ قلبِهِ حبُّ المدحِ ، واشتغلَ بما يهمُّهُ مِنْ أمرِ دينِهِ ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ برحمتِهِ .

* * *

بيان علاج كراهة الذم

قد سبقَ أنَّ العلةَ في كراهةِ الذمِّ هيَ ضدُّ العلةِ في حبِّ المدحِ ، فعلاجُهُ أيضاً يُفهمُ منهُ .

والقولُ الوجيزُ فيهِ : أنَّ مَنْ ذمَّكَ لا يخلو مِنْ ثلاثةِ أحوالٍ : إمَّا أنْ يكونَ قدْ صدقَ فيما قالَ وقصدَ بهِ النصحَ والشفقةَ ، وإمَّا أنْ يكونَ صادقاً ولـٰكنْ قصدُهُ الإيذاءُ والتعنُّتُ ، وإمَّا أنْ يكونَ كاذباً .

❁ ❁ ❁

فإنْ كانَ صادقاً وقصدُهُ النصحُ . . فلا ينبغي أنْ تذمَّهُ وتغضبَ عليهِ وتحقدَ بسببِهِ ، بلْ ينبغي أنْ تتقلَّدَ منَّتَهُ ؛ فإنَّ مَنْ أهدىٰ إليكَ عيوبَكَ . . فقدْ أرشدَكَ إلى المهلِكِ لكَ حتَّىٰ تتقيَهُ ، فينبغي أنْ تفرحَ بهِ ، وتشتغلَ بإزالةِ الصفةِ المذمومةِ عنْ نفسِكَ إنْ قدرتَ عليها ، فأمَّا اغتمامُكَ بسببِهِ وكراهتُكَ لهُ وذمُّكَ إيَّاهُ . . فإنَّهُ غايةُ الجهلِ .

❁ ❁ ❁

وإنْ كانَ قصدُهُ التعنُّتَ . . فأنتَ قدِ انتفعتَ بقولِهِ ؛ إذْ أرشدَكَ إلىٰ عيبِكَ إنْ كنتَ جاهلاً بهِ ، أوْ ذكَّرَكَ عيبَكَ إنْ كنتَ غافلاً عنهُ ، أو قبَّحَهُ في عينِكَ لينبعثَ حرصُكَ علىٰ إزالتِهِ إنْ كنتَ قدِ استحسنتَهُ ، وكلُّ ذٰلكَ أسبابُ سعادتِكَ ، وقدِ استفدتَهُ منهُ ، فاشتغلْ بطلبِ السعادةِ ، فقدْ أُتيحَ لكَ أسبابُها بسببِ ما سمعتَهُ مِنَ المذمَّةِ .

فمهما قصدتَ الدخولَ علىٰ ملكٍ وثوبُكَ ملوثٌ بالعَذِرَةِ وأنتَ لا تدري ، ولوْ دخلتَ عليهِ كذٰلكَ لخفتَ أنْ يحزَّ رقبتَكَ لتلويثِكَ مجلسَهُ بالعذرةِ ، فقالَ لكَ قائلٌ : أيُّها الملوَّثُ بالعذرةِ ؛ طهِّرْ نفسَكَ . . فينبغي أنْ تفرحَ بهِ ؛ لأنَّ تنبُّهَكَ بقولِهِ غنيمةٌ ، وجميعُ مساوئِ الأخلاقِ مهلكةٌ في الآخرةِ ، والإنسانُ إنَّما يعرفُها مِنْ قولِ أعدائِهِ ، فينبغي أنْ تغتنمَهُ .

وأمَّا قصدُ العدوِّ التعنُّتَ . . فجنايةٌ منهُ علىٰ دينِ نفسِهِ ، وهوَ نعمةٌ منهُ عليكَ ، فلِمَ تغضبُ عليهِ بفعلٍ انتفعتَ بهِ أنتَ وتضرَّرَ هوَ بهِ ؟!

❁ ❁ ❁

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يفتريَ عليكَ بما أنتَ بريءٌ منهُ عندَ اللهِ تعالىٰ : فينبغي ألا تكرهَ ذٰلكَ ، ولا تشتغلَ بذمِّهِ ، بلْ تتفكَّرَ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : أنَّكَ إنْ خلوتَ مِنْ ذٰلكَ العيبِ . . فلا تخلو مِنْ أمثالِهِ وأشباهِهِ ، وما سترَ اللهُ مِنْ عيوبِكَ أكثرُ ، فاشكرِ اللهَ تعالىٰ إذْ لمْ يطلعْهُ علىٰ عيوبِكَ ، ودفعَهُ عنكَ بذكرِ ما أنتَ بريءٌ منهُ .

والثاني : أنَّ ذٰلكَ كفاراتٌ لبقيةِ مساوئِكَ وذنوبِكَ ، فكأنَّهُ رماكَ بعيبٍ أنتَ بريءٌ منهُ ، وطهَّرَكَ عنْ ذنوبٍ أنتَ ملوثٌ بها ، وكلُّ مَنِ اغتابَكَ فقدْ أهدىٰ إليكَ حسناتِهِ ، وكلُّ مَنْ مدحَكَ فقدْ قطعَ ظهرَكَ ، فما بالُكَ تفرحُ بقطعِ الظهرِ ، وتحزنُ بهدايا الحسناتِ التي تقرِّبُكَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأنتَ تزعمُ أنَّكَ تحبُّ القربَ مِنَ اللهِ ؟

وأمَّا الثالثُ : فهوَ أنَّ المسكينَ قدْ جنىٰ علىٰ دينِهِ حتَّىٰ سقطَ مِنْ عينِ اللهِ تعالىٰ ، وأهلَكَ نفسَهُ بافترائِهِ ، وتعرَّضَ لعقابِهِ الأليمِ ، فلا ينبغي أنْ تغضبَ عليهِ معَ غضبِ اللهِ عليهِ ، فتشمِتَ الشيطانَ بهِ ، وتقولَ : اللهمَّ ؛ أهلكْهُ ، بلْ ينبغي

أنْ تقولَ : اللهمَّ ؛ أصلحْهُ ، اللهمَّ ؛ تبْ عليهِ ، اللهمَّ ؛ ارحمْهُ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لقومي ، اللهمَّ ؛ اهدِ قومي ، فإنَّهُمْ لا يعلمونَ »[1] لمّا أنْ كسروا ثنيَّتَهُ ، وشجُّوا وجهَهُ ، وقتلُوا عمَّهُ حمزةَ يومَ أحدٍ .

ودعا إبراهيمُ بنُ أدهمَ لمَنْ شجَّ رأسَهُ بالمغفرةِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أعلمُ أنِّي مأجورٌ بسببِهِ ، وما نالَني منهُ إلا خيرٌ ، فلا أرضىٰ أن يكونَ هو معاقباً بسببي[2] .

❀ ❀ ❀

وممَّا يهوِّنُ عليكَ كراهةَ المذمَّةِ : قطعُ الطمعِ ؛ فإنَّ مَنِ استغنيتَ عنهُ مهما ذمَّكَ . . لمْ يعظُمْ أثرُ ذلكَ في قلبِكَ ، وأصلُ الدينِ القناعةُ ، وبها ينقطعُ الطمعُ عنِ الجاهِ والمالِ ، وما دامَ الطمعُ قائماً كانَ حبُّ الجاهِ والمدحِ في قلبِ مَنْ طمعتَ فيهِ غالباً ، وكانَتْ همتُكَ إلىٰ تحصيلِ المنزلةِ في قلبِهِ مصروفةً ، ولا يُنالُ ذلكَ إلا بهدمِ الدينِ ، فلا ينبغي أنْ يطمعَ طالبُ المالِ والجاهِ ومحبُّ المدحِ ومبغضُ الذمِّ في سلامةِ دينِهِ ، فإنَّ ذلكَ بعيدٌ جداً .

❀ ❀ ❀

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٤) .

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

اعلمْ : أنَّ للناسِ أربعةَ أحوالٍ بالإضافةِ إلى الذَّامِّ والمادحِ :

الحالةُ الأولىٰ : أنْ يفرحَ بالمدحِ ويشكرَ المادحَ ، ويغضبَ مِنَ الذَّمِّ ويحقدَ على الذَّامِّ ، ويكافئَهُ أوْ يحبَّ مكافأتَهُ ، وهٰذا حالُ أكثرِ الخلقِ ، وهوَ غايةُ درجاتِ المعصيةِ في هٰذا البابِ .

❁ ❁ ❁

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يمتعضَ في الباطنِ على الذَّامِّ ، ولٰكنْ يمسكُ لسانَهُ وجوارحَهُ عنْ مكافأتِهِ ، ويفرحَ باطنُهُ ويرتاحَ للمادحِ ، ولٰكنْ يحفظُ ظاهرَهُ عنْ إظهارِ السرورِ ، وهٰذا مِنَ النقصانِ ، إلا أنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ ما قبلَهُ كمالٌ .

❁ ❁ ❁

الحالةُ الثالثةُ ـ وهيَ أوَّلُ درجاتِ الكمالِ ـ : أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ، فلا تغمُّهُ المذمَّةُ ، ولا تسرُّهُ المِدْحَةُ ، وهٰذا قدْ يظنُّهُ بعضُ العبَّادِ بنفسِهِ ، ويكونُ مغروراً إنْ لمْ يمتحنْ نفسَهُ بعلاماتِهِ ، **وعلاماتُهُ** : ألا يجدَ في نفسِهِ استثقالاً للذَّامِّ عندَ تطويلِهِ الجلوسَ عندَهُ أكثرَ ممَّا يجدُهُ في المادحِ ، وألا يجدَ في نفسِهِ زيادةَ هِزَّةٍ ونشاطٍ في قضاءِ حوائجِ المادحِ فوقَ ما يجدُهُ في قضاءِ حوائجِ الذَّامِّ ، وألا يكونَ انقطاعُ الذَّامِّ عنْ مجلسِهِ أهونَ عليهِ مِنِ انقطاعِ المادحِ ، وألا يكونَ موتُ المادحِ المطري لهُ أشدَّ نكايةً في قلبِهِ مِنْ موتِ الذَّامِّ ، وألا يكونَ غمُّهُ بمصيبةِ المادحِ وما ينالُهُ مِنْ أعدائِهِ أكثرَ ممَّا يكونُ بمصيبةِ الذَّامِّ ، وألا تكونَ زلَّةُ المادحِ أخفَّ علىٰ قلبِهِ وفي عينِهِ مِنْ زلَّةِ الذَّامِّ ، فمهما خفَّ الذَّامُّ علىٰ قلبِهِ كما خفَّ المادحُ ، واستويا مِنْ كلِّ وجهٍ . . فقدْ نالَ هٰذهِ الرتبةَ ، وما أبعدَ ذٰلكَ وما أشدَّهُ على القلوبِ !!

وأكثرُ العبَّادِ فرحُهُمْ بمدحِ الناسِ لهُمْ مستبطنٌ في قلوبِهِمْ وهمْ لا يشعرونَ ؛ حيثُ لا يمتحنونَ أنفسَهُمْ بهٰذهِ العلاماتِ ، وربَّما يشعرُ العابدُ بميلِ قلبِهِ إلى المادحِ دونَ الذَّامِّ ، والشيطانُ يحسِّنُ لهُ ذٰلكَ ويقولُ : الذَّامُّ قدْ عصى اللهَ بمذمَّتِكَ ، والمادحُ قدْ أطاعَ اللهَ بمدحِكَ ، فكيفَ تسوِّي بينَهُما ؟! وإنَّما استثقالُكَ للذَّامِّ مِنَ الدِّينِ المحضِ .

وهٰذا محضُ التَّلبيسِ ؛ فإنَّ العابدَ لوْ تفكَّرَ . . علمَ أنَّ في الناسِ مَنِ ارتكبَ مِنْ كبائرِ المعاصي أكثرَ ممَّا ارتكبَهُ الذَّامُّ في مذمَّتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ لا يستثقلُهُمْ ولا ينفرُ عنهُمْ ، ويعلمُ أنَّ المادحَ الذي مدحَهُ لا يخلو عنْ مذمَّةِ غيرِهِ ، ولا يجدُ في نفسِهِ نفرةً عنهُ لمذمَّةِ غيرِهِ ؛ كما يجدُ لمذمَّةِ نفسِهِ ، والمذمَّةُ مِنْ حيثُ إنَّها معصيةٌ لا تختلفُ بأنْ يكونَ هوَ المذمومَ أو غيرَهُ .

فإذاً ؛ العابدُ المغرورُ لنفسِهِ يغضبُ ، ولهواهُ يمتعضُ ، ثمَّ الشيطانُ يخيِّلُ إليهِ أنَّهُ مِنَ الدينِ حتَّىٰ يعتدَّ على اللهِ بهواهُ ، فيزيدُهُ ذٰلكَ بُعداً مِنَ اللهِ ، ومَنْ لمْ يطَّلعْ علىٰ مكايدِ الشيطانِ وآفاتِ النفوسِ . . فأكثرُ عباداتِهِ تعبٌ ضائعٌ ، يفوِّتُ عليهِ الدنيا ، ويخسرُ في الآخرةِ ، وفيهِمْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

❁ ❁ ❁

الحالةُ الرابعةُ ـ وهيَ الصدقُ في العبادةِ ـ : أنْ يكرهَ المدحَ ويمقتَ المادحَ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ فتنةٌ عليهِ قاصمةٌ للظهرِ ،

مضرةٌ لهُ في الدِّينِ ، وأنْ يحبَّ الذَّامَّ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ مهدٍ إليهِ عيوبَهُ ، ومرشدٌ لهُ إلىٰ مهمِّهِ ، ومهدٍ إليهِ حسناتِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأسُ التَّواضُعِ أنْ تكرهَ أنْ تُذكرَ بالبرِّ والتقوىٰ »(١)

وقدْ رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ ما هوَ قاصمٌ لظهورِ أمثالِنا إنْ صحَّ ؛ إذْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ويلٌ للصائمِ ، وويلٌ للقائمِ ، وويلٌ لصاحبِ الصوفِ إلا »(٢) ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إلا مَنْ ؟ فقالَ : « إلا مَنْ تنزَّهَتْ نفسُهُ عنِ الدنيا ، وأبغضَ المِدْحةَ ، واستحبَّ المذمَّةَ »(٣) ، وهٰذا شديدٌ جداً .

وغايةُ أمثالِنا الطمعُ في الحالةِ الثانيةِ ، وهوَ أنْ يضمِرَ الفرحَ والكراهةَ للذَّامِّ والمادحِ ولا يظهرَ ذٰلكَ بالقولِ والعملِ ، وأمَّا الحالةُ الثالثةُ ، وهيَ التسويةُ بينَ المادحِ والذامِّ . . فلسنا نطمعُ فيها ، ثُمَّ إنْ طالبنا أنفسَنا بعلاماتِ الحالةِ الثانيةِ . . فإنَّها لا تفي بها ؛ فإنَّها لا بدَّ وأنْ تتسارعَ إلىٰ إكرامِ المادحِ وقضاءِ حاجاتِهِ ، وتتثاقلَ عنْ إكرامِ الذَّامِّ والثناءِ عليهِ وقضاءِ حوائجِهِ ، ولا نقدرُ علىٰ أنْ نسوِّيَ بينَهُما في الفعلِ الظاهرِ ، كما لا نقدرُ عليهِ في سريرةِ القلبِ ، ومَنْ قدرَ على التسويةِ بينَ الذَّامِّ والمادحِ في ظاهرِ الفعلِ . . فهوَ جديرٌ بأنْ يُتخذَ قدوةً في هٰذا الزمانِ إنْ وُجِدَ ، فإنَّهُ الكبريتُ الأحمَرُ يُتحدَّثُ بِهِ ولا يُرىٰ ، فكيفَ بما بعدَهُ مِنَ المرتبتينِ ؟!

وكلُّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الرُّتبِ أيضاً فيها درجاتٌ ، أمَّا الدرجاتُ في المدحِ . . فهيَ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يتمنَّى المِدْحةَ والثناءَ وانتشارَ الصِّيتِ ، فيتوصلُ إلىٰ نيلِ ذٰلكَ بكلِّ ممكنٍ ، حتىٰ يرائي بالعباداتِ ، ولا يبالي بمقارفةِ المحظوراتِ ؛ لاستمالةِ قلوبِ الناسِ ، واستنطاقِ ألسنتِهِمْ بالمدحِ ، وهٰذا مِنَ الهالكينَ .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ ذٰلكَ ويطلبُهُ بالمباحاتِ ، ولا يطلبُهُ بالعباداتِ ، ولا يباشرُ المحظوراتِ ، وهٰذا علىٰ شفا جُرفٍ هارٍ ، فإنَّ حدودَ الكلامِ الذي يستميلُ بِهِ القلوبَ وحدودَ الأعمالِ لا يمكنُهُ أن يضبطَها ، فيوشكُ أنْ يقعَ فيما لا يحلُّ لنيلِ الحمدِ ، فهوَ قريبٌ مِنَ الهالكينَ جداً .

ومنهُمْ مَنْ لا يريدُ المِدْحةَ ولا يسعىٰ لطلبِها ، ولٰكنْ إذا مُدِحَ . . سبقَ السرورُ إلىٰ قلبِهِ ، فإنْ لمْ يقابلْ ذٰلكَ بالمجاهدةِ ، ولمْ يتكلَّفِ الكراهةَ . . فهوَ قريبٌ مِنْ أنْ يستجرَّهُ فرطُ السرورِ إلى الرتبةِ التي قبلَها ، وإنْ جاهدَ نفسَهُ في ذٰلكَ ، وكلَّفَ قلبَهُ الكراهةَ ، وبغَّضَ السرورَ إليهِ بالتفكُّرِ في آفاتِ المدحِ . . فهوَ في خطرِ المجاهدةِ ، فتارةً تكونُ اليدُ لهُ ، وتارةً تكونُ عليهِ .

ومنهُمْ مَنْ إذا سمعَ المدحَ . . لمْ يُسرَّ ولمْ يغتمَّ ، ولٰكنْ لمْ يؤثرْ فيهِ ، وهٰذا علىٰ خيرٍ ، وإنْ كانَ قدْ بقيَ عليهِ بقيةٌ مِنَ الإخلاصِ(٤)

ومنهُمْ مَنْ يكرهُ المدحَ إذا سمعَهُ ، ولٰكنْ لا ينتهي بِهِ إلىٰ أنْ يغضبَ على المادحِ وينكرَ عليهِ .

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (٨٠٧) موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : (إن من رأس التواضع أن تبدأ من لقيت بالسلام ، وأن ترضىٰ بالدون من شرف المجلس ، وتكره المدحة والسمعة والرياء بالبرّ) ، وأورده مرفوعاً من حديث علي رضي الله عنه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٨٥٠٦) ونسب روايته للعسكري ، أما بلفظ المصنف . . فقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٢٥٩/٨) .

(٢) في (ج) : (إلا من) بدل (إلا) وحدها .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هٰكذا ، وذكر صاحب « الفردوس » من حديث أنس : « ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله » ، ولم يخرجه ولده في مسنده) . « إتحاف » (٢٥٩/٨) .

(٤) بسبب عدم اغتمامه . « إتحاف » (٢٦٠/٨) .

وأقصىٰ درجاتِهِ أنْ يكرَهَ ويغضبَ ، ويُظهِرَ الغضبَ وهوَ صادقٌ فيهِ ، لا أنْ يُظهِرَ الغضبَ وقلبُهُ محبٌّ للمدحِ ، فإنَّ ذٰلكَ عينُ النفاقِ ؛ لأنَّهُ يريدُ أنْ يظهِرَ مِنْ نفسِهِ الإخلاصَ والصدقَ ، وهوَ مفلسٌ منهُ .

وكذٰلكَ بالضِّدِّ مِنْ هٰذا تتفاوتُ الأحوالُ في حقِّ الذَّامِّ ، وأولُ درجاتِهِ إظهارُ الغضبِ ، وآخرُها إظهارُ الفرحِ ، ولا يكونُ الفرحُ وإظهارُهُ إلا ممَّنْ في قلبِهِ حَنَقٌ وحقدٌ علىٰ نفسِهِ ؛ لتمرُّدِها عليهِ ولكثرةِ عيوبِها ومواعيدِها الكاذبةِ وتلبيساتِها الخبيثةِ ، فيبغضُها بغضَ العدوِّ ، والإنسانُ يفرحُ بمَنْ يذمُّ عدوَّهُ ، وهٰذا شخصٌ عدوُّهُ نفسُهُ ، فيفرحُ إذا سمعَ ذمَّها ، ويشكرُ الذَّامَّ علىٰ ذٰلكَ ، ويعتقدُ فطنتَهُ وذكاءَهُ ؛ لما وقفَ عليهِ مِنْ عيوبِ نفسِهِ ، فيكونُ ذٰلكَ كالتَّشفِّي لهُ مِنْ نفسِهِ ، ويكونُ غنيمةً عندَهُ ؛ إذْ صارَ بالمذمَّةِ أوضعَ في أعينِ الناسِ ، حتَّىٰ لا يُبتلىٰ بفتنةِ الجاهِ ، وإذا سيقَتْ إليهِ حسناتٌ لمْ ينصبْ فيها ، فعساهُ يكونُ جبراً لعيوبِهِ التي هوَ عاجزٌ عنْ إماطتِها ، ولوْ جاهدَ المريدُ نفسَهُ طولَ عمرِهِ في هٰذه الخصلةِ الواحدةِ ، وهيَ أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ . . لكانَ لهُ شغلٌ شاغلٌ فيهِ لا يتفرَّغُ معَهُ لغيرِهِ ، وبينَهُ وبينَ السعادةِ عقباتٌ كثيرةٌ ، هٰذهِ إحداها ، ولا يقطعُ شيئاً منها إلا بالمجاهدةِ الشديدةِ في العمرِ الطويلِ .

* * *

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات
وهو الرِّياء

وفيهِ بيانُ ذمِّ الرياءِ ، وبيانُ حقيقةِ الرياءِ وما يُراءىٰ بهِ ، وبيانُ درجاتِ الرياءِ ، وبيانُ الرياءِ الخفيِّ ، وبيانُ ما يحبطُ العملَ مِنَ الرياءِ وما لا يحبطُ ، وبيانُ دواءِ الرياءِ وعلاجِهِ ، وبيانُ الرخصةِ في إظهارِ الطاعاتِ ، وبيانُ الرخصةِ في كتمانِ الذنوبِ ، وبيانُ تركِ الطاعاتِ خوفاً مِنَ الرياءِ والآفاتِ ، وبيانُ ما يصحُّ مِنْ نشاطِ العبدِ للعبادةِ بسببِ رؤيةِ الخلقِ وما لا يصحُّ ، وبيانُ ما يجبُ على المريدِ أنْ يُلزِمَهُ قلبَهُ قبلَ الطاعةِ وبعدَها ، وهيَ أحدَ عشرَ فصلاً .

بيان ذمّ الرّياء

اعلمْ : أنَّ الرياءَ حرامٌ ، والمرائيَ عندَ اللهِ ممقوتٌ ، وقدْ شهدَتْ لذٰلكَ الآياتُ والأخبارُ والآثارُ .

أمَّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، قالَ مجاهدٌ : (همْ أهلُ الرياءِ)[(١)]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ ، فمدحَ المخلصينَ بنفيِ كلِّ إرادةٍ سوىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، والرياءُ هوَ ضدُّهُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ، نزلَتْ فيمَنْ يطلبُ الأجرَ والحمدَ بعباداتِهِ وأعمالِهِ[(٢)]

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ سألَهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فيمَ النجاةُ ؟ فقال : « ألا يعملَ العبدُ بطاعةِ اللهِ يريدُ بها الناسَ »[(٣)]

وروىٰ أبو هريرةَ في حديثِ الثلاثةِ ، المقتولِ في سبيلِ اللهِ ، والمتصدِّقِ بمالِهِ ، والقارئِ لكتابِ اللهِ ؛ كما أوردناهُ في كتابِ الإخلاصِ ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ : « كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ جوادٌ ، كذبتَ ، بلْ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٦١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٦١) من زيادات نعيم بن حماد ، ورواه الطبري في « تفسيره » (١٤٧/٢٢/١٢) عن شهر بن حوشب .

(٢) كما روىٰ ذٰلك الحاكم في « المستدرك » (١١١/٢) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ١٦١) ، وعند السيوطي في « الدر المنثور » (٧٤/١) : (أخرج أحمد بن منيع في « مسنده » بسند ضعيف عن رجل من الصحابة : أن قائلاً من المسلمين قال : يا رسول الله ؛ ما النجاة غداً ؟ قال : « لا تخادع الله » ، قال : وكيف نخادع الله ؟ قال : « أن تعمل بما أمرك به تريد به غيره ، فاتقوا الله فإنه الشرك بالله . . . ») ، وسيأتي بتمامه .

أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ شجاعٌ ، كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ قارئٌ » ، فأخبرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُمْ لمْ يُثابوا ، وأنَّ رياءَهُمْ هوَ الذي أحبطَ أعمالَهُمْ (١)

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ راءىٰ . . راءى اللهُ بهِ ، ومَنْ سمَّعَ . . سمَّعَ اللهُ بهِ » (٢)

وفي حديثٍ آخرَ طويلٍ : « أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : إنَّ هٰذا لمْ يردْني بعملِهِ ، فاجعلوهُ في سجِّينٍ » (٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُمُ الشركُ الأصغرُ » ، قالوا : وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « الرياءُ ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ إذا جازى العبادَ بأعمالِهِمْ : اذهبوا إلى الذينَ كنتُمْ تراؤُونَ في الدنيا فانظروا هلْ تجدونَ عندَهُمُ الجزاءَ ؟ » (٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استعيذوا باللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ جُبِّ الحَزَنِ » ، قيلَ : وما هوَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وادٍ في جهنَّمَ أُعدَّ للقُرَّاءِ المرائينَ » (٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ عَمِلَ لي عملاً أشركَ فيهِ غيري . . فهوَ لهُ كلُّهُ ، وأنا منهُ بريءٌ ، وأنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ » (٦)

وقالَ عيسى المسيحُ عليهِ السلامُ : (إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُمْ . . فليدهنْ رأسَهُ ولحيتَهُ ويمسحْ شفتيهِ ؛ لئلا يرى الناسُ أنَّهُ صائمٌ ، وإذا أعطىٰ بيمينِهِ . . فليُخفِ عنْ شمالِهِ ، وإذا صلَّىٰ . . فليرخِ سترَ بابِهِ ؛ فإنَّ اللهَ يقسمُ الثناءَ كما يقسمُ الرزقَ) (٧)

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقبلُ اللهُ عزَّ وجلَّ عملاً فيهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ رياءٍ » (٨) .

وقالَ عمرُ لمعاذِ بنِ جبلٍ حينَ رآهُ يبكي : ما يُبكيكَ ؟ قالَ حديثٌ سمعتُهُ مِنْ صاحبِ هٰذا القبرِ ـ يعني : النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ يقولُ : « إنَّ أدنى الرياءِ شركٌ » (٩)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخوفُ ما أخافُ عليكُمُ الرياءُ والشهوةُ الخفيَّةُ » (١٠) ، وهيَ : أيضاً ترجعُ إلىٰ خفايا الرياءِ ودقائقِهِ .

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) ، وسيأتي بتمامه .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩) ، ومسلم (٢٩٨٧) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه ، ورواه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما كما أورده المصنف ابن المبارك في « الزهد » (١٤١) بلفظ : « من سمع الناس . . سمع الله به سامع خلقه ، وحقره وصغره » ، قال : فذرفت عينا ابن عمر رضي الله عنهما ، وبلفظ المصنف عن عبد الله بن عمرو بن العاص هو عند المحاسبي في « الرعاية » (ص ١٦١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٢) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥٢٠) من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً .

(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٤٢٨/٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٣/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) .

(٥) رواه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٥٦) .

(٦) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بتقديم وتأخير .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) .

(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٠/٨) من كلام يوسف بن أسباط ، أما مرفوعاً . . فقد قال الحافظ العراقي : (لم أجده هٰكذا) . « إتحاف » (٢٦٣/٨) .

(٩) كذا رواه الطبراني في « الكبير » (٣٦/٢٠) ، وبنحوه رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .

(١٠) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢٢/٧) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٦) ، وروى ابن ماجه

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في ظلِّ العرشِ يومَ لاظلَّ إلا ظلُّهُ رجلاً تصدَّقَ بيمينِهِ فكادَ أنْ يخفيَها عنْ شمالِهِ »[1]

ولذٰلكَ وردَ أنَّ فضلَ عملِ السِّرِّ علىٰ عملِ الجهرِ سبعونَ ضعفاً[2]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المرائيَ يُنادىٰ يومَ القيامةِ : يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا مرائي ؛ ضلَّ عملُكَ ، وحبطَ أجرُكَ ، اذهبْ فخُذْ أجركَ ممَّنْ كنتَ تعملُ لهُ »[3]

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يبكي ، فقلتُ : ما يُبكيكَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « إنِّي تخوَّفتُ علىٰ أمَّتي الشركَ ، أما إنَّهُمْ لا يعبدونَ صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ، ولٰكنَّهُمْ يراؤونَ بأعمالِهِمْ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمَّا خلقَ اللهُ الأرضَ . . مادَتْ بأهلِها ، فخلَقَ الجبالَ فصيَّرها أوتاداً للأرضِ ، فقالَتِ الملائكةُ : ما خلقَ ربُّنا خلقاً هوَ أشدُّ مِنَ الجبالِ ، فخلقَ اللهُ الحديدَ فقطعَ الجبالَ ، ثمَّ خلقَ النارَ فأذابتِ الحديدَ ، ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى الماءَ فأطفأَ النارَ ، وأمرَ الريحَ فكدَّرتِ الماءَ ، فاختلفَتِ الملائكةُ ، فقالَتْ : نسألُ اللهَ تعالىٰ ، فقالَتْ : يا ربُّ ؛ ما أشدُّ ما خلقتَ مِنْ خلقِكَ ؟ فقالَ اللهُ تعالىٰ : لمْ أخلقْ خلقاً هوَ أشدُّ مِنِ ابنِ آدمَ حينَ يتصدَّقُ بصدقةٍ بيمينِهِ فيخفيها عنْ شمالِهِ ، فهوَ أشدُّ خلقٍ خلقتُهُ »[5]

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ بإسنادِهِ عنْ رجلٍ أنَّهُ قالَ لمعاذِ بنِ جبلٍ : حدِّثْني حديثاً سمعتَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قالَ : فبكىٰ معاذٌ حتَّىٰ ظننتُ أنَّهُ لا يسكتُ ، ثمَّ سكتَ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لي : « يا معاذُ » ؛ قلتُ : لبَّيكَ بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « إنِّي محدِّثُكَ حديثاً إنْ أنتَ حفظتَهُ . . نفعَكَ ، وإنْ أنتَ ضيَّعتَهُ ولمْ تحفظْهُ . . انقطعَتْ حجَّتُكَ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ ، يا معاذُ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ خلَقَ سبعةَ أملاكٍ قبلَ أنْ يخلقَ السماواتِ والأرضَ ، ثمَّ خلقَ السماواتِ ، فجعلَ لكلِّ سماءٍ مِنَ السَّبعةِ ملكاً بوَّاباً عليها قدْ جلَّلَها عظماً ، فتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ مِنْ حينَ أصبحَ إلىٰ أنْ يمسيَ ، لهُ نورٌ كنورِ الشمسِ ، حتَّىٰ إذا صعدَتْ بهِ إلى السماءِ الدنيا . . زكَّتْهُ فكثَّرتْهُ ، فيقولُ الملَكُ للحفظةِ : اضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، أنا صاحبُ الغيبةِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَ مَنِ اغتابَ الناسَ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : ثمَّ تأتي الحفظةُ بعملٍ صالحٍ مِنْ أعمالِ العبدِ فتمرُّ فتزكِّيهِ وتكثِّرُهُ ، حتَّىٰ تبلغَ بهِ إلى السماءِ الثانيةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بالسماءِ الثانيةِ : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ؛ إنَّهُ أرادَ بعملِهِ هٰذا عرضَ الدنيا ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّه كانَ يفتخرُ على الناسِ في مجالسِهِمْ .

(٤٢٠٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله ؛ أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولٰكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » .

(١) هو جزء من حديث رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) بنحوه .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥١) ، وبنحوه كذٰلك عن أبي الدرداء (٦٣٩٤) .

(٣) رواه أبو الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٣٣) ، وليس فيه لفظ : (يا مرائي) .

(٤) كذا في « الرعاية » (١٦٤) ، وقد تقدم قريباً .

(٥) رواه الترمذي (٣٣٦٩) بألفاظ مقاربة .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ يبتهجُ نوراً ؛ مِنْ صدقةٍ وصيامٍ وصلاةٍ قدْ أعجبَ الحفظةَ ، فيجاوزونَ بهِ إلى السماءِ الثالثةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، أنا ملَكُ الكِبْرِ ، أمرَني ربّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّهُ كانَ يتكبَّرُ على الناسِ في مجالسِهِمْ .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ يزهِرُ كما يزهرُ الكوكبُ الدرّيُّ ، لهُ دويٌّ مِنْ تسبيحٍ وصلاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ حتَّىٰ يجاوزوا بهِ إلى السماءِ الرابعةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، اضربوا بهِ ظهرَهُ وبطنَهُ ، أنا صاحبُ العُجْبِ ، أمرَني ربّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّهُ كانَ إذا عملَ عملاً . . أدخلَ العُجْبَ في عملِهِ .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ حتَّىٰ يجاوزوا بهِ إلى السماءِ الخامسةِ ؛ كأنَّهُ العروسُ المزفوفةُ إلىٰ أهلِها ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، واحملوهُ علىٰ عاتقِهِ ، أنا ملَكُ الحسدِ ؛ إنَّهُ كانَ يحسدُ الناسَ مَنْ يتعلَّمُ ويعملُ بمثلِ عملِهِ ، وكلَّ مَنْ كانَ يأخذُ فضلاً مِنَ العبادةِ يحسدُهُمْ ويقعُ فيهِمْ ، أمرَني ربّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وصيامٍ ، فيجاوزونَ بها إلى السماءِ السادسةِ ، فيقولُ لهمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ؛ إنَّهُ كانَ لا يرحمُ إنساناً قطُّ مِنْ عبادِ اللهِ أصابَهُ بلاءٌ أوْ ضُرٌّ أضرَّ بهِ ، بلْ كانَ يشمتُ بهِ ، أنا ملَكُ الرحمةِ ، أمرَني ربّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ إلى السماءِ السابعةِ ؛ مِنْ صومٍ وصلاةٍ ونفقةٍ وزكاةٍ واجتهادٍ وورعٍ ، لهُ دويٌّ كدويِّ الرعدِ ، وضوءٌ كضوءِ الشمسِ ، معَهُ ثلاثةُ آلافِ ملَكٍ ، فيجاوزونَ بهِ إلى السماءِ السابعةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، واضربوا بهِ جوارحَهُ ، اقفلوا علىٰ قلبِهِ ؛ إنّي أحجُبُ عنْ ربّي كلَّ عملٍ لمْ يُرَدْ بهِ وجهُ ربّي ؛ إنَّهُ أرادَ بعملِهِ غيرَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّهُ أرادَ رفعةً عندَ الفقهاءِ ، وذكراً عندَ العلماءِ ، وصيتاً[1] في المدائنِ ، أمرَني ربّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ، وكلُّ عملٍ لمْ يكنْ للهِ تعالىٰ خالصاً فهوَ رياءٌ ، ولا يقبلُ اللهُ تعالىٰ عملَ المرائي .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ ، وعمرةٍ وخُلُقٍ حسنٍ وصمتٍ وذكرٍ للهِ تعالىٰ ، وتشيِّعُهُ ملائكةُ السماواتِ حتَّىٰ يقطعوا بهِ الحجُبَ كلَّها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فيقفونَ بينَ يديهِ ويشهدونَ لهُ بالعملِ الصَّالحِ المخلصِ للهِ تعالىٰ ، قالَ : فيقولُ اللهُ لهُمْ : أنتُمُ الحفظةُ علىٰ عملِ عبدي وأنا الرقيبُ علىٰ نفسِهِ ؛ إنَّهُ لمْ يردْني بهٰذا العملِ ، وأرادَ بهِ غيري ، فعليهِ لعنتي ، فتقولُ الملائكةُ كلُّها : عليهِ لعنتُكَ ولعنتُنا ، وتقولُ السماواتُ كلُّها : عليهِ لعنةُ اللهِ ولعنتُنا ، وتَلعنُهُ السماواتُ السبعُ ومَنْ فيهِنَّ » ، قالَ معاذٌ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وأنا معاذٌ ، قالَ : « اقتدِ بي وإنْ كانَ في عمرِكَ نقصٌ[2] ، يا معاذُ ؛ حافظْ علىٰ لسانِكَ مِنَ الوقيعةِ في إخوانِكَ مِنْ حملةِ القرآنِ ، واحملْ ذنوبَكَ عليكَ ، ولا تحملْها عليهِمْ ، ولا تزكِّ نفسَكَ بذمِّهِمْ ، ولا ترفعْ نفسَكَ عليهِمْ ، ولا تُدخِلْ عملَ الدنيا في عملِ الآخرةِ ، ولا تتكبَّرْ في مجلسِكَ لكي يحذرَ الناسُ مِنْ سوءِ خُلُقِكَ ، ولا تناجِ رجلاً وعندكَ آخرُ ، ولا تتعظَّمْ

(١) في (ب) : (وصوتاً) .

(٢) في غير (ك) : (تقصير) بدل (نقص) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/٢٦٦) : (عملك) بدل (عمرك) .

على الناسِ فينقطعَ عنكَ خيرُ الدنيا ، ولا تمزِّقِ الناسَ فتمزِّقَكَ كلابُ النارِ يومَ القيامةِ في النارِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴾ ، أتدري ما هيَ يا معاذُ ؟ » قلتُ : ما هيَ بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « كلابٌ في النارِ تنشُطُ اللحمَ والعظمَ » ، قلتُ : بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فمَنْ يطيقُ هٰذهِ الخصالَ ؟ ومَنْ ينجو منْها ؟ قالَ : « يا معاذُ ؛ إنَّهُ ليسيرٌ علىٰ مَنْ يسَّرَهُ اللهُ عليهِ » ، قالَ : فما رأيتُ أكثرَ تلاوةً للقرآنِ مِنْ معاذٍ ؛ للحذرِ ممَّا في هٰذا الحديثِ[1]

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فيُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ رأىٰ رجلاً يطأطئُ رقبتَهُ ، فقالَ : (يا صاحبَ الرقبةِ ؛ ارفعْ رقبتَكَ ، ليسَ الخشوعُ في الرِّقابِ ، وإنَّما الخشوعُ في القلوبِ)[2]

ورأىٰ أبو أمامةَ الباهليُّ رجلاً في المسجدِ يبكي في سجودِهِ ، فقالَ : (أنتَ أنتَ ؛ لوْ كانَ هٰذا في بيتِكَ)[3]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (للمُرائي أربعُ علاماتٍ : يكسلُ إذا كانَ وحدَهُ ، وينشطُ إذا كانَ في الناسِ ، ويزيدُ في العملِ إذا أُثنيَ عليهِ ، وينقصُ إذا ذُمَّ)[4]

وقالَ رجلٌ لعبادةَ بنِ الصامتِ : أقاتلُ بسيفي في سبيلِ اللهِ أريدُ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ ومحمدةَ الناسِ ؟ قالَ : لا شيءَ لكَ ، فسألهُ ثلاثَ مراتٍ ، كلَّ ذٰلكَ يقولُ : لا شيءَ لكَ ، ثمَّ قالَ في الثالثةِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : أنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ . . . » الحديثَ[5]

وسألَ رجلٌ سعيدَ بنَ المسيَّبِ فقالَ : أحدُنا يصطنعُ المعروفَ يحبُّ أنْ يُحمدَ ويُؤجرَ ، فقالَ لهُ : أتحبُّ أنْ تُمقتَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإذا عملتَ للهِ عملاً . . فأخلصْهُ[6]

وقالَ الضحاكُ : (لا يقولَنَّ أحدُكُمْ : هٰذا لوجهِ اللهِ ولوجهِكَ ، ولا يقلْ : هٰذا للهِ وللرحمِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا شريكَ لهُ)[7]

وضربَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً بالدِّرَّةِ ، ثمَّ قالَ لهُ : اقتصَّها منِّي ، فقالَ : لا ، بلْ أدَعُها للهِ ولكَ ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : ما صنعتَ شيئاً ، إمَّا أنْ تدَعَها لي فأعرفَ ذٰلكَ لكَ ، أوْ تدَعَها للهِ وحدَهُ ، فقالَ : ودعتُها للهِ وحدَهُ ، فقالَ : فنعمْ إذاً[8]

---

(١) قال الحافظ العراقي : (هو كما قال المصنف ، رواه ابن المبارك بطوله في الزهد له ، وفي إسناده ـ كما ذكر ـ رجل ، ورواه ابن الجوزي في « الموضوعات » [٢/٣٣٩]) . « إتحاف » (٨/٢٦٦) وزاد : (وبخط الكمال الدميري : قال الشيخ تقي الدين القشيري : الرجل المذكور هو خالد بن معدان) .

(٢) أورده الإسماعيلي في « مناقبه » . « إتحاف » (٨/٢٦٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٦) .

(٤) كذا أورده الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٣٠) ، ورواه بنحوه عن أبي سليمان الداراني الثعلبيُّ في « تفسيره » (٢/٧) وفيه لفظ (ثلاث علامات) ولم يذكر الأخيرة .

(٥) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٦) ، وروى الحديث مرفوعاً مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه .

(٦) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٥) ، والسائل هو ابن أبي مغيث .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٩٣٧) ، ورواه عنه الدارقطني في « سننه » (١/٥١) مرفوعاً .

(٨) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٦) ، وقد رواه ضمن خبر طويل ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/٢٩١) .

وقالَ الحسنُ : (لقدْ صحبتُ أقواماً إنْ كانَ أحدُهُمْ لتعرضُ لهُ الحكمةُ ، لوْ نطقَ بها . . لنفعَتْهُ ونفعَتْ أصحابَهُ ، وما يمنعُهُ منها إلا مخافةُ الشهرةِ ، وإنْ كانَ أحدُهُمْ ليمرُّ فيرى الأذىٰ على الطريقِ ، فما يمنعُهُ أنْ ينحيَهُ إلا مخافةُ الشهرةِ)(١)

ويُقالُ : (إنَّ المرائيَ يُنادىٰ يومَ القيامةِ بأربعةِ أسماءٍ : يا مرائي ، يا غادرُ ، يا فاجرُ ، يا خاسرُ ؛ اذهبْ فخذْ أجركَ ممَّنْ عملتَ لهُ ، فلا أجرَ لكَ عندَنا)(٢)

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (كانوا يراؤونَ بما يعملونَ ، وصاروا اليومَ يراؤونَ بما لا يعملونَ)(٣)

وقالَ عكرمةُ : (إنَّ اللهَ يعطي العبدَ علىٰ نيَّتِهِ ما لا يعطيهِ علىٰ عملِهِ ؛ لأنَّ النيةَ لا رياءَ فيها)(٤)

وقالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : (المُرائي يريدُ أنْ يغلبَ قدرَ اللهِ تعالىٰ ، هوَ رجلُ سوءٍ يريدُ أنْ يقولَ الناسُ : هوَ رجلٌ صالحٌ ، وكيفَ يقولونَ وقدْ حلَّ مِنْ ربِّهِ محلَّ الأردياءِ ، فلا بدَّ لقلوبِ المؤمنينَ أنْ تعرفَهُ ؟!)(٥)

وقالَ قتادةُ : (إذا راءى العبدُ . . يقولُ اللهُ تعالى : انظروا إلىٰ عبدي يستهزئُ بي)(٦)

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (القراءُ ثلاثةٌ : قراءُ الرحمٰنِ ، وقراءُ الدنيا ، وقراءُ الملوكِ ، وإنَّ محمدَ بنَ واسعٍ مِنْ قراءِ الرحمٰنِ)(٧)

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ مُراءٍ . . فلينظرْ إليَّ) .

وقالَ محمدُ بنُ المباركِ الصوريُّ : (أظهرِ السمتَ بالليلِ ؛ فإنَّهُ أشرفُ مِنْ سمتِكَ بالنهارِ ؛ لأنَّ السمتَ بالنهارِ للمخلوقينَ ، وسمتُ الليلِ لربِّ العالمينَ) .

وقالَ أبو سليمانَ : (التوقّي عنِ العملِ أشدُّ مِنَ العملِ)(٨)

وقالَ ابنُ المباركِ : إنْ كانَ الرجلُ ليطوفُ بالبيتِ وهوَ بخراسانَ ، قيلَ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : يحبُّ أنْ يُذكرَ أنَّهُ مجاورٌ بمكةَ .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (ما صدقَ اللهَ مَنْ أرادَ أنْ يشتهرَ)(٩)

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨) .
(٢) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٣) ، ورواه الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٣٣) .
(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٦٨/٨) .
(٤) هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨٤٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .
(٥) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، والأردياء : جمع رديء . « إتحاف » (٢٦٨/٨) .
(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٩٣) .
(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٥/٢) .
(٨) روي مرفوعاً بنحوه ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٣٩٤) من حديث أبي الدرداء : « إن الاتقاء على العمل أشد من العمل . . . » .
(٩) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١/٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٧٦) .

بيان حقيقة الرياء وما يُراءىٰ به

اعلمْ : أنَّ الرياءَ مشتقٌّ مِنَ الرؤيةِ ، والسمعةَ مشتقَّةٌ مِنَ السماعِ ، وإنَّما الرياءُ أصلُهُ طلبُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ بإيرائِهِمْ خصالَ الخيرِ ، إلا أنَّ الجاهَ والمنزلةَ تُطلبُ في القلبِ بأعمالٍ سوى العباداتِ ، وتُطلبُ بالعباداتِ .

واسمُ الرياءِ مخصوصٌ بحكمِ العادةِ بطلبِ المنزلةِ في القلوبِ بالعباداتِ وإظهارِها .

فحدُّ الرياءِ : هوَ إرادةُ العبادِ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فالمُرائي هوَ العابدُ ، والمُراءىٰ لهُ هُمُ الناسُ المطلوبُ رؤيتُهُمْ بطلبِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ، والمُراءىٰ بهِ هيَ الخصالُ التي قصدَ المُرائي إظهارَها ، والرياءُ هوَ قصدُهُ إظهارَ ذٰلكَ .

والمُراءىٰ بهِ كثيرٌ ، تجمعُهُ خمسةُ أقسامٍ ، هيَ مجامعُ ما يتزيَّنُ العبدُ بهِ للناسِ ، وهوَ البدنُ ، والزيُّ ، والقولُ ، والعملُ ، والأتباعُ والأشياءُ الخارجةُ ، وكذٰلكَ أهلُ الدنيا يراؤونَ بهٰذهِ الأسبابِ الخمسةِ ، إلا أنَّ طلبَ الجاهِ وقصدَ الرياءِ بأعمالٍ ليسَتْ مِنْ جملةِ الطاعاتِ أهونُ مِنَ الرياءِ بالطاعاتِ .

❁ ❁ ❁

الأولُ : الرياءُ في الدينِ مِنْ جهةِ البدنِ :

وذٰلكَ بإظهارِ النحولِ والاصفرارِ ؛ ليوهمَ بذٰلكَ شدَّةَ الاجتهادِ ، وعظمَ الحزنِ علىٰ أمرِ الدينِ ، وغلبةَ خوفِ الآخرةِ ، وليدلَّ بالنحولِ علىٰ قلَّةِ الأكلِ ، وبالاصفرارِ علىٰ سهرِ الليلِ ، وكثرةِ الاجتهادِ ، وعظمِ الحزنِ في الدينِ .

وكذٰلكَ يرائي بتشعيثِ الشعرِ ؛ ليدلَّ بهِ على استغراقِ الهمِّ بالدينِ ، وعدمِ التفرُّغِ لتسريحِ الشعرِ .

وهٰذِه أسبابٌ مهما ظهرَتْ . . استدلَّ الناسُ بها علىٰ هٰذهِ الأمورِ ، فارتاحَتِ النَّفسُ لمعرفتِهِمْ ؛ فلذٰلكَ تدعو النفسُ إلىٰ إظهارِها ؛ لنيلِ تلكَ الراحةِ .

ويقربُ مِنْ هٰذا خفضُ الصوتِ ، وغورُ العينينِ ، وذبولُ الشفتينِ ؛ ليُستدلَّ بذٰلكَ علىٰ أنَّهُ مواظبٌ على الصومِ ، وأنَّ وقارَ الشرعِ هوَ الذي خفضَ مِنْ صوتِهِ ، أوْ ضعْفَ الجوعِ هوَ الذي أضعفَ قوَّتَهُ .

وعنْ هٰذا قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إذا صامَ أحدُكُمْ . . فليدهنْ رأسَهُ ، ويرجِّلْ شعرَهُ ، ويكحلْ عينيهِ)[1]

وكذٰلكَ رُويَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ[2] ، وذٰلكَ كلُّه لما يُخافُ عليهِ مِنْ نزغِ الشيطانِ بالرياءِ ، ولذٰلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ : (أصبحوا صياماً مدَّهنينَ)[3]

فهٰذهِ مراءاةُ أهلِ الدينِ بالبدنِ ، فأمَّا أهلُ الدنيا . . فيراؤونَ بإظهارِ السمنِ ، وصفاءِ اللونِ ، واعتدالِ القامةِ ، وحسنِ الوجهِ ، ونظافةِ البدنِ ، وقوةِ الأعضاءِ وتناسبِها[4]

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) بنحوه .

(٢) كما أشار إلىٰ ذلك في « الرعاية » (ص ١٧٩) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ١٧٩) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٣٦) .

(٤) الرعاية (ص ١٨٠) .

الثاني : الرياءُ بالزِّيِّ والهيئةِ :

أمَّا الهيئةُ . . فتشعيثُ شعرِ الرأسِ ، وحلقُ الشاربِ ، وإطراقُ الرأسِ في المشيِ ، والهدوءُ في الحركةِ ، وإبقاءُ أثرِ السجودِ على الوجهِ ، وغلظُ الثيابِ ، ولبسُ الصوفِ ، وتشميرُها إلىٰ قريبٍ مِنْ نصفِ السَّاقِ ، وتقصيرُ الأكمامِ ، وتركُ تنظيفِ الثوبِ ، وتركُهُ مخرقاً ، كلُّ ذٰلكَ يُرائي بهِ ؛ ليظهرَ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ متَّبعٌ للسنَّةِ فيهِ ، ومقتدٍ فيهِ بعبادِ اللهِ الصالحينَ .

ومنهُ : لبسُ المرقَّعِ ، والصلاةُ على السجادةِ ، ولبسُ الثيابِ الزرْقِ تشبُّهاً بالصوفيَّةِ معَ الإفلاسِ مِنْ حقائقِ التصوُّفِ في الباطنِ .

ومنهُ : التقنُّعُ بالإزارِ فوقَ العمامةِ ، وإسبالُ الرداءِ على العينينِ ؛ ليُرىٰ بهِ أنَّهُ انتهىٰ تقشُّفُهُ إلى الحذرِ مِنْ غبارِ الطريقِ ، ولتنصرفَ إليهِ الأعينُ بسببِ تميُّزِهِ بتلكَ العلامةِ .

ومنهُ الدُّرَّاعةُ والطَّيلسانُ يلبسُهُ مَنْ هوَ خالٍ عنِ العلمِ ؛ ليوهمَ أنَّهُ مِنْ أهلِ العلمِ .

والمراؤونَ بالزِّيِّ على طبقاتٍ ؛ فمِنهُمْ مَنْ يطلبُ المنزلةَ عندَ أهلِ الصلاحِ بإظهارِ الزهدِ ، فيلبسُ الثيابَ المخرَّقةَ الوسخةَ القصيرةَ الغليظةَ ؛ ليرائيَ بغلظِها ووسخِها وقصرِها وتخرُّقِها أنَّهُ غيرُ مكترثٍ بالدنيا ، ولوْ كُلِّفَ أنْ يلبسَ ثوباً وسطاً نظيفاً ممَّا كانَ السلفُ يلبسُهُ . . لكانَ ذٰلكَ عندَهُ بمنزلةِ الذبحِ ؛ وذٰلكَ لخوفِهِ أنْ يقولَ الناسُ : قدْ بدا لهُ مِنَ الزهدِ ، ورجعَ عنْ تلكَ الطريقةِ ، ورغبَ في الدنيا .

وطبقةٌ أخرىٰ يطلبونَ القبولَ عندَ أهلِ الصلاحِ ، وعندَ أهلِ الدنيا مِنَ الملوكِ والوزراءِ والتجارِ ، ولوْ لبسوا الثيابَ الفاخرةَ . . ردَّهُمُ القرَّاءُ ، ولوْ لبسوا الثيابَ المخرَّقةَ الخلَقَةَ . . ازدرتْهُمْ أعينُ الملوكِ والأغنياءِ ، فهُمْ يريدونَ الجمعَ بينَ قبولِ أهلِ الدينِ والدنيا ، فلذٰلكَ يطلبونَ الأصوافَ الرقيقةَ ، والأكسيةَ الرفيعةَ ، والمرقعاتِ المصبوغةَ ، والفوطَ الرفيعةَ فيلبسونَها ، ولعلَّ قيمةَ ثوبِ أحدِهِمْ قيمةُ ثوبِ الأغنياءِ ، ولونُهُ وهيئتُهُ لونُ ثيابِ الصلحاءِ ، فيلتمسونَ القبولَ عندَ الفريقينِ ، وهٰؤلاءِ لوْ كُلِّفوا لبسَ ثوبٍ خشنٍ أوْ وسخٍ . . لكانَ عندَهُمْ كالذبحِ ؛ خوفاً مِنَ السقوطِ مِنْ أعينِ الملوكِ والأغنياءِ ، ولوْ كُلِّفوا لبسَ الدَّبِيقيِّ والكتَّانِ الرقيقِ الأبيضِ (١) ، والقصبِ المعلَّمِ ، وإنْ كانَتْ قيمتُهُ دونَ قيمةِ ثيابِهِمْ . . لعَظُمَ ذٰلكَ عليهِمْ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يقولَ أهلُ الصلاحِ : قدْ رغبوا في زيِّ أهلِ الدنيا ، وكلُّ طبقةٍ منهُمْ رأىٰ منزلتَهُ في زيٍّ مخصوصٍ ، فيثقلُ عليهِ الانتقالُ إلىٰ ما دونَهُ ، أوْ إلىٰ ما فوقَهُ وإنْ كانَ مباحاً ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالثيابِ النفيسةِ ، والمراكبِ الرفيعةِ ، وأنواعِ التوسعِ والتجمُّلِ في الملبسِ والمسكنِ وأثاثِ البيتِ وفرهِ الخيولِ ، وبالثيابِ المصبغةِ والطيالسةِ النفيسةِ ، وذٰلكَ ظاهرٌ بينَ الناسِ ، فإنَّهُمْ يلبسونَ في بيوتِهِمُ الثيابَ الخشنةَ ، ويشتدُّ عليهِمْ لوْ برزوا للناسِ علىٰ تلكَ الهيئةِ ما لمْ يبالغوا في الزينةِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : الرياءُ بالقولِ :

ورياءُ أهلِ الدينِ بالوعظِ ، والتذكيرِ ، والنطقِ بالحكمةِ ، وحفظِ الأخبارِ والآثارِ لأجلِ الاستعمالِ في المحاورةِ ؛

---

(١) الدبيقي : منسوب إلىٰ دبيق ، وهي من قرىٰ دمياط ، قد خرجت منذ زمان ، كان يعمل فيها هٰذه الثياب المنسوجة بالحرير . « إتحاف » (٢٧٠/٨) .

إظهاراً لغزارةِ العلمِ ، ودلالةً علىٰ شدَّةِ العنايةِ بأحوالِ السلفِ الصالحينَ ، وتحريكِ الشفتينِ بالذكرِ في محضرِ الناسِ ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ بمشهدِ الخلقِ ، وإظهارِ الغضبِ للمنكراتِ ، وإظهارِ الأسفِ علىٰ مقارفةِ الناسِ للمعاصي ، وتضعيفِ الصوتِ في الكلامِ ، وترقيقِ الصوتِ بقراءةِ القرآنِ ؛ ليدلَّ بذٰلكَ على الحزنِ والخوفِ ، وادعاءِ حفظِ الحديثِ ، ولقاءِ الشيوخِ ، والردِّ علىٰ مَنْ يروي الحديثَ ببيانِ خللٍ في لفظِهِ ؛ ليُعرفَ أنَّهُ بصيرٌ بالأحاديثِ ، والمبادرةِ إلىٰ أنَّ الحديثَ صحيحٌ أوْ غيرُ صحيحٍ ؛ لإظهارِ الفضلِ فيهِ ، والمجادلةِ علىٰ قصدِ إفحامِ الخصمِ ؛ ليظهرَ للناسِ قوَّتَهُ في علمِ الدينِ .

والرِّياءُ بالقولِ كثيرٌ وأبوابُهُ لا تنحصرُ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالقولِ بحفظِ الأشعارِ والأمثالِ ، والتفاصحِ في العباراتِ ، وحفظِ النحوِ الغريبِ ؛ للإغرابِ علىٰ أهلِ الفضلِ ، وإظهارِ التودُّدِ إلى الناسِ لاستمالةِ القلوبِ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : الرياءُ بالعملِ :

كمراءاةِ المصلِّي بطولِ القيامِ ومدِّ الظهرِ ، وتطويلِ السجودِ والركوعِ ، وإطراقِ الرأسِ ، وتركِ الالتفاتِ ، وإظهارِ الهدوءِ والسكونِ ، وتسويةِ القدمينِ واليدينِ ، وكذٰلكَ بالصومِ ، والغزوِ ، والحجِّ ، وبالصدقةِ ، وبإطعامِ الطعامِ ، وبالإخباتِ في المشيِ عندَ اللقاءِ ؛ كإرخاءِ الجفونِ ، وتنكيسِ الرأسِ ، والوقارِ في الكلامِ ، حتَّىٰ إنَّ المرائيَ قدْ يسرعُ في المشيِ إلىٰ حاجتِهِ ، فإذا اطلعَ عليهِ واحدٌ مِنْ أهلِ الدينِ . . رجعَ إلى الوقارِ وإطراقِ الرأسِ ؛ خوفاً مِنْ أن ينسبَهُ إلى العجلةِ وقلَّةِ الوقارِ ، فإنْ غابَ الرجلُ . . عادَ إلىٰ عجلتِهِ ، فإذا رآهُ . . عادَ إلىٰ خشوعِهِ ، ولمْ يحضرْهُ ذكرُ اللهِ حتَّىٰ يكونَ يجددُ الخشوعَ لهُ ، بلْ هوَ لاطلاعِ إنسانٍ عليهِ يخشَىٰ ألا يعتقدَ فيهِ أنَّهُ مِنَ العُبَّادِ والصلحاءِ .

ومنهُمْ مَنْ إذا سمعَ هٰذا . . استحيا مِنْ أنْ تخالفَ مِشيتُهُ في الخلوةِ مِشْيتَهُ بمرأىً مِنَ الناسِ ، فيكلِّفُ نفسَهُ المِشْيةَ الحسنةَ في الخلوةِ ، حتَّىٰ إذا رآهُ الناسُ . . لمْ يفتقرْ إلى التغييرِ ، ويظنُّ أنَّهُ يتخلَّصُ بهِ عنِ الرياءِ ، وقدْ تضاعفَ بهِ رياؤُهُ ، فإنَّهُ صارَ في خلوتِهِ أيضاً مرائياً ، فإنَّهُ إنَّما يحسِّنُ مشيتَهُ في الخلوةِ ؛ ليكونَ كذٰلكَ في الملأ ، لا لخوفٍ مِنَ اللهِ وحياءٍ مِنهُ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالتبخترِ والاختيالِ ، وتحريكِ اليدينِ وتقريبِ الخُطا ، والأخذِ بأطرافِ الذيلِ ، وإدارةِ العطفينِ ؛ ليدلُّوا بذٰلكَ على الجاهِ والحشمةِ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : المراءاةُ بالأصحابِ والزائرينَ والمخالطينَ :

كالذي يتكلَّفُ أنْ يستزيرَ عالماً من العلماءِ ؛ ليُقَالَ : إنَّ فلاناً قدْ زارَ فلاناً ، أو عابداً مِنَ العبَّادِ ؛ ليُقالَ : إنَّ أهلَ الدينِ يتبرَّكونَ بزيارتِهِ ، ويتردَّدونَ إليهِ ، أو ملكاً مِنَ الملوكِ ، أو عاملاً مِنْ عمَّالِ السلطانِ ؛ ليُقالَ : إنَّهُمْ يتبرَّكونَ بهِ ؛ لعظمِ رتبتِهِ في الدينِ ، وكالذي يكثرُ ذكرَ الشيوخِ ؛ ليُرىٰ أنَّهُ لقيَ شيوخاً كثيرةً واستفادَ منهُمْ ، فيباهي بشيوخِهِ ، ومباهاتُهُ ومراءاتُهُ تترشَّحُ منهُ عندَ مخاصمتِهِ ، فيقولُ لغيرِهِ : ومَنْ لقيتَ مِنَ الشيوخِ ؟ وأنا قدْ لقيتُ فلاناً وفلاناً ، ودرتُ البلادَ ، وخدمتُ الشيوخَ ، وما يجري مجراهُ .

فهٰذهِ مجامعُ ما يرائي بهِ المراؤونَ ، وكلُّهُمْ يطلبون بهِ الجاهَ والمنزلةَ في قلوبِ العبادِ .

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ مَنْ يقنعُ بحسنِ الاعتقاداتِ فيهِ ، فكمْ مِنْ راهبٍ انزوىٰ إلىٰ ديرِهِ سنينَ كثيرةً ، وكمْ مِنْ عابدٍ اعتزلَ إلىٰ قُلَّةِ جبلٍ مدةً مديدةً ، وإنَّما حياتُهُ مِنْ حيثُ علمُهُ بقيامِ جاهِهِ في قلوبِ الخلقِ ، ولوْ عرفَ أنَّهُمْ نسبوهُ إلىٰ جريمةٍ في ديرِهِ أوْ صومعتِهِ . . لتشوَّشَ قلبُهُ ، ولمْ يقنعْ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ببراءةِ ساحتِهِ ، بلْ يشتدُّ لذٰلكَ غمُّهُ ، ويسعىٰ بكلِّ حيلةٍ في إزالةِ ذٰلكَ مِنْ قلوبِهِمْ ، معَ أنَّهُ قطعَ طمَعَهُ عنْ أموالِهِمْ ، ولٰكنَّهُ يحبُّ مجرَّدَ الجاهِ ، فإنَّهُ لذيذٌ كما ذكرناهُ في أسبابِهِ ، فإنَّهُ نوعُ قدرةٍ وكمالٍ في الحالِ ، وإن كانَ سريعَ الزوالِ ، لا يغترُّ بِهِ إلا الجهَّالُ ، ولٰكنَّ أكثرَ الناسِ جهَّالٌ .

ومِنَ المرائينَ مَنْ لا يقنعُ بقيامِ منزلتِهِ ، بلْ يلتمسُ معَ ذٰلكَ إطلاقَ اللسانِ بالثناءِ والحمدِ .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ انتشارَ الصِّيتِ في البلادِ ؛ لتكثرَ الرحلةُ إليهِ .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ الاشتهارَ عندَ الملوكِ ؛ لتُقبلَ شفاعتُهُ ، وتنجزَ الحوائجُ علىٰ يديهِ فيقومَ لهُ بِهِ جاهٌ عندَ العامَّةِ .

ومنهُمْ مَنْ يقصدُ التوصُّلَ بذٰلكَ إلىٰ جمعِ حطامٍ ، وكسبِ مالٍ ولوْ مِنَ الأوقافِ وأموالِ اليتامىٰ وغيرِ ذٰلكَ مِنَ الحرامِ ، وهٰؤلاءِ شرُّ طبقاتِ المرائينَ الذينَ يراؤونَ بالأسبابِ التي ذكرناها .

فهٰذهِ حقيقةُ الرِّياءِ وما بهِ يقعُ الرياءُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالرياءُ حرامٌ ، أوْ مكروهٌ ، أوْ مباحٌ ، أوْ فيهِ تفصيلٌ ؟

فأقولُ : فيهِ تفصيلٌ ؛ فإنَّ الرياءَ هوَ طلبُ الجاهِ ، وهوَ إمَّا أنْ يكونَ بالعباداتِ أوْ بغيرِ العباداتِ ، فإنْ كانَ بغيرِ العباداتِ . . فهوَ كطلبِ المالِ ؛ فلا يحرمُ مِنْ حيثُ إنَّهُ طلبُ منزلةٍ في قلوبِ العبادِ ، ولٰكنْ كما يمكنُ كسبُ المالِ بتلبيساتٍ وأسبابٍ محظورةٍ . . فكذٰلكَ الجاهُ ، وكما أنَّ كسبَ قليلٍ مِنَ المالِ وهوَ ما يحتاجُ إليهِ الإنسانُ محمودٌ . . فكسبُ قليلٍ مِنَ الجاهِ وهوَ ما يسلمُ بهِ عنِ الآفاتِ أيضاً محمودٌ ، وهوَ الذي طلبَهُ يوسفُ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وكما أنَّ المالَ فيهِ سمٌّ ناقعٌ ودرياقٌ نافعٌ[1] . . فكذٰلكَ الجاهُ ، وكما أنَّ كثيرَ المالِ يُلهي ويُطغي ، ويُنسي ذكرَ اللهِ تعالىٰ والدارَ الآخرةَ . . فكذٰلكَ كثرةُ الجاهِ ، بلْ إنَّ فتنةَ الجاهِ أعظمُ من فتنةِ المالِ ، وكما أنَّا لا نقولُ : تملُّكُ المالِ الكثيرِ حرامٌ ، فلا نقولُ أيضاً : تملُّكُ القلوبِ الكثيرةِ حرامٌ ، إلا إذا حملَتْهُ كثرةُ المالِ وكثرةُ الجاهِ علىٰ مباشرةِ ما لا يجوزُ .

نعم ؛ انصرافُ الهمِّ إلىٰ سعةِ الجاهِ مبدأُ الشرورِ ؛ كانصرافِ الهمِّ إلىٰ كثرةِ المالِ ، ولا يقدرُ محبُّ الجاهِ والمالِ علىٰ تركِ معاصي القلبِ واللسانِ وغيرِها .

وأمَّا سعةُ الجاهِ مِنْ غيرِ حرصٍ منكَ علىٰ طلبِهِ ، ومِنْ غيرِ اغتمامٍ بزوالِهِ إن زالَ . . فلا ضررَ فيهِ ؛ فلا جاهَ أوسعُ مِنْ جاهِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وجاهِ الخلفاءِ الراشدينَ ، ومَنْ بعدَهُمْ مِنْ علماءِ الدينِ ، ولٰكنَّ انصرافَ الهمِّ إلىٰ طلبِ الجاهِ نقصانٌ في الدينِ ، ولا يُوصفُ بالتحريمِ .

---

(١) الدرياق والترياق بمعنىً .

فعلىٰ هٰذا نقولُ : تحسينُ الثوبِ الذي يلبسُهُ الإنسانُ عندَ الخروجِ إلى الناسِ مراءاةٌ ، وهوَ ليسَ بحرامٍ ؛ لأنَّهُ ليسَ رياءً بالعبادةِ ، بلْ بالدنيا ، وقسْ علىٰ هٰذا كلَّ تجمُّلٍ للناسِ وتزيُّنٍ لهُمْ .

والدليلُ عليهِ : ما رُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنْها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرادَ أن يخرجَ يوماً على الصحابةِ ، فكانَ ينظرُ في حُبِّ الماءِ ، ويسوِّي عِمامتَهُ وشعرَهُ ، فقالَتْ : أوَتفعلُ ذٰلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « نعمْ ، إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ مِنَ العبدِ أنْ يتزيَّنَ لإخوانِهِ إذا خرجَ إليهِمْ »[1]

نعمْ ؛ هٰذا كانَ مِنْ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عبادةً ؛ لأنَّهُ كانَ مأموراً بدعوةِ الخلقِ ، وترغيبِهِمْ في الاتباعِ ، واستمالةِ قلوبِهِمْ ، ولوْ سقطَ مِنْ أعينِهِمْ . . لمْ يرغبوا في اتباعِهِ ، فكانَ يجبُ عليهِ أنْ يُظهِرَ لهُمْ محاسنَ أحوالِهِ ؛ لكيلا تزدريَهُ أعينُهُمْ ، فإنَّ أعينَ عوامِّ الخلقِ تمتدُّ إلى الظواهرِ دونَ السرائرِ ، فكانَ ذٰلكَ قصدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ولٰكنْ لوْ قصدَ قاصدٌ أنْ يحسِّنَ نفسَهُ في أعينِهِمْ ؛ حذراً مِنْ ذمِّهِمْ ولومِهِمْ ، واسترواحاً إلىٰ توقيرِهِمْ واحترامِهِمْ . . كانَ قدْ قصدَ أمراً مباحاً ؛ إذْ للإنسانِ أن يحذرَ من ألمِ المذمَّةِ ، ويطلبَ راحةَ الأُنسِ بالإخوانِ ، ومهما استثقلوهُ واستقذروهُ . . لمْ يأنسْ بهِمْ .

فإذاً ؛ المراءاةُ بما ليسَ مِنَ العباداتِ قدْ تكونُ مباحةً ، وقدْ تكونُ طاعةً ، وقدْ تكونُ مذمومةً ، وذٰلكَ بحسبِ الغرضِ المطلوبِ بها ، ولذٰلكَ نقولُ : الرجلُ إذا أنفقَ مالَهُ علىٰ جماعةٍ مِنَ الأغنياءِ ، لا في معرضِ العبادةِ والصدقةِ ، ولٰكنْ ليعتقدَ الناسُ أنَّهُ سخيٌّ . . فهٰذهِ مراءاةٌ وليسَتْ بحرامٍ ، وكذٰلكَ أمثالُهُ .

❁ ❁ ❁

أمَّا العباداتُ ؛ كالصدقةِ ، والصلاةِ ، والصيامِ ، والغزوِ ، والحجِّ . . فللمرائي فيهِ حالتانِ :

إحداهُما[2] : ألا يكونَ لهُ قصدٌ إلا الرياءُ المحضُ دونَ الأجرِ ، وهٰذا يبطلُ عبادتَهُ ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنياتِ ، وهٰذا ليسَ يقصدُ العبادةَ ، ثمَّ لا يقتصرُ علىٰ إحباطِ عبادتِهِ حتَّىٰ نقولَ : صارَ كما كانَ قبلَ العبادةِ ، بلْ يعصي بذٰلكَ ويأثمُ ، كما دلَّتْ عليهِ الأخبارُ والآياتُ ، **والمعنيُّ فيهِ أمرانِ** :

أحدُهُما : يتعلَّقُ بالعبادِ ، وهوَ التلبيسُ والمكرُ ؛ لأنَّهُ خَيَّلَ إليهِمْ أنَّهُ مخلصٌ مطيعٌ للهِ ، وأنَّهُ مِنْ أهلِ الدينِ ، وليسَ كذٰلكَ ، والتلبيسُ أيضاً في أمرِ الدنيا حرامٌ ، حتَّىٰ لوْ قضىٰ دينَ جماعةٍ وخيَّلَ للناسِ أنَّهُ متبرِّعٌ عليهِمْ ؛ ليعتقدوا سخاوتَهُ . . أثمَ بهِ ؛ لما فيهِ مِنَ التلبيسِ وتملُّكِ القلوبِ بالخداعِ والمكرِ .

والثاني : يتعلَّقُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أنَّهُ مهما قصدَ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ خلقَ اللهِ . . فهوَ مستهزئٌ باللهِ ، ولذٰلكَ قالَ قتادةُ : (إذا راءى العبدُ . . قالَ اللهُ تعالىٰ لملائكتِهِ : انظروا إلىٰ عبدي كيفَ يستهزئُ بي)[3] ، ومثالُهُ : أن يمْثُلَ بينَ يدي ملكٍ مِنَ الملوكِ طولَ النهارِ ؛ كما جرَتْ عادةُ الخدمةِ ، وإنَّما وقوفُهُ لملاحظةِ جاريةٍ مِنْ جواري الملكِ ، أوْ غلامٍ مِنْ غلمانِهِ ، فإنَّ هٰذا استهزاءٌ بالملكِ ؛ إذْ لمْ يقصدِ التقرُّبَ إلى الملكِ بخدمتِهِ ، بلْ قصدَ بهِ عبداً مِنْ عبيدِهِ ، فأيُّ

---

(١) قال العراقي : (أخرجه ابن عدي في « الكامل ») . « إتحاف » (٣٩٦/٢) ، والحُبُّ : الخابية ، لفظة فارسية معربة .

(٢) والحالة الثانية ستأتي آخر هٰذا البيان عند قوله : (فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً . . .) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٩٣) .

استحقار يزيدُ علىٰ أن يقصدَ العبدُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ مراءاةَ عبدٍ ضعيفٍ لا يملكُ لهُ ضرّاً ولا نفعاً ؟! وهلْ ذٰلكَ إلا لأنَّهُ ظنَّ أنَّ ذٰلكَ العبدَ أقدرُ علىٰ تحصيلِ أغراضِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّهُ أولىٰ بالتقرُّبِ إليهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ آثرَهُ علىٰ ملكِ الملوكِ ، فجعلَهُ مقصودَ عبادتِهِ ؟! وأيُّ استهزاءٍ يزيدُ علىٰ رفعِ العبدِ فوقَ المولىٰ ؟!

فهٰذا مِنْ كبائرِ المهلكاتِ ، ولهٰذا سماهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : الشركَ الأصغرَ[1]

نعمْ ؛ بعضُ درجاتِ الرياءِ أشدُّ من بعضٍ كما سيأتي بيانُهُ في درجاتِ الرياءِ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ ، ولا يخلو شيءٌ منهُ عنْ إثمٍ غليظٍ أوْ خفيفٍ ، بحسبِ ما بِهِ المراءاةُ ، ولوْ لمْ يكنْ في الرياءِ إلا أنَّهُ يسجدُ ويركعُ لغيرِ اللهِ . . لكانَ فيهِ كفايةٌ ؛ فإنَّهُ وإنْ لمْ يقصدِ التقرُّبَ إلى اللهِ . . فقدْ قصدَ غيرَ اللهِ ، ولعمري ؛ لوْ عظَّمَ غيرَ اللهِ بالسجودِ . . لكفرَ كفراً جليّاً ، إلا أنَّ الرياءَ هوَ الكفرُ الخفيُّ ؛ لأنَّ المرائيَ عظَّمَ في قلبِهِ الناسَ ، فاقتضَتْ تلكَ العظمةُ أنْ يسجدَ ويركعَ لهُمْ ، فكانَ الناسُ همُ المعظمونَ بالسجودِ مِنْ وجهٍ ، ومهما زالَ قصدُ تعظيمِ اللهِ بالسجودِ وبقيَ تعظيمُ الخلقِ . . كانَ ذٰلكَ قريباً مِنَ الشركِ ، إلا أنَّهُ إنْ قصدَ تعظيمَ نفسِهِ في قلبِ مَنْ عظمَ عندَهُ بإظهارِهِ مِنْ نفسِهِ صورةَ التعظيمِ للهِ . . فمِنْ هٰذا كانَ شركاً خفيّاً لا شركاً جليّاً ، وذٰلكَ غايةُ الجهلِ ، ولا يقدِمُ عليهِ إلا مَنْ خدعَهُ الشيطانُ ، وأوهمَ عندَهُ أنَّ العبادَ يملكونَ مِنْ نفعِهِ وضرِّهِ ورزقِهِ وأجلِهِ ومصالحِ حالِهِ ومآلِهِ أكثرَ ممَّا يملكُهُ اللهُ تعالىٰ ، فلذٰلكَ عدلَ بوجهِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ إليهِمْ ، وأقبلَ بقلبِهِ عليهِمْ ؛ ليستميلَ بذٰلكَ قلوبَهُمْ ، ولوْ وكَلَهُ اللهُ تعالىٰ إليهِمْ في الدنيا والآخرةِ . . لكانَ ذٰلكَ أقلَّ مكافأةٍ لهُ علىٰ صنيعِهِ ؛ فإنَّ العبادَ كلَّهُمْ عاجزونَ عنْ أنفسِهِمْ ، لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضرّاً ولا نفعاً ، فكيفَ يملكونَ لغيرِهِم ؟! هٰذا في الدنيا ، فكيفَ في يومٍ لا يجزي والدٌ عنْ ولدِهِ ، ولا مولودٌ هوَ جازٍ عنْ والدِهِ شيئاً ، بلْ تقولُ الأنبياءُ فيهِ : نفسِي نفسِي ؟! فكيفَ يستبدلُ الجاهلُ عنْ ثوابِ الآخرةِ ونيلِ القربِ عندَ اللهِ تعالىٰ ما يرتقبُهُ بطمعِهِ الكاذبِ في الدنيا مِنَ الناسِ ؟! فلا ينبغي أنْ نشكَّ في أنَّ المرائيَ بطاعةِ اللهِ في سخطِ اللهِ مِنْ حيثُ النقلُ والقياسُ جميعاً ، هٰذا إذا لمْ يقصدِ الأجرَ .

فأمَّا إذا قصد الأجرَ والحمدَ جميعاً في صدقتِهِ أوْ صلاتِهِ . . فهٰذا الشركُ الذي يناقضُ الإخلاصَ ، وقدْ ذكرنا حكمَهُ في كتابِ الإخلاصِ ، ويدلُّ ما نقلناهُ في الآثارِ مِنْ قولِ سعيدِ بنِ المسيبِ وعبادةَ بنِ الصامتِ أنَّهُ لا أجرَ لهُ فيهِ أصلاً .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٢٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) .

بيان درجات الرياء

اعلمْ : أنَّ بعضَ أبوابِ الرياءِ أشدُّ وأغلظُ مِنْ بعضٍ ، واختلافُهُ باختلافِ أركانِهِ وتفاوتِ الدرجاتِ فيهِ .

وأركانُهُ ثلاثةٌ : المراءىٰ بهِ ، والمراءىٰ لأجلِهِ ، ونفسُ قصدِ الرياءِ .



الركنُ الأوَّلُ : نفسُ قصدِ الرياءِ :

وذٰلكَ لا يخلو إمَّا أنْ يكونَ مجرَّداً دونَ إرادةِ عبادةِ اللهِ تعالىٰ والثوابِ ، وإمَّا أنْ يكونَ معَ إرادةِ الثوابِ ، فإنْ كانَ كذٰلكَ . . فلا يخلو إمَّا أنْ تكونَ إرادةُ الثوابِ أقوىٰ وأغلبَ ، أوْ أضعفَ ، أوْ مساويةً لإرادةِ العبادةِ ، فتكونُ الدرجاتُ أربعاً :

الدرجةُ الأولىٰ : ـ وهيَ أغلظُها ـ : ألا يكونَ مرادُهُ الثوابَ أصلاً ؛ كالذي يصلِّي بينَ أَظْهُرِ الناسِ ، ولوِ انفردَ . . لكانَ لا يصلِّي ، بلْ ربَّما يصلِّي مِنْ غيرِ طهارةٍ معَ الناسِ ، فهٰذا جرَّدَ قصدَهُ إلى الرياءِ ؛ فهوَ الممقوتُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وكذٰلكَ مَنْ يخرجُ الصدقةَ خوفاً مِنْ مذمَّةِ الناسِ وهوَ لا يقصدُ الثوابَ ، ولو خلا بنفسِهِ . . لما أدَّاها ، فهٰذهِ الدرجةُ العُليا مِنَ الرياءِ .

الدرجةُ الثانيةُ : أن يكونَ لهُ قصدُ الثوابِ أيضاً ، ولٰكنْ قصداً ضعيفاً ؛ بحيثُ لوْ كانَ في الخلوةِ . . لكانَ لا يفعلُهُ ، ولا يحملُهُ ذٰلكَ القصدُ على العملِ ، ولوْ لمْ يكنْ قصدَ الثوابَ . . لكانَ قصدُ الرِّياءِ يحملُهُ على العملِ ، فهٰذا قريبٌ ممَّا قبلَهُ ، وما فيهِ مِنْ شائبةِ قصدِ ثوابٍ لا يستقلُّ بحملِهِ على العملِ . . لا ينفي عنهُ المقتَ والإثمَ .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ قصدُ الثوابِ وقصدُ الرياءِ متساويينِ ، بحيثُ لوْ كانَ كلُّ واحدٍ منهُما خالياً عنِ الآخرِ . . لمْ يبعثْهُ على العملِ ، فلمَّا اجتمعا . . انبعثَتِ الرَّغبةُ ، أوْ كانَ كلُّ واحدٍ منهُما لوِ انفردَ . . لاستقلَّ بحملِهِ على العملِ ، فهٰذا قدْ أفسدَ مثلَ ما أصلحَ ، فنرجو أنْ يسلمَ رأساً برأسٍ ، لا لهُ ولا عليهِ ، أوْ يكونَ لهُ مِنَ الثوابِ مثلُ ما عليهِ مِنَ العقابِ ، وظواهرُ الأخبارِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يسلمُ ، وقدْ تكلَّمنا عليهِ في كتابِ الإخلاصِ .

الدرجةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ اطلاعُ الناسِ مرجِّحاً ومقوياً لنشاطِهِ ، ولوْ لمْ يكنْ . . لكانَ لا يتركُ العبادةَ ، ولوْ كانَ قصدَ الرياءَ وحدَهُ . . لما أقدمَ عليهِ ، فالذي نظنُّهُ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ أنَّهُ لا يحبطُ أصلَ الثوابِ ، ولٰكنَّهُ ينقصُ منهُ ، أوْ يُعاقبُ علىٰ مقدارِ قصدِ الرياءِ ، ويُثابُ علىٰ مقدارِ قصدِ الثوابِ (١)

وأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : « أنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ » (٢) . . فهوَ محمولٌ علىٰ ما إذا تساوى القصدانِ ، أوْ كانَ قصدُ الرياءِ أرجحَ .

❀ ❀ ❀

الركنُ الثاني : المراءىٰ بهِ :

وهوَ الطاعاتُ ، وذٰلكَ ينقسمُ إلى الرياءِ بأصولِ العباداتِ ، وإلى الرياءِ بأوصافِها :

---

(١) انظر تفصيل العلامة ابن حجر الهيتمي في « الزواجر » (١/٨٩) .

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه .

القسمُ الأولُ ـ وهوَ الأغلظُ ـ : الرياءُ بالأصولِ ، وهوَ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الأولى : الرياءُ بأصلِ الإيمانِ : وهـٰذا أغلظُ أبوابِ الرياءِ ، وصاحبُهُ مخلَّدٌ في النارِ ، وهوَ الذي يظهرُ كلمتي الشهادةِ وباطنُهُ مشحونٌ بالتكذيبِ ، ولـٰكنَّهُ يرائي بظاهرِ الإسلامِ ، وهوَ الذي ذكرَهُ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ في مواضعَ شتَّىٰ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أيْ : في دلالتِهِمْ بقولِهِمْ علىٰ ضمائرِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ .

والآياتُ فيهِمْ كثيرةٌ ، وكانَ النفاقُ يكثرُ في ابتداءِ الإسلامِ ممَّنْ يدخلُ في ظاهرِ الإسلامِ ابتداءً لغرضٍ(١) ، وذٰلكَ ممَّا يقلُّ في زمانِنا ، ولـٰكنْ يكثرُ نفاقُ مَنْ ينسلُّ عنِ الدينِ باطناً ، فيجحدُ الجنةَ والنارَ والدارَ الآخرةَ ؛ ميلاً إلىٰ قولِ الملحدةِ(٢) ، أوْ يعتقدُ طيَّ بساطِ الشرعِ والأحكامِ ، ميلاً إلىٰ أهلِ الإباحةِ(٣) ، أوْ يعتقدُ كفراً أوْ بدعةً وهوَ يظهرُ خلافَهُ ، فهـٰؤلاءِ مِنَ المنافقينَ المرائينَ المخلَّدينَ في النارِ ، وليسَ وراءَ هـٰذا الرياءِ رياءٌ ، وحالُ هـٰؤلاءِ أشدُّ من حالِ الكفارِ المجاهرينَ ؛ لأنَّهُمْ جمعوا بينَ كفرِ الباطنِ ونفاقِ الظاهرِ .

الدرجةُ الثانيةُ : الرياءُ بأصولِ العباداتِ معَ التصديقِ بأصلِ الدينِ : وهـٰذا أيضاً عظيمٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنَّهُ دونَ الأولِ بكثيرٍ ، **ومثالُهُ** : أنْ يكونَ مالُ الرجلِ في يدِ غيرِهِ ، فيأمرُهُ بإخراجِ الزكاةِ ؛ خوفاً مِنْ ذمِّهِ ، واللهُ يعلمُ مِنهُ أنَّهُ لوْ كانَ في يدِهِ . . لما أخرجَها ، أوْ يدخلُ وقتُ الصلاةِ وهوَ في جمعٍ ، فيصلي معَهُمْ ، وعادتُهُ تركُ الصلاةِ في الخلوةِ ، وكذٰلكَ يصومُ رمضانَ وهوَ يشتهي خلوةً مِنَ الخلقِ ليفطرَ ، وكذٰلكَ يحضرُ الجمعةَ ولولا خوفُ المذمَّةِ . . لكانَ لا يحضرُها ، أو يصلُ رحمَهُ ويبرُّ والديهِ لا عنْ رغبةٍ ، ولـٰكنْ خوفاً مِنَ الناسِ ، أوْ يغزو أوْ يحجُّ كذٰلكَ .

فهـٰذا مراءٍ معَهُ أصلُ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ ، يعتقدُ أنَّهُ لا معبودَ سواهُ ، ولو كُلِّفَ أنْ يعبدَ غيرَ اللهِ أوْ يسجدَ لغيرِ اللهِ . . لمْ يفعلْ ، ولـٰكنَّهُ يتركُ العباداتِ للكسلِ ، وينشطُ عندَ اطلاعِ الناسِ ، فتكونُ منزلتُهُ عندَ الخلقِ أحبَّ إليهِ مِنْ منزلتِهِ عندَ الخالقِ ، وخوفُهُ مِنْ مذمَّةِ الناسِ أعظمَ مِنْ خوفِهِ مِنْ عقابِ اللهِ ، ورغبتُهُ في محمدتِهِمْ أشدَّ مِنْ رغبتِهِ في ثوابِ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا غايةُ الجهلِ ، وما أجدرَ صاحبَهُ بالمقتِ وإنْ كانَ غيرَ منسلٍّ عنْ أصلِ الإيمانِ مِنْ حيثُ الاعتقادُ !!

الدرجةُ الثالثةُ : ألا يرائيَ بالإيمانِ ولا بالفرائضِ ، ولـٰكنَّهُ يرائي بالنوافلِ والسننِ التي لوْ تركَها لا يعصي ، ولـٰكنَّهُ يكسلُ عنها في الخلوةِ ؛ لفتورِ رغبتِهِ في ثوابِها ، ولإيثارِ لذَّةِ الكسلِ علىٰ ما يرجّي مِنَ الثوابِ ، ثـمَّ يبعثُهُ الرياءُ علىٰ فعلِها ، وذٰلكَ كحضورِ الجماعةِ في الصلاةِ ، وعيادةِ المرضىٰ ، واتباعِ الجنائزِ ، وغسلِ الموتىٰ ، وكالتهجدِ بالليلِ ،

---

(١) كحماية النفس والمال والعرض وكالطمع في الدنيا وغير ذٰلك . « إتحاف » (٢٧٦/٨) .

(٢) وهم في زمن المصنف عرفوا بالباطنية ، يدعون أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأنه مخالف الظاهر ، وأنهم يعلمون الباطن ، فأحالوا بذٰلك الشريعة ؛ لأنهم تأوّلوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن . « إتحاف » (٢٧٦/٨) .

(٣) القائلين بسقوط التكليف عن العبد إذا بلغ مقام اليقين . « إتحاف » (٢٧٦/٨) .

وصيامِ يوم عرفةَ وعاشوراءَ ، ويوم الاثنينِ والخميسِ ، فقدْ يفعلُ المرائي جملةَ ذٰلكَ ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ ، أوْ طلباً للمحمدةِ ، ويعلمُ اللهُ تعالىٰ منهُ أنَّهُ لوْ خلا بنفسِهِ . . لما زادَ علىٰ أداءِ الفرائضِ .

فهٰذا أيضاً عظيمٌ ، ولٰكنَّهُ دونَ ما قبلَهُ ، فإنَّ الذي قبلَهُ آثرَ حمدَ الخلقِ علىٰ حمدِ الخالقِ ، وهٰذا أيضاً قدْ فعلَ ذٰلكَ ، واتَّقىٰ ذمَّ الخلقِ دونَ ذمِّ الخالقِ ، فكانَ ذمُّ الخلقِ أعظمَ عندَهُ مِنْ عقابِ اللهِ ، وأمَّا هٰذا . . فلمْ يفعلْ ذٰلكَ ؛ لأنَّهُ لمْ يخفْ عقاباً علىٰ تركِ النافلةِ لوْ تركَها ، وكأنَّهُ على الشطرِ من الأوَّلِ ، وعقابُهُ نصفُ عقابِهِ .

فهٰذا هوَ الرياءُ بأصولِ العباداتِ .

القسمُ الثاني : الرياءُ بأوصافِ العباداتِ لا بأصولِها ، وهوَ أيضاً علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الدرجةُ الأولىٰ : أنْ يرائيَ بفعلِ ما في تركِهِ نقصانُ العبادةِ ؛ كالذي عزمُهُ أنْ يخفِّفَ الركوعَ والسجودَ ، ولا يطوِّلَ القراءةَ ، فإذا رآهُ الناسُ . . أحسنَ الركوعَ والسجودَ ، وتركَ الالتفاتَ ، وتمَّمَ القعودَ بينَ السجدتينِ ، وقدْ قالَ ابنُ مسعودٍ : (مَنْ فعلَ ذٰلكَ . . فهوَ استهانةٌ يستهينُ بها ربَّهُ عزَّ وجلَّ)(١) أيْ : إنَّهُ ليسَ يبالي باطلاعِ اللهِ عليهِ في الخلوةِ ، فإذا اطلعَ آدميٌّ عليهِ . . أحسنَ الصلاةَ ، ومَنْ جلسَ بينَ يدي إنسانٍ متربِّعاً أو متَّكئاً ، فدخلَ غلامُهُ ، فاستوىٰ وأحسنَ الجِلسةَ . . كانَ ذٰلكَ منهُ تقديماً للغلامِ على السيدِ ، واستهانةً بالسيدِ لا محالةَ ، وهٰذا حالُ المرائي بتحسينِ الصلاةِ في الملأ دونَ الخلوةِ .

وكذٰلكَ الذي يعتادُ إخراجَ الزكاةِ مِنَ الدنانيرِ الرديئةِ ، أوْ مِنَ الحبِّ الرديءِ ، فإذا اطَّلعَ عليهِ غيرُهُ . . أخرجَها مِنَ الجيِّدِ ؛ خوفاً مِنْ مذمَّتِهِ .

وكذٰلكَ الصائمُ يصونُ صومَهُ عنِ الغيبةِ والرفثِ ؛ لأجلِ الخلقِ ، لا إكمالاً لعبادةِ الصومِ ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ ، فهٰذا أيضاً مِنَ الرياءِ المحظورِ ؛ لأنَّ فيهِ تقديماً للمخلوقِ على الخالقِ ، ولٰكنَّهُ دونَ الرياءِ بأصولِ التطوعاتِ .

فإنْ قالَ المرائي : إنَّما فعلْتُ ذٰلكَ صيانةً لألسنتِهِمْ عنِ الغيبةِ ؛ فإنَّهُمْ إذا رأَوا تخفيفَ الركوعِ والسجودِ وكثرةَ الالتفاتِ . . أطلقوا اللسانَ بالذمِّ والغيبةِ ، وإنَّما قصدتُ صيانتَهُمْ عنْ هٰذهِ المعصيةِ . . **فيُقالُ لهُ** : هٰذهِ مكيدةٌ مِنَ الشيطانِ وتلبيسٌ ، وليسَ الأمرُ كذٰلكَ ؛ فإنَّ ضررَكَ مِنْ نقصانِ صلاتِكَ ـ وهي خدمةٌ مِنكَ لمولاكَ ـ أعظمُ مِنْ ضررِكَ مِنْ غيبةِ غيرِكَ ، فلوْ كانَ باعثُكَ الدينَ . . لكانَتْ شفقتُكَ علىٰ نفسِكَ أكثرَ ، وما أنتَ في هٰذا إلا كمَنْ يهدِي وصيفةً إلىٰ ملكٍ لينالَ مِنهُ فضلاً وولايةً يتقلَّدُها ، فيهديها إليهِ وهيَ عوراءُ قبيحةٌ مقطوعةُ الأطرافِ ، ولا يبالي بهِ إذا كانَ الملكُ وحدَهُ ، وإذا كانَ عندَهُ بعضُ غلمانِهِ . . امتنعَ ؛ خوفاً مِنْ مذمَّةِ غلمانِهِ ، وذٰلكَ محالٌ ، بلْ مَنْ يراعي جانبَ غلامِ الملكِ . . ينبغي أن تكونَ مراقبتُهُ للملكِ أكثرَ .

نعمْ ؛ للمرائي فيهِ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يطلبَ بذٰلكَ المنزلةَ والمحمدةَ عندَ الناسِ ، وذٰلكَ حرامٌ قطعاً .

والثانيةُ : أنْ يقولَ : ليسَ يحضرُني الإخلاصُ في تحسينِ الركوعِ والسجودِ ، ولوْ خففتُ . . كانَتْ صلاتي عندَ اللهِ ناقصةً ، وآذاني الناسُ بذمِّهِمْ وغيبتِهِمْ ، فأستفيدُ بتحسينِ الهيئةِ دفعَ مذمَّتِهِمْ ، ولا أرجو عليهِ ثواباً ، فهوَ خيرٌ مِنْ أنْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٤٩٠) ولفظه : (من صلىٰ صلاة والناس يرونه . . فليصلِّ إذا خلا مثلها ، وإلا . . فإنما هي استهانة يستهين بها ربه) .

أتركَ تحسينَ الصلاةِ ، فيفوتَ الثوابُ وتحصلَ المذمَّةُ ، فهٰذا فيهِ أدنىٰ نظرٍ ، **والصحيحُ** : أنَّ الواجبَ عليهِ أنْ يحسنَ ويخلصَ ، فإنْ لمْ تحضرْهُ النيةُ . . فينبغي أنْ يستمرَّ علىٰ عادتِهِ في الخلوةِ ، فليسَ لهُ أنْ يدفعَ الذمَّ بالمراءاةِ بطاعةِ اللهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ استهزاءٌ كما سبقَ .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يرائيَ بفعلٍ ما لا نقصانَ في تركِهِ ، ولٰكنْ فعلُهُ في حكمِ التكملةِ والتتمةِ لعبادتِهِ ؛ كالتطويلِ في الركوعِ والسجودِ ، ومدِّ القيامِ ، وتحسينِ الهيئةِ في رفعِ اليدينِ ، والمبادرةِ إلى التكبيرةِ الأولىٰ ، وتحسينِ الاعتدالِ ، والزيادةِ في القراءةِ على السورةِ المعتادةِ ، وكذٰلكَ كثرةُ الخلوةِ في صومِ رمضانَ ، وطولِ الصمتِ ، وكاختيارِ الأجودِ على الجيدِ في الزكاةِ ، وإعتاقِ الرقبةِ الغاليةِ في الكفارةِ ، وكلُّ ذٰلكَ ممَّا لوْ خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يقدِمُ عليهِ .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يرائيَ بزياداتٍ خارجةٍ عنْ نفسِ النوافلِ أيضاً ؛ كحضورِ الجماعةِ قبلَ القومِ ، وقصدِهِ للصفِّ الأوَّلِ ، وتوجُّهِهِ إلىٰ يمينِ الإمامِ ، وما يجري مجراهُ ، وكلُّ ذٰلكَ ممَّا يعلمُ اللهُ مِنهُ أنَّهُ لوْ خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يبالي أينَ وقفَ ، ومتىٰ أحرمَ بالصلاةِ .

فهٰذهِ درجاتُ الرياءِ بالإضافةِ إلىٰ ما يُراءىٰ بهِ ، وبعضُهُ أشدُّ مِنْ بعضٍ ، والكلُّ مذمومٌ .

❀ ❀ ❀

الركنُ الثالثُ : المراءىٰ لأجلِهِ :

فإنَّ للمرائي مقصوداً لا محالةَ ، وإنَّما يرائي لإدراكِ مالٍ أوْ جاهٍ أوْ غرضٍ مِنَ الأغراضِ لا محالةَ ، ولهُ أيضاً ثلاثُ درجاتٍ :

الدرجةُ الأولىٰ ـ وهيَ أشدُّها وأعظمُها ـ : أنْ يكونَ مقصدُهُ التمكُّنَ مِنْ معصيةِ اللهِ ؛ كالذي يرائي بعباداتِهِ ، ويظهرُ التقوىٰ والورعَ بكثرةِ النوافلِ والامتناعِ عنْ أكلِ الشبهاتِ ، وغرضُهُ أنْ يُعرفَ بالأمانةِ ، فيُولَّى القضاءَ ، أوِ الأوقافَ ، أوِ الوصايا ، أوْ مالَ الأيتامِ ؛ فيأخذَها ، أوْ يُسلَّمَ إليهِ تفرقةُ الزكواتِ أوِ الصدقاتِ ؛ ليستأثرَ بما يقدرُ عليهِ منها ، أوْ يُودعَ الودائعَ فيأخذَها ويجحدَها ، أوْ تُسلَّمَ إليهِ الأموالُ التي تُنفقُ في طريقِ الحجِّ ، فيختزلَ بعضَها أوْ كلَّها ، أوْ يتوصَّلَ بها إلى استتباعِ الحجيجِ ، ويتوصَّلَ بقوَّتِهِمْ إلىٰ مقاصدِهِ الفاسدةِ في المعاصي .

وقدْ يظهرُ بعضُهُمْ زيَّ التصوفِ ، وهيئةَ الخشوعِ ، وكلامَ الحكمةِ علىٰ سبيلِ الوعظِ والتذكيرِ ، وإنَّما قصدُهُ التحبُّبُ إلى امرأةٍ أوْ غلامٍ لأجلِ الفجورِ ، وقدْ يحضرونَ مجالسَ العلمِ والتذكيرِ ، وحِلقَ القرآنِ ، يظهرونَ الرغبةَ في سماعِ العلمِ والقرآنِ ، وغرضُهُمْ ملاحظةُ النسوانِ والصبيانِ ، أوْ يخرجُ إلى الحجِّ ومقصودُهُ الظفرُ بمَنْ في الرفقةِ مِنِ امرأةٍ أوْ غلامٍ ، وهٰؤلاءِ أبغضُ المرائينَ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّهُمْ جعلوا طاعةَ ربِّهِمْ سلَّماً إلىٰ معصيتِهِ ، واتخذوها آلةً ومتجراً وبضاعةً لهُمْ في فسقِهِمْ .

ويقربُ مِنْ هٰؤلاءِ وإنْ كانَ دونَهُمْ مَنْ هوَ مقترفٌ جريمةً اتُّهمَ بها ، وهوَ مصرٌّ عليها ويريدُ أن ينفيَ التهمةَ عنْ نفسِهِ ، فيظهرُ التقوىٰ ؛ لينفيَ التهمةَ ؛ كالذي جحدَ وديعةً واتَّهمَهُ الناسُ بها ، فيتصدَّقُ بالمالِ ؛ ليُقالَ : إنَّهُ يتصدقُ بمالِ نفسِهِ ، فكيفَ يستحلُّ مالَ غيرِهِ ؟! وكذٰلكَ مَنْ يُنسبُ إلىٰ فجورٍ بامرأةٍ أو غلامٍ ، فيدفعُ التهمةَ عنْ نفسِهِ بالخشوعِ وإظهارِ التقوىٰ .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يكونَ غرضُهُ نيلَ حظٍّ مباحٍ مِنْ حظوظِ الدنيا ؛ مِن مالٍ ، أوْ نكاحِ امرأةٍ جميلةٍ أوْ شريفةٍ ؛ كالذي

يظهرُ الحزنَ والبكاءَ ، ويشتغلُ بالوعظِ والتذكيرِ ؛ لتُبذلَ لهُ الأموالُ ، وترغبَ في نكاحِهِ النساءُ ، فيقصدُ إمَّا امرأةً بعينِها لينكحَها ، أوِ امرأةً شريفةً على الجملةِ ، وكالذي يرغبُ في أنْ يتزوَّجَ بنتَ عالمٍ عابدٍ ، فيظهرُ لهُ العلمَ والعبادةَ ؛ ليرغبَ في تزويجِهِ ابنتَهُ ، فهٰذا رياءٌ محظورٌ ؛ لأنَّهُ طلبَ بطاعةِ اللهِ متاعَ الحياةِ الدنيا ، ولٰكنَّهُ دونَ الأوَّلِ ، فإنَّ المطلوبَ بهٰذا مباحٌ في نفسِهِ .

الدرجةُ الثالثةُ : ألا يقصدَ نيلَ حظٍّ وإدراكَ مالٍ أوْ نكاحٍ ، ولٰكنْ يظهرُ عبادتَهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ النقصِ ، فلا يُعدَّ مِنَ الخاصَّةِ والزهَّادِ ، ويُعتقدَ أنَّهُ مِنْ جملةِ العامَّةِ ؛ كالذي يمشي مستعجلاً فيطلعُ عليهِ الناسُ ، فيحسنُ المشيَ ويتركُ العجلةَ ؛ كي لا يُقالَ : إنَّهُ مِنْ أهلِ اللَّهوِ والسَّهوِ ، لا مِنْ أهلِ الوقارِ ، وكذٰلكَ يسبقُ إلى الضحكِ ، أوْ يبدرُ منهُ المزاحُ ، فيخافُ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ ، فيتبعُ ذٰلكَ بالاستغفارِ ، وتنفُّسِ الصعداءِ ، وإظهارِ الحزنِ ، ويقولُ : ما أعظمَ غفلةَ الآدميِّ عنْ نفسِهِ !! واللهُ يعلمُ منهُ أنَّهُ لوْ كانَ في خلوةٍ . . لما كانَ يثقلُ عليهِ ذٰلكَ ، وإنَّما يخافُ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ لا بعينِ التوقيرِ .

وكالذي يرىٰ جماعةً يصلونَ التراويحَ ، أو يتهجَّدونَ ، أوْ يصومونَ الاثنينَ والخميسَ ، أو يتصدَّقونَ ، فيوافقُهُمْ خيفةَ أنْ يُنسبَ إلى الكسلِ ويُلحقَ بالعوامِّ ، ولوْ خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يفعلُ شيئاً مِنْ ذٰلكَ ، وكالذي يعطشُ يوم عرفةَ أوْ عاشوراءَ ، أوْ في الأشهرِ الحرمِ . . فلا يشربُ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يعلمَ الناسُ أنَّهُ غيرُ صائمٍ ، فإذا ظنُّوا بهِ الصومَ . . امتنعَ عنِ الأكلِ لأجلِهِمْ ، أوْ يُدْعىٰ إلىٰ طعامٍ فيمتنعُ ؛ ليُظنَّ أنَّهُ صائمٌ ، وقدْ لا يصرِّحُ بأنَّهُ صائمٌ ، ولٰكنْ يقولُ : لي عذرٌ ، وهوَ جمعٌ بينَ خبيثينِ ؛ فإنَّه يُري أنَّهُ صائمٌ ، ثمَّ يُري أنَّهُ مخلصٌ ليسَ بمراءٍ ، وأنَّهُ يحترزُ مِنْ أنْ يذكرَ عبادتَهُ للناسِ فيكونَ مرائياً ، فيريدُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ ساترٌ لعبادتِهِ ، ثمَّ إنِ اضطرَّ إلىٰ شربٍ . . لمْ يصبرْ عنْ أنْ يذكرَ لنفسِهِ فيهِ عذراً ، تصريحاً أوْ تعريضاً ؛ بأنْ يتعلَّلَ بمرضٍ يقتضي فرطَ العطشِ ، ويمنعُ مِنَ الصومِ ، أوْ يقولَ : أفطرتُ تطييباً لقلبِ فلانٍ ، ثمَّ قدْ لا يذكرُ ذٰلكَ متصلاً بشربِهِ ؛ كي لا يُظنَّ بهِ أنَّهُ يعتذرُ رياءً ، ولٰكنَّهُ يصبرُ ، ثمَّ يذكرُ عذرَهُ في معْرِضِ حكايةٍ عرضاً ، مثلَ أنْ يقولَ : إنَّ فلاناً محبٌّ للإخوانِ ، شديدُ الرغبةِ في أنْ يأكلَ الإنسانُ مِنْ طعامِهِ ، وقدْ ألحَّ عليَّ اليومَ ولمْ أجدْ بدّاً مِنْ تطييبِ قلبِهِ ، ومثلَ أنْ يقولَ : إنَّ أمِّي ضعيفةُ القلبِ ، مشفقةٌ عليَّ ، تظنُّ أنِّي لوْ صمتُ يوماً . . مرضتُ ، فلا تدعُني أصومُ .

فهٰذا وما يجري مجراهُ علاماتُ الرياءِ ، فلا يسبقُ إلى اللسانِ إلا لرسوخِ عرقِ الرياءِ في الباطنِ ، وأمَّا المخلصُ . . فإنَّهُ لا يبالي كيفَ نظرَ الخلقُ إليهِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ رغبةٌ في الصومِ وقدْ علمَ اللهُ تعالىٰ ذٰلكَ مِنهُ . . فلا يريدُ أنْ يعتقدَ غيرُهُ ما يخالفُ علمَ اللهِ ، فيكونَ ملبِّساً ، وإنْ كانَ لهُ رغبةٌ في الصومِ للهِ . . قنعَ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ يشرِكْ فيهِ غيرَهُ .

وقدْ يخطرُ لهُ أنَّ في إظهارِهِ اقتداءَ غيرِهِ بهِ ، وتحريكَ رغبةِ الناسِ فيهِ ، وفيهِ مكيدةٌ وغرورٌ ، وسيأتي شرحُ ذٰلكَ وشروطُهُ .

فهٰذهِ درجاتُ الرياءِ ، ومراتبُ أصنافِ المرائينَ ، وجميعُهُمْ تحتَ مقتِ اللهِ تعالىٰ وغضبِهِ ، وهوَ مِنْ أشدِّ المهلكاتِ ، وإنَّ مِنْ شدَّتِهِ أنَّ فيهِ شوائبَ هيَ أخفىٰ مِن دبيبِ النملةِ ؛ كما وردَ بهِ الخبرُ ، تزلُّ فيهِ فحولُ العلماءِ ، فضلاً عنِ العبَّادِ الجهلاءِ بآفاتِ النفوسِ وغوائلِ القلوبِ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلمْ : أنَّ الرياءَ جليٌّ وخفيٌّ .

فالجليُّ : هوَ الذي يبعثُ على العملِ ويحمِلُ عليهِ أولاً دونَ قصدِ الثوابِ ، وهوَ أجلاهُ .

❁ ❁ ❁

وأخفىٰ مِنهُ قليلاً : هوَ ما لا يحمِلُ على العملِ بمجردِهِ ، إلا أنَّهُ يخفِّفُ العملَ الذي أُريدَ بِهِ وجهُ اللهِ ؛ كالذي يعتادُ التهجدَ كلَّ ليلةٍ ويثقلُ عليهِ ، فإذا دخلَ عليهِ الضيفانُ . . نشطَ لهُ ، وخفَّ عليهِ ، وعلمَ أنَّهُ لولا رجاءُ الثوابِ . . لكانَ لا يصلِّي لمجرَّدِ رياءِ الضيفانِ .

❁ ❁ ❁

وأخفىٰ مِنْ ذٰلكَ : ما لا يؤثِّرُ في العملِ ، ولا بالتسهيلِ والتخفيفِ أيضاً ، ولٰكنَّهُ معَ ذٰلكَ مستبطنٌ في القلبِ ، ومهما لمْ يؤثِّرْ في الدعاءِ إلى العملِ . . لمْ يمكنْ أنْ يُعرفَ إلا بالعلاماتِ ، **وأجلىٰ علاماتِهِ** : أنْ يُسرَّ باطلاعِ الناسِ علىٰ طاعتِهِ ، فربَّ عبدٍ يخلصُ في عملِهِ ولا يعتقدُ الرياءَ ، بلْ يكرهُهُ ويردُّهُ ، ويتمِّمُ العملَ كذٰلكَ ، ولٰكنْ إذا اطَّلعَ عليهِ الناسُ . . سرَّهُ ذٰلكَ وارتاحَ لهُ ، وروَّحَ ذٰلكَ عنْ قلبِهِ شدةَ العبادةِ ، وهٰذا السرورُ يدلُّ علىٰ رياءٍ خفيٍّ ، مِنهُ يترشَّحُ السرورُ ، ولولا التفاتُ القلبِ إلى الناسِ . . لما ظهرَ سرورُهُ عندَ اطلاعِ الناسِ ، فلقَدْ كانَ الرياءُ مستكناً في القلبِ استكنانَ النارِ في الحجرِ ، فأظهرَ منهُ اطلاعُ الخلقِ أثرَ الفرحِ والسرورِ ، ثمَّ إذا استشعرَ لذَّةَ السرورِ بالاطلاعِ ، ولمْ يقابلْ ذٰلكَ بكراهيةٍ . . صارَ ذٰلكَ قوتاً وغذاءً للعِرقِ الخفيِّ مِنَ الرياءِ ، حتَّىٰ يتحرَّكَ علىٰ نفسِهِ حركةً خفيَّةً ، فيتقاضىٰ تقاضياً خفيّاً أنْ يتكلَّفَ سبباً يُطَّلعُ عليهِ بالتعريضِ وإلقاءِ الكلامِ عرضاً ، وإنْ كانَ لا يدعو إلى التصريحِ ، وقدْ يخفىٰ فلا يدعو إلى الإظهارِ بالنطقِ تعريضاً وتصريحاً ولٰكنْ بالشمائلِ ؛ كإظهارِ النحولِ ، والاصفرارِ ، وخفضِ الصوتِ ، ويبسِ الشفتينِ ، وجفافِ الريقِ ، وآثارِ الدموعِ ، وغلبةِ النعاسِ الدالِّ علىٰ طولِ التهجُّدِ .

❁ ❁ ❁

وأخفىٰ من ذٰلكَ : أنْ يختفيَ بحيثُ لا يريدُ الاطلاعَ ، ولا يُسرُّ بظهورِ طاعتِهِ ، ولٰكنَّهُ معَ ذٰلكَ إذا رأى الناسَ . . أحبَّ أنْ يبدؤوهُ بالسلامِ ، وأنْ يقابلوهُ بالبشاشةِ والتوقيرِ ، وأنْ يثنوا عليهِ ، وأنْ ينشطوا في قضاءِ حوائجِهِ ، وأنْ يسامحوهُ في البيعِ والشراءِ ، وأنْ يوسِّعوا لهُ في المكانِ ، فإنْ قصَّرَ في ذٰلكَ مقصِّرٌ . . ثَقُلَ علىٰ قلبِهِ ، ووجدَ لذٰلكَ استبعاداً في نفسِهِ ؛ كأنَّ نفسَهُ تتقاضى الاحترامَ على الطاعةِ التي أخفاها معَ أنَّهُ لمْ يُطَّلَعْ عليهِ ، ولوْ لمْ يكنْ قدْ سبقَتْ منهُ تلكَ الطاعةُ . . لما كانَ يستبعدُ تقصيرَ الناسِ في حقِّهِ ، ومهما لمْ يكنْ وجودُ العبادةِ كعدمِها في كلِّ ما يتعلَّقُ بالخلقِ . . لمْ يكنْ قدْ قنعَ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ يكنْ خالياً عنْ شوبٍ خفيٍّ مِنَ الرياءِ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وكلُّ ذٰلكَ يوشكُ أنْ يحبِطَ الأجرَ ، ولا يسلمُ مِنهُ إلا الصديقونَ .

وقدْ رُويَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ للقرَّاءِ يومَ القيامةِ : ألمْ يكنْ يُرخَّصُ عليكمُ السِّعرُ ؟! ألمْ تكونوا تُبتدؤونَ بالسلامِ ؟! ألمْ تكنْ تُقضىٰ لكمُ الحوائجُ ؟!) ، وفي الحديث : « لا أجرَ لكمْ ، قدِ استوفيتُمْ أجورَكُمْ » .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : رُويَ عنْ وهبِ بنِ منبّهٍ أنَّهُ قالَ : (إنَّ رجلاً مِنَ السُّيَّاحِ قالَ لأصحابِهِ : إنَّا قدْ فارقْنا الأموالَ والأولادَ مخافةَ الطغيانِ ، فنخافُ أنْ نكونَ قدْ دخلَ علينا في أمرِنا هـٰذا مِنَ الطغيانِ أكثرُ ممَّا دخلَ علىٰ أهلِ الأموالِ في أموالِهِمْ ، إنَّ أحدَنا إذا لُقِيَ . . أحبَّ أنْ يُعظَّمَ لمكانِ دينِهِ ، وإنْ سألَ حاجةً . . أحبَّ أنْ تُقضىٰ لهُ لمكانِ دينِهِ ، وإنِ اشترىٰ شيئاً . . أحبَّ أنْ يُرخَّصَ عليهِ لمكانِ دينِهِ .

فبلغَ ذٰلكَ ملِكَهُمْ ، فركبَ في موكبٍ مِنَ الناسِ ؛ فإذا السهلُ والجبلُ قدِ امتلأَ بالناسِ ، فقالَ السائحُ : ما هـٰذا ؟ قيلَ : هـٰذا الملكُ قدْ أظلَّكَ ، فقالَ للغلامِ : ائتني بطعامٍ ، فأتاهُ ببقلٍ وزيتٍ وقلوبِ الشجرِ ، فجعلَ يحشو شدقيهِ ويأكلُ أكلاً عنيفاً ، فقالَ الملكُ : أينَ صاحبُكُمْ ؟ قالوا : هـٰذا ، قالَ : كيفَ أنتَ ؟ قالَ : كالناسِ ـ وفي حديثٍ آخرَ : بخيرٍ ـ فقالَ الملكُ : ما عندَ هـٰذا مِنْ خيرٍ ، فانصرفَ عنهُ ، فقالَ السائحُ : الحمدُ للهِ الذي صرفَكَ عنِّي وأنتَ لي ذامٌّ)[1]

فلمْ يزلِ المخلصونَ خائفينَ مِنَ الرياءِ الخفيِّ ، يجتهدونَ لذٰلكَ في مخادعةِ الناسِ عنْ أعمالِهِمُ الصالحةِ ، يحرصونَ علىٰ إخفائِها أعظمَ ممَّا يحرصُ الناسُ علىٰ إخفاءِ فواحشِهِمْ ، كلُّ ذٰلكَ رجاءَ أنْ تخلُصَ أعمالُهُمُ الصالحةُ ، فيجازيَهُمُ اللهُ تعالىٰ في القيامةِ بإخلاصِهِمْ علىٰ ملأٍ مِنَ الخلقِ ؛ إذْ علموا أنَّ اللهَ لا يقبلُ يومَ القيامةِ إلا الخالصَ ، وعلموا شدَّةَ حاجتِهِمْ وفاقتِهِمْ في القيامةِ ، وأنَّهُ يومٌ لا ينفعُ فيهِ مالٌ ولا بنونَ ، ولا يجزي والدٌ عنْ ولدِهِ ، ويشتغلُ الصدِّيقونَ بأنفسِهِمْ ، فيقولُ كلُّ واحدٍ : نفسي نفسي ، فضلاً عنْ غيرِهِمْ ، فكانوا كزوارِ بيتِ اللهِ تعالىٰ إذا توجهوا إلىٰ مكةَ ؛ فإنَّهُمْ يستصحبونَ معَ أنفسِهِمُ الذهبَ المغربيَّ الخالصَ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ أربابَ البوادي لا يروجُ عندَهُمُ الزيفُ والبهرجُ ، والحاجةُ تشتدُّ في الباديةِ ، ولا وطنَ يُفزعُ إليهِ ، ولا حميمَ يُتمسَّكُ بهِ ؛ فلا يُنجي إلا الخالصُ مِنَ النَّقدِ ، فهـٰكذا يشاهدُ أربابُ القلوبِ يومَ القيامةِ ، والزادُ الذي يتزودونَهُ لهُ مِنَ التقوىٰ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ شوائبُ الرياءِ الخفيِّ كثيرةٌ لا تنحصرُ ، ومهما أدركَ مِنْ نفسِهِ تفرقةً بينَ أنْ يطلعَ علىٰ عبادتِهِ إنسانٌ أوْ بهيمةٌ . . ففيهِ شعبةٌ مِنَ الرياءِ ؛ فإنَّهُ لما قطعَ طمعَهُ عنِ البهائمِ . . لمْ يبالِ حضرَتِ البهائمُ أوِ الصبيانُ الرضعُ أمْ غابوا ، اطلعوا علىٰ حركتِهِ أمْ لمْ يطلعوا ، فلوْ كانَ مخلصاً قانعاً بعلمِ اللهِ . . لاستحقرَ عقلاءَ العبادِ كما استحقرَ صبيانَهُمْ ومجانينَهُمْ ، وعلمَ أنَّ العقلاءَ لا يقدرونَ لهُ علىٰ رزقٍ ، ولا أجلٍ ، ولا زيادةِ ثوابٍ ونقصانِ عقابٍ ، كما لا يقدرُ عليهِ البهائمُ والصبيانُ والمجانينُ ، فإذا لمْ يجدْ ذٰلكَ . . ففيهِ شَوبٌ خفيٌّ ، ولـٰكنْ ليسَ كلُّ شوبٍ محبطاً للأجرِ مفسداً للعملِ ، بلْ فيهِ تفصيلٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما نرىٰ أحداً ينفكُّ عنِ السرورِ إذا عُرفَتْ طاعاتُهُ ، فالسرورُ مذمومٌ كلُّهُ ؟ أوْ بعضُهُ محمودٌ وبعضُهُ مذمومٌ ؟

فنقولُ أولاً : كلُّ سرورٍ فليسَ بمذمومٍ ، بلِ السرورُ منقسمٌ إلىٰ محمودٍ ، وإلىٰ مذمومٍ ، **فأمَّا المحمودُ . . فأربعةُ أقسامٍ** :

---

(١) تقدم بنحوه مختصراً ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٦٤) .

الأولُ : أنْ يكونَ قصدُهُ إخفاءَ الطاعةِ والإخلاصَ للهِ ، ولٰكنْ لمَّا اطلعَ عليهِ الخلقُ . . علمَ أنَّ اللهَ أطلعَهُمْ ، وأظهرَ الجميلَ مِنْ أحوالِهِ ، فيستدلُّ بذٰلكَ علىٰ حُسنِ صنعِ اللهِ بهِ ، ونظرِهِ إليهِ ، وإلطافِهِ بهِ ؛ فإنَّهُ يسترُ الطاعةَ والمعصيةَ ، ثمَّ اللهُ يسترُ عليهِ المعصيةَ ويظهرُ الطاعةَ ؛ فلا لطفَ أعظمُ مِنْ سترِ القبيحِ عليهِ وإظهارِ الجميلِ ، فيكونُ فرحُهُ بجميلِ نظرِ اللهِ لهُ ، لا بحمدِ الناسِ وقيامِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ، فكأنَّهُ ظهرَ لهُ أنَّهُ عندَ اللهِ مقبولٌ ففرحَ بهِ .

الثاني : أنْ يستدلَّ بإظهارِ اللهِ الجميلَ وسترِهِ القبيحَ عليهِ في الدنيا أنَّهُ كذٰلكَ يفعلُ في الآخرةِ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما سترَ اللهُ علىٰ عبدٍ ذنباً في الدنيا إلا سترَهُ عليهِ في الآخرةِ »[1]

فيكونُ الأولُ فرحاً بالقبولِ في الحالِ مِنْ غيرِ ملاحظةِ المستقبلِ ، وهٰذا التفاتٌ إلى المستقبلِ .

الثالثُ : أنْ يظنَّ رغبةَ المطلعينَ على الاقتداءِ بهِ في الطاعةِ ، فيتضاعفُ بذٰلكَ أجرُهُ ، فيكونُ لهُ أجرُ العلانيةِ بما أظهرَ آخراً ، وأجرُ السرِّ بما قصدَهُ أوَّلاً ، ومَنِ اقتُدِيَ بهِ في طاعةٍ . . فلهُ مثلُ أجرِ أعمالِ المقتدينَ بهِ مِنْ غيرِ أنْ ينقصَ مِنْ أجورِهِمْ شيءٌ ، وتوقُّعُ ذٰلكَ جديرٌ بأنْ يكونَ سببَ السرورِ ، فإنَّ ظهورَ مخايلِ الربحِ لذيذٌ ، وموجبٌ للسرورِ لا محالةَ .

الرابعُ : أنْ يحمدَهُ المطلعونَ علىٰ طاعتِهِ ، فيفرحُ بطاعتِهِمْ للهِ تعالىٰ في مدحِهِمْ ، وبحبِّهِمْ للمطيعِ ، وبميلِ قلوبِهِمْ إلى الطاعةِ ؛ إذْ مِنْ أهلِ الإيمانِ مَنْ يرىٰ أهلَ الطاعةِ فيمقتُهُ ويحسدُهُ ، أوْ يذمُّهُ ويهزأُ بهِ ، أوْ ينسبُهُ إلى الرياءِ ولا يحمدُهُ عليهِ ، فهٰذا فرحٌ بحسنِ إيمانِ عبادِ اللهِ ، **وعلامةُ الإخلاصِ في هٰذا النوعِ** : أنْ يكونَ فرحُهُ بحمدِهِمْ غيرَهُ مثلَ فرحِهِ بحمدِهِمْ إيَّاهُ .

وأمَّا المذمومُ . . فهوَ الخامسُ : وهوَ أنْ يكونَ فرحُهُ لقيامِ منزلتِهِ في قلوبِ الناسِ ؛ حتَّىٰ يمدحوهُ ويعظِّموهُ ، ويقوموا بقضاءِ حوائجِهِ ، ويقابلوهُ بالإكرامِ في مصادرِهِ ومواردِهِ ، فهٰذا مكروهٌ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠) .

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبطه

فنقولُ فيهِ : إذا عقدَ العبدُ العبادةَ على الإخلاصِ ، ثمَّ وردَ عليهِ واردُ الرياءِ . . فلا يخلو :

إمَّا أنْ يردَ عليهِ بعدَ فراغِهِ مِنَ العملِ ، أوْ قبلَ الفراغِ .

فإنْ وردَ بعدَ الفراغِ سرورٌ مجرَّدٌ بالظهورِ مِنْ غيرِ إظهارٍ . . فهٰذا لا يحبطُ العملَ ؛ إذِ العملُ قدْ تمَّ علىٰ نعتِ الإخلاصِ ، سالماً مِنَ الرياءِ ، فما يطرأُ عليهِ بعدَهُ . . فنرجو ألا ينعطفَ عليهِ أثرُهُ ، لا سيما إذا لمْ يتكلَّفْ هوَ إظهارَهُ والتحدُّثَ بهِ ، ولمْ يتمنَّ ذكرَهُ وإظهارَهُ ، ولٰكنِ اتفقَ ظهورُهُ بإظهارِ اللهِ ، ولمْ يكنْ منهُ إلا ما دخلَ مِنَ السرورِ والارتياحِ علىٰ قلبِهِ .

نعمْ ؛ لوْ تمَّ العملُ على الإخلاصِ مِنْ غيرِ عقدِ رياءٍ ، ولٰكنْ ظهرَتْ لهُ بعدَهُ رغبةٌ في الإظهارِ ، فتحدَّثَ بهِ وأظهرَهُ ، فهٰذا مَخُوفٌ ، وفي الآثارِ والأخبارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّهُ محبطٌ ؛ فقدْ رُويَ عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ سمعَ رجلاً يقولُ : قرأتُ البارحةَ سورةَ (البقرةِ) ، قالَ : ذٰلكَ حظُّكَ منها[1]

ورُويَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ لرجلٍ قالَ لهُ : صمتُ الدهرَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ لهُ : « ما صمتَ ولا أفطرتَ » ، فقالَ بعضُهُمْ : إنَّما قالَ ذٰلكَ لأنَّهُ أظهرَهُ[2] ، وقيلَ : هوَ إشارةٌ إلىٰ كراهةِ صومِ الدهرِ[3]

وكيفَما كانَ . . فيحتملُ أنْ يكونَ ذٰلكَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومِنِ ابنِ مسعودٍ استدلالاً علىٰ أنَّ قلبَهُ عندَ العبادةِ لمْ يخلُ عنْ عقدِ الرياءِ وقصدِهِ لهُ ، لمَّا أنْ ظهرَ مِنهُ التحدُّثُ بهِ ؛ إذْ يبعدُ أنْ يكونَ ما يطرأُ على العملِ مبطلاً لثوابِ العملِ ، **بلِ الأقيسُ أنْ يُقالَ** : إنَّهُ مثابٌ علىٰ عملِهِ الذي مضىٰ ، ومعاقبٌ علىٰ مراءاتِهِ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ بعدَ الفراغِ منهُ ، بخلافِ ما لو تغيَّرَ عقدُهُ إلى الرياءِ قبلَ الفراغِ مِنَ الصلاةِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ قدْ يبطلُ الصلاةَ ، ويحبطُ العملَ .

وأمَّا إذا وردَ واردُ الرياءِ قبلَ الفراغِ مِنَ الصلاةِ مثلاً وكانَ قدْ عقدَ على الإخلاصِ ، ولٰكنْ وردَ في أثنائِها واردُ الرياءِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ مجردَ سرورٍ لا يؤثِّرُ في العملِ ، وإمَّا أنْ يكونَ رياءً باعثاً على العملِ .

فإنْ كانَ باعثاً على العملِ وختمَ العبادةَ بهِ . . حبطَ أجرُهُ ، **ومثالُهُ** : أنْ يكونَ في تطوُّعٍ ، فتجدَّدَتْ لهُ نظَّارةٌ[4] أوْ حضرَ ملكٌ مِنَ الملوكِ وهوَ يشتهي أنْ ينظرَ إليهِ ، أوْ يذكرَ شيئاً نسيَهُ مِنْ مالِهِ وهوَ يريدُ أنْ يطلبَهُ ، ولولا الناسُ . . لقطعَ الصلاةَ ، فاستتمَّها خوفاً مِنْ مذمَّةِ الناسِ ، فقدْ حبطَ أجرُهُ ، وعليهِ الإعادةُ إنْ كانَ في فريضةٍ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العملُ كالوعاءِ ، إذا طابَ آخرُهُ . . طابَ أوَّلُهُ »[5] ؛ أيِ : النظرُ إلىٰ خاتمتِهِ .

ورُوِيَ أنَّ مَنْ راءىٰ بعملِهِ ساعةً . . حبطَ عملُهُ الذي كانَ قبلَهُ[6] ، وهوَ منزَّلٌ على الصلاةِ في هٰذهِ الصورةِ ، لا

---

(١) الرعاية (ص ٢١٠) .

(٢) القائل هو ابن حيويه أحد الرواة ، ولفظه : (لأنه تحدَّث به) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٢١٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٣) ، وعند مسلم (١١٦٢) أن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يصوم الدهر ، فقال : « لا صام ولا أفطر » .

(٤) **النظارة** : القوم ينظرون إليه .

(٥) رواه ابن ماجه (٤١٩٩)

(٦) إذ روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٥٠/٥) عن ابن أبي زكريا يحدث : « من راءىٰ بعمله . . حبط ما كان قبله » .

على الصدقةِ ولا على القراءةِ ؛ فإنَّ كلَّ جزءٍ منها منفردٌ ، فما يطرأُ يفسدُ الباقيَ دونَ الماضي ، والصومُ والحجُّ مِنْ قبيلِ الصلاةِ .

وأمَّا إذا كانَ واردُ الرياءِ بحيثُ لا يمنعُهُ مِنْ قصدِ الاستتمامِ لأجلِ الثوابِ ؛ كما لوْ حضرَ جماعةٌ في أثناءِ صلاتِهِ ، ففرحَ بحضورِهِمْ واعتقدَ الرياءَ ، وقصدَ تحسينَ الصلاةِ لأجلِ نظرِهِمْ ، وكانَ لولا حضورُهُمْ . . لكانَ يتمُّها أيضاً ، فهٰذا رياءٌ قدْ أثَّرَ في العملِ ، وانتهضَ باعثاً على الحركاتِ ، فإنْ غلبَ حتَّى انمحقَ معهُ الإحساسُ بقصدِ العبادةِ والثوابِ ، وصارَ قصدُ العبادةِ مغموراً . . فهٰذا أيضاً ينبغي أنْ يفسدَ العبادةَ مهما مضىٰ ركنٌ مِنْ أركانِها علىٰ هٰذا الوجهِ ؛ لأنَّا نكتفي بالنيةِ السابقةِ عندَ الإحرامِ بشرطِ ألا يطرأَ ما يغلبُها ويغمرُها ، **ويحتملُ أنْ يُقالَ** : لا يفسدُ العبادةَ نظراً إلىٰ حالَةِ العقدِ ، وإلىٰ بقاءِ أصلِ قصدِ الثوابِ وإنْ ضعفَ بهجومِ قصدٍ هوَ أغلبُ منهُ .

ولقدْ ذهبَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ إلى الإحباطِ في أمرٍ هوَ أهونُ منْ هٰذا ، وقالَ : إذا لمْ يُردْ إلا مجردَ السرورِ باطلاعِ الناسِ ؛ يعني : سروراً هوَ كحبِّ المنزلةِ والجاهِ ، قالَ : قدِ اختلفَ الناسُ في هٰذا ، فصارَتْ فرقةٌ إلىٰ أنَّهُ يحبطُ ؛ لأنَّهُ قدْ نقضَ العزمَ الأوَّلَ ، وركنَ إلىٰ حمدِ المخلوقينَ ، ولمْ يختمْ عملَهُ بالإخلاصِ ، وإنَّما يتمُّ العملُ بخاتمتِهِ [1]

ثمَّ قالَ : ولا أقطعُ عليهِ بالحبطِ وإنْ لمْ يتزيَّدْ في العملِ ، ولا آمنُ عليهِ ، وقدْ كنتُ أقفُ فيهِ لاختلافِ الناسِ ، والأغلبُ علىٰ قلبي أنَّهُ يحبطُ إذا ختمَ عملَهُ بالرياءِ [2]

ثمَّ قالَ : فإنْ قيلَ : قدْ قالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : إنَّهُما سَوْرتانِ ، فإذا كانَتِ الأولىٰ للهِ . . لمْ تضرُّهُ الثانيةُ [3] ، وقدْ رُويَ أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أُسِرُّ العملَ لا أحبُّ أنْ يُطلعَ عليهِ ، فيُطلعُ عليهِ ، فيسرُّني ، قالَ : « لكَ أجرانِ ؛ أجرُ السرِّ وأجرُ العلانيةِ » [4] ، ثمَّ تكلمَ على الأثرِ والخبرِ فقالَ : أمَّا الحسنُ . . فأرادَ بقولِهِ : لا تضرُّهُ ؛ أيْ : لا يدعُ العملَ ، ولا تضرُّهُ الخطرةُ وهوَ يريدُ اللهَ عزَّ وجلَّ ، ولمْ يقلْ : إذا اعتقدَ الرياءَ بعدَ عقدِ الإخلاصِ . . لمْ يضرُّهُ [5] ، وأمَّا الحديثُ . . فتكلَّمَ عليهِ بكلامٍ طويلٍ يرجعُ حاصلُهُ إلىٰ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّهُ يحتملُ أنَّهُ أرادَ ظهورَ عملِهِ بعدَ الفراغِ ، وليسَ في الحديثِ أنَّهُ قبلَ الفراغِ .

والثاني : أنَّهُ أرادَ أنْ يُسرَّ بِهِ لاقتداءِ الناسِ بِهِ ، أوْ لسرورٍ آخرَ محمودٍ ممَّا ذكرناهُ مِنْ قبلُ ، لا سروراً بسببِ حبِّ المحمدةِ والمنزلةِ ، بدليلِ أنَّهُ جعلَ لهُ بِهِ أجرينِ ، ولا ذاهبَ مِنَ الأمةِ إلىٰ أنَّ للسرورِ بالمحمدةِ أجراً ، وغايتُهُ أنْ يُعفىٰ عنهُ ، فكيفَ يكونُ للمخلصِ أجرٌ وللمرائي أجرانِ ؟!

والثالثُ : أنَّهُ قالَ : أكثرُ مَنْ يروي الحديثَ يرويهِ غيرَ متصلٍ إلىٰ أبي هريرةَ ، بلْ أكثرُهُمْ يوقفُهُ علىٰ أبي صالحٍ ، ومنهُمْ مَنْ يرفعُهُ ؛ فالحكمُ بالعموماتِ الواردةِ في الرياءِ أولىٰ [6]

---

(١) الرعاية (ص ٢٣٣) .

(٢) الرعاية (ص ٢٣٤) .

(٣) الرعاية (ص ٢٣٣) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٧٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٨٤) ، وابن ماجه (٤٢٢٦) .

(٥) الرعاية (ص ٢٣٤) .

(٦) الرعاية (ص ٢٣٥) وما بعدها .

هـٰذا ما ذكرَهُ ولَمْ يقطعْ بِهِ ، بلْ أظهرَ ميلاً إلى الإحباطِ .

والأقيسُ عندَنا : أنَّ هـٰذا القدْرَ إذا لَمْ يظهرْ أثرُهُ في العملِ ، بلْ بقيَ العملُ صادراً عنْ باعثِ الدينِ ، وإنَّما انضافَ إليهِ السرورُ بالاطلاعِ . . فلا يفسدُ العملَ ؛ لأنَّهُ لَمْ ينعدمْ بِهِ أصلُ نيَّتِهِ ، وبقيَتْ تلكَ النيةُ باعثةً على العملِ ، وحاملةً على الإتمامِ .

وأمَّا الأخبارُ التي وردَتْ في الرياءِ . . فهيَ محمولةٌ علىٰ ما إذا لَمْ يردْ بِهِ إلا الخلقَ .

وأمَّا ما وردَ في الشركةِ . . فهوَ محمولٌ علىٰ ما إذا كانَ قصدُ الرياءِ مساوياً لقصدِ الثوابِ ، أوْ أغلبَ منهُ ، أمَّا إذا كانَ ضعيفاً بالإضافةِ إليهِ . . فلا يحبطُ بالكليةِ ثوابَ الصدقةِ وسائرِ الأعمالِ ، ولا ينبغي أنْ يفسدَ الصلاةَ .

ولا يبعدُ أيضاً أنْ يُقالَ : إنَّ الذي أُوجِبَ عليهِ صلاةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، والخالصُ ما لا يشوبُهُ شيءٌ ، فلا يكونُ مؤدياً للواجبِ معَ هـٰذا الشوبِ ، والعلمُ عندَ اللهِ فيهِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ الإخلاصِ كلاماً أوفىٰ ممَّا أوردناهُ الآنَ ، فليُرجعْ إليهِ .

فهـٰذا حكمُ الرياءِ الطارئ بعدَ عقدِ العبادةِ ، إمَّا قبلَ الفراغِ ، أوْ بعدَ الفراغِ .

القسمُ الثالثُ : الذي يقارنُ حالَ العقدِ ؛ بأنْ يبتدئَ الصلاةَ علىٰ قصدِ الرياءِ ، فإنْ تمَّ عليهِ حتَّىٰ سلَّمَ . . فلا خلافَ في أنَّهُ يقضي ، ولا يعتدُّ بصلاتِهِ ، وإنْ ندمَ عليهِ في أثناءِ ذٰلكَ واستغفرَ ورجعَ قبلَ التمامِ . . ففيما يلزمُهُ ثلاثةُ أوجهٍ :

قالَتْ فرقةٌ : لَمْ تنعقدْ صلاتُهُ معَ قصدِ الرياءِ ، فليستأنفْ .

وقالَتْ فرقةٌ : تلزمُهُ إعادةُ الأفعالِ ؛ كالركوعِ والسجودِ ، وتفسدُ أفعالُهُ دونَ تحريمةِ الصلاةِ ؛ لأنَّ التحريمَ عقدٌ ، والرياءُ خاطرٌ في قلبِهِ لا يُخرِجُ التحريمَ عنْ كونِهِ عقداً .

وقالَتْ فرقةٌ : لا يلزمُهُ إعادةُ شيءٍ ، بلْ يستغفرُ اللهَ بقلبِهِ ، ويتمُّ العبادةَ على الإخلاصِ ، والنظرُ إلىٰ خاتمةِ العبادةِ ؛ كما لو ابتدأَ بالإخلاصِ وختمَ بالرياءِ . . لكانَ يفسُدُ عملُهُ ، وشبَّهوا ذٰلكَ بثوبٍ أبيضَ لُطِّخَ بنجاسةٍ عارضةٍ ، فإذا أُزيلَ العارضُ . . عادَ إلى الأصلِ ، فقالوا : إنَّ الصلاةَ والركوعَ والسجودَ لا تكونُ إلا للهِ ، ولوْ سجدَ لغيرِ اللهِ . . لكانَ كافراً ، ولـٰكنِ اقترنَ بِهِ عارضُ الرياءِ ، ثمَّ زالَ بالندمِ والتوبةِ ، وصارَ إلىٰ حالةٍ لا يبالي بحمدِ الناسِ وذمِّهِمْ ، فتصحُّ صلاتُهُ .

ومذهبُ الفريقينِ الآخرينِ خارجٌ عنْ قياسِ الفقهِ جدّاً ، خصوصاً مَنْ قالَ : يلزمُهُ إعادةُ الركوعِ والسجودِ دونَ الافتتاحِ ؛ لأنَّ الركوعَ والسجودَ إنْ لَمْ يصحَّ . . صارَتْ أفعالاً زائدةً في الصلاةِ فتفسدُ الصلاةُ ، وكذٰلكَ قولُ مَنْ يقولُ : لوْ خُتِمَ بالإخلاصِ . . صحَّ ؛ نظراً إلى الآخرِ ، فهوَ أيضاً ضعيفٌ ؛ لأنَّ الرياءَ يقدحُ في النيةِ ، وأولى الأوقاتِ بمراعاةِ أحكامِ النيةِ حالةُ الافتتاحِ ، **فالذي يستقيمُ علىٰ قياسِ الفقهِ هوَ أنْ يُقالَ** : إنْ كانَ باعثُهُ مجردَ الرياءِ في ابتداءِ العقدِ دونَ طلبِ الثوابِ وامتثالِ الأمرِ . . لَمْ ينعقدِ افتتاحُهُ ، ولَمْ يصحَّ ما بعدَهُ ، وذٰلكَ فيمَنْ إذا خلا بنفسِهِ . . لَمْ يصلِّ ، ولمَّا رأى الناسَ . . تحرَّمَ بالصلاةِ ، وكانَ بحيثُ لوْ كانَ ثوبُهُ نجساً أيضاً . . كان يصلِّي لأجلِ الناسِ ، فهـٰذهِ صلاةٌ لا نيةَ فيها ؛ إذِ النيةُ عبارةٌ عنْ إجابةِ باعثِ الدينِ ، وها هنا لا باعثَ ولا إجابةَ .

فأمَّا إذا كانَ بحيثُ لولا الناسُ أيضاً . . لكانَ يصلِّي إلا أنَّهُ ظهرَتْ لهُ الرغبةُ في المحمدةِ أيضاً ، فاجتمعَ الباعثانِ ، فهـٰذا إمَّا أنْ يكونَ في صدقةٍ وقراءةٍ وما ليسَ فيهِ تحليلٌ وتحريمٌ ، أوْ في عقدِ صلاةٍ وحجٍّ ، فإنْ كانَ في صدقةٍ . . فقدْ

عصىٰ بإجابةِ باعثِ الرياءِ ، وأطاعَ بإجابةِ باعثِ الثوابِ ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، فلهُ ثوابٌ بقدْرِ قصدِهِ الصحيحِ ، وعقابٌ بقدْرِ قصدِهِ الفاسدِ ، ولا يحبطُ أحدُهما الآخرَ .

وإنْ كانَ في صلاةٍ تقبلُ الفسادَ بتطرُّقِ خللٍ إلى النيةِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ تكونَ نفلاً أوْ فرضاً ؛ فإنْ كانَتْ نفلاً . . فحكمُها أيضاً حكمُ الصدقةِ ، فقدْ عصىٰ مِنْ وجهٍ وأطاعَ مِنْ وجهٍ ؛ إذِ اجتمعَ في قلبِهِ الباعثانِ ، ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : صلاتُهُ فاسدةٌ والاقتداءُ بهِ باطلٌ ، حتَّىٰ إنَّ من يصلِّي التراويحَ ، وتبيَّنَ مِنْ قرائنِ حالِهِ أنَّ قصدَهُ الرياءُ بإظهارِ حسنِ القراءةِ ؛ ولولا اجتماعُ الناسِ خلفَهُ وخلا في البيتِ وحدَهُ لما صلَّىٰ . . لا يصحُّ الاقتداءُ بهِ ؛ فإنَّ المصيرَ إلىٰ هٰذا بعيدٌ جدّاً ، بلْ يُظَنُّ بالمسلمِ أنَّهُ يقصدُ الثوابَ أيضاً بتطوعِهِ ، فتصحُّ باعتبارِ ذٰلكَ القصدِ صلاتُهُ ، ويصحُّ الاقتداءُ بهِ وإنِ اقترنَ بهِ قصدٌ آخرُ هوَ بهِ عاصٍ .

فأمَّا إذا كانَ في فرضٍ واجتمعَ الباعثانِ وكانَ كلُّ واحدٍ لا يستقلُّ ، وإنَّما يحصلُ الانبعاثُ بمجموعِهِما . . فهٰذا لا يسقطُ الواجبَ عنهُ ؛ لأنَّ الإيجابَ لمْ ينتهضْ باعثاً في حقِّهِ بمجردِهِ واستقلالِهِ .

وإنْ كانَ كلُّ باعثٍ مستقلّاً ، حتَّىٰ لوْ لمْ يكنْ باعثُ الرياءِ . . لأدَّى الفرضَ ، ولوْ لمْ يكنْ باعثُ الفرضِ . . لأنشأَ صلاةً تطوعاً لأجلِ الرياءِ ، فهٰذا في محلِّ النظرِ ، وهوَ محتملٌ جدّاً ، فيحتملُ أنْ يُقالَ : إنَّ الواجبَ صلاةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ ولمْ يؤدِّ الواجبَ الخالصَ ، ويحتملُ أنْ يُقالَ : الواجبُ امتثالُ الأمرِ بباعثٍ مستقلٍّ بنفسِهِ ، وقدْ وُجدَ ، فاقترانُ غيرِهِ بهِ لا يمنعُ سقوطَ الفرضِ عنهُ ، كما لوْ صلَّىٰ في دارٍ مغصوبةٍ ؛ فإنَّهُ وإنْ كانَ عاصياً بإيقاعِ الصلاةِ في الدارِ المغصوبةِ فإنَّهُ مطيعٌ بأصلِ الصلاةِ ، ومسقطٌ للفرضِ عنْ نفسِهِ ، وتعارضَ الاحتمالُ في تعارضِ البواعثِ في أصلِ الصلاةِ .

أمَّا إذا كانَ الرياءُ في المبادرةِ مثلاً دونَ أصلِ الصلاةِ ؛ مثلُ مَنْ بادرَ إلى الصلاةِ في أوَّلِ الوقتِ لحضورِ جماعةٍ ولوْ خلا . . لأخَّرَ إلىٰ وسطِ الوقتِ ، ولولا الفرضُ . . لكانَ لا يبتدئُ صلاةً لأجلِ الرياءِ ، فهٰذا ممَّا يقطعُ بصحَّةِ صلاتِهِ وسقوطِ الفرضِ بهِ ؛ لأنَّ باعثَ أصلِ الصلاةِ مِنْ حيثُ إنَّها صلاةٌ لمْ يعارضْهُ غيرُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ تعيينُ الوقتِ ، فهٰذا أبعدُ عنِ القدحِ في النيةِ .

هٰذا في رياءٍ يكونُ باعثاً على العملِ وحاملاً عليهِ ، وأما مجردُ السرورِ باطلاعِ الناسِ عليهِ إذا لمْ يبلغْ أثرُهُ إلىٰ حيثُ يؤثرُ في العملِ . . فبعيدٌ أنْ يفسدَ الصلاةَ .

فهٰذا ما نراهُ لائقاً بقانونِ الفقهِ ، والمسألةُ غامضةٌ مِنْ حيثُ إنَّ الفقهاءَ لمْ يتعرَّضوا لها في فنِّ الفقهِ ، والذينَ خاضوا فيها وتصرَّفوا لمْ يلاحظوا قوانينَ الفقهِ ومقتضىٰ فتاوى الفقهاءِ في صحةِ الصلاةِ وفسادِها ، بلْ حملَهُمُ الحرصُ علىٰ تصفيةِ القلوبِ وطلبِ الإخلاصِ علىٰ إفسادِ العباداتِ بأدنى الخواطرِ ، وما ذكرناهُ هوَ الأقصدُ فيما نراهُ ، والعلمُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ فيهِ ، وهوَ عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، وهوَ الرحمٰنُ الرحيمُ .

* * *

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قدْ عرفتَ ممَّا سبقَ أنَّ الرياءَ محبطٌ للأعمالِ ، وسببٌ للمقتِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّهُ مِنْ كبائرِ المهلكاتِ .

وما هٰذا وصفُهُ فجديرٌ بالتشميرِ عنْ ساقِ الجدِّ في إزالتِهِ ولوْ بالمجاهدةِ وتحمُّلِ المشاقِّ ، فلا شفاءَ إلا في شربِ الأدويةِ المرَّةِ البشعةِ ، وهٰذهِ مجاهدةٌ يُضطرُّ إليها العبادُ كلُّهُمْ ؛ إذِ الصبيُّ يُخلقُ ضعيفَ العقلِ والتمييزِ ، ممتدَّ العينِ إلى الخلقِ ، كثيرَ الطمعِ فيهِمْ ، فيرى الناسَ يتصنَّعُ بعضُهُمْ لبعضٍ ، فيغلبُ عليهِ حبُّ التصنُّعِ بالضرورةِ ، ويترسَّخُ ذٰلكَ في نفسِهِ ، وإنَّما يشعرُ بكونِ ذٰلكَ مهلكاً بعدَ كمالِ عقلِهِ ، وقدِ انغرسَ الرياءُ في قلبِهِ وترسَّخَ فيهِ ، فلا يقدرُ علىٰ قمعِهِ إلا بمجاهدةٍ شديدةٍ ، ومكابدةٍ لقوَّةِ الشهواتِ ، فلا ينفكُّ أحدٌ عنِ الحاجةِ إلىٰ هٰذهِ المجاهدةِ ، ولٰكنَّها تشقُّ أوَّلاً وتخفُّ آخراً ، وفي علاجِهِ مقامانِ :

أحدُهُما : قطع عروقِهِ وأصولِهِ التي منها انشعابُهُ .

والثاني : دفعُ ما يخطرُ منهُ في الحالِ .

❁ ❁ ❁

المقامُ الأولُ : في قطعِ عروقِهِ واستئصالِ أصولِهِ :

وأصلُهُ حبُّ المنزلةِ والجاهِ ، وإذا فُصِّلَ . . رجعَ إلىٰ ثلاثةِ أصولٍ ، وهيَ حبُّ لذةِ المحمدةِ ، والفرارُ مِنْ ألمِ المذمَّةِ ، والطمعُ فيما في أيدي الناسِ .

ويشهدُ للرياءِ بهٰذهِ الأسبابِ وأنَّها الباعثةُ للمرائي ما روىٰ أبو موسىٰ : أنَّ أعرابياً سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يقاتلُ حميةً ؛ ومعناهُ : أنَّهُ يأنفُ أنْ يُقهرَ أوْ يُذمَّ بأنَّهُ مقهورٌ مغلوبٌ ، والرجلُ يقاتلُ ليُرىٰ مكانُهُ ؛ وهٰذا هوَ طلبُ لذَّةِ الجاهِ والقدْرِ في القلوبِ ، والرجلُ يقاتلُ للذِّكرِ ؛ وهٰذا هوَ الحمدُ باللسانِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »(١)

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا التقى الصفانِ . . نزلَتِ الملائكةُ ، فكتبوا الناسَ علىٰ مراتبِهِمْ ، فلانٌ يقاتلُ للذِّكرِ ، وفلانٌ يقاتلُ للملكِ)(٢) ، والقتالُ للملكِ إشارةٌ إلى الطمعِ في الدنيا .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (يقولونَ : فلانٌ شهيدٌ ، ولعلَّهُ أنْ يكونَ قدْ ملأَ دُفتي راحلتِهِ ورِقاً !!)(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ غزا لا يبغي إلا عِقالاً . . فلهُ ما نوىٰ »(٤) ، فهٰذا إشارةٌ إلى الطمعِ

وقدْ لا يشتهي الحمدَ ولا يطمعُ فيهِ ، ولٰكنْ يحذرُ مِنْ ألمِ الذمِّ ؛ كالبخيلِ بينَ الأسخياءِ وهمْ يتصدَّقونَ بالمالِ الكثيرِ ، فإنَّهُ يتصدَّقُ بالقليلِ كي لا يُبخَّلَ ، وهوَ ليسَ يطمعُ في الحمدِ وقدْ سبقَهُ غيرُهُ ، وكالجبانِ بينَ الشُّجعانِ ، لا يفرُّ

---

(١) رواه البخاري (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) بألفاظ مقاربة .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢) ، وقد ذُكر عند ابن مسعود رضي الله عنه قوم قتلوا في سبيل الله عز وجل ، فذكره .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/٣٣٢) .

(٤) رواه النسائي (٦/٢٤) .

مِنَ الزحفِ خوفاً مِنَ الذمِّ ، وهوَ لا يطمعُ في الحمدِ وقدْ هجمَ غيرُهُ علىٰ صفِّ القتالِ ، ولٰكنْ إذا أيسَ مِنَ الحمدِ . . كرهَ الذمَّ ، وكالرجلِ بينَ قومٍ يصلُّونَ جميعَ الليلِ ، فيصلِّي ركعاتٍ معدودةً كيْ لا يُذمَّ بالكسلِ ، وهوَ لا يطمعُ في الحمدِ .

وقدْ يقدرُ الإنسانُ على الصبرِ عنْ لذَّةِ الحمدِ ، ولا يقدرُ على الصبرِ علىٰ ألمِ الذمِّ ، ولذٰلكَ قدْ يتركُ السؤالَ عنْ علمٍ هوَ محتاجٌ إليهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُذمَّ بالجهلِ ، ويفتي بغيرِ علمٍ ، ويدَّعي العلمَ بالحديثِ وهوَ بهِ جاهلٌ ، كلُّ ذٰلكَ حذراً مِنَ الذمِّ .

فهٰذهِ الأمورُ الثلاثةُ هيَ التي تحرّكُ المرائيَ إلى الرياءِ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الشطرِ الأولِ مِنَ الكتابِ على الجملةِ ، ولٰكنَّا نذكرُ الآنَ ما يخصُّ الرياءَ ، وليسَ بخفيٍّ أنَّ الإنسانَ إنَّما يقصدُ الشيءَ ويرغبُ فيهِ لظنِّهِ أنَّهُ خيرٌ لهُ ونافعٌ ولذيذٌ ، إمَّا في الحالِ وإمَّا في المآلِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ لذيذٌ في الحالِ ولٰكنَّهُ ضارٌّ في المآلِ . . سَهُلَ عليهِ قطعُ الرَّغبةِ عنهُ ، كمَنْ يعلمُ أنَّ العسلَ لذيذٌ ، ولٰكنْ إذا بانَ لهُ أنَّ فيهِ سمّاً . . أعرضَ عنهُ ؛ فكذٰلكَ طريقُ قطعِ هٰذهِ الرغبةِ أنْ يعلمَ ما فيها مِنَ المضرَّةِ .

ومهما عرفَ العبدُ مضرَّةَ الرياءِ ، وما يفوتُهُ مِنْ صلاحِ قلبِهِ ، وما يُحرمُ عنهُ في الحالِ مِنَ التوفيقِ ، وفي الآخرةِ مِنَ المنزلةِ عندَ اللهِ ، وما يتعرَّضُ لهُ مِنَ العقابِ العظيمِ ، والمقتِ الشديدِ ، والخزيِ الظاهرِ ؛ حيثُ يُنادىٰ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ : يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا مرائي ؛ أما استحييتَ إذِ اشتريتَ بطاعةِ اللهِ عرَضَ الدنيا ، وراقبتَ قلوبَ العبادِ ، واستهزأتَ بطاعةِ اللهِ ، وتحببتَ إلى العبادِ بالتبغُّضِ إلى اللهِ ، وتزيَّنتَ لهُمْ بالشَّينِ عندَ اللهِ ، وتقرَّبتَ إليهِمْ بالبعدِ مِنَ اللهِ ، وتحمَّدتَ إليهِمْ بالتذمُّمِ عندَ اللهِ ، وطلبتَ رضاهُمْ بالتعرُّضِ لسخَطِ اللهِ ؟! أما كانَ أحدٌ أهونَ عليكَ مِنَ اللهِ ؟!

فمهما تفكَّرَ العبدُ في هٰذا الخزيِ ، وقابلَ ما يحصلُ لهُ مِنَ العبادِ والتزيُّنِ لهُمْ في الدنيا بما يفوتُهُ في الآخرةِ ، وبما يحبطُ عليهِ مِنْ ثوابِ الأعمالِ ، معَ أنَّ العملَ الواحدَ ربَّما كانَ يترجَّحُ بهِ ميزانُ حسناتِهِ لوْ خلصَ ، فإذا فسدَ بالرياءِ . . حُوِّلَ إلىٰ كِفَّةِ السيئاتِ فترجَّحَتْ بهِ ، ويهوي إلى النارِ ، فلوْ لمْ يكنْ في الرياءِ إلا إحباطُ عبادةٍ واحدةٍ . . لكانَ ذٰلكَ كافياً في معرفةِ ضررِهِ ، وإنْ كانَ معَ ذٰلكَ سائرُ حسناتِهِ راجحةً ، فقدْ كانَ ينالُ بهٰذهِ الحسنةِ علوَّ الرتبةِ عندَ اللهِ تعالىٰ في زمرةِ النبيِّينَ والصديقينَ ، وقدْ حُطَّ عنهُمْ بسببِ الرياءِ ، ورُدَّ إلىٰ صفِّ النعالِ مِنْ مراتبِ الأولياءِ ، هٰذا معَ ما يتعرَّضُ لهُ في الدنيا مِنْ تشتُّتِ الهمِّ بسببِ ملاحظةِ قلوبِ الخلقِ ، فإنَّ رضا الناسِ غايةٌ لا تُدركُ ، فكلُّ ما يرضىٰ بهِ فريقٌ يسخطُ بهِ فريقٌ ، ورضا بعضِهِمْ في سخطِ بعضِهِمْ ، ومَنْ طلبَ رضاهُمْ في سخطِ اللهِ . . سخطَ اللهُ عليهِ ، وأسخطَهُمْ أيضاً عليهِ ، ثمَّ أيُّ غرضٍ لهُ في مدحِهِمْ وإيثارِ ذمِّ اللهِ لأجلِ حمدِهِمْ ، ولا يزيدُهُ مدحُهُمْ رزقاً ولا أجلاً ، ولا ينفعُهُ يومَ فقرِهِ وفاقتِهِ وهوَ يومُ القيامةِ ؟!

وأمَّا الطمعُ فيما في أيديهِمْ . . فبأنْ يعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ المسخِّرُ للقلوبِ بالمنعِ والإعطاءِ ، وأنَّ الخلقَ مضطرونَ فيهِ ، ولا رازقَ إلا اللهُ ، ومَنْ طمعَ في الخلقِ . . لمْ يخلُ مِنَ الذلِّ والخيبةِ ، وإنْ وصلَ إلى المرادِ . . لمْ يخلُ عنِ المنَّةِ والمهانةِ ، فكيفَ يتركُ ما عندَ اللهِ لرجاءٍ كاذبٍ ووهمٍ فاسدٍ قدْ يصيبُ وقدْ يخطئُ ، وإذا أصابَ . . فلا تفي لذَّتُهُ بألمِ منَّتِهِ ومذلَّتِهِ ؟!

وأمَّا ذمُّهُمْ . . فلِمَ يحذرُ منهُ ولا يزيدُهُ ذمُّهُمْ شيئاً ممَّا لمْ يكتبْهُ اللهُ عليهِ ، ولا يعجِّلُ أجلَهُ ولا يؤخِّرُ رزقَهُ ، ولا يجعلُهُ مِنْ أهلِ النارِ إنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، ولا يبغِّضُهُ إلى اللهِ إنْ كانَ محموداً عندَ اللهِ ، ولا يزيدُهُ مقتاً إنْ كانَ ممقوتاً

عندَ اللهِ ؟! فالعبادُ كلُّهُمْ عجزةٌ لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضرّاً ولا نفعاً ، ولا يملكونَ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

فإذا قرَّرَ في قلبِهِ آفةَ هٰذهِ الأسبابِ وضررَها . . فترَتْ رغبتُهُ ، وأقبلَ على اللهِ قلبُهُ ، فإنَّ العاقلَ لا يرغبُ فيما يكثرُ ضررُهُ ويقلُّ نفعُهُ .

ويكفيهِ أنَّ الناسَ لوْ علموا ما في باطنِهِ مِنْ قصدِ الرياءِ وإظهارِ الإخلاصِ . . لمقتوهُ ، وسيكشفُ اللهُ عنْ سرِّهِ حتَّىٰ يبغِّضَهُ إلى الناسِ ، ويعرِّفَهُمْ أنَّهُ مراءٍ وممقوتٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولوْ أخلصَ للهِ . . لكشفَ اللهُ لهُمْ إخلاصَهُ ، وحبَّبَهُ إليهِمْ ، وسخَّرهُمْ لهُ ، وأطلقَ ألسنتَهُمْ بحمدِهِ والثناءِ عليهِ ، معَ أنَّهُ لا كمالَ في مدحِهِمْ ، ولا نقصانَ في ذمِّهِمْ ، كما قالَ شاعرٌ مِنْ بني تميمٍ : إنَّ مدحي زينٌ ، وإنَّ ذمِّي شينٌ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كذبتَ ، ذاكَ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ »[1] ، إذْ لا زينَ إلا في مدحِهِ ، ولا شينَ إلا في ذمِّهِ ، فأيُّ خيرٍ لكَ في مدحِ الناسِ وأنتَ عندَ اللهِ مذمومٌ ومِنْ أهلِ النارِ ؟! وأيُّ شرٍّ لكَ في ذمِّ الناسِ وأنتَ عندَ اللهِ محمودٌ في زمرةِ المقرَّبينَ ؟!

فمَنْ أحضرَ في قلبِهِ الآخرةَ ونعيمَها المؤبَّدَ ، والمنازلَ الرفيعةَ عندَ اللهِ . . استحقرَ ما يتعلَّقُ بالخلقِ أيامَ الحياةِ ، معَ ما فيهِ مِنَ الكدوراتِ والمنغِّصاتِ ، واجتمعَ همُّهُ ، وانصرفَ إلى اللهِ قلبُهُ ، وتخلَّصَ مِنْ مذمَّةِ الرياءِ ومقاساةِ قلوبِ الخلقِ ، وانعطفَ مِنْ إخلاصِهِ أنوارٌ علىٰ قلبِهِ ينشرحُ بها صدرُهُ ، وينفتحُ بها لهُ مِنْ لطائفِ المكاشفاتِ ما يزيدُ بهِ أنسُهُ باللهِ واستيحاشُهُ مِنَ الخلقِ ، واستحقارُهُ للدنيا ، واستعظامُهُ للآخرةِ ، وسقطَ محلُّ الخلقِ مِنْ قلبِهِ ، وانحلَّتْ عنهُ داعيةُ الرياءِ ، وتذلَّلَ لهُ منهجُ الإخلاصِ .

فهٰذا وما قدَّمناهُ في الشطرِ الأولِ هيَ الأدويةُ العلميَّةُ القالعةُ مغارسَ الرياءِ .

وأمَّا الدواءُ العمليُّ . . فهوَ أنْ يعوِّدَ نفسَهُ إخفاءَ العباداتِ ، وإغلاقَ الأبوابِ دونَها ، كما تُغلقُ الأبوابُ دونَ الفواحشِ ، حتَّىٰ يقنعَ قلبُهُ بعلمِ اللهِ واطلاعِهِ علىٰ عبادتِهِ ، ولا تنازعَهُ النفسُ إلىٰ طلبِ علمِ غيرِ اللهِ بهِ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ بعضَ أصحابِ أبي حفصٍ الحدادِ ذمَّ الدنيا وأهلَها ، فقالَ لهُ أبو حفصٍ : (أظهرتَ ما كانَ سبيلُكَ أنْ تخفيَهُ ، لا تجالسْنا بعدَ هٰذا) ، فلمْ يرخِّصْ في إظهارِ هٰذا القدْرِ ؛ لأنَّ في ضمنِ ذمِّ الدنيا دعوى الزهدِ فيها ، فلا دواءَ للرياءِ مثلُ الإخفاءِ ، وذٰلكَ يشقُّ في بدايةِ المجاهدةِ ، وإذا صبرَ عليهِ مدَّةً بالتكلُّفِ . . سقطَ عنهُ ثقلُهُ ، وهانَ عليهِ ذٰلكَ بتواصلِ ألطافِ اللهِ وما يمدُّ بهِ عبادَهُ مِنْ حسنِ التوفيقِ والتأييدِ ، ولٰكنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتَّىٰ يغيِّروا ما بأنفسِهِمْ ، فمِنَ العبدِ المجاهدةُ ومِنَ اللهِ الهدايةُ ، ومِنَ العبدِ قرعُ البابِ ومِنَ اللهِ فتحُ البابِ ، واللهُ لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ ، وإنْ تكُ حسنةً . . يضاعفْها ، ويؤتِ مِنْ لدنْهُ أجراً عظيماً .

❁ ❁ ❁

المقامُ الثاني : في دفعِ العارضِ منهُ في أثناءِ العبادةِ :

وذٰلكَ لا بدَّ مِنْ تعلُّمِهِ أيضاً ، فإنَّ مَنْ جاهدَ نفسَهُ ، وقلعَ مغارسَ الرياءِ مِنْ قلبِهِ بالقناعةِ ، وقطعِ الطمعِ ، وإسقاطِ نفسِهِ مِنْ أعينِ المخلوقينَ ، واستحقارِ مدحِ المخلوقينَ وذمِّهِمْ . . فالشيطانُ لا يتركُهُ في أثناءِ العبادةِ ، بلْ يعارضُهُ بخطراتِ الرياءِ ولا تنقطعُ عنهُ نزغاتُهُ ، وهوى النفسِ وميلُها لا ينمحي بالكليَّةِ ، فلا بدَّ وأنْ يتشمَّرَ لدفعِ ما يعرضُ مِنْ خاطرِ الرياءِ .

---

(١) والقائل هو الأقرع بن حابس ، كما رواه أحمد في « المسند » (٦/٣٩٣) دون زيادة : (كذبت) ، وهي عند الروياني في « مسنده » (٣٠٧) .

وخواطرُ الرياءِ ثلاثةٌ ، قدْ تخطرُ دفعةً واحدةً كالخاطرِ الواحدِ ، وقدْ تترادفُ على التدريجِ .

فالأولُ : العلمُ باطلاعِ الخلقِ ورجاءُ اطلاعِهِمْ ، ثمَّ يتلوهُ هيجانُ الرغبةِ مِنَ النفسِ في حمدِهِمْ وحصولِ المنزلةِ عندَهُمْ ، ثمَّ يتلوهُ قبولُ النفسِ لهُ والركونُ إليهِ ، وعقدُ الضميرِ علىٰ تحقيقِهِ ، **فالأوَّلُ** : معرفةٌ ، **والثاني** : حالةٌ تُسمَّى الشهوةَ والرغبةَ ، **والثالثُ** : فعلٌ يُسمَّى العزمَ وتصميمَ العقدِ .

وإنَّما كمالُ القوةِ في دفعِ الخاطرِ الأوَّلِ وردِّهِ قبلَ أنْ يتلوَهُ الثاني ، فإذا خطرَ لهُ معرفةُ اطلاعِ الخلقِ أوْ رجاءُ اطلاعِهِمْ . . دفعَ ذٰلكَ بأنْ قالَ : ما لكَ وللخلقِ ، علموا أوْ لمْ يعلموا واللهُ عالمٌ بحالِكَ ؟! فأيُّ فائدةٍ في علمِ غيرِهِ ؟!

فإنْ هاجَتِ الرغبةُ إلىٰ لذَّةِ الحمدِ . . تذكَّرَ ما رسخَ في قلبِهِ مِنْ قبلُ مِنْ آفةِ الرياءِ ، وتعرضِهِ للمقتِ عندَ اللهِ في القيامةِ ، وخيبتِهِ في أحوجِ أوقاتِهِ إلىٰ أعمالِهِ ، فكما أنَّ معرفةَ اطلاعِ الناسِ تثيرُ شهوةً ورغبةً في الرياءِ . . فمعرفةُ آفةِ الرياءِ تثيرُ كراهةً لهُ تقابلُ تلكَ الشهوةَ ؛ إذْ يتفكرُ في تعرُّضِهِ لمقتِ اللهِ وعقابِهِ الأليمِ ، والشهوةُ تدعوهُ إلى القبولِ ، والكراهةُ تدعوهُ إلى الإباءِ ، والنفسُ تطاوعُ ـ لا محالةَ ـ أقواهُما وأغلبَهُما .

فإذاً ؛ لا بدَّ في ردِّ الرياءِ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : المعرفةِ ، والكراهةِ ، والإباءِ .

وقدْ يشرعُ العبدُ في العبادةِ علىٰ عزمِ الإخلاصِ ، ثمَّ يردُ خاطرُ الرياءِ فيقبلُهُ ، ولا تحضرُهُ المعرفةُ ولا الكراهةُ التي كانَ الضميرُ منطوياً عليها ، وإنَّما سببُ ذٰلكَ امتلاءُ القلبِ بخوفِ الذمِّ وحبِّ الحمدِ ، واستيلاءُ الحرصِ عليهِ ؛ بحيثُ لا يبقىٰ في القلبِ متَّسعٌ لغيرِهِ ، فتعزبُ عنِ القلبِ المعرفةُ السابقةُ بآفاتِ الرياءِ وشؤمِ عاقبتِهِ ؛ إذْ لمْ يبقَ موضعٌ في القلبِ خالٍ عنْ شهوةِ الحمدِ أوْ خوفِ الذمِّ ، وهوَ كالذي يحدِّثُ نفسَهُ بالحلمِ وذمِّ الغضبِ ، ويعزمُ على التحلُّمِ عندَ جريانِ سببِ الغضبِ ، ثمَّ يجري مِنَ الأسبابِ ما يشتدُّ بهِ غضبُهُ ، فينسىٰ سابقَ عزمِهِ ، ويمتلئُ قلبُهُ غيظاً يمنعُ مِنْ تذكُّرِ آفةِ الغضبِ ، ويشتغلُ عنهُ ، فكذٰلكَ حلاوةُ الشهوةِ تملأُ القلبَ وتدفعُ نورَ المعرفةِ مثلَ مرارةِ الغضبِ ، وإليهِ أشارَ جابرٌ بقولِهِ : بايعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تحتَ الشجرةِ علىٰ ألا نفرَّ ، ولمْ نبايعْهُ على الموتِ ، فأُنسيناها يومَ حنينٍ ، حتَّىٰ نُوديَ : يا أصحابَ الشجرةِ ؛ فرجعوا[1] ، وذٰلكَ لأنَّ القلوبَ امتلأَتْ بالخوفِ فنسيَتِ العهدَ السابقَ ، حتىٰ ذُكِّروا ، وأكثرُ الشهواتِ التي تهجمُ فجأةً هٰكذا تكونُ ؛ إذْ تنسي معرفةَ مضرتِهِ الداخلةَ في عقدِ الإيمانِ ، ومهما نسيَ المعرفةَ . . لمْ تظهرِ الكراهةُ ، فإنَّ الكراهةَ ثمرةُ المعرفةِ .

وقدْ يتذكَّرُ الإنسانُ فيعلمُ أنَّ الخاطرَ الذي خطرَ لهُ هوَ خاطرُ الرياءِ الذي يعرِّضُهُ لسخطِ اللهِ ، ولٰكنْ يستمرُّ عليهِ لشدَّةِ شهوتِهِ ، فيغلبُ هواهُ عقلَهُ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ لذَّةِ الحالِ ، فيسوِّفُ بالتوبةِ ، أوْ يتشاغلُ عنِ التفكُّرِ في ذٰلكَ لشدَّةِ الشهوةِ ، فكمْ مِنْ عالمٍ يحضرُهُ كلامٌ لا يدعوهُ إلى النطقِ بهِ إلا رياءُ الخلقِ ، وهوَ يعلمُ ذٰلكَ ، ولٰكنَّهُ يستمرُّ عليهِ ، فتكونُ الحجةُ عليهِ أوكدَ ؛ إذْ قبلَ داعيَ الرياءِ معَ علمِهِ بغائلتِهِ وكونِهِ مذموماً عندَ اللهِ ، ولا تنفعُهُ معرفتُهُ إذا خلَتِ المعرفةُ عنِ الكراهةِ .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٨٦) ، وهو مجموع حديثين رواهما مسلم (١٨٥٦ ، ١٧٧٥) ، فالأول من حديث جابر رضي الله عنه قال : (كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مئة ، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة ، وقال : بايعناه علىٰ ألا نفر ، ولم نبايعه على الموت) ، والثاني من حديث العباس رضي الله عنه ، وفيه ذكر إدبار المسلمين يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أمر العباس أن ينادي أصحاب السمرة ، فلما ناداهم . . عادوا كحنين البقر إلىٰ أولادها .

وقدْ تحضرُ المعرفةُ والكراهةُ ، ولـٰكنْ معَ ذٰلكَ يقبلُ داعيَ الرياءِ ويعملُ بهِ ؛ لكونِ الكراهةِ ضعيفةً بالإضافةِ إلىٰ قوةِ الشهوةِ ، وهـٰذا أيضاً لا ينتفعُ بكراهتِهِ ؛ إذِ الغرضُ مِنَ الكراهةِ أنْ تصرفَ عنِ الفعلِ .

فإذاً ؛ لا فائدةَ إلا في اجتماعِ الثلاثِ ، وهيَ : المعرفةُ ، والكراهةُ ، والإباءُ ، فالإباءُ ثمرةُ الكراهةِ ، والكراهةُ ثمرةُ المعرفةِ ، وقوةُ المعرفةِ بحسبِ قوةِ الإيمانِ ونورِ العلمِ ، وضعفُ المعرفةِ بحسبِ الغفلةِ ، وحبِّ الدنيا ونسيانِ الآخرةِ ، وقلةِ التفكرِ فيما عندَ اللهِ ، وقلةِ التأملِ في آفاتِ الحياةِ الدنيا وعظمِ نعيمِ الآخرةِ ، وبعضُ ذٰلكَ ينتجُ بعضاً ويثمرُهُ ، وأصلُ ذٰلكَ كلِّهِ حبُّ الدنيا وغلبةُ الشهواتِ ، فهوَ رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، ومنبعُ كلِّ ذنبٍ ؛ لأنَّ حلاوةَ حبِّ الجاهِ والمنزلةِ ونعيمِ الدنيا هيَ التي تغمرُ القلبَ وتسلبُهُ ، وتحولُ بينَهُ وبينَ التفكُّرِ في العاقبةِ ، والاستضاءةِ بنورِ الكتابِ والسنةِ وأنوارِ العلومِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فمَنْ صادفَ مِنْ نفسِهِ كراهةَ الرياءِ ، وحملَتْهُ الكراهةُ على الإباءِ ، ولـٰكنَّهُ معَ ذٰلكَ غيرُ خالٍ عنْ ميلِ الطبعِ إليهِ وحبِّهِ لهُ ومنازعتِهِ إيَّاهُ ، إلا أنَّهُ كارهٌ لحبِّهِ ولميلِهِ وغيرُ محببٍ إليهِ . . فهلْ يكونُ في زمرةِ المرائينَ ؟

فاعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يكلِّفِ العبدَ إلا ما يطيقُ ، وليسَ في طاقةِ العبدِ منعُ الشيطانِ عنْ نزغاتِهِ ، ولا قمعُ الطبعِ حتَّىٰ لا يميلَ إلى الشهواتِ ولا ينزعَ إليها ، وإنَّما غايتُهُ أنْ يقابلَ شهوتَهُ بكراهةٍ استثارَها مِنْ معرفةِ العواقبِ وعلمِ الدينِ ، وأصولِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فإذا فعلَ ذٰلكَ . . فهوَ الغايةُ في أداءِ ما كُلِّفَهُ .

ويدلُّ علىٰ ذٰلكَ مِنَ الأخبارِ ما رُويَ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شكَوا إليهِ وقالوا : تعرضُ لقلوبِنا أشياءُ لأَنْ نخرَّ مِنَ السماءِ فتخطفَنا الطيرُ أوْ تهويَ بنا الريحُ في مكانٍ سحيقٍ . . أحبُّ إلينا مِن أنْ نتكلَّمَ بها ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أَوَقدْ وجدتُموهُ ؟ » قالوا : نعمْ ، قال : « ذٰلكَ صريحُ الإيمانِ »(١) ، ولمْ يجدوا إلا الوسواسَ والكراهةَ لهُ .

ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : أرادَ بـ (صريحُ الإيمانِ) : الوسوسةَ ؛ فلمْ يبقَ إلا حملُهُ على الكراهةِ المساوقةِ للوسوسةِ ، والرياءُ وإنْ كانَ عظيماً . . فهوَ دونَ الوسوسةِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فإذا اندفعَ ضررُ الأعظمِ بالكراهةِ . . فبأنْ يندفعَ بها ضررُ الأصغرِ أولىٰ .

وكذٰلكَ يُروىٰ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّهُ قالَ : « الحمدُ للهِ الذي ردَّ كيدَ الشيطانِ إلى الوسوسةِ »(٢)

وقالَ أبو حازمٍ : (ما كانَ مِنْ نفسِكَ فكرهَتْهُ نفسُكَ لنفسِكَ . . فلا يضرُّكَ ما هوَ مِنْ عدوِّكَ ، وما كانَ مِنْ نفسِكَ فرضيَتْهُ نفسُكَ لنفسِكَ . . فعاتبْها عليهِ)(٣)

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه مسلم (١٣٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٤٩) ، وهو الحديث المنعوت بحديث الوسوسة .

(٢) رواه أبو داوود (٥١١٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٤٣٤) ، وكان جواباً عن شكواهم تلك .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ١٨٨) ، وقال : (وقال زيد بن أسلم مثل ذٰلك) ، وهو عن زيد بن أسلم رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٢١) .

فإذاً ؛ وسوسةُ الشيطانِ ومنازعةُ النفسِ لا تضرُّكَ مهما رددتَ مرادَهُما بالإباءِ والكراهةِ ، والخواطرُ التي هيَ العلومُ والتذكراتُ والتخيلاتُ للأسبابِ المهيجةِ للرياءِ هيَ مِنَ الشيطانِ ، والرغبةُ والميلُ بعدَ تلكَ الخواطرِ مِنَ النفسِ ، والكراهةُ مِنَ الإيمانِ ومِنْ آثارِ العقلِ .

إلا أنَّ للشيطانِ ها هنا مكيدةً ؛ وذٰلكَ أنَّهُ إذا عجزَ عنْ حملِهِ علىٰ قبولِ الرياءِ . . خيَّلَ إليهِ أنَّ صلاحَ قلبِهِ في الاشتغالِ بمجادلةِ الشيطانِ ، ومطاولتِهِ في الردِّ والجدالِ ، حتَّىٰ يسلبَهُ ثوابَ الإخلاصِ وحضورَ القلبِ ؛ لأنَّ الاشتغالَ بمجادلةِ الشيطانِ ومدافعتِهِ انصرافٌ عنْ سرِّ المناجاةِ معَ اللهِ تعالىٰ ، فيوجبُ ذٰلكَ نقصاناً في منزلتِهِ عندَ اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

والمتخلصونَ عنِ الرياءِ في دفعِ خواطرِ الرياءِ علىٰ أربعِ مراتبَ :

الرتبةُ الأولىٰ : أنْ يردَّ على الشيطانِ مكيدتَهُ فيكذبَهُ ، ولا يقتصرُ عليهِ ، بلْ يشتغلُ بمجادلتِهِ ، ويطيلُ الجدالَ معَهُ ؛ لظنِّهِ أنَّ ذٰلكَ أسلمُ لقلبِهِ ، وهوَ على التحقيقِ نقصانٌ ؛ لأنَّهُ اشتغلَ عنْ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ وعنِ الخيرِ الذي هوَ بصددِهِ ، وانصرفَ إلىٰ قتالِ قطَّاعِ الطريقِ ، والتعريجُ علىٰ قتالِ قطَّاعِ الطريقِ نقصانٌ في السلوكِ .

الرتبةُ الثانيةُ : أنْ يعرفَ أنَّ الجدالَ والقتالَ نقصانٌ في السلوكِ ، فيقتصرُ علىٰ تكذيبِهِ ودفعِهِ ، ولا يشتغلُ بمجادلتِهِ .

الرتبةُ الثالثةُ : ألَّا يشتغلَ بتكذيبِهِ أيضاً ؛ لأنَّ ذٰلكَ وقفةٌ وإنْ قلَّتْ ، بلْ يكونُ قدْ قرَّرَ في عقدِ ضميرِهِ كراهةَ الرياءِ وكذبَ الشيطانِ ، فيستمرُّ علىٰ ما كانَ عليهِ مستصحباً للكراهةِ غيرَ مشتغلٍ بالتكذيبِ ولا بالمخاصمةِ .

الرتبةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ قدْ علمَ أنَّ الشيطانَ سيحسدُهُ عندَ جريانِ أسبابِ الرياءِ ، فيكونَ قدْ عزمَ علىٰ أنَّهُ مهما نزغَ الشيطانُ . . زادَ فيما هوَ فيهِ مِنَ الإخلاصِ والاشتغالِ باللهِ تعالىٰ ، وإخفاءِ الصدقةِ والعبادةِ ؛ غيظاً للشيطانِ ، وذٰلكَ هوَ الذي يغيظُ الشيطانَ ويقمعُهُ ، ويوجبُ يأسَهُ وقنوطَهُ حتَّىٰ لا يرجعَ .

يُروىٰ عنِ الفضيلِ بنِ غَزْوانَ أنَّهُ قيلَ لهُ : إنَّ فلاناً ذكرَكَ ، فقالَ : واللهِ ؛ لأغيظنَّ مَنْ أمرَهُ ، قيلَ : ومَنْ أمرَهُ ؟ قالَ : الشيطانُ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لهُ ؛ أي : لأغيظَنَّهُ بأنْ أطيعَ اللهَ فيهِ [(١)]

ومهما عرفَ الشيطانُ مِنْ عبدٍ هٰذهِ العادةَ . . كفَّ عنهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يزيدَ في حسناتِهِ .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إنَّ الشيطانَ ليدعو العبدَ إلى البابِ مِنَ الإثمِ ، فلا يطيعُهُ ويحدثُ عندَ ذٰلكَ خيراً ، فإذا رآهُ كذٰلكَ . . تركَهُ) [(٢)]

وقالَ أيضاً : (إذا رآكَ الشيطانُ متردداً . . طمعَ فيكَ ، وإذا رآكَ مداوماً . . ملَّكَ وقلاكَ) [(٣)]

وضربَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ لهٰذهِ الأربعةِ مثالاً أحسنَ فيهِ فقالَ : مثالُهُمْ كأربعةٍ قصدوا مجلساً مِنَ العلمِ والحديثِ ؛ لينالوا بِهِ فائدةً وفضلاً ، وهدايةً ورشداً ، فحسدَهُمْ علىٰ ذٰلك ضالٌّ مبتدعٌ ، وخافَ أنْ يعرفوا الحقَّ ، فتقدَّمَ إلىٰ واحدٍ منهُمْ ليمنعَهُ ويصرفَهُ عنهُ ، ودعاهُ إلىٰ مجلسِ ضلالٍ فأبىٰ ، فلمَّا عرفَ إباءَهُ . . شغلَهُ بالمجادلةِ ،

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٩٥) ، وبنحوه رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٧٠) .

(٢) الرعاية (ص ١٩٥) ، وزاد : (ثم يدعوه إلى الباب من الإثم ، فلا يطيعه ، ويحدثُ عند ذٰلك خيراً ، فإذا رآه كذٰلك . . تركه) .

(٣) الرعاية (ص ١٩٥) .

فاشتغلَ معَهُ ليردَّ ضلالَهُ وهوَ يظنُّ أنَّ ذلكَ مصلحةٌ ، وهوَ غرضُ الضالِّ ليفوتَ عليهِ بقدْرِ تأخرِهِ .

فلمَّا مرَّ الثاني عليهِ . . نهاهُ واستوقفَهُ فوقفَ ، فدفعَ في نحرِ الضالِّ ولمْ يشتغلْ بالقتالِ واستعجلَ ، ففرحَ منهُ الضالُّ بقدْرِ توقُّفِهِ للدَّفعِ فيهِ .

ومرَّ بِهِ الثالثُ ، فلمْ يلتفتْ إليهِ ، ولمْ يشتغلْ بدفعِهِ ولا بقتالِهِ ، بلِ استمرَّ على ما كانَ ، فخابَ منهُ رجاؤُهُ بالكليَّةِ .

فمرَّ الرابعُ فلمْ يتوقَّفْ لهُ ، وأرادَ أنْ يغيظَهُ فزادَ في عجلتِهِ وتركَ التأنِّيَ في المشيِ .

فيوشكُ إنْ عادوا ومرُّوا عليهِ مرةً أخرىٰ أنْ يعاودَ الجميعَ إلا هـٰذا الأخيرَ ، فإنَّهُ لا يعاودُهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يزدادَ فائدةً باستعجالِهِ (١)

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : الشيطانُ إذا كانَ لا تُؤمنُ نزغاتُهُ . . فهلْ يجبُ الترصدُ لهُ قبلَ حضورِهِ للحذرِ منهُ ؛ انتظاراً لورودِهِ ، أمْ يجبُ التوكلُ على اللهِ ليكونَ هوَ الدافعَ لهُ ، أوْ يجبُ الاشتغالُ بالعبادةِ والغفلةُ عنهُ ؟ (٢)

قلنا : اختلفَ الناسُ فيهِ على ثلاثةِ أوجهٍ :

فذهبَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ البصرةِ إلى أنَّ الأقوياءَ قدِ استغنَوا عنِ الحذرِ مِنَ الشيطانِ ؛ لأنَّهُمُ انقطعوا إلى اللهِ تعالىٰ ، واشتغلوا بحبِّهِ ، فاعتزلَهُمُ الشيطانُ وأيسَ منهُمْ وخنسَ عنهُمْ ؛ كما أيسَ مِنْ ضعفاءِ العبادِ في الدعوةِ إلى الخمرِ والزنا ، فصارَتْ ملاذُّ الدنيا عندَهُمْ ـ وإنْ كانَتْ مباحةً ـ كالخمرِ والخنزيرِ ، وإذْ خلَوا مِنَ حبِّها بالكليَّةِ . . لمْ يبقَ للشيطانِ إليهِمْ سبيلٌ ، فلا حاجةَ بهِمْ إلى الحذرِ .

وذهبَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ الشامِ إلى أنَّ الترصدَ للحذرِ منهُ إنَّما يحتاجُ إليهِ مَنْ قلَّ يقينُهُ ، ونقصَ توكُّلُهُ ، فمَنْ أيقنَ بأنْ لا شريكَ للهِ في تدبيرِهِ . . فلا يحذرُ غيرَهُ ، ويعلمُ أنَّ الشيطانَ ذليلٌ مخلوقٌ ليسَ إليهِ أمرٌ ، ولا يكونُ إلا ما أرادَهُ اللهُ تعالىٰ ، فهو الضارُّ والنافعُ ، والعارفُ يستحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يحذرَ غيرَهُ ، فاليقينُ بالوحدانيَّةِ يغنيهِ عنِ الحذرِ .

وقالَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ العلمِ : لا بدَّ مِنَ الحذرِ مِنَ الشيطانِ .

وما ذكرَهُ البصريونَ مِنْ أنَّ الأقوياءَ قدِ استغنَوا عنِ الحذرِ ، وخلَتْ قلوبُهُمْ عنْ حبِّ الدنيا بالكلِّيَّةِ وهيَ وسيلةُ الشيطانِ . . يكادُ يكونُ غروراً ؛ إذِ الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ لمْ يتخلَّصوا مِنْ وساوسِ الشيطانِ ونزغاتِهِ ، فكيفَ يتخلَّصُ غيرُهُمْ ؟!

وليسَ كلُّ وسواسِ الشيطانِ مِنَ الشهواتِ وحبِّ الدنيا ، بلْ في صفاتِ اللهِ تعالىٰ وأسمائِهِ ، وفي تحسينِ البدعِ والضلالِ وغيرِ ذلكَ ، ولا ينجو أحدٌ مِنَ الخطرِ فيهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ على قلبي » (٣) ، معَ أنَّ شيطانَهُ قدْ أسلمَ ولا يأمرُهُ إلا بخيرٍ ، فمَنْ ظنَّ

---

(١) الرعاية (ص ١٩٥) .

(٢) الرعاية (ص ١٩٦) .

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٢) .

أنَّ اشتغالَهُ بحبِّ اللهِ أكثرُ مِنِ اشتغالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسائرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ . . فهوَ مغرورٌ ، ولمْ يؤمِّنْهُمْ ذلكَ مِنْ كيدِ الشيطانِ ؛ ولذلكَ لمْ يسلمْ منهُ آدمُ وحواءُ في الجنَّةِ التي هيَ دارُ الأمنِ والسرورِ بعدَ أنْ قالَ اللهُ تعالىٰ لهُما : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ معَ أنَّهُ لمْ يُنهَ إلا عنْ شجرةٍ واحدةٍ ، وأُطلقَ لهُ وراءَ ذلكَ ما أرادَ ، فإذا لمْ يأمنْ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ وهوَ في الجنةِ دارِ الأمنِ والسعادةِ مِنْ كيدِ الشيطانِ . . فكيفَ يجوزُ لغيرِهِ أنْ يأمنَ في دارِ الدنيا وهيَ منبعُ الفتنِ والمحنِ ومعدنُ الملاذِّ والشهواتِ المنهيِّ عنها ؟!

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ فيما أخبرَ عنهُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ .

ولذلكَ حذَّرَ اللهُ منهُ جميعَ الخلقِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ، والقرآنُ مِنْ أولِهِ إلىٰ آخرِهِ تحذيرٌ مِنَ الشيطانِ ؛ فكيفَ يُدَّعى الأمنُ منهُ ؟!

وأخذُ الحذرِ مِنْ حيثُ أمرَ اللهُ تعالىٰ بهِ لا ينافي الاشتغالَ بحبِّ اللهِ ؛ فإنَّ مِنَ الحبِّ لهُ امتثالَ أمرِهِ ، وقدْ أمرَ بالحذرِ مِنَ العدوِّ ، كما أمرَ بالحذرِ مِنَ الكفارِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ فإذا لزمَكَ بأمرِ اللهِ الحذرُ مِنَ العدوِّ الكافرِ وأنتَ تراهُ . . فبأنْ يلزمَكَ الحذرُ مِنْ عدوٍّ يراكَ ولا تراهُ أولىٰ ؛ ولذلكَ قالَ ابنُ محيريزٍ : (صيدٌ تراهُ ولا يراكَ يوشكُ أنْ تظفرَ بهِ ، وصيدٌ يراكَ ولا تراهُ يوشكُ أنْ يظفرَ بكَ)[1] ، فأشارَ إلى الشيطانِ ، فكيفَ وليسَ في الغفلةِ عنْ عداوةِ الكافرِ إلا قتلٌ هوَ شهادةٌ ، وفي إهمالِ الحذرِ مِنَ الشيطانِ التعرضُ للنارِ والعقابُ الأليمُ ؟!

فليسَ مِنَ الاشتغالِ باللهِ الإعراضُ عمَّا حذَّرَ اللهُ ، وبهِ يبطلُ مذهبُ الفرقةِ الثانيةِ في ظنِّهِمْ أنَّ ذلكَ قادحٌ في التوكلِ ؛ فإنَّ أخذَ الترسِ والسلاحِ ، وجمعَ الجنودِ ، وحفرَ الخندقِ . . لمْ يقدحْ في توكُّلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكيفَ يقدحُ في التوكُّلِ الخوفُ ممَّا خوَّفَ اللهُ بهِ ، والحذرُ ممَّا أمرَ اللهُ بالحذرِ منهُ ؟!

وقدْ ذكرنا في كتابِ التوكُّلِ ما يبيِّنُ غلطَ مَنْ ظنَّ أنَّ معنى التوكُّلِ النزوعُ عنِ الأسبابِ بالكليَّةِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ لا يناقضُ امتثالَ التوكُّلِ مهما اعتقدَ القلبُ أنَّ الضارَّ والنافعَ والمحييَ والمميتَ هوَ اللهُ تعالىٰ ، فكذلكَ يحذرُ الشيطانَ ويعتقدُ أنَّ المضلَّ والهاديَ هوَ اللهُ ؛ ويرى الأسبابَ وسائطَ مسخرةً كما ذكرناهُ في كتابِ التوكُّلِ ، وهـٰذا ما اختارَهُ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ[2] ، وهوَ الصحيحُ الذي يشهدُ لهُ نورُ العلمِ ، وما قبلَهُ يشبهُ أنْ يكونَ مِنْ كلامِ العبَّادِ الذينَ لمْ يغزُرْ علمُهُمْ ، ويظنُّونَ أنَّ ما يهجمُ عليهِمْ مِنَ الأحوالِ في بعضِ الأوقاتِ مِنَ الاستغراقِ باللهِ يستمرُّ على الدوامِ ، وهوَ بعيدٌ .

ثمَّ اختلفَتْ هـٰذهِ الفرقةُ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ في كيفيةِ الحذرِ :

فقالَ قومٌ : إذا حذَّرَنا اللهُ تعالى العدوَّ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ شيءٌ أغلبَ علىٰ قلوبِنا مِنْ ذكرِهِ والحذرِ منهُ والترصدِ لهُ ؛ فإنَّا إنْ غفلنا عنهُ لحظةً . . فيوشكُ أنْ يهلكَنا .

---

(١) الرعاية (ص ٢٠٠) بنحوه .

(٢) كما في « الرعاية » (ص ١٩٦ ـ ٢٠٢) .

وقالَ قومٌ : إنَّ ذٰلكَ يؤدي إلىٰ خلوِّ القلبِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، واشتغالِ الهمِّ كلِّهِ بالشيطانِ ، وذٰلكَ مرادُ الشيطانِ منَّا ، بلْ نشتغلُ بالعبادةِ وبذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ولا ننسى الشيطانَ وعداوتَهُ ، والحاجةَ إلى الحذرِ منهُ ؛ فنجمعُ بينَ الأمرين فإنَّا إنْ نسيناهُ . . ربَّما عرضَ مِنْ حيثُ لا نحتسبُ ، وإنْ تجردنا لذكرِهِ . . كنَّا قدْ أهملنا ذكرَ اللهِ ، فالجمعُ أولىٰ .

وقالَ العلماءُ المحققونَ : غلطَ الفريقانِ ، أمَّا الأولُ . . فقدْ تجرَّدَ لذكرِ الشيطانِ ونسيَ ذكرَ اللهِ ، فلا يخفىٰ غلطُهُ ، وإنَّما أُمرنا بالحذرِ مِنَ الشيطانِ ؛ كي لا يصدَّنا عنِ الذكرِ ، فكيفَ نجعلُ ذكرَهُ أغلبَ الأشياءِ علىٰ قلوبِنا وهوَ منتهىٰ غرضِ العدوِّ ؟! ثمَّ يؤدي ذٰلكَ إلىٰ خلوِّ القلبِ عنْ نورِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فإذا قصدَ الشيطانُ مثلَ هٰذا القلبِ وليسَ فيهِ نورُ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وقوةُ الاشتغالِ بهِ . . فيوشكُ أنْ يظفرَ بهِ ، ولا يقوىٰ علىٰ دفعِهِ ، فلمْ نُؤمرْ بانتظارِ الشيطانِ ولا بإدمانِ ذكرِهِ .

وأمَّا الفرقةُ الثانيةُ : فقدْ شاركَتِ الأولىٰ ؛ إذْ جمعَتْ في القلبِ بينَ ذكرِ اللهِ والشيطانِ ، وبقدْرِ ما يشتغلُ القلبُ بذكرِ الشيطانِ ينقصُ مِنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ أمرَ اللهُ الخلقَ بذكرِهِ ونسيانِ ما عداهُ ؛ إبليسَ وغيرَهُ .

فالحقُّ : أنْ يلزمَ العبدُ قلبَهُ الحذرَ مِنَ الشيطانِ ، ويقرِّرَ علىٰ نفسِهِ عداوتَهُ ، فإذا اعتقدَ ذٰلكَ وصدقَ بهِ ، وسكنَ الحذرُ فيهِ . . فليشتغلْ بذكرِ اللهِ ، ويكبَّ عليهِ بكلِّ الهمةِ ، ولا يخطِرْ ببالِهِ أمرَ الشيطانِ ؛ فإنَّهُ إذا اشتغلَ بذٰلكَ بعدَ معرفةِ عداوتِهِ ثمَّ خطرَ الشيطانُ لهُ . . تنبهَ لهُ ، وعندَ التنبُّهِ يشتغلُ بدفعِهِ ، والاشتغالُ بذكرِ اللهِ لا يمنعُ مِنَ التيقُّظِ عندَ نزغةِ الشيطانِ ، بلِ الرجلُ ينامُ وهوَ خائفٌ مِنْ أنْ يفوتَهُ مهمٌّ عندَ طلوعِ الصبحِ ، فيلزمُ نفسَهُ الحذرَ ، وينامُ علىٰ أنْ يتنبَّهَ في ذٰلكَ الوقتِ ، فينتبهُ في الليلِ مراتٍ قبلَ أوانِهِ ؛ لما استكنَّ في قلبِهِ مِنَ الحذرِ ، معَ أنَّهُ بالنومِ غافلٌ عنهُ ، فاشتغالُهُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ كيفَ يمنعُ تنبُّهَهُ ؟! ومثلُ هٰذا القلبِ هوَ الذي يقوىٰ علىٰ دفعِ العدوِّ إذا كانَ اشتغالُهُ بمجرَّدِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ قدْ أماتَ منهُ الهوىٰ ، وأحيا فيهِ نورَ العقلِ والعلمِ ، وأماطَ عنهُ ظلمةَ الشهواتِ .

فأهلُ البصيرةِ أشعروا قلوبَهُمْ عداوةَ الشيطانِ وترصُّدَهُ ، وألزموها الحذرَ ، ثمَّ لمْ يشتغلوا بذكرِهِ ، بلْ بذكرِ اللهِ ، ودفعوا بالذكرِ شرَّ العدوِّ واستضاؤوا بنورِ الذكرِ حتَّىٰ أبصروا خواطرَ العدوِّ ، فمثالُ القلبِ مثالُ بئرٍ أُريدَ تطهيرُها مِنَ الماءِ القذرِ ؛ ليتفجَّرَ منها الماءُ الصافي ، فالمشتغلُ بذكرِ الشيطانِ قدْ تركَ فيها الماءَ القذرَ ، والذي جمعَ بينَ ذكرِ الشيطانِ وذكرِ اللهِ قدْ نزحَ الماءَ القذرَ مِنْ جانبٍ ، ولٰكنَّهُ تركَهُ جارياً إليها مِنْ جانبٍ آخرَ ، فيطولُ تعبُهُ ، ولا تجفُّ البئرُ مِنَ الماءِ القذرِ ، والبصيرُ هوَ الذي جعلَ لمجرى الماءِ القذرِ سدّاً ، وملأَهُ بالماءِ الصافي ، فإذا جاءَ الماءُ القذرُ . . دفعَهُ بالسكرِ والسَّدِّ مِنْ غيرِ كلفةٍ ومؤنةٍ وزيادةِ تعبٍ .



بيان الرّخصة في قصد إظهار الطّاعات

اعلمْ : أنَّ في الإسرارِ للأعمالِ فائدةَ الإخلاصِ والنجاةِ مِنَ الرياءِ ، وفي الإظهارِ فائدةَ الاقتداءِ وترغيبِ الناسِ في الخيرِ ، ولٰكنْ فيهِ آفةُ الرياءِ ، قالَ الحسنُ : (قدْ علمَ المسلمونَ أنَّ السرَّ أحرزُ العملينِ)[(١)]

ولٰكنْ في الإظهارِ أيضاً فائدةٌ ، ولذٰلكَ أثنى اللهُ تعالىٰ على السرِّ والعلانيةِ ، فقالَ : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

والإظهارُ قسمانِ :

أحدُهُما : في نفسِ العملِ ، **والآخرُ** : بالتحدُّثِ بما عملَ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الأوّلُ : إظهارُ نفسِ العملِ :

كالصدقةِ في الملأ لترغيبِ الناسِ في ذٰلكَ ؛ كما رُويَ عنِ الأنصاريِّ الذي جاءَ بالصُّرَّةِ ، فتتابعَ الناسُ بالعطيةِ لمَّا رأَوهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سنَّ سنَّةً حسنةً فعُمِلَ بها . . كانَ لهُ أجرُها وأجرُ مَنِ اتَّبعَهُ »[(٢)]

وتجري سائرُ الأعمالِ هٰذا المجرىٰ مِنَ الصلاةِ والصيامِ والحجِّ والغزوِ وغيرِها ، ولٰكنَّ الاقتداءَ على الطباعِ في الصدقةِ أغلبُ .

نعم ؛ الغازي إذا همَّ بالخروجِ ، فاستعدَّ وشدَّ الرَّحلَ قبلَ القومِ تحريضاً لهُمْ على الحركةِ . . فذٰلكَ أفضلُ لهُ ؛ لأنَّ الغزوَ في أصلِهِ مِنْ أعمالِ العلانيةِ لا يمكنُ إسرارُهُ ، فالمبادرةُ إليهِ ليسَ مِنَ الإعلانِ ، بلْ هوَ تحريضٌ مجردٌ ، وكذٰلكَ الرجلُ قدْ يرفعُ صوتَهُ في صلاةِ الليلِ ؛ لينبِّهَ جيرانَهُ وأهلَهُ فيُقتدىٰ بهِ .

فكلُّ عملٍ لا يمكنُ إسرارُهُ ؛ كالحجِّ والجهادِ والجمعةِ . . فالأفضلُ المبادرةُ إليهِ وإظهارُ الرغبةِ فيهِ للتحريضِ ، بشرطِ ألا يكونَ فيهِ شوائبُ الرياءِ .

وأمَّا ما يمكنُ إسرارُهُ ؛ كالصدقةِ والصلاةِ ؛ فإنْ كانَ إظهارُ الصدقةِ يؤذي المتصدَّقَ عليهِ ويرغِّبُ الناسَ في الصدقةِ . . فالسرُّ أفضلُ ؛ لأنَّ الإيذاءَ حرامٌ ، فإنْ لمْ يكنْ فيهِ إيذاءٌ . . فقدِ اختلفَ الناسُ في الأفضلِ ، فقالَ قومٌ : السرُّ أفضلُ مِنَ العلانيةِ وإنْ كانَ في العلانيةِ قدوةٌ ، وقالَ قومٌ : السرُّ أفضلُ مِنْ علانيةٍ لا قدوةَ فيها ، أمَّا العلانيةُ للقدوةِ . . فأفضلُ مِنَ السرِّ ، ويدلُّ علىٰ ذٰلكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَ أنبياءَهُ بإظهارِ العملِ للاقتداءِ ، وخصَّهُمْ بمنصبِ النبوَّةِ ، ولا يجوزُ أنْ يُظنَّ بهِمْ أنَّهُمْ حُرِموا أفضلَ العملينِ ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عملَ بها » .

وقدْ رُويَ في بعضِ الحديثِ : أنَّ عملَ السرِّ يُضاعفُ علىٰ عملِ العلانيةِ سبعينَ ضعفاً ، ويُضاعفُ عملُ العلانيةِ إذا استنَّ بعاملِهِ علىٰ عملِ السرِّ سبعينَ ضعفاً[(٣)]

---

(١) الرعاية (ص ٢٦٤) ، وبنحوه رواه أحمد في « الزهد » (ص ٢١٢) .

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) .

(٣) الشطر الأول منه رواه البيهقي في « الشعب » (٦٣٩٤) عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وروىٰ أيضاً في « الشعب » (٦٦١٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « عمل السر أفضل من عمل العلانية ، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به » .

وهٰذا لا وجهَ للخلافِ فيهِ ؛ فإنَّهُ مهما انفكَّ القلبُ عنْ شوائبِ الرياءِ ، وتمَّ الإخلاصُ علىٰ وجهٍ واحدٍ في الحالتينِ . . فما يُقتدىٰ بهِ أفضلُ لا محالةَ ، وإنَّما يُخافُ مِنَ الظهورِ الرياءُ ، ومهما حصلَتْ شائبةُ الرياءِ . . لمْ ينفعْهُ اقتداءُ غيرِهِ ، وهلكَ بهِ ، فلا خلافَ في أنَّ السرَّ أفضلُ منهُ .

ولٰكنْ علىٰ مَنْ يظهرُ العملَ وظيفتانِ :

إحداهُما : أنْ يظهرَهُ حيثُ يعلمُ أنَّهُ يُقتدىٰ بهِ ، أوْ يظنُّ ذٰلكَ ظناً ، وربَّ رجلٍ يقتدي بهِ أهلُهُ دونَ جيرانِهِ ، وربَّما يقتدي بهِ جيرانُهُ دونَ أهلِ السوقِ ، وربَّما يقتدي بهِ أهلُ محلَّتِهِ ، وإنَّما العالمُ المعروفُ هوَ الذي يقتدي بهِ الناسُ كافَّةً ، فغيرُ العالمِ إذا أظهرَ بعضَ الطاعاتِ . . ربَّما نُسبَ إلى الرياءِ والنفاقِ ، وذمُّوهُ ولمْ يقتدوا بهِ ، فليسَ لهُ الإظهارُ مِنْ غيرِ فائدةٍ ، فإنَّما يصحُّ الإظهارُ بنيةِ القدوةِ ممَّنْ هوَ في محلِّ القدوةِ علىٰ مَنْ هوَ في محلِّ الاقتداءِ بهِ .

والثانيةُ : أنْ يراقبَ قلبَهُ ، فإنَّهُ ربَّما يكونُ فيهِ حبُّ الرياءِ الخفيِّ ، فيدعوهُ إلى الإظهارِ بعذرِ الاقتداءِ ، وإنَّما شهوتُهُ التجمُّلُ بالعملِ ، وبكونِهِ مقتدىً بهِ ، وهٰذا حالُ كلِّ مَنْ يظهرُ أعمالَهُ إلا الأقوياءَ المخلصينَ ، وقليلٌ ما هُمْ ، فلا ينبغي أنْ يخدعَ الضعيفُ نفسَهُ بذٰلكَ فيهلكَ وهوَ لا يشعرُ ، فإنَّ الضعيفَ مثالُهُ مثالُ الغريقِ الذي يحسنُ سباحةً ضعيفةً ، فنظرَ إلىٰ جماعةٍ مِنَ الغرقىٰ فرحمَهُمْ ، فأقبلَ عليهِمْ حتىٰ تشبَّثوا بهِ ، فهلكوا وهلكَ ، والغرقُ بالماءِ في الدنيا ألمُهُ ساعةٌ ، وليتَ كانَ الهلاكُ بالرياءِ مثلَهُ ، لا بلْ عذابُهُ دائمٌ مدةً مديدةً ، وهٰذهِ مزلَّةُ أقدامِ العبَّادِ والعلماءِ ، فإنَّهُمْ يتشبَّهونَ بالأقوياءِ في الإظهارِ ، ولا تقوىٰ قلوبُهُمْ على الإخلاصِ ، فتحبطُ أجورُهُمْ بالرياءِ .

والتفطُّنُ لذٰلكَ غامضٌ ، ومحكُّ ذٰلكَ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ قيلَ لهُ : أخفِ العملَ حتَّىٰ يقتديَ الناسُ بعابدٍ آخرَ مِنْ أقرانِكَ ، ويكونَ لكَ في السرِّ مثلُ أجرِ الإعلانِ ؛ فإنْ مالَ قلبُهُ إلىٰ أنْ يكونَ هوَ المقتدىٰ بهِ ، وهوَ المظهرَ للعملِ . . فباعثُهُ الرياءُ دونَ طلبِ الأجرِ واقتداءِ الناسِ بهِ ورغبتِهِمْ في الخيرِ ، فإنَّهُمْ قدْ رغبوا في الخيرِ بالنظرِ إلىٰ غيرِهِ ، وأجرُهُ قدْ توفَّرَ عليهِ معَ إسرارِهِ ، فما بالُ قلبِهِ يميلُ إلى الإظهارِ لولا ملاحظتُهُ لأعينِ الخلقِ ومراءاتِهِمْ ؟!

فليحذرِ العبدُ خِدعَ النفسِ ؛ فإنَّ النفسَ خدوعٌ ، والشيطانُ مترصِّدٌ ، وحبُّ الجاهِ على القلبِ غالبٌ ، وقلَّما تسلمُ الأعمالُ الظاهرةُ عنِ الآفاتِ ، فلا ينبغي أنْ يعدلَ بالسلامةِ شيئاً ، والسلامةُ في الإخفاءِ ، وفي الإظهارِ مِنَ الأخطارِ ما لا يقوىٰ عليهِ أمثالُنا ، فالحذرُ مِنَ الإظهارِ أولىٰ بنا وبجميعِ الضعفاءِ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثاني : أنْ يتحدَّثَ بما فعلَهُ بعدَ الفراغِ :

وحكمُهُ حكمُ إظهارِ العملِ نفسِهِ ، والخطرُ في هٰذا أشدُّ ؛ لأنَّ مؤنةَ النطقِ خفيفةٌ على اللسانِ ، وقدْ تجري في الحكايةِ زيادةٌ ومبالغةٌ ، وللنفسِ لذَّةٌ في إظهارِ الدعاوىٰ عظيمةٌ ، إلا أنَّهُ لوْ تطرَّقَ إليهِ الرياءُ . . لمْ يؤثِّرْ في إفسادِ العبادةِ الماضيةِ بعدَ الفراغِ منها ، فهوَ مِنْ هٰذا الوجهِ أهونُ .

والحكمُ فيهِ : أنَّ مَنْ قويَ قلبُهُ ، وتمَّ إخلاصُهُ ، وصغرَ الناسُ في عينِهِ ، واستوىٰ عندَهُ مدحُهُمْ وذمُّهُمْ ، وذكرَ ذٰلكَ عندَ مَنْ يرجو الاقتداءَ بهِ والرغبةَ في الخيرِ بسببِهِ . . فهوَ جائزٌ ، بلْ هوَ مندوبٌ إليهِ إنْ صفَتِ النيةُ ، وسلمَتْ عنْ جميعِ الآفاتِ ؛ لأنَّهُ ترغيبٌ في الخيرِ ، والترغيبُ في الخيرِ خيرٌ .

وقدْ نُقلَ مثلُ ذٰلكَ عنْ جماعةٍ مِنَ السلفِ الأقوياءِ ، قالَ سعدُ بنُ معاذٍ : (ما صلَّيتُ صلاةً منذُ أسلمتُ فحدثتُ

نفسي بغيرِها ، ولا تبعتُ جنازةً فحدَّثتُ نفسي بغيرِ ما هيَ قائلةٌ وما هوَ مقولٌ لها ، وما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ قولاً قطُّ إلا علمتُ أنَّهُ حقٌّ)(١)

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أبالي أصبحتُ على عسرٍ أوْ على يسرٍ ؛ لأنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)(٢)

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أصبحتُ على حالٍ فتمنَّيتُ أنْ أكونَ على غيرِها)(٣)

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما تغنَّيتُ ، ولا تمنَّيتُ ، ولا مسستُ ذكرِي بيميني منذُ بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)(٤)

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : (ما تكلَّمتُ بكلمةٍ منذُ أسلمتُ حتَّى أزمَّها وأخطمَها غيرَ هٰذهِ) ، وكانَ قدْ قالَ لغلامِهِ : (ائتنا بالسُّفرةِ لنعبثَ بها حتَّى ندركَ الغداءَ)(٥)

وقالَ أبو سفيانَ لأهلِهِ حينَ حضرَهُ الموتُ : (لا تبكوا عليَّ ؛ فإنِّي ما أحدثتُ ذنباً منذُ أسلمتُ)(٦)

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ تعالى : (ما قضى اللهُ لي بقضاءٍ قطُّ فسرَّني أنْ يكونَ قضى لي بغيرِهِ ، وما أصبحَ لي هوىً إلا في مواقعِ قدرِ اللهِ)(٧)

فهٰذا كلُّهُ إظهارٌ لأحوالٍ شريفةٍ ، وفيها غايةُ المراءاةِ إذا صدرَتْ ممَّنْ يرائي بها ، وفيها غايةُ الترغيبِ إذا صدرَتْ ممَّنْ يُقتدى بهِ ، فذٰلكَ على قصدِ الاقتداءِ جائزٌ للأقوياءِ بالشروطِ التي ذكرناها ، فلا ينبغي أنْ يُسدَّ بابُ إظهارِ الأعمالِ والطباعُ مجبولةٌ على حبِّ التشبُّهِ والاقتداءِ ، بلْ إظهارُ المرائي للعبادةِ إذا لمْ يعلمِ الناسُ أنَّهُ رياءٌ فيهِ خيرٌ كثيرٌ للناسِ ، ولٰكنَّهُ شرٌّ للمرائي ، فكمْ مِنْ مخلصٍ كانَ سببُ إخلاصِهِ الاقتداءَ بمَنْ هوَ مراءٍ عندَ اللهِ تعالى .

وقدْ رُويَ أنَّهُ كانَ يجتازُ الإنسانُ في سككِ البصرةِ عندَ الصبحِ ، فيسمعُ أصواتَ المصلينَ بالقرآنِ مِنَ البيوتِ ، فصنَّفَ بعضُهُمْ كتاباً في دقائقِ الرياءِ ، فتركوا ذٰلكَ ، وتركَ الناسُ الرغبةَ فيهِ ، فكانوا يقولونَ : ليتَ ذٰلكَ الكتابَ لمْ يُصنَّفْ(٨)

فإظهارُ المرائي فيهِ خيرٌ كثيرٌ لغيرِهِ إذا لمْ يُعرفْ رياؤُهُ ، فإنَّ اللهَ يؤيِّدُ هٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ وبأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ كما وردَ في الأخبارِ(٩) ، وبعضُ المرائينَ ممَّن يُقتدى بهِ منهُمْ ، واللهُ تعالى أعلمُ .

* * *

---

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٢٤٩٨) بنحوه .

(٢) الرعاية (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٠٤/٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥) من زيادات نعيم بن حماد .

(٤) رواه ابن ماجه (٣١١) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١٤) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٣٤) .

(٧) الرعاية (ص ٢٦٢) ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٤٦) .

(٨) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٣٠٥/٨) .

(٩) تقدم حديث : « إن الله يؤيد هٰذا الدين . . . » الذي رواه البخاري (٤٢٠٣) ، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم حديث : « إن الله ليؤيد الدين بأقوام . . . » الذي رواه النسائي في « الكبرى » (٨٨٣٤) .

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطّلاع الناس عليها وكراهة ذمّهم له

اعلمْ : أنَّ الأصلَ في الإخلاصِ استواءُ السريرةِ والعلانيةِ ، كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لرجلٍ : عليكَ بعملِ العلانيةِ ، قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ وما عملُ العلانيةِ ؟ قالَ : ما إذا اطُّلِعَ عليكَ . . لمْ تستحيِ مِنهُ[1]

وقالَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ : (ما عملتُ عملاً أبالي أنْ يطَّلعَ الناسُ عليهِ إلا إتياني أهلي ، والبولَ ، والغائطَ)[2]

إلا أنَّ هـٰذهِ درجةٌ عظيمةٌ لا ينالُها كلُّ أحدٍ ، ولا يخلو الإنسانُ عنْ ذنوبٍ بقلبِهِ أوْ بجوارحِهِ وهوَ يخفيها ويكرهُ اطلاعَ الناسِ عليها ، لا سيَّما ما تختلجُ بهِ الخواطرُ في الشهواتِ والأمانيِّ ، واللهُ مطَّلعٌ علىٰ جميعِ ذٰلكَ ، فإرادةُ العبدِ لإخفائِها عن العبيدِ ربَّما يُظنُّ أنَّهُ رياءٌ محظورٌ ، وليسَ كذٰلكَ ، بلِ المحظورُ أنْ يسترَ ذٰلكَ ليرى الناسُ أنَّهُ وَرِعٌ وأنَّهُ خائفٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ معَ أنَّهُ ليسَ كذٰلكَ .

فهـٰذا هوَ سترُ المرائي .

وأمَّا الصادقُ الذي لا يرائي . . فلهُ سترُ المعاصي ، ويصحُّ قصدُهُ فيهِ ، ويصحُّ اغتمامُهُ باطلاعِ الناسِ عليهِ مِنْ ثمانيةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : هوَ أنْ يفرحَ بسترِ اللهِ عليهِ ، وإذا افتضحَ . . اغتمَّ بهتكِ اللهِ سترَهُ ، وخافَ أنْ يهتكَ سترَهُ في القيامةِ ؛ إذْ وردَ في الخبرِ : أنَّ مَنْ سترَ اللهُ عليهِ في الدنيا ذنباً . . سترَ عليهِ في الآخرةِ[3] ، وهـٰذا غمٌّ ينشأُ مِنْ قوَّةِ الإيمانِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنَّهُ قدْ علمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يكرهُ ظهورَ المعاصي ، ويحبُّ سترَها ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ارتكبَ مِنْ هـٰذهِ القاذوراتِ شيئاً . . فليستترْ بسترِ اللهِ »[4] ، فهوَ وإنْ عصى اللهَ بالذنبِ فلمْ يخلُ قلبُهُ عنْ محبةِ ما أحبَّهُ اللهُ ، وهـٰذا ينشأُ مِنْ قوَّةِ الإيمانِ بكراهةِ اللهِ ظهورَ المعاصي ، وأثرُ الصدقِ فيهِ أنْ يكرهَ ظهورَ الذنبِ مِنْ غيرِهِ أيضاً ، ويغتمَّ بسببِهِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يكرهَ ذمَّ الناسِ لهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّ ذٰلكَ يغمُّهُ ويشغلُ قلبَهُ وعقلَهُ عنْ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ الطبعَ يتأذَّىٰ بالذمِّ ، وينازعُ العقلَ ، ويشغلُ عنِ الطاعةِ ، وبهـٰذهِ العلةِ أيضاً ينبغي أنْ يكرهَ الحمدَ الذي يشغلُهُ عنِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويستغرقُ قلبَهُ ويصرفُهُ عنِ الذكرِ ، وهـٰذا أيضاً مِنْ قوَّةِ الإيمانِ ؛ إذْ صدقُ الرغبةِ في فراغِ القلبِ لأجلِ الطاعةِ مِنَ الإيمانِ .

❁ ❁ ❁

(١) الرعاية (ص ٢٧٩) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٠٦/٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .
(٢) بنحوه رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢) من زيادات نعيم بن حماد ، وبلفظه هو في « الرعاية » (ص ٢٧٩) .
(٣) رواه مسلم (٢٥٩٠) .
(٤) رواه مالك في « الموطأ » (٨٢٥/٢) عن زيد بن أسلم مرسلاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٣٨٣/٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

الرابعُ : أنْ يكونَ سترُهُ ورغبتُهُ فيهِ لكراهتِهِ لذمِّ الناسِ مِنْ حيثُ يتأذىٰ طبعُهُ ، فإنَّ الذمَّ مؤلمٌ للقلبِ ، كما أنَّ الضربَ مؤلمٌ للبدنِ ، وخوفُ تألُّمِ القلبِ بالذمِّ ليسَ بحرامٍ ، ولا الإنسانُ بهِ عاصٍ ، وإنَّما يعصي إذا جزعَتْ نفسُهُ مِنْ ذمِّ الناسِ ودعَتْهُ إلىٰ ما لا يجوزُ حذراً مِنْ ذمِّهِمْ ، وليسَ يجبُ على الإنسانِ ألا يغتمَّ بذمِّ الخلقِ ولا يتألَّمَ بهِ .

نعمْ ؛ كمالُ الصدقِ في أنْ تزولَ رؤيتُهُ للخلقِ ، فيستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ؛ لعلمِهِ أنَّ الضارَّ والنافعَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ ، وأنَّ العبادَ كلَّهُمْ عاجزونَ ، وذٰلكَ قليلٌ جداً ، وأكثرُ الطباعِ تتألَّمُ بالذمِّ ؛ لما فيهِ مِنَ الشعورِ بالنقصانِ ، ورُبَّ تألُّمٍ بالذمِّ محمودٌ إذا كانَ الذامُّ مِنْ أهلِ البصيرةِ في الدينِ ، فإنَّهُمْ شهداءُ اللهِ ، وذمُّهُمْ يدلُّ علىٰ ذمِّ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ نقصانٍ في الدينِ ، فكيفَ لا يغتمُّ بهِ ؟!

نعم ؛ الغمُّ المذمومُ هوَ أنْ يغتمَّ لفواتِ الحمدِ بالورعِ ؛ كأنَّهُ يحبُّ أنْ يُحمدَ بالورعِ ، ولا يجوزُ أنْ يحبَّ أنْ يُحمدَ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فيكونُ قدْ طلبَ بطاعةِ اللهِ ثواباً مِنْ غيرِهِ ، فإنْ وجدَ ذٰلكَ في نفسِهِ . . وجبَ عليهِ أنْ يقابلَهُ بالكراهةِ والردِّ ، وأمَّا كراهتُهُ الذمَّ بالمعصيةِ مِنْ حيثُ الطبعُ . . فليسَ بمذمومٍ ، فلهُ السترُ حذراً مِنْ ذٰلكَ .

ويُتصوَّرُ أنْ يكونَ العبدُ بحيثُ لا يحبُّ الحمدَ ، ولٰكنْ يكرهُ الذمَّ ، وإنَّما مرادُهُ أنْ يتركَهُ الناسُ حمداً وذمّاً ، فكمْ مِنْ صابرٍ عنْ لذَّةِ الحمدِ لا يصبرُ علىٰ ألمِ الذمِّ ؛ إذِ الحمدُ يُطلبُ للذَّةِ ، وعدمُ اللذَّةِ لا يؤلمُ ، وأمَّا الذمُّ . . فإنَّهُ مؤلمٌ ، فحبُّ الحمدِ على الطاعةِ طلبُ ثوابٍ على الطاعةِ في الحالِ ، وأما كراهةُ الذمِّ على المعصيةِ . . فلا محذورَ فيهِ إلا أمرٌ واحدٌ ؛ وهوَ أنْ يشغلَهُ غمُّهُ باطلاعِ الناسِ علىٰ ذنبِهِ عنِ اطلاعِ اللهِ ، فإنَّ ذٰلكَ غايةُ النقصانِ في الدينِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ غمُّهُ باطلاعِ اللهِ وذمِّهِ لهُ أكثرَ (١)

❁ ❁ ❁

الخامسُ : أن يكرهَ الذمَّ مِنْ حيثُ إنَّ الذامَّ قدْ عصى اللهَ تعالىٰ بهِ ، وهٰذا مِنَ الإيمانِ ، وعلامتُهُ : أنْ يكرهَ ذمَّهُ لغيرِهِ أيضاً ، فهٰذا التوجُّعُ لا يُفرِّقُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ ، بخلافِ التوجُّعِ مِنْ جهةِ الطبعِ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : أنْ يسترَ ذٰلكَ كي لا يُقصدَ بشرٍّ إذا عُرِفَ ذنبُهُ ، وهٰذا وراءَ ألمِ الذمِّ ، فإنَّ الذمَّ مؤلمٌ مِنْ حيثُ يشعرُ القلبُ بنقصانِهِ وخستِهِ ، وإنْ كانَ ممَّنْ يُؤمنُ شرُّهُ ، وقدْ يخافُ شرَّ مَنْ يطلعُ علىٰ ذنبِهِ بسببٍ مِنَ الأسبابِ ، فلهُ أنْ يسترَ ذٰلكَ حذراً مِنهُ .

❁ ❁ ❁

السابعُ : مجردُ الحياءِ ؛ فإنَّهُ نوعُ ألمٍ وراءَ ألمِ الذمِّ والقصدِ بالشرِّ ، وهو خُلُقٌ كريمٌ يحدثُ في أوَّلِ الصِّبا مهما أشرقَ عليهِ نورُ العقلِ ، فيستحيي مِنَ القبائحِ إذا شُوهِدَتْ منهُ ، وهوَ وصفٌ محمودٌ ؛ إذ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ خيرٌ كلُّهُ » (٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ » (٣)

---

(١) لأن شغله باطلاع الخلق لا يزيده إلا غماً ، بخلاف شغله باطلاع الله ، فإنه يزيده رهبة ويجره إلى التوبة . « إتحاف » (٨/٣٠٧) .
(٢) رواه مسلم (٣٧/٦١) .
(٣) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ لا يأتي إلا بخيرٍ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الحييَّ الحليمَ »[2]

فالذي يفسقُ ولا يبالي أنْ يظهرَ فسقُهُ للناسِ . . جمعَ إلى الفسقِ التهتُّكَ والوقاحةَ وفقدَ الحياءِ ، فهوَ أشدُّ حالاً ممَّنْ يستترُ ويستحيي .

إلا أنَّ الحياءَ ممتزجٌ بالرياءِ ، ومشتبهٌ بهِ اشتباهاً عظيماً قلَّ مَنْ يتفطَّنُ لهُ ، ويدَّعي كلُّ مراءٍ أنَّهُ مستحيٍ ، وأن سببَ تحسينِهِ العباداتِ هوَ الحياءُ مِنَ الناسِ ، وذٰلكَ كذبٌ ، بلِ الحياءُ خُلُقٌ ينبعثُ مِنَ الطبعِ الكريمِ ، وتهيجُ عقيبَهُ داعيةُ الرياءِ وداعيةُ الإخلاصِ ، ويُتصوَّرُ أنْ يُخلَصَ معَهُ ، ويُتصوَّرُ أنْ يُراءىٰ معَهُ .

وبيانُهُ : أنَّ الرجلَ يطلبُ مِنْ صديقٍ لهُ قرضاً ونفسُهُ لا تسخو بإقراضِهِ ، إلا أنَّهُ يستحيي مِنْ ردِّهِ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ راسلَهُ علىٰ لسانِ غيرِهِ . . لكانَ لا يستحيي ، ولا يقرضُ رياءً ولا لطلبِ الثوابِ ، فلهُ عندَ ذٰلكَ أحوالٌ ، أحدُها : أنْ يشافهَ بالردِّ الصريحِ ولا يبالي ، فيُنسبَ إلىٰ قلَّةِ الحياءِ ، وهٰذا فعلُ مَنْ لا حياءَ لهُ ، فإنَّ المستحييَ إمَّا أنْ يتعلَّلَ أوْ يقرضَ ، فإنْ أعطىٰ . . فيُتصوَّرُ لهُ ثلاثةُ أحوالٍ :

أحدُها : أنْ يُمزجَ الرياءُ بالحياءِ ، بأنْ يهيجَ الحياءُ ، فيقبحَ عندَهُ الردُّ ، فيهيجَ خاطرُ الرياءِ ، ويقولَ : ينبغي أنْ تُعطيَ حتَّىٰ يُثنيَ عليكَ ويحمدَكَ ، وينشرَ اسمَكَ بالسخاءِ ، أوْ ينبغي أنْ تعطيَ حتَّىٰ لا يذمَّكَ ولا ينسبَكَ إلى البخلِ ، فإذا أعطىٰ . . فقدْ أعطىٰ بالرياءِ ، وكانَ المحرِّكُ للرياءِ هوَ هيجانَ الحياءِ .

الثاني : أن يتعذَّرَ عليهِ الردُّ بالحياءِ ويبقىٰ في نفسِهِ البخلُ ، فيتعذَّرُ الإعطاءُ ، فيهيجُ باعثُ الإخلاصِ ويقولُ لهُ : إنَّ الصدقةَ بواحدةٍ والقرضَ بثمانيةَ عشرَ ، ففيهِ أجرٌ عظيمٌ ، وإدخالُ سرورٍ علىٰ قلبِ صديقٍ ، وذٰلكَ محمودٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فتسخو النفسُ بالإعطاءِ لذٰلكَ ، فهٰذا مخلصٌ هيَّجَ الحياءُ إخلاصَهُ .

الثالثُ : ألا يكونَ لهُ رغبةٌ في الثوابِ ، ولا خوفٌ مِنْ مذمَّتِهِ ، ولا حبٌّ لمحمدتِهِ ؛ لأنَّهُ لوْ طلبَهُ مراسلةً . . لكانَ لا يعطيهِ ، فأعطاهُ بمحضِ الحياءِ ، وهو ما يجدُهُ في قلبِهِ مِنْ ألمِ الحياءِ ، ولولا الحياءُ . . لردَّهُ ، ولوْ جاءَهُ مَنْ لا يستحي منهُ مِنَ الأجانبِ أوِ الأراذلِ . . لكانَ يردُّهُ وإنْ كثُرَ الحمدُ والثوابُ فيهِ ، فهٰذا مجردُ الحياءِ ، ولا يكونُ هٰذا إلا في القبائحِ ؛ كالبخلِ ومقارفةِ الذنوبِ ، والمرائي يستحي مِنَ المباحاتِ أيضاً ، حتَّىٰ إنَّهُ يُرىٰ مستعجلاً في المشيِ فيعودُ إلى الهدوءِ ، أوْ ضاحكاً فيرجعُ إلى الانقباضِ ، ويزعمُ أنَّ ذٰلكَ حياءٌ ، وهوَ عينُ الرياءِ .

وقدْ قيلَ : إنَّ بعضَ الحياءِ ضعفٌ ، وهوَ صحيحٌ ، والمرادُ بهِ الحياءُ ممَّا ليسَ بقبيحٍ ؛ كالحياءِ مِنْ وعظِ الناسِ ، وإمامةِ الناسِ في الصلاةِ ، وهوَ في النساءِ والصبيانِ محمودٌ ، وفي العقلاءِ غيرُ محمودٍ ، وقدْ تشاهدُ معصيةً مِنْ شيخٍ فتستحيي مِنْ شيبتِهِ أنْ تنكرَ عليهِ ؛ لأنَّ مِنْ إجلالِ اللهِ إجلالَ ذي الشيبةِ المسلمِ ، وهٰذا الحياءُ حسنٌ ، وأحسنُ مِنهُ أنْ تستحييَ مِنَ اللهِ فلَا تضيِّعَ الأمرَ بالمعروفِ ، فالقويُّ يؤثرُ الحياءَ مِنَ اللهِ على الحياءِ مِنَ الناسِ ، والضعيفُ قدْ لا يقدرُ عليهِ[3]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٤) مرسلاً من حديث عمرو بن دينار ، وعند مسلم (٢٩٦٥) مرفوعاً : « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي » .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/١٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً سأل فاطمة رضي الله عنها فحدثته به .

(٣) الرعاية (ص ٢٨٣) .

فهٰذهِ هيَ الأسبابُ التي يجوزُ لأجلِها سترُ القبائحِ والذنوبِ .

❁ ❁ ❁

الثامنُ : أنْ يخافَ مِنْ ظهورِ ذنبِهِ أنْ يستجرئَ عليهِ غيرُهُ ويقتديَ بهِ ، وهٰذهِ العلةُ الواحدةُ فقطْ هيَ الجاريةُ في إظهارِ الطاعةِ ، وهوَ القدوةُ ، ويختصُّ ذٰلكَ بالأئمةِ أو بمَنْ يُقتدىٰ بهِ ، وبهٰذهِ العلَّةِ ينبغي أنْ يخفيَ العاصي أيضاً معصيتَهُ عنْ أهلِهِ وولدِهِ ؛ لأنَّهُمْ يتعلَّمونَ منهُ .

ففي سترِ الذنبِ هٰذهِ الأعذارُ الثمانيةُ ، وليسَ في إظهارِ الطاعةِ عذرٌ إلا هٰذا العذرُ الواحدُ ، ومهما قصدَ بسترِ المعصيةِ أنْ يخيّلَ إلى الناسِ أنَّهُ ورعٌ . . كانَ مرائياً ؛ كما إذا قصدَ ذٰلكَ بإظهارِ الطاعةِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهلْ يجوزُ للعبدِ أنْ يحبَّ حمدَ الناسِ لهُ بالصلاحِ وحبَّهُمْ إيَّاهُ بسببِهِ ، وقدْ قالَ رجلٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : دلَّني علىٰ عملٍ يحبُّني اللهُ عليهِ ويحبُّني الناسُ ، قالَ : « ازهدْ في الدنيا يُحبَّكَ اللهُ ، وانبذْ إليهِمْ هٰذا الحطامَ يحبُّوكَ » ؟[1]

فنقولُ : حبُّكَ لحبِّ الناسِ لكَ قدْ يكونُ مباحاً ، وقدْ يكونُ محموداً ، وقدْ يكونُ مذموماً ، فالمحمودُ : أنْ تحبَّ ذٰلكَ لتعرفَ بهِ حبَّ اللهِ لكَ ، فإنَّهُ تعالىٰ إذا أحبَّ عبداً . . حبَّبَهُ في قلوبِ عبادِهِ ، والمذمومُ : أنْ تحبَّ حبَّهُمْ وحمدَهُمْ علىٰ حجِّكَ وغزوِكَ وصلاتِكَ وعلىٰ طاعةٍ بعينِها ، فإنَّ ذٰلكَ طلبُ عوضٍ علىٰ طاعةِ اللهِ عاجلاً سوىٰ ثوابِ اللهِ ، والمباحُ : أنْ تحبَّ أنْ يحبُّوكَ لصفاتٍ محمودةٍ سوى الطاعاتِ المحمودةِ المعينةِ ، فحبُّكَ ذٰلكَ كحبِّكَ المالَ ؛ لأنَّ ملكَ القلوبِ وسيلةٌ إلى الأغراضِ كملكِ الأموالِ ، فلا فرقَ بينَهُما .

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٣٣) .

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلمْ : أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يتركُ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يكونَ مرائياً بِهِ ، وذٰلكَ غلطٌ وموافقةٌ للشيطانِ ، بلِ الحقُّ فيما يُتركُ مِنَ الأعمالِ وما لا يُتركُ لخوفِ الآفاتِ ما نذكرُهُ .

وهوَ أنَّ الطاعاتِ تنقسمُ :

إلىٰ ما لا لذَّةَ في عينِهِ : كالصلاةِ والصومِ والحجِّ والغزوِ ، فإنَّها مقاساةٌ ومجاهداتٌ إنَّما تصيرُ لذيذةً مِنْ حيثُ إنَّها توصلُ إلىٰ حمدِ الناسِ ، وحمدُ الناسِ لذيذٌ ، وذٰلكَ عندَ اطلاعِ الناسِ عليها .

وإلىٰ ما هوَ لذيذٌ : وهوَ أكثرُ ما لا يقتصرُ على البدنِ ، بلْ يتعلَّقُ بالخلقِ ؛ كالخلافةِ ، والقضاءِ ، والولاياتِ ، والحسبةِ ، وإمامةِ الصلاةِ ، والتذكيرِ ، والتدريسِ ، وإنفاقِ المالِ على الخلقِ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا تعظمُ الآفةُ فيهِ ؛ لتعلُّقِهِ بالخلقِ ، ولما فيهِ مِنَ اللذَّةِ .

❋ ❋ ❋

القسمُ الأولُ : الطاعاتُ اللازمةُ للبدنِ التي لا تتعلَّقُ بالغيرِ ولا لذَّةَ في عينِها :

كالصومِ ، والصلاةِ ، والحجِّ ، فخطراتُ الرياءِ فيها ثلاثٌ :

إحداها : ما يدخلُ قبلَ العملِ ، فيبعثُ على الابتداءِ لرؤيةِ الناسِ ، وليسَ معَهُ باعثُ الدينِ ، فهٰذا ممّا ينبغي أنْ يُتركَ ؛ لأنَّهُ معصيةٌ لا طاعةَ فيهِ ، فإنَّهُ تدرُّعٌ بصورةِ الطاعةِ إلىٰ طلبِ المنزلةِ ، فإنْ قدرَ الإنسانُ علىٰ أنْ يدفعَ عنْ نفسِهِ باعثَ الرياءِ ، ويقولُ لها : ألا تستحيينَ مِنْ مولاكِ ؟! لا تسخينَ بالعملِ لأجلِهِ وتسخينَ بالعملِ لأجلِ عبادِهِ ؟! حتَّىٰ يندفعَ باعثُ الرياءِ وتسخوَ النفسُ بالعملِ للهِ ؛ عقوبةً للنفسِ علىٰ خاطرِ الرياءِ ، وكفارةً لهُ ، فليشتغلْ بالعملِ .

الثانيةُ : أنْ ينبعثَ لأجلِ اللهِ ولٰكنْ يعترضُ الرياءُ معَ عقدِ العبادةِ وأوَّلِها ، فلا ينبغي أنْ يتركَ العملَ ؛ لأنَّهُ وجدَ باعثاً دينياً ، فليشرعْ في العملِ ، وليجاهدْ نفسَهُ في دفعِ الرياءِ وتحصيلِ الإخلاصِ بالمعالجةِ التي ذكرناها ؛ مِنْ إلزامِ النفسِ كراهةَ الرياءِ والإباءِ عنِ القبولِ .

الثالثةُ : أنْ يعقدَ على الإخلاصِ ، ثمَّ يطرأَ الرياءُ ودواعيهِ ، فينبغي أنْ يجاهدَ في الدفعِ ولا يتركَ العملَ ، لٰكنْ يرجعُ إلىٰ عقدِ الإخلاصِ ، ويردُّ نفسَهُ إليهِ قهراً حتَّىٰ يتِمَّ العملَ ؛ لأنَّ الشيطانَ يدعوكَ أوَّلاً إلىٰ تركِ العملِ ، فإذا لمْ تجبْ واشتغلتَ . . فيدعوكَ إلى الرياءِ ، فإذا لمْ تجبْ ودفعتَهُ . . يقولُ لكَ : هٰذا العملُ ليسَ بخالصٍ ، وأنتَ مُراءٍ ، وتعبُكَ ضائعٌ ، فأيُّ فائدةٍ لكَ في عملٍ لا إخلاصَ فيهِ ؛ حتَّىٰ يحملَكَ بذٰلكَ علىٰ تركِ العملِ ، فإذا تركتَهُ . . فقد حصلَ غرضُهُ .

ومثالُ مَنْ يتركُ العملَ لخوفِهِ أنْ يكونَ مرائياً ؛ كمَنْ سلَّمَ إليهِ مولاهُ حنطةً فيها زوانٌ[1] وقالَ : خلِّصْها مِنَ الزوانِ ونقِّها منهُ تنقيةً بالغةً ، فيتركُ أصلَ العملِ ويقولُ : أخافُ إنِ اشتغلتُ بهِ . . لمْ تخلصْ خلاصاً صافياً نقيّاً ، فيتركُ العملَ مِنْ أصلِهِ ، وهوَ تركٌ للإخلاصِ معَ أصلِ العملِ ، فلا معنىٰ لهُ .

---

(١) وهو حبٌّ يخالط البُر فيكسبه الرداءة . « إتحاف » (٨/٣١١) .

ومِنْ هٰذا القبيلِ أنْ يتركَ العملَ خوفاً مِنَ الناسِ أنْ يقولوا : (إنَّهُ مراءٍ) فيعصونَ اللهَ بهِ ، فهٰذا مِنْ مكايدِ الشيطانِ ؛ لأنَّهُ أوَّلاً أساءَ الظنَّ بالمسلمينَ ، وما كانَ مِنْ حقِّهِ أنْ يظنَّ بهِمْ ذٰلكَ ، ثمَّ إنْ كانَ . . فلا يضرُّهُ قولُهُمْ ، ويفوتُهُ ثوابُ العبادةِ ، وتركُ العملِ خوفاً مِنْ قولِهِمْ : (إنَّهُ مراءٍ) هوَ عينُ الرياءِ ، فلولا حبُّهُ لمحمدتِهِمْ وخوفُهُ مِنْ ذمِّهِمْ . . فما لهُ ولقولِهِمْ[1] ، قالوا : (إنَّهُ مراءٍ) أوْ قالوا : (إنَّهُ مخلصٌ) ؟ فأيُّ فرقٍ بينَ أنْ يتركَ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : (إنَّهُ مُراءٍ) ، وبينَ أنْ يحسنَ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : (إنَّهُ غافلٌ مقصِّرٌ) ؟! بلْ تركُ العملِ أشدُّ مِنْ ذٰلكَ .

فهٰذهِ كلُّها مكايدُ الشيطانِ على العبادِ الجهَّالِ .

ثمَّ كيفَ يطمعُ في أنْ يتخلَّصَ مِنَ الشيطانِ بأنْ يتركَ العملَ ، والشيطانُ لا يخليهِ ، بلْ يقولُ لهُ : (الآنَ يقولُ الناسُ : إنَّكَ تركتَ العملَ ليُقالَ : إنَّكَ مخلصٌ لا تشتهي الشهرةَ) ، فيضطرُّكَ بذٰلكَ إلىٰ أنْ تهربَ ، فإنْ هربتَ ودخلتَ سرباً تحتَ الأرضِ . . ألقىٰ في قلبِكَ حلاوةَ معرفةِ الناسِ بتزهُّدِكَ وهربِكَ منهُمْ ، وتعظيمِهِمْ لكَ بقلوبِهِمْ علىٰ ذٰلكَ ، فكيفَ تتخلَّصُ ؟ بلْ لا نجاةَ منهُ إلا بأنْ تلزمَ قلبَكَ معرفةَ آفةِ الرياءِ ، وهوَ أنَّهُ ضررٌ في الآخرةِ ولا نفعَ فيهِ في الدنيا ؛ لتلزمَ الكراهةَ والإباءَ قلبَكَ ، وتستمرَّ معَ ذٰلكَ على العملِ ولا تبالي وإنْ نزغَ العدوُّ ونازعَ الطبعُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لا ينقطعُ ، وتركُ العملِ لأجلِ ذٰلكَ يجرُّ إلى البطالةِ وتركِ الخيراتِ .

فما دمتَ تجدُ باعثاً دينياً على العملِ فلا تتركِ العملَ ، وجاهدْ خاطرَ الرياءِ ، وألزمْ قلبَكَ الحياءَ مِنَ اللهِ تعالىٰ إذا دعتْكَ نفسُكَ إلىٰ أنْ تستبدلَ بحمدِهِ حمدَ المخلوقينَ وهوَ مطلعٌ علىٰ قلبِكَ ، ولوِ اطلعَ الخلقُ علىٰ قلبِكَ وأنتَ تريدُ حمدَهُمْ . . لمقتوكَ ، بلْ إنْ قدرتَ علىٰ أنْ تزيدَ في العملِ حياءً مِنْ ربِّكَ وعقوبةً لنفسِكَ . . فافعلْ ، فإنْ قالَ لكَ الشيطانُ : أنتَ مراءٍ . . فاعلمْ كذبَهُ وخدعَهُ بما تصادفُ في قلبِكَ مِنْ كراهةِ الرياءِ وإبائِهِ ، وخوفِكَ منهُ وحيائِكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وإنْ لمْ تجدْ في قلبِكَ لهُ كراهيةً ومنهُ خوفاً ولمْ يبقَ باعثٌ دينيٌّ ، بلْ تجرَّدَ باعثُ الرياءِ . . فاتركِ العملَ عندَ ذٰلكَ ، وهوَ بعيدٌ ممَّنْ شرعَ في العملِ للهِ ، فإنَّهُ لا بدَّ أنْ يبقىٰ معَهُ أصلُ قصدِ الثوابِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ نُقلَ عنْ أقوامٍ تركُ العملِ مخافةَ الشهرةِ ، رُوِيَ أنَّ إبراهيمَ النخعيَّ دخلَ عليهِ إنسانٌ وهوَ يقرأُ ، فأطبقَ المصحفَ وتركَ القراءةَ وقالَ : (لا يرىٰ هٰذا أنَّا نقرأُ كلَّ ساعةٍ)[2]

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إذا أعجبَكَ الكلامُ . . فاسكتْ ، وإذا أعجبَكَ السكوتُ . . فتكلَّمْ)[3]

وقالَ الحسنُ : (إنْ كانَ أحدُهُمْ ليمرُّ بالأذىٰ على الطريقِ ما يمنعُهُ مِنْ رفعِهِ إلا كراهةُ الشهرةِ ، وكانَ أحدُهُمْ يأتيهِ البكاءُ فيصرفُهُ إلى الضحكِ مخافةَ الشُّهرةِ)[4]

وقدْ وردَ في ذٰلكَ آثارٌ كثيرةٌ .

---

(١) في هامش (ب) : (نسخة : لما سأل عنهم ، فما له ولقولهم) .

(٢) الرعاية (ص ٢٦٦) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٦٩٨) عن بشر بن الحارث الحافي .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨) .

قلنا : هاذا يعارضُهُ ما وردَ في إظهارِ الطاعاتِ ممَّا لا يُحصىٰ ، وإظهارُ الحسنِ البصريِّ هاذا الكلامَ في معرضِ الوعظِ أقربُ إلىٰ خوفِ الشهرةِ مِنَ البكاءِ ، وإماطةُ الأذىٰ عنِ الطريقِ نفلٌ ، ثمَّ لمْ يتركْهُ (١)

وبالجملةِ : تركُ النوافلِ جائزٌ ، والكلامُ في الأفضلِ ، والأفضلُ إنَّما يقدرُ عليهِ الأقوياءُ دونَ الضعفاءِ ، فالأفضلُ أنْ يتمَّ العملَ ويجتهدَ في الإخلاصِ ، ولا يتركَهُ ، وأربابُ الأعمالِ قدْ يعالجونَ أنفسَهُمْ بخلافِ الأفضلِ ؛ لشدَّةِ الخوفِ ، والاقتداءُ ينبغي أنْ يكونَ بالأقوياءِ .

وأمَّا إطباقُ إبراهيمَ النخعيِّ المصحفَ . . فيمكنُ أنْ يكونَ لعلمِهِ بأنَّهُ سيحتاجُ إلىٰ تركِ القراءةِ عندَ دخولِهِ واستئنافِها بعدَ خروجِهِ ؛ للاشتغالِ بمكالمتِهِ ، فرأىٰ ألا يراهُ في القراءةِ أبعدَ عنِ الرياءِ ، وهوَ عازمٌ على التركِ للاشتغالِ بهِ حتَّىٰ يعودَ إليهِ بعدَ ذٰلكَ .

وأمَّا تركُ رفعِ الأذىٰ عنِ الطريقِ . . فذٰلكَ ممَّنْ يخافُ علىٰ نفسِهِ آفةَ الشهرةِ ، وإقبالَ الناسِ عليهِ ، وشغلَهَمْ إيَّاهُ عنْ عباداتٍ هيَ أكبرُ مِنْ رفعِ خشبةٍ مِنَ الطريقَ ، فيكونُ تركُهُ للمحافظةِ علىٰ عباداتٍ هيَ أعظمُ منهُ ، لا لمجرَّدِ خوفِ الرياءِ .

وأمَّا قولُ التيميِّ : (إذا أعجبكَ الكلامُ . . فاسكتْ) فيجوزُ أنْ يكونَ قدْ أرادَ بهِ مباحاتِ الكلامِ ؛ كالفصاحةِ في الحكاياتِ وغيرِها ، فإنَّ ذٰلكَ يورثُ العجبَ ، وكذٰلكَ العجبُ بالسكوتِ المباحِ محذورٌ ، فهوَ عدولٌ مِنْ مباحٍ إلىٰ مباحٍ ؛ حذراً مِنَ العجبِ ، فأمَّا الكلامُ الحقُّ المندوبُ إليهِ . . فلمْ ينصَّ عليهِ علىٰ أنَّ الآفةَ ممَّا تعظمُ في الكلامِ ؛ فهوَ واقعٌ في القسمِ الثاني ، وإنَّما كلامُنا في العباداتِ الخاصَّةِ ببدنِ العبدِ ممَّا لا يتعلَّقُ بالناسِ ، ولا تعظمُ فيهِ الآفاتُ ، ثمَّ كلامُ الحسنِ في تركِهِمُ البكاءَ وإماطةَ الأذىٰ ؛ لخوفِ الشهرةِ ربَّما كانَ حكايةَ أحوالِ الضعفاءِ الذينَ لا يعرفونَ الأفضلَ ، ولا يدركونَ هاذهِ الدقائقَ ، وإنَّما ذكرَهُ تخويفاً للناسِ مِنْ آفةِ الشهرةِ ، وزجراً عنْ طلبِها .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثاني : ما يتعلَّقُ بالخلقِ ، وتعظمُ فيهِ الآفاتُ والأخطارُ :

وأعظمُها الخلافةُ ، ثمَّ القضاءُ ، ثمَّ التذكيرُ والتدريسُ والفتوىٰ ، ثمَّ إنفاقُ المالِ .

أمَّا الخلافةُ والإمارةُ . . فهيَ مِنْ أفضلِ العباداتِ إذا كانَتْ معَ العدلِ والإخلاصِ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيومٌ مِنْ إمامٍ عادلٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ الرجلِ وحدَهُ ستينَ عاماً » (٢) ، فأعظمْ بعبادةٍ يوازي يومٌ منها عبادةَ ستينَ سنةً !!

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ ثلاثةٌ » ، الإمامُ المقسطُ أحدُهُمْ (٣)

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ لا تُردُّ دعوتُهُمْ » الإمامُ العادلُ أحدُهُمْ (٤) .

---

(١) أي : لم يثبت عنه الترك ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٣١٢/٨) : (يقل) بدل (نفل) .

(٢) تقدم قريباً .

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥) ، وليس فيه ذكر الأولية ، بل هي عند الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٧٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٢٦) ، وابن ماجه (١٧٥٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقربُ الناسِ منّي مجلساً يومَ القيامةِ إمامٌ عادلٌ » ، رواهُ أبو سعيدٍ الخدريُّ [١]

فالإمارةُ والخلافةُ مِنْ أعظمِ العباداتِ ، ولمْ يزلِ المتقونَ يحترزونَ منها ويتركونَها ويهربونَ مِنْ تقلُّدِها ؛ وذلكَ لما فيهِ مِنْ عظمِ الخطرِ ؛ إذْ تتحرَّكُ بها الصفاتُ الباطنةُ ، ويغلبُ على النفسِ حبُّ الجاهِ ولذَّةُ الاستيلاءِ ونفاذُ الأمرِ ، وهوَ أعظمُ ملاذِّ الدنيا ، فإذا صارتِ الولايةُ محبوبةً . . كانَ الوالي ساعياً في حظِّ نفسِهِ ، ويوشكُ أنْ يتَّبعَ هواهُ ، فيمتنعَ مِنْ كلِّ ما يقدحُ في جاهِهِ وولايتِهِ وإنْ كانَ حقّاً ، ويقدمُ على ما يزيدُ في مكانتِهِ وإنْ كانَ باطلاً ، وعندَ ذلكَ يهلكُ ، ويكونُ يومٌ مِنْ سلطانٍ جائرٍ شرّاً مِنْ فسقِ ستّينَ سنةً ؛ بمفهومِ الحديثِ الذي ذكرناهُ !!

ولهذا الخطرِ العظيمِ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (مَنْ يأخذُها بما فيها ؟!) [٢]

وكيفَ لا وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ والي عشرةٍ إلا جاءَ يومَ القيامةِ مغلولةً يداهُ إلى عنقِهِ ، أطلقَهُ عدلُهُ أوْ أوبقَهُ جورُهُ » ، رواهُ معقلُ بنُ يسارٍ [٣]

وولَّاهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ولايةً [٤] ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أشِرْ عليَّ ، قالَ : اجلسْ واكتمْ عليَّ [٥]

وروى الحسنُ أنَّ رجلاً ولَّاهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : خِرْ لي ، قالَ : « اجلسْ » [٦]

وكذلكَ حديثُ عبدِ الرحمنِ بنِ سمرةَ ؛ إذْ قالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ الرحمنِ ؛ لا تسألِ الإمارةَ ، فإنَّكَ إنْ أُوتيتَها مِنْ غيرِ مسألةٍ . . أُعنتَ عليها ، وإنْ أُوتيتَها عنْ مسألةٍ . . وُكلتَ إليها » [٧]

وقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لرافعِ بنِ عمرَ : (لا تأمَّرْ على اثنينِ) ، ثمَّ وليَ هوَ الخلافةَ ، فقامَ بها ، فقالَ لهُ رافعٌ : ألمْ تقلْ لي : (لا تأمَّرْ على اثنينِ) وأنتَ قدْ وليتَ أمرَ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! فقالَ : بلى ، وأنا أقولُ لكَ ذلكَ ؛ فمَنْ لمْ يعدلْ فيها . . فعليهِ بهلةُ اللهِ ؛ يعني : لعنةَ اللهِ [٨]

ولعلَّ القليلَ البصيرةِ يرى ما وردَ في فضلِ الإمارةِ معَ ما وردَ مِنَ النهيِ عنها متناقضاً ، وليسَ كذلكَ ، بلِ **الحقُّ** فيهِ : أنَّ الخواصَّ الأقوياءَ في الدينِ لا ينبغي أنْ يمتنعوا مِنْ تقلُّدِ الولاياتِ ، وأنَّ الضعفاءَ لا ينبغي أنْ يدوروا بها فيهلكوا ، وأعني بالقويِّ : الذي لا تميلُهُ الدنيا ، ولا يستفزُّهُ الطمعُ ، ولا تأخذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، وهمُ الذينَ سقطَ الخلقُ مِنْ أعينِهِمْ ، وزهدوا في الدنيا وتبرَّموا بها وبمخالطةِ الخلقِ ، وقهروا أنفسَهُمْ وملكوها ، وقمعوا الشيطانَ فأيسَ منهُمْ ،

---

(١) رواه الترمذي (١٣٢٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨٠/٢) ضمن خبر طويل .

(٣) رواه ابنُ أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢٢٢) عن معقل بن يسار رضي الله عنه بلفظ : « ليس من والٍ يلي أمة قلَّت أو كثرت لا يعدل فيها . . إلا أكبَّهُ الله على وجهه في النار » ، وأصله عند البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (١٤٢) ، ولفظه : « ما من عبد استرعاه الله رعية ، فلم يحطها بنصيحة . . إلا لم يجد رائحة الجنة » . والحديث بلفظ المصنف رواه أحمد في « مسنده » (٤٣١/٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٦٥٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٨/٦) من حديث ثوبان رضي الله عنه ، ورواه أحمد في « مسنده » (٢٨٤/٥) من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه .

(٤) أي : معقل بن يسار رضي الله عنه ، وفي « الرعاية » (ص ٢٧٢) : (وولى عمر رجلاً) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١٦) ولم يصرح باسم المؤمَّر .

(٦) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١٧) .

(٧) رواه البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) .

(٨) رواه الطبراني في « الكبير » (٢١/٥) .

فهٰؤلاءِ لا يحركُهُمْ إلا الحقُّ ، ولا يسكنُهُمْ إلا الحقُّ ، ولوْ زهقَتْ فيهِ أرواحُهُمْ ، فهُمْ أهلُ نيلِ الفضلِ في الإمارةِ والخلافةِ ، ومَنْ علمَ أنَّهُ ليسَ بهٰذهِ الصفةِ . . فيحرمُ عليهِ الخوضُ في الولاياتِ .

ومَنْ جرَّبَ نفسَهُ فرآها صابرةً على الحقِّ ، كافَّةً عنِ الشهواتِ في غيرِ الولايةِ ، ولٰكنْ خافَ عليها أنْ تتغيَّرَ إذا ذاقَتْ لذَّةَ الولايةِ ، وأنْ تستحليَ الجاهَ وتستلذَّ نفاذَ الأمرِ فتكرهَ العزلَ ، فيداهنَ خيفةً مِنَ العزلِ . . فهٰذا قدِ اختلفَ العلماءُ في أنَّهُ هلْ يلزمُهُ الهربُ مِنْ تقلُّدِ الولايةِ ؟

فقالَ قائلونَ : لا يجبُ ؛ لأنَّ هٰذا خوفُ أمرٍ في المستقبلِ ، وهوَ في الحالِ لمْ يعهدْ نفسَهُ إلا قويّاً في ملازمةِ الحقِّ وتركِ لذاتِ النفسِ .

والصحيحُ : أنَّ عليهِ الاحترازَ ؛ لأنَّ النفسَ خدَّاعةٌ ، مدَّعيةٌ للحقِّ ، واعدةٌ بالخيرِ ، فلوْ وعدَتْ بالخيرِ جزماً . . لكانَ يُخافُ عليها أنْ تتغيَّرَ عندَ الولايةِ ، فكيفَ إذا أظهرَتِ التردُّدَ ؟ والامتناعُ عنْ قبولِ الولايةِ أهونُ مِنَ العزلِ بعدَ الشروعِ ، فالعزلُ مؤلمٌ ، وهوَ كما قيلَ : طلاقُ الرجالِ ، فإذا شرعَ . . لا تسمحُ نفسُهُ بالعزلِ ، وتميلُ نفسُهُ إلى المداهنةِ وإهمالِ الحقِّ ، وتهوي به في قعرِ جهنَّمَ ، ولا يستطيعُ النزوعَ منها إلى الموتِ ، إلا أنْ يُعزلَ قهراً ، وكانَ فيهِ عذابٌ عاجلٌ على كلِّ مَنْ يحبُّ الولايةَ ، ومهما مالَتِ النفسُ إلىٰ طلبِ الولايةِ ، وحملَتْ على السؤالِ والطلبِ . . فهوَ أمارةُ الشرِّ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّا لا نولِّي أمرَنا مَنْ سألَنا »(١) .

فإذا فهمتَ اختلافَ حكمِ القويِّ والضعيفِ . . عرفتَ أنَّ نهيَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لرافعٍ عنِ الولايةِ ثمَّ تقلُّدَهُ لها ليسَ بمتناقضٍ .

وأمَّا القضاءُ . . فهوَ وإنْ كانَ دونَ الخلافةِ والإمارةِ فهوَ في معناهُما ، فإنَّ كلَّ ذي ولايةٍ أميرٌ ؛ أيْ : لهُ أمرٌ نافذٌ ، والإمارةُ محبوبةٌ بالطبعِ ، والثوابُ في القضاءِ عظيمٌ معَ اتباعِ الحقِّ ، والعقابُ فيهِ أيضاً عظيمٌ معَ العدولِ عنِ الحقِّ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القضاةُ ثلاثةٌ ، واحدٌ في الجنةِ ، واثنانِ في النارِ »(٢) .

وقالَ : « مَنِ استُقضيَ . . فقدْ ذُبحَ بغيرِ سكينٍ »(٣) .

فحكمُهُ حكمُ الإمارةِ ، ينبغي أنْ يتركَهُ الضعفاءُ وكلُّ مَنْ للدنيا ولذاتِها وزنٌ في عينِهِ ، وليتقلدْهُ الأقوياءُ الذينَ لا تأخذُهُمْ في اللهِ لومةُ لائمٍ .

ومهما كانَ السلاطينُ ظلمةً ولمْ يقدرِ القاضي على القضاءِ إلا بمداهنتِهِمْ وإهمالِ بعضِ الحقوقِ لأجلِهِمْ ولأجلِ المتعلِّقينَ بهِمْ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ لوْ حكمَ عليهِمْ بالحقِّ لعزلوهُ ، أوْ لمْ يطيعوهُ . . فليسَ لهُ أنْ يتقلَّدَ القضاءَ ، وإنْ تقلَّدَهُ . . فعليهِ أنْ يطالبَهُمْ بالحقوقِ ، ولا يكونُ خوفُ العزلِ عذراً مرخِّصاً لهُ في الإهمالِ أصلاً ، بلْ إذا عُزلَ . . سقطَتِ العُهدةُ عنهُ ، فينبغي أنْ يفرحَ بالعزلِ إنْ كانَ يقضي للهِ ، فإنْ لمْ تسمحْ نفسُهُ بذٰلكَ . . فهوَ إذاً يقضي لاتباعِ الهوىٰ والشيطانِ ، فكيفَ يرتقبُ عليهِ ثواباً وهوَ معَ الظلمةِ في الدركِ الأسفلِ مِنَ النارِ ؟!

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٩) ، ومسلم (١٧٣٣) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٥٧٣) ، والترمذي (١٣٢٢/م) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٥٨٩١) ، وابن ماجه (٢٣١٥) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٢٧٣) ، وبلفظه رواه محمد بن خلف في « أخبار القضاة » (١٣/١) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٨٩٢) ، وابن ماجه (٢٣٠٨) .

وأمَّا الوعظُ ، والفتوىٰ ، والتدريسُ ، وروايةُ الحديثِ ، وجمعُ الأسانيدِ العاليةِ ، وكلُّ ما يتسعُ بسببِهِ الجاهُ ، ويعظمُ بِهِ القدرُ . . فآفتُهُ أيضاً عظيمةٌ مثلُ آفةِ الولاياتِ .

وقدْ كانَ الخائفونَ مِنَ السلفِ يتدافعونَ الفتوىٰ ما وجدوا إليهِ سبيلاً .

وكانوا يقولونَ : (« حدثَنا » بابٌ مِنْ أبوابِ الدنيا ، ومَنْ قالَ : « حدثَنا » . . فقدْ قالَ : أوسعوا لي)(١)

ودفنَ بشرٌ كذا وكذا قمطرةً مِنَ الحديثِ ، وقالَ : (يمنعُني مِنَ الحديثِ أنّي أشتهي أنْ أحدِّثَ ، ولو اشتهيتُ ألا أحدثَ . . لحدثتُ)(٢)

والواعظُ يجدُ في وعظِهِ وتأثُّرِ قلوبِ الناسِ بهِ وتلاحقِ بكائِهِمْ وزَعَقاتِهِمْ وإقبالِهِمْ عليهِ لذةً لا توازيها لذةٌ ، فإذا غلبَ ذٰلكَ علىٰ قلبِهِ . . مالَ قلبُهُ إلىٰ كلِّ كلامٍ مزخرفٍ يروجُ عندَ العوامِّ وإنْ كانَ باطلاً ، ويفرُّ عنْ كلِّ كلامٍ يستثقلُهُ العوامُّ وإنْ كانَ حقّاً ، ويصيرُ مصروفَ الهمةِ بالكليَّةِ إلىٰ ما يحرِّكُ قلوبَ العوامِّ ، ويعظمُ منزلتَهُ في قلوبِهِمْ ، فلا يسمعُ حديثاً وحكمةً إلا ويكونُ فرحُهُ بها مِنْ حيثُ إنَّهُ يصلحُ لأنْ يذكرَهُ علىٰ رأسِ المنبرِ ، وكانَ ينبغي أنْ يكونَ فرحُهُ بها مِنْ حيثُ إنَّهُ عرفَ طريقَ السعادةِ ، وطريقَ سلوكِ سبيلِ الدينِ ؛ ليعملَ بهِ أوَّلاً ، ثمَّ يقولَ : إذا أنعمَ اللهُ عليَّ بهٰذهِ النعمةِ ، ونفعَني بهٰذهِ الحكمةِ . . فأقصُّها ؛ ليشاركَني في نفعِها إخواني المسلمونَ .

فهٰذا أيضاً ممَّا يعظمُ فيهِ الخوفُ والفتنةُ ، فحكمُهُ حكمُ الولاياتِ ؛ فمَنْ لا باعثَ له إلا طلبُ الجاهِ والمنزلةِ والأكلُ بالدينِ والتفاخرُ والتكاثرُ بهِ . . فينبغي أنْ يتركَهُ ويخالفَ الهوىٰ فيهِ إلىٰ أنْ ترتاضَ نفسُهُ ، وتقوىٰ في الدين مُنَّتُهُ ، ويأمنَ علىٰ نفسِهِ الفتنةَ ، فعندَ ذٰلكَ يعودُ إليهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : مهما حُكِمَ بذٰلكَ علىٰ أهلِ العلمِ . . تعطلَتِ العلومُ واندرسَتْ ، وعمَّ الجهلُ كافةَ الخلقِ .

فنقولُ : قدْ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ طلبِ الإمارةِ وتوعَّدَ عليها ، حتَّىٰ قالَ : « إنَّكمْ تحرصونَ على الإمارةِ ، وإنَّها حسرةٌ يومَ القيامةِ وندامةٌ ، إلا مَنْ أخذَها بحقِّها »(٣) ، وقالَ : « نعمَتِ المرضعةُ وبئسَتِ الفاطمةُ »(٤) ، ومعلومٌ أنَّ السلطنةَ والإمارةَ لوْ تعطلَتْ . . لبطلَ الدينُ والدنيا جميعاً ، وثارَ القتالُ بينَ الخلقِ ، وزالَ الأمنُ وخربَتِ البلادُ ، وبطلَتِ المعايشُ ، فلِمَ نُهِيَ عنها معَ ذٰلكَ ؟ وضربَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أبيَّ بنَ كعبٍ حينَ رأىٰ قوماً يتبعونَهُ وهوَ في ذٰلكَ يقولُ : (أبيٌّ سيدُ المسلمينَ)(٥) ، وكانَ يقرأُ عليهِ القرآنَ ، فمنعَ مِنْ أنْ يتبعوهُ ، وقالَ : (ذٰلكَ فتنةٌ على المتبوعِ ومذلَّةٌ على التابعِ)(٦) ، وعمرُ كانَ بنفسِهِ يخطبُ ويعظُ ولا يمتنعُ منهُ .

واستأذنَ رجلٌ عمرَ أنْ يعظَ الناسَ إذا فرغَ مِنْ صلاةِ الصبحِ فمنعَهُ ، فقالَ : أتمنعُني مِنْ نصحِ الناسِ ؟ فقالَ :

(١) قوت القلوب (١٣٥/١) ، والقائل هو بشر بن الحارث .
(٢) قوت القلوب (١٥٦/١) .
(٣) رواه البخاري (٧١٤٨) ، وليس فيه : « إلا من أخذها بحقها » ، وهي عند مسلم (١٨٢٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .
(٤) هو قطعة من الحديث المتقدم عند البخاري (٧١٤٨) ، وفصلهما المصنف تبعاً لصاحب « الرعاية » (ص ٢٧١) .
(٥) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٤٧٦) .
(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) برواية نعيم بن حماد ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣٠٣) .

أخشىٰ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا[1] ؛ إذْ رأىٰ فيهِ مخايلَ الرغبةِ في جاهِ الوعظِ وقبولِ الخلقِ .

والقضاءُ والخلافةُ ممَّا يحتاجُ الناسُ إليهِ في دينِهِمْ ؛ كالوعظِ والتدريسِ والفتوىٰ ، وفي كلِّ واحدٍ منهُما فتنةٌ ولذةٌ ، فلا فرقَ بينَهُما .

فأمَّا قولُ القائلِ : نهيُكَ عنْ ذٰلكَ يؤدي إلى اندراسِ العلمِ . . فهوَ غلطٌ ؛ إذْ نهيُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ القضاءِ لمْ يؤدِّ إلىٰ تعطيلِ القضاءِ[2] ، بلِ الرئاسةُ وحبُّها يضطرُّ الخلقَ إلىٰ طلبِها ، وكذٰلكَ حبُّ الرئاسةِ لا يتركُ العلومَ تندرسُ ، بلْ لوْ حُبسَ الناسُ وقُيّدوا بالسلاسلِ والأغلالِ عنْ طلبِ العلومِ التي فيها القبولُ والرئاسةُ . . لأفلتوا مِنَ الحبسِ وقطعوا السلاسلَ وطلبوها ، وقدْ وعدَ اللهُ أنْ يؤيّدَ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلاقَ لهُمْ ، فلا تشغلْ قلبَكَ بأمرِ الناسِ ، فإنَّ اللهَ لا يضيّعُهُمْ ، وانظرْ لنفسِكَ .

ثمَّ إني أقولُ معَ هٰذا : إذا كانَ في البلدِ جماعةٌ يقومونَ بالوعظِ مثلاً . . فليسَ في النهيِ عنهُ إلا امتناعُ بعضِهِمْ ، وإلا . . فيُعلمُ أنَّ كلَّهَمْ لا يمتنعونَ ، ولا يتركونَ لذَّةَ الرئاسةِ ، فإنْ لمْ يكنْ في البلدِ إلا واحدٌ ، وكانَ وعظُهُ نافعاً للناسِ مِنْ حيثُ حسنُ كلامِهِ ، وحسنُ سمتِهِ في الظاهرِ ، وتخييلُهُ إلى العوامّ أنَّهُ إنَّما يريدُ اللهَ بوعظِهِ ، وأنَّهُ تاركٌ للدنيا ومعرضٌ عنها . . فلا نمنعُهُ منهُ ، ونقولُ لهُ : اشتغلْ وجاهدْ نفسَكَ ، فإنْ قالَ : لستُ أقدرُ علىٰ نفسي ، فنقولُ لهُ : اشتغلْ وجاهدْ ؛ لأنَّا نعلمُ أنَّهُ لوْ تركَ ذٰلكَ . . لهلكَ الناسُ كلُّهُمْ ؛ إذْ لا قائمَ بهِ غيرُهُ ، ولوْ واظبَ وغرضُهُ الجاهُ . . فهوَ الهالكُ وحدَهُ ، وسلامةُ دينِ الجميعِ أحبُّ عندَنا مِنْ سلامةِ دينِهِ وحدَهُ ، فنجعلُهُ فداءً للقومِ ، ونقولُ : لعلَّ هٰذا هوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يؤيّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »[3]

ثمَّ الواعظُ هوَ الذي يرغّبُ في الآخرةِ ، ويزهّدُ في الدنيا بكلامِهِ وبظاهرِ سيرتِهِ ، فأمَّا ما أحدثَهُ الوعَّاظُ في هٰذهِ الأعصارِ ؛ مِنَ الكلماتِ المزخرفةِ ، والألفاظِ المسجعةِ المقرونةِ بالأشعارِ ، ممَّا ليسَ فيهِ تعظيمٌ لأمرِ الدينِ وتخويفٌ للمسلمينَ ، بلْ فيهِ الترجيةُ والتجرئةُ على المعاصي بطيَّاراتِ النُّكتِ[4] . . فيجبُ إخلاءُ البلادِ منهُمْ ؛ فإنَّهُمْ نوَّابُ الدجالِ وخلفاءُ الشيطانِ ، وإنَّما كلامُنا في واعظٍ حسنِ الوعظِ ، جميلِ الظاهرِ ، يبطنُ في نفسِهِ حبَّ القبولِ ولا يقصدُ غيرَهُ .

وفيما أوردناهُ في كتابِ العلمِ مِنَ الوعيدِ الواردِ في حقّ علماءِ السوءِ ما يبيّنُ لزومَ الحذرِ مِنْ فتنِ العلمِ وغوائلِهِ ، ولقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا علماءَ السوءِ ؛ تصومونَ وتصلونَ وتتصدقونَ ، ولا تفعلونَ ما تأمرونَ ، وتدرّسونَ ما لا تعملونَ ، فيا سوءَ ما تحكمونَ ، تتوبونَ بالقولِ والأمانيّ ، وتعملونَ بالهوىٰ ، وما يغني عنكمْ أنْ تنقُّوا جلودَكُمْ وقلوبُكُمْ دنسةٌ ؟!

بحقّ أقولُ لكُمْ : لا تكونوا كالمُنْخُلِ ؛ يخرجُ منهُ الدقيقُ الطيبُ ويبقىٰ فيهِ النُّخالةُ ، كذٰلكَ أنتُمْ تخرجونَ الحكمَ مِنْ أفواهِكُمْ ويبقى الغلُّ في صدورِكُمْ .

---

(١) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١٨/١) بنحوه .

(٢) إذ روىٰ مسلم (١٨٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تأمرن على اثنين ، ولا تولينَّ مال يتيم » .

(٣) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (٨٨٣٤) .

(٤) **طيارات النكت** : النكت النوادر الغريبة المهيجة للأوصاف المستكنة في الضمائر ، مما يكون باعثاً علىٰ آفاته غرض شيطاني . « إتحاف » (٣١٨/٨) .

يا عبيدَ الدنيا ، كيفَ يدركُ الآخرةَ مَنْ لا تنقضي مِنَ الدنيا شهوتُهُ ، ولا تنقطعُ منها رغبتُهُ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكمْ : إنَّ قلوبَكُمْ تبكي مِنْ أعمالِكُمْ ، جعلتُمُ الدنيا تحتَ ألسنتِكُمْ ، والعملَ تحتَ أقدامِكُمْ .

بحقٍّ أقولُ لكمْ : أفسدتُمْ آخرتَكُمْ بصلاحِ دنياكُمْ ، فصلاحُ الدنيا أحبُّ إليكُمْ مِنْ صلاحِ الآخرةِ ، فأيُّ ناسٍ أخسُّ منكُمْ ؟! لوْ تعلمونَ ، ويلَكُمْ ، حتَّىٰ متىٰ تصفونَ الطريقَ للمدلجينَ وتقيمونَ في محلَّةِ المتحيِّرينَ ؛ كأنَّكُمْ تدعونَ أهلَ الدنيا ليتركوها لكُمْ ، مهلاً مهلاً ويلَكُمْ ، ماذا يُغني عنِ البيتِ المظلمِ أنْ يُوضعَ السراجُ فوقَ ظهرِهِ وجوفُهُ وحِشٌ مظلمٌ ؟! كذٰلكَ لا يغني عنكُمْ أنْ يكونَ نورُ العلمِ بأفواهِكُمْ وأجوافُكُمْ مِنهُ وَحِشةٌ معطلةٌ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ لا كعبيدٍ أتقياءَ ، ولا كأحرارٍ كرامٍ ، توشكُ الدنيا أنْ تقلعَكُمْ عنْ أصولِكُمْ فتلقيَكُمْ علىٰ وجوهِكُمْ ، ثمَّ تكبَّكُمْ علىٰ مناخرِكُمْ ، ثمَّ تأخذُ خطاياكُمْ بنواصيكُمْ ؛ ثمَّ يدفعُكُمُ العلمُ مِنْ خلفِكُمْ ، ثم يسلمُكُمْ إلى الملكِ الديانِ حفاةً عراةً فرادىٰ ، فيوقفُكُمْ علىٰ سوءاتِكُمْ ، ثمَّ يجزيكُمْ بسوءِ أعمالِكُمْ)[1]

وقدْ روى الحارثُ المحاسبيُّ هٰذا الحديثَ في بعضِ كتبِهِ ، ثمَّ قالَ : (هٰؤلاءِ علماءُ السوءِ ، شياطينُ الإنسِ ، وفتنةٌ على الناسِ ، رغبوا في عرضِ الدنيا ورفعتِها ، وآثروها على الآخرةِ ، وأذلُّوا الدينَ للدنيا ، فهُمْ في العاجلِ عارٌ وشَينٌ ، وفي الآخرةِ همُ الخاسرونَ) .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ الآفاتُ ظاهرةٌ ، ولٰكنْ وردَ في العلمِ والوعظِ رغائبُ كثيرةٌ ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً خيرٌ لكَ مِنَ الدنيا وما فيها »[2] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما داعٍ دعا إلىٰ هدىً واتُّبِعَ عليهِ . . كانَ لهُ أجرُهُ وأجرُ مَنْ اتَّبعَهُ »[3] ؛ إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ فضائلِ العلمِ ، فينبغي أنْ يُقالَ للعالمِ : اشتغلْ بالعلمِ واتركْ مراءاةَ الخلقِ ، كما يُقالُ لمَنْ خالجَهُ الرياءُ في الصلاةِ : لا تتركِ العملَ ، ولٰكنْ أتممِ العملَ وجاهدْ نفسَكَ .

فاعلمْ : أنَّ فضلَ العلمِ كثيرٌ ، وخطرَهُ عظيمٌ ؛ كفضلِ الخلافةِ والإمارةِ ، ولا نقولُ لأحدٍ مِنْ عبادِ اللهِ : اتركِ العلمَ ؛ إذْ ليسَ في نفسِ العلمِ آفةٌ ، وإنَّما الآفةُ في إظهارِهِ بالتصدِّي للوعظِ والتدريسِ وروايةِ الأحاديثِ ، ولا نقولُ لهُ أيضاً : اتركْهُ ما دامَ يجدُ في نفسِهِ باعثاً دينياً ممزوجاً بباعثِ الرياءِ .

فأمَّا إذا لمْ يحرِّكْهُ إلا الرياءُ . . فتركُ الإظهارِ أنفعُ لهُ وأسلمُ ، وكذٰلكَ نوافلُ الصلواتِ إذا تجرَّدَ فيها باعثُ الرياءِ . . وجبَ تركُها ، أمَّا إذا خطرَتْ لهُ وساوسُ الرياءِ في أثناءِ الصلاةِ وهوَ لها كارهٌ . . فلا يتركُ الصلاةَ ؛ لأنَّ آفةَ الرياءِ في العباداتِ ضعيفةٌ ، وإنَّما تعظمُ في الولاياتِ ، وفي التصدي للمناصبِ الكبيرةِ في العلمِ .



وبالجملةِ : فالمراتبُ ثلاثٌ :

الأولى : الولاياتُ ، والآفاتُ فيها عظيمةٌ ، وقدْ تركَها جماعةٌ مِنَ السلفِ خوفاً مِنَ الآفةِ .

---

(١) مجمل أقوال سيدنا عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/٦٨) ، (٤٦٠/٤٧) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٥) بلفظه ، وأصله في « البخاري » (٣٧٠١) ، و« مسلم » (٢٤٠٦) .
(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٥) .

الثانيةُ : الصومُ ، والصلاةُ ، والحجُّ ، والغزوُ ، وقدْ تعرَّضَ لها أقوياءُ السلفِ وضعفاؤُهُمْ ، ولمْ يُؤثرْ عنهُمُ التركُ لخوفِ الآفةِ ، وذٰلكَ لضعفِ الآفاتِ الداخلةِ فيها ، والقدرةِ علىٰ نفيِها معَ إتمامِ العملِ للهِ بأدنىٰ قوةٍ .

الثالثةُ : وهيَ متوسطةٌ بينَ الرتبتينِ ، وهيَ التصدي لمنصبِ الوعظِ والفتوىٰ والروايةِ والتدريسِ ، والآفاتُ فيها أقلُّ ممَّا في الولاياتِ وأكثرُ ممَّا في الصلواتِ ؛ فالصلاةُ ينبغي ألا يتركَها الضعيفُ والقويُّ ، ولٰكنْ يدفعُ خاطرَ الرياءِ ، والولاياتُ ينبغي أنْ يتركَها الضعفاءُ رأساً دونَ الأقوياءِ ، ومناصبُ العلمِ بينَهُما ، ومَنْ جرَّبَ آفاتِ منصبِ العلمِ . . علمَ أنَّهُ بالولاياتِ أشبهُ ، وأنْ الحذرَ منهُ في حقِّ الضعيفِ أسلمُ ، واللهُ أعلمُ .

وها هنا رتبةٌ رابعةٌ : وهيَ جمعُ المالِ وأخذُهُ للتفرقةِ على المستحقينَ ، فإنَّ في الإنفاقِ وإظهارِ السخاءِ استجلاباً للثناءِ ، وفي إدخالِ السرورِ علىٰ قلوبِ الناسِ لذةٌ للنفسِ ، والآفاتُ فيها أيضاً كثيرةٌ ، ولذٰلكَ سُئلَ الحسنُ عنْ رجلٍ طلبَ القوتَ ثمَّ أمسكَ ، وآخرَ طلبَ فوقَ قوتِهِ ثمَّ تصدَّقَ بهِ ، فقالَ : (القاعدُ أفضلُ)[1] ؛ لما يعرفونَ مِنْ قلَّةِ السلامةِ في الدنيا ، وأنَّ مِنَ الزُّهدِ تركَها قربةً إلى اللهِ تعالىٰ .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما يسرُّني أنّي أقمتُ علىٰ درجِ مسجدِ دمشقَ أصيبُ كلَّ يومٍ خمسينَ ديناراً أتصدقُ بها ، أما إنّي لا أحرّمُ البيعَ والشراءَ ، ولٰكنّي أريدُ أنْ أكونَ مِنَ الذينَ لا تلهيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ)[2]

وقدِ اختلفَ العلماءُ[3] ؛ فقالَ قومٌ : إذا طلبَ الدنيا مِنَ الحلالِ وسلمَ منها وتصدَّقَ بها . . فهوَ أفضلُ مِنْ أنْ يشتغلَ بالعباداتِ والنوافلِ ، وقالَ قومٌ : الجلوسُ في دوامِ ذكرِ اللهِ أفضلُ ، والأخذُ والعطاءُ يشغلُ عَنْ ذكرِ اللهِ ، وقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا طالبَ الدنيا لتبرَّ بها ؛ تركُكَ لها أبرُّ)[4] ، وقالَ : أقلُّ ما فيهِ أنَّهُ يشغلُهُ إصلاحُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ، وذكرُ اللهِ أفضلُ وأكبرُ ، وهٰذا فيمَنْ سلمَ مِنَ الآفاتِ .

فأمَّا مَنْ يتعرَّضُ لآفةِ الرياءِ . . فتركُهُ لها أبرُّ ، والاشتغالُ بالذكرِ لا خلافَ في أنَّهُ أفضلُ .

وبالجملةِ : ما يتعلَّقُ بالخلقِ وللنفسِ فيهِ لذَّةٌ . . فهوَ مثارُ الآفاتِ ، والأحبُّ أنْ يعملَ ويدفعَ الآفةَ ، فإنْ عجزَ . . فلينظرْ وليجتهدْ ، وليستفتِ قلبَهُ ، وليزنْ ما فيهِ مِنَ الخيرِ بما فيهِ مِنَ الشرِّ ، وليفعلْ ما يدلُّ عليهِ نورُ العلمِ دونَ ما يميلُ إليهِ الطبعُ .

وبالجملةِ : ما يجدُهُ أخفَّ علىٰ قلبِهِ فهوَ في الأكثرِ أضرُّ عليهِ ؛ لأنَّ النفسَ لا تشيرُ إلا بالشرِّ ، وقلَّما تستلذُّ الخيرَ وتميلُ إليهِ ، وإنْ كانَ لا يبعدُ ذٰلكَ أيضاً في بعضِ الأحوالِ ، وهٰذهِ أمورٌ لا يمكنُ الحكمُ علىٰ تفاصيلِها بنفيٍ وإثباتٍ ، فهوَ موكولٌ إلى اجتهادِ القلبِ لينظرَ فيهِ لدينِهِ ، ويدعَ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ .

ثمَّ قدْ يقعُ ممّا ذكرناهُ غرورٌ للجاهلِ ، فيمسكُ المالَ ولا ينفقُهُ خيفةً مِنَ الآفةِ ، وهوَ عينُ البخلِ ، ولا خلافَ في أنَّ تفرقةَ المالِ في المباحاتِ فضلاً عنِ الصدقاتِ أفضلُ مِنْ إمساكِهِ ، وإنَّما الخلافُ فيمَنْ يحتاجُ إلى الكسبِ أنَّ الأفضلَ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٢٧٣) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٧) .

(٣) أورد الخلاف الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٧٥) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٩٠/٨) ، والمعنىٰ : يا من يطلب الدنيا ليكون باراً ببذلها ، فهو لا يطلبها لذاتها ؛ إن تركك لها أبرُّ من برِّك بها .

الكسبُ[1] والإنفاقُ أوِ التجردُ للذِّكرِ ، وذٰلكَ لما في الكسبِ مِنَ الآفاتِ ، فأمَّا المالُ الحاصلُ مِنَ الحلالِ . . فتفرقتُهُ أفضلُ مِنْ إمساكِهِ بكلِّ حالٍ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فبأيِّ علامةٍ تعرفُ العالمَ والواعظَ أنَّهُ صادقٌ مخلصٌ في وعظِهِ غيرُ مريدٍ رياءَ الناسِ ؟

فاعلمْ : أنَّ لذٰلكَ علاماتٍ :

إحداها : أنَّهُ لوْ ظهرَ مَنْ هو أحسنُ منهُ وعظاً أوْ أغزرُ منهُ علماً والناسُ لهُ أشدُّ قبولاً . . فرحَ بِهِ ولمْ يحسدْهُ ، نعمْ ، لا بأسَ بالغبطةِ ، وهوَ أنْ يتمنَّىٰ لنفسِهِ مثلَ علمِهِ .

والأخرىٰ : أنَّ الأكابرَ إذا حضروا مجلسَهُ . . لمْ يتغيرْ كلامُهُ .

بلْ بقيَ كما كانَ عليهِ ، فينظرُ إلى الخلقِ بعينٍ واحدةٍ .

والأخرىٰ : ألا يحبَّ اتباعَ الناسِ لهُ في الطريقِ والمشيَ خلفَهُ في الأسواقِ .

ولذٰلكَ علاماتٌ كثيرةٌ يطولُ إحصاؤُها .

وقدْ رُويَ عنْ سعيدِ بنِ أبي مروانَ أنَّهُ قالَ : كنتُ جالساً إلىٰ جنبِ الحسنِ ، إذْ دخلَ علينا الحجاجُ مِنْ بعضِ أبوابِ المسجدِ ومعَهُ الحرسُ وهوَ علىٰ برذونٍ أصفرَ ، فدخلَ المسجدَ علىٰ برذونِهِ ، فجعلَ يلتفتُ في المسجدِ ، فلمْ يرَ حلقةً أحفلَ مِنْ حلقةِ الحسنِ ، فتوجَّهَ نحوَها حتَّىٰ بلغَ قريباً منها ، ثمَّ ثنىٰ وركَهُ ، فنزلَ ومشىٰ نحوَ الحسنِ ، فلمَّا رآهُ الحسنُ متوجهاً إليهِ . . تجافىٰ لهُ عنْ ناحيةِ مجلسِهِ ، قالَ سعيدٌ : وتجافيتُ لهُ أيضاً عنْ ناحيةِ مجلسي ، حتَّىٰ صارَ بيني وبينَ الحسنِ فرجةٌ ومجلسٌ للحجاجِ ، فجاءَ الحجاجُ حتَّىٰ جلسَ بيني وبينَهُ ، والحسنُ يتكلَّمُ بكلامٍ لهُ يتكلَّمُ بهِ في كلِّ يومٍ ، فما قطعَ الحسنُ كلامَهُ .

قالَ سعيدٌ : فقلتُ في نفسي : لأبلونَّ الحسنَ اليومَ ، ولأنظرَنَّ هلْ يحملُ الحسنَ جلوسُ الحجاجِ إليهِ أنْ يزيدَ في كلامِهِ يتقرَّبُ إليهِ ، أوْ تحملُهُ هيبةُ الحجاجِ أنْ ينقصَ مِنْ كلامِهِ ؟ فتكلَّمَ الحسنُ كلاماً واحداً نحواً ممَّا كانَ يتكلَّمُ بهِ في كلِّ يومٍ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ آخرِ كلامِهِ ، فلمَّا فرغَ الحسنُ مِنْ كلامِهِ وهوَ غيرُ مكترثٍ بهِ . . رفعَ الحجاجُ يدَهُ فضربَ بها علىٰ مَنْكِبِ الحسنِ ، ثمَّ قالَ : صدقَ الشيخُ وبرَّ ، فعليكمْ بهٰذهِ المجالسِ وأشباهِها فاتخذوها خُلقاً وعادةً ؛ فإنَّهُ بلغَني عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنَّ مجالسَ الذكرِ رياضُ الجنةِ[2] ، ولولا ما حُمِّلناهُ مِنْ أمرِ الناسِ . . ما غلبتُمونا علىٰ هٰذهِ المجالسِ ؛ لمعرفتِنا بفضلِها ، قالَ : ثمَّ افترَّ الحجاجُ فتكلَّمَ حتَّىٰ عجبَ الحسنُ ومَنْ حضرَ مِنْ بلاغتِهِ ، فلمَّا فرغَ . . طفقَ فقامَ .

فجاءَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ إلىٰ مجلسِ الحسنِ حينَ قامَ الحجاجُ ، فقالَ : عبادَ اللهِ المسلمينَ ؛ ألا تعجبوا أنِّي رجلٌ شيخٌ كبيرٌ ، وأنِّي أُغزَّىٰ ، فأُكلَّفُ فرساً وبغلاً ، وأُكلَّفُ فسطاطاً ، وأنِّي لي ثلاثُ مئةِ درهمٍ مِنَ العطاءِ ، وأنَّ لي سبعَ بناتٍ مِنَ العيالِ !! فشكا مِنْ حالِهِ حتَّىٰ رقَّ لهُ الحسنُ وأصحابُهُ ، والحسنُ مكبٌّ ، فلمَّا فرغَ الرجلُ مِنْ كلامِهِ . . رفعَ

---

(١) في غير (د) : (الأفضل ترك الكسب) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥١٠) .

الحسنُ رأسَهُ فقالَ : ما لهُمْ قاتلَهُمُ اللهُ !! اتخذوا عبادَ اللهِ خولاً ، ومالَ اللهِ دولاً ، وقتلوا الناسَ على الدينارِ والدرهمِ ، فإذا غزا عدوُّ اللهِ . . غزا في الفساطيطِ الهبَّابةِ ، وعلى البغالِ السبَّاقةِ ، وإذا أغزىٰ أخاهُ . . أغزاهُ طاوياً راجلاً ، فما فترَ الحسنُ حتَّىٰ ذكرَهُمْ بأقبحِ العيبِ وأشدِّهِ .

فقامَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ كانَ جالساً إلى الحسنِ ، فسعىٰ بهِ إلى الحجاجِ ، وحكىٰ لهُ كلامَهُ ، فلمْ يلبثِ الحسنُ أنْ أتتْهُ رسلُ الحجاجِ ، فقالوا : أجبِ الأميرَ ، فقامَ الحسنُ ، وأشفقنا عليهِ مِنْ شدةِ كلامِهِ الذي تكلَّمَ بهِ ، فلمْ يلبثِ الحسنُ أنْ رجعَ إلىٰ مجلسِهِ وهوَ يتبسَّمُ ، وقلَّما رأيتُهُ فاغراً فاهُ يضحكُ ، إنَّما كانَ يتبسَّمُ ، فأقبلَ حتَّىٰ قعدَ في مجلسِهِ ، فعظَّمَ الأمانةَ ، وقالَ : إنَّما تجالسونَ بالأمانةِ ؛ كأنَّكُمْ تظنُّونَ أنَّ الخيانةَ ليسَتْ إلا في الدينارِ والدرهمِ ، إنَّ الخيانةَ أشدَّ الخيانةِ أنْ يجالسَنا الرجلُ ، فنطمئنَّ إلىٰ ناحيتِهِ ، ثمَّ ينطلقُ فيسعىٰ بنا إلىٰ شرارةٍ مِنْ نارٍ ، إنِّي أتيتُ هـٰذا الرجلَ ، فقالَ : أقصرْ عليكَ مِنْ لسانِكَ وقولِكَ : إذا غزا عدوُّ اللهِ . . غزا كذا ، وإذا أغزىٰ أخاهُ . . أغزاهُ كذا ، لا أبا لكَ ؛ تحرِّضُ علينا الناسَ ؟! أما إنَّا علىٰ ذٰلكَ لا نتهمُ لنصيحتِكَ ، فأقصرْ عليكَ مِنْ لسانِكَ ، قالَ : فدفعَهُ اللهُ عنِّي .

وركبَ الحسنُ حماراً يريدُ المنزلَ ، فبينَما هوَ يسيرُ إذِ التفتَ فرأىٰ قوماً يتبعونَهُ ، فوقفَ فقالَ : هلْ لكمْ مِنْ حاجةٍ أوْ تسألونَ عنْ شيءٍ ؟ وإلا . . فارجعوا ، فما يبقي هـٰذا مِنْ قلبِ العبدِ ؟!

فبهـٰذهِ العلاماتِ وأمثالِها تتبيَّنُ سريرةُ الباطنِ ، ومهما رأيتَ العلماءَ يتغايرونَ ويتحاسدونَ ، ولا يتوانسونَ ولا يتعاونونَ . . فاعلمْ أنَّهُمْ قدِ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فهُمُ الخاسرونَ ، اللهمَّ ؛ ارحمْنا بلطفِكَ يا أرحمَ الراحمينَ .

* * *

بيان ما يصحّ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصحّ

اعلمْ : أنَّ الرجلَ قدْ يبيتُ معَ القومِ في موضعٍ ، فيقومونَ للتهجُّدِ أوْ يقومُ بعضُهُمْ فيصلُّونَ الليلَ كلَّهُ أوْ بعضَهُ ، وهوَ ممَّنْ يقومُ في بيتِهِ ساعةً قريبةً ، فإذا رآهُمْ . . انبعثَ نشاطُهُ للموافقةِ ، حتَّىٰ يزيدُ علىٰ ما كانَ يعتادُهُ أوْ يصلِّي معَ أنَّهُ كانَ لا يعتادُ الصلاةَ بالليلِ أصلاً .

وكذٰلكَ قدْ يقعُ في موضعٍ يصومُ فيهِ أهلُ الموضعِ ، فينبعثُ لهُ نشاطٌ في الصومِ ، ولولاهُمْ . . لما انبعثَ هٰذا النشاطُ .

فهٰذا ربَّما يُظنُّ أنَّهُ رياءٌ ، وأنَّ الواجبَ تركُ الموافقةِ .

وليسَ كذٰلكَ على الإطلاقِ ، بلْ لهُ تفصيلٌ ؛ لأنَّ كلَّ مؤمنٍ راغبٌ في عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، وفي قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ولٰكنْ قدْ تعوقُهُ العوائقُ ، ويمنعُهُ الاشتغالُ ، ويغلبُهُ التمكنُ مِنَ الشهواتِ ، أوْ تستهويهِ الغفلةُ ، فربَّما تكونُ مشاهدةُ الغيرِ سببَ زوالِ الغفلةِ ، أوْ تندفعُ العوائقُ والأشغالُ في بعضِ المواضعِ ، فينبعثُ النشاطُ ، فقدْ يكونُ الرجلُ في منزلِهِ ، فتقطعُهُ الأسبابُ عنِ التهجُّدِ ؛ مثلَ تمكنِهِ مِنَ النومِ علىٰ فراشٍ وثيرٍ ، أو تمكنِهِ مِن التمتُّعِ بزوجتِهِ ، أوِ المحادثةِ معَ أهلِهِ وأقاربِهِ ، أوِ الاشتغالِ بأولادِهِ ، أوْ مطالعةِ حسابٍ لهُ معَ معامليهِ ، فإذا وقعَ في منزلٍ غريبٍ . . اندفعَتْ عنهُ هٰذهِ الشواغلُ التي تفترُ رغبتَهُ عنِ الخيرِ ، وحصلَتْ لهُ أسبابٌ باعثةٌ على الخيرِ ؛ كمشاهدتِهِ إيَّاهُمْ وقدْ أقبلوا على اللهِ وأعرضوا عنِ الدنيا ؛ فإنَّهُ ينظرُ إليهِمْ فينافسُهُمْ ، ويشقُّ عليهِ أنْ يسبقوهُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فتتحرَّكُ داعيتُهُ للدِّينِ لا للرياءِ .

أوْ ربَّما يفارقُهُ النومُ لاستنكارِهِ الموضعَ ، أوْ بسببٍ آخرَ ، فيغتنمُ زوالَ النومِ ، وفي منزلِهِ ربَّما يغلبُهُ النومُ ، وربَّما ينضافُ إليهِ أنَّهُ في منزلِهِ على الدوامِ ، والنفسُ لا تسمحُ بالتهجُّدِ دائماً ، وتسمحُ بالتهجُّدِ وقتاً قليلاً ، فيكونُ ذٰلكَ سببَ هٰذا النشاطِ معَ اندفاعِ سائرِ العوائقِ .

وقدْ يعسرُ عليهِ الصومُ في منزلِهِ ومعَهُ أطايبُ الأطعمةِ ، ويشقُّ عليهِ الصبرُ عنها ، فإذا أعوزَتْهُ تلكَ الأطعمةُ . . لمْ يشقَّ عليهِ ، فتنبعثُ داعيةُ الدينِ للصومِ ، فإنَّ الشهواتِ الحاضرةَ عوائقُ ودوافعُ تغلبُ باعثَ الدينِ ، فإذا سلمَ منها . . قويَ الباعثُ .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأسبابِ يُتصوَّرُ وقوعُهُ ، ويكونُ السببُ فيهِ مشاهدةَ الناسِ وكونَهُ معَهُمْ ، والشيطانُ معَ ذٰلكَ ربَّما يصدُّ عنِ العملِ ويقولُ : لا تعملْ ؛ فإنَّكَ تكونُ مرائياً ؛ إذْ كنتَ لا تعملُ في بيتِكَ ، ولا تزدْ علىٰ صلاتِكَ المعتادةِ .

وقدْ تكونُ رغبتُهُ في الزيادةِ لأجلِ رؤيتِهِمْ ، وخوفاً مِنْ ذمِّهِمْ ونسبتِهِمْ إيَّاهُ إلى الكسلِ ، لا سيَّما إذا كانوا يظنُّونَ بهِ أنَّهُ يقومُ الليلَ ، فإنَّ نفسَهُ لا تسمحُ بأنْ يسقطَ مِنْ أعينِهِمْ ، فيريدُ أنْ يحفظَ منزلتَهُ ، وعندَ ذٰلكَ قدْ يقولُ الشيطانُ : صلِّ ؛ فإنَّكَ مخلصٌ ، ولستَ تصلِّي لأجلِهِمْ ، بلْ للهِ ، وإنَّما كنتَ لا تصلي كلَّ ليلةٍ لكثرةِ العوائقِ ، وإنَّما داعيتُكَ لزوالِ العوائقِ لا لاطلاعِهِمْ .

وهٰذا أمرٌ مشتبهٌ إلا علىٰ ذوي البصائرِ ؛ فإذا عرفَ أنَّ المحركَ هوَ الرياءُ . فلا ينبغي أنْ يزيدَ علىٰ ما كانَ يعتادُهُ

ولا ركعةً واحدةً ؛ لأنَّهُ يعصي اللهَ تعالىٰ بطلبِ محمدةِ الناسِ بطاعةِ اللهِ ، وإنْ كانَ انبعاثُهُ لدفعِ العوائقِ وتحرُّكِ الغبطةِ والمنافسةِ بسببِ عبادتِهِمْ . . فليوافقْ .

وعلامةُ ذٰلكَ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ رأىٰ هـٰؤلاءِ يصلونَ مِنْ حيثُ لا يرونَهُ ، بلْ مِنْ وراءِ حجابٍ وهوَ في ذٰلكَ الموضعِ بعينِهِ . . هلْ كانَتْ تسخو نفسُهُ بالصلاةِ وهمْ لا يرونَهُ ؟ فإنْ سختْ نفسُهُ بهِ . . فليصلِّ ؛ فإنَّ باعثَهُ الحقُّ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ يثقلُ علىٰ نفسِهِ لوْ غابَ عنْ أعينِهِمْ . . فليتركْ ؛ فإنَّ باعثَهُ الرياءُ .

وكذٰلكَ قدْ يحضرُ الإنسانُ يومَ الجمعةِ في الجامعِ مِنْ نشاطِ الصلاةِ ما لا يحضرُهُ كلَّ يومٍ ، ويمكنُ أنْ يكونَ ذٰلكَ لحبِّ حمدِهِمْ ، ويمكنُ أنْ يكونَ تحرُّكُ نشاطِهِ بسببِ نشاطِهِمْ وزوالُ غفلتِهِ بسببِ إقبالِهِمْ على اللهِ تعالىٰ ، وقدْ يتحرَّكُ بذٰلكَ باعثُ الدينِ ويقارنُهُ نزوعٌ في النفسِ إلىٰ حبِّ الحمدِ ، فمهما علمَ أنَّ الغالبَ علىٰ قلبِهِ إرادةُ الدينِ . . فلا ينبغي أنْ يتركَ العملَ بما يجدُهُ مِنْ حبِّ الحمدِ ، بلْ ينبغي أنْ يردَّ ذٰلكَ علىٰ نفسِهِ بالكراهةِ ، ويشتغلَ بالعبادةِ .

وكذٰلكَ قدْ يبكي جماعةٌ ، فينظرُ إليهِمْ ، فيحضرُهُ البكاءُ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ لا مِنَ الرياءِ ، ولوْ سمعَ ذٰلكَ الكلامَ وحدَهُ . . لما كانَ يبكي ، ولـٰكنَّ بكاءَ الناسِ يؤثِّرُ في ترقيقِ القلبِ ، وقدْ لا يحضرُهُ البكاءُ ، فيتباكىٰ تارةً رياءً وتارةً معَ الصدقِ ؛ إذْ يخشىٰ علىٰ نفسِهِ قساوةَ القلبِ حينَ يبكونَ ولا تدمعُ عينُهُ ، فيتباكىٰ تكلفاً ، وذٰلكَ محمودٌ .

وعلامةُ الصدقِ فيهِ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ سمعَ بكاءَهُمْ مِنْ حيثُ لا يرونَهُ . . هلْ كانَ يخافُ علىٰ نفسِهِ القساوةَ فيتباكىٰ أمْ لا ؟ فإنْ لمْ يجدْ ذٰلكَ عندَ تقديرِ الاختفاءِ عنْ أعينِهِمْ . . فإنَّما خوفُهُ مِنْ أنْ يُقالَ : إنَّهُ قاسي القلبِ ، فينبغي أنْ يتركَ التباكيَ ، قالَ لقمانُ لابنِهِ : (لا تُري الناسَ أنَّكَ تخشى اللهَ ليكرموكَ وقلبُكَ فاجرٌ)[1] .

وكذٰلكَ الصيحةُ والتنفسُ والأنينُ عندَ القرآنِ أوِ الذكرِ أوْ بعضِ مجاري الأحوالِ ؛ تارةً تكونُ مِنَ الصدقِ والحزنِ والخوفِ والندمِ والتأسفِ ، وتارةً تكونُ لمشاهدةِ حزنِ غيرِهِ وقساوةِ قلبِهِ ، فيتكلَّفُ التنفُّسَ والأنينَ ويتحازَنُ ، وذٰلكَ محمودٌ ، وقدْ تقترنُ بِهِ الرَّغبةُ فيهِ لدلالتِهِ علىٰ أنَّهُ كثيرُ الحزنِ ؛ ليُعرفَ بذٰلكَ ، فإنْ تجرَّدَتْ هـٰذهِ الداعيةُ . . فهيَ الرياءُ ، وإنِ اقترنَتْ بداعيةِ الحزنِ ؛ فإنْ أباها ولمْ يقبلْها وكرهَها . . سلمَ بكاؤُهُ وتباكيهِ ، وإنْ قبلَ ذٰلكَ وركنَ إليهِ بقلبِهِ . . حبطَ أجرُهُ ، وضاعَ سعيُهُ ، وتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ بهِ .

وقدْ يكونُ أصلُ الأنينِ عنِ الحزنِ ، ولـٰكنْ يمدُّهُ ويزيدُ في رفعِ الصوتِ ، فتلكَ الزيادةُ رياءٌ ، وهوَ محظورٌ ؛ لأنَّها في حكمِ الابتداءِ لمجردِ الرياءِ ، فقدْ يهيجُ مِنَ الخوفِ ما لا يملكُ العبدُ معَهُ نفسَهُ ، ولـٰكنْ يسبقُ خاطرُ الرياءِ فيقبلُهُ ، فيدعو إلىٰ زيادةِ تحزينِ الصوتِ ، أوْ رفعِ لهُ ، أوْ حفظِ الدمعةِ على الوجهِ حتَّىٰ تُبصرَ بعدَ أنِ استرسلَتْ لخشيةِ اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنْ يحفظُ أثرَها على الوجهِ لأجلِ الرياءِ .

وكذٰلكَ قدْ يسمعُ الذكرَ فتضعفُ قواهُ مِنَ الخوفِ فيسقطُ ، ثمَّ يستحيي أنْ يُقالَ : إنَّهُ سقطَ مِنْ غيرِ زوالِ عقلٍ وحالةٍ شديدةٍ ، فيزعقُ ويتواجدُ تكلُّفاً ؛ ليُرىٰ أنَّهُ سقطَ لكونِهِ مغشياً عليهِ ، وقدْ كانَ ابتداءُ السقطةِ عنْ صدقٍ ، وقدْ يزولُ عقلُهُ فيسقطُ ، ولـٰكنْ يفيقُ سريعاً ، فتجزعُ نفسُهُ أنْ يُقالَ : حالتُهُ غيرُ ثابتةٍ ، وإنَّما هيَ كبرقٍ خاطفٍ ، فيستديمُ الزعقةَ والرقصَ ؛ ليُريَ دوامَ حالِهِ ، وكذٰلكَ قدْ يفيقُ بعدَ الضعفِ ، ولـٰكنْ يزولُ ضعفُهُ سريعاً ، فيجزعُ أنْ يُقالَ : لمْ تكنْ غشيتُهُ

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٩٢) .

صحيحةً ، ولوْ كانَ . . لدامَ ضعفُهُ ، فيستديمُ إظهارَ الضعفِ والأنينِ ، فيتكئُ علىٰ غيرِهِ ؛ ليُرىٰ أنَّهُ يضعفُ عنِ القيامِ ، ويتمايلُ في المشيِ ، ويقرِّبُ الخُطا ؛ ليظهِرَ أنَّهُ ضعيفٌ عنْ سرعةِ المشيِ .

فهٰذهِ كلُّها مكايدُ الشيطانِ ونزغاتُ النفسِ ، فإذا خطرَتْ . . فعلاجُها : أنْ يتذكَّرَ أنَّ الناسَ لوْ عرفوا نفاقَهُ في الباطنِ ، واطلعوا علىٰ ضميرِهِ . . لمقتوهُ ، وأنَّ اللهَ مطلعٌ علىٰ ضميرِهِ وهوَ لهُ أشدُّ مقتاً ، كما رُويَ عنْ ذي النونِ أنَّهُ قامَ وزعقَ ، فقامَ معَهُ شيخٌ آخرُ رأىٰ فيهِ أثرَ التكلُّفِ فقالَ : يا شيخُ ؛ ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ، فجلسَ الشيخُ [١]

وكلُّ ذٰلكَ مِنْ أعمالِ المنافقينَ ، وقدْ جاءَ في الخبرِ : (تعوَّذوا باللهِ مِنْ خشوعِ النفاقِ) [٢] ، وإنَّما خشوعُ النفاقِ أنْ تخشعَ الجوارحُ والقلبُ غيرُ خاشعٍ [٣]

ومِنْ ذٰلكَ الاستغفارُ والاستعاذةُ باللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ عذابِهِ وغضبِهِ ، فإنَّ ذٰلكَ قدْ يكونُ لخاطرِ خوفٍ وتذكرِ ذنبٍ وتندمٍ عليهِ ، وقدْ يكونُ للمراءاةِ .

فهٰذهِ خواطرُ تردُ على القلبِ متضادّةً مترادفةً متقاربةً ، وهيَ معَ تقاربِها متشابهةٌ ، فراقبْ قلبَكَ في كلِّ ما يخطرُ لكَ ، وانظرْ ما هوَ ؟ ومِنْ أينَ هوَ ؟ فإنْ كانَ للهِ . . فأمضِهِ ، واحذرْ معَ ذٰلكَ أنْ يكونَ قدْ خفيَ عليكَ شيءٌ مِنَ الرياءِ الذي هوَ كدبيبِ النملِ ، وكنْ علىٰ وجلٍ مِنْ عبادتِكَ أهيَ مقبولةٌ أمْ لا ؛ لخوفِكَ على الإخلاصِ فيها ، واحذرْ أنْ يتجددَ لكَ خاطرُ الركونِ إلىٰ حمدِهِمْ بعدَ الشروعِ بالإخلاصِ ، فإنَّ ذٰلكَ ممَّا يكثرُ جداً ، فإذا خطرَ لكَ . . فتفكَّرْ في اطلاعِ اللهِ تعالىٰ عليكَ ومقتِهِ لكَ ، وتذكَّرْ ما قالَهُ أحدُ النفرِ الثلاثةِ الذينَ حاجُّوا أيوبَ عليهِ السلامُ ؛ إذْ قالَ : (يا أيوبُ ؛ أما علمتَ أنَّ العبدَ تضلُّ عنهُ علانيتُهُ التي كانَ يخادعُ بها عنْ نفسِهِ ، ويُجزىٰ بسريرتِهِ ؟!) [٤] ، وقولَ بعضِهِمْ : (أعوذُ بكَ أنْ يرى الناسُ أنِّي أخشاكَ وأنتَ لي ماقتٌ) [٥] ، وكانَ مِنْ دعاءِ عليِّ بنِ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ تحسُنَ في لامعةِ العيونِ علانيتي ، وتقبُحَ لكَ فيما أخلو سريرتي ، محافظاً علىٰ رياءِ الناسِ مِنْ نفسي ، ومضيعاً لما أنتَ مطلعٌ عليهِ منِّي ، أُبدي للناسِ أحسنَ أمري ، وأفضي إليكَ بأسوأَ عملي ؛ تقرباً إلى الناسِ بحسناتي ، وفراراً منهُم إليكَ بسيئاتي ، فيحلُّ بي مقتُكَ ، ويجبُ عليَّ غضبُكَ ، أعذْني مِنْ ذٰلكَ يا ربَّ العالمينَ) [٦]

وقدْ قالَ أحدُ الثلاثةِ نفرٍ لأيوبَ عليهِ السلامُ : (يا أيوبُ ؛ ألمْ تعلمْ أنَّ الذينَ حفظوا علانيتَهُمْ وأضاعوا سرائرَهُمْ عندَ طلبِ الحاجاتِ إلى الرحمٰنِ تسودُّ وجوهُهُمْ ؟) [٧]

فهٰذهِ جملُ آفاتِ الرياءِ ، فليراقبِ العبدُ قلبَهُ ليقفَ عليها ، ففي الخبرِ : « إنَّ الرياءَ سبعونَ باباً » [٨] ، وقدْ عرفتَ أنَّ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٥٥٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٣) موقوفاً علىٰ أبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهما ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٥٦٨) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه زيادة : قالوا : يا رسول الله ؛ وما خشوع النفاق ؟ قال : « خشوع البدن ونفاق القلب » .

(٣) الرعاية (ص ٣٠٢) .

(٤) الرعاية (ص ٣٠٣) ، وذكر روايته عن وهب بن منبه .

(٥) الرعاية (ص ٣٠٣) .

(٦) الرعاية (ص ٣٠٣) .

(٧) الرعاية (ص ٣٠٣) .

(٨) نص الحافظ العراقي علىٰ تصحيف كلمة (الربا) إلىٰ (الرياء) في الحديث ، انظر « الإتحاف » (٨/٣٢٧) ، ويحتمل عكس هٰذا في

بعضَهُ أغمضُ مِنْ بعضٍ ، حتَّىٰ إنَّ بعضَهُ مثلُ دبيبِ النملِ ، وبعضَهُ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وكيفَ يُدركُ ما هوَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ إلا بشدَّةِ التفقُّدِ والمراقبةِ ؟! وليتَهُ أُدركَ بعدَ بذلِ المجهودِ ، فكيفَ يُطمعُ في إدراكِهِ مِنْ غيرِ تفقُّدٍ للقلبِ ، وامتحانٍ للنفسِ ، وتفتيشٍ عنْ خدَعِها ؟! ، نسألُ اللهَ تعالى العافيةَ بمنِّهِ وكرمِهِ وإحسانِهِ .

* * *

الحديث الذي رواه ابن عدي في « الكامل » (٣٩١/٦) مرفوعاً : « الربا اثنان وسبعون باباً ، أيسر باب فيها أخفىٰ من دبيب الذر على الصفا » ؛ للحديث المتقدم : « للشرك فيكم أخفىٰ من دبيب النمل » الذي رواه الضياء في « المختارة » (٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٢/٧) ، ولحديث ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٤٤٤) : « الربا بضع وسبعون باباً ، والشرك مثل ذلك » ، والله أعلم .

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلمْ : أنَّ أولىٰ ما يلزمُ المريدُ قلبَهُ في سائرِ أوقاتِهِ القناعةُ بعلمِ اللهِ في جميعِ طاعاتِهِ ، ولا يقنعُ بعلمِ اللهِ إلا مَنْ لا يخافُ إلا اللهَ ، ولا يرجو إلا اللهَ ، فأمَّا مَنْ خافَ غيرَهُ وارتجاهُ . . اشتهى اطلاعَهُ علىٰ محاسنِ أحوالِهِ .

فإنْ كانَ في هٰذهِ الرتبةِ . . فليلزمْ قلبَهُ كراهةَ ذٰلكَ مِنْ جهةِ العقلِ والإيمانِ ؛ لما فيهِ مِنْ خطرِ التعرضِ للمقتِ ، وليراقبْ نفسَهُ عندَ الطاعاتِ العظيمةِ الشاقَّةِ التي لا يقدرُ عليها غيرُهُ ، فإنَّ النفسَ عندَ ذٰلكَ تكادُ تغلي حرصاً على الإفشاءِ ، وتقولُ : مثلُ هٰذا العملِ العظيمِ ، أوِ الخوفِ العظيمِ ، أوِ البكاءِ العظيمِ ، لوْ عرفَهُ الخلقُ منكَ . . لسجدوا لكَ ، فما في الخلقِ مَنْ يقدرُ علىٰ مثلِهِ ، فكيفَ ترضىٰ بإخفائِهِ فيجهلَ الناسُ محلَّكَ ، وينكرونَ قدرَكَ ، ويُحرمونَ الاقتداءَ بكَ ؟

ففي مثلِ هٰذا الأمرِ ينبغي أنْ يثبتَ قدمَهُ ويتذكَّرَ في مقابلةِ عظمِ عملِهِ عظمَ ملكِ الآخرةِ ونعيمِ الجنةِ ، ودوامَها أبدَ الآبادِ ، وعظمَ غضبِ اللهِ ومقتِهِ علىٰ مَنْ طلبَ بطاعتِهِ ثواباً مِنْ عبادِهِ ، ويعلمَ أنَّ إظهارَهُ لغيرِهِ تحبُّبٌ إليهِ وسقوطٌ عندَ اللهِ ، وإحباطٌ للعملِ العظيمِ ، فيقولُ : وكيفَ أبيعُ مثلَ هٰذا العملِ بحمدِ الخلقِ وهمْ عاجزونَ لا يقدرونَ لي علىٰ رزقٍ ولا أجلٍ ؟! فيلزمُ ذٰلكَ قلبَهُ .

ولا ينبغي أنْ ييئسَ عنهُ فيقولَ : إنَّما يقدرُ على الإخلاصِ الأقوياءُ ، فأمَّا المخلِّطونَ . . فليسَ ذٰلكَ مِنْ شأنِهِمْ ، فيتركَ المجاهدَةَ في الإخلاصِ ؛ لأنَّ المخلِّطَ إلىٰ ذٰلك أحوجُ مِنَ المتقي ؛ لأنَّ المتقيَ إنْ فسدَتْ نوافلُهُ . . بقيَتْ فرائضُهُ كاملةً تامَّةً ، والمخلِّطُ لا تخلو فرائضُهُ عنِ النقصانِ والحاجةِ إلى الجبرانِ بالنوافلِ ، فإنْ لمْ تسلمْ . . صارَ مأخوذاً بالفرائضِ وهلكَ بهِ ، فالمخلِّطُ إلى الإخلاصِ أحوجُ .

وقدْ روىٰ تميمٌ الداريُّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُحاسبُ العبدُ يومَ القيامةِ ، فإنْ نقصَ فرضُهُ . . قيلَ : انظروا هلْ لهُ مِنْ تطوُّعٍ ، فإنْ كانَ لهُ تطوُّعٌ . . أُكملَ بهِ فرضُهُ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ تطوُّعٌ . . أُخذَ بطرفيهِ فأُلقيَ في النارِ »(١)

فيأتي المخلِّطُ يومَ القيامةِ وفرضُهُ ناقصٌ ، وعليهِ ذنوبٌ كثيرةٌ ، فاجتهادُهُ في جبرِ الفرائضِ وتكفيرِ السيئاتِ ، ولا يمكنُ ذٰلكَ إلا بخلوصِ النوافلِ ، وأمَّا المتقي . . فجهدُهُ في زيادةِ الدرجاتِ ، فإنْ حبطَ تطوُّعُهُ . . بقيَ مِنْ حسناتِهِ ما يترجَّحُ على السيئاتِ ؛ فيدخلُ الجنةَ .

فإذاً ؛ ينبغي أنْ يلزمَ قلبَهُ خوفَ اطلاعِ غيرِ اللهِ عليهِ لتصحَّ نوافلُهُ ، ثمَّ يلزمَ قلبَهُ ذٰلكَ بعدَ الفراغِ ؛ حتَّىٰ لا يتحدثَ بهِ ولا يظهرَهُ ، فإذا فعلَ جميعَ ذٰلكَ . . فينبغي أنْ يكونَ وجلاً مِنْ عملِهِ ، خائفاً أنَّهُ ربَّما دخلَهُ مِنَ الرياءِ الخفيِّ ما لمْ يقفْ عليهِ ، فيكونَ شاكّاً في قبولِهِ وردِّهِ ، مجوِّزاً أنْ يكونَ اللهُ قدْ أحصىٰ عليهِ مِنْ نيَّتِهِ الخفيَّةِ ما مقتَهُ بها ، وردَّ عملَهُ بسببِها .

ويكونُ هٰذا الشكُّ والخوفُ في دوامِ عملِهِ وبعدَهُ ، لا في ابتداءِ العقدِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ متيقِّناً في الابتداءِ أنَّهُ

(١) رواه أبو داوود (٨٦٦) ، وابن ماجه (١٤٢٦) .

مخلصٌ ، ما يريدُ بعملِهِ إلا اللهَ ؛ حتَّىٰ يصحَّ عملُهُ ، فإذا شرعَ ومضَتْ لحظةٌ يمكنُ فيها الغفلةُ والنسيانُ . . كانَ الخوفُ مِنَ الغفلةِ عنْ شائبةٍ خفيةٍ أحبطَتْ عملَهُ مِنْ رياءٍ أوْ عُجبٍ أولىٰ بهِ ، ولـٰكنْ يكونُ رجاؤُهُ أغلبَ مِنْ خوفِهِ ؛ لأنَّهُ استيقنَ أنَّهُ دخلَ بالإخلاصِ وشكَّ في أنَّهُ هلْ أفسدَهُ برياءٍ ، فيكونُ رجاءُ القبولِ أغلبَ ، وبذٰلكَ تعظمُ لذَّتُهُ في المناجاةِ والطاعاتِ ، فالإخلاصُ يقينٌ والرياءُ شكٌّ ، وخوفُهُ لأجلِ ذٰلكَ الشكِّ جديرٌ بأنْ يكفِّرَ خاطرَ الرياءِ إنْ كانَ قدْ سبقَ وهوَ غافلٌ عنهُ .

والذي يتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بالسعيِ في حوائجِ الناسِ وإفادةِ العلمِ ينبغي أنْ يلزِمَ نفسَهُ رجاءَ الثوابِ علىٰ دخولِ السرورِ علىٰ قلبِ مَنْ قضىٰ حاجتَهُ فقطْ ، ورجاءَ الثوابِ علىٰ عملِ المتعلِّمِ بعلمِهِ فقطْ ، دونَ شكرٍ ومكافأةٍ وحمدٍ وثناءٍ مِنَ المتعلِّمِ والمنعَمِ عليهِ ، فإنَّ ذٰلكَ يحبطُ الأجرَ ، فمهما توقَّعَ مِنَ المتعلِّمِ مساعدةً في شغلٍ وخدمةٍ ، أوْ مرافقةً في المشيِ في الطريقِ ليستكثرَ باستتباعِهِ ، أوْ تردداً منهُ في حاجةٍ . . فقدْ أخذَ أجرَهُ ؛ فلا ثوابَ لهُ غيرُهُ .

نعمْ ؛ إنْ لمْ يتوقَّعْ هوَ ولمْ يقصِدْ إلا الثوابَ علىٰ عملِهِ بعلمِهِ ليكونَ لهُ مثلُ أجرِهِ ، ولـٰكنْ خدمَهُ التلميذُ بنفسِهِ فقبلَ خدمتَهُ . . فنرجو ألا يُحبطَ ذٰلكَ أجرَهُ إذا كانَ لا ينتظرُهُ ولا يريدُهُ منهُ ، ولا يستبعدُهُ منهُ لوْ قطعَهُ ، ومعَ هـٰذا فقدْ كانَ العلماءُ يحذرونَ ذٰلكَ ، حتَّىٰ إنَّ بعضَهُمْ وقعَ في بئرٍ ، فجاءَ قومٌ وأدلَوا حبلاً ليرفعوهُ ، فحلفَ عليهِمْ ألا يقفَ معَهُمْ مَنْ قرأَ عليهِ آيةً مِنَ القرآنِ ، أوْ سمعَ منهُ حديثاً ؛ خيفةً مِنْ أنْ يحبطَ أجرُهُ .

وقالَ شقيقٌ البلخيُّ : أهديتُ لسفيانَ الثوريِّ ثوباً ، فردَّهُ عليَّ ، فقلتُ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ لستُ أنا ممَّنْ يسمعُ الحديثَ حتَّىٰ تردَّهُ عليَّ ، قالَ : علمتُ ذاكَ ، ولـٰكنْ أخوكَ يسمعُ منِّي الحديثَ ، فأخافُ أنْ يلينَ قلبي لأخيكَ أكثرَ ممَّا يلينُ لغيرِهِ[1] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ سفيانَ ببدرةٍ أو بدرتينِ وكانَ أبوهُ صديقاً لسفيانَ ، وكانَ سفيانُ يأتيهِ كثيراً ، فقالَ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ في نفسِكَ مِنْ أبي شيءٌ ؟ فقالَ : يرحمُ اللهُ أباكَ ، كانَ وكانَ ، فأثنىٰ عليهِ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ قدْ عرفتَ كيفَ صارَ إليَّ هـٰذا المالُ ، فأحبُّ أنْ تأخذَ هـٰذهِ تستعينُ بها علىٰ عيالِكَ ، قالَ : فقبلَ سفيانُ ذٰلكَ ، قالَ : فلمَّا خرجَ . . قالَ لولدِهِ : يا مباركُ[2] ؛ الحقْهُ فردُّهُ عليَّ ، فرجعَ ، فقالَ : أحبُّ أنْ تأخذَ مالَكَ ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ ردَّهُ عليهِ ، وكأنَّهُ كانَتْ أخوَّتُهُ معَ أبيهِ في اللهِ تعالىٰ ، فكرهَ أنْ يأخذَ ذٰلكَ ، قالَ ولدُهُ : فلمَّا خرجَ . . لمْ أملكْ نفسي أنْ جئتُ إليهِ فقلتُ : ويلَكَ ؛ أيُّ شيءٍ قلبُكَ هـٰذا ؟ حجارةٌ ؟ عُدَّ أنَّهُ ليسَ لكَ عيالٌ ، أما ترحمُني ؟ أما ترحمُ إخوتَكَ ؟ أما ترحمُ عيالَنا ؟ فأكثرتُ عليهِ ، فقالَ : اللهَ يا مباركُ ، تأكلُها أنتَ هنيئاً مريئاً وأُسألُ عنها أنا ؟![3] .

فإذاً ؛ يجبُ على العالمِ أنْ يلزِمَ قلبَهُ طلبَ الثوابِ مِنَ اللهِ تعالىٰ في اهتداءِ الناسِ بهِ فقطْ ، ويجبُ على المتعلِّمِ أنْ يلزِمَ قلبَهُ طلبَ حمدِ اللهِ وثوابِهِ ، ونيلَ المنزلةِ عندَهُ لا عندَ المعلِّمِ وعندَ الخلقِ ، وربَّما يظنُّ أنَّ لهُ أنْ يرائيَ بطاعتِهِ لينالَ عندَ المعلِّمِ رتبةً فيتعلَّمَ منهُ ، وهوَ خطأٌ ؛ لأنَّ إرادتَهُ غيرَ اللهِ بطاعتِهِ خسرانٌ في الحالِ ، والعلمُ ربَّما يفيدُ وربَّما لا يفيدُ ، فكيفَ يخسرُ في الحالِ عملاً نقداً علىٰ توهُّمِ علمٍ ؟! وذٰلكَ غيرُ جائزٍ ، بلْ ينبغي أنْ يتعلمَ للهِ ؛ ويعبدَ للهِ ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣) .

(٢) مبارك هـٰذا هو مبارك بن سعيد الثوري أخو سفيان ، وليس هو ولده كما أورده المصنف ، بل هو راوي الخبر كما في « الحلية » (٧/٣) .

(٣) الخبر ـ كما أشير ـ رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣) .

ويخدمَ المعلِّمَ للهِ ؛ لا ليكونَ لهُ في قلبِهِ منزلةٌ وإنْ كانَ يريدُ أنْ يكونَ تعلُّمُهُ طاعةً ؛ فإنَّ العبادَ أُمروا ألا يعبدوا إلا اللهَ ، ولا يريدوا بطاعتِهِمْ غيرَهُ .

وكذٰلكَ مَنْ يخدمُ أبويهِ لا ينبغي أنْ يخدمَهُما لطلبِ المنزلةِ عندَهُما ، إلا مِنْ حيثُ إنَّ رضا اللهِ في رضا الوالدينِ ، ولا يجوزُ لهُ أنْ يُرائيَ بطاعتِهِ لينالَ بها منزلةً عندَ الوالدينِ ، فإنَّ ذٰلكَ معصيةٌ في الحالِ ، وسيكشفُ اللهُ عنْ ريائِهِ ، وتسقطُ منزلتُهُ مِنْ قلبِ الوالدينِ أيضاً .

وأما الزاهدُ المعتزلُ عنِ الناسِ . . فينبغي لهُ أنْ يلزمَ قلبَهُ ذكرَ اللهِ والقناعةَ بعلمِهِ ، ولا يخطِرَ بقلبِهِ معرفةَ الناسِ زهدَهُ واستعظامَهُمْ محلَّهُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يغرسُ الرياءَ في صدرِهِ حتَّىٰ تتيسَّرَ عليهِ العباداتُ في خلوتِهِ ؛ وإنَّما سكونُهُ لمعرفةِ الناسِ باعتزالِهِ واستعظامِهِمْ لمحلِّهِ وهوَ لا يدري أنَّهُ المخفِّفُ للعملِ عليهِ .

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمَهُ اللهُ : تعلَّمتُ المعرفةَ مِنْ راهبٍ يُقالُ لهُ : سمعانُ ، دخلتُ عليهِ في صومعتِهِ ، فقلتُ : يا سمعانُ ؛ منذُ كَمْ أنتَ في صومعتِكَ ؟ قالَ : منذُ سبعينَ سنةً ، قلتُ : فما طعامُكَ ؟ قالَ : يا حنيفيُّ ؛ وما دعاكَ إلىٰ هٰذا ؟ قلتُ : أحببتُ أنْ أعلمَ ، قالَ : في كلِّ ليلةٍ حمِّصَةٌ ، قلتُ : فما الذي يهيجُ مِنْ قلبِكَ حتَّىٰ تكفيكَ هٰذهِ الحمِّصَةُ ؟ قالَ : ترى الديرَ الذي بحذائِكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : إنَّهمْ يأتوني في كلِّ سنةٍ يوماً واحداً فيزيّنونَ صومعتي ، ويطوفونَ حولَها ويعظمونني ، فكلَّما تثاقلَتْ نفسي عنِ العبادةِ . . ذكَّرتُها عِزَّ تلكَ الساعةِ ، فأنَا أحتملُ جهدَ سنةٍ لعزِّ ساعةٍ ، فاحتملْ يا حنيفيُّ جهدَ ساعةٍ لعزِّ الأبدِ ، فوقرَ في قلبِي المعرفةُ ، فقالَ : حسبُكَ أوْ أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ ، قالَ : انزلْ عنِ الصومعةِ ، فنزلتُ ، فأدلىٰ لي ركوةً فيها عشرونَ حمِّصةً ، فقالَ لي : ادخلِ الديرَ فقدْ رأَوا ما أدليتُ إليكَ ، فلمَّا دخلتُ الديرَ . . اجتمعَتْ عليَّ النصارىٰ ، فقالوا : يا حنيفيُّ ؛ ما الذي أدلىٰ إليكَ الشيخُ ؟ قلتُ : مِنْ قوتِهِ ، قالوا : وما تصنعُ بِهِ ؟ نحنُ أحقُّ بِهِ ، ثمَّ قالوا : ساومْ ، قلتُ : عشرونَ ديناراً ، فأعطَوني عشرينَ ديناراً ، فرجعتُ إلى الشيخِ ، فقالَ : يا حنيفيُّ ؛ ما الذي صنعتَ ؟ قلتُ : بعتُهُ منهُمْ ، قالَ : بكمْ ؟ قلتُ : بعشرينَ ديناراً ، قالَ : أخطأتَ ، لوْ ساومتَهُمْ بعشرينَ ألفَ دينارٍ . . لأعطَوكَ ، هٰذا عزُّ مَنْ لا تعبدُهُ ، فانظرْ كيفَ يكونُ عزُّ مَنْ تعبدُهُ ، يا حنيفيُّ أقبلْ علىٰ ربِّكَ ، ودعِ الذهابَ والجيئةَ (١)

والمقصودُ : أنَّ استشعارَ النفسِ عزَّ العظمةِ في القلوبِ يكونُ باعثاً في الخلوةِ وقدْ لا يشعرُ العبدُ بهِ ، فينبغي أنْ يلزمَ نفسَهُ الحذرَ منهُ ، **وعلامةُ سلامتِهِ** : أنْ يكونَ الخلقُ عندَهُ والبهائمُ بمثابةٍ واحدةٍ ، فلوْ تغيَّروا عنِ اعتقادِهِمْ لهُ . . لمْ يجزعْ ، ولمْ يضقْ بهِ ذرعاً إلا كراهةً ضعيفةً إنْ وجدَها في قلبِهِ فيردُّها في الحالِ بعقلِهِ وإيمانِهِ ، وأنَّهُ لوْ كانَ في عبادةٍ فاطلعَ الناسُ كلُّهُمْ عليهِ . . لمْ يزدْهُ ذٰلكَ خشوعاً ، ولمْ يدخلْهُ سرورٌ بسببِ اطلاعِهِمْ عليهِ ، فإنْ دخلَ سرورٌ يسيرٌ . . فهوَ دليلُ ضعفِهِ ، ولٰكنْ إذا قدرَ علىٰ ردِّهِ بكراهةِ العقلِ والإيمانِ ، وبادرَ إلىٰ ذٰلكَ ، ولمْ يقبلِ السرورَ بالركونِ إليهِ . . فيُرجىٰ لهُ ألا يخيبَ سعيُهُ إلا أنْ يزيدَ عندَ مشاهدتِهِمْ في الخشوعِ والانقباضِ ؛ كي لا ينبسطوا إليهِ ، فذٰلكَ لا بأسَ بهِ ، ولٰكنْ فيهِ غرورٌ ؛ إذِ النفسُ قدْ تكونُ شهوتُها الخفيةُ إظهارَ الخشوعِ ، وتتعلَّلُ بطلبِ الانقباضِ ، فليطالبْها في دعواها قصدَ الانقباضِ بموثقٍ مِنَ اللهِ غليظٍ ، وهوَ أنَّهُ لوْ علمَ أنَّ انقباضَهُمْ عنهُ إنَّما يحصلُ بأنْ يعدوَ سريعاً أوْ يأكلَ أوْ يضحكَ كثيراً . . فتسمحُ نفسُهُ بذٰلكَ ؟ فإذا لمْ تسمحْ بهِ وسمحَتْ بالعبادةِ . . فيشبهُ أنْ يكونَ مرادُها المنزلةَ عندَهُمْ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٩) ، واسم الراهب عنده أبو سمعان .

ولا ينجو مِن ذٰلكَ إلا مَنْ تقرَّرَ في قلبِهِ أنَّهُ ليسَ في الوجودِ أحدٌ سوى اللهِ ، فيعملُ عملَ مَنْ لوْ كانَ علىٰ وجهِ الأرضِ وحدَهُ . . لكانَ يعملُهُ ، فلا يلتفتُ قلبُهُ إلى الخلقِ إلا خطراتٍ ضعيفةً لا يشقُّ عليهِ إزالتُها ، فإذا كانَ كذٰلكَ . . لمْ يتغيَّرْ بمشاهدةِ الخلقِ ، ومِنْ علامةِ الصدقِ فيهِ : أنَّهُ لوْ كانَ لهُ صاحبانِ ؛ أحدُهما غنيٌّ والآخرُ فقيرٌ . . فلا يجدُ عندَ إقبالِ الغنيِّ زيادةَ هِزَّةٍ في نفسِهِ لإكرامِهِ إلا إذا كانَ في الغنيِّ زيادةُ علمٍ أوْ زيادةُ ورعٍ ، فيكونُ مكرماً لهُ بذٰلكَ الوصفِ لا بالغنىٰ ، فمَنْ كانَ استرواحُهُ إلىٰ مشاهدةِ الأغنياءِ أكثرَ . . فهوَ مراءٍ أوْ طمَّاعٌ ، وإلا . . فالنظرُ إلى الفقراءِ يزيدُ في الرغبةِ إلى الآخرةِ ، ويحبِّبُ إلى القلبِ المسكنةَ ، والنظرُ إلى الأغنياءِ بخلافِهِ ، فكيفَ يستروحُ إلى الغنيِّ أكثرَ ممَّا يستروحُ إلى الفقيرِ ؟!

وقدْ حُكيَ أنَّهُ لمْ يُرَ الأغنياءُ في مجلسٍ أذلَّ منهُمْ في مجلسِ سفيانَ الثوريِّ ، كانَ يجلسُهُمْ وراءَ الصفِّ ويقدِّمُ الفقراءَ ، حتَّىٰ كانوا يتمنَّونَ أنَّهُمْ فقراءُ في مجلسِهِ (١)

نعمْ ؛ لكَ زيادةُ إكرامٍ للغنيِّ إذا كانَ أقربَ إليكَ أوْ كانَ بينَكَ وبينَهُ حقٌّ وصداقةٌ سابقةٌ ، ولٰكنْ يكونُ بحيثُ لوْ وُجدَتْ تلكَ العلاقةُ في فقيرٍ . . لكنتَ لا تقدِّمُ الغنيَّ عليهِ في إكرامٍ وتوقيرٍ ألبتةَ ؛ فإنَّ الفقيرَ أكرمُ على اللهِ مِنَ الغنيِّ ، فإيثارُكَ لهُ لا يكونُ إلا طمعاً في غناهُ ورياءً لهُ .

ثمَّ إذا سوَّيتَ بينَهُما في المجالسةِ . . فيُخشىٰ عليكَ أنْ تظهِرَ الحكمةَ والخشوعَ للغنيِّ أكثرَ ممَّا تظهرُهُ للفقيرِ ، وإنَّما ذٰلكَ لرياءٍ خفيٍّ أوْ طمعٍ خفيٍّ ؛ كما قالَ ابنُ السمَّاكِ لجاريةٍ لهُ : ما لي إذا أتيتُ بغدادَ فُتِحَتْ ليَ الحكمةُ ؟ قالَتْ : الطمعُ يشحذُ لسانَكَ (٢) ، وقدْ صدقَتْ ؛ فإنَّ اللسانَ ينطلقُ عندَ الغنيِّ بما لا ينطلقُ بهِ عندَ الفقيرِ ، وكذٰلكَ يحضرُ مِنَ الخشوعِ عندَهُ ما لا يحضرُ عندَ الفقيرِ .

ومكائدُ النفسِ وخفاياها في هٰذا الفنِّ لا تنحصرُ ، ولا ينجيكَ منها إلا أنْ تخرجَ ما سوى اللهِ مِنْ قلبِكَ ، وتتجرَّدَ بالشفقةِ علىٰ نفسِكَ بقيةَ عمرِكَ ، ولا ترضىٰ لها بالنارِ بسببِ شهواتٍ منغصةٍ في أيامٍ متقاربةٍ منقضيةٍ ، وتكونَ في الدنيا كملِكٍ مِنْ ملوكِ الدنيا قدْ أمكنَتْهُ الشهواتُ وساعدَتْهُ اللذاتُ ، ولٰكنْ في بدنِهِ سقمٌ ، وهوَ يخافُ الهلاكَ علىٰ نفسِهِ في كلِّ ساعةٍ لوِ اتسعَ في الشهواتِ ، وعلمَ أنَّهُ لوِ احتمىٰ وجاهدَ نفسَهُ . . عاشَ ودامَ ملكُهُ ، فلمَّا عرفَ ذٰلكَ . . جالسَ الأطباءَ ، وحارفَ الصيادلةَ (٣) ، وعوَّدَ نفسَهُ شربَ الأدويةِ المرَّةِ ، فصبرَ علىٰ بشاعتِها ، وهجرَ جميعَ اللذاتِ ، وصبرَ علىٰ مفارقتِها ، فبدنُهُ كلَّ يومٍ يزدادُ نحولاً لقلَّةِ أكلِهِ ، ولٰكنَّ سقمَهُ كلَّ يومٍ يزدادُ نقصاناً ؛ لشدَّةِ احتمائِهِ ، فمهما نازعَتْهُ نفسُهُ إلىٰ شهوةٍ . . تفكَّرَ في توالي الآلامِ والأوجاعِ عليهِ ، وأداءِ ذٰلكَ إلى الموتِ المفرِّقِ بينَهُ وبينَ مملكتِهِ ، الموجبِ لشماتةِ أعدائِهِ بهِ ، ومهما اشتدَّ عليهِ شربُ دواءٍ . . تفكَّرَ فيما يستفيدُهُ منهُ مِنَ الشفاءِ الذي هوَ سببُ التمتُّعِ بملكِهِ ونعيمِهِ ، في عيشٍ هنيءٍ ، وبدنٍ صحيحٍ ، وقلبٍ رخيٍّ ، وأمرٍ نافذٍ ، فتخفُّ عليهِ مهاجرةُ اللذاتِ ، ومصابرةُ المكروهاتِ .

فكذٰلكَ المؤمنُ المريدُ لملكِ الآخرةِ احتمىٰ عنْ كلِّ مهلكٍ لهُ في آخرتِهِ ، وهيَ لذاتُ الدنيا وزهرتُها ، فاجتزأَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٦٥) .
(٢) الرعاية (ص ٣٠٦) .
(٣) حارف : مال ونادم .

منها بالقليلِ ، واختارَ النحولَ والذبولَ والوحشةَ والحزنَ والخوفَ ، وتركَ المؤانسةِ بالخلقِ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يحلَّ عليهِ غضبُ اللهِ فيهلكَ ، ورجاءَ أنْ ينجوَ مِنْ عذابِهِ ، فخفَّ ذٰلكَ كلُّهُ عليهِ عندَ شدَّةِ يقينِهِ وإيمانِهِ بعاقبةِ أمرِهِ ، وبما أُعدَّ لهُ مِنَ النعيمِ المقيمِ في رضوانِ اللهِ أبدَ الآبادِ ، ثمَّ علمَ أنَّ اللهَ كريمٌ رحيمٌ ، لمْ يزلْ لعبادِهِ المريدينَ لمرضاتِهِ عوناً ، وبهِمْ رؤوفاً ، وعليهِمْ عطوفاً ، ولوْ شاءَ . . لأغناهُمْ عنِ التعبِ والنصبِ ، ولٰكنْ أرادَ أنْ يبلوَهُمْ ، ويعرفَ صدقَ إرادتِهِمْ ؛ حكمةً مِنهُ وعدلاً .

ثمَّ إذا تحمَّلَ التعبَ في بدايتِهِ . . أقبلَ اللهُ عليهِ بالمعونةِ والتيسيرِ ، وحطَّ عنهُ الأعباءَ ، وسهَّلَ عليهِ الصبرَ ، وحبَّبَ إليهِ الطاعةَ ، ورزقَهُ فيها مِنْ لذَّةِ المناجاةِ ما يلهيهِ عنْ سائرِ اللذاتِ ، ويقوِّيهِ على إماتةِ الشهواتِ ، وولِيَ سياستَهُ وتقويتَهُ ، وأمدَّهُ بمعونتِهِ ، فإنَّ الكريمَ لا يضيِّعُ سعيَ الراجي ، ولا يخيِّبُ أملَ المحبِّ ، وهوَ الذي يقولُ : « مَنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً . . تقرَّبتُ إليهِ ذراعاً »[1] ، ويقولُ تعالىٰ : « لقدْ طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائي ، وإنِّي إلىٰ لقائِهِمْ أشدُّ شوقاً »[2]

فليظهرِ العبدُ في البدايةِ جدَّهُ وصدقَهُ وإخلاصَهُ ، فلا يعوزُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ على القربِ ما هوَ اللائقُ بجودِهِ وكرمِهِ ، ورأفتِهِ ورحمتِهِ .

❀ ❀ ❀

تمّ كتاب ذمّ الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين

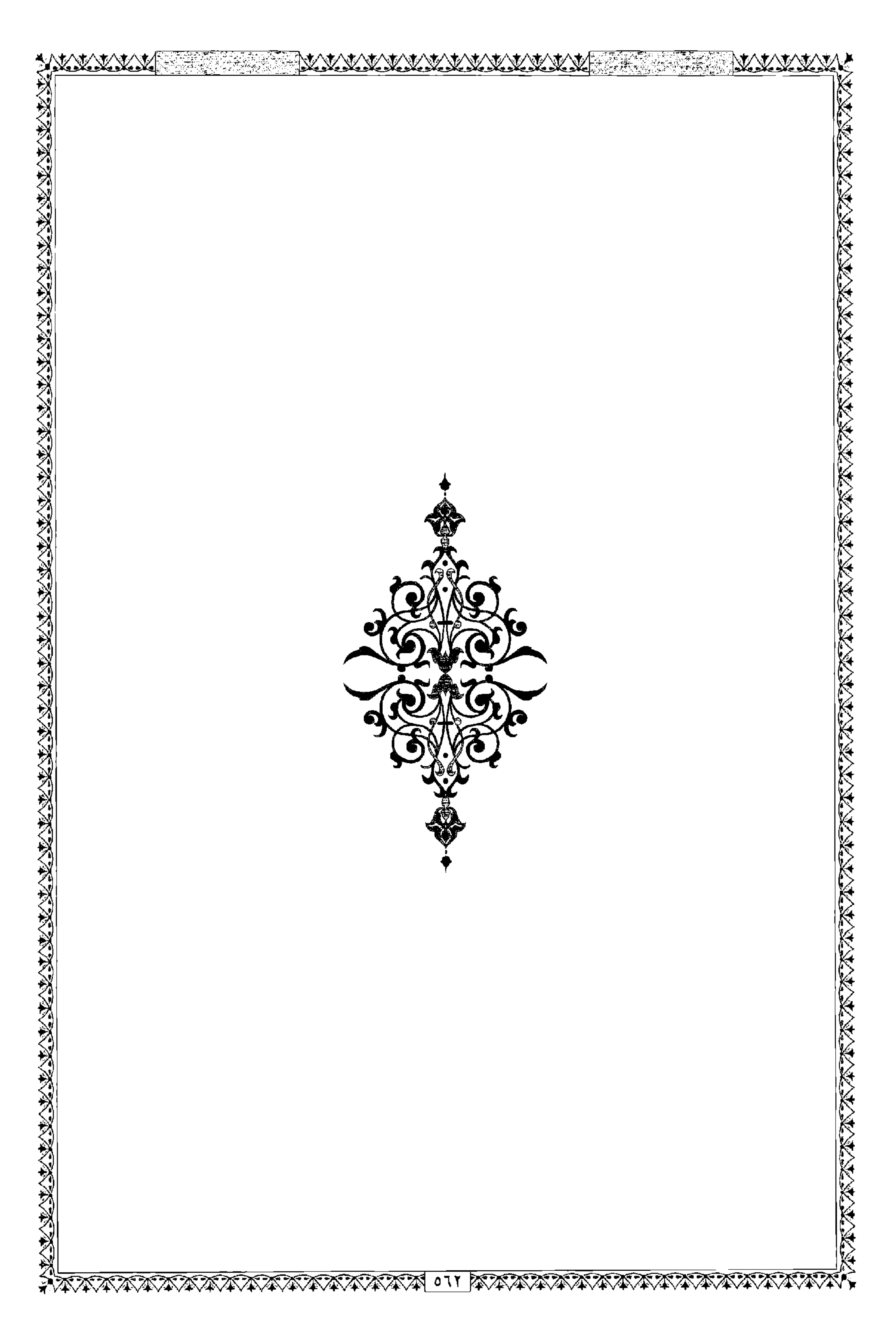
والصّلاة والسّلام على رسوله محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب ذمّ الكبر والعجب

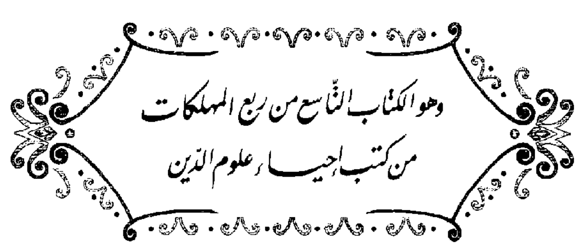
---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥)

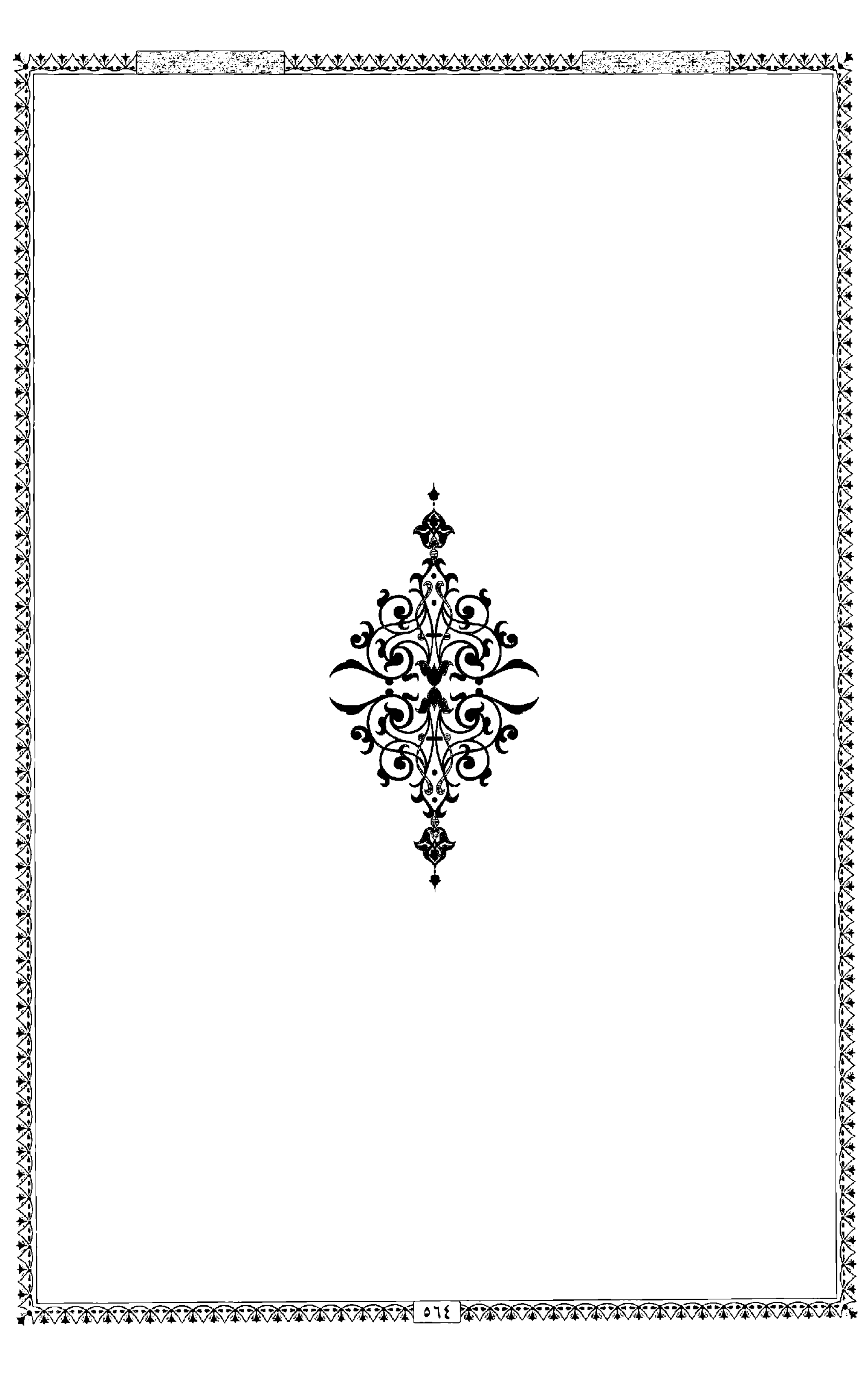
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٣) من كلام سهل بن عبد الله يحكيه حديثاً قدسياً ، والمقدسي في « الترغيب في الدعاء » (ص ٥٣) من كلام أحمد بن مخلد الخراساني مثله ، وقد ذكره الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .



كتاب ذم الكبر والعجب



وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب ذمّ الكبر والعجب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الخالقِ البارئِ المصوِّرِ ، العزيزِ الجبَّارِ المتكبِّرِ ، العليِّ الذي لا يضعُهُ عنْ مجدِهِ واضعٌ ، الجبَّارِ الذي كلُّ جبَّارٍ لهُ ذليلٌ خاضعٌ ، وكلُّ متكبِّرٍ في جنابِ عزِّهِ مستكينٌ متواضعٌ ؛ فهوَ القهَّارُ الذي لا يدفعُهُ عنْ مرادِهِ دافعٌ ، الغنيُّ الذي ليسَ لهُ في ملكِهِ شريكٌ ولا منازعٌ ، القادرُ الذي بهرَ أبصارَ الخلائقِ جلالُهُ وبهاؤُهُ ، وقهرَ العرشَ المجيدَ استواؤُهُ واستعلاؤُهُ واستيلاؤُهُ ، وحصرَ ألسنَ الأنبياءِ وصفُهُ وثناؤُهُ[1] ، وارتفعَ عنْ حدِّ قدرتِهِمْ إحصاؤُهُ واستقصاؤُهُ ، فاعترفَ بالعجزِ عنْ وصفِ كُنْهِ جلالِهِ ملائكتُهُ وأنبياؤُهُ ، وكسرَ ظهورَ الأكاسرةِ عزُّهُ وعلاؤُهُ ، وقصرَ أيديَ القياصرةِ عظمتُهُ وكبرياؤُهُ ، فالعظمةُ إزارُهُ ، والكبرياءُ رداؤُهُ ، ومَنْ نازعَهُ فيهما . . قصمَهُ بداءِ الموتِ فأعجزَهُ دواؤُهُ ، جلَّ جلالُهُ وتقدَّسَتْ أسماؤُهُ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ الذي أُنزلَ معَهُ النورُ المنتشرُ ضياؤُهُ ، حتَّىٰ أشرقَتْ بنورِهِ أكنافُ العالمِ وأرجاؤُهُ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ هُمْ أحبَّاءُ اللهِ وأولياؤُهُ ، وخيرتُهُ وأصفياؤُهُ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالى : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ؛ فمَنْ نازعَني فيهما . . قصمتُهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[3] . فالكبرُ والعجبُ داءانِ مهلكانِ ، والمتكبِّرُ والمعجبُ سقيمانِ مريضانِ ، وهما عندَ اللهِ ممقوتانِ بغيضانِ .

وإذا كانَ القصدُ في هٰذا الربعِ مِنْ كتابِ « إحياءِ علومِ الدينِ » شرحَ المهلكاتِ . . وجبَ إيضاحُ الكبْرِ والعجْبِ ؛ فإنَّهُما مِنْ قبائحِ المردياتِ ، ونحنُ نستقصي بيانَهُما مِنَ الكتابِ في شطرينِ : شطرٌ في الكبرِ ، وشطرٌ في العجبِ .

* * *

---

(١) حصر هنا : من الحَصَر ، والمراد عجز العبارة عن الإحاطة بكنه الثناء عليه سبحانه .

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

الشَّطرُ الأوَّلُ مِنَ الكِتَاب

في الكبر

وفيهِ بيانُ ذمّ الكبرِ ، وبيانُ ذمّ الاختيالِ ، وبيانُ فضيلةِ التواضعِ ، وبيانُ حقيقةِ الكبْرِ وآفتِهِ ، وبيانُ مَنْ يُتكبَّرُ عليهِ ، ودرجاتُ الكبْرِ ، وبيانُ ما بهِ التكبرُ ، وبيانُ البواعثِ على التكبُّرِ ، وبيانُ أخلاقِ المتواضعينَ وما فيهِ يظهرُ الكبرُ ، وبيانُ علاجِ الكبرِ ، وبيانُ امتحانِ النفسِ في خُلُقِ الكبرِ ، وبيانُ المحمودِ مِنْ خُلُقِ التواضعِ والمذمومِ مِنهُ .

بيان ذمّ الكبر

قدْ ذمَّ اللهُ تعالى الكبرَ في مواضعَ مِنْ كتابهِ ، وذمَّ كلَّ جبَّارٍ متكبّرٍ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . **وذمُّ الكبْرِ في القرآنِ كثيرٌ .**

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ كبْرٍ ، ولا يدخلُ النارَ رجلٌ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ إيمانٍ »[(١)]

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **يقولُ اللهُ تعالى** : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ؛ فمَنْ نازعَني واحداً منهُما . . **ألقيتُهُ في جهنَّمَ** ولا أبالي »[(٢)]

وعنْ أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرحمـٰنِ قالَ : التقىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وعبدُ اللهِ بنُ عمرٍو على المروةِ فتواقفا ، فمضى ابنُ عمرٍو وأقامَ ابنُ عمرَ يبكي ، فقالوا : ما يبكيكَ يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؟ قالَ : هـٰذا ـ يعني : عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو ـ زعَمَ أنَّهُ

(١) رواه مسلم (١٤٨/٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) .

سمعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ كبرٍ . . أكبَّهُ اللهُ في النارِ علىٰ وجهِهِ »[(١)]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزالُ الرجلُ يذهبُ بنفسِهِ حتَّىٰ يُكتبَ في الجبَّارينَ ، فيصيبَهُ ما أصابَهُمْ مِنَ العذابِ »[(٢)]

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ يوماً للطيرِ والإنسِ والجنِّ والبهائمِ : اخرجوا ، فخرجوا في مئتي ألفٍ مِنَ الإنسِ ، ومئتي ألفٍ مِنَ الجنِّ ، فرُفعَ حتَّىٰ سمعَ زَجَلَ الملائكةِ بالتسبيحِ في السماواتِ ، ثمَّ خُفِضَ حتَّىٰ مسَّتْ قدماهُ البحرَ ، فسمعَ صوتاً : لوْ كانَ في قلبِ صاحبِكُمْ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ كبرٍ . . لخسفتُ بهِ أبعدَ ممَّا رفعتُهُ[(٣)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يخرجُ مِنَ النارِ عُنُقٌ لهُ عينانِ تبصرانِ ، وأذنانِ تسمعانِ ، ولسانٌ ينطقُ ، يقولُ : وُكِّلْتُ بثلاثةٍ ؛ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ ، وبكلِّ مَنْ دعا معَ اللهِ إلـٰهاً آخرَ ، وبالمصوِّرينَ »[(٤)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ بخيلٌ ولا جبارٌ ولا سيِّئُ الملكَةِ »[(٥)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحاجَّتِ الجنَّةُ والنارُ ؛ فقالَتِ النارُ : أُوثِرتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ ، وقالَتِ الجنَّةُ : ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاءُ الناسِ وسقَّاطُهُمْ وعجزتُهُمْ ؟ فقالَ اللهُ تعالىٰ للجنَّةِ : إنَّما أنتِ رحمتي ، أرحمُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عبادي ، وقالَ للنَّارِ : إنَّما أنتِ عذابي ، أعذِّبُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عبادي ، ولكلِّ واحدةٍ منكُما ملؤُها »[(٦)]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بئسَ العبدُ عبدٌ تجبَّرَ واعتدىٰ ونسيَ الجبَّارَ الأعلىٰ ، بئسَ العبدُ عبدٌ تجبَّرَ واختالَ ونسيَ الكبيرَ المتعالِ ، بئسَ العبدُ عبدٌ غفلَ وسها ولها ونسيَ المقابرَ والبِلىٰ ، بئسَ العبدُ عبدٌ عتا وبغىٰ ونسيَ المُبتدأَ والمُنتهىٰ »[(٧)]

وعنْ ثابتٍ أنَّهُ قالَ : بلغَنا أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما أعظمَ كبْرَ فلانٍ !! فقالَ : « أليسَ بعدَهُ الموتُ ؟! »[(٨)]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ نوحاً عليهِ السلامُ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ . . دعا ابنيهِ وقالَ : إنِّي آمرُكُما باثنتينِ وأنهاكُما عنِ اثنتينِ ؛ أنهاكُما عنِ الشركِ والكبرِ ، وآمرُكُما بلا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ؛ فإنَّ السماواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ لوْ وُضعَتْ في كِفَّةِ الميزانِ ووُضعَتْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ في الكِفَّةِ الأخرىٰ . . كانَتْ أرجحَ منهُما ، ولوْ أنَّ السماواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ كانتا حلقةً فوُضعَتْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ عليها . . لقصمَتْها ، وآمرُكُما بسبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ؛ فإنَّها صلاةُ كلِّ شيءٍ ، وبها يُرزقُ كلُّ شيءٍ »[(٩)]

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٢١٥) .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٩٨) بتمامه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٩٩) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٧٤) ، والعنق هنا : طائفة وجانب من النار ، فهو وصف لنار جهنم كما ذكره الإمام ابن العربي في « عارضة الأحوذي » (١٠/٤٤) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (١/٤) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٦١ ـ ٣٦٢) ، وفيه : (خائن) بدل (جبار) .

(٦) رواه البخاري (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) .

(٧) رواه الترمذي (٢٤٤٨) بتقديم وتأخير وزيادة .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٥) كما أورده المصنف مرسلاً .

(٩) رواه أحمد في « المسند » (٢/١٦٩) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٦) واللفظ له .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ لمَنْ علَّمَهُ اللهُ كتابَهُ ثمَّ لمْ يمُتْ جبَّاراً)[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ النارِ كلُّ جَعْظَرِيٍّ جوَّاظٍ مستكبرٍ جمَّاعٍ منَّاعٍ ، وأهلُ الجنةِ الضعفاءُ المغلَّبونَ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّكُمْ إلينا وأقربَكُمْ منَّا في الآخرةِ . . أحاسنُكُمْ أخلاقاً ، وإنَّ أبغضَكُمْ إلينا وأبعدَكُمْ منَّا . . الثرثارونَ المتشدِّقونَ المتفيهقونَ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ قدْ علمنا الثرثارونَ والمتشدِّقونَ ، فما المتفيهقونَ ؟ قال : « المتكبِّرونَ »[٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ المتكبِّرونَ يومَ القيامةِ ذرّاً في مثلِ صورِ الرِّجالِ ، يعلوهُمْ كلُّ شيءٍ مِنَ الصَّغارِ ، ثمَّ يُساقونَ إلىٰ سجنٍ في جهنَّمَ يُقالُ لهُ : بُولَسُ ، تعلوهُمْ نارُ الأنيارِ ، يُسقونَ مِنْ طينِ الخبالِ عصارةِ أهلِ النارِ »[٤]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الجبَّارونَ والمتكبِّرونَ يومَ القيامةِ في صُوَرِ الذَّرِّ يطؤُهُمُ الناسُ لهوانِهِمْ على اللهِ تعالىٰ »[٥]

وعنْ محمدِ بنِ واسعٍ قالَ : دخلتُ علىٰ بلالِ بنِ أبي بُردةَ ، فقلتُ لهُ : يا بلالُ ؛ إنَّ أباكَ حدَّثَني عنْ أبيهِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ في جهنَّمَ وادياً يُقالُ لهُ : هَبْهَبُ ، حقٌّ على اللهِ أنْ يسكنَهُ كلَّ جبَّارٍ » فإيَّاكَ يا بلالُ أنْ تكونَ ممَّنْ يسكنُهُ[٦]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في النارِ قصراً يُجعلُ فيهِ المتكبرونَ ويُطبقُ عليهِمْ »[٧]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهُمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ نفخةِ الكبرياءِ »[٨]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ فارقَ روحُهُ جسدَهُ وهوَ بريءٌ مِن ثلاثةٍ . . دخلَ الجنةَ ؛ الكبرُ والغلولُ والدَّينُ »[٩] .

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تحقرنَّ أحداً مِنَ المسلمينَ ؛ فإنَّ صغيرَ المسلمينَ عندَ اللهِ كبيرٌ)[١٠]

وقالَ وهبٌ : (لمَّا خلقَ اللهُ تعالىٰ جنةَ عدنٍ . . نظرَ إليها فقالَ : أنتِ حرامٌ علىٰ كلِّ متكبِّرٍ) .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٠٧) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/٢١٤) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٠) ، والمغلبون : الذين يُغلبون كثيراً .
(٣) رواه الترمذي (٢٠١٨) .
(٤) رواه الترمذي (٢٤٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٣) ، والأنيار : جمع نار ؛ أي : نار النيران .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٤) .
(٦) رواه الدارمي في « سننه » (٢٨٥٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٧٢٤٩) .
(٧) كذا رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٧٧) من قول محمد بن المنكدر ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٨٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « إن المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توابيت من نار فيقفل عليهم » ، ورواه بنحوه (٧٨٣٨) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٨) رواه أبو داوود (٧٦٤) ، ولفظه : « أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه » ، قال ـ عمرو بن مرة ، أحد الرواة ـ : ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه المُوتَة ، والموتة : الصرع أو الجنون ، وعند الحاكم في « المستدرك » (١/٢٠٧) : « ونفخه الكبرياء » .
(٩) رواه الترمذي (١٥٧٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٧١١) ، وابن ماجه (٢٤١٢) .
(١٠) كذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٨١٣) من حديثه رضي الله عنه .

وكانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ يجلسُ معَ مصعبِ بنِ الزبيرِ علىٰ سريرِهِ ، فجاءَ يوماً ومصعبٌ مادٌّ رجليهِ ، فلمْ يقبضْهُما وقعدَ الأحنفُ فزحمَهُ بعضَ الزحمةِ ، فرأىٰ أثرَ ذٰلكَ في وجهِهِ ، فقالَ : عجباً لابنِ آدمَ يتكبَّرُ وقدْ خرجَ مِنْ مجرى البولِ مرَّتينِ (١)

وقالَ الحسنُ : (العجبُ مِنِ ابنِ آدمَ !! يغسلُ الخُرْءَ بيدِهِ كلَّ يومٍ مرةً أوْ مرّتينِ ثمَّ يتكبَّرُ يعارضُ جبَّارَ السماواتِ) (٢) .

وقدْ قيلَ في ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ : هوَ سبيلُ الغائطِ والبولِ (٣)

وقالَ محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ : (ما دخلَ قلبَ امرئٍ شيءٌ مِنَ الكبْرِ قطُّ إلا نقصَ مِنْ عقلِهِ بقدْرِ ما دخلَ مِنْ ذٰلكَ ، قلَّ أو كثُرَ) (٤)

وسُئِلَ سلمانُ عنِ السيئةِ التي لا تنفعُ معها حسنةٌ ، فقالَ : الكبرُ (٥)

وقالَ النعمانُ بنُ بشيرٍ على المنبرِ : (إنَّ للشيطانِ مصاليَ وفخوخاً ، وإنَّ مِنْ مصالي الشيطانِ وفخوخِهِ البطرَ بأنعمِ اللهِ ، والفخرَ بإعطاءِ اللهِ ، والكبرَ علىٰ عبادِ اللهِ ، واتباعَ الهوىٰ في غيرِ ذاتِ اللهِ) (٦) ، نسألُ اللهَ تعالى العفوَ والعافيةَ في الدنيا والآخرةِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٢) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٩) .
(٦) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٥٣) .

بيان ذمّ الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجرّ الثياب

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينظرُ اللهُ إلىٰ رجلٍ يجرُّ إزارَهُ بطراً »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَما رجلٌ يتبخترُ في بُرْديهِ قدْ أعجبَتْهُ نفسُهُ . . إذْ خسفَ اللهُ بهِ الأرضَ ، فهوَ يتجلجلُ فيها إلىٰ يومِ القيامةِ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جرَّ ثوبَهُ خيلاءَ . . لا ينظرُ اللهُ إليهِ يومَ القيامةِ »(٣)

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : دخلتُ على ابنِ عمرَ ، فمرَّ بهِ عبدُ اللهِ بنُ واقدٍ وعليهِ ثوبٌ جديدٌ ، فسمعتُهُ يقولُ : أيْ بُنيَّ ؛ ارفعْ إزارَكَ ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا ينظرُ اللهُ إلىٰ مَنْ جرَّ إزارَهُ خيلاءَ »(٤)

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بصقَ يوماً في كفِّهِ ، ووضعَ إصبعَهُ عليهِ وقالَ : « يقولُ اللهُ تعالى : ابنَ آدمَ ؛ أتعجزُني وقدْ خلقتُكَ مِنْ مثلِ هـٰذهِ ؟! حتَّىٰ إذا سوَّيتُكَ وعدلْتُكَ . . مشيتَ بينَ بُردَينِ وللأرضِ منكَ وئيدٌ !! جمعتَ ومنعتَ ، حتَّىٰ إذا بلغَتِ التَّراقيَ . . قلتَ : أتصدَّقُ !! وأنَّىٰ أوانُ الصدقةِ ؟! »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مشتْ أمَّتي المُطَيطاءَ ، وخدمَتْهُمْ فارسُ والرومُ . . سلَّطَ اللهُ بعضَهُمْ علىٰ بعضٍ »(٦) ، قالَ ابنُ الأعرابيِّ : (هيَ مِشيَةٌ فيها اختيالٌ) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تعظَّمَ في نفسِهِ واختالَ في مِشيتِهِ . . لقيَ اللهَ تعالىٰ وهو عليهِ غضبانُ »(٧)

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

عنْ أبي بكرٍ الهذليِّ قالَ : بينَما نحنُ معَ الحسنِ إذْ مرَّ علينا ابنُ الأهتمِ يريدُ المقصورةَ ، وعليهِ جبابُ خزٍّ قدْ نضَّدَ بعضَها فوقَ بعضٍ علىٰ ساقِهِ ، وانفرجَ عنها قباؤُهُ ، وهوَ يمشي يتبخترُ ؛ إذْ نظرَ إليهِ الحسنُ نظرةً فقالَ : أفٍّ أفٍّ ؛ شامخٌ بأنفِهِ ، ثاني عطفِهِ ، مصعِّرٌ خدَّهُ ، ينظرُ في عطفيهِ !! أيْ حُميِّقُ ؛ أينَ تنظرُ في عطفيكَ ؟ في نعمٍ غيرِ مشكورةٍ ولا مذكورةٍ ، غيرِ المأخوذِ بأمرِ اللهِ فيها ، ولا المؤدَّىٰ حقُّ اللهِ منها ؟ واللهِ ؛ أنْ يمشيَ أحدُهُمْ طبيعتَهُ أنْ يتخلَّجَ تخلُّجَ المجنونِ ، في كلِّ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ للهِ نعمةٌ وللشيطانِ بهِ لعنةٌ ، فسمعَ ابنُ الأهتمِ ، فرجعَ يعتذرُ إليهِ ، فقالَ : لا تعتذرْ إليَّ ، وتبْ إلىٰ ربِّكَ ، أما سمعتَ قولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ ؟!(٨) .

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٨) ، ومسلم (٢٠٨٧) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٢) واللفظ له .

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٦٥) ، ومسلم (٢٠٨٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٩) .

(٥) رواه ابن ماجه (٢٧٠٧) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٥) واللفظ له ، **والوئيد** : شدة الوطء على الأرض ، يسمع كالدوي من بعد .

(٦) رواه الترمذي (٢٣٦١) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٩) مع قول ابن الأعرابي الآتي .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٢/١١٨) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٩) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٧) .

ومرَّ بالحسنِ شابٌّ عليهِ بزَّةٌ لهُ حسنةٌ ، فدعاهُ فقالَ : (ابنُ آدمَ معجبٌ بشبابِهِ ، معجبٌ بجمالِهِ ؛ كأنَّ القبرَ قدْ وارىٰ بدنَكَ ، وكأنَّكَ قدْ لاقيتَ عملَكَ ، ويحَكَ !! داوِ قلبَكَ ؛ فإنَّ حاجةَ اللهِ إلى العبادِ صلاحُ قلوبِهِمْ)[1]

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ حجَّ قبلَ أنْ يُستخلَفَ ، فنظرَ إليهِ طاووسٌ وهوَ يختالُ في مشيتِهِ فغمزَ جنبَهُ بإصبعِهِ وقالَ : ليسَتْ هـٰذهِ مشيةَ مَنْ في بطنِهِ خُرْءٌ ، فقالَ عمرُ كالمعتذرِ : يا عمُّ ؛ لقدْ ضُرِبَ كلُّ عضوٍ منّي على هـٰذهِ المِشيةِ حتَّىٰ تعلَّمتُها[2]

ورأىٰ محمدُ بنُ واسعٍ ولدَهُ يختالُ ، فدعاهُ وقالَ : (أتدري مَنْ أنتَ ؟ أمَّا أمُّكَ . . فاشتريتُها بمئتي درهمٍ ، وأمَّا أبوكَ . . فلا أكثرَ اللهُ في المسلمينَ مثلَهُ)[3]

ورأى ابنُ عمرَ رجلاً يجرُّ إزارَهُ فقالَ : (إنَّ للشيطانِ إخواناً) ، كرَّرَها مرتينِ أوْ ثلاثاً[4]

ويُروىٰ أنَّ مطرِّفَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الشخِّيرِ رأى المهلَّبَ وهوَ يتبختَرُ في جُبَّةِ خزٍّ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ هـٰذهِ مشيةٌ يبغضُها اللهُ ورسولُهُ ، فقالَ لهُ المهلبُ : أمَا تعرفُني ؟ فقالَ : بلىٰ أعرفُكَ ، أوَّلُكَ نطفةٌ مذِرةٌ ، وآخرُكَ جيفةٌ قذرةٌ ، وأنتَ بينَ ذلكَ تحملُ العَذِرَةَ ، فمضى المهلبُ وتركَ مشيتَهُ تلكَ[5]

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أيْ : يتبختَرُ[6]

وإذْ ذكرنا ذمَّ الكبرِ والاختيالِ . . فلنذكرْ فضيلةَ التواضعِ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٦) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٤/٢) ، وصاحب الوعظ هو مالك بن دينار فيه لا مطرف .
(٦) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٧٩) .

بيان فضيلة التواضع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عزّاً ، وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلا رفعَهُ اللهُ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ إلا ومعَهُ ملكانِ وعليهِ حَكَمَةٌ يمسكانِهِ بها(٢) ، فإنْ هوَ رفعَ نفسَهُ . . جبذاها ، ثمَّ قالا : اللهُمَّ ؛ ضعْهُ ، وإنْ وضعَ نفسَهُ . . قالا : اللهُمَّ ؛ ارفعْهُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ تواضَعَ في غيرِ مسكنةٍ ، وأنفقَ مالاً جمعَهُ في غيرِ معصيةٍ ، ورحمَ أهلَ الذلِّ والمسكنةِ ، وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ »(٤)

وعنْ أبي سلمةَ المدينيِّ ، عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ قالَ : صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَنا بقُباءَ وكانَ صائماً ، فأتيناهُ عندَ إفطارِهِ بقدَحٍ مِنْ لبنٍ ، وجعلنا فيهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فلما رفعَهُ وذاقَهُ . . وجدَ حلاوةَ العسلِ : فقالَ : « ما هٰذا ؟ » قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ جعلنا فيهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فوضعَهُ وقالَ : « أما إنِّي لا أحرِّمُهُ ، ومَنْ تواضعَ للهِ . . رفعَهُ اللهُ ، ومَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنِ اقتصدَ . . أغناهُ اللهُ ، ومَنْ بذَّرَ . . أفقرَهُ اللهُ ، ومَنْ أكثرَ ذكرَ اللهِ . . أحبَّهُ اللهُ »(٥)

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ في نفرٍ مِنْ أصحابِهِ في بيتِهِ يأكلونَ ، فقامَ سائلٌ على البابِ وبهِ زمانةٌ يُتكرَّهُ منها ، فأذنَ لهُ ، فلمَّا دخلَ . . أجلسَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ فخذِهِ ، ثمَّ قالَ لهُ : « اطعمْ » ، فكأنَّ رجلاً مِنْ قريشٍ اشمأزَّ منهُ وتكرَّهَهُ ، فما ماتَ ذٰلكَ الرجلُ حتَّىٰ كانَتْ بهِ زمانةٌ مثلُها(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيَّرَني ربِّي بينَ أمرينِ : أنْ أكونَ عبداً رسولاً ، أوْ ملِكاً نبياً ، فلمْ أدرِ أيَّهما أختارُ ، وكانَ صفيِّي مِنَ الملائكةِ جبريلَ ، فرفعتُ رأسي إليهِ فقالَ : تواضعْ لربِّكَ ، فقلتُ : عبداً رسولاً »(٧)

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (إنَّما أقبلُ صلاةَ مَنْ تواضعَ لعظمتي ، ولمْ يتعظَّمْ علىٰ خلقي ، وألزمَ قلبَهُ خوفي ، وقطعَ نهارَهُ بذكري ، وكفَّ نفسَهُ عنِ الشهواتِ مِنْ أجلي)(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكَرَمُ التقوىٰ ، والشرفُ التواضعُ ، واليقينُ الغنىٰ »(٩)

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ للمتواضعينَ في الدنيا ؛ همْ أصحابُ المنابرِ يومَ القيامةِ ، طوبىٰ للمصلحينَ بينَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) .

(٢) **الحَكَمَة** : نحو لجام الدابة ، سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى يمنعها من الجماح ونحوه ، ومنه اشتقاق الحكمة بالكسر ؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل . « إتحاف » (٨/٣٥٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٦) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٧) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٢) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٥) ، وفي (ب) : (بين أمرين : بين أن أكون عبداً رسولاً . . .) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٦) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٥) عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً .

الناسِ في الدنيا ؛ همُ الذين يرثونَ الفردوسَ يومَ القيامةِ ، طوبىٰ للمطهَّرةِ قلوبُهُمْ في الدنيا ؛ همُ الذينَ ينظرونَ إلى اللهِ تعالىٰ يومَ القيامةِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : بلغَني أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا هدى اللهُ عبداً للإسلامِ ، وحسَّنَ صورتَهُ ، وجعلَهُ في موضعٍ غيرِ شائنٍ لهُ ، ورزقَهُ معَ ذٰلكَ تواضعاً . . فذٰلكَ مِنْ صفوةِ اللهِ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ لا يعطيهِنَّ اللهُ إلا مَنْ يحبُّ : الصمتُ وهوَ أولُ العبادةِ ، والتوكُّلُ على اللهِ ، والتواضعُ ، والزهدُ في الدنيا »[3]

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا تواضعَ العبدُ . . رفعَهُ اللهُ إلى السماءِ السابعةِ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التواضعُ لا يزيدُ العبدَ إلا رفعةً ، فتواضعوا يرحمْكُمُ اللهُ »[5]

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يَطعَمُ ، فجاءَ رجلٌ أسودُ بهِ جُدريٌّ قدْ تقشَّرَ ، فجعلَ لا يجلسُ إلىٰ أحدٍ إلا قامَ مِنْ جنبِهِ ، فأجلسَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ جنبِهِ[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليعجبُني أنْ يحملَ الرجلُ الشيءَ في يدِهِ ، يكونُ مهنةً لأهلِهِ ، يدفعُ بهِ الكبرَ عنْ نفسِهِ »[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ يوماً : « ما لي لا أرىٰ عليكُمْ حلاوةَ العبادةِ ؟ » قالوا : وما حلاوةُ العبادةِ ؟ قالَ : « التواضعُ »[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمُ المتواضعينَ مِن أمتي . . فتواضعوا لهُمْ ، وإذا رأيتُمُ المتكبرينَ . . فتكبَّروا عليهِمْ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مذلَّةٌ لهُمْ وصَغارٌ »[9]



الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ العبدَ إذا تواضعَ للهِ . . رفعَ اللهُ حكمتَهُ ، وقالَ : انتعشْ رفعَكَ اللهُ ، وإذا تكبَّرَ وعدا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٧) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢١) عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بلاغاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٧) ، وتقدم بنحوه عن أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٧١٧/٤) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه الأصفهاني في « الترغيب والترهيب » من حديث أنس ، وفيه بشر بن الحسين ، وهو ضعيف جداً ، ولمسلم [٢٥٨٨] في أثناء حديث لأبي هريرة : « ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ») ، زاد الحافظ الزبيدي : (سياق المصنف رواه أبو نعيم في « الحلية » ، ومن طريقه الديلمي ، من حديث أنس ، إلا أنه قال : فتواضعوا يرفعكم الله) . « إتحاف » (٣٥٣/٨) .

(٦) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٠٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨١) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٦) .

(٨) قال الحافظ العراقي : (غريب) . « إتحاف » (٣٥٤/٨) .

(٩) قال الحافظ العراقي : (غريب) . « إتحاف » (٣٥٤/٨) .

طورَهُ . . وهصَهُ[1] اللهُ إلى الأرضِ ، وقالَ : اخسأْ خسأَكَ اللهُ ، فهوَ في نفسِهِ كبيرٌ وفي أعينِ الناسِ حقيرٌ ، حتَّىٰ إنَّهُ لأحقرُ عندَهُمْ مِنَ الخنزيرِ)[2]

وقالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ : انتهيتُ مرةً إلىٰ شجرةٍ تحتَها رجلٌ نائمٌ قدِ استظلَّ بنطعٍ لهُ ، وقدْ جاوزَتِ الشمسُ النطعَ ، فسويتُهُ عليهِ ، ثمَّ إنَّ الرجلَ استيقظَ ؛ فإذا هوَ سلمانُ الفارسيُّ ، فذكرتُ لهُ ما صنعتُ ، فقالَ لي : يا جريرُ ؛ تواضعْ للهِ في الدنيا ؛ فإنَّهُ مَنْ تواضعَ للهِ في الدنيا . . رفعَهُ اللهُ يومَ القيامةِ ، يا جريرُ ؛ أتدري ما ظلمةُ النارِ يومَ القيامةِ ؟ قلتُ : لا ، قالَ : فإنَّهُ ظلمُ الناسِ بعضَهُمْ بعضاً في الدنيا[3]

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (إنَّكُمْ لتغفلونَ عنْ أفضلِ العبادةِ ؛ التواضعِ)[4]

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (يُجزئُ قليلُ الورعِ منْ كثيرِ العملِ ، ويُجزئُ قليلُ التواضعِ مِنْ كثيرِ الاجتهادِ)[5]

وقالَ الفضيلُ وقدْ سُئِلَ عنِ التواضعِ ما هوَ ؟ فقالَ : (هو أنْ تخضعَ للحقِّ وتنقادَ لهُ ، ولوْ سمعتَهُ مِنْ صبيٍّ . . قبلتَهُ منهُ ، ولوْ سمعتَهُ مِنْ أجهلِ الناسِ . . قبلتَهُ)[6]

وقالَ ابنُ المباركِ : (رأسُ التواضعِ أنْ تضعَ نفسَكَ عندَ مَنْ دونَكَ في نعمةِ الدنيا ؛ حتَّىٰ تعلِمَهُ أنَّهُ ليسَ لكَ بدنياكَ عليهِ فضلٌ ، وأنْ ترفعَ نفسَكَ عمَّنْ هوَ فوقَكَ في الدنيا ؛ حتَّىٰ تعلِمَهُ أنَّهُ ليسَ لهُ بدنياهُ عليكَ فضلٌ)[7]

وقالَ قتادةُ : (مَنْ أُعطيَ مالاً ، أوْ جمالاً ، أوْ ثياباً ، أوْ علماً ، ثمَّ لمْ يتواضعْ فيهِ . . كانَ عليهِ وبالاً يومَ القيامةِ)[8] .

وقيلَ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : إذا أنعمتُ عليكَ نعمةً . . فاستقبلْها بالاستكانةِ أتمِمْها عليكَ)[9]

وقالَ كعبٌ : (ما أنعمَ اللهُ علىٰ عبدٍ مِنْ نعمةٍ في الدنيا ، فشكرَها للهِ ، وتواضعَ بها للهِ . . إلا أعطاهُ اللهُ نفعَها في الدنيا ، ورفعَ لهُ بها درجةً في الآخرةِ ، وما أنعمَ اللهُ علىٰ عبدٍ مِنْ نعمةٍ في الدنيا ، فلمْ يشكرْها ، ولمْ يتواضعْ بها للهِ . . إلا منعَهُ اللهُ نفعَها في الدنيا ، وفتحَ لهُ طبقاً مِنَ النارِ ، يعذِّبُهُ إنْ شاءَ أوْ يتجاوزُ عنهُ)[10]

وقيلَ لعبدِ الملكِ بنِ مروانَ : أيُّ الرجالِ أفضلُ ؟ قالَ : مَنْ تواضعَ عَنْ رفعةٍ ، وزهدَ عنْ قدرةٍ ، وتركَ النصرةَ عنْ قوةٍ[11]

ودخلَ ابنُ السماكِ علىٰ هارونَ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ تواضعَكَ في شرفِكَ أشرفُ لكَ مِنْ شرفِكَ ، فقالَ لهُ :

---

(١) أي : دفعه إليها .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٩) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٣) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٠) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٧) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٨) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٩) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٠) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٢) .
(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٣) .
(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٤) .

ما أحسنَ ما قلتَ !! فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنِ امرؤٌ آتاهُ اللهُ جمالاً في خلقِهِ ، وموضعاً في حسبِهِ ، وبسطَ لهُ في ذاتِ يدِهِ ، فعفَّ في جمالِهِ ، وواسىٰ في مالِهِ ، وتواضعَ في حسبِهِ . . كُتبَ في ديوانِ اللهِ مِنْ خالصِ اللهِ ، فدعا هارونُ بدواةٍ وقرطاسٍ وكتبَهُ بيدِهِ[1]

وكانَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ إذا أصبحَ . . تصفَّحَ وجوهَ الأغنياءِ والأشرافِ ، حتَّىٰ يجيءَ إلى المساكينِ فيقعدَ معَهُمْ ويقولَ : مسكينٌ معَ مساكينَ[2]

وقالَ بعضُهُمْ : (كما تكرهُ أنْ يراكَ الأغنياءُ في الثيابِ الدونِ . . فكذلكَ فاكرَهْ أنْ يراكَ الفقراءُ في الثيابِ المرتفعةِ)[3]

ورُويَ أنَّهُ خرجَ يونسُ وأيوبُ والحسنُ يتذاكرونَ التواضعَ ، فقالَ لهُما الحسنُ : (أتدرونَ ما التواضعُ ؟ التواضعُ : أنْ تخرجَ مِنْ منزلِكَ ولا تلقىٰ مسلماً إلا رأيتَ لهُ عليكَ فضلاً)[4]

وقالَ مجاهدٌ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ لما أغرقَ قومَ نوحٍ عليهِ السلامُ . . شمخَتِ الجبالُ وتطاولَتْ وتواضعَ الجوديُّ ، فرفعَهُ اللهُ فوقَ الجبالِ ، وجعلَ قرارَ السفينةِ عليهِ)[5]

وقالَ أبو سليمانَ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ اطلعَ علىٰ قلوبِ الآدميينَ ، فلمْ يجدْ قلباً أشدَّ تواضعاً مِنْ قلبِ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فخصَّهُ مِنْ بينِهِمْ بالكلامِ)[6]

وقالَ يونسُ بنُ عُبيدٍ وقدِ انصرفَ مِنْ عرفاتٍ : (لمْ أشكَّ في الرحمةِ لولا أنِّي كنتُ معَهُمْ ، إنِّي أخشىٰ أنَّهمْ حُرموا بسببي)[7]

ويُقالُ : (أرفعُ ما يكونُ المؤمنُ عندَ اللهِ أوضعُ ما يكونُ عندَ نفسِهِ ، وأوضعُ ما يكونُ عندَ اللهِ أرفعُ ما يكونُ عندَ نفسِهِ)[8]

وقالَ زيادٌ النميريُّ : (الزاهدُ بغيرِ تواضعٍ كالشجرةِ التي لا تثمرُ) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : لوْ أنَّ منادياً ينادي ببابِ المسجدِ : ليخرجْ شرُّكُمْ رجلاً . . واللهِ ؛ ما كانَ يسبقُني أحدٌ إلى البابِ ، إلا رجلٌ بفضلِ قوةٍ أوْ سعيٍ ، قالَ : فلما بلغَ ابنَ المباركِ قولُهُ . . قال : بهٰذا صارَ مالكٌ مالكاً .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ أحبَّ الرئاسةَ . . لمْ يفلحْ أبداً)[9]

وقالَ موسى بنُ القاسمِ : كانَتْ عندَنا زلزلةٌ وريحٌ حمراءُ ، فذهبتُ إلىٰ محمدِ بنِ مقاتلٍ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٥) ، وفي (أ) : (من خالص عباد الله) ، وفي (ج) : (من خالص أولياء الله) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٠٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٠٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٩) .
(٦) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٨٦٩) .
(٧) روى البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٣) نحوه .
(٨) وهو مصداق الخبر المتقدم ، « إذا تواضع العبد . . رفعه الله ، وإذا تكبر . . وضعه » . « إتحاف » (٣٥٦/٨)
(٩) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٣٥٦/٨) .

أنتَ إمامُنا ، فادعُ اللهُ عزَّ وجلَّ لنا ، فبكىٰ ثمَّ قالَ : ليتَني لمْ أكنْ سببَ هلاكِكُمْ ، قالَ : فرأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النومِ فقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ دفعَ عنكمْ بدعاءِ محمدِ بنِ مقاتلٍ .

وجاءَ رجلٌ إلى الشبليِّ رحمهُ اللهُ فقالَ لهُ : ما أنتَ ؟ وكانَ هـٰذا دأبَهُ وعادتَهُ ، فقالَ : أنا النقطةُ التي تحتَ الباءِ ، فقالَ لهُ الشبليُّ : أبادَ اللهُ تعالىٰ شاهدَكَ ، أَوَتجعلُ لنفسِكَ مكاناً ؟![١]

وقالَ الشبليُّ في بعضِ كلامِهِ : (ذلِّي عطَّلَ ذلَّ اليهودِ)[٢]

ويُقالُ : (مَنْ يرىٰ لنفسِهِ قيمةً . . فليسَ لهُ مِنَ التواضعِ نصيبٌ)[٣]

وعنْ أبي الفتحِ بنِ شخرفَ قالَ : رأيتُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : يا أبا الحسنِ ؛ عظْني ، فقالَ لي : ما أحسنَ تواضعَ الأغنياءِ للفقراءِ ؛ رغبةً منهُمْ في ثوابِ اللهِ ، وأحسنُ مِنْ ذٰلكَ تيهُ الفقراءِ على الأغنياءِ ؛ ثقةً منهُمْ باللهِ تعالىٰ[٤]

وقالَ أبو سليمانَ : (لا يتواضعُ العبدُ حتَّىٰ يعرفَ نفسَهُ) .

وقالَ أبو يزيدَ : ما دامَ العبدُ يظنُّ أنَّ في الخلقِ مَنْ هوَ شرٌّ منهُ . . فهوَ متكبرٌ[٥] ، فقيلَ لهُ : فمتىٰ يكونُ متواضعاً ؟ قالَ : إذا لمْ يرَ لنفسِهِ مقاماً ولا حالاً ، وتواضعُ كلِّ إنسانٍ علىٰ قدرِ معرفتِهِ بربِّهِ عزَّ وجلَّ ومعرفتِهِ بنفسِهِ .

وقالَ أبو سليمانَ : (لوِ اجتمعَ الخلقُ علىٰ أنْ يضعوني كاتِّضاعي عندَ نفسي . . ما قدروا عليهِ)[٦]

وقالَ عروةُ بنُ الزبيرِ : (التواضعُ أحدُ مصايدِ الشرفِ ، وكلُّ نعمةٍ محسودٌ عليها صاحبُها إلا التواضعَ)[٧]

وقالَ يحيى بنُ خالدٍ البرمكيُّ : (الشريفُ إذا تنسَّكَ . . تواضعَ ، والسفيهُ إذا تنسَّكَ . . تعاظمَ) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (التكبرُ علىٰ ذي التكبرِ عليكَ بمالِهِ تواضعٌ)[٨]

ويُقالُ : (التواضعُ في الخلقِ كلِّهِمْ حسنٌ ، وفي الأغنياءِ أحسنُ ، والتكبُّرُ في الخلقِ كلِّهِمْ قبيحٌ ، وفي الفقراءِ أقبحُ) .

ويُقالُ : (لا عزَّ إلا لمَنْ تذلَّلَ للهِ عزَّ وجلَّ ، ولا رفعةَ إلا لمَنْ تواضعَ للهِ عزَّ وجلَّ ، ولا أمنَ إلا لمَنْ خافَ اللهَ عزَّ وجلَّ ، ولا ربحَ إلىٰ لمَنِ ابتاعَ نفسَهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ) .

وقالَ أبو عليٍّ الجَوْزجانيُّ : (النفسُ معجونةٌ بالكبرِ والحرصِ والحسدِ ؛ فمَنْ أرادَ اللهُ تعالىٰ هلاكَهُ . . منعَ منهُ التواضعَ والنصيحةَ والقناعةَ ، وإذا أرادَ اللهُ تعالىٰ بهِ خيراً . . لطفَ بهِ في ذٰلكَ ، فإذا هاجَتْ في نفسِهِ نارُ الكبرِ . . أدركَها

---

(١) والخبر في « الرسالة » (ص ٢٦٩) بلفظ : وجاءه ـ الشبلي ـ رجل ، فقال له الشبلي : ما أنت ؟ فقال : يا سيدي ؛ النقطة التي تحت الباء ، فقال له : أنت شاهدي ما لم تجعل لنفسك مقاماً .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٦٩) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٦٧) عن الفضيل بن عياض .

(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٣٢/٩) .

(٥) إلىٰ هنا رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦/١٠) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٤/٩) .

(٧) صدر الخبر عند الجاحظ في « البيان والتبيُّن » (٩٦/٤) عن أخيه مصعب رحمه الله تعالىٰ .

(٨) الرسالة القشيرية (ص ٢٦٩) .

التواضعُ معَ نصرةِ اللهِ تعالىٰ ، وإذا هاجَتْ نارُ الحسدِ في نفسِهِ . . أدركَتْها النصيحةُ معَ توفيقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإذا هاجَتْ في نفسِهِ نارُ الحرصِ . . أدركَتْها القناعةُ معَ عونِ اللهِ عزَّ وجلَّ) .

وعنِ الجنيدِ رحمهُ اللهُ أنَّهُ كانَ يقولُ يومَ الجمعةِ في مجلسِهِ : (لولا أنَّهُ رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يكونُ في آخرِ الزمانِ زعيمُ القومِ أرذلَهُمْ »(١) . . ما تكلَّمتُ عليكُمْ)(٢)

وقالَ الجنيدُ أيضاً : (التواضعُ عندَ أهلِ التوحيدِ تكبُّرٌ) ، ولعلَّ مرادَهُ أنَّ المتواضعَ يثبتُ نفسَهُ ثمَّ يضعُها ، والموحِّدُ لا يثبتُ نفسَهُ ولا يراها شيئاً حتَّىٰ يضعَها أوْ يرفعَها .

وعنْ عمرَ بنِ شبَّةَ قالَ : كنتُ بمكةَ بينَ الصفا والمروةِ ، فرأيتُ رجلاً راكباً بغلةً وبينَ يديهِ غلمانٌ ؛ وإذا هُمْ يعنفونَ الناسَ ، قالَ : ثمَّ عدتُ بعدَ حينٍ فدخلتُ بغدادَ فكنتُ على الجسرِ ؛ فإذا أنا برجلٍ حافٍ حاسرٍ طويلِ الشعرِ ، قالَ : فجعلتُ أنظرُ إليهِ وأتأمَّلُهُ ، فقالَ لي : ما لكَ تنظرُ إليَّ ؟ فقلتُ لهُ : شبَّهتُكَ برجلٍ رأيتُهُ بمكةَ ، ووصفتُ لهُ الصفةَ ، فقالَ : أنا ذٰلكَ الرجلُ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : إني ترفَّعتُ في موضعٍ يتواضعُ فيهِ الناسُ ، فوضعَني اللهُ حيثُ يترفَّعُ الناسُ(٣)

وقالَ المغيرةُ : كنَّا نهابُ إبراهيمَ النخعيَّ هيبةَ الأميرِ ، وكانَ يقولُ : إنَّ زماناً صرتُ فيهِ فقيهَ الكوفةِ لزمانُ سوءٍ(٤) .

وكانَ عطاءٌ السَّلَميُّ إذا سمعَ صوتَ الرعدِ . . قامَ وقعدَ ، وأخذَ ببطنِهِ كأنَّهُ امرأةٌ ماخضٌ ، وقالَ : هٰذا مِنْ أجلي يصيبُكُمْ ، لوْ ماتَ عطاءٌ . . لاستراحَ الناسُ(٥)

وكانَ بشرٌ الحافي يقولُ : (سلِّموا علىٰ أبناءِ الدنيا بتركِ السلامِ عليهِمْ)(٦)

ودعا رجلٌ لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ فقالَ : أعطاكَ اللهُ ما ترجوهُ !! فقالَ : إنَّ الرجاءَ يكونُ بعدَ المعرفةِ ، فأينَ المعرفةُ ؟!

وتفاخرَتْ قريشٌ عندَ سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً ، فقالَ سلمانُ : لٰكنِّي خُلقتُ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ ، ثمَّ أعودُ جيفةً منتنةً ، ثم آتي الميزانَ ؛ فإنْ ثقُلَ . . فأنا كريمٌ ، وإنْ خفَّ . . فأنا لئيمٌ(٧)

وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (وجدنا الكرمَ في التقوىٰ ، والغنىٰ في اليقينِ ، والشرفَ في التواضعِ)(٨) ، نسألُ اللهَ الكريمَ حسنَ التوفيقِ .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٢١٠) ضمن خبر .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٦٣) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٧٠) بنحوه .
(٤) قول النخعي رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٢٢٣) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢١ ، ٢٢٥) مفرقاً .
(٦) الرسالة القشيرية (ص ٢٦٩) .
(٧) الخبر عند ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/٢٣٧) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٥) عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلمْ : أنَّ الكبرَ ينقسمُ إلىٰ ظاهرٍ وباطنٍ ، فالباطنُ هوَ خُلُقٌ في النفسِ ، والظاهرُ هوَ أعمالٌ تصدرُ عنِ الجوارحِ .

واسمُ الكبرِ بالخلُقِ الباطنِ أحقُّ ، وأمَّا الأعمالُ . . فإنَّها ثمراتٌ لذٰلكَ الخُلُقِ ، وخُلُقُ الكبرِ موجبٌ للأعمالِ ، ولذٰلكَ إذا ظهرَ على الجوارحِ . . يُقالُ : تكبَّرَ ، وإذا لمْ يظهرْ . . يُقالُ : في نفسِهِ كبرٌ ، فالأصلُ هوَ الخلُقُ الذي في النفسِ ، وهوَ **الاسترواحُ والركونُ إلىٰ رؤيةِ النفسِ فوقَ المتكبَّرِ عليهِ** ، فإنَّ الكبرَ يستدعي متكبَّراً عليهِ ، ومتكبَّراً بهِ ، وبهِ ينفصلُ الكبرُ عنِ العجبِ كما سيأتي ، فإنَّ العجبَ لا يستدعي غيرَ المعجبِ ، بلْ لوْ لمْ يُخلقِ الإنسانُ إلا وحدَهُ . . تُصوِّرَ أنْ يكونَ معجباً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ متكبِّراً ، إلا أنْ يكونَ معَ غيرِهِ ، وهوَ يرىٰ نفسَهُ فوقَ ذٰلكَ الغيرِ في صفاتِ الكمالِ ، فعندَ ذٰلكَ يكونُ متكبِّراً .

ولا يكفي أنْ يستعظمَ نفسَهُ ليكونَ متكبِّراً ، فإنَّهُ قدْ يستعظمُ نفسَهُ ولٰكنْ يرىٰ غيرَهُ أعظمَ مِنْ نفسِهِ أوْ مثلَ نفسِهِ فلا يتكبَّرُ عليهِ .

ولا يكفي أنْ يستحقرَ غيرَهُ فإنَّهُ معَ ذٰلكَ لوْ رأىٰ نفسَهُ أحقرَ . . لمْ يتكبرْ ، ولوْ رأىٰ غيرَهُ مثلَ نفسِهِ . . لمْ يتكبرْ ، بلْ ينبغي أنْ يرىٰ لنفسِهِ مرتبةً ولغيرِهِ مرتبةً ، ثمَّ يرىٰ مرتبةَ نفسِهِ فوقَ مرتبةِ غيرِهِ .

فعندَ هٰذهِ الاعتقاداتِ الثلاثةِ يحصلُ فيهِ خُلُقُ الكبرِ ، لا أنَّ هٰذهِ الرؤيةَ هيَ الكبرُ ، بلْ هٰذهِ الرؤيةُ وهٰذهِ العقيدةُ تنفخُ فيهِ ، فيحصلُ في قلبهِ اعتدادٌ ، وهزَّةٌ ، وفرحٌ ، وركونٌ إلىٰ ما اعتقدَهُ ، وعزٌّ في نفسِهِ بسببِ ذٰلكَ ، فتلكَ العِزَّةُ والهِزَّةُ والركونُ إلى العقيدةِ هوَ خُلُقُ الكبْرِ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بكَ مِنْ نفخةِ الكبرياءِ »(١) ، ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أخشىٰ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا) للذي استأذنَهُ أنْ يعظَ بعدَ صلاةِ الصبحِ(٢)

فكأنَّ الإنسانَ مهما رأىٰ نفسَهُ بهٰذهِ العينِ ، وهو الاستعظامُ . . كبرَ وانتفخَ وتعزَّزَ ، فالكبْرُ عبارةٌ عنِ الحالةِ الحاصلةِ في النفسِ مِنْ هٰذهِ الاعتقاداتِ ، وتُسمَّىٰ أيضاً عزَّةً وتعظماً ؛ ولذٰلكَ قالَ ابنُ عباسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ .

قالَ : عظمةٌ لمْ يبلغوها ، ففسَّرَ الكبرَ بتلكَ العظمةِ(٣)

ثمَّ هٰذهِ العزَّةُ تقتضي أعمالاً في الظاهرِ والباطنِ هيَ ثمرتُها ، ويُسمَّىٰ ذٰلكَ تكبُّراً ، فإنَّهُ مهما عظُمَ عندَهُ قدرُهُ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ . . حقرَ مَنْ دُونَهُ وازدراهُ ، وأقصاهُ عنْ نفسِهِ وأبعدَهُ ، وترفَّعَ عنْ مجالستِهِ ومؤاكلتِهِ ، ورأىٰ أنَّ حقَّهُ أنْ يقومَ ماثلاً بينَ يديهِ إنِ اشتدَّ كِبْرُهُ ، فإنْ كانَ أشدَّ مِنْ ذٰلكَ . . استنكفَ عنِ استخدامِهِ ولمْ يجعلْهُ أهلاً للقيامِ بينَ يديهِ ، ولا لخدمةِ عتبتِهِ ، وإنْ كانَ دونَ ذٰلكَ . . فيأنفُ عنْ مساواتِهِ ، وتقدَّمَ عليهِ في مضايقِ الطرقِ ، وارتفعَ عليهِ في المحافلِ ، وانتظرَ أنْ يبدأَهُ بالسلامِ ، واستبعدَ تقصيرَهُ في قضاءِ حوائجِهِ ، وتعجَّبَ منهُ ، وإنْ حاجَّ أوْ ناظرَ . . أنفَ أنْ

---

(١) رواه أبو داوود (٧٦٤) ولفظه : « أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه » ، قال ـ عمرو بن مرة ، أحد الرواة ـ : ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه المُوتَة ، والموتة : الصرع أو الجنون ، وعند الحاكم في « المستدرك » (١/٢٠٧) : « ونفخه الكبرياء » .

(٢) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١/١٨) بنحوه .

(٣) وقد رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/٢٤/٩٤) عن مجاهد .

يردَّ عليهِ ، وإنْ وُعِظَ . . استنكفَ مِنَ القبولِ ، وإنْ وَعَظَ . . عنَّفَ في النصحِ ، وإنْ رُدَّ عليهِ شيءٌ مِنْ قولِهِ . . غضبَ ، وإنْ علَّمَ . . لمْ يرفُقْ بالمتعلمينَ ، واستذلَّهُمْ وانتهرَهُمْ ، وامتنَّ عليهِمْ واستخدمَهُمْ ، وينظرُ إلى العامَّةِ كأنهُ ينظرُ إلى الحميرِ ؛ استجهالاً لهُمْ واستحقاراً .

والأعمالُ الصادرةُ عنْ خُلُقِ الكبرِ كثيرةٌ ، وهيَ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فلا حاجةَ إلىٰ تعدادِها ، فإنَّها مشهورةٌ فهٰذا هوَ الكبرُ ، وآفتُهُ عظيمةٌ ، وغائلتُهُ هائلةٌ ، وفيهِ يهلكُ الخواصُّ مِنَ الخلقِ ، وقلَّما ينفكُّ عنهُ العبَّادُ والزهَّادُ والعلماءُ ، فضلاً عنْ عوامِّ الناسِ .

وكيفَ لا تعظمُ آفتُهُ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ مِنْ كبرٍ » ؟![1] وإنَّما صارَ حجاباً دونَ الجنةِ ؛ لأنَّهُ يحولُ بينَ العبدِ وبينَ أخلاقِ المؤمنينَ كلِّها ، وتلكَ الأخلاقُ هيَ أبوابُ الجنةِ ، والكبرُ وعزَّةُ النفسِ يغلقُ تلكَ الأبوابَ كلَّها ؛ لأنَّهُ لا يقدرُ علىٰ أنْ يحبَّ للمؤمنينَ ما يحبُّ لنفسِهِ وفيهِ شيءٌ مِنَ العزِّ ، ولا يقدرُ على التواضعِ ـ وهوَ رأسُ أخلاقِ المتقينَ ـ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الحقدِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ أنْ يدومَ على الصدقِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الغضبِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ كظمِ الغيظِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الحسدِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ على النصحِ اللطيفِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ قبولِ النصحِ وفيهِ العزُّ ، ولا يسلمُ مِنَ الإزراءِ بالناسِ ومِنَ اغتيابِهِمْ وفيهِ العزُّ ، ولا معنىٰ للتطويلِ ؛ فما مِنْ خلقٍ ذميمٍ إلا وصاحبُ العزِّ والكبْرِ مضطرٌّ إليهِ ؛ ليحفظَ بهِ عزَّهُ ، وما مِنْ خُلُقٍ محمودٍ إلا وهوَ عاجزٌ عنهُ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يفوتَهُ عزُّهُ .

فعلىٰ هٰذا ؛ لمْ يدخلِ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ حبةٍ منهُ ، والأخلاقُ الذميمةُ متلازمةٌ ، والبعضُ منها داعٍ إلى البعضِ لا محالَ .

وشرُّ أنواعِ الكبرِ ما يمنعُ مِنِ استفادةِ العلمِ وقبولِ الحقِ والانقيادِ لهُ ، وفيهِ وردَتِ الآياتُ التي فيها ذمُّ الكبرِ والمتكبِّرينَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

ثمَّ قالَ : ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

ثمَّ أخبرَ أنَّ أشدَّ أهلِ النارِ عذاباً أشدُّهُمْ عتياً على اللهِ تعالىٰ فقالَ : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، قيلَ في التفسيرِ : (سأرفعُ فهمَ القرآنِ مِنْ قلوبِهِمْ)[2] ، وفي بعضِ التفاسيرِ : (سأحجبُ قلوبَهُمْ عنِ الملكوتِ) .

---

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٧٦/٩/٦) عن ابن عيينة .

وقالَ ابنُ جريجٍ : (سأصرفُهُمْ عنْ أنْ يتفكَّروا فيها ويعتبروا بها)[١]

ولذلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إنَّ الزرعَ ينبتُ في السهلِ ولا ينبتُ على الصفا ، كذلكَ الحكمةُ تعملُ في قلبِ المتواضعِ ولا تعملُ في قلبِ المتكبرِ ، ألا ترونَ أنَّ مَنْ شمخَ برأسِهِ إلى السقفِ . . شجَّهُ ، ومَنْ تطأطأَ . . أظلَّهُ وأكنَّهُ ؟)[٢]

فهٰذا مثلٌ ضربَهُ للمتكبّرينَ ، وأنَّهُمْ كيفَ يُحرمونَ الحكمةَ .

ولذلكَ ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جحودَ الحقِّ في حدِّ الكبْرِ والكشفِ عنْ حقيقتِهِ وقالَ : « مَنْ سَفِهَ الحقَّ وغمَصَ الناسَ »[٣]

* * *

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/٩/٧٧) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٧٦) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

بيان المتكبَّر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلمْ : أنَّ المتكبَّرَ عليهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، أوْ رسلُهُ ، أوْ سائرُ الخلقِ ، وقدْ خُلِقَ الإنسانُ ظلُوماً جهولاً ؛ فتارةً يتكبَّرُ على الخلقِ ، وتارةً يتكبَّرُ على الخالقِ .

فإذاً ؛ التكبرُ باعتبارِ المتكبَّرِ عليهِ ثلاثةُ أقسامٍ :

الأوَّلُ : التكبُّرُ على اللهِ :

وذٰلكَ هوَ أفحشُ أنواعِ الكبرِ ، ولا مثارَ لهُ إلا الجهلُ المحضُ والطغيانُ ؛ مثلَ ما كانَ مِنْ نمروذَ ، فإنَّهُ كانَ يحدِّثُ نفسَهُ بأنْ يقاتلَ ربَّ السماءِ ، وكما يُحكىٰ عنْ جماعةٍ مِنَ الجهلةِ ، بلْ ما يُحكىٰ عنْ كلِّ مَنِ ادَّعى الربوبيَّةَ ؛ مثلَ فرعونَ وغيرِهِ ، فإنَّهُ لتكبُّرِهِ قالَ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، إذِ استنكفَ أنْ يكونَ عبداً للهِ .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ .

❀ ❀ ❀

القسمُ الثاني : التكبُّرُ على الرسلِ :

مِنْ حيثُ تعزُّزُ النفسِ وترفُّعُها عنِ الانقيادِ لبشرٍ مثلِ سائرِ الناسِ ، وذٰلك تارةً يصرفُ عنِ الفكرِ والاستبصارِ ، فيبقىٰ في ظلمةِ الجهلِ بكبرِهِ ، فيمتنعُ عنِ الانقيادِ وهوَ ظانٌّ أنَّهُ محقٌّ فيهِ ، وتارةً يمتنعُ معَ المعرفةِ ، ولٰكنْ لا تطاوعُهُ نفسُهُ للانقيادِ للحقِّ والتواضعِ للرسلِ ؛ كما حكى اللهُ تعالىٰ عنْ قولِهِمْ : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ ، وقولِهِمْ : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ، وقولِهِمْ : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ ، وقالوا : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ .

وقالَ فرعونُ فيما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ فتكبرَ هوَ على اللهِ وعلىٰ رسولِهِ جميعاً ، قالَ وهبٌ : قالَ لهُ موسىٰ عليهِ السلامُ : آمنْ ولكَ ملكُكَ ، قالَ : حتَّىٰ أشاورَ هامانَ ، فشاورَ هامانَ ، فقالَ هامانُ : بينَما أنتَ ربٌّ تُعبَدُ إذْ صرْتَ عبداً تعبُدُ !! فاستنكفَ عنْ عبوديَّةِ اللهِ وعنِ اتباعِ موسىٰ عليهِ السلامُ(١)

وقالَتْ قريشٌ فيما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُمْ : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، قالَ قتادةُ : عظيمُ القريتينِ هوَ الوليدُ بنُ المغيرةِ وأبو مسعودٍ الثقفيُّ ، طلبوا مَنْ هوَ أعظمُ رئاسةً مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالُوا : غلامٌ يتيمٌ كيفَ بعثَهُ اللهُ إلينا ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾(٢)

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٧٩) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩١٢٠) عن السدي ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) انظر مجمل الروايات عند الطبري في « تفسيره » (٧٩/٢٥/١٣) وما بعدها ، وسياق المصنف عند صاحب « الرعاية » (ص ٣٨٠) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ أي : استحقاراً لهُمْ واستبعاداً لتقدُّمِهِمْ .

وقالَتْ قريشٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : كيفَ نجلسُ إليكَ وعندَكَ هـٰؤلاءِ ؟! أشاروا إلىٰ فقراءِ المسلمينَ ، وازدروهُمْ بأعينِهِمْ لفقرِهِمْ ، وتكبَّروا عنْ مجالستِهِمْ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾(1) ، وقولَهُ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

ثمَّ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنْ تعجُّبِهِمْ حينَ دخلوا جهنَّمَ ؛ إذْ لمْ يرَوُا الذينَ استرذلوهُمْ ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ قيلَ : يعنونَ : عماراً وبلالاً وصهيباً والمقدادَ رضيَ اللهُ عنهُمْ(2)

ثم كانَ منهُمْ مَنْ منعَهُ الكبرُ عنِ الفكرِ والمعرفةِ فجهلَ كونَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محقّاً ، ومنهُمْ مَنْ عرفَ ومنعَهُ الكبرُ عنِ الاعترافِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ مخبراً عنهُمْ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ، وهـٰذا الكبرُ قريبٌ مِنَ التكبُّرِ على اللهِ تعالىٰ ، وإنْ كانَ دونَهُ ، ولـٰكنَّهُ تكبُّرٌ عنْ قبولِ أمرِ اللهِ والتواضعِ لرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

* * *

القسمُ الثالثُ : التكبُّرُ على العبادِ :

وذٰلكَ بأنْ يستعظمَ نفسَهُ ويستحقرَ غيرَهُ ؛ فتأبىٰ نفسُهُ عنِ الانقيادِ لهُمْ ، وتدعوهُ إلى الترفُّعِ عليهِمْ ؛ فيزدريَهُمْ ويستصغرَهُمْ ، ويأنفَ مِنْ مساواتِهِمْ ، وهـٰذا وإنْ كانَ دونَ الأولِ والثاني . . فهوَ أيضاً عظيمٌ مِنْ وجهينِ :

ـ **أحدُهما** : أنَّ الكبرَ والعزَّ والعظمةَ والعلاءَ لا يليقُ إلا بالملكِ القادرِ ، فأمَّا العبدُ المملوكُ الضعيفُ العاجزُ الذي لا يقدرُ علىٰ شيءٍ . . فمِنْ أينَ يليقُ بهِ الكبرُ ؟! فمهما تكبَّرَ العبدُ . . فقدْ نازعَ اللهَ تعالىٰ في صفةٍ لا تليقُ إلا بجلالِهِ .

ومثالُهُ : أنْ يأخذَ الغلامُ قَلَنْسُوةَ الملكِ ، فيضعَها علىٰ رأسِهِ ، ويجلسَ علىٰ سريرِهِ ، فما أعظمَ استحقاقَهُ للمقتِ !! وما أعظمَ تهدُّفَهُ للخزيِ والنكالِ !! وما أشدَّ استجراءَهُ علىٰ مولاهُ !! وما أقبحَ ما تعاطاهُ !! وإلىٰ هـٰذا المعنى الإشارةُ بقولِهِ تعالى : « العظمةُ إزاري ، والكبرياءُ ردائي ؛ فمَنْ نازعَني فيهِما . . قصمتُهُ »(3) أيْ : إنَّهُ خاصُّ صفتي ، ولا يليقُ إلا بي ، والمنازعُ فيهِ منازعٌ في صفةٍ مِنْ صفاتي ، وإذا كانَ الكبرُ علىٰ عبادِهِ لا يليقُ إلا بهِ . . فمَنْ تكبَّرَ علىٰ عبادِهِ . . فقدْ جنىٰ عليهِ ؛ إذِ الذي يسترذلُ خواصَّ غلمانِ الملكِ ، ويستخدمُهُمْ ويترفَّعُ عليهِمْ ، ويستأثرُ بما حقُّ الملكِ أنْ يستأثرَ بهِ منهُمْ . . فهوَ منازعٌ لهُ في بعضِ أمرِهِ ، وإنْ لمْ تبلغْ درجتُهُ درجةَ مَنْ أرادَ الجلوسَ علىٰ سريرِهِ والاستبدادَ بملكِهِ ، فالخلقُ كلُّهُمْ عبادُ اللهِ ، ولهُ العظمةُ والكبرياءُ عليهِمْ ؛ فمَنْ تكبَّرَ علىٰ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . فقَدْ نازعَ اللهَ في حقِّهِ .

نعم ؛ الفرقُ بينَ هـٰذهِ المنازعةِ وبينَ منازعةِ نمروذَ وفرعونَ ما هوَ الفرقُ بينَ منازعةِ الملكِ في استصغارِ بعضِ عبيدِهِ واستخدامِهِمْ ، وبينَ منازعتِهِ في أصلِ الملكِ .

---

(1) رواه مسلم (٢٤١٣) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وفيه : (وكان المشركون قالوا له : تدني هـٰؤلاء ؟!) ، وابن ماجه (٤١٢٨) ، وفيه : (قالت قريش) .

(2) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨١) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٢٢٠/٢٣/١٢) .

(3) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .

ـ **الوجهُ الثاني الذي تعظمُ بهِ رذيلةُ الكبرِ** : أنَّهُ يدعو إلىٰ مخالفةِ اللهِ تعالىٰ في أوامرِهِ ؛ لأنَّ المتكبِّرَ إذا سمعَ الحقَّ مِنْ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . استنكفَ عنْ قبولِهِ ، وتشمَّرَ لجحدِهِ ، ولذٰلكَ ترى المناظرينَ في مسائلِ الدينِ يزعمونَ أنَّهُمْ يتباحثونَ عنْ أسرارِ الدينِ ، ثمَّ إنَّهُمْ يتجاحدونَ تجاحدَ المتكبِّرينَ ، ومهما اتَّضحَ الحقُّ علىٰ لسانِ واحدٍ منهُمْ . . أنفَ الآخرُ مِنْ قبولِهِ ، وتشمَّرَ لجحدِهِ ، واحتالَ لدفعِهِ بما يقدرُ عليهِ مِنَ التلبيسِ ، وذٰلكَ مِنْ أخلاقِ الكافرينَ والمنافقينَ ، إذْ وصفَهُمُ اللهُ تعالىٰ فقالَ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ ، فكلُّ مَنْ يناظرُ للغلبةِ والإفحامِ ، لا ليغتنمَ الحقَّ إذا ظفرَ بهِ . . فقدْ شاركَهُمْ في هٰذا الخُلُقِ .

وكذٰلكَ يحملُ ذٰلك على الأنفةِ مِنْ قبولِ الوعظِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ ، ورُوِيَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قرأَها فقالَ : إنا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ ، قامَ رجلٌ يأمرُ بالمعروفِ فقُتلَ ، فقامَ آخرُ فقالَ : أتقتلونَ الذينَ يأمرونَ بالقسطِ مِنَ الناسِ ؟! فقتلَ المتكبِّرُ الذي خالفَهُ والذي أمرَهُ كِبراً[1]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كفىٰ بالرجلِ إثماً إذا قيلَ لهُ : اتقِ اللهَ . . قالَ : عليكَ نفسَكَ)[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « كلْ بيمينِكَ » ، قالَ : لا أستطيعُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا استطعتَ !! » ، فما منعَهُ إلا الكبرُ ، قالَ : فما رفعَها بعدَ ذٰلكَ ؛ أي : اعتلَّتْ يدُهُ[3]

فإذاً ؛ تكبرُهُ على الخلقِ عظيمٌ ؛ لأنَّهُ سيدعوهُ إلى التكبُّرِ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما ضُرِبَ إبليسُ مثلاً لهٰذا ، وما حُكيَ مِنْ أحوالِهِ . . إلا ليُعتبَرَ بهِ ؛ فإنَّهُ قالَ : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ وهٰذا الكبرُ بالنسبِ ؛ لأنَّهُ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ ، فحملَهُ ذٰلكَ علىٰ أنْ يمتنعَ مِنَ السجودِ الذي أمرَهُ اللهُ تعالىٰ بهِ ، فكانَ مبدؤُهُ التكبُّرَ علىٰ آدمَ والحسدَ لهُ ، فجرَّهُ ذٰلكَ إلى التكبُّرِ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، فكانَ ذٰلكَ سببَ هلاكِهِ أبدَ الآبادِ .

فهٰذهِ آفةٌ مِنْ آفاتِ الكبرِ على العبادِ عظيمةٌ ، ولذٰلكَ شرحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الكبرَ بهاتينِ الآفتينِ ؛ إذْ سألَهُ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شماسٍ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي امرؤٌ قدْ حُبِّبَ إليَّ مِنَ الجمالِ ما ترىٰ ؛ أفمِنَ الكبرِ هوَ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ، ولٰكنَّ الكبرَ مَنْ بَطَرَ الحقَّ ، وغمصَ الناسَ »[4] ، وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ سَفِهَ الحقَّ »[5] ، وقولُهُ : (غمَصَ الناسَ) أيْ : ازدراهُمْ واستحقرَهُمْ ، وهمْ عبادُ اللهِ أمثالُهُ ، أوْ خيرٌ منهُ ، وهٰذهِ الآفةُ الأولىٰ ، و(سَفَهُ الحقِّ) : هوَ ردُّهُ ، وهيَ الآفةُ الثانيةُ .

فكلُّ مَنْ رأىٰ أنَّهُ خيرٌ مِنْ أخيهِ ، واحتقرَ أخاهُ وازدراهُ ، ونظرَ إليهِ بعينِ الاستصغارِ ، أوْ ردَّ الحقَّ وهوَ يعرفُهُ . . فقدْ تكبَّرَ فيما بينَهُ وبينَ الخلقِ ، ومَنْ أنِفَ أنْ يخضعَ للهِ تعالىٰ ويتواضعَ لهُ بطاعتِهِ واتباعِ رُسلِهِ . . فقدْ تكبَّرَ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ورسلِهِ .

* * *

---

(١) بنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (٢/٢/٤٢٨) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨٢) ، وروى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦١٩) من حديثه رضي الله عنه مرفوعاً : « . . . وإن أبغض الكلام إلى الله أن يقول الرجل للرجل : اتق الله ، فيقول : عليك نفسك » .

(٣) رواه مسلم (٢٠٢١) ، وقول : (فما منعه إلا الكبر) زيادة من الراوي لبيان موجب دعائه عليه الصلاة والسلام .

(٤) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٩) ولفظ المرفوع له ، وليس فيه ذكر ثابت رضي الله عنه ، وإنما تبع فيه المصنف صاحب « الرعاية » (ص ٢٨٣) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

بيان ما به التكبر

اعلمْ : أنَّهُ لا يتكبَّرُ إلا مَنِ استعظمَ نفسَهُ ، ولا يستعظمُها إلا وهوَ يعتقدُ لها صفةً مِنْ صفاتِ الكمالِ .

ومجامعُ ذٰلكَ يرجعُ إلىٰ كمالٍ دينيّ أوْ دنيويّ ، **فالدينيُّ** : هوَ العلمُ ، والعملُ ، **والدنيويُّ** : هوَ النسبُ ، والجمالُ ، والقوةُ ، والمالُ ، وكثرةُ الأنصارِ ، فهٰذهِ سبعةُ أسبابٍ .

❁ ❁ ❁

الأولُ : العلمُ :

وما أسرعَ الكبرَ إلى العلماءِ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آفةُ العلمِ الخيلاءُ »[1] ، فلا يلبثُ العالمُ أنْ يتعزَّزَ بعزِّ العلمِ ، ويستشعرَ في نفسِهِ جمالَ العلمِ وكمالَهُ ، فيستعظمَ نفسَهُ ويستحقرَ الناسَ ، وينظرَ إليهِمْ نظرَهُ إلى البهائمِ ، ويستجهلَهُمْ ، ويتوقَّعَ أنْ يبدؤوهُ بالسلامِ ؛ فإنْ بدأَ أحداً منهُمْ بالسلامِ ، أوْ ردَّ عليهِ ببشْرٍ ، أوْ قامَ لهُ ، أو أجابَ لهُ دعوةً . . رأىٰ ذٰلكَ صنيعةً عندَهُ ويداً عليهِ يلزمُهُ شكرُها ، واعتقدَ أنَّهُ أكرمَهُمْ ، وفعلَ بهِمْ ما لا يستحقُّونَ مِنْ مثلِهِ ، وأنَّهُ ينبغي أنْ يرقُّوا لهُ ويخدموهُ ؛ شكراً لهُ علىٰ صنيعِهِ .

بلِ الغالبُ أنَّهُمْ يبرُّونَهُ فلا يبرُّهُمْ ، ويزورونَهُ فلا يزورُهُمْ ، ويعودونَهُ فلا يعودُهُمْ ، ويستخدمُ مَنْ خالطَهُ منهُمْ ويستسخرُهُ في حوائجِهِ ، فإنْ قصَّرَ فيهِ . . استنكرَهُ ؛ كأنَّهُمْ عبيدُهُ أوْ أجراؤُهُ ، وكأنَّ تعليمَهُ العلمَ صنيعةٌ منهُ لديهِمْ ، ومعروفٌ إليهِمْ ، واستحقاقُ حقٍّ عليهِمْ ، هٰذا فيما يتعلقُ بالدنيا .

أمَّا في أمرِ الآخرةِ . . فتكبُّرُهُ عليهِمْ بأنْ يرىٰ نفسَهُ عندَ اللهِ تعالىٰ أعلىٰ وأفضلَ منهُمْ ، فيخافُ عليهِمْ أكثرَ ممَّا يخافُ علىٰ نفسِهِ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ ممَّا يرجو لهُمْ .

وهٰذا بأنْ يُسمَّىٰ جاهلاً أولىٰ مِنْ أنْ يُسمَّىٰ عالماً ، بلِ العلمُ الحقيقيُّ هوَ الذي يعرفُ الإنسانُ بهِ نفسَهُ وربَّهُ ، وخطرَ الخاتمةِ ، وحجةَ اللهِ على العلماءِ ، وعظمَ خطرِ العلمِ فيهِ ؛ كما سيأتي في طريقِ معالجةِ الكبرِ بالعلمِ .

وهٰذهِ العلومُ تزيدُ العبدَ خوفاً وتواضعاً وتخشُّعاً ، وتقتضي أنْ يرىٰ أنَّ كلَّ الناسِ خيرٌ منهُ ؛ لعظمِ حجةِ اللهِ عليهِ بالعلمِ ، وتقصيرِهِ في القيامِ بشكرِ نعمةِ العلمِ .

ولهٰذا قالَ أبو الدرداءِ : (مَنِ ازدادَ علماً . . ازدادَ وجعاً)[2] ، وهوَ كما قالَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما بالُ بعضِ الناسِ يزدادُ بالعلمِ كبْراً وأمناً ؟

فاعلمْ : أنَّ لذٰلكَ سببينِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ اشتغالُهُ بما يُسمَّىٰ علماً وليسَ بعلمٍ حقيقيّ ، وإنَّما العلمُ الحقيقيُّ ما يعرفُ العبدُ بهِ نفسَهُ وربَّهُ ، وخطرَ أمرِهِ في لقاءِ اللهِ والحجابِ منهُ ، وهٰذا يورثُ الخشيةَ والتواضعَ دونَ الكبرِ والأمنِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى

---

(١) المعروف ـ كما قال الحافظ العراقي ـ هو حديث : « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » ، وهو قطعة من حديث رواه البيهقي في « الشعب » (٤٣٢٦) ، وانظر « الإتحاف » (٦/٣٦٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٦٣) عن سفيان الثوري .

ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، فأمَّا ما وراءَ ذٰلكَ ؛ كعلمِ الطبِّ ، والحسابِ ، واللغةِ ، والشعرِ ، والنحوِ ، وفصلِ الخصوماتِ ، وطرقِ المجادلاتِ ؛ فإذا تجرَّدَ الإنسانُ لها حتَّى امتلأَ منها . . امتلأَ بها كبراً ونفاقاً ، وهٰذهِ بأنْ تُسمَّىٰ صناعاتٍ أولىٰ مِنْ أنْ تُسمَّىٰ علوماً ، بلِ العلمُ هوَ معرفةُ العبوديَّةِ والربوبيَّةِ وطريقِ العبادةِ ، وهٰذا يورثُ التواضعَ غالباً .

السببُ الثاني : أنْ يخوضَ العبدُ في العلمِ وهوَ خبيثُ الدُّخْلَةِ ، رديءُ النفسِ ، سيِّئُ الأخلاقِ ، فإنَّهُ لمْ يشتغلْ أولاً بتهذيبِ نفسِهِ وتزكيةِ قلبِهِ بأنواعِ المجاهداتِ ، ولمْ يرضْ نفسَهُ في عبادةِ ربِّهِ ؛ فبقيَ خبيثَ الجوهرِ ، فإذا خاضَ في العلمِ أيَّ علمٍ كانَ . . صادفَ العلمُ مِنْ قلبِهِ منزلاً خبيثاً ، فلمْ يطبْ ثمرُهُ ، ولمْ يظهرْ في الخيرِ أثرُهُ .

❁ ❁ ❁

وقدْ ضربَ وهبٌ لهٰذا مثلاً فقالَ : (العلمُ كالغيثِ ينزلُ مِنَ السماءِ حلواً صافياً ، فتشربُهُ الأشجارُ بعروقِها ، فتحولُهُ علىٰ قدْرِ طعومِها ، فيزدادُ المرُّ مرارةً ، والحلوُ حلاوةً ، وكذٰلكَ العلمُ يحفظُهُ الرجالُ ، فتحولُهُ علىٰ قدْرِ هممِها وأهوائِها ، فيزيدُ المتكبِّرَ كبراً ، والمتواضعَ تواضعاً)(١) ، وهٰذا لأنَّ مَنْ كانَتْ همَّتُهُ الكبرَ وهوَ جاهلٌ ، فإذا حفظَ العلمَ . . وجدَ ما يتكبَّرُ بهِ ، فازدادَ كبراً ، وإذا كانَ الرجلُ خائفاً معَ جهلِهِ ، فإذا ازدادَ علماً . . علمَ أنَّ الحجةَ قدْ تأكدَتْ عليهِ ، فيزدادُ خوفاً وإشفاقاً وذلّاً وتواضعاً .

فالعلمُ مِنْ أعظمِ ما يُتكبَّرُ بهِ ؛ ولأجلِ ذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

ووصفَ أولياءَهُ فقالَ تعالىٰ : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : « يكونُ قومٌ يقرؤون القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهُمْ ، يقولونَ : قدْ قرأنا القرآنَ ، فمَنْ أقرأُ منَّا ؟! ومَنْ أعلمُ منَّا ؟! » ، ثمَّ التفتَ إلىٰ أصحابِهِ فقالَ : « أولٰئكَ منكُمْ أيُّها الأمةُ ، أولٰئكَ همْ وقودُ النارِ »(٢)

ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تكونوا جبابرةَ العلماءِ ، فلا يفي علمُكُمْ بجهلِكُمْ)(٣)

ولذٰلكَ استأذنَ تميمٌ الداريُّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ في القصصِ ، فأبىٰ أنْ يأذنَ لهُ ، وقالَ لهُ : (إنَّهُ الذبحُ)(٤)

واستأذنَهُ رجلٌ كانَ إمامَ قومٍ أنَّهُ إذا سلَّمَ مِنْ صلاتِهِ . . ذكَّرَهُمْ ، فقالَ : (إنِّي أخافُ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا)(٥) .

وصلَّىٰ حذيفةُ بقومٍ ، فلمَّا سلَّمَ مِنْ صلاتِهِ . . قالَ : (لتلتمسُنَّ إماماً غيري أوْ لتصلُّنَّ وُحْداناً ؛ إنِّي رأيتُ في نفسي أنهُ ليسَ في القومِ أفضلُ منِّي)(٦)

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٨٥) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٠) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١٤٠/١) ، وانظر « الإتحاف » (٤٢٠/١) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٤٩) ، والطبراني في « الكبير » (٤٩/٢) .

(٥) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١٨/١) بنحوه ، وهو في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .

(٦) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٣٧) ، وبتمامه في « الرعاية » (ص ٣٩٢)

فإذا كانَ مثلُ حذيفةَ لا يسلمُ . . فكيفَ يسلمُ الضعفاءُ مِنْ متأخري هـٰذهِ الأمةِ ؟!

فما أعزَّ علىٰ بسيطِ الأرضِ عالماً يستحقُّ أنْ يُقالَ : إنَّهُ عالمٌ ، ثمَّ لا يحركُهُ عزُّ العلمِ وخيلاؤُهُ !!

فإنْ وُجِدَ ذٰلكَ . . فهو صِدّيقُ زمانِهِ ؛ فلا ينبغي أنْ يُفارقَ ، بلْ يكونُ النظرُ إليهِ عبادةً ، فضلاً عنِ الاستفادةِ مِنْ أنفاسِهِ وأحوالِهِ ، ولوْ عرفنا ذٰلكَ ولوْ في أقصى الصينِ . . لسعينا إليهِ ؛ رجاءَ أنْ تشملَنا بركتُهُ ، وتسريَ إلينا سيرتُهُ وسجيَّتُهُ .

وهيهاتَ !! فأنَّىٰ يسمحُ آخرُ الزمانِ بمثلِهِمْ ؟!

فهُمْ أربابُ الإقبالِ وأصحابُ الدولِ ، قدِ انقرضوا في القرنِ الأولِ ومَنْ يليهِمْ ، بلْ يعزُّ في زمانِنا عالمٌ يختلجُ في نفسِهِ الأسفُ والحزنُ علىٰ فواتِ هـٰذهِ الخصلةِ ، فذٰلكَ أيضاً إمَّا معدومٌ وإمَّا عزيزٌ ، ولولا بشارةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « سيأتي على الناسِ زمانٌ مَنْ تمسَّكَ فيهِ بعُشرِ ما أنتُمْ عليهِ . . نجا »[1] . . لكانَ جديراً بنا أنْ نقتحمَ ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ ورطةَ اليأسِ والقنوطِ ، معَ ما نحنُ عليهِ مِنْ سوءِ أعمالِنا ، ومَنْ لنا أيضاً بالتمسُّكِ بعشرِ ما كانوا عليهِ ؟! وليتَنا تمسَّكنا بعُشرِ عَشِيرِهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يعاملَنا بما هوَ أهلُهُ ، وأنْ يسترَ علينا قبائحَ أعمالِنا كما يقتضيهِ كرمُهُ وفضلُهُ .

❁ ❁ ❁

الثاني : العملُ والعبادةُ :

وليس يخلو عنْ رذيلةِ العزِّ والكبرِ ، واستمالةِ قلوبِ الناسِ الزهَّادُ والعبَّادُ ، ويترشَّحُ الكبرُ منهُمْ في الدينِ والدنيا .

أمَّا في الدنيا . . فهوَ أنَّهُمْ يرونَ غيرَهُمْ بزيارتِهِمْ أولىٰ منهمْ بزيارةِ غيرِهِمْ ، ويتوقَّعونَ قيامَ الناسِ بقضاءِ حوائجِهِمْ ، وتوقيرِهِمْ ، والتوسيعِ لهُمْ في المجالسِ ، وذكرِهِمْ بالورعِ والتقوىٰ ، وتقديمِهِمْ علىٰ سائرِ الناسِ في الحظوظِ ، إلىٰ جميعِ ما ذكرناهُ في حقِّ العلماءِ ، وكأنَّهُمْ يرونَ عبادتَهُمْ منَّةً على الخلقِ .

وأمَّا في الدينِ . . فهوَ أنْ يرى الناسَ هالكينَ ، ويرىٰ نفسَهُ ناجياً ، وهوَ الهالكُ تحقيقاً مهما رأىٰ ذٰلكَ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سمعتُمُ الرجلَ يقولُ : هلكَ الناسُ . . فهوَ أهلكُهُمْ »[2] ، فإنما قالَ ذٰلكَ لأنَّ هـٰذا القولَ منهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ مزدرٍ بخلقِ اللهِ ، مغترٌّ باللهِ ، آمنٌ مِنْ مكرِهِ ، غيرُ خائفٍ مِنْ سطوتِهِ .

وكيفَ لا يخافُ ويكفيهِ شرّاً احتقارُهُ لغيرِهِ ؟! قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالمرءِ شرّاً أنْ يحقرَ أخاهُ المسلمَ »[3] ، وكمْ مِنَ الفرقِ بينَهُ وبينَ مَنْ يحبُّهُ للهِ ، ويعظمُهُ لعبادتِهِ ، ويستعظمُهُ ويرجو لهُ ما لا يرجو لنفسِهِ ؟ فالخلقُ يدركونَ النجاةَ بتعظيمِهِمْ إيَّاهُ للهِ تعالىٰ ؛ فهُمْ يتقرَّبونَ إلى اللهِ تعالىٰ بالدنوِّ منهُ ، وهوَ يتمقَّتُ إلى اللهِ بالتنزُّهِ والتباعدِ مِنهُمْ ؛ كأنَّهُ مُترفِّعٌ عنْ مجالستِهِمْ ، فما أجدرَهُمْ إذا أحبُّوهُ لصلاحِهِ أنْ ينقلَهُمُ اللهُ إلىٰ درجتِهِ في العملِ !! وما أجدرَهُ إذا ازدراهُمْ بعينِهِ أنْ ينقلَهُ اللهُ إلىٰ حدِّ الإهمالِ !! كما رُويَ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ كانَ يُقالُ لهُ : خليعُ بني إسرائيلَ ؛ لكثرةِ فسادِهِ ، مرَّ برجلٍ آخرَ يُقالُ لهُ : عابدُ بني إسرائيلَ ، وكانَ علىٰ رأسِ العابدِ غمامةٌ تظلُّهُ لمَّا مرَّ الخليعُ

---

(1) رواه الترمذي (٢٢٦٧) .

(2) رواه مسلم (٢٦٢٣) .

(3) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، ولفظه : « بحسب امرئ من الشر . . . » ، ولفظ المصنف في « الرعاية » (ص ٣٨٧)

بِهِ ، فقالَ الخليعُ في نفسِهِ : أنا خليعُ بني إسرائيلَ ، وهـٰذا عابدُ بني إسرائيلَ ؛ فلوْ جلستُ إليهِ لعلَّ اللهَ يرحمُني ، فجلسَ إليهِ ، فقالَ العابدُ : أنا عابدُ بني إسرائيلَ ، وهـٰذا خليعُ بني إسرائيلَ ، فكيفَ يجلسُ إليَّ ؟! فأنفَ مِنهُ ، وقالَ لهُ : قمْ عنِّي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّ ذٰلكَ الزمانِ : مُرْهما فليستأنفا العملَ ؛ فقدْ غفرتُ للخليعِ وأحبطتُ عملَ العابدِ ، وفي روايةٍ أخرىٰ : فتحوَّلتِ الغمامةُ إلىٰ رأسِ الخليعِ [١]

وهـٰذا يعرِّفُكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ إنَّما يريدُ مِنَ العبيدِ قلوبَهُمْ ، فالجاهلُ العاصي إذا تواضعَ وذلَّ هيبةً للهِ ، وخوفاً منهُ . . فقدْ أطاعَ اللهَ بقلبِه ، فهوَ أطوعُ للهِ مِنَ العالمِ المتكبِّرِ والعابدِ المعجبِ .

وكذٰلكَ رُويَ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ أتىٰ عابداً مِنْ بني إسرائيلَ ، فوطئَ علىٰ رقبتِهِ وهوَ ساجدٌ ، فقالَ : ارفعْ [٢] ، فواللهِ لا يغفرُ اللهُ لكَ ، فأوحى اللهُ إليهِ : أيُّها المتألِّي عليَّ ؛ بلْ أنتَ لا يغفرُ اللهُ لكَ [٣]

وكذٰلكَ قالَ الحسنُ : (وحتَّىٰ إنَّ صاحبَ الصوفِ أشدُّ كبراً مِنْ صاحبِ المِطرَفِ الخزِّ) [٤] أيْ : إنَّ صاحبَ الخزِّ يذلُّ لصاحبِ الصوفِ ويرى الفضلَ لهُ ، وصاحبَ الصوفِ يرى الفضلَ لنفسِهِ .

وهـٰذهِ الآفةُ أيضاً قلَّما ينفكُّ عنها كثيرٌ مِنَ العبادِ ، وهوَ أنَّهُ لوِ استخفَّ بِهِ مستخفٌّ أوْ آذاهُ مؤذٍ . . استبعدَ أنْ يغفرَ اللهُ لهُ ، ولا يشكُّ في أنَّهُ صارَ ممقوتاً عندَ اللهِ ، ولوْ آذىٰ مسلماً آخرَ . . لمْ يستنكرْ ذٰلكَ الاستنكارَ ، وذٰلكَ لعظمِ قدْرِ نفسهِ عندَهُ ، وهوَ جهلٌ ، وجمعٌ بينَ الكبرِ والعُجبِ والاغترارِ باللهِ .

وقدْ ينتهي الحمقُ والغباوةُ ببعضِهِمْ إلىٰ أنْ يتحدَّىٰ ويقولَ : سترونَ ما يجري عليهِ ، فإذا أُصيبَ بنكبةٍ . . زعمَ أنَّ ذٰلكَ مِنْ كراماتِهِ ، وأن اللهَ ما أرادَ بذٰلكَ إلا شفاءَ غليلِهِ والانتقامَ لهُ ، معَ أنَّهُ يرىٰ طبقاتٍ مِنَ الكفارِ يسبُّونَ اللهَ ورسولَهُ ، وعرفَ جماعةً آذَوا الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ ضربَهُمْ ، ومنهُمْ مَنْ قتلَهُمْ ، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ أمهلَ أكثرَهُمْ ولمْ يعاقبْهُمْ في الدنيا ، بلْ ربَّما أسلمَ بعضُهُمْ فلمْ يصبْهُ مكروهٌ في الدنيا ولا في الآخرةِ .

ثمَّ الجاهلُ المغرورُ يظنُّ أنَّهُ أكرمُ على اللهِ تعالىٰ مِنْ أنبيائِهِ ، وأنَّهُ قدِ انتقمَ لهُ بما لمْ ينتقمْ لأنبيائِهِ بهِ ، ولعلَّهُ في مقتِ اللهِ بإعجابِهِ وكبرِهِ وهوَ غافلٌ عنْ هلاكِ نفسِهِ ، فهـٰذهِ عقيدةُ المغترِّينَ .

وأمَّا الأكياسُ مِنَ العبَّادِ . . فيقولونَ ما كانَ يقولُهُ عطاءٌ السَّلميُّ حينَ كانَ تهبُّ ريحٌ أوْ تقعُ صاعقةٌ : (ما يصيبُ الناسَ ما يصيبُهُمْ إلا بسببي ، ولوْ ماتَ عطاءٌ . . لتخلَّصوا) [٥] ، وما قالَهُ الآخرُ بعدَ انصرافِهِ مِنْ عرفاتٍ : (كنتُ أرجو الرحمةَ لجميعِهِمْ لولا كوني فيهِمْ) [٦]

فانظرْ إلى الفرقِ بينَ الرجلينِ ؛ هـٰذا يتَّقي اللهَ ظاهراً وباطناً وهوَ وَجِلٌ علىٰ نفسِهِ ، مزدرٍ لعملِهِ وسعيِهِ ، وذاكَ ربَّما يضمرُ مِنَ الرياءِ والكبرِ والحسدِ والغلِّ ما هوَ ضُحْكَةٌ للشيطانِ بِهِ ، ثمَّ إنَّهُ يمنُّ على اللهِ بعملِهِ .

ومَنِ اعتقدَ جزماً أنَّهُ فوقَ أحدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . فقدْ أحبطَ بجهلِهِ جميعَ عملِهِ ؛ فإنَّ الجهلَ أفحشُ المعاصي ، وأعظمُ

---

(١) الرعاية (ص ٣٨٨) ، ومختصراً رواه أبونعيم في « الحلية » (٢/٢٢٦) .
(٢) أي : فقال العابد : ارفع رجلك عن رقبتي . « إتحاف » (٨/٣٧١) .
(٣) الرعاية (ص ٣٨٨) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٩/١٥٨) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٤٩٠١) .
(٤) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢١ ، ٢٢٥) مفرقاً .
(٦) روى البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٣) نحوه .

شيءٍ يبعدُ العبدَ عنِ اللهِ ، وحكمُهُ لنفسِهِ بأنَّهُ خيرٌ مِنْ غيرِهِ جهلٌ محضٌ ، وأمنٌ مِنْ مكرِ اللهِ ، ولا يأمنُ مكرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرونَ ؛ ولذلكَ رُوِيَ أنَّ رجلاً ذُكِرَ بخيرٍ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقبلَ ذاتَ يومٍ ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا الذي ذكرناهُ لكَ ، فقالَ : « إنِّي أرىٰ في وجهِهِ سُفْعَةً مِنَ الشيطانِ » ، فسلَّمَ ووقفَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ باللهِ ؛ حدثَتْكَ نفسُكَ أنْ ليسَ في القومِ أفضلُ منكَ ؟ » قالَ : اللهمَّ نعمْ[1] . فرأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنورِ النبوَّةِ ما استكنَّ في قلبِهِ سفعةً في وجهِهِ ، وهـٰذهِ آفةٌ لا ينفكُّ عنها أحدٌ مِنَ العبَّادِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ .

لـٰكنَّ العلماءَ والعبَّادَ في آفةِ الكبرِ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الأولىٰ : أنْ يكونَ الكبرُ مستقراً في قلبِهِ ، يرىٰ نفسَهُ خيراً مِنْ غيرِهِ ، إلا أنَّهُ يجتهدُ ويتواضعُ ، ويفعلُ فعلَ مَنْ يرىٰ غيرَهُ خيراً مِنْ نفسِهِ ، وهـٰذا قدْ رسخَ في قلبِهِ شجرةُ الكبرِ ، ولـٰكنَّهُ قطعَ أغصانَها بالكليَّةِ .

الثانيةُ : أنْ يظهرَ ذٰلكَ علىٰ أفعالِهِ ؛ بالترفُّعِ في المجالسِ ، والتقدُّمِ على الأقرانِ ، وإظهارِ الإنكارِ علىٰ مَنْ يقصِّرُ في حقِّهِ ، وأدنىٰ ذٰلكَ في العالِمِ أنْ يصعِّرَ خدَّهُ للناسِ ؛ كأنَّهُ معرضٌ عنهُمْ ، وفي العابدِ أنْ يُعبِّسَ وجهَهُ ، ويقطِّبَ جبينَهُ ؛ كأنَّهُ متنزِّهٌ عنِ الناسِ ، مستقذرٌ لهُمْ ، أوْ غضبانُ عليهِمْ ، وليسَ يعلمُ المسكينُ أنَّ الورعَ ليسَ في الجبهةِ حتىٰ تُقطَّبَ ، ولا في الوجهِ حتَّىٰ يُعبَّسَ ، ولا في الخدِّ حتَّىٰ يُصعَّرَ ، ولا في الرقبةِ حتَّىٰ تُطأطأَ ، ولا في الذيلِ حتَّىٰ يُضمَّ ، إنَّما الورعُ في القلوبِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التقوىٰ ها هنا » وأشارَ إلىٰ صدرِهِ[2] ، فقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكرمَ الخلقِ وأتقاهُمْ ، وكانَ أوسعَهُمْ خُلُقاً ، وأكثرَهُمْ بشراً وتبسُّماً وانبساطاً .

ولذٰلكَ قالَ الحارثُ بنُ جَزْءٍ الزبيديُّ صاحبُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : (يعجبُني مِنَ القُرَّاءِ كلُّ طلْقٍ مِضْحاكٍ ، فأمَّا الذي تلقاهُ ببشرٍ ويلقاكَ بعبوسٍ ، يمنُّ عليكَ بعملِهِ . . فلا أكثرَ اللهُ في المسلمينَ مثلَهُ !!)[3]

ولوْ كانَ اللهُ تعالىٰ يرضىٰ ذٰلكَ . . لما قالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهـٰؤلاءِ الذينَ يظهرُ أثرُ الكبرِ علىٰ شمائلِهِمْ أحوالُهُمْ أخفُّ مِنْ أحوالِ مَنْ هوَ في الرتبةِ الثالثةِ ، وهوَ الذي يظهرُ الكبرَ علىٰ لسانِهِ ، حتَّىٰ يدعوهُ إلى الدعوىٰ والمفاخرةِ ، والمباهاةِ وتزكيةِ النفسِ ، وحكايةِ الأحوالِ والمقاماتِ ، والتشمُّرِ لغلبةِ الغيرِ في العلمِ والعملِ .

أما العابدُ . . فإنَّهُ يقولُ في معرضِ التفاخرِ لغيرِهِ مِنَ العُبَّادِ : مَنْ هوَ ؟ وما عملُهُ ؟ ومِنْ أينَ زهدُه ؟ فيطوِّلُ اللسانَ فيهِمْ بالتنقُّصِ ، ثمَّ يثني علىٰ نفسِهِ ويقولُ : إني لمْ أفطرْ منذُ كذا وكذا ، ولا أنامُ بالليلِ ، وأختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ ، وفلانٌ ينامُ سحراً ، ولا يكثرُ القراءةَ ، وما يجري مجراهُ ، وقدْ يزكِّي نفسَهُ ضمناً فيقولُ : قصدَني فلانٌ بسوءٍ فهلكَ ولدُهُ ، أوْ أُخِذَ مالُهُ ، أوْ مرضَ ، أوْ ما يجري مجراهُ ، ويدَّعي الكرامةَ لنفسِهِ .

وأمَّا مباهاتُهُ . . فهوَ أنَّهُ لوْ وقعَ معَ قومٍ يصلونَ بالليلِ . . قامَ وصلَّىٰ أكثرَ ممَّا كانَ يصلِّي ، وإنْ كانوا يصبرونَ

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٢/٣) ، وهو ذو الثدية الذي قتله سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وفيه : (ويشير إلىٰ صدره ثلاث مرات) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٤١) ، وهو عن سعيد بن عبد الرحمـٰن بن عبد الله الزبيدي ، وبيَّن الحافظ الزبيدي هـٰذا الخطأ في « الإتحاف » (٣٧٣/٨) حيث قال : (هـٰكذا في سائر نسخ الكتاب ، وهو خطأ ، والصواب عبد الله بن الحارث بن جزء ، وهو الذي له صحبة) ، ولـٰكن الرواية لحفيده لا له .

على الجوعِ . . فيكلِّفُ نفسَهُ الصبرَ ليغلبَهُمْ ، ويظهرَ لهُمْ قوَّتَهُ وعجزَهُمْ ، وكذٰلكَ يشتدُّ في العبادةِ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : غيرُهُ أعبدُ منهُ ، أوْ أقوىٰ منهُ في دينِ اللهِ .

وأمَّا العالمُ . . فإنَّهُ يتفاخرُ ويقولُ : أنا متفنِّنٌ في العلومِ ، ومطَّلعٌ على الحقائقِ ، ورأيتُ مِنَ الشيوخِ فلاناً وفلاناً ، ومَنْ أنتَ ؟ وما فضلُكَ ؟ ومَنْ لقيتَ ؟ وما الذي سمعتَ مِنَ الحديثِ ؟ كلُّ ذٰلكَ ليصغِّرَهُ ويعظِّمَ نفسَهُ .

وأمَّا مباهاتُهُ . . فهوَ أنَّهُ يجتهدُ في المناظرةِ أنْ يَغلبَ ولا يُغلبَ ، ويسهرُ طولَ الليلِ والنهارِ في تحصيلِ علومٍ يتجمَّلُ بها في المحافلِ ؛ كالمناظرةِ ، والجدلِ ، وتحسينِ العبارةِ ، وتسجيعِ الألفاظِ ، وحفظِ العلومِ الغريبةِ ؛ ليُغْرِبَ بِها على الأقرانِ ويتعظَّمَ عليهِمْ ، ويحفظُ الأحاديثَ ألفاظَها وأسانيدَها ؛ حتَّىٰ يردَّ علىٰ مَنْ أخطأَ فيها ، فيظهرَ فضلُهُ ونقصانُ أقرانِهِ ، ويفرحُ مهما أخطأَ واحدٌ منهُمْ ؛ ليردَّ عليهِ ، ويسوءُهُ إذا أصابَ وأحسنَ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُرىٰ أنَّهُ أعظمُ منهُ .

فهٰذهِ كلُّها أخلاقُ الكبرِ وآثارُهُ التي يثمرُها التعزُّزُ بالعلمِ والعملِ ، وأينَ مَنْ يخلو عنْ جميعِ ذٰلكَ أوْ عنْ بعضِهِ ؟

فليتَ شِعري مِنِ الذي عرفَ هٰذهِ الأخلاقَ مِنْ نفسِهِ ، وسمعَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ حبةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ كبرٍ »[1] كيفَ يستعظمُ نفسَهُ ويتكبَّرُ علىٰ غيرِهِ وهوَ بقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أهلِ النارِ ؟!

وإنَّما العظيمُ مَنْ خلا عنْ هٰذا ، ومَنْ خلا عنهُ لمْ يكنْ فيهِ تعظُّمٌ وتكبُّرٌ ، والعالمُ هوَ الذي فهمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لهُ : إنَّ لكَ عندَنا قدْراً ما لمْ ترَ لنفسِكَ قدْراً ، فإنْ رأيتَ لها قدراً . . فلا قدْرَ لكَ عندَنا ، ومَنْ لمْ يعلمْ هٰذا مِنَ الدينِ . . فاسمُ العالمِ عليهِ كذبٌ ، ومَنْ علمَهُ . . لزمَهُ ألَّا يتكبرَ ولا يرىٰ لنفسِهِ قدراً ، فهٰذا هوَ الكِبْرُ بالعلمِ والعملِ .



الثالثُ : التكبُّرُ بالحسَبِ والنسبِ :

فالذي لهُ نسبٌ شريفٌ يستحقرُ مَنْ ليسَ لهُ ذٰلكَ النسبُ وإنْ كانَ أرفعَ مِنهُ عملاً وعلماً ، وقدْ يتكبَّرُ بعضُهُمْ فيرىٰ أنَّ الناسَ لهُ موالٍ وعبيدٌ ، ويأنفُ مِنْ مخالطتِهِمْ ومجالستِهِمْ .

وثمرتُهُ على اللسانِ التفاخرُ بهِ ؛ فيقولُ لغيرِهِ : يا نَبَطيُّ ، ويا هنديُّ ، ويا أرمنيُّ ؛ مَنْ أنتَ ؟ ومَنْ أبوكَ فأنا فلانُ بنُ فلانٍ ؟ وأنَّىٰ لمثلِكَ أنْ يكلِّمَني أوْ ينظرَ إليَّ ؟ ومعَ مثلي تتكلَّمُ ؟ وما يجري مجراهُ .

وذٰلكَ عِرْقٌ دفينٌ في النفسِ لاينفكُّ عنهُ نسيبٌ وإنْ كانَ صالحاً وعاقلاً ، إلا أنَّهُ قدْ لا يترشَّحُ منهُ ذٰلكَ عندَ اعتدالِ الأحوالِ ، فإنْ غلبَهُ غضبٌ . . أطفأَ ذٰلكَ نورَ بصيرتِهِ ، وترشَّحَ منهُ ؛ كما رُوِيَ عنْ أبي ذرٍّ أنَّهُ قالَ : قاولتُ رجلاً عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ لهُ : يا بنَ السوداءِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ طفُّ الصاعِ طفُّ الصاعِ ، ليسَ لابنِ البيضاءِ على ابنِ السوداءِ فضلٌ » ، فقالَ أبو ذرٍّ : فاضطجَعتُ وقلتُ للرجلِ : قُمْ فطأْ علىٰ خدِّي[2] .

---

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٣) ، ورواه بنحوه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣٤٥٧) وفيه نعته بابن الأمة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « **طفُّ الصاعِ** » ـ كذا بالإضافة ـ كناية عن قرب البعض من البعض ؛ إذ طفُّ المكيال مقاربة امتلائه ، وانظر « مرقاة المفاتيح » (٩/١٣١) في بيان تمام معناه .

فانظرْ كيفَ نبَّهَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ رأىٰ لنفسِهِ فضلاً بكونِهِ ابنَ بيضاءَ ، وأنَّ ذٰلكَ خطأٌ وجهلٌ ، وانظرْ كيفَ تابَ وقلعَ مِنْ نفسِهِ شجرةَ الكبرِ بأخمصِ قدمِ مَنْ تكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ عرفَ أنَّ العزَّ لا يقمعُهُ إلا الذُّلُّ .

ومِنْ ذٰلكَ ما رُويَ أنَّ رجلينِ تفاخرا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : أنا فلانُ بنُ فلانٍ ، فمَنْ أنتَ لا أمَّ لكَ ؟ فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « افتخرَ رجلانِ عندَ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ أحدُهُما : أنا فلانُ بنُ فلانٍ حتَّىٰ عدَّ تسعةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : قلْ للذي افتخرَ : بلِ التسعةُ مِنْ أهلِ النارِ وأنتَ عاشرُهُمْ »(١)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليدَعَنَّ قومٌ الفخرَ بآبائِهِمْ وقدْ صاروا فحماً في جهنَّمَ أوْ ليكونُنَّ أهونَ على اللهِ مِنَ الجِعْلانِ التي تدوفُ بآنافِها القذَرَ »(٢)

❊ ❊ ❊

الرابعُ : التفاخرُ بالجمالِ :

وذٰلكَ أكثرُ ما يجري بينَ النساءِ ، ويدعو ذٰلكَ إلى التنقُّصِ والثلبِ ، والغيبةِ ، وذكرِ عيوبِ الناسِ .

ومِنْ ذٰلكَ : ما رُويَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : دخلَتِ امرأةٌ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ بيدي هٰكذا ؛ أيْ : إنَّها قصيرةٌ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قدِ اغتبتِها »(٣)

وهٰذا منشؤُهُ خفيُّ الكبرِ ؛ لأنَّها لوْ كانَتْ أيضاً قصيرةً . . لما ذكرَتْها بالقصرِ ؛ فكأنَّها أُعجبَتْ بقامتِها ، واستقصرَتِ المرأةَ في جنبِ نفسِها ، فقالَتْ ما قالَتْ .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : الكبرُ بالمالِ :

وذٰلكَ يجري بينَ الملوكِ في خزائنِهم ، وبينَ التجَّارِ في بضائعِهِمْ ، وبينَ الدَّهاقينَ في أراضيهِمْ ، وبينَ المتجمّلينَ في لباسِهِمْ ، وخيولِهِمْ ومراكبِهِمْ ، فيستحقرُ الغنيُّ الفقيرَ ، ويتكبَّرُ عليهِ ويقولُ لهُ : أنتَ مُكْدٍ ومسكينٌ ، وأنا لوْ أردتُ . . لاشتريتُ مثلَكَ ، واستخدمتُ مَنْ هوَ فوقَكَ ، ومَنْ أنتَ ؟ وما معَكَ ؟ وأثاثُ بيتي يساوي أكثرَ مِنْ جميعِ مالِكَ ، وأنا أنفقُ في اليومِ ما لا تأكلُهُ في السنةِ ، وكلُّ ذٰلكَ لاستعظامِهِ للغنىٰ واستحقارِهِ للفقرِ ، وكلُّ ذٰلكَ جهلٌ منهُ بآفةِ الغنىٰ وفضيلةِ الفقرِ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ، حتَّىٰ أجابَهُ فقالَ : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ وكانَ ذٰلكَ تكبراً منهُ بالمالِ والولدِ ، ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالىٰ عاقبةَ أمرِهِ بقولِهِ : ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ .

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٤) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (١٤٠/٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٧٧١) ، ورواه موقوفاً علىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه أحمد في « المسند » (٢٤١/٥) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٤) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) ، وتدوف : تخلط ، حتىٰ تجعله كراتٍ تدخرها .

(٣) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٨) واللفظ له .

ومِنْ ذٰلكَ : تكبُّرُ قارونَ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ إخباراً عن تكبُّرِهِ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ حتَّىٰ قالَ قومٌ : ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

❊ ❊ ❊

السادسُ : الكبرُ بالقوةِ وشدةِ البطشِ ، والتكبُّرُ بهِ على أهلِ الضعفِ .

❊ ❊ ❊

السابعُ : التكبُّرُ بالأتباعِ والأنصارِ ، والتلامذةِ والغلمانِ ، وبالعشيرةِ والأقاربِ والبنينَ :

ويجري ذٰلكَ بينَ الملوكِ في المكاثرةِ بالجنودِ ، وبينَ العلماءِ في المكاثرةِ بالمستفيدينَ .

وبالجملةِ : فكلُّ ما هوَ نعمةٌ ، وأمكنَ أنْ يُعتقدَ كمالاً وإنْ لمْ يكنْ في نفسِهِ كمالاً . . أمكنَ أنْ يُتكبَّرَ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ المخنَّثَ ليتكبَّرُ علىٰ أقرانِهِ بزيادةِ معرفتِهِ وقدرتِهِ في صنعةِ المخنَّثينَ ؛ لأنَّهُ يرىٰ ذٰلكَ كمالاً ، فيفتخرُ بهِ وإنْ لمْ يكنْ فعلُهُ إلا نكالاً ، وكذٰلكَ الفاسقُ قدْ يفتخرُ بكثرةِ الشربِ وكثرةِ الفجورِ بالنسوانِ والغلمانِ ويتكبَّرُ بهِ ؛ لظنِّهِ أنْ ذٰلكَ كمالٌ وإنْ كانَ مخطئاً فيهِ .

فهٰذهِ مجامعُ ما يتكبَّرُ بهِ العبادُ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ ، فيتكبَّرُ مَنْ يُدلي بشيءٍ منهُ علىٰ مَنْ لا يُدلي بهِ ، أوْ علىٰ مَنْ يُدلي بما هوَ دونَهُ في اعتقادِهِ ، وربَّما كانَ مثلَهُ أوْ فوقَهُ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ كالعالمِ الذي يتكبَّرُ بعلمِهِ علىٰ مَنْ هوَ أعلمُ منهُ ؛ لظنِّهِ أنَّهُ هوَ الأعلمُ ، ولحسنِ اعتقادِهِ في نفسِهِ ، نسألُ اللهَ العونَ بلطفِهِ ورحمتهِ إنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

❊ ❊ ❊

بيان البواعث على الكبر وأسبابه المهيّجة له

اعلمْ : أنَّ الكبْرَ خُلُقٌ باطنٌ ، وأمَّا ما يظهرُ مِنَ الأخلاقِ والأفعالِ . . فهيَ ثمرتُهُ ونتيجتُهُ ، وينبغي أنْ تُسمَّىٰ تكبُّراً ، ويُخصُّ اسمُ الكبرِ بالمعنى الباطنِ الذي هوَ استعظامُ النفسِ ورؤيةُ قدرِها فوقَ قدْرِ الغيرِ .

وهٰذا الباطنُ لهُ موجبٌ واحدٌ ، وهوَ العُجْبُ الذي يتعلَّقُ بالمتكبِّرِ كما سيأتي معناهُ ، فإنَّهُ إذا أُعجِبَ بنفسِهِ ، وبعلمِهِ وعملِهِ ، أوْ بشيءٍ من أسبابِهِ . . استعظمَ نفسَهُ وتكبَّرَ .

وأمَّا التكبُّرُ الظاهرُ . . فأسبابُهُ ثلاثةٌ : سببٌ في المتكبِّرِ ، وسببٌ في المتكبَّرِ عليهِ ، وسببٌ فيما يتعلَّقُ بغيرِهِما .

أمَّا السببُ الذي في المتكبِّرِ . . فهوَ العجْبُ ، والذي يتعلَّقُ بالمتكبَّرِ عليهِ هوَ الحقدُ والحسدُ ، والذي يتعلَّقُ بغيرِهِما هوَ الرياءُ ؛ **فتصيرُ الأسبابُ بهٰذا الاعتبارِ أربعةً : العجبُ ، والحقدُ ، والحسدُ ، والرياءُ** .

أمَّا العُجْبُ . . فقد ذكرنا أنَّهُ يورثُ الكِبْرَ الباطنَ ، والكبرُ الباطنُ يثمرُ التكبُّرَ الظاهرَ في الأعمالِ والأقوالِ والأحوالِ .

وأمَّا الحقدُ . . فإنَّهُ قدْ يحملُ على التكبُّرِ مِنْ غيرِ عجبٍ ؛ كالذي يتكبَّرُ علىٰ مَنْ يرىٰ أنَّهُ مثلُهُ أوْ فوقَهُ ، ولٰكنْ قدْ غضبَ عليهِ بسببٍ سبقَ منهُ ، فأورثَهُ الغضبُ حقداً ، ورسخَ في قلبِهِ بغضُهُ ؛ فهوَ لذٰلكَ لا تطاوعُهُ نفسُهُ أنْ يتواضعَ لهُ وإنْ كانَ عندَهُ مستحقاً للتواضعِ ، فكمْ مِنْ رَذْلٍ لا تطاوعُهُ نفسُهُ على التواضعِ لواحدٍ مِنَ الأكابرِ لحقدِهِ عليهِ ، أو بغضِهِ لهُ ، ويحملُهُ ذٰلكَ علىٰ ردِّ الحقِّ إذا جاءَ مِنْ جهتِهِ ، وعلى الأنفةِ مِنْ قبولِ نصحِهِ ، وعلىٰ أنْ يجتهدَ في التقدُّمِ عليهِ وإنْ علمَ أنَّهُ لا يستحقُّ ذٰلكَ ، وعلىٰ ألَّا يستحلَّهُ وإنْ ظلمَهُ ، ولا يعتذرَ إليهِ وإنْ جنىٰ عليهِ ، ولا يسألَهُ عمَّا هوَ جاهلٌ بهِ .

وأمَّا الحسدُ . . فإنَّهُ أيضاً يوجبُ البغضَ للمحسودِ وإنْ لمْ يكنْ مِنْ جهتِهِ إيذاءٌ وسببٌ يقتضي الغضبَ والحقدَ ، ويدعو الحسدُ أيضاً إلىٰ جحدِ الحقِّ ، حتَّىٰ يمتنعُ مِنْ قبولِ النصحِ وتعلُّمِ العلمِ ، فكمْ مِنْ جاهلٍ يشتاقُ إلى العلمِ وقدْ بقيَ في رذيلةِ الجهلِ ؛ لاستنكافِهِ أنْ يستفيدَ مِنْ واحدٍ مِنْ أهلِ بلدِهِ أوْ أقاربِهِ ؛ حسداً وبغياً علَيهِ ، فهوَ يعرضُ عنهُ ويتكبَّرُ عليهِ معَ معرفتِهِ بأنَّهُ يستحقُّ التواضعَ بفضلِ علمِهِ ، ولٰكنَّ الحسدَ يبعثُهُ علىٰ أنْ يعاملَهُ بأخلاقِ المتكبِّرينَ وإنْ كانَ في باطنِهِ ليسَ يرىٰ نفسَهُ فوقَهُ .

وأمَّا الرياءُ . . فهوَ أيضاً يدعو إلىٰ أخلاقِ المتكبِّرينَ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ ليناظرُ مَنْ يعلمُ أنَّهُ أفضلُ منهُ ، وليسَ بينَهُ وبينَهُ معرفةٌ ولا محاسدةٌ ولا حقدٌ ، ولٰكنْ يمتنعُ مِنْ قبولِ الحقِّ منهُ ، ولا يتواضعُ لهُ في الاستفادةِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يقولَ الناسُ : إنَّهُ أفضلُ منهُ ، فيكونُ باعثُهُ على التكبُّرِ عليهِ الرياءَ المجرَّدَ ، ولوْ خلا معَهُ بنفسِهِ . . لكانَ لا يتكبَّرُ عليهِ ، **وأمَّا الذي يتكبَّرُ بالعجبِ أوِ الحسدِ أوِ الحقدِ . . فإنَّهُ يتكبَّرُ أيضاً عندَ الخلوةِ بهِ مهما لمْ يكنْ معَهُما ثالثٌ** ، وكذٰلكَ قدْ ينتمي إلىٰ نسبٍ شريفٍ كاذباً وهوَ يعلمُ أنَّهُ كاذبٌ ثمَّ يتكبَّرُ بهِ علىٰ مَنْ ليسَ ينتسبُ إلىٰ ذٰلكَ النسبِ ، ويترفَّعُ عليهِ في المجالسِ ، ويتقدَّمُ عليهِ في الطرقِ ، ولا يرضىٰ بمساواتِهِ في الكرامةِ والتوقيرِ ، وهوَ عالمٌ باطناً بأنَّهُ لا يستحقُّ ذٰلكَ ، ولا كبْرَ في باطنِهِ ؛ لمعرفتِهِ بأنَّهُ كاذبٌ في دعوى النسبِ ، ولٰكنْ يحملُهُ الرياءُ علىٰ أفعالِ المتكبِّرينَ .

وكأنَّ اسمَ المتكبِّرِ إنَّما يُطلَقُ في الأكثرِ علىٰ مَنْ يفعلُ هٰذهِ الأفعالَ عنْ كبْرٍ في الباطنِ صادرٍ عَنِ العُجْبِ والنظرِ إلى الغيرِ بعينِ الاستحقارِ ، وهوَ إنْ سُمِّيَ متكبِّراً فلأجلِ التشبُّهِ بأفعالِ المتكبِّرينَ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبّر

اعلم : أنَّ التكبُّرَ يظهرُ في شمائلِ الرجلِ ؛ كصَعَرٍ في وجهِهِ ، ونظرِهِ شَزْراً ، وإطراقِهِ رأسَهُ ، وجلوسِهِ متربّعاً أو متكئاً ، وفي أقوالِهِ حتَّىٰ في صوتِهِ ونغمتِهِ ، وصيغتِهِ في الإيرادِ ، ويظهرُ في مِشْيتِهِ وتبخترِهِ ، وقيامِهِ وجلوسِهِ ، وفي حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وفي تعاطيهِ لأفعالِهِ ، وفي سائرِ تقلُّباتِهِ في أحوالِهِ وأقوالِهِ وأعمالِهِ .

فمِنَ المتكبرينَ مَنْ يجمعُ ذٰلكَ كلَّهُ ، ومنهُمْ مَنْ يتكبَّرُ في بعضٍ ويتواضعُ في بعضٍ .

❀ ❀ ❀

فمنها : التكبُّرُ بأنْ يحبَّ قيامَ الناسِ لهُ أوْ بينَ يديهِ ، وقدْ قالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ أرادَ أن ينظرَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ النارِ . . فلينظرْ إلىٰ رجلٍ قاعدٍ وبينَ يديهِ قومٌ قيامٌ) .

وقالَ أنسٌ : لمْ يكنْ شخصٌ أحبَّ إليهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكانوا إذا رأَوهُ . . لمْ يقوموا لهُ ؛ لما يعلمونَ مِنْ كراهتِهِ لذٰلكَ)[1]

❀ ❀ ❀

ومنها : ألَّا يمشيَ إلا ومعَهُ غيرُهُ يمشي خلفَهُ ، قالَ أبو الدرداءِ : (لا يزالُ العبدُ يزدادُ مِنَ اللهِ بُعداً ما مُشيَ خلفَهُ)[2]

وكانَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عوفٍ لا يُعرفُ مِنْ عبيدِهِ ؛ إذْ كان لا يتميَّزُ عنهُمْ في صورةٍ ظاهرةٍ .

ومشىٰ قومٌ خلفَ الحسنِ البصريِّ ، فمنعَهُمْ وقالَ : (ما يُبقي هٰذا مِنْ قلبِ العبدِ ؟) .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الأوقاتِ يمشي معَ بعضِ الأصحابِ ، فيأمرُهُمْ بالتقدُّمِ ، ويمشي في غمارِهِمْ[3] ؛ إمَّا لتعليمِ غيرِهِ ، أوْ لينفيَ عنْ نفسِهِ وساوسَ الشيطانِ بالكبْرِ والعجبِ ، كما خلعَ الثوبَ الجديدَ في الصلاةِ وأبدلَهُ بالخليعِ[4] ؛ لأحدِ هٰذينِ المعنيينِ .

❀ ❀ ❀

ومنها : ألَّا يزورَ غيرَهُ وإنْ كانَ يحصلُ مِنْ زيارتِهِ خيرٌ لغيرِهِ في الدينِ ، وهوَ ضدُّ التواضعِ ، رُويَ أنَّ سفيانَ الثوريَّ قدمَ الرملةَ ، فبعثَ إليهِ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : أنْ تعالَ فحدِّثْنا ، فجاءهُمْ سفيانُ ، فقيلَ لهُ : يا أبا إسحاقَ ؛ تبعثُ إليهِ بمثلِ هٰذا ؟! فقالَ : أردتُ أنْ أنظرَ كيفَ تواضعُهُ[5]

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٥٤) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٤)

(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٥) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق ، أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية) . « إتحاف » (٨/٣٧٨ ـ ٣٧٩) .
قلت : أما الأول . . فرواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) ، وأما الثاني . . فرواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٦٢/٥٥٦) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٦٧) .

ومنها : أن يستنكفَ مِنْ جلوسِ غيرِهِ بالقربِ منهُ إلَّا أنْ يجلسَ بينَ يديهِ ، والتواضعُ خلافُهُ ، قالَ ابنُ وهبٍ : جلستُ إلىٰ عبدِ العزيزِ بنِ أبي رَوَّادٍ ، فمسَّ فخذي فخذَهُ ، فنحَّيتُ نفسي عنهُ ، فأخذ بثيابي فجرَّني إلىٰ نفسِهِ وقالَ لي : لِمَ تفعلونَ بي ما تفعلونَ بالجبابرةِ ، وإنِّي لا أعرفُ رجلاً منكُمْ شرّاً منِّي .

وقالَ أنسٌ : كانَتِ الوليدةُ مِنْ ولائدِ المدينةِ تأخذُ بيدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلا ينزعُ يدَهُ مِنْ يدِها حتَّىٰ تذهبَ بهِ حيثُ شاءَتْ (١)

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يتوقَّىٰ مجالسةَ المرضىٰ والمعلولين ، ويتحاشىٰ عنهُمْ ، وهوَ مِنَ الكبرِ ؛ دخلَ رجلٌ عليهِ جدريٌّ قدْ تقشَّرَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ ناسٌ منْ أصحابِهِ يأكلونَ ، فما جلسَ إلىٰ أحدٍ إلَّا قامَ مِنْ جنبِهِ ، فأجلسَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بجنبِهِ (٢)

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لا يحبسُ عنْ طعامِهِ مجذوماً ولا أبرصَ ولا مبتلىً إلا أقعدَهُمْ علىٰ مائدتِهِ (٣)

❁ ❁ ❁

ومنها : ألَّا يتعاطىٰ بيدِهِ شغلاً في بيتِهِ ، والتواضعُ خلافُهُ ؛ رُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أتاهُ ليلةً ضيفٌ وكانَ يكتبُ ، فكادَ السراجُ يطفأُ ، فقالَ الضيفُ : أقومُ إلى المصباحِ فأصلحَهُ ؟ فقالَ : ليسَ مِنْ كرمِ الرجلِ أنْ يستخدمَ ضيفَهُ ، قالَ : أفأُنبِّهُ الغلامَ ؟ قالَ : هيَ أوَّلُ نومةٍ نامَها ، فقامَ وأخذَ البطَّةَ وملأَ المصباحَ زيتاً (٤) ، فقالَ الضيفُ : قمتَ أنتَ بنفسِكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! فقالَ : ذهبتُ وأنا عمرُ ، ورجعتُ وأنا عمرُ ، ما نقصَ منِّي شيءٌ ، وخيرُ الناسِ مَنْ كانَ عندَ اللهِ متواضعاً (٥)

❁ ❁ ❁

ومنها : ألَّا يأخذَ متاعَهُ ويحملَهُ إلىٰ بيتِهِ ، وهوَ خلافُ عادةِ المتواضعينَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يفعلُ ذٰلكَ (٦) ، وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : [من الرجز]

لا يَنْقُصُ الْكامِلَ مِنْ كمالِهِ ما ... جَرَّ مِنْ نَفْعٍ إلىٰ عيالِهِ (٧)

وكانَ أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ وهوَ أميرٌ يحملُ سطلاً لهُ مِنْ خشبٍ إلى الحمامِ (٨)

---

(١) رواه البخاري (٦٠٧٢) معلقاً ، ورواه ابن ماجه (٤١٧٧) موصولاً ، ولفظه هنا رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٢) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٠٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨١) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦١١) .
(٤) **البطة** : إناء كالقارورة .
(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٩١٩٤) .
(٦) روىٰ ذٰلك أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٦٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٠) .
(٧) وسياق الخبر في « القوت » (٢٣٣/٢) : (وعلي رضي الله عنه كان يحمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول . . .) وذكر البيت ، وانظر « ديوان سيدنا علي » (ص ٢١٢) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٣١) عن محمد بن أبي محمد بن كناسة ، وانظر « الأغاني » (٤٨٥١/١٣) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٧) .

وقالَ ثابتُ بنُ أبي مالكٍ : رأيتُ أبا هريرةَ أقبلَ مِنَ السوقِ يحملُ حزمةَ حطبٍ وهوَ يومئذٍ خليفةٌ لمروانَ ، فقالَ : أوسعِ الطريقَ للأميرِ يا بنَ أبي مالكٍ (١)

وعنِ الأصبغِ بنِ نباتةَ قالَ : (كأنّي أنظرُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ معلّقاً لحماً في يدِهِ اليسرىٰ ، وفي يدِهِ اليمنى الدِّرَّةُ يدورُ في الأسواقِ حتَّىٰ دخلَ رحلَهُ) (٢)

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ علياً رضيَ اللهُ عنهُ اشترىٰ لحماً بدرهمٍ فحملَهُ في ملحفتِهِ ، فقلتُ لهُ : أحملُ عنكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : لا ؛ أبو العيالِ أحقُّ أنْ يحملَ (٣)

❁ ❁ ❁

ومنها : اللباسُ ؛ إذْ يظهرُ بهِ التكبُّرُ والتواضعُ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البذاذةُ مِنَ الإيمانِ » (٤)

قالَ هارونُ : سألتُ مَعْناً عنِ البذاذةِ فقالَ : هوَ الدونُ مِنَ اللباسِ (٥)

وقالَ زيدُ بنُ وهبٍ : (رأيتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ خرجَ إلى السوقِ وبيدِهِ الدرَّةُ وعليهِ إزارٌ فيهِ أربعَ عشرةَ رقعةً بعضُها مِنْ أدمٍ) (٦)

وعُوتبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في إزارٍ مرقوعٍ فقالَ : (يقتدي بهِ المؤمنُ ، ويخشعُ لهُ القلبُ) (٧)

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (جودةُ الثيابِ خيلاءُ القلبِ) (٨)

وقالَ طاووسٌ : (إنّي لأغسلُ ثَوْبيَّ هٰذينِ ، فأنكرُ قلبي ما داما نقيَّينِ) (٩)

ويُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ كانَ قبلَ أنْ يُستخلَفَ تُشترىٰ لهُ الحلَّةُ بألفِ دينارٍ فيقولُ : ما أجودَها !! لولا خشونةٌ فيها ، فلمَّا استُخلِفَ . . كان يُشترىٰ لهُ الثوبُ بخمسةِ دراهمَ فيقولُ : ما أجودَهُ !! لولا لينُهُ ، فقيلَ لهُ : أينَ لباسُكَ ومركبُكَ وعطرُكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ : إنَّ لي نفساً ذوَّاقةً تواقةً ، وإنَّها لمْ تذقْ مِنَ الدنيا طبقةً إلا تاقَتْ إلى الطبقةِ التي فوقَها ، حتَّىٰ إذا ذاقَتِ الخلافةَ وهيَ أرفعُ الطبقاتِ . . تاقَتْ إلىٰ ما عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ (١٠)

وقالَ سعيدُ بنُ سويدٍ : صلَّىٰ بنا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الجمعةَ ، ثمَّ جلسَ وعليهِ قميصٌ مرقوعُ الجيبِ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفِهِ ، فقالَ لهُ رجلٌ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أعطاكَ فلوْ لبستَ ، فنكسَ رأسَهُ ملياً ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فقالَ : إنَّ أفضلَ القصدِ عندَ الجدَةِ ، وإنَّ أفضلَ العفوِ عندَ القدرةِ (١١)

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٣٨٤) ، ونبّه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨/٣٨٠) إلىٰ أن ابن أبي مالك هو ثعلبة ، وليس ثابتاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٠٢) ، وفيه : (تمراً) بدل (لحماً) .

(٤) رواه أبو داوود (٤١٦١) ، وابن ماجه (٤١١٨) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٩) عقب روايته للحديث .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٠) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٣) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٥) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٦) .

(١٠) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٢٣ ، ٣٣٢) .

(١١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ زينةَ الدنيا ووضعَ ثياباً حسنةً تواضعاً للهِ وابتغاءَ وجهِهِ . . كانَ حقّاً على اللهِ تعالىٰ أنْ يدَّخرَ لهُ مِنْ عبقريِّ الجنَّةِ »[1]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (جودةُ الثيابِ خيلاءُ القلبِ)[2] ، وقدْ سُئِلَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الجمالِ في الثيابِ هلْ هوَ مِنَ الكبرِ ؟ فقالَ : « لا ، ولٰكنْ مَنْ سَفِهَ الحقَّ وغَمَصَ الناسَ »[3] ، فكيفَ طريقُ الجمعِ بينَهُما ؟

فاعلمْ : أنَّ الثوبَ الجيِّدَ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ أنْ يكونَ مِنَ التكبُّرِ في حقِّ كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ ، وهوَ الذي أشارَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ الذي عرفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حالِ ثابتِ بنِ قيسٍ ؛ إذْ قالَ : إنِّي امرؤٌ حُبِّبَ إليَّ مِنَ الجمالِ ما ترىٰ[4] ، فعرفَ أنَّ ميلَهُ إلى النظافةِ وجودةِ الثيابِ ، لا ليتكبَّرَ علىٰ غيرِهِ ، فإنَّهُ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ أنْ يكونَ مِنَ الكبْرِ ، وقدْ يكونُ ذٰلكَ مِنَ الكبرِ ؛ كما أنَّ الرضا بالثوبِ الدونِ قدْ يكونُ مِنَ التواضعِ .

وعلامةُ المتكبِّرِ : أنْ يطلبَ التجمُّلَ إذا رآهُ الناسُ ، ولا يباليَ إذا انفردَ بنفسِهِ كيفَ كانَ ، وعلامةُ طلبِ الجمالِ : أنْ يحبَّ الجمالَ في كلِّ شيءٍ ولوْ في خلوتِهِ ، وحتَّىٰ في سُتُورِ دارِهِ ، فذٰلكَ ليسَ مِنَ التكبُّرِ .

فإذا انقسمَتِ الأحوالُ . . نُزِّلَ قولُ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ بعضِ الأحوالِ ؛ علىٰ أنَّ قولَهُ : (هوَ خيلاءُ القلبِ) يعني : قدْ تورثُ خيلاءَ في القلبِ ، وقولَ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليسَ مِنَ الكبرِ » يعني : أنَّ الكبرَ لا يوجبُهُ ، ويجوزُ ألَّا يوجبَهُ الكبْرُ ، ثمَّ يكونُ هوَ مورثاً للكبْرِ .

وبالجملةِ : فالأحوالُ تختلفُ في مثلِ هٰذا ، والمحبوبُ الوسطُ مِنَ اللباسِ ، الذي لا يوجبُ شهرةً بالجودةِ ولابالرداءةِ ، وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلوا واشربوا والْبَسوا وتصدَّقوا في غيرِ سَرَفٍ ولا مَخِيلَةٍ ، إنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يرىٰ أثرَ نعمتِهِ علىٰ عبدِهِ »[5]

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : (الْبَسوا ثيابَ الملوكِ ، وأميتوا قلوبَكُمْ بالخشيةِ)[6] ، وإنَّما خاطبَ بهٰذا قوماً يطلبونَ التكبُّرَ بثيابِ أهلِ الصلاحِ ، وقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (ما لكم تأتوني وعليكُمْ ثيابُ الرهبانِ وقلوبُكُمْ قلوبُ الذئابِ الضواري ؟! الْبَسوا ثيابَ الملوكِ ، وألينوا قلوبَكُمْ بالخشيةِ)[7]



---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٤٤) .

(٢) تقدم قريباً .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

(٤) هو الحديث المذكور قبله .

(٥) رواه بتمامه الحاكم في « المستدرك » (٤/١٣٥) ، وصدره رواه النسائي (٥/٧٩) ، وابن ماجه (٣٦٠٥) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٨) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٣) .

ومنها[1] : أنْ يتواضعَ بالاحتمالِ إذا سُبَّ وأُوذيَ وأُخِذَ حقُّهُ ، فذٰلكَ هوَ الأصلُ وقدْ أوردنا ما نُقِلَ عنِ السلفِ مِنِ احتمالِ الأذىٰ في كتابِ الغضبِ والحسدِ .

وبالجملةِ : فمجامعُ حسنِ الأخلاقِ والتواضعِ سيرةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبهِ ينبغي أنْ يُقتدىٰ ، ومنهُ ينبغي أنْ يُتعلَّمَ .

وقدْ قالَ أبو سلمةَ[2] : قلتُ لأبي سعيدٍ الخدريِّ : ما ترىٰ فيما أحدثَ الناسُ مِنَ الملبسِ والمشربِ والمركبِ والمطعمِ ؟

فقالَ : يا بنَ أخي ؛ كُلْ للهِ ، واشربْ للهِ ، والبَسْ للهِ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ دخلَهُ زهوٌ أوْ مباهاةٌ أوْ رياءٌ أو سمعةٌ . . فهوَ معصيةٌ وسرَفٌ ، وعالجْ في بيتِكَ مِنَ الخدمةِ ما كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعالجُ في بيتِهِ ، كانَ يعلفُ الناضحَ ، ويعقلُ البعيرَ ، ويقمُّ البيتَ ، ويحلبُ الشاةَ ، ويخصِفُ النعلَ ، ويرقعُ الثوبَ ، ويأكلُ معَ خادمِهِ ، ويطحنُ عنهُ إذا أعيا ، ويشتري الشيءَ مِنَ السوقِ ، ولا يمنعُهُ الحياءُ أنْ يعلِّقَهُ بيدِهِ ، أوْ يجعلَهُ في طرفِ ثوبِهِ ، وينقلبُ إلىٰ أهلِهِ ، يصافحُ الغنيَّ والفقيرَ ، والصغيرَ والكبيرَ ، ويسلِّمُ مبتدئاً علىٰ كلِّ مَنِ استقبلَهُ ؛ مِنْ صغيرٍ أوْ كبيرٍ ، أسودَ أوْ أحمرَ ، حرٍّ أوْ عبدٍ مِنْ أهلِ الصلاةِ ، ليسَتْ لهُ حُلَّةٌ لمدخلِهِ وحلةٌ لمخرجِهِ ، لا يستحيي مِنْ أنْ يجيبَ إذا دُعيَ وإنْ كانَ أشعثَ أغبرَ ، ولايحقرُ ما دُعِيَ إليهِ وإنْ لمْ يجدْ إلا حَشَفَ الدَّقَلِ ، لا يرفعُ غداءً لعشاءٍ ، ولا عشاءً لغداءٍ ، هيِّنُ المؤنةِ ، ليِّنُ الخُلُقِ ، كريمُ الطبيعةِ ، جميلُ المعاشرةِ ، طليقُ الوجهِ ، بسَّامٌ مِنْ غيرِ ضحكٍ ، محزونٌ مِنْ غيرِ عبوسٍ ، شديدٌ مِنْ غيرِ عنفٍ ، متواضعٌ مِنْ غيرِ مذلَّةٍ ، جوادٌ مِنْ غيرِ سَرَفٍ ، رحيمٌ لكلِّ ذي قربىٰ ومسلمٍ ، رقيقُ القلبِ ، دائمُ الإطراقِ ، لم يبشَمْ[3] قطُّ مِنْ شبعٍ ، ولمْ يمدَّ يدَهُ إلىٰ طمعٍ .

قالَ أبو سلمةَ : فدخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فحدَّثتُها بما قالَ أبو سعيدٍ في زهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَتْ : ما أخطأَ منهُ حرفاً ، ولقدْ قصَّرَ ؛ إذْ ما أخبركَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يمتلئْ قطُّ شبعاً ، ولـمْ يبثَّ إلىٰ أحدٍ شكوىٰ ، وإنْ كانَتِ الفاقةُ لأحبَّ إليهِ مِنَ اليسارِ والغنىٰ ، وإنْ كانَ ليظلُّ جائعاً يلتوي ليلتَهُ حتَّىٰ يصبحَ ، فما يمنعُهُ ذٰلكَ عنْ صيامِ يومِهِ ، ولوْ شاءَ أنْ يسألَ ربَّهُ فيُؤتىٰ بكنوزِ الأرضِ وثمارِها ورغدِ عيشِها مِنْ مشارقِها ومغاربِها . . لفعلَ ، وربَّما بكيتُ رحمةً لهُ ممَّا أُوتي مِنَ الجوعِ ، فأمسحُ بطنَهُ بيدي ، وأقولُ : نفسي لكَ الفداءُ ؛ لو تبلَّغتَ مِنَ الدنيا بقدْرِ ما يقوتُكَ ويمنعُكَ مِنَ الجوعِ ، فيقولُ : « يا عائشةُ ؛ إخواني مِنْ أولي العزمِ مِنَ الرسلِ قدْ صبروا علىٰ ما هوَ أشدُّ مِنْ هٰذا ، فمضَوا علىٰ حالِهِمْ ، وقدموا علىٰ ربِّهِمْ ، فأكرمَ مآبَهُمْ ، وأجزلَ ثوابَهُمْ ، فأجدُني أستحيي إنْ ترفَّهتُ في معيشتي أنْ يقصرَ بي دونَهُمْ ، فأصبرُ أياماً يسيرةً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ينقصَ حظِّي غداً في الآخرةِ ، وما مِنْ شيءٍ أحبَّ إليَّ مِنَ اللحوقِ بإخواني وأخلائي » ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فواللهِ ؛ ما استكملَ بعدَ ذٰلكَ جمعةً حتَّىٰ قبضَهُ اللهُ عز وجلَّ[4] .

---

(١) أي : من أخلاق المتواضعين . « إتحاف » (٣٨٣/٨) .

(٢) في النسخ : (ابن أبي سلمة) ، وأبو سلمة هو ابن عبد الرحمٰن بن عوف كما سيأتي .

(٣) في (د ، ك) : (لم يتجشأ) بدل (لم يبشم) .

(٤) ساق الخبر بتمامه ومرفوعه الحافظ الشامي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٦٧/٧) عن أبي الحسن بن الضحاك ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف ، وقال : (في سنده ميسرة بن عبد ربه) .

فمَا نُقلَ مِنْ أحوالِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجمعُ جملةَ أخلاقِ المتواضعينَ ، فمَنْ طلَبَ التواضعَ . . فليقتدِ بهِ ، ومَنْ رأىٰ نفسَهُ فوقَ محلِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ يرضَ لنفسِهِ بما رضيَ هوَ بهِ . . فما أشدَّ جهلَهُ !! فلقَدْ كانَ أعظمَ خلقِ اللهِ منصباً في الدنيا والدينِ ، فلا عزَّ ولا رفعةَ إلا في الاقتداءِ بهِ ، ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنا قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ ، فلا نطلبُ العزَّ في غيرِهِ) لمَّا عُوتبَ في بذاذةِ هيئتِهِ عندَ دخولِهِ الشامَ[1]

وقالَ أبو الدرداءِ : (اعلمْ أنَّ للهِ عباداً يُقالُ لهُمُ الأبدالُ ، خلفٌ مِنَ الأنبياءِ ، همْ أوتادُ الأرضِ ، فلمَّا انقضَتِ النبوةُ . . أبدلَ اللهُ مكانَهُمْ قوماً مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لمْ يفضلوا الناسَ بكثرةِ صومٍ ولا صلاةٍ ولا حسنِ حليةٍ ، ولٰكنْ بصدقِ الورعِ ، وحسنِ النيةِ ، وسلامةِ الصدرِ لجميعِ المسلمين ، والنصيحةِ لهُمْ ؛ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ، بصبرٍ حسنٍ[2] ، وتواضعٍ في غيرِ مذلَّةٍ ، وهمْ قومٌ اصطفاهُمُ اللهُ واستخلصَهُمْ لنفسِهِ ، وهمْ أربعونَ صدِّيقاً ، أوْ ثلاثونَ رجلاً ، قلوبُهُمْ علىٰ مِثْلِ يقينِ إبراهيمَ خليلِ الرحمٰنِ عليهِ السلامُ ، لا يموتُ الرجلُ منهُمْ حتَّىٰ يكونَ اللهُ قدْ أنشأَ مَنْ يخلفُهُ .

واعلمْ يا بنَ أخي أنَّهُمْ لا يلعنونَ شيئاً ، ولا يؤذونَهُ ، ولا يحقرونهُ ، ولا يتطاولونَ عليهِ ، ولا يحسدونَ أحداً ، ولا يحرصونَ على الدنيا ، همْ أطيبُ الناسِ خُبْراً ، وألينُهُمْ عريكةً ، وأسخاهُمْ نفساً ، علامتُهُمُ السخاءُ ، وسجيتُهُمُ البشاشةُ ، وصفتُهُمُ السلامةُ ، ليسوا اليومَ في خشيةٍ وغداً في غفلةٍ ، ولٰكنْ دائمونَ علىٰ حالِهِمُ الظاهرِ ، وهمْ فيما بينَهُمْ وبينَ ربِّهِمْ لا تدركُهُمُ الرياحُ العواصفُ ، ولا الخيلُ المجراةُ ، قلوبُهُمْ تصعدُ ارتياحاً إلى اللهِ ، واشتياقاً إليهِ ، وقدماً في استباقِ الخيراتِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

قالَ الراوي : فقلتُ : يا أبا الدرداءِ ؛ ما سمعتُ بصفةٍ أشدَّ عليَّ مِنْ هٰذهِ الصفةِ ، فكيفَ لي أنْ أبلغَها ؟ فقالَ : ما بينَكَ وبينَ أنْ تكونَ في أوسعِها إلا أن تبغضَ الدنيا ؛ فإنَّكَ إذا أبغضتَ الدنيا . . أقبلتَ علىٰ حبِّ الآخرةِ ، وبقدْرِ حبِّكَ للآخرةِ تزهدُ في الدنيا ، وبقدْرِ ذٰلكَ تبصرُ ما ينفعُكَ ، وإذا علمَ اللهُ مِنْ عبدٍ حسنَ الطلبِ . . أفرغَ عليهِ السدادَ ، واكتنفَهُ بالعصمةِ ، واعلمْ يا بنَ أخي أنَّ ذٰلكَ في كتابِ اللهِ المنزَّلِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ .

قالَ يحيى بنُ كثيرٍ : فنظرنا في ذٰلكَ ، فما تلذَّذَ المتلذذونَ بمثلِ حبِّ اللهِ وطلبِ مرضاتِهِ[3]

اللهمَّ ؛ اجعلْنا منْ محبِّي المحبِّينَ لكَ يا ربَّ العالمينَ ؛ فإنَّهُ لا يصلحُ لحبِّكَ إلا مَنِ ارتضيتَهُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ .

* * *

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٦١/١) .

(٢) في (ب) : (بغير تجبر) ، وفي (ب) و(ك) و(م) : (بصبر ثخين) بدل (بصبر حسن) .

(٣) الخبر عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٦٩) بتمامه ، وأما حديث الأبدال . . فقد أورد تخريجه وطرقه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٨٥/٨) .

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلمْ : أنَّ الكبْرَ مِنَ المهلكاتِ ، ولا يخلو أحدٌ مِنَ الخلْقِ عنْ شيءٍ منهُ ، وإزالتُهُ فرضُ عينٍ ، ولا يزولُ بمجرَّدِ التمنّي ، بلْ بالمعالجةِ واستعمالِ الأدويةِ القامعةِ لهُ .

وفي معالجتِهِ مقامانِ :

أحدُهُما : استئصالُ أصلِهِ مِنْ سِنْخِهِ ، وقلعُ شجرتِهِ مِنْ مغرسِها في القلبِ .

والثاني : دفعُ العارضِ منهُ بالأسبابِ الخاصةِ التي بها يتكبَّرُ الإنسانُ على غيرِهِ .

* * *

المقامُ الأولُ : في استئصالِ أصلِهِ :

وعلاجُهُ : علميٌّ وعمليٌّ ، ولا يتمُّ الشفاءُ إلا بمجموعِهِما .

أمَّا العلميُّ : فهوَ أنْ يعرفَ نفسَهُ ، ويعرفَ ربَّهُ تعالىٰ ، ويكفيهِ ذلكَ في إزالةِ الكبرِ ، فإنَّهُ مهما عرفَ نفسَهُ حقَّ المعرفةِ . . علمَ أنَّهُ أذلُّ مِنْ كلِّ ذليلٍ ، وأقلُّ مِنْ كلِّ قليلٍ ، وأنَّهُ لا يليقُ بهِ إلا التواضعُ والذلَّةُ والمهانةُ ، وإذا عرفَ ربَّهُ . . علمَ أنَّهُ لا تليقُ العظمةُ والكبرياءُ إلا باللهِ .

أما معرفتُهُ ربَّهُ وعظمتَهُ ومجدَهُ . . فالقولُ فيهِ يطولُ ، وهو منتهىٰ علمِ المكاشفةِ .

وأمَّا معرفتُهُ نفسَهُ . . فهوَ أيضاً يطولُ ، ولكنَّا نذكرُ مِنْ ذلكَ ما ينفعُ في إثارةِ التواضعِ والمذلَّةِ ، ويكفيهِ أنْ يعرفَ معنىٰ آيةٍ واحدةٍ في كتابِ اللهِ ، فإنَّ في القرآنِ علمَ الأولينَ والآخرينَ لمَنْ فُتحَتْ بصيرتُهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

فقدْ أشارَتِ الآيةُ إلىٰ أوَّلِ خلقِ الإنسانِ ، وإلىٰ آخرِ أمرِهِ ، وإلىٰ وسطِهِ ، فلينظرِ الإنسانُ ذلكَ ليفهمَ معنىٰ هٰذهِ الآيةِ .

أمَّا أوَّلُ الإنسانِ . . فهوَ أنَّهُ لمْ يكنْ شيئاً مذكوراً ، وقدْ كانَ في حيِّزِ العدمِ دهوراً ، بلْ لمْ يكنْ لعدمِهِ أوَّلٌ ، وأيُّ شيءٍ أخسُّ وأقلُّ مِنَ المحوِ والعدمِ ؟! وقدْ كانَ كذلكَ في القدمِ ، ثمَّ خلقَهُ اللهُ مِنْ أذلِّ الأشياءِ ، ثمَّ مِنْ أقذرِها ؛ إذ قدْ خلقَهُ مِنْ ترابٍ ، ثمَّ مِنْ نطفةٍ ، ثمَّ مِنْ علقةٍ ، ثمَّ مِنْ مضغةٍ ، ثمَّ جعلَهُ عظماً ، ثمَّ كسا العظمَ لحماً ، فقدْ كانَ هٰذا بدايةَ وجودِهِ ، حيثُ صارَ شيئاً مذكوراً ، فما صارَ شيئاً مذكوراً إلا وهوَ علىٰ أخسِّ الأوصافِ والنعوتِ ؛ إذْ لمْ يُخلقْ في ابتدائِهِ كاملاً ، بلْ خلقَهُ جماداً ميتاً لا يسمعُ ولا يبصرُ ، ولا يحسُّ ولا يتحركُ ، ولا ينطقُ ولا يبطشُ ، ولا يدركُ ولا يعلمُ ، فبدأ بموتِهِ قبلَ حياتِهِ ، وبضعفِهِ قبلَ قوتِهِ ، وبجهلِهِ قبلَ علمِهِ ، وبعماهُ قبلَ بصرِهِ ، وبصممِهِ قبلَ سمعِهِ ، وببكمِهِ قبلَ نطْقِهِ ، وبضلالتِهِ قبلَ هداهُ ، وبفقرِهِ قبلَ غناهُ ، وبعجزِهِ قبلَ قدرتِهِ .

فهٰذا معنىٰ قولِهِ : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ ، ومعنىٰ قولِه : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ ، كذلك خلقه أوَّلاً ، ثمَّ امتنَّ عليهِ فقالَ : ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ ما تيسَّرَ لهُ في مدَّةِ حياتِهِ إلى الموتِ .

وكذلكَ قالَ : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ، ومعناهُ : أنَّهُ أحياهُ بعدَ

أنْ كانَ جماداً ميتاً ؛ تراباً أوّلاً ، ونطفةً ثانياً ، وأسمعَهُ بعدَما كانَ أصمَّ ، وبصَّرَهُ بعدَما كانَ فاقداً للبصرِ ، وقوّاهُ بعدَ الضعفِ ، وعلَّمَهُ بعدَ الجهلِ ، وخلقَ لهُ الأعضاءَ بما فيها مِنَ العجائبِ والآياتِ بعدَ الفقدِ لها ، وأغناهُ بعدَ الفقرِ وأشبعَهُ بعدَ الجوعِ ، وكساهُ بعدَ العرْيِ ، وهداهُ بعدَ الضلالِ .

فانظرْ كيفَ دبَّرَهُ وصوَّرَهُ ، وإلى السبيلِ كيفَ يسَّرَهُ ، وإلىٰ طغيانِ الإنسانِ ما أكفرَهُ ، وإلىٰ جهلِ الإنسانِ كيفَ أظهرَهُ ، فقالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

فانظرْ إلىٰ نعمةِ اللهِ عليهِ كيفَ نقلَهُ مِنْ تلكَ الذلَّةِ والقلَّةِ والخسَّةِ والقذارةِ إلىٰ هٰذهِ الرفعةِ والكرامةِ ، فصارَ موجوداً بعدَ العدمِ ، وحيّاً بعدَ الموتِ ، وناطقاً بعد البكمِ ، وبصيراً بعدَ العمىٰ ، وقوياً بعدَ الضعفِ ، وعالماً بعدَ الجهلِ ، ومهتدياً بعدَ الضلالِ ، وقادراً بعدَ العجزِ ، وغنياً بعدَ الفقرِ ، فكانَ في ذاتِهِ لا شيءَ ، وأيُّ شيءٍ أخسُّ مِنْ لا شيءَ ؟! وأيُّ قلَّةٍ أقلُّ مِنَ العدمِ المحضِ ؟! ثمَ صارَ باللهِ شيئاً .

وإنَّما خلقَهُ مِنَ الترابِ الذليلِ الذي يوطأُ بالأقدامِ ، والنطفةِ القذرةِ بعدَ العدمِ المحضِ ؛ ليعرِّفَهُ خسَّةَ ذاتِهِ ، فيعرفَ بهِ نفسَهُ ، وإنَّما أكملَ النعمةَ عليهِ ؛ ليعرفَ بها ربَّهُ ، ويعلمَ بها عظمتَهُ وجلالَهُ ، وأنَّهُ لا يليقُ الكبرياءُ إلا بهِ جلَّ وعلا ، ولذٰلكَ امتنَّ عليهِ فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ وعرَّفهُ خسَّتَهُ أولاً فقالَ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ ، ثمَّ ذكرَ منَّتَهُ عليهِ فقالَ : ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ ليدومَ وجودُهُ بالتناسلِ كما حصلَ وجودُهُ ابتداءً بالاختراعِ .

فمَنْ كانَ هٰذا بدأَهُ وهٰذهِ أحوالَهُ . . فمِنْ أينَ لهُ البطَرُ والكبرياءُ ، والفخرُ والخيلاءُ ، وهوَ على التحقيقِ أخسُّ الأخساءِ ، وأضعفُ الضعفاءِ ؟! .

ولٰكنْ هٰذهِ عادةُ الخسيسِ إذا رُفعَ منْ خسَّتِهِ . . شمخَ بأنفِهِ وتعظَّمَ ؛ وذٰلكَ لدلالةِ خسَّةِ أوَّلِهِ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ .

نعمْ ؛ لوْ أكملَهُ وفوَّضَ إليهِ أمرَهُ ، وأدامَ لهُ الوجودَ باختيارِهِ . . لجازَ أنْ يطغىٰ ، وينسى المبتدأَ والمنتهىٰ ، ولٰكنَّهُ سلَّطَ عليهِ في دوامِ وجودِهِ الأمراضَ الهائلةَ ، والأسقامَ العظيمةَ ، والآفاتِ المختلفةَ ، والطبائعَ المتضادَّةَ ؛ مِنَ المِرَّةِ ، والبلغمِ ، والريحِ ، والدمِ ، يهدمُ البعضُ مِنْ أجزائِهِ البعضَ ، شاءَ أمْ أبىٰ ، رضيَ أم سَخِطَ ، فيجوعُ كرهاً ، ويعطشُ كرهاً ، ويمرضُ كرهاً ، ويموتُ كرهاً ، لا يملكُ لنفسِهِ نفعاً ولا ضراً ، ولا خيراً ولا شرّاً ، يريدُ أنْ يعلمَ الشيءَ فيجهلُهُ ، ويريدُ أنْ يذكرَ الشيءَ فينساهُ ، ويريدُ أنْ ينسى الشيءَ ويغفُلَ عنهُ فلا يغفُلُ عنهُ ، ويريدُ أن يصرفَ قلبَهُ إلىٰ ما يهمُّهُ فيجولُ في أوديةِ الوسواسِ والأفكارِ بالاضطرارِ ، فلا يملكُ قلبُهُ قلبَهُ ، ولا نفسُهُ نفسَهُ ، يشتهي الشيءَ وربَّما يكونُ هلاكُهُ فيهِ ، ويكرهُ الشيءَ وربَّما تكونُ حياتُهُ فيهِ ، يستلذُّ الأطعمةَ وهيَ تهلكُهُ وتُرْديهِ ، ويستبشعُ الأدويةَ وهيَ تنفعُهُ وتحييهِ ، ولا يأمنُ في لحظةٍ مِنْ ليلِهِ أوْ نهارِهِ أنْ يُسلبَ سمعُهُ وبصرُهُ ، وتُفلجَ أعضاؤُهُ ، ويُختلسَ عقلُهُ ، ويُختطفَ روحُهُ ، ويُسلبَ جميعُ ما يهواهُ في دنياهُ ، فهوُ مضطرٌّ ذليلٌ ، إنْ تركَ . . بقيَ ، وإنِ اختطفَ . . فنيَ ، عبدٌ مملوكٌ لا يقدرُ علىٰ شيءٍ مِنْ نفسِهِ ، ولا مِنْ غيرِهِ ، فأيُّ شيءٍ أذلُّ منهُ لوْ عرفَ نفسَهُ ؟! وأنَّىٰ يليقُ الكبْرُ بهِ لولا جهلُهُ ؟!

فهٰذا أوسطُ أحوالِهِ ، فليتأملْهُ .

وأمَّا آخرُهُ ومورِدُهُ . . فهوَ الموتُ المشارُ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ ومعناهُ : أنَّهُ يسلبُ روحَهُ ، وسمعَهُ وبصرَهُ ، وعلمَهُ وقدرتَهُ ، وحسَّهُ ، وإدراكَهُ وحركتَهُ ، فيعودُ جماداً كما كانَ أوَّلَ مرةٍ ، لا يبقىٰ إلا شكلُ أعضائِهِ وصورتُهُ ، لا حسَّ فيهِ ولا حركةَ ، ثمَّ يُوضعُ في الترابِ فيصيرُ جيفةً منتنةً قذرةً ؛ كما كانَ في الأوَّلِ نطفةً مذرةً ، ثمَّ تبلىٰ أعضاؤُهُ ، وتتفتَّتُ أجزاؤُهُ ، وتنخرُ عظامُهُ فتصيرُ رميماً ورفاتاً ، ويأكلُ الدودُ أجزاءَهُ ، فيبتدئُ بحدقتَيهِ فيقلعُهُما ، وبخدَّيهِ فيقطعُهُما ، وبسائرِ أجزائِهِ فيصيرُ روثاً في أجوافِ الديدانِ ، ويكونُ جيفةً يهربُ منهُ الحيوانُ ، ويستقذرُهُ كلُّ إنسانٍ ويهربُ منهُ لشدَّةِ الإنتانِ ، وأحسنُ أحوالِهِ أنْ يعودَ إلىٰ ما كانَ ، فيصيرَ تراباً يُعملُ منهُ الكيزانُ ، ويعمرُ بهِ البنيانُ ، ويصيرُ مفقوداً بعدَما كانَ موجوداً ، وصارَ كأنْ لمْ يغنَ بالأمسِ حصيداً ؛ كما كانَ في أوَّلِ أمرِهِ أمداً مديداً .

وليتَهُ بقيَ كذٰلكَ ، فما أحسنَهُ لوْ تُركَ تراباً !! لا بلْ يحييهِ بعدَ طولِ البلىٰ ؛ ليقاسيَ شدائدَ البلاءِ ، فيخرجُ مِنْ قبرِهِ بعدَ جمعِ أجزائِهِ المتفرقةِ ، ويُخرجُ إلىٰ أهوالِ القيامةِ ، فينظرُ إلىٰ قيامةٍ قائمةٍ ، وسماءٍ ممزقةٍ مشققةٍ ، وأرضٍ مبدَّلةٍ ، وجبالٍ مسيرةٍ ، ونجومٍ منكدرةٍ ، وشمسٍ منكسفةٍ ، وأحوالٍ مظلمةٍ ، وملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ وجحيمٍ تزفرُ ، وجنةٍ ينظرُ إليها المجرمُ فيتحسَّرُ ، ويرىٰ صحائفَ منشورةً ، فيُقالُ لهُ : اقرأْ كتابَكَ ، فيقولُ وما هوَ ؟ فيُقالُ : كانَ قدْ وُكِّلَ بكَ في حياتِكَ التي كنتَ تفرحُ بها وتتكبَّرُ بنعيمِها وتفتخرُ بأسبابِها ملكانِ رقيبانِ ، يكتبانِ عليكَ ما كنتَ تنطقُ بهِ أوْ تعملُهُ ؛ مِنْ قليلٍ وكثيرٍ ، وصغيرٍ وكبيرٍ ، ونقيرٍ وقطميرٍ ، وأكلٍ وشربٍ ، وقيامٍ وقعودٍ ، قدْ نسيتَ ذٰلكَ وأحصاهُ اللهُ تعالىٰ عليكَ ، فهلمَّ إلى الحسابِ ، واستعدَّ للجوابِ ، أوْ تُساقَ إلىٰ دارِ العذابِ ، فينقطعُ قلبُهُ فزعاً مِنْ هولِ هٰذا الخطابِ ، قبلَ أنْ تُنشرَ الصحيفةُ ويشاهدَ ما فيها مِنْ مخازيهِ ، فإذا شاهدَهُ . . قالَ : ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ، فهٰذا آخرُ أمرِهِ وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

فما لمَنْ هٰذا حالُهُ وللتكبُّرِ ؟! بلْ ما لَهُ وللفرحِ في لحظةٍ واحدةٍ فضلاً عنِ البطرِ والتجبرِ ؟! فقدْ ظهرَ لهُ أوَّلُ حالِهِ ووسطُهُ ، ولوْ ظهرَ آخرُهُ والعياذُ باللهِ تعالىٰ . . ربَّما اختارَ أنْ يكونَ كلباً أوْ خنزيراً ؛ ليصيرَ مع البهائمِ تراباً ، ولا يكونَ إنساناً يسمعُ خطاباً ويلقىٰ عذاباً ، وإنْ كانَ عند اللهِ مستحقاً للنارِ . . فالخنزيرُ أشرفُ منهُ وأطيبُ وأرفعُ ؛ إذْ أوَّلُهُ الترابُ ، وآخرُهُ الترابُ ، وهوَ بمعزلٍ عنِ الحسابِ والعذابِ ، والكلبُ والخنزيرُ لا يهربُ منهُ الخلقُ ، ولوْ رأىٰ أهلُ الدنيا العبدَ المذنبَ في النارِ . . لصعقوا من وحشةِ خلقتِهِ وقبحِ صورتِهِ ، ولوْ وجدوا ريحَهُ . . لماتوا مِنْ نتنِهِ ، ولوْ وقعَتْ قطرةٌ مِنْ شرابِهِ الذي يُسقىٰ منهُ في بحارِ الدنيا . . لصارَتْ أنتنَ مِنَ الجيفةِ ، فمَنْ هٰذا حالُهُ في العاقبةِ ـ إلا أن يعفوَ عنهُ مولاهُ وهوَ علىٰ شكٍّ مِنَ العفوِ ـ كيفَ يفرحُ ويبطرُ ، وكيفَ يتكبَّرُ ويتجبَّرُ ؟! وكيفَ يرىٰ نفسَهُ شيئاً حتىٰ يعتقدَ لهُ فضلاً ؟! وأيُّ عبدٍ لمْ يذنبْ ذنباً استحقَّ بهِ العقوبةَ إلا أنْ يعفوَ الكريمُ بفضلِهِ ، ويجبرَ الكسرَ بمنِّهِ ؟! والرجاءُ منهُ ذٰلكَ ؛ لكرمِهِ وحسنِ الظنِّ بهِ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ .

أرأيتَ مَنْ جنىٰ علىٰ بعضِ الملوكِ فاستحقَّ بجنايتِهِ ضربَ ألفِ سوطٍ ، فحُبسَ في السجنِ وهوَ ينتظرُ أنْ يُخرجَ إلى العرضِ ، وتُقامَ عليهِ العقوبةُ علىٰ ملأٍ مِنَ الخلقِ ، وليسَ يدري أيُعفىٰ عنهُ أمْ لا . . كيفَ يكونُ ذلُّهُ في السجنِ ؟ أفترىٰ أنَّهُ يتكبَّرُ علىٰ مَنْ في السجنِ ؟ وما مِنْ عبدٍ مذنبٍ إلا والدنيا سجنُهُ ، وقدِ استحقَّ العقوبةَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يدري كيفَ يكونُ آخرُ أمرِهِ ؟ فيكفيهِ ذٰلكَ حزناً ، وخوفاً وإشفاقاً ، ومهانةً وذلاً

فهـٰذا هوَ العلاجُ العلميُّ القامعُ لأصلِ الكبرِ .

وأمَّا العلاجُ العمليُّ : فهوَ التواضعُ بالفعلِ للهِ ولسائرِ الخلقِ ؛ بالمواظبةِ علىٰ أخلاقِ المتواضعينَ ، كما وصفناهُ وحكيناهُ مِنْ أحوالِ الصالحينَ ، ومِنْ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ إنَّهُ كانَ يأكلُ على الأرضِ ويقولُ : « إنَّما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكلُ العبدُ »[1]

وقيلَ لسلمانَ : لِمَ لا تلبسُ ثوباً جديداً ؟ فقالَ : إنَّما أنا عبدٌ ، فإذا أُعتقتُ يوماً . . لبستُ جديداً[2] ، أشارَ بهِ إلى العتقِ في الآخرةِ ، ولا يتمُّ التواضعُ بعدَ المعرفةِ إلا بالعملِ .

ولذٰلكَ أُمرَ العربُ الذينَ تكبَّروا على اللهِ ورسولِهِ بالإيمانِ وبالصلاةِ جميعاً ، وقيلَ : الصلاةُ عمادُ الدينِ[3] ، وفي الصلاةِ أسرارٌ لأجلِها كانَتْ عماداً ، ومِنْ جملتِها : ما فيها مِنَ التواضعِ بالمثولِ قائماً ، وبالركوعِ والسجودِ ، وقدْ كانَتِ العربُ قديماً يأنفونَ مِنَ الانحناءِ ، فكانَ يسقطُ مِنْ يدِ الواحدِ سَوطُهُ فلا ينحني لأخذِهِ ، وينقطعُ شراكُ نعلِهِ فلا ينكِّسُ رأسَهُ لإصلاحِهِ ، حتَّىٰ قالَ حكيمُ بنُ حزامٍ : بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ ألَّا أَخِرَّ إلا قائماً[4] ، فبايعَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ فقهَ وكملَ إيمانُهُ بعدَ ذٰلكَ ، فلمَّا كانَ السجودُ عندَهُمْ هوَ منتهى المذلَّةِ والضَعَةِ . . أُمروا بهِ ؛ لينكسرَ بذٰلكَ خيلاؤُهُمْ ، ويزولَ كبْرُهُمْ ، ويستقرَّ التواضعُ في قلوبِهِمْ ، وبهِ أُمرَ سائرُ الخلقِ ؛ فإنَّ الركوعَ والسجودَ والمثولَ قائماً هو العملُ الذي يقتضيهِ التواضعُ .

فكذٰلكَ مَنْ عرفَ نفسَهُ . . فلينظرْ كلَّ ما يتقاضاهُ الكبرُ مِنَ الأفعالِ فليواظبْ علىٰ نقيضِهِ ، حتَّىٰ يصيرَ التواضعُ لهُ خُلُقاً ، فإنَّ القلوبَ لا تتخلَّقُ بالأخلاقِ المحمودةِ إلا بالعلمِ والعملِ جميعاً ؛ وذٰلكَ لخفاءِ العلاقةِ بينَ القلبِ والجوارحِ ، وسرِّ الارتباطِ الذي بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ ، والقلبُ مِنْ عالمِ الملكوتِ .

❀ ❀ ❀

المقامُ الثاني : فيما يعرضُ مِنَ التكبرِ بالأسبابِ السبعةِ المذكورةِ :

وقدْ ذكرنا في كتابِ ذمِّ الجاهِ أنَّ الكمالَ الحقيقيَّ هوَ العلمُ والعملُ ، فأمَّا ما عداهُ ممَّا يفنىٰ بالموتِ . . فكمالٌ وهميٌّ ، فمِنْ هـٰذا يعسرُ على العالمِ ألَّا يتكبَّرَ ، ولـٰكنَّا نذكرُ طريقَ العلاجِ مِنَ العلمِ والعملِ في جميعِ الأسبابِ السبعةِ .

❀ ❀ ❀

الأولُ : النسبُ :

فمَنْ يعتريهِ الكبْرُ مِنْ جهةِ النسب . . فليداوِ قلبَهُ بمعرفةِ أمرينِ :

أحدُهما : أنَّ هـٰذا جهلٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ تعزُّزٌ بكمالِ غيرِهِ ؛ ولذٰلكَ قيلَ[5] : [من البسيط]

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآباءٍ ذَوِي شَرَفٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ ما وَلَدُوا

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣) من زيادات نعيم بن حماد ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١٩٥٤٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٨) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٥٥٠) .
(٤) رواه النسائي (٢/٢٠٥) .
(٥) البيت لابن الرومي في « ديوانه » (٢/٨٠٨)

فالمتكبِّرُ بالنسبِ إنْ كانَ خسيساً في صفاتِ ذاتِهِ . . فمِنْ أينَ يجبُرُ خسَّتَهُ بكمالِ غيرِهِ ؟ بلْ لوْ كانَ الذي ينتسبُ إليهِ حيّاً . . لكانَ لهُ أنْ يقولَ : الفضلُ لي ، ومَنْ أنتَ ؟ وإنَّما أنتَ دودةٌ خُلقَتْ مِنْ بولي ، أفترىٰ أنَّ الدودةَ التي خُلِقَتْ مِنْ بولِ الإنسانِ أشرفُ مِنَ الدودةِ التي مِنْ بولِ فرسٍ ؟ هيهاتَ !! فهُما متساويتانِ ، والشرفُ للإنسانِ لا للدودةِ .

الثاني : هوَ أنْ يعرفَ نسبَهُ الحقيقيَّ ، فيعرفَ أباهُ وجدَّهُ ، فإنَّ أباهُ القريبَ نطفةٌ قذرةٌ ، وجدَّهُ البعيدَ ترابٌ ذليلٌ ، وقدْ عرَّفَهُ اللهُ تعالىٰ نسبَهُ فقالَ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ ، فمَنْ أصلُهُ مِنَ الترابِ المهينِ الذي يُداسُ بالأقدامِ ، ثمَّ خُمِّرَ طينُهُ حتَّىٰ صارَ حمأً مسنوناً . . كيفَ يتكبَّرُ وأخسُّ الأشياءِ ما إليهِ انتسابُهُ ؛ إذْ يُقالُ : يا أذلَّ مِنَ الترابِ ، ويا أنتنَ مِنَ الحمأةِ ، ويا أقذرَ مِنَ المضغةِ ؟!

فإنْ كانَ كونُهُ مِنْ أبيهِ أقربَ مِنْ كونِهِ مِنَ الترابِ . . فنقولُ : افتخرْ بالقريبِ دونَ البعيدِ ، فالنطفةُ والمضغةُ أقربُ إليهِ مِنَ الأبِ ، فليحقرْ نفسَهُ بذٰلكَ ، ثمَّ إنْ كانَ ذٰلكَ يوجبُ رفعةً لقربِهِ . . فالأبُ الأعلىٰ مِنَ الترابِ ؛ فمِنْ أينَ رفعتُهُ ؟! وإذا لمْ يكنْ لهُ رفعةٌ . . فمِنْ أينَ جاءَتِ الرفعةُ لولدِهِ ؟!

فإذاً ؛ أصلُهُ مِنَ الترابِ ، وفصلُهُ مِنَ النطفةِ ، فلا أصلَ لهُ ولا فصلَ ، وهٰذا غايةُ خسَّةِ النسبِ ، فالأصلُ يُوطأُ بالأقدامِ ، والفصلُ تُغسلُ منهُ الأبدانُ ، فهٰذا هوَ النسبُ الحقيقيُّ للإنسانِ ، ومَنْ عرفَهُ . . لمْ يتكبَّرْ بالنسبِ ، ويكونُ مثالُهُ بعدَ هٰذهِ المعرفةِ وانكشافِ الغطاءِ لهُ عنْ حقيقةِ أصلِهِ كرجلٍ لمْ يزلْ عندَ نفسِهِ مِنْ بني هاشمٍ وقدْ أخبرَهُ بذٰلكَ والداهُ ، فلمْ تزلْ فيهِ نخوةُ الشرفِ ، فبينَما هوَ كذٰلكَ إذْ أخبرَهُ عدولٌ لا يشكُّ في قولِهِمْ أنَّهُ ابنُ هنديٍّ حجَّامٍ يتعاطى القاذوراتِ ، وكشفوا لهُ وجهَ التلبيسِ عليهِ ، فلمْ يبقَ لهُ شكٌّ في صدقِهِمْ ، أفترىٰ أنَّ ذٰلكَ يُبقي شيئاً مِنْ كبرِهِ ؟ لا بلْ يصيرُ عندَ نفسِهِ أحقرَ الناسِ وأذلَّهُمْ ، فهوَ مِنِ استشعارِ الخزيِ لخسَّتِهِ في شغلٍ عنْ أنْ يتكبَّرَ علىٰ غيرِهِ .

فهٰذا حالُ البصيرِ إذا تفكَّرَ في أصلِهِ ، وعلمَ أنَّهُ مِنَ النطفةِ والمضغةِ والترابِ ؛ إذْ لوْ كانَ أبوهُ ممَّنْ يتعاطىٰ نقلَ الترابِ ، أوْ يتعاطى الدمَ بالحجامةِ أوْ غيرِها . . لكانَ يعلمُ بهِ خسَّةَ نفسِهِ ؛ لمماسَّةِ أعضاءِ أبيهِ للترابِ والدمِ ، فكيفَ إذا عرفَ أنَّهُ في نفسِهِ مِنَ الترابِ والدمِ والأشياءِ القذرةِ التي يتنزَّهُ منها هوَ في نفسِهِ ؟!

❁ ❁ ❁

السببُ الثاني : التكبُّرُ بالجمالِ :

ودواؤُهُ : أنْ ينظرَ إلىٰ باطنِهِ نظرَ العقلاءِ ، ولا ينظرَ إلى الظاهرِ نظرَ البهائمِ ، ومهما نظرَ إلىٰ باطنِهِ . . رأىٰ مِنَ القبائحِ ما يكدِّرُ عليهِ تعزُّزَهُ بجمالِهِ ؛ فإنَّهُ وُكلَ بهِ الأقذارُ في جميعِ أجزائِهِ ، الرجيعُ في أمعائِهِ ، والبولُ في مثانتِهِ ، والمخاطُ في أنفِهِ ، والبزاقُ في فيهِ ، والوسخُ في أذنيهِ ، والدمُ في عروقِهِ ، والصديدُ تحتَ بشرتِهِ ، والصُّنانُ تحتَ إبطيهِ ، يغسلُ الغائطَ بيدِهِ كلَّ يومٍ دفعةً أوْ دفعتينِ ، ويتردَّدُ إلى الخلاءِ كلَّ يومٍ مرةً أوْ مرتينِ ؛ ليخرجَ مِنْ باطنِهِ ما لوْ رآهُ بعينِهِ . . لاستقذرَهُ ، فضلاً عن أنْ يمسَّهُ أوْ يشَمَّهُ ، كلُّ ذٰلكَ ليعرفَ قذارتَهُ وذلَّهُ ، هٰذا في حالِ توسُّطِهِ .

وفي أولِ أمرِهِ خُلقَ مِنَ الأقذارِ الشنيعةِ الصورِ ؛ مِنَ النطفةِ ودمِ الحيضِ ، وأُخرجَ مِنْ مجرى الأقذارِ ؛ إذْ خرجَ مِنَ الصُّلبِ ثمَّ مِنَ الذكَرِ مجرى البولِ ، ثمَّ مِنَ الرحمِ مُفيضِ دمِ الحيضِ ، ثمَّ خرجَ مِنْ مجرى القذرِ .

قالَ أنسٌ رحمهُ اللهُ : كانَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ يخطبُنا ، فيقذِّرُ إلينا أنفسَنا ويقولُ : (خرجَ أحدُكُمْ مِنْ مجرى البولِ مرتينِ)[1]

وكذٰلكَ قالَ طاووسٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : ما هٰذهِ مشيةُ مَنْ في بطنِهِ خرءٌ ؛ إذْ رآهُ يتبختَرُ ، وكانَ ذٰلكَ قبلَ خلافتِهِ[2]

هٰذا أولُهُ ووسطُهُ ، ولو تركَ نفسَهُ في حياتِهِ يوماً لمْ يتعهدْها بالتنظيفِ والغسلِ . . لثارَتْ منهُ الأنتانُ والأقذارُ ، وصارَ أقذرَ وأنتنَ مِنَ الدوابِّ المهملةِ التي لا تتعهدُ نفسَها قطُّ .

فإذا نظرَ أنَّهُ خُلِقَ مِنْ أقذارٍ ، وأُسكنَ في أقذارٍ ، وسيموتُ فيصيرُ جيفةً أقذرَ مِنْ سائرِ الأقذارِ . . لمْ يفتخرْ بجمالِهِ الذي هوَ كخضراءِ الدمنِ ، وكلَونِ الأزهارِ في البوادي ، بينَما هوَ كذٰلكَ إذْ صارَ هشيماً تذروهُ الرياحُ ، كيفَ ولوْ كانَ جمالُهُ باقياً وعنْ هٰذهِ القبائحِ خالياً . . لكانَ يجبُ ألَّا يتكبَّرَ بهِ على القبيحِ ؛ إذْ لمْ يكنْ قبحُ القبيحِ إليهِ فينفيَهُ ، ولا كانَ جمالُ الجميلِ إليهِ حتَّىٰ يُحمدَ عليهِ ، كيفَ ولا بقاءَ لهُ ؟! بلْ هوَ في كلِّ حالةٍ يُتصوَّرُ أنْ يزولَ بمرضٍ ، أوْ جدريٍّ ، أوْ قرحةٍ ، أوْ سببٍ مِنَ الأسبابِ ، فكمْ مِنْ وجوهٍ جميلةٍ قدْ سمِجَتْ بهٰذهِ الأسبابِ .

فمعرفةُ هٰذهِ الأمورِ تنزعُ مِنَ القلبِ داءَ الكبرِ بالجمالِ لمَنْ أكثرَ تأمُّلَها .

❀ ❀ ❀

السببُ الثالثُ : التكبرُ بالقوَّةِ والأيْدِ[3] :

ويمنعُهُ مِنْ ذٰلكَ أنْ يعلمَ ما سُلِّطَ عليهِ مِنَ العللِ والأمراضِ ، وأنَّهُ لوْ توجَّعَ عرْقٌ واحدٌ في بدنِهِ . . لصارَ أعجزَ مِنْ كلِّ عاجزٍ ، وأذلَّ مِنْ كلِّ ذليلٍ ، وأنَّهُ لوْ سلبَهُ الذبابُ شيئاً . . لم يستنقذْهُ منهُ ، وأنَّ بقَّةً لوْ دخلَتْ أنفَهُ ، أوْ نملةً دخلَتْ أذنَهُ . . لقتلَتْهُ ، وأنَّ شوكةً لوْ دخلَتْ رجلَهُ . . لأعجزَتْهُ ، وأنَّ حمَّىٰ يومٍ تحللُ مِنْ قوَّتِهِ ما لا ينجبرُ في مدةٍ ، فمَنْ لا يطيقُ شوكةً ، ولا يقاومُ بقَّةً ، ولا يقدرُ علىٰ أنْ يدفعَ عنْ نفسِهِ ذبابةً . . فلا ينبغي أنْ يفتخرَ بقوَّتِهِ .

ثمَّ إنَّ أقوىٰ إنسانٍ لا يكونُ أقوىٰ مِنْ حمارٍ أوْ بقرةٍ أو فيلٍ أو جملٍ ، وأيُّ افتخارٍ في صفةٍ تسبقُكَ البهائمُ فيها ؟!

❀ ❀ ❀

السببُ الرابعُ والخامسُ : الغنىٰ وكثرةُ المالِ :

وفي معناهُ كثرةُ الأتباعِ والأنصارِ ، والتكبُّرُ بولايةِ السلاطينِ ، والتمكنُ مِنْ جهتِهِمْ ، وكلُّ ذٰلكَ تكبُّرٌ بمعنىً خارجٍ عنْ ذاتِ الإنسانِ ، لا كالجمالِ والقوَّةِ والعلمِ ، وهٰذا أقبحُ أنواعِ التكبُّرِ ، فإنَّ المتكبِّرَ بمالِهِ كأنَّهُ متكبِّرٌ بفرسِهِ ودارِهِ ، ولوْ ماتَ فرسُهُ وانهدمَتْ دارُهُ . . لعادَ ذليلاً ، والمتكبِّرُ بتمكينِ السلطانِ وولايتِهِ لا بصفةٍ في نفسِهِ . . بنىٰ أمرَهُ علىٰ قلبٍ هوَ أشدُّ غلياناً مِنَ القدْرِ ، فإنْ تغيَّرَ عليهِ . . كانَ أذلَّ الخلقِ ، وكلُّ متكبِّرٍ بأمرٍ خارجٍ عنْ ذاتِهِ . . فهوَ ظاهرُ الجهلِ .

كيفَ والمتكبِّرُ بالغنىٰ لوْ تأمَّلَ . . لرأىٰ في اليهودِ مَنْ يزيدُ عليهِ في الغنىٰ والثروةِ والتجمُّلِ ؟! فأفٍّ لشرفٍ يسبقُكَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) .
(٣) **الأيد** : القوة ، قال سبحانه : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ .

بِهِ اليهودُ ، وأفٍ لشرفٍ يأخذُهُ السارقُ في لحظةٍ واحدةٍ فيعودُ صاحبُهُ ذليلاً مفلساً .

فهٰذِهِ أسبابٌ ليسَتْ في ذاتِهِ ، وما هوَ في ذاتِهِ ليسَ إليهِ دوامُ وجودِهِ ، وهوَ في الآخرةِ وبالٌ ونكالٌ ، فالتفاخرُ بهِ غايةُ الجهلِ ، وكلُّ ما ليسَ إليكَ فليسَ لكَ ، وشيءٌ مِنْ هٰذِهِ الأمورِ ليسَ إليكَ ، بلْ إلىٰ واهبِهِ ؛ إنْ أبقاهُ . . بقيَ لكَ ، وإنِ استرجعَهُ . . زالَ عنكَ ، وما أنتَ إلا عبدٌ مملوكٌ لا تقدرُ علىٰ شيءٍ ، فمَنْ عرفَ ذٰلكَ . . لا بدَّ وأنْ يزولَ كبرُهُ .

ومثالُهُ : أنْ يفتخرَ الغافلُ بقوَّتِهِ ، وجمالِهِ ، ومالِهِ ، وحريَّتِهِ ، واستقلالِهِ ، وسعةِ منازلِهِ ، وكثرةِ خيولِهِ وغلمانِهِ ؛ إذْ شهدَ عليهِ شاهدانِ عدلانِ عندَ حاكمٍ منصفٍ بأنَّهُ رقيقٌ لفلانٍ ، وأنَّ أبويهِ كانا مملوكينِ لهُ ، فعلمَ ذٰلكَ وحكمَ بهِ الحاكمُ ، فجاءَ مالكُهُ فأخذَهُ وأخذَ جميعَ ما في يدِهِ ، وهوَ يخشىٰ معَ ذٰلكَ أنْ يعاقبَهُ وينكِّلَ بهِ لتفريطِهِ في أموالِهِ ، وتقصيرِهِ في طلبِ مالكِهِ ليعرفَ أنَّ لهُ مالكاً ، ثمَّ نظرَ العبدُ فرأىٰ نفسَهُ محبوساً في منزلٍ ، قدْ أحدقَتْ بهِ الحياتُ والعقاربُ والهوامُّ ، وهوَ في كلِّ حالٍ علىٰ وَجَلٍ مِنْ كلِّ واحدةٍ منها ، وقدْ بقيَ لا يملكُ نفسَهُ ولا مالَهُ ، ولا يعرفُ طريقاً إلى الخلاصِ ألبتةَ ، أفترىٰ أنَّ مَنْ هٰذا حالُهُ هلْ يفتخرُ بقدرتِهِ وثروتِهِ وقوتِهِ وكمالِهِ ، أمْ يذلُّ في نفسِهِ ويخضعُ ؟

وهٰذا حالُ كلِّ عاقلٍ بصيرٍ ، فإنَّهُ يرىٰ نفسَهُ كذٰلكَ ، فإنَّهُ لا يملكُ رقبتَهُ وبدنَهُ ومالَهُ وأعضاءَهُ ، وهوَ معَ ذٰلكَ بينَ آفاتٍ ، وشهواتٍ وأمراضٍ وأسقامٍ هيَ كالعقاربِ والحياتِ يخافُ منها الهلاكَ ، فمَنْ هٰذا حالُهُ لا يتكبَّرُ بقدرتِهِ وقوتِهِ ؛ إذْ يعلم أنَّهُ لا قدرةَ لهُ ولا قوَّةَ .

فهٰذا طريقُ علاجِ التكبُّرِ بالأسبابِ الخارجةِ ، وهوَ أهونُ مِنْ علاجِ التكبُّرِ بالعلمِ والعملِ ؛ فإنَّهما كمالانِ في النفسِ ، جديرانِ بأنْ يُفرحَ بهِما ، ولٰكنْ في التكبُّرِ بهِما أيضاً نوعٌ مِنَ الجهلِ خفيٌّ كما سنذكرُهُ .

❁ ❁ ❁

السببُ السادسُ : الكبرُ بالعلمِ :

وهوَ أعظمُ الآفاتِ ، وأغلبُ الأدواءِ ، وأبعدُها عنْ قبولِ العلاجِ إلا بشدَّةٍ شديدةٍ وجهدٍ جهيدٍ ؛ وذٰلكَ لأنَّ قدْرَ العلمِ عظيمٌ عندَ اللهِ ، عظيمٌ عندَ الناسِ ، وهوَ أعظمُ مِنْ قدرِ المالِ والجمالِ وغيرِهِما ، بلْ لا قدْرَ لهُما أصلاً إلا إذا كانَ معَهُما علمٌ وعملٌ .

ولذٰلكَ قالَ كعبُ الأحبارِ : (إنَّ للعلمِ طغياناً كطغيانِ المالِ)(١)

ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (العالِمُ إذا زلَّ . . زلَّ بزلَّتِهِ عالَمٌ)(٢) ، فيعجزُ العالمُ عنْ ألَّا يستعظمَ نفسَهُ بالإضافةِ إلى الجاهلِ ؛ لكثرةِ ما نطقَ الشرعُ بفضائلِ العلمِ .

ولنْ يقدرَ العالمُ علىٰ دفعِ الكبرِ إلا بمعرفةِ أمرينِ :

أحدُهما : أنْ يعلمَ أنَّ حجةَ اللهِ علىٰ أهلِ العلم آكدُ ، وأنَّهُ يحتملُ مِنَ الجاهلِ ما لا يُحتملُ عشرُهُ مِنَ العالِمِ ، وأنَّ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ عنْ معرفةٍ وعلمٍ . . فجنايتُهُ أفحشُ ؛ إذْ لمْ يقضِ حقَّ نعمةِ اللهِ عليهِ في العلمِ .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٤٠٦) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٥/٤) عن وهب بن منبه .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٤٠٦) قاله لتميم الداري رضي الله عنهما ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٧٤) من قول سيدنا عيسىٰ عليه السلام .

ولذٰلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالعالمِ يومَ القيامةِ فيُلقىٰ في النارِ ، فتندلقُ أقتابُهُ ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرحىٰ ، فيطيفُ بهِ أهلَ النارِ فيقولونَ : ما لكَ ؟ فيقولُ : كنتُ آمرُ بالخيرِ ولا آتيهِ ، وأنهىٰ عنِ الشرِّ وآتيهِ »[1]

وقدْ مثَّلَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ مَنْ يعلمُ ولا يعملُ بالحمارِ والكلبِ ، فقالَ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أرادَ بهِ علماءَ اليهودِ ، وقالَ في بَلْعَمِ بنِ باعوراءَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أُوتيَ بلعمُ كتاباً فأخلَدَ إلىٰ شهواتِ الأرضِ)[2] أي : سكنَ حبُّهُ إليها ، فمثَّلَهُ بالكلبِ ، ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ أيْ : سواءٌ آتيتُهُ الحكمةَ أوْ لمْ أُوتِهِ فلا يدعُ شهوتَهُ .

ويكفي العالمَ هٰذا الخطرُ ، فأيُّ عالمٍ لمْ يتبعْ شهوتَهُ ؟ وأيُّ عالمٍ لمْ يأمرْ بالخيرِ الذي لا يأتيهِ ؟ فمهما خطرَ للعالمِ عظمُ قدرِهِ بالإضافةِ إلى الجاهلِ . . فليتفكَّرْ في الخطرِ العظيمِ الذي هوَ بصددِهِ ، فإنَّ خطرَهُ أعظمُ مِنْ خطرِ غيرِهِ ؛ كما أنَّ قدرَهُ أعظمُ مِنْ قدرِ غيرِهِ ، فهٰذا بذاكَ ، وهوَ كالملكِ المخاطرِ بروحِهِ في ملكِهِ لكثرةِ أعدائِهِ ، فإنَّهُ إذا أُخِذَ وقُهِرَ . . اشتهىٰ أنْ يكونَ قدْ كانَ فقيراً ، فكمْ مِنْ عالمٍ يشتهي في الآخرةِ سلامةَ الجهَّالِ والعياذُ باللهِ منهُ .

فهٰذا الخطرُ يمنعُ منَ التكبُّرِ ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . . فالخنزيرُ أفضلُ منهُ ، فكيفَ يتكبَّرُ مَنْ هٰذا حالُهُ ؟

فلا ينبغي أنْ يكونَ العالمُ عندَ نفسِهِ أكبرَ مِنَ الصحابةِ وقدْ كانَ بعضُهُمْ يقولُ : (يا ليتَني لمْ تلدْني أمِّي)[3]

ويأخذُ الآخرُ تبنةً مِنَ الأرضِ ويقولُ : (يا ليتَني كنتُ هٰذهِ التبنةَ)[4]

ويقولُ الآخرُ : (يا ليتَني كنتُ طيراً أُوكَلُ)[5]

ويقولُ الآخرُ : (ليتَني لمْ أكُ شيئاً مذكوراً)[6]

كلُّ ذٰلكَ خوفاً مِنْ خطرِ العاقبةِ ، فكانوا يرونَ أنفسَهُمْ أسوأَ حالاً مِنَ الطيرِ ومِنَ الترابِ .

ومهما أطالَ فكرَهُ في الخطرِ الذي هوَ بصددِهِ . . زالَ بالكليَّةِ كبرُهُ ، ورأىٰ نفسَهُ كأنَّهُ شرُّ الخلقِ .

ومثالُهُ مثالُ عبدٍ أمرَهُ سيِّدُهُ بأمورٍ فشرعَ فيها ، فتركَ بعضَها وأدخلَ النقصانَ في بعضِها ، وشكَّ في بعضِها أنَّهُ هلْ أدَّاها كما يرتضيهِ مولاهُ أمْ لا ؟ فأخبرَهُ مخبرٌ أنَّ مولاهُ مرسلٌ إليهِ رسولاً يخرجُهُ مِنْ كلِّ ما هوَ فيهِ عرياناً ذليلاً ، ويلقيهِ علىٰ بابِهِ في الشمسِ والحرِّ زماناً طويلاً ، حتَّىٰ إذا ضاقَ عليهِ الأمرُ ، وبلغَ بهِ الجهدُ . . أمرَ برفعِ حسابِهِ وفتشَ عنْ جميعِ أعمالِهِ قليلِها وكثيرِها ، ثمَّ أمرَ بهِ إلىٰ سجنٍ ضيِّقٍ وعذابٍ دائمٍ لا يُرَوَّحُ عنهُ ساعةً ، وقدْ علم أنَّ سيِّدَهُ قدْ فعلَ بطوائفَ

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأمعاء .

(٢) الرعاية (ص ٤٠٨) ، وانظر مجمل الأقوال عند الطبري في « تفسيره » (١٥٤/٩/٦) .

(٣) روىٰ ذٰلك عن سيدنا عمر رضي الله عنه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١٣/٤٤) .

(٤) هو الخبر المروي عن سيدنا عمر رضي الله عنه المذكور آنفاً .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٧٣) ، وهناد في « الزهد » (٤٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٨) عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٢٨) عن عبد العزيز بن مروان .

مِنْ عبيدِهِ مثلَ ذٰلكَ وعفا عنْ بعضِهِمْ ، وهوَ لا يدري أنَّه مِنْ أيّ الفريقينِ يكونُ ، فإذا تفكَّرَ في ذٰلكَ . . انكسرَتْ نفسُهُ وذلَّ ، وبطلَ عزُّهُ وكِبْرُهُ ، وظهرَ حزنُهُ وخوفُهُ ، ولمْ يتكبَّرْ علىٰ أحدٍ مِنَ الخلقِ ، بلْ تواضعَ رجاءَ أنْ يكونَ هوَ مِنْ شفعائِهِ عندَ نزولِ العذابِ بهِ ، فكذٰلكَ العالمُ إذا تفكَّرَ فيما ضيَّعَهُ مِنْ أوامرِ ربِّهِ بجناياتٍ علىٰ جوارحِهِ ، وبذنوبٍ في باطنِهِ مِنَ الرياءِ ، والحسدِ والحقدِ والعُجْبِ ، والنفاقِ ، وغيرِهِ ، وعلمَ ما هوَ بصددِهِ مِنَ الخطرِ العظيمِ . . فارقَهُ كبرُهُ لا محالةَ .

الأمرُ الثاني : أنَّ العالِمَ يعرفُ أنَّ الكبرَ لا يليقُ إلا باللهِ عزَّ وجلَّ وحدَهُ ، وأنَّهُ إذا تكبَّرَ . . صارَ ممقوتاً عندَ اللهِ تعالىٰ بغيضاً ، وقدْ أحبَّ اللهُ منهُ أنْ يتواضعَ ، وقالَ لهُ : إنَّ لكَ عندي قدراً ما لمْ ترَ لنفسِكَ قدراً ، فإنْ رأيتَ لنفسِكَ قدراً . . فلا قدرَ لكَ عندي ، فلا بدَّ وأنْ يكلِّفَ نفسَهُ ما يحبُّهُ مولاهُ ، وهـٰذا يزيلُ التكبُّرَ عنْ قلبِهِ وإنْ كانَ يستيقنُ أنَّهُ لا ذنبَ لهُ مثلاً إنْ تُصُوِّرَ ذٰلكَ ، وبهـٰذا زالَ التكبُّرُ عنِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ إذْ علموا أنَّ مَنْ نازعَ اللهَ تعالىٰ في رداءِ الكبرياءِ . . قصمَهُ ، وقدْ أمرَهُمُ اللهُ بأنْ يستصغروا أنفسَهُمْ حتَّىٰ يعظُمَ عندَ اللهِ محلُّهُمْ ، فهـٰذا أيضاً ممَّا يبعثُهُ على التواضعِ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتواضعُ للفاسقِ الظاهرِ الفسقِ وللمبتدعِ ؟ وكيفَ يرىٰ نفسَهُ دونَهُمْ وهوَ عالمٌ عابدٌ ؟ وكيفَ يَجهلُ فضلَ العلمِ والعبادةِ عندَ اللهِ تعالىٰ ؟ وكيفَ يعنيهِ أنْ يخطرَ ببالِهِ خطرُ العلمِ وهوَ يعلمُ أنَّ خطرَ الفاسقِ والمبتدعِ أكثرُ ؟

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ إنَّما يمكنُ بالتفكُّرِ في خطرِ الخاتمةِ ، بلْ لوْ نظرَ إلىٰ كافرٍ . . لمْ يمكنْهُ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ يُتصوَّرُ أنْ يسلمَ الكافرُ فيُختمَ لهُ بالإيمانِ ، ويضلَّ هـٰذا العالمُ ويُختمَ لهُ بالكفرِ .

والكبيرُ مَنْ هوَ كبيرٌ عندَ اللهِ في الآخرةِ ، والكلبُ والخنزيرُ أعلىٰ رتبةً ممَّنْ هوَ عندَ اللهِ مِنْ أهلِ النارِ وهوَ لا يدري ذٰلكَ ، فكمْ مِنْ مسلمٍ نظرَ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قبلَ إسلامِهِ فاستحقرَهُ وازدراهُ لكفرِهِ ، وقدْ رزقَهُ اللهُ الإسلامَ ، وفاقَ جميعَ المسلمينَ إلا أبا بكرٍ وحدَهُ !!

فالعواقبُ مطويةٌ عنِ العبادِ ، ولا ينظرُ العاقلُ إلا إلى العاقبةِ ، وجميعُ الفضائلِ في الدنيا تُرادُ للعاقبةِ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ حقُّ العبدِ ألَّا يتكبَّرَ علىٰ أحدٍ ، بلْ إنْ نظرَ إلىٰ جاهلٍ . . قالَ : هـٰذا عصى اللهَ بجهلٍ وأنا عصيتُهُ بعلمٍ ، فهوَ أعذرُ منِّي ، وإنْ نظرَ إلىٰ عالمٍ . . قالَ : هـٰذا قدْ علمَ ما لمْ أعلمْ ، فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ كبيرٍ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً . . قالَ : إنَّهُ أطاعَ اللهَ قبلي فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ صغيرٍ . . قالَ : إنِّي عصيتُ اللهَ قبلَهُ ، فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ مبتدعٍ أوْ كافرٍ قالَ : ما يدريني لعلَّهُ يُختمُ لهُ بالإسلامِ ، ويُختمُ لي بما هوَ عليهِ الآنَ ، فليسَ دوامُ الهدايةِ إليَّ ؛ كما لمْ يكنِ ابتداؤُها إليَّ .

فبملاحظةِ الخاتمةِ يقدرُ علىٰ أنْ ينفيَ الكبرَ عنْ نفسِهِ ، وكلُّ ذٰلكَ بأنْ يعلمَ أنَّ الكمالَ في سعادةِ الآخرةِ والقربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، لا فيما يظهرُ في الدنيا ممَّا لا بقاءَ لهُ ، ولعمري ؛ هـٰذا الخطرُ مشتركٌ بينَ المتكبِّرِ والمتكبَّرِ عليهِ ، ولـٰكنْ حقٌّ علىٰ كلِّ واحدٍ أنْ يكونَ مصروفَ الهمِّ إلىٰ نفسِهِ ، مشغولَ القلبِ بخوفِهِ لعاقبتِهِ ، لا أنْ يشتغلَ بخوفِ غيرِهِ ، فإنَّ الشفيقَ بسوءِ الظنِّ مولعٌ ، وشفقةُ كلِّ إنسانٍ علىٰ نفسِهِ ، فإذا حُبسَ جماعةٌ في جنايةٍ ووُعدوا بأنْ تُضربَ رقابُهُمْ . . لمْ

يتفرَّغوا للتكبُّرِ بعضُهُمْ على بعضٍ وإنْ عمَّهُمُ الخطرُ ؛ إذْ شغلَ كلَّ واحدٍ منهُمْ همُّ نفسِهِ عنِ الالتفاتِ إلىٰ همِّ غيرِهِ ، حتَّىٰ كأنَّ كلَّ واحدٍ هوَ وحدَهُ في مصيبتِهِ وخطرِهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فكيفَ أبغضُ المبتدعَ في اللهِ وأبغضُ الفاسقَ وقدْ أُمرتُ ببغضِهِما ، ثمَّ معَ ذٰلكَ أتواضعُ لهُما ، والجمعُ بينَهُما متناقضٌ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا أمرٌ مشتبهٌ يلتبسُ علىٰ أكثرِ الخلقِ ؛ إذْ يمتزجُ غضبُكَ للهِ في إنكارِ البدعةِ والفسقِ بكبْرِ النفسِ والإدلالِ بالعلمِ والورعِ ، فكمْ مِنْ عابدٍ جاهلٍ وعالمٍ مغرورٍ إذا رأىٰ فاسقاً جلسَ بجنبِهِ . . أزعجَهُ مِنْ عندِهِ ، وتنَزَّهَ منهُ بكبْرٍ باطنٍ في نفسِهِ ، وهوَ ظانٌّ أنَّهُ قدْ غضبَ للهِ ؛ كما وقعَ لعابدِ بني إسرائيلَ معَ خليعِهِمْ(1) ، وذٰلكَ لأنَّ الكبْرَ على المطيعِ ظاهرٌ كونُهُ شرّاً ، والحذرُ منهُ ممكنٌ ، والكبْرُ على الفاسقِ والمبتدعِ يشبهُ الغضبَ للهِ وهوَ خيرٌ ؛ فإنَّ الغضبانَ أيضاً يتكبَّرُ علىٰ مَنْ غضبَ عليهِ ، والمتكبِّرُ يغضبُ ، وأحدُهُما يثمرُ الآخرَ ويوجبُهُ ، وهما ممتزجانِ ملتبسانِ لا يميِّزُ بينَهُما إلا الموفَّقونَ .

❀ ❀ ❀

والذي يخلصُكَ عنْ هٰذا : أنْ يكونَ الحاضرُ علىٰ قلبِكَ عندَ مشاهدةِ المبتدعِ أوِالفاسقِ أوْ عندَ أمرِهِما بالمعروفِ ونهيِهِما عنِ المنكرِ ثلاثةَ أمورٍ :

أحدُها : التفاتُكَ إلىٰ ما سبقَ مِنْ ذنوبِكَ وخطاياكَ ؛ ليصغرَ عندَ ذٰلكَ قدرُكَ في عينِكَ .

والثاني : أنْ تكونَ ملاحظتُكَ لما أنتَ متميِّزٌ بهِ مِنَ العلمِ واعتقادِ الحقِّ والعملِ الصالحِ مِنْ حيثُ إنَّها نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليكَ ، فلهُ المنَّةُ فيهِ لا لكَ ، فترىٰ ذٰلكَ منهُ ؛ حتَّىٰ لا تعجبَ بنفسِكَ ، وإذا لمْ تعجبْ . . لمْ تتكبَّرْ .

والثالثُ : ملاحظةُ إبهامِ عاقبتِكَ وعاقبتِهِ ؛ وأنَّهُ ربَّما يُختمُ لكَ بالسوءِ ويُختمُ لهُ بالحسنىٰ ، حتَّىٰ يشغلَكَ الخوفُ عنِ التكبُّرِ عليهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فكيفَ أغضبُ معَ هٰذهِ الأحوالِ ؟

فأقولُ : تغضبُ لمولاكَ وسيِّدِكَ ؛ إذْ أمرَكَ أنْ تغضبَ لهُ لا لنفسِكَ ، وأنتَ في غضبِكَ لا ترىٰ نفسَكَ ناجياً وصاحبَكَ هالكاً ، بلْ يكونُ خوفُكَ علىٰ نفسِكَ بما علمَ اللهُ مِنْ خفايا ذنوبِكَ أكثرَ مِنْ خوفِكَ عليهِ معَ الجهلِ بالخاتمةِ ، وأعرِّفُكَ ذٰلكَ بمثالٍ ؛ لتعلمَ أنَّهُ ليسَ مِنْ ضرورةِ الغضبِ للهِ أنْ تتكبَّرَ على المغضوبِ عليهِ وترىٰ قدرَكَ فوقَ قدرِهِ ، فأقولُ :

إذا كانَ للملكِ غلامٌ وولدٌ هوَ قرَّةُ عينِهِ ، وقدْ وَكلَ الغلامَ بالولدِ ليراقبَهُ ، وأمرَهُ أنْ يضربَهُ مهما أساءَ أدبَهُ واشتغلَ بما لا يليقُ بهِ ويغضبَ عليهِ ، فإنْ كانَ الغلامُ مطيعاً محبّاً لمولاهُ . . فلا يجدُ بداً مِنْ أنْ يغضبَ مهما رأىٰ ولدَهُ قدْ أساءَ الأدبَ وإنَّما يغضبُ عليهِ لمولاهُ ؛ لأنَّهُ أمرَهُ بهِ ، ولأنَّهُ يريدُ التقرُّبَ بامتثالِ أمرِهِ إليهِ ، ولأنَّهُ جرىٰ مِنْ ولدِهِ ما يكرَهُ

---

(1) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٨٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٦/٢) .

مولاهُ ؛ فيضربُ ولدَهُ ويغضبُ عليهِ مِنْ غيرِ تكبُّرٍ عليهِ ، بلْ هوَ متواضعٌ لهُ ، يرىٰ قدرَهُ عندَ مولاهُ فوقَ قدْرِ نفسِهِ ؛ لأنَّ الولدَ أعزُّ لا محالةَ مِنَ الغلامِ .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ ليسَ مِنْ ضرورةِ الغضبِ التكبُّرُ وعدمُ التواضعِ ، فكذٰلكَ يمكنُكَ أنْ تنظرَ إلى المبتدعِ والفاسقِ ، وتظنَّ أنَّهُ ربَّما كانَ قدرُهُما عندَ اللهِ أعظمَ في الآخرةِ ؛ لما سبقَ لهُما مِنَ الحسنىٰ في الأزلِ ، ولما سبقَ لكَ مِنْ سوءِ القضاءِ في الأزلِ ، وأنتَ غافلٌ عنهُ ، ومعَ ذٰلكَ فتغضبُ بحكمِ الأمرِ محبةً لمولاكَ ؛ إذْ جرىٰ ما يكرهُهُ ، معَ التواضعِ لمَنْ يجوزُ أنْ يكونَ عندَهُ أقربَ منكَ في الآخرةِ .

فهٰكذا يكونُ بغضُ العلماءِ الأكياسِ ، فينضمُّ إليهِ الخوفُ والتواضعُ ، وأمَّا المغرورُ . . فإنَّهُ يتكبَّرُ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ ممَّا يرجوهُ لغيرِهِ معَ جهلِهِ بالعاقبةِ ، وذٰلكَ غايةُ الغرورِ .

فهٰذا سبيلُ التواضعِ لمَنْ عصى اللهَ تعالىٰ أوِ اعتقدَ البدعةَ معَ الغضبِ عليهِ ومجانبتِهِ بحكمِ الأمرِ .

❀ ❀ ❀

السببُ السابعُ : التكبرُ بالورعِ والعبادةِ :

وذٰلكَ أيضاً فتنةٌ عظيمةٌ على العبادِ ، وسبيلُهُ : أنْ يلزمَ قلبَهُ التواضعَ لسائرِ العبادِ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ مَنْ يتقدَّمُ عليهِ بالعلمِ لا ينبغي أنْ يتكبَّرَ عليهِ كيفَما كانَ ؛ لما عرفَهُ مِنْ فضيلةِ العلمِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي »[1] ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا وردَ في فضلِ العلمِ .

فإنْ قالَ العابدُ : ذٰلكَ لعالمٍ عاملٍ بعلمِهِ ، وهٰذا عالمٌ فاجرٌ . . **فيُقالُ لهُ** : أما علمتَ أنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ ، وكما أنَّ العلمَ يمكنُ أنْ يكونَ حجَّةً على العالمِ فكذٰلكَ يمكنُ أنْ يكونَ وسيلةً لهُ وكفارةً لذنوبِهِ ، وكلٌّ واحدٍ منهُما ممكنٌ ، وقدْ وردَتِ الأخبارُ بما يشهدُ لذٰلكَ ، وإذا كانَ هٰذا أمراً غائباً عنهُ . . لمْ يجزْ لهُ أنْ يحتقرَ عالماً ، بلْ يجبُ عليهِ أن يتواضعَ لهُ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فإنْ صحَّ هٰذا . . فينبغي أنْ يكونَ للعالمِ أنْ يرىٰ نفسَهُ فوقَ العابدِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي » .

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ كانَ ممكناً لوْ علمَ العالمُ عاقبةَ أمرِهِ ، وخاتمةُ الأمرِ مشكوكٌ فيها ، فيحتملُ أنْ يموتَ بحيثُ يكونُ حالُهُ عندَ اللهِ أشدَّ مِنْ حالِ الجاهلِ الفاسقِ ؛ لذنبٍ واحدٍ كانَ يحسبُهُ هيناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ ، وقدْ مقتَهُ بهِ ، وإذا كانَ هٰذا ممكناً . . كانَ علىٰ نفسِهِ خائفاً .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

فإذاً ؛ كانَ كلُّ واحدٍ مِنَ العالمِ والعابدِ خائفاً علىٰ نفسِهِ ، وقدْ كُلِّفَ أمرَ نفسِهِ لا أمرَ غيرِهِ ، فينبغي أنْ يكونَ الغالبُ عليهِ في حقِّ نفسِهِ الخوفَ ، وفي حقِّ غيرِهِ الرجاءَ ، وذٰلكَ يمنعُهُ مِنَ الكبْرِ بكلِّ حالٍ ، فهـٰذا حالُ العابدِ معَ العالمِ .

فأمَّا معَ غيرِ العالمِ . . فهُمْ منقسمونَ في حقِّهِ إلىٰ مستورينَ وإلىٰ مكشوفينَ ، فينبغي ألَّا يتكبَّرَ على المستورِ فلعلَّهُ أقلُّ منهُ ذنوباً ، وأكثرُ منهُ عبادةً ، وأشدُّ منهُ حبّاً للهِ تعالىٰ ، وأمَّا المكشوفُ حالُهُ إنْ لمْ يظهرْ لكَ مِنَ الذنوبِ إلا ما تزيدُ عليهِ ذنوبُكَ في طولِ عمرِكَ . . فلا ينبغي أنْ تتكبَّرَ عليهِ ، ولا يمكنُ أنْ تقولَ : هوَ أكثرُ منِّي ذنباً ؛ لأنَّ عددَ ذنوبِكَ وذنوبِ غيرِكَ في طولِ العمرِ لا تقدرُ علىٰ إحصائِها حتىٰ تعلمَ الكثرةَ .

نعمْ ؛ يمكنُ أنْ تعلمَ أنَّ ذنوبَهُ أشدُّ ؛ كما لو رأيتَ منهُ القتلَ والشربَ والزنا ، ومعَ ذٰلكَ فلا ينبغي أنْ تتكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ ذنوبُ القلوبِ مِنَ الكبرِ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والغلِّ ، واعتقادِ الباطلِ ، والوسوسةِ في صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، وتخيُّلِ الخطأ في ذٰلكَ . . كلُّ ذٰلكَ شديدٌ عندَ اللهِ ، فربَّما جرىٰ عليكَ في باطنِكَ مِنْ خفايا الذنوبِ ما صرتَ بهِ عندَ اللهِ ممقوتاً ، وقدْ جرىٰ للفاسقِ الظاهرِ الفسقِ مِنْ طاعاتِ القلوبِ ؛ مِنْ حبٍّ للهِ ، وإخلاصٍ ، وخوفٍ ، وتعظيمِ ما أنتَ خالٍ عنهُ ، وقدْ كفَّرَ اللهُ بذٰلكَ عنهُ سيئاتِهِ ، فينكشفُ الغطاءُ يومَ القيامةِ ، فتراهُ فوقَ نَفسِكَ بدرجاتٍ ، فهـٰذا ممكنٌ ، والإمكانُ البعيدُ فيما عليكَ ينبغي أنْ يكونَ قريباً عندَكَ إنْ كنتَ مشفقاً علىٰ نفسِكَ ، فلا تتفكرْ فيما هوَ ممكنٌ لغيرِكَ ، بلْ فيما هوَ مَخُوفٌ في حقِّكَ ؛ فإنَّهُ لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ ، وعذابُ غيرِكَ لا يخفِّفُ شيئاً مِنْ عذابِكَ .

فإذا تفكرتَ في هـٰذا الخطرِ . . كانَ عندَكَ شغلٌ شاغلٌ عنِ التكبُّرِ ، وعنْ أنْ ترىٰ نفسَكَ فوقَ غيرِكَ ، وقدْ قالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (ما تمَّ عقلُ عبدٍ حتَّىٰ يكونَ فيهِ عشرُ خصالٍ ، فعدَّ تسعةً حتَّىٰ بلغَ العاشرةَ ، فقالَ : العاشرةُ وما العاشرةُ ؟ بها سادَ مجدُهُ وعلا ذكرُهُ ؛ أنْ يرى الناسَ كلَّهُمْ خيراً منهُ ، وإنَّما الناسُ عندَهُ فرقتانِ ؛ فرقةٌ هيَ أفضلُ منهُ وأرفعُ ، وفرقةٌ هيَ شرٌّ منهُ وأدنىٰ ، فهوَ يتواضعُ للفرقتينِ جميعاً بقلبِهِ ، فإنْ رأىٰ مَنْ هوَ خيرٌ منهُ . . سرَّهُ ذٰلكَ ، وتمنَّىٰ أنْ يلحقَ بهِ ، وإنْ رأىٰ مَنْ هوَ شرٌّ منهُ . . قالَ : لعلَّ هـٰذا ينجو وأهلِكُ أنا ، فلا تراهُ إلا خائفاً مِنَ العاقبةِ ، ويقولُ : لعلَّ برَّ هـٰذا باطنٌ فذٰلكَ خيرٌ لهُ ، ولا أدري ، ولعلَّ فيهِ خُلُقاً كريماً بينَهُ وبينَ اللهِ فيرحمَهُ اللهُ ويتوبَ عليهِ ويختمَ لهُ بأحسنِ الأعمالِ ، وبرِّي ظاهرٌ فذٰلكَ شرٌّ لي ، فلا يأمنُ فيما أظهرَهُ مِنَ الطاعةِ أنْ يكونَ دَخَلَها الآفاتُ فأحبطَتْها ، ثمَّ قالَ : فحينَئذٍ كملَ عقلُهُ ، وسادَ أهلَ زمانِهِ)[1] ، فهـٰذا كلامُهُ .

وبالجملةِ : فمَنْ جُوِّزَ أنْ يكونَ عندَ اللهِ شقياً وقدْ سبقَ القضاءُ الأزليُّ بشقوتِهِ . . فما لهُ سبيلٌ أنْ يتكبَّرَ بحالٍ مِنَ الأحوالِ .

نعمْ ؛ إذا غلبَ عليهِ الخوفُ . . رأىٰ كلَّ أحَدٍ خيراً مِنْ نفسِهِ ، وذٰلكَ هوَ الفضيلةُ ؛ كما رُويَ أنَّ عابداً أوىٰ إلىٰ جبلٍ ، فقيلَ لهُ في النومِ : ائتِ فلاناً الإسكافَ فسلْهُ أنْ يدعوَ لكَ ، فأتاهُ فسألَهُ عنْ عملِهِ ، فأخبرَهُ أنَّهُ يصومُ النهارَ ويكتسِبُ فيتصدَّقُ ببعضِهِ ، ويطعمُ عيالَهُ بعضَهُ ، فرجعَ وهوَ يقولُ : إنَّ هـٰذا لحسنٌ ، ولـٰكنْ ليسَ هـٰذا كالتفرُّغِ لطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فأُتيَ في النومِ ثانياً فقيلَ لهُ : ائتِ فلاناً الإسكافَ فقلْ لهُ : ما هـٰذا الصفارُ الذي بوجهِكَ ، فأتاهُ فسألَهُ ، فقالَ لهُ : ما رأيتُ أحداً مِنَ الناسِ إلا وقعَ لي أنَّهُ سينجو وأهلِكُ أنا ، فقالَ العابدُ : بهـٰذهِ[2]

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٤٢١) ، ورواه عنه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٣٧) في ذكر الخصال المتبقية .
(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٤٢٢) .

والذي يدلُّ على فضيلةِ هٰذهِ الخصلةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ ؛ أيْ : يُؤتونَ الطاعاتِ وهمْ علىٰ وَجَلٍ عظيمٍ مِنْ قبولِها .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالى الملائكةَ عليهمُ السلامُ معَ تقدُّسِهِمْ عنِ الذنوبِ ومواظبتِهِمْ على العبادةِ على الدؤوبِ بالإشفاقِ ، فقالَ تعالىٰ مخبراً عنهُمْ : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ وقالَ : ﴿ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ .

فمتىٰ زالَ الإشفاقُ والحذرُ ممَّا سبقَ بهِ القضاءُ في الأزلِ ، وينكشفُ عندَ خاتمةِ الأجلِ . . غلبَ الأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، وذٰلكَ يوجبُ الكِبْرَ ، وهوَ سببُ الهلاكِ ، فالكِبْرُ دليلُ الأمنِ ، والأمنُ مُهلكٌ ، والتواضعُ دليلُ الخوفِ ، وهو مسعدٌ .

فإذاً ؛ ما يفسدُهُ العابدُ بإضمارِ الكِبْرِ ، واحتقارِ الخلقِ ، والنظرِ إليهِمْ بعينِ الاستصغارِ . . أكثرُ ممَّا يصلحُهُ بظاهرِ الأعمالِ .

❁ ❁ ❁

فهٰذهِ معارفُ بها يُزالُ داءُ الكِبْرِ عنِ القلبِ لا غيرُ ، إلا أنَّ النفسَ بعدَ هٰذهِ المعرفةِ قدْ تضمرُ التواضعَ وتدَّعي البراءةَ مِنَ الكبرِ وهيَ كاذبةٌ ، فإذا وقعَتِ الواقعةُ . . عادَتْ إلىٰ طبعِها ، ونسيَتْ وعدَها ، فعَنْ هٰذا ؛ لا ينبغي أنْ يكتفيَ في المداواةِ بمجردِ المعرفةِ ، بلْ ينبغي أنْ تُكمَّلَ بالعملِ ، وتُجرَّبَ بأفعالِ المتواضعينَ في مواقعِ هيجانِ الكِبْرِ مِنَ النفسِ .

وبيانُهُ : أنْ يمتحنَ النفسَ بخمسِ امتحاناتٍ هيَ أدلةٌ على استخراجِ ما في الباطنِ وإنْ كانتِ الامتحاناتُ كثيرةً .

الامتحانُ الأولُ : أنْ يناظرَ في مسألةٍ معَ واحدٍ مِنْ أقرانِهِ ، فإنْ ظهرَ شيءٌ مِنَ الحقِّ علىٰ لسانِ صاحبِهِ ، فثقُلَ عليهِ قبولُهُ ، والانقيادُ لهُ ، والاعترافُ بهِ ، والشكرُ لهُ علىٰ تنبيهِهِ وتعريفِهِ وإخراجِهِ الحقَّ . . فذٰلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ فيهِ كبراً دفيناً ، فليتَّقِ اللهَ فيهِ ، وليشتغلْ بعلاجِهِ .

أمَّا مِنْ حيثُ العلمُ . . فبأنْ يذكِّرَ نفسَهُ خسَّةَ نفسِهِ ، وخطرَ عاقبتِهِ ، وأنَّ الكِبْرَ لا يليقُ إلا باللهِ تعالىٰ .

وأمَّا العملُ . . فبأنْ يكلِّفَ نفسَهُ ما ثَقُلَ عليهِ مِنَ الاعترافِ بالحقِّ ، وأنْ يطلقَ اللسانَ بالحمدِ والثناءِ ، ويقرَّ علىٰ نفسِهِ بالعجزِ ، ويشكرُهُ على الاستفادةِ ، ويقولُ : ما أحسنَ ما فطنتَ لهُ وقدْ كنتُ غافلاً عنهُ ، فجزاكَ اللهُ خيراً كما نبَّهتَني لهُ ، فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ ؛ فإذا وجدَها . . ينبغي أنْ يشكرَ مَنْ دلَّهُ عليها ، فإذا واظبَ علىٰ ذٰلكَ مرَّاتٍ متواليةً . . صارَ ذٰلكَ لهُ طبعاً ، وسقطَ ثِقَلُ الحقِّ عنْ قلبِهِ ، وطابَ لهُ قبولُهُ .

ومهما ثقُلَ عليهِ الثناءُ علىٰ أقرانِهِ بما فيهِمْ . . ففيهِ كبرٌ ، فإنْ كانَ ذٰلكَ لا يثقلُ عليهِ في الخلوةِ ، ويثقلُ عليهِ في الملأ . . فليسَ فيهِ كبرٌ ، وإنَّما فيهِ رياءٌ ، فليعالجِ الرياءَ بما ذكرناهُ مِنْ قطعِ الطمعِ عنِ الناسِ ، ويذكِّرِ القلبَ بأنَّ منفعتَهُ في كمالِهِ في ذاتِهِ ، وعندَ اللهِ لا عندَ الخلقِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ أدويةِ الرياءِ ، وإنْ ثقُلَ عليهِ في الخلوةِ والملأ جميعاً . . ففيهِ الكبرُ والرياءُ جميعاً ، ولا ينفعُهُ الخلاصُ مِنْ أحدِهِما ما لمْ يتخلَّصْ مِنَ الثاني ، فليعالجْ كلا الداءينِ ؛ فإنَّهُما جميعاً مهلكانِ .

❁ ❁ ❁

الامتحانُ الثاني : أنْ يجتمعَ معَ الأقرانِ والأمثالِ في المحافلِ ويقدِّمَهُمْ علىٰ نفسِهِ ، ويمشيَ خلفَهُمْ ، ويجلسَ في الصدورِ تحتَهُمْ ، فإنْ ثَقُلَ ذٰلكَ عليهِ . . فهوَ متكبِّرٌ ، فليواظِبْ عليهِ تكلُّفاً حتَّىٰ يسقطَ عنهُ ثقلُهُ ، فبذٰلكَ يزايلُهُ الكِبْرُ .

وها هنا للشيطانِ مكيدةٌ ، وهوَ أنْ يجلسَ في صفِّ النعالِ ، أوْ يجعلَ بينَهُ وبينَ الأقرانِ بعضَ الأرذالِ ، فيظنُّ أنَّ ذٰلكَ تواضعٌ وهوَ عينُ الكِبْرِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يخفُّ علىٰ نفوسِ المتكبرينَ ؛ إذْ يوهمونَ أنَّهُمْ تركوا مكانَهُمْ بالاستحقاقِ والتفضُّلِ ، فيكونُ قدْ تكبَّرَ ، وتكبَّرَ بإظهارِ التواضعِ أيضاً ، بلْ ينبغي أنْ يقدِّمَ أقرانَهُ ويجلسَ بجنبِهِمْ ، ولا ينحطُّ عنهُمْ إلىٰ صفِّ النعالِ ، فذٰلكَ هوَ الذي يُخرجُ خبثَ الكِبْرِ مِنَ الباطنِ .

❁ ❁ ❁

الامتحانُ الثالثُ : أنْ يجيبَ دعوةَ الفقيرِ ، ويمرَّ إلى السوقِ في حاجةِ الرفقاءِ والأقاربِ ، فإنْ ثقُلَ ذٰلكَ عليهِ . . فهوَ كِبْرٌ ؛ فإنَّ هٰذهِ الأفعالَ مِنْ مكارمِ الأخلاقِ ، والثوابُ عليها جزيلٌ ، فنفورُ النفسِ عنها ليسَ إلا لخبثٍ في الباطنِ ، فليشتغلْ بإزالتِهِ بالمواظبةِ عليهِ ، معَ تذكُّرِ جميعِ ما ذكرناهُ مِنَ المعارفِ التي تزيلُ داءَ الكِبْرِ .

❁ ❁ ❁

الامتحانُ الرابعُ : أنْ يحملَ حاجةَ نفسِهِ وحاجةَ أهلِهِ ورفقائِهِ مِنَ السوقِ إلى البيتِ ، فإنْ أبتْ نفسُهُ ذٰلكَ . . فهوَ كِبْرٌ أوْ رياءٌ ، فإنْ كانَ يثقلُ ذٰلكَ عليهِ معَ خلوِّ الطريقِ . . فهوَ كِبْرٌ ، وإنْ كانَ لا يثقُلُ عليهِ إلا عندَ مشاهدةِ الناسِ . . فهوَ رياءٌ .

وكلُّ ذٰلكَ مِنْ أمراضِ القلبِ وعللِهِ المهلكةِ لهُ إنْ لم تتداركْ ، وقدْ أهملَ الناسُ طبَّ القلوبِ ، واشتغلوا بطبِّ الأجسادِ ، معَ أنَّ الأجسادَ قدْ كُتبَ عليها الموتُ لا محالةَ ، والقلوبُ لا تُدرَكُ السعادةُ إلا بسلامتِها ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

ويُروىٰ عنْ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ أنَّهُ حملَ حزمةَ حطبٍ ، فقيلَ لهُ : يا أبا يوسفَ ؛ قدْ كانَ في غلمانِكَ وبنيكَ ما يكفونَكَ ، قالَ : أجلْ ، ولٰكنْ أردتُ أنْ أجرِّبَ نفسي هلْ تنكرُ ذٰلكَ (١)

فلمْ يقنعْ منها بما أعطتْهُ مِنَ العزمِ علىٰ تركِ الأنفةِ حتَّىٰ جرَّبَها أهيَ صادقةٌ أمْ كاذبةٌ .

وفي الخبرِ : « مَنْ حملَ الفاكهةَ أوِ الشيءَ . . فقدْ برئَ مِنَ الكِبْرِ » (٢)

❁ ❁ ❁

الامتحانُ الخامسُ : أنْ يلبسَ ثياباً بذلةً ؛ فإنَّ نفورَ النفسِ عنْ ذٰلكَ في الملأ رياءٌ ، وفي الخلوةِ كِبْرٌ .

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ لهُ مِسْحٌ يلبسُهُ بالليلِ (٣)

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤١٦/٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٣/٢٩) ، ولفظه عند صاحب « الرعاية » (ص ٤١٣) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٨٥٣) ، وفيه : « من حمل بضاعته » بدل « من حمل الفاكهة أو الشيء » ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢٠٢/١) بلفظ : « من حمل سلعته . . . » .

(٣) **المِسْح** : كساء من صوف أسود . « إتحاف » (٤٠٥/٨) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اعتقلَ البعيرَ ولبسَ الصوفَ . . فقدْ بريءَ مِنَ الكبرِ »[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا عبدٌ آكلُ بالأرضِ وألبسُ الصوفَ وأعقِلُ البعيرَ ، وألعقُ أصابعي ، وأجيبُ دعوةَ المملوكِ ، فمَنْ رغبَ عنْ سنَّتي . . فليسَ منِّي »[٢]

ورُوِيَ أنَّ أبا موسى الأشعريَّ قيلَ لهُ : إنَّ أقواماً يتخلَّفونَ عنِ الجمعةِ بسببِ ثيابِهِمْ ، فلبسَ عباءةً فصلَّىٰ فيها بالناسِ .

وهٰذهِ مواضعُ يجتمعُ فيها الرياءُ والكبرُ ، فما يختصُّ بالملأ . . فهوَ الرياءُ ، وما يكونُ في الخلوةِ . . فهوَ الكبرُ ، فليُعرفْ ، فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ لا يتقيهِ ، ومَنْ لا يدركُ المرضَ لا يداويهِ .

* * *

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٤١٢) ، وفيه : « من اعتقل العنز . . . » ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦٥٠/٢) من حديث جحدم وكانت له صحبة : « من حلب شاته ، ورقع قميصه ، وخصف نعله ، وواكل خادمه ، وحمل من سوقه . . فقد برئ من الكبر » .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٤١٢) ، وهٰذا الحديث مشتمل علىٰ عدة أحاديث تقدم بعض منها ، وانظر « الإتحاف » (٤٠٥/٨ ـ ٤٠٦) .

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلمْ : أنَّ هٰذا الخلُقَ كسائرِ الأخلاقِ ، لهُ طرفانِ وواسطةٌ ، فطرفُهُ الذي يميلُ إلى الزيادةِ يُسمَّىٰ **تكبُّراً** ، وطرفُهُ الذي يميلُ إلى النقصانِ يُسمَّىٰ **تخاسساً ومذلةً**[1] ، والوسطُ يُسمَّىٰ **تواضعاً** .

والمحمودُ أنْ يتواضعَ في غيرِ مذلَّةٍ ومِنْ غيرِ تخاسسٍ ؛ فإنَّ كلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميمٌ ، وأحبُّ الأمورِ إلى اللهِ تعالىٰ أوساطُها .

فمَنْ يتقدَّمُ علىٰ أمثالِهِ . . فهوَ متكبِّرٌ ، ومَنْ يتأخَّرُ عنهُمْ . . فهو متواضعٌ ، أيْ : وضعَ شيئاً مِنْ قدْرِهِ الذي يستحقُّهُ ، والعالمُ إذا دخلَ عليهِ إسكافٌ فتنحَّىٰ لهُ عنْ مجلسِهِ وأجلسَهُ فيهِ ، ثمَّ تقدَّمَ وسوَّىٰ لهُ نعلَهُ وغدا إلىٰ بابِ الدارِ خلفَهُ . . فقدْ تخاسسَ وتذلَّلَ ، وهٰذا أيضاً غيرُ محمودٍ ، بلِ المحمودُ عندَ اللهِ تعالى العدلُ ، وهوَ أنْ يعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، فينبغي أن يتواضعَ بمثلِ هٰذا لأمثالِهِ ، ولمَنْ تقربُ منهُ درجتُهُ ، فأمَّا تواضعُهُ للسوقيِّ . . فبالقيامِ ، والبشرِ في الكلامِ ، والرفقِ في السؤالِ ، وإجابةِ دعوتِهِ ، والسعيِ في حاجتِهِ ، وأمثالِ ذٰلكَ ، وألَّا يرىٰ نفسَهُ خيراً منهُ ، بلْ يكونُ علىٰ نفسِهِ أخوفَ منهُ علىٰ غيرِهِ ؛ فلا يحقرُهُ ولا يستصغرُهُ وهوَ لا يعرفُ خاتمةَ أمرِهِ وخاتمتَهُ .

فإذاً ؛ سبيلُهُ في اكتسابِ التواضعِ : أنْ يتواضعَ للأقرانِ ولمَنْ دونَهُمْ ، حتَّىٰ يخفَّ عليهِ التواضعُ المحمودُ في محاسنِ العاداتِ ؛ ليزولَ بهِ الكِبْرُ عنهُ .

فإنْ خفَّ عليهِ ذٰلكَ . . فقدْ حصلَ لهُ خُلُقُ التواضعِ ، وإنْ كانَ يثقلُ عليهِ وهوَ يفعلُ ذٰلكَ . . فهوَ متكلِّفٌ لا متواضعٌ ، بلِ الخلقُ ما يصدرُ عنهُ الفعلُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ ثقلٍ ومِنْ غيرِ رويَّةٍ .

فإنْ خفَّ ذٰلكَ وصارَ بحيثُ يثقلُ عليهِ رعايةُ قدْرِهِ حتَّىٰ أحبَّ التملُّقَ والتخاسُسَ . . فقدْ خرجَ إلىٰ طرفِ النقصانِ ، فليرفَعْ نفسَهُ ؛ إذْ ليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ ، إلىٰ أنْ يعودَ إلى الوسطِ الذي هوَ الصراطُ المستقيمُ ، وذٰلكَ غامضٌ في هٰذا الخُلُقِ وفي سائرِ الأخلاقِ ، والميلُ عنِ الوسطِ إلىٰ طرفِ النقصانِ وهوَ التملُّقُ أهونُ مِنَ الميلِ إلىٰ طرفِ الزيادةِ وهوَ الكِبْرُ ؛ كما أنَّ الميلَ إلىٰ طرفِ التبذيرِ في المالِ أحمدُ عندَ الناسِ مِنَ الميلِ إلىٰ طرفِ البخلِ ، فنهايةُ التبذيرِ ونهايةُ البخلِ مذمومانِ ، وأحدُهُما أفحشُ ، وكذٰلكَ نهايةُ التكبُّرِ ونهايةُ التبَصْبُصِ والتذلُّلِ مذمومانِ[2] ، وأحدُهُما أقبحُ مِنَ الآخرِ ، والمحمودُ المطلقُ هوَ العدلُ ، ووضعُ الأمورِ مواضعَها كما يجبُ ، وعلىٰ ما يجبُ ، علىٰ ما يُعرفُ ذٰلكَ بالشرعِ والعادةِ ، ولنقتصرْ علىٰ هٰذا القدْرِ مِنْ بيانِ أخلاقِ الكبْرِ والتواضعِ .

* * *

---

(١) **قوله : تخاسساً** : هو تفاعل من الخسة ، وهٰذا هو التفريط ، والتكبر هو الإفراط . « إتحاف » (٨/٤٠٦) .

(٢) **التبصبص** : التملُّق .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في العُجب

وفيهِ بيانُ ذمِّ العجْبِ وآفتِهِ ، وبيانُ حقيقةِ العجْبِ والإدلالِ وحدِّهما ، وبيانُ علاجِ العجْبِ على الجملةِ ، وبيانُ أقسامِ ما بهِ العجْبُ ، وتفصيلُ علاجِهِ .

بيان ذمّ العُجب وآفته

اعلمْ : أنَّ العجبَ مذمومٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ ، ذكرَ ذٰلكَ في معرِضِ الإنكارِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ ، فردَّ على الكفارِ في إعجابِهِمْ بحصونِهِمْ وشوكتِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ، وهـٰذا أيضاً يرجعُ إلى العجْبِ بالعملِ ، وقدْ يعجبُ الإنسانُ بعملٍ هوَ مخطئٌ فيهِ ؛ كما يعجبُ بعملٍ هوَ فيهِ مصيبٌ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »(١)

وقالَ لأبي ثعلبةَ حيثُ ذكرَ آخِرَ هـٰذهِ الأمةِ فقالَ : « إذا رأيتَ شحّاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ . . فعليكَ نفسَكَ »(٢)

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (الهلاكُ في اثنتينِ : القنوطِ ، والعجبِ)(٣) ، وإنَّما جمعَ بينَهُما لأنَّ السعادةَ لا تُنالُ إلا بالسعيِ والطلبِ والجدِّ والتشميرِ ، والقانطُ لا يسعىٰ ولا يطلبُ ، والمعجبُ يعتقدُ أنَّهُ قدْ سُعِدَ ، وقدْ ظفرَ بمرادِهِ ؛ فلا يسعىٰ ، فالموجودُ لا يُطلبُ ، والمحالُ لا يُطلبُ ، والسعادةُ موجودةٌ في اعتقادِ المعجَبِ حاصلةٌ لهُ ، ومستحيلةٌ في اعتقادِ القانطِ ، فمِنْ هنا جمعَ بينَهُما .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ ، قالَ ابنُ جُريجٍ : معناهُ : إذا عملتَ خيراً . . فلا تقلْ : عملتُ ، وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : لا تبرُّوها ؛ أيْ : لا تعتقدوا أنَّها بارَّةٌ ، وهوَ معنى العجْبِ(٤)

ووقىٰ طلحةُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ أحدٍ بنفسِهِ ، فأكبَّ عليهِ حتَّىٰ أُصيبَتْ كفُّهُ(٥) ، فكأنَّهُ أعجبَهُ فعلُهُ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٦) ، والسياق عنده .

(٤) كذا في « الرعاية » (ص ٣٣٧) ، وقول زيد رواه الطبري في « تفسيره » (٨٧/٢٧/١٣) .

(٥) رواه البخاري (٣٧٢٤) ، وقد شَلَّت يده بهـٰذا رضي الله عنه .

العظيمُ ؛ إذْ فداهُ بروحِهِ حتَّىٰ جُرِحَ ، فتفرَّسَ فيهِ ذٰلكَ عمرُ ، فقالَ : ما زالَ يُعرفُ في طلحةَ بأْوٌ منذُ أُصيبَتْ إصبعُهُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1]

والبأْوُ : هوَ العجْبُ في اللغةِ ، إلا أنَّهُ لمْ يُنقلْ فيهِ أنَّهُ أظهرَهُ واحتقرَ مسلماً ، ولمَّا كانَ وقتُ الشورىٰ . . قالَ لهُ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أينَ أنتَ مِنْ طلحةَ ، قالَ : ذٰلكَ رجلٌ فيهِ نخوةٌ[2]

فإذا كانَ لا يتخلَّصُ مِنَ العجبِ أمثالُهُمْ . . فكيفَ يتخلَّصُ الضعفاءُ إنْ لمْ يأخذوا حذرَهُمْ ؟!

وقالَ مطرفٌ : (لأَنْ أبيتَ نائماً وأصبحَ نادماً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أبيتَ قائماً وأصبحَ معجباً)[3]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ لمْ تذنبوا . . لخشيتُ عليكُمْ ما هوَ أكبرُ مِنْ ذٰلكَ ؛ العجبَ العجبَ »[4] ، فجعلَ العجْبَ أكبرَ مِنَ الذنوبِ .

وكانَ بشرُ بنُ منصورٍ مِنَ الذينَ إذا رُؤوا . . ذُكرَ اللهُ تعالىٰ والدارُ الآخرةُ ؛ لمواظبتِهِ على العبادةِ ، فأطالَ الصلاةَ يوماً ورجلٌ خلفَهُ ينظرُ إليهِ ، ففطنَ لهُ بشرٌ ، فلمَّا انصرفَ مِنَ الصلاةِ . . قالَ لهُ : لا يعجبنَّكَ ما رأيتَ منِّي ؛ فإنَّ إبليسَ لعنَهُ اللهُ قدْ عبدَ اللهَ تعالىٰ معَ الملائكةِ مدَّةً طويلةً ، ثمَّ صارَ إلىٰ ما صارَ إليهِ[5]

وقيلَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : متَىٰ يكونُ الرجلُ مسيئاً ؟ قالَتْ : إذا ظنَّ أنَّهُ محسنٌ[6]

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ ، والمنُّ نتيجةُ استعظامِ الصدقةِ ، واستعظامُ العملِ هوَ العجبُ ، فظهرَ بهٰذا أنَّ العجبَ مذمومٌ جدّاً .

* * *

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٠/٣٤٤) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/٤٣٨) بنحوه .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٠٠) .
(٤) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٩٤) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٤١) .
(٦) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٧) .

بيان آفة العجب

اعلمْ : أنَّ آفاتِ العجبِ كثيرةٌ ، فإنَّ العجْبَ يدعو إلى الكبْرِ ؛ لأنَّهُ أحدُ أسبابِهِ كما ذَكرناهُ ، فيتولَّدُ مِنَ العجبِ الكبْرُ ، ومِنَ الكبرِ الآفاتُ الكثيرةُ التي لا تخفىٰ ، هٰذا معَ العبادِ .

وأمَّا معَ اللهِ تعالىٰ . . فالعجبُ يدعو إلىٰ نسيانِ الذنوبِ وإهمالِها ، فبعضُ ذنوبِهِ لا يذكرُها ولا يتفقدُها ؛ لظنِّهِ أنَّهُ مستغنٍ عنْ تفقُّدِها ، فينساها ، وما يتذكَّرُهُ منها فيستصغرُهُ ولا يستعظمُهُ ؛ فلا يجتهدُ في تداركِهِ وتلافيهِ ، بلْ يظنُّ أنَّهُ يُغفرُ لهُ ، وأمَّا العباداتُ والأعمالُ . . فإنَّهُ يستعظمُها ، ويتبجَّحُ بها ويمنُّ على اللهِ تعالىٰ بفعلِها ، وينسىٰ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالتوفيقِ والتمكينِ منها ، ثمَّ إذا أُعجبَ بها . . عميَ عنْ آفاتِها ، ومَنْ لمْ يتفقَّدْ آفاتِ الأعمالِ . . كانَ أكثرُ سعيِهِ ضائعاً ؛ فإنَّ الأعمالَ الظاهرةَ إذا لمْ تكنْ خالصةً نقيّةً عنِ الشوائبِ . . قلمَّا تنفعُ ، وإنَّما يتفقَّدُ مَنْ يغلبُ عليهِ الإشفاقُ والخوفُ دونَ العجْبِ .

والمعجبُ يغترُّ بنفسِهِ وبربِّهِ عزَّ وجلَّ ، ويأمنُ مكرَ اللهِ تعالىٰ وعذابَهُ ، ويظنُّ أنَّهُ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وأنَّ لهُ عندَ اللهِ منّةً وحقّاً بأعمالِهِ التي هيَ نعمةٌ مِنْ نعمِهِ ، وعطيَّةٌ مِنْ عطاياهُ ، ويخرجُهُ العجبُ إلىٰ أنْ يثنيَ علىٰ نفسِهِ ويحمدَها ويزكيَها ، وإنْ أُعجبَ برأيِهِ وعقلِهِ وعلمِهِ . . منعَ ذٰلكَ مِنَ الاستفادةِ ، ومِنَ الاستشارةِ والسؤالِ ؛ فيستبدُّ بنفسِهِ ورأيِهِ ويستنكفُ مِنْ سؤالِ مَنْ هوَ أعلمُ منهُ ، وربَّما يعجبُ بالرأيِ الخطأِ الذي خطرَ لهُ ، فيفرحُ بكونِهِ مِنْ خواطرِهِ ، ولا يفرحُ بخاطرِ غيرِهِ ، فيصرُّ عليهِ ، ولا يسمعُ نصحَ ناصحٍ ، ولا وعظَ واعظٍ ، بلْ ينظرُ إلىٰ غيرِهِ بعينِ الاستجهالِ ، ويصرُّ علىٰ خطئِهِ ، فإنْ كانَ رأيُهُ في أمرٍ دنيويٍّ . . فيخفقُ فيهِ ، وإنْ كانَ في أمرٍ دينيٍّ لا سيما فيما يتعلَّقُ بأصولِ العقائدِ . . فيهلكُ بهِ ، ولوِ اتَّهمَ نفسَهُ ، ولمْ يثقْ برأيِهِ ، واستضاءَ بنورِ القرآنِ ، واستعانَ بعلماءِ الدينِ ، وواظبَ علىٰ مدارسةِ العلمِ ، وتابعَ سؤالَ أهلِ البصيرةِ . . لكانَ ذٰلكَ يوصلُهُ إلى الحقِّ .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنْ آفاتِ العُجبِ ؛ فلذٰلكَ كانَ مِنَ المهلكاتِ ، ومِنْ أعظمِ آفاتِهِ أنْ يفترَ في السَّعيِ لظنِّهِ أنَّهُ قدْ فازَ وأنَّهُ قدِ استغنىٰ ، وهوَ الهلاكُ الصريحُ الذي لا شبهةَ فيهِ ، نسالُ اللهَ تعالى العظيمَ حسنَ التوفيقِ لطاعتِهِ .

❋ ❋ ❋

بيان حقيقة العُجب والإدلال وحدّهما

اعلمْ : أنَّ العجبَ إنَّما يكونُ بوصفٍ هوَ كمالٌ لا محالةَ ، وللعالِمِ بكمالِ نفسِهِ في علمٍ وعملٍ ومالٍ وغيرِهِ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يكونَ خائفاً علىٰ زوالِهِ ، مشفقاً علىٰ تكدُّرِهِ أوْ سلبِهِ مِنْ أصلِهِ ؛ فهٰذا ليسَ بمعجبٍ .

والأخرىٰ : ألَّا يكونَ خائفاً مِنْ زوالِهِ ، لٰكنْ يكونُ فرحاً بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، لا مِنْ حيثُ إضافتُهُ إلىٰ نفسِهِ ، وهٰذا أيضاً ليسَ بمعجبٍ .

ولهُ حالةٌ ثالثةٌ : هيَ العجبُ ، وهيَ أنْ يكونَ غيرَ خائفٍ عليهِ ، بلْ يكونُ فرحاً بهِ مطمئناً إليهِ ، ويكونُ فرحُهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ كمالٌ ونعمةٌ ورفعةٌ وخيرٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ عطيَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ونعمةٌ منهُ ، فيكونُ فرحُهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ صفتُهُ ، ومنسوبٌ إليهِ بأنَّهُ لهُ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ منسوبٌ إلى اللهِ تعالىٰ بأنَّهُ منهُ ، فمهما غلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ ، مهما شاءَ سلبَها عنهُ . . زالَ العجبُ بذٰلكَ عنْ نفسِهِ .

فإذاً ؛ العجبُ : هوَ استعظامُ النعمةِ والركونُ إليها معَ نسيانِ إضافتِها إلى المنعمِ .

فإنِ انضافَ إلىٰ ذٰلكَ أنْ غلبَ علىٰ نفسِهِ أنَّ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ حقّاً ، وأنَّهُ منهُ بمكانٍ ، حتَّىٰ توقَّعَ بعملِهِ كرامةً في الدنيا ، واستبعدَ أنْ يجريَ عليهِ مكروهٌ استبعاداً يزيدُ على استبعادِهِ ما يجري على الفُسَّاقِ . . سُمِّيَ هٰذا إدلالاً بالعملِ ، فكأنَّهُ يرىٰ لنفسِهِ على اللهِ عزَّ وجلَّ دالَّةً .

وكذٰلكَ قدْ يُعطي غيرَهُ شيئاً فيستعظمُهُ ويمنُّ عليهِ فيكونُ معجباً ، فإنِ استخدمَهُ أوِ اقترحَ عليهِ الاقتراحاتِ ، أوِ استبعدَ تخلُّفَهُ عنْ قضاءِ حقوقِهِ . . كانَ مُدِلّاً عليهِ .

قالَ قتادةُ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴾ أيْ : لا تدلَّ بعملِكَ(١) .

وفي الخبرِ : (إنَّ صلاةَ المدلِّ لا تُرفَعُ فوقَ رأسِهِ ، ولأَنْ تضحَكَ وأنتَ معترفٌ بذنبِكَ . . خيرٌ مِنْ أنْ تبكيَ وأنتَ مُدِلٌّ بعملِكَ)(٢)

والإدلالُ وراءَ العجْبِ ، فلا مُدِلَّ إلا وهوَ معجبٌ ، وربَّ معجبٍ لا يدِلُّ ؛ إذِ العجبُ يحصلُ بالاستعظامِ ونسيانِ النعمةِ ، دونَ توقُّعِ جزاءٍ عليهِ ، والإدلالُ لا يتمُّ إلا معَ توقُّعِ جزاءٍ ، فإنْ توقَّعَ إجابةَ دعوتِهِ واستنكرَ ردَّها بباطنِهِ وتعجَّبَ منهُ . . كانَ مدلّاً بعملِهِ ؛ فإنَّهُ لا يتعجَّبُ مِنْ ردِّ دعاءِ الفاسقِ ، ويتعجَّبُ مِنْ ردِّ دعاءِ نفسِهِ لذٰلكَ ، فهٰذا هوَ العجْبُ والإدلالُ ، وهوَ مِنْ مقدِّماتِ الكبرِ وأسبابِهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

---

(١) الرعاية (ص ٣٤٦) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٤٦) عن أيوب وداوود عليهما السلام ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٥٦/٧) عن سفيان عن راهب متعبد .

بيان علاج العُجب على الجملة

اعلمْ : أنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ هوَ مقابَلةُ سببِها بضدِّهِ ، وعلَّةُ العجْبِ الجهلُ المحضُ ، فعلاجُهُ المعرفةُ المضادَّةُ لذٰلكَ الجهلِ فقطْ .

فلنفرضِ العجْبَ بفعلٍ داخلٍ تحتَ اختيارِ العبدِ ؛ كالعبادةِ والصدقةِ والغزوِ وسياسةِ الخلْقِ وإصلاحِهِمْ ؛ فإنَّ العجْبَ بهٰذا أغلبُ مِنَ العجْبِ بالجمالِ والقوَّةِ والنسبِ وما لا يدخلُ تحتَ اختيارِهِ ولا يراهُ مِنْ نفسِهِ ، فنقولُ : الورعُ والتقوىٰ والعبادةُ والعملُ الذي بهِ يعجبُ إنَّما يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فيهِ ، فهوَ محلُّهُ ومجراهُ ، أوْ مِنْ حيثُ إنَّهُ منهُ وبسببِهِ ، وبقدرتِهِ وقوَّتِهِ .

فإنْ كانَ يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فيهِ وهوَ محلُّهُ ومجراهُ ، يجري فيهِ وعليهِ مِنْ جهةِ غيرِهِ . . فهٰذا جهلٌ ؛ لأنَّ المحلَّ مسخَّرٌ ومجرىً لا مدخلَ لهُ في الإيجادِ والتحصيلِ ، فكيفَ يعجبُ بما ليسَ إليهِ ؟!

وإنْ كانَ يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ هوَ منهُ وإليهِ ، وباختيارِهِ حصلَ ، وبقدرتِهِ وقوتِهِ تمَّ . . فينبغي أنْ يتأمَّلَ في قدرتِهِ وإرادتِهِ وأعضائِهِ وسائرِ الأسبابِ التي بها يتمُّ عملُهُ أنَّها مِنْ أينَ كانَتْ لهُ ؟ فإنْ كانَ جميعُ ذٰلكَ نعمةً مِنَ اللهِ سبحانَهُ عليهِ مِنْ غيرِ حقٍّ سبقَ لهُ ، ومِنْ غيرِ وسيلةٍ يدلي بها . . فينبغي أنْ يكونَ إعجابُهُ بجودِ اللهِ تعالىٰ وكرمِهِ وفضلِهِ ؛ إذْ أفاضَ عليهِ ما لا يستحقُّهُ ، وآثرَهُ بهِ علىٰ غيرِهِ مِنْ غيرِ سابقةٍ ووسيلةٍ ، فمهما برزَ الملكُ لغلمانِهِ ، ونظرَ إليهِمْ ، فخلعَ مِنْ جملتِهِمْ علىٰ واحدٍ منهُمْ ، لا لصفةٍ فيهِ ولا لوسيلةٍ ، ولا لجمالٍ ولا لخدمةٍ . . فينبغي أنْ يتعجَّبَ المنعَمُ عليهِ مِنْ فضلِ الملكِ وحكمِهِ وإيثارِهِ مِن غيرِ استحقاقٍ ؛ فإعجابُهُ بنفسِهِ مِنْ أينَ ؟ وما سببُهُ ؟ ولا ينبغي أنْ يعجبَ هوَ بنفسِهِ .

نعمْ ؛ يجوزُ أنْ يعجبَ العبدُ فيقولُ : الملكُ حكمٌ عدْلٌ لا يظلمُ ، ولا يقدِّمُ ولا يؤخِّرُ إلا لسببٍ ، فلولا أنَّهُ تفطَّنَ فيَّ صفةً مِنَ الصفاتِ المحمودةِ الباطنةِ ما اقتضى الإيثارَ بالخلعةِ . . لما آثرني بها ، فيُقالُ : وتلكَ الصفةُ هيَ أيضاً مِنْ خلعةِ الملكِ وعطيتِهِ التي خصَّكَ بها مِنْ غيرِكَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ أوْ هيَ عطيةُ غيرِهِ ؟ فإنْ كانَتْ مِنْ عطيةِ الملكِ أيضاً . . لمْ يكنْ لكَ أنْ تعجبَ بها ، بلْ كانَ كما لوْ أعطاكَ فرساً فلمْ تعجبْ بهِ ، فأعطاكَ غلاماً فصرتَ تعجبُ بهِ وتقولُ : إنَّما أعطاني غلاماً لأنِّي صاحبُ فرسٍ ، وأمَّا غيري . . فلا فرسَ لهُ ، فيُقالُ : وهوَ الذي أعطاكَ الفرسَ ، فلا فرقَ بينَ أنْ يعطيَكَ الفرسَ والغلامَ معاً أوْ يعطيَكَ أحدَهُما بعدَ الآخرِ ، فإذا كانَ الكلُّ منهُ . . فينبغي أنْ يعجبَكَ جودُهُ وفضلُهُ ، لا نفسُكَ .

وأمَّا إنْ كانَتْ تلكَ الصفةُ مِنْ غيرِهِ . . فلا يبعدُ أنْ تعجبَ بتلكَ الصفةِ ، وهٰذا يُتصوَّرُ في حقِّ الملوكِ ، ولا يُتصوَّرُ في حقِّ الجبارِ القاهرِ ملكِ الملوكِ ، المتفرِّدِ باختراعِ الجميعِ المنفردِ بإيجادِ الموصوفِ والصفةِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ فإنَّكَ إنْ أُعجبتَ بعبادتِكَ وقلتَ : وفَّقَني للعبادةِ لحبِّي لهُ . . فيُقالُ : ومَنْ خلقَ الحبَّ في قلبِكَ ؟ فستقولُ : هوَ ، فيُقالُ : فالحبُّ والعبادةُ كلاهُما نعمتانِ مِنْ عندِهِ ابتدأَكَ بهِما مِنْ غيرِ استحقاقٍ مِنْ جهتِكَ ؛ إذ لا وسيلةَ لكَ ولا علاقةَ ، فيكونُ الإعجابُ بجودِهِ ؛ إذْ أنعمَ بوجودِكَ ووجودِ صفاتِكَ ، وبوجودِ أعمالِكَ وأسبابِ أعمالِكَ .

فإذاً ؛ لا معنىٰ لعجبِ العابدِ بعبادتِهِ ، وعجبِ العالمِ بعلمِهِ ، وعجبِ الجميلِ بجمالِهِ ، وعجبِ الغنيِّ بغناهُ ؛ لأنَّ كلَّ

ذٰلكَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما هوَ محلٌّ لفيضانِ فضلِ اللهِ تعالىٰ وجودِهِ ، والمحلُّ أيضاً مِنْ جودِهِ وفضلِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : لا يمكنُني أنْ أجهلَ أعمالي ، فإنِّي أنا عملتُها ، فإنِّي أنتظرُ عليها ثواباً ، ولولا أنَّها عملي . . لما انتظرتُ الثوابَ ، فإنْ كانَتِ الأعمالُ مخلوقةً للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ سبيلِ الاختراعِ . . فمِنْ أينَ لي الثوابُ ؟ وإنْ كانَتِ الأعمالُ منِّي وبقدرتي . . فكيفَ لا أعجبُ بها ؟

فاعلمْ : أنَّ جوابَكَ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : هوَ صريحُ الحقِّ ، والآخرُ : فيه مسامحةٌ .

أمَّا صريحُ الحقّ . . فهوَ أنَّكَ وقدرتَكَ وإرادتَكَ وحركتَكَ جميعُ ذٰلكَ مِنْ خلقِ اللهِ واختراعِهِ ، فما عملتَ إذْ عملتَ ، وما صلَّيتَ إذْ صلَّيتَ ، وما رميتَ إذْ رميتَ ، ولٰكنَّ اللهَ رمىٰ ، فهٰذا هوَ الحقُّ الذي انكشفَ لأربابِ القلوبِ بمشاهدةٍ أوضحَ مِنْ إبصارِ العينِ ، بلْ خلقَكَ ، وخلقَ أعضاءَكَ ، وخلقَ فيها القوَّةَ والقدرةَ والصحَّةَ ، وخلقَ لكَ العقلَ والعلمَ ، وخلقَ لكَ الإرادةَ ، ولوْ أردتَ أنْ تنفيَ شيئاً مِنْ هٰذا عنْ نفسِكَ . . لم تقدرْ عليهِ ، ثمَّ خلقَ الحركاتِ في أعضائِكَ مستبدّاً باختراعِها مِنْ غيرِ مشاركةٍ مِنْ جهتِكَ معَهُ في الاختراعِ ، إلا أنَّهُ خلقَهُ علىٰ ترتيبٍ ، فلمْ يخلقِ الحركةَ ما لمْ يخلقْ في العضوِ قوَّةً ، وفي القلبِ إرادةً ، ولمْ يخلقْ إرادةً ما لمْ يخلقِ علماً بالمرادِ ، ولمْ يخلقْ علماً ما لمْ يخلقِ القلبَ الذي هوَ محلُّ العلمِ ، فتدريجُهُ في الخلقِ شيئاً بعدَ شيءٍ هوَ الذي خيَّلَ إليكَ أنَّكَ أوجدتَ عملَكَ ، وقدْ غلطتَ ، وإيضاحُ ذٰلكَ وكيفيةِ الثوابِ علىٰ عملٍ هوَ مِنْ خلقِ اللهِ سبحانَهُ سيأتي تقريرُهُ في كتابِ الشكرِ ؛ فإنَّهُ أليقُ بهِ ، فارجعْ إليهِ .

ونحنُ الآنَ نزيلُ إشكالَكَ بالجوابِ الثاني الذي فيهِ مسامحةٌ ما ، وهوَ أنْ تحسبَ أنَّ العملَ حصلَ بقدرتِكَ ، فمِنْ أينَ قدرتُكَ ؟ ولا يُتصوَّرُ العملُ إلا بوجودِكَ وبوجودِ علمِكَ وإرادتِكَ وقدرتِكَ وسائرِ أسبابِ عملِكَ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ لا منكَ ، فإنْ كانَ العملُ بالقدرةِ . . فالقدرةُ مفتاحُهُ ، وهٰذا المفتاحُ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومهما لمْ يعطكَ المفتاحَ . . فلا يمكنُكَ العملُ ، فالعباداتُ خزائنُ بها يُتوصَّلُ إلى السعاداتِ ، ومفاتيحُها القدرةُ والإرادةُ والعلمُ ، وهيَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ لا محالةَ ، أرأيتَ لوْ رأيتَ خزائنَ الدنيا مجموعةً في قلعةٍ حصينةٍ ومفاتيحُها بيدِ خازنٍ ، ولوْ جلستَ علىٰ بابِها وحولَ حيطانِها ألفَ سنةٍ . . لمْ يمكنْكَ أنْ تنظرَ إلىٰ دينارٍ ممَّا فيها ، ولوْ أعطاكَ المفتاحَ . . لأخذتَهُ مِنْ قربٍ ، بأنْ تبسُطَ يدَكَ إليهِ فتأخذَهُ فقطْ ، فإذا أعطاكَ الخازنُ المفاتيحَ ، وسلَّطَكَ عليها ، ومكَّنَكَ منها ، فمددتَ يدَكَ وأخذتَها . . أكانَ إعجابُكَ بإعطاءِ الخازنِ المفاتيحَ أوْ بما إليكَ مِنْ مدِّ اليدِ وأخذِها ؟ فلا شكَّ في أنَّكَ ترىٰ ذٰلكَ نعمةً مِنَ الخازنِ ؛ لأنَّ المؤنةَ في تحريكِ اليدِ بأخذِ المالِ قريبةٌ ، وإنَّما الشأنُ كلُّهُ في تسليمِ المفاتيحِ .

فكذٰلكَ مهما خُلقَتِ القدرةُ ، وسُلِّطَتِ الإرادةُ الجازمةُ ، وحُرِّكَتِ الدواعي والبواعثُ ، وصُرِفَ عنكَ الموانعُ والصوارفُ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ صارفٌ إلا دُفِعَ ، ولا باعثٌ إلا وُكِّلَ بكَ . . فالعملُ هيِّنٌ عليكَ ، وتحريكُ البواعثِ ، وصرفُ العوائقِ ، وتهيئةُ الأسبابِ كلُّ ذٰلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ليسَ شيءٌ منها إليكَ ، فمِنَ العجائبِ أنْ تعجبَ بنفسِكَ ولا تعجبَ بمَنْ إليهِ الأمرُ كلُّهُ ، ولا تعجبَ بجودِهِ وفضلِهِ وكرمِهِ في إيثارِهِ إيَّاكَ على الفسَّاقِ مِنْ عبادِهِ ؛ إذْ سلَّطَ دواعيَ الفسادِ على الفسَّاقِ وصرفَها عنكَ ، وسلَّطَ أخدانَ السوءِ ودعاةَ الشرِّ عليهِمْ وصرفَهُمْ عنكَ ، ومكَّنَهُمْ مِنَ أسبابِ الشهواتِ واللَّذاتِ وزواها عنكَ ، وصرفَ عنهُمْ بواعثَ الخيرِ ودواعيَهِ وسلَّطَها عليكَ ، حتَّىٰ تيسَّرَ لكَ الخيرُ ، وتيسَّرَ لهُمُ الشرُّ ،

فعلَ ذٰلكَ كلَّهُ بكَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سابقةٍ منكَ ، ولا جريمةٍ سابقةٍ مِنَ الفاسقِ العاصي ، بلْ آثرَكَ ، وقدَّمَكَ واصطفاكَ بفضلِهِ ، وأبعدَ العاصيَ وأشقاهُ بعدلِهِ ، فما أعجبَ إعجابَكَ بنفسِكَ إذا عرفتَ ذٰلكَ !!

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ لا تنصرفُ قدرتُكَ إلى المقدورِ إلا بتسليطِ اللهِ عليكَ داعيةً لا تجدُ سبيلاً إلىٰ مخالفتِها ، فكأنَّهُ الذي اضطرَّكَ إلى الفعلِ إنْ كنتَ فاعلاً تحقيقاً ، فلَهُ الشكرُ والمنَّةُ لا لكَ ، وسيأتي في كتابِ التوحيدِ والتوكُّلِ مِنْ بيانِ تسلسلِ الأسبابِ والمسبباتِ ما تستبينُ بهِ أنَّهُ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ، ولا خالقَ سواهُ .

والعجبُ ممَّنْ يتعجَّبُ إذا رزقَهُ اللهُ عقلاً وأفقرَهُ ممَّنْ أفاضَ اللهُ عليهِ المالَ مِنْ غيرِ علمٍ ، فيقولُ : كيفَ منعَني قوتَ يومي وأنا العاقلُ الفاضلُ ، وأفاضَ علىٰ هٰذا نعيمَ الدنيا وهوَ الغافلُ الجاهلُ ؟! حتَّىٰ يكادُ يرىٰ هٰذا ظلماً ، ولا يدري المغرورُ أنَّهُ لوْ جمعَ لهُ بينَ العقلِ والمالِ جميعاً . . لكانَ ذٰلكَ بالظلمِ أشبهَ في ظاهرِ الحالِ ؛ إذْ يقولُ الجاهلُ الفقيرُ : يا ربِّ ؛ لمَ جمعتَ لهُ بينَ العقلِ والغنىٰ وحرمتَني منهُما ؟ فهلَّا جمعتَهُما لي ، أوْ هلَّا رزقتَني أحدَهُما .

وإلىٰ هٰذا أشارَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قيلَ لهُ : ما بالُ العقلاءِ فقراءَ ؟ فقالَ : إنَّ عقلَ الرجلِ محسوبٌ عليهِ مِنْ رزقِهِ .

والعجبُ أنَّ العاقلَ الفقيرَ ربَّما يرى الجاهلَ الغنيَّ أحسنَ حالاً مِنْ نفسِهِ ، ولوْ قيلَ لهُ : هلْ تؤثرُ جهلَهُ وغناهُ عوضاً عنْ عقلِكَ وفقرِكَ . . لامتنعَ عنهُ ، فإذاً ذٰلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ نعمةَ اللهِ عليهِ أكثرُ ؛ فلِمَ يتعجَّبُ مِنَ ذٰلكَ ؟

والمرأةُ الحسناءُ الفقيرةُ ترى الحليَّ والجواهرَ على الذميمةِ القبيحةِ ، فتتعجَّبُ وتقولُ : كيف يُحرمُ مثلُ هٰذا الجمالِ مِنَ الزينةِ ويُخصُّ بهِ مثلُ ذٰلكَ القبحِ ؟! ولا تدري المغرورةُ أنَّ الجمالَ محسوبٌ عليها مِنْ رزقِها ، وأنَّها لوْ خُيِّرَتْ بينَ الجمالِ وبينَ القبحِ معَ الغنىٰ . . لآثرَتِ الجمالَ ، فإذاً نعمةُ اللهِ عليها أكثرُ .

وقولُ الحكيمِ العاقلِ الفقيرِ بقلبِهِ : يا ربِّ ؛ لمَ حرمتَني الدنيا وأعطيتَ الجهَّالَ ؛ كقولِ مَنْ أعطاهُ الملكُ فرساً فيقولُ : أيُّها الملكُ ؛ لِمَ لا تعطيني الغلامَ وأنا صاحبُ فرسٍ ؟ فيقولُ لهُ : كنتَ لا تتعجبُ مِنْ هٰذا لوْ لمْ أعطِكَ الفرسَ ، فهَبْ أنِّي ما أعطيتُكَ فرساً . . أصارَتْ نعمتي عليكَ وسيلةً لكَ وحجّةً تطلبُ بها نعمةً أخرىٰ ؟!

فهٰذهِ أوهامٌ لا تخلو الجهَّالُ عنها ، ومنشأُ جميعِ ذٰلكَ الجهلُ ، ويُزالُ ذٰلكَ بالعلمِ المحقَّقِ بأنَّ العبدَ وعملَهُ وأوصافَهُ كلُّ ذٰلكَ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ نعمةٌ ابتدأَهُ بها قبلَ الاستحقاقِ ، وهٰذا ينفي العجبَ والإدلالَ ، ويورثُ الخضوعَ والشكرَ والخوفَ مِنْ زوالِ النعمةِ ، ومَنْ عرفَ هٰذا . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يعجبَ بعلمِهِ وعملِهِ ؛ إذْ يعلمُ أنَّ ذٰلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ولذٰلكَ قالَ داوودُ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ما تأتي ليلةٌ إلا وإنسانٌ مِنْ آلِ داوودَ قائمٌ ، ولا يأتي يومٌ إلا وإنسانٌ مِنْ آلِ داوودَ صائمٌ ، وفي روايةٍ : ما تمرُّ ساعةٌ مِنْ ليلٍ أوْ نهارٍ إلا وعابدٌ مِنْ آلِ داوودَ يعبدُكَ ؛ إمَّا يصلِّي ، وإمَّا يصومُ ، وإمَّا يذكرُكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ ومِنْ أينَ لهُمْ ذٰلكَ ؟ إنَّ ذٰلكَ لمْ يكنْ إلا بي ، ولولا عوني إيَّاكَ . . ما قويتَ ، وسأكِلُكَ إلىٰ نفسِكَ ، قالَ ابنُ عباسٍ : إنَّما أصابَ داوودَ ما أصابَ مِنَ الذنبِ ؛ لعجبِهِ بعملِهِ ؛ إذْ أضافَ ذٰلكَ إلىٰ آلِ داوودَ مدلاً بهِ ، حتَّىٰ وكلَ إلىٰ نفسِهِ فأذنبَ ذنباً أورثَهُ الحزنَ والندمَ [1]

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤١) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٣٣/٢) .

وقالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ إنَّ بني إسرائيلَ يسألونكَ بإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ، فقالَ : إنّي ابتليتُهُمْ فصبروا ، فقالَ : يا ربِّ ، وأنا إنِ ابتليتَني . . صبرتُ ، فأدلَّ بالعملِ قبلَ وقتِهِ ، فقالَ تعالىٰ : أما إنّي لمْ أخبرْهُمْ بأيِّ شيءٍ أبتليهِمْ ، ولا في أيِّ شهرٍ ، ولا في أيِّ يومٍ ، وأنا مخبرُكَ أنّي أبتليكَ في سنتِكَ هـٰذهِ وشهرِكَ هـٰذا ، أبتليكَ غداً بامرأةٍ ، فاحذرْ نفسَكَ ، فوقعَ فيما وقعَ فيهِ[1]

وكذٰلكَ لمَّا اتكلَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ حنينٍ علىٰ قوَّتِهِمْ وكثرتِهِمْ ، ونسوا فضلَ اللهِ عليهِمْ ، وقالوا : لا نُغلبُ اليومَ مِنْ قلَّةٍ[2] . . وُكلوا إلىٰ أنفسِهِمْ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ .

وروى ابنُ عيينةَ أنَّ أيوبَ عليهِ السلامُ قالَ : إلـٰهي ؛ إنَّكَ ابتليتَني بهـٰذا البلاءِ ، وما وردَ عليَّ أمرٌ قطُّ إلا آثرتُ هواكَ علىٰ هوايَ ، فنُوديَ مِنْ غمامةٍ بعشرةِ آلافِ صوتٍ يا أيوبُ ؛ أنَّىٰ لكَ ذٰلك ؟ أيْ : مِنْ أينَ لكَ ذٰلكَ ؟ قالَ : فأخذَ رماداً فوضعَهُ علىٰ رأسِهِ وقالَ : منكَ يا ربِّ ، فرجعَ عنْ نسيانِهِ إضافةَ ذٰلكَ إلى اللهِ تعالىٰ[3]

ولهـٰذا قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ وهمْ خيرُ الناسِ : « ما منكُمْ مِنْ أحدٍ ينجيهِ عملُهُ » ، قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ولا أنا ، إلا أنْ يتغمَّدَني اللهُ برحمتِهِ »[4]

ولقدْ كانَ أصحابُهُ مِنْ بعدِهِ يتمنَّونَ أنْ يكونوا تراباً وتبناً وطيراً ، معَ صفاءِ أعمالِهِمْ وقلوبِهِمْ ، فكيفَ يكونُ لذي بصيرةٍ أنْ يعجبَ بعملِهِ أوْ يُدِلَّ بهِ ولا يخافَ علىٰ نفسِهِ ؟!

فإذاً ؛ هـٰذا هوَ العلاجُ القامعُ لمادةِ العجبِ مِنَ القلبِ ، ومهما غلبَ ذٰلكَ على القلبِ . . شغلَهُ خوفُ سلبِ هـٰذهِ النعمةِ عنِ الإعجابِ بها ، بلْ هوَ ينظرُ إلى الكفَّارِ والفسَّاقِ وقدْ سُلبوا نعمةَ الإيمانِ والطاعةِ بغيرِ ذنبٍ أذنبوهُ مِنْ قبلُ ، فيخافُ مِنَ ذٰلكَ فيقولُ : إنَّ مَنْ لا يبالي أنْ يحرمَ مِنْ غيرِ جنايةٍ ، ويعطيَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ . . لا يبالي أنْ يعودَ ويسترجعَ ما وهبَ ، فكمْ مِنْ مؤمنٍ قدِ ارتدَّ ، ومطيعٍ قدْ فسقَ وخُتمَ لهُ بالسوءِ ، وهـٰذا لا يبقىٰ معَهُ عجْبٌ بحالٍ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٥ ، ٣٢٥٥٦) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (١٢٨/١٠/٦) عن السدي .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦/٧) .

(٤) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

بيان أقسام ما به العُجْب ، وتفصيل علاجه

اعلمْ : أنَّ العجبَ بالأسبابِ التي بها يُتكبَّرُ كما ذكرناهُ ، وقدْ يعجبُ بما لا يُتكبَّرُ بهِ ؛ كعجبِهِ بالرأيِ الخطأ الذي تزيَّنَ لهُ بجهلِهِ .

فما بِهِ العجبُ ثمانيةُ أقسام :

الأوَّلُ : أنْ يعجبَ ببدنِهِ في جمالِهِ ، وهيئتِهِ ، وصحتِهِ ، وقوَّتِهِ ، وتناسبِ أشكالِهِ ، وحسنِ صورتِهِ ، وحسنِ صوتِهِ ، وبالجملةِ : تفصيلُ خلقتِهِ ، فيلتفتُ إلىٰ جمالِ نفسِهِ ، وينسىٰ أنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بعرضةِ الزوالِ في كلِّ حالٍ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الكبْرِ بالجمالِ ، وهوَ التفكُّرُ في أقذارِ باطنِه ، وفي أوَّلِ أمرِهِ وفي آخرِهِ ، وفي الوجوهِ الجميلةِ والأبدانِ الناعمةِ أنَّها كيفَ تمزَّقَتْ في الترابِ ، وأنتنَتْ في القبورِ بحيثُ استقذرَتْها الطباعُ .

❁ ❁ ❁

الثاني : القوَّةُ والبطشُ ؛ كما حُكيَ عنْ قومِ عادٍ حينَ قالوا فيما أخبرَ اللهُ عنهُمْ : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

وكما اتَّكلَ عُوجٌ علىٰ قوَّتِهِ وأُعجبَ بها ، فاقتلعَ جبلاً ليطبقَهُ علىٰ عسكرِ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فثقبَ اللهُ تعالىٰ تلكَ القطعةَ مِنَ الجبلِ بنقرِ هدهدٍ ضعيفِ المنقارِ حتَّىٰ صارَتْ في عنقِهِ[1]

وقدْ يتَّكلُ المؤمنُ أيضاً علىٰ قوَّتِهِ ؛ كما رُويَ عنْ سليمانَ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : لأطوفَنَّ الليلةَ علىٰ مئةِ امرأةٍ ولمْ يقلْ : إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، فحُرمَ ما أرادَ مِنَ الولدِ[2]

وكذلك قولُ داوودَ عليهِ السلامُ : (إنِ ابتليتَني . . صبرتُ) إعجاباً بالقوَّةِ[3] ، فلما ابتُليَ بالمرأةِ . . لم يصبرْ .

ويورثُ العجبُ بالقوَّةِ الهجومَ في الحروبِ ، وإلقاءَ النفسِ في التهلكةِ ، والمبادرةَ إلى الضربِ والقتلِ لكلِّ مَنْ قصدَهُ بالسوءِ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ حُمَّىٰ يومٍ تضعفُ قوَّتَهُ ، وأنَّهُ إذا أُعجبَ بها . . ربَّما سلبَها اللهُ تعالىٰ بأدنىٰ آفةٍ يسلِّطُها عليهِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : العجبُ بالعقلِ والكياسةِ ، والتفطنِ لدقائقِ الأمورِ مِنْ مصالحِ الدينِ والدنيا ، وثمرتُهُ : الاستبدادُ بالرأيِ ، وتركُ المشورةِ ، واستجهالُ الناسِ المخالفينَ لهُ ولرأيِهِ ، ويخرجُ إلىٰ قلَّةِ الإصغاءِ إلىٰ أهلِ العلمِ ؛ إعراضاً عنهُمْ بالاستغناءِ بالرأيِ والعقلِ ، واستحقاراً لهُمْ وإهانةً .

وعلاجُهُ : أنْ يشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما رُزقَ مِنَ العقلِ ، ويتفكرَ أنَّهُ بأدنىٰ مرضٍ يصيبُ دماغَهُ كيفَ يوسوسُ ويُجنُّ

---

(١) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٥١٩/٥) ، وانظر « الحاوي للفتاوي » للسيوطي (٢٤١/٢) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٤٢) ، ومسلم (١٦٥٤) ، وذكر المئة عند البخاري .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٦) .

بحيثُ يُضحكُ منهُ ، فلا يأمنُ أنْ يُسلبَ عقلَهُ إنْ أُعجبَ بهِ ولمْ يقُمْ بشكرِهِ ، وليستصغرْ عقلَهُ وعلمَهُ ، وليعلمْ أنَّهُ ما أُوتيَ مِنَ العلمِ إلا قليلاً وإنِ اتسعَ علمُهُ ، وأنَّ ما جهلَهُ ممَّا عرفَهُ الناسُ أكثرُ ممَّا علمَهُ ؛ فكيفَ بما لمْ يعرفْهُ الناسُ مِنْ علمِ اللهِ تعالىٰ ؟! وأنْ يتَّهمَ عقلَهُ ، وينظرَ إلى الحمقىٰ كيفَ يعجبونَ بعقولِهِمْ ويضحكُ الناسُ منهُمْ ، فيحذرَ أنْ يكونَ منهُمْ وهوَ لا يدري ، فإنَّ القاصرَ في العقلِ قطُّ لا يعلمُ قصورَ عقلِهِ ؛ فينبغي أنْ يعرفَ مقدارَ عقلِهِ مِنْ غيرِهِ لا مِنْ نفسِهِ ، ومِنْ أعدائِهِ لا مِنْ أصدقائِهِ ؛ فإنَّ مَنْ يداهنُهُ يثني عليهِ فيزيدُهُ عجباً ، وهوَ لا يظنُّ بنفسِهِ إلا الخيرَ ، ولا يفطنُ لجهلِ نفسِهِ فيزدادُ بهِ عجباً .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : العجبُ بالنسبِ الشريفِ ؛ كعجبِ الهاشميةِ[(١)] ، حتَّىٰ يظنُّ بعضُهُمْ أنَّهُ ينجو بسببِ شرفِ نسبِهِ ونجاةِ آبائِهِ ، وأنَّهُ مغفورٌ لهُ ، ويتخيَّلُ بعضُهُمْ أنَّ جميعَ الخلقِ لهُ مَوَالٍ وعبيدٌ .

وعلاجُهُ : أنْ يعلمَ أنَّهُ مهما خالفَ آباءَهُ في أفعالِهِمْ وأخلاقِهِمْ ، وظنَّ أنَّهُ ملحقٌ بهِمْ . . فقدْ جهلَ ، وإنِ اقتدىٰ بآبائِهِ . . فما كانَ مِنْ أخلاقِهِمُ العجْبُ ، بلِ الخوفُ ، والإزراءُ على النفسِ ، واستعظامُ الخلقِ ، ومذمَّةُ النفسِ ، ولقدْ شَرُفوا بالطاعةِ والعلمِ والخصالِ الحميدةِ ، لا بالنسبِ ، فليشرفْ بما شرفوا بهِ ، وقدْ ساواهُمْ في النسبِ وشاركَهُمْ في القبائلِ مَنْ لمْ يؤمنْ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فكانوا عندَ اللهِ شرّاً مِنَ الكلابِ ، وأخسَّ مِنَ الخنازيرِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ أيْ : لا تفاوتَ في أنسابِكُمْ لاجتماعِكُمْ في أصلٍ واحدٍ ، ثمَّ ذكرَ فائدةَ النسبِ فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ ، ثمَّ بينَ أنَّ الشرفَ بالتقوىٰ لا بالنسبِ فقالَ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

ولمَّا قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : مَنْ أكرمُ الناسِ ؟ مَنْ أكيسُ الناسِ ؟ لمْ يقلْ : مَنْ ينتمي إلىٰ نسبي ، ولـٰكنْ قالَ : « أكثرُهُمْ للموتِ ذِكراً ، وأشدُّهُمْ لهُ استعداداً »[(٢)]

وإنما أُنزلَتْ هـٰذهِ الآيةُ حينَ أذَّنَ بلالٌ يومَ الفتحِ على الكعبةِ ، فقالَ الحارثُ بنُ هشامٍ وسهيلُ بنُ عمرٍو وخالدُ بنُ أسيدٍ : هـٰذا العبدُ الأسودُ يؤذِّنُ ؟! فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[(٣)]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ قدْ أذهبَ عنكُمْ عُبِّيَّةَ الجاهليةِ ـ أيْ : كبرَها ـ كلُّكُمْ بنو آدمَ ، وآدمُ مِنْ ترابٍ »[(٤)]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ قريشٍ ؛ لا تأتي الناسُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ وتأتونَ بالدنيا تحملونَها علىٰ رقابِكُمْ ، تقولونَ : يا محمدُ يا محمدُ ، فأقولُ هـٰكذا »[(٥)] ؛ أيْ : أعرضُ عنكمْ ، فبيَّنَ أنَّهُمْ إنْ مالوا إلى الدنيا . . لمْ ينفعْهُمْ نسبُ قريشٍ .

ولمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ . . ناداهُمْ بطناً بعدَ بطنٍ حتَّىٰ قالَ : « يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ؛

---

(١) هم بنو هاشم ، فيشمل العلويين والطالبيين والجعفريين . « إتحاف » (٨/٤١٨) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣١٣) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٦٣) ، وهو عند ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٦٢٠) عن ابن أبي مليكة بنحوه .

(٤) رواه أبو داوود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) .

(٥) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٥٧٩) .

يا صفيةُ بنتَ عبدِ المطلبِ عمَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ اعملا لأنفسِكُما ؛ فإنِّي لا أغني عنكُما مِنَ اللهِ شيئاً »(١)

فمَنْ عرفَ هٰذهِ الأمورَ ، وعلمَ أنَّ شرفَهُ بقدْرِ تقواهُ ، وقدْ كانَ مِنْ عادةِ آبائِهِ التواضعُ . . اقتدىٰ بهِمْ في التقوىٰ والتواضعِ ، وإلا . . كانَ طاعناً في نسبِ نفسِهِ بلسانِ حالِهِ مهما انتمىٰ إليهِمْ ولَمْ يشبهْهُمْ في التواضعِ والتقوىٰ والخوفِ والإشفاقِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ قولِهِ لفاطمةَ وصفيةَ : « إنِّي لا أُغني عنكُما مِنَ اللهِ شيئاً ، إلا أنَّ لكما رحماً سأبُلُّها ببَلالِها »(٢) ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أترجو سُلَيمٌ شفاعتي ولا يرجوها بنو عبدِ المطلبِ ؟! »(٣) ، فذٰلكَ يدلُّ علىٰ أنَّهُ سيخصُّ قرابتَهُ بالشفاعةِ .

فاعلمْ : أنَّ كلَّ مسلمٍ فهوَ منتظرٌ شفاعةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والنسيبُ أيضاً جديرٌ بأنْ يرجوَها ، لٰكنْ بشرطِ أنْ يتَّقيَ اللهَ أنْ يغضبَ عليهِ ؛ فإنَّهُ إنْ يغضبْ عليهِ . . فلا يأذنَ لأحدٍ في أنْ يشفعَ لهُ ؛ لأنَّ الذنوبَ منقسمةٌ إلىٰ ما يوجبُ المقتَ فلا يؤذنُ في الشفاعةِ فيهِ ، وإلىٰ ما يُعفىٰ عنهُ بسببِ الشفاعةِ ؛ كالذنوبِ عندَ ملوكِ الدنيا ، فإنَّ كلَّ ذي مكانةٍ عندَ الملكِ لا يقدرُ على الشفاعةِ فيما اشتدَّ عليهِ غضبُ الملكِ ، فمِنَ الذنوبِ ما لا تُنجي منهُ الشفاعةُ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ .

وإذا انقسمَتِ الذنوبُ إلىٰ ما يُشفَعُ فيهِ وإلىٰ ما لا يُشفَعُ فيهِ . . وجبَ الخوفُ والإشفاقُ لا محالةَ ، ولوْ كانَ كلُّ ذنبٍ تُقبلُ فيهِ الشفاعةُ . . لما أمرَ قريشاً بالطاعةِ ، ولما نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها عنِ المعصيةِ ، ولكانَ يأذنُ لها في اتباعِ الشهواتِ ؛ لتكملَ لذَّتُها في الدنيا ، ثمَّ يشفعُ لها في الآخرةِ لتكملَ لذَّتُها في الآخرةِ ، فالانهماكُ في الذنوبِ وتركُ التقوى اعتماداً علىٰ رجاءِ الشفاعةِ يضاهي انهماكَ المريضِ في شهواتِهِ اعتماداً علىٰ طبيبٍ حاذقٍ قريبٍ مشفقٍ مِنْ أبٍ أوْ أخٍ أوْ غيرِهِ ، وذٰلكَ جهلٌ ؛ لأنَّ سعيَ الطبيبِ وهِمَّتَهُ وحذقَهُ ينفعُ في إزالةِ بعضِ الأمراضِ لا في كلِّها ، فلا يجوزُ تركُ الحميةِ مطلقاً اعتماداً علىٰ مجرَّدِ الطبِّ ، بلِ للطِّبِّ أثرٌ على الجملةِ ، ولٰكنْ في الأمراضِ الخفيفةِ ، وعندَ غلبةِ اعتدالِ المزاجِ .

فهٰكذا ينبغي أنْ تُفهمَ عنايةُ الشفعاءِ مِنَ الأنبياءِ والصلحاءِ للأقاربِ والأجانبِ ، فإنَّهُ كذٰلكَ قطعاً ، وذٰلكَ لا يزيلُ الخوفَ والحذرَ ، وكيفَ يزيلُ وخيرُ الخلقِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أصحابُهُ ، وقدْ كانوا

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٦) .

(٢) تتمة الحديث السابق من رواية مسلم (٢٠٤) ولفظه : « غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها » ، قال الإمام النووي في « شرحه لمسلم » (٨٠/٣) : (والبلال : الماء ، ومعنى الحديث : سأصلها ، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة ، ومنه : « بلُّوا أرحامكم » ؛ أي : صلوها) .

(٣) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢٠٨١) ، وفي (ك) : (سلهم) بدل (سليم) ، وهي رواية أحمد في « فضائل الصحابة » (١٧٥٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤١٣/٢) ، وفي (م) : (سهم) .

يتمنَّونَ أنْ يكونوا بهائمَ مِنْ خوفِ الآخرةِ ، معَ كمالِ تقواهُمْ ، وحسنِ أعمالِهِمْ ، وصفاءِ قلوبِهِمْ ، وما سمعوهُ مِنَ وعْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيَّاهُمْ بالجنَّةِ خاصةً ، وسائرَ المسلمينَ بالشفاعةِ عامةً ، ولمْ يتَّكلوا عليهِ ، ولمْ يفارقِ الخشوعُ والخوفُ قلوبَهُمْ ؟! فكيفَ يعجبُ بنفسِهِ ويتَّكلُ على الشفاعةِ مَنْ ليسَ لهُ مثلُ صحبتِهِمْ وسابقتِهِمْ ؟!

❁ ❁ ❁

الخامسُ : العجبُ بنسبِ السلاطينِ الظلمةِ وأعوانِهِمْ ، دونَ نسبِ الدينِ والعلمِ ، وهذا غايةُ الجهلِ .

وعلاجُهُ : أنْ يتفكَّرَ في مخازيهِمْ ، وما جرىٰ لهُمْ مِنَ الظلمِ علىٰ عبادِ اللهِ ، والفسادِ في دينِ اللهِ ؛ فإنَّهُمْ ممقوتونَ عندَ اللهِ تعالىٰ .

ولوْ نظرَ إلىٰ صورِهِمْ في النارِ وأنتانِهِمْ وأقذارِهِمْ . . لاستنكفَ عنهُمْ ، ولتبرَّأَ مِنَ الانتسابِ إليهِمْ ، ولأنكرَ علىٰ مَنْ نَسبَهُ إليهِم ؛ استحقاراً لهُمْ واستقذاراً .

ولوِ انكشفَ لهُ ذلُّهُمْ في القيامةِ ، وقدْ تعلَّقَ الخصماءُ بهِمْ ، والملائكةُ آخذونَ بنواصيهِمْ ، يجرونَهُمْ علىٰ وجوهِهِمْ إلىٰ جهنَّمَ في مظالمِ العبادِ . . لتبرَّأَ إلى اللهِ منهُمْ ، ولكانَ انتسابُهُ إلى الكلبِ والخنزيرِ أحبَّ إليهِ مِنَ الانتسابِ إليهِمْ ، فحقُّ أولادِ الظلمةِ إنْ عصمَهُمُ اللهُ تعالىٰ مِنْ ظلمِهِمْ أنْ يشكروا اللهَ تعالىٰ علىٰ سلامةِ دينِهِمْ ، ويستغفروا لآبائِهِمْ إنْ كانوا مسلمينَ ، فأمَّا العجبُ بنسبِهِمْ . . فجهلٌ محضٌ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : العجبُ بكثرةِ العددِ مِنَ الأولادِ والخدمِ والغلمانِ والعشيرةِ والأقاربِ والأنصارِ والأتباعِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنِ الكفَّارِ : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ ، وكما قالَ المؤمنونَ يومَ حنينٍ : (لا نُغلبُ اليومَ مِنْ قلةٍ)(١)

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الكبْرِ ، وهوَ أنْ يتفكَّرَ في ضعفِهِ وضعفِهِمْ ، وأنَّ كلَّهُمْ عبيدٌ عجزَةٌ ، لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضرّاً ولا نفعاً ، وكمْ مِنْ فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ .

ثمَّ كيفَ يعجبُ بهِمْ وإنَّهُمْ سيفترقونَ عنهُ إذا ماتَ ، فيُدفنُ في قبرِهِ ذليلاً مَهيناً وحدَهُ ، لا يرافقُهُ ولدٌ ، ولا أهلٌ ، ولا قريبٌ ولا حميمٌ ولا عشيرٌ ، فيسلمونَهُ إلى البِلىٰ والحياتِ والعقاربِ والديدانِ ، ولا يغنونَ عنهُ شيئاً وهوَ في أحوجِ أوقاتِهِ إليهِمْ ، وكذلكَ يهربونَ منهُ يومَ القيامةِ : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ . . . ﴾ الآيةَ ، فأيُّ خيرٍ فيمَنْ يفارقُكَ في أشدِّ أحوالِكَ ويهربُ منكَ ؟! وكيفَ تعجبُ بهِ ولا ينفعُكَ في القبرِ والقيامةِ وعلى الصراطِ إلا عملُكَ وفضلُ اللهِ تعالىٰ ؟! فكيفَ تتَّكلُ علىٰ مَنْ لا ينفعُكَ وتنسىٰ نِعَمَ مَنْ يملكُ ضرَّكَ ونفعَكَ ، وموتَكَ وحياتَكَ ؟!

❁ ❁ ❁

السابعُ : العجبُ بالمالِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ صاحبِ الجنَّتينِ إذْ قالَ : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٦/١٠/١٢٨) عن السدي .

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً غنيّاً جلسَ بجنبِهِ فقيرٌ فانقبضَ عنهُ وجمعَ ثيابَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخشيتَ أنْ يعدوَ إليكَ فقرُهُ ؟! »[١] ، وذٰلكَ للعجبِ بالغنىٰ .

وعلاجُهُ : أنْ يتفكَّرَ في آفاتِ المالِ ، وكثرةِ حقوقِهِ ، وعظمِ غوائلِهِ ، وينظرَ إلىٰ فضيلةِ الفقراءِ ، وسبقِهِمْ إلى الجنةِ في القيامةِ ، وإلىٰ أنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ ، ولا أصلَ لهُ ، وإلىٰ أنَّ في اليهودِ مَنْ يزيدُ عليهِ في المالِ ، وإلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَما رجلٌ يتبختَرُ في حُلَّةٍ لهُ قدْ أعجبَتْهُ نفسُهُ . . إذْ أمرَ اللهُ الأرضَ فأخذَتْهُ ، فهوَ يتجَلْجَلُ فيها إلىٰ يومِ القيامةِ »[٢] ، أشارَ بهِ إلىٰ عقوبةِ إعجابِهِ بمالِهِ ونفسِهِ .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : كنتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدخلَ المسجدَ فقالَ لي : « يا أبا ذرٍّ ؛ ارفعْ رأسَكَ » ، فرفعتُ رأسي ، فإذا رجلٌ عليهِ ثيابٌ جيادٌ ، ثمَّ قالَ : « ارفعْ رأسَكَ » ، فرفعتُ رأسي ، فإذا رجلٌ عليهِ خُلْقانٌ ، فقالَ لي : « يا أبا ذرٍّ ؛ هٰذا عندَ اللهِ خيرٌ مِنْ قُرابِ الأرضِ مثلِ هٰذا »[٣]

وجميعُ ما ذكرناهُ في كتابِ الزهدِ ، وكتابِ ذمِّ الدنيا ، وكتابِ ذمِّ المالِ . . يبيّنُ حقارةَ الأغنياءِ وشرفَ الفقراءِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ يُتصوَّرُ مِنَ المؤمنِ أنْ يعجبَ بثروتِهِ ؟ بلْ لا يخلو المؤمنُ عنِ الخوفِ مِنْ تقصيرِهِ في القيامِ بحقوقِ المالِ ، في أخذِهِ مِنْ حِلِّهِ ، ووضعِهِ في حقِّهِ ، ومَنْ لا يفعلْ ذٰلكَ . . فمصيرُهُ إلى الخزيِ والبوارِ ، فكيفَ يعجبُ بمالِهِ ؟!

❁ ❁ ❁

الثامنُ : العجبُ بالرأيِ الخطأِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وقدْ أخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ ذٰلكَ يغلبُ علىٰ آخرِ هٰذهِ الأمةِ[٤] ، وبذٰلكَ هلكَتِ الأممُ السالفةُ ؛ إذِ افترقَتْ فرقاً ، فكلٌّ معجبٌ برأيِهِ ، وكلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فرحونَ ، وجميعُ أهلِ البدعِ والضلالِ إنَّما أصرُّوا عليها لعجبِهِمْ بآرائِهِمْ ، والعجبُ بالبدعةِ هوَ استحسانُ ما يسوقُ إليهِ الهوىٰ والشهوةُ معَ ظنِّ كونِهِ حقّاً .

وعلاجُ هٰذا العجبِ أشدُّ مِنْ علاجِ غيرِهِ ؛ لأنَّ صاحبَ الرأيِ الخطأِ جاهلٌ بخطئِهِ ، ولوْ عرفَهُ . . لتركَهُ ، ولا يُعالجُ الداءُ الذي لا يُعرفُ ، والجهلُ داءٌ لا يُعرفُ ، فتعسَّرَ مداواتُهُ جدّاً ، إلا أنَّ العارفَ يقدرُ علىٰ أنْ يبيّنَ للجاهلِ جهلَهُ ، ويزيلَهُ عنهُ ، إلا إذا كانَ معجباً برأيِهِ وجهلِهِ ؛ فإنَّهُ لا يُصغي إلى العارفِ ويتَّهِمُهُ ، فقدْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ بليَّةً تهلكُهُ ، وهوَ يظنُّها نعمةً ، فكيفَ يمكنُ علاجُهُ ؟

وكيفَ يطلبُ الهربَ ممَّا هوَ سببُ سعادتِهِ في اعتقادِهِ ؟

وإنَّما علاجُهُ على الجملةِ : أنْ يكونَ متَّهِماً لرأيِهِ أبداً ، لا يغترُّ بهِ إلا أنْ يشهدَ لهُ قاطعٌ مِنْ كتابٍ ، أوْ سنَّةٍ ، أوْ دليلٍ عقليٍّ صحيحٍ جامعٍ لشروطِ الأدلَّةِ ، ولنْ يعرفَ الإنسانُ أدلةَ الشرعِ والعقلِ وشروطَها ومكامنَ الغلطِ فيها إلا بقريحةٍ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٢٠٧) .

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٧٠) ، ورواه بألفاظ مقاربة أحمد في « المسند » (١٥٧/٥) .

(٤) تقدم ، ولفظه : « إذا رأيت شحّاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه . . فعليك بخاصة نفسك » .

تامَّةٍ ، وعقلٍ ثاقبٍ ، وجدٍّ وتشميرٍ في الطلبِ ، وممارسةٍ للكتابِ والسنةِ ، ومجالسةٍ لأهلِ العلمِ طولَ العمرِ ، ومدارسةٍ للعلومِ ، ومعَ ذٰلكَ فلا يُؤمنُ عليهِ الغلطُ في بعضِ الأمورِ .

والصوابُ لمَنْ لمْ يتفرَّغْ لاستغراقِ عمرِهِ في العلمِ : ألَّا يخوضَ في المذاهبِ ، ولا يصغيَ إليها ولا يسمعَها ، ولٰكنْ يعتقدُ أنَّ اللهَ تعالىٰ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، وأنَّهُ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ وهوَ السميعُ البصيرُ ، وأنَّ رسولَهُ صادقٌ فيما أخبرَ بهِ ، ويتبعُ سنةَ السلفِ ، ويؤمنُ بجملةِ ما جاءَ بهِ الكتابُ والسنةُ مِنْ غيرِ بحثٍ وتنقيرٍ وسؤالٍ عنْ تفصيلٍ ، بلْ يقولُ : آمنَّا وصدَّقنا ، ويشتغلُ بالتقوىٰ ، واجتنابِ المعاصي ، وأداءِ الطاعاتِ ، والشفقةِ على المسلمينَ ، وسائرِ الأعمالِ ، فإنْ خاضَ في المذاهبِ والبدعِ والتعصبِ في العقائدِ . . هلكَ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، هٰذا حقُّ كلِّ مَنْ عزمَ علىٰ أنْ يشتغلَ في عمرِهِ بشيءٍ غيرِ العلمِ .

فأمَّا الذي عزمَ على التجرُّدِ للعلمِ . . فأوَّلُ مهمٍّ لهُ معرفةُ الدليلِ وشروطِهِ ، وذٰلكَ ممَّا يطولُ الأمرُ فيهِ ، والوصولُ إلى اليقينِ والمعرفةِ في أكثرِ المطالبِ شديدٌ ، لا يقدرُ عليهِ إلا الأقوياءُ المؤيدونَ بنورِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ عزيزُ الوجودِ جدّاً ، فنسألُ اللهَ تعالى العصمةَ مِنَ الضلالِ ، ونعوذُ بهِ مِنَ الاغترارِ بخيالاتِ الجهَّالِ .



تمّ كتاب ذمّ الكبر والعجب

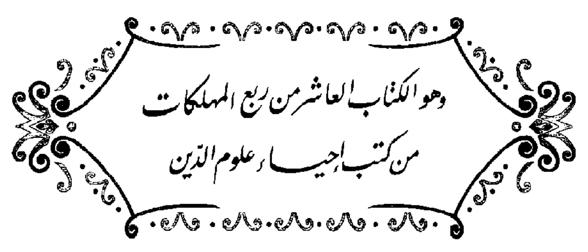
وهو الكتاب التّاسع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

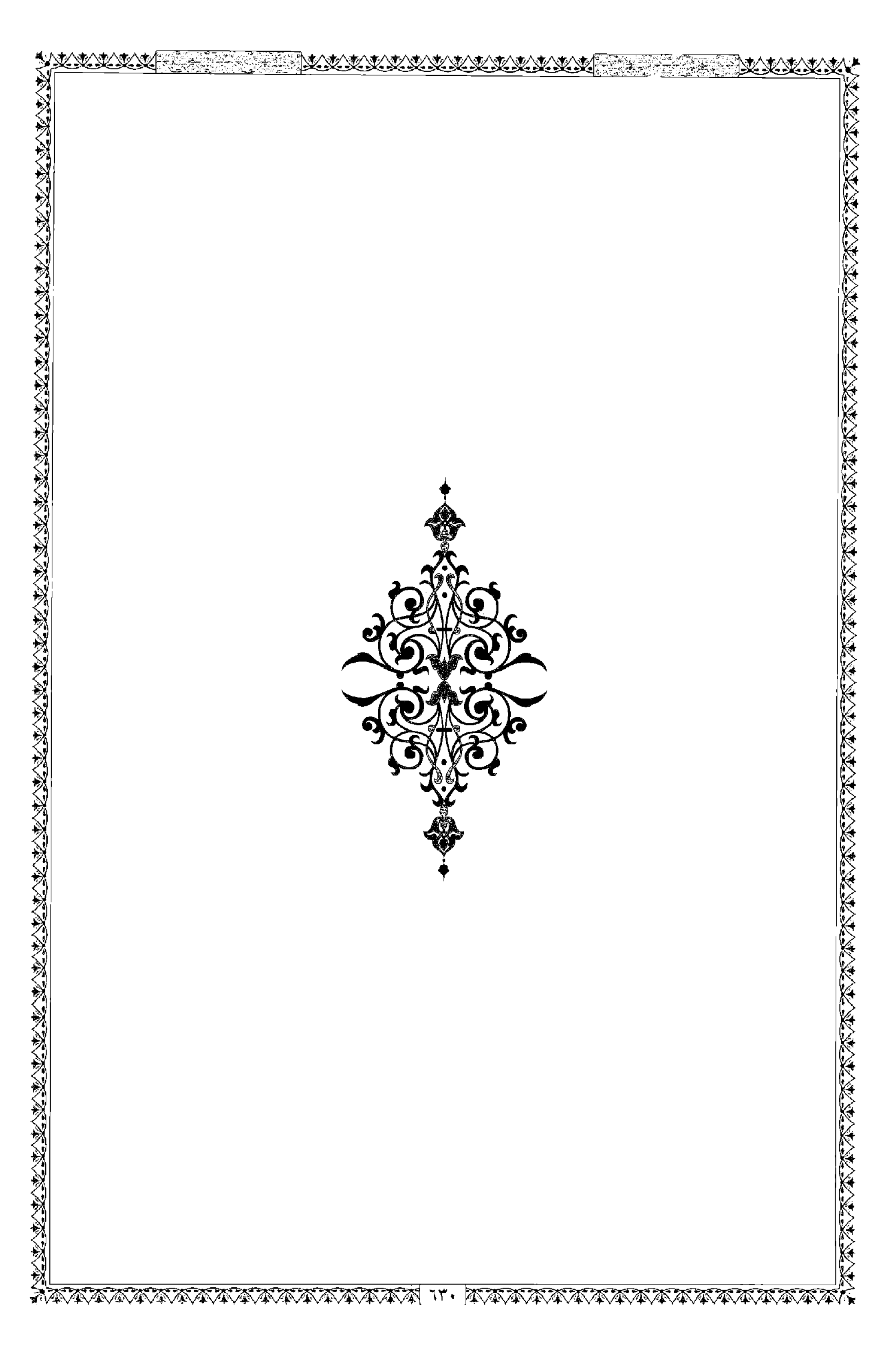
وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ العربيّ المصطفى وعلى آله وصحبه وسلّم

يتلوه كتاب ذمّ الغرور

كتاب

ذم الغرور





كتاب ذمّ الغـرور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي بيدِهِ مقاليدُ الأمورِ ، وبقدرتِهِ مفاتيحُ الخيراتِ والشرورِ ، مخرجِ أوليائِهِ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ ، ومورِدِ أعدائِهِ وَرَطاتِ الغرورِ .

والصلاةُ على محمدٍ مخرجِ الخلائقِ مِنَ الديجورِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ لمْ تغرُّهُمُ الحياةُ الدنيا ولمْ يغرُّهُمْ باللهِ الغَرورُ ، صلاةً تتوالىٰ علىٰ ممرِّ الدهورِ ، ومكرِّ الساعاتِ والشهورِ .

أمّا بعـد :

فمفتاحُ السعادةِ التيقُّظُ والفطنةُ ، ومنبعُ الشقاوةِ الغرورُ والغفلةُ ، فلا نعمةَ للهِ علىٰ عبادِهِ أعظمُ مِنَ الإيمانِ والمعرفةِ ، ولا وسيلةَ إليهِ سوى انشراحِ الصدرِ بنورِ البصيرةِ ، ولا نقمةَ أعظمُ مِنَ الكفرِ والمعصيةِ ، ولا داعيَ إليهما سوىٰ عمى القلبِ بظلمةِ الجهالةِ ، فالأكياسُ وأربابُ البصائرِ قلوبُهُمْ ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ ، والمغترونَ قلوبُهُمْ ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

فالأكياسُ همُ الذينَ أرادَ اللهُ أنْ يهديَهُمْ ، فشرحَ صدورَهُمْ للإسلامِ والهدىٰ ، والمغترُّونَ هُمُ الذينَ أرادَ اللهُ أنْ يضلَّهُمْ ، فجعلَ صدرَهُمْ ضيّقاً حرجاً كأنَّما يصَّعَّدُ في السماءِ ، والمغرورُ هوَ الذي لمْ تنفتحْ بصيرتُهُ ليكونَ بهدايةِ نفسِهِ كفيلاً ، وبقيَ في العمىٰ فاتخذَ الهوىٰ قائداً والشيطانَ دليلاً ، ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

وإذا عُرفَ أنَّ الغرورَ هوَ أُمُّ الشقاواتِ ، ومنبعُ المهلكاتِ . . فلا بدَّ مِنْ شرحِ مداخلِهِ ومجاريهِ ، وتفصيلِ ما يكثرُ وقوعُ الغرورِ فيهِ ؛ ليحذرَهُ المريدُ بعدَ معرفتِهِ فيتقيَهُ ، فالموفَّقُ مِنَ العبادِ مَنْ عرفَ مداخلَ الآفاتِ والفسادِ فأخذَ منها حذرَهُ ، وبنىٰ على الحزمِ والبصيرةِ أمرَهُ .

ونحنُ نشرحُ أجناسَ مجاري الغرورِ ، وأصنافَ المغترّينَ مِنَ العصاةِ والعلماءِ والصالحينَ ، الذينَ اغترُّوا بمبادي الأمورِ الجميلةِ ظواهرُها ، القبيحةِ سرائرُها ، ونشيرُ إلىٰ وجهِ اغترارِهِمْ بها وغفلتِهِمْ عنها ؛ فإنَّ ذٰلكَ وإنْ كانَ أكثرَ ممَّا يُحصىٰ ، ولٰكنْ يمكنُ التنبيهُ علىٰ أمثلةٍ تُغني عنِ الاستقصا .

وفِرَقُ المغترينَ كثيرةٌ ، ولٰكنْ يجمعُهُمْ أربعةُ أصنافٍ :

الصنفُ الأولُ : مِنَ العلماءِ ، الصنفُ الثاني : مِنَ العبَّادِ ، الصنفُ الثالثُ : مِنَ المتصوِّفَةِ ، الصنفُ الرابعُ : مِنْ أربابِ الأموالِ .

والمغترُّ مِنْ كلِّ صنفٍ فرقٌ كثيرةٌ ، وجهاتُ غرورِهِمْ مختلفةٌ ؛ فمنهُمْ مَن رأى المنكرَ معروفاً ؛ كالذي يتَّخذُ المساجدَ ويزخرفُها مِنَ المالِ الحرامِ ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يميِّزْ بينَ ما يسعىٰ فيهِ لنفسِهِ وبينَ ما يسعىٰ فيهِ للهِ تعالىٰ ؛ كالواعظِ الذي غرضُهُ القبولُ والجاهُ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ الأهمَّ ويشتغلُ بغيرِهِ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ الفرضَ ويشتغلُ بالنافلةِ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ اللُّبابَ ويشتغلُ بالقشرِ ؛ كالذي يكونُ همُّهُ في الصلاةِ مقصوراً علىٰ تصحيحِ مخارجِ الحروفِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ مداخلَ لا تتضحُ إلا بتفصيلِ الفِرَقِ وضربِ الأمثلةِ .

ولنبدأْ أوَّلاً بذكرِ غرورِ العلماءِ ، ولٰكنْ بعدَ بيانِ ذمِّ الغرورِ ، وبيانِ حقيقتِهِ وحدِّهِ .

* * *

بيان ذمّ الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلمْ : أنَّ قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ . . . ﴾ الآيةَ . . كافٍ في ذمِّ الغرورِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبَّذا نومُ الأكياسِ وفطرُهُمْ ، كيفَ يغبنونَ سهرَ الحمقىٰ واجتهادَهُمْ ولمثقالُ ذرَّةٍ مِنْ صاحبِ تقوىٰ ويقينٍ أفضلُ مِنْ ملءِ الأرضِ مِنَ المغترِّينَ ؟! »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ علىٰ اللهِ »[2]

وكلُّ ما وردَ في فضلِ العلمِ وذمِّ الجهلِ . . فهوَ دليلٌ علىٰ ذمِّ الغرورِ ؛ لأنَّ الغرورَ عبارةٌ عنْ بعضِ أنواعِ الجهلِ ؛ إذِ الجهلُ هوَ أنْ يعتقدَ الشيءَ ويراهُ علىٰ خلافِ ما هوَ بهِ ، والغرورُ هوَ جهلٌ ، إلا أنَّ كلَّ جهلٍ ليسَ بغرورٍ ، بلْ يستدعي الغرورُ مغروراً فيهِ مخصوصاً ، ومغروراً بهِ وهوَ الذي يغرُّهُ ، فمهما كانَ المجهولُ المعتقَدُ شيئاً يوافقُ الهوىٰ ، وكانَ السببُ الموجبُ للجهلِ شبهةً ومَخِيلةً فاسدةً يظنُّ أنَّها دليلٌ ولا تكونُ دليلاً . . سُميَ الجهلُ الحاصلُ بهِ غروراً .

فالغرورُ : هوُ سكونُ النفسِ إلىٰ ما يوافقُ الهوىٰ ويميلُ إليهِ الطبعُ عنْ شبهةٍ وخدعةٍ مِنَ الشيطانِ ؛ فمَنِ اعتقدَ أنَّهُ علىٰ خيرٍ إمَّا في العاجلِ أوْ في الآجلِ عنْ شبهةٍ فاسدةٍ . . فهوَ مغرورٌ ، وأكثرُ الناسِ يظنُّونَ بأنفسِهِمُ الخيرَ وهمْ مخطئونَ فيهِ ، فأكثرُ الناسِ إذاً مغرورونَ وإنِ اختلفَتْ أصنافُ غرورِهِمْ واختلفَتْ درجاتُهُمْ ، حتَّىٰ كانَ غرورُ بعضِهِمْ أظهرَ وأشدَّ مِنْ بعضٍ ، وأظهرُها وأشدُّها غروران ؛ غرورُ الكفارِ ، وغرورُ العصاةِ والفسَّاقِ ، فلنوردْ أمثلةً لحقيقةِ الغرورِ :

المثالُ الأولُ : غرورُ الكفارِ :

فمنهُمْ مَنْ غرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا ، ومنهُمْ مَنْ غرَّهُ باللهِ الغَرورُ .

أمَّا الذينَ غرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا . . فهمُ الذينَ قالوا : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، والدنيا نقدٌ والآخرةُ نسيئةٌ ، فإذاً هيَ خيرٌ ، فلا بدَّ مِنْ إيثارِها ، وقالوا : اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ ، ولذَّاتُ الدنيا يقينٌ ، ولذَّاتُ الآخرةِ شكٌّ ؛ فلا نتركُ اليقينَ بالشكِّ .

وهٰذهِ أقيسةٌ فاسدةٌ ؛ تشبهُ قياسَ إبليسَ حيثُ قالَ : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ ، وإلىٰ هٰؤلاءِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وعلاجُ هٰذا الغرورِ : إمَّا بتصديقِ الإيمانِ ، وإمَّا بالبرهانِ .

أمَّا التصديقُ بمجرَّدِ الإيمانِ . . فهوَ أنْ يصدِّقَ اللهَ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ ، وفي قولِهِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١١/١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه ، قال الحافظ العراقي : (ولم أجده مرفوعاً) . « إتحاف » (٤٢٨/٨) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلّام في « غريب الحديث » (١٣٤/٣) ، دان نفسه : جعلها منقادة مطيعة لربها تعالىٰ ، وتمنّىٰ على الله : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات . . لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنىٰ على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإتحاف » (٤٤/٧) .

عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وقدْ أخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذٰلكَ طوائفَ مِنَ الكفارِ ، فقلَّدوهُ وصدَّقوهُ وآمنوا بهِ ، ولمْ يطالبوهُ بالبرهانِ[١] ، ومنهُمْ مَنْ قالَ : نشدتُكَ اللهَ ؛ أبعثَكَ اللهُ رسولاً ؟ فكانَ يقولُ : « نعمْ »[٢] ، فيصدِّقُ ، وهٰذا إيمانُ العامَّةِ ، وهوَ مخرجٌ مِنَ الغرورِ ، ويُنزَّلُ هٰذا منزلةَ تصديقِ الصبيِّ والدَهُ في أنَّ حضورَ المكتبِ خيرٌ مِنْ حضورِ الملعبِ ، معَ أنَّهُ لا يدري وجهَ كونِهِ خيراً .

وأمَّا المعرفةُ بالبيانِ والبرهانِ . . فهوَ أنْ يعرفَ وجهَ فسادِ هٰذا القياسِ الذي نظمَهُ في قلبِهِ الشيطانُ ، فإنَّ كلَّ مغرورٍ فلغرورِهِ سببٌ ، وذٰلكَ السببُ هوَ دليلٌ ، وكلُّ دليلٍ فهوَ نوعُ قياسٍ يقعُ في النفسِ ، ويورثُ السكونَ إليهِ وإنْ كانَ صاحبُهُ لا يشعرُ بهِ ولا يقدرُ علىٰ نظمِهِ بألفاظِ العلماءِ ، فالقياسُ الذي نظمَهُ الشيطانُ فيهِ أصلانِ : أحدُهُما : أنَّ الدنيا نقدٌ والآخرةَ نسيئةٌ ، وهٰذا صحيحٌ ، والآخرُ : قولُهُ : إنَّ النقدَ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، وهٰذا محلُّ التلبيسِ ؛ فليسَ الأمرُ كذٰلكَ ، بلْ إنْ كانَ النقدُ مثلَ النسيئةِ في المقدارِ والمقصودِ . . فهوَ خيرٌ ، وإنْ كانَ أقلَّ منهُ . . فالنسيئةُ خيرٌ ، فإنَّ هٰذا الكافرَ المغرورَ يبذلُ في تجارتِهِ درهماً ليأخذَ عشرةً نسيئةً ولا يقولُ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ فلا أتركُهُ ، وإذا حذَّرَهُ الطبيبُ الفواكهَ ولذائذَ الأطعمةِ . . تركَ ذٰلكَ في الحالِ ؛ خوفاً مِنْ ألمِ المرضِ في المستقبلِ ، فقدْ تركَ النقدَ ورضيَ بالنسيئةِ ، والتجارُ كلُّهُمْ يركبونَ البحارَ ويتعبونَ في الأسفارِ نقداً لأجلِ الراحةِ والربحِ نسيئةً ، فإنْ كانَ عشرةٌ في ثاني الحالِ خيراً مِنْ واحدٍ في الحالِ . . فانسبْ لذَّةَ الدنيا مِنْ حيثُ مدَّتُها إلىٰ مدَّةِ الآخرةِ ؛ فإنَّ أقصىٰ عمرِ الإنسانِ مئةُ سنةٍ ، وليسَ هوَ عُشرَ عَشيرٍ مِنْ جزءٍ مِنْ ألفِ ألفِ جزءٍ مِنَ الآخرةِ ، فكأنَّهُ قدْ تركَ واحداً ليأخذَ ألفَ ألفٍ ، بلْ ليأخذَ ما لا نهايةَ لهُ ولا حدَّ ، وإنْ نظرَ مِنْ حيثُ النوعُ . . رأىٰ لذَّاتِ الدنيا مكدَّرةً مشوبةً بأنواعِ المنغِّصاتِ ، ولذاتِ الآخرةِ صافيةً غيرَ مكدَّرةٍ .

فإذاً ؛ قدْ غلطَ في قولِهِ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، وهٰذا غرورٌ منشؤُهُ قبولُ لفظٍ عامٍّ مشهورٍ أُطلقَ وأُريدَ بهِ خاصٌّ ، فغفلَ المغرورُ عنْ خصوصِ معناهُ ، فإنَّ مَنْ قالَ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ . . أرادَ بهِ خيراً مِنْ نسيئةٍ هيَ مثلُهُ وإنْ لم يصرِّح بهِ .

وعندَ هٰذا يفزعُ الشيطانُ إلى القياسِ الآخرِ ، وهوَ قولُهُ : اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ ، والآخرةُ شكٌّ ، وهٰذا القياسُ أكثرُ فساداً مِنَ الأولِ ؛ لأنَّ كِلا أصليهِ باطلٌ ؛ إذِ اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ إذا كانَ مثلَهُ ، وإلا . . فالتاجرُ في تعبِهِ علىٰ يقينٍ وفي ربحِهِ علىٰ شكٍّ ، والمتفقِّهُ في اجتهادِهِ علىٰ يقينٍ وفي إدراكِهِ رتبةَ العلمِ علىٰ شكٍّ ، والصيَّادُ في تردُّدِهِ في المقتنصِ علىٰ يقينٍ وفي الظَّفَرِ بالصيدِ علىٰ شكٍّ ، وكذا الحزمُ دأبُ العقلاءِ بالاتفاقِ ، وكلُّ ذٰلكَ تركٌ لليقينِ بالشكِّ ، ولٰكنَّ التاجرَ يقولُ : إنْ لمْ أتَّجرْ . . بقيتُ جائعاً وعَظُمَ ضرري ، وإنِ اتَّجرتُ . . كانَ تعبي قليلاً وربحي كثيراً ، وكذٰلكَ المريضُ يشربُ الدواءَ البشعَ الكريهَ وهوَ مِنَ الشفاءِ علىٰ شكٍّ ومِنْ مرارةِ الدواءِ علىٰ يقينٍ ، ولٰكنْ يقولُ : ضررُ مرارةِ الدواءِ قريبٌ بالإضافةِ إلىٰ ما أخافُهُ مِنَ المرضِ والموتِ ؛ فكذٰلكَ مَنْ شكَّ في الآخرةِ فواجبٌ عليهِ بحكمِ الحزمِ أنْ يقولَ : الصبرُ

---

(١) كإيمان كثير من الأنصار ، وقد روىٰ أحمد في « المسند » (٣/٣٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه يحكي خبرهم : (فيخرج الرجل منّا فيؤمن به ، ويقرئه القرآن ، فينقلب إلىٰ أهله فيسلمون بإسلامه . . .) .

(٢) وكان ذٰلك في قصة إيمان ضِمَام بن ثعلبة رضي الله عنه ، وهي عند البخاري (٦٣) .

أياماً قلائلَ وهوَ منتهى العمرِ قريبٌ بالإضافةِ إلىٰ ما يُقالُ مِنْ أمرِ الآخرةِ ، فإنْ كانَ ما قيلَ فيهِ كذباً . . فما يفوتُني إلا التنعُّمُ أيامَ حياتي ، وقدْ كنتُ في العدمِ مِنَ الأزلِ إلى الآنَ لا أتنعَّمُ ، فأحسِبُ أنِّي بقيتُ في العدمِ ، وإنْ كانَ ما قيلَ صدقاً . . فأبقىٰ في النارِ أبدَ الآبادِ ، وهـٰذا لا يُطاقُ .

ولذٰلكَ قالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ لبعضِ الملحدينَ : (إنْ كانَ ما قلتَهُ حقّاً . . فقدْ تخلَّصتَ وتخلَّصنا ، وإنْ كانَ ما قلناهُ حقّاً . . فقدْ تخلَّصنا وهلكتَ)[1] ، وما قالَ هـٰذا عن شكٍّ منهُ في الآخرةِ ، ولـٰكنْ كلَّمَ الملحدَ علىٰ قدْرِ عقلِهِ ، وبيَّنَ لهُ أنَّهُ وإنْ لمْ يكنْ متيقناً . . فهوَ مغرورٌ .

وأمَّا الأصلُ الثاني مِنْ كلامِهِ وهوَ أنَّ الآخرةَ شكٌّ . . فهوَ أيضاً خطأٌ ، بلْ ذٰلكَ يقينٌ عندَ المؤمنينَ ، وليقينِهِ مدركانِ :

أحدُهُمَا : الإيمانُ والتصديقُ ؛ تقليداً للأنبياءِ والعلماءِ ، وذٰلكَ أيضاً يزيلُ الغرورَ ، وهوَ مدركُ يقينِ العوامّ وأكثرِ الخواصّ ، ومثالُهُمْ مثالُ مريضٍ لا يُعرَفُ دواءُ علَّتِهِ ، وقدِ اتفقَ الأطباءُ وأهلُ الصناعةِ مِنْ عندِ آخرِهِمْ علىٰ أنَّ دواءَهُ النبتُ الفلانيُّ ؛ فإنَّهُ تطمئنُّ نفسُ المريضِ إلىٰ تصديقِهِمْ ، ولا يطالبُهُمْ بتصحيحِ ذٰلكَ بالبراهينِ الطبِّيَّةِ ، بلْ يثقُ بقولِهِمْ ويعملُ بهِ ، ولوْ بقيَ سواديٌّ أوْ معتوهٌ يكذِّبُهُمْ في ذٰلكَ وهوَ يعلمُ بالتواترِ وقرائنِ الأحوالِ أنَّهُمْ أكثرُ منهُ عدداً ، وأغزرُ منهُ فضلاً ، وأعلمُ بالطبِّ منهُ ، بلْ لا علمَ لهُ بالطبِّ . . فيعلمُ كذبَهُ بقولِهِمْ ، ولا يعتقدُ كذبَهُمْ بقولِهِ ، ولا يفتُر في عملِهِ بسببِهِ[2] ، ولوِ اعتمدَ قولَهُ وتركَ قولَ الأطباءِ . . كانَ معتوهاً مغروراً .

فكذٰلكَ مَنْ نظرَ إلى المقرِّينَ بالآخرةِ والمخبرينَ عنها ، والقائلينَ بأنَّ التقوىٰ هوَ الدواءُ النافعُ في الوصولِ إلىٰ سعادتِها . . وجدَهُمْ خيرَ خلقِ اللهِ ، وأعلاهُمْ رتبةً في البصيرةِ والمعرفةِ والعقلِ ، وهمُ الأنبياءُ والأولياءُ والحكماءُ والعلماءُ ، واتَّبعَهُمْ عليهِ الخلقُ علىٰ أصنافِهِمْ ، وشذَّ منهُمْ آحادٌ مِنَ البطَّالينَ غلبَتْ عليهِمُ الشهوةُ ، ومالَتْ نفوسُهُمْ إلى التمتُّعِ ، فعظُمَ عليهِمْ تركُ الشهواتِ ، وعظُمَ عليهِمُ الاعترافُ بأنَّهُمْ مِنْ أهلِ النارِ ، فجحدوا الآخرةَ وكذَّبوا الأنبياءَ ، فكما أنَّ قولَ الصبيّ وقولَ السواديّ لا يزيلُ طمأنينةَ القلبِ إلىٰ ما اتفقَ عليهِ الأطباءُ . . فكذٰلكَ قولُ هـٰذا الغبيّ الذي استرقَّتْهُ الشهواتُ لا يشكِّكُ في صحةِ أقوالِ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ .

وهـٰذا القدْرُ مِنَ الإيمانِ كافٍ لجملةِ الخلقِ ، وهوَ يقينٌ جازمٌ يستحثُّ على العملِ لا محالةَ ، والغرورُ يزولُ بهِ .

وأمَّا المدركُ الثاني لمعرفةِ الآخرةِ . . فهوَ الوحيُ والإلهامُ ، والوحيُ للأنبياءِ ، والإلهامُ للأولياءِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ معرفةَ النبيّ لأمرِ الآخرةِ ولأمورِ الدينِ تقليدٌ لجبريلَ عليهِ السلامُ بالسماعِ منهُ ؛ كما أنَّ معرفتَكَ تقليدٌ للنبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ تكونَ معرفتُكَ كمعرفتِهِ ، وإنَّما يختلفُ المقلَّدُ فقطْ ، هيهاتَ !! فإنَّ التقليدَ ليسَ بمعرفةٍ ، بلْ هوَ اعتقادٌ صحيحٌ ، والأنبياءُ عارفونَ ، ومعنىٰ معرفتِهِمْ أنَّهُ كُشِفَ لهُمْ حقيقةُ الأشياءِ كما هيَ عليها ، فشاهدوها بالبصيرةِ الباطنةِ كما تشاهدُ أنتَ المحسوساتِ بالبصرِ الظاهرِ ، فيخبرونَ عنْ مشاهدةٍ لا عنْ سماعٍ وتقليدٍ ، وذٰلكَ بأنْ يُكشفَ لهُمْ عنْ حقيقةِ الروحِ ، وأنَّهُ مِنْ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ المرادُ بكونِهِ مِنْ أمرِ اللهِ الأمرَ الذي يقابلُ النهيَ ؛ لأنَّ ذٰلكَ الأمرَ كلامٌ ، والروحُ ليسَ بكلامٍ ، وليسَ المرادُ بالأمرِ الشأنَ حتَّىٰ يكونَ المرادُ بهِ أنَّهُ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ فقطْ ، لأنَّ ذٰلكَ عامٌّ في جميعِ المخلوقاتِ ، بلِ العالَمُ عالمانِ : عالمُ الأمرِ ، وعالمُ الخلقِ ، وللهِ الخلقُ والأمرُ ، فالأجسامُ ذواتُ الكميةِ والمقاديرِ مِنْ

---

(١) أورده الشريف في « نهج البلاغة » . « إتحاف » (٨/٤٣٢) وسيأتي .

(٢) وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/٤٣٢) : (ولا يغتر في عمله) .

عالمِ الخلقِ ؛ إذِ الخلقُ عبارةٌ عنِ التقديرِ في وضعِ اللسانِ ، وكلُّ موجودٍ منزَّهٌ عنِ الكميةِ والمقدارِ فإنَّهُ مِنْ عالمِ الأمرِ ، وشرحُ ذٰلكَ سرُّ الروحِ ، ولا رخصةَ في ذكرِهِ ؛ لاستضرارِ أكثرِ الخلقِ بسماعِهِ ؛ كسرِّ القدرِ الذي منعَ مِنْ إفشائِهِ ، فمَنْ عرفَ سرَّ الروحِ . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ وربَّهُ . . عرفَ أنَّهُ أمرٌ ربانيٌّ بطبعِهِ وفطرتِهِ ، وأنَّهُ في العالمِ الجسمانيِّ غريبٌ ، وأنَّ هبوطَهُ إليهِ لمْ يكنْ بمقتضىٰ طبعِهِ في ذاتِهِ ، بلْ بأمرٍ عارضٍ غريبٍ مِنْ ذاتِهِ ، وذٰلكَ العارضُ الغريبُ وردَ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ وعُبِّرَ عنهُ بالمعصيةِ ، وهيَ التي حطَّتْهُ عنِ الجنةِ التي هيَ أليقُ بهِ بمقتضىٰ ذاتِهِ ؛ فإنَّها في جوارِ الربِّ تعالىٰ ، وأنَّهُ أمرٌ ربانيٌّ ، وحنينُهُ إلىٰ جوارِ الربِّ تعالىٰ لهُ طبعيٌّ ذاتيٌّ إلا أنْ يصرفَهُ عنْ مقتضىٰ طبعِهِ عوارضُ العالمِ الغريبِ مِنْ ذاتِهِ ، فينسىٰ عندَ ذٰلكَ نفسَهُ وربَّهُ ، ومهما فعلَ ذٰلكَ . . فقدْ ظلمَ نفسَهُ ؛ إذْ قيلَ له : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1] أي : الخارجونَ عنْ مقتضىٰ طبعِهِمْ ومَظِنَّةِ استحقاقِهِمْ ، يُقالُ : فسقَتِ الرطبةُ عنْ كِمامِها ؛ إذا خرجَتْ عنْ معدنِها الفطريِّ .

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أسرارٍ يهتزُّ لاستنشاقِ روائحِها العارفونَ ، وتشمئزُّ مِنْ سماعِ ألفاظِها القاصرونَ ، فإنَّها تضرُّ بهِمْ كما تضرُّ رياحُ الوردِ بالجُعَلِ ، وتبهرُ أعينَهُمُ الضعيفةَ كما تبهرُ الشمسُ أبصارَ الخفافيشِ ، وانفتاحُ هٰذا البابِ مِنْ سرِّ القلبِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ يُسمَّىٰ معرفةً وولايةً ، ويُسمَّىٰ صاحبُهُ وليّاً وعارفاً ، وهيَ مبادي مقاماتِ الأنبياءِ ، وآخرُ مقاماتِ الأولياءِ أوَّلُ مقاماتِ الأنبياءِ .

ولنرجعْ إلى الغرضِ المطلوبِ ؛ فالمقصودُ أنَّ غرورَ الشيطانِ بأنَّ الآخرةَ شكٌّ يُدفَعُ إمَّا بيقينٍ تقليديٍّ ، وإمَّا ببصيرةٍ ومشاهدةٍ مِنْ جهةِ الباطنِ ، والمؤمنونَ بألسنتِهِمْ وبعقائدِهِمْ إذا ضيَّعوا أوامرَ اللهِ تعالىٰ ، وهجروا الأعمالَ الصالحةَ ، ولابسوا الشهواتِ والمعاصيَ . . فهُمْ مشاركونَ للكفَّارِ في هٰذا الغرورِ ؛ لأنَّهُمْ آثروا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ .

نعمْ ؛ أمرُهُمْ أخفُّ ؛ لأنَّ أصلَ الإيمانِ يعصمُهُمْ عنْ عقابِ الأبدِ ، فيخرجونَ مِنَ النارِ ولوْ بعدَ حينٍ ، ولٰكنَّهُمْ أيضاً مِنَ المغرورينَ ، فإنَّهُمُ اعترفوا بأنَّ الآخرةَ خيرٌ مِنَ الدنيا ، ولٰكنَّهُمْ مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرَّدُ الإيمانِ لا يكفي للفوزِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ »[2] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ، فوعدُ المغفرةِ في جميعِ كتابِ اللهِ تعالىٰ منوطٌ بالإيمانِ والعملِ الصالحِ جميعاً ، لا بالإيمانِ وحدَهُ ، فهٰؤلاءِ أيضاً مغرورونَ ؛ أعني : المطمئنينَ إلى الدنيا ، الفرحينَ بها ، المترفينَ بنعيمِها ، المحبِّينَ لها ، الكارهينَ للموتِ خيفةَ فواتِ لذاتِ الدنيا ، دونَ الكارهينَ لهُ خيفةً لما بعدَهُ .

فهٰذا مثالُ الغرورِ بالدنيا مِنَ الكفارِ والمؤمنينَ جميعاً .

ولنذكرْ للغرورِ باللهِ تعالىٰ مثالينِ مِنْ غرورِ الكافرينَ والعاصينَ :

فأمَّا غرورُ الكفارِ باللهِ . . فمثالُهُ : قولُ بعضِهِمْ في أنفسِهِمْ وبألسنتِهِمْ : إنَّهُ إنْ كانَ للهِ مِن معادٍ . . فنحنُ أحقُّ بهِ مِنْ غيرِنا ، ونحنُ أوفرُ حظّاً فيهِ وأسعدُ حالاً ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ قولِ الرجلينِ المتحاورينِ ؛ إذْ قالَ :

---

(١) أي : تركوا معرفة الله تعالىٰ ولم يذكروه ، فجعلهم ناسين لأنفسهم فلم يعرفوها ، ففيه أن نسيان النفس من ثمرات نسيان الرب ، كما أن نسيان النفس يورث نسيان الرب ، والمطلوب : معرفتهما جميعاً ، فتضمحل النفس ويبقى الرب . « إتحاف » (٨/٤٣٤) .

(٢) رواه البخاري (٤٧٧٧) ، ومسلم (٩) .

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ ، وجملةُ أمرِهما كما نُقِلَ في التفسيرِ : أنَّ الكافرَ منهُما بنىٰ قصراً بألفِ دينارٍ ، واشترىٰ بستاناً بألفِ دينارٍ ، وخدماً بألفِ دينارٍ ، وتزوَّجَ امرأةً علىٰ ألفِ دينارٍ ، وفي ذٰلك كلِّهِ يعظُهُ المؤمنُ ويقولُ : اشتريتَ قصراً يخربُ ويفنىٰ ، ألا اشتريتَ قصراً في الجنةِ لا يفنىٰ ، واشتريتَ بستاناً يخربُ ويفنىٰ ، ألا اشتريتَ بستاناً في الجنةِ لا يفنىٰ ، وخدماً لا يفنونَ ولا يموتونَ ، وزوجةً مِنَ الحورِ العينِ لا تموتُ ، وفي كلِّ ذٰلكَ يردُّ عليهِ الكافرُ ويقولُ : ما هناكَ شيءٌ ، وما قيلَ مِنْ ذٰلكَ . . فهوَ أكاذيبُ ، وإنْ كانَ . . فليكونَنَّ لي في الآخرةِ خيرٌ مِنْ هٰذا[1]

وكذٰلكَ وصفَ اللهُ تعالىٰ قولَ العاصِ بنِ وائلٍ إذْ يقولُ : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ ردّاً عليهِ : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ ، ورُوِيَ عنْ خبابِ بنِ الأرتِّ أنَّهُ قالَ : كانَ لي على العاصِ بنِ وائلٍ دينٌ ، فجئتُ أتقاضاهُ ، فلمْ يقضني ، فقلتُ : إنِّي آخذُهُ في الآخرةِ ، فقالَ لي : إذا صرتُ إلى الآخرةِ . . فإنَّ لي هناكَ مالاً وولداً فأقضيكَ منهُ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ قولَهُ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾[2]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ .

وهٰذا كلُّهُ مِنَ الغرورِ باللهِ ، وسببُهُ قياسٌ مِنْ أقيسةِ إبليسَ ، وذٰلكَ لأنَّهُمْ ينظرونَ مرَّةً إلىٰ نعمِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ في الدنيا ، فيقيسونَ عليها نعمةَ الآخرةِ ، وينظرونَ مرَّةً إلىٰ تأخيرِ العذابِ عنهُمْ ، فيقيسونَ عليهِ عذابَ الآخرةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، ومرَّةً ينظرونَ إلى المؤمنينَ وهمْ فقراءُ شعثٌ غبرٌ ؛ فيزدرونَ بهِمْ ويستحقرونَهُمْ فيقولونَ : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ ، ويقولونَ : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ .

وترتيبُ القياسِ الذي نظمَهُ الشيطانُ في قلوبِهِمْ أنَّهُمْ يقولونَ : قدْ أحسنَ اللهُ إلينا بنعيمِ الدنيا ، وكلُّ محسنٍ فهوَ محبٌّ ، وكلُّ محبٍّ فإنَّهُ يحسنُ في المستقبلِ أيضاً ؛ كما قال الشاعرُ[3] : [من المتقارب]

لَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِيما مَضَىٰ ... كَذَٰلِكَ يُحْسِنُ فِيما بَقِي

وإنَّما يقيسُ المستقبلَ على الماضي بواسطةِ الكرامةِ والحبِّ ؛ إذْ يقولُ : لولا أنِّي كريمٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ومحبوبٌ . . لما أحسنَ إليَّ ، والتلبيسُ تحتَ ظنِّهِ أنَّ كلَّ محسنٍ محبٌّ ، لا بلْ تحتَ ظنِّهِ أنَّ إنعامَهُ عليهِ في الدنيا إحسانٌ ، فقدِ اغترَّ باللهِ تعالىٰ ؛ إذْ ظنَّ أنَّهُ كريمٌ عندَهُ بدليلٍ لا يدلُّ على الكرامةِ ، بلْ عندَ ذوي البصائرِ يدلُّ على الهوانِ .

ومثالُهُ أنْ يكونَ للرجلِ عبدانِ صغيرانِ يبغضُ أحدَهُما ويحبُّ الآخرَ ، فالذي يحبُّهُ يمنعُهُ مِنَ اللعبِ ويلزمُهُ المكتبَ ، ويحبسُهُ فيهِ ليعلِّمَهُ الأدبَ ، ويمنعُهُ مِنَ الفواكهِ وملاذِّ الأطعمةِ التي تضرُّهُ ، ويسقيهِ الأدويةَ التي تنفعُهُ ، والذي يبغضُهُ يهملُهُ ليعيشَ كيفَ يريدُ ، فيلعبُ ، ولا يدخلُ المكتبَ ، ويأكلُ كلَّ ما يشتهي ، فيظنُّ هٰذا الصبيُّ المهملُ أنَّهُ عندَ سيِّدِهِ محبوبٌ كريمٌ ؛ لأنَّهُ مكَّنَهُ مِنْ شهواتِهِ ولذاتِهِ ، وساعدَهُ علىٰ جميعِ أغراضِهِ ، فلمْ يمنعْهُ ولم يحجُرْ عليهِ ،

---

(١) انظر « تفسير البغوي » (٣/١٦١) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٩١) ، ومسلم (٢٧٩٥) .

(٣) البيت مما نسب إلىٰ سيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٨٢) ، ولشهاب الدين التلعفري في « ديوانه » (ص ٥٨٨) ، ولمنصور بن إسماعيل الفقيه . انظر « زهر الآداب » (٢/٨٢٧) .

وذٰلكَ محضُ الغرورِ ، وهٰكذا نعيمُ الدنيا ولذاتُها ؛ فإنَّها مهلكاتٌ ومبعداتٌ مِنَ اللهِ ، وإنَّ اللهَ يحمي عبدَهُ الدنيا وهوَ يحبُّهُ كما يحمي أحدُكُمْ مريضَهُ مِنَ الطعامِ والشرابِ وهوَ يحبُّهُ ، هٰكذا وردَ في الخبرِ عنْ سيِّدِ البشرِ (١)

وكانَ أربابُ البصائرِ إذا أقبلَتْ عليهِمُ الدنيا . . حزنوا وقالوا : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ ، ورأَوا ذٰلكَ أمارةَ المقتِ والإهمالِ ، وإذا أقبلَ عليهِمُ الفقرُ . . قالوا : مرحباً بشعارِ الصالحينَ (٢)

والمغرورُ إذا أقبلَتْ عليهِ الدنيا . . ظنَّ أنَّها كرامةٌ مِنَ اللهِ ، وإذا صُرِفَتْ عنهُ . . ظنَّ أنَّهُ هوانٌ ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ إذْ قالَ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۞ كَلَّا ﴾ أيْ : ليسَ كما قالَ ، إنَّما هوَ ابتلاءٌ ، نعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ البلاءِ ، ونسألُ اللهَ التثبيتَ ، فبيَّنَ أنَّ ذٰلكَ غرورٌ ، قالَ الحسنُ : كذَّبَهُما جميعاً بقولِهِ : ﴿ كَلَّا ﴾ يقولُ : ليسَ هٰذا بكرامتي ، ولا هٰذا بهواني ، ولٰكنَّ الكريمَ مَنْ أكرمتُهُ بطاعتي ، غنياً كانَ أوْ فقيراً ، والمهانُ مَنْ أهنتُهُ بمعصيتي ، غنياً كانَ أو فقيراً (٣)

وهٰذا الغرورُ علاجُهُ : معرفةُ دلائلِ الكرامةِ والهوانِ ، إمَّا بالبصيرةِ وإمَّا بالتقليدِ .

أمَّا البصيرةُ . . فبأنْ يعرفَ وجهَ كونِ الالتفاتِ إلىٰ شهواتِ الدنيا مبعداً عنِ اللهِ ، ووجْهَ كونِ التباعدِ عنها مقرباً إلى اللهِ ، ويُدرَكُ ذٰلكَ بالإلهامِ في منازلِ العارفينَ والأولياءِ ، وشرحُهُ مِنْ جملةِ علومِ المكاشفةِ ، ولا يليقُ بعلمِ المعاملةِ .

وأمَّا معرفتُهُ بطريقِ التقليدِ والتصديقِ . . فهوَ أنْ يؤمنَ بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، ويصدِّقَ رسولَهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ .

وفي تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : أنَّهُمْ كلَّما أحدثوا ذنباً . . أحدثنا لهُمْ نعمةً (٤) ؛ ليزيدَ غرورُهُمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا وردَ في كتابِ اللهِ سبحانَهُ وسنةِ رسولِهِ ، فمَنْ آمنَ بهِ . . تخلَّصَ مِنْ هٰذا الغرورِ ؛ فإنَّ منشأَ هٰذا الغرورِ الجهلُ باللهِ وبصفاتِهِ ، فإنَّ مَنْ عرفَهُ سبحانَهُ . . لا يأمنُ مكرَهُ ، ولا يغترُّ بأمثالِ هٰذهِ الخيالاتِ الفاسدةِ ، وينظرُ إلىٰ فرعونَ وهامانَ وقارونَ وإلىٰ ملوكِ الأرضِ وما جرىٰ لهُمْ كيفَ أحسنَ اللهُ إليهِمُ ابتداءً ثمَّ دمَّرَهُمْ تدميراً فقالَ تعالىٰ : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ . . . ﴾ الآيةَ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) .

(٢) كما روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/٥) عن كعب قال : (إن الرب تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : يا موسىٰ ؛ إذا رأيت الغنىٰ مقبلاً . . فقل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين) .

(٣) بنحوه رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن ، كما في « الدر المنثور » (٨/٥٠٩) .

(٤) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٤٥١) .

وقدْ حذَّرَ اللهُ تعالىٰ مكرَهُ واستدراجَهُ فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .

فكما لا يجوزُ للعبدِ المهملِ أنْ يستدلَّ بإهمالِ السيدِ إيَّاه وتمكينِهِ مِنَ النعمِ علىٰ حبِّ السيدِ ، بلْ ينبغي أنْ يحذرَ أنْ يكونَ ذٰلكَ مكراً منهُ وكيداً معَ أنَّ السيدَ لمْ يحذِّرْهُ مكرَ نفسِهِ . . فبأنْ يجبَ ذٰلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ معَ تحذيرِهِ استدراجَهُ أولىٰ .

فإذاً ؛ مَنْ أمِنَ مكرَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مغترٌّ ، ومنشأُ هٰذا الغرورِ أنَّهُ استدلَّ بنعمِ الدنيا علىٰ أنَّهُ كريمٌ عندَ ذٰلكَ المنعمِ ، واحتملَ أنْ يكونَ ذٰلكَ دليلَ الهوانِ ، ولٰكنَّ ذٰلكَ الاحتمالَ لا يوافقُ الهوىٰ ، فالشيطانُ بواسطةِ الهوىٰ يميلُ بالقلبِ إلىٰ ما يوافقُهُ ، وهوَ التصديقُ بدلالتِهِ على الكرامةِ ، وهٰذا هوَ حدُّ الغرورِ .

❀ ❀ ❀

المثالُ الثاني : غرورُ العصاةِ مِنَ المؤمنينَ :

بقولِهِمْ : إنَّ اللهَ كريمٌ ، وإنَّا نرجو عفوَهُ ، واتكالُهُمْ علىٰ ذٰلكَ ، وإهمالُهُمُ الأعمالَ ، وتحسينُ ذٰلكَ بتسميةِ تمنِّيهِمْ واغترارِهِمْ رجاءً ، وظنُّهُمْ أنَّ الرجاءَ مقامٌ محمودٌ في الدينِ ، وأنَّ نعمةَ اللهِ واسعةٌ ، ورحمتَهُ شاملةٌ وكرمَهُ عميمٌ ، وأينَ معاصي العبادِ في بحارِ رحمتِهِ ؟ وإنَّا موحِّدونَ ومؤمنونَ ؛ فنرجوهُ بوسيلةِ الإيمانِ ، وربَّما كانَ مستندُ رجائِهِمُ التمسكَ بصلاحِ الآباءِ وعلوِّ رتبتِهِمْ ؛ كاغترارِ العلويَّةِ بنسبِهِمْ ومخالفتِهِمْ سيرةَ آبائِهِمْ في الخوفِ والتقوىٰ والورعِ ، وظنِّهِمْ أنَّهُمْ أكرمُ على اللهِ مِنْ آبائِهِمْ ؛ إذْ آباؤُهُمْ معَ غايةِ الورعِ والتقوىٰ كانوا خائفينَ ، وهُمْ معَ غايةِ الفجورِ والفسوقِ آمنونَ ، وذٰلكَ نهايةُ الاغترارِ باللهِ تعالىٰ .

فقياسُ الشيطانِ للعلويَّةِ أنَّ مَنْ أحبَّ إنساناً أحبَّ أولادَهُ ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أحبَّ آباءَكُمْ فيحبُّكُمْ ، فلا تحتاجونَ إلى الطاعةِ ، وينسى المغرورُ أنَّ نوحاً صلواتُ اللهِ عليهِ أرادَ أنْ يستصحبَ ولدَهُ معهُ في السفينةِ ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ ، وأنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ استغفرَ لأبيهِ فلمْ ينفعْهُ ، وأنَّ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استأذنَ ربَّهُ في أنْ يزورَ قبرَ أمِّهِ ويستغفرَ لها ، فأُذِنَ لهُ في الزيارةِ ولمْ يُؤذَنْ لهُ في الاستغفارِ ، فجلسَ يبكي علىٰ قبرِ أمِّهِ لرقَّتِهِ لها بسببِ القرابةِ ، حتىٰ أبكىٰ مَنْ حولَهُ(١)

فهٰذا أيضاً اغترارٌ باللهِ تعالىٰ ، وهٰذا لأنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ المطيعَ ويبغضُ العاصيَ ، فكما أنَّهُ لا يبغضُ الأبَ المطيعَ ببغضِهِ للولدِ العاصي . . فكذٰلكَ لا يحبُّ الولدَ العاصيَ بحبِّهِ للأبِ المطيعِ ، ولوْ كانَ الحبُّ يسري مِنَ الأبِ إلى الولدِ . . لأوشكَ أنْ يسريَ البغضُ أيضاً ، بلِ الحقُّ أنْ لا تزرَ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ(٢)

---

(١) رواه مسلم (٩٧٦) .

(٢) وله سبحانه وتعالىٰ أن يتفضل على الفرع إكراماً لأصله ؛ لأمور خفية لا ينبغي أن يعوّل الإنسان علىٰ توقعها ، بل يتمسك بالأسباب المنجيات التي أومأ الحق له فيأخذ بها ، وإن كانت هٰذه أيضاً فضلاً من الله ورحمة ، وإلىٰ هٰذا أشار عز شأنه وعلا : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ ، وقال جل من قائل : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ .

ومَنْ ظنَّ أنَّهُ ينجو بتقوىٰ أبيهِ كمَنْ ظنَّ أنَّهُ يشبعُ بأكلِ أبيهِ ، ويَروىٰ بشربِ أبيهِ ، ويصيرُ عالماً بعلمِ أبيهِ ، ويصلُ إلى الكعبةِ ويراها بمشيِ أبيهِ ، فالتقوىٰ فرضُ عينٍ ؛ فلا يجزي والدٌ فيهِ عنْ ولدِهِ شيئاً ، وكذا العكسُ ، وعندَ اللهِ جزاءُ التقوىٰ ، يومَ يفرُّ المرءُ من أخيهِ وأمِّهِ وأبيهِ ، إلا علىٰ سبيلِ الشفاعةِ لمَنْ لمْ يشتدَّ غضبُ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فيأذنَ لهُ في الشفاعةِ ؛ كما سبقَ في كتابِ الكبرِ والعجبِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فأينَ الغلطُ في قولِ العصاةِ والفجارِ : إنَّ اللهَ كريمٌ ، وإنَّا نرجو مغفرتَهُ ورحمتَهُ ، وقدْ قالَ : « أنا عندَ ظنِّ عبدِي بي ، فليظنَّ بي خيراً »(١) ، فما هـٰذا إلا كلامٌ صحيحٌ مقبولُ الظاهرِ في القلوبِ .

فاعلمْ : أنَّ الشيطانَ لا يغوي الإنسانَ إلا بكلامٍ مقبولِ الظاهرِ مردودِ الباطنِ ، ولولا حسنُ ظاهرِهِ . . لما انخدَعَتْ بِهِ القلوبُ ، ولـٰكنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كشفَ عنْ ذٰلكَ فقالَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ ، وعمِلَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها ، وتمنَّىٰ على اللهِ »(٢) ، وهـٰذا هوَ التَّمنِّي على اللهِ تعالىٰ ، غيَّرَ الشيطانُ اسمَهُ فسمَّاهُ رجاءً ، حتىٰ خدعَ بِهِ الجهَّالَ ، وقدْ شرحَ اللهُ تعالى الرجاءَ فقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ يعني : أنَّ الرجاءَ بهِمْ أليقُ ، وهـٰذا لأنَّهُ ذكرَ أنَّ ثوابَ الآخرةِ أجرٌ وجزاءٌ على الأعمالِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، أفترىٰ أنَّ مَنِ استؤجرَ علىٰ إصلاحِ أوانٍ وشُرِطَ لهُ أجرةٌ عليها ، وكانَ الشارطُ كريماً يفي بالوعدِ مهما وعدَ ولا يخلفُ ، بلْ يزيدُ ، فجاءَ الأجيرُ وكسرَ الأوانيَ وأفسدَ جميعَها ، ثمَّ جلسَ ينتظرُ الأجرَ ، ويزعمُ أنَّ المستأجِرَ كريمٌ لا يخلفُ الوعدَ ، أفيراهُ العقلاءُ في انتظارِهِ متمنِّياً مغروراً أوْ راجياً ؟! وهـٰذا للجهلِ بالفرقِ بينَ الرجاءِ وبينَ الغِرَّةِ .

❁ ❁ ❁

قيلَ للحسنِ : قومٌ يقولونَ : نرجو اللهَ ويضيّعونَ العملَ ، فقالَ : هيهاتَ ، هيهاتَ !! تلكَ أمانيُّهُمْ يترجحونَ فيها ، مَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، ومَنْ خاف شيئاً . . هربَ منهُ(٣)

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ : لقدْ سجدتُ البارحةَ حتَّىٰ سقطَتْ ثنيَّتايَ ، فقالَ لهُ رجلٌ : إنَّا لنرجو اللهَ ، فقالَ مسلمٌ : هيهاتَ ، هيهاتَ !! مَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، ومَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ(٤)

وكما أنَّ الذي يرجو في الدنيا ولداً وهوَ بعدُ لمْ ينكحْ ، أوْ نكحَ ولمْ يجامعْ ، أوْ جامعَ ولمْ ينزلْ . . فهوَ معتوهٌ ؛ فكذٰلكَ مَنْ رجا رحمةَ اللهِ وهوَ لمْ يؤمنْ ، أوْ آمنَ ولمْ يعملْ صالحاً ، أوْ عملَ ولمْ يتركِ المعاصيَ . . فهوَ مغرورٌ ، وكما أنَّهُ إذا نكحَ ووطئَ وأنزلَ . . بقيَ متردداً في حصولِ الولدِ ، يخافُ ويرجو فضلَ اللهِ في خلقِ الولدِ ودفعِ الآفاتِ عنِ الرحمِ وعنِ الأمِّ إلىٰ أنْ يتمَّ . . فهوَ كيِّسٌ ؛ فكذٰلكَ إذا آمنَ وعملَ الصالحاتِ وتركَ السيئاتِ ، وبقي متردِّداً بينَ الخوفِ والرجاءِ ، يخافُ ألَّا يُقبلَ منهُ ، وألَّا يدومَ عليهِ إلى الموتِ ، وأنْ يُختمَ لهُ بالسوءِ ، ويرجو مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٣) .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .
(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٤٣٥) .
(٤) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٤٣٥) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٥) .

أنْ يثبِّتَهُ بالقولِ الثابتِ ، ويحفظَ دينَهُ مِنْ صواعقِ سكراتِ الموتِ حتَّىٰ يموتَ على التوحيدِ ، ويحرسَ قلبَهُ عنِ الميلِ إلى الشهواتِ بقيَّةَ عمرِهِ حتَّىٰ لا يميلَ إلى المعاصي . . فهوَ كيِّسٌ ، ومَنْ عدا هـٰؤلاءِ فهُمُ المغرورونَ باللهِ ، ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ، وعندَ ذٰلكَ يقولونَ ما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أيْ : علمنا أنَّهُ كما لا يُولدُ ولدٌ إلا بوقاعٍ ونكاحٍ ، ولا ينبتُ زرعٌ إلا بحراثةٍ وبثِّ بذرٍ . . فكذٰلكَ لا يحصلُ في الآخرةِ ثوابٌ وأجرٌ إلا بعملٍ صالحٍ ، فارجعْنا نعملْ صالحاً ، فقدْ علمنا الآنَ صدقَكَ في قولِكَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۞ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ ، و﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ألَمْ يسمعْكُمْ سنَّةَ اللهِ في عبادِهِ ، وأنَّهُ تُوفَّىٰ كلُّ نفسٍ ما كسبَتْ ، وأنَّ كلَّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ ؟ فما الذي غرَّكُمْ باللهِ بعدَ أنْ سمعتُمْ وعقلتُمْ ؟ ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۞ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

* * *

فإنْ قلتَ : فأينَ مَظِنَّةُ الرجاءِ وموضعُهُ المحمودُ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ محمودٌ في موضعينِ :

أحدُهُما : في حقِّ العاصي المنهمكِ إذا خطرَتْ لهُ التوبةُ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : وأنَّىٰ تُقبَلُ توبتُكَ ؟ فيقنِّطُهُ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، فيجبُ عندَ هـٰذا أنْ يقمعَ القنوطَ بالرجاءِ ، ويتذكَّرَ أنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، وأنَّ اللهَ كريمٌ يقبلُ التوبةَ عنْ عبادِهِ ، وأنَّ التوبةَ طاعةٌ تكفِّرُ الذنوبَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ، أمرَهُمْ بالإنابةِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، فإذا توقَّعَ المغفرةَ معَ التوبةِ . . فهوَ راجٍ ، وإنْ توقَّعَ المغفرةَ معَ الإصرارِ . . فهوَ مغرورٌ ؛ كما أنَّ مَنْ ضاقَ عليهِ وقتُ الجمعةِ وهوَ في السوقِ ، فخطَرَ لهُ أنْ يسعىٰ إلى الجمعةِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : إنكَ لا تدركُ الجمعةَ ، فأقِمْ علىٰ موضعِكَ ، فكذَّبَ الشيطانَ وقامَ يعدو وهوَ يرجو أنْ يدركَ الجمعةَ . . فهوَ راجٍ ، وإنِ استمرَّ على التجارةِ ، وأخذَ يرجو تأخيرَ الإمامِ الصلاةَ لأجلِهِ إلىٰ وسطِ الوقتِ ، أوْ لأجلِ غيرِهِ ، أوْ لسببٍ مِنَ الأسبابِ التي لا يعرفُها . . فهوَ مغرورٌ .

والثاني : أنْ تفترَ نفسُهُ عنْ فضائلِ الأعمالِ ، وتقتصرَ على الفرائضِ ، فيرجِّي نفسَهُ نعيمَ اللهِ تعالىٰ ، وما وعدَ بهِ الصالحينَ ، حتَّىٰ ينبعثَ مِنَ الرجاءِ نشاطُ العبادةِ ، فيقبلَ على الفضائلِ ، ويتذكَّرَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

* * *

فالرجاءُ الأولُ يقمعُ القنوطَ المانعَ مِنَ التوبةِ ، والرجاءُ الثاني يقمعُ الفتورَ المانعَ مِنَ النشاطِ والتشمُّرِ ، فكلُّ توقُّعٍ حثَّ علىٰ توبةٍ وعلىٰ تشمرٍ في العبادةِ . . فهوَ رجاءٌ ، وكلُّ توقُّعٍ أوجبَ فتوراً في العبادةِ وركوناً إلى البطالةِ . . فهوَ غِرَّةٌ ؛ كما إذا خطرَ لهُ أنْ يتركَ الذنبَ ويشتغلَ بالعملِ ، فيقولُ لهُ الشيطانُ : ما لكَ وإيذاءَ نفسِكَ وتعذيبَها ولكَ ربٌّ كريمٌ ، غفورٌ رحيمٌ ، فيفترُ بذٰلكَ عنِ التوبةِ والعبادةِ . . فهوَ غِرَّةٌ ، وعندَ هـٰذا واجبٌ على العبدِ أنْ يستعملَ الخوفَ ، فيخوِّفَ نفسَهُ بغضبِ اللهِ وعظيمِ عقابِهِ ، ويقولَ لها : إنَّهُ معَ أنَّهُ غافرُ الذنبِ وقابلُ التوبِ شديدُ العقابِ ، وإنَّهُ معَ أنَّهُ

كريمٌ خلَّدَ الكفارَ في النارِ أبدَ الآبادِ معَ أنَّهُ لمْ يضرُّهُ كفرُهُمْ ، بلْ سلَّطَ العذابَ والمحنَ والأمراضَ والعللَ والفقرَ والجوعَ علىٰ جملةٍ مِنْ عبادِهِ في الدنيا وهوَ قادرٌ علىٰ إزالتِها ، فمَنْ هـٰذهِ سنَّتُهُ في عبادِهِ وقدْ خوَّفَني عقابَهُ . . فكيفَ لا أخافُهُ ، وكيفَ أغترُّ بهِ ؟

والخوفُ والرجاءُ قائدانِ وسائقانِ يبعثانِ الناسَ على العملِ ، فما لا يبعثُ على العملِ . . فهوَ تمنٍّ وغرورٌ ، ورجاءُ كافَّةِ الخلقِ هوَ سببُ فتورِهِمْ وسببُ إقبالِهِمْ على الدنيا وسببُ إعراضِهِمْ عنِ اللهِ تعالىٰ وإهمالِهِمُ السعيَ للآخرةِ ، وذٰلكَ غرورٌ ، فقدْ أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وذكرَ أنَّ الغرورَ سيغلبُ علىٰ قلوبِ آخرِ هـٰذهِ الأمَّةِ[1] ، وقدْ كانَ ما وعدَ بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقدْ كانَ الناسُ في الأعصارِ الأُوَلِ يواظبونَ على العباداتِ ، ويؤتونَ ما آتوا وقلوبُهُمْ وجلةٌ أنهُمْ إلىٰ ربهِمْ راجعونَ ، يخافونَ علىٰ أنفسِهِمْ وهُمْ طولَ الليلِ والنهارِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، يبالغونَ في التقوىٰ والحذرِ مِنَ الشبهاتِ والشهواتِ ، ويبكونَ علىٰ أنفسِهِمْ في الخلواتِ ، وأمَّا الآنَ . . فترى الخلقَ آمنينَ مسرورينَ ، مطمئنينَ غيرَ خائفينَ ، معَ إكبابِهِمْ على المعاصي ، وانهماكِهِمْ في الدنيا ، وإعراضِهِمْ عنِ اللهِ تعالىٰ ، زاعمينَ أنهُمْ واثقونَ بكرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ، راجونَ لعفوِهِ ومغفرتِهِ ؛ كأنَّهُمْ يزعمونَ أنَّهُمْ عرفوا مِنْ كرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ما لمْ يعرفْهُ الأنبياءُ والصحابةُ والسلفُ الصالحونَ ، فإنْ كانَ هـٰذا الأمرُ يُدركُ بالمنىٰ ويُنال بالهوينىٰ . فعلىٰ ماذا كانَ بكاءُ أولئكَ وخوفُهُمْ وحزنُهُمْ ؟! وقدْ ذكرنا تحقيقَ هـٰذهِ الأمورِ في كتابِ الخوفِ والرجاءِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ معقلُ بنُ يسارٍ : « يأتي على الناسِ زمانٌ يَخْلَقُ فيهِ القرآنُ في قلوبِ الرجالِ كما تَخْلَقُ الثيابُ على الأبدانِ ، يكونُ أمرُهُمْ كُلُّهُ طمعاً لا خوفَ معَهُ ، إنْ أحسنَ أحدُهُمْ . . قالَ : يُتقبَّلُ منِّي ، وإنْ أساءَ . . قالَ : يُغفرُ لي »[2] ، فأخبرَ أنَّهُمْ يضعونَ الطمعَ موضعَ الخوفِ ؛ لجهلِهِمْ بتخويفاتِ القرآنِ وما فيهِ .

وبمثلِهِ أخبرَ عنِ النصارىٰ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ ، ومعناهُ : أنَّهُمْ ورثوا الكتابَ ؛ أيْ : هُمْ علماءُ ويأخذونَ عَرضَ هـٰذا الأدنىٰ ؛ أيْ : شهواتِهِمْ مِنَ الدنيا حلالاً كانَ أوْ حراماً ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ تحذيرٌ وتخويفٌ ، لا يتفكَّرُ فيهِ متفكِّرٌ إلا ويطولُ حزنُهُ ويعظمُ خوفُهُ إنْ كانَ مؤمناً بما فيهِ ، وترى الناسَ الآنَ يهذُّونَهُ هذّاً ، يخرجونَ الحروفَ مِنْ مخارجِها ، ويتناظرونَ علىٰ رفعِها وخفضِها ونصبِها ؛ كأنَّهُمْ يقرؤونَ شعراً مِنْ أشعارِ العربِ ، لا يهمُّهُمُ الالتفاتُ إلىٰ معانيهِ ، والعملُ بما فيهِ فهلْ في العالمِ غرورٌ يزيدُ علىٰ هـٰذا ؟!

فهـٰذهِ أمثلةُ الغرورِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وبيانُ الفرقِ بينَ الرجاءِ والغرورِ .

ويقربُ منهُ غرورُ طوائفَ لهُمْ طاعاتٌ ومعاصٍ ، إلا أنَّ معاصيَهُمْ أكثرُ وهُمْ يتوقَّعونَ المغفرةَ ، ويظنونَ أنَّهُمْ تترجَّحُ كِفَّةُ حسناتِهِمْ معَ أنَّ ما في كِفَّةِ السيئاتِ أكثرُ !! وهـٰذا غايةُ الجهلِ . فترى الواحدَ يتصدَّقُ بدراهمَ معدودةٍ مِنَ الحلالِ

---

(١) تقدم ، وهو حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، وفيه : « وإعجاب كل ذي رأي برأيه » الذي رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

(٢) رواه الحارث بن أسامة في « مسنده » (٧٦٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٩/٦) .

والحرامِ ويكونُ ما يتناولُ مِنْ أموالِ المسلمينَ والشبهاتِ أضعافَهُ ، ولعلَّ ما تصدَّقَ بهِ هوَ مِنْ مالِ المسلمينَ ، وهوَ يتكلُ عليهِ ويظنُّ أنَّ أكلَ ألفِ درهمٍ حرامٍ يقاومُهُ التصدُّقُ بعشرةٍ مِنَ الحلالِ أوِ الحرامِ ، وما هوَ إلا كمَنْ وضعَ عشرةَ دراهمَ في كِفَّةِ ميزانٍ وفي الكِفَّةِ الأخرىٰ ألفاً ، وأرادَ أنْ تشيلَ الكِفَّةُ الثقيلةُ بالكِفَّةِ الخفيفةِ !! وذٰلكَ غايةُ الجهلِ .

نعمْ ؛ ومنهُمْ مَنْ يظنُّ أنَّ طاعاتِهِ أكثرُ مِنْ معاصيهِ ؛ لأنَّهُ لا يحاسبُ نفسَهُ ولا يتفقَّدُ معاصيَهُ ، وإذا عملَ طاعةً . . حفظَها واعتدَّ بها ؛ كالذي يستغفرُ اللهَ بلسانِهِ أوْ يسبّحُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ ثمَّ يغتابُ المسلمينَ ، ويمزّقُ أعراضَهُمْ ، ويتكلَّمُ بما لا يرضاهُ اللهُ طولَ النهارِ مِنْ غيرِ حصرٍ وعددٍ ، ويكونُ نظرُهُ إلىٰ عددِ سبحتِهِ أنَّهُ استغفرَ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ، وغفلَ عنْ هذيانِهِ طولَ نهارِهِ الذي لوْ كتبَهُ . . لكانَ مثلَ تسبيحِهِ مئةَ مرَّةٍ أوْ ألفَ مرَّةٍ ، وقدْ كتبَها الكرامُ الكاتبونَ ، وقدْ أوعدَهُ اللهُ تعالىٰ بالعقابِ علىٰ كلِّ كلمةٍ فقالَ جلَّ جلالُهُ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، فهوَ أبداً يتأمَّلُ في فضائلِ التسبيحاتِ والتهليلاتِ ، ولا يلتفتُ إلىٰ ما وردَ في عقوبةِ المغتابينَ والكذابينَ ، والنمَّامينَ والمنافقينَ بذكرِ ما لا يضمرونَهُ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ آفاتِ اللسانِ ، وذٰلكَ محضُ الغرورِ .

ولعمْري ؛ لوْ كانَ الكرامُ الكاتبونَ يطلبونَ منهُ أجرةَ النسخِ لما يكتبونَهُ مِنْ هذيانِهِ الذي زادَ علىٰ تسبيحِهِ . . لكانَ عندَ ذٰلكَ يكفُّ لسانَهُ حتَّىٰ عنْ جملةٍ مِنْ مهماتِهِ ، وما نطقَ بهِ في فتراتِهِ كانَ يعدُّهُ ويحسبُهُ ويوازنُهُ بتسبيحاتِهِ ؛ حتَّىٰ لا يفضلَ عليهِ أجرةُ نسخِهِ ، فيا عجباً لمَنْ يحاسبُ نفسَهُ ويحتاطُ خوفاً علىٰ قيراطٍ يفوتُهُ في الأجرةِ على النسخِ ، ولا يحتاطُ خوفاً مِنْ فوتِ الفردوسِ الأعلىٰ ونعيمِها !! ما هٰذهِ إلا مصيبةٌ عظيمةٌ لمَنْ تفكَّرَ فيها ؛ فقدْ دُفعنا إلىٰ أمرٍ إنْ شككنا فيهِ . . كنَّا مِنَ الكفرةِ الجاحدينَ وإنْ صدَّقنا بهِ . . كنَّا مِنَ الحمقى المغرورينَ ، فما هٰذهِ أعمالُ مَنْ يصدِّقُ بما جاءَ بهِ القرآنُ ، وإنَّا نبرأُ إلى اللهِ تعالىٰ أنْ نكونَ مِنْ أهلِ الكفرانِ ، فسبحانَ مَنْ صدَّنا عنِ التنبُّهِ والتبيُّنِ معَ هٰذا البيانِ !! وما أجدرَ مَنْ يقدرُ علىٰ تسليطِ مثلِ هٰذهِ الغفلةِ والغرورِ على القلوبِ أنْ يخشىٰ ويُتَّقىٰ ، ولا يُغترَّ بهِ اتكالاً علىٰ أباطيلِ المنىٰ ، وتعاليلِ الشيطانِ والهوىٰ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

بيان أصناف المغترّين، وأقسام فرق كلّ صنف

وهمْ أربعةُ أصنافٍ :

الصّنف الأوّل : أهل العلم

والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ :

ففرقةٌ منهُمْ أحكموا العلومَ الشرعيَّةَ والعقليةَ ، وتعمَّقوا فيها ، واشتغلوا بها ، وأهملوا تفقُّدَ الجوارحِ ، وحفْظَها عنِ المعاصي ، وإلزامَها الطاعاتِ ، واغترُّوا بعلمِهِمْ ، وظنُّوا أنَّهُمْ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وأنَّهُمْ قدْ بلغوا مِنَ العلمِ مبلغاً لا يعذِّبُ اللهُ مثلَهُمْ ، بلْ يقبلُ في الخلقِ شفاعتَهُمْ ، وأنَّهُ لا يطالبُهُمْ بذنوبِهِمْ وخطاياهُمْ لكرامتِهِمْ على اللهِ .

وهمْ مغرورونَ ؛ فإنَّهُمْ لوْ نظروا بعينِ البصيرةِ . . علموا أنَّ العلمَ علمانِ :

علمُ معاملةٍ ، وعلمُ مكاشفةٍ ؛ وهوَ العلمُ باللهِ وصفاتِهِ ، المسمَّى بالعادةِ علمَ المعرفةِ .

فأمَّا العلمُ بالمعاملةِ ؛ كمعرفةِ الحلالِ والحرامِ ، ومعرفةِ أخلاقِ النفسِ المذمومةِ والمحمودةِ ، وكيفيَّةِ علاجِها والفرارِ منها . . فهيَ علومٌ لا تُرادُ إلا للعملِ ، ولولا الحاجةُ إلى العملِ . . لمْ يكنْ لهٰذهِ العلومِ قيمةٌ ؛ فكلُّ علمٍ يُرادُ للعملِ فلا قيمةَ لهُ دونَ العملِ .

فمثالُ هٰذا : كمريضٍ بهِ علَّةٌ لا يزيلُها إلا دواءٌ مركَّبٌ مِنْ أخلاطٍ كثيرةٍ ، لا يعرفُها إلا حذَّاقُ الأطباءِ .

فيسعىٰ في طلبِ الطبيبِ بعدَ أنْ هاجرَ عنْ وطنِهِ حتَّىٰ عثرَ علىٰ طبيبٍ حاذقٍ ، فعلَّمَهُ الدواءَ ، وفصَّلَ لهُ الأخلاطَ وأنواعَها ومقاديرَها ، ومعادنَها التي منها تُجلبُ ، وعلَّمَهُ كيفيَّةَ دقِّ كلِّ واحدٍ منها ، وكيفيَّةَ الخلطِ والعجنِ ، فتعلَّمَ ذٰلكَ منهُ ، وكتبَ منهُ نسخةً حسنةً بخطٍّ حسنٍ ، ورجعَ إلىٰ بيتِهِ وهوَ يكرِّرُها ويقرؤُها ويعلِّمُها المرضىٰ ، ولمْ يشتغلْ بشربِها واستعمالِها ، أفترىٰ أنَّ ذٰلكَ يغني عنهُ مِنْ مرضِهِ شيئاً ؟!

هيهاتَ هيهاتَ !! لوْ كتبَ منهُ ألفَ نسخةٍ ، وعلمَهُ ألفَ مريضٍ حتَّىٰ شُفيَ جميعُهُمْ وكرَّرَهُ كلَّ ليلةٍ ألفَ مرَّةٍ . . لم يغنهِ ذٰلكَ مِنْ مرضِهِ شيئاً ، إلا أنْ يزنَ الذهبَ ، ويشتريَ الدواءَ ، ويخلطَهُ كما تعلَّمَ ، ويشربَهُ ويصبرَ علىٰ مرارتِهِ ، ويكونَ شربُهُ في وقتِهِ ، وبعدَ تقديمِ الاحتماءِ وجميعِ شروطِهِ ، فإذا فعلَ جميعَ ذٰلكَ . . فهوَ علىٰ خطرٍ مِنْ شفائِهِ ، فكيفَ إذا لم يشربْهُ أصلاً ؟! فمهما ظنَّ أنَّ ذٰلكَ يكفيهِ ويشفيهِ . . فقدْ ظهرَ غرورُهُ .

وهٰكذا الفقيهُ الذي أحكمَ علمَ الطاعاتِ ولمْ يعملْها ، وأحكمَ علمَ المعاصي ولمْ يجتنبْها ، وأحكمَ علمَ الأخلاقِ المذمومةِ وما زكَّىٰ نفسَهُ منها ، وأحكمَ علمَ الأخلاقِ المحمودةِ ولمْ يتَّصفْ بها ، فهوَ مغرورٌ ، إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، ولمْ يقلْ : قدْ أفلحَ مَنْ تعلَّمَ كيفيَّةَ تزكيتِها وكتبَ علمَ ذٰلكَ وعلَّمَهُ الناسَ .

وعندَ هٰذا يقولُ لهُ الشيطانُ : لا يغرنَّكَ هٰذا المثالُ ؛ فإنَّ العلمَ بالدواءِ لا يزيلُ المرضَ ، وإنَّما مطلبُكَ القربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ وثوابُهُ ، والعلمُ يجلبُ الثوابَ ، ويتلو عليهِ الأخبارَ الواردةَ في فضائلِ العلمِ .

فإنْ كانَ المسكينُ معتوهاً مغروراً . . وافقَ ذٰلكَ مرادَهُ وهواهُ ، فاطمأنَّ إليهِ وأهملَ العملَ .

وإنْ كانَ كيّساً . . فيقولُ للشيطانِ : أتذكِّرُني فضائلَ العلمِ وتنسيني ما وردَ في العالِمِ الفاجرِ الذي لا يعملُ بعلمِهِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ ؟!

فأيُّ خزيٍ أعظمُ مِنَ التمثيلِ بالكلبِ والحمارِ ؟!

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منِ ازدادَ علماً ولمْ يزددْ هدىً . . لمْ يزددْ مِنَ اللهِ إلَّا بُعداً »[1]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « يُلقى العالِمُ في النارِ فتندلقُ أقتابُهُ ، فيدورُ بها في النارِ كما يدورُ الحمارُ في الرحىٰ »[2]

وكقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ الناسِ العلماءُ السوءُ »[3]

وقولِ أبي الدرداءِ : (ويلٌ للذي لا يعلمُ مرَّةً ولوْ شاءَ اللهُ . . لعلَّمَهُ ، وويلٌ للذي يعلمُ ولا يعملُ سبعَ مراتٍ)[4] أيْ : إنَّ العلمَ حجَّةٌ عليهِ ؛ إذْ يُقالُ لهُ : ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟ وكيفَ قضيتَ شكرَ اللهِ ؟

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ بعلمِهِ »[5]

فهٰذا وأمثالُهُ ممَّا أوردناهُ في كتابِ العلمِ في بابِ علامةِ علماءِ الآخرةِ أكثرُ مِنْ أنْ يُحصىٰ ، إلا أنَّ هٰذا لا يُوافقُ هوى العالِمِ الفاجرِ ، وما وردَ في فضلِ العلمِ يوافقُهُ ، فيُميلُ الشيطانُ قلبَهُ إلىٰ ما يهواهُ ، وذٰلكَ عينُ الغرورِ ؛ فإنَّهُ إنْ نظرَ بالبصيرةِ . . فمثالُهُ ما ذكرناهُ ، وإنْ نظرَ بعينِ الإيمانِ ، فالذي أخبرَهُ بفضيلةِ العلمِ هوَ الذي أخبرَهُ بذمِّ العلماءِ السوءِ ، وأنَّ حالَهُمْ عندَ اللهِ أشدُّ مِنْ حالِ الجهَّالِ ، فبعدَ ذٰلكَ اعتقادُهُ أنَّهُ علىٰ خيرٍ معَ تأكُّدِ حجةِ اللهِ عليهِ غايةُ الغرورِ .

وأمَّا الذي يدَّعي علومَ المكاشفةِ ؛ كالعلمِ باللهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ يهملُ العملَ ، ويضيّعُ أمرَ اللهِ تعالىٰ وحدودَهُ . . فغرورُهُ أشدُّ .

ومثالُهُ : مثالُ مَنْ أرادَ خدمةَ مَلِكٍ ، فعرفَ الملكَ ، وعرفَ أخلاقَهُ وأوصافَهُ ، ولونَهُ وشكلَهُ ، وطولَهُ وعرضَهُ ، وعادتَهُ ومجلسَهُ ، ولـمْ يتعرَّفْ ما يحبُّهُ ويكرهُهُ ، وما يغضبُ مِنْ أجلِهِ وما يرضىٰ بهِ ، أوْ عرفَ ذٰلكَ إلا أنَّهُ قصدَ خدمتَهُ وهوَ ملابسٌ لجميعِ ما يغضبُ بهِ ، وعاطلٌ عنْ جميعِ ما يحبُّهُ ؛ مِنْ زيٍّ وهيئةٍ وكلامٍ ، وحركةٍ وسكونٍ ، فوردَ على الملكِ وهوَ يريدُ التقرُّبَ منهُ والاختصاصَ بهِ متلطِّخاً بجميعِ ما يكرهُهُ الملكُ ، عاطلاً عنْ جميعِ ما يحبُّهُ ، متوسِّلاً إليهِ بمعرفتِهِ لهُ ولنسبِهِ واسمِهِ ، وبلدِهِ وشكلِهِ وصورتِهِ ، وعادتِهِ في سياسةِ غلمانِهِ ومعاملةِ رعيتِهِ ، فهٰذا مغرورٌ جدّاً ؛ إذْ لوْ تركَ جميعَ ما عرفَهُ ، واشتغلَ بمعرفتِهِ فقطْ ومعرفةِ ما يحبُّهُ ويكرهُهُ . . لكانَ ذٰلكَ أقربَ إلىٰ نيلِهِ المرادَ مِنْ قربِهِ والاختصاصِ بهِ .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٨٧) ، قال الحافظ العراقي : (والمشهور أن هٰذا الحديث من قول الحسن البصري) . « إتحاف » (٣٥١/١) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، **والأقتاب** : الأمعاء .

(٣) روىٰ بنحوه الدارمي في « سننه » (٣٨٢) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١١/١) .

(٥) رواه الطبراني في « الصغير » (١٨٢/١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

بلْ تقصيرُهُ في التقوىٰ واتباعُهُ للشهواتِ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لَمْ ينكشفْ لهُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ إلا الأسامي دونَ المعاني ؛ إذْ لوْ عرفَ اللهَ حقَّ معرفتِهِ . . لخشيَهُ واتَّقاهُ ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يعرفَ الأسدَ عاقلٌ ثمَّ لا يتقيهِ ولا يخافُهُ ، وقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (خفْني كما تخافُ السبُعَ الضاريَ)[1]

نعمْ ؛ مَنْ يعرفُ مِنَ الأسدِ لونَهُ وشكلَهُ واسمَهُ ولمْ يعرفْ سطوتَهُ قدْ لا يخافُهُ ، وكأنَّهُ ما عرفَ الأسدَ ، فمَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . عرفَ مِنْ صفاتِهِ أنَّهُ يهلِكُ العالمينَ ولا يبالي ، ويعلمُ أنَّهُ مسخَّرٌ في قدرةِ مَنْ لوْ أهلكَ مثلَهُ آلافاً مؤلفةً وأبَّدَ عليهِمُ العذابَ أبدَ الآبادِ . . لمْ يؤثِّرْ ذٰلكَ فيهِ أثراً ، ولمْ تأخذْهُ عليهِ رقَّةٌ ، ولا اعتراهُ جزعٌ ، ولهٰذا قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وفاتحةُ الزبورِ : (رأسُ الحكمةِ خشيةُ اللهِ)[2]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كفىٰ بخشيةِ اللهِ علماً ، وكفىٰ بالاغترارِ باللهِ جهلاً)[3]

واستُفتيَ الحسنُ عنْ مسألةٍ ، فأجابَ عنها ، فقيلَ لهُ : إنَّ فقهاءَنا لا يقولونَ ذٰلكَ ، فقالَ للسائلِ : وهلْ رأيتَ فقيهاً قطُّ ؟ إنَّما الفقيهُ القائمُ ليلَهُ ، الصائمُ نهارَهُ ، الزاهدُ في الدنيا[4]

وقالَ مرَّةً : (الفقيهُ يُداري ولا يُماري ، ينشرُ حكمةَ اللهِ ، فإنْ قُبلَتْ منهُ . . حمدَ اللهَ ، وإنْ رُدَّتْ عليهِ . . حمدَ اللهَ)[5] .

فإذاً ؛ الفقيهُ مَنْ فقهَ عنِ اللهِ أمرَهُ ونهيَهُ ، وعلمَ مِنْ صفاتِهِ ما أحبَّهُ وما كرهَهُ ، وهوَ العالمُ ، ومَنْ يردِ اللهُ بهِ خيراً . . يفقهْهُ في الدينِ ، فإذا لمْ يكنْ بهٰذهِ الصفةِ . . فهوَ مِنَ المغرورينَ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ أحكموا العلمَ والعملَ ، فواظبوا على الطاعاتِ الظاهرةِ ، وتركوا المعاصيَ ، إلا أنَّهُمْ لمْ يتفقَّدوا قلوبَهُمْ ليمحوا عنها الصفاتِ المذمومةَ عندَ اللهِ ؛ مِنَ الكبرِ والحسدِ والرياءِ ، وطلبِ الرئاسةِ والعلاءِ ، وإرادةِ السوءِ للأقرانِ والشركاءِ ، وطلبِ الشهرةِ في البلادِ والعبادِ ، وربَّما لمْ يعرفْ بعضُهُمْ أنَّ ذٰلكَ مذمومٌ ، فهوَ مكبٌّ عليها ، غيرُ محترزٍ منها .

ولا يلتفتُ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أدنى الرياءِ شركٌ »[6] ، وإلىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ كبْرٍ »[7] ، وإلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »[8] ، وإلىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حبُّ المالِ والشرفِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ » ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الأخبارِ التي أوردناها في جميعِ ربعِ المهلكاتِ في الأخلاقِ المذمومةِ .

---

(١) قوت القلوب (٢٤١/١) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) عن خالد الربعي .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٦) .
(٤) قوت القلوب (١٥٣/١) ، وهو بلفظه هنا عند المحاسبي في « الرعاية » (ص ٤٤٧) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠) ومعه القول قبله .
(٦) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٦/٢٠) ، وبنحوه رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .
(٧) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .
(٨) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .

فهٰؤلاءِ زيَّنوا ظواهرَهُمْ وأهملوا بواطنَهُمْ ، ونسوا قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ ولا إلىٰ أموالِكُمْ ، وإنَّما ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وأعمالِكُمْ »(١) ، فتعهَّدوا الأعمالَ وما تعهَّدوا القلوبَ ، والقلبُ هوَ الأصلُ ؛ إذْ لا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ .

ومثالُ هٰؤلاءِ كبئرِ الحُشِّ(٢) ؛ ظاهرُها جصٌّ وباطنُها نَتْنٌ ، أوْ كقبورِ الموتىٰ ؛ ظاهرُها مزيَّنٌ وباطنُها جيفةٌ ، أوْ كبيتٍ مظلمٍ باطنُهُ ؛ وُضِعَ السراجُ علىٰ سطحِهِ فاستنارَ ظاهرُهُ وباطنُهُ مظلمٌ ، أوْ كرجلٍ قصدَ ضيافةَ الملكِ ، فدعاهُ إلىٰ دارِهِ ، فجصَّصَ بابَ دارِهِ ، وتركَ المزابلَ في صدرِ دارِهِ !! ولا يخفىٰ أنَّ ذٰلكَ غرورٌ .

بلْ أقربُ مثالٍ إليهِ رجلٌ زرعَ زرعاً ، فنبتَ ونبتَ معَهُ حشيشٌ يفسدُهُ ، فأمرَ بتنقيةِ الزرعِ عنِ الحشيشِ بقلعِهِ مِنْ أصلِهِ ، فأخذَ يجزُّ رؤوسَهُ وأطرافَهُ ، فلا تزالُ تقوىٰ أصولُهُ وتنبتُ ؛ لأنَّ مغارسَ المعاصي هيَ الأخلاقُ الذميمةُ في القلبِ ، فمَنْ لا يطهِّرُ القلبَ منها . . لا تتمُّ لهُ الطاعاتُ الظاهرةُ إلا معَ الآفاتِ الكثيرةِ .

بلْ هوَ كمريضٍ ظهرَ بهِ الجربُ وقدْ أُمِرَ بالطِّلاءِ وشربِ الدواءِ ، فالطِّلاءُ ليزيلَ ما علىٰ ظاهرِهِ ، والدواءُ ليقطعَ مادَّتَهُ مِنْ باطنِهِ ، فقنعَ بالطِّلاءِ وتركَ الدواءَ ، وبقيَ يتناولُ ما يزيدُ في المادةِ ، فلا يزالُ يطلي الظاهرَ والجربُ دائمٌ بهِ ، يتفجَّرُ مِنَ المادةِ التي في الباطنِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ علموا هٰذهِ الأخلاقَ الباطنةَ ، وعلموا أنَّها مذمومةٌ مِنْ جهةِ الشرعِ ، إلا أنَّهُمْ لعجْبِهِمْ بأنفسِهِمْ يظنُّونَ أنَّهُمْ منفكُّونَ عنها ، وأنَّهُمْ أرفعُ عندَ اللهِ مِنْ أنْ يبتليَهُمْ بذٰلكَ ، وإنَّما يُبتلىٰ بهِ العوامُّ دونَ مَنْ بلغَ مبلغَهُمْ في العلمِ ، فأمَّا هوَ . . فأعظمُ عندَ اللهِ مِنْ أنْ يبتليَهُ ، ثمَّ إذا ظهرَ عليهِ مخايلُ الكبْرِ(٣) والرئاسةِ وطلبِ العلوِّ والشرفِ . . قالَ : ما هٰذا كبْرٌ ، وإنما هوَ طلبُ عزِّ الدينِ ، وإظهارُ شرفِ العلمِ ، ونصرةُ دينِ اللهِ ، وإرغامُ أنفِ المخالفينَ مِنَ المبتدعينَ ، فإنِّي لوْ لبستُ الدونَ مِنَ الثيابِ ، وجلستُ في الدونِ مِنَ المجالسِ . . لشَمِتَ بي أعداءُ الدينِ وفرحوا بذٰلكَ ، وكانَ ذُلِّي ذلّاً على الإسلامِ !!

ونسيَ المغرورُ أنَّ عدوَّهُ الذي حذَّرَهُ منهُ مولاهُ هوَ الشيطانُ ، وأنَّهُ يفرحُ بما يفعلُهُ ويسخرُ منهُ ، وينسىٰ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بماذا نصرَ الدينَ ، وبماذا أرغمَ الكافرينَ ، وينسىٰ ما رُوِيَ عَنِ الصحابةِ مِنَ التواضعِ والتبذُّلِ ، والقناعةِ بالفقرِ والمسكنةِ ، حتَّىٰ عُوتبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في بذاذةِ زِيِّهِ عندَ قدومِهِ إلى الشامِ ، فقالَ : (إنَّا قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ ؛ فلا نطلبُ العزَّ في غيرِهِ)(٤)

ثمَّ هٰذا المغرورُ يطلبُ عزَّ الدينِ بالثيابِ الرقيقةِ مِنَ القصبِ والدِّيْبَقيِّ والإبريسمِ المحرَّمِ والخيولِ والمراكبِ ، ويزعمُ أنَّهُ يطلبُ بهِ عزَّ العلمِ وشرفَ الدينِ .

وكذٰلكَ مهما أطلقَ اللسانَ بالحسدِ في أقرانِهِ ، أوْ فيمَنْ ردَّ عليهِ شيئاً مِنْ كلامِهِ . . لمْ يظنَّ بنفسِهِ أنَّ ذٰلكَ حسدٌ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) .

(٢) **الحشُّ** ـ بضم الحاء المهملة ويفتح ـ : مكان قضاء الحاجة هنا ، وفي الأصل يطلق على البستان ، وبئره يحفر في الدار ضيق الرأس ، يتعهَّد بالتفريغ كلما امتلأ .

(٣) في (ب) : (فأما هم . . فأعظم عند الله من أن يبتليهم بمثل ذٰلك ، ثم إذا ظهر علىٰ أحدهم مخايل الكبر . . .) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٦١/١) .

ولـٰكنْ قالَ : إنَّما هـٰذا غضبٌ للحقِّ ، وردٌّ على المبطلِ في عدوانِهِ وظلمِهِ ، ولـمْ يظنَّ بنفسِهِ الحسدَ ، حتَّىٰ يعتقدُ أنَّهُ لوْ طُعِنَ في غيرِهِ مِنْ أهلِ العلمِ أوْ مُنِعَ غيرُهُ مِنْ رئاسةٍ وزُوحمَ فيها . . هلْ كانَ غضبُهُ وعداوتُهُ مثلَ غضبِهِ الآنَ فيكونَ غضبُهُ للهِ ؟ أمْ لا يغضبُ مهما طُعِنَ في عالمٍ آخرَ ومُنِعَ ، بلْ ربَّما يفرحُ بهِ فيكونَ غضبُهُ لنفسِهِ ، وحسدُهُ لأقرانِهِ مِنْ خبثِ باطنِهِ ؟

وهـٰكذا يرائي بأعمالِهِ وعلومِهِ ، وإذا خطرَ لهُ خاطرُ الرياءِ . . قالَ : هيهاتَ !! إنَّما غرضي مِنْ إظهارِ العلمِ والعملِ اقتداءُ الخلقِ بي ؛ ليهتدوا إلىٰ دينِ اللهِ تعالىٰ ، ويتخلَّصوا مِنْ عقابِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يتأملُ المغرورُ أنَّهُ ليسَ يفرحُ باقتداءِ الناسِ بغيرِهِ كما يفرحُ باقتدائِهِمْ بهِ ، فلوْ كانَ غرضُهُ صلاحَ الخلقِ . . لفرحَ بصلاحِهِمْ علىٰ يدِ مَنْ كانَ ؛ كمَنْ لهُ عبيدٌ مرضىٰ يريدُ معالجتَهُمْ ؛ فإنَّهُ لا يفرِّقُ بينَ أنْ يحصلَ شفاؤُهُمْ علىٰ يدِهِ أوْ علىٰ يدِ طبيبٍ آخرَ .

وربَّما يُذكرُ لهُ هـٰذا ، فلا يخلِّيهِ الشيطانُ أيضاً ، ويقولُ : إنَّما ذٰلكَ لأنَّهُمْ إذا اهتدَوا بي . . كانَ الأجرُ لي والثوابُ لي ، وإنَّما فرحي بثوابِ اللهِ ، لا بقبولِ الخلقِ قولي ، هـٰذا ما يظنُّه بنفسِهِ ، واللهُ مطَّلعٌ مِنْ ضميرِهِ علىٰ أنَّهُ لوْ أخبرَهُ نبيٌّ بأنَّ ثوابَهُ في الخمولِ وإخفاءِ العلمِ أكثرُ مِنْ ثوابِهِ في الإظهارِ ، وحُبِسَ معَ ذٰلكَ في سجنٍ ، وقُيِّدَ بالسلاسلِ . . لاحتالَ في هدمِ السجنِ وحلِّ السلاسلِ ؛ حتَّىٰ يرجعَ إلىٰ موضعِهِ الذي به تظهرُ رئاستُهُ ، مِنْ تدريسٍ أوْ وعظٍ أوْ غيرِهِ .

وكذٰلكَ يدخلُ على السلطانِ ويتودَّدُ إليهِ ، ويثني عليهِ ويتواضعُ لهُ ، وإذا خطرَ لهُ أنَّ التواضعَ للسلاطينِ الظلمةِ حرامٌ . . قالَ لهُ الشيطانُ : هيهاتَ !! إنَّما ذٰلكَ عندَ الطمعِ في مالِهِمْ ، فأمَّا أنتَ . . فغرضُكَ أنْ تشفعَ للمسلمينَ ، وتدفعَ الضررَ عنهُمْ ، وتدفعَ شرَّ أعدائِكَ عنْ نفسِكَ ، واللهُ يعلمُ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لوْ ظهرَ لبعضِ أقرانِهِ قبولٌ عندَ ذٰلكَ السلطانِ ، فصارَ يشفِّعُهُ في كلِّ مسلمٍ ، حتَّىٰ دفعَ الضررَ عنْ جميعِ المسلمينَ . . ثقلَ ذٰلكَ عليهِ ، ولوْ قدرَ علىٰ أنْ يقبِّحَ حالَهُ عندَ السلطانِ بالطعنِ فيهِ والكذبِ عليهِ . . لفعلَ .

وكذٰلكَ قدْ ينتهي غرورُ بعضِهِمْ إلىٰ أنْ يأخذَ مِنْ مالِهِمْ ، فإذا خطرَ لهُ أنَّهُ حرامٌ . . قالَ لهُ الشيطانُ : هـٰذا مالٌ لا مالكَ لهُ ، وهوَ لمصالحِ المسلمينَ ، وأنتَ إمامُ المسلمينَ وعالمُهُمْ ، وبكَ قوامُ الدينِ ، أفلا يحلُّ لكَ أنْ تأخذَ منهُ بقدْرِ حاجتِكَ ، فيغترُّ بهـٰذا التلبيسِ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : في أنَّهُ مالٌ لا مالكَ لهُ ؛ فإنَّهُ يعرفُ أنَّهُ يأخذُ الخراجَ مِنَ المسلمينَ وأهلِ السوادِ ، والذينَ أخذَ منهُمْ أحياءٌ قيامٌ ، وأولادُهُمْ وورثتُهُمْ أحياءٌ ، وغايةُ الأمرِ وقوعُ الخلطِ في أموالِهِمْ ، ومَنْ غصبَ مئةَ دينارٍ مِنْ عشرةِ أنفسٍ وخلطَها بمالِ نفسِهِ . . فلا خلافَ في أنَّهُ مالٌ حرامٌ ، ولا يُقالُ : هوَ مالٌ لا مالكَ لهُ ، ويجبُ أنْ يقسمَهُ بينَ العشرةِ ويردَّ إلىٰ كلِّ واحدٍ عُشرَهُ وإنْ كانَ مالُ كلِّ واحدٍ قدِ اختلطَ بالآخرِ .

الثاني : في قولِهِ : إنَّهُ مِن مصالحِ المسلمينَ ، وبكَ قوامُ الدينِ ، ولعلَّ الذينَ فسدَ دينُهُمْ واستحلُّوا أموالَ السلاطينِ ، ورغبوا في طلبِ الدنيا ، والإقبالِ على الرئاسةِ ، والإعراضِ عنِ الآخرةِ بسببِهِ . . أكثرُ مِنَ الذينَ زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على اللهِ ، فهوَ على التحقيقِ دجَّالُ الدينِ ، وقوامُ مذهبِ الشياطينِ ، لا إمامُ الدينِ ؛ إذِ الإمامُ هوَ الذي يُقتدىٰ بهِ في الإعراضِ عنِ الدنيا والإقبالِ على اللهِ تعالىٰ ؛ كالأنبياءِ عليهِمُ السلامُ والصحابةِ وعلماءِ السلفِ ، والدجَّالُ هوَ الذي يُقتدىٰ بهِ في الإعراضِ عنِ اللهِ والإقبالِ على الدنيا ، فلعلَّ موتَ هـٰذا أنفعُ للمسلمينَ مِنْ حياتِهِ ، وهوَ يزعمُ أنَّهُ قوامُ

الدينِ ، ومثلُهُ كما قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (العالمُ السوءُ كصخرةٍ وقعَتْ في فمِ الوادي ، فلا هيَ تشربُ الماءَ ، ولا هيَ تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزرعِ)[1]

وأصنافُ غرورِ أهلِ العلمِ في هـٰذهِ الأعصارِ المتأخرةِ خارجةٌ عنِ الحصرِ ، وفيما ذكرناهُ تنبيهٌ بالقليلِ على الكثيرِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ أحكموا العلومَ ، وطهَّروا الجوارحَ ، وزيَّنوها بالطاعاتِ ، واجتنبوا ظاهرَ المعاصي ، وتفقَّدوا أخلاقَ النفسِ وصفاتِ القلبِ ؛ مِنَ الرياءِ والحسدِ والحقدِ والكبرِ وطلبِ العلوّ ، وجاهدوا أنفسَهُمْ في التبرّي منها ، وقلعوا مِنَ القلوبِ منابتَها الجليَّةَ القويَّةَ ، ولـٰكنَّهُمْ بعدُ مغرورونَ ؛ إذْ بقيَتْ في زوايا القلبِ مِنْ خفايا مكايدِ الشيطانِ وخبايا خداعِ النفسِ ما دَقَّ وغمُضَ مدركُهُ ، فلمْ يفطنوا لها وأهملوها .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ مَنْ يريدُ تنقيةَ الزرعِ مِنَ الحشيشِ ، فدارَ عليهِ ، وفتَّشَ عنْ كلِّ حشيشٍ رآهُ فقلعَهُ ، إلا أنَّهُ لمْ يفتّشْ عمَّا لمْ يخرجْ رأسُهُ بعدُ مِنْ تحتِ الأرضِ ، وظنَّ أنَّ الكلَّ قدْ ظهرَ وبرزَ ، وكانَ قدْ نبتَ مِنْ أصولِ الحشيشِ شُعَبٌ لِطافٌ ، فانبسطَتْ تحتَ الترابِ ، فأهملَها وهوَ يظنُّ أنَّهُ قدْ قلعَها وطهَّرَها ، فإذا هوَ بها في غفلتِهِ وقدْ نبتَتْ وقويَتْ ، وأفسدَتْ أصولَ الزرعِ مِنْ حيثُ لا يدري ، فكذٰلكَ العالمُ قدْ يفعلُ جميعَ ذٰلكَ ، ويذهلُ عنِ المراقبةِ للخفايا ، والتفقُّدِ للدقائقِ ، فتراهُ يسهرُ ليلَهُ ويتعبُ نهارَهُ في جمعِ العلومِ وترتيبِها ، وتحسينِ ألفاظِها وجمعِ التصانيفِ فيها ، وهوَ يرىٰ أنَّ باعثَهُ الحرصُ علىٰ إظهارِ دينِ اللهِ ونشرِ شريعتِهِ ، ولعلَّ باعثَهُ الخفيَّ هوَ طلبُ الذكرِ ، وانتشارُ الصيتِ في الأطرافِ ، وكثرةُ الرحلةِ إليهِ مِنَ الآفاقِ ، وانطلاقُ الألسنةِ عليهِ بالثناءِ والمدحِ بالزهدِ والورعِ والعلمِ ، والتقديمُ لهُ في المهمَّاتِ ، وإيثارُهُ في الأغراضِ ، والاجتماعُ حولَهُ للاستفادةِ ، والتلذُّذُ بحسنِ الإصغاءِ عندَ حسنِ اللفظِ والإيرادِ ، والتمتعُ بتحريكِ الرؤوسِ إلىٰ كلامِهِ ، والبكاءُ عليهِ ، والتعجبُ منهُ ، والفرحُ بكثرةِ الأصحابِ والأتباعِ والمستفيدينَ ، والسرورُ بالتخصُّصِ بهـٰذهِ الخاصيَّةِ مِنْ بينِ سائرِ الأقرانِ والأشكالِ ، للجمعِ بينَ العلمِ والورعِ وظاهرِ الزهدِ ، والتمكنِ بهِ مِنْ إطلاقِ لسانِ الطعنِ في الكافَّةِ المقبلينَ على الدنيا ، لا عنْ تفجُّعٍ بمصيبةِ الدينِ ، ولـٰكنْ عنْ إدلالٍ بالتمييزِ ، واعتدادٍ بالتخصيصِ .

ولعلَّ هـٰذا المسكينَ المغرورَ حياتُهُ في الباطنِ بما انتظمَ لهُ مِنْ أمرٍ وإمارةٍ ، وعزٍّ وانقيادٍ ، وتوقيرٍ وحسنِ ثناءٍ ، فلوْ تغيَّرَتْ عليهِ القلوبُ ، واعتقدوا فيهِ خلافَ الزهدِ بما يظهرُ مِنْ أعمالِهِ . . فعساهُ يتشوَّشُ عليهِ قلبُهُ ، وتختلطُ عليهِ أورادُهُ ووظائفُهُ .

وعساهُ يعتذرُ بكلِّ حيلةٍ لنفسِهِ ، وربَّما يحتاجُ إلىٰ أنْ يكذبَ في تغطيةِ عيبِهِ ، وعساهُ يؤثرُ بالكرامةِ والمراعاةِ مَنِ اعتقدَ فيهِ الزهدَ والورعَ وإنْ كانَ قدِ اعتقدَ فيهِ فوقَ قدرِهِ ، وينبو قلبُهُ عمَّنْ عرفَ حدَّ فضلِهِ وورعِهِ وإنْ كانَ ذٰلكَ علىٰ وَفْقِ حالِهِ .

وعساهُ يؤثرُ بعضَ أصحابِهِ علىٰ بعضٍ وهوَ يرىٰ أنَّهُ يؤثرُهُ لتقدُّمِهِ في الفضلِ والورعِ ، وإنَّما ذٰلكَ لأنَّهُ أطوعُ لهُ وأتبعُ لمرادِهِ ، وأكثرُ ثناءً عليهِ وأشدُّ إصغاءً إليهِ ، وأحرصُ علىٰ خدمتِهِ ، ولعلَّهُمْ يستفيدونَ منهُ ، ويرغبونَ في العملِ ، وهوَ يظنُّ أنَّ قبولَهُمْ لهُ لإخلاصِهِ وصدقِهِ ، وقيامِهِ بحقِّ علمِهِ ، فيحمدُ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما يسَّرَ علىٰ لسانِهِ

---

(١) قوت القلوب (١/١٤١) .

مِنْ منافعِ خلقِهِ ، ويرىٰ أنَّ ذٰلكَ مكفِّرٌ لذنوبِهِ ، ولـمْ يتفقَّدْ معَ نفسِهِ تصحيحَ النيةِ فيهِ .

وعساهُ لوْ وُعِدَ بمثلِ ذٰلكَ الثوابِ في إيثارِ الخمولِ والعزلةِ وإخفاءِ العلمِ . . لـمْ يرغبْ فيهِ ؛ لفقدِهِ في العزلةِ ، ولاختفاءِ لذةِ القبولِ وعزِّ الرئاسةِ ، ولعلَّ مثلَ هٰذا هوَ المرادُ بقولِ الشيطانِ : مَنْ زعمَ مِنْ بني آدمَ أنَّهُ بعلمِهِ امتنعَ منِّي . . فبجهلِهِ وقعَ في حبائلي[1]

وعساهُ يصنِّفُ ويجتهدُ فيهِ[2] ، ظانّاً أنَّهُ يجمعُ علمَ اللهِ لِيُنتفعَ بهِ ، وإنَّما يريدُ بهِ استطارةَ اسمِهِ بحسنِ التصنيفِ ، فلوِ ادَّعىٰ مُدَّعٍ تصنيفَهُ ، ومحا عنهُ اسمَهُ ، ونسبَهُ إلىٰ نفسِهِ . . ثقُلَ ذٰلكَ عليهِ ، معَ علمِهِ بأنَّ ثوابَ الاستفادةِ مِنَ التصنيفِ إنَّما يرجعُ إلى المصنِّفِ ، واللهُ عالمٌ بأنَّهُ هوَ المصنِّفُ لا مَنِ ادَّعاهُ .

ولعلَّهُ في تصنيفِهِ لا يخلو مِنَ الثناءِ علىٰ نفسِهِ ، إمَّا صريحاً بالدعاوى الطويلةِ العريضةِ ، وإمَّا ضمناً بالطعنِ في غيرِهِ ؛ ليستبينَ مِنْ طعنِهِ في غيرِهِ أنَّهُ أفضلُ ممَّنْ طعنَ فيهِ وأعظمُ منهُ علماً ، ولقدْ كانَ في غُنيةٍ عنِ الطعنِ فيهِ ، ولعلَّهُ يحكي مِنَ الكلامِ المزيفِ ما يزيدُ تزييفَهُ فيعزوهُ إلىٰ قائلِهِ ، وما يستحسنُهُ لعلَّهُ لا يعزوهُ إليهِ ؛ ليظنَّ أنَّهُ مِنْ كلامِهِ ، فينقلُهُ بعينِهِ كالسارقِ لهُ ، أوْ يغيِّرُهُ أدنىٰ تغييرٍ ؛ كالذي يسرقُ قميصاً مِنْ غيرِهِ فيتخذُهُ قَباءً حتَّىٰ لا يُعرفَ أنَّهُ مسروقٌ ، ولعلَّهُ يجتهدُ في تزيينِ ألفاظِهِ ، وتسجيعِهِ وتحسينِ نظمِهِ ؛ كيْ لا ينسبَ إلى الركاكةِ ، ويرىٰ أنَّ غرضَهُ ترويجُ الحكمةِ وتحسينُها وتزيينُها ؛ ليكونَ أقربَ إلىٰ نفعِ الناسِ ، وعساهُ غافلٌ عما رُويَ أنَّ بعضَ الحكماءِ وضعَ ثلاثَ مئةِ مصحفٍ في الحكمةِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّ زمانِهِ : قلْ لهُ : قدْ ملأتَ الأرضَ نفاقاً ، وإنِّي لا أقبلُ مِنْ نفاقِكَ شيئاً[3]

ولعلَّ جماعةً مِنْ هٰذا الصنفِ مِنَ المغترينَ إذا اجتمعوا . . ظنَّ كلُّ واحدٍ بنفسِهِ السلامةَ عنْ عيوبِ القلبِ وخفاياهُ ، فلوِ افترقوا واتَّبعَ كلُّ واحدٍ منهُمْ فرقةً مِنْ أصحابِهِ . . نظرَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلىٰ كثرةِ مَنْ يتبعُهُ ، وأنَّهُ أكثرُ تبعاً أمْ غيرُهُ ، فيفرحُ إنْ كانَ أتباعُهُ أكثرَ وإنْ علمَ أنَّ غيرَهُ أحقُّ بكثرةِ الأتباعِ منهُ ، ثمَّ إذا تفرَّقوا واشتغلوا بالإفادةِ . . تغايروا وتحاسدوا .

ولعلَّ مَنْ يختلفُ إلىٰ واحدٍ منهُمْ إذا انقطعَ عنهُ إلىٰ غيرِهِ . . ثقُلَ علىٰ قلبِهِ ووجدَ في نفسِهِ نفرةً منهُ ، فبعدَ ذٰلكَ لا يهتزُّ باطنُهُ لإكرامِهِ ، ولا يتشمَّرُ لقضاءِ حوائجِهِ كما كانَ يتشمَّرُ مِنْ قبلُ ، ولا يحرصُ على الثناءِ عليهِ كما كانَ يثني ، معَ علمِهِ بأنَّهُ مشغولٌ بالاستفادةِ ، ولعلَّ التحيُّزَ منهُ إلىٰ فئةٍ أخرىٰ كانَ أنفعَ لهُ في دينِهِ ؛ لآفةٍ مِنَ الآفاتِ كانَتْ تلحقُهُ في هٰذهِ الفئةِ ، وسلامتِهِ منها في تلكَ الفئةِ ، ومعَ ذٰلكَ لا تزولُ النفرةُ عنْ قلبِهِ .

ولعلَّ واحداً منهُمْ إذا تحرَّكَتْ فيهِ مبادي الحسدِ . . لـمْ يقدرْ علىٰ إظهارِهِ ، فيتعلَّلُ بالطعنِ في دينِهِ وفي ورعِهِ ؛ ليحملَ غضبَهُ علىٰ ذٰلكَ ، ويقولُ : إنَّما غضبتُ لدينِ اللهِ لا لنفسي ، ومهما ذُكرَتْ عيوبُهُ بينَ يديهِ . . ربَّما فرحَ بهِ ، وإنْ أُثنيَ عليهِ . . ربَّما ساءَهُ وكرهَهُ ، وربَّما قطَّبَ وجهَهُ إذا ذُكرَتْ عيوبُهُ[4] ، يظهرُ أنَّهُ كارهٌ لغيبةِ المسلمينَ وسرُّ قلبِهِ راضٍ بهِ ومريدٌ لهُ ، واللهُ مُطَّلِعٌ عليهِ في كلِّ ذٰلكَ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٧/٩) عن أبي عبد الله الساجي .
(٢) أي : في تصنيفه . « إتحاف » (٤٥٣/٨) .
(٣) قوت القلوب (٢٣٣/٢) .
(٤) أي : عيوب المحسود .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنْ خفايا العيوبِ لا يفطنُ لهُ إلا الأكياسُ ، ولا يتنزَّهُ منهُ إلا الأقوياءُ ، ولا مطمعَ فيهِ لأمثالِنا مِنَ الضعفاءِ ، إلا أنَّ أقلَّ الدرجاتِ أنْ يعرفَ الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ ، ويسوءَهُ ذٰلكَ ويكرهَهُ ، ويحرصَ علىٰ إصلاحِهِ ، فإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ ، ومَنْ سرَّتْهُ حسنتُهُ وساءَتْهُ سيئتُهُ . . فهوَ مرجوُّ الحالِ ، وأمرُهُ أقربُ مِنَ المغرورِ المزكِّي لنفسِهِ ، الممتنّ على اللهِ بعملِهِ وعلمِهِ ، الظانّ أنَّهُ مِنْ خيارِ خلقِهِ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الغفلةِ والاغترارِ ، ومِنَ المعرفةِ بخفايا العيوبِ معَ الإهمالِ .

هٰذا غرورُ الذينَ حصَّلوا العلومَ المهمَّةَ ، ولٰكنْ قصَّروا في العملِ بالعلمِ .

❀ ❀ ❀

ولنذكرِ الآنَ غرورَ الذينَ قنعوا مِنَ العلومِ بما لمْ يهمَّهُمْ ، وتركوا المهمَّ وهمْ بِهِ مغترُّونَ ؛ إما لاستغنائِهِمْ عنْ أصلِ ذٰلكَ العلمِ ، وإمَّا لاقتصارِهِمْ عليهِ .

فمنهُمْ فرقةٌ اقتصروا علىٰ علمِ الفتاوىٰ في الحكوماتِ والخصوماتِ ، وتفاصيلِ المعاملاتِ الدنيويةِ الجاريةِ بينَ الخلقِ لمصالحِ المعاشِ ، وخصَّصوا اسمَ الفقهِ بها ، وسمَّوْهُ الفقهَ وعلمَ المذهبِ ، وربَّما ضيعوا معَ ذٰلكَ الأعمالَ الظاهرةَ والباطنةَ ؛ فلمْ يتفقَّدوا الجوارحَ ، ولمْ يحرسوا اللسانَ عنِ الغيبةِ ، ولا البطنَ عنِ الحرامِ ، ولا الرجلَ عنِ المشيِ إلى السلاطينِ ، وكذا سائرُ الجوارحِ ، ولمْ يحرسوا قلوبَهُمْ عنِ الكبرِ والحسدِ والرياءِ وسائرِ المهلكاتِ ، **فهٰؤلاءِ مغرورونَ مِنْ وجهينِ** : أحدُهُما مِنْ حيثُ العملُ ، والآخرُ مِنْ حيثُ العلمُ .

أمَّا العملُ . . فقدْ ذكرنا وجهَ الغرورِ فيهِ ، وأنَّ مثالَهُمْ مثالُ المريضِ إذا تعلَّمَ نسخةَ الدواءِ ، واشتغلَ بتكرارِهِ وحفظِهِ وتعليمِهِ ، لا بلْ مثالُهُمْ مثالُ مَنْ بهِ علَّةُ البواسيرِ والبرسامِ وهوَ مشرفٌ على الهلاكِ ، ومحتاجٌ إلىٰ تعلُّمِ الدواءِ واستعمالِهِ ، فاشتغلَ بتعلُّمِ دواءِ الاستحاضةِ ، وتكرارِ ذٰلكَ ليلاً ونهاراً ، معَ علمِهِ بأنَّهُ رجلٌ لا يحيضُ ولا يُستحاضُ ، ولٰكنْ يقولُ : ربَّما تقعُ علَّةُ الاستحاضةِ لامرأةٍ وتسألُني عنهُ ، وذٰلكَ غايةُ الغرورِ ، فكذٰلكَ المتفقِّهُ المسكينُ قدْ تسلَّطَ عليهِ حبُّ الدنيا ، واتباعُ الهوىٰ والشهواتِ والحسدِ والكبرِ والرياءِ وسائرِ المهلكاتِ الباطنةِ ، وربَّما يختطفُهُ الموتُ قبلَ التوبةِ والتلافي ، فيلقى اللهَ وهوَ عليهِ غضبانُ ، فتركَ ذٰلكَ كلَّهُ واشتغلَ بعلمِ السلَمِ والإجارةِ ، والظهارِ واللعانِ ، والجراحاتِ والدياتِ ، والدعاوىٰ والبيناتِ ، وبكتابِ الحيضِ ، ولا يحتاجُ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ قطُّ في عمرِهِ لنفسِهِ ، وإذا احتاجَ غيرُهُ . . كانَ في المفتينَ كثرةٌ ، فيشتغلُ بذٰلكَ ويحرصُ عليهِ ؛ لما فيهِ مِنَ الجاهِ والمالِ والرئاسةِ ، وقدْ دهاهُ الشيطانُ وما يشعرُ ؛ إذْ يظنُّ المسكينُ المغرورُ بنفسِهِ أنَّهُ مشغولٌ بفرضِ دينِهِ ، وليسَ يدري أنَّ الاشتغالَ بفرضِ الكفايةِ قبلَ الفراغِ مِنْ فرضِ العينِ معصيةٌ ، هٰذا لوْ كانَتْ نيَّتُهُ صحيحةً كما قالَ ، وكانَ قدْ قصدَ بالفقهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّهُ وإنْ قصدَ وجهَ اللهِ . . فهوَ باشتغالِهِ بِهِ معرضٌ عنْ فروضِ عينِهِ في جوارحِهِ وقلبِهِ ، فهٰذا غرورُهُ مِنْ حيثُ العملُ .

وأمَّا غرورُهُ مِنْ حيثُ العلمُ . . فحيثُ اقتصرَ علىٰ علمِ الفتاوىٰ ، وظنَّ أنَّهُ علمُ الدينِ ، وتركَ علمَ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وربَّما طعنَ على المحدِّثينَ ، وقالَ : إنَّهُمْ نَقَلَةُ أخبارٍ ، وحَمَلةُ أسفارٍ لا يفقهونَ ما فيها ، وتركَ أيضاً علمَ تهذيبِ الأخلاقِ ، وتركَ الفقهَ عنِ اللهِ تعالىٰ بإدراكِ جلالِهِ وعظمتِهِ ، وهوَ العلمُ الذي يورثُ الخوفَ والهيبةَ والخشوعَ ، ويحملُ على التقوىٰ ، فتراهُ آمناً مِنَ اللهِ ، مغترّاً بهِ ، متّكلاً علىٰ أنَّهُ لا بدَّ وأنْ يرحمَهُ ، فإنَّهُ

قوامُ دينِهِ ، وإنَّهُ لوْ لمْ يشتغلْ بالفتاوىٰ . . لتعطَّلَ الحلالُ والحرامُ ، فقدْ تركَ العلومَ التي هيَ أهمُّ وهوَ غافلٌ مغرورٌ ، وسببُ غرورِهِ ما سمعَ في الشرعِ مِنْ تعظيمِ الفقهِ ، ولمْ يدرِ أنَّ ذٰلكَ الفقهَ هوَ الفقهُ عنِ اللهِ ، ومعرفةُ صفاتِهِ المَخُوفَةِ والمرجوةِ ؛ ليستشعرَ القلبُ الخوفَ ويلازمَ التقوىٰ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ، والذي يحصلُ بهِ الإنذارُ غيرُ هٰذا العلمِ ؛ فإنَّ مقصودَ هٰذا العلمِ حفظُ الأموالِ بشروطِ المعاملاتِ ، وحفظُ الأبدانِ بالأموالِ وبدفعِ القتلِ والجراحاتِ ، والمالُ في طريقِ اللهِ آلةٌ ، والبدنُ مركبٌ ، وإنَّما العلمُ المهمُّ هوَ معرفةُ سلوكِ الطريقِ ، وقطعُ عقباتِ القلبِ التي هيَ الصفاتُ المذمومةُ ، فهيَ الحجابُ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإذا ماتَ ملوَّثاً بتلكَ الصفاتِ . . كانَ محجوباً عنِ اللهِ ، فمثالُهُ في الاقتصارِ علىٰ علمِ الفقهِ مثالُ مَنِ اقتصرَ مِنْ سلوكِ طريقِ الحجِّ علىٰ علمِ خرزِ الراويةِ والخفِّ ، ولا شكَّ في أنَّهُ لوْ لمْ يكنْ . . . لتعطَّلَ الحجُّ ، ولٰكنَّ المقتصرَ عليهِ ليسَ مِنَ الحجِّ في شيءٍ ، وقدْ ذكرنا شرحَ ذٰلكَ في كتابِ العلمِ .

ومِنْ هٰؤلاءِ مَنِ اقتصرَ مِنْ علمِ الفقهِ على الخلافياتِ ، ولمْ يهمُّهُ إلا تعلُّمُ طريقِ المجادلةِ والإلزامِ وإفحامِ الخصومِ ودفعِ الحقِّ ؛ لأجلِ الغلبةِ والمباهاةِ ؛ فهوَ طولَ الليلِ والنهارِ في التفتيشِ عنْ مناقضاتِ أربابِ المذاهبِ ، والتفقُّدِ لعيوبِ الأقرانِ ، والتلقفِ لأنواعِ التسبيباتِ المؤذيةِ ، وهٰؤلاءِ همْ سباعُ الإنسِ ، طبعُهُمُ الإيذاءُ ، وهمُّهُمُ السفهُ ، ولا يقصدونَ العلمَ إلا لضرورةِ ما يلزمُهُمْ لمباهاةِ الأقرانِ ، فكلُّ علمٍ لا يحتاجونَ إليهِ في المباهاةِ ؛ كعلمِ القلبِ ، وعلمِ سلوكِ الطريقِ إلى اللهِ تعالىٰ ، بمحوِ الصفاتِ المذمومةِ ، وتبديلِها بالمحمودةِ . . فإنَّهُمْ يستحقرونَهُ ، ويسمُّونَهُ التزويقَ وكلامَ الوعَّاظِ ، وإنَّما التحقيقُ عندَهُمْ معرفةُ تفاصيلِ العربدةِ التي تجري بينَ المتصارعينَ في الجدلِ ، وهٰؤلاءِ قدْ جمعوا ما جمعَهُ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ في علمِ الفتاوىٰ ، لٰكنْ زادوا إذِ اشتغلوا بما ليسَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ أيضاً ، بلْ جميعُ دقائقِ الجدلِ في الفقهِ بدعةٌ لمْ يعرفْها السلفُ .

وأمَّا أدلةُ الأحكامِ . . فيشتملُ عليها علمُ المذهبِ ، وهوَ كتابُ اللهِ وسنةُ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفهمُ معانيهما ، وأمَّا حِيَلُ الجدلِ ؛ مِنَ الكسرِ والقلبِ وفسادِ الوضعِ والتركيبِ والتعديةِ . . فإنَّما أُبدِعَتْ لإظهارِ الغلبةِ والإفحامِ ، وإقامةِ سوقِ الجدلِ بها ، فغرورُ هٰؤلاءِ أشدُّ كثيراً وأقبحُ مِنْ غرورِ مَنْ قبلَهُمْ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرى اشتغلوا بعلمِ الكلامِ والمجادلةِ في الأهواءِ ، والردِّ على المخالفينَ ، وتتبُّعِ مناقضاتِهِمْ ، واستكثروا مِنْ معرفةِ المقالاتِ المختلفةِ ، واشتغلوا بتعلُّمِ الطرقِ في مناظرةِ أولٰئكَ وإفحامِهِمْ ، وافترقوا في ذٰلكَ فرقاً كثيرةً ، واعتقدوا أنَّهُ لا يكونُ لعبدٍ عملٌ إلا بإيمانٍ ، ولا يصحُّ إيمانٌ إلا بتعلُّمِ جدلِهِمْ وما قدْ سمَّوهُ أدلةَ عقائدِهِمْ ، وظنُّوا أنَّهُ لا أحدَ أعرفُ باللهِ وبصفاتِهِ منهُمْ ، وأنَّهُ لا إيمانَ لمَنْ لمْ يعتقدْ مذهبَهُمْ ولمْ يتعلَّمْ علمَهُمْ ، ودعتْ كلُّ فرقةٍ منهُمْ إلىٰ نفسِها .

ثمَّ همْ فرقتانِ : ضالَّةٌ ومحقَّةٌ ، فالضالَّةُ هيَ التي تدعو إلىٰ غيرِ السنةِ ، والمحقَّةُ هيَ التي تدعو إلى السنةِ ، والغرورُ شاملٌ لجميعِهِمْ :

أمَّا الضالةُ . . فلغفلتِها عنْ ضلالتِها ، وظنِّها بنفسِها النجاةَ ، وهمْ فرقٌ كثيرةٌ يكفِّرُ بعضُهُمْ بعضاً ، وإنَّما أُتِيَتْ مِنْ حيثُ إنَّها لمْ تتهمْ رأيَها ، ولمْ تُحْكِمْ أوَّلاً شروطَ الأدلَّةِ ومنهاجَها ، فرأَتِ الشبهةَ دليلاً ، والدليلَ شبهةً .

وأمَّا الفرقةُ المحقَّةُ . . فإنَّما اغترارُها مِنْ حيثُ إنَّها ظنَّتْ بالجدلِ أنَّهُ أهمُّ الأمورِ ، وأفضلُ القرباتِ في دينِ اللهِ ، وزعمَتْ أنَّهُ لا يتمُّ لأحدٍ دينُهُ ما لمْ يفحصْ ولمْ يبحثْ ، وأنَّ مَنْ صدَّقَ اللهَ ورسولَهُ مِنْ غيرِ بحثٍ وتحريرِ دليلٍ . . فليسَ بمؤمنٍ ، أوْ ليسَ بكاملِ الإيمانِ ولا مقربٍ عندَ اللهِ ، فلهاذا الظنِّ الفاسدِ قطعَتْ أعمارَها في تعلُّمِ الجدلِ ، والبحثِ عنِ المقالاتِ وهذياناتِ المبتدعةِ ومناقضاتِهِمْ ، وأهملَتْ أنفسَها وقلوبَها ، حتَّىٰ عميَتْ عليها ذنوبُها وخطاياها الظاهرةُ والباطنةُ ، وهيَ تظنُّ أن اشتغالَها بالجدلِ أولىٰ وأقربُ عندَ اللهِ تعالىٰ وأفضلُ ، ولـٰكنَّها لالتذاذِها بالغلبةِ والإفحامِ ولذَّةِ الرئاسةِ وعزِّ الانتماءِ إلى الذَّبِّ عنْ دينِ اللهِ . . عميَتْ بصيرتُها ، فلمْ تلتفتْ إلى القرنِ الأولِ ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شهدَ لهُمْ بأنَّهُمْ خيرُ الخلقِ ، وأنَّهُمْ قدْ أدركوا كثيراً مِنْ أهلِ البدعِ والأهواءِ ، فما جعلوا أعمارَهُمْ ودينَهُمْ غرضاً للخصوماتِ والمجادلاتِ ، وما اشتغلوا بذٰلكَ عنْ تفقُّدِ قلوبِهِمْ وجوارحِهِمْ وأحوالِهِمْ ، بلْ لمْ يتكلَّموا فيهِ إلا مِنْ حيثُ رأَوا حاجةً ، وتوسَّموا مخايلَ قبولٍ ، فذكروا بقدْرِ الحاجةِ ما يدلُّ الضالَّ علىٰ ضلالتِهِ ، وإذا رأَوا مصرّاً علىٰ ضلالةٍ . . هجروهُ وأعرضوا عنهُ ، وأبغضوهُ في اللهِ ، ولمْ يلزموا الملاحَّةَ معَهُ طولَ العمرِ ، بلْ قالوا : إنَّ الحقَّ هوَ الدعوةُ إلى السنةِ ، ومِنَ السنةِ تركُ الجدلِ في الدعوةِ إلى السنةِ ؛ إذْ روىٰ أبو أمامةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ما ضلَّ قومٌ قطُّ بعدَ هدىً كانوا عليهِ إلا أُوتوا الجدلَ »(١)

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً علىٰ أصحابِهِ وهمْ يتجادلونَ ويختصمونَ ، فغضبَ عليهِمْ حتَّىٰ كأنَّهُ فُقِئَ في وجهِهِ حبُّ الرمانِ حمرةً مِنَ الغضبِ ، فقالَ : « ألهاذا بُعثتُمْ أمْ بهاذا أُمرتُمْ أنْ تضربوا كتابَ اللهِ بعضَهُ ببعضٍ ؟! انظروا إلىٰ ما أُمرتُمْ بهِ فاعملوا ، وما نُهيتُمْ عنهُ فانتهوا »(٢)

فقدْ زجرَهُمْ عنْ ذٰلكَ ، وكانوا أولىٰ خلقِ اللهِ بالحجاجِ والجدالِ .

ثمَّ إنَّهُمْ رأَوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ بُعثَ إلىٰ كافَّةِ أهلِ المللِ ، فلمْ يقعدْ معَهُمْ في مجلسِ مجادلةٍ لإلزامٍ وإفحامٍ وتحقيقِ حجَّةٍ ودفعِ سؤالٍ وإيرادِ إلزامٍ فما جادلَهُمْ إلا بتلاوةِ القرآنِ المنزلِ عليهِمْ ، ولمْ يزدْ في المجادلةِ عليهِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ يشوشُ القلوبَ ، ويستخرجُ منها الإشكالاتِ والشبهَ ، ثمَّ لا يَقدرُ علىٰ محوِها مِنْ قلوبِهِمْ ، وما كانَ يعجزُ عنْ مجادلتِهِمْ بالتقسيماتِ ودقائقِ الأقيسةِ ، وأنْ يعلِّمَ أصحابَهُ كيفيةَ الجدلِ والإلزامِ ، ولـٰكنَّ الأكياسَ وأهلَ الحزمِ لمْ يغترُّوا بهاذا ، وقالوا : لوْ نجا أهلُ الأرضِ وهلكنا . . لمْ تنفعْنا نجاتُهُمْ ، ولوْ نجونا وهلكوا . . لمْ يضرَّنا هلاكُهُمْ ، وليسَ علينا في المجادلةِ أكثرُ ممَّا كانَ على الصحابةِ معَ اليهودِ والنصارىٰ وأهلِ المللِ ، وما ضيَّعوا العمرَ بتحريرِ مجادلاتِهِمْ ، فما لنا نضيِّعُ العمرَ ولا نصرفُهُ إلىٰ ما ينفعُنا في يومِ فقرِنا وفاقتِنا ؟ ولِمَ نخوضُ فيما لا نأمنُ علىٰ أنفسِنا الخطأَ في تفاصيلِهِ ؟ ثمَّ نرىٰ أنَّ المبتدعَ ليسَ يتركُ بدعتَهُ بجدالِهِ ، بلْ يزيدُهُ التعصبُ والخصومةُ تشدُّداً في بدعتِهِ ، فاشتغالي بمخاصمةِ نفسي ومجادلتِها ، ومجاهدتِها لتتركَ الدنيا للآخرة أولىٰ ، هاذا لوْ كنتُ لمْ أُنهَ عنِ الجدلِ والخصومةِ ، فكيفَ وقدْ نُهيتُ عنهُ ؟! فكيفَ أدعو إلى السنةِ بتركِ السنةِ ؟ فالأولىٰ أنْ أتفقَّدَ نفسي ، وأنظرَ مِنْ صفاتِها ما يبغضُهُ اللهُ تعالىٰ وما يحبُّهُ ؛ لأتنزَّهَ عمَّا يبغضُهُ وأتمسَّكَ بما يحبُّهُ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) .
(٢) رواه ابن ماجه (٨٥) .

وفرقةٌ أخرى اشتغلوا بالوعظِ والتذكيرِ ، وأعلاهُمْ رتبةً مَنْ يتكلَّمُ في أخلاقِ النفسِ وصفاتِ القلبِ ؛ مِنَ الخوفِ ، والرجاءِ ، والصبرِ ، والشكرِ ، والتوكلِ ، والزهدِ ، واليقينِ ، والإخلاصِ ، والصدقِ ، ونظائرِها ، وهمْ مغرورونَ يظنُّونَ بأنفسِهِمْ أنَّهُمْ إذا تكلَّموا بهـٰذهِ الصفاتِ ودعَوُا الخلقَ إليها . . فقدْ صاروا موصوفينَ بهـٰذهِ الصفاتِ ، وهمْ منفكونَ عنها عندَ اللهِ تعالىٰ ، إلا عنْ قدْرٍ يسيرٍ لا ينفكُّ عنهُ عوامُّ المسلمينَ .

وغرورُ هـٰؤلاءِ أشدُّ الغرورِ ؛ لأنَّهُمْ يُعجبونَ بأنفسِهِمْ غايةَ الإعجابِ ، ويظنُّونَ أنَّهُمْ ما تبحَّروا في علمِ المحبةِ إلا وهمْ محبُّونَ للهِ ، وما قدروا علىٰ تحقيقِ دقائقِ الإخلاصِ إلا وهمْ مخلصونَ ، وما وقفوا علىٰ خفايا عيوبِ النفسِ إلا وهمْ عنها منزَّهونَ ، ولولا أنَّهُ مقرَّبٌ عندَ اللهِ . . لما عرفَ معنى القربِ والبعدِ ، وعلمَ السلوكِ إلى اللهِ ، وكيفيةَ قطعِ المنازلِ في طريقِ اللهِ ، فالمسكينُ بهـٰذهِ الظنونِ يرىٰ أنَّهُ مِنَ الخائفينَ وهوَ آمنٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويرىٰ أنَّهُ مِنَ الراجينَ وهوَ مِنَ المغترِّينَ المضيِّعينَ ، ويرىٰ أنَّهُ من الراضينَ بقضاءِ اللهِ وهوَ مِنَ الساخطينَ ، ويرىٰ أنَّهُ مِنَ المتوكلينَ على اللهِ وهوَ مِنَ المتَّكلينَ على العزِّ والجاهِ والمالِ والأسبابِ ، ويرىٰ أنَّهُ مِنَ المخلصينَ وهوَ مِنَ المرائينَ ، بلْ يصفُ الإخلاصَ فيتركُ الإخلاصَ في الوصفِ ، ويصفُ الرياءَ ويذكرُهُ وهوَ يرائي بذكرِهِ ؛ ليعتقدَ فيهِ أنَّهُ لولا أنَّهُ مخلصٌ . . لما اهتدىٰ إلىٰ دقائقِ الرياءِ ، ويصفُ الزهدَ في الدنيا لشدَّةِ حرصِهِ على الدنيا وقوةِ رغبتِهِ فيها ، فهوَ يظهرُ الدعاءَ إلى اللهِ وهوَ منهُ فارٌّ ، ويخوِّفُ باللهِ تعالىٰ وهوَ منهُ آمنٌ ، ويذكِّرُ باللهِ تعالىٰ وهوَ لهُ ناسٍ ، ويقرِّبُ إلى اللهِ وهوَ منهُ متباعدٌ ، ويحثُّ على الإخلاصِ وهوَ غيرُ مخلصٍ ، ويذمُّ الصفاتِ المذمومةَ وهوَ بها متصفٌ ، ويصرفُ الناسَ عنِ الخلقِ وهوَ على الخلقِ أشدُّهُمْ حرصاً ، لوْ مُنِعَ أحدُهُمْ عنْ مجلسِهِ الذي يدعو فيهِ الناسَ إلى اللهِ . . لضاقَتْ عليهِ الأرضُ بما رحُبَتْ ، ويزعُمُ أنَّ غرضَهُ إصلاحُ الخلقِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ أقبلَ الخلقُ عليهِ ، وصلحوا علىٰ يديهِ . . لمات غمّاً وحسداً ، ولوْ أثنىٰ أحدٌ مِنَ المتردِّدينَ إليهِ علىٰ بعضِ أقرانِهِ . . لكانَ أبغضَ خلقِ اللهِ إليهِ !!

فهـٰؤلاءِ أعظمُ الناسِ غِرَّةً ، وأبعدُهُمْ عنِ التنبُّهِ والرجوعِ إلى السدادِ ؛ لأنَّ المرغبَ في الأخلاقِ المحمودةِ والمنفرَ عنِ المذمومةِ هوَ العلمُ بغوائلِها وفوائدِها ، وهـٰذا قدْ علمَ ذٰلكَ ولمْ ينفعْهُ ، وشغلَهُ حبُّ دعوةِ الخلقِ عنِ العملِ بهِ ، فبعدَ ذٰلكَ بماذا يُعالَجُ ؟! وكيفَ سبيلُ تخويفِهِ وإنما المخوفُ ما يتلوهُ علىٰ عبادِ اللهِ فيخافونَ وهوَ ليسَ بخائفٍ ؟!

نعمْ ؛ إنْ ظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ موصوفٌ بهـٰذهِ الصفاتِ المحمودةِ يمكنُ أنْ يُدلَّ علىٰ طريقِ الامتحانِ والتجربةِ ، وذٰلكَ أنَّهُ إنْ كانَ يدَّعي مثلاً حبَّ اللهِ[1] . . فما الذي تركَهُ مِنْ محابِّ الدنيا لأجلِهِ ؟ وإنْ كانَ يدَّعي الخوفَ . . فما الذي امتنعَ منهُ بالخوفِ ، وإنْ كانَ يدَّعي الزهدَ . . فما الذي تركَهُ معَ القدرةِ عليهِ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ؟ وإنْ كانَ يدَّعي الأنسَ باللهِ . . فمتىٰ طابَتْ لهُ الخلوةُ ؟ ومتى استوحشَ مِنْ مشاهدةِ الخلقِ ؟ لا بلْ يرىٰ قلبَهُ يمتلئُ بالحلاوةِ إذا أحدقَ بهِ المريدونَ ، وتراهُ يستوحشُ إذا خلا باللهِ تعالىٰ ، فهلْ رأيتَ محبّاً آنساً يستوحشُ مِنْ محبوبِهِ ، ويستروحُ منهُ إلىٰ غيرِهِ ؟!

فالأكياسُ يمتحنونَ أنفسَهُمْ في هـٰذهِ الصفاتِ ، ويطالبونَها بالحقيقةِ ، ولا يقنعونَ منها بالتزويقِ ، بلْ بموثقٍ مِنَ اللهِ غليظٍ ، والمغترُّونَ يحسنونَ بأنفسِهِمُ الظنونَ ، فإذا كُشِفَ الغطاءُ عنهُمْ في الآخرةِ . . يفتضحونَ ، بلْ يُطرحونَ في النارِ

---

(١) كذا في (ب) ، وفي بقية النسخ : (وهو أنه يدَّعي مثلاً حب الله عز وجل) .

فتندلقُ أقتابُهُمْ ، فيدورُ بها أحدُهُمْ كما يدورُ الحمارُ بالرحىٰ ، كما وردَ بهِ الخبرُ[1] ؛ لأنَّهُمْ يأمرونَ بالخيرِ ولا يأتونَهُ ، وينهونَ عنِ الشرِّ ويأتونَهُ .

وإنَّما وقعَ الغرورُ لهٰؤلاءِ مِنْ حيثُ إنَّهُمْ يصادفونَ في قلوبِهِمْ شيئاً ضعيفاً مِنْ أصولِ هٰذهِ المعاني ، وهوَ حبُّ اللهِ ، والخوفُ منهُ ، والرضا بفعلِهِ ، ثمَّ قدروا معَ ذٰلكَ علىٰ وصفِ المنازلِ العاليةِ في هٰذهِ المعاني ، فظنُّوا أنَّهُمْ ما قدروا علىٰ وصفِ ذٰلكَ ، وما رزقَهُمُ اللهُ علمَهُ ، وما نُفِعَ الناسُ بكلامِهِمْ فيها إلا لاتصافِهِمْ بها ، وذهبَ عليهِمْ أنَّ القبولَ للكلامِ ، والكلامَ للمعرفةِ وجريانِ اللسانِ ، والمعرفةَ للتعلمِ ، وأنَّ كلَّ ذٰلكَ غيرُ الاتصافِ بالصفةِ ، فلمْ يفارقْ آحادَ المسلمينَ في الاتصافِ بصفةِ الحبِّ والخوفِ ، بلْ في القدرةِ على الوصفِ ، بلْ ربَّما زادَ أمنُهُ وقلَّ خوفُهُ ، وظهرَ إلى الخلقِ ميلُهُ ، وضَعُفَ في قلبِهِ حبُّ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ مريضٍ يصفُ المرضَ ، ويصفُ دواءَهُ بفصاحتِهِ ، ويصفُ الصحةَ والشفاءَ ، وغيرُهُ مِنَ المرضىٰ لا يقدرُ علىٰ وصفِ الصحةِ والشفاءِ وأسبابِهِ ودرجاتِهِ وأصنافِهِ ؛ فهوَ لا يفارقُهُمْ في صفةِ المرضِ والاتصافِ بهِ ، وإنَّما يفارقُهُمْ في الوصفِ والعلمِ بالطبِّ ، فظنُّهُ عندَ علمِهِ بحقيقةِ الصحةِ أنَّهُ صحيحٌ . . غايةُ الجهلِ ، فكذٰلكَ العلمُ بالخوفِ والحبِّ والتوكلِ والزهدِ وسائرِ هٰذهِ الصفاتِ . . غيرُ الاتصافِ بحقائِقها ، ومَنِ التبسَ عليهِ وصفُ الحقائقِ بالاتصافِ بالحقائقِ . . فهوَ مغرورٌ ، فهٰذهِ حالةُ الوعَّاظِ الذينَ لا عيبَ في كلامِهِمْ ، بلْ منهاجُ وعظِهِمْ منهاجُ وعظِ القرآنِ والأخبارِ ، ووعظِ الحسنِ البصريِّ وأمثالِهِ رحمةُ اللهِ عليهِمْ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمْ عدلوا عنِ المنهاجِ الواجبِ في الوعظِ ، وهمْ وعَّاظُ أهلِ هٰذا الزمانِ كافةً إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ على الندورِ في بعضِ أطرافِ البلادِ إنْ كانَ ولسنا نعرفُهُ ، فاشتغلوا بالطامَّاتِ والشطحِ ، وتلفيقِ كلماتٍ خارجةٍ عنْ قانونِ الشرعِ والعقلِ ؛ طلباً للإغرابِ .

وطائفةٌ شُغفوا بطيَّاراتِ النُّكَتِ[2] ، وتسجيعِ الألفاظِ وتلفيقِها ، فأكثرُ همَّتِهِمْ في الإسجاعِ ، والاستشهادِ بأشعارِ الوصالِ والفراقِ ، وغرضُهُمْ أنْ تكثرَ في مجالسِهِمُ الزعقاتُ والتواجدُ ، ولوْ علىٰ أغراضٍ فاسدةٍ ، فهٰؤلاءِ شياطينُ الإنسِ ضلُّوا وأضلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ ، فإنَّ الأوَّلينَ وإنْ لمْ يصلِحوا أنفسَهُمْ فقدْ أصلحوا غيرَهُمْ ، وصحَّحوا كلامَهُمْ ووعظَهُمْ ، وأمَّا هٰؤلاءِ . . فإنَّهُمْ يصدونَ عنْ سبيلِ اللهِ ويجرُّونَ الخلقَ إلى الغرورِ باللهِ بلفظِ الرجاءِ ، فيزيدُهُمْ كلامُهُمْ جراءةً على المعاصي ، ورغبةً في الدنيا ، لا سيما إذا كانَ الواعظُ متزيِّناً بالثيابِ والخيلِ والمراكبِ ، فإنَّهُ يشهدُ مِنْ فَرْقِهِ إلىٰ قدمِهِ بشدَّةِ حرصِهِ على الدنيا ، فما يفسدُهُ هٰذا المغرورُ أكثرُ ممَّا يصلحُهُ ، بلْ لا يصلحُ أصلاً ، ويضلُّ خلقاً كثيراً ، فلا يخفىٰ وجهُ كونِهِ مغروراً .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمْ قنعوا بحفظِ كلامِ الزهَّادِ وأحاديثِهِمْ في ذمِّ الدنيا ، فهمْ يحفظونَ الكلماتِ علىٰ وجهِها ، ويؤدُّونَها مِنْ غيرِ إحاطةٍ بمعانيها ، فبعضُهُمْ يفعلُ ذٰلكَ على المنابرِ ، وبعضُهُمْ في المحاريبِ ، وبعضُهُمْ في الأسواقِ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأمعاء .

(٢) وهي المسائل الدقيقة التي تتعب الخواطر في استنباطها من مكانها . « إتحاف » (٨/٤٦٠) .

معَ الجلساءِ ، وكلٌّ منهُمْ يظنُّ أنَّهُ إذا تميَّزَ بهـٰذا القدْرِ عنِ السوقةِ والجنديَّةِ ؛ إذْ حفظَ كلامَ الزهَّادِ وأهلِ الدينِ دونَهُمْ . . فقدْ أفلحَ ونالَ الغرضَ ، وصارَ مغفوراً لهُ ، وأمنَ مِنْ عقابِ اللهِ مِنْ غيرِ أنْ يحفظَ ظاهرَهُ وباطنَهُ عنِ الآثامِ ، ولـٰكنَّهُ يظنُّ أنَّ حفظَهُ لكلامِ الزهادِ أهلِ الدينِ يكفيهِ ، وغرورُ هـٰؤلاءِ أظهرُ مِنْ غرورِ مَنْ قبلَهُمْ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرى استغرقوا أوقاتَهُمْ في علمِ الحديثِ ؛ أعني في سماعِهِ ، وجمعِ الرواياتِ الكثيرةِ منهُ ، وطلبِ الأسانيدِ الغريبةِ العاليةِ ، فهمَّةُ أحدِهِمْ أنْ يدورَ في البلادِ ويرى الشيوخَ ليقولَ : أنا أروي عنْ فلانٍ وفلانٍ ، ولقدْ لقيتُ فلاناً وفلاناً ، ومعي من الأسانيدِ ما ليسَ معَ غيري .

وغرورُهُمْ مِنْ وجوهٍ :

منها : أنَّهُمْ كحملةِ أسفارٍ ؛ فإنَّهُمْ لا يصرفونَ العنايةَ إلىٰ فهمِ معاني السنةِ ، فعلمُهُمْ قاصرٌ ، وليسَ معَهُمْ إلا النقلُ ، ويظنُّونَ أنَّ ذٰلكَ يكفيهِمْ .

ومنها : أنَّهُمْ إذا لمْ يفهموا معانيَها . . لا يعملونَ بها ، وقدْ يفهمونَ بعضَها أيضاً ولا يعملونَ بهِ .

ومنها : أنَّهُمْ يتركونَ العلمَ الذي هوَ فرضُ عينِهِمْ ـ وهوَ معرفةُ معالجةِ القلبِ ـ ويشتغلونَ بتكثيرِ الأسانيدِ وطلبِ العالي منها ، ولا حاجةَ بهِمْ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ .

ومنها ـ وهوَ الذي أكبَّ عليهِ أهلُ الزمانِ ـ : أنَّهُمْ أيضاً لا يقومونَ بشرطِ السماعِ ، فإنَّ السماعَ بمجردِهِ وإنْ لمْ يكنْ لهُ فائدةٌ ، ولـٰكنَّهُ مهمٌّ في نفسِهِ للوصولِ إلىٰ إثباتِ الحديثِ ؛ إذِ التفهُّمُ بعدَ الإثباتِ ، والعملُ بعدَ التفهُّمِ ، فالأوَّلُ السماعُ ، ثمَّ التفهُّمُ ، ثمَّ الحفظُ ، ثمَّ العملُ ، ثمَّ النشرُ ، وهـٰؤلاءِ اقتصروا مِنَ الجملةِ على السماعِ ، ثمَّ تركوا حقيقةَ السماعِ ، فترى الصبيَّ يحضرُ في مجلسِ الشيخِ والحديثُ يُقرأُ ، والشيخُ ينامُ والصبيُّ يلعبُ ، ثمَّ يُكتبُ اسمُ الصبيِّ في السماعِ[1] ، فإذا كبِرَ . . تصدَّىٰ ليُسمَعَ منهُ ، والبالغُ الذي يحضرُ ربَّما يغفُلُ ولا يسمعُ ، ولا يصغي ولا يضبطُ ، وربَّما يشتغلُ بحديثٍ أوْ نسخٍ ، والشيخُ الذي يُقرأُ عليهِ لوْ صُحِّفَ وغُيِّرَ ما يُقرأُ عليهِ . . لمْ يشعرْ بهِ ولمْ يعرفْهُ[2] ، وكلُّ ذٰلكَ جهلٌ وغرورٌ ؛ إذِ الأصلُ في الحديثِ أنْ تسمعَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتحفظَه كما سمعتَهُ ، وترويَهُ كما حفظتَهُ ، فتكونُ الروايةُ عنِ الحفظِ ، والحفظُ عنِ السماعِ ، فإنْ عجزتَ عنْ سماعِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . سمعتَهُ مِنَ الصحابةِ أوِ التابعينَ ، وصارَ سماعُكَ عنِ الراوي كسماعِ مَنْ سمعَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ أنْ تصغيَ لتسمعَ فتحفظَ وترويَ كما حفظتَ ، وتحفظَ كما سمعتَ ؛ بحيثُ لا تغيِّرُ منهُ حرفاً ، ولوْ غيَّرَ غيرُكَ منهُ حرفاً وأخطأَ . . علمتَ خطأَهُ .

ولحفظِكَ طريقانِ :

أحدُهُما : أنْ تحفظَ بالقلبِ ، وتستديمَهُ بالذكرِ والتكرارِ ؛ كما تحفظُ ما جرىٰ علىٰ سمعِكَ في مجاري الأحوالِ .

والثاني : أنْ تكتبَ كما تسمعُ ، وتصححَ المكتوبَ وتحفظَهُ حتَّىٰ لا تصلَ إليهِ يدُ مَنْ يغيِّرُهُ ، ويكونَ حفظُكَ للكتابِ معَكَ وفي خزانتِكَ ، فإنَّهُ لوِ امتدَّتْ إليهِ يدُ غيرِكَ . . ربَّما غيَّرَهُ ، فإذا لمْ تحفظْهُ . . لمْ تشعُرْ بتغييرِهِ ، فيكونُ

---

(١) أي : يكتبه المستملي أو كاتب السماع في الطباق .

(٢) إما لثقل في سمعه ، أو لكثرة ازدحام ، أو لأمر آخر شغله . « إتحاف » (٤٦١/٨) .

محفوظاً بقلبِكَ أوْ بكتابِكَ ، فيكونُ كتابُكَ مذكِّراً لما سمعْتَهُ ، وتأمنُ فيهِ مِنَ التغييرِ والتحريفِ .

فإذا لمْ تحفظْ لا بالقلبِ ولا بالكتابِ وجرىٰ علىٰ سمعِكَ صوتٌ غُفْلٌ وفارقتَ المجلسَ ، ثمَّ رأيتَ نسخةً لذٰلكَ الشيخِ ، وجوَّزتَ أنْ يكونَ ما فيهِ مغيَّراً ، أوْ يفارقَ حرفٌ منهُ النسخةَ التي سمعتَها . . لمْ يجزْ لكَ أنْ تقولَ : سمعتُ هٰذا الكتابَ ؛ فإنَّكَ لا تدري لعلَّكَ لمْ تسمعْ ما فيهِ ، بلْ سمعتَ شيئاً يخالفُ ما فيهِ ولوْ في كلمةٍ .

فإذا لمْ يكنْ معَكَ حفظٌ بقلبِكَ ولا نسخةٌ صحيحةٌ استوثقتَ عليها لتقابلَ بها . . فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّكَ سمعتَ ذٰلكَ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؟! وقولُ الشيوخِ كلِّهِمْ في هٰذا الزمانِ : إنا سمعْنا ما في هٰذا الكتابِ إذا لمْ يُوجدِ الشرطُ الذي ذكرناهُ . . فهوَ كذبٌ صريحٌ .

وأقلُّ شروطِ السماعِ : أنْ يجريَ الجميعُ على السمعِ معَ نوعٍ مِنَ الحفظِ يشعرُ معَهُ بالتغييرِ ، ولوْ جازَ أنْ يُكتبَ سماعُ الصبيِّ والغافلِ والنائمِ والذي ينسخُ . . لجازَ أنْ يُكتبَ سماعُ الصبيِّ في المهدِ وسماعُ المجنونِ ، ثمَّ إذا بلغَ الصبيُّ وأفاقَ المجنونُ . . سمعَ عليهِ ، ولا خلافَ في عدمِ جوازِهِ ، ولوْ جازَ ذٰلكَ . . لجازَ أنْ يُكتبَ سماعُ الجنينِ في البطنِ ، فإنْ كانَ لا يُكتبُ سماعُ الصبيِّ في المهدِ لأنَّهُ لا يفهمُ ولا يحفظُ . . فالصبيُّ الذي يلعبُ والغافلُ والمشغولُ بالنسخِ عنِ السماعِ ليسَ يفهمُ ولا يحفظُ ، فإنِ استجرأَ جاهلٌ فقالَ : يُكتبُ سماعُ الصبيِّ في المهدِ . . فليُكتبْ سماعُ الجنينِ في البطنِ ، فإنْ فرَّقَ بينَهُما بأنَّ الجنينَ لا يسمعُ الصوتَ وهٰذا يسمعُ الصوتَ . . فماذا ينفعُ هٰذا وهوَ إنَّما ينقلُ الحديثَ دونَ الصوتِ ؟!

فليقتصرْ إذْ صارَ شيخاً علىٰ أنْ يقولَ : سمعتُ بعدَ بلوغي أنِّي في صبايَ حضرتُ مجلساً يُروىٰ فيهِ حديثٌ كانَ يقرعُ سمعي صوتُهُ ، ولا أدري ما هوَ ، ولا خلافَ في أنَّ الروايةَ كذٰلكَ لا تصحُّ ، وما زادَ عليهِ فهوَ كذبٌ صريحٌ ، ولوْ جازَ إثباتُ سماعِ التركيِّ الذي لا يفهمُ العربيةَ ؛ لأنَّهُ سمعَ صوتاً غُفْلاً . . لجازَ إثباتُ سماعِ صبيٍّ في المهدِ ، وذٰلكَ غايةُ الجهلِ ، ومِنْ أينَ يُؤخذُ هٰذا ؟ وهلْ للسماعِ مستندٌ إلا قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعَها »[1] ، وكيفَ يؤدِّي كما سمعَ مَنْ لا يدري ما سمعَهُ ؟!

فهٰذا أفحشُ أنواعِ الغرورِ ، وقدْ بُليَ بهٰذا أهلُ الزمانِ ، ولوِ احتاطَ أهلُ الزمانِ . . لمْ يجدوا شيوخاً إلا الذي سمعوهُ في الصِّبا علىٰ هٰذا الوجهِ معَ الغفلةِ ، إلا أنَّ للمحدثينَ في ذٰلكَ جاهاً وقبولاً ، فخافَ المساكينُ أنْ يشترطوا ذٰلكَ ، فيقلَّ مَنْ يجتمعُ لذٰلكَ في حِلَقِهِمْ ، فينقصَ جاهُهُمْ ، وتقلَّ أيضاً أحاديثُهُمْ التي قدْ سمعوها بهٰذا الشرطِ ، بلْ ربَّما عدموا ذٰلكَ وافتضحوا ، فاصطلحوا علىٰ أنَّهُ ليسَ يُشترطُ إلا أنْ يقرعَ سمعَهُ دمدمةٌ وإنْ كانَ لا يدري ما يجري .

وصحةُ السماعِ لا تُعرفُ مِنْ قولِ المحدثينَ ؛ لأنَّهُ ليسَ مِنْ علمِهِمْ ، بلْ مِنْ علمِ علماءِ أصولِ الفقهِ ، وما ذكرناهُ مقطوعٌ بهِ في قوانينِ أصولِ الفقهِ[2]

فهٰذا غرورُ هٰؤلاءِ ، ولوْ سمعوا على الشرطِ . . لكانوا أيضاً مغرورينَ في اقتصارِهِمْ على النقلِ ، وفي إفناءِ أعمارِهِمْ في جمعِ الرواياتِ والأسانيدِ ، وإعراضِهِمْ عنْ مهمَّاتِ الدينِ ، ومعرفةِ معاني الأخبارِ ، بلِ الذي يقصِدُ مِنَ الحديثِ

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) .

(٢) إلا أن المحدثين شاركوهم في الكلام علىٰ هٰذه المسألة استطراداً ؛ لشدة احتياجهم إلىٰ معرفتها . « إتحاف » (٤٦٥/٨) .

سلوكَ طريقِ الآخرةِ ربَّما يكفيهِ الحديثُ الواحدُ عمراً ؛ كما رُويَ عنْ بعضِ الشيوخِ أنَّهُ حضرَ مجلسَ السماعِ ، فكانَ أوَّلَ حديثٍ رُويَ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ »[1] ، فقامَ وقالَ : يكفيني هٰذا حتَّىٰ أفرغَ منهُ ، ثمَّ أسمعُ غيرَهُ[2] .

فهٰكذا يكونُ سماعُ الأكياسِ الذينَ يحذَرونَ الغرورَ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ اشتغلوا بعلمِ النحوِ واللغةِ ، والشعرِ وغريبِ اللغةِ ، واغترُّوا بهِ ، وزعموا أنَّهُمْ قدْ غُفرَ لهُمْ ، وأنَّهُمْ مِنْ علماءِ الأمَّةِ ؛ إذْ قوامُ الدينِ بالكتابِ والسنةِ ، وقوامُ الكتابِ والسنةِ بعلمِ اللغةِ والنحوِ ، فأفنىٰ هٰؤلاءِ أعمارَهُمْ في دقائقِ النحوِ ، وفي صناعةِ الشعرِ ، وفي غرائبِ اللغةِ .

ومثالُهُمْ كمَنْ يفني جميعَ العمرِ في تعلُّمِ الخطِّ وتصحيحِ الحروفِ وتحسينِها ، ويزعمُ أنَّ العلومَ لا يمكنُ حفظُها إلا بالكتابةِ ، فلا بدَّ مِنْ تعلُّمِها وتصحيحِها ، ولوْ عقلَ . . لعلمَ أنَّهُ يكفيهِ أنْ يتعلَّمَ أصلَ الخطِّ ؛ بحيثُ يمكنُ أنْ يُقرأَ كيفما كانَ ، والباقي زيادةٌ على الكفايةِ ، وكذٰلكَ الأديبُ لوْ عقلَ . . لعرفَ أنَّ لغةَ العربِ كلغةِ التركِ ، والمضيِّعُ عمرَهُ في لغةِ العربِ كالمضيِّعِ عمرَهُ في لغةِ التركِ والهندِ ، وإنَّما فارقَتْها لغةُ العربِ لأجلِ ورودِ الشريعةِ بها ، فيكفي مِنَ اللغةِ علمُ الغريبينِ في الأحاديثِ والكتابِ ، ومِنَ النحوِ ما يتعلَّقُ بالحديثِ والكتابِ ، فأمَّا التعمُّقُ فيهِ إلىٰ درجاتٍ لا تتناهىٰ . . فهوَ فضولٌ مستغنىً عنهُ ، ثمَّ لوِ اقتصرَ عليهِ وأعرضَ عنْ معرفةِ المعاني الشرعية والعملِ بها . . فهٰذا أيضاً مغرورٌ .

بلْ مثالُهُ مثالُ مَنْ ضيَّعَ عمرَهُ في تصحيحِ مخارجِ الحروفِ في القرآنِ واقتصرَ عليهِ ، وهوَ غرورٌ ؛ إذِ المقصودُ مِنَ الحروفِ المعاني ، وإنَّما الحروفُ ظروفٌ وأدواتٌ ، ومَنِ احتاجَ إلىٰ أنْ يشربَ السكنجبينَ ليزولَ ما بهِ مِنَ الصفراءِ ، فضيَّعَ أوقاتَهُ في تحسينِ القدحِ الذي يشربُ فيهِ السكنجبينَ . . فهوَ مِنَ الجهَّالِ المغرورينَ ؛ فكذٰلكَ غرورُ أهلِ النحوِ واللغةِ والأدبِ والقراءاتِ والتدقيقِ في مخارجِ الحروفِ مهما تعمَّقوا فيها ، وتجرَّدوا لها وعرَّجوا عليها أكثرَ ممَّا يُحتاجُ إليهِ في تعلُّمِ العلومِ التي هيَ فرضُ عينٍ ، فاللُّبُّ الأقصىٰ هوَ العملُ ، والذي فوقَهُ هوَ معرفةُ العملِ ، وهوَ كالقشرِ للعملِ ، وكاللُّبِّ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ، وما فوقَهُ هوَ سماعُ الألفاظِ وحفظُها بطريقِ الروايةِ ، وهوَ قشرٌ بالإضافةِ إلى المعرفةِ ، ولبٌّ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ، وما فوقَهُ هوَ العلمُ باللغةِ والنحوِ ، وفوقَ ذٰلكَ وهوَ القشرُ الأعلى العلمُ بمخارجِ الحروفِ ، والقانعونَ بهٰذهِ الدرجاتِ كلُّهُمْ مغترُّونَ ، إلا مَنِ اتخذَ هٰذهِ الدرجاتِ منازلَ ، فلمْ يعرِّجْ عليها إلا بقدْرِ حاجتِهِ ، فتجاوزَ إلىٰ ما وراءَهُ حتَّىٰ وصلَ إلىٰ لبابِ العملِ ، وطالبَ بحقيقةِ العملِ قلبَهُ وجوارحَهُ ، وزجَّىٰ عمرَهُ في حملِ النفسِ عليهِ ، وتصحيحِ الأعمالِ وتصفيتِها عنِ الشوائبِ والآفاتِ ، فهٰذا هوَ المقصودُ المخدومُ مِنْ جملةِ علومِ الشرعِ ، وسائرُ العلومِ خدمٌ لهُ ووسائلُ إليه وقشورٌ لهُ ومنازلُ بالإضافةِ إليهِ ، وكلُّ مَنْ لمْ يبلغِ المقصدَ . . فقدْ خابَ ، سواءٌ كانَ في المنزلِ القريبِ أوْ في المنزلِ البعيدِ .

وهٰذهِ العلومُ لمَّا كانَتْ متعلِّقةً بعلومِ الشرعِ . . اغترَّ بها أربابُها ، فأمَّا علمُ الطبِّ والحسابِ والصناعاتِ وما يُعلمُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) .

(٢) وهو شيخ شيخ المصنف ، أبو القاسم الكركاني رحمه الله تعالىٰ ، وسيأتي ذكره ، وخبره رواه ابن الصلاح في « طبقات الشافعية » (١/ ٣٩٩) .

أنَّهُ ليسَ مِنْ علومِ الشرعِ . . فلا يعتقدُ أصحابُها أنَّهُمْ ينالونَ المغفرةَ بها مِنْ حيثُ إنَّها علومٌ ؛ فكانَ الغرورُ بها أقلَّ مِنَ الغرورِ بعلومِ الشرعِ ؛ لأنَّ العلومَ الشرعيَّةَ مشتركةٌ في أنَّها محمودةٌ ؛ كما يشارِكُ القشرُ اللُّبَّ في كونِهِ محموداً ، ولـٰكنَّ المحمودَ منهُ لعينِهِ هوَ المنتهىٰ ، والثاني محمودٌ للوصولِ بهِ إلى المقصودِ الأقصىٰ ، فمَنِ اتخذَ القشرَ مقصوداً وعرَّجَ عليهِ . . فقدِ اغترَّ بهِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ عَظُمَ غرورُهُمْ في فنِّ الفقهِ ، فظنُّوا أنَّ حكمَ العبدِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ يتبعُ حكمَهُ في مجلسِ القضاءِ ، فوضعوا الحيلَ في دفعِ الحقوقِ ، وأساؤوا تأويلَ الألفاظِ المبهمةِ ، واغترُّوا بالظواهرِ وأخطؤوا فيها ، وهـٰذا مِنْ قبيلِ الخطأ في الفتوىٰ والغرورِ فيهِ ، والخطأُ في الفتاوىٰ ممَّا يكثرُ ، ولـٰكنْ هـٰذا نوعٌ عمَّ الكافةَ إلا الأكياسَ منهُمْ ، فنشيرُ إلىٰ أمثلةٍ لهُ :

فمِنْ ذٰلكَ : فتواهُمْ بأنَّ المرأةَ مهما أبرأَتِ الزوجَ مِنَ الصداقِ . . برئَ الزوجُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ خطأٌ ، بلِ الزوجُ قدْ يسيءُ إلى الزوجةِ بحيثُ يضيِّقُ عليها الأمورَ بسوءِ الخُلُقِ ، فتُضطرُّ إلىٰ طلبِ الخلاصِ ، فتبرئُ الزوجَ لتتخلَّصَ منهُ ، فهوَ إبراءٌ لا عنْ طيبةِ نفسٍ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ وطيبةُ النفسِ غيرُ طيبةِ القلبِ ، فالقلبُ قدْ يريدُ ما لا تطيبُ بهِ النفسُ ؛ فالإنسانُ يريدُ الحجامةَ بقلبِهِ ، ولـٰكنْ تكرهُها نفسُهُ ، وإنَّما طيبةُ النفسِ أنْ تسمحَ نفسُها بالإبراءِ لا عنْ ضرورةٍ تقابلُهُ ، حتَّىٰ إذا رُدِّدَتْ بينَ ضررينِ . . اختارَتْ أهونَهُما ، فهـٰذهِ مصادرةٌ على التحقيقِ بإكراهِ الباطنِ .

نعم ؛ القاضي في الدنيا لا يطلعُ على القلوبِ والأغراضِ ، فينظرُ إلى الإبراءِ الظاهرِ ، وأنَّها لمْ تُكرَهْ بسببٍ ظاهرٍ ، والإكراهُ الباطنُ ليسَ يطَّلعُ الخلقُ عليهِ ، ولـٰكنْ مهما تصدَّى القاضي الأكبرُ في صعيدِ القيامةِ للقضاءِ . . لمْ يكنْ هـٰذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيلِ الإبراءِ .

وكذٰلكَ : لا يحلُّ أنْ يُؤخذَ مالُ الإنسانِ إلا بطيبةِ نفسٍ منهُ ، فلوْ طلبَ مِنْ إنسانٍ مالاً علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فاستحيا مِنَ الناسِ ألَّا يعطيَهُ ، وكانَ يودُّ أنْ يكونَ سؤالُهُ في خلوةٍ حتَّىٰ لا يعطيَهُ ، ولـٰكنْ خافَ ألَمَ مذمَّةِ الناسِ ، وخافَ ألَمَ تسليمِ المالِ ، وردَّدَ نفسَهُ بينَهُما ، فاختارَ أهونَ الألمينِ وهوَ ألمُ التسليمِ فسلَّمَهُ . . فلا فرقَ بينَ هـٰذا وبينَ المصادرةِ ؛ إذْ معنى المصادرةِ إيلامُ البدنِ بالسوطِ ، حتَّىٰ يصيرَ ذٰلكَ أقوىٰ مِنْ ألمِ القلبِ ببذلِ المالِ ، فيختارُ أهونَ الألمينِ ، والسؤالُ في مَظِنَّةِ الحياءِ والرياءِ ضربٌ للقلبِ بالسوطِ ، ولا فرقَ بينَ ضربِ الباطنِ وضربِ الظاهرِ عندَ اللهِ ، فإنَّ الباطنَ عندَ اللهِ ظاهرٌ ، وإنَّما حاكمُ الدنيا هوَ الذي يحكمُ بالملكِ بظاهرِ قولِهِ : وهبتُ ؛ لأنَّهُ لا يمكنُهُ الوقوفُ علىٰ ما في القلبِ .

وكذٰلكَ : مَنْ يُعطى اتقاءَ لشرِّ لسانِهِ ، أوْ لشرِّ سعايتِهِ ؛ فهوَ حرامٌ عليهِ .

وكذٰلكَ كلُّ مالٍ يُؤخَذُ علىٰ هـٰذا الوجهِ فهوَ حرامٌ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما جاءَ في قصةِ داوودَ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ بعدَ أنْ غُفِرَ لهُ : يا ربِّ ؛ كيفَ لي بخصمي فأُمِرَ بالاستحلالِ منهُ وكانَ خصمُهُ ميتاً ، فأُمِرَ بندائِهِ في صخرةِ بيتِ المقدسِ ، فنادىٰ يا أوريا ؛ فأجابَهُ : لبيكَ يا نبيَّ اللهِ ، أخرجتَني مِنَ الجنةِ فماذا تريدُ ؟ قالَ : إنِّي أسأتُ إليكَ في أمرٍ فهبْهُ لي ، قالَ : قدْ فعلتُ ذٰلكَ يا نبيَّ اللهِ ، فانصرفَ وقدْ ركنَ إلىٰ ذٰلكَ ، فقالَ لهُ جبريلُ عليهِ السلامُ : هلْ ذكرتَ لهُ ما فعلتَ : قالَ : لا ، قالَ : فارجعْ إليهِ فبيِّنْ لهُ ، فرجعَ فناداهُ ، فقالَ لهُ : لبيكَ يا نبيَّ اللهِ ، فقالَ : إنِّي أذنبتُ إليكَ ذنباً ، فقالَ :

أَلَمْ أهبهُ لكَ ؟ قالَ : أوَلا تسألُني ما ذٰلكَ الذنبُ ؟ قالَ : ما هوَ يا نبيَّ اللهِ ؟ قالَ : كذا وكذا ، وذكرَ شأنَ المرأةِ ، فانقطعَ الجوابُ ، فقالَ : يا أوريا ؛ ألا تجيبُني ؟ قالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ ما هٰكذا يفعلُ الأنبياءُ ، حتَّىٰ أقفَ معَكَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، فاستقبلَ داوودُ البكاءَ والصراخَ مِنَ الرأسِ حتَّىٰ وعدَهُ اللهُ أنْ يستوهبَهُ منهُ في القيامةِ[1]

فهٰذا ينبِّهُكَ أنَّ الهبةَ مِنْ غيرِ طيبةِ قلبٍ لا تفيدُ ، وأنَّ طيبةَ القلبِ لا تحصلُ إلا بالمعرفةِ ، فكذٰلكَ طيبةُ القلبِ لا تكونُ في الإبراءِ والهبةِ وغيرِهِ ، إلا إذا خُلِّيَ الإنسانُ واختيارَهُ حتَّىٰ تنبعثَ الدواعي مِنْ ذاتِ نفسِهِ ، لا أنْ تُضطرَّ دواعيهِ إلى الحركةِ بالحيلِ والإلزامِ .

ومِنْ ذٰلكَ : هبةُ الرجلِ مالَ الزكاةِ في آخرِ الحولِ مِنْ زوجتِهِ واتِّهابُهُ مالَها ؛ لإسقاطِ الزكاةِ ، فالفقيهُ يقولُ : سقطَتِ الزكاةُ ، فإنْ أرادَ بهِ أنَّ مطالبةَ السلطانِ والساعي قدْ سقطَتْ عنهُ . . فقدْ صدقَ ، فإن مطمحَ نظرِهِمْ إلىٰ ظاهرِ المُلْكِ وقدْ زالَ ، وإنْ ظنَّ أنَّهُ يسلمُ في القيامةِ ويكونُ كمَنْ لمْ يملكِ المالَ ، أوْ كمَنْ باعَ لحاجتِهِ إلى البيعِ لا على هٰذا القصدِ . . فما أعظمَ جهلَهُ بفقهِ الدينِ وسرِّ الزكاةِ ، فإنَّ سرَّ الزكاةِ تطهيرُ القلبِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، فإنَّ البخلَ مهلكٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ شحٌّ مُطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[2] ، وإنَّما صارَ شحُّهُ مُطاعاً بما فعلَهُ ، وقبْلَهُ لمْ يكنْ مُطاعاً ، فقدْ تمَّ هلاكُهُ بما يظنُّ أنَّ فيهِ خلاصَهُ ، فإنَّ اللهَ مطلعٌ علىٰ قلبِهِ وحبِّهِ للمالِ وحرصِهِ عليهِ ، وأنَّهُ قدْ بلغَ مِنْ حرصِهِ على المالِ أنِ استنبطَ الحيلَ حتَّىٰ يسدَّ علىٰ نفسِهِ طريقَ الخلاصِ مِنَ البخلِ بالجهلِ والغرورِ .

ومِنْ ذٰلكَ : إباحةُ اللهِ مالَ المصالحِ للفقيهِ وغيرِهِ بقدْرِ الحاجةِ ، والفقهاءُ المغرورونَ لا يميّزونَ بينَ الأمانيِّ والفضولِ والشهواتِ وبينَ الحاجاتِ ، بلْ كلُّ ما لا تتمُّ رعونتُهُمْ إلا بهِ يرونَهُ حاجةً ، وهوَ محضُ الغرورِ ، بلِ الدنيا خُلقَتْ لحاجةِ العبادِ إليها في العبادةِ ، وسلوكِ طريقِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ ما تناولَهُ العبدُ للاستعانةِ بهِ على الدينِ والعبادةِ فهوَ حاجتُهُ ، وما عدا ذٰلكَ فهوَ فضولُهُ وشهوتُهُ ، ولوْ ذهبنا نَصِفُ غرورَ الفقهاءِ في أمثالِ هٰذا . . لملأنا فيهِ مجلداتٍ ، والغرضُ التنبيهُ علىٰ أمثلةٍ تعرِّفُ الأجناسَ دونَ الاستيعابِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يطولُ .

* * *

---

(١) الخبر بنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (١٧٩/٢٣/١٢) ، وفيه : فأوحى الله إليه : إذا كان ذلك . . دعوت أهريا ، فأستوهبك منه ، فيهبك لي ، فأثيبه بذلك الجنة .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

الصّنف الثاني : أرباب العبادة والعمل

والمغرورونَ منهمْ فرقٌ كثيرةٌ : فمنهُمْ مَنْ غرورُهُ في الصلاةِ ، ومنهُمْ مَنْ غرورُهُ في تلاوةِ القرآنِ ، ومنهُمْ في الحجِّ ، ومنهُمْ في الغزوِ ، ومنهُمْ في الزهدِ .

وكذٰلكَ كلُّ مشغولٍ بمنهجٍ مِنْ مناهجِ العملِ فليسَ خالياً عنْ غرورٍ إلا الأكياسَ وقليلٌ ما همْ .

❀ ❀ ❀

فمنهُمْ فرقةٌ أهملوا الفرائضَ ، واشتغلوا بالفضائلِ والنوافلِ ، وربَّما تعمَّقوا في الفضائلِ ، حتَّىٰ خرجوا إلى العدوانِ والسرفِ ؛ كالذي تغلِبُ عليهِ الوسوسةُ في الوضوءِ ، فيبالغُ فيهِ ، ولا يرتضي الماءَ المحكومَ بطهارتِهِ في فتوى الشرعِ ، ويقدِّرُ الاحتمالاتِ البعيدةَ قريبةً في النجاسةِ ، وإذا آلَ الأمرُ إلىٰ أكلِ الحلالِ . . قدَّرَ الاحتمالاتِ القريبةَ بعيدةً ، وربَّما أكلَ الحرامَ المحضَ ، ولوِ انقلبَ هٰذا الاحتياطُ مِنَ الماءِ إلى الطعامِ . . لكانَ أشبهَ بسيرةِ الصحابةِ ؛ إذْ توضَّأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بماءٍ في جرَّةٍ نصرانيةٍ معَ ظهورِ احتمالِ النجاسةِ[1] ، وكانَ مَعَ هٰذا يدعُ أبواباً مِنَ الحلالِ خوفاً مِنَ الوقوعِ في الحرامِ .

ثمَّ في هٰؤلاءِ مَنْ يخرجُ إلى الإسرافِ في صبِّ الماءِ ، وذٰلكَ منهيٌّ عنهُ ، وقدْ يطولُ الأمرُ حتَّىٰ يضيِّعَ الصلاةَ ويخرجَها عنْ وقتِها ، وإنْ لمْ يخرجْها أيضاً عنْ وقتِها . . فهوَ مغرورٌ ؛ لما فاتَهُ مِنْ فضيلةِ أوَّلِ الوقتِ ، وإنْ لمْ يفتْهُ . . فهوَ مغرورٌ لإسرافِهِ في الماءِ ، وإنْ لمْ يسرفْ . . فهوَ مغرورٌ لتضييعِهِ العمرَ الذي هوَ أعزُّ الأشياءِ فيما لهُ مندوحةٌ عنهُ ، إلا أنَّ الشيطانَ يصدُّ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ بطرقٍ شتَّىٰ ، ولا يقدرُ علىٰ صدِّ العبَّادِ إلا بما يخيِّلُ إليهِمْ أنَّهُ عبادةٌ ، فيبعدُهُمْ عنِ اللهِ بمثلِ ذٰلكَ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ غلبَتْ عليها الوسوسةُ في نيَّةِ الصلاةِ ، فلا يدعُهُ الشيطانُ حتَّىٰ يعتقدَ نيَّةً صحيحةً ، بلْ يشوِّشُ عليهِ حتَّىٰ تفوتَهُ الجماعةُ وتخرجَ الصلاةُ عنِ الوقتِ ، وإنْ تمَّ تكبيرُهُ فيكونُ في قلبِهِ بعدُ تردُّدٌ في صحةِ نيَّتِهِ ، وقدْ يوسوسونَ في التكبيرِ حتَّىٰ يغيِّروا صيغةَ التكبيرِ لشدةِ الاحتياطِ فيهِ ، يفعلونَ ذٰلكَ في أوَّلِ الصلاةِ ، ثمَّ يغفُلونَ في جميعِ الصلاةِ ، ولا يحضرونَ قلوبَهُمْ ويغترُّونَ بذٰلكَ ، ويظنُّونَ أنَّهُمْ إذا أتعبوا أنفسَهُمْ في تصحيحِ النيةِ في أوَّلِ الصلاةِ ، وتميَّزوا عنِ العامَّةِ بهٰذا الجهدِ والاحتياطِ . . فهُمْ علىٰ خيرٍ عندَ ربِّهِمْ !!

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ تغلبُ عليها الوسوسةُ في إخراجِ حروفِ الفاتحةِ وسائرِ الأذكارِ مِنْ مخارجِها ، فلا يزالُ أحدُهُمْ يحتاطُ في التشديداتِ ، والفرقِ بينَ الضادِ والظاءِ ، وتصحيحِ مخارجِ الحروفِ في جميعِ صلاتِهِ ، لا يهمُّهُ غيرُهُ ، ولا يتفكَّرُ فيما سواهُ ، ذاهلاً عنْ معنى القرآنِ والاتعاظِ بهِ ، وصرفِ الفهمِ إلىٰ أسرارِهِ .

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٢/١) ، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته وفضلِ وضوء المرأة ، وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية) .

وهٰذا مِنْ أقبحِ أنواعِ الغرورِ ؛ فإنَّهُ لمْ يُكلَّفِ الخلقُ في تلاوةِ القرآنِ مِنْ تحقيقِ مخارجِ الحروفِ إلا بما جرتْ بهِ عادتُهُمْ في الكلامِ .

ومثالُ هٰؤلاءِ مثالُ مَنْ حملَ رسالةً إلىٰ مجلسِ سلطانٍ ، وأمرَ أنْ يؤدِّيَها علىٰ وجهِها ، فأخذَ يؤدي الرسالةَ ويتأنَّقُ في مخارجِ الحروفِ ، ويكرِّرُها ويعيدُها مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، وهوَ في ذٰلكَ غافلٌ عنْ مقصودِ الرسالةِ ، ومراعاةِ حرمةِ المجلسِ ، فما أحراهُ بأنْ تُقامَ عليهِ السياسةُ ، ويُردَّ إلىٰ دارِ المجانينِ ، ويُحكمَ عليهِ بفقدِ العقلِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرى اغترُّوا بقراءةِ القرآنِ ، فيهذُّونَهُ هذّاً ، وربَّما يختمونَهُ في اليومِ والليلةِ مرّةً ، وربَّما يزيدُ أحدُهُمْ علىٰ ذٰلكَ ، ولسانُ أحدِهِمْ يجري بهِ ، وقلبُهُ يتردَّدُ في أوديةِ الأمانيِّ ؛ إذْ لا يتفكَّرُ في معاني القرآنِ لينزجرَ بزواجرِهِ ، ويتعظَ بمواعظِهِ ، ويقفَ عندَ أوامرِهِ ونواهيهِ ، ويعتبرَ بمواضعِ الاعتبارِ فيهِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا ذكرناهُ في كتابِ آدابِ تلاوةِ القرآنِ مِنْ مقاصدِ التلاوةِ ، فهوَ مغرورٌ يظنُّ أنَّ المقصودَ مِنْ إنزالِ القرآنِ الهمهمةُ بهِ معَ الغفلةِ عنهُ .

ومثالُهُ مثالُ عبدٍ كتبَ إليهِ مولاهُ ومالكُهُ كتاباً ، وأشارَ عليهِ فيهِ بالأوامرِ والنواهي ، فلمْ يصرفْ عنايتَهُ إلىٰ فهمِهِ والعملِ بهِ ، ولٰكنِ اقتصرَ علىٰ حفظِهِ ، فهوَ مستمرٌّ علىٰ خلافِ ما أمرَهُ بهِ مولاهُ ، إلا أنَّهُ مكرِّرٌ للكتابِ بنغمتِهِ وصوتِهِ كلَّ يومٍ مئةَ مرَّةٍ ، فهوَ مستحقٌّ للعقوبةِ ، ومهما ظنَّ أنَّ ذٰلكَ هوَ المرادُ منهُ . . فهوَ مغرورٌ .

نعمْ ؛ تلاوتُهُ إنَّما تُرادُ لكيلا يُنسىٰ ، بلْ لحفظِهِ ، وحفظُهُ يُرادُ لمعناهُ ، ومعناه يُرادُ للعملِ بهِ والانتفاعِ بمعانيهِ ، وقدْ يكونُ لهُ صوتٌ طيِّبٌ ، فهوَ يقرؤُهُ ويلتذُّ بهِ ، ويغترُّ باستلذاذِهِ ، ويظنُّ أنَّ ذٰلكَ لذَّةُ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ وسماعِ كلامِهِ ، وإنَّما هيَ لذَّتُهُ بحُسْنِ صوتِهِ ونغمَتِهِ ، ولوْ ردَّدَ ألحانَهُ بشعرٍ أوْ كلامٍ آخرَ . . لالتذَّ بهِ ذٰلكَ الالتذاذَ ، فهوَ مغرورٌ إذا لمْ يتفقَّدْ قلبَهُ ليعرفَ أنَّ لذَّتَهُ بكلامِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ حسنُ نظمِهِ ومعانيهِ أوْ بصوتِهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمُ اغترُّوا بالصومِ ، وربَّما صاموا الدهرَ ، أوْ صاموا الأيامَ الشريفةَ ، وهمْ فيها لا يحفظونَ ألسنتَهُمْ عنِ الغيبةِ ، وخواطرَهُمْ عنِ الرياءِ ، وبطونَهُمْ عنِ الحرامِ عندَ الإفطارِ ، وألسنتَهُمْ عن الهذيانِ بأنواعِ الفضولِ طولَ النهارِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ يظنُّ بنفسِهِ الخيرَ ، فيهملُ الفرائضَ ويطلبُ النفلَ ، ثمَّ لا يقومُ بحقِّهِ ، وذٰلكَ غايةُ الغرورِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرى اغتروا بالحجِّ ، فيخرجونَ إلى الحجِّ مِنْ غيرِ خروجٍ عنِ المظالمِ ، وقضاءِ الديونِ ، واسترضاءِ الوالدينِ ، وطلبِ الزادِ الحلالِ ، وقدْ يفعلونَ ذٰلكَ بعدَ سقوطِ حجَّةِ الإسلامِ ، ويضيّعونَ في الطريقِ الصلاةَ والفرائضَ ، ويعجزونَ عنْ طهارةِ الثوبِ والبدنِ ، ويتعرَّضونَ لمكسِ الظلمةِ حتَّىٰ يُؤخذَ منهُمْ[1] ، ولا يحذرونَ في الطريقِ مِنَ الرفثِ والخصامِ ، وربَّما جمعَ بعضُهُمُ الحرامَ وأنفقَهُ على الرفقاءِ في الطريقِ ، وهوَ يطلبُ بهِ السمعةَ والرياءَ ، فيعصي اللهَ تعالىٰ في كسبِ الحرامِ أوّلاً ، وفي إنفاقِهِ بالرياءِ ثانياً ، فلا هوَ أخذَهُ مِنْ حِلِّهِ ، ولا هوَ وضعَهُ في حقِّهِ ،

---

(١) ولا يرجعون عن الطريق ، والمراد بالظلمة أمراء البلاد الذين يمرون عليهم ، وفي معناهم الأعراب الصادُّون عن الطريق إلا بدفع شيء من المال علىٰ كل إنسان ، فحكمه حكم المكس . « إتحاف » (٤٧٥/٨) .

ثمَّ يحضرُ البيتَ بقلبٍ ملوَّثٍ برذائلِ الأخلاقِ وذميمِ الصفاتِ ، لمْ يقدِّمْ تطهيرَهُ علىٰ حضورِهِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ يظنُّ أنَّهُ علىٰ خيرٍ مِنْ ربِّهِ ، فهوَ مغرورٌ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ أخذَتْ في طريقِ الحِسْبةِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، ينكرُ على الناسِ ويأمرُهُمْ بالخيرِ وينسىٰ نفسَهُ ، فإذا أمرَهُمْ بالخيرِ . . عنَّفَ ، وطلبَ الرئاسةَ والعزَّةَ ، وإذا باشرَ مُنكراً فرُدَّ عليهِ . . غضبَ وقالَ : أنا المحتسبُ ، فكيف يُنكرُ عليَّ ؟! وقدْ يجمعُ الناسَ إلىٰ مسجدِهِ ، ومَنْ تأخَّرَ عنهُ . . أغلظَ القولَ عليهِ ، وإنَّما غرضُهُ الرياءُ والرئاسةُ ، ولوْ قامَ بتعهُّدِ المسجدِ غيرُهُ . . لحردَ عليهِ ، بلْ منهُمْ مَنْ يؤذِّنُ ويظنُّ أنَّهُ يؤذِّنُ للهِ ، ولوْ جاءَ غيرُهُ وأذَّنَ في وقتِ غيبتِهِ . . قامَتْ عليهِ القيامةُ ، وقالَ : لمْ آخذْ حقِّي ، وزُوحمتُ علىٰ مرتبتي ، وكذٰلكَ قدْ يتقلَّدُ إمامةَ مسجدٍ ويظنُّ أنَّهُ علىٰ خيرٍ ، وإنَّما غرضُهُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ إمامُ المسجدِ ، فلوْ تقدَّمَ غيرُهُ وإنْ كانَ أورعَ وأعلمَ منهُ . . ثقُلَ عليهِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ جاوروا بمكةَ أوِ المدينةِ واغترُّوا بذٰلكَ ، ولمْ يراقبوا قلوبَهُمْ ، ولمْ يطهِّروا ظاهرَهُمْ وباطنَهُمْ ، فقلوبُهُمْ معلَّقةٌ ببلادِهِمْ ، ملتفتةٌ إلىٰ قولِ الناسِ : إنَّ فلاناً مجاورٌ بمكةَ !! وتراهُ يتحدَّىٰ ويقولُ : قدْ جاورتُ بمكةَ كذا وكذا سنةً ، وإذا سمعَ أنَّ ذٰلكَ قبيحٌ . . تركَ صريحَ التحدِّي وأحبَّ أنْ يعرفَهُ الناسُ بذٰلكَ .

ثمَّ إنَّهُ قدْ يجاورُ ويمدُّ عينَ الطمعِ إلىٰ أوساخِ أموالِ الناسِ ، فإذا جمعَ منْ ذٰلكَ شيئاً . . شحَّ بهِ وأمسكَهُ ، ولمْ تسمحْ نفسُهُ بلقمةٍ يتصدَّقُ بها علىٰ فقيرٍ ، فيظهرُ فيهِ الرياءُ والبخلُ والطمعُ ، وجملةٌ مِنَ المهلكاتِ كانَ عنها بمعزلٍ لوْ تركَ المجاورةَ ، ولٰكنَّ حبَّ المحمدةِ ، وأنْ يُقالَ : إنَّهُ مِنَ المجاورينَ . . ألزمَهُ المجاورةَ معَ التضمُّخِ بهٰذهِ الرذائلِ ، فهوَ أيضاً مغرورٌ .

وما مِنْ عملٍ مِنَ الأعمالِ أو عبادةٍ مِنَ العباداتِ إلا وفيها آفاتٌ ، فمَنْ لمْ يعرفْ مداخلَ آفاتِها واعتمدَ عليها . . فهوَ مغرورٌ ، ولا يعرفُ شرحَ ذٰلكَ إلا مِنْ جملةِ كتبِ « إحياءِ علومِ الدينِ » ؛ فيعرفُ مداخلَ الغرورِ في الصلاةِ مِنْ كتابِ الصلاةِ ، وفي الحجِّ منْ كتابِ الحجِّ ، والزكاةِ والتلاوةِ وسائرِ القرباتِ مِنَ الكتبِ التي رتَّبناها فيها ، وإنَّما الغرضُ الآنَ الإشارةُ إلىٰ مجامعِ ما سبقَ في الكتبِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ زهدَتْ في المالِ ، وقنعَتْ مِنَ اللباسِ والطعامِ بالدونِ ، ومِنَ المسكنِ بالمساجدِ ، وظنَّتْ أنَّها أدركَتْ رتبةَ الزهَّادِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ راغبٌ في الرئاسةِ والجاهِ ؛ إمَّا بالعلمِ أوْ بالوعظِ أوْ بمجرَّدِ الزهدِ ، فقدْ تركَ أهونَ الأمرينِ ، وباءَ بأعظمِ المهلكينِ ؛ فإنَّ الجاهَ أطمُّ مِنَ المالِ ، ولوْ تركَ الجاهَ وأخذَ المالَ . . كانَ إلى السلامةِ أقربَ .

فهٰذا مغرورٌ ؛ إذْ ظنَّ أنَّهُ مِنَ الزهَّادِ في الدنيا وهوَ لمْ يفهمْ معنى الدنيا ، ولمْ يدركْ أنَّ منتهىٰ لذَّاتِها الرئاسةُ ، وأنَّ الراغبَ فيها لا بدَّ وأنْ يكونَ منافقاً ، وحسوداً ، ومتكبِّراً ، ومرائياً ، ومتَّصفاً بجميعِ خبائثِ الأخلاقِ .

نعمْ ؛ وقدْ يتركُ الرئاسةَ ، ويؤثرُ الخلوةَ والعزلَةَ ، وهوَ معَ ذٰلكَ مغرورٌ ؛ إذْ يتطاولُ بذٰلكَ على الأغنياءِ ، ويخشنُ معَهُمُ الكلامَ ، وينظرُ إليهِمْ بعينِ الاستحقارِ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ مما يرجو لهُمْ ، ويعجبُ بعملِهِ ، ويتَّصفُ بجملةٍ مِنْ خبائثِ القلوبِ وهوَ لا يدري ، وربَّما يُعطى المالَ فلا يأخذُهُ ، خيفةً مِنْ أنْ يُقالَ : بطلَ زهدُهُ ، ولوْ قيلَ لهُ : إنَّهُ حلالٌ فخذْهُ في الظاهرِ وردُّهُ في الخفيةِ . . لمْ تسمحْ بهِ نفسُهُ ؛ خوفاً مِنْ ذمِّ الناسِ ، فهوَ راغبٌ في حمدِ الناسِ ، وهوَ مِنْ ألذِّ أبوابِ الدنيا ، ويرىٰ نفسَهُ أنَّهُ زاهدٌ في الدنيا ، وهوَ مغرورٌ ، ومعَ ذٰلكَ فربَّما لا يخلو عنْ توقيرِ الأغنياءِ وتقديمِهِمْ على الفقراءِ ، والميلِ إلى المريدينَ لهُ والمثنينَ عليهِ ، والنفرةِ عنِ المائلينَ إلىٰ غيرِهِ مِنَ الزهَّادِ ، وكلُّ ذٰلكَ خدعةٌ وغرورٌ مِنَ الشيطانِ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

وفي العبَّادِ مَنْ يشدِّدُ علىٰ نفسِهِ في أعمالِ الجوارحِ ، حتَّىٰ ربَّما يصلِّي في اليومِ والليلةِ مثلاً ألفَ ركعةٍ ، ويختمُ القرآنَ ، وهوَ في جميعِ ذٰلكَ لا يخطرُ لهُ مراعاةُ القلبِ وتفقُّدُهُ وتطهيرُهُ مِنَ الرياءِ والكبرِ والعجبِ وسائرِ المهلكاتِ ، فلا يدري أنَّ ذٰلكَ مهلكٌ ، وإنْ علمَ ذٰلكَ . . فلا يظنُّ بنفسِهِ ذٰلكَ ، وإنْ ظنَّ بنفسِهِ ذٰلكَ . . توهَّمَ أنَّهُ مغفورٌ لهُ لعملِهِ الظاهرِ ، وأنَّهُ غيرُ مؤاخذٍ بأحوالِ القلبِ ، وإنْ توهَّمَ ذٰلكَ فيظنُّ أنَّ العباداتِ الظاهرةَ تترجَّحُ بها كِفَّةُ حسناتِهِ ، وهيهاتَ !! وذرةٌ مِنْ ذي تقوىٰ ، وخُلُقٌ واحدٌ مِنْ أخلاقِ الأكياسِ . . أفضلُ مِنْ أمثالِ الجبالِ عملاً بالجوارحِ .

ثمَّ لا يخلو هٰذا المغرورُ معَ سوءِ خُلُقِهِ معَ الناسِ وخشونتِهِ وتلوُّثِ باطنِهِ عنِ الرياءِ وحبِّ الثناءِ ، فإذا قيلَ لهُ : أنتَ مِنْ أوتادِ الأرضِ ، وأولياءِ اللهِ وأحبابِهِ . . فرحَ المغرورُ بذٰلكَ ، وصدَّقَ بهِ ، وزادَهُ ذٰلكَ غروراً ، وظنَّ أنَّ تزكيةَ الناسِ لهُ دليلٌ علىٰ كونِهِ مرضيّاً عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يدري أنَّ ذٰلكَ لجهلِ الناسِ بخبائثِ باطنِهِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ حرصَتْ على النوافلِ ولمْ يعظمِ اعتدادُها بالفرائضِ ، ترىٰ أحدَهُمْ يفرحُ بصلاةِ الضحىٰ وصلاةِ الليلِ وأمثالِ هٰذهِ النوافلِ ولا يجدُ للفريضةِ لذَّةً ، ولا يشتدُّ حرصُهُ على المبادرةِ بها في أوَّلِ الوقتِ ، وينسىٰ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما يرويهِ عنْ ربِّهِ : « ما تقرَّبَ المتقربونَ إليَّ بمثلِ أداءِ ما افترضتُ عليهِمْ »(١)

وتركُ الترتيبِ بينَ الخيراتِ مِنْ جملةِ الغرورِ ، بلْ قدْ يتعيَّنُ على الإنسانِ فرضانِ : أحدُهُما يفوتُ ، والآخرُ لا يفوتُ ، أوْ فضلانِ أحدُهُما يضيقُ وقتُهُ ، والآخرُ يتَّسعُ وقتُهُ ، فإنْ لمْ يحفظِ الترتيبَ فيهِ . . كانَ مغروراً .

ونظائرُ ذٰلكَ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فإنَّ المعصيةَ ظاهرةٌ والطاعةَ ظاهرةٌ ، وإنَّما الغامضُ تقديمُ بعضِ الطاعاتِ علىٰ بعضٍ ؛ كتقديمِ الفرائضِ كلِّها على النوافلِ ، وتقديمِ فروضِ الأعيانِ علىٰ فروضِ الكفاياتِ ، وتقديمِ فرضِ كفايةٍ لا قائمَ بهِ علىٰ ما قامَ بهِ غيرُهُ ، وتقديمِ الأهمِّ مِنَ فروضِ الأعيانِ علىٰ ما دونَهُ ، وتقديمِ ما يفوتُ علىٰ ما لا يفوتُ ، وهٰذا كما يجبُ أنْ يقدِّمَ حاجةَ الوالدةِ علىٰ حاجةِ الوالدِ ؛ إذْ سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقيلَ لهُ : مَنْ أبرُّ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ : قال : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : « أباكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : « أدناكَ فأدناكَ »(٢) ، فينبغي أنْ يبدأَ في الصلةِ بالأقربِ ؛ فإنِ استويا . . فبالأحوجِ ، فإنِ استويا . . فبالأتقىٰ والأورعِ .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) بلفظ : « . . . وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه » .

(٢) رواه الترمذي (١٨٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١٥٠/٤) .

وكذٰلكَ مَنْ لا يفي مالُهُ بنفقةِ الوالدينِ والحجِّ فربَّما يحجُّ وهوَ مغرورٌ ، بلْ ينبغي أنْ يقدِّمَ حقَّهُما على الحجِّ ، وهٰذا مِنْ تقديمِ فرضٍ أهمَّ علىٰ فرضٍ هوَ دونَهُ .

وكذٰلكَ إذا كانَ على العبدِ ميعادٌ ودخلَ وقتُ الجمعةِ . . فالجمعةُ تفوتُ ، والاشتغالُ بالوفاءِ بالوعدِ معصيةٌ وإنْ كانَ هوَ طاعةً في نفسِهِ .

وكذٰلكَ قدْ تصيبُ ثوبَهُ النجاسةُ ، فيغلظُ القولَ علىٰ أبويهِ وأهلِهِ بسببِ ذٰلكَ ، فالنجاسةُ محذورةٌ ، وإيذاؤهُما محذورٌ ، والحذرُ مِنَ الإيذاءِ أهمُّ مِنَ الحذرِ مِنَ النجاسةِ (١)

وأمثلةُ تقابلِ المحذوراتِ والطاعاتِ لا تنحصرُ ، ومَنْ تَركَ الترتيبَ في جميعِ ذٰلكَ . . فهوَ مغرورٌ ، وهٰذا غرورٌ في غايةِ الغموضِ ؛ لأنَّ المغرورَ فيهِ في طاعةٍ ، إلا أنَّهُ لا يفطنُ لصيرورةِ الطاعةِ معصيةً ، حيثُ تركَ بها طاعةً واجبةً هيَ أهمُّ منها .

ومِنْ جملتِهِ : الاشتغالُ بالمذهبِ والخلافِ مِنَ الفقهِ في حقِّ مَنْ بقيَ عليهِ شغلٌ مِنَ الطاعاتِ والمعاصي الظاهرةِ والباطنةِ المتعلقةِ بالجوارحِ والمتعلقةِ بالقلبِ ؛ لأنَّ مقصودَ الفقهِ معرفةُ ما يحتاجُ إليهِ غيرُهُ في جوارحِهِمْ ، فمعرفةُ ما يحتاجُ هوَ إليهِ في قلبِهِ أولىٰ بهِ ، إلا أنَّ حبَّ الرئاسةِ والجاهِ ، ولذةَ المباهاةِ وقهرِ الأقرانِ والتقدُّمِ عليهِمْ يعمِي عليهِ ، حتَّىٰ يغترَّ بهِ معَ نفسِهِ ، ويظنَّ أنَّهُ مشغولٌ بمهمِّ دينِهِ .

* * *

(١) لأن زوال الأذىٰ عن قلوبهم عسرٌ ، بخلاف إزالة النجاسة من الثوب . « إتحاف » (٨/٤٧٨) .

الصنف الثالث : المتصوفة

وما أغلبَ الغرورَ عليهِمْ !! والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ كثيرةٌ :

ففرقةٌ منهُمْ ـ وهُمْ متصوفةُ أهلِ الزمانِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ ـ اغترُّوا بالزِّيِّ والمنطقِ والهيئةِ ، فساعدوا الصادقينَ مِنَ الصوفيةِ في زِيِّهِمْ وهيئتِهِمْ ، وفي ألفاظِهِمْ وفي آدابِهِمْ ، ومراسِمِهِمْ واصطلاحاتِهِمْ ، وفي أحوالِهِمُ الظاهرةِ في السماعِ والرقصِ ، والطهارةِ والصلاةِ ، والجلوسِ على السجاداتِ معَ إطراقِ الرأسِ ، وإدخالِهِ في الجيبِ كالمتفكِّرِ ، وفي تنفسِ الصعداءِ ، وفي خفضِ الصوتِ في الحديثِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الشمائلِ والهيئاتِ .

فلمَّا تكلَّفوا هٰذهِ الأمورَ ، وتشبَّهوا بهِمْ فيها . . ظنُّوا أنَّهُمْ أيضاً صوفيةٌ ، ولمْ يتعِبوا أنفسَهُمْ قطُّ في المجاهدةِ والرياضةِ ومراقبةِ القلبِ ، وتطهيرِ الباطنِ والظاهرِ مِنَ الآثامِ الخفيَّةِ والجليَّةِ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنْ أوائلِ منازلِ التصوُّفِ ، ولوْ فرغوا مِنْ جميعِها . . لما جازَ لهُمْ أن يعدوا أنفسَهُمْ مِنَ الصوفيةِ .

كيفَ ولمْ يحوموا قطُّ حولَها ، ولم يسوموا أنفسَهُمْ شيئاً منها ؟!

بلْ يتكالبونَ على الحرامِ والشبهاتِ وأموالِ السلاطينِ ، ويتنافسونَ في الرغيفِ والفَلْسِ والحبَّةِ ، ويتحاسدونَ على النقيرِ والقطميرِ ، ويمزِّقُ بعضُهُمْ أعراضَ بعضٍ مهما خالفَهُ في شيءٍ مِنْ غرضِهِ !!

وهٰؤلاءِ غرورُهُمْ ظاهرٌ ، ومثالُهُمْ مثالُ امرأةٍ عجوزٍ ، سمعَتْ أنَّ الشجعانَ والأبطالَ مِنَ المقاتلينَ ثبتَتْ أسماؤُهُمْ في الديوانِ ، ويُقطَعُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ قطرٌ مِنْ أقطارِ المملكةِ(1)

فتاقَتْ نفسُها إلىٰ أنْ تُقطَعَ لها مملكةٌ ، فلبسَتْ درعاً ، ووضعَتْ علىٰ رأسِها مِغْفراً ، وتعلَّمَتْ مِنْ رَجْزِ الأبطالِ أبياتاً ، وتعوَّدَتْ إيرادَ تلكَ الأبياتِ بنغماتِهِمْ حتَّىٰ تيسَّرَتْ عليها ، وتعلَّمَتْ كيفيةَ تبخترِهِمْ في الميدانِ ، وكيفَ تحريكُهُمُ الأيديَ ، وتلقَّفَتْ جميعَ شمائِلِهِمْ في الزِّيِّ والمنطقِ والحركاتِ والسكناتِ .

ثمَّ توجَّهَتْ إلى المعسكرِ ليثبتَ اسمُها في ديوانِ الشجعانِ ، فلمَّا وصلَتْ إلى المعسكرِ . . أُنفذَتْ إلىٰ ديوانِ العرضِ ، وأُمرَ بأنْ تُجرَّدَ عنِ المغفرِ والدرعِ ويُنظرَ ما تحتَهُ ، وتُمتحنَ بالمبارزةِ معَ بعضِ الشجعانِ ؛ ليُعرفَ قدْرُ عنائِها في الشجاعةِ ، فلمَّا جُرِّدَتْ عنِ المِغْفَرِ والدرعِ . . فإذا هيَ عجوزةٌ ضعيفةٌ زمنةٌ ، لا تطيقُ حملَ الدرعِ والمِغْفَرِ .

فقيلَ لها : أجئتِ للاستهزاءِ بالملكِ وللاستخفافِ بأهلِ حضرتِهِ والتلبيسِ عليهِمْ ؟! خذوها فألقوها قدَّامَ الفيلِ ليثخنَها(2) ، فأُلقيَتْ إلى الفيلِ .

وهٰكذا يكونُ حالُ المدَّعينَ للتصوُّفِ في القيامةِ إذا كُشِفَ عنهُمُ الغطاءُ ، وعُرضوا على القاضي الأكبرِ الذي لا ينظرُ إلى الزِّيِّ والمرقَّعِ ، بلْ إلىٰ سرِّ القلبِ .

وفرقةٌ أخرىٰ : زادَتْ علىٰ هٰؤلاءِ في الغرورِ ، إذْ شقَّ عليها الاقتداءُ بهِمْ في بذاذةِ الثيابِ والرضا بالدونِ ، وأرادَتْ

---

(1) أي : يكتب له إقطاعات في البلاد تحت شجاعته . « إتحاف » (٨/٤٧٩) .

(2) أي : يهلكها وطئاً بأقدامه . « إتحاف » (٨/٤٧٩)

أنْ تتظاهرَ بالتصوُّفِ ولَمْ تجدْ بُدّاً مِنَ التزيُّنِ بزيِّهِمْ ، فتركوا الخزَّ والإبريسمَ وطلبوا المرقَّعاتِ النفيسةَ والفوطَ الرفيعةَ والسجاداتِ المصبوغةَ ، ولبسوا مِنَ الثيابِ ما هوَ أرفعُ قيمةً مِنَ الخزِّ والإبريسمِ .

وظنَّ أحدُهُمْ معَ ذٰلكَ أنَّهُ متصوِّفٌ بمجرَّدِ لونِ الثوبِ وكونِهِ مرقَّعاً ، ونسيَ أنَّهُمْ إنَّما لوَّنوا الثيابَ لئلا يطولَ عليهِمْ غسلُها كلَّ ساعةٍ ؛ لإزالةِ الوسخِ ، وإنَّما لبسوا المرقَّعاتِ إذْ كانَتْ ثيابُهُمْ مخرَّقةً ، فكانوا يرقِّعونَها ولا يلبسونَ الجديدَ ، فأمَّا تقطيعُ الفوطِ الرفيعةِ قطعةً قطعةً وخياطةُ المرقعاتِ منها . . فمنْ أينَ يشبهُ ما اعتادَهُ أولئكَ ؟!

فهٰؤلاءِ أظهرُ حماقةً مِنْ كافَّةِ المغرورينَ ؛ فإنَّهُمْ يتنعَّمونَ بنفيسِ الثيابِ ولذيذِ الأطعمةِ ، ويطلبونَ رغدَ العيشِ ، ويأكلونَ أموالَ السلاطينِ ، ولا يجتنبونَ المعاصيَ الظاهرةَ فضلاً عنِ الباطنةِ ، وهمْ معَ ذٰلكَ يظنُّونَ بأنفسِهِمُ الخيرَ ، وشرُّ هٰؤلاءِ ممّا يتعدَّىٰ إلى الخلقِ ، إذْ يهلكُ مَنْ يقتدي بهِمْ ، ومَنْ لا يقتدي بهِمْ تفسدُ عقيدتُهُ في أهلِ التصوُّفِ كافَّةً ، ويظنُّ أنَّ جميعَهُمْ كانوا مِنْ جنسِهِ ، فيطوِّلُ اللسانَ في الصادقينَ منهُمْ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنْ شؤمِ المتشبهينَ وشرِّهِمْ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرى ادَّعتْ علمَ المعرفةِ ، ومشاهدةَ الحقِّ ، ومجاوزةَ المقاماتِ والأحوالِ ، والملازمةَ في عينِ الشهودِ ، والوصولَ إلى القربِ ، ولا يعرفُ هٰذهِ الأمورَ إلا بالأسامي والألفاظِ ، إلَّا أنَّهُ تلقَّفَ مِنْ ألفاظِ الطَّامَّاتِ كلماتٍ فهوَ يردِّدُها ، ويظنُّ أنَّ ذٰلكَ أعلىٰ مِنْ علمِ الأوَّلينَ والآخرينَ ، فهوَ ينظرُ إلى الفقهاءِ والمفسِّرينَ والمحدِّثينَ وأصنافِ العلماءِ بعينِ الإزراءِ فضلاً عنِ العوامِّ ، حتَّىٰ إنَّ الفلاحَ ليتركُ فلاحتَهُ ، والحائكَ يتركُ حياكتَهُ ويلازمُهُمْ أياماً معدودةً ، ويتلقَّفُ منهُمْ تلكَ الكلماتِ المزيَّفةَ ، فيردِّدُها كأنَّهُ يتكلَّمُ عنِ الوحيِ ، ويخبرُ عنْ سرِّ الأسرارِ ، ويستحقرُ بذٰلكَ جميعَ العبَّادِ والعلماءِ .

فيقولُ في العبَّادِ : إنَّهُمْ أجراءُ متعبونَ .

ويقولُ في العلماءِ : إنَّهُمْ بالحديثِ عنِ اللهِ محجوبونَ .

ويدَّعي لنفسِهِ أنَّهُ الواصلُ إلى الحقِّ ، وأنَّهُ مِنَ المقرَّبينَ ، وهوَ عندَ اللهِ مِنَ الفجَّارِ المنافقينَ ، وعندَ أربابِ القلوبِ مِنَ الحمقى الجاهلينَ ، لمْ يُحْكِمْ قطُّ عِلماً ، ولمْ يهذِّبْ خُلُقاً ، ولمْ يرتِّبْ عملاً ، ولمْ يراقبْ قلباً ، سوى اتباعِ الهوىٰ ، وتلقُّفِ الهذيانِ وحفظِهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ وقعَتْ في الإباحةِ ، فطوَوا بساطَ الشرعِ ، ورفضوا الأحكامَ ، وسوَّوا بينَ الحلالِ والحرامِ .

فبعضُهُمْ يزعمُ أنَّ اللهَ مستغنٍ عنْ عملي ، فلِمَ أُتعِبُ نفسي ؟

وبعضُهُمْ يقولُ : قدْ كُلِّفَ الناسُ تطهيرَ القلبِ عنِ الشهواتِ وعنْ حبِّ الدنيا ، وذٰلكَ محالٌ ؛ فقدْ كُلِّفوا ما لا يمكنُ ، وإنَّما يغترُّ بهِ مَنْ لمْ يجرِّبْ ، وأمَّا نحنُ . . فقدْ جرَّبنا وأدركنا أنَّ ذٰلكَ محالٌ ، ولا يعلمُ الأحمقُ أنَّ الناسَ لمْ يُكلَّفوا قلعَ الشهوةِ والغضبِ مِنْ أصلِهِما ، بلْ إنَّما كُلِّفوا قلعَ مادَّتِهِما ، بحيثُ ينقادُ كلُّ واحدٍ منهُما لحكمِ العقلِ والشرعِ .

وبعضُهُمْ يقولُ : الأعمالُ بالجوارحِ لا وزنَ لها ، وإنَّما النظرُ إلى القلوبِ ، وقلوبُنا والهةٌ بحبِّ اللهِ ، وواصلةٌ إلىٰ معرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنَّما نخوضُ في الدنيا بأبدانِنا وقلوبُنا عاكفةٌ في الحضرةِ الربوبيَّةِ ، فنحنُ معَ الشهواتِ بالظواهرِ لا بالقلوبِ .

ويزعمونَ أنَّهُمْ قدْ ترقَّوا عَنْ رتبةِ العوامِّ ، واستغنَوا عن تهذيبِ النفسِ بالأعمالِ البدنيَّةِ ، وأنَّ الشهواتِ لا تصدُّهُمْ عنْ طريقِ اللهِ تعالىٰ لقوتِهِمْ فيها .

ويرفعونَ درجةَ أنفسِهِمْ عنْ درجةِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ؛ إذْ كانَتْ تصدُّهُمْ عنْ طريقِ اللهِ خطيئةٌ واحدةٌ ، حتَّىٰ كانوا يبكونَ عليها ، وينوحونَ سنينَ متواليةً .

وأصنافُ غرورِ أهلِ الإباحةِ مِنَ المتشبِّهينَ بالصوفيةِ لا تُحصىٰ ، وكلُّ ذٰلكَ بناءً علىٰ أغاليطَ ووساوسَ خدعَهُمُ الشيطانُ بها ؛ لاشتغالِهِمْ بالمجاهدةِ قبلَ إحكامِ العلمِ ، ومِنْ غيرِ اقتداءٍ بشيخٍ متقنٍ في الدينِ والعلمِ ، صالحٍ للاقتداءِ بهِ ، وإحصاءُ أصنافِهِمْ يطولُ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزَتْ حدَّ هٰؤلاءِ ، وأحسنَتِ الأعمالَ[1] ، وطلبتِ الحلالَ ، واشتغلَتْ بتفقُّدِ القلبِ ، وصارَتْ تدَّعي المقاماتِ مِنَ الزهدِ والتوكُّلِ والرضا والحبِّ مِنْ غيرِ وقوفٍ علىٰ حقيقةِ هٰذه المقاماتِ ، وشروطِها وعلاماتِها وآفاتِها

فمنهُمْ مَنْ يدَّعي الوجدَ والحبَّ للهِ تعالىٰ ، ويزعمُ أنَّهُ والهٌ باللهِ ، ولعلَّهُ قدْ تخيَّلَ في اللهِ خيالاتٍ هيَ بدعةٌ أوْ كفرٌ ، فيدَّعي حبَّ اللهِ قبلَ معرفتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ لا يخلو مِنْ مقارفةِ ما يكرهُ اللهُ تعالىٰ ، وعنْ إيثارِ هوىٰ نفسِهِ علىٰ أمرِ اللهِ ، وعنْ تركِ بعضِ الأمورِ حياءً مِنَ الخلقِ ، ولوْ خلا . . لما تركَهُ حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ يدري أنَّ كلَّ ذٰلكَ يناقضُ الحبَّ .

وبعضُهُمْ ربَّما يميلُ إلى القناعةِ والتوكُّلِ ، فيخوضُ البواديَ مِنْ غيرِ زادٍ ؛ ليصحِّحَ دعوى التوكُّلِ ، وليسَ يدري أنَّ ذٰلكَ بدعةٌ لمْ تُنقلْ عنِ السلفِ والصحابةِ ، وقدْ كانوا أعرفَ بالتوكُّلِ منهُ ، فما فهموا أنَّ التوكُّلَ المخاطرةُ بالروحِ وتركِ الزادِ ، بلْ كانوا يأخذونَ الزادَ وهمْ متوكِّلونَ على اللهِ تعالىٰ لا على الزادِ ، وهٰذا ربَّما يتركُ الزادَ وهوَ متوكِّلٌ علىٰ سببٍ مِنَ الأسبابِ واثقٌ بهِ .

وما مِنْ مقامٍ مِنَ المقاماتِ المنجياتِ إلا وفيهِ غرورٌ وقدِ اغترَّ بهِ قومٌ ، وقدْ ذكرنا مداخلَ الآفاتِ في ربعِ المنجياتِ مِنَ الكتابِ ؛ فلا يمكنُ إعادتُها .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ ضيَّقَتْ علىٰ نفسِها في أمرِ القوتِ ، حتَّىٰ طلبَتْ منهُ الحلالَ الخالصَ وأهملَتْ تفقُّدَ القلبِ والجوارحِ في غيرِ هٰذهِ الخصلةِ الواحدةِ .

ومنهُمْ مَنْ أهملَ الحلالَ في مطعمِهِ وملبسِهِ ومسكنِهِ وأخذَ يتعمَّقُ في غيرِ ذٰلكَ ، وليسَ يدري المسكينُ أنَّ اللهَ

---

(١) في (ق) : (واجتنبت الأعمال) بدل (وأحسنت الأعمال) .

تعالىٰ لم يرضَ مِنْ عبدِهِ بطلبِ الحلالِ فقطْ ، ولا يرضىٰ بسائرِ الأعمالِ دونَ طلبِ الحلالِ ، بلْ لا يرضيهِ إلا تفقُّدُ جميعِ الطاعاتِ والمعاصي ، فمَنْ ظنَّ أنَّ بعضَ هٰذهِ الأمورِ يكفيهِ وينجيهِ . . فهوَ مغرورٌ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمُ ادعَوا حُسنَ الخُلقِ والتواضعَ والسماحةَ ، فتصدَّوا لخدمةِ الصوفيَّةِ ، فجمعوا قوماً وتكلَّفوا بخدمتِهِمْ ، واتخذوا ذٰلكَ شبكةً للرئاسةِ وجمعِ المالِ ، وإنَّما غرضُهُمُ التكبُّرُ وهُمْ يظهرونَ الخدمةَ والتواضعَ ، وغرضُهُمُ الارتفاقُ وهمْ يظهرونَ أنَّ غرضَهُمُ الإرفاقُ ، وغرضُهُمُ الاستتباعُ وهمْ يظهرونَ أنَّ غرضَهُمُ الخدمةُ والتبعيَّةُ .

ثم إنَّهُمْ يجمعونَ مِنَ الحرامِ والشبهاتِ وينفقونَ عليهِمْ لتكثرَ أتباعُهُمْ ، وينتشرَ بالخدمةِ اسمُهُمْ .

وبعضُهُمْ يأخذُ أموالَ السلاطينِ وينفقُ عليهِمْ .

وبعضُهُمْ يأخذُها لينفقَ في طريقِ الحجِّ على الصوفيَّةِ ويزعمُ أنَّ غرضَهُ البرُّ والإرفاقُ ، وباعثُ جميعِهِمُ الرياءُ والسمعةُ ، وآيةُ ذٰلكَ إهمالُهُمْ لجميعِ أوامرِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ ظاهراً وباطناً ، ورضاهُمْ بأخذِ الحرامِ والإنفاقِ منهُ .

ومثالُ مَنْ ينفقُ الحرامَ في طريقِ الحجِّ لإرادةِ الخيرِ كمَنْ يعمُرُ مساجدَ اللهِ فيطيِّنُها بالعذِرَةِ ، ويزعمُ أنَّ قصدَهُ العمارةُ !!

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمُ اشتغلوا بالمجاهدةِ ، وتهذيبِ الأخلاقِ ، وتطهيرِ النفسِ مِنْ عيوبِها ، وصاروا يتعمَّقونَ فيها ، فاتخذوا البحثَ عنْ عيوبِ النفسِ ومعرفةِ خدعِها علماً وحرفةً ؛ فهمْ في جميعِ أحوالِهِمْ مشغولونَ بالفحصِ عنْ عيوبِ النفسِ ، وباستنباطِ دقيقِ الكلامِ في آفاتِها ، فيقولونَ : هٰذا في النفسِ عيبٌ ، والغفلةُ عنْ كونِهِ عيباً عيبٌ ، والالتفاتُ إلىٰ كونِهِ عيباً عيبٌ ، ويشغفونَ فيهِ بكلماتٍ مسلسلةٍ تضيعُ الأوقاتُ في تلفيقِها ، ومَنْ جعلَ طولَ عمرِهِ في التفتيشِ عنِ العيوبِ وتحريرِ علمِ علاجِها . . كانَ كمَنِ اشتغلَ بالتفتيشِ عنْ عوائقِ الحجِّ وآفاتِهِ ولمْ يسلكْ طريقَ الحجِّ ، فذٰلكَ لا يغنيهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزوا هٰذهِ الرتبةَ ، وابتدؤوا سلوكَ الطريقِ ، وانفتحَ لهُمْ أبوابُ المعرفةِ ، فكلَّما تشمَّموا مِنَ مبادي المعرفةِ رائحةً . . تعجَّبوا منها ، وفرحوا بها ، وأعجبتهُمْ غرائبُها ، فتقيَّدَتْ قلوبُهُمْ بالالتفاتِ إليها والتفكُّرِ فيها ، وفي كيفيةِ انفتاحِ بابِها عليهِمْ ، وانسدادِها علىٰ غيرِهِمْ .

وكلُّ ذٰلكَ غرورٌ ؛ لأنَّ عجائبَ طريقِ اللهِ ليسَ لها نهايةٌ ، فلوْ وقفَ السالكُ معَ كلِّ أعجوبةٍ وتقيَّدَ بها . . قصرَتْ خُطاهُ ، وحُرِمَ الوصولَ إلى المقصدِ ، وكانَ مثالُهُ مثالَ مَنْ قصدَ ملكاً ، فرأىٰ علىٰ بابِ ميدانِهِ روضةً فيها أزهارٌ وأنوارٌ لمْ يكنْ قدْ رأىٰ قبلَ ذٰلكَ مثلَها ، فوقفَ ينظرُ إليها ويتعجَّبُ حتَّىٰ فاتَهُ الوقتُ الذي يمكنُ فيهِ لقاءُ الملكِ .

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزوا هٰؤلاءِ ، ولم يلتفتوا إلىٰ ما يفيضُ عليهِمْ مِنَ الأنوارِ في الطريقِ ، ولا إلىٰ ما تيسَّرَ لهُمْ مِنَ العطايا الجزيلةِ ، ولمْ يعرِّجوا على الفرحِ بها والالتفاتِ إليها ، جادِّينَ في السيرِ حتَّىٰ قاربوا ، فوصلوا إلىٰ حدِّ القربةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، فظنُّوا أنَّهُمْ قدْ وصلوا إلى اللهِ ، فوقفوا وغلطوا ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ ، ولا يصلُ السالكُ إلىٰ حجابٍ مِنْ تلكَ الحجبِ في الطريقِ إلا ويظنُّ أنَّهُ قدْ وصلَ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنهُ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ، وليسَ المعنيُّ بهِ هٰذهِ الأجسامَ المضيئةَ ، فإنَّهُ كانَ يراها في الصِّغرِ ويعلمُ أنَّها ليسَتْ آلهةً ، وهيَ كثيرةٌ وليسَتْ واحدةً ، والجهَّالُ يعلمونَ أنَّ الكوكبَ ليسَ بإلٰهٍ .

فمثلُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ لا يغرُّهُ الكوكبُ الذي لا يغرُّ السواديَّةَ ، ولٰكنَّ المرادَ بهِ أنَّهُ نورٌ مِنَ الأنوارِ التي هيَ مِنْ حُجُبِ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ علىٰ طريقِ السالكينَ ، ولا يُتصوَّرُ الوصولُ إلى اللهِ تعالىٰ إلَّا بالوصولِ إلىٰ هٰذهِ الحجبِ ، وهيَ حجبٌ مِنَ النورِ ، بعضُها أعظمُ مِنْ بعضٍ ، وأصغرُ النَّيِّراتِ الكوكبُ ، فاستُعيرَ لهُ لفظُهُ ، وأعظمُها الشمسُ ، وبينَهُما رتبةُ القمرِ .

فلمْ يزلْ إبراهيمُ عليهِ السلامُ لمَّا أُرِيَ ملكوتَ السماواتِ حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يصلُ إلىٰ نورٍ بعدَ نورٍ ، ويُتخيَّلُ إليهِ في أوَّلِ ما كانَ يلقاهُ أنَّهُ قدْ وصلَ ، ثمَّ كانَ يُكشَفُ لهُ أنَّ وراءَهُ أمراً ، فيترقَّىٰ إليهِ ويقولُ : قدْ وصلتُ ، فيُكشفُ لهُ ما وراءَهُ ، حتَّىٰ وصلَ إلى الحجابِ الأقربِ الذي لا وصولَ إلا بعدَهُ ، فقالَ : هٰذا أكبرُ ، فلمَّا ظهرَ لهُ أنَّهُ معَ عِظَمِهِ غيرُ خالٍ عنِ الهُوِيِّ في حضيضِ النقصِ والانحطاطِ عنْ ذروةِ الكمالِ . . قالَ : لا أحبُّ الآفلينَ ؛ إنِّي وجَّهتُ وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ[1]

وسالكُ هٰذهِ الطريقِ قدْ يغترُّ في الوقوفِ علىٰ بعضِ هٰذهِ الحجبِ ، وقدْ يغترُّ بالحجابِ الأوَّلِ ، وأوَّلُ الحجبِ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ هوَ نفسُهُ ؛ فإنَّهُ أيضاً أمرٌ ربَّانيٌّ ، وهوَ نورٌ مِنْ أنوارِ اللهِ تعالىٰ ؛ أعني : سرَّ القلبِ الذي تتجلَّىٰ فيهِ حقيقةُ الحقِّ كلِّهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليتسعُ لجملةِ العالمِ ويحيطُ بهِ ، ويتجلىٰ فيه صورةُ الكلِّ .

وعندَ ذٰلكَ يشرقُ نورُهُ إشراقاً عظيماً ؛ إذ يظهرُ فيهِ الوجودُ كلُّهُ علىٰ ما هوَ عليهِ ، وهوَ في أوَّلِ الأمرِ محجوبٌ بمشكاةٍ هيَ كالساترِ لهُ ، فإذا تجلَّىٰ نورُهُ ، وانكشفَ جمالُ القلبِ بعدَ إشراقِ نورِ اللهِ عليهِ . . ربَّما التفتَ صاحبُ القلبِ إلى القلبِ ، فيرىٰ مِنْ جمالِهِ الفائقِ ما يدهشُهُ ، فربَّما يسبقُ لسانُهُ في هٰذهِ الدهشةِ فيقولُ : أنا الحقُّ ، فإنْ لمْ يتضحْ لهُ ما وراءَ ذٰلكَ . . اغترَّ بهِ ، ووقفَ عليهِ وهلكَ ، وكانَ قدِ اغترَّ بكوكبٍ صغيرٍ مِنْ أنوارِ الحضرةِ الإلٰهيَّةِ ، ولمْ يصلْ بعدُ إلى القمرِ فضلاً عنِ الشمسِ ؛ فهوَ مغرورٌ .

وهٰذا محلُّ الالتباسِ ؛ إذِ المتجلِّي يلتبسُ بالمتجلَّىٰ فيهِ كما يلتبسُ لونُ ما يتراءىٰ في المرآةِ بالمرآةِ ، فيظنُّ أنَّهُ لونُ المرآةِ ، وكما يلتبسُ ما في الزجاجِ بالزجاجِ ؛ كما قيلَ[2] : [من الكامل]

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ … فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ … وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلا خَمْرُ

وبهٰذهِ العينِ نظرَ النصارىٰ إلى المسيحِ عليهِ السلامُ ، فرأَوا إشراقَ نورِ اللهِ قدْ تلألأَ فيهِ ، فغلطوا فيهِ ؛ كمَنْ يرىٰ كوكباً في مرآةٍ أوْ في ماءٍ فيظنُّ أنَّ الكوكبَ في المرآةِ أوْ في الماءِ ، فيمدُّ يدَهُ إليهِ ليأخذَهُ وهوَ مغرورٌ .

وأنواعُ الغرورِ في طريقِ السلوكِ إلى اللهِ تعالىٰ لا تُحصىٰ في مجلداتٍ ، ولا تُستقصىٰ إلا بعدَ شرحِ جميعِ علومِ المكاشفةِ ، وذٰلكَ ممَّا لا رخصةَ في ذكرِهِ .

---

(١) مشكاة الأنوار (ص ٥٥) .

(٢) البيتان للصاحب بن عباد في « ديوانه » (ص ١٧٦) .

ولعلَّ القدرَ الذي ذكرناهُ أيضاً كانَ الأولىٰ بنا تركَهُ ؛ إذِ السالكُ لهٰذا الطريقِ لا يحتاجُ إلىٰ أنْ يسمعَهُ مِنْ غيرِهِ ، والذي لم يسلكْهُ لا ينتفعُ بسماعِهِ ، بلْ ربَّما يستضرُّ بهِ ؛ إذْ يورثُهُ ذٰلكَ دهشةً مِنْ حيثُ يسمعُ ما لا يفهمُ .

ولٰكنْ فيهِ فائدةٌ ؛ وهوَ إخراجُهُ مِنَ الغرورِ الذي هوَ فيهِ ؛ إذْ ربَّما يصدِّقُ بأنَّ الأمرَ أعظمُ ممَّا يظنُّهُ ، وممَّا يتخيَّلُهُ بذهنِهِ المختصرِ وخيالِهِ القاصرِ وجدلِهِ المزخرفِ ، ويصدِّقُ أيضاً بما يُحكىٰ مِنَ المكاشفاتِ التي أخبرَ عنها أولياءُ اللهِ ، ومِنْ عِظَمِ غرورِهِ ربَّما أصرَّ مكذِّباً بما يسمعُهُ الآنَ كما يكذِّبُ بما سمعَهُ مِنْ قبلُ !!

* * *

الصّنف الرّابع : أرباب الأموال

والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ :

ففرقةٌ منهُمْ يحرصونَ علىٰ بناءِ المساجدِ والمدارسِ والرباطاتِ والقناطرِ وما يظهرُ للناسِ كافَّةً ، ويكتبونَ أساميَهُمْ عليها بالآجرِّ[1] ؛ ليتخلَّدَ ذكرُهُمْ ، ويبقىٰ بعدَ الموتِ أثرُهُمْ ، وهمْ يظنُّونَ أنَّهُمْ قدِ استحقُّوا المغفرةَ بذٰلكَ .

وقدِ اغترُّوا فيهِ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُمْ يبنونَها مِنْ أموالٍ اكتسبوها مِنَ الظلمِ والنهبِ والرِّشا والجهاتِ المحظورةِ ، فهمْ قدْ تعرَّضوا لسخطِ اللهِ في كسبِها ، وتعرَّضوا لسخطِهِ في إنفاقِها ، وكانَ الواجبُ عليهِمُ الامتناعَ عنْ كسبِها .

فإذا قدْ عصَوُا اللهَ بكسبِها . . كانَ الواجبُ عليهِمُ التوبةَ والرجوعَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وردَّها إلىٰ مُلَّاكِها ؛ إمَّا بأعيانِها أوْ بردِّ بدلِها عندَ العجزِ .

فإنْ عجزوا عنِ المُلَّاكِ . . كانَ الواجبُ ردَّها إلى الورثةِ ، فإنْ لمْ يبقَ للمظلومِ وارثٌ . . فالواجبُ صرفُها إلىٰ أهمِّ المصالحِ .

وربَّما يكونُ الأهمُّ التفرقةَ على المساكينِ ، وهمْ لا يفعلونَ ذٰلكَ ؛ خيفةً مِنْ ألا يظهرَ ذٰلكَ للناسِ ، فيبنونَ الأبنيةَ بالآجرِّ وغرضُهُمْ مِنْ بنائِها الرياءُ وجلبُ الثناءِ ، وحرصُهُمْ علىٰ بقائِها لبقاءِ أسمائِهِمُ المكتوبةِ فيها ، لا لبقاءِ الخيرِ .

والوجهُ الثاني : أنَّهُمْ يظنُّونَ بأنفسِهِمُ الإخلاصَ وقصدَ الخيرِ في الإنفاقِ على الأبنيةِ ولوْ كُلِّفَ واحدٌ منهُمْ أنْ ينفقَ ديناراً ولا يُكتبَ اسمُهُ على الموضعِ الذي أنفقَ عليهِ . . لشقَّ ذٰلكَ عليهِ ولمْ تسمحْ بهِ نفسُهُ .

واللهُ مُطلعٌ عليهِ ، كتبَ اسمَهُ أوْ لمْ يكتبْ ، فلولا أنَّهُ يريدُ بهِ وجهَ الناسِ لا وجهَ اللهِ . . لما افتقرَ إلىٰ ذٰلكَ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ ربَّما اكتسبَتِ المالَ مِنَ الحلالِ ، وأنفقَتْ على المساجدِ ، وهيَ أيضاً مغرورةٌ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : الرياءُ وطلبُ الثناءِ ؛ فإنَّهُ ربَّما يكونُ في جوارِهِ أوْ في بلدِهِ فقراءُ وصرفُ المالِ إليهِمْ أهمُّ وأفضلُ وأولىٰ مِنَ الصرفِ إلىٰ بناءِ المساجدِ وزينتِها ، وإنَّما يخفُّ عليهِمُ الصرفُ إلى المساجدِ ليَظهرَ ذٰلكَ بينَ الناسِ .

والثاني : أنَّهُ يُصرفُ إلىٰ زخرفةِ المسجدِ وتزيينِهِ بالنقوشِ التي هيَ منهيٌّ عنها[2] ، وشاغلةٌ قلوبَ المصلينَ ، ومختطفةٌ أبصارَهُمْ ، والمقصودُ مِنَ الصلاةِ الخشوعُ وحضورُ القلبِ ، وذٰلكَ يفسدُ قلوبَ المصلينَ ، ويحبطُ ثوابَهُمْ بذٰلكَ .

ووبالُ ذٰلكَ كلِّهِ يرجعُ إليهِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ يغترُّ بهِ ، ويرىٰ أنَّهُ مِنَ الخيراتِ ويعدُّ ذٰلكَ وسيلةً إلى اللهِ تعالىٰ ، وهوَ

---

(١) وتارة على الرخام حفراً ، مع ذكر تاريخ عمارتها ، وتارة يكتبون ما صرف عليها من الأموال « إتحاف » (٨/٤٨٥) .

(٢) فقد روى البخاري معلقاً (كتاب الصلاة/باب بنيان المسجد) ، قبل (٤٤٦) : (وأمر عمر ببناء المسجد وقال : أَكِنَّ الناسَ من المطر ، وإياكَ أن تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس) ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١/٥٣٩) : (هو طرف من قصة في ذكر تجديد المسجد النبوي) ، وروى ابن ماجه (٧٤١) من حديث الفاروق رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » .

بذلكَ قدْ تعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ وهوَ يظنُّ أنَّهُ مطيعٌ للهِ تعالىٰ وممتثلٌ لأمرِهِ ، وقدْ شوشَ قلوبَ عبادِ اللهِ بما زخرفَهُ مِنَ المسجدِ .

وربَّما شوَّقَهُمْ بهِ إلىٰ زخارفِ الدنيا ، فيشتهونَ مثلَ ذٰلكَ في بيوتِهِمْ ، ويشتغلونَ بطلبِهِ ، ووبالُ ذٰلكَ كلِّهِ في رقبتِهِ ؛ إذِ المسجدُ للتواضعِ ولحضورِ القلبِ معَ اللهِ تعالىٰ .

قالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أتىٰ رجلانِ مسجداً ، فدخلَ أحدُهُما ، ووقفَ الآخرُ على البابِ .

فقالَ لهُ صاحبُهُ : ألا تدخلُ ؟

قالَ : مثلي يدخلُ بيتَ اللهِ وقد عصيتُهُ !! فكُتِبَ على المكانِ عندَ اللهِ صديقاً(١)

فهٰكذا ينبغي أن تعظَّمَ المساجدُ ، وهو أن يرىٰ تلويثَ المسجدِ بنفسِهِ جنايةً على المسجدِ ، لا أنْ يرىٰ تلويثَ المسجدِ بالحرامِ أو بزخرفِ الدنيا منَّةً على اللهِ تعالىٰ .

وقال الحواريون للمسيحِ عليه السلامُ :

انظرْ إلىٰ هٰذا المسجدِ ما أحسنَهُ !!

فقالَ : أمَّتي أمَّتي ؛ بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا يتركُ اللهُ مِنْ هٰذا المسجد حجراً قائماً علىٰ حجرٍ إلا أهلكَهُ بذنوبِ أهلِهِ ؛ إنَّ اللهَ لا يعبأُ بالذهبِ والفضةِ ، ولا بهٰذهِ الحجارةِ التي تعجبُكُمْ شيئاً ، وإنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى القلوبُ الصالحةُ ، بها يعمرُ اللهُ الأرضَ ، وبها يخربُ إذا كانَتْ علىٰ غيرِ ذٰلكَ(٢)

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا زخرفتُمْ مساجدَكُمْ وحلَّيتُمْ مصاحفَكُمْ . . فالدَّمارُ عليكُمْ »(٣)

وقالَ الحسنُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا أرادَ أن يبنيَ مسجدَ المدينةِ . . أتاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ لهُ : ابنِهِ سبعةَ أذرعٍ طولاً في السماءِ ولا تزخرفْهُ ولا تنقشْهُ(٤)

فغرورُ هٰذا مِنْ حيثُ إنَّهُ رأى المنكرَ معروفاً واتَّكلَ عليهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ ينفقونَ الأموالَ في الصدقاتِ على الفقراءِ والمساكينِ ، ويطلبونَ بهِ المحافلَ الجامعةَ ، ومِنَ الفقراءِ مَنْ عادتُهُ الشكرُ والإفشاءُ للمعروفِ ، ويكرهونَ التصدُّقَ في السِّرِّ ، ويرونَ إخفاءَ الفقيرِ لما يأخذُهُ منهُمْ جنايةً عليهِمْ وكفراناً .

وربَّما يحرصونَ علىٰ إنفاقِ المالِ في الحجِّ ، فيحجُّونَ مرّةً بعدَ أخرىٰ ، وربَّما تركوا جيرانَهُمْ جياعاً .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٨) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٤٨٨) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٧) ، وابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٧٥) ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه ، ورفعه من حديثه الحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣٣٤) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هٰكذا ، وفي « قصر الأمل » [٢٨٦] لابن أبي الدنيا : « ابنوه كعريش موسىٰ » ، وليس فيه مجيء جبريل) .

ولذٰلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ : (في آخرِ الزمانِ يكثرُ الحاجُّ بلا سببٍ ؛ يهونُ عليهِمُ السفرُ ، ويُبسطُ لهُمْ في الرزقِ ، ويرجعونَ محرومينَ مسلوبينَ ، يهوي بأحدِهِمْ بعيرُهُ بينَ القفارِ والرمالِ وجارُهُ مأسورٌ إلىٰ جنبِهِ لا يواسيهِ) .

وروىٰ أبو نصرٍ التمَّارُ : أنَّ رجلاً جاءَ يودِّعُ بشرَ بنَ الحارثِ وقالَ :

قدْ عزمتُ على الحجِّ ، فتأمرُني بشيءٍ ؟

فقالَ لهُ : كمْ أعددتَ للنفقةِ ؟

فقالَ : ألفي درهمٍ ، فقالَ بشرٌ : فأيُّ شيءٍ تبتغي بحجِّكَ تزهُّداً أوِ اشتياقاً إلى البيتِ ، أوِ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ؟

قالَ : ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ، قالَ : فإنْ أصبتَ مرضاةَ اللهِ تعالىٰ وأنتَ في منزلِكَ ، وتنفقُ ألفي درهمٍ ، وتكونُ علىٰ يقينٍ مِنْ مرضاةِ اللهِ تعالىٰ ، أتفعلُ ذٰلكَ ؟ قالَ : نعمْ .

قالَ : اذهبْ فأعطها عشرةَ أنفسٍ ؛ مديونٌ يقضي دينَهُ ، وفقيرٌ يَرُمُّ شعثَهُ ، ومعيلٌ يحيي عيالَهُ ، ومربِّي يتيمٍ يفرحُهُ ، وإنْ قويَ قلبُكَ أنْ تعطيَها واحداً . . فافعلْ ؛ فإنَّ إدخالَكَ السرورَ علىٰ قلبِ المسلمِ وإغاثةَ اللهفانِ وكشفَ الضُّرِّ ، وإعانةَ الضعيفِ . . أفضلُ مِنْ مئةِ حجةٍ بعدَ حجةِ الإسلامِ ، قمْ فأخرجْها كما أمرناكَ ، وإلا . . فقلْ لنا ما في قلبِكَ ، فقالَ :

يا أبا نصرٍ[1] ؛ سفري أقوىٰ في قلبي ، فتبسَّمَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ وأقبلَ عليهِ فقالَ لهُ :

المالُ إذا جُمعَ مِنْ وسخِ التجاراتِ والشبهاتِ . . اقتضتِ النفسُ أنْ تقضيَ بهِ وطراً ، فأظهرَتِ الأعمالَ الصالحاتِ ، وقدْ آلى اللهُ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ ألَّا يقبلَ إلا عملَ المتقينَ[2]

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ مِنْ أربابِ الأموالِ يحفظونَ الأموالَ ويمسكونَها بحكمِ البخلِ ، ثمَّ يشتغلونَ بالعباداتِ البدنيَّةِ التي لا يُحتاجُ فيها إلىٰ نفقةٍ ؛ كصيامِ النهارِ ، وقيامِ الليلِ ، وختمِ القرآنِ .

وهمْ مغرورونَ ؛ لأنَّ البخلَ المهلكَ قدِ استولىٰ علىٰ بواطنِهِمْ ، فهوَ يحتاجُ إلىٰ قمعِهِ بإخراجِ المالِ ، فقدِ اشتغلَ بطلبِ فضائلَ هوَ مستغنٍ عنها .

ومثالُهُ مثالُ مَنْ دخلَ في ثوبِهِ حيَّةٌ وقدْ أشرفَ على الهلاكِ ، وهوَ مشغولٌ بطبخِ السَّكنجبينِ ليسكِّنَ بهِ الصفراءَ ، ومَنْ قتلَتْهُ الحيةُ متىٰ يحتاجُ إلى السكنجبينِ ؟!

ولذٰلكَ قيلَ لبشرٍ : إنَّ فلاناً الغنيَّ كثيرُ الصومِ والصلاةِ .

فقالَ : المسكينُ تركَ حالَهُ ودخلَ في حالِ غيرِهِ ؛ إنَّما حالُ هٰذا إطعامُ الطعامِ للجياعِ ، والإنفاقُ على المساكينِ ، فهٰذا أفضلُ لهُ مِنْ تجويعِهِ نفسَهُ ، ومِنْ صلاتِهِ لنفسِهِ معَ جمعِهِ للدنيا ، ومنعِهِ للفقراءِ[3]

❁ ❁ ❁

(١) هي كنية بشر . « إتحاف » (٤٨٧/٨) ، وليس الخطاب لأبي نصر التمار .
(٢) قوت القلوب (٩٢/١) .
(٣) قوت القلوب (٩٣/١) .

وفرقةٌ أخرىٰ غلبَهُمُ البخلُ ، فلا تسمحُ نفوسُهُمْ إلا بأداءِ الزكاةِ فقطْ .

ثمَّ إنَّهُمْ يُخرجونَ مِنَ المالِ الخبيثَ الرديءَ الذي يرغبونَ عنهُ ، ويطلبونَ مِنَ الفقراءِ مَنْ يخدمُهُمْ ويترددُ في حاجاتِهِمْ ، أوْ مَنْ يحتاجونَ إليهِ في المستقبلِ للاستسخارِ في خدمةٍ ، أوْ مَنْ لهُمْ فيهِ على الجملةِ غرضٌ ، أوْ يسلِّمونَ ذٰلكَ إلىٰ مَنْ يعينُهُ واحدٌ مِنَ الأكابرِ ممَّنْ يستظهرُ بحشمِهِ ؛ لينالَ بذٰلكَ عندَهُ منزلةً ، فيقومَ بحاجاتِهِ .

وكلُّ ذٰلكَ مفسداتٌ للنيَّةِ ، ومحبطاتٌ للعملِ ، وصاحبُهُ مغرورٌ ، ويظنُّ أنَّهُ مطيعٌ للهِ تعالىٰ وهوَ فاجرٌ ؛ إذْ طلبَ بعبادةِ اللهِ عوضاً مِنْ غيرِهِ .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنْ غرورِ أربابِ الأموالِ أيضاً لا يُحصىٰ ، وإنَّما ذكرنا هٰذا القدْرَ ؛ للتنبيهِ علىٰ أجناسِ الغرورِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ مِنْ عوامِّ الخلقِ وأربابِ الأموالِ أوِ الفقراءِ اغترُّوا بحضورِ مجالسِ الذكرِ ، واعتقدوا أنَّ ذٰلكَ يغنيهِمْ ويكفيهِمْ ، واتخذوا ذٰلكَ عادةً ، ويظنُّونَ أنَّ لهُمْ علىٰ مجردِ سماعِ الوعظِ دونَ العملِ ودونَ الاتعاظِ أجراً ، وهمْ مغرورونَ ؛ لأنَّ فضلَ مجلسِ الذكرِ لكونِهِ مرغِّباً في الخيرِ ، فإنْ لمْ يهيِّجِ الرغبةَ . . فلا خيرَ فيهِ .

والرغبةُ محمودةٌ ؛ لأنَّها تبعثُ على العملِ ، فإنْ ضعُفَتْ عنِ الحملِ على العملِ ، فلا خيرَ فيها .

وما يُرادُ لغيرِهِ فإذا قصَّرَ عنِ الأداءِ إلىٰ ذٰلكَ الغيرِ . . فلا قيمةَ لهُ .

وربَّما يغترُّ بما يسمعُهُ مِنَ الواعظِ مِنْ فضلِ حضورِ المجلسِ ، وفضلِ البكاءِ ، وربَّما تدخلُهُ رقَّةٌ كرقَّةِ النساءِ فيبكي ، وربَّما يسمعُ كلاماً مخوِّفاً فلا يزيدُ علىٰ أنْ يصفقَ بيديهِ ويقولَ : يا سلامُ ؛ سلِّمْ[1] ، أوْ نعوذُ باللهِ ، أوْ سبحانَ اللهِ ، ويظنُّ أنَّهُ قدْ أتىٰ بالخيرِ كلِّهِ ، وهوَ مغرورٌ .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ المريضِ الذي يحضرُ مجالسَ الأطباءِ فيسمعُ ما يجري ، أوِ الجائعِ الذي يحضرُ عندَ مَنْ يصفُ لهُ الأطعمةَ اللذيذةَ الشهيَّةَ ثمَّ ينصرفُ ، وذٰلكَ لا يُغني عنهُ مِنْ مرضِهِ وجوعِهِ شيئاً .

فكذٰلكَ سماعُ وصفِ الطاعاتِ دونَ العملِ بها لا يغني مِنَ اللهِ شيئاً .

فكلُّ وعظٍ لمْ يغيِّرْ منكَ صفةً تغييراً يغيِّرُ أفعالَكَ حتَّىٰ تقبلَ على اللهِ تعالىٰ إقبالاً قوياً أوْ ضعيفاً وتعرضَ عنِ الدنيا . . فذٰلكَ الوعظُ زيادةُ حجَّةٍ عليكَ ، فإذا رأيتَهُ وسيلةً لكَ . . كنتَ مغروراً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما ذكرتَهُ مِنْ مداخلِ الغرورِ أمرٌ لا يتخلَّصُ منهُ أحدٌ ، ولا يمكنُ الاحترازُ عنهُ ، وهٰذا يوجبُ اليأسَ ؛ إذْ لا يقوىٰ أحدٌ مِنَ البشرِ على الحذرِ مِنْ خفايا هٰذهِ الآفاتِ .

فأقولُ : الإنسانُ إذا فترَتْ همَّتُهُ في شيءٍ . . أظهرَ اليأسَ منهُ ، واستعظمَ الأمرَ ، واستوعَرَ الطريقَ ، وإذا صحَّ منهُ الهوىٰ . . اهتدىٰ إلى الحيلِ ، واستنبطَ بدقيقِ النظرِ خفايا الطرقِ في الوصولِ إلى الغرضِ .

حتَّى إنَّ الإنسانَ إذا أرادَ أنْ يستنزلَ الطيرَ المحلِّقَ في جوِّ السماءِ معَ بُعدِهِ منهُ . . استنزلَهُ .

---

(١) في (أ) : (يا سلام ؛ سلِّم سلِّم) ، وفي (ج) : (يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ) .

وإذا أرادَ أنْ يُخرِجَ الحوتَ مِنْ أعماقِ البحارِ . . استخرجَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يستخرجَ الذهبَ أوِ الفضةَ من تحتِ الجبالِ . . استخرجَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يقتنصَ الوحوشَ المطلقةَ في البراري والصحاري . . اقتنصَها .

وإذا أرادَ أنْ يستسخرَ السباعَ والفيلةَ وعظيمَ الحيواناتِ . . استسخرَها ، وإذا أرادَ أنْ يأخذَ الأفاعيَ والحيَّاتِ ويعبثَ بها . . أخذَها ، واستخرجَ الترياقَ مِنْ أجوافِها .

وإذا أرادَ أنْ يتَّخِذَ الديباجَ الملوَّنَ المنقَّشَ مِنْ ورقِ التوتِ . . اتخذَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يعرفَ مقاديرَ الكواكبِ وطولَها وعرْضَها . . استخرجَ بدقيقِ الهندسةِ ذٰلكَ وهوَ مستقرٌّ على الأرضِ .

وكلُّ ذٰلكَ باستنباطِ الحيلِ ، وإعدادِ الآلاتِ ، فسخَّرَ الفرسَ للركوبِ ، والكلبَ للصيدِ ، وسخَّرَ البازيَ لاقتناصِ الطيورِ ، وهيَّأَ الشبكةَ لاصطيادِ السمكِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ دقائقِ حيلِ الآدميِّ .

وكلُّ ذٰلكَ لأنَّ همَّهُ أمرُ دنياهُ ، وذٰلكَ معينٌ لهُ علىٰ دنياهُ .

فلوْ أهمَّهُ أمرُ آخرتِهِ . . فليسَ عليهِ إلا شغلٌ واحدٌ ؛ وهوَ تقويمُ قلبِهِ[١] ، فعجزَ عنْ تقويمِ قلبِهِ وتخاذلَ وقالَ : هٰذا محالٌ ، ومَنِ الذي يقدرُ عليهِ ؟

وليسَ ذٰلكَ بمحالٍ لوْ أصبحَ وهمُّهُ هٰذا الهمُّ الواحدُ ، بلْ هوَ كما يُقالُ : (لوْ صَحَّ مِنْكَ الْهَوَىٰ أُرْشِدتَ لِلْحِيَلِ) .

فهٰذا شيءٌ لمْ يعجزْ عنهُ السلفُ الصالحونَ ومَنِ اتبعَهُمْ بإحسانٍ ، فلا يعجزُ عنهُ أيضاً مَنْ صدقَتْ إرادتُهُ ، وقويَتْ همَّتُهُ ، بلْ لا يحتاجُ إلىٰ عُشرِ تعبِ الخلقِ في استنباطِ حيلِ الدنيا ونظمِ أسبابِها .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ قرَّبتَ الأمرَ فيهِ بعدَ أنْ أكثرتَ في ذكرِ مداخلِ الغرورِ ، فبمَ ينجو العبدُ مِنَ الغرورِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ ينجو منهُ بثلاثةِ أمورٍ : بالعقلِ ، والعلمِ ، والمعرفةِ ، فهٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ لا بدَّ منها .

أمَّا العقلُ : فأعني بهِ الفطرةَ الغريزيَّةَ ، والنورَ الأصليَّ الذي بهِ يدركُ الإنسانُ حقائقَ الأشياءِ ، فالفطنةُ والكيْسُ فطرةٌ ، والحمقُ والبلادةُ فطرةٌ ، والبليدُ لا يقدرُ على التحفُّظِ مِنَ الغرورِ .

فصفاءُ العقلِ وذكاءُ الفهمِ لا بدَّ منهُ في أصلِ الفطرةِ ، وهٰذا إنْ لمْ يُفطَرْ عليهِ الإنسانُ . . فاكتسابُهُ غيرُ ممكنٍ .

نعمْ ؛ إذا حصلَ أصلُهُ . . أمكنَ تقويتُهُ بالممارسة ، فأساسُ السعاداتِ كلِّها العقلُ والكياسةُ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تباركَ اللهُ الذي قسَّمَ العقلَ بينَ عبادِهِ أشتاتاً ، إنَّ الرجلينِ ليستوي عملُهُما وبِرُّهُما وصومُهُما وصلاتُهُما ، ولٰكنَّهُما يتفاوتانِ في العقلِ كالذَّرَّةِ في جنبِ أُحُدٍ ، وما قسمَ اللهُ لخلقِهِ حظّاً هوَ أفضلَ مِنَ العقلِ واليقينِ »[٢]

وعنْ أبي الدرداءِ أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرأيتَ الرجلَ يصومُ النهارَ ، ويقومُ الليلَ ، ويحجُّ ، ويعتمرُ ، ويتصدَّقُ ، ويغزو في سبيلِ اللهِ ، ويعودُ المريضَ ، ويشيّعُ الجنائزَ ، ويعينُ الضعيفَ ، ولا يعلمُ منزلتَهُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ .

---

(١) فقط ، وهو تسويته وتعديله وتنظيفه عن الخواطر الرديئة ؛ حتىٰ يكون مهبطاً لأنوار الله تعالىٰ . « إتحاف » (٨/٤٨٩) .

(٢) الحديث عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤١) بروايتين ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٣٦١) .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما يُجزىٰ علىٰ قدْرِ عقلِهِ »(١)

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : أُثنيَ علىٰ رجلٍ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا خيراً .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ »

قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ نقولُ مِنْ عبادتِهِ وفضلِهِ وخلقِهِ .

فقالَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ فإنَّ الأحمقَ يصيبُ بحمقِهِ أعظمَ مِنْ فجورِ الفاجرِ ، وإنَّما يُقرَّبُ الناسُ يومَ القيامةِ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ »(٢)

وقالَ أبو الدرداءِ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا بلغَهُ عنْ رجلٍ شدَّةُ عبادةٍ . . سأَلَ عنْ عقلِهِ ، فإذا قالوا : حسنٌ . . قالَ : « أرجوهُ » ، وإنْ قالوا غيرَ ذٰلكَ . . قالَ : « لنْ يبلغَ » .

قالَ : وذُكرَ لهُ شدَّةُ عبادةِ رجلٍ ، فقالَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ »

قالوا : ليسَ بشيءٍ ، قالَ : « لنْ يبلغَ صاحبُكُمْ حيثُ تظنُّونَ »(٣)

فالذكاءُ وصحةُ غريزةِ العقلِ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ في أصلِ الفطرةِ ، فإنْ فاتَتْ ببلادةٍ وحماقةٍ . . فلا تَدارُكَ لها .

الثاني المعرفةُ : وأعني بالمعرفةِ : أنْ يعرفَ أربعةَ أمورٍ : يعرفَ نفسَهُ ، ويعرفَ ربَّهُ ، ويعرفَ الدنيا ، ويعرفَ الآخرةَ .

فيعرفُ نفسَهُ بالعبوديةِ والذُّلِّ ، وبكونِهِ غريباً في هٰذا العالمِ ، وأجنبياً مِنْ هٰذهِ الشهواتِ البهيميَّةِ ، وإنَّما الموافقُ لهُ طبعاً هوَ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، والنظرُ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ فقطْ .

فلا يُتصوَّرُ أنْ يعرفَ هٰذا ما لمْ يعرفْ نفسَهُ ولمْ يعرفْ ربَّهُ .

فليستعنْ علىٰ هٰذا بما ذكرناهُ في كتابِ المحبَّةِ ، وفي كتابِ شرحِ عجائبِ القلبِ ، وكتابِ التفكُّرِ ، وكتابِ الشكرِ ؛ إذْ فيها إشاراتٌ إلىٰ وصفِ النفسِ ، وإلىٰ وصفِ جلالِ اللهِ .

ويحصلُ بِهِ التنبيهُ على الجملةِ ، وكمالُ المعرفةِ وراءَهُ ؛ فإنّ هٰذا مِنْ علومِ المكاشفةِ ، ولم نطنبْ في هٰذا الكتابِ إلا في علومِ المعاملةِ .

وأمَّا معرفةُ الدنيا والآخرةِ . . فيستعينُ عليها بما ذكرناهُ في كتابِ ذمّ الدنيا وكتابِ ذكرِ الموتِ ؛ ليتبيَّنَ لهُ أنْ لا نسبةَ للدنيا إلى الآخرةِ .

فإذا عرفَ نفسَهُ وربَّهُ ، وعرفَ الدنيا والآخرةَ . . ثارَ مِنْ قلبِهِ بمعرفةِ اللهِ حبُّ اللهِ .

وبمعرفةِ الآخرةِ شدَّةُ الرغبةِ فيها .

وبمعرفةِ الدنيا الرغبةُ عنها .

فيصيرُ أهمُّ أمورِهِ ما يوصلُهُ إلى اللهِ تعالىٰ وينفعُهُ في الآخرةِ .

---

(١) رواه الحارث في « مسنده » (٨٢٧) ، وهو من أحاديث داوود بن المحبر ، ورواه عن ابن عمر رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (٤٣١٥) .

(٢) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .

(٣) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٩٦٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/٣٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣٢٤) .

وإذا غلبَتْ هٰذه الإرادةُ علىٰ قلبِهِ . . صحَّتْ نيتهُ في الأمورِ كلِّها .

فإنْ أكلَ مثلاً أوِ اشتغلَ بقضاءِ الحاجةِ . . كانَ قصدُهُ منهُ الاستعانةَ علىٰ سلوكِ طريقِ الآخرةِ ، وصحَّتْ نيَّتُهُ ، واندفعَ عنهُ كلُّ غرورٍ منشؤُهُ تجاذبُ الأغراضِ ، والنزوعُ إلى الدنيا والجاهِ والمالِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ هوَ المفسدُ للنيَّةِ .

وما دامتِ الدنيا أحبَّ إليهِ مِنَ الآخرةِ ، وهوىٰ نفسِهِ أحبَّ إليهِ مِنْ رضا اللهِ تعالىٰ . . فلا يمكنُهُ الخلاصُ مِنَ الغرورِ .

فإذا غلبَ حبُّ اللهِ علىٰ قلبِهِ بمعرفتِهِ باللهِ وبنفسِهِ الصادرةِ عنْ كمالِ عقلِهِ . . فيحتاجُ إلى **المعنى الثالثِ ، وهوَ العلمُ** : أعني : العلمَ بكيفيةِ سلوكِ الطريقِ إلى اللهِ ، والعلمَ بما يقرِّبُهُ مِنَ اللهِ وما يبعدُهُ عنهُ ، والعلمَ بآفاتِ الطريقِ وعقباتِهِ وغوائلِهِ ، وجميعُ ذٰلكَ قدْ أودعناهُ كتبَ « إحياءِ علومِ الدينِ » .

فيعرفُ مِنْ **ربعِ العباداتِ** شروطَها فيراعيها ، وآفاتِها فيتقيها .

ومِنْ **ربعِ العاداتِ** أسرارَ المعايشِ وما هوَ مضطرٌّ إليهِ فيأخذُهُ بأدبِ الشرعِ ، وما هوَ مستغنٍ عنهُ فيعرضُ عنهُ .

ومِنْ **ربعِ المهلكاتِ** يعلمُ جميعَ العقباتِ المانعةِ في طريقِ اللهِ ؛ فإنَّ المانعَ مِنَ اللهِ الصفاتُ المذمومةُ في الخلقِ ، فيعلمُ المذمومَ ويعلمُ طريقَ علاجِهِ .

ويعرفُ مِنْ **ربعِ المنجياتِ** الصفاتِ المحمودةَ التي لا بدَّ وأنْ تُوضعَ خَلَفاً عنِ المذمومةِ بعدَ محوِها .

فإذا أحاطَ بجميعِ ذٰلكَ . . أمكنَهُ الحذرُ مِنَ الأنواعِ التي أشرنا إليها مِنَ الغرورِ .

وأصلُ ذٰلكَ كلِّهِ : أنْ يغلبَ حبُّ اللهِ على القلبِ ، ويسقطَ حبُّ الدنيا منهُ ؛ حتَّىٰ تقوىٰ بهِ الإرادةُ ، وتصحَّ بهِ النيَّةُ ، ولا يحصلُ ذٰلكَ إلا بالمعرفةِ التي ذكرناها .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فإذا فعلَ جميعَ ذٰلكَ . . فما الذي يُخافُ عليهِ ؟

فأقولُ : يُخافُ عليهِ أنْ يخدعَهُ الشيطانُ ، ويدعوَهُ إلىٰ نصحِ الخلقِ ونشرِ العلمِ ، ودعوةِ الناسِ إلىٰ ما عرفَهُ مِنْ دينِ اللهِ .

فإنَّ المريدَ المخلصَ إذا فرغَ مِنْ تهذيبِ نفسِهِ وأخلاقِهِ ، وراقبَ القلبَ حتَّىٰ صفَّاهُ منْ جميعِ الكدوراتِ ، واستوىٰ على الصراطِ المستقيمِ ، وصغُرَتِ الدنيا في عينِهِ فتركَها ، وانقطعَ طمعُهُ عنِ الخلقِ فلمْ يلتفتْ إليهِمْ ، ولَمْ يبقَ لهُ إلا همٌّ واحدٌ ؛ وهوَ اللهُ تعالىٰ ، والتلذُّذُ بذكرِهِ ومناجاتِهِ ، والشوقُ إلىٰ لقائِهِ ، وقدْ عجزَ الشيطانُ عنْ إغوائِهِ .

إذْ يأتيهِ مِنْ جهةِ الدنيا وشهواتِ النفسِ فلا يطيعُهُ ، فيأتيهِ مِنْ جهةِ الدينِ ، ويدعوهُ إلى الرحمةِ علىٰ خلقِ اللهِ ، والشفقةِ علىٰ دينِهِمْ بالنصحِ لهُمْ ، والدعاءِ إلى اللهِ .

فينظرُ العبدُ برحمتِهِ إلى العبيدِ ، فيراهُمْ حيارىٰ في أمرِهِمْ ، سكارىٰ في دينِهِمْ ، صمّاً عمياً ، قدِ استولىٰ عليهِمُ المرضُ وهمْ لا يشعرونَ ، وفقدوا الطبيبَ ، وأشرفوا على العطبِ ، فغلبَ علىٰ قلبِهِ الرحمةُ لهُمْ ، وقدْ كانَ عندَهُ حقيقةُ المعرفةِ بما يهديهِمْ ويبيِّنُ لهمْ ضلالَهُمْ ، ويرشدُهُمْ إلىٰ سعادتِهِمْ ، وهوَ يقدرُ علىٰ ذكرِها مِنْ غيرِ تعبٍ ومؤنةٍ ولزومِ غرامةٍ .

فكانَ مثلُهُ كمثلِ رجلٍ كانَ بهِ داءٌ عظيمٌ لا يُطاقُ ألمُهُ ، وقدْ كانَ لذٰلكَ يسهرُ ليلَهُ ويقلقُ نهارَهُ ، لا يأكلُ ولا يشربُ ، ولا يتحرَّكُ ولا يتصرَّفُ ؛ لشدَّةِ ضَرَبانِ الألمِ ، فوجدَ لهُ دواءً عفواً صفواً مِنْ غيرِ ثمنٍ ولا تعبٍ ولا مرارةٍ في تناولِهِ ، فاستعملَهُ ، فبرئَ وصحَّ ، وطابَ نومُهُ بالليلِ بعدَ طولِ سهرِهِ ، وهدأَ بالنهارِ بعدَ شدَّةِ القلقِ ، وطابَ عيشُهُ بعدَ نهايةِ الكربِ ، وأصابَ لذَّةَ العافيةِ بعدَ طولِ السقامِ .

ثمَّ نظرَ إلىٰ عددٍ كثيرٍ مِنَ المسلمينَ وإذا بهِمْ تلكَ العلَّةُ بعينِها ، وقدْ طالَ سهرُهُمْ ، واشتدَّ قلقُهُمْ ، وارتفعَ إلى السماءِ أنينُهُمْ ، فتذكَّرَ أنَّ دواءَهُمْ هوَ الذي يعرفُهُ ، وأنَّهُ يقدرُ على شفائِهِمْ بأسهلِ ما يكونُ ، وفي أوحىٰ زمانٍ[1] يقدرُ ، فأخذَتْهُ الرحمةُ والرِّقَّةُ ، ولمْ يجدْ فسحةً مِنْ نفسِهِ في التراخي عنِ الاشتغالِ بعلاجِهِمْ .

فكذٰلكَ العبدُ المخلصُ بعدَ أنِ اهتدىٰ إلى الطريقِ ، وشُفِيَ مِنْ أمراضِ القلوبِ . . شاهدَ الخلقَ وقدْ مرضَتْ قلوبُهُمْ ، وأعضلَ داؤُهُمْ ، وقرُبَ هلاكُهُمْ وشقاؤُهُمْ ، وسَهُلَ عليهِ دواؤُهُمْ .

فانبعثَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ عزمٌ جازمٌ في الاشتغالِ بنصحِهِمْ ، وحرَّضَهُ الشيطانُ علىٰ ذٰلكَ ؛ رجاءَ أنْ يجدَ مجالاً للفتنةِ .

فلمَّا اشتغلَ بذٰلكَ . . وجدَ الشيطانُ مجالاً للفتنةِ ، فدعاهُ إلى الرئاسةِ دعاءً خفيّاً أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ لا يشعرُ بهِ المريدُ ، فلمْ يزلْ ذٰلكَ الدبيبُ في قلبِهِ حتَّىٰ دعاهُ إلى التصنُّعِ والتزيُّنِ للخلقِ ، بتحسينِ الألفاظِ والنغماتِ والحركاتِ ، والتصنُّعِ في الزِّيِّ والهيئةِ .

فأقبلَ الناسُ إليهِ يعظمونَهُ ويبجلونَهُ ويوقرونَهُ توقيراً يزيدُ علىٰ توقيرِ الملوكِ ؛ إذْ رأوهُ شافياً لأدوائِهِمْ بمحضِ الشفقةِ والرحمةِ مِنْ غيرِ طمعٍ ، فصارَ أحبَّ إليهِمْ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ وأقاربِهِمْ ، فآثروهُ بأبدانِهِمْ وأموالِهِمْ ، وصاروا لهُ خَوَلاً كالخدمِ والعبيدِ ، فخدموهُ وقدَّموهُ في المحافلِ ، وحكَّموهُ على الملوكِ والسلاطينِ .

فعندَ ذٰلكَ انتشرَ الطبعُ ، وارتاحتِ النفسُ ، وذاقَتْ لذَّةً يا لها مِنْ لذَّةٍ !! وأصابَتْ مِنَ الدنيا شهوةً يُستحقرُ معَها كلُّ شهوةٍ ، فكانَ قدْ تركَ الدنيا فوقعَ في أعظَمِ لذاتِها ، فعندَ ذٰلكَ وجدَ الشيطانُ فرصةً ، وامتدَّتْ إلىٰ قلبِهِ يدُهُ ، فهوَ يَستعملُهُ في كلِّ ما يحفظُ عليهِ تلكَ اللذةَ .

وأمارةُ انتشارِ الطبعِ وركونِ النفسِ إلى الشيطانِ أنَّهُ لوْ أخطأَ فرُدَّ عليهِ بينَ يدَيِ الخلقِ . . غضبَ ، فإذا أنكرَ علىٰ نفسِهِ ما وجدَهُ مِنَ الغضبِ . . بادرَ الشيطانُ فخيَّلَ إليهِ أنَّ ذٰلكَ غضبٌ للهِ ؛ لأنَّهُ إذا لمْ يحسُنِ اعتقادُ المريدينَ فيهِ . . انقطعوا عنْ طريقِ اللهِ ، فوقعَ في الغرورِ .

فربَّما أخرجَهُ ذٰلكَ إلى الوقيعةِ فيمَنْ ردَّ عليهِ ، فوقعَ في الغيبةِ المحظورةِ بعدَ تركِهِ الحلالَ المتسعَ ، ووقعَ في الكبرِ الذي هوَ تمرُّدٌ عنْ قبولِ الحقِّ والشكرِ عليهِ بعدَ أنْ كانَ يحذرُ مِنْ طوارقِ الخطراتِ .

وكذٰلكَ إذا سبقَهُ الضحكُ ، أوْ فَتَرَ عنْ بعضِ الأورادِ . . جزعَتْ نفسُهُ أن يطلعوا عليهِ فيسقطَ قبولُهُ فأتبعَ ذٰلكَ بالاستغفارِ وتنفُّسِ الصعداءِ .

وربَّما زادَ في الأعمالِ والأورادِ لأجلِهِمْ ، والشيطانُ يخيِّلُ إليهِ : إنَّكَ إنَّما تفعلُ ذٰلكَ كي لا يفترَ رأيُهُمْ عنْ طريقِ اللهِ ، فيتركونَ الطريقَ بتركِهِ .

---

(١) أوحىٰ ـ هنا ـ : أسرع .

وإنَّما ذٰلكَ خدعةٌ وغرورٌ ، بلْ هوَ جزعٌ مِنَ النفسِ خيفةَ فوتِ الرئاسةِ ، ولذٰلكَ لا تجزعُ نفسُهُ مِنَ اطلاعِ الناسِ علىٰ مثلِ ذٰلكَ مِنْ أقرانِهِ .

بلْ ربَّما يحبُّ ذٰلكَ ويستبشرُ بهِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ مالتِ القلوبُ إلىٰ قبولِهِ وزادَ أثرُ كلامِهِ في القبولِ علىٰ كلامِهِ . . شقَّ ذٰلكَ عليهِ ، ولولا أنَّ النفسَ قدِ استبشرَتْ واستلذَّتِ الرئاسةَ . . لكانَ يغتنمُ ذٰلكَ .

إذْ مثالُهُ أنْ يرى الرجلُ جماعةً مِنْ إخوانِهِ قدْ وقعوا في بئرٍ وتغطَّىٰ رأسُ البئرِ بحجرٍ كبيرٍ ، فعجزوا عنِ الرُّقيِّ مِنَ البئرِ بسببِهِ ، فرقَّ قلبُهُ لإخوانِهِ ، فجاءَ ليرفعَ الحجرَ عنْ رأسِ البئرِ ، فشقَّ عليهِ ، فجاءَ مَنْ أعانَهُ علىٰ ذٰلكَ حتَّىٰ تيسَّرَ عليهِ ، أوْ كفاهُ ذٰلكَ ونحَّاهُ بنفسِهِ ، فيعظُمُ بذٰلكَ فرحُهُ لا محالةَ ؛ إذْ غرضُهُ خلاصُ إخوانِهِ مِنَ البئرِ .

فإنْ كانَ غرَضُ الناصحِ خلاصَ إخوانِهِ المسلمينَ مِنَ النارِ ، فإذا ظهرَ مَنْ أعانَهُ أوْ كفاهُ ذٰلكَ . . لمْ يثقلْ عليهِ ، أرأيتَ لوِ اهتدَوا جميعُهُم بأنفسِهِمْ أكانَ ينبغي أنْ يثقلَ ذٰلكَ عليهِ إنْ كانَ غرضُهُ هدايتَهُمْ ؟ فإذا اهتدَوا بغيرِهِ . . فلِمَ يثقلُ عليهِ ؟

ومهما وجدَ ذٰلكَ في نفسِهِ . . دعاهُ الشيطانُ إلىٰ جميعِ كبائرِ القلوبِ ، وفواحشِ الجوارحِ ، وأهلكَهُ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ زيغِ القلوبِ بعدَ الهدىٰ ، ومِنِ اعوجاجِ النفسِ بعدَ الاستواءِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فمتىٰ يصحُّ لهُ أنْ يشتغلَ بنصحِ الناسِ ؟

فأقولُ : إذا لمْ يكنْ لهُ قصدٌ سوىٰ هدايتِهِمْ للهِ تعالىٰ ، وكانَ يودُّ لوْ وجدَ مَنْ يعينُهُ أوْ لوِ اهتدَوا بأنفسِهِمْ ، وانقطعَ بالكليَّةِ طمعُهُ عنْ ثنائِهِمْ وعنْ أموالِهِمْ ، فاستوىٰ عندَهُ حمدُهُمْ وذمُّهُمْ ، فلمْ يبالِ بذمِّهِمْ إذا كانَ اللهُ يحمدُهُ ، ولمْ يفرحْ بحمدِهِمْ إذا لمْ يقترنْ بهِ حمدُ اللهِ تعالىٰ ، ونظرَ إليهِمْ كما ينظرُ إلى الساداتِ وإلى البهائمِ .

أمَّا إلى الساداتِ . . فمِنْ حيثُ إنَّهُ لا يتكبَّرُ عليهِمْ ، ويرىٰ كلَّهُمْ خيراً منهُ ؛ لجهلِهِ بالخاتمةِ .

وأمَّا إلى البهائمِ . . فمِنْ حيثُ انقطاعُ طمعِهِ عنْ طلبِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ؛ فإنَّهُ لا يبالي كيفَ تراهُ البهائمُ ؛ فلا يتزيَّنُ لها ولا يتصنَّعُ ، بلْ راعي الماشيةِ إنَّما غرضُهُ رعايةُ الماشيةِ ودفعُ الذئبِ عنها دونَ نظرِ الماشيةِ إليهِ ، فما لمْ يرَ سائرَ الناسِ كالماشيةِ التي لا يُلتفَتُ إلىٰ نظرِها ولا يُبالىٰ بها . . لا يسلمُ مِنَ الاشتغالِ بإصلاحِهِمْ ؟

نعمْ ؛ ربَّما يصلحُهُمْ ولٰكنْ يفسدُ نفسَهُ بإصلاحِهِمْ ، فيكونُ كالشمعِ الذي يضيءُ لغيرِهِ ويحترقُ في نفسِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلوْ تركَ الوعَّاظُ الوعظَ إلا عندَ نيلِ هٰذهِ الدرجةِ . . لخلتِ الدنيا عنِ الوعظِ وخربَتِ القلوبُ !!

فأقولُ : قدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ »[1]

ولوْ لمْ يحبَّ الناسُ الدنيا . . لهلكَ العالَمُ ، وبطلَتِ المعايشُ ، وهلكَتِ القلوبُ والأبدانُ جميعاً ، إلا أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علمَ أنَّ حبَّ الدنيا مهلكٌ ، وأنَّ ذكرَ كونِهِ مهلكاً لا ينزعُ الحبَّ مِنْ قلوبِ الأكثرينَ ، لا الأقلينَ الذينَ لا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) عن الحسن مرسلاً .

تخربُ الدنيا بتركِهِمْ ، فلم يتركِ النصحَ ، وذكرَ ما في حبِّ الدنيا مِنَ الخطرِ ، ولمْ يَتركْ ذكرَهُ خوفاً مِنْ أن تُتركَ ؛ ثقةً بالشهواتِ المهلكةِ التي سلَّطَها اللهُ علىٰ عبادِهِ ليسوقَهُمْ بها إلىٰ جهنَّمَ ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

فكذٰلكَ لا تزالُ ألسنةُ الوعَّاظِ مطلقةً لحبِّ الرئاسةِ ، ولا يدَعونَها بقولِ مَنْ يقولُ : إنَّ الوعظَ لحبِّ الرئاسةِ حرامٌ ؛ كما لمْ يدعِ الخلقُ الشربَ والزنا والسرقةَ والربا والظلمَ وسائرَ المعاصي بقولِ اللهِ تعالىٰ ورسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ ذٰلكَ حرامٌ .

فانظرْ لنفسِكَ ، وكنْ فارغَ القلبِ مِنْ حديثِ الناسِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يصلحُ خلقاً كثيراً بإفسادِ شخصٍ واحدٍ وأشخاصٍ .

ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُمْ ببعضٍ . . لفسدتِ الأرضُ .

وإنَّ اللهَ يؤيِّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ .

فإنَّما يُخشىٰ أنْ ينسدَّ طريقُ الاتِّعاظِ ، فأمَّا أنْ تخرسَ ألسنةُ الوعَّاظِ ووراءَهُمْ باعثُ الرئاسةِ وحبُّ الدنيا . . فلا يكونُ ذٰلكَ أبداً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فإنْ علمَ المريدُ هٰذهِ المكيدةَ مِنَ الشيطانِ ، فاشتغلَ بنفسِهِ وتركَ النصحَ ، أوْ نصحَ وراعىٰ شرطَ الصدقِ والإخلاصِ فيهِ . . فما الذي يُخافُ عليهِ ؟ وما الذي بقيَ بينَ يديهِ مِنَ الأخطارِ وحبائلِ الاغترارِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ بقيَ عليهِ أعظمُهُ ، وهوَ أنَّ الشيطانَ يقولُ لهُ : قدْ أعجزتَني ، وأفلَتَّ منِّي بذكائِكَ وكمالِ عقلِكَ ، وقدْ قدرتُ علىٰ جملةٍ مِنَ الأولياءِ والكبراءِ ، وما قدرتُ عليكَ ، فما أصبرَكَ !! وما أعظمَ عندَ اللهِ قدرَكَ ومحلَّكَ !! إذْ قوَّاكَ علىٰ قهري ، ومكَّنَكَ مِنَ التفطُّنِ لجميعِ مداخلِ غروري .

فيصغي إليهِ ويصدِّقُهُ ، ويعجبُ بنفسِهِ في فرارِهِ مِنَ الغرورِ كلِّهِ ، فيكونُ إعجابُهُ بنفسِهِ غايةَ الغرورِ ، وهوَ المهلكُ الأكبرُ .

فالعجْبُ أعظمُ مِنَ كلِّ ذنبٍ ، ولذٰلكَ قالَ الشيطانُ : (يا بنَ آدمَ ؛ إذا ظننتَ أنَّكَ بعلمِكَ تخلَّصتَ منِّي . . فبجهلِكَ قدْ وقعتَ في حبائلي)(١)

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلوْ لمْ يعجبْ بنفسِهِ إذْ علمَ أنَّ ذٰلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ لا منهُ ، وأنَّ مثلَهُ لا يقوىٰ علىٰ دفعِ الشيطانِ إلا بتوفيقِ اللهِ ومعونتِهِ ، ومَنْ عرفَ ضعفَ نفسِهِ وعجزَهُ عنْ أقلِّ القليلِ : فإذا قدرَ علىٰ مثلِ هٰذا الأمرِ العظيمِ . . علمَ أنَّهُ لمْ يقوَ عليهِ بنفسِهِ ، بلْ باللهِ تعالىٰ ، فما الذي يُخافُ عليهِ بعدَ نفيِ العجبِ ؟

فأقولُ : يُخافُ عليهِ الغرورُ بفضلِ اللهِ ، والثقةِ بكرمِهِ ، والأمنِ مِنْ مكرِهِ ، حتَّىٰ يظنَّ أنَّهُ يبقىٰ علىٰ هٰذهِ الوتيرةِ في المستقبلِ ، ولا يخافُ مِنَ الفترةِ والانقلابِ فيكونُ حالُهُ الاتِّكالَ علىٰ فضلِ اللهِ فقطْ ، دونَ أنْ يقارنَهُ الخوفُ مِنْ مكرِهِ ، ومَنْ أمِنَ مكرَ اللهِ . . فهوَ خاسرٌ جداً .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣١٧) عن أبي عبد الله الساجي .

بلْ سبيلُهُ أنْ يكونَ مشاهداً لجملةِ ذٰلكَ أنَّهُ مِنْ فضلِ اللهِ ، ثمَّ خائفاً علىٰ نفسِهِ أنْ يكونَ قدْ شذَّتْ عنهُ صفةٌ مِنْ صفاتِ قلبِهِ ؛ مِنْ حبِّ دنيا ، ورياءٍ ، وسوءِ خُلُقٍ ، والتفاتٍ إلىٰ عزٍّ وهو غافلٌ عنهُ .

ويكونُ خائفاً أنْ يسلب حالَهُ في كلِّ طرفةِ عينٍ ، غيرَ آمنٍ مِنْ مكرِ اللهِ ، ولا غافلٍ عنْ خطرِ الخاتمةِ ، وهٰذا خطرٌ لا محيصَ عنهُ وخوفٌ لا نجاةَ منهُ إلا بعدَ مجاوزةِ الصراطِ .

ولذٰلكَ لمَّا ظهرَ الشيطانُ لبعضِ الأولياءِ في وقتِ النزعِ وكانَ قدْ بقيَ لهُ نفسٌ ، فقالَ لهُ : أفلتَّ منِّي يا فلانُ ، فقالَ : لا ، بعدُ .

ولذٰلكَ قيلَ : (الناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصونَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ)(١)

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ المغرورُ هالكٌ ، والمخلصُ الفارُّ مِنَ الغرورِ علىٰ خطرٍ ؛ فلذٰلكَ لا يفارقُ الخوفُ والحذرُ قلوبَ أولياءِ اللهِ أبداً ، فنسأَلُ اللهَ سبحانَهُ وتعالى العونَ والتوفيقَ وحسنَ الخاتمةِ ؛ فإنَّ الأمورَ بخواتيمِها ، والسلامُ .

❁ ❁ ❁

تمّ كتاب ذمّ الغـرور

وهو آخر ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وحسن توفيقه

والصّلاة على خير خلقه محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليمًا

يتلوه ربع المنجيات

وهو الرّبع الرّابع من كتاب إحياء علوم الدّين

---

(١) قوت القلوب (١/١٥٨) ، واقتضاء العلم العمل (٢٢) بنحوه .

محتوى الكتاب

ربع المهلكات